
صفوة التفاسير



الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

رقم الإيداع

٨٣٣٧ / ٢٠١٣

الترقيم الدولي

978 - 977 - 6354 - 22 - 7

ISBN 978-977-6354-22-7

9 789776 354227 >

الدار العالمية للنشر والتجليد

جاكرتا - أندونيسيا

هاتف: 081310218626 - 087889324793

085218824802 - 087880176606

email: darul_aalamiyyah@yahoo.com

abdallaelnady@gmail.com



صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم، جامع بين المأثور والمعقول
مستمدة من أوثق الكتب التفسيرية
بأسلوب ميسر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

نسخة محققة ومخرجة الأحاديث

تأليف
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

المجلد الثالث

الدار العالمية


بسم الله الرحمن الرحيم



مكية وآياتها ثلاث وثمانون

بين يدي السورة

* سورة يس مكية وقد تناولت مواضيع أساسية ثلاثة وهي: «الإيمان بالبعث والنشور، وقصة أهل القرية، والأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين».

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن العظيم على صحة الوحي، وصدق رسالة محمد ﷺ ثم تحدثت عن كفار قريش، الذين تمادوا في الغي والضلال، وكذبوا سيد الرسل محمد بن عبد الله، فحق عليهم عذاب الله وانتقامه.

* ثم ساقت قصة أهل «إنطاكية» الذين كذبوا الرسل، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة، على طريقة القرآن في استخدام القصص للعظة والاعتبار.

* وذكرت موقف الداعية المؤمن «حبيب النجار» الذي نصح قومه فقتلوه فأدخله الله الجنة، ولم يمهل المجرمين بل أخذهم بصيحة الهلاك والدمار.

* وتحدثت السورة عن دلائل القدرة والوحدانية، في هذا الكون العجيب، بدءًا من مشهد الأرض الجرداء تدب فيها الحياة، ثم مشهد الليل ينسلخ عنه النهار، فإذا هو ظلام دامسٌ، ثم مشهد الشمس الساطعة تدور بقدرة الله في فلكٍ لا تتخطاه، ثم مشهد القمر يتدرج في منازله، ثم مشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين وكلها دلائل باهرة على قدرة الله جل وعلا.

* وتحدثت عن القيامة وأهوالها، وعن نفخة البعث والنشور، التي يقوم الناس فيها من القبور، وعن أهل الجنة وأهل النار، والتفريق بين المؤمنين والمجرمين في ذلك اليوم الرهيب، حتى يستقر السعداء في روضات النعيم، والأشقياء في دركات الجحيم.

* وختمت السورة بالحديث عن الموضوع الأساسي، وهو موضوع «البعث والجزاء» وأقامت الأدلة والبراهين على حدوثه.

* **التسمية**: سميت السورة «سورة يس» لأن الله تعالى افتتح السورة الكريمة بها، وفي الافتتاح بها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم.

* **فضلها**: قال ﷺ: «إن لكل شئ قلبًا وقلب القرآن يس، وددت أنها في قلب كل إنسانٍ مِنْ أُمتِي»[1].

---

(١) أخرجه البزار. (ش): ضعيف، رواه الترمذي، والبزار.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ

اللغة: ﴿أَغْلَٰلًا﴾ جمع غُلّ وهو القيد الذي يوضع في اليد، وقد تشدُّ به اليد مع العنق ﴿مُّقْمَحُونَ﴾ رافعوا الرءوس مع غض البصر، قال أهل اللغة: الإقماح: رفع الرأس وغض البصر يقال: أقمح البعير إذا رفع رأسه عند الحوض وامتنع من الشرب[1]، قال بشر يصف سفينة:

وَنَحْنُ عَلَى جَوَانِبِهَا قُعُودٌ ... نَغُضُّ الطَّرْفَ كَالإِبِلِ القِمَاحِ[2]

﴿سَدًّا﴾ السّد: الحاجز والمانع بين الشيئين ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ عززه قوّاه وشدَّ من أزره ﴿تَطَيَّرْنَا﴾ تشاءمنا، والتطير التشاؤم، وأصله من الطير إذا طار الى جهة اليسار تشاءموا به ﴿خَٰمِدُونَ﴾ ميتون

(١) انظر «القاموس المحيط» مادة قمح.

(٢) «تفسير الطبري» ١٥/ ٨.

لا حراك بهم كما تخمد النار.

التفسير: ﴿يسٓ﴾ الحروف المقطعة في أوائل بعض السور الكريمة للتنبيه على إعجاز القرآن، وأنه مصوغ من جنس هذه الحروف الهجائية التي يعرفونها ويتكلمون بها، ولكنَّ نظمه البديع المعجز آيةٌ على كونه من عند الله[١] وقال ابن عباس: معنى «يس» يا إنسان في لغة طيِّئ، وقيل: هو اسم من أسماء النبي ﷺ بدليل قوله بعده ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وقيل معناه: يا سيد البشر قاله أبو بكر الوراق[٢] ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ قسم من الله تعالى بالقرآن، والحكيم معناه المحكم، الذي لا يلحقه تغيير ولا تبديل، ولا يعتريه تناقض أو بطلان قال القرطبي: أُحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل[٣] وقال أبو السعود: أي المتضمن للحكمة أو الناطق بالحكمة من حيث نظْمه المعجز، المنطوي على بدائع الحكم[٤].. والخلاصة فقد أقسم تعالى بهذا الكتاب المحكم، المعجز نظمه، وبديع معانيه، المتقن في تشريعه وأحكامه، الذي بلغ أعلى طبقات البلاغة، على أن محمدًا رسوله، وفي هذا القسم من التعظيم والتفخيم لشأن الرسول ما فيه ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ جواب القسم إنك يا محمد لمن المرسلين من رب العالمين لهداية الخلق قال ابن عباس: قالت كفار قريش: لست يا محمد مرسلًا، وما أرسلك الله إلينا، فأقسم الله بالقرآن العظيم المحكم أن محمدًا ﷺ من المرسلين[٥] ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي على طريق ونهج مستقيم، لا انحراف فيه ولا اعوجاج، وهو الإسلام دين الرسل قبلك، الذين جاءوا بالإيمان والتوحيد قال الطبري: أي على طريق لا اعوجاج فيه من الهدى وهو الإسلام كما قال قتادة[٦]، والتنكير للتفخيم والتعظيم[٧] ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي هذا القرآن الهادي المنير، تنزيلٌ من ربّ العزة جلّ وعلا، والعزيز في ملكه، الرحيم بخلقه ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي لتنذر يا محمد بهذا القرآن العرب، الذين ما جاءهم رسولٌ ولا كتاب، لتطاول زمن الفترة عليهم، والمراد بالإنذار تخويفهم من عذاب الله ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي فهم بسبب ذلك غافلون عن الهدى والإيمان، يتخبطون في ظلمات الشرك وعبادة الأوثان.. ثم بيَّن تعالى استحقاقهم للعذاب بإصرارهم على الكفر والتكذيب فقال ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ اللام مُوطِّئةٌ

---

(١) انظر تفصيل البحث حول الحروف المقطعة في أوائل البقرة من هذا التفسير.

(٢) القرطبي ١٥/ ٥.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٥.

(٤) ««تفسير أبي السعود»» ٤/ ٢٤٧.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٥ وقد نقله القرطبي عن القشيري.

(٦) «تفسير الطبري» ٢٢/ ٩٧.

(٧) «الانتصاف على الكشاف» ٤/ ٢.

للقَسَم[١] أي والله لقد وجب عذاب النار على أكثر هؤلاء المشركين، بسبب إصرارهم على الكفر والإنكار، وعدم تأثرهم بالتذكير والإنذار، فهم لذلك لا يؤمنون بما جئْتَهُم به يا محمد. ثم بيَّن تعالى سبب تركهم الإيمان فقال ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ تمثيلٌ وتصوير لحال المشركين في ضلالهم بحال الذي جعل في يده غلٌّ وجمعت يده إلى عنقه، فبقي رافعًا رأسه لا يخفضه قال في «الجلالين»: وهذا تمثيل ولمراد أنهم لا يُذعنون للإيمان،ولا يخفضون رؤوسهم[٢] له قال ابن كثير: ومعنى الآية: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء، كمن جُعل في عُنقه غلٌّ، وجمعت يداه مع عنقه تحت ذقنه[٣]، فارتفع رأسه فصار مُقمحًا، والمُقمح هو الرافع رأسه، واكتفى بذكر الغُلِّ في العنق عن ذكر اليدين، لأن الغُلَّ إنما يُعرف فيما جمع اليدين مع العنق[٤] وقال أبو السعود: مثل حالهم بحال الذين غُلَّت أعناقهم ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ أي فالأغلال منتهية إلى أذقانهم، فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يُطأطئون رؤوسهم، غاضون أبصارهم، بحيث لا يكادون يرون الحقَّ، أو ينظرون إلى جهته[٥] ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال أبو السعود: وهذا تتمةٌ للتمثيل وتكميلٌ له أي وجعلنا من أمامهم سدًّا عظيمًا، ومن ورائهم سدًا كذلك ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي فغطينا بهما أبصارهم فهم بسبب ذلك لا يبصرون شيئًا أصلًا، لأنهم أصبحوا محصورين بين سدين هائلين، وهذا بيان لكمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين في مطمورة الغيِّ والجهالات[٦]، محرومين من النظر في الأدلة والآيات[٧]، قال المفسرون: وهذا كله تمثيل لسدِّ طرق الإيمان عليهم، بمد سُدَّت عليه الطرق فهو لا يهتدي لمقصوده[٨] ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ أي يستوي عندهم إنذارك يا محمد وتخويفك لهم وعدمه، لأن من خيَّم على عقله ظلام الضلال، وعَشْعَشَتْ[٩] في قلبه شهوات الطغيان، لا تنفعه القوارع والزواجر[١٠] ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فهم بسبب ذلك لا يؤمنون، لأنَّ الإنذار

---

(١) (ش): مُوطِّئَةٌ للقَسَم: أي مُمَهِّدةٌ له؛ لأنها التي تُهَيِّئ الذهن لمعْرفَته.

(٢) «تفسير الجلالين» ٣/ ٣١٨.

(٣) الذَقَنُ: مفرد الأذْقان قال الطبري: والذَّقَنُ مَجْمَعُ اللَّحْيَيْنِ. (ش): اللَحْيُ: منبتُ اللِّحية من الإنسان وغيره، وهما: لَحْيَان.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٥٥.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٤٨.

(٦) (ش): المَطْمُورة: حُفرة تحت الأرض تُخبَأ فيها الحبوب ونحوها.

(٧) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٤٩.

(٨) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٣١٩.

(٩) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، والصواب أن يقال: «عشَّشَت». يقال: عشَّش الطَّائرُ: اتَّخذ بيتًا من قشٍّ وغيره ليضع فيه بيضَه. وتعشَّش الطَّائرُ في المكان: استقرَّ فيه. والعَشْعَش، والعُشْعُش: العُشُّ المُتَراكِبُ بعضُهُ في بعضٍ.

(١٠) (ش): قارِعَة: مصيبة. زجَر الشَّخصَ: انتهره وردعه. زاجِر: مانِع، مُعاقِب، رادع. المؤنث: زاجرة، جمع المؤنث: زواجرُ.

لا يَخْلُق القلوب الميتة، إنما يُوقِظ القلب الحيَّ المستعد لتَلَقِّي الإيمان، وهذا تسلية له ﷺ وكَشْفٌ لحقيقةِ ما انْطَوَتْ عليه قلوبُهم من الطغيان ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي إنما ينفع إنذارك يا محمد مَن آمن بالقرآن وعمل بما فيه ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي وخاف الله دون أن يراه قال أبو حيان: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ أي المتصف بالرحمة، والرحمةُ تدعو إلى الرجاء، لكنه مع علمه برحمته يخشاه جلّ وعلا، خوفًا من أن يسلبه ما أنعم به عليه ومعنى «بالغيب» أي بالخلوة عن مغيب الإنسان عن عيون البشر [١] ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ لما انتفع بالإنذار كان جديرًا بالبشارة، أي: فبشره يا محمد بمغفرة عظيمة من الله لذنوبه، وأجر كريم في الآخرة في جنات النعيم قال ابن كثير: الأجر الكريم هو الكثير الواسع، الحسن الجميل وذلك إنما يكون في الجنة[٢].

ولما ذكر تعالى أمر الرسالة ذكر بعدها أمر البعث والنشور فقال ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي نبعهم من قبورهم بعد موتهم للحساب والجزاء ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ قال الطبري: أي ونكتب ما قدَّموا في الدنيا من خير وشر، ومن صالح الأعمال وسيئها ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ أي وآثار خطاهم بأرجلهم إلى المساجد[٣]، وفي الحديث **عَنْ جَابِرٍ قَالَ: أَرَادَ بَنُو سَلِمَةَ أَنْ يَتَحَوَّلُوا إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ. - وَالْبِقَاعُ خَالِيَةٌ - فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «يَا بَنِي سَلِمَةَ دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ». فَقَالُوا: مَا كَانَ يَسُرُّنَا أَنَّا كُنَّا تَحَوَّلْنَا.** [٤] ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي وكل شيء من الأشياء أوامر من الأمور جمعناه وضبطناه في كتاب مسطور هو صحائف الأعمال كقوله تعالى ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] أي: بكتاب أعمالهم، الشاهد عليهم بما عملوه من خيرٍ أو شرٍ، وقال مجاهد وقتادة: هو اللوح المحفوظ[٥] وقال أبو حيان: «نكتب ما قدَّموا» أي ونُحصِي، فعبَّر عن إحاطة علمه جل وعلا بأعمالهم بالكتابة التي تُضبَط بها الأشياء[٦] ..

(١) «تفسير البحر المحيط» ٧/ ٣٢٥.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٥٦.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٢/ ٩٩. (ش): وقيل: ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ وهي آثار الخير وآثار الشر، التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فكل خير عمل به أحد من الناس، بسبب علم العبد وتعليمه ونُصحِه، أو أمْرِه بالمعروف، أو نَهْيه عن المنكر، أو عِلمٍ أَوْدعه عند المتعلمين، أو في كتب ينتفع بها في حياته وبعد موته، أو عمل خيرًا، من صلاة أو زكاة أو صدقة أو إحسان، فاقتدى به غيره، أو عمل مسجدًا، وما أشبه ذلك، فإنها من آثاره التي تكتب له، وكذلك عمل الشر.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه. (ش): (دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ): مَعْنَاهُ الْزَمُوا دِيَارَكُمْ فَإِنَّكُمْ إِذَا لَزِمْتُمُوهَا كُتِبَتْ آثَارُكُمْ وَخُطَاكُمُ الْكَثِيرَةُ إِلَى الْمَسْجِدِ. وَبَنُو سَلِمَةَ -بِكَسْرِ اللَّامِ- قَبِيلَةٌ مَعْرُوفَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ. (فَقَالُوا: مَا كَانَ يَسُرُّنَا أَنَّا كُنَّا تَحَوَّلْنَا): لأن القرب من المسجد يفوّت عليهم نقص الآثار بقلة الخُطَا لقُرب المكان.

(٥) الأرجح ما ذكرناه أنه صحائف الأعمال وهو اختيار ابن كثير.

(٦) «البحر المحيط» ٧/ ٣٢٥.

ثم ذكر تعالى للمشركين قصة أهل القرية الذين كذبوا الرسل فأهلكهم الله بصيحةٍ من السماء فقال ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك الذين كذبوك قصة أصحاب القرية «أنطاكية» التي هي في الغرابة كالمثل السائر والقول العجيب ﴿إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ أي حين جاءهم رسلنا الذين أرسلناهم لهدايتهم قال القرطبي: وهذه القرية هي «إنطاكية» في قول جميع المفسرين أرسل الله إليهم ثلاثة رسل وهم «صادق» و «مصدوق» و «شمعون» أُمر ﷺ بإنذار هؤلاء المشركين أن يحل بهم ما حلَّ بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل من الله، وقيل: هم رسل عيسى[١] ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي حين بعثنا إليهم رسولين فبادروهما بالتكذيب ﴿فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾ أي قوَّيناهما وشددنا أزرهما برسولٍ ثالث ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ أين نحن رسل الله مُرسَلون لهدايتكم ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ أي ليس لكم فضلٌ علينا وما أنتم إلا بشر مثلنا، فكيف أوحى الله إليكم دوننا؟ ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ أي لم ينزل الله شيئًا من الوحي والرسالة ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ أي ما أنتم إلا قوم تكذبون في دعوى الرسالة ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ أي أجابهم الرسل بقولهم: الله يعلم أننا رسله إليكم، ولو كنا كَذَبَة لَانتقَمَ منا أشدَّ الانتقام قال ابن جزي: أكدوا الخبر هنا باللام ﴿لَمُرۡسَلُونَ﴾ لأنه جواب المنكرين، بخلاف الموضع الأول فإنه إخبارٌ مجرد[٢] ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي وليس علينا إلا أن نبلغكم رسالة الله بلاغًا واضحًا جليًّا لا غموض فيه، فإن آمنتم فلكم السعادة، وإن كذبتم فلكم الشقاوة قال أبو حيان: وفي هذا وعيدٌ لهم، ووصف البلاغ بـ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾ لأنه الواضح بالآيات الشاهدة بصحة الإرسال، **كَمَا رُوِيَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ الرُّسُلِ مِنْ إِبْرَاءِ الْأَكْمَهِ وَالْأَبْرَصِ وَإِحْيَاءِ الْمَيِّتِ**[٣] ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ﴾ أي قال لهم أهل القرية: إنَّا تشاءَمْنا بكم وبدعوتكم القبيحة لنا إلى الإيمان، وترك عبادة الأوثان قال المفسرون: ووجه تشاءمهم بالرسل أنهم دعوهم إلى دينٍ غير ما يدينون به، فاستغربوه واستقبحوه ونفرت منه عنه طبيعتهم المعوجة، فتشاءموا بمن دعا إليه كأنهم قالوا: أعاذنا الله مما تدعوننا إليه[٤]، ثم توعَّدُوا الرسل بقولهم ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ﴾ أي والله لئن لم تمتنعوا عن قولكم، ودعوتكم لنا إلى التوحيد، ورفض ديننا ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ١٤ وما ذكره من أنهم رسل عيسى قول مرجوح، لأن قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ إنما يقال لمن ادعى أن الله أرسله كذا في التسهيل.

(٢) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٦١. (ش): الموضع الأول إخبار فقط بِغَيْرِ لَامِ التوكيد ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾.

(٣) «تفسير البحر المحيط» ٧/ ٣٢٧. (ش): هكذا ذكره صاحب «البحر المحيط»بدون إسناد. أكْمَهُ: أعمى بالولادة. (أبْرَص) أصاب جسَدَه مرضُ البَرَص، ظهر في جسده بياضٌ لعِلَّة.

(٤) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ١٢٥.

﴿أَلِيمٌ﴾ أي لنرجمنَّكم بالحجارة حتى تموتوا، ولنقتلنَّكم شرَّ قِتلة ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ أي قالت الرسل لهم: ليس شؤمكم بسببنا، وإنما شؤمكم بسببكم، وبكفركم، وعصيانكم، وسوء أعمالكم ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُم﴾؟ شرطٌ جوابه محذوف لدلالة السياق عليه أي أئن ذكرناكم ووعظناكم ودعوناكم إلى توحيد الله، تشاءمتم بنا وتوعدتمونا بالرجم والتعذيب؟ ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ أي ليس الأمر كما زعمتم بل أنتم قومٌ عادتكم الإِسرافُ في العصيان والإِجرام، وهو توبيخٌ لهم مع الزجر والتقريع ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ أي وجاء من أبعد أطراف المدينة رجل يعدو، يسرع في مشيه وهو «حبيب النجار» قال ابن كثير: إن أهل القرية همَّوا بقتل رسلهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى لينصرهم من قومه، وهو حبيب النجار كان يعمل الحرير وهو الحباك[1]، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه[2] وقال القرطبي: كان حبيب مجذومًا ومنزله عند أقصى أبواب المدينة، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم لعلهم يرحمونه ويكشفون ضُرَّه، فما استجابوا له، فلما أبصر الرسل ودعوه إلى الله قال: هل من آية؟ قالوا: نعم نحن ندعو ربنا القادر فيفرج عنك ما بك! فقال إن هذا لعجيبٌ، إني إدعو هذه الآلهة سبعين سنة لتفرج عني فلم تستطع فكيف يفرجه ربكم في غداة واحدة؟ قالوا نعم ربنا على ما يشاء قدير، وهذه لا تنفع شيئًا ولا تضر، فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به، فلمَّا هَمَّ قومُه بقتل الرسل جاءهم مسرعًا وقال ما قصه القرآن[3] ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أي اتبعوا الرسل الكرام الداعين إلى توحيد الله، وإنما قال ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ تأليفًا لقلوبهم واستمالة لها لقبول النصيحة، ثم كرر القول تأكيدًا وبيانًا للسبب فقال ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي اتبعوا هؤلاء الرسل الصادقين المخلصين، الذين لا يسألونكم أُجرة على الإِيمان، وهم على هدى وبصيرة فيما يدعونكم إليه من توحيد الله ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ تلطف في الإرشاد لهم كأنه ينصح نفسه، ويختار لهم ما يختار لنفسه، ونفيه نوع تقريع على ترك عبادة خالقهم. والمعنى أيُّ شيء يمنعني من أن أعبد خالقي الذي أبدع خلقي؟ وإليه مرجعكم بعد الموت فيجازي كلاًّ بعمله؟ ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ استفهام إنكاري أي كيف أتخذ من دون الله آلهة لا تسمع ولا تنفع ولا تغني عن عابدها شيئًا؟ ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ أي هي في المهانة والحقارة بحيث لو أراد الله أن يُنزل بي شيئًا من الضر والأذى وشفعت لي

---

(١) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، ولم أجده هكذا في أيٍّ من التفاسير إلا في «مختصر تفسير ابن كثير» للمؤلف، ولعله خطأ طباعي، فقد جاء في تفسير ابن كثير (الأصل) (٦/ ٥٧٠): «وَكَانَ يَعْمَلُ الْجَرِيرَ وَهُوَ الْحِبَالُ». اهـ. وجاء في «لسان العرب» (٤/ ١٢٧): الجَرِيرُ الحَبْلُ، وجَمْعُه أَجِرَّةٌ.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٥٩، والقول بأن اسم الرجل: «حبيب النجار» مروي عن ابن عباس.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ١٨، وهذه رواية وهب، ذكرها القرطبي.

لم تنفع شفاعتهم ولم يقدروا على إنقاذي، فكيف وهي أحجار لا تسمع ولا تنفع ولا تشفع؟ ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ أي ولا يقدرون على إنقاذي من عذاب الله ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي إني إن عبدت غير الله واتخذت الأصنام آلهة لفي خسران ظاهر جلي. وبعد النصح والتذكير أعلن إسلامه، وأشهر إيمانه فقال ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ أي إني آمنت بربكم الذي خلقكم، فاسمعوا قولي واعملوا بنصيحتي قال المفسرون: لما قال لهم ذلك ونصحهم وأعلن إيمانه[١]، وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه أذاهم قال الطبري: وثبوا عليه فوطئوه بأقدامهم حتّى مات[٢]، وقيل: رموه بالحجارة حتى مات ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي فلما مات قال الله له: ادخل الجنة مع الشهداء الأبرار، جزاءً على صدق إيمانك وفوزك بالشهادة قال ابن مسعود: إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرجت أمعاؤه من دبره، وقال الله له ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ فدخلها فهو يُرزق فيها، قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحُزنها ونَصَبها[٣] ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أي فلما دخل الجنة وعاين ما أكرمه الله بها لإيمانه وصبره تمنى أن يعلم قومه بحاله، ليعلموا حسن مآله أي يا ليتهم يعلمون بالسبب الذي من أجله غفر لي ربي ذنوبي، وأكرمني بدخول جنات النعيم قال ابن عباس: نصح قومه في حياته، ونصحهم بعد مماته[٤] قال أبو السعود: وإنما تمنَّى عِلم قومه بحاله ليحملهم ذلك عى اكتساب الثواب والأجر، بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان، جريًا على سنن الأولياء في الترحم على الأعداء[٥] ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هذا تحقيرٌ لهم وتصغيرٌ لشأنهم ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ أي ما كانت عقوبتهم إلا صيحةً واحدة صاح بها جبريل، فإذا هم ميتون لا حراك بهم، قد أخمدت أنفاسهم حتَّى صاروا كالنار الخامدة قال المفسرون: وفي الآية استحقار لإهلاكهم فإنهم أذل وأهون على الله من أن يرسل الملائكة لإهلاكهم، وقد روي أنه لما قُتل «حبيب النجار» غضب الله تعالى له، فعجَّل لهم النقمة فأمر جبريل فصاح بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم، فجعل طريق استئصالهم بالصيحة، ثم قال تعالى ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي

---

(١) انظر «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٥٩.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٢/ ١٠٤.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٦٠.

(٤) هذا قول ابن عباس وقال الكشاف: وفي حديث مرفوع: «نصح قومه حيًّا وميتًا» أقول: والمشهور أنه من كلام ابن عباس. (ش): المرفوع (أي المنسوب للنبي ﷺ) رَوَاهُ ابْن مِرْدَوَيْه بإسناد ضعيف. وكلام ابن عباس نقله ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٥٧٢) عن «ابْن أَبِي حَاتِم»: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَصَحَ قَوْمَهُ فِي حَيَاتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، وَبَعْدَ مَمَاتِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٥٢. (ش): أما الاستغفار للمشركين فلا يجوز.

يا أسفًا على هؤلاء المكذبين لرسل الله المنكرين لآياته ويا حسرةً عليهم، ما جاءهم رسولٌ إلا كذبوه واستهزءوا به، وهكذا عادة المجرمين في كل زمان ومكان قال في حاشية البيضاوي: إنهم أحِقَّاء[1] بأن يتَحَسَّروا على أنفسهم أو يُتَحَسَّر عليهم، فإن الأمر لفخامته وشدته، بلغ إلى حيث إن كل من يتأتى منه التلهف إذا نظر إلى حال استهزائهم بالرسل تحسَّر عليهم، وقال: يا لها من حسرةٍ وخيبة على هؤلاء المحرومين، حيث بدَّلوا بالإيمان بالكفر، والسعادة بالشقاوة [2]، وفي الآية تعريضٌ بكفار قريش حيث كذبوا سيد المرسلين.

ولمّا مثل حال كفار مكة بحال أصحاب القرية وبَّخ المشركين على عدم اعتبارهم بمن سبقهم فقال ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي ألم يتعظ هؤلاء المشركين بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، ويعلموا أن هؤلاء المهلكين لا عودة لهم إلى الدنيا بعد هلاكهم؟ [3] ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أي وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب والجزاء يوم القيامة بين يدي أحكم الحاكمين، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها؟ قال أبو حيان: وجاءت هذه الجملة بعد ذكر الإهلاك بينًا إلى أن الله تعالى لا يترك المهلكين بل بعد الهلاك جمعٌ وحساب، وثواب وعقاب [4].

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – التأكيد بأكثر من مُؤَكِّد لأن المخاطَب منكِرٌ مثل ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ فقد أُكِّد كل منها بـ «إنَّ» و «اللام» ويسمى هذا الضَّرْب إنكاريًّا[5].

٢ – الاستعارة التمثيلية ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا .. ﴾ الآية شبَّه حال الكفار في امتناعهم من الهدى والإيمان بمن غُلَّتْ يَدُه إلى عنقه بالسلاسل والأغلال فأصبح رأسه مرفوعًا لا يستطيع خفاضًا له ولا التفاتًا، وبمن سُدَّت الطرقُ في وجهه فلم يهتد لمقصوده، وذلك بطريق الاستعارة التمثيلية.

٣ – الطباق ﴿ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ... وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾.

٤ – طباق السلب ﴿ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾.

٥ – الجناس الناقص ﴿ نَحْنُ نُحْيِي ﴾ لتغيير بعض الحروف.

٦ – الإطناب بتكرار الفعل ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾.

---

(١) (ش): حقيقٌ: جديرٌ، حريٌّ، خليقٌ.

(٢) «حاشية ذاده على البيضاوي» ٣/ ١٢٨.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٦١.

(٤) «البحر المحيط» ٧/ ٣٣٥.

(٥) (ش): الضَّرْب: النوع.

٧ - الاستفهام للتوبيخ ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾؟

٨ - الحذف لدلالة السياق عليه ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي فلما أشهر إيمانه قتلوه فقيل له: ادخل الجنة.

٩ - جناس الاشتقاق بين ﴿تَطَيَّرْنَا ... طَٰٓئِرُكُم﴾ وبين ﴿أَرْسَلْنَآ ... ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

١٠ - مراعاة الفواصل وهو من خصائص القرآن لما فيه من روعة البيان، وحسن الوقع على السمع، وهو كثير.

تنبيه: من محاسن التنزيل الكريم وبلاغته الخارقة، هو الإيجاز في القصص والأنباء، والإشارة إلى روحها وسرّها، لأن القصد من القصص التذكير والاعتبار، ولهذا لم يذكر في القصة اسم البلدة، ولا اسم الشخص الذي دعاهم إلى الله، ولا اسم الرسل الكرام، لأن كل ذلك ليس هو الهدف من القصة، وقس على هذا سائر قصص القرآن.

قال الله تعالى:

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى قصة أهل القرية، وإهلاك الله لهم بالصيحة بسبب تكذيبهم المرسلين، ذكر هنا الأدلة والبراهين على القدرة والوحدانية، في إخراج الزروع والثمار،

وتعاقب الليل والنهار، وفي الشمس والقمر يجريان بقدرة الواحد القهار، ثم ذكر شبهات المشركين حول البعث وردَّ عليها بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

اللغَة: ﴿ وَءَايَةٌ ﴾ علامة لأنها دالة على وجود الله قال أبو العتاهية:

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ؟
وَلِلّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ ... وَتَسْكِينَةٍ أَبَدًا شَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ الأصناف والأنواع ﴿نَسْلَخُ﴾ السَّلْخ: الكَشْط والنَّزْع قال تعالى ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] ويقال سَلَخ الجزارُ جلدَةَ الشاةِ أي نزع الجلد عن اللحم ﴿كَٱلْعُرْجُونِ﴾ من الانعراج وهو الانعطاف، والعرجون: عود عِذْق النخلة الذي فيه عناقيد الرطب قال الجوهري: هو أصل العِذْق الذي يَعْوَجُّ وتُقتطَع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابسًا[١]

﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوء الموقر بالأشياء الثقيلة ﴿صَرِيخَ﴾ مغيث ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ يختصمون في أمورهم غافلين عما حولهم ﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾ جمع جَدَث وهو القبر ﴿يَنسِلُونَ﴾ يُسرعون في الخروج، يقال: عَسَل الذئبُ ونَسَل أي أسرع في المشي[٢].

التفسِير: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ أي ومن الآيات الباهرة، والعلامات الظاهرة الدالة على كمال قدرة الله ووحدانيته هذه الآية العظيمة، وهي الأرض اليابسة الهامدة التي لا نبات فيها ولا زرع، أحييناها بالمطر قال المفسرون: موتُ الأرض جدبها، وإحياؤها بالغيث، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج[٣] ولهذا قال تعالى بعده ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي وأخرجنا بهذا الماء أنواع الحبوب ليتغذوا به ويعيشوا قال القرطبي: نبَّههم تعالى بهذا على إحياء الموتى، وذكَّرهم على توحيده وكمال قدرته، بالأرض الميتة أحياها بالنبات، وإخراج الحب منها، فمن الحبِّ يأكلون وبه يتغذون[٤] ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ ﴾ أي وجعلنا في الأرض بساتين ناضرة فيها من أنواع النخيل والعنب ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ أي وجعلنا فيها ينابيع من الماء العذب، والأنهار السارحة في بلدان كثيرة ﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي ليأكلوا من ثمرات ما ذُكر من الجنات والنخيل التي أنشأها لهم، ومما عملته أيديهم مما غرسوه وزرعوه بأنفسهم قال

---

(١) انظر «القرطبي» ١٥/ ٣١، و«القاموس المحيط» و«الصحاح». (ش): عِذْق: سُبَاطة، غُصن نخلة بما عليه من الرُّطَب.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٤٠.

(٣) (ش): أي فإذا أنزل الله عليها الماء تحركت بالنبات تتفتح عنه، وارتفعت وزادت لارتوائها، وأنبتت من كل نوع من أنواع النبات الحسن الذي يَسُرُّ الناظرين.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٥.

ابـن كثير: لما امتنَّ على خلقه بإيجاد الزروع لهم، عطف بذكر الثمار وأنواعها وأصنافها، وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم، لا بسَعْيِهم وكَدِّهم، ولا بحَوْلهم وقوتهم ولهذا قال ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟ أي أفـلا يشكرونه على ما أنعم بـه عليهم؟ واختار ابن جريـر أنَّ «ما» بمعنى الذي أي ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم أي من الذي غرسـوه ونصبوه [١] ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي، تنـزَّه وتقـدَّس الله العلـي الجليـل الـذي خلـق الأصنـاف كلها، والمختلفة الألوان والطعوم والأشكال من جميع الأشياء ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ممَّا تُخرج الأرضُ من النخيل والأشجار، والزروع والثمار، ومن أنفسهم من الذكور والإناث، ومما لا يعلمون من المخلوقات العجيبة والأشياء [٢] الغريبة كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ أي وعلامـةً أخـرى لهم علـى كمال قدرتنا الليلُ نزيل عنـه الضوء ونفصله عن النهار فإذا هم داخلون في الظلام، وفي الآية رمزٌ إلى أن الأصل هو الظلام والنور عارض، فإذا غربت الشمس ينسلخ النهار من الليل ويكشف ويزول فيظهر الأصل وهو الظلمة ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أي وآيـة أخـرى لهم الشـمس تسـير بقدرة الله في فَلَـك لا تتجاوزه ولا تتخطاه لزمنٍ تسـتقر فيه، ولوقت تنتهي إليه وهو يـوم القيامة حيث ينقطع جريانها عند خراب العالـم قال ابن كثيـر: وفي قوله تعالى ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قولان: أحدهما: أن المراد مستقرها المـكاني وهو تحـت العرش مما يلي الأرض لحديـث البخاري أن النبي ﷺ قـال: «**يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِى أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّـمْسُ؟**». **قُلْتُ اللهُ وَرَسُـولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ** «**فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْـجُدَ تَحْتَ الْعَـرْشِ**» الحديث[٣]. والثاني: أن المراد بمسـتقرها هو منتهى سـيرها وهو يوم القيامة، حيث يبطل سيرها، وتسكن حركتها، وتُكوَّر وينتهي هذا العالم إلى غايته، وقرىء (لا مُستَقرَّ لها) [٤] أي لا قرار لها ولا سـكون، بل هي سـائرة ليلًا ونهارًا، لا تَفْتُرُ ولا تَقِفُ [٥] ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٦٢.

(٢) سبحان الله ما أعظم قدرة الله لقد كان السائد أن الزوجية إنما تكون بين الإنسان والحيوان فقط، وجاء القرآن بالمعجزة الباهرة المثبتة لما اكتشفه العلم الحديث منذ قريب وهي أن الزوجية بين الإنسان والحيوان والنبات والذرة وسائر الكائنات، فقد ثبت أن الذرة –وهي أصغر أجزاء المادة– مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربائي «سالب وموجب» يتزاوجان ويتحدان، وأن بين النبات أعضاء مذكرة وأعضاء مؤنثة، فيبحان العلي القدير القائل ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(٣) (ش): عَنْ أَبِى ذَرٍّ – رضى الله عنه – قَالَ كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِى الْمَسْجِدِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَقَالَ «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتَدْرِى أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ». قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾».

(٤) (ش): وهي قراءة شاذة.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٦٢. (ش): لا تَفْتُرُ: لا تَضْعُف.

﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ أي ذلك الجرْي والدوران بانتظام وبحساب دقيق هو تقدير الإله العزيز في ملكه، العليم بخلقه ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ أي والقمرَ قدرنا مسيره في منازل يسير فيها لمعرفة الشهور، وهي ثمانية وعشرون منزلًا في ثمانٍ وعشرين ليلة، ينزل كل ليلةٍ في واحد منها لا يتخطاها ولا يتعادها، فإذا كان في آخر ليلة دقَّ واستَقْوَس[١] ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ أي حتى صار كغصن النخل اليابس، وهو عنقود التمر حين يجف ويَصْفَرّ ويتقوَّس قال ابن كثير: جعل الله القمر لمعرفة الشهور، كما جعل الشمس لمعرفة الليل والنهار، وفاوت بين سير الشمس وسير القمر، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب آخره، وتنتقل في مطالعها ومغاربها صيفًا وشتاء، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وهي كوكب نهاري، وأما القمر فقدَّره منازل يطلع في أول ليلةٍ من الشهر ضئيلًا قليل النور، ثم يزداد نورًا في الليلة الثانية ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياؤه حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم قال مجاهد: أي العذق اليابس وهو عنقود الرطب إذا عتق ويبس وانحنى، ثم يبدأ جديدًا في أول الشهر الآخر[٢] ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ أي لا يمكن للشمس ولا يصح لها أن تجتمع مع القمر بالليل فتمحو نوره، لأن ذلك يُخلُّ بتلوين النبات، ومصلحة العباد قال الطبري: أي لا الشمس يصلح لها إدراك القمر، فيُذهب ضوءها نوره فتكون الأوقات كلها نهارًا لا ليل فيها ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أي ولا الليل يسبق النهار حتى يدركه فيذهب بضيائه فتكون الأوقات كلها ليلًا[٣] ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ أي وكل من الشمس والقمر والنجوم تدور في فلك السماء قال الحسن: الشمس والقمر والنجوم في فَلَك بين السماء والأرض، وغير ملصقة بشيء ولو كانت ملصقة ما جرت[٤] والغرضُ من الآية: بيانُ قدرة الله في تسيير هذا الكون بنظام دقيق، فالشمس لها مدار، والقمر له مدار، وكل كوكب من الكواكب له مدار لا يتجاوزه في جريانه أو دورانه، ولا يطغى أحدهما على الآخر كما قال قتادة: «لكل حدٌّ وعلمٌ لا يعدوه، ولا يقصر دونه» حتى يأتي الأجل المعلوم بخراب العالم، فيجمع الله بين الشمس والقمر كما قال تعالى ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩] فيختل نظام الكون، وتقوم القيامة، وتنتهي حياة البشرية عن سطح هذا الكوكب الأرضي[٥] ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ أي وعلامة

---

(١) (ش): دقَّ الشَّيءُ: صَغُرَ، صار دقيقًا، خلاف غَلُظ، أي كبُر حجمُه. استقوس الشَّيْءُ: تَقَوَّس: صار منحنيًا كالقَوْس.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٦٣.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٦.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٣.

(٥) (ش): تسمية الأرض كوكبًا إطلاقٌ غريب عن نصوص الوحيين الشريفين، فالكواكب في السماء، والأرض في السُّفْل، ولم يطلق على الكواكب اسم: الأرض، ومن لازم هذا الإطلاق أن تكون الأرض زينة للسماء الدنيا، =

أخـرى واضحة للناس على كمـال قدرتنا أننا حملنا آباءهم الأقدمين وهم ذرية آدم في سـفينة نوح عليه السلام التي أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين قال في التسهيل: وإنما خصَّ ذريتهـم بالذكـر، لأنه أبلـغ في الامتنـان عليهم، ولأن فيه إشـارة إلـى حمل أعقابهـم إلى يوم القيامة[(١)] ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ أي وخلقنا لهم من مثل سـفينة نوح السـفن العظيمة التي يركبونها ويبلغون عليها أقصى البلدان، وإنما نسب الخلق إليه لأنها بتعليم الله جل وعلا للإنسـان وقال ابن عباس: هي الإبل وسـائر المركوبات، فهي في البر مثل السـفن في البحر[(٢)] ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ ولو أردنا لأغرقناهم في البحر فلا مغيث لهم ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أي ولا أحد يستطيع أن ينقذهم من الغرق ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي لا ينقذهم أحد إلا نحن لأجل رحمتنا إياهم، وتمتيعنا لهم إلى انقضاء آجالهم.. بيَّن تعالى أن ركوبهم السـفن في البحر من الآيات العظيمة، فإن سـير السفينة بما فيها من الرجال والأثقال فوق سطح الماء آية باهـرة فقد حملتهـم قدرة الله ونواميسـه التي تحكم الكـون وتصرفه بحكم خواص السـفن، وخواص الماء، وخواص الريح، وكلُّها من أمر الله وخلقه وتقديره، والسفينة في البحر الخضم كالريشـة في مهبِّ الهواء، وإلاَّ تدركها رحمة الله فهـي هالكة في لحظة من ليل أو نهار، والذين ركبـوا البحار، وشـاهدوا الأخطار، يدركون هول البحر المخيف، ويحسـون معنى رحمة الله وأنهـا وحدها هـي المنجي لهم من بيـن العواصف والتيـارات، في هذا الخضـم الهائل الذي تمسـكه يد الرحمـة ويعرفون معنى قوله تعالـى ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ فسـبحان الله القدير الرحيم! ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لمـا ذكَّرهـم تعالـى بدلائـل قدرتـه، وآثـار رحمتـه، أخبرنا هنا عن تعاميهـم عن الحق، واعراضهم عن الهـدى والإيمان، مع كثرة الآيات الواضحات، والشـواهد الباهرات. والمعنى: وإذا قيل للمشـركين احذروا سـخط الله وغضبه، واعتَبِرُوا بما حلَّ بالأمم السابقين قبلكم من العذاب بسبب تكذيبهم الرسل، واحذروا مـا وراءكـم من عـذاب الآخـرة لكي تُرحمـوا، وجواب الشـرط محـذوف تقديـره أعرضوا واسـتكبروا ودلّ عليه قوله تعالـى ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ قال القرطبـي: والجواب محذوب والتقديـر: إذا قيل لهم ذلـك أعرضوا، ودليله الآية التي بعدهـا ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ فاكتفى بهذا عـن ذلـك[(٣)] ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي وما تأتي هؤلاء

= وجعلها رجومًا للشياطين، وهذا باطل. انظر: «معجم المناهي اللفظية» للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد (ص: ١١٨)].

(ش): السَّفين: السُّفُن: جمع سَفِينة. الخِضَمّ: البحر الواسع.

(١) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٦٤.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٥، وهناك قول آخر عن ابن عباس أن المراد بقوله: (من مثله) السفن أي خلق لهم سفنًا أمثال سفينة نوح يركبونها وهو الأظهر لقوله بعده: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٦.

المشركين علامة من العلامات الواضحة الدالة على صدق الرسول كالمعجزات الباهرة التي أيده الله بها إلا أعرضوا عنها على وجه التكذيب والاستهزاء قال أبو السعود: وإضافة الآيات إلى اسم الرب جل وعلا لتفخيم شأنها، المستتبع لتهويل ما اجترءوا عليه في حقها، والمراد بالآيات إما الآيات التنزيلية التي من جملتها الآيات الناطقة ببدائع صنع الله وسوابغ آلائه، أو الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات، التي من جملتها ما ذُكر من شئونه الشاهدة بوحدانيته تعالى، وتفرده بالألوهية[1] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء الكفار بطريق النصيحة أنفقوا بعض ما أعطاكم الله من فضله على الفقراء والمساكين ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ أي قال الكفار للمؤمنين تهكمًا بهم: أننفق أموالنا على هؤلاء المساكين الذين أفقرهم الله؟ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي ما أنتم أيها المؤمنون إلا في ضلال ظاهر واضح حيث تأمروننا أن ننفق أموالنا على من أفقرهم الله قال ابن عباس: كان بمكة زنادقة فإذا أُمروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله لا نفعل، أيفقره الله ونطعمه نحن[2] وغرضهم الرد على المؤمنين فكأنهم يقولون: لو كان الأمر كما تزعمون أن الله قادر، وأن الله رازق لأَطعَمَ هؤلاء الفقراء، فما بالكم تطلبون إطعامهم منا؟ وما علم هؤلاء السفهاء أن خزائن الأرزاق بيد الخلاق، وأنه تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعض الخلق ابتلاءً، لينظر كيف عطف الغني، وكيف صبر الفقير، فقد منع الدنيا عن الفقير لا بخلًا، وأمر الغنيَّ بالإنفاق عليه لا حاجة إلى ماله، ولكن للإبتلاء والله يفعل ما يشاء، لا اعتراض لأحدٍ في مشيئته ولا في حكمه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ثم أخبر عن إنكار المشركين للآخرة، واستبعادهم لقيام الساعة فقال ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي متى يوم القيامة الذي تتوعدوننا به؟ ومتى هذا العذاب الذي تخوفوننا به إن كنتم صادقين في دعواكم أن هناك بعثًا ونشورًا وحسابًا وعذابًا؟ قال تعالى ردًّا عليهم ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ﴾ أي ما ينتظرون إلا صيحةً واحدة تأخذهم مفاجأة من حيث لا يشعرون ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي وهم يتخاصمون في معاملاتهم وأسواقهم، فلا يشعرون إلا بالصيحة قد أخذتهم، فيموتون في أماكنهم قال ابن كثير: وهذه - والله أعلم - نفخة الفزع، ينفخ إسرافيل في الصور والناسُ في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم، فبينما هم كذلك إذْ أمر الله إسرافيل فنفخ في الصور نفخةً يطوّلها ويمدُّها، فلا يبقى أحدٌ على وجه الأرض إلا حنى عنقه يتسمع الصوت من قبل السماء[3] فذلك قوله

---

(١) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٥٥.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٧، قال القرطبي: وإنما أخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٦٥، وهذا الذي قاله ابن كثير هو اختيار الطبري وهو أن المراد بها نفخة الفزع، وقال القرطبي: هى نفخة الصعق التي يموت بها جميع الأحياء.

تعالى ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي فلا يستطيع بعضهم أن يوصي بعضًا بأمر من الأمور، ولا يستطيعون أن يرجعوا إلى أهلهم ومنازلهم لأن الأمر أسرع منه ذلك وفي الحديث: «**لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلاَنِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلاَ يَتَبَايَعَانِهِ وَلاَ يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ** - أي يصلحه بالطين - **فَلاَ يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلاَ يَطْعَمُهَا**»[(١)] ثم تكون هناك نفخة ثانية وهي «نفخة الصَّعق» التي يموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحيّ القيوم[(٢)]، ثم تكون النفخة الثالثة وهي «نفخة البعث والنشور» التي يخرج الناسُ بها من القبور، وهي التي أشارت إليها الآية الكريمة ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ أي ونفخ في الصور فإذا هؤلاء الأموات يخرجون من قبورهم يسرعون المشي قال الطبري: ﴿يَنسِلُونَ ﴾ يخرجون سراعًا، والنَّسَلان: الإسراع في المشي[(٣)] ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾؟ أي يقولون يا هلاكنا من الذي أخرجنا من قبورنا التي كنا فيها؟ قال ابن كثير: وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد، فإذا قالوا ذلك أجابتهم الملائكة أو المؤمنون[(٤)] ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أي هذا الذي وعدكم الله به من البعث بعد الموت والحساب والجزاء، وصدق رسله الكرام فيما أخبرونا به عن الله ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أي ما كان أمر بعثهم إلا صيحةً واحدة يصيح بهم فيها إسرافيل فإذا هم جميع عندنا حاضرون قال الصَّاوي: وهذه الصيحة هي قول إسرافيل: أيتها العظام النخرة، والأوصال المتقطعة، والأجزاء المتفرقة، والشعور المتمزقة، إنَّ الله يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء ثم ينفخ في الصور فإذا هم مجموعون في موقف الحساب[(٥)] ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي ففي هذا اليوم يوم القيامة لا تُظلم نفس شيئًا، سواءً كانت هذه النفس برَّة أو فاجرة، ولا يُحَمَّل الإنسان وزر غيره وإنما يُجازى كل بعمله قال أبو السعود: هذه حكاية لما سيقال لهم في الآخرة، حين يرون العذاب المُعدَّ لهم تحقيقًا للحق، وتقريعًا لهم[(٦)].

ولما أخبر عن مآل المجرمين أخبر عن حال الأبرار المتقين فقال ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) (ش): هذا يخالف قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ فهناك من استثناهم الله سبحانه، فثبَّتهم عند النفخة، فلم يُصعَقوا، قيل: هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. وقيل: هم الشهداء أو بعضهم.

(٣) «الطبري» ٢٣/ ١١.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٦٦.

(٥) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٣٢٨.

(٦) «أبو السعود» ٤/ ٢٥٧.

شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴾ أي إن أصحاب الجنة في ذلك اليوم يوم الجزاء مشغولون بما هم فيه من اللذات والنعيم عن التفكير بأهل النار، يتفكهون ويتلذذون بالحور العين، وبالأكل والشرب والسماع للأوتار قال أبو حيان: والظاهر أن الشغل هو النعيم الذي قد شغلهم عن كل ما يخطر بالبال وقال ابن عباس: شُغلوا بافتضاض الأبكار، وسماع الأوتار عن أهاليهم من أهل النار، لا يذكرونهم لئلا يتنغصوا [(١)]، ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴾ أي هم وزوجاتهم في ظلال الجنان الوارفة، حيث لا شمس فيها ولا زمهرير، متكئون على السُّرُر المزيَّنة بالثياب والستور ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ ﴾ أي لهم في الجنة، فاكهة كثيرة من كل أنواع الفواكه ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ أي ولهم فيها ما يتمنون ويشتهون كقوله تعالى ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف: ٧١] ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ أي لهم سلام كريم من ربهم الرحيم، وفي الحديث «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور، فرفعوا رءوسهم فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله تعالى ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ قال: فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم» [(٢)].

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التنكير والتفخيم والتعظيم ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ أي آية عظيمة باهرة على قدرة الله.

٢ - الطباق بين الموت والإحياء ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ وبين الليل والنهار.

٣ - الاستعارة التصريحية ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ شبَّه إزالة ضوء النهار وانكشاف ظلمة الليل بسلخ الجلد عن الشاة، واستعار اسم السلخ للإزالة والإخراج، واشتق منه نسلخ بمعنى نخرج منه النهار بطريق الاستعارة التصريحية، وهذا من بليغ الاستعارة، وبين الليل والنهار طباق.

٤ - التشبيه المرسل المجمل ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ وجه الشبه مركب من ثلاثة أشياء: الرقة، والانحناء، والصفرة، ولمَّا لم يُذْكَر سُمي مُجملًا [(٣)].

٥ - تقديم المسند إليه لتقوية الحكم المنفي ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾ فإنه أبلغ من أن يقول (لا ينبغي للشمس أن تدرك القمر) وأكد في إفادة أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد بها فإنَّ قولك «أنت لا تكذب» بتقديم المسند إليه أبلغ من قولك «لا تكذب» فإنه أشدُّ

---

(١) «البحر المحيط» ٧/ ٣٤٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم قال ابن كثير: وفي إسناده نظر كذا في «المختصر» لابن كثير ٣/ ١٦٧، ورواه ابن ماجه في سننه. (ش): وضعفه الألباني.

(٣) (ش): أي ولمَّا لم يُذْكَر وجه الشبه سُمي تشبيهًا مُجملاً.

لنفي الكذب من العبارة الثانية فتدبر أسرار القرآن [١].

٦ - تنزيل غير العاقل منزلة العاقل ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾ بدل (يَسْبح)، فقد عبر عن الشمس والقمر والكواكب بضمير جمع المذكر، والذي سوَّغ ذلك وصْفُهم بالسباحة لأنها من صفات العقلاء [٢].

٧ - الاستعارة اللطيفة ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ المرقد هنا عبارة عن الممات، فشبهوا حال موتهم بحال نومهم لأنها أشبه الأشياء بها وأبلغ من قوله: من بعثنا من مماتنا.

٨ - الإيجاز بالحذف ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ أي تقول لهم الملائكة: هذا ما وعدكم به الرحمن.

٩ - الطباق ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ والاستفهام الذي يراد منه التهكم ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾.

١٠ - السجع غير المتكلف في ختام الآيات الكريمة مثل ﴿وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ﴾ ﴿وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ﴾ ﴿وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ ومثل ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ و﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ وهو من المحسنات البديعية [٣].

قال الله تعالى:

وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ

---

(١) انظر «حاشية الشيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ١٣٢.

(٢) انظر «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٣٢٦.

(٣) ذكرنا بعض الامثلة البلاغية على سبيل المثال لا الحصر، حتى يتذوق الإنسان بعض روائع القرآن، وإلا فكلام الله معجز وفيه من الروائع البيانية ما يعجز وصفه اللسان، فسبحان منزل القرآن.

خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى حال السعداء الأبرار وما لهم في الجنة من النعيم المقيم، أعقبه ذكر حال الأشقياء الفجار وما لهم من الخزي والدمار، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب، وختم السورة الكريمة ببيان أدلة البعث بعد الموت، والحساب والجزاء.

اللغَة: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟﴾ تميزوا وانفصلوا، والتميزُ: الفرق بين أمرين ﴿جِبِلًّا﴾ بكسر الجيم خَلْقًا جمع جِبلَّة ومنه ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مشتق من جبل اللهُ الخلق أي خلقهم ﴿لَطَمَسْنَا﴾ الطمسُ: إذهابُ الشيء وأثره جملةً كأنه لم يوجد ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ ادخلوها وذوقوا سعيرها ﴿لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ المسخ: التحْويل من صورة إلى صورة منكرة ﴿نُّعَمِّرْهُ﴾ التعمير: إطالة العمر حتى يبلغ سن الشيخوخة ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ التنكيس: قلب الشيء رأسًا على عقب يقال: نكستُ الشيء نكسًا إذا قبلته على رأسه ومنه ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٦٥] ﴿رَمِيمٌ﴾ الرميم: البالي المفتَّت يقال رمَّ العظم أي بلى فهو رميم.

سَبَبُ النّزول: رُوِيَ أن «أُبَيَّ بن خلَف» من صناديد كفار قريش جاء بعظمٍ بَالٍ إلى النبي ﷺ ففتَّه بيده ثم قال: أتزعم يا محمد أن الله يُحيي هذا بعدما رمَّ؟ فقال له النبي ﷺ نعم يحييه، ثم يبعثك ويدخلك النار فأنزل الله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [(١)].

التفسِير: بعد أن بيَّن تعالى حال السعداء ذكر حال الأشقياء فقال ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي تميزوا وانفصلوا يا معشر الكفرة المجرمين عن عبادي المؤمنين، انفردوا عنهم وكونوا جانبًا قال القرطبي: يقال لهم هذا عند الوقوف للسؤال، وحين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة [(٢)] ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، وهو تبويخٌ للكفرة المجرمين أي: أَلَمْ أوصِكُم وآمُركم يا بني آدم على ألسنة رسلي ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾،

---

(١) انظر «تفسير القرطبي» ١٥/ ٥٨، و«البحر المحيط» ٧/ ٣٤٨. (ش): **ضعيف جدًا**. أخرجه الطبري في «تفسيره».وأخرج ابن أبي حاتم في «تفسيره»، والحاكم في «المستدرك» بإسناد صحيح عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: جَاءَ الْعَاصِ بْنُ وَائِلٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِعَظْمٍ حَائِلٍ فَفَتَّهُ فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ أَيُبْعَثُ اللهُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرَمَّ؟» قَالَ: «نَعَمْ، يَبْعَثُ اللهُ هَذَا. يُمِيتُكَ، ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّمَ» قَالَ: فَنَزَلَتِ الْآيَاتُ ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. (قال الحاكم: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ»، ووافقه الذهبي). (بِعَظْمٍ حَائِلٍ): حالَ الشَّيءُ: تغيّر وتحوّل. فَتَّهُ: دقَّه وكسَره بالأصابع كِسَرًا صغيرة. أَرَمَّ العَظْمُ: بَلِيَ.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٤٦.

أي: ألا تطيعوا الشيطان فيما دعاكم إليه من معصيتي؟ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ تعليلٌ للنهي أي لأنه عدو لكم ظاهر العداوة، فكيف يطيع الإنسان عدوه؟ ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِي﴾ أي وأمرتكم بأن تعبدوني وحدي، بتوحيدي وطاعتي وامتثال أمري ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ أي: هذا هو الدين الصحيح، والطريق الحقُّ المستقيم ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًا﴾ تأكيد للتعليل، أي: ولقد أضلَّ الشيطان خلقًا منكم كثيرين، وأغواهم عن سلوك طريق الحقِّ قال الطبري: أي صدَّ الشيطان منكم خلقًا كثيرًا عن طاعتي حتى عبدوه[(١)] ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ أي: أفما كان لكم عقل يردعكم عن طاعة الشيطان ومخالفة أمر ربكم؟ وهو توبيخ آخر للكفرة الفجار.. ثم بشرهم بما ينتظرهم من العذاب فقال ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ أي هذه نار جهنم التي أوعدكم بها الرسل وكذبتم بها قال الصاوي: هذا خطاب لهم وهم على شفير جهنم، والمقصود منه زيادة التبكيت والتقريع[(٢)] ﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ أي ذوقوا حرارتها وقاسوا أنواع عذابها اليوم بسبب كفركم في الدنيا، وهو أمر إهانةٍ وتحقير مثل قوله ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] ثم أخبر تعالى عن فضيحتهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد فقال ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾[(٣)] أي في هذا اليوم يوم القيامة نختم على أفواه الكفار ختمًا يمنعها عن الكلام ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي تنطق عليهم جوارحهم أيديهم وأرجلهم بأعمالهم القبيحة روى ابن جرير الطبري عن أبي موسى الأشعري أنه قال: «يُدعى الكافر والمنافق يوم القيامة للحساب فيعرض عليه ربه عمله فيجحده ويقول: أي ربِّ وعزتك لقد كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل، فيقول الملك: أما عملت كذا في كذا في مكان كذا فيقول: لا وعزتك أي رب ما عملته، فإذا فعل ذلك خُتم على فيه وتكلمت أعضاؤه ثم تلا ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ وفي الحديث: «يَقُولُ الْعَبْدُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى. قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي. قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا - قَالَ - فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ: انْطِقِي. قَالَ فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ - قَالَ - ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ - قَالَ - فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا. فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»[(٤)]. ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾ أي لو شئنا لأعميانهم فابتدروا طريقهم ذاهبين كعادتهم فكيف يبصرون حينئذٍ؟ قال ابن عباس: المعنى لو نشاء لأعميناهم عن الهدى فلا يهتدون أبدًا إلى طريق الحقِّ[(٥)]،

---

(١) «تفسير الطبري» ٢٣/ ١٦.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٣٢٩.

(٣) «الطبري» ٢٣/ ١٧.

(٤) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٤٩.

وهو تهديد لقريش ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ أي لو نشاء لمسخناهم مسخًا يقعدهم في مكانهم ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي إذا مسخوا في مكانهم لم يقدروا وأن يذهبوا ولا أن يرجعوا، وهو تهديد آخر للكفرة المجرمين، ثم ذكر تعالى دلائل قدرته على مسخ الكفار يتطاول الأعمار فقال ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ﴾ أي ومن نُطِل عمره نُقَلِّبْه في أطوار منتكسًا في الخلق فيصير كالطفل لا يعلم شيئًا قال قتادة: يصير إلى حال الهرم الذي يشبه حال الصبا، فطولُ العمر يصيِّر الشباب هَرَمًا، والقوة ضعفًا، والزيادة نقصًا ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾؟ أي أفلا يعقلون أن من قدر على ذلك قادر على إعمائهم أو مسخهم؟ قال ابن جزي: والقصدُ من ذلك الاستدلالُ على قدرته تعالى على مسخ الكفار، كما قدر على تنكيس الإنسان إذا هرم [1] ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ أي وما علمنا محمدًا الشعر، ولا يصح ولا يليق به أن يكون شاعرًا قال القرطبي: هذا رَدٌّ على الكفار في قولهم: إنه شاعر، وإن ما أتى به من قبيل الشعر، فالرسول ﷺ ليس بشاعر، والقرآن ليس بشعر، لأن الشعر كلام مزخرف موزون، مبني على خيالات وأوهام واهية، حتى قيل: «أعْذَبُه أكْذَبُه»[2]. فأين ذلك

---

(١) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٦٦.

(٢) (ش): هل أعْذَبُ الشعر أكْذَبُه؟ يرى المؤيدون لذلك أن الشعر لا يُبهِر ويُبهِج إلا إذا ترَصَّع بالكذب، وسافر مع الخيال. أما المعارضون فيرون أن هذه المقولة أخطأت الصواب، ولم تُصب الحقيقة ولا قاربت، بل عَدُّوها دعوى فارغة من البَيِّنة، زائغة عن الصواب. وقالوا: إن أحسنَ الشعر أصْدَقُه، وإن فضيلة الشاعر ليست في معرفته بوجوه الإغراق والغلو؛ ومخالفته الحقيقة، وخروجه عن الواجب والمتعارف، فخير الكلام الحقائق، فإن لم يكن فما قاربها وناسبها. أما المُفَصِّلون في المسألة فقالوا إن أحسن الشعر أقْصَدُه، إذ لا تعارض بين الصدق من جهة، والغلوّ والمبالغة من جهة أخرى، فالشعرُ أساسُه التأثير بواسطة التخييلات البيانية من تشبيه واستعارة وكناية ونحو ذلك، ولما كان الخيال صورةٌ من صُور الكذِب قيل: إن أعذب الشعر أكْذَبُه، ولكن ليس ذلك على إطلاقه؛ فإن العمدة في حُسْن الشعر وجودته على صدق الشعور، وجمال التعبير، وكم من أبيات اعتُبرت من عيون الشعر بينما هي لا تعتمد على أي صورة كاذبة، وإنما تتجلى بلاغتها في حُسن إصابتها للمعنى الصحيح، وحُسن صياغتها في تعبير جميل، إلا أن الذي غلب على الشعراء المبالغة في الصور البيانية إلى حد التخييل الكاذب الصريح، وخاصة في مقاصد الوصف والمدح والهجاء، فتسابقوا إلى الإغراب في ذلك، وإلى ابتداع المعاني الموغلة في الاستحالة، زاعمين أنه بذلك يحلو الشعر ويستعذب. ربّما يكون تضخيم الحقّ وتجسيمه في الصورة الأدبيّة عملًا أدبيًّا جميلًا؛ لأنّ التضخيم والتجسيم في مفاهيم لنّاس لونٌ من ألوان البيان والشرح للحقيقة، وبعد الشرح ترجع الحقيقة في تَصَوُّرِ النّاس إلَى حجمها الطبيعي. فيكون الكلَامُ أقرب إلى حيِّز الصحة كما قال أبو عبادة:

أَتَــاكَ الـرَّبِـيعُ الـطَّـلْـقُ يَـخْـتَـالُ ضَـاحِـكًـا ... مِـنَ الْـحُـسْـنِ حَـتَّـى كَـادَ أَنْ يَـتَـكَـلَّـمَـا

فهذا البيت قد تضمن غلوًّا لكن لما جاءت فيه كلمة (كَادَ) قرَّبَتْه إلى الصحة. ولكن الفكرة المشتملة على كذِبٍ سخيفٍ ممجوج قد يستعذِبها الذهن لطرافتها، ولكن يمجّها الذَّوق والحسُّ المرهف العارف بألوان الجمال لسخافتها، ومجافاتها للحقيقة مجافاةً واسعة المسافة، في قول المتنبّي:

كَـفَـى بِـجِـسْـمِـي نُـحُـولًا أَنَّـنِـي رَجُـلٌ ... لَـوْلَا مُـخَـاطَـبَـتِـي إِيَّـاكَ لَـمْ تَـرَنِـي

وفي قول القائل:

=

من القرآن العزيز الذي تنزَّه عن مماثلة كلام البشر!! وقد أكثر الناسُ في ذم الشعر ومدحه، وإنما الإنصاف ما قاله الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «الشعر كلامٌ، والكلام منه حسنٌ، ومنه قبيح»(١). ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ أي ما هـذا الذي يتلوه محمد إلا عظة وتذكيرٌ من الله جل وعلا لعباده، وقرآن واضح ساطع لا يلتبس به الشعر بحالٍ من الأحوال ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ أي لينذر بهذا القرآن من كان حي القلب مستنير البصيرة، وهو المؤمنون لأنهم المنتفعون به ﴿وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي وتجب كلمة العذاب على الكافرين (٢) لأنهم كالأموات لا يعقلون ما يخاطبون به قال البيضاوي: وجعلهم في مقابلة من كان حيًّا إشعارًا بأنهم لكفرهم، وسقوط حجتهم، وعدم تأملهم، أمواتٌ في الحقيقة(٣). ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه، وأعاد ذكر دلائل القدرة والوحدانية ليستدلوا على وجوده جلَّ وعلا من آثاره فقال ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾ الهمزة للإنكار والتعجيب، أي: أولم ينظروا نظر اعتبار، ويتفكروا فيما أبدعته أيدينا من غير واسطة، وبلا شريك ولا معين مما خلقناه لهم ولأجلهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، فيستدلوا بذلك على وحدانيتنا وكمال قدرتنا؟ ﴿فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ أي فهم متصرفون فيها كيف يشاءون تصرف المالك بماله ﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ﴾ قال ابن كثير: المعنى جعلهم يقهرونها وهي ذليلةٌ لهم لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغير إلى بعيرٍ لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه وهو ذليل منقاد معه، وكذا لو كان القطار مائة بعير لسار الجميع بسير الصغير، فسبحان من سخر هذا لعباده! (٤) ﴿فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾ أي فمن هذه الأنعام ما يركبونه في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال كالإبل التي هي سفن البر، ومنها ما يأكلون لحمه كالبقر والغنم ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ﴾ أي ولهم فيها منافع عديدة غير الأكل والركوب كالجلود والأصواف والأوبار، ولهم فيها مشارب أيضًا يشربون من ألبانها ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦] ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ أي أفلا يشكرون ربهم على هذه النعم الجليلة؟ والغرضُ من الآيات تعديدُ النعم وإقامةُ الحجة عليهم.. ثم وَبَّخهم وعَنَّفهم في عبادة

= بَكَتْ لُؤْلُؤًا رَطْبًا فَسَالَتْ مَدَامِعِي   عَقِيقًا فَصَارَ الْكُلُّ فِي جِيدِهَا عُقْدًا

وما دام باستطاعة الإنسان أنْ ينتقي من الحقّ والصدق عناصر جماليّة لأدبه فما أوفر الحقّ والصدق في بيانات الإسلام، أما الدّعاة إلى الله فما عليهم إلاَّ أنْ يغترفوا.

(١) (ش): قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الشِّعْرُ بِمَنْزِلَةِ الْكَلَامِ، حَسَنُهُ كَحَسَنِ الْكَلَامِ، وَقَبِيحُهُ كَقَبِيحِ الْكَلَامِ».(رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ في «الأدب المفرد» وصححه الألباني).

(٢) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٦١.

(٣) تفسير البيضاوي ٢/ ١٣٦.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٧٠. (ش): أَنَاخَ الجمَلَ: أبرَكَهُ. القِطَارُ من الإبل: عددٌ منها بعضُهُ خَلْفَ بعض على نَسَقٍ واحدٍ.

ما لا يسمع ولا ينفع من الأوثان والأصنام، وذلك نهاية الغيّ والضلال فقال ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي وعبد المشركون آلهة من الأحجار رجاء أن يُنصروا بها وهي صماء بكماء، لا تسمع الدعاء ولا تستجيب للنداء ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ أي لا تستطيع هذه الآلهة المزعومة نصرهم بحالٍ من الأحوال، لا بشفاعة ولا بنصرةٍ أو إعانة ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ أي وهؤلاء المشركون كالجند والخدم لأصنامهم في التعصب لهم، والذبِّ عنهم، وفدائهم بالروح والمال، مع أنهم لا ينفعونهم أيَّ نفع قال قتادة: المشركون يغضبون للآلهة في الدنيا، وهي لا تسوق إليه خيرًا ولا تدفع عنهم شرًّا، إنما هي أصنام والمشركون كأنهم خدام [١] وقال القرطبي: المعنى إنهم قد رأوا هذه الآيات من قدرتنا، ثم اتخذوا من دوننا آلهة لا قدرة لها على فعل شيء أصلًا، والكفار يمنعون منهم ويدفعون عنهم، فهم لهم بمنزلة الجند، والأصنام لا تستطيع أن تنصرهم [٢] . ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أي لا تحزن يا محمد على تكذيبهم لك، واتهامهم بأنك شاعرٌ أو ساحر، وهذه تسليةٌ للنبي عليه السلام، وهنا تمَّ الكلام. ثم قال تعالى ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي نحن أعلم بما يخفونه في صدورهم، وما يظهرونه من أقوالهم وأفعالهم، فنجازيهم عليه، وكفى بربك أنه على كل شيء شهيد.. ثم أقام الدليل القاطع، والبرهان الساطع، على البعث والنشور فقال ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ استفهامٌ إنكاريٌ للتوبيخ والتقريع، أي: أولم ينظر هذا الإنسان الكافر نظر اعتبار، ويتفكر في قدرة الله فيعلم أنّا خلقناه من شيءٍ مهينٍ حقير هو النطفة «المني» الخارج من مخرج النجاسة؟ ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ أي فإذا هو شديد الخصومة والجدال بالباطل، يخاصم ربه وينكر قدرته، ويكذب بالبعث والنشور، أفليس الإله الذي قدر على خلق الإنسان من نطفة، بقادر على أن يخلقه مرة أُخرى عند البعث؟ قال المفسرون: نزلت في «أُبي بن خلف» «جاء بعظم رميم، وفتَّته في وجه النبي الكريم وقال ساخرًا: أتزعم يا محمد أنَّ الله يُحيينا بعد أن نصبح رفاتًا مثل هذا؟ فقال ﷺ له: «نعم يبعثك ويدخلك النار» [٣] ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ﴾ أي وضرب لنا هذا الكافر المثل بالعظم الرميم، مستبعدًا على الله إعادة خلق الإنسان بعد موته وفنائه، ونسي أنا أنشأناه من نطفةٍ ميتة وركبنا فيه الحياة، نسي خلْقَه العجيب وبَدْأَه الغريب، وجوابُه من نفسه حاضر ﴿ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ أي وقال هذا الكافر: من يحيي العظام وهي بالية أشدَّ البِلَى، متفتتةٌ متلاشية؟ قال الصاوي: أي أورد كلامًا عجيبًا في

---

(١) وهذا القول هو الذي اختاره الطبري ورجحه انظر «تفسير الطبري» ٢٣/ ٢٠.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٥٦ بشيء من الاختصار.

(٣) قال في البحر: وقيل: إنها نزلت في «العاص بن وائل» والأصح أنها في «أُبَيِّ بْنِ خَلف» وانظر سبب النزول المتقدم في هذا التفسير. (ش): تقدم أن الصحيح أنها نزلت في «العاص بن وائل»، رواه الحاكم في «المستدرك» بإسناد صحيح. أما ما رُوِيَ أنها نزلت في « أَبَيِّ بْنِ خَلف» فضعيف جدًّا. أخرجه الطبري في «تفسيره».

الغرابة هو كالمثل، حيث قاسَ قدرتنا على قدرة الخلق [١] ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾ أي قل يا محمد تخريسًا وتبكيتًا لهذا الكافر وأمثاله: يخلقها ويحييها الذي أوجدها من العدم، وأبدع خلقها أول مرة من غير شيء، فالذي قدر على البداءة، قادر على الإعادة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم كيف يخلق ويُبدع، فلا يصعب عليه بعث الأجساد بعد الفناء ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا﴾ أي الذي جعل لكم بقدرته من الشجر الأخضر نارًا تُحرق الشجر، لا يمتنع عليه فعل ما أراد، ولا يُعجِزه إحياء العظام البالية وإعادتها خلقًا جديدًا [٢] وقال أبو حيان: ذكر تعالى لهم ما هو أغرب من خلق الإنسان من النطفة، وهو إبراز الشيء من ضده، وذلك أبدع شيء وهو اقتداح النار من الشيء الأخضر، ألا ترى الماء يطفيء النار ومع ذلك خرجت مما هو مشتمل على الماء، والأعراب تُوري النار من المَرْخ والعُفار، وفي أمثالِهم «لِكُلِّ شَجَرٍ نَارٌ، وَاسْتَمْجَدَ المَرْخُ والعَفَار» [٣].

ولقد أحسن القائل:

جَمْعُ النَّقِيضَيْنِ مِنْ أَسْرَارِ قُدْرَتِهِ ... هَـذَا السَّحَابُ بِهِ مَاءٌ بِهِ نَارُ

﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾ أي فإذا أنتم تقدحون النار من هذا الشجر الأخضر ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ﴾؟ أي أوليس الذي خلق السموات والأرض مع كبر جرمهما، وعظم شأنهما قادرًا على أن يخلق أجساد بني آدم بعد فنائها؟ ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي بلى هو القادر على ذلك، فهو الخلاَّق المبدع في الخلق والتكوين، العليم بكل شيء ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي لا يصعب عليه جل وعلا شيء، لأن أمره بين الكاف والنون، فمتى أراد تعالى شيئًا وُجِدَ، بدون تعب ولا جهد، ولا كُلْفَة ولا عناء [٤] ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي تنزَّه وتمجد عن صفات النقص الإلهُ العظيم الجليل، الذي بيده المُلك الواسع، والقدرة التامة على كل الأشياء ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي وإليه وحده مرجع الخلائق للحساب والجزاء.. ختم تعالى السورة الكريمة بهذا الختم الرائع، الدال على كمال القدرة، وعظمةِ الملك والسلطان، الذي تفرد به خالق الأكوان.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - طباق السلب ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ ... وَأَنِ ٱعۡبُدُونِي﴾ فالأول سلب، والآخر إيجاب.

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٣٣١.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٢١.

(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٣٤٨. (ش): المَرْخُ والعَفَار هما شجرتان من أسرع الشجر خروجَ نار، والاستِمجَادُ الاستكثار من المجد وهو كثْرةُ الشرف، وقيل: معناه أنهما أخذا الفضل وذهبا بالمجد، يُضربُ هذا المَثَل في تفضيل القوم على بعض إذا كانوا كلهم ذوى خير ولبعضهم مزية وتقدم ليس للآخرين.

(٤) (ش): كُلْفَة: مَشَقَّة.

٢ - الاستفهام الإنكاري للتوبيخ والتقرير ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾؟ ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾؟

٣ - الطباق بين مُضِيًّا .. يَرۡجِعُونَ﴾ ﴿يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٤ - التشبيه البليغ ﴿وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾ أي كالجند في الخدمة والدفاع، حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغًا.

٥ - ذكر العام بعد الخاص ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ﴾ بعد قوله ﴿فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ﴾ الآية وفائدته تفخيم النعمة، وتعظيم المنة.

٦ - المقابلة ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ الآية قابل بين الإنذار والإعذار، وبين المؤمنين والكفار ﴿وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وهو من ألطف التعبير.

٧ - الاستعارة التمثيلية ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾ الأنعام تُخلَق ولا تُعمَل، ولكنه شبَّه اختصاصه بالخلق والتكوين بمن يعمل أمرًا بيديه ويصنعه بنفسه، واستعار لفظ العمل للخلق بطريق الاستعارة التمثيلية (١).

٨ - صيغة المبالغة ﴿خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾.. ﴿ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

٩ - الاستعارة التمثيلية ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ شبه سرعة تأثير قدرته تعالى ونفاذها في الأشياء بأمر المطاع من غير توقف ولا امتناع، فإذا أراد شيئًا وُجِد من غير إبطاءٍ ولا تأخير، وهو من لطائف الاستعارة (٢).

فَائِدَة: الملكوت صيغة مبالغة من المُلك، ومعناه الملك الواقع التام مثل الجبروت والرحموت للمبالغة.

تنبيه: قال العلامة ابن كثير: «ما ثبت عنه ﷺ أنه تمثل يوم الخندق بأبيات ابن رواحة: «**اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا**» (٣). وما ثبت أنه قال يوم حنين وهو راكب على بغلته: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ**» (٤) وقوله: «**هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ**» (٥) إلخ إنما وقع اتفاقًا من غير قصد إلى قول الشعر، بل جرى هذا على لسانه ﷺ عفوًا وكل هذا لدينا في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ (٦) ا. هـ. فتدبَّره فإنه نفيس.

«**تم بعونه تعالى تفسير سورة يس**»

---

(١) انظر «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ١٤٠.

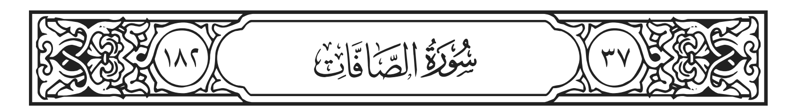
(٢) انظر تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ١/ ١٩٢.

(٣) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٤) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٥) (ش): عَنْ جُنْدُبِ بْنِ سُفْيَانَ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ يَمْشِي إِذْ أَصَابَهُ حَجَرٌ فَعَثَرَ فَدَمِيَتْ إِصْبَعُهُ. فَقَالَ: «هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ» رواه البخاري ومسلم. دمِيَ الجُرحُ: خرجَ منه الدّم.

(٦) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٧٦.



مكية وآياتها ثنتان وثمانون ومائة

بين يدي السورة

سورة الصافات من السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة الإسلامية «التوحيد، الوحي، البعث، الجزاء» شأنها كشأن السور المكية التي تهدف إلى تثبيت دعائم الإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن الملائكة الأبرار، الصافات قوائمها في الصلاة أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله، الزاجرين للسحاب يسوقونه حيث شاء الله.. ثم تحدثت عن الجن وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة، ردًّا على أساطير أهل الجاهلية في اعتقادهم بأن هناك قرابة بين الله سبحانه وبين الجن، وتحدثت السورة عن البعث والجزاء وإنكار المشركين له، واستبعادهم للحياة مرة ثانية بعد أن يصبحوا عظامًا ورفاتًا.

* وتأكيدًا لعقيدة الإيمان بالبعث ذكرت السورة قصة «المؤمن والكافر» والحوار الذي دار بينهما في الدنيا، ثم النتيجة التي آل إليها أمر كل منهما بخلود المؤمن في الجنة، وخلود الكافر في النار.

* واستعرضت السورة الكريمة قصص بعض الأنبياء، بَدْءًا من نوح، ثم إبراهيم، ثم إسماعيل، ثم قصة موسى وهارون، ثم إلياس ولوط، وذكرت بالتفصيل قصة «الإيمان والابتلاء» في حادثة الذبيح إسماعيل، وما جرى من أمر الرؤيا للخليل إبراهيم حين أمر بذبح ولده ثم جاء الفداء، تعليمًا للمؤمنين كيف يكون أمر الانقياد والاستسلام لأمر احكم الحاكمين.

* **التسمية**: سميت السورة «سورة الصافات» تذكيرًا للعباد بالملأ الأعلى من الملائكة الأطهار، الذين لا ينفكون عن عبادة الله ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠] وبيان وظائفهم التي كلفوا بها.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ﴿٨﴾ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ﴿١٠﴾ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴿١١﴾ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ

مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ

اللغَة: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ الزجر: الدفع عن الشيء بقوةٍ أو صياح، والزجرة: الصيحةُ من قولك: زجر الراعي الغنم إذا صاح عليها فرجعت لصوته ﴿مَّارِدٍ﴾ عاتي متمرد ﴿ثَاقِبٌ﴾ محرق شديد النفاذ ﴿وَاصِبٌ﴾ دائم لا ينقطع ﴿لَّازِبٍ﴾ ملتزق بعضه ببعض ﴿مَّعِينٍ﴾ شراب نابع من العيون ﴿غَوْلٌ﴾ الغول: كل ما يغتال العقل ويفسده قال أبو عبيدة: الغَوْل ما يغتال العقل ويُذهِبه وأنشد قول ابن إياس:

وَمَـا زَالَـتِ الْـخَـمْـرُ تَغْـتَـالُـنَـا … وَتَـذْهَـبُ بِـالأَوَّلِ فَـالأَوَّلِ [1]

﴿بِكَأْسٍ﴾ قال أهل اللغة: العرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر: كأس، فإذا لم يكن فيه خمرا قالوا: إناء وقدح قال الشاعر:

وَكَـأْسٍ شَـرِبْـتُ عَـلَـى لَـذَّةٍ … وَأُخْـرَى تَـدَاوَيْـتُ مِـنْـهَـا بِـهَـا [2]

﴿يُنزَفُونَ﴾ يسكرون يقال: نُزِف الرجل فهو نزيف ومنزوف إذا سكَر قال الشاعر:

لَعَمْرِي لَئِنْ أَنْزَفْتُمُ أَوْ صَحَوْتُمُ … لَبِئْسَ النَّدَامَى كُنْتُمُ آلَ أَبْجَرَا [3]

---

(١) «البحر المحيط» ٧/ ٣٥٠.

(٢) «تفسير الفخر الرازي» ٢٦/ ١٣٧.

(٣) «البحر» ٧/ ٣٥٠. (ش): نَديم: مُجالِسٌ على الشّراب وعلى المائدة عامَّةً. نَديم: رفيق وصاحب. وأبجر هو أبجر بن جابر العجلي وكان نصرانيا.

التفسير: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ افتتح تعالى هذه السورة بالقسم ببعض مخلوقاته، إظهارًا لعِظَم شأنها، وكِبَر فوائدها، وتنبيهًا للعباد على جلاله قدرها[١].

والمعنى: أقسم بهذه الطوائف من الملائكة، الصافات قوائمها في الصلاة، أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله قال ابن مسعود: هم الملائكة تصفُّ في السماء في العبادة والذكر صفوفًا، وفي الحديث: «أَلاَ تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ»؟ قلنا: وَكَيْفَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْمُقَدَّمَةَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»[٢]. أقسم تعالى بالملائكة تنبيهًا على جلالة قدرهم، وكثرة عبادتهم، فهم مع عظيم خلقهم ورفعة شأنهم لا ينفكون عن عبادة الله، يصطفون للعبادة كاصطفاف المؤمنين في الصلاة، مع الخشوع والخضوع للعزيز الجبار، الذي دانت له الخلائق، وخضعت لجلال هيبته الرقاب، بما فيهم حَمَلة العرش والملائكة الأطهار ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرًا﴾ أي الملائكة التي تزجر السحاب، يسُوقُونه إلى حيث شاء الله، من الزجر بمعنى السَّوْق والحَثّ ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ وصفٌ ثالث للملائكة الأبرار، إشادةً بذكر محاسنهم ومناقبهم العلوية أي وأقسمُ بالملائكة التالين لآيات الله على أنبيائه وأوليائه، مع التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ هـذا هو المُقسَم عليه، أي: إن إلهكم الذي تعبدونه أيها الناس إله واحدٌ لاشريك له، قال مقاتل: إن الكفار بمكة قالوا: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ وكيف يسع هذا الخلق إله فرد؟ فأقسم الله بهؤلاء تشريفًا[٣]، ثم بَيَّن تعالى معنى وحدانيته وألوهيته فقال ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ أي هو تعالى خالق السموات والأرض ومالكهما وما بينهما من المخلوقات والموجودات، فإن وجودهما وانتظامهما على هذا النمط البديع، من أوضح الدلائل على وجود الله ووحدانيته ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ أي وهو رب مشارق الشمس ومغاربها في الشتاء والصيف قال الطبري: واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالة الكلام عليه[٤] ثم أخبر عن قدرته بتزيين السماء بالكواكب، بعد أن أخبر عن وحدانيته فقال ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ أي زينا السماء القريبة منكم بالكواكب المنيرة المضيئة، التي تبدو وكأنها جواهر تتلألأ ﴿وَحِفۡظٗا

---

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِم إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ ». وَفِي رِوَايَةٍ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ » (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلاَ، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه وانظر «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٧٤. (ش): هذا لفظ أبي داود، أما لفظ مسلم فهو: «أَلاَ تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا ». فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ ».

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٦٢.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٢٤.

﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ أي وللحفظ من كل شيطان عاتٍ متمرد، خارج عن طاعة الله قال قتادة: خلقت النجومُ لثلاث: رجومًا للشياطين، ونورًا يُهتدى بها، وزينةً للسماء الدنيا[١] وقال أبو حيان: خصَّ السماء الدنيا بالذكر لأنها هي التي تُشاهَد بالأبصار، وفيها وحدها يكون الحفظ من الشياطين[٢] ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي لا يقدرون أن يستمعوا إلى الملائكة الذين هم في العالم العلوي، وقيل، المعنى: لئلا يتسمَّعوا إلى الملأ الأعلى ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي ويُرجمون بالشهب من كل جهةٍ يقصدون السماء منها ﴿دُحُورًا﴾ أي طردًا لهم عن السماع لأخبار السماء قال الطبري: أي مطرودين، من الدحر وهو الدَّفعُ والإبعاد[٣] ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب موصول لا ينقطع ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ أي إلاَّ من اختلس شيئًا مسارقةً ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي فلحقه شهاب مضيءٌ، نافذ بضوئه وشعاعه فأحرقه قال المفسرون: قد يخطف الشيطان المارد خطفةً سريعة مما يدور في الملأ الأعلى، فيتبعه شهابٌ يلاحقه في هبوطه فيصيبه ويحرقه حرقًا قال القرطبي: وليست الشهب التي يرجم بها الشياطين من الكواكب الثوابت، لأن الثابتة تجري ولا تُرى حركتها، وهذه الشهب تُرى حركاتها[٤] ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ أي فسَلْ يا محمد هؤلاء المنكرين للبعث ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ أي أيهم أقوى بُنيةً وأشد خلْقًا هل هم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والمخلوقات العظيمة العجيبة؟ ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ أي من طينٍ رخوٍ لا قوة فيه قال الطبري: وإنما وصفه باللزوب لأنه ترابٌ مخلوطٌ بماء، وكذلك خُلِق ابنُ آدم من ترابٍ وماء، ونار وهواء، والتراب إذا خُلط بماءٍ صار طينًا لازبًا[٥]، والغرضُ من الآية إقامةُ البرهان على إعادة الإنسان، فالذي خلقه من العدم وخلق هذه الخلائق، قادرٌ على إعادة الأجسام بعد الفناء ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أي بل عجبتَ يا محمد من تكذيبهم للبعث مع رؤيتهم آثار قدرة الله الباهرة، وهم يسخرون منك ومما تقول لهم في ذلك قال أبو السعود: المعنى عجبتَ من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم للبعث، وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث[٦] ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ﴾ أي وإذا وُعِظُوا بالقرآن وخُوِّفوا به، لا يتَّعظون ولا يتدبرون ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي وإذا رأوا آية باهرة، أو معجزة قاهرة تدل على صدقك كانشقاق القمر، وتكليم الشجر والحجر، يبالغون في السخرية أو يدعون غيرهم للسخرية والاستهزاء

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٦٤.
(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٣٥٢.
(٣) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٢٧.
(٤) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٦٨.
(٥) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٢٨.
(٦) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٦٦.

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴾ أي ما هذا الذي جئتنا به يا محمد إلا سحر واضح بيِّن قال في البحر: والإشارة بـ «هذا» إلى ما ظهر على يديه عليه السلام من الخارق المعجز[1] ﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴾ الاستفهام للإنكار والاستهزاء أي أئذا أصبحت أجسادنا بالية، وتفتَّت أجزاؤها إلى تراب وعظام سوف نبعث؟ ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾ أي أو آباؤنا الأولون كذلك سيُبعثون؟ قال الزمخشري: أي أيبعث أيضًا آباؤنا؟ وهذا زيادة في استبعاد الأمر، يعنون أنهم أقدم، فبعثُهم أبعدُ وأبطل[2] ﴿ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ﴾ أي قل لهم: نعم تُبعثون وأنتم صاغرون ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴾ أي وما هي إلا صيحة واحدة ينفخ فيها إسرافيل في الصور للقيام من القبور ﴿فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ﴾ أي فإذا هم قيامٌ في أرض المحشر ينظر بعضهم إلى بعض قال القرطبي: الزجرةُ: الصيحةُ وهي النفخةُ الثانية، وسميت زجرة لأن مقصودها الزجر، كزجر الإبل، والخيل عند السَّوْق[3].

ثم أخبر تعالى عن حسرتهم وندامتهم عند معاينتهم أهوالَ القيامة فقال ﴿ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾ أي يا هلاكنا وخسارتنا هذا يوم الجزاء والحساب! فتقول لهم الملائكة على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي هذا يوم الفصل بين الخلائق الذي كنتم تنكرونه وتكذبون به قال البيضاوي: الفصلُ: القضاءُ والتفريق بين المحسن والمسيء[4] ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ ﴾ أي اجمعوا الظالمين وأشباههم من العصاة والمجرمين، كل إنسان مع نظرائه قال القرطبي: الزاني مع الزاني، وشارب الخمر مع شارب الخمر، والسارق مع السارق[5] وقال ابن عباس: اجمعوا الظالمين ونساءهم الكافرات، وعنه: المراد به أشباههم من العصاة[6] ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي وما كانوا يعبدون من الأوثان والأصنام، وذلك زيادةً في تحسيرهم وتخجيلهم ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ أي فعرفوهم طريق الجحيم ووجهوهم إليها، وفي لفظ ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ ﴾ تهكم وسخرية، فإذا لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم، فليهتدوا اليوم إلى صراط الجحيم ﴿ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴾ أي احبسوهم عند الصراط لأنهم سيُسألون عن جميع أقوالهم وأفعالهم، ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ أي ما لكم لا ينصر بعضكم بعضًا وأنتم هنا جميعًا؟ وكلكم في حاجة إلى الناصر والمعين؟ قال المفسرون: هذا إشارة إلى قول أبي جهل يوم

---

(١) «تفسير البحر المحيط» ٧/ ٣٥٥.

(٢) «تفسير الكشاف» ٤/ ٣٠.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٧٢

(٤) تفسير البيضاوي ٢/ ١٣٨

(٥) «تفسيرالقرطبي» ١٥/ ٧٣، وعزاه إلي عمر بن الخطاب

(٦) نقلهما عنه صاحب «البحر المحيط» ٧/ ٣٥٦

بدر «نحن جميعٌ منتصر»[١] وأصل ﴿تَنَاصَرُونَ﴾ تتناصرون حذفت إحدى التاءين تخفيفًا، قال تعالى ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي بل هم اليوم أذِلَّاء مُنقَادون، عاجزون عن الانتصار، سواء منهم العابِدون والمعبُودون ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي أقبل الرؤساء والأتباع يتلاومون ويتخاصمون قال أبو السعود: وسؤالهم إنما هو سؤال توبيخ بطريق الخصومة والجدال[٢] ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي قال الأتباع منهم للمتبوعين: إنكم كنتم تأتوننا من قبل الحقِّ، وتزينون لنا الباطل، وتصدوننا عن اتباع طريق الهدى[٣] قال الطبري: أي كنتم تأتوننا من قبل الدين والحق، فتخدعوننا بأقوى الوجوه، قال: واليمين في كلام العرب: القوه والقدرة كقول الشاعر:

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ ... تَلَقَّاهَا عُرَابَةُ بِالْيَمِينِ[٤]

وقيل: المراد تأتوننا بطريق الوسوسة عن يميننا كما هو المعتاد في حالة الوسوسة بالإسرار غالبًا ﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي يقول لهم الرؤساء: لم نحملكم نحن على الضلال ولم نمنعكم من الإيمان، بل كفرتم ولم تؤمنوا باختياركم قال ابن كثير: أي ليس الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم مُنكِرةً للإيمان، قابلةً للكفر والعصيان[٥] ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي ما كان لنا عليكم من قوة وقدرة نقهركم بها عن متابعتنا ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي بل كان فيكم فجور وطغيان واستعداد للعصيان، فلذلك استجبتم لنا واتبعتمونا ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ أي فوجب علينا جميعًا وعيد الله لنا بالعذاب ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ أي فإنا لذائقو هذا العذاب لا محالة ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ أي فزينا لكم الباطل، ودعوناكم إلى الغيّ لأننا كنا على غيٍّ وضلال، قال تعالى مخبرًا عن حالهم ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي فإنهم يوم القيامة مشتركون في العذاب، كما كانوا مشتركين في الغواية، ولكنْ كما قال تعالى ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩] ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل هذا الفعل بهؤلاء نفعل بالأشقياء المجرمين، ثم بيَّن تعالى السبب فقال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي إذا قيل لهم قولوا ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يتكبَّرون ويتعظَّمون ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾؟ أي ويقولون عندما يُدعون إلى التوحيد: أنترك عبادة الأوثان لقول شاعرٍ مجنون؟ يعنون بذلك رسول الله ﷺ قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿بَلْ جَآءَ

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٧٤

(٢) تفسير أبو سعود ٤/ ٢٦٨

(٣) هذا قول حكاه ابن كثير عن السدي وهو لا الأظهر.

(٤) تفسير الطبري ٢٣/ ٣٢ (ش): البيت للشماخ، يمدح عُرابَةَ الأَوْسِيَّ. وقبلَه:

رَأَيْتُ عُرَابَةَ الْأَوْسِيَّ يَسْمُو ... إِلَى الْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ الْقَرِينِ

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٧٧

بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي ليس الأمر كما يفترون بل جاءهم محمد بالتوحيد والإسلام الذي هو الحقُّ الأبْلَج[١]، وجاء بمثل ما جاء به الرسل قبله قال أبو حيان: جمع المشركون بين إنكار الوحدانية، وإنكار الرسالة، ثم خلطوا في كلامهم بقولهم: «شاعر مجنون» فإن الشاعر عنده من الفهم والحذق ماينظم به المعاني الغريبة، ويصوغها في قالب الألفاظ البديعة، ومن كان مجنونًا لا يصل إلى شيء من ذلك، فكلامهم تخليط وهذيان[٢] ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ أي إنكم أيها المجرمون لمُعَذَّبون أشد العذاب ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي لا تُعاقبون إلا جزاء مثل عملكم قال الصاوي: لأن الشريكون جزاؤه بقدره، بخلاف الخير فجزاؤه بأضعاف مضاعفة[٣].. ولمّا ذكر شيئًا من أحوال الكفار وعذابهم، ذكر شيئًا من أحوال المؤمنين ونعيمهم، على طريقة القرآن في الموازنة بين الفريقين ترغيبًا وترهيبًا فقال ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الاستثناء منقطع أي لكنْ عباد الله المُخلَصين الموحدين، فإنهم لا يذوقون العذاب، ولا يناقَشُون الحساب[٤]، بل يتجاوز الله عن سيئاتهم، يُجزَون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

ثم أخبر عن جزائهم فقال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي أولئك الأخيار الأبرار لهم رزقهم في الجنة صباحًا ومساءً كما قال تعالى ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] وقال أبو السعود: معلوم الخصائص من حسن المنظر، ولذة الطعم، وطيب الرائحة[٥]، ثم فسر الرزق بقوله: ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ أي فواكهُ متنوعة من جميع ما يشتهون، وهم في الجنة معزّزون مكرَّمون، وخصَّ الفواكه بالذكر لأن كل ما يؤكل في الجنة إنما هو على سبيل التفكه والتلذذ ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي في رياضٍ وبساتين يتنعمون فيها ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي على أسِرَّة مكلَّلة بالدر والياقوت، تدور بهم كيف شاءوا قال مجاهد: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي لا ينظر بعضُهم إلى قفا بعض تواصُلًا وتحابيًا[٦] ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ لما ذكر الطعام أعقبه بذكر الشراب، أي: يطوف عليهم خدم الجنة بكأسٍ من الخمر من نهر جارٍ خارج من عيون الجنة قال الصاوي: وصف به خمر الجنة لأنه يجري كالماء النابع[٧] وقال ابن عباس: كل كأسٍ في القرآن فهي الخمر،

---

(١) (ش): بلَج الحقُّ: وضَح وظهَر.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٣٥٧

(٣) ««حاشيه الصاوي» علي الجلالين» ٣/ ٣٣٧

(٤) (ش): قال ﷺ: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وَالْمُرَادُ بِالْمُنَاقَشَةِ الِاسْتِقْصَاءُ فِي الْمُحَاسَبَةِ وَالْمُطَالَبَةُ بِالْجَلِيلِ وَالْحَقِيرِ وَتَرْكِ الْمُسَامَحَةِ. (عُذِّبَ): أَيْ فِي النارِ جَزَاءً عَلَى السَّيِّئَاتِ الَّتِي أَظْهَرَهَا حِسَابُهُ.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٦٨

(٦) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٧٧

(٧) «حاشيه الصاوي» ٣/ ٣٣٧

والمعين هي الجارية[١] ﴿ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ أي هذه الخمر بيضاء ذات لذة للشاربين، يلتذ بها من شربها قال الحسن: خمر الجنة أشد بياضًا من اللبن ﴿ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴾ أي ليس فيها ما يغتال عقولهم فيفسدها، ولا هم يسكرون بشربها كما تفعل خمر الدنيا قال ابن كثير: نزَّه الله سبحانه خمر الجنة عن الآفات التي هي في خمر الدنيا، من صداع الرأس، ووجع البطن، وذهاب العقل، فخمر الجنة طعمها طيب كلونها، والمراد بالغَوْل هنا صُداع الرأس قاله ابن عباس، وقال قتادة: هو صداع الرأس ووجع البطن[٢] وتلك أجمل أوصاف الشراب، التي تحقق لذة الشُّرَّاب، وتنفي أكداره وأضراره، فلا خُمار يصدر الرءوس، ولا سكر ولا عربدة يُذهب لذة الاستمتاع كما هي الحال في خمرة الدنيا ﴿ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ ﴾ أي وعندهم الحور العين، العفيفات اللواتي قصرن أعينهن على النظر إلى أزواجهن، فلا ينظرن إلى غيرهم حياءً وعفةً، قال ابن عباس: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن[٣] ﴿عِينٞ﴾ أي وهُنَّ مع العفة واسعات جميلاتُ العيونِ قال الطبري: أي نُجْل العيون[٤] جمع عيناء وهي المرأة الواسعة العين مع الحسن والجمال، وهي أحسن ما تكون من العيون[٥] ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ﴾ أي كأنهن اللؤلؤ المكنون في أصدافه قاله ابن عباس واستشهد بقوله تعالى ﴿ وَحُورٌ عِينٞ ٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴾[٦] [الواقعة: ٢٢-٢٣] وقال الحسن: ﴿ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ المصون الذي لم تمسَّه الأيدي.. والغرضُ أنهنَّ مع هذا الجمال الباهر، مصونات كالدُّر في أصدافه، مع رقةٍ لطفٍ ونعومة ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ﴾ لا تبتذله الأيدي ولا العيون، والعربُ تشبّه المرأة بالبيضة لصفائها وبياضها قال أبو حيان: ذكر تعالى في هذه الآيات أولًا الرزق وهو ما تتلذذ به الأجسام، وثانيًا الإكرام وهو ما تتلذذ به النفوس، ثم ذكر المحل وهو جنات النعيم، ثم لذة التآنُس والاجتماع ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ وهو أتَمُّ للسرور وآنَس، ثم ذكر المشروب وهو الخمر التي تدار عليهم بالكئوس ولا يتناولونها بأنفسهم، ثم ختم باللذة الجسدية أبلغ الملاذ وهي التآنس بالنساء[٧] ثم أخبر تعالى عما يتحدث به أهل الجنة للأنس والسرور، وهم على موائد الشراب يتلذذون بكل ممتع، وينعمون بتجاذب أطراف الحديث فقال ﴿ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي جلسوا يتحدثون عما جرى لهم في الدنيا، يتذاكرون نعيمهم وحال

---

(١) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٣٤

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٧٩

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٩٧

(٤) (ش): نجلَتِ العينُ: اتّسَعَت، وحَسُنت. نَجْلاء: واسعة العينين.

(٥) تفسير الطبري ٢٣/ ٣٦

(٦) «تفسير الطبري» ١٥/ ٨١

(٧) «تفسير البحر المحيط» ٧/ ٣٥٩

الدنيا وثمرة الإيمان ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ﴾ أي قال قائل من أهل الجنة: إني كان لي في الدنيا صديق وجليس ينكر البعث ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾ أي يقول لي: أتصدِّق بالبعث والجزاء؟ ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؟ أي هل إذا متنا وأصبحنا ذرَّاتٍ من التراب وعظامًا نَخِرة[١]، أئنا لمحاسَبون ومَجْزِيُّون بأعمالنا؟ يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد ﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾؟ أي قال ذلك المؤمن لإخوانه في الجنة: هل أنتم مطَّلعون إلى النار لننظر كيف حال ذلك القرين؟ قال تعالى ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي فنظر فأبصر صاحبه الكافر في وسط الجحيم يتلظى سعيرها ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ أي فخاطبه المؤمن شامتًا وقال له: واللهِ لقد قاربت أن تهلكني بإغوائك ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ أي ولولا فضلُ الله عليَّ بتَثْبيتي على الإيمان، لكُنتُ معك في النار محضرًا ومعذبًا في الجحيم، ثم يخاطبه مستهزئًا ساخرًا كما كان ذلك الكافر يستهزئ به في الدنيا ﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؟ أي هل لا تزال على اعتقادك بأننا لن نموت إلا موتةً واحدة، وأنه لا بعث ولا جزاء ولا حساب ولا عذاب؟ وهو أسلوب ساخر لاذع يظهر فيه التشفي من ذلك القرين الكافر، والتحدث بنعمة الله عليه قال تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي إن هذا النعيم الذي ناله أهل الجنة لهو الفوز العظيم ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ أي لمثل هذا الجزاء الكريم يجب أن يعمل العاملون ويجتهد المجتهدون.

قال المفسرون: أشارت الآيات الكريمة إلى قصة شريكين كان لهما ثمانية آلاف درهم، فكان أحدهما يعبد الله ويقصِّر في التجارة والنظر إلى أمور الدنيا، وكان الآخر مقبلًا على تكثير ماله، فانفصل من شريكه لتقصيره، وكان كلما اشترى دارًا أو جارية أو بستانًا أو نحو ذلك عرضه على المؤمن وفخر عليه بكثرة ماله، وكان المؤمن إذا سمع ذلك يتصدَّق بنحوٍ من ذلك ليشتري له به قصرًا في الجنة، فإذا لقيه صديقه قال ما صنعت بمالك؟ قال: تصدقت به لله! فكان يسخر منه ويقول: أئنك لمن المصدِّقين؟ فكان أمرهما ما قصَّ الله علينا في كتابه العزيز[٢].

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ﴾ لأن السخرية في مقابلة التعجب.

٢ - التأكيد بإِن واللام ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ ومقتضى الكلام يقتضيه لإنكار المخاطبين للوحدانية.

٣ - الأسلوب التهكمي ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وردت الهداية بطريق التهكم، لأن الهداية تكون إلى طريق النعيم لا الجحيم.

---

(١) (ش): أي عظامًا بالية.

(٢) أنظر «الطبري» ٢٣/ ٣٨، و«مختصر ابن كثير» ٣/ ١٨١ ففيهما تفصيل للقصة.

٤ - الإيجاز بالحذف ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي قولوا: لا إله إلا الله، وحذف لدلالة السياق عليه.

٥ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ والأصل: إنهم لذائقو وإنما التفت لزيادة التقبيح والتشنيع عليهم.

٦ - الكناية ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ كنَّى بذلك عن الحور العين؛ لأنهن عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن.

٧ - التشبيه المرسل والمجمل ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ حذف منه وجه الشبه فأصبح مجملًا.

٨ - مراعاة الفواصل وهو المحسنات البديعية مثل ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ إلى آخره.

قال الله تعالى:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى ما أعده للأبرار في دار النعيم، ذكر ما أعده للأشرار في دار الجحيم،

ليظهر التميز بين الفريقين، ثم ذكر قصة «نوح» وقصة «إبراهيم» وما فيهما من العظات والعبر للمعتبرين.

اللغـة: ﴿نُزُلًا﴾ النُّزُل: الضيافة والتكرمة، وأصله ما يُعد للأضياف من الطعام والشراب وغيرهما ﴿طَلْعُهَا﴾ ثمرها، سُمي طلعًا لطلوعه ﴿لَشَوْبًا﴾ خلطًا ومزاجًا من شاب الطعام يشوبه إذا خلطه بشيء آخر ﴿يُهْرَعُونَ﴾ يُسْرِعون قال الفراء: الإهراع: الإسراع مع رِعدة[1]، وقال المبرّد: المُهرع: المستحَثُّ يقال: جاء فلان يُهرَع إلى النار، إذا استحَثَّه البرد إليها[2] ﴿شِيعَتِهِ﴾ شيعة الرجل أعوانه وأنصاره، ومن سار على طريقته ومنهاجه ﴿أَئِفْكًا﴾ كذبًا وباطلًا ﴿سَقِيمٌ﴾ مريض وعليل ﴿فَرَاغَ﴾ راغ إليه: أقبل عليه ومال نحوه خفيةً وأصله من الميل قال الشاعر:

وَيُرِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً ... وَيَرُوغُ مِنْكَ كَمَا يَرُوغُ الثَّعْلَبُ[3]

﴿يَزِفُّونَ﴾ يُسرعون في مشيهم ﴿وَتَلَّهُ﴾ صرعه وكبَّه على وجهه.

التفسير: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ أي أنعيم الجنة خيرٌ ضيافةً وعطاءً أم شجرة الزقوم التي في جهنم؟ أيهما خيرٌ وأفضل؟ فالفواكه والثمار طعام أهل الجنة، وشجرة الزقوم طعام أهل النار، والغرض منه توبيخ الكفار ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ أي إنا جعلنا شجرة الزقوم فتنةً وابتلاءً لأهل الضلالة قال المفسرون: لما سمع الكفارُ ذكر شجرة الزقوم قالوا: كيف يكون في النار شجرة، والنار تُحرق الشجر؟ وكان أبو جهل يقول لأصحابه: أتدرون ما الزقوم؟ إنه الزُّبد والتمر، ثم يأتيهم به ويقول: تزقَّموا، هذا الذي يخوفنا به محمد[4] ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أي تنبت في قعر جهنم ثم هي متفرعة فيها ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ أي ثمرها وحملها كأنه رءوس الشياطين في تناهي القبح والبشاعة قال ابن كثير: وإنما شبهها برءوس الشياطين، وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين، لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر[5] ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ أي فإن هؤلاء الكفار لشدة جوعهم مضطرون إلى الأكل منها حتى تمتلئ منها بطونهم، فهي طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة، وفي الحديث «لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّوم قُطِرَتْ فِي بِحَارِ الدُّنْيَا لأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ مَعَايِشَهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ تَكُونُ طَعَامَهُ؟»[6] ﴿إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي ثم إن لهم

---

(١) (ش): رِعْدَة: هيئة الجسم إذا أصابه فزع أو خوف أو حُمَّى أو غيرها.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٨٨. (ش): استحَثَّه البرد إليها: أي جعله يُسرع إليها.

(٣) نفس المرجع السابق ١٥/ ٩٤.

(٤) أنظر «تفسير الطبري» ٢٣/ ٤١. (ش): ضعيف جدًا، أخرجه ابن جرير االطبري في «تفسيره».

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٨٢.

(٦) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح. (ش): «لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّوم قُطِرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ» (رواه الترمذي، وصححه، ورواه أحمد وصححه أحمد شاكر والأرنؤوط). =

بعدما شبعوا منها وغلبهم العطش لمزاجًا من ماء حار قد انتهت حرارته يشاب به الطعام أي يخلط ليجمع لهم بين مرارة الزقوم، وحرارة الحميم، تغليظًا لعذابهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي ثم مصيرهم ومرجعهم إلى دركات الجحيم قال مقاتل: الحميم خارج الجحيم، فهم يُورَدُون الحميم لشُرْبه[١] ثم يُرَدُّون إلى الجحيم وقال أبو السعود: الزقوم والحميم نُزُلٌ يُقدَّم إليهم قبل دخولها[٢] ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴾ أي وجدوهم على الضلالة فاقتدوا بهم ﴿ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ أي فهم يُسرعون في اتباع خُطَاهم من غير دليل ولا برهان قال مجاهد: شبَّهه بالهرولة كمن يُسرع إسراعًا نحو الشيء ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي ضلَّ قبل قومك أكثر الأمم الماضية ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ أي أرسلنا فيهم رسلًا كثيرين يُخَوِّفونهم من عذاب الله ولكنهم تمادوا في الغيّ والضلال ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ أي فانظر يا محمد كيف كان مصير أمر هؤلاء المكذبين؟ ألم نهلكهم فنُصَيِّرهم عبرةً للعباد؟ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أي لكنْ عبادَ الله المؤمنين الذين أخلصهم تعالى لطاعته فإنهم نجوا من العذاب.

ثم شرع في بيان قصة نوح فقال ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ اللام مُوَطِّئَةٌ للقَسَم[٣] أي: وبالله لقد استغاث بنا نوحٌ لما كذبه قومه فلنعم المجيبون نحن له، وصيغة الجمع ﴿ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ للعظمة والكبرياء قال الصاوي: ذكر تعالى في هذه السورة سبع قصص: قصة نوح، وقصة إبراهيم، وقصة الذبيح إسماعيل، وقصة موسى وهارون، وقصة إلياس، وقصة لوط، وقصة يونس، وكل ذلك تسلية له ﷺ وتحذيرًا لمن كفر من أمته[٤] ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي ونجيناه ومن آمن معه من أهله وأتباعُه من الغرق قال المفسرون: وكانوا ثمانين ما بين رجل وامرأة ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أي وجعلنا ذرية نوح هم الذين بقوا في الأرض بعد هلاك قومه قال ابن عباس: أهل الأرض كلُّهم من ذرية نوح[٥] قال في التسهيل: وذلك لأنه لما غرق الناس في الطوفان، ونجا نوح ومن كان معه في السفينة، تناسل الناسُ من أولاده الثلاثة

= «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ فِي بِحَارِ الْأَرْضِ لَفَسَدَتْ» وفي رواية: «لَأَمَرَّتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ تَكُونُ طَعَامَهُ؟» (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي). « لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ فِي الْأَرْضِ لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ مَعِيشَتَهُمْ» رواه ابن حبان. والحديث صححه الألباني، ثم تراجع وضعفه لأنه تبيَّن له أن فيه عنعنة الأعمَش وأن بينه وبين مجاهد أبا يحيى القتات وهو ضعيف.

(١) (ش): أورد الفَرَسَ الماءَ: جعله يَرِدُه، أي يذهبَ إليه ليشرب.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٧١

(٣) (ش): مُوَطِّئَةٌ للقَسَم: أي مُمَهِّدةٌ له؛ لأنها التي تُهَيِّئ الذهن لمعْرفَته.

(٤) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٢٤٠

(٥) «تفسير البحر المحيط» ٧/ ٣٦٤

«سام، وحام، ويافث»[١] ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي تركنا عليه ثناءً حسنًا في كل أمة إلى يوم القيامة ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي سلام عَاطِر من الله تعالى والخلائق على نوح باقٍ على الدوام بدون انقطاع ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي هكذا نجزي من أحسن من العباد، نبقي له الذكر الجميل إلى آخر الدهر ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي كان مخلصًا في العبودية لله، كامل الإيمان واليقين قال في حاشية البيضاوي: علَّل هذه التكرمة السَّنِيَّة بكَوْنه من أُولِي الإحسان، ثم علَّل كونه محسنًا بأنه كان عبدًا مؤمنًا، إظهارًا لجلالة قدر الإيمان وأصالة أمره، وجعل الدنيا مملوءةً من ذريته تبقية لذكره الجميل في ألسنة العالمين[٢] ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ أي أغرقنا الكافرين الذين لم يؤمنوا بنوح عن آخرهم، فلم تبق منهم عينٌ تطْرف[٣] ولا ذِكْرٌ ولا أثر.. ثم شرع تعالى في بيان قصة إبراهيم فقال ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي وإن من من أنصار نوح واعوانه وممن كان على منهاجه وسنته إبراهيم الخليل، قال البيضاوي: وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة، وكان بينهما نبيان هما «هود» و «صالح» صلوات الله عليهم أجمعين[٤] ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾ أي حين جاء ربه بقلب نقي طاهر، مُخلص من الشك والشرك ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ﴾ أي حين قال لأبيه آزر وقومه موبخًا لهم: ما الذي تعبدونه من الأوثان والأصنام؟ وهو إنكار لهم وتوبيخ ﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾؟ أي أتعبدون آلهة من دون الله من أجل الإفك والكذب والزور؟ وإنما قدَّم المفعول لأجله ﴿أَئِفۡكًا﴾ على المفعول به لأجل التقبيح عليهم بأنهم على إفكٍ وباطل في شركهم والأصل: أتريدون آلهة من دون الله إفكًا؟ قال القرطبي: والإفكُ أسوأ الكذب وهو الذي لا يثبتُ ويضطرب[٥] ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ استفهام توبيخ وتحذير، أيْ: أيَّ شيءٍ تظنون بربِّ العالمين؟ هل تظنون أنه يترككم بلا عقاب وقد عبدتم غيره؟ قال الطبري: المعنى أيَّ شيءٍ تظنون أيها القوم أنه يصنع بكم إن لقيتموه وقد عبدتم غيره[٦]؟ ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ﴾ لما وبَّخهم على عبادة غير الله أراد أن يُريَهم أن أصنامهم لا تضر ولا تنفع، وأراد أن يخلو بها حتى يكسرها، فاحتال للبقاء وعدم الخروج معهم إلى العيد، فنظر في السماء على عادتهم حيث كانوا نَجّامين وأوْهمهم أن النجوم تدل على أنه سيسقم غدًا[٧] فقال: إني

---

(١) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٥٧

(٢) حاشية الشيخ زاده علي البيضاوي ٣/ ١٥٧

(٣) (ش): طَرَفت العينُ: تحرَّك جفناها.

(٤) تفسير البيضاوي ٣/ ١٥٧

(٥) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٩٢

(٦) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٤٥

(٧) (ش): الصواب أن يقال إنه عليه السلام نَظَرَ إِلَى النُّجُومِ، وَأَطَالَ الفِكْرَ فِيما يعتذر به عن الخروج مَعَ قَوْمِهِ عَبَدَةِ =

سقيم: أي سأمْرَض إن خرجتُ معكم[(١)]، وهذا ليس بكذبٍ وإنما هو من المعاريض الجائزة لمقصد شرعي كما ورد «إنَّ في المعاريض لمندوحةً عن الكذب»[(٢)] أو أراد أنه سقيم القلب من عبادتهم للأوثان[(٣)] ﴿ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ أي فتركوه إعراضًا عنه وخرجوا إلى عيدهم ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ﴾ أي فلما ذهبوا وتركوه توجه إلى الأصنام ومال إليها في خفية قال ابن كثير: أي ذهب إليها بعد ما خرجوا في سرعةٍ واختفاء[(٤)] ﴿فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾؟ أي ألا تأكلون من هذا الطعام؟ قال ابن كثير: وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديهما طعامًا قربانًا لتُبارك لهم فيه[(٥)] ﴿ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴾؟ أي ما لكم لا تجيبوني على سؤالي قال أبو حيان: وعرضُ الأكل عليها واستفهامها عن النطق إنما هو على سبيل الهزء، لأنها منحطةٌ عن رتبة عابديها إذ هم يأكلون وينطقون بخلافها[(٦)] ﴿ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴾ أي فأقبل على الأصنام مستخفيًا يحطمها بيمينه بفأسٍ كان معه قال البيضاوي: وتقييدُه باليمين للدلالة على قوته وقوة الآلة تستدعي قوة الفعل[(٧)] وقال القرطبي: خصَّ الضرب باليمين لأنها أقوى والضربُ بها أشد[(٨)] ﴿ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴾ أي أقبلوا نحوه مسرعين كأن بعضهم يدفع بعضًا، فلما أدركوه قالوا: ويحكَ نحن نعبدها وأنت تكسرها؟ فأجابهم موبخًا ﴿ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴾؟ أي أتعبدون أصنامًا نَحَتُّموها بأيديكم، وصنَعْتموها بأنفسكم؟ ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ أي والله جل وعلا خلقكم وخلق عملكم، وكلُّ الأشياء مخلوقة له، فكيف تعبدون المخلوق وتتركون الخالق، أليس لكم عقل أيها الناسُ؟ قال ابن جزي: ذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿ما﴾ مصدرية والمعنى:

= الأَصْنَامِ إلى أعيادهم، فقال لهم: إني مريض. وهذا تعريض منه. فتركوه وراء ظهورهم. قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٢٤): « قَالَ قَتَادَةُ: وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِمَنْ تَفَكَّرَ: نَظَرَ فِي النُّجُومِ: يَعْنِي قَتَادَةُ: أَنَّهُ نَظَرَ فِي السَّمَاءِ مُتَفَكِّرًا فِيمَا يُلْهِيهِمْ بِهِ، فَقَالَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

(١) (ش): وَقِيلَ: فَقَالَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا يُسْتَقْبَلُ، يَعْنِي: مَرَضَ الْمَوْتِ. وَقِيلَ: أَرَادَ ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أَيْ: مَرِيضُ الْقَلْبِ مِنْ عِبَادَتِكُمُ الْأَوْثَانَ مِنْ دُونِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(٢) (ش): رواه البيهقي وغيره مرفوعًا (أي منسوبًا إلى النبي ﷺ)، وضعفه الألباني. ورواه البخاري في «الأدب المفرد» من كلام عمران بن حصين رضي الله عنه قال: «إن في المعاريض لمَنْدُوحَة عَنِ الكَذِبِ»، وصححه الألباني. (المعاريض) جمع المِعرَاض، وهو التورية: أن يكون للفظ معنيان، أحدهما قريب، ظاهر الكلام يدلُّ عليه، والآخر بعيد، وهو الذي يقصده القائل. (مَنْدُوحَةٌ عَنِ الكَذِبِ): أي سَعَة وفُسحة عَنِ الكَذِبِ، يُقَال: أَرض مندوحة وَاسِعَة بعيدَة. ويقال: لَك عَن هَذَا الأمر مَندُوحَة: أي سَعَة وفُسحة.

(٣) انظر أقوال المفسرين في القرطبي ١٥/ ٩٣

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٨٥

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٨٥

(٦) «البحر المحيط» ٧/ ٣٦٦

(٧) «البيضاوي» ٢/ ١٤٢

(٨) «القرطبي» ١٥/ ٩٤

اللهُ خلقكـم وأعمالكم، وهذه الآية عندهم قاعدة في خلق أفعال العباد، وذهب بعضهم إلى أن ﴿مـا﴾ موصولة بمعنـى الذي والمعنى: خلقكـم وخلق أصنامكم التي تعملونهـا، وهذا أَلْيَق بسياق الكلام، وأقـوى في قصد الاحتجاج علـى الذين عبدوا الأصنـام[1]. ﴿ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ أي ابنـوا لـه مكانًا وأضرموه نارًا ثم ألقوه في تلك النار المتأججة المسـتعرة قال المفسرون: لما غلبهم إبراهيم عليه السلام في الحجة، مالوا إلى الغلبة بقوة البطش والشدة، وتشاوروا فيما بينهم ثم قرروا أن يطرحوه في النار انتصارًا لأصنامهم وآلهتهم ﴿ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ أي أرادوا المكـر بإبراهيم واحتالوا لإهلاكه، فنجيناه من النار وجعلناها بردًا وسـلامًا عليه، وجعلناهم الأذلين المقهورين لأنه لم ينفذ فيه مكرهم، ولا كيدهم ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ لما نجاه الله من النار، وخلّصه من كيد الفجار، هجر قومه واعتزلهم. والمعنـى: إني مهاجـر من بلد قومـي إلى حيث أمرني ربـي قال مقاتل: هـو أول من هاجر من الخلق مع سـارة إلى أرض الشـام[2] ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي ارزقني ولدًا من الصالحين يؤنسـني في غُربتي قال ابن كثير: يريد أولادًا مطيعين يكونون عوضًا عن قومه وعشـيرته الذين فارقهم[3] ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ أي فاستجبنا دعاءه وبشرناه بغلام يكون حليمًا في كبره قال أبو السـعود: جمع الله له فيه بشارات ثلاث: بشارة أنه غلام، وأنه يبلغ أوان الحُلم، وأنه يكون حليمًـا، لأن الصغيـر لا يوصف بذلك، وأيُّ حلم يعادل حلمه عليه السـلام حين عرض عليه أبوه الذبح فقال ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[4] ! وجمهور المفسـرين علـى أن هـذا الغـلام المبشـر به هـو «اسـماعيل» لأن الله تعالـى قال بعـد تمام قصـة الذبيح

(١) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٧٣ (ش): الإيمان بالقدر يقوم على أربع مراتب، من أقرَّ بها جميعًا فإن إيمانه بالقدر يكون مكتملًا، ومن انتقص واحدةً منها أو أكثر فقد اختل إيمانه بالقدر، وهذه المراتب هي: الأول: الإيمان بعلم الله الشامل المحيط. فعلم الله محيط بكل شيء، يعلم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم الموجود والمعدوم، والممكن والمستحيل. وهو عالم بالعباد وآجالهم وأرزاقهم وأحوالهم وحركاتهم وسكناتهم وشقاوتهم وسعادتهم، ومن منهم من أهل الجنة، ومن منهم من أهل النار من قبل أن يخلقهم، ويخلق السماوات والأرض. الثاني: الإيمان بكتابة الله في اللوح المحفوظ لكل ما هو كائن إلى يوم القيامة. الثالث: الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته التامة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. الرابع: خلقه تبارك وتعالى لكل موجود، لا شريك له في خلقه. فالله تعالى خالق كل شيء، ومن ذلك أفعال العباد، فلا يقع في هذا الكون شيء إلا وهو خالقه. روى البخاري في «خلق أفعال العباد» بإسناد صحيح عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ» وَتَلَا بَعْضُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]. قال البخاري: «فَأَخْبَرَ أَنَّ الصِّنَاعَاتِ وَأَهْلَهَا مَخْلُوقَةٌ».

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٩٧.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٨٦.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٨٧٣.

﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فدل ذلك على أن الذبيح هو إسماعيل(١) ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ أي فلما ترعرع وشبَّ وبلغ السنَّ الذي يمكنه أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه قال المفسرون: وهو سن الثالثة عشرة ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾ أي إني أُمرت في المنام أنْ أذبحك، قال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحيٌ وتلا الآية(٢) وقال محمد بن كعب: كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله تعالى أيقاظًا ورقودًا، لأن الأنبياء تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم(٣) ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾؟ أي فانظر في الأمر، ما رأيك فيه؟ قال ابن كثير: وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلَده وعزمه على طاعة الله وطاعة أبيه(٤). فإن قيل: لِمَ شاوره في أمرٍ هو حتمٌ من الله؟ فالجواب: أنه لم يشاوره ليرجع إلى رأيه، ولكنْ ليعلم ما عنده فيثبت قلبه ويوطِّن نفسه على الصبر، فأجابه بأحسن جواب ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أي امض لما أمرك الله به مِن ذَبْحي، فستجدني صابرًا إن شاء الله، وهو جواب من أُوتي الحلم والصبر وامتثال الأمر، والرضا بقضاء الله ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي فلما استسلما الأب والابن لأمر الله، وصرعه على وجهه ليذبحه قال ابن عباس: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أكبَّه على وجهه(٥) ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ هذه جواب «لمَّا» والواو مُقْحَمَة، أي: ناديناه يا إبراهيم قد نفَّذْتَ ما أُمِرتَ به، وحصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح(٦)، روي أنه أمرَّ السكين بقوته على حلقه مرارًا فلم يقطع قال الصاوي: والحكمة في هذه القصة أن إبراهيم اتخذه الله تعالى خليلًا، فلما سأل ربه الولد ووهبه له تعلقت شُعبةٌ من قلبه بمحبة ولده، فأُمِر بذبح المحبوب ليظهر صفاء الخُلَّة، فامتثل أمر ربه وقدَّم محبته على محبة ولده، قال ابن عباس: فلما عزم على ذبح ولده ورماه على شقه قال الابن: يا أبتِ اشدُدْ رباطي حتى لا أضطرب، واكفف ثيابك لئلا ينتضح عليها شيءٌ من دمي فتراه أمي فتحزن، وأحِدَّ شفرتك وأسرعْ بها على حلقي ليكون الموت أهونَ عليَّ، وإذا أتيتَ أمي فاقْرئْها مني السلام، وإن رأيتَ أن تردَّ قميصي عليها فافعل فإنه عسى أن يكون أسْلى

---

(١) انظر تفصيل الموضوع في كتابنا «النبوه والأنبياء» والأدلة علي ذلك ص ١٧٣ ، وانظر «ابن كثير» ٣/ ١٨٦ ففيه بحث لطيف ونفيس.

(٢) (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «رُؤْيَا الأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ» (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي). وروى البخاري عن عُبَيْد بْن عُمَيْرٍ قال: «رُؤْيَا الأَنبِيَاءِ وَحْيٌ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ١٠٢.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٨٦.

(٥) (ش): ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي وضع إبراهيم عليه السلام ابنه على جبينه على الأرض؛ ليذبحه. والجبين جانب الجبهة، ولكل إنسان جَبينَان أيمن وأيسر والجبهة بينهما.

(٦) (ش): لَفْظَة مُقْحَمَة أي زَائِدَة. وَقِيل: جَوَابِ «لَمَّا» مَحْذُوفٌ، وَتَقْدِيرُهُ: ظَهَرَ صَبْرُهُمَا، أَوْ أَجْزَلْنَا لَهُمَا أَجْرَهُمَا، أَوْ فَدَيْنَاهُ بِكَبْشٍ. [«فتح القدير» للشوكاني (٤/ ٤٦٤)].

لهـا عني، فقال له إبراهيم: نعـم العونُ أنت يا بُنَيَّ على أمـر الله [١]﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ تعليلٌ لتفريج الكربة، أي: كما فرجنا شـدتك كذلك نجازي المحسـنين بتفريج الشـدة عنهم ونجعـل لهم من أمرهـم فرجًا ومخرجـا ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴾ أي إن هـذا لهو الابتلاء والامتحـان الشـاق الواضـح، الذي يتميز فيـه المخلص من المنافـق ﴿ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴾ أي وفدينـاه بكبـشٍ عظيم من الجنـة فداءً عنه قال ابـن عباس: كبش عظيم قـد رعى في الجنة أربعيـن خريفًـا [٢] ﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ أي وأبقينا عليه ثناءً حسـنًا إلـى يوم الدين ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ أي سـلام منـا على إبراهيـم عاطرٌ كريـم ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ كرَّر ذكر الجزاء مبالغة في الثناء ثم علَّل ذلك بأنه كان من الراسخين في الإيمان مع الإيقان والاطمئنان ﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وبشرناه بغلام آخر بعد تلك الحادثة هو إسحاق الذي سيكون نبيًّا قال ابن عباس: بُشِّرَ بنبوته حين وُلد، وحين نُبِّئ[٣]، وتكاد تكون الآية صريحةً في أن الذبيح هو «إسماعيل» لا «إسحاق»[٤] ﴿ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَ ﴾ أي أفضْنَا على إبراهيم وإسحاق بركات الدنيا والدين ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴾ أي ومن ذريتهما محسـنٌ ومسيء قال الطبري: المحسنُ هو المؤمن، والظالم لنفسه هو الكافر[٥] وقـال أبو حيان: وفي الآية وعيدٌ لليهود ومن كان من ذريتهما ممن لم يؤمن بمحمد ﷺ وفيها دليل على أن البرَّ قد يلد الفاجر ولا يلحقه من ذلك عيب ولا منقصة[٦].

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الأسلوب التهكمي ﴿ أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾؟ التعبير بـ «خيرٌ» تهكم بهم.

٢ - الجناس الناقص ﴿ ٱلۡمُنذِرِينَ .. ٱلۡمُنذَرِينَ ﴾ لأن المراد بالأول الرسل، وبالثاني الأمم.

٣ - التشبيه ﴿ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ أي في الهول والشناعة ويسمى تشبيهًا مرسلًا مجملًا.

٤ - الاستعارة التبعية ﴿ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴾ شبَّه إقباله على ربه مخلصًا بقلبه بمن قدم على الملك بتحفةٍ ثمينة ففاز بالرضى والقبول ففيه استعارة تبعية.

---

(١) «حاشية الصاوي» على الجلالين ٣/ ٣٤٣.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٨٧.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٨٧.

(٤) (ش): وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ حِينَ فَرَغَ مِنْ قِصَّةِ الْمَذْبُوحِ مِنِ ابْنَيْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: ﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾. ومن الأدلة على أن الذبيح هو «إسماعيل» لا «إسحاق» أيضًا قوله تعَالَى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾، فبشرها الله بِابْنٍ وَابْنِ ابْنٍ، فَلَمْ يَكُنْ لِيَأْمُرَهُ بِذَبْحِ إِسْحَاقَ وَقد وَعَدَهُ بأن زوجته ستلد منه ولدًا يسمى إسحاق، وسيعيش ولدهما، وسيكون لهما بعد إسحاق حفيد منه، وهو يعقوب.

(٥) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٥٧.

(٦) «البحر المحيط» ٧/ ٣٧٢.

٥ – الطباق بين ﴿مُحْسِنٌ .. وَظَالِمٌ﴾.

٦ – جناس الاشتقاق بين ﴿ٱبْنُوا .. بُنْيَـٰنًا﴾.

٧ – الكناية اللطيفة ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ كنَّى به عن الثناء الحسن الجميل.

٨ – مراعاة الفواصل مثل ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية، وهو من خصائص القرآن وفيه من الروعة والجمال، وحسن الوقع على السمع ما يزيده روعةً وجمالًا.

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ

المناسَبَة: لما ذكر قصة الخليل إبراهيم، وقصة الذبيح والفداء، أعقبها بذكر قصص بعض الأنبياء، كموسى وهارون، ويونس ولوط، وما في هذه القصص من العظات والعبر، وختم السورة الكريمة ببيان أن النصر والغلبة للرسل وأتباعهم المؤمنين.

اللغة: ﴿أَبَقَ﴾ هرب ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوء ﴿فَسَاهَمَ﴾ قارَع، أي: ضرب القُرعة، قَالَ الْمُبَرِّد: وَأَصْله مِن السِّهَام الَّتِي تُجَالُ[1].

﴿ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ المغلوبين، وأصله من الزلق، يُقال: دَحضت حجته وأدحضها اللهُ، أي: غُلب وهُزم قال الشاعر:

قَتَلْنَا الْمُدْحَضِينَ بِكُلِّ فَجٍّ ... فَقَدْ قَرَّتْ بِقَتْلِهِمُ الْعُيُونُ[2]

﴿مُلِيمٌ﴾ آتٍ بمايُلامُ عليه ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ الأرض الفيحاء لا شجَر فيها، ولا مَعْلَم، قال الفراء، العراءُ المكانُ الخالي ﴿يَقْطِينٍ﴾ القَرْعُ المعروف والمسمَّى بالدُّبَّاء، قال الجوهري: اليقطين ما لا ساق له كشجر القرع ونحوه[3] ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ الساحةُ: الفناء.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ اللام مُوطِّئةٌ للقَسَمِ[4] أي وعزتنا وجلالنا لقد أنعمنا على موسى وهارون بأنواع النعم والمنافع الدينية والدنيوية، ومنها نعمة النبوة والرسالة ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي ونجيناهما وقومهما بني إسرائيل من الغم والمكروه العظيم، وهو استعباد فرعون إياهم مع التعذيب بقتل الأبناء، واستحياء النساء ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ الضمير يعود على موسى وهارون وبني إسرائيل، أي: ونصرناهم على أعدائهم الأقباط فكانوا الغالبين عليهم بعد أن كانوا تحت أيديهم مقهورين ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ أي أعطيناهما الكتاب البليغ في بيانه، الكامل في حدوده وأحكامه، وهو التوراة ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي وهديناهما الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه قال الطبري: وهو الإسلام دينُ الله الذي ابتعث به أنبياءه[5] ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أي تركنا عليهما الثناء الجميل، والذكر الحسن ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أي سلام منا على موسى وهارون ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي كذلك نفعل بمن أحسن وأخلص العبودية لله ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي وإنَّ إلياس -أحد أنبياء بني إسرائيل- لمن الرسل الكرام الذين أرسلتُهم لهداية الخلق قال أبو السعود: هو إلياس بن ياسين من سبط هارون أخي موسى[6] ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي حين قال لقومه من بني إسرائيل ألا

---

(١) (ش): أَجَالَ السِّهَامَ بَيْنَ الْقَوْمِ: حَرَّكها وأَفْضَى بِهَا فِي القِسْمة.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ١٢٣.

(٣) انظر «الصحاح» للجوهري و«القاموس المحيط».

(٤) (ش): مُوَطِّئَةٌ للقَسَم: أي مُمَهِّدةٌ له؛ لأنها التي تُهَيِّئ الذهن لمعْرفَته.

(٥) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٨٥.

(٦) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٣٤٦.

تخافـون الله في عبادتكـم غيره؟ ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ أتعبـدون هذا الصنم المسـمَّى بعلًا وتتركون عبادة ربكم أحسن الخالقين؟ ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي تتركـون عبـادة أحسـن الخالقين، الذي هو ربكم وربُّ آبائكم السـابقين قـال القرطبي: و «بعل» اسـم صنم لهـم كانوا يعبدونه وبذلك سـميت مدينتهم بعلبك، والمعنـى: أتدعون ربًّا اختلقتموه وهو هذا الصنم، وتتركون أحسـن من يقـال له خالق وهو «الله» ربكم ورب آبائكم الأوليـن[1]؟ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي فكذبوا نبيَّهـم فإنهم لمحضرون في العذاب ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي لكـنْ عباد الله المؤمنين فإنهم نجَـوْا من العذاب ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ أي تركنـا على إلياس الثناء الحسـن الجميل إلى يوم الدين ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ أي سـلام منا عليه وعلى آل ياسـين قال المفسـرون: المراد بـ ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ هو إليـاس ومن آمن معه جمعوا معـه تغليبًـا كما قالـوا للمهلَّب وقومـه المهلَّبون[2]، واختـار الطبري أنه اسـم لإلياس فيقال: إلياس، وإل ياسـين مثل ميكال وميكائيل، وأن له اسـمين فيسـمى «إليـاس» و ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾[3] ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدم تفسيره، وإنما ختم الآيات بعد ذكر كل رسول بالسلام عليه، وبهاتين الآيتين الكريمتين لبيان فصل الإحسان والإيمان، وأن هؤلاء الرسـل الكرام كانوا جميعًا من المتصفين بهذه الصفات، فلذلك اسـتحقوا التحية والسـلام، والذكر الحسـن بين الأنام، صلوات الله وسـلامه عليهم أجمعين ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي وإنَّ لوطًـا لَأَحَـدُ رُسـلنا لهداية قومـه ﴿إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ أي: ذكر حيـن خلصناه من العـذاب هو ومن آمن معه من أهلـه وأولاده ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ أي إلا امرأته الكافرة فإنها لـم تؤمـن فكانت مـن الباقين في العـذاب ومن الهالكيـن ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ أي ثـم أهلكنا المكذبين من قومه أشدَّ إهلاك وأفظعه، وذلك بقلب قراهم حيث جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سـجيل، ولهذا عبَّر بـ ﴿دَمَّرْنَا﴾ ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ أي وإنكم يا أهـل مكة لَتَمُرُّونَ على منازلهم في أسـفاركم وتشـاهدون آثار هلاكهم صباحًا ومسـاءً، وليلًا ونهارًا ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي أتشـاهدون ذلك ثم لا تعتبرون؟ ألا تخافون أن يصيبكم مِثْلُ ما أصابهـم؟ ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي وإن يونـس لَأَحَـدُ رُسـلنا المرسـلين لهدايـة قومـه ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي اذكر حين هرب إلى السـفينة المملوءة بالرجال ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ أي فقـارع أهـل السـفينة فـكان مـن المغلوبين بالقرعـة فألقـوه في البحر قال المفسـرون: إن يونـس ضاق صدرًا بتكذيب قومه، فأنذرهم بعـذاب قريب، وغادرهم مغضبًا

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ١١٦.
(٢) انظر «تفسير الجلالين» ٣/ ٣٤٦.
(٣) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٦١.

لأنهم كذبوه، فقاده الغضب إلى شاطئ البحر حيث ركب سفينة مشحونة، فناوأتها الرياح والأمواج، فقال الملاحون: ههنا عبدٌ أبق من سيده، ولا بدَّ لنجاة السفينة من إلقائه في الماء لتنجو من الغرق، فاقترعوا فخرجت القُرعة على يونس فألقوه في البحر ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي فابتلعه الحوت وهو آتٍ بما يُلام عليه من تخليه عن المهمة التي أرسله الله بها، وترك قومه مغاضبًا لهم، وخروجه بغير إذنٍ من ربه ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ أي لولا أنه كان من الذاكرين الله كثيرًا في حياته ﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، وأصبح بطنه قبرًا له فلم ينج أبدًا، ولكنه سبَّح اللهَ واستغفره وناداه في بطن الحوت بقوله ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فاستجاب الله تضرعه ونداءه ﴿ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ أي فألقيناه من بطن الحوت على الساحل، بالأرض الفضاء التي لا شجر فيها ولا ظل، وهو سقيم مريض مما ناله من الكرب قال عطاء: أوحى الله تعالى إلى الحوت إني قد جعلت بطنك له سجنًا، ولم أجعله لك طعامًا، فلذلك بقي سالمًا لم يتغير منه شيء[1] ﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ أي وأنبتنا فوقه شجرة لتظله وتقيه حرَّ الشمس، وهي شجرة القرع ذات الأوراق العريضة قال ابن جزي: وإنما خصَّ القرع بالذكر لأنه يجمع كبر الورق، وبرد الظل، والذبابُ[2] لا يقربه، فإن لحم يونس لما خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب، وكان هذا من تدبير الله ولطفه، فلما استكمل قُوَّتَه وعافيته ردَّه الله إلى قومه ولهذا قال ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ أي وأرسلناه بعد ذلك إلى قومه الذين هرب منهم وهم مائة ألفٍ بل يزيدون قال المفسرون: كانوا مائة وعشرين ألفًا وقيل: وسبعين ألفًا، وهم أهل نَيْنَوَى بجهة الموصل، و «أو» بمعنى «بل» أي بل يزيدون ﴿ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي فآمنوا بعد أن شاهدوا أمارات العذاب الذي وُعدوا به فأبقيناهم مُمَتَّعين في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم قال في التسهيل: روي أنهم خرجوا بالأطفال وأولاد البهائم، وفرقوا بينهم وبين الأمهات، وناحوا وتضرعوا إلى الله، فرفع الله العذاب عنهم[3].. ولما انتهى من الحديث عن الرسل رجع إلى الحديث عن المكذبين من كفار مكة فقال ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾؟ أي اسأل يا محمد واستخبر كفار مكة على سبيل التوبيخ والتقريع لهم كيف زعموا أن الملائكة بنات الله، فجعلوا للهِ الإناث ولأنفسهم الذكور؟ إنهم يكرهون البنات ولا يرضون نسبتهنَّ لأنفسهم، فكيف يرضونها لله عَزَّ وَجَلَّ ويختصون بالبنين؟ ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ توبيخٌ آخر على بهتانهم واستهزاء بهم وتجهيل أي بل أخلقنا الملائكة الأطهار حين خلقناهم، وجعلناهم إناثًا وهم شاهدون لذلك

(١) تفسير «أبو السعود» ٤/ ٢٧٧.
(٢) التهسيل في علوم التنزيل ٣/ ١٧٦.
(٣) تفسير «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٧٦.

حتى يقولوا مثل هذا البهتان؟ ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها الناس إن هؤلاء المشركين من كذبهم وافترائهم ينسبون إلى الله الذرية والولد ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي وهم كاذبون قطعًا[1] في قولهم: الملائكة بناتُ الله قال أبو السعود: والآية استئناف مَسُوقٌ لإبطال أصل مذهبهم الفاسد، ببيان أن مبناه ليس إلا الإفك الصريح، والافتراء القبيح، من غير أن يكون لهم دليلٌ قطعًا ﴿ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴾؟ توبيخٌ وتقريع أي هل اختار جل وعلا البناتِ وفضلهن عن البنين؟ ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴾؟ تسفيهٌ لهم وتجهيل، أيْ: أَيُّ شيء حصل لكم حتى حكمتم بهذا الحكم الجائر؟ كيف يختار لنفسه أخسَّ الجنسين على زعمكم؟ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أفليس لكم تمييز وإدراك تعرفون به خطأ هذا الكلام؟ قال أبو السعود: أي أفلا تتذكرون بطلان هذا ببديهة العقل، فإنه مركوزٌ في عقل كل ذكي وغبي[2] ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ﴾ توبيخ آخر أي أم لكم برهان بَيِّنٌ وحجة وا ضحة على أن الله اتخذ الملائكة بناتٍ له؟ ﴿ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ أي فأتوا بهذا الكتاب الذي يشهد بصحة دعواكم فيما تزعمون. والغرضُ تعجيزهم وبيان أنهم لا يستندون في أقوالهم الباطلة على دليل شرعي، ولا منطق عقلي.. وينتقل إلى أسطورةٍ أُخرى لفَّقها المشركون، حيث زعموا أن هناك صلة بين الله سبحانه وبين الجنِّ، وأنه من التزاوج بين الله تعالى والجِنَّة وُلِدَت الملائكة فيقول: ﴿ وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗا ﴾ أي جعل المشركون بين الله وبين الجنِّ قرابة ونسبًا، حيث قالوا: إنه نكح من الجنِّ فوُلِدَت له الملائكة ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ [الإسراء: ٤٣] ثم زعموا أن الملائكة إناث، وأنهن بنات الله ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴾ أي لقد علمت الشياطين أنهم محضرون في العذاب قال الصاوي: وهذا زيادة في تبكيتهم وتكذيبهم كأنه قيل: هؤلاء الذين عظمتموهم وجعلتموهم بنات الله، أعلمُ بحالكم وما يئول إليه أمركم[3] ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي تنزَّه وتقدَّس الله عما يصفه به هؤلاء الظالمون ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ استثناء منقطع، أي: لكنْ عباد الله المخلصين فإنهم يُنَزِّهون الله تعالى عما يصفه به هؤلاء ﴿ فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ أي فإنكم أيها الكفار وكل ما تعبدونه من الأصنام والشياطين لستم بقادرين على أن تُضلوا أحدًا من عباد الله، إلاَّ من قضى الله عليه الشقاوة، وقدَّر أنه يدخل النار ويصلاها، ثم ذكر تعالى اعتراف الملائكة بالعبودية لله فقال ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ﴾ أي وما منا ملك إلا له مرتبة ومنزلة ووظيفة لا يتعداها، فمنا الموكَّل بالأرزاق، ومنا الموكَّل بالآجال، ومنَّا من يتنزل بالوحي، ولكُلٍّ منزلته

---

(١) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٦٧٨.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٦٧٨.

(٣) «حاشية الصاوي» على الجلالين ٣/ ٣٤٨.

من العبادة، والتقريب، والتشريف ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ أي الواقفون في العبادة صفوفًا ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ أي المنزهون الله سبحانه عن كلا ما يليق بعظمته وكبريائه، نسبّح الله في كل وقتٍ وحين قال في التسهيل: وفي هذا الكلام الذي قالته الملائكة ردٌّ على من قال: إنهم بناتُ الله، وشركاء الله، لأنه اعترفوا على أنفسهم بالعبودية والطاعة لله، والتنزيه له جل وعلا ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الضمير لكفار قريش و﴿وَإِن﴾ هي المخففة من «إنَّ» الثقيلة، أي: وإن كان الحال والشأن أن كفار مكة كانوا قبل أن ينزل عليهم القرآن يقولون لو نزل علينا كتاب من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل لَكُنَّا أعظم إيمانًا منهم، وأكثر عبادةً وإخلاصًا للهِ منهم، فلما جاءهم القرآن كفروا به ولهذا قال ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾ أي فكفروا وكذبوا بالقرآن أشرف الكتب السماوية ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي فسوف يرون عاقبة كفرهم بآيات الله، وهو وعيد وتهديد ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي سبق وعدنا وقضاؤنا للرسل الكرام ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ أي إنهم هم المنصورون على أعدائهم، والإشارة إلى قوله تعالى ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي وإن جندنا المؤمنين لهم الغالبون في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالحجة والبرهان، وفي الآخرة بدخول الجنان قال المفسرون: نصرُ الله للمؤمنين محقق، ولا يقدح في ذلك انهزامهم في بعض المعارك، فإن القاعدة هي بالظفر والنصرة، وإنما يُغلبون في بعض الأحيان بسبب تقصيرٍ منهم أو ابتلاءً ومحنة ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي أعرض عنه يا محمد إلى مدة يسيرة، إلى أن تؤمر بقتالهم ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أي وأبصرهم حين ينزل بهم العذاب، فسوف يبصرون عاقبة كفرهم ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ استفهام إنكاري للتهديد أي أيستعجلون بعذاب الله؟ روي أنه لما نزل ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ استهزءوا وقالوا: متى هذا يكون؟ فنزلت الآية[1] ثم قال تعالى ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي لا يستبعدوا ذلك فإن العذاب إذا نزل بفناء المكذبين فبئس هذا الصباح صباحهم، شبهه بجيشٍ هجم عليهم وقت الصباح فقطع دابرهم ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ كرره تأكيدًا للتهديد وتسلية للرسول ﷺ ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزه وتقدس ذو العزة والجبروت عما يصفه به المشركون ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وسلامٌ منا على الرسل الكرام، والحمد لله في البدء والختام لله ربِّ الخلائق أجمعين. نزّه تعالى نفسه عما وصفه به الكفار مما لا يليق به سبحانه، فإنه حكى عنهم في هذه السورة أقوالًا كثيرة شنيعة، وختم بتعميم السلام على الرسل الكرام وبحمده سبحانه، وهو تعليم للعباد.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

---

(١) (ش): لم أجده إلا في «روح البيان» (٧/ ٤٩٨) بدون إسناد.

١ - الطباق ﴿تَدْعُونَ .. وَتَذَرُونَ﴾ وبين ﴿ٱلْبَنَاتِ .. ٱلْبَنِينَ﴾.

٢ - تتابع التوبيخ وتكراره مثل ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ﴾؟ ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا﴾؟ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾؟ وكلها للتوبيخ والتبكيت.

٣ - التأكيد بعدة مؤكِّدات لتحقيق المعنى وتقريره مثل ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ فقد أُكدت كل من الجملتين بإن واللام.

٤ - الاستعارة التصريحية ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ شبه خروجه بغير إذن ربه بإِباق العبد من سيّده.

٥ - الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ الأصل وتجعلون، والالتفاتُ للإشارة إلى أنهم ليسوا أهلًا للخطاب، وهم بعيدون من رحمة ربِّ الأرباب.

٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ مثل للعذاب النازل بهم بجيش هجم عليهم فأناخ بفنائهم بغتة، ونصحهم بعض النصاح فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا أهبتهم، حتى اجتاحهم الجيش. قال الزمخشري: وما فصحت هذه الجملة ولا كانت لها الروعة التي يروقك موردها إلا لمجيئها على طريقة التمثيل[1].

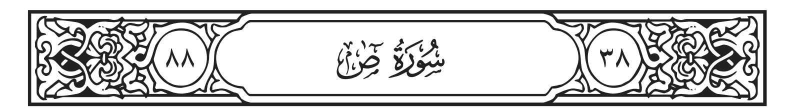
فَائِدَة: روى ابن أبي حاتم عن الشعبي قال قال: رسول الله ﷺ: «**من سَرَّه أن يكتال بالمكيال الأوفى فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم** ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2]».

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الصافات»

❀ ❀ ❀ ❀

(١) الكشاف ٤/ ٥٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم مرسلا ، وروي موقوفا عن علي رضي الله عنه (ش): ضعفه الألباني.



مكية وآياتها ثمان وثمانون

بين يدي السورة

* سورة ص مكية، وهدفها نفس هدف السور المكية، التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية. ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن المعجز المنزل على النبي الأمي، والمشتمل على المواعظ البليغة والأخبار العجيبة -على أن القرآن حق وأن محمدًا نبي مرسل.

* ثم تحدثت عن الوحدانية وإنكار المشركين لها، ومبالغتهم في العجب من دعوة الرسول ﷺ لهم إلى توحيد الله ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴾.

* وانتقلت السورة لتضرب الأمثال لكفار مكة بمن سبقهم من الطغاة المتجبرين، الذين أسرفوا بالتكذيب والضلال، وما حل بهم من العذاب والنكال، بسبب إفسادهم وإجرامهم.

* ثم تناولت قصص بعض الرسل الكرام، تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام، عما يلقاه من كفار مكة من الاستهزاء والتكذيب، وتخفيفًا لآلامه وأحزانه، فذكرت قصة نبي الله داود، وولده سليمان، الذي جمع الله له بين النبوة والملك، وما نال كلًّا منهما من الفتنة والابتلاء، ثم أعقبتها، بذكر فتنة أيوب وإسحاق ويعقوب، وإسماعيل وذي الكفل، هكذا في عرض سريع لبيان سنة الله في ابتلاء أنبيائه وأصفيائه.

* وأشارت السورة الكريمة إلى دلائل القدرة والوحدانية، في هذا الكون المنظور وما فيه من بدائع الصنعة، للتنبيه على أن هذا الكون لم يخلق عبثًا، وأنه لا بد من دار ثانية يجازى فيها المحسن والمسيء.

* وختمت السورة الكريمة ببيان وظيفة الرسول ومهمته الأساسية التي هي مهمة جميع الرسل الكرام.

التسمية: تسمى السورة الكريمة «سورة ص» وهو حرف من حروف الهجاء للإشادة بالكتاب المعجز الذي تحدى الله به الأولين والآخرين، وهو المنظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴿٢﴾ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ

عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ

اللغَـة: ﴿عِزَّةٍ﴾ تكبر وامتناع عـن قبول الحق، وأصلها الغلبة والقهـرُ ومنه قولهم «من عَزَّ بَـزَّ» يعنـي من غلب سـلَب ﴿وَشِقَاقٍ﴾ مخالفـة ومباينـة ﴿مَنَاصٍ﴾ المناص: الملجـأ والغوث والخـلاص ﴿عُجَابٌ﴾ بالغ الغاية في العجب قال الخليـل: العجيب: العجب، والعُجَاب الذي قد تجاوز حدَّ العجب[1] ﴿اختلاق﴾ كذب وافتراء ﴿فَوَاقٍ﴾ الفَوَاق: الاستراحة، والإِفاقة قال الجوهـري: الفواق والفواق: مابين الحلبتين من الوقت، لأنها تحلب ثم تترك سـاعة يرضعها الفصيـل لتـدرَّ ثم تُحلب وقولـه تعالـى ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي ما لها من نظرة وراحـة وإفاقة[2] ﴿قِطَّنَا﴾ القِـطُّ: الحظُّ والنصيـب ﴿ٱلْأَيْدِ﴾ القوة في العبادة والطاعة ﴿تَسَوَّرُوا۟﴾ تسـور الحائط عـلا أعلاه وتسلقه، والسـور: الحائط ﴿تُشْطِطْ﴾ قـال علماء اللغة: الشَّـطط: مجـاوزة الحد وتخطـي الحق، يقال: شـطَّ في الحكم أي جـار فيه ولم يعدل، والأصل فيه: البعدُ من شَـطَّت الدار بمعنى بَعُدَت.

التفسِـير: ﴿صٓ﴾ تقدم الكلام علـى الحروف الهجائية، وبينا أن فيها الإِشـارة إلى إعجاز القرآن[3] ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ قسـمٌ أقسم به الباري جل وعلا أي والقرآن ذي الشرف الرفيع، وذي الشـأن والمكانـة، وجواب القسـم محذوف تقديـره إن هذا القرآن لمعجـز وإن محمدًا

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ١٥٠.

(٢) انظر «الصحاح للجوهري».

(٣) انظر أول سورة البقرة من هذا التفسير.

لصادق قال ابن عباس: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ أي ذي الشرف[١] ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أي بل الكافرون في حميةٍ وتكبر عن الإيمان، وفي خلافٍ وعداوة للرسول عليه السلام قال البيضاوي: أي ما كفر من كفر بالقرآن لخلَل وجده فيه بل الذين كفروا به ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ أي استكبار عن الحق ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي خلاف للهِ ولرسولِه ولذلك كفروا به[٢] ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي كم أهلكنا قبل أهل مكة من أمم كثيرة من القرون الخالية، لكبرهم عن الحق ومعاداتهم لرسلهم، قال أبو السعود: والآية وعيد لأهل مكة على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب مَن قبلَهم من المستكبرين[٣] ﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي فاستغاثوا واستجاروا عند نزول العذاب طلبًا للنجاة، وليس الحينُ حينَ فرارٍ ومهرب ونجاة قال ابن جزي: المعنى أن القرون الذين هلكوا دعوا واستغاثوا حين لم ينفعهم ذلك، إذ ليس الحين الذي دعوا فيه حين مناص، أي: مفر ونجاة من (ناص ينوص إذا فرَّ)، ولات بمعنى ليس -وأصلها لا النافية زيدت عليها علامة التأنيث[٤]- ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي وعجب المشركون من بعثة محمد ﷺ واستبعدوا أن يبعث الله رسولًا من البشر ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي وقال كفار مكة: إن محمدًا ساحرٌ فيما يأتي به من المعجزات ﴿كَذَّابٌ﴾ أي مبالغ في الكذب في دعوى أنه رسول الله، وإنما وضع الاسم الظاهر ﴿الْكَافِرُونَ﴾ مكان الضمير «وقالوا» غضبًا عليهم، وذمّا لهم وتسجيلًا لجريمة الكفر عليهم، فإن هذا الاتهام لا يقوله إلا المتوغلون في الكفر والفسوق ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾؟ أي أزعم أن الربَّ المعبود واحد لا إله إلا هو؟ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أي إنَّ هذا الذي يقوله محمد: إنَّ الإله واحد شيء بليغٌ في العجب قال ابن كثير: أنكر المشركون ذلك قبَّحهم الله وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقَّوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأُشربته قلوبهم، فلما دعاهم رسول الله ﷺ إلى خلع الأوثان وإفراد الإله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[٥] قال المفسرون: «إن قريشًا اجتمعوا وقالوا لأبي طالب: كُفَّ ابنَ أخيك عنا، فإنه يعيب ديننا، ويذم آلهتنا، ويسفِّه أحلامنا، فدعاه أبو طالب وكلَّمه في ذلك، فقال ﷺ: «**يا عم: إنما أُريد منهم كلمةً واحدة، يملكون بها العجم، وتدين لهم بها العرب**»، فقال أبو جهل والمشركون: نعم نعطيكها وعشر كلماتٍ معها!! فقال قولوا: «**لا إله إلا الله**» فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم ويقولون ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ١٩٦.
(٢) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٤٦.
(٣) «أبو السعود» ٤/ ٢٨١.
(٤) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٧٩.
(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٩٧.

وَٰحِدًا ...﴾؟» فنزلت الآيات[١] ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ أي وانطلق أشراف قريش ورؤساء الضلال فيهم، وخرجوا من عند الرسول ﷺ يقول بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على عبادة آلهتكم، ولا تطيعوا محمدًا فيما يدعوكم إليه من عبادة الله الواحد الأحد ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي هذا أمرٌ مدبَّر، يريد من ورائه محمد أن يصرفكم عن دين آبائكم لتكون له العزة والسيادة عليكم، فاحذروا أن تطيعوه[٢] ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي ما سمعنا بمثل هذا القول في ملة النصرانية التي هي آخر الملل، فإنهم يقولون بالتثليث لا بالتوحيد، فكيف يزعم محمد أنَّ الله واحد؟ قال ابن عباس: يعنون بالملة الآخرة دينَ النصرانية. وقال مجاهد وقتادة: يعنون دين قريش أي ليس هذا في الدين الذي أدركنا عليه آبائنا ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي ما هذا الذي يدعيه محمد إلا كذب وافتراء، ثم أنكروا اختصاصه عليه السلام بالوحي من بينهم فقالوا ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾؟ الاستفهام للإنكار، أي: هل تنزَّل القرآن على محمد دوننا، مع أن فينا من هو أكثر منه مالًا، وأعلى رياسةً؟ قال الزمخشري: أنكروا أن يختص ﷺ بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم، وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوة من بينهم[٣] ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ إضرابٌ عن مقدر تقديره: إنكارهم للذكر ليس عن علم بل هم في شك منه فلذلك كفروا ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ إضراب انتقالي وغرضه التهديد. والمعنى: سبب شكهم أنهم لم يذوقوا العذاب إلى الآن، ولو ذاقوه لأيقنوا بالقرآن وآمنوا به ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾؟ هذا ردٌّ على المشركين فيما أنكروا من اختصاص محمد ﷺ بالنبوة. والمعنى: هل عندهم خزائن رحمته تعالى حتى يعطوا النبوة من شاءوا، ويمنعوها من شاءوا؟ قال البيضاوي: يريد أن النبوة عطيةٌ من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده، فإنه ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أي الغالب الذي لا يغلب ﴿ٱلْوَهَّابِ﴾ أي الذي له أن يهب ما يشاء لمن يشاء[٤] ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؟ أي هل لهم شيء من ملك السموات والأرض؟ وهو إنكار وتوبيخ ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ أي إن كان لهم شيء من ذلك فليصعدوا في المراقي التي توصلهم إلى السماء، وليدبروا شئون الكون؟ وهو تهكم بهم واستهزاء قال الزمخشري: تَهَكَّم بهم غاية التهكُّم فقال: إن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق، والتصرف في قسمة الرحمة، وكان عندهم من الحكمة ما يميزون بها بين من هوحقيقٌ بالنبوة من غيره فليصعدوا في المعارج التي يتوصلون بها إلى العرش، حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم، وينزلوا الوحي على من يختارون، هو

---

(١) انظر «تفسير الطبري» ٢٣/ ٧٩، و«البحر المحيط» ٧/ ٣٨٢. (ش): رواه الترمذي وغيره، وضعفه الألباني.

(٢) هذا معنى ما قاله ابن جرير وهو الأظهر، وهناك اقوال أخرى انظر في «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٨٣.

(٣) «تفسير الكشاف» ٤/ ٥٦.

(٤) تفسير البيضاوي ٢/ ١٤٦.

غاية التهكم بهم [١]﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ التنكير للتقليل والتحقير، ﴿مَّا﴾ لتأكيد القلة أي ما هم إلا جندٌ من الكفار، المتحزبين على رسل الله، هم عما قليل يُهزمون ويُولُّون الأدبار، فلا تُبَالِ بما يقولون، ولا تكترث بما يهذون[٢]. ثم أخبر تعالىً عما نالَ أسلافهم الكفار من العذاب والدمار فقال ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ أي كذب قبل كفار قريش أممٌ كثيرون منهم قوم نوح، وقوم هود وهم قبيلة «عاد» وفرعون الجبار ذو الملك الثابت بالأوتاد أو ذو الجموع الكثيرة، قال بعض المفسرين: سمي بذي الأوتاد، لأنه كان يوتد من يريد تعذيبه بأربعة أوتاد في يديه ورجليه ويتركه حتى يموت، وقيل: لأنه صاحب الأهرامات والمباني العظيمة الثابتة التي تقوم في الأرض كالأوتاد[٣] ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ﴾ أي وكذبت ثمود وهم قوم صالح وقوم لوط، وأصحاب الأيكة أي الشجر الملتف وهم قوم شعيب ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي أولئك هم الكفار الذين تحزبوا على رسلهم فأهلكهم الله، فليحذر هؤلاء المكذبون لرسول الله أن يصيبهم ما أصاب أسلافهم ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي ما كل من هؤلاء الأحزاب والأمم إلا كذَّب رسوله الذي أُرسل إليه ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي فثبت ووجب عليهم عقابي، وحذفت الياء مراعاة لرءوس الآيات ﴿وَمَا يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي وما ينتظر هؤلاء المشركون كفار مكة إلا نفخة واحدة ينفخ فيها إسرافيل في الصور فيصعقون ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي ليس لها من توقف ولا تكرار، قال ابن عباس: أي ما لها من رجوع[٤] قال المفسرون: أي إن هذه الصيحة إذا جاءت لا تستأخر ولو فترة قصيرة مقدار فواق ناقة وهي المسافة بين الحلبتين؛ لأنها تجيء في موعدها المحدد، الذي لا يتقدم ولا يتأخر قال الزمخشري: يريد أنها نفخة واحدة فحسب لا تُثَنَّى ولا تُرَدَّد[٥] ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي وقال كفار مكة على سبيل الاستهزاء والسخرية: عجّلْ لنا يا ربنا نصيبنا من العذاب الذي وعدته لنا، قبل أن يجيء يوم القيامة إن كان الأمر كما يقول محمد قال المفسرون: وإنما قالوا هذا على سبيل الاستهزاء كقوله تعالى ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧] ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي اصبر يا محمد على تكذيبهم فإن الله ناصرك عليهم قال الصاوي: وفيه تسلية للرسول ﷺ وتهديد للكفار[٦] ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي

---

(١) «تفسير الكشاف» ٤/ ٥٧.

(٢) (ش): بالى الأمرَ/ بالى بالأمر/ بالى للأمر: اكْتَرَثَ له، واهتمّ به، ويغلب استعماله في سياق النَّفي «لا يُبالي كثير من النَّاس بقيمة الوقت- لا أُبالي له». هذَى الشَّخصُ: تكلَّم بكلام غير معقول لمرض أو غيره.

(٣) نقل عن الضحاك أن المراد بالأوتاد المباني العظيمة الثابتة ورجحه ابن عطية ، وقال الزمخشري: إن ذلك استعارة في ثبات الملك كقول الأسود: في ظل مُلكٍ ثابت الأوتاد.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٣/ ٨٤

(٥) «الكشاف» ٤/ ٥٩.

(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٣٥٣.

وتذَكَّرْ عبدنا داود ذلك النبي الشاكر الصابر، ذا القوة في الدين، والقوة في البدن، فقد كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وكان يقوم نصف الليل[١] ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي كثير الرجوع والإنابة إلى الله، والأوَّابُ: الرَّجَّاع إلى الله قال أبو حيان: لما كانت مقالة المشركين تقتضي الاستخفاف بالدين، أمر تعالى نبيه بالصبر على أذاهم، وذكر قصصًا للأنبياء «داود، وسليمان، وأيوب» وغيرهم، وما عرض لهم فصبروا حتى فرج الله عنهم، وصارت عاقبتُهم أحسن عاقبة، فكذلك أنت تصبر ويئول أمرك إلى أحسن مآل[٢] ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ أي سخرنا الجبال لداود تسبح معه في المساء والصباح، وتسبيحُ الجبال حقيقةٌ وكان معجزةً لداود عليه السلام كما قال تعالى ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠] ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي وسخرنا له الطير مجموعة إليه تسبّح بتسبيحه وترجّع بترجيعه، إذا مرَّ به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه يترنم بقراءة الزبور يقف في الهواء ويسبّح معه، وكذلك الجبال الشامخات كانت تُرجّع معه وتسبّح تبعًا له، قال قتادة: ﴿أَوَّابٌ﴾ أي مطيع[٣] ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي قَوَّينا مُلْكه وثَبَّتْناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي أعطيناه النبوَّة والفهم والإصابة في الأمور ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ أي الكلام البيِّن الذي يفهمه من يُخاطَب به[٤] قال مجاهد: يعني إصابة القضاء وفهمه وقال القرطبي: البيان الفاصل بين الحق والباطل[٥] قال المفسرون: كان مُلْك داود قويًّا عزيزًا، وكان يسوسه بالحكمة والحزم معًا، ويقطع ويجزم برأي لا تردد فيه مع الحكمة والقوة، وذلك غاية الكمال في الحكم والسلطان ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ هذا الاستفهام للتعجب وتشويق السامع إلى ما يلقى إليه كما تقول لجليسك: هل تعلم ما وقع اليوم؟ تريد تشويقه لسماع كلامك. والمعنى: هل أتاك يا محمد خبر الجماعة المتنازعين الذين تسوَّروا على داود مسجده في وقت اشتغاله بالعبادة والطاعة؟ ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ أي حين دخلوا عليه من أعلى السور فخاف وارتعد منهم قال المفسرون: وإنما فزع داود منهم لأنهم دخلوا عليه بغير إذن، ودخلوا من غير الباب، في وقت كان قد خصصه للعبادة ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا﴾ أي لا تخف منا فنحن فوجان مختصمان تعدَّى بعضنا على بعض ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي فاحكم بيننا بالعدل،

---

(١) (ش): الصواب أن داود عليه السلام كان يقوم ثلث الليل، قال ﷺ: «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٣٩٠.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣.

(٤) هذا قول الزمخشري واختاره ابن عطية واستدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، واختار الطبري أنه الفصل في الكلام والحكم والمحاورة والخطب.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٥/ ١٦٢.

ولا تَجُرْ[1] ولا تظلم في الحكم ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي وأرشدنا إلى وسط الطريق يعني إلى الطريق الحق الواضح ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ هذه بداية قصة الخصمين[2] أي قال أحدهما: إن صاحبي هذا يملك تسعًا وتسعين نعجة وهي أنثى الضأن وأملك أنا نعجة واحدة قال المفسرون: وقد يُكَنّى بها عن المرأة فيكون الغرض أن عنده تسعًا وتسعين امرأةً وعندي امرأة واحدة ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي ملكنها واجعلها تحت كفالتي ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي غلبني في الخصومة، وشدَّد عليَّ في القول وأغلظ ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ أي قال له داود: لقد ظلمك بهذا الطلب حين أراد انتزاع نعجتك منك ليكمل ما عنده إلى مائة ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي وإن الكثيرين من الشركاء

---

(١) (ش): جَارَ في حُكْمِه: ظَلَم، مَالَ عن الحقّ وخالفَ العدلَ.

(٢) وقع بعض المفسرين في خطأ فاحش حين نقلوا بعض الأقوال الواهية في تفسيرهم اعتمادًا على ما جاء عند أهل الكتاب من غير تحقيق ولا تمحيص، مما لم يصح سنده ولا يجوز اعتماده، لأنه من القصص الإسرائيليه التي تتنافي مع العقيدة الإسلامية في (عصمه الأنبياء). من هذه الأباطيل المدسوسة ما رُوي من أمر عشقه لزوجة قائد جيشه وخلاصتها: (أن داود كان يمشي على سطح داره فنظر إلى امرأة تستحم فأعجبته وعشقها، وكانت زوجة أحد قواده ويسمي (أوريا) فأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها، فأرسله في إحدي المعارك وحمله الراية وأمره بالتقدم فانتصر، فأرسله مرارًا ليتخلص منه حتي قُتِل فتزوجها...) إلى آخر ما هنالك من الكذب والبهتان، قال ابن كثير: وقد ذكركثير من المفسرين ههنا قصصًا وأخبارًا أكثرها إسرائيليات، ومنها ما هو مكذوب لا محالة، تركنا ايرادها في كتابنا قصدًا، اكتفاء بمجرد تلاوة القصة من القرآن الكريم، والله يهدي من يشاء الى الصراط المستقيم، وقال البيضاوي: ما قيل: إنه أرسل (أوريا) مرارًا الى الحرب، وأمره أن يتقدم حتى قُتل فتزوجها داود، فزُورٌ وافتراء، ولذلك قال علي رضي الله عنه: «من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جَلَدتُه مائة وستين جلدة» وهو حد الفرية على الأنبياء. والصحيح في موضوع هذه القصة ما ذكره المحققون من أئمة التفسير وعلمائه الأعلام، وبيان هذة القصه أن داود عليه السلام كان يخصص بعض وقته لتصريف شئون الملك، وللقضاء بين الناس، ويخصص البعض الآخر للخلوة والعباده وترتيل الزبور تسبيحا لله في المحراب، وكان اذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس، وفي ذات يوم فوجئ بشخصين يتسوران المحراب الذي يتعبد فيه، ففزع منهما وأضمر في نفسه أن يبطش بهما، فبادرا يُطَمْئِنَانه أنهما خصمان اختلفا في أمر بينهما، وبدأ أحدهما فعرض خصومته. كما قصها القرآن الكريم في آياته البينات. والقضية كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلمًا صارخًا مثيرًا لا يتحمل التأويل ومن ثم اندفع داود على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثا، ولم يطلب إليه بيانا، ولم يسمع له حجة، ولكنه مضى يحكم بقوله ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ إلى آخر الآيات فعاتبه الله على ذلك ونبهه إلى ضروره تثبت القاضي على حكمه وسماعه للخصم الآخر... أما ما قاله البعض اعتمادًا علي بعض الروايات الإسرائيلية مما ذكرناه وحذرناه منه، فإنه لا يصلح بالنسبة إلى عوام المسلمين وجهلة الفساق، فما بالك بالأنبياء بل بخواص الأنبياء. فليتدبَّرْ هذا مَن له عقل سليم ودين قوي.

(ش): قول علي رضي الله عنه: «من حدث بحديث داود على ما يرويه القُصَّاص جَلَدتُه مائة وستين جلدة» وهو حد الفرية على الأنبياء. لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد. وقد قال الألوسي في تفسيره «روح المعاني»(٢٣/ ١٨٥) أن الزين العراقي ذكر أن هذه القول لم يصح عن علي رضي الله عنه.

ليتعدى بعضُهم على بعض ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡ﴾ أي إلا المؤمنين الذين يعملون الصالحات فإنهم لا يبغون وهم قليل ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أي علم وأيقن أنما اختبرناه بهذه الحادثة وتلك الحكومة[1] ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾ أي طلب المغفرة من الله وخرَّ ساجدًا لله تعالى، ورجع إليه بالتوبة والندم على ما فرط منه قال أبو حيان: وذكر المفسرون في هذه القصة أشياء لا تناسب مناصب الأنبياء، ضربنا عن ذكرها صفحًا، والذي يدل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الإنس، دخلوا عليه من غير المدخل وفي غير وقت جلوسه للحكم، وأنه فزع منهم ظنًا منه أنهم يغتالونه إذا كان منفردًا في محرابه لعبادة ربه، فلما اتضح له أنهم جاءوا في حكومة، وبرز منهم اثنان للتحاكم كما قصَّ الله تعالى فاستغفر من ذلك الظن، وخرَّ ساجدًا لله عَزَّ وَجَلَّ، ونحن نعلم قطعًا أن الأنبياء معصومون من الخطايا، إذ لو جوزنا عليهم شيئًا من ذلك لبطلت الشرائع ولم نثق بشيء مما يذكرون، فما حكى الله في كتابه يُمرُّ على ما أراده الله، وما حكى القُصَّاص مما فيه غَضٌّ من منصب النبوة طرَحْناه[2] ثم قال تعالى ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي فسامحناه وعفونا عنه ذلك الظن السيئ بالرجلين قال ابن كثير: أي غفرنا له ما كان منه مما يقال فيه: «حسناتُ الأبرار سيئات المقربين» ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾ وإنَّ له لقربةً وكرامة بعد المغفرة ﴿وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ أي وحسن مرجع في الآخرة ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي استخلفناك على الناس لتدبير شئونهم ومصالحهم ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ اي فاحكم بينهم بالعدل وبشريعة الله التي أنزلها عليك ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تتَّبع هوى النفس في الحكومات وغيرها فيضلك اتباع الهوى عن دين الله القويم، وشرعه المستقيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ﴾ أي إن الذين ينحرفون عن دين الله وشرعه لهم عذاب شديد يوم القيامة ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي بسبب نسيانهم وتركهم سلوك سبيل الله، وعدم إيمانهم بيوم الحساب، لأنهم لو آمنوا به لَأَعَدُّوا الزاد ليوم المعاد، قال أبو حيان: وجعلُه تعالى داود خليفةً في الأرض يدل على مكانته عليه السلام واصطفائه له، ويدفع في صدر من نسب إليه شيئًا مما لا يليق بمنصب النبوة.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

---

(١) (ش): الْحُكُومَةِ مِنْ مَعَانِيهَا رَدُّ الظَّالِمِ عَنِ الظُّلْمِ، ومن معانيها الِاجْتِهَادُ وَإِعْمَال الْفِكْرِ فِيمَا يَسْتَحِقُّهُ الْمَجْنِيُّ عَلَيْهِ مِنَ الْجَانِي.

(٢) «تفسير البحر المحيط» ٧/ ٣٩٣ بشيء من الاختصار ، هذا هوا الحق الأبلج الذي ندين لله عز وجل به والذي يجب أن يعتقده المسلم في الأنبياء والمرسلين ، وانظر كتابنا «النبوة والأنبياء» ففيه بيان أوسع لهذه القصة وانظر «التفسير الكبير» للإمام الفخر الرازي فقد رد تلك الفرية من عشرة وجوه فأجاد وأفاد... «التفسير الكبير» ٢٦/ ١٨٩.

١ – المجاز المرسل ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ﴾ القرن مائة عام والهلاك لأهله ففيه مجاز.

٢ – وضع الظاهر مكان الضمير ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ بدل «وقالوا» لتسجيل جريمة الكفر عليهم.

٣ – صيغة المبالغة في كل من ﴿كَذَّابٌ ، ٱلۡعَزِيزُ ، ٱلۡوَهَّابِ ، أَوَّابٌ﴾.

٤ – التنوين للتقليل والتحقير وزيادة ﴿مَا﴾ لتأكيد القلة ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾.

٥ – تأكيد الجملة الخبرية بإن واللام لزيادة التعجب والإنكار ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٌ﴾.

٦ – الاستعارة البليغة ﴿وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ شبه المُلْك بخيمةٍ عظيمة شُدَّت أطنابها بالأوتاد لتثبت وترسخ ولا تقتلعها الرياح ففيه استعارة مكنيَّة، وذكرُ الأوتاد تخييل.

٧ – الطباق ﴿يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ لأن المراد المساء والصباح.

٨ – أسلوب التشويق ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ ورد الأسلوب بطريق التشويق.

٩ – أسلوب الإطناب ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلخ.

١٠ – توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٌ .. فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ .. جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٌ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ مما يزيد في روعة الكلام وجماله.

لطيفة: روى ابن كثير أن أبا زرعة دخل على الوليد بن عبد الملك فقال له الوليد: أخبرني أيحاسب الخليفة فإنك قد قرأت القرآن وفقهت! فقال يا أمير المؤمنين: أقول؟ قال: قل في أمان الله، قال: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أو داود عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ؟ إن الله تعالى جمع له بين الخلافة والنبوة ثم توعده في كتابه فقال ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ الآية، فكانت موعظة بليغة.

قال الله تعالى:

وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٠﴾ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ ﴿٤٦﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى إنكار المشركين للقرآن والرسالة والحشر والنشر، وأعقبها بذكر قصة داود تسلية للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامُ، ذكر هنا بعض البراهين على البعث والنشور، ثم بيَّن الحكمة من نزول القرآن، ثم تابع الحديث عن قصة سليمان بن داود تتميمًا وتكميلًا للهدف السامي من ذكر قصص القرآن.

اللغة: ﴿الْأَلْبَابِ﴾ العقول واحدها لبٌّ، ولبُّ الشيء صفوته وخلاصته؛ ولذلك سُمي العقل لُبًّا ﴿الصَّافِنَاتُ﴾ الخيول الواقفة على ثلاثة قوائم وطرف حافر الرابعة جمع صافن قال الفراء: الصافن في كلام العرب الواقف من الخيل أو غيرها قال الشاعر:

تَرَكْنَا الْخَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ ... مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَهَا صُفُونَا[1]

﴿الْجِيَادُ﴾ السِّراع السَّوابق في العدو قال المبرد: الجياد جمع جواد وهو الشديد الجري كما أن الجواد من الناس هو السريع البذل[2] ﴿تَوَارَتْ﴾ اختفت ﴿رُخَاءً﴾ لينة أو منقادة حيث أراد ﴿الْأَصْفَادِ﴾ سلاسل الحديد والأغلال واحدها صَفَد وفي الحديث: «صُفدت الشياطين» أي ربطت بالسلاسل[3] قال الشاعر:

فَآبُوا بِالنِّهَابِ وَبِالسَّبَايَا ... وَأُبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصَفَّدِينَا[4]

﴿ضِغْثًا﴾ الضغث: حزمة من الحشيش أو غيره مختلطة الرطب باليابس، وأصله: الشيء المختلط ومنه «أضغاث أحلام» للرؤيا المختلطة.

التفسير: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ أي ما خلقنا هذا الكون البديع بما فيه من المخلوقات العجيبة عبثًا وسُدى ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: خَلْقُ ما ذُكِر لا لحكمةٍ هو ظنُّ الكفار الفجار الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ أي فويلٌ للكفار من عذاب النار، ثم وبَّخهم تعالى على هذا الظنِّ السيِّء فقال ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ

---

(١) «تفسير الطبري» ١٥/ . (ش): أي قتلْناه، وحبسنا خَيْلنا عليه، وقد قلدناها أعِنَّتَها في حال صُفُونِها عنده. والأعِنَّة: جمع عِنان: وهو سَيْرُ اللِّجام الذي يُمْسَك به الفَرَسُ ونحوُه كي يُتحكّم في سيره. مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَهَا: قلدناها أعِنَّتَها: أي وضَعْنا أَعِنَّتَهَا في أعناقها.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٢٦/ ٢٠٤.

(٣) (ش): قال ﷺ: «إذا جاءَ رَمَضانُ فُتِّحَتْ أَبْوابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوابُ النَّارِ، وَصُفِّدَتِ الشَّياطِينُ». (رَواهُ مُسْلِمٌ).

(٤) (ش): آبَ: رجع وعاد. النِّهاب: جمع نَهْب، وهو المنهوب، أي ما يؤخذ قهرًا.

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؟ أي هل نجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين؟ ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أي أم نجعل الأخيار الأبرار كالأشرار الفجار؟ والغرض: أنه لا يتساوى في حكمته تعالى المحسنُ مع المسيء، ولا البَرُّ مع الفاجر، ففي الآية استدلال على الحشر والجزاء، وفيها أيضًا وعدٌ ووعيد قال ابن كثير: بيَّن تعالى أنه ليس من عدله وحكمته أن يساوي بين المؤمنين والكافرين، وإذا كان الأمر كذلك فلا بدَّ من جزاء[1] يُثاب فيها المطيع، ويعاقب فيها الفاجر، وقد دلت العقول السليمة على أنه لا بدَّ من جزاء ومعاد، فإنا نرى الظالم الباغي يزداد مالُه وولدُه ونعيمُه ويموت دون عقاب، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلا بدَّ في حكمة الحكيم العليم إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعيَّن أن هناك دارًا أُخرى لهذا الجزاء والمواساة وهي الدار الآخرة[2].. ثم بيَّن تعالى الغاية من نزول القرآن وهي العمل والتفكير فقال ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ ﴾ أي هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك يا محمد كتابٌ عظيم جليل، كثير الخيرات والمنافع الدينية والدنيوية ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي أنزلناه ليتدبروا آياته ويتفكروا بما فيها من الأسرار العجيبة، والحِكَم الجليلة ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي وليتعظ بهذا القرآن أصحاب العقول السليمة قال الحسن البصري: واللهِ ما تَدَبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إنَّ أحدهم ليقول: واللهِ لقد قرأتُ القرآن فما أسقطتُ منه حرفًا، وقد أسقطه واللهِ كلَّه، ما يُرَى للقرآن عليه أثرٌ في خُلُق ولا عمل[3]. اللهم اجعلنا ممن قرأه وتدبَّره وعمل بما فيه ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ﴾ شروعٌ في بيان قصة سليمان بن داود عليهما السلام أي رزقنا عبدنا داود بالولد الصالح المسمَّى سليمان وأعطيناه النبوة قال المفسرون: المراد بالهبة هنا هبة النبوة كما قال تعالى ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦] أي في النبوة، وإلا فقد كان له أولاد كثيرون غيره ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي نعم العبدُ سليمان فإنه كان كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ أي اذكر حين عُرض على سليمان عشية يوم من الأيام –أي بعد العصر– الخيل الواقفة على طرف الحافر، السريعة الجري قال الرازي: وُصفت تلك الخيل بوصفين: **الأول**: الصفون وهو صفة دالة على فضيلة الفرس، **والثاني**: الجياد وهي الشديدة الجري، والمراد وصفها بالفضيلة والكمال في حالي الوقوف والحركة، فإذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعًا في جريها[4] ﴿ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ

---

(١) (ش): هكذا في أكثرمن طبعة، والذي في «تفسير ابن كثير» (٧/ ٦٣) و «مختصره» للمؤلف (٢/ ٢٠٢): «وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَا بُدَّ مِنْ دَارٍ أُخْرَى».

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢/ ٢٠٢.

(٣) «تفسير الكاشف» ٤/ ٧٠.

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٢٦/ ٢٠٤.

عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ أي آثرت حبَّ الخيل حتى شغلتني عن ذكر الله قال المفسرون: عُرضت عليه آلاف من الخيل تركها له أبوه، فأُجريت بين يديه عشيًّا فتشاغل بحسنها وجريها ومحبتها عن ذكرٍ له خاص حتى غابت الشمس ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ أي حتى غابت الشمس واختفت عن الأنظار ﴿رُدُّوهَا﴾ أي قال سليمان: ردُّوا هذه الخيل عليَّ ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ أي فشرع يذبحها ويقطع أرجلها تقربًا إلى الله، لتكون طعامًا للفقراء لأنها شغلته عن ذكر الله قال الحسن: لما رُدَّت عليه قال: لا والله لا تشغليني عن طاعة ربي ثم أمر بها فعُقِرَت[١] وكذلك قال السدي[٢]، وأما قول من قال: إنها شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس فضعيف، لأنه لا يتصور من نبي أن يترك صلاة العصر من أجل اشتغاله بالدنيا، والنصُّ صريح ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ﴾ هذه إشارة إلى ابتلاء آخر لسليمان ابتلي به، ثم تاب وأناب من تلك الهفوة والزلة، ولعلَّ هذه الفتنة ما روي في الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «قَالَ سُلَيْمَانُ: لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ. وَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللهُ. فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا، فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلاَّ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللهُ. لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ»[٣] قال ابن كثير: «وقد أورد بعضُ المفسرين آثارًا كثيرة عن جماعةٍ من السلف، وأكثرها أو كلُّها مُتلقَّاة من الإسرائيليات، وفي كثير منها نكارة شديدة[٤]» واختار الإمام الفخر أن الفتنة المذكورة في الآية الكريمة يقصد بها فتنته في جسده، حيث إن سليمان ابتلي بمرضٍ شديد نحل منه وضعف، حتى صار لشدة المرض كأنه جسد ملقى على كرسي، قال والعرب تقول في الضعيف: إنه لحمٌ على وَضَم[٥]، وجسم بلا روح، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾

---

(١) (ش): عقَر الحيوانَ: ذبَحه.

(٢) روي عن ابن عباس أنه قال: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبًّا لها وتكرمة، وهذا القول اختاره ابن جرير، وأظهر قول الحسن البصري والسدي أنه ضرب أعناقها بالسيف ونحرها لأنها شغلته عن طاعة، ولهذا عوضه الله ما هو خير منها الريح التي هي أسرع من الخيل.

(٣) الحديث أخرجه البخاري ولكنه لم يذكر فيه أنه تفسير للآية فيحتمل أن يكون تفسيرًا ويحتمل غيره.

(٤) أشار ابن كثير إلى ما ذكره، بعض المغرمين بالروايات الضعيفة، والحكايات الإسرائيلية المصطنعة، حول فتنة سليمان التي أشار اليها القرآن الكريم هذه الإشاره الخاطفة ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ﴾ ومن أغربها وأنكرها ما رواه ابن أبي حاتم أن سليمان عليه السلام أراد أن يدخل الخلاء، فأعطى الجرادة. زوجته. خاتمه، وكانت احب نسائه إليه فجاءها الشيطان في صورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي فظنَّتْه سليمان فأعطته إياه، فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين...، إلخ، وكل هذه الروايات خرافات وأباطيل ردَّها المحققون من العلماء كابن كثير، والفخر الرازي، والبيضاوي والنسفي وغيرهم.

(٥) (ش): الوَضَم: خشبة الجزَّار التي يَقْطَع عليها اللَّحم.

أي رجـع إلى حالة الصحة [١] ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ أي اغفر لي ما صدر مني وأعطني ملكًا واسعًا لا يكون لأحدٍ غيري ليكون دلالة على نبوتي ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ أي واسع الفضل كثير العطاء ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ أي فذلَّلْنا الريح لطاعته إجابةً لدعوته ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي تسير بأمره لينةً طيبة حيث قصد وأراد ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي وسخرنا له الشياطين كذلك تعمل بأمره، منهم من يستخدمه لبناء الأبنية الهائلة العجيبة، ومنهم من يغوص في البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي وآخرين من الشياطين وهم المردة موثوقون في الأغلال، مربوطون بالقيود والسلاسل لكُفْرهم وتمردهم عن طاعة سليمان ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي وقلنا له: هذا عطاؤنا الواسع لك، فأعط من شئت وامنعْ من شئت، لا حساب عليك في ذلك، لأنك مطلق اليد فيما وهب الله لك من سلطة ومن نعمة ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي وإنّ له عندنا لَمكانةً رفيعة في الدنيا، وحسن مرجع في الآخرة ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ هذه هي القصة الثالثة في هذه السورة، والإضافة للتشريف، أي: اذكر يا محمد عبدنا الصالح أيوب عليه السلام، الذي ابتلي بأنواع البلاء فصبر. ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ أي حين نادى ربه متضرعًا إليه قائلًا: إني مسني الشيطان بتعبٍ ومشقة، وألم شديد في بدني قال المفسرون: وإنما نسبَ ذلك إلى الشيطان تأدبًا مع الله تعالى، وإنْ كانت الأشياء كلها خيرها وشرها من الله تعالى، وكان أيوب قد أُصيب في ماله وأهله وبدنه، وبقي في البلاء ثمان عشرة سنة، وقد تقدمت قصته [٢] ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أي وقلنا له اضرب برجلك الأرض فضربها فنبعت له عين ماءٍ صافية ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي وقلنا له: هذا ماءٌ تغتسل به، وشراب تشرب منه، فاغتسل منها فذهب ما كان بظاهر جسده، وشرب منها فذهب كل مرضٍ كان داخل جسده قال أبو حيان: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ﴾ أي ما يُغتسل به ﴿وَشَرَابٌ﴾ أي ما يشرب منه، فباغتسالك يبرأ ظاهرك، وبشربك يبرأ باطنك، والجمهور على أنه نبعت له عينان، شرب من إحداهما واغتسل من الأُخرى فشفي [٣] ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أي أحيا الله من مات من أولاده ورزقه مثله. قال الرازي: الأقرب أن الله تعالى متَّعه بصحته وبماله وقوَّاه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك. وعن الحسن أنه أحياهم بعد أن هلكوا [٤] وقال أبو حيان: الجمهور على أنه تعالى أحيا له من مات من أهله، وعافى المرضى، وجمع عليه من شُتِّت منهم [٥] ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي رحمةً منّا

---

(١) انظر «تفسير الكبير» للرازي ٢٦/ ٢٠٨ فقد أجاد فيه وأفاد، وكتابنا «النبوه والأنبياء».

(٢) انظر قصته في سورة الأنبياء من هذا التفسير.

(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٤٠١.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٦/ ٢١٥.

(٥) «البحر المحيط» ٧/ ٤٠١.

به لصبره وإخلاصه ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي وعبرة لذوي العقول المستنيرة قال ابن كثير: أي وذكرى لذوي العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج [١] ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ أي وقلنا له: خذْ بيدك حزمة من القضبان الرفيعة فاضرب بها زوجتك لتبرَّ بيمينك ولا تحنث قال المفسرون: كان أيوب قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوطٍ إذا برئ من مرضه، وسبب ذلك أنها كانت تخدمه في حالة مرضه، فلما اشتد به البلاء وطالت به المدة وسوس إليها الشيطان: إلى متى تصبرين؟ فجاءت إلى أيوب وفي نفسها الضجر فقالت له: إلى متى هذا البلاء؟ فغضب من هذا الكلام وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة سوط، فأمره الله أن يأخذ حزمةً من قضبانٍ خفيفة فيها مائة عود ويضربها بها ضربة واحدةً ويبرَّ في يمينه، ورحمةً من الله به وبزوجه التي قامت على رعايته، وصبرت على بلائه، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ولهذا قال تعالى ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ أي ابتليناه فوجدناه صابرًا على الضراء ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي نعم العبد أيوب إنه كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة والعبادة ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ أي اذكر يا محمد هؤلاء الأنبياء الأخيار وتأسَّ بهم، الذين جمعوا بين القوة في العبادة، والبصائر في الدين قال الطبري: أي أهل القوة في عبادة الله، وأهل العقول المبصرة [٢] ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ أي خصصناهم بخصلةٍ خالصة عظيمة الشأن، هي عدم التفاتهم إلى الدنيا وتذكرهم للدار الباقية قال مجاهد: جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هَمٌّ غيرها [٣] ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ أي وهم عندنا المختارون المجتبَون على سائر الناس لأنهم أخيار أبرار ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ أي واذكر يا محمد هؤلاء الرسل أيضًا وكُلٌّ من خيرة الله فاقتد بهم في الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد من سيرة الرسل الكرام ذكرٌ جميلٌ لهم في الدنيا، وشرفٌ يذكرون به أبدًا ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي وإن لكل مُتَّقٍ لله مطيع لِرسُله لَحُسنَ مَرجع ومنقلب، ثم فسره بقوله ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ أي جنات إقامة في دار الخلد والنعيم قد فتحت لهم أبوابها انتظارًا لقدومهم قال الرازي: إن الملائكة الموكلين بالجنان إذا رأوا المؤمنين فتحوا لهم أبوابها، وحيوهم بالسلام، فيدخلون كذلك محفوفين بالملائكة على أعزِّ حال، وأجمل هيئة [٤] ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ أي متكئين في الجنة على الأرائك وهي السرر الوثيرة [٥]. ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ أي

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٠٥.
(٢) «تفسير الطبري» ٢٣/ ١٠٩.
(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٠٦.
(٤) «التفسير الكبير» ٢٦/ ٢٢١.
(٥) (ش): وَثير: ليِّنٌ ناعمٌ.

وهم متكئون على الأسـرَّة يطلبون أنواع الفواكه، وألوان الشـراب كعادة الملوك في الدنيا قال ابن كثير: أي مهما طلبوا وجدوا، ومن أي أنواع شاءوا أتتهم به الخدام قال الصاوي: والاقتصار علـى دعـاء الفاكهة للإيذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذي لأنه لا جوع في الجنـة[1] ﴿وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ أي وعندهـم الحـور العين اللواتي لا ينظـرن إلى غير أزواجهـن أتراب، أي: في سـنٍّ واحـدة ﴿هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي هـذا جزاؤكم الذي وُعِدتُم به في الدنيا ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ أي هذا النعيم عطاؤنا لأهل الجنة لا زوال له ولا انقطاع ولا انتهاءً أبدًا.

قال الله تعالى:

هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ

المناسَبَة: لمّا ذكر تعالى مآل السعداء المتقين، ثنَّى بذكر حال الأشقياء المجرمين، ثم ذكر الأدلة على صدق رسـالـة محمد ﷺ وختم السـورة الكريمة بذكر قصة آدم وإبليس وامتناعه عن السجود لآدم، تحذيرًا للبشر من عدوهم الأكبر ومن وساوسه وإغوائه.

اللغَة: ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ الغسَّاق: ما يخرج من لحوم الكفرة من الصديد والقيح والنتن ﴿زَاغَتْ﴾ مالت ﴿سِخْرِيًّا﴾ بكسر السين وهو الهزء والسخرية ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ الاقتحام: ركوب الشدة والدخول فيها ومنه اقتحام المخاطر ﴿سَوَّيْتُهُۥ﴾ أتممت خلقه على أكمل الوجوه ﴿ٱلْعَالِينَ﴾ المتكبرين،

(١) «حاشية الصاوي» ٣/ ٣٦١.

وعلا في الأرض: تكبر وتجبر ﴿رَجِيمٌ﴾ مرجوم بالكواكب والشهب.

التفسير: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ ﴿هَٰذَا﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره الأمرُ هذا وهي بمنزلة أما بعد، ثم قال ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ أي وإنَّ للكافرين الذين كذبوا الرسل، لشرَّ منقلب يصيرون إليه في الآخرة ثم فسَّر هذا المصير بقوله ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي جهنم يذوقونها ويصلون سعيرها، وبئست جهنم فراشًا ومهادًا لهم قال ابن جزي: لما تمَّ ذكر أهل الجنة ختمه بقوله ﴿هَٰذَا﴾ ثم ابتدأ بذكر وصف أهل النار، وعنى بالطاغين الكفار(١) ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أي هذا هو العذاب الأليم فليذوقوه وهو الحميم، أي: الماء الحار المحرق، والغسَّاق وهو ما يسيل من صديد أهل النار قال الطبري: في الآية تقديم وتأخير، أي: هذا حميم وغساق فليذوقوه، والحميمُ الذين أُغلي حتى انتهى حره، والغسَّاق ما يسيل من جلودهم من الصديد والدم(٢) ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ أي وعذابٌ آخر من هذا العذاب المذكور كالزمهرير، والسموم، وأكل الزقوم لهم منه أنواع وأصناف.. ثم حكى ما يقال للرؤساء الطاغين إذا دخلوا النار فقال ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم: هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار، ودخلوها بصحبتكم كما اقتحموا معكم في الجهل والضلال، لا أهلًا ولا مرحبًا بهم ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ أي إنهم ذائقو النار، وداخلوها كما دخلتموها أنتم قال الرازي: والاقتحامُ ركوبُ الشدة والدخولُ فيها، وهذا من كلام خزنة جهنم لرؤساء الكفرة عن أتباعهم، والعرب تقول لمن يدعون له: مرحبًا، أي: أتيتَ رحبًا في البلاد لا ضيِّقًا، ثم يدخلون عليها كلمة «لا» في دعاء السوء(٣) ﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ أي قال الأتباع للرؤساء الطغاة الذين أضلوهم: بل أنتم لا أهلًا بكم ولا مرحبًا قال المفسرون: عندما يدخل الأتباع جهنم تتلقاهم الرؤساء بقولهم ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ أي تلقون هنا رحبًا ولا خيرًا وهذه تحية أهل النار كما قال تعالى ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨] فعند ذلك يقول لهم الداخلون ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ وهذا على حدِّ قولِ القائل: « تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ »(٤). فكذلك أهل النار يتلقون بعضهم باللعنات والشتائم بدل التحايا والسلام، ثم يعلِّل الأتباع ذلك بقولهم ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي أنتم قدمتم لنا هذا العذاب وكنتم السبب في ضلالنا، فبئس المنزل والمستقر لنا ولكم نار جهنم ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ هذا أيضًا من كلام الأتباع دعوا الله أن يضاعف العذاب لرؤسائهم الذين

---

(١) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٨٧.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٣/ ١١٣.

(٣) «التفسير الكبير» للرازي ٢٦/ ٢٢٢.

(٤) (ش): أَيِ: الْقَائِمُ مَقَامَ التَّحِيَّةِ هُوَ الضَّرْبُ الْوَجِيعُ.

أوجبوا لهم العذاب فهو كقولهم. ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف:٣٨] والضعفُ زيادة المثل[١] قال البيضاوي: وقال الأتباع أيضًا ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي مضاعفًا وذلك أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين [٢] ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾؟ أي وقال الطغاة من رؤساء الكفر وأئمة الضلال: ما لنا لا نرى في النار هؤلاء الذين كنا نعدُّهم في الدنيا من الأشرار؟ يعنون بهم المؤمنين قال ابن عباس: يريدون أصحاب محمد ﷺ يقول أبو جهل: أين بلال، أين صهيب، أين عمار؟ أولئك في الفردوس (واعجبًا لأبي جهل) مسكين، أسلم ابنه عكرمة، وابنته جويرية، وأسلمت أُمه، وأسلم أخوه وكفر هو[٣] قال ابن كثير: هذا إِخبار عن الكفار في النار، أنهم يفتقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة وهم المؤمنون، يقول أبو جهل: ما لي لا أرى بلالًا وعمارًا وصهيبًا وفلانًا وفلانًا؟ وهذا ضربُ مثل وإلا فكل الكفار هذا حالهم، يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخلها الكفار افتقدوهم فلم يجدوهم[٤]، ثم قالوا ﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾؟ أي يؤنبون أنفسهم قائلين: أجعلنا هؤلاء المؤمنين في الدنيا هزءًا وسخرية؟ أم هم معنا في النار ولكن لا نراهم؟ قال البيضاوي: إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسخار من المؤمنين، كأنهم قالوا: ليسوا ههنا في النار؟ أم مالت عنهم أبصارنا فلا نراهم[٥]؟ قال تعالى ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ أي إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أقوال أهل النار وتخاصمهم، لهو الحقُّ الذي لا بدَّ وأن يتكلموا به، فنحن نخبرك عن قول الرؤساء ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ وقول الأتباع ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ من باب الخصومة[٦] ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ هذا شروع في بيان مهمة الرسول ﷺ وفي إثبات الوحدانية، والمعاد، والجزاء، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إِنما أنا رسولٌ من رب العالمين، أُنذركم وأخوفكم من عذابه إن لم تؤمنوا، ولستُ بساحرٍ ولا شاعر ولا كاهن ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ أي وليس لكم ربٌّ ولا معبود إلا الواحد الأحد، الغالب على خلقه، القاهر لكل شيء ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي خالق جميع ما في الكون من الخلائق والعجائب، والمتصرف فيها بالإِيجاد والإِعدام ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أي الغالب على أمره الذي لا يُغلب، المبالغ في المغفرة لمن شاء من العباد قال الرازي: لما ذكر أنه ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ وهذا مشعر بالترهيب والتخويف، أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب

(١) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٨٨.

(٢) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٥١.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٢٤.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٠٧.

(٥) «تفسير البيضاوي » ٢/ ١٥١.

(٦) «التفسير » ٢٦/ ٢٣٣.

وذكر ثلاث صفات دالة على الرحمة، والفضل والكرم وهي: «الرب، العزيز، الغفار» فكونه ربًّا مشعر بالتربية والإحسان، وكونه عزيزًا مشعرٌ بأنه قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء، وكونه غفارًا مشعر بالترغيب وأنه يرجى فضله وثوابه، فلو بقي الإنسان على الكفر سبعين سنة، ثم تاب فإن الله سبحانه يغفر له برحمته جميع ذنوبه، ويمحو اسمه من ديوان المذنبين، ويوصله إلى درجات الأبرار[١] ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن هذا القرآن الذي جئتكم به هو نبأ هام وأمر عظيم الشأن، أنتم عنه غافلون لا تلتفون إليه ولا تعلمون قدره ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي من أين لي العلم باختلاف الملائكة في شأن خلق آدم لولا الوحي المنزل عليَّ؟ قال ابن جزي: والقصدُ الاحتجاج على نبوة محمد ﷺ لأنه أخبر بأمور لم يكن يعلمها قبل ذلك، والإشارة إلى اختصام الملائكة هو ما جاء في قصة آدم حين قال تعالى لهم ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] حسبما تضمنته قصته في مواضع من القرآن[٢] ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما يوحى إليَّ إلا لأني رسولٌ مرسل إليكم لأنذركم عذاب الله، ومعنى النذير المنذر المخوّف من عذاب الله، ثم شرع تعالى في ذكر قصة آدم فقال ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ أي اذكر حين أعلم ربك الملائكة أنه سيخلق إنسانًا من طين وهو آدم عليه السلام ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أي فإذا أتممْتُ خلقه ونفَخْتُ فيه الروح فاسجدوا إكرامًا له وإعظامًا قال القرطبي: وهذا سجود تحية لا سجود عبادة[٣] ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أي فسجد جميع الملائكة خضوعًا له وتعظيمًا لأمر الله بالسجود له ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي لكن إبليس استكبر عن طاعة الله وأبى السجود لآدم فصار من الكافرين قال ابن كثير: امتثل الملائكة كلهم سوى إبليس، ولم يكن منهم جنسًا كان من الجن[٤]، فخانه طبعُه وجِبلَّتُه فاستَنْكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه عَزَّ وَجَلَّ فيه، وادعى أنه خيرٌ من آدم، فكفر بذلك وطرده الله عن باب رحمته، ومحل أنسه، وحضرة قدسه ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾؟ أي: قال له ربه: ما الذي صرفك وصدَّك عن السجود لمن خلقْتُه بذاتي[٥]. من غير واسطة أب

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٦/ ٢٢٤.

(٢) «التسهيل في علوم التنزيل» ٣/ ١٨٩.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٢٧.

(٤) هذا هوا الرأي الصحيح أن أبليس من الجن وليس من الملائكة، وقد تقدم قول الحسن البصري: «لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين»! وهذا هو الرأي الذي تطمئن إليه النفس وترتاح، وتدل عليه النصوص الكريمه كقوله تعالي ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾، وانظر الأدلة في كتابنا «النبوة والأنبياء» ١/ ١٢٨.

(٥) (ش): تفسير اليدين بالذات تعطيل للصفات وجحد ليدَي الله الكريمتين. فاليدان صفةٌ ذاتيةٌ خبريَّةٌ لله عَزَّوجَلَّ، نثبتها كما نثبت باقي صفاته تعالى؛ من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، وهي ثابتةٌ بالكتاب والسنة.

وأم؟ قال القرطبي: أضاف خلقه إلى نفسه تكريمًا لآدم وإن كان خالق كل شيء، كما أضاف إلى نفسه الروح، والبيت، والناقة، المساجد، فخاطب الناس بما يعرفونه ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾؟ أي استكبرتَ الآن عن السجود أم كنت قديمًا من المتكبرين على ربك؟ وهذا على جهة التوبيخ له لاستنكافه عن السجود ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أي قال اللعينُ: أنا خير من آدم وأشرف وأفضل ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ أي لأنني مخلوق من النار، وآدم مخلوق من الطين، والنار خيرٌ من الطين، فكيف يسجد الفاضل للمفضول؟ ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي اخرج من الجنة فإنك لعين مطرود من كل خيرٍ وكرامة ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي وأنت مبعدٌ عن رحمتي إلى يوم الجزاء والعقوبة ثم تلقى ما هو أفظع وأشنع من اللعنة ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي أخرني وأمهلني إلى اليوم الذي تبعث فيه الخلائق من القبور قال أبو السعود: أراد بذلك أن يجد فسحةً لإغوائهم، ويأخذ منهم ثأره، وينجو من الموت بالكلية إذ لا موتَ بعد البعث فأجابه الله بأنه مؤخر إلى وقت النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذي طلبه[1] ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ أي إنك من الممهلين إلى وقت النفخة الأولى حيث يموت الناس وتنتهي مهمتك ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي قال اللعين: أُقسم بعزتك لأُضلنَّ بني آدم أجمعين، إلا الذين أخلصتهم لعبادتك وعصمتهم مني ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي قال تعالى: أقسم بالحقِّ ولا أقول إلا الحقَّ لأملأن جهنم منك ومن أتباعك قال السُّدي: هو قسم أقسم الله به[2]، وجملة «والحقَّ أقول» اعتراضية لتأكيد القسم ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا، ولست من الذين يتصنعون ويتحيلون حتى انتحل النبوة وأتقوَّل القرآن ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن إلا عظة وذكرى للإنس والجن والعقلاء ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ أي لتعملنَّ خبره وصدقه عن قريب، وهذا وعيدٌ وتهديد قال الحسن البصري: يا بن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - المقابلة بين المؤمنين والمفسدين، وبين المتقين والفجار ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] وهذا من ألطف أنواع البديع.

٢ - الكناية ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣] كنَّى عن العقر والذبح بالمسح

---

(١) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٩٨.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٠٩.

وهي كناية بليغة.

٣ – الطباق بين ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ [ص: ٣٩] لأنها بمعنى أعط من شئت، وامنع من شئت.

٤ – مراعاة الأدب ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [ص: ٤١] أسند الضرر إلى الشيطان أدبًا، والخير والشر بيد الله تعالى.

٥ – الاستعارة التصريحية ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥] استعار الأيدي للقوة في العبادة والأبصار للبصيرة في الدين.

٦ – المقابلة الرائعة ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ [ص: ٤٩-٥٠] ثم قابل ذلك بقوله ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ ويا له من تصوير رائع!

٧ – التأكيد بمؤكدين ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ فقد أكده أولًا بلفظ (كل) ثم بلفظ (أجمعون).

٨ – مراعاة الفواصل وهي من خصائص القرآن ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾ فمثل هذا البيان الرائع والجرس العذب، يسري في النفس سريان الروح في الجسد، وأقسم بالله أنني أشعر بهزة في نفسي كلما قرأتُ القرآن، لما له من وقع عذب على السمع، وأحيانًا أجدني أتمايل طربًا بدون شعور، أكثر مما يتمايل المُغْرَمون بالأنغام، وما ذلك إلا لروعة البيان في هذا القرآن[1]، وصدق رسول الله حين قال « **إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا** »[2].

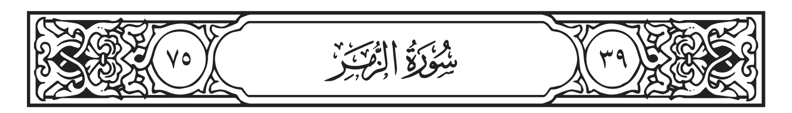
«تم بعونه تعالى تفسير سورة ص ولله الحمد والمنة»

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) (ش): المطلوب عند تلاوة القرآن الخشوع لا الطرب والتمايل، ويجب أن ينزه القرآن عن مثل هذا الكلام، ولو كان هذا الفعل خيرًا لَسَبَقنا إليه مَن هم خير منا النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

(٢) (ش): رواه البخاري ومسلم.



مكية وآياتها خمس وسبعون

بين يدي السورة

* سورة الزمر مكية، وقد تحدثت، عن «عقيدة التوحيد» بالإسهاب، حتى لتكاد تكون هي المحور الرئيسي للسورة الكريمة لأنها أصل الإيمان، وأساس العقيدة السليمة، وأصل كل عمل صالح.

* ابتدأت السورة بالحديث عن القرآن «المعجزة الكبرى» الدائمة الخالدة لمحمد بن عبد الله، وأمرت الرسول بإخلاص الدين لله وتنزيهه جل وعلا من مشابهة المخلوقين، وذكرت شبهة المشركين في عبادتهم للأوثان واتخاذهم شفعاء، وردت على ذلك بالدليل القاطع.

* ثم ذكرت الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، في إبداعه لخلق السماوات والأرض وفي ظاهرة الليل والنهار، وفي تسييره للشموس والأقمار، وفي خلق الإنسان في أطوار في ظلمات الأرحام، وكلها براهين ساطعة على قدرة الله ووحدانيته.

* وتناولت السورة موضوع العقيدة بوضوح وجلاء، وكشفت عن مشهد الخسران المبين للكفرة المجرمين في دار الجزاء، حيث يذوقون ألوان العذاب، وتغشاهم ظلل من النار من فوقهم ومن تحتهم.

* وذكرت السورة مثلًا يوضح الفارق الكبير بين من يعبد إلهًا واحدًا، ومن يعبد آلهة متعددة لا تسمع ولا تستجيب، وهو مثل للعبد الذي يملكه شركاء متخاصمون، والعبد الذي يملكه سيد واحد، ثم ذكرت حالة المشركين النفسية عندما يسمعون توحيد الله تنقبض قلوبهم، وإذا سمعوا ذكر الطواغيت هشوا وبشوا.

* ثم جاءت الآيات طرية ندية تدعو العباد إلى الإنابة لربهم، والرجوع إليه، قبل أن يداهمهم الموت بغتة، أو يفاجئهم العذاب من حيث لا يشعرون، وحينئذٍ يتوبون ويندمون في وقت لا ينفع فيه توبة ولا ندم.

* وختمت السورة الكريمة بذكر نفخة الصعق، ثم نفخة البعث والنشور، وما يعقبهما من أهوال الآخرة وشدائدها، وتحدثت عن يوم الحشر الأكبر، حيث يساق المتقون الأبرار إلى الجنة زمرًا، ويساق المجرمون الأشرار إلى جهنم زمرًا، في مشهد هائل يحضره الأنبياء والصديقون والشهداء الأبرار، والوجود كله يتجه إلى ربه بالحمد والثناء في خشوع واستسلام.

التسمية: سميت «سورة الزمر» لأن الله تعالى ذكر فيها زمرة السعداء من أهل الجنة، وزمرة الأشقياء من أهل النار، أولئك مع الإجلال والإكرام، وهؤلاء مع الهوان والصغار.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ۗ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ

اللغة: ﴿زُلْفَىٰ﴾ قربى، ومنه ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] أي قرّبت لهم ﴿يُكَوِّرُ﴾ التكوير: اللَّفُ والليُّ يقال: كوَّر العمامة، أي: لَفَّها ﴿خَوَّلَهُ﴾ أعطاه وملَّكه ﴿قَانِتٌ﴾ مطيع خاضع عابد ﴿أَندَادًا﴾ أوثانًا وأصنامًا ﴿ظُلَلٌ﴾ جمع ظُلَّة وهي ما يُظل الإنسان من سقف ونحوه ﴿الطَّاغُوتَ﴾ من الطغيان وهو مجاوزة الحدِّ، والمراد بالطاغوت كل ما عُبد من دون الله من وثن أو بشر أو حجر ﴿وَأَنَابُوا﴾ رجعوا ﴿غُرَفٌ﴾ منازل رفيعة عالية في الجنة، والغرفة:

المنزلة والمكانة السامية ومنه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥].

التفسير: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ أي هذا القرآن تنزيلٌ من الله جل وعلا ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ أي القادر الذي لا يُغلب ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ أي الذي يفعل كل شيء بحكمةٍ وتقدير وتدبير ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي نحن أنزلنا عليك يا محمد القرآن العظيم متضمنًا الحق الذي لا مرية فيه، والصدق الذي لا يشوبه باطل أو هزل ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي فاعبد الله وحده مخلصًا له في عبادتك، ولا تقصد بعملك ونيتك غير ربك ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها الناس: إن الله تعالى لا يقبل إلا ماكان خالصًا لوجهه الكريم لأنه المتفرد بصفات الألوهية، المطَّلع على السرائر والضمائر، ومعنى «الخالص» الصافي من شوائب الشرك والرياء ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي وهؤلاء المشركون الذين عبدوا من دونه الأوثان يقولون ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ أي ما نعبد هذه الآلهة والأصنام إلا ليقربونا إلى الله قربى ويشفعوا لنا عنده قال الصاوي: كان المشركون إذا قيل لهم: من خلقكم؟ ومن خلق السمواتِ والأرض؟ من ربكم ورب آبائكم الأولين؟ فيقولون: الله، فيقال لهم: فما معنى عبادتكم الأصنام؟ فيقولون: لتقربنا إلى الله زلفى وتشفع لنا عنده[١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أي يحكم بين الخلائق يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، فيُدخِل المؤمنين الجنة، والكافرين النار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ أي لا يوفق للهدى، ولا يرشد للدين الحق من كان كاذبًا على ربه، مبالغًا في كفره، وفي الآية إشارة إلى كذبهم في تلك الدعوى ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا﴾ أي لو شاء الله اتخاذ ولد على سبيل الفرض والتقدير ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي لاختار من مخلوقاته ما يشاء ولدًا على سبيل التبني إذ يستحيل أن يكون ذلك في حقه تعالى بطريق التوالد المعروف ولكنه لم يشأ ذلك لقوله ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢] وقوله ﴿مِمَّا يَخۡلُقُ﴾ أي من المخلوقات التي أنشأها واخترعها ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ أي تنزه جل وعلا وتقدس عن الشريك والولد، لأنه هو الإله الواحد الأحد، المنزَّه عن النظير والمثيل، القاهر لعباده بعظمته وجلاله قال في التسهيل: نزَّه تعالى نفسه من اتخاذ الولد، ثم وصف نفسه بالواحد لأن الوحدانية تنافي اتخاذ الولد، لأنه لو كان له ولدٌ لكان من جنسه ولا جنس له لأنه واحد، ووصف نفسه بالقهار ليدل على نفي الشركاء والأنداد، لأن كل شيء مقهور تحت قهره تعالى، فكيف يكون شريكًا له[٢]؟ ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته وعظمته، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي خلقهما على أكمل الوجوه وأبدع الصفات، بالحق

---

(١) «حاشية الصاوي» على الجلالين ٣/ ٣٦٦.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٣/ ١٩١.

الواضح والبرهان الساطع ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ أي يُغشِي الليل على النهار، ويُغشِي النهار على الليل، وكأنه يلفُّ عليه لفَّ اللباس على اللابس قال القرطبي: وتكويرُ الليل على النهار تغشيتُه إياه حتى يُذهب ضوءه، ويغشي النهار على الليل فيذهب ظلمته وهذا منقول عن قتادة. وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾[1] ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ أي ذلَّلهما لمصالح العباد ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ أي كلٌّ منهما يسير إلى مدة معلومة عند الله تعالى، ثم ينقضي يوم القيامة حين تُكوَّر الشمسُ وتنكَدِر النجوم[2] ﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ أي هو جل وعلا كامل القدرة لا يغلبه شيء، عظيم الرحمة والمغفرة والإحسان قال الصاوي: صُدِّرت الجملة بحرف التنبيه «ألا» للدلالة على كمال الاعتناء بمضمونها كأنه قال: تنبهوا يا عبادي فإني أنا الغالب على أمري، والستَّار لذنوب خلقي فأخلصوا عبادتكم ولا تشركوا بي أحدًا.[3] ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ أي خلقكم أيها الناس من نفسٍ واحدة هي آدم، وهذا من جملة أدلة وحدانيته، وانفراده بالعزة والقهر، وجميع صفات الألوهية ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ أي ثم خلق من آدم وحواء ليحصل التجانس والتناسل قال الطبري: المعنى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ يعني آدم (ثم خلق منها زوجها) يعني حواء خلقها من ضلعٍ من أضلاعه[4] ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ أي وأوجد لكم من الأنعام المأكولة وهي الإبل، والبقر، والغنم، والمعز، ثمانية أزواج من كل نوعٍ ذكرًا وأنثى قال قتادة: من الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، كلٌّ واحدٍ زوج[5]، وسميت أزواجًا لأن الذكر زوج الأنثى، والأنثى زوج الذكر قال المفسرون: والإنزالُ عبارةٌ عن نزول أمره وقضائه[6] ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ أي يخلقكم في بطون أمهاتكم أطوارًا، فإن الإنسان يكون نطفة، ثم علقة، ثم مضغة إلى أن يتم خلقه، ثم ينفخ فيه الروح فيصير خلقًا آخر ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ﴾ هي البطن، والرحم، والمَشِيمَة، وهو الكيس الذي يغلفُ الجنين ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ أي ذلكم الخالق المبدع المصوّر هو الله ربُّ العالمين، ربكم وربُّ آبائكم الأولين ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ أي له الملك والتصرف التام، في الإيجاد والإعدام ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحقٍّ إلا الله ولا ربَّ لكم سواه ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾؟ أي فكيف تنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟ ثم بعد أن ذكَّرهم بآياته ونعمه، حذَّرهم من الكفر

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٣٥.

(٢) (ش): فتُلَفُّ الشمس ويذهب ضَوْءُها، وتتناثر النجوم ويذهب نورها.

(٣) «حاشية الصاوي» ٣/ ٣٦٦.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٣/ ١٢٤. (ش): قال ﷺ: «**إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ**» (رواه البخاري ومسلم).

(٥) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٣٥.

(٦) (ش): قال السعدي: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ أي: خلقها بقدَرٍ نازل منه، رحمةً بكم.

والجحود لفضله وإحسانه فقال ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴾ أي إن تكفروا أيها الناس بعد ما شاهدتم من آثار قدرته وفنون نعمائه، فإن الله مستغنٍ عنكم وعن إيمانكم وشكركم وعبادتكم ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ أي لا يرضى الكفر لأحدٍ من البشر قال الرازي: أشار تعالى إلى أنه وإن كان لا ينفعه إيمان، ولا يضره كفران، إلا أنه لا يرضى بالكفر بمعنى أنه لا يمدح صاحبه ولا يثيبه عليه وإن كان واقعًا بمشيئته وقضائه[(١)] ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي وإن تشكروا ربكم يرض هذا الشكر منكم، لأجلكم ومنفعتكم لا لانتفاعه بطاعتكم قال أبو السعود: عدم رضائه بكفر عباده لأجل منفعتهم ودفع مضرَّتهم، رحمة بهم لا لتضرره تعالى بذلك، ورضاه بشكرهم لأجلهم ومنفعتهم لأنه سبب فوزهم بسعادة الدارين، ولهذا فرَّق بين اللفظين فقال «ولا يرضى لعباده الكفر» وقال هنا «يرضه لكم» لأن المراد بالأول تعميم الحكم ثم تعليله بكونهم عباده[(٢)] ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي ولا تحمل نفسٌ ذنب نفسٍ أخرى، بل كُلٌّ يؤاخذُ بذنْبه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ أي ثم مرجعكم ومصيركم إليه تعالى ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي يعلم ما تُكِنُّه السرائر وتُخفِيه الضمائر، وفيه تهديدٌ وبشارة للمطيع ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ أي وإذا أصاب الإنسان الكافر شدة من فقر ومرض وبلاء ﴿دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي تضرع إلى ربه في إزالة تلك الشدة، مقبلًا إليه مخبتًا مطيعًا ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي ثم إذا أعطاه نعمةً منه وفرَّج عنه كربته ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو ربه لكشفه وتمرَّد وطغى ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي وجعل لله شركاء في العبادة ليصد عن دين الله وطاعته ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أمرٌ للتهديد أي تمتع بهذه الحياة الدنيا الفانية، وتلذَّذ فيها وأنت على كفرك، عمرًا قليلًا وزمنًا يسيرًا ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي فمصيرك إلى نار جهنم، وأنت من المخلدين فيها ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ استفهام حذف جوابه لدلالة الكلام عليه، أي: أم من هو مطيع عابد في ساعات الليل يتعبد ربه في صلاته ساجدًا وقائمًا كمن أشرك بالله وجعل له أندادًا؟ قال القرطبي: بيَّن تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذي مضى ذكره[(٣)] ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ أي حال كونه خائفًا من عذاب الآخرة، راجيًا رحمة ربه وهي الجنة، هل يستوي هذا المؤمن التقي مع ذلك الكافر الفاجر؟ لا يستوون عند الله، ثم ضرب مثلًا فقال ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟ أي هل يتساوى العالم والجاهل؟ فكما لا يتسوي هذان كذلك لا يستوي المطيع والعاصي[(٤)]

---

(١) التفسير ٢٦/ ٢٤٦. (ش): تفسير معنى رضا الله بالمدح والإثابة، تأويلٌ للصفة عن معناها الصحيح، الذي هو الرضا الحقيقي اللائق به ﷻ.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٣٠٢.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٣٨.

(٤) أنظر حاشيه زاده علي البيضاوي ٣/ ١٩٢.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي إنما يعتبر ويتعظ أصحاب العقول السليمة قال الإمام الفخر: واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل، وختم فيها بذكر العلم، أما العمل فهو القنوت، والسجود، والقيام، وأما العلم ففي قوله ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟ وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصورٌ في هذين المقصودين، فالعمل هو البداية، والعلم والمكاشفة هو النهاية[1]، وفي الكلام حذف تقديره أمَّن هو قانتٌ كغيره؟ وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر، ثم مثَّل بالذين يعلمون، وفيه تنبيه عظيم على فضيلة العلم[2] ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ أي قل يا محمد لعبادي المؤمنين يجمعوا بين الإيمان وتقوى الله وهي البعدُ عن محارم الله قال المفسرون: نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض

---

(١) (ش): هذا خلاف ما يدل عليه قوله تعالى ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ فبدأ بالعلم قبل القول والعمل. موقف أهل السنة من الكشف: الكشف في الاصطلاح عند أهل السنة نوع من الخوارق، وذلك بأن يسمع الشخص ما لا يسمعه غيره، أو يرى ما لا يراه غيره، أو أن يعلم ما لا يعلمه غيره، إما من طريق الوحي والإلهام وهذا للمؤمن، وقد يكون كرامة من الله لعبده، وقد يحصل للنفس نوع من الكشف، إما يقظة وإما منامًا بسبب قلة علاقتها مع البدن، إما برياضة أو بغيرها، وهذا هو الكشف النفساني، وهو مشترك بين المؤمن والكافر. والكشف الصحيح أن يعرف الحق الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، معاينةً لقلبه، فينكشف له من غوامض علوم الدين ما لا ينكشف لغيره، ويكون مع علمه عاملًا، فهذا من كشف الأولياء، وهو كشفٌ ظاهرُ المنفعة. ومن الكشف ما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة، كالاطلاع على سيئات العباد. ولابد أن يقترن الدين بالكشف، وإلا هلك صاحبُه في الدنيا والآخرة، أما في الآخرة فلعدم الدين الذي هو أداء الواجبات وترك المحرمات، وأما في الدنيا فإن الخوارق هي من الأمور الخطرة، التي لا تنالها النفوس إلا بمخاطرات في القلب والجسم والأهل والمال. وما يحصل بالزهد والعبادة والرياضة والتصفية والخلوة، وغير ذلك، من المعارف، متى خالف الكتاب والسنة، أو خالف العقل الصريح، فهو باطل، ومن زعم أنه يجد في الكشف ما يناقض صريح العقل، أو يَرِدُ عليه أمر يخالف الكتاب والسنة بحيث يكون خارجًا عن طاعة الرسول - ﷺ - وأمْرِه، أو أنه يحصل له علم مفصل بجميع ما أخبر به الرسول - ﷺ - وأمَرَ به، فهو ضال مُبْطِل، بل زنديق منافق. وما يُعلم بالكشف قد يكون صحيحًا وقد يكون خاطئًا، فأهل المكاشفات والمخاطبات يصيبون تارة، ويخطئون أخرى، كأهل النظر والاستدلال في موارد الاجتهاد، ولهذا وجب عليهم جميعهم أن يعتصموا بكتاب الله، وسنة رسوله - ﷺ -، وأن يَزِنُوا كشفهم، ومشاهدتهم، وآراءهم، ومعقولاتهم، بكتاب الله، وسنة رسوله، ولا يكتفوا بمجرد ذلك، فإن سيد المحدَّثين والمخاطَبين المُلهَمين من هذه الأمة هو عمر بن الخطاب، وقد كانت تقع له وقائع، فيردها عليه رسول الله، أو صديقه أبو بكر، ولهذا وجب على جميع الخلق اتباع الرسول ﷺ كما أن ما يدَّعيه كثير من الصوفية، من الكشف والمشاهدة، عامته خيالات في أنفسهم، ويسمونها حقيقة، وقد تنزل عليهم الشياطين، وتخبرهم بأشياء، وتأمرهم بأشياء، وهذا غاية كشفهم الذي يحكمون به على الكتاب والسنة. لذا يجب ربط ما يحصل بالكشف بالكتاب والسنة، فنجعلهما حاكمَيْن على الكشف، وَنرَدُّ ما خالفهما. (الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية، لآمال بنت عبد العزيز العمرو، ص٤٦١-٤٦٦).

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٥٠.

الحبشة[١] والغرضُ منها التأنيس لهم والتنشيط إلى الهجرة [٢] ومعنى التقوى: امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وكأن العبد بذلك يجعل بينه وبين النار وقاية[٣] ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة عظيمة في الآخرة وهي الجنة دار الأبرار ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ أي وأرض الله فسيحة فهاجروا من دار الكفر إلى دار الإيمان، ولا تقيموا في أرضٍ لا تتمكنون فيها من إقامة شعائر الله ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي إنما يعطى الصابرون جزاءهم بغير حصر، وبدون عدد أو وزن قال الأوزاعي: ليس يوزن لهم ولا يكال إنما يغرف غرفًا [٤] ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي قل يا محمد: أُمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له قال المفسرون: وإنما خص الله تعالى الرسول بهذا الأمر لينبه على أنَّ غيره بذلك أحق فهو كالترغيب للغير ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي وأُمرت أيضًا بأن أكون أولَ المسلمين من هذه الأمة قال القرطبي: وكذلك كان، فإنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحكمها، وأسلم وجهه لله وآمن به ودعا إليه [٥] ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي وأخاف إن عصيت أمره أن يعذبني يوم القيامة بنار جهنم قال الصاوي: والمقصود منها زجر الغير عن المعاصي، لأنه ﷺ إذا كان خائفًا مع كمال طهارته وعصمته فغيره أولى، وذلك سنة الأنبياء والصالحين حيث يخبرون غيرهم بما اتصفوا به ليكونوا مثلهم[٦] ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ أي قل لهم يا محمد: لا أعبد إلا الله وحده، مخلصًا له طاعتي وعبادتي من كل شائبة، وليس هذا بتكرار لأن الأول إخبار بأنه ﷺ مأمور بالعبادة، والثاني إخبار بخوفه من عذاب الله إن عصى أمره، والثالث إخبار بامتثاله الأمر مع إفادة الحصر كأنه يقول: أعبد الله ولا أعبد أحدًا سواه ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ صيغة أمر على جهة التهديد والوعيد، أي: اعبدوا ما شئتم من دون الله من الأوثان والأصنام فسوف ترون عاقبة كفركم كقوله ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي حقيقة الخسران الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، حيث صاروا إلى نار مؤبدة يصْلَوْن سعيرَها يوم القيامة، فهؤلاء هم الخاسرون كل الخسران[٧] قال ابن عباس: إنَّ لكل رجلٍ منزلاً وأهلاً

(١) (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٣/ ١٩٢.

(٣) «حاشية الصاوي» ٣/ ٣٦٨.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢١٥.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٤٢.

(٦) «حاشية الصاوي» ٣/ ٣٦٩.

(٧) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٩٠): «ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أَيْ: تَفَارَقُوا فَلَا الْتِقَاءَ لَهُمْ أَبَدًا، سَوَاءٌ ذَهَبَ أَهْلُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَقَدْ ذَهَبُوا هُمْ إِلَى النَّارِ، أَوْ أَنَّ الْجَمِيعَ أُسْكِنُوا لنَّارَ، وَلَكِنْ لَا اجْتِمَاعَ لَهُمْ وَلَا سُرُور».

وخدمًا في الجنة، فإن أطاع اللهَ أُعطي ذلك، وإن كان من أهل النار حُرم ذلك، فخسر نفسه وأهله ومنزله[(١)] ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي ألاَ فانتبهوا أيُّها القوم ذلك هو الخسرانُ الواضح الذي ليس بعده خسرانٌ! قال أبو حيان: بالغ في بيان الخسران بأداة التنبيه «ألَا» وبالإشارة إليه «ذلك» وتأكيده بأداة الحصر «هو» وتعريفه بأل ووصفه بأنه بيّن ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي الواضح لمن تأمله أدنى تأمل[(٢)]، ثم لمَّا ذكر خسرانهم في الدنيا ذكر حالهم ومآلهم في الآخرة فقال ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ﴾ أي تغشاهم نار جهنم من فوقهم ومن تحتهم، وتحيط بهم من جميع جوانبهم، ومعنى الظُلل أطباقٌ من نار جنهم[(٣)]، وتسميتها ظُللًا تهكمٌ بهم، لأنها مُحرِقة والظُّلةُ تَقِي من الحر ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ أي ذلك العذاب الشديد الفظيع، إنما يقصه تعالى ليخوف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ أي يا أوليائي خافوا عذابي ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي، قال الزمخشري: وهذه عظة من الله تعالى لعباده ونصيحة بالغة[(٤)].. والحكمة من ذكر أحوال النار تخويف المؤمنين منها ليتَّقوها بطاعة ربهم ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ لما ذكر وعيد عبدة الأوثان، ذكر وعد أهل الفضل والإحسان، ممن احترز عن الشرك والعصيان، ليكون الوعد مقرونًا بالوعيد، فيحصل كمال الترغيب والترهيب والمعنى: والذين انتهوا عن عبادة الأوثان وطاعة الشيطان، وتباعدوا عنها كل البعد قال أبو السعود: «الطاغوت» البالغ أقصى غاية الطغيان كالرحموت والعظموت، والمراد به الشيطان وصف به للمبالغة[(٥)] ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي رجعوا إلى طاعة الله وعبادته ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أي لهم البشرى السارة من الله تعالى بالفوز العظيم بجنات النعيم ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ أي فبشِّر عبادي المتقين الذين يستمعون الحديث والكلام فيتبعون أحسن ما فيه قال ابن عباس: هو الرجل يسمع الحسن والقبيح، فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به[(٦)]. وهذا ثناء من الله تعالى عليهم بنفوذ بصائرهم، وتمييزهم الأحسن من الكلام، فإذا سمعوا قولًا تبصَّروه وعملوا بما فيه، وأحسنُ الكلام كلام الله وخير الهدي هديُ محمد ﷺ وإنما وضع الظاهر ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ بدل الضمير (فبشرهم) تشريفًا لهم وتكريمًا بالإضافة إليه سبحانه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة هم الذين هداهم الله لما يرضاه، ووفقهم لنيل

---

(١) «التفسير الكبير»٢٦/ ٢٥٦.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٤٢٠.

(٣) (ش): أي طبقات من نار جهنم، الطَّبَقَةِ تكُونُ أَسْفَلَ مِنَ الْأُخْرَى.

(٤) «تفسير الكشاف» ٤/ ٩٣.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٣٠٥.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٤٤.

رضاه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي أولئك هم أصحاب العقول السليمة، والفِطَر المستقيمة ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي أفمن وجبت له الشقاوة من الله تعالى، وجوابه محذوفٌ دلَّ عليه ما بعده أي هل تقدر على هدايته؟ لا. ثم قال تعالى ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾؟ أي هل تستطيع يا محمد أن تنقذ من هو في الضلال والهلاك؟ قال القرطبي: كان النبي ﷺ يحرص على إيمان قومه وقد سبقت لهم من الله الشقاوة فنزلت الآية، وقال ابن عباس: يريد «أبا لهب» وولده ومن تخلَّف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان، وكرر الاستفهام «أفأنت» تأكيدًا لطول الكلام والمعنى: أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه[1]؟ ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ أي لكنْ المؤمنون الأبرار، المتقون للهِ في الدنيا، المتمسكون بشريعته وطاعته ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ أي لهم في الجنة درجات عالية وقصورٌ شاهقة بعضها فوق بعض مبنية من زبرجدٍ وياقوت[2] ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار الجنة من غير أخدود ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ أي وعدهم الله بذلك وعدًا مؤكدًا لا يمكن أن يتخلف لأنه وعد العزيز القدير.

تنبيه: قال الزمخشري: أفاد قوله تعالى ﴿يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥ﴾ أن المؤمنين ينبغي أن يكونوا نُقَّادًا في الدين، يميِّزون بين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل، ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها دليلًا، وأبيَنها أمارة، وألا يكونوا في مذهبهم كما قال القائل «ولا تكن مثل عيرٍ قِيدَ فانقادا»[3].

قال الله تعالى:

أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرۡءَانًا

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٤٤، وهذا القول الثاني رجحه صاحب «التسهيل».

(٢) هذا قول ابن عباس.

(٣) «تفسير الكشاف» ٤/ ٩٣. (ش): وهذا التمييز يكون باتباع الدليل من القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة بفهم سلف الأمة، الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان.

عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى أحوال المشركين وضلالاتهم في عبادة غير الله، أردفه بذكر دلائل الوحدانية، ثم ذكر القرآن العظيم أشرف الكتب السماوية المنزَّلة، ومع إقرارهم بفصاحته وإعجازه كذَّب به المكذبون، ثم ضرب للمشرك والموحّد مثلًا في غاية الوضوح.

اللغَة: ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ أدخله ﴿يَنَٰبِيعَ﴾ جمع ينبوع وهو عين الماء من الأرض ﴿يَهِيجُ﴾ ييبس قال الأصمعي: هاجت الأرض تهيج إذا أدبر نبتُها وولَّى[1] وقال الجوهري: هاج النَّبْت هياجًا إذا يبس، وأرضٌ هائجة إذا يبس بقْلُها أو اصفرَّ[2] ﴿حُطَٰمًا﴾ فُتاتًا وهشيمًا، من تحطَّم العود إذا تفتَّت من اليبس ﴿شَرَحَ﴾ فتحَ ووسَّع ﴿قَٰسِيَةٍ﴾ قسا القلب إذا صلُب، وكذلك عتا وعسا، وقلبٌ قاسٍ أي صلب لا يرقُّ ولا يلين ﴿مَّثَانِيَ﴾ مكررًا فيه الحكم والمواعظ والأمثال ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ تضطرب وتتحرك من الخوف ﴿الخزي﴾ الذل والهوان ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ متنازعون ومختلفون، ورجلٌ شكس: شرس الخُلق والطباع.

التفسِير: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي ألم تر أيها الإنسان العاقل أنَّ الله بقدرته أنزل المطر من السحاب ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أدخله مسالك وعيونًا في الأرض وأجراه فيها قال المفسرون: وهذا دليلٌ على أن ماء العيون من المطر، تحبسه الأرض ثم ينبع شيئًا فشيئًا قال ابن عباس: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكنْ عروق الأرض تغيِّره[3] ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي ثم يُخرج بهذا الماء النازل من السماء والنابع من الأرض أنواع الزروع، المختلفة الأشكال والألوان، من أحمر وأبيض وأصفر، والمختلفة الأصناف من قمح وأرز وعدس وغير ذلك قال البيضاوي: ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي أصنافه من بُرٍّ وشعير وغيرهما، أو كيفياته من خضرة وحمرة وغيرهما[4] ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ أي ثم ييبس فتراه بعد خضرته مصفرًا ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أي ثم يصبح فتاتًا وهشيمًا متكسرًا ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي إنَّ فيما ذُكر لعظة وعبرة، ودلالةً على قدرة الله ووحدانيته لذوي العقول المستنيرة.. والآية فيها تمثيلٌ لحياة الإنسان بالحياة الدنيا، فمهما طال عمر الإنسان فلا بدَّ من الانتهاء، إلى أن يصير مصفر اللون، متحطم الأعضاء، متكسرًا كالزرع بعد نضرته، ثم تكون عاقبته الموت قال ابن كثير: هكذا الدنيا تكون خضرة ناضرة حسناء، ثم تعود عجوزًا

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٤٦.
(٢) انظر الصحاح و«القاموس المحيط».
(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢١٧.
(٤) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٥٤.

شوهاء، وكذلك الشاب يعود شيخًا هرمًا، كبيرًا ضعيفًا، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير[١] ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ أي وسَّع صدره للإسلام، واستضاء قلبه بنوره حتى ثبت ورسخ فيه ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي فهو على بصيرة ويقين من أمر دينه، وعلى هدًى من ربه بتنوير الحق في قلبه، وفي الآية محذوفٌ دلَّ عليه سياق الكلام تقديره كمن هو أعمى القلب، معرضٌ عن الإسلام؟ قال الطبري: وتُرك الجوابُ اجتزاءً بمعرفة السامعين وبدلالة ما بعده وتقديره: كمن أقسى اللهُ قلبه وأخلاه من ذكره حتى ضاق عن استماع الحق، واتباع الهدى[٢] ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي فويلٌ للذين لا تلين قلوبهم ولا تخشع عند ذكر الله، بـ «ذكر الله» القرآن الذي أنزله الله تذكرة لعباده ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي أولئك الذين قست قلوبهم في بُعْدٍ عن الحق ظاهر. ولما بيَّن تعالى ذلك أردفه بما يدل على أنَّ القرآن سبب لحصول النور والهداية والشفاء فقال ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي اللهُ نزَّل القرآن العظيم أحسن الكلام قال أبو حيان: والابتداءُ باسم «اللهُ» وإسناد «نزَّل» لضميره، فيه تفخيمٌ للمُنزل، ورفعٌ من قدره كما تقول: الملكُ أكرم فلانًا، فإنه أفخم من أكرم الملك فلانًا، وحكمةُ ذلك البداءةُ بالأشرف[٣] ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ أي قرآنًا متشابهًا يشبه بعضه بعضًا في الفصاحة، والبلاغة، والتناسب، بدون تعارضٍ ولا تناقض ﴿مَّثَانِيَ﴾ أي تُثنَّى وتكرر فيه المواعظ والأحكام، والحلال والحرام، وتُردَّد فيه القصص والأخبار دون سأم أو ملل قال الطبري: تُثنَّى أي تكرر فيه الأنباء والأخبار والقضاء والأحكام والحجج[٤] ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ أي تعتري هؤلاء المؤمنين خشيةٌ، وتأخذهم قشعريرة عند تلاوة آيات القرآن، هيبةً من الرحمن وإجلالًا لكلامه ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي تطمئن وتسكن قلوبهم وجلودهم إلى ذكر الله قال المفسرون: إنهم عند سماع آيات الرحمة والإحسان تلين جلودهم وقلوبهم وقال العارفون: إذا نظروا إلى عالم الجلال طاشوا، وإن لاح لهم أثرٌ من عالَم الجمال عاشوا[٥] قال ابن كثير: هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار، إذا قرءوا آيات الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر جلودهم من الخشية والخوف وإذا قرءوا آيات الرحمة لانت جلودهم وقلوبهم، لما يرجُون ويؤمِّلون من رحمته ولطفه[٦] ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي ذلك القرآن الذي تلك صفتُه

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢١٧.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٣/ ١٣٤.

(٣) «البحر المحيط» ٤/ ٤٢٢.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٣/ ١٣٥.

(٥) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٧٢.

(٦) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢١٧.

هـو هدى الله يهدي به من شـاء من خلقـه ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ أي ومن يخذلْه اللهُ فيجعل قلبه قاسـيًا مظلمًا، فليس له مرشـدٌ ولا هاد بعد الله ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي فمـن يجعـل وجهه وقايةً من عذاب جهنم الشـديد، وخـبره محذوف تقديره كمن هو آمِنٌ من العذاب؟ قال المفسـرون: الوجه أشـرف الأعضاء فإذا وقع الإنسان في شيء مـن المخاوف فإنـه يجعل يده وقاية لوجهه، وأيـدي الكفار مغلولة يوم القيامـة، فإذا ألقوا في النار لم يجدوا شـيئًا يتقونها به إلا وجوههـم ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ أي وتقول خزنـة جهنم للكافرين: ذوقوا وبال ما كنتم تكسـبونه في الدنيا مـن الكفر والمعاصي ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي كـذَّب مَـن قبلهم من الأمم السـالفة فأتاهـم العذاب من جهةٍ لا تخطـر ببالهـم ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي فأذاقهم الله الـذُّلَّ والصغـار والهوان في الدنيـا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُ﴾ أي ولعذاب الآخرة الـذي أُعدَّ لهم أعظـم بكثير من عذاب الدنيا ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ أي لو كان عندهم علمٌ وفهم ما كذَّبوا ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ أي ولقـد بيَّنَّا ووضحنـا للناس في هذا القرآن من كل الأمثـال النافعة، والأخبـار الواضحة ما يحتاجون إليـه ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لعلهم يتعظون ويعتـبرون بتلـك الأمثـال والزواجـر ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾ أي حال كونه قرآنـا عربيًّا لا اختـلاف فيه بوجه مـن الوجوه، ولا تعـارض ولا تناقـض ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ أي لكي يتقوا الله ويجتنبـوا محارمه. ثـم ذكر تعالى مثلًا لمن يشـرك بالله ولمن يُوحِّـده فقال ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي ضـرب الله لكـم أيهـا الناس هـذا المثل: رجلٌ مـن المماليك اشـترك فيه مُلَّاكٌ سَـيِّئُو الأخلاق، بينهـم اختلاف وتنازع، يتجاذبونـه في حوائجهم، هذا يأمره بأمـرٍ وذاك يأمره بمخالفته، وهو متحيِّر مـوزّع القلب، لا يدرِي لِمَن يُرضِي[1]؟ ﴿وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ﴾ هـذا مـن تَتِمَّة المثَل أي رجلًا آخر لا يملكه إلا شـخص واحد، حسـن الأخلاق، فهو عبد مملوك لسـيد واحد، يخدمه بإخلاص ويتفانى في خدمته، ولا يلقى من سـيده إلا إحسـانًا ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي هـل يسـتوي هذا وهذا في حسـن الحال، وراحة البـال؟ فكذلك لا يتسـاوى المؤمن الموحِّد مع المشرك الذي يعبد آلهة شتى. قال ابن عباس: هذه الآية ضربت مثلًا للمشـرك والمخلص[2] وقال الرازي: وهذا مثلٌ ضُرب في غاية الحُسـن في تقبيح الشرك، وتحسين التوحيد[3] ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لما كان المثل بَيِّنًا واضحًا في غاية الجلاء والوضوح ختم به الآية والمعنى: الحمد لله على إقامة الحجة عليهم بل أكثر هؤلاء المشركين

---

(١) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، ولعل الصواب: لا يدرِي مَن يُرضِي؟

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢١٩.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٦/ ٢٧٧.

لا يعلمون الحق فهم لفَرْط جهْلهم[1] يشركون بالله ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ أي إنك يا محمد ستموت كما يموت هؤلاء، ولا يخلَّد أحد في هذه الدار ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ أي ثم تجتمعون عند الله في الدار الآخرة، وتختصمون فيما بينكم من المظالم وأمر الدنيا والدين ويفصل بينكم أحكم الحاكمين.

قال الله تعالى:

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

المناسَبَة: لما ذكر أن الخلق صائرون إلى الموت، وأن المؤمنين والكافرين سيختصمون

---

(١) (ش): أي لشدّته، وكثرته.

عند ربهم في أمر التوحيد والشرك، وأنه تعالى يفصل بينهم، ذكر هنا جزاء كلٍّ من الفريقين، ثم أتبعه بذكر قبائح المشركين واعتدادهم بشفاعة الأوثان والأصنام.

اللغَـة: ﴿مَثۡوَى﴾ مأوى ومقام، مشتق من ثَوى بالمكان إذا أقـام به ﴿يُخۡزِيهِ﴾ يُهينه ويُذلّه ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾ نفرتْ وانقبضتْ ﴿فَاطِرَ﴾ خالق ومبدع ﴿يَحۡتَسِبُونَ﴾ يظنـون ويُؤمِّلون يقال: جـاءه الأمـر من حيث لا يحتسب، أي: من حيث لا يظن ﴿وَحَاقَ﴾ نـزل وأحاط بهم من كل جانب ﴿خَوَّلۡنَٰهُ﴾ منَحْناه وأعطيناه تفضُّلًا وكرمًا ﴿مُعۡجِزِينَ﴾ فائتين من العذاب ﴿يَقۡدِرُ﴾ يُضَيِّق ويُقتِّر.

التفسِير: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي، أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله بنسبة الشريك له والولـد ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾ أي وكذّب لقرآن والشـريعة وقت مجيئه من غير تدبر ولا تأمـل؟ أي لا أحد أظلم ممن حاله ذلك، فإنه أظلـم مـن كل ظالـم ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾؟ أي أليس في جهنم مقـام ومأوى لهؤلاء الكافرين المكذبين؟ والاستفهام هنا تقريري، أي: بلى لهم مأوى ومكان ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ أي وأمـا الذين جـاءوا بالصدق وهم الأنبياء، والذيـن صدَّقوا به وهم المؤمنون أتباعُ الرسـل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ أي فأؤلئك الموصوفون بالصفات الحميدة هم أهل التقوى والصلاح الذين يستحقون كل إحسان وإكرام ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي لهـم كل مـا يشتهون في الجنـة مـن الحـور، والقصـور، والمـلاذِّ، والنعيـم ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي ذلـك الـذي ينالونـه هو ثواب كل محسـن أحسـن في هذه الحيـاة قال بعض المفسـرين: «الـذي جاء بالصدق» هو محمـد ﷺ «وصدَّق به» هو أبو بكر رَضِـيَ اللهُ عَنْه[1]، والاختيارُ أن يكون على العموم حتى يشـترك في هذه الصفة كل الرسـل الكرام، وكل من دعا إلـى هـذا الصدق عن عقيدة وإيمان من أتباع الرسـل، ونيـدل عليه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ بصيغـة الجمع، وهذا اختيـار ابن عطيـة ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ أي هؤلاء الذين صدَّقوا الأنبياء سـيغفر الله لهم ما أسـلفوا من الأعمال السيئة فلا يعاقبهم بها ﴿وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي ويثيبهـم على طاعاتهم في الدنيا بحسـاب الأحسـن الذي عملوه فضلًا منه وكرمًا قال المفسرون: العدلُ أن تُحسب الحسنات وتُحسب السيئات، ثـم يكـون الجـزاء، والفضلُ هـو الذي يتجلى بـه الله على عبـاده المتقين، فيكفر عنهم أسـوأ أعمالهـم، فـلا يبقى لها حسـاب في ميزانهم، وأن يجزيهم أجرهم بحسـاب أحسـن الأعمال، فتزيـد حسـناتُهم وتعلو وترجّـح كفة الميزان، وهـذا من زيادة الكرم والإحسـان ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾؟ الهمـزة للتقريـر، أي: أليس الله كافيًا عبده ورسـوله محمدًا ﷺ من شـر من

(١) روي هذا عن مجاهد وقتادة، والراجح أن الآيه على العموم في الرسل والمؤمنين.

يريده بسوء؟ قال أبو السعود: تسليةٌ لرسول الله ﷺ عما قالت له قريش: لتكفنَّ عن شتم آلهتنا، أو ليصيبنَّك منها خبل أو جنون[١] وقال أبو حيان: قالت قريش: لئن لم ينته محمد عن سبِّ آلهتنا وتعييبنا لنسلِّطنها عليه فتصيبه بخبَل وتعتريه بسوء، فأنزل الله ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ أي هو كافٍ عبده، وإضافته إليه تشريفٌ عظيمٌ لنبيّه[٢] ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي ويخوفونك يا محمد بهذه الأوثان التي لا تضر ولا تنفع ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي ومن أشقاه الله وأضلَّه فلن يهديه أحدٌ كائنًا من كان ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ أي ومن أراد الله سعادته فهداه إلى الحق، ووفقه لسلوك طريق المهتدين، فلن يقدر أحدٌ على إضلاله ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾؟ أي هو تعالى مَنيعُ الجَناب[٣] لا يُضَامُ مَن لجأ إلى بابه[٤]، وهو القادر على أن ينتقم من أعدائه لأوليائه، لأنه غالبٌ لا يُغلَب، ذو انتقام من أعدائه، وفي الآية وعيدٌ للمشركين، ووعدٌ للمؤمنين ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ هذه الآية إقامة برهان على تزييف طريقة عبدة الأوثان، أي: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين عمَّن خلق السموات والأرض ليقولُنَّ اللهُ خالقهما، لوضوح الدليل على تفرده تعالى بالخالقية قال الرازي: إنَّ العلم بوجود الإله القادر الحكيم، لا نزاع فيه بين جمهور الخلائق، وفطرة العقل شاهدةٌ بصحة هذا العالم، فإنَّ من تأمل في عجائب أحوال السموات والأرض، وفي عجائب أحوال النبات والحيوان، وفي عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحِكَم الغريبة، والمصالح العجيبة، علم أنه لا بدَّ من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم، ولهذا أقر المشركون بوجود الله[٥] ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد توبيخًا وتبكيتًا: أخبروني بعد أن تحققتم أن خالق العالم هو الله عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾؟ أخبروني لو أراد الله أن يصيبني بشدة أو بلاء، هل تستطيع هذه الأصنام أن تدفع عني ذلك السوء والضُّرَّ؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾؟ أي ولو أراد الله نفعًا من نعمة ورخاء هل تستطيع أن تمنع عني هذه الرحمة؟ والجواب محذوفٌ لدلالة الكلام عليه يعني فسيقولون: لا، لا تكشف السوء، ولا تمنع الرحمة[٦] ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي الله

---

(١) «تفسير ابي السعود» ٤/ ١٣٠.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٤٢٩.

(٣) (ش): أي عزيزٌ، مرهوبٌ، يُخْشى بأسُه.

(٤) (ش): الضَيْم: فِعْل يُسبِّب الظلمَ والإذلالَ. يقال: ضَامَ الشخصَ: قهره، ظلمه وأضرَّ به. ضَامَ عدوَّه: أذلَّه. ضامَه حقَّه: انتقصه.

(٥) «التفسير الكبير» ٢٦/ ٢٨٢.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٥٩.

كافيني فلا ألتفت إلى غيره، عليه وحده يعتمد المعتمدون، والغرضُ الاحتجاجُ على المشركين في عبادة ما لا يضرُّ ولا ينفع، وإقامة البرهان على الوحدانية ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي اعملوا على طريقتكم من المكر والكيد والخداع ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ أي إني عاملٌ على طريقتي، من الدعوة إلى الله وإظهار دينه ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي فسوف تعلمون لمن سيكون العذاب الذي يذل ويخزي الإنسان ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي وينزل عليه عذاب دائمٌ لا ينقطع وهو عذاب النار، هل هذا العذاب سيصيبني أو يصيبكم؟ والغرض التهديد والتخويف قال أبو السعود: وفي الآية مبالغة في الوعيد، وإشعارٌ بأن حاله عليه السلام لا تزال تزداد قوةً بنصر الله وتأييده، وفي خزي أعدائه دليل غلبته عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ، وقد عذبهم الله وأخزاهم يوم بدر [١] ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي نحن أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن المعجز في بيانه، الساطع في برهانه، لجميع الخلق، بالحقِّ الواضح الذي لا يلتبس به الباطل ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: فمن اهتدى فنفعه يعود عليه، ومن ضلَّ فضرر ضلاله لا يعود إلا عليه ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي لستَ بموكَّل عليهم حتى تجبرهم على الإيمان قال الصاوي: وفي هذا تسلية له ﷺ. والمعنى: ليس هداهم بيدك حتى تقهرهم وتجبرهم عليه، وإنما هو بيدنا، فإن شئنا هديناهم وإن شئنا أبقيناهم على ما هم عليه من الضلال[٢] ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي يقبضها من الأبدان عند فناء آجالها وهي الوفاة الكبرى ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ أي ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها وهي الوفاة الصغرى قال في التسهيل: هذه الآية للاعتبار. ومعناها: أن الله يتوفى النفوس على وجهين: أحدهما: وفاة كاملة حقيقية وهي الموت، والآخر: وفاة النوم لأن النائم كالميت، في كونه لا يُبصر ولا يسمع، ومنه قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وفي الآية عطف والتقدير: ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها[٣] وقال ابن كثير: أخبر تعالى بأنه المتصرف في الوجود كما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة الملائكة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام[٤] ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ أي فيمسك الروح التي قضى على صاحبها الموتَ فلا يردها إلى البدن ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ويرسل الأنفس النائمة إلى بدنها عند اليقظة إلى وقت محدود، هو أجل موتها الحقيقي قال ابن عباس: إنَّ أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام،

---

(١) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٣١٠.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٣/ ٣٧٤.

(٣) «التسهيل» ٣/ ١٩٦.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٢٢.

فتتعارف ما شاء الله لها، فإذا أرادت الرجوع إلى أجسادها، أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها[١] قال القرطبي: وفي الآية تنبيه على عظيم قدرته تعالى، وانفراده بالألوهية، وأنه يحيي ويميت، ويفعل ما يشاء، لا يقدر على ذلك سواه[٢]، ولهذا قال ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في هذه الأفعال العجيبة لعلامات واضحة قاطعة، على كمال قدرة الله وعلمه، لقوم يُجِيلُون أفكارهم فيها[٣] فيعتبرون ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ أمْ للإضراب، أي: لم يتفكروا بل اتخذوا لهم شفعاء من الأوثان والأصنام، فانظر إلى فرط جهالتهم حيث اتخذوا من لا يملك شيئًا أصلًا شفعاء لهم عند الله قال ابن كثير: هذا ذمٌّ للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله وهي الأصنام والأوثان التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم، بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئًا من الأمر، وليس لها عقل تعقل به، ولا سمعٌ تسمع به، ولا بصرٌ تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالًا بكثير من الحيوانات[٤] ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام توبيخي، أي: قل لهم يا محمد: أتتخذونهم شفعاء ولو كانوا على هذه الصفة جمادات لا تقدر على شيء، ولا عقل لها ولا شعور؟ ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ أي قل لهم: الشفاعةُ للهِ وحده، لا يملكها أحدٌ إلا الله تعالى، ولا يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو المتصرف في المُلك والملكوت قال البيضاوي: أي هو تعالى مالك المُلكِ كله، لا يملك أحدٌ أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه[٥] ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي ثم مصيركم إليه يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجازي كلاًّ بعمله. ثم ذكر تعالى نوعًا آخر من أفعالهم القبيحة فقال ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي وإذا أفرد الله بالذكر، ولم يذكر معه آلهتهم وقيل أمام المشركين: لا إله إلا اللهُ ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي نفرت وانقبضت من شدة الكراهة قلوب هؤلاء المشركين ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي وإذا ذكرت الأوثان والأصنام إذا هم يفرحون ويُسَرُّون قال الإمام الفخر: هذا نوع آخر من قبائح المشركين، فإنك إذا ذكرتَ الأصنام وقلت: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ظهرتْ آثار النفرة من وجوههم وقلوبهم، وإذا ذكرتَ الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة في قلوبهم وصدورهم، وذلك يدل على الجهل والحماقة، لأن ذكر الله رأس السعادات وعنوان الخيرات، وذكر الأصنام الجمادات رأسُ الجهالات والحماقات، فنفرتُهم عن ذكر الله، واستبشارهم بذكر

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٦٠.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٦٣.

(٣) (ش): أَجَالَ القومُ الرَّأيَ فيما بينهم: تداولوا البحثَ فيه. أجال الرَّأيَ في الموضوع: فكّر فيه.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٢٢.

(٥) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٥٤.

الأصنام، من أقوى الدلائل على الجهل الغليظ، والحُمق الشديد[١] ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي قل: يا الله يا خالق ومبدع السموات والأرض ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي يا عالم السرِّ والعلانية، يا من لا تخفى عليه خافية، مما هو غائب عن الأعين أو مُشاهَدٌ بالأبصار ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي أنت تفصل بين الخلائق بعدلك وقضائك، فافصل بيني وبين هؤلاء المشركين قال في البحر: لما أخبر عن سخافة عقولهم باشمئزازهم من ذكر الله، واستبشارهم بذكر الأصنام أمر رسوله أن يدعوه بأسمائه العظمى من القدرة والعلم ليفصل بينه وبين أعدائه، وفي ذلك وعيد للمشركين وتسلية للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ وقال الصاوي[٢]: أي التجئ إلى ربك بالدعاء والتضرع فإنه القادر على كل شيء[٣] ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي ولو أنَّ لهؤلاء المشركين الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب القرآن والرسول ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ أي لو ملكوا كل ما في الأرض من أموال، وملكوا مثل ذلك معه ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي لجعلوا كل ما لديهم من أموال وذخائر، فديةً لأنفسهم من ذلك العقاب الشديد يوم القيامة ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ أي وظهر لهم من أنواع العقوبات ما لم يكن في حسابهم قال أبو السعود: وهذا غاية من الوعيد لا غاية وراءها، ونظيرها في الوعد ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧][٤] ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي وظهر لهم في ذلك اليوم المفزع سيئات أعمالهم التي اكتسبوها ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي وأحاط ونزل بهم من كل الجوانب جزاء ما كانوا يستهزئون به قال ابن كثير: أي أحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدنيا[٥] ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ أي فإذا أصاب هذا الإنسان الكافر شيءٌ من الشدة والبلاء، تضرَّع إلى الله وأناب إليه ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أي ثم إذا أعطيناه نعمة منا تفضلا عليه وكرمًا ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي قال ذلك الإنسان الكافر الجاحد: إنما أُعطيتُه على علم مني بوجوه المكاسب والمتاجر ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي ليس الأمر كما زعم بل هي اختبارٌ وامتحانٌ له، لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي؟ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون أن إعطاءهم المال اختبار وابتلاء فلذلك يبطرون ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي قال تلك الكلمة والمقالة الكفار قبلهم كقارون وغيره حيث قال ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨] ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي فما نفعهم

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٦/ ٢٨٦.
(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٤٣٢.
(٣) «حاشيه الصاوي» ٣/ ٣٥٧.
(٤) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٣١١.
(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٢٤.

ما جمعوه من الأموال، ولا ما كسبوه من الحُطام ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي فنالهم جزاء أعمالهم السيئة ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ أي والذين ظلموا من هؤلاء المشركين كفار قريش ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي سينالهم جزاء أعمالهم القبيحة كما أصاب أولئك قال البيضاوي: وقد أصابهم ذلك فإنهم قد قُحطوا سبع سنين حتى أكلوا الجيف وقُتل ببدرٍ صناديدهم[١] ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي وليسوا بفائتين من عذابنا، لا يعجزوننا هربًا ولا يفوتوننا طلبًا.. ثم ردَّ عليهم زعمهم فيما أوتوا من المال وسعة الحال فقال ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾؟ أي أولم يعلم هؤلاء المشركون أن الله يوسِّع الرزق على قوم، ويضيّقه على آخرين؟ فليس أمر الرزق تابعًا لذكاء الإنسان أو غبائه، إنما هو تابعٌ للقسمة والحكمة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن في الذي ذكر لعبرًا وحججًا لقوم يصدِّقون بآيات الله قال القرطبي: وخصَّ المؤمن بالذكر، لأنه هو الذي يتدبر الآيات وينتفع بها، ويعلم أن سعة الرزق قد يكون استدراجًا، وأن تقتيره قد يكون إعظامًا[٢].

قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ

---

(١) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٥٦.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٦٧.

﴿مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾

المناسَبة: لما ذكر تعالى أحوال الفجرة المشركين، وذكر ما يكونون عليه في الآخرة من الذل والهوان، دعا المؤمنين إلى الإِنابة والتوبة قبل فوات الأوان، وختم السورة بذكر عظمة الله وجلاله يوم الحشر الأكبر، حيث يكون العدل الإِلهي والقسطاسُ المستقيم، ويساق السعداء إلى الجنة زمرًا، والأشقياء إلى النار زمرًا ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا..﴾ الآية.

اللغَة: ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿مَثْوَى﴾ مكان إقامة يقال: ثوى بالمكان أقام فيه ﴿مَقَالِيدُ﴾ خزائن ومفاتيح ﴿زُمَرًا﴾ جماعات جماعات جمع زُمرة وهي الجماعة ﴿خَزَنَتُهَآ﴾ حُرَّاسها الموكلون عليها ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ تبوأ المكانَ حلَّ ونزل فيه ﴿حَآفِّينَ﴾ محيطين به من أطرافه وجهاته.

التفسِير: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أخبر يا محمد عبادي المؤمنين الذين أفرطوا في الجناية على أنفسهم بالمعاصي والآثام ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تيأسوا من مغفرة الله ورحمته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أي إنه تعالى يعفو عن جميع الذنوب لمن شاء، وإن كانت مثل زبد البحر ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة، وظاهر الآية أنها دعوة للمؤمنين إلى عدم اليأس من رحمة الله لقوله ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ وقال ابن كثير: هي دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإِنابة، وإِخبارٌ بأن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها مهما كثرت [1] ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ أي ارجعوا إلى الله واستسلموا له بالطاعة والخضوع والعمل الصالح ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ من قبل حلول نقمته تعالى بكم ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [2] أي ثم لا تجدون من يمنعكم من عذابه [3] ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ أي اتبعوا القرآن العظيم، بامتثال أوامره

---

(١) «حاشيه الصاوي» ٣/ ٣٧٦.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٢٧.

(٣) «الكشاف» ٤/ ١٠٥.

واجتناب نواهيه[١]، والزموا أحسن كتاب أنزل إليكم فيه سعادتكم وفلاحُكم ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ أي من قبل أن ينزل بكم[٢] العذاب فجأة وأنتم غافلون، لا تدرون بمجيئه لتتداركوا وتتأهبوا ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٌ﴾ أي لئلا تقول بعض النفوس التي أسرفت في العصيان ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي يا حسرتي وندامتي على تفريطي وتقصيري في طاعة الله وفي حقِّه قال مجاهد: يا حسرتا على ماضيعت من أمر الله[٣] ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي وإنَّ الحال والشأن أنني كنت من المستهزئين بشريعة الله ودينه قال قتادة: لم يكفه أن ضيَّع طاعة الله حتى سَخِرَ من أهلها ﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ «أو» للتنويع أي يقول الكافر والفاجر هذا أو هذا. والمعنى: لو أن الله هداني لاهتديت إلى الحق، وأطعت الله، وكنت من عباده الصالحين قال ابن كثير: يتحسر المجرم ويودُّ لو كان من المحسنين المخلصين، المطيعين لله عزَّ وجل[٤] ﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي أو تقول تلك النفس الفاجرة حين مشاهدتها العذاب لو أنَّ لي رجعةً إلى الدنيا لأعمل بطاعة الله، وأُحسن سيرتي وعملي ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي﴾ هو جواب قوله ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ والمعنى بلى قد جاءك الهدى من الله بإرساله الرسل، وإنزاله الكتب ﴿فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي فكذبت بالآيات، وتكبرت عن الإيمان، وكنت من الجاحدين قال الصاوي: إن الكافر أولًا يتحسر، ثم يحتج بحجج واهية، ثم يتمنى الرجوع إلى الدنيا[٥]، ولو رُدَّ لعَادَ إلى ضلاله كما قال تعالى ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌ﴾ أي ويوم القيامة ترى أيها المخاطب الذين كذبوا على الله بنسبة الشريك له والولد وجوههم سوداء مظلمة بكذبهم وافترائهم ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ استفهام تقريري، أي: أليس في جهنم مقام ومأوى للمستكبرين عن الإيمان، وعن طاعة الرحمن؟ بلى إنَّ لهم منزلًا ومأوى في دار الجحيم.. ولما ذكر حال الكاذبين على الله، ذكر حال المتقين لله فقال ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ﴾ أي وينجي الله المتقين بسبب سعادتهم وفوزهم بمطلوبهم وهو الجنة دار الأبرار ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي لا ينالهم هلعٌ ولا جزع، ولا هم يحزنون في الآخرة، بل هم آمنون ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ [القمر: ٥٥] ثم عاد إلى دلائل الألوهية والتوحيد، بعد أن أفاض في الوعد والوعيد فقال ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٨٣.

(٢) نفس المرجع السابق ١٥/ ٢٦٨.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٧١.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٧٧.

(٥) «حاشية الصاوي» على الجلالين ٣/ ٣٧٧.

شَيْءٍ ﴾ أي الله جل وعلا خالقُ جميع الأشياء ومُوجِدُ المخلوقات، والمتصرف فيها كيف يشاء، لا إله غيره ولا ربَّ سواه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي هو القائم بتدبير كل شيء ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي بيده جل وعلا مفاتيح خزائن كل الأشياء، لا يملك أمرها ولا يتصرف فيها غيره قال ابن عباس: «مقاليد» مفاتيح، وقال السدي: خزائن السمواتِ والأرض بيده [١] ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي والذين كذَّبوا بآيات القرآن الظاهرة، والمعجزات الباهرة، أولئك هم الخاسرون أشدَّ الخسران ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾؟ أي قل يا محمد: أتأمرونني أن أعبد غير الله بعد سطوع الآيات والدلائل على وحدانيته يا أيها الجاهلون؟ قال ابن كثير: إن المشركين من جهلهم دعوا رسولَ الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهه فنزلت الآية [٢] ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ اللام مُوَطِّئَةٌ للقَسَم [٣] أي واللهِ لقد أوحي إليك وإلى الأنبياء قبلك ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أي لئن أشركت يا محمد ليبطلنَّ ويفسدنَّ عملك الصالح ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي ولتكونَنَّ في الآخرة من جملة الخاسرين بسبب ذلك. وهذا على سبيل الفرض والتقدير، وإلاّ فالرسول ﷺ قد عصمه الله، وحاشا له أن يشرك بالله، وهو الذي جاء لإقامة صرح الإيمان والتوحيد قال أبو السعود: والكلام واردٌ على طريقة الفرض لتهييج الرسول، وإقناط الكفرة، والإيذان بغاية شناعة الإشراك وقبحه [٤] ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ أي أخلص العبادة لله وحده، ولا تعبد أحدًا سواه. ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي وكن من الشاكرين لإنعام ربك ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي وما عرفوا الله حق معرفته، إذ أشركوا معه غيره، وساووا بينه وبين الحجر والخشب في العبادة [٥].. ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه فقال ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الجملة حالية والمعنى ما عظَّموه حقَّ تعظيمه والحال أنه موصوف بهذه القدرة الباهرة، التي هي غاية العظمة والجلال [٦]، فالأرضُ مع سعتها وبسطتها يوم القيامة تحت قبضته وسلطانه ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي والسموات مضمومات ومجموعات بقدرته تعالى قال الزمخشري: والغرضُ من هذا الكلام تصويرُ عظمته والتوقيف على كُنْه جلاله لا غير [٧]، من غير ذهابٍ بالقبضة واليمين إلى جهة [٨] وفي الحديث « يَقْبِضُ اللهُ الأَرْض، وَيَطْوِي السَّمَاءَ

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٧٤.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٢٨. (ش): ضعيف، رواه الطبري في «تفسيره».

(٣) (ش): مُوَطِّئَةٌ للقَسَمِ: أي مُمَهِّدةٌ له؛ لأنها التي تُهَيِّئ الذهن لمعْرِفَته.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٤/ ٣١٤.

(٥) «البحر المحيط» ٧/ ٤٣٩.

(٦) «الكشاف» ٤/ ١١٠.

(٧) أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري.

(٨) (ش): تُوصَفُ يَدُ الله عَزَّ وجَلَّ بأنها يَمِين، وهذا ثابتٌ بالكتاب والسنة. وتفسير اليمين بالقدرة، تأويلٌ باطل =

بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟ »[١] ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي تنزَّه الله وتقدس عما يصفه به المشركون من صفاتِ العجز والنقص، ثم ذكر تعالى أهوال الآخرة فقال ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ هو قَرْنٌ يَنفُخ فيه إسرافيل عليه السلام بأمر الله[٢]، والمراد بالنفخة هنا «نفخة الصَّعق» التي تكون بعد نفخة الفزع قال ابن كثير: وهي النفخة الثانية التي يموت بها الأحياء من أهل السمواتِ والأرض ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي فخَرَّ مَيتًا كل من في السموات والأرض ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ أي إلاَّ من شاء الله بقاءه كحملة العرش، والحور العين والولدان ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ﴾ أي نُفخ فيه نفخةٌ أخرى وهي نفخةُ الإحياء ﴿فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ أي فإذا جميع الخلائق الأموات يقومون من القبور ينظرون ماذا يُؤمرون ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي وأضاءت أرض المحشر بنور الله يوم القيامة، حين تَجَلِّي الباري جلّ وعلا لفصل القضاء بين العباد ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أي أحضرت صحائف أعمال الخلائق للحساب ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ أي وجيء بالأنبياء ليسألهم رب العزة عما أجابتهم به أممهم، وبالشهداء وهم الحَفَظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم[٣]، وقال السدي: هم الذين استشهدوا في سبيل الله ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ أي وقَضي بين العباد جميعًا بالقسط والعدل ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ أي وهم في الآخرة لا يظلمون شيئًا من أعمالهم، لا بنقص ثواب، ولا بزيادة عقاب قال ابن جبير: لا يُنقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ أي جوزي كل إنسان بما عمل من خير أو شر ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ أي هو تعالى أعلم بما عمل كل إنسان، ولا حاجة به إلى كتاب ولا إلى شاهد، ومع ذلك تشهد الكتب إلزامًا للحجة. ثم فصَّل تعالى مآل كل من الأشقياء والسعداء فقال ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أي وسيق الكفرة المجرمون إلى نار جهنم جماعاتٍ جماعات، كما يساق الأشقياء في الدنيا إلى السجون ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ أي حتى إذا وصلوا إليها فتحت أبواب جهنم فجأة لتستقبلهم ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾؟ أي وقال لهم خزنة جهنم تقريعًا وتوبيخًا: ألم يأتكم رسلٌ من البشر يتلون عليكم الكتب المنزلة من السماء؟ ﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾؟ أي ويخوفونكم من شر هذا اليوم العصيب؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي قالوا: بلى قد جاءونا وأنذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ولكننا كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من

= ليمين الرحمن جل وعلا. والحديث الذي ذكره المؤلف بعدُ يَرُدُّ هذا التأويل.

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٢٩. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) (ش): قَرْنٌ: بُوقٌ.

(٣) هذا قول ابن زيد وهو الأظهر كما في قوله تعالي: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ فالسائق يسُوقها إلي الحساب، والشاهد يشهد عليها وهو المَلَك الموكل بالإنسان.

الشقاوة قال القرطبي: وهذا اعتراف منهم بقيام الحجة عليهم، والمراد بكلمة العذاب قوله تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1] [هود: ١١٩] ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي قيل لهم: ادخلوا جهنَّم لتصلوا سعيرها ماكثين فيها أبدًا، بلا زوال ولا انتقال ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي فبئس المقام والمأوى جهنم للمتكبرين عن الإيمان بالله وتصديق رسله ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ أي وسيق الأبرار المتقون لله إلى الجنة جماعاتٍ جماعات راكبين على النجائب[2] قال القرطبي: سَوْقُ أهل النار طَرْدُهم إليها بالخزي والهوان، كما يفعل بالمجرمين الخارجين على السلطان، وسَوْقُ أهل الجنان سَوْقُ مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان، لأنه لا يُذهَب بهم إلا راكبين، كما يُفعَل بالوافدين على الملوك، فشتَّان ما بين السَّوْقين[3] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ أي حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابُها كقوله تعالى ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠] قال الصاوي: والحكمةُ في زيادة الواو هنا «فُتحت» دون التي قبلها، أن أبواب السجون تكون مغلقة إلى أن يجيئها أصحاب الجرائم، فتفتح لهم ثم تُغلق عليهم، بخلاف أبواب السرور والفرح فإنها تفتح انتظارًا لمن يدخلها فناسب دخول الواو هنا دون التي قبلها[4] ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ أي وقال لهم حراس الجنة: سلامٌ عليكم أيها المتقون الأبرار ﴿طِبْتُمْ﴾ أي طهرتم من دنس المعاصي والذنوب، فادخلوا الجنة دار الخلود، قال البيضاوي: وجواب «إذا» محذوف، للدلالة على أنَّ لهم من الكرامة والتعظيم، ما لا يحيط به الوصف والبيان[5] قال ابن كثير: وتقديره إذا كان هذا سُعِدوا، وطابوا، وسُرُّوا وفرحوا بقدر ما يكون لهم من النعيم[6] ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ أي وقالوا عند دخولهم الجنة واستقرارهم فيها: الحمد لله الذي حقَّق لنا ما وعدنا به من دخول الجنة قال المفسرون: والإشارة إلى وعده تعالى لهم بقوله ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣] ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي وملَّكنا أرض الجنة نتصرف فيها تصرف المالك في ملكه وننزل فيها حيث نشاء، ولا ينازعنا فيها أحد ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي فنعم أجر العاملين بطاعة الله الجنة ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي وترى يا محمد الملائكة محيطين بعرش الرحمن، محدقين به من كل جانب ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٨٤.
(٢) (ش): نَّجيب من الإبِل: القويّ، الخفيف، السَّريع؛ نجائبُ الإبل: خيارُها.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٨٥.
(٤) «حاشية الصاوي» ١٣/ ٣٨١.
(٥) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٤٧.
(٦) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٣٢.

يسبحون الله ويمجدونه تلذذًا لا تعبدًا[(١)] ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي وقُضي بين العباد بالعدل ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وقيل: الحمد لله على عدله وقضائه قال المفسرون: القائل هم المؤمنون والكافرون، المؤمنون يحمدون الله على فضله، والكافرون يحمدونه على عدله قال ابن كثير: نطق الكون أجمعه، ناطقه وبهيمه، لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائل، بل أطلقه فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد[(٢)].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿تَكْفُرُواْ.. تَشْكُرُواْ﴾ وبين ﴿يَرْجُواْ.. وَيَحْذَرُ﴾ وبين ﴿فَوْقِهِمْ.. تَحْتِهِمْ﴾ وبين ﴿ضُرٌّ.. وَرَحْمَةٍ﴾ وبين ﴿ٱلْغَيْبِ.. وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وبين ﴿يَبْسُطُ.. وَيَقْدِرُ﴾ وبين ﴿ٱهْتَدَىٰ.. وَضَلَّ﴾ إلخ.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨] وكذلك في قوله ﴿أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [الزمر: ١٠].

٣ - الأسلوب التهكمي ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٦] إطلاق الظلة عليها تهكم لأنها مُحرِقَة، والظلة تقي من الحر.

٤ - المقابلة الرائعة ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ..﴾ [الزمر: ٤٥] الآية فقد قابل بين الله والأصنام، وبين السرور والاشمئزاز، وكذلك توجد مقابلة بين آيتي السعداء والأشقياء ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ وقابل ذلك بقوله ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا.﴾ والمقابلةُ أن يؤتى بمعنيين أو أكثر، ثم يُؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب وهو من المحسنات البديعية.

٥ - الإيجاز بالحذف لدلالة السياق عليه ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]؟ حذف خبره وتقديره كمن طبع الله على قلبه؟ ومثله ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٩]؟ أي كمن هو كافرٌ جاحد لربه؟

٦ - الأمر الذي يراد منه التهديد ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ [الزمر: ٨] ومثله ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [الزمر: ٣٩] للمبالغة في الوعيد.

٧ - المجاز المرسل ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٩]؟ أطلق المسبب وأراد السبب، لأن الضلال سبب لدخول النار.

---

(١) (ش): هذا فيه نظر لأنه لا دليلَ عليه والله وصَف الملائكة بأنهم عِبادٌ، فلو قال المؤلف: «تلذذًا وتعبدًا»، لَكَان أحسن.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٣٣.

٨ - الاستعارة ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي مفاتيح خيراتهما، ومعادن بركاتها فشبَّه الخيرات والبركات بخزائن واستعار لها لفظ المقاليد، بمعنى المفاتيح، ومعنى الآية خزائن رحمته وفضله بيده تعالى.

٩ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ مثَّل لعظمته وكمال قدرته، وحقارة الأجرام العظام التي تتحير فيها الأوهام بالنسبة لقدرته تعالى بمن قبض شيئًا عظيمًا بكفه، وطوى السموات بيمينه بطريق الاستعارة التمثيلية، قال في «تلخيص البيان»: وفي الآية استعارة. ومعنى ذلك: أن الأرض في مقدوره كالذي يقبض عليه القابض، فتستولي عليه كفه، ويحوزه ملكه، ولا يشاركه غيره، والسموات مجموعات في ملكه ومضمومات بقدرته وقال الزمخشري: والآية لتصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله، من غير ذهاب بالقبضة واليمين إلى جهة، لأن الغرض الدلالة على القدرة الباهرة، ولا ترى بابًا في علم البيان أدق ولا أرقَّ ولا ألطف من هذا الباب[١].

١٠ - الكناية ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ﴾ جنبُ الله كنايةٌ عن حقِّ الله وطاعته، وهذا من لطيف الكنايات.

١١ - الالتفات من التكلم إلى الغيبة ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ والأصل: (لا تقطنوا من رحمتي) قال علماء البيان: وفي الآية الكريمة ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ الآية من أنواع المعاني والبيان أمور حسان: منها إقباله تعالى على خلقه ونداؤه لهم، ومنها إضافة الرحمة للفظ الجلالة الجامع لجميع الأسماء والصفات، ومنها الإتيان بالجملة المعرَّفة الطرفين المؤكدة بإن وضمير الفصل ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

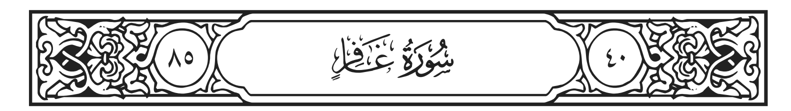
١٢ - توافق الفواصل في الحرف الأخير، وهو نهاية في الروعة والجمال اقرأ مثلًا قوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ۝٦٨ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٦٩ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ ألا تأخذك روعة هذا البيان برونقه، وجماله، وأدائه، فينطلق لسانك بذكر الرحمن؟!

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الزمر»

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) (ش): توصف يَدُ الله عَزَّ وجَلَّ بأنها يَمِين، وهذا ثابتٌ بالكتاب والسنة. وتفسير اليمين بالقدرة، تأويل باطل ليمين الرحمن جل وعلا.



مكية وآياتها خمس وثمانون

بين يدي السورة

* سورة غافر مكية، وهي تعنى بأمور العقيدة كشأن سائر السورة المكية، ويكاد يكون موضوع السورة البارز هو المعركة بين «الحق والباطل» و«الهدى والضلال» ولهذا جاء جو السورة مشحونًا بطابع العنف والشدة، وكأنه جو معركة رهيبة يكون فيها الطعن والنزال، ثم تسفر عن مصارع الطغاة فإذا بهم حطام وركام.

* ابتدأت السورة الكريمة بالإشادة بصفات الله الحسنى، وآياته العظمى، ثم عرضت لمجادلة الكافرين في آيات الله، فمع وضوح الحق وسطوعه، جادل فيه المجادلون، وكابر فيه المكابرون.

* وعرضت السورة لمصارع الغابرين وقد أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فلم يفلت منهم إنسان.

* وفي ثنايا هذا الجو الرهيب، يأتي مشهد حملة العرش في دعائهم الخاشع المنيب.

* وتحدثت السورة عن بعض مشاهد الآخرة وأهوالها، فإذا العباد واقفون للحساب، بارزون أمام الملك الديان، يغمرهم رهبة وخشوع، وإذا القلوب لدى الحناجر تكاد لشدة الفزع والهول تنخلع، وفي ذلك الموقف الرهيب، واليوم العصيب، يلقى الإنسان جزاءه إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

* ثم يأتي الحديث عن قصة الإيمان والطغيان، ممثلة في دعوة موسى عليه السلام لفرعون الطاغية الجبار، ففرعون يريد -بكبريائه وجبروته- أن يقضي على موسى وأتباعه خشية أن ينتشر الإيمان بين الأقوام، وتبرز في ثنايا هذه القصة حلقة جديدة، لم تعرض في قصة موسى من قبل، ألا وهي ظهور رجل مؤمن من آل فرعون يخفي إيمانه، يصدع بكلمة الحق في تلطف وحذر، ثم في صراحة ووضوح، وتنتهي القصة بهلاك فرعون الطاغية الجبال بالغرق في البحر مع أعوانه وأنصاره وبنجاة الداعية المؤمن وسائر المؤمنين.

* ثم تعرضت السورة إلى بعض الآيات الكونية، والشاهدة بعظمة الله، الناطقة بوحدانيته وجلاله، الذي يشركون به ويكفرون بآياته، وتضرب مثلًا للمؤمن والكافر بالبصير والأعمى، فالمؤمن على نور من الله وبصيرة، والكافر يتخبط في الظلام. * وتختم السورة الكريمة بالحديث عن مصارع المكذبين، والطغاة المتجبرين، ومشهد العذاب يأخذهم وهم في غفلتهم سادرون.

التسمية: سميت «سورة غافر» لأن الله تعالى ذكر هذا الوصف الجليل - الذي هو من صفات الله الحسنى - في مطلع السورة الكريمة ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ وكرر ذكر المغفرة في دعوة الرجل المؤمن ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ وتسمى سورة المؤمن لذكر قصة مؤمن آل فرعون.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ (٢) غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ (٣) مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ (٤) كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۢ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ (٦) ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ (١٠) قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ (١١) ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ (١٢) هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ (١٣) فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ (١٤) رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ (١٥) يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ (١٦) ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ (١٧) وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ (١٨) يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ (١٩) وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ (٢٠) ۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ

اللغة: ﴿غَافِرِ﴾ الغفر: السترُ والمحو والتكفير ﴿ٱلطَّوۡلِ﴾ الإنعام والتفضل ﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾ يبطلوا ويزيلوا، يقال: الباطلُ داحضٌ، لأنه يزلق ويزل فلا يستقر ﴿حَقَّتۡ﴾ وجبت ولزمت

﴿لَمَقۡتُ﴾ المقت: شدة البغض ﴿ٱلرُّوحَ﴾ الوحيُ والنبوة سمي رُوحًا لأن القلوب تحيا به كما تحيا الأبدان بالأرواح ﴿ٱلتَّلَاقِ﴾ الاجتماع في الحشر ﴿بَٰرِزُونَ﴾ ظاهرون لا يسترهم شيء ﴿ٱلۡأٓزِفَةِ﴾ اسم للقيامة سميت آزفة لقربها، يقال أزف الشيء إذا اقترب ﴿وَاقٖ﴾ دافع يدفع عنهم العذاب.

التفسير: ﴿حمٓ﴾ الحروف المقطَّعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وللإرشاد على أن هذا القرآن المعجز منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية[1] ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ أي هذا القرآن تنزيلٌ من الله ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ أي العزيز في ملكه، العليم في خلقه ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ أي الذي يعفو عن ذنوب العباد، ويقبل توبة العصاة لمن تاب منهم وأناب ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي شديد العقاب لمن تكبر وطغى، وأعرض عن طاعة المولى ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ أي ذي الفضل والإنعام ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أي لا معبود بحقٍّ إلا الله، ولا ربَّ في الوجود سواه ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي إليه وحده مرجع الخلائق فيجازيهم بأعمالهم، وإنما قدَّم المغفرة والتوبة على العقاب، للإشارة إلى سعة الفضل وأن رحمته سبقت عذابه، ثم لما ذكر أن القرآن هداية الله للعالمين، أعقبه بذكر المجادلين المعاندين فقال ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي ما يدفع الحق ويجادل في هذا القرآن بعد وضوح آياته وظهور إعجازه إلا الجاحدون لآياتِ الله، المعاندون لرسله ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ أي فلا تغترَّ أيها العاقل بتصرفهم وتقلبهم في هذه الدنيا، بالمساكن والمزارع، والممالك والتجارات، فإنهم أشقى الناس، وما هم عليه من النعيم متاعٌ قليل، وظلٌّ زائل، فإني وإن أمهلتهم لا أهملُهم، بل آخذهم بعد ذلك النعيم أخذ عزيز مقتدر قال في التسهيل: والآية تسليةٌ للنبي ﷺ ووعيدٌ شديد للكفار[2] ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ أي كذَّب قبل كفار مكة أقوام كثيرون، منهم قوم نوح والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم ولم يقبلوا ما جاءوا به من عند الله كقوم عاد وثمود وفرعون وأمثالهم ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾ أي وهمت كل أمةٍ من الأمم المكذبين أن يقتلوا رسولهم ويبطشوا به قال ابن كثير: أي حرصوا على قتله بكل ممكن ومنهم مَن قَتل رسوله[3] ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ أي جادلوا رسلهم بالباطل ليزيلوا ويبطلوا به الحق الواضح الجلي ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ﴾ أي فأهلكتهم إهلاكًا مريعًا ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ استفهام

---

(١) انظر تفصيل الموضوع في أول سورة البقره، وهذه السورة واحدة من سبع سور كلها كلها تبدأ بالحرفين (حا ميم) وتسمى السبع آل حا ميم. (ش): وفي طبعة أخرى: وتسمى الحواميم السبع أو ال حا ميم. اهـ. وفي «لسان العرب» (١/ ١٢): «قَالَ أَبُو حَاتِم: قَالَت الْعَامَّة فِي جمع حم وطس: طواسين وحواميم. قَالَ: وَالصَّوَاب ذَوَات طس وَذَوَات حم وَذَوَات الم».

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٢.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٣٥.

تعجيب أي فكيف كان عقابي لهم؟ ألم يكن شديدًا فظيعًا؟ ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي وكذلك وجبت كلمة العذاب على هؤلاء المكذبين من قومك، كما وجبت لمن سبقهم من الكفار ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي لأنهم أهل النار، قال القرطبي: أي كما حقَّ على الأمم التي كذبت رسلها وحلَّ بها عقابي، كذلك وجبت كلمة العذاب على الذين كفروا بالله من قومك لأنهم أصحاب النار[١].

ثم ذكر تعالى حال الملائكة الأطهار، والمؤمنين الأبرار، بعد أن ذكر الكفار والفجار فقال ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي هؤلاء العباد المقربون حملةُ العرش ومن حول العرش من أشراف الملائكة وأكابرهم، ممن لا يُحصي عددهم إلا الله، هم في عبادة دائبة لله، ينزهونه عن صفات النقص، ويثنون عليه بصفات الكمال ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي ويصدقون بوجوده تعالى، وبأنه لا إله لهم سواه، ولا يستكبرون عن عبادته قال الزمخشري: فإن قالت: ما فائدة قوله ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ولا يخفى أن حملة العرش وجميع الملائكة يؤمنون بالله؟ فالجواب أن ذلك إظهار لفضيلة الإيمان وشرفه والترغيب فيه[٢] ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي وهم مع عباداتهم واستغراقهم في تسبيح الله وتمجيده، يطلبون من الله المغفرة للمؤمنين قائلين ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي يا ربنا وسعَتْ رحمتُك وعلمُك كل شيء قال المفسرون: وفي وصف الله تعالى بالرحمة والعلم -وهو ثناءٌ قبل الدعاء- تعليمُ العباد أدب السؤال والدعاء، فهم يبدءون دعاءهم بأدبٍ ويستمطرون إحسانه وفضله وإنعامه[٣] ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ أي فاصفح عن المسيئين المذنبين، التائبين عن الشرك والمعاصي، المتبعين لسبيل الحق الذي جاء به أنبياؤك ورسلك ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي واحفظهم من عذاب جهنم ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ أي أدخلهم جنات النعيم والإقامة التي وعدتهم إياها ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ أي وأدخل الصالحين من الآباء والأزواج والأولاد في جنات النعيم أيضًا ليتم سرورهم بهم قال ابن كثير: أي اجمع بينهم وبينهم لتَقرَّ بذلك أعينُهم[٤] بالاجتماع في الجنة بمنازل متجاورة[٥] ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي العزيز الذي لا يُغلَب ولا يَمتنِع عليه شيء، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هذا من

---

(١) «تفسير الطبري» ٢٤/ ٤٣.

(٢) «تفسير الكشاف» ٤/ ١١٨.

(٣) انظر «البحر المحيط» ٧/ ٤٥١.

(٤) (ش): قَرَّت عينُه: بَرد دمعُها، ضدّ سخُنت، ويُكنَّى به عن السرور والابتهاج، وقيل: لأنَّه للسّرور دمعة باردة وللحزن دمعة حارّة.

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٣٦.

تمام دعاء الملائكة، أي: احفظهم يا ربِّ من فعل المنكرات والفواحش التي توبق أصحابها ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾ أي ومَن حفظْتَه من نتائجها وعواقبها يوم القيامة، فقد لطفت به ونجَّيْتَه من العقوبة ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي وذلك الغفران ودخول الجنان، هو الظفر العظيم الذي لا ظفر مثله.. ولما تحدث عن أحوال المؤمنين، ذكر شيئًا من أحوال الكافرين فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي تناديهم الملائكة يوم القيامة على جهة التوبيخ والتقريع: لَبُغْضُ اللهِ الشديدُ لكم في الدنيا أعظم من بُغضكم اليوم لأنفسكم ﴿إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ﴾ أي حين كنتم تُدعون إلى الإيمان فتكفرون كبرًا وعتوًّا قال قتادة: بغضُ الله لأهل الضلالة حين عُرض عليهم الإيمان في الدنيا فأبوا أن يقبلوه، أكبرُ مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله[1] ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ أي قال الكفار لما رأوا الشدائد والأهوال: ربَّنا أمتَّنا مرتين، وأحييتنا مرتين ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ أي فاعترفنا بما جنيناه من الذنوب في الدنيا ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ أي فهل تردنا إلى الدنيا لنعمل بطاعتك؟ وهل تخرجنا من النار لنسلك طريق الأبرار؟ قال المفسرون: الموتةُ الأولى حين كانوا في العدم، والموتة الثانية حين ماتوا في الدنيا، والحياة الأولى حياة الدنيا، والحياة الثانية حياةُ البعث يوم القيامة، فهاتان موتتان وحياتان[2]، وإنما قالوا ذلك على سبيل التعطف والتوسل إلى رضى الله، بعد أن عاينوا العذاب، وقد كانوا يكفرون وينكرون، ولهذا جاء الجواب ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ أي ذلكم العذاب والخلود في جهنم بسبب كفركم وعدم إيمانكم بالله، فإذا دعيتم إلى التوحيد كفرتم ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾ وإن دعيتم إلى اللات والعزَّى وأمثالهما من الأصنام، آمنتم وصدَّقتم بألوهيتها ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ أي فالقضاء لله وحده، لا للأوثان والأصنام، ولا سبيل إلى نجاتكم، لأن الله هو المتعالي على خلقه، العظيم في ملكه الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. ولما ذكر تعالى ما يوجب التهديد الشديد للمشركين، أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته ليصير بمنزلة البرهان على عدم جواز عبادة الأوثان فقال ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي الله جل وعلا هو الذي يريكم أيها الناس العلامات الدالة على قدرته الباهرة في مخلوقاته، في العالم العلوي والسفلي الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ﴾ أي وينزِّل لكم من السماء المطر الذي هو سبب للرزق، وبه تخرج الزروع والثمار ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أي وما يعتبر ويتَّعظ بهذه

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٣٧١.

(٢) هذا قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة، قالوا: وهذه مثل قوله تعالي: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ الآيه.

الآيات الباهرة، إلا من يرجع إلى الله بالتوبة والإنابة، والعمل الصالح البعيد عن الرياء والنفاق ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي فاعبدوا الله أيها المؤمنون مخلصين له العبادة والطاعة ولا تعبدوا معه غيره ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ هذا للمبالغة، أي: اعبدوه وأَخلِصوا له قلوبكم، حتى ولو كره الكافرون ذلك، وغاظَهم إخلاصُكم وقاتَلُوكم عليه ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي عظيم الشأن والسلطان، صاحب الرفعة والمقام العالي ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي صاحبُ العرش العظيم، الذي هو أعظم المخلوقات، ولا شيء يشبهه من مخلوقات الله. قال ابن كثير: أخبر تعالى عن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها، وقد ذُكِر أن العرش من ياقوتةٍ حمراء[1] ولا يعلم سعته إلا الله[2] وقال أبو السعود: وكونُ العرش العظيم المحيط بأكناف العالم العلوي والسفلي، تحت ملكوته وقبضة قدرته، مما يقضي بكون علو شأنه وعظم سلطانه، في غايةٍ لا غاية وراءها[3] ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ أي ينزل الوحي على من يشاء من خلقه، ويختص بالرسالة والنبوة من أراد من عباده، وإنما سمَّى الوحي روحًا لأنه يسري في القلوب كسريان الروح في الجسد قال القرطبي: سمَّاه روحًا لأن الناس يحيون به من موت الكفر كما تحيا الأبدان بالأرواح[4] ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي ليخوِّفَ الرسولُ الموحَى إليه يومَ القيامة الكبرى، حيث يلتقي العباد جميعًا ليحاسَبوا على أعمالهم، ويلتقي الخلق بالخالق في ساعة الحساب قال قتادة: يلتقي فيه أهل السماء بأهل الأرض، والخالق والخلق[5] ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أي يوم هم ظاهرون بادون للعيان، لا شيء يكُنُّهم ولا يُظِلّهم ولا يسترهم من جبل أو أكمةٍ أو بناء[6]، لأنهم في أرض مستوية هي أرض المحشر ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞ﴾ أي لا يخفى على الله شيء من أحوالهم وأعمالهم ولا من سرائرهم وبواطنهم قال الصاوي: والحكمة في تخصيص ذلك اليوم مع أن الله لا يخفى عليه شيء في سائر الأيام أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا أنهم إذا استتروا بالحيطان مثلًا لا يراهم الله، وفي هذا اليوم لا يتوهمون هذا التوهم[7] ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾؟ أي ينادي الله

(١) (ش): رواه أبو الشيخ في «العظمة»، وضعفه الألباني.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٢٢.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٥ (ش): وكذلك علو ذاته، كما قال المؤلف في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف ٥٤]: «﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ الاستواء: العلوّ والاستقرار». وقال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيلٍ ولا تحريف كما هو مذهب السلف.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٢٩٩.

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٣٨.

(٦) (ش): كَنَّ الشَّيءَ: أخفاه وستَره وصانه. أَكَمَة: تلٌّ صغيرٌ، أو موضع يكون أكثر ارتفاعًا ممّا حوله.

(٧) «حاشيه الصاوي» علي الجلالين ٤/ ٥.

سبحانه والناسُ بارزون في أرض المحشر: لمن المُلكُ اليوم؟ ويسكت الخلائق هيبةً لله تعالى وفزعًا، فيجيب تعالى نفسه قائلًا ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ أي لله المتفرد بالملك، الذي قهر بالغلبة كل ما سواه قال الحسن: هو تعالى السائل والمجيب، لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه، فيجيب نفسه[١] ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ أي في ذلك اليوم يوم القضاء والفصل بين العباد تُجازى كل نفسٍ بما عملت من خيرٍ أو شر ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي لا يُظلَم أحدٌ شيئًا، لا بنقص ثواب، ولا بزيادة عقاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي سريعٌ حسابه، لا يشغله شأنٌ عن شأن، فيحاسب الخلائق جميعًا في وقتٍ واحد قال القرطبي: كما يرزقهم في ساعةٍ واحدة، يحاسبهم كذلك في ساعةٍ واحدة، وفي الخبر: «لا ينتصف النهارُ حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهلُ النار في النار»[٢] ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾ أي خوِّفهم ذلك اليوم الرهيب يوم القيامة قال ابن كثير: «الآزفة» اسم من أسماء القيامة، سميت بذلك لقربها كقوله تعالى ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧][٣] ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ﴾ أي تكاد قلوبهم لشدة الخوف والجزع تبلغ الحناجر وهي الحلوق مكان البلعوم ﴿كَٰظِمِينَ﴾ أي ممتلئين غمًا وحسرةً شأن المكروب قال في التسهيل: معنى الآية أن القلوب قد صعدت من الصدور لشدة الخوف حتى بلغت الحناجر، ويحتمل أن يكون ذلك حقيقةً أو مجازًا عبَّر به عن شدة الخوف والحنجرة هي الحلق[٤] ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ﴾ أي ليس للظالمين صديقٌ ينفعهم ﴿وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ أي ولا شفيع يشفع لهم لينقذهم من شدة العذاب ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ أي يعلم جلَّ وعلا العين الخائنة بمسارقتها النظر إلى محرم قال ابن عباس: هو الرجل يكون جالسًا مع الناس، فتمرُّ المرأة فيسارقهم النظر إليها ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ أي ويعلم السرَّ المستور تخفيه الصدور ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾ أي يقضي ويحكم بالعدل ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي والذين يعبدونهم من دون الله من الأوثان والأصنام ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ أي لا حكم لهم أصلًا فكيف يكونون شركاء لله؟ قال أبو السعود: وهذا تهكمٌ بهم لأن الجماد لا يقال في حقه: يقضي أو لا يقضي[٥] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ أي هو السميع لأقوال العباد، البصير بأفعالهم ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؟ أي أوَلم يعتبرِ هؤلاء المشركون في أسفارهم بما يرون من آثار المكذبين ﴿فَيَنظُرُواْ

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٠٠.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٠١، ومعنى «يقيل» من القيلولة وهي الاستراحة وقت الظهيرة. (ش): رواه ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري في «تفسيرَيهما» من كلام عبد الله بن مسعود ﷺ بإسناد ضعيف. ورواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» من كلام ابن جريج بإسناد ضعيف.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٣٩.

(٤) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٤.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٧.

كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي فينظروا ما حَلَّ بالمكذبين من العذاب والنكال؟ فإنَّ العاقل من اعتبر بغيره ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي كانوا أشدَّ قوةً من هؤلاء الكفار من قومك ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي وأقوى آثارًا في الأرض من الحصون والقصور والجند الأشداء، ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد أهلكهم الله لما كذبوا الرسل ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أهلكهم الله إهلاكًا فضيعًا بسبب إجرامهم وتكذيبهم رسل الله ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي وما كان لهم أحد يدفع عنهم عذاب الله، ولا يقيهم من عقابه. ثم ذكر تعالى سبب عقابه لهم فقال ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي ذلك العذاب بسبب أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالمعجزات الباهرات، والآيات الساطعات الواضحات ﴿فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي فكفروا مع هذا البيان والبرهان فأهلكهم الله ودمَّرهم ﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ﴾ أي إنه تعالى قوي لا يُقهَر، ذو قوة عظيمة وبأسٍ شديد ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي عقابه شديد لمن عصاه، وعذابه أليم وجيع، أعاذنا الله من عقابه وأجارنا من عذابه.

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ

ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى ما حلَّ بالكفار من العذاب والدمار، أردفه بذكر قصة موسى مع فرعون تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من الأذى والتكذيب، وبيانًا لسنة الله تعالى في إهلاك الظالمين، ثم ذكر موقف مؤمن آل فرعون ونصيحته لقومه، وهي مواقف بطولية مشرِّفة في وجه الطغيان.

اللغَة: ﴿وَٱسْتَحْيُوا۟﴾[١] استبْقوا بناتهم على قيد الحياة ﴿ضَلَٰلٍ﴾ ضياع وبطلان ﴿عُذْتُ﴾ اعتصَمْتُ وتحصَّنْتُ والتجأْتُ ﴿ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين مستعْلين ﴿بَأْسِ ٱللَّهِ﴾ عذابه وانتقامه ﴿دَأْبِ﴾ عادة وشأن ﴿ٱلتَّنَادِ﴾ يوم القيامة للنداء فيه إلى المحشر، أو لمناداة الناس بعضهم بعضًا قال أمية بن الصَّلت:

وَبَـثَّ الْخَـلْـقَ فِـيـهَـا إِذْ دَحَـاهَـا ... فَـهُـمْ سُـكَّـانُـهَـا حَـتَّـى الـتَّـنَـادِ[٢]

﴿عَاصِمٍ﴾ مانع ودافع ﴿صَرْحًا﴾ قصرًا وبناءً عظيمًا عاليًا ﴿تَبَابٍ﴾ خسران وهلاك ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًّا ولا محالة ﴿وَحَاقَ﴾ نزل وأحاط.

التفسِير: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ اللام مُوطِّئَة للقسم[٣] أي والله لقد بعثنا رسولنا موسى بالآيات البينات، والدلائل الواضحات، وبالبرهان البيّن الظاهر وهو معجزة اليد والعصا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾ أي إلى فرعون الطاغية الجبار، ووزيره هامان، وقارون صاحب الكنوز والأموال قال في البحر: وخصَّ قارون وهامان بالذكر لمكانتهما في الكفر، ولأنهما أشهر أتباع فرعون[٤] ﴿فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي فقالوا عن موسى: إنه ساحر فيما أظهر من المعجزات، كذَّاب فيما ادعاه أنه من عند الله، وصيغة كذَّاب للمبالغة ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي فلما جاءهم بالمعجزات الباهرة التي تدل على

---

(١) (ش): هكذا في أكثر من طبعة والصواب: ﴿وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾، ولعله خطأ طباعي.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣١٠.

(٣) (ش): مُوَطِّئَةٌ للقَسَم: أي مُمَهِّدةٌ له؛ لأنها التي تُهَيِّئ الذهن لمعْرفَته.

(٤) «البحر المحيط» ٧/ ٤٥٩.

صدقه، والتي أيَّده الله بها ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ﴾ أي اقتلوا الذكور لئلا يتناسلوا، واستبقوا الإناث للخدمة قال الصاوي: وهذا القتلُ غيرُ الأول، لأن فرعون بعد ولادة موسى أمسَكَ عن قتْل الأولاد، فلما بُعث موسى وعجز عن معارضته أعاد القتل في الأولاد ليمتنع الناس من الإيمان، ولئلا يكثر جمعهم فيكيدوه، فأرسل الله عليهم أنواع العذاب كالضفادع والقُمَّل والدم والطوفان، إلى أن خرجوا من مصر فأغرقهم الله تعالى وجعل كيدهم في نحورهم[١] ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي وما تدبيرهم ومكرهم إلا في خسرانٍ وهلاك، لأن الله لا يُنجِحَ سعْيَهم ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ أي قال فرعون الجبار: اتركوني حتى أقتل لكم موسى ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أي وليناد ربه حتى يخلصه مني، وإنما ذكره على سبيل الاستهزاء وكأنه يقول: لا يهولنكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى، وغرضُه أن يوهمهم بأنه إنما امتنع عن قتله رعايةً لقلوب أصحابه قال أبو حيان: والظاهر أن فرعون -لعنه الله- كان قد استيقن أنه نبيٌّ، وأن ما جاء به آياتٌ باهرة وما هو بسحر، ولكن الرجل كان فيه خبثٌ وجبروت وكان قتَّالًا سفَّاكًا للدماء لأهون شيء، فكيف لا يقتل من أحسَّ منه بأنه يَثُلُّ عَرْشَهُ[٢]، وَيَهْدِمُ مُلْكَهُ، ولكنه يخاف إنْ همَّ بقَتْله أن يُعاجل بالهلاك، وكان كلامه للتمويه على قومه وإيهامهم أنهم هم الذين يَكُفُّونه، وما كان يَكُفُّه إلا شدةُ الخوف والفزع[٣] ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي إني أخشى أن يغيّر ما أنتم عليه من عبادتكم لي إلى عبادة ربه ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ أي أو أن يثير الفتن والقلاقل في بلدكم، ويكون بسببه الهرْجُ، وهذا كما قال المثل «صار فرعون واعظًا» ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾ أي إني استجرتُ بالله واعتصمتُ به ليحفظني ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي من شر كل جبارٍ عنيد متكبر عن الإيمان بالله، لا يصدِّق بالآخرة قال في التسهيل: وإنما قال ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ ولم يذكره باسمه ليشمل فرعون وغيره، وليكون فيه وصفٌ لغير فرعون بذلك الوصف القبيح[٤] ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ قال المفسرون: كان هذا الرجل ابن عم فرعون وكان قبطيًّا يخفي إيمانه عن فرعون، فلما سمع قول الجبار متوعدًا موسى بالقتل نصحهم بقوله ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ استفهام إنكاري للتبكيت عليهم، أي: أتقتلون رجلًا لا ذنب له إلا لأجل أن قال: ربيَ الله من غير تفكرٍ ولا تأملٍ في أمره؟ ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي والحال أنه قد أتاكم بالمعجزات الظاهرة التي شاهدتموها من عند ربكم ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾

---

(١) «حاشيه الصاوي» ٤/ ٦.

(٢) (ش): ثَلَّ عرشَه: أذهَب سُلطانَه، هدم مُلكَه وأزالَه.

(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٤٥٩.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٥.

أي إن كان كاذبًا في دعوى الرسالة فضرر كذبه لا يتعداه قاله القرطبي: ولم يكن ذلك لشك منه في رسالته وصدقه، ولكنْ تلطفًا في الاستكفاف، واستنزالًا عن الأذى [١] ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ أي وإن كان صادقًا في دعواه أصابكم بعضُ ما وعدكم به من العذاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أي لا يوفق للهداية والإيمان من هو مسرفٌ في الضلال، مبالغ في الكذب على الله قال الإمام الفخر: وفي هذا إشارة إلى رفع شأن موسى لأن الله هداه وأيده بالمعجزات، وتعريضٌ بفرعون في أنه مسرفٌ في عزمه على قتل موسى، كذَّاب في إقدامه على ادعاء الإلهية، والله لا يهدي من هذا شأنه وصفته، بل يبطله ويهدم أمره[٢] وقال في البحر: هذا نوعٌ من أنواع علم البيان يسميه علماؤنا «استدراج المخاطب» وذلك أنه لما رأى فرعون قد عزم على قتل موسى، وقومه على تكذيبه؛ أراد الانتصار له بطريق يَخْفي عليهم بها أنه متعصبٌ له، وأنه من أتباعه، فجاءهم بطريق النصح والملاطفة فقال ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ ولم يذكر اسمه بل قال رجلًا ليوهمهم أنه لا يعرفه، ثم قال ﴿أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل رجلًا مؤمنًا بالله أو هو نبي الله، إذ لو قال ذلك لعلموا أنه متعصب ولم يقبلوا قوله، ثم أتبعه بقوله ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾ فقدَّم الكذب على الصدق موافقة لرأيهم فيه ثم تلاه بقوله ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ ولم يقل هو صادق وكذلك قال ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ ولم يقل كلُّ ما يعدكم، ولو قال ذلك؛ لعلموا أنه متعصب له، وأنه يزعم نبوته وأنه يصدّقه، ثم أتبعه بكلام يفهم منه أنه ليس بمصدِّق له وهو قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ وفيه تعريضٌ بفرعون، إذ هو في غاية الإسراف والكذب على الله، إذْ ادعى الألوهية والربوبية[٣] ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كرر النصح مع التلطف، والمعنى: أنتم غالبون على بني إسرائيل في أرض مصر قد قهرتموهم واستعبدتموهم اليوم ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أي فمن ينقذنا من عذاب الله وينجينا منه إن قتلتم رسوله قال الرازي: وإنما قال ﴿يَنصُرُنَا﴾ و ﴿جَآءَنَا﴾ لأنه كان يُظهر لهم أنه منهم، وأنَّ الذي ينصحهم به هو مشارك لهم فيه[٤]. وهنا تأخذ فرعون العزةُ بالإثم، ويستبدُّ به الجبروت والطغيان ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي ما أشير عليكم برأي سوى ما ذكرتُه من قتل موسى حسمًا لمادة الفتنة ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي وما أهديكم بهذا الرأي إلا طريق الصواب والصلاح ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي أخشى عليكم مثل أيام العذاب التي عُذّب بها المتحزبون على الأنبياء ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ هذا تفسير للأحزاب أي مثل عادة

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٠٧.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ٥٩.

(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٤٦١.

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٤/ ١٢٨.

قوم نوح وعاد وثمود وما أصابهم من العذاب والدمار بتكذيبهم لرسلهم ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي والمكذبين بعد أولئك كقوم لوط ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ أي لا يعاقب العباد بدون ذنب قال الزمخشري: أي إن تدميرهم كان عدلًا وقسطًا لأنهم استوجبوه بأعمالهم، وفيه مبالغة حيث جعل المنفي إرادة الظلم، ومن كان بعيدًا عن إرادة الظلم، كان عن الظلم أبعد(١) ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ خوَّفهم بعذاب الآخرة بعد أن خوفهم بعذاب الدنيا. والمعنى: إني أخاف عليكم من ذلك اليوم الرهيب يوم الحشر الأكبر، حيث ينادي المجرمون بالويل والثبور ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ [الفرقان: ١٣] ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ أي تولون منهزمين من هول عذاب جهنم قال المفسرون: إن الكفار إذا سمعوا زفير النار أدبروا هاربين، فلا يأتون قطرًا من الأقطار إلا وجدوا الملائكة يتلقونهم يضربون وجوههم، فيرجعون إلى مكانهم فتتلقَّفهم جهنم ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾ أي ليس لكم مانع ولا دافع يصرف عنكم عذاب الله ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ أي ومن يضلله اللهُ فليس له من يهديه إلى طريق النجاة ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي والله لقد جاءكم يوسف بن يعقوب من قبل موسى بالمعجزات الظاهرات ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ أي فلم تزالوا شاكين في رسالته كافرين بما جاء به من عند الله قال المفسرون: المراد آباؤكم وأصولكم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗا﴾ أي حتى إذا مات قلتم على سبيل التشهي والتمني من غير حجة ولا برهان: لن يأتي أحد يدعي الرسالة بعد يوسف قال أبو حيان: وليس هذا تصديقًا لرسالة يوسف، كيف وما زالوا في شك منه، وإنما المعنى لا رسول من عند الله فيبعثه إلى الخلق، ففيه نفي الرسول ونفي بعثته(٢) ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ أي مثل ذلك الضلال الفظيع يُضلُّ الله كل مسرفٍ في العصيان، شاكٍّ في الدين، بعد وضوح الحجج والبراهين ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ هذا من تتمة كلام الرجل المؤمن. والمعنى الذين يجادلون في شريعة الله بغير حجة وبرهان جاءهم من عند الله ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي عظُم بغضًا عند الله وعند المؤمنين جدالُهم بغير برهان قال في البحر: عدل الواعظ عن مخاطبتهم إلى الاسم الغائب، لحُسنِ محاورته لهم واستجلاب قلوبهم، لئلا يَفْجَأهم بالخطاب، وفي قوله ﴿كَبُرَ مَقۡتًا﴾ ضربٌ من التعجب والاستعظام لجدالهم، كأنه خارج عن حدِّ أمثاله من الكبائر(٣) ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ أي كما ختم على قلوب هؤلاء المجادلين كذلك يختم بالضلال على قلب كل متكبر

---

(١) «تفسير الكشاف» ٤/ ١٢٨.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٤٦٤.

(٣) نفس المرجع السابق ٧/ ٤٦٥.

عـن الإيمان، متجبر على العباد، حتى لا يعقل الرشـاد، ولا يقبـل الحق، وإنما وصف القلب بالتكبر والجبروت لكونـه مركزهما ومنبعهما، وهو سـلطان الأعضاء، فمتى فسـد فسـدت ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ أي قـال فرعـون لوزيـره هامان ابن لـي قصرًا عاليًـا، وبناءً شامخًا منيفًا قال القرطبي: لما قال مؤمن آل فرعون ما قال، وخاف فرعون أن يتمكن كلامه في قلوب القوم، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد، فأمر وزيره هامان ببناء الصرح[1] ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ أي لعلي أصل وأنتهي إلى طرق السـموات وما يؤدي إليها، وكررها للتفخيم والبيان[2] ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾ أي فأنظر إلى إله موسـى نظر عيان ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ أي وإني لأعتقد موسـى كاذبًا في ادعائه أن له إلهًا غيري قال أبو حيان: وبلوغُ أسـباب السموات غير ممكن، لكنَّ فرعون أبرزه في صورة الممكن تمويهًا على سامعيه، ولما قال ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾ كان ذلك إقرارًا بالإله فلذلك استدرك هذا الإقرار بقوله ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾[3] ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي ومثل ذلك التزيين زُيِّـن لفرعـون عمله السـيئ حتى رآه حسـنًا ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي ومُنـع بضلاله عن طريق الهـدى ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ أي ومـا تدبيـر فرعـون ومكـره إلا في خسـار وهلاك، خسـر ملكه في الدنيا بالغرق، وفي الآخرة بالخلود في النار ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ كـرَّر مؤمن آل فرعون نصحه لهـم بعد تلك المراوغة التي لقيهـا مـن فرعون، ودعا قومـه إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، وكشـف لهم عـن قيمة الحياة الزائلة، وشـوَّقهم إلى نعيم الحياة الباقية، وحذَّرهم من عذاب الله ومعنى الآية: امتثلوا يا قوم أمري واسـلكوا طريقي أرشـدكم إلى طريق الفوز والنجاة -طريق الجنة- ﴿يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ﴾ أي ليسـت الدنيا إلا متاعًا زائـلًا، لا ثبات له ولا دوام ﴿وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ أي وإن الـدار الآخرة هي دار الاسـتقرار والخلـود، التي لا زوال لها ولا انتقال منهـا، فإمـا خلود في النعيم، أو خلـود في الجحيم قـال القرطبي: ومراده بالـدار الآخرة الجنة والنـار لأنهمـا لا يفنيـان[4] ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي من عمـل في هذه الدنيا سيئةً فلا يعاقب في الآخرة إلا بمقدارها دون زيادة، رحمة منه تعالى بالعباد ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي ومـن فعـل في الدنيا العمل الصالح سـواء كان ذكرًا أو أنثى بشرط الإيمان ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي فأولئك المحسنون

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣١٤.

(٢) قال صاحب الكشاف: إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيمًا لشأنه ، فلما أراد تفخيم أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها. اهـ. «الكشاف» ٤/ ٦٦.

(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٤٦٥.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣١٧.

يدخلون جنات النعيم، ويعطون جزاءهم بغير تقدير، بل أضعافًا مضاعفة فضلًا من الله وكرمًا، فقد اقتضى فضله تعالى أن تضاعف الحسناتُ دون السيئات قال ابن كثير: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي لا يُتَقَدَّر بجزاء، بل يثيبه الله ثوابًا كثيرًا عظيمًا، لا انقضاء له ولا نفاد[1] ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؟ أي ما لي أدعوكم إلى الإيمان الموصل إلى الجنان، وتدعونني إلى الكفر الموصل إلى النار؟ والاستفهام للتعجب كأنه يقول: أنا أتعجب من حالكم هذه، أدعوكم إلى النجاة والخير، وتدعونني إلى النار والشر؟ ثم وضَّح ذلك بقوله ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي تدعونني للكفر بالله، وأن أعبد ما ليس لي علمٌ بربوبيته، وما ليس بإلهٍ كفرعون ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ أي وأنا أدعوكم إلى عبادة الله الواحد الأحد، العزيز الذي لا يُغلب، الغفَّار لذنوب العباد ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ أي حقًّا إن ما تدعونني لعبادته ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي لا يصلح أن يُعبد لأنه لا يسْتجيب لنداء داعيه، ولا يقدر على تفريج كربته لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي وأن مرجعنا إلى الله وحده فيجازي كلًّا بعمله ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي وأن المسرفين في الضلال والطغيان سيخلَّدون في النار ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي فستذكرون صدق كلامي عندما يحل بكم العذاب، وهو تهديد ووعيد ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي أتوكل على الله، وأسلِّم أمري إليه قال القرطبي: وهذا يدل على أنهم هدَّدوه وأرادوا قتله[2] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي مطلع على أعمالهم، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ أي فنجاه الله من شدائد مكرهم، ومن أنواع العذاب الذي أرادوا إلحاقه به ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي ونزل بفرعون وجماعته أسوأ العذاب، وهو الغرق في الدنيا، والحرق في الآخرة، ثم فسَّره بقوله ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أي النار يُحرقون بها صباحًا ومساء قال المفسرون: المراد بالنار هنا نار القبر وعذابهم في القبور بدليل قوله بعده ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي ويوم القيامة يقال للملائكة: أدخلوا فرعون وقومه نار جهنم التي هي أشد من عذاب الدنيا.

قال الله تعالى:

وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٤٥ .

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣١٨.

ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ
ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ
﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ
وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ
حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ
فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ
جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو
فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ
لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ
لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ
مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

المناسَبة: لما ذكر تعالى ما حلَّ بآل فرعون من العذاب والدمار، ذكر بعده النزاع والخصام الذي يكون بين أهل النار، واستغاثة المجرمين، وهم في عذاب الجحيم يصلون سعيرها فلا يجابون، ثم ذكر الأدلة والبراهين على قدرة الله ووحدانيته، لإقامة الحجة على المشركين.

اللغَة: ﴿يَتَحَآجُّونَ﴾ يختصمون ﴿لِخَزَنَةِ﴾ جمع خازن وهو المتكفل بحفظ الشيء وحراسته ﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ جمع شاهد وهو الذي يشهد بالحجة على غيره ﴿دَاخِرِينَ﴾ أذلاء صاغرين ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ تُصرفون عن الإيمان إلى الكفر ﴿قَرَارًا﴾ مستقرًّا ﴿أُسْلِمَ﴾ أذِلَّ وأخْضعَ.

التفسِير: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي واذكر حين يختصم الرؤساء والأتباع في نار جهنم ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي فيقول الأتباع الضعفاء للرؤساء المستكبرين عن الإيمان واتباع الرسل: إنا كنا لكم في الدنيا أتباعًا كالخدم ننقاد لأوامركم، ونطيعكم فيما تدعوننا إليه من الكفر والضلال ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؟ أي فهل أنتم دافعون عنا جزءًا من هذا العذاب الذي نحن فيه؟ قال الرازي: علموا أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف، وإنما مقصودهم من هذا الكلام

المبالغة في تخجيل الرؤساء، وإيلام قلوبهم، لأنهم سعوا في إيقاعهم في أنواع الضلالات[1] ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أي قال الرؤساء جوابًا لهم: إنَّا جميعًا في نار جهنم، فلو قدرنا على إزالة العذاب عنكم لدفعناه عن أنفسنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ أي قضى قضاءً مُبرمًا[2] لا مَرَدَّ له، بدخول المؤمنين الجنة، والكافرين النار، فلا نستطيع أن نفعل لكم شيئًا ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ لما يئس أهل النار بعضهم من بعض التجئوا إلى حراس جهنم يطلبون منهم التخفيف قال البيضاوي: وإنما وضع جهنم موضع الضمير ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ بدلًا من «لخزنتها» للتهويل والتفظيع[3] ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي ادعوا لنا الله أن يخفف عنا ولو مقدار يوم واحد من هذا العذاب ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؟ أي أجابتهم الملائكة على سبيل التوبيخ والتقريع: ألم تأتكم الرسل بالمعجزات الظاهرات فكفرتم بهم وكذبتموهم؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أي قال الكفار: بلى جاءونا ﴿قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾ أي: قالت لهم الملائكة: فادعوا الله أنتم فإنا لا نجترئ على ذلك قال الرازي: وليس قولهم ﴿فَٱدْعُواْ﴾ لرجاء المنفعة، ولكنْ للدلالة على الخيبة، فإن الملائكة المقربين إذا لم يُسمع دعاؤهم، فكيف يسمع دعاء الكفار[4]؟ ثم يصرّحون لهم بأنه لا أثر لدعائهم فيقولون: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي دعاؤكم لا ينفع ولا يجدي لأن دعاء الكافرين ما هو إلا خسار وتبار ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي ننصر الرسل والمؤمنين بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة المجرمين في هذه الحياة الدنيا ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ أي وفي الآخرة يوم يحضر الأشهاد الذين يشهدون بأعمال العباد، مِن مَلَك ونبي ومؤمن قال الرازي: الآية وعدٌ من الله تعالى لرسوله بأن ينصره على أعدائه في الحياة الدنيا وفي الآخرة[5] ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي لا ينفع المجرمين اعتذارهم قال ابن جرير: لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم، لأنهم لا يعتذرون إلا بباطل[6] ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي الطردُ من رحمة الله ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي ولهم جهنم أسوأ مرجع ومصير قال ابن عباس: ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ سوء العاقبة ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي والله لقد أعطينا «موسى بن عمران» ما يُهتدى به في الدين، من المعجزات والصحف والشرائع[7] ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٧٤.

(٢) (ش): مُبرم: قاطع.

(٣) «تفسير البيضاوي» ٣/ ١٥٤.

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ٧٤.

(٥) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٧٥.

(٦) «تفسير الطبري» ٢٤/ ٥٢.

(٧) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٢.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي أورثناهم العلم النافع والكتاب الهادي وهو «التوراة» ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي هاديًا وتذكرةً لأصحاب العقول السليمة ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي فاصبر يا محمد على أذى المشركين، فإن وعد الله لك ولأتباعك بالنصر على الأعداء، حق لا يمكن أن يتخلف، لأن الله لا يخلف الميعاد قال الإمام الفخر: لما بيَّن تعالى أنه ينصر رسله، وضرب المثال في ذلك بحال موسى، خاطب بعده رسوله بقوله ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ والمراد أنَّ الله ناصرك كما نصرهم، ومنجزٌ وعده لك كما أنجزه في حقهم[١] ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ أي واطلب المغفرة من ربك على ما فرط منك من ترك الأَوْلَى والأفضل، قال الصاوي: والمقصودُ من هذا الأمر تعليم الأمة ذلك، وإلا فرسول الله ﷺ معصومٌ من الذنوب جميعًا، صغائر وكبائر قبل النبوة وبعدها على التحقيق[٢] وقال ابن كثير: وهذا تهييجٌ للأمة على الاستغفار[٣] ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أي ودُمْ على تسبيح ربك في المساء والصباح قال الرازي: والمرادُ منه الأمرُ بالمواظبة على ذكر الله، وألَّا يفتر اللسان عنه، حتى يصبح في زمرة الملائكة الأبرار، الذين ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] والمرادُ بالتسبيح تنزيهُ اللهِ عن كل ما لا يليق به[٤]، ثم نبه تعالى إلى السبب الدافع للكفار إلى المجادلة بالباطل فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي يخاصمون في الآيات المنزلة ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ أي بلا برهانٍ ولا حجةٍ من الله ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ أي ما في قلوبهم إلا تكبرٌ وتعاظم يمنعهم من اتباعك والانقياد إليك ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ أي ما هم بواصلين إلى مرادهم من إطفاء نور الله، ولا بمؤملين مقصودهم بالعلو عليك ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي فالتجئ وتحصَّنْ بالله من كيدهم، فإن الله يدفع عنك شَرَّهم، لأنه هو السميعُ لأقوالهم العليمُ بأحوالهم.. ثم ذكر تعالى الدلائل الدالة على قدرته ووحدانيته فقال ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ اللام لام الابتداء، أي: لخلقُ الله للسمواتِ والأرضِ وإنشاؤُهما وابتداعهما من غير شيء أعظم من خلق البشر، فمن قدر على خلقهما مع عظمهما كيف يعجز عن خلق ما هو أحقر وأهون؟ قال في التسهيل: والغرض الاستدلال على البعث، لأن الإله الذي خلقَ السمواتِ والأرض على كبرها، قادرٌ على إعادة الأجسام بعد فنائها[٥] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ذلك، لأنهم لا يتأملون لغلبة الجهل عليهم، وفرط غفلتهم واتباعهم لأهوائهم ﴿وَمَا

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٧٧.

(٢) «حاشية الصاوي» ٤/ ١١.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٤٨.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٧٨.

(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٨.

يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ أي لا يتساوى المؤمن والكافر ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ ﴾ أي ولا البرُّ والفاجر ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي لا تتعظون بهذه الأمثال إلا قليلًا قال ابن كثير: والمراد أنه كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئًا، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار، والكفرة الفجار، ما أقلَّ ما يتذكر كثيرٌ من الناس[١]؟ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي إن القيامة آتيةٌ لا محالة، لا شك في ذلك ولا مرية ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي ولكنَّ أكثر الناس لا يصدقون بمجيئها، ولذلك ينكرون البعث والجزاء قال الرازي: والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث والقيامة[٢] ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي ادعوني أجبْكم فيما طلبتم، وأعطم ما سألتم قال ابن كثير: نَدَب تعالى عباده[٣] إلى دعائه، وتكفَّل لهم بالإجابة فضلاً منه وكرمًا[٤] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أي إنَّ الذين يتكبرون عن دعاء الله سيدخلون جهنم أذلاء صاغرين. ثم ذكر تعالى من آثار قدرته ووحدانيته، ما يلزم منه إفراده بالعبادة والشكر فقال ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أي الله جل وعلا بقدرته وحكمته هو الذي جعل لكم الليل مظلمًا لتستريحوا فيه من تعب وعناء العمل بالنهار، وجعل النهار مضيئًا لتتصرفوا فيه بأسباب الرزق وطلب المعاش ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي إنه تعالى متفضل على العباد، وهو صاحب الجود والإحسان إليهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ أي ولكنَّ أكثر الناس لا يشكرون الله على إحسانه، ويجحدون فضله وإنعامه ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي ذلكم المتفرد بالخلق والإنعام هو الله ربكم، خالق كل الأشياء ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود في الوجود سواه[٥] ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادة الخالق المالك إلى عبادة الأوثان؟ ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي كذلك يُصرف عن الهدى والحق الذين جحدوا بآيات الله وأنكروها قال الصاوي: وهذه تسلية للنبي ﷺ. والمعنى: لا تحزن يا محمد على إنكار قومك فإن من قبلهم فعل ذلك[٦]، ثم زاد في البيان ودلائل القدرة فقال ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أي جعلها مستقرًّا لكم في حياتكم وبعد مماتكم قال ابن عباس: جعلها

---

(١) ابن كثير ٣/ ٢٤٩ من «المختصر».

(٢) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٠٨٠.

(٣) (ش): نَدَب تعالى عباده: أي دعاهم.

(٤) ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد بالدعاء العبادة قال القرطبي: والمعني: وحدوني واعبدوني أتقبل عبادتكم وأغفرلكم... إلخ. ما أثبتناه هو اختيار ابن كثير وهو الأظهر وكذلك قال الشهاب ورجحه الرازي.

(٥) (ش): الصواب أن يقال: لا معبود بحق في الوجود سواه، لأن هناك معبودات كثيرة لكنها تعبد بالباطل.

(٦) حاشية الصاوي ٤/ ١٣.

منزلًا لكم في حال الحياة وبعد الموت [١] ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أي وجعل السماء سقفًا محفوظًا، كالقبة المبنية مرفوعة فوقكم ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي صوَّركم أحسن تصوير، وخلقكم في أحسن الأشكال، متناسب الأعضاء، ولم يجعلكم كالبهائم منكوسين تمشون على أربع قال الزمخشري: لم يخلق تعالى حيوانًا أحسن صورةً من الإنسان[٢]، وهذه مثل قوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي ورزقكم من أنواع اللذائذ ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي ذلكم الفاعل لهذه الأشياء والمنعم بهذه النعم هو ربكم لا إله إلا هو ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي فتعالى وتمجَّد وتقدس ربُّ جميع المخلوقات الذي لا تصلح الربوبية إلَّا له ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي هو تعالى المتفرد بالحياة الذاتية الحقيقية، الباقي الذي لا يموت، لا إله سواه ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي فاعبدوه وحده مخلصين له العبادة والطاعة ظاهرًا وباطنًا قائلين ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي الثناء والشكر لله مالك جميع المخلوقات، لا للأوثان التي لا تملك شيئًا، ولما بَيَّن صفات الجلال والعظمة، نهى عن عبادة غير الله فقال ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي قل يا محمد: إن ربي العظيم الجليل نهاني أن أعبد هذه الآلهة التي تعبدونها من الأوثان والأصنام قال الصاوي: أمر تعالى نبيه أن يخاطب قومه بذلك زجرًا لهم، حيث استمروا على عبادة غير الله، بعد ظهور الأدلة العقلية والنقلية[٣] ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ أي حين جاءتني الآيات الواضحات من عنده، الدالة على وحدانيته قال الرازي: والبيناتُ هي أن إله العالم قد ثبت كونه موصوفًا بصفات الجلال والعظمة، وصريح العقل يشهد بأن العبادة لا تليق إلا به، وأن جعل الحجارة المنحوتة والأخشاب المصورة، شركاء له في المعبودية مُستنْكرٌ في بديهة العقل[٤] ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وأمرت أن أذل وأخضع لله وحده، وأن أخلص له ديني، وأطهّر نفسي من عبادة غيره.

قال الله تعالى:

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٨٤.
(٢) «الكشاف» ٤/ ١٣٧.
(٣) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٣ .
(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ٨٥.

أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ

المناسَبَة: لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية، فبعد أن ذكر تعالى دلائل القدرة في الآفاق أردفها بدلائل القدرة في الأنفس، ثم تحدث عن أحوال المشركين يوم القيامة، وختم السورة الكريمة بالوعيد والتهديد لأهل الكفر والضلال.

اللغَة: ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ القيود جمع غُلّ وهو القيد يجمع اليد إلى العنق ﴿ٱلْحَمِيمِ﴾ الماء الحار البالغ نهاية الحرارة ﴿يُسْجَرُونَ﴾ توقد بهم النار يقال: سجر التنور أوقده ﴿تَمْرَحُونَ﴾ تبطَرون وتأشَرُون[1] ﴿مَثْوَى﴾ مأوى ومكان إقامة، من ثَوى بالمكان إذا أقام فيه ﴿خَلَتْ﴾ مضت.

التفسِير: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ هذا بيانٌ للأطوار التي مرَّ بها خلق الإنسان، أي: هو جل وعلا بقدرته الذي أوجدكم أيها الناس من العدم، فخلق أصلكم آدم من تراب، ثم خلق ذريته من النطفة وهي المنيُّ، ثم من علقة وهي الدم الغليظ، إلى آخر تلك الأطوار ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي ثم بعد أن ينفصل الجنين من بطن الأم يكون طفلاً ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ أي ثم لتبلغوا كمالكم في القوة والعقل، وهو سنُّ الأربعين ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا﴾ أي ثم لتصبحوا في سنِّ الهرَم والشيخوخة قال الإمام الفخر: رتَّب تعالى عمر الإنسان على ثلاث مراتب: الطفولة، وبلوغ الأشد، والشخوخة، وهذا ترتيب مطابق للعقل، فإن الإنسان في أول عمره يكون في النمَّاء والنشوء وهو المسمى بالطفولة، إلى أن

---

(١) (ش): أَشِرَ الشخصُ، أَشَرًا، فهو أَشِرٌ: بطِر واستكبر ومرح ونشِط. بطِرَ الشَّخصُ، بَطَرًا، فهو بَطِرٌ: طغَى وغالى في مَرَحِه وزهْوِه واستخفافه، جاوز الحدَّ كِبْرًا. بطِر النِّعمةَ: استخفَّها وكَفَرها ولم يَشْكُرْها. بطِر الحقَّ ونحوَه: أنكره ولم يقبله تكبُّرًا وطُغيانًا.

يبلغ إلى كمال النشوء من غير أن يحصل له ضعف، وهذا بلوغ الأشد، ثم يبدأ بالتراجع ويبدأ فيه الضعف والنقص، وهذه مرتبة الشيخوخة[١] ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي ومنكم من يُتوفى قبل أن يخرج إلى العالم وهو السِّقطُ وقال مجاهد: من قبلِ سنِّ الشيخوخة ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ أي ولتصلوا إلى الزمان الذي حُدِّد لكل شخصٍ وهو الموت ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي ولكي تعقلوا دلائل قدرته تعالى وتؤمنوا بأنه الواحد الأحد ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي هو القادر جل وعلا على الإحياء والإماتة ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي فإذا أراد أمرًا من الأمور فلا يحتاج إلى تعب وعناء، وإنما يوجد فورًا دون تأخير قال أبو السعود: وهذا تمثيلٌ لكمال قدرته، وتصوير لسرعة وجودها من غير أن يكون هناك أمرٌ ومأمور[٢]. ثم عاد إلى ذم المجادلين في آيات الله بالباطل فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ الاستفهام للتعجيب، أي: ألا ترى أيها السامع -وتعجب من حال هؤلاء المكابرين، الذين يجادلون في آيات الله الواضحة، كيف تُصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال؟ ثم بيَّنَهم بقوله ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ أي الذين كذبوا بالقرآن، وبسائر الكتب والشرائع السماوية ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ وتهديد، أي: سوف يعلمون عاقبة تكذيبهم ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ أي حين يدخلون النار، وتربط أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال والسلاسل ﴿يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي يسحبون بتلك السلاسل في الماء الحارِّ المسخَّن بنار جهنم، ثم يُوقدون ويحرقون فيها قال ابن كثير: ومعنى الآية: أن السلاسل متصلة بالأغلال وهي بأيدي الزبانية، يسحبونهم على وجوههم تارةً إلى الحميم، وتارة إلى الجحيم كما قال تعالى ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤][٣] ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ثم قيل لهم تبكيتًا: أين الأوثان والأصنام التي كنتم تعبدونها وتجعلونها شركاء لله؟ ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي فيقولون: غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا نستشفع بهم ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي بل لم نكن نعبد شيئًا قال المفسرون: جحدوا عبادتهم، وإنما فعلوا ذلك لحيرتهم واضطرابهم ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي مثل إضلال هؤلاء المكذبين يضلُّ الله كل كافر ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي ذلكم العذاب بما كنتم تُظْهِرونه في الدنيا من السرور بالمعصية وكثرة المال وإنفاقه في المحرمات ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي وبسبب بطركم وأشركم وخيلائكم قال الصاوي: وهذا وإن كان ذمًّا في الكفار، إلا أنه يجرُّ بذيله على كل من توسَّع في معاصي

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ٨٥.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٤. (ش): هذا كلامٌ فاسد لأنه خلاف مدلول الآية من أن الله تعالى يقول للشيءِ قولاً حقيقيًّا «كن»، وهذا فيه نفيٌ لكلام الله.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٥١.

الله، فله من هذا الوعيد نصيب[١] ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ادخلوا من أبواب جهنم السبعة المقسومة لكم ماكثين فيها أبدًا ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي بئست جهنم مقراً وسكنًا للمستكبرين عن آيات الله، المعرضين عن دلائل الإيمان والتوحيد، وإنما قال ﴿مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ولم يقل (فبئس مدخل المتكبرين) وهو مقتضى النظم، لأن الدخول لا يدوم، وإنما يدوم المثوى ولذا خصه بالذمّ ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ أي فاصبر يا محمد على تكذيب قومك لك، فإن وعد الله بتعذيبهم كائنٌ لا محالة قال الصاوي: هذا تسلية من الله لنبيه ﷺ ووعدٌ حسن بالنصر له على أعدائه[٢] ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ ﴾ أي إنْ أَرَيْناك بعض الذي نعدهم من العذاب، وجواب الشرط محذوفٌ تقديره فذلك هو المطلوب، أو لتقرَّ به عينُك[٣] ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ أي أو نتوفينَّك يا محمد قبل إنزال العذاب عليهم، فإلينا مرجعهم يوم القيامة فننتقم منهم أشدَّ الانتقام، ثم أخبره تعالى بأنباء الرسل تسليةً له عليه السلام فقال ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ ﴾ أي والله لقد بعثنا يا محمد رسلًا كثيرين قبلك، وأيدناهم بالمعجزات الباهرة فجادلهم قومهم وكذبوهم فتَأَسَّ بهم[٤] في الصبر على ما ينالك [٥] قال القرطبي: عزَّاه تعالى بما لقِيَت الرسلُ من قبله[٦] ﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَ ﴾ أي من هؤلاء الرسل من أخبرناك عن قصصهم مع قومهم، ومنهم من لم نخبرك عن قصصهم وأخبارهم ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ أي وما صحَّ ولا استقام لرسولٍ من الرسل أن يأتي قومه بشيء من المعجزات إلا بأمر الله، وهذا ردٌّ على قريش حيث قالوا للنبي ﷺ: اجعل لنا الصَّفَا ذهبًا وغير ذلك من مقترحاتهم ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي فإذا جاء الوقت المسمّى لعذابهم أهلكهم الله ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ أي خسر في ذلك الحين المعاندون الذين يجادلون في آيات الله، ويقترحون المعجزات على سبيل التعنت، ثم ذكَّرهم تعالى بنِعمه فقال ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ ﴾ أي الله جلَّ وعلا الذي لا تصلح الألوهية إلا له، هو الذي سخَّر لكم هذه الأنعام «الإبل والبقر والغنم» خلقها لكم ولمصلحتكم ﴿لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ أي لتركبوا على ظهور بعض هذه الحيوانات، وتأكلوا من لحومها وألبانها، ﴿ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ أي ولكم في هذه

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٤.

(٢) «حاشيه الصاوي» ٤/ ١٥.

(٣) (ش): قرَّت عينُه: بَرد دمعُها، ضدّ سخُنت، ويُكنّى به عن السرور والابتهاج، وقيل: لأنَّه للسّرور دمعة باردة وللحزن دمعة حارّة.

(٤) (ش): أي اقتَدِ بهم.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٣٤.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٤١.

الأنعام منافع عديدة في الوبر والصوف والشعر، واللبن والزبد والسمن ﴿وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ﴾ أي بِحَمْل الأثقال في الأسفار البعيدة ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ أي وعلى هذه الإبل في البر، وعلى السفن في البحر تُحملون، وإنما قرن بين الإبل والسفن لما بينهما من شدة المناسبة حتى سميت الإبل سفن البر ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي ويريكم أيها الناس حججه وأدلته على وحدانيته في الآفاق والأنفس ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ توبيخٌ لهم على إنكارهم لوحدانيته مع ظهور آياته الكثيرة. والمعنى: أيَّ آية من تلك الآيات الباهرة والدلائل الكثيرة الساطعة تنكرون مع وضوحها وجلائها وكثرتها؟ فإن هذه الدلائل لظهورها لا تقبل الإنكار ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ الاستفهام إنكاري، أي: أفلم يَسِرْ هؤلاء المشركون في أطراف الأرض ليعرفوا عاقبة المتكبرين المتمردين، وآثار الأمم السالفة قبلهم، ماذا حلَّ بهم من العذاب والدمار بسبب كفرهم وتكذيبهم؟ ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي كانوا أكثر عددًا من أهل مكة، وأقوى منهم قوة، وآثارهم لا تزال باقية بعدهم من الأبنية والقصور والمباني الضخمة ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي فلم ينفعهم ما كانوا يكسبونه من الأبنية والأموال شيئًا، ولا دَفَع عنهم العذاب ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي فلما جاءتهم الرسل بالمعجزات الظاهرات، والآيات الواضحات ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي فرح الكفار بما هم عليه من العلم الدنيوي، الخالي عن نور الهداية والوحي، فرح بطَرٍ وأشر[1]، واغتروا بذلك العلم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي نزل بهم جزاء كفرهم واستهزائهم بالرسل والآيات ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾ أي فلما رأوا شدة العذاب وعاينوا أهواله وشدائده قالوا: آمنا بالله الواحد الأحد ﴿وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ أي كفرنا بالأصنام والأوثان التي أشركناها في العبادة مع الله ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ أي فلم يكن ينفعهم ذلك الإيمان حين شاهدوا العذاب لأنه إيمانٌ عن قَسْر وإلْجَاء[2] ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦ﴾ أي سنَّ الله ذلك سنةً ماضيةً في العباد، أنه لا ينفع الإيمان إذا رأوا العذاب ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي وخسر في ذلك الوقت الكافرون بربهم، الجاحدون لتوحيد خالقهم.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

---

(١) (ش): أَشِرَ الشخصُ، أَشَرًا، فهو أَشِرٌ: بطِر واستكبر ومرح ونشِط. بطِرَ الشَّخصُ، بَطَرًا، فهو بَطِرٌ: طغَى وغالى في مَرحِه وزهْوِه واستخفافه، جاوز الحدَّ كِبرًا. بطِر النِّعمةَ: استخفّها وكَفَرها ولم يَشْكُرها. بطِر الحقَّ ونحوَه: أَنكره ولم يقبله تكبُّرًا وطُغيانًا.

(٢) (ش): أي عن إكراه واضطرار.

١ - الطباق بين ﴿ٱلذَّنۢبِ .. ٱلتَّوۡبِ﴾ وبين ﴿أَمَتَّنَا .. وَأَحۡيَيۡتَنَا﴾ وبين ﴿صَادِقًا .. كَذَّابٌ﴾ وبين ﴿غُدُوًّا .. وَعَشِيًّا﴾ وبين ﴿يُحۡيِۦ .. وَيُمِيتُ﴾ وبين ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ .. وَٱلۡبَصِيرُ﴾.

٢ - المقابلة ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾ [غافر: ١٢] فقد قابل بين التوحيد والإشراك، والكفر والإيمان وكذلك توجد المقابلة بين قوله تعالى ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩] وهذه من المحسنات البديعية.

٣ - المجاز المرسل ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗا﴾ [غافر: ١٣] أطلق الرزق وأراد المطر؛ لأن الماء سبب في جميع الأرزاق، فهو من إطلاق المسبَّب وإرادة السبب.

٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٨] استعار الأعمى للكافر، والبصير للمؤمن.

٥ - المجاز العقلي ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ [غافر: ٦١] من إسناد الشيء إلى زمانه، لأن النهار زمنٌ للإبصار.

٦ - الكناية ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ [غافر: ١٥] الروحُ هنا كناية عن الوحي، لأنه كالروح للجسد.

٧ - صيغ المبالغة مثل: «كذَّاب، جبَّار، سميع، بصير، عليم» إلخ.

٨ - الجناس الناقص ﴿تَفۡرَحُونَ .. تَمۡرَحُونَ﴾ وكذلك ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٤].

٩ - التأكيد بإن واللام ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ﴾ [غافر: ٥٩].

١٠ - صيغة الحصر ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤].

١١ - جناس الاشتقاق ﴿أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا﴾.

١٢ - طباق السلب ﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَ﴾.

١٣ - توافق رءوس الآيات مع السجع البديع، والكلام الذي يأخذ بالألباب، انظر روعة البيان، وتمعَّنْ قوْل القرآن وهو يتحدث عن مؤمن آل فرعون بذلك البيان الإلهي المعجز ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ [غافر: ٤١ـ٤٢] إلخ الآيات الكريمة التي هي أجلى من عقود الجُمان[1].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة غافر»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) (ش): جُمَان: لُؤلُؤ.



مكية وآياتها ٥٤ نزلت بعد غافر

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مكية، وهي تتناول جوانب العقيدة الإسلامية «الوحدانية، الرسالة، البعث، والجزاء» وهي الأهداف الأساسية لسائر السورة المكية التي تهتم بأركان الإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن، المنزل من عند الرحمن، بالحجج الواضحة، والبراهين الساطعة، الدالة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام، فهو المعجزة الدائمة الخالدة للنبي الكريم.

* وتحدثت السورة عن أمر «الوحى والرسالة» فقررت حقيقة الرسول، وأنه بشر خصه الله تعالى بالوحي، وأكرمه بالنبوة، واختاره من بين سائر الخلق ليكون داعيًا إلى الله، مرشدًا إلى دينه المستقيم.

* ثم انتقلت السورة للحديث عن مشهد الخلق الأول للحياة، خلق السماوات والأرض، بذلك الشكل الدقيق المحكم، الذي يلفت أنظار المعرضين عن آيات الله، للنظر والتفكير والتدبر، ولكن ظلمات الكفر هي التي تحول بينهم وبين الإيمان، فالكون كله ناطق بعظمة الله، شاهد بوحدانيته جل وعلا.

* وعرضت السورة للتذكير بمصارع المكذبين، وضربت على ذلك الأمثلة بأقوى الأمم وأعتاها قوم عاد الذين بلغ من جبروتهم أن يقولوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ وذكرت ما حل بهم وبثمود من الدمار الشامل، والهلاك المبين، حين تمادوا في الطغيان وكذبوا برسل الله.

* وبعد الحديث عن المجرمين يأتي الحديث عن المؤمنين المتقين، الذين استقاموا على شريعة الله ودينه، فأكرمهم الله بالأمن والأمان في دار الجنان، مع النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين.

* ثم تحدثت السورة عن الآيات الكونية المعروضة للأنظار، في هذا الكون الفسيح، الزاخر بالحكم والعجائب، وموقف الملحدين بآيات الله، المتعامين عن كل تلك الآيات الظاهرة الباهرة.

* وختمت السورة بوعد الله للبشرية، بأن يطلعهم على بعض أسرار هذا الكون في آخر الزمان، ليستدلوا على صدق ما أخبر عنه القرآن ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

التسمية: سميت «سورة فصلت» لأن الله تعالى فصل فيها الآيات، ووضح فيها الدلائل

على قدرته ووحدانيته، وأقام البراهين القاطعة على وجوده وعظمته، وخلقه لهذا الكون البديع الذي ينطق بجلال الله وعظيم سلطانه.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ

اللغة: ﴿فُصِّلَتْ﴾ بُيِّنت ووُضِّحت ﴿أَكِنَّةٍ﴾ جمع كنان وهو الغطاء ﴿وَقْرٌ﴾ صَمَمٌ وثِقَلٌ يمنع سماع الكلام ﴿مَّمْنُونٍ﴾ مقطوع من مننْت الحبل إذا قطعته قال الشاعر:

إنِّي لَعَمْرُكَ مَا بَابِي بِذِي غَلَقٍ ... عَلَى الصَّدِيقِ وَلَا خَيْرِي بِمَمْنُونِ [1]

﴿صَرْصَرًا﴾ الصَّرْصر: الريح الباردة العاصفة مع الصوت الشديد ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ مشؤومات من النَّحس بمعنى الشؤم وهو ضدُّ السَّعد قال الشاعر:

سَوَاءٌ عَلَيْهِ أَيَّ حِينٍ أَتَيْتُهُ ... أَسَاعَةَ نَحْسٍ تُتَّقَى أَمْ بِأَسْعدِ [2]

﴿أَخْزَىٰ﴾ أشد إهانةً وإذلالاً من الخزي بمعنى الإهانة ﴿ٱلْهُونِ﴾ الإهانة والذل.

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٤١. (ش): مَا بَابِي بِذِي غَلَقٍ عَلَى الصَّدِيقِ: أي أنا كريمٌ لا أُغلق بابي في وجه الصديق.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٤٨١. (ش): يريد بساعتي النحس والسعد أوقات القلة والكثرة في المال. والبيت منسوب لزهير بن أبي سلمى، من قصيدة له يصور فيها كرمه وشجاعته وفصاحته.

التفسير: ﴿حمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[١] ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي هذا القرآن المجيد مُنَزَّل من الرحمن الرحيم، أنزله جل وعلا رحمةً بعباده، وإنما خصَّ هذين الاسمين ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إشارة إلى أن نزوله من أكبر النعم، ولا شك أن القرآن نعمة باقية إلى يوم القيامة ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي كتابٌ جامع للمصالح الدينية والدنيوية، بُيِّنَت معانيه، ووُضِّحت أحكامُه، بطريق القصص والمواعظ والأحكام والأمثال، في غاية البيان والكمال ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي في حال كونه قرآنًا عربيًّا، واضحًا جليًّا نزل بلسان العرب ﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ أي لقوم يفهمون تفاصيل آياته، ودلائل إعجازه، فإنه في أعلى طبقات البلاغة، ولا يتذوق أسراره إلا من كان عالمًا بلغة العرب ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي مبشرًا للمؤمنين بجنات النعيم، ومنذرًا للكافرين بعذاب الجحيم ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ أي فأعرض أكثر المشركين عن تدبر آياته مع كونه نزل بلُغَتهم، فهم لا يسمعون سماع تفكر وتأمل قال أبو حيان: المعنى: أعرض أكثر أولئك القوم مع كونهم من أهل العلم، ولكن لم ينظروا النظر التام بل أعرضوا، فهم لإعراضهم لا يسمعون ما احتوى عليه من الحجج والبراهين[٢] وقال القرطبي: السورةُ نزلت تقريعًا وتوبيخًا لقريش في إعجاز القرآن، فهم لا يسمعون سماعًا ينتفعون به[٣]، ثم أخبر تعالى عن عتوهم وضلالهم فقال ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ أي وقالوا للرسول ﷺ حين دعاهم إلى الإيمان: قلوبنا في أغطية متكاثفة، لا يصل إليها شيءٌ مما تدعونا إليه من التوحيد والإيمان ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ أي وفي آذاننا صَمَمٌ وثِقَلٌ يمنعنا من فهم ما تقول قال الصاوي: شبَّهوا أسماعهم بآذانٍ فيها صمَمٌ، من حيث إنها تمجُّ[٤] الحقَّ ولا تميل إلى استماعه[٥] ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ أي وبيننا وبينك يا محمد حاجز يمنع أن يصل إلينا شيء مما تقول، فنحن معذورون في عدم اتباعك، لوجود المانع من جهتنا وجهتك ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ أي اعملْ أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا، واستمرَّ على دينك فإنا مستمرون على ديننا ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ أي قل يا محمد لأولئك المشركين: لستُ إلا بشرًا مثلكم خصّني الله بالرسالة والوحي، وأنا داعٍ لكم إلى توحيد خالقكم ومُوجدكم، الذي قامت الأدلة العقلية والشرعية على وحدانيته ووجوده، فلا داعي إلى تكذيبي ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ أي توجهوا إليه بالاستقامة على التوحيد والإيمان، والإخلاص في الأعمال، واسألوه المغفرة

---

(١) انظر أول سوره البقرة.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٤٨٣.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٣٨.

(٤) (ش): مجَّ الشّرابَ ونحوَه من فمه: لفَظه، رمى به وألقى.

(٥) «حاشية الصاوي» ٤/ ١٧.

لسالف الذنوب ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي دمارٌ وهلاك للمشركين الذين لا يفعلون الخير، ولا يتصدقون ولا ينفقون في طاعة الله قال القرطبي: قرَّعهم[1] بالشح الذي يأنف منه الفضلاء، وفي الآية دلالة على أن الكافر يُعذَّب بمَنْع الزكاة مع عذابه على كفْره[2] وقال ابن عباس: المراد زكاة الأنفس. والمعنى: لا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد، ولا يقولون: لا إله إلا الله[3] ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي كفروا بالبعث والنشور، وكذَّبوا بالحساب والجزاء قال الصاوي: وإنما خصَّ منع الزكاة وقرنه بالكفر بالآخرة، لأن المال شقيق الروح فإذا بذله الإنسان في سبيل الله كان دليلًا على قوته وثباته في الدين[4] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ لما ذكر حال الكفار ووعيدهم، أردفه بذكر حال المؤمنين وما لهم من الوعد الكريم. والمعنى: الذين صدَّقوا الله ورسوله[5]، وجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح[6]، لهم في الآخرة أجرٌ غير مقطوع عند ربهم، بل هو دائم مستمر بدوام الجنة، ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته فقال ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتعجب، أي: كيف تكفرون بالله وهو الإلهُ العليُّ الشأن، القادر على كل شيء، خالقُ الأرض في يومين؟ ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي تجعلون له شركاء وأمثالًا تعبدونها معه ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ذلك الخالق المبدع هو ربُّ العالمين كلهم، فكيف يجوز جَعْلُ الأصنام الخسيسة شركاء له في الإلهية والمعبودية؟ قال الصاوي: الاستفهام ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ للإنكار والتشنيع عليهم والمعنى: أنتم تعلمون أنه لا شريك له في العالم العلوي والسفلي، فكيف تجعلون له شريكًا[7]؟ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾ أي جعل في الأرض جبالًا ثوابت لئلا تَميدَ بالبشر[8] ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي أكثر خيرها بما جعل فيها من المياه، والزروع، والضروع ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ﴾ أي قدَّر أرزاق أهلها ومعاشهم قال مجاهد: خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: في تمام أربعة أيام كاملة

---

(١) (ش): قرَّعَهُ: عنَّفه.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٤٠.

(٣) هذا القول ذكره ابن كثير ونسبه لابن عباس أن المراد به طهارة النفس من الشرك وهو قول مرجوح، والصحيح ما ذكره المفسرون أن المراد زكاة المال وهو اختيار ابن جرير.

(٤) «حاشية الصاوي» ٤/ ١٧.

(٥) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٦) (ش): العمل الصالح من الإيمان، فهو داخل في حقيقته وعطفه على الإيمان من عطف الخاص على العام اهتمامًا به، مثل قوله تعالى. ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾.

(٧) «حاشية الصاوي» ٤/ ١٨.

(٨) (ش): مَادَ الشَّيءُ: تحرَّكَ واضطربَ.

مستوية بلا زيادة ولا نقصان[١]، للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي عمد إلى خلقها وقصد إلى تسويتها وهي بهيئة الدخان قال ابن كثير: والمراد بالدخان بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض[٢] ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي استجيبا لأمري طائعتَيْن أو مكرهتَيْن ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أي قالت السموات والأرض أتينا أمرَك طائعين. قال الزمخشري: وهذا على التمثيل أي إنه تعالى أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الآمر المُطاع، والغرضُ تصوير أثر قدرته في المقدورات من غير أن يكون هناك خطاب وجواب، ومثله قول القائل: قال الحائطُ للمسمار لم تَشُقُّني؟ قال: سَلْ مَن يدُقُّني[٣]، وروي عن ابن عباس قال قال الله تعالى للسماء: أطلعي شمسك وقمرك ونجومك، وقال للأرض: شققي أنهارك وأخرجي شجرك وثمارك طائعتين أو كارهتين «قالتا أتينا أمرك طائعتين»[٤] واختاره ابن جرير ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ أي صنعهنَّ وأبدع خلقهن سبع سمواتٍ في وقت مقدَّر بيومين، فتمَّ خلق السموات والأرض في ستة أيام، ولو شاء لخلقهنَّ بلمح البصر، ولكنْ أراد أن يعلّم عباده الحلم والأناة ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي أوحى في كل سماء ما أراده، وما أمر به فيها قال ابن كثير: أي رتَّب في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾ أي وزيّنّا السماءَ الأولى القريبة منكم، بالكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، وحرسًا من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي ذلك المذكور من الخلق والإبداع هو صنع الله، العزيز في ملكه، العليم بمصالح خلقه ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي حين جاءتهم الرسلُ من كل جوانبهم، واجتهدوا في هدايتهم من كل جهة، وأعملوا فيهم كل حيلة، فلم يروا منهم إلا العتوَّ والإعراض ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي بأن لا تعبدوا إلاّ اللهَ وحده ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان بعد هذا البيان، فقل لهم: إني أخوفكم عذابًا هائلًا مثل هلاك عاد وثمود[٥]، وعبَّر بالماضي إشارةً إلى تحققه وحصوله ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي ولو شاء ربُّنا إرسالَ رسولٍ لجعله ملكًا لا بشرًا ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ

---

(١) «الكشاف» ٤/ ١٤٧.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٥٧ .

(٣) «الكشاف» ٤/ ١٤٨. (ش): هذا تأويل باطل، يريد الزمخشري المعتزلي من ورائه نَفْيَ وَصْف الله بأنه يتكلم. وهذا الكلام الفاسد خلاف مدلول الآية من أن الله تعالى قال للسماء والأرض قولًا حقيقيًّا: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ وأنهما قالتا قولًا حقيقيًا ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٤٣.

(٥) قال في «الكشاف»: أي عذابًا شديد الوقع كأنه صاعقة.

﴿كَٰفِرُونَ﴾ أي: فإنا كافرون برسالتكم، لا نتبعكم وأنتم بشرٌ مثلُنا، وفي قولهم: ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم﴾ ضربٌ من التهكم والسخرية بهم ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ هذا تفصيلٌ لما حلَّ بعاد وثمود من العذاب، أي فأما عاد فبغَوْا وعتَوْا وعصَوْا، وتكبروا على عباد الله «هود» ومن آمن معه، بغير استحقاقٍ للتعظيم والاستعلاء ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ أي وقالوا اغترارًا بقوتهم لمّا خُوّفوا بالعذاب: لا أحد أقوى منا فنحن نستطيع أن ندفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا قال أبو السعود: كانوا ذوي أجسام طوال، وخلق عظيم، وقد بلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده[1] ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ جملة اعتراضية للتعجيب من مقالتهم الشنيعة، والمعنى: أغفلُوا عن قدرة الله ولم يعلموا أن الله العظيم الجليل الذي خلقهم وخلق الكائنات، هو أعظم منهم قوةً وقدرة؟ ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ أي وكانوا بمعجزاتنا يجحدون قال الرازي: إنهم كانوا يعرفون أنها حقٌّ ولكنهم جحدوا كما يجحد المودَعُ الوديعة[2] ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ أي فأرسلنا على عاد ريحًا باردة شديدة البرد، وشديدة الصوت والهبوب، تُهلك بشدة صوتها وبردها ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ أي في أيام مشئومات غير مباركات ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي لكي نذيقهم العذاب المخزي المذل في الدنيا قال الرازي: ﴿عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾ أي عذاب الهوان والذل، والسبب أنهم استكبروا عن الإيمان، نقابل الله ذلك الاستكبار بإيصال الذل والهوان إليهم[3] ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي ولعذابهم في الآخرة أعظم وأشدُّ إهانة وخزيًا من عذاب الدنيا، وليس لهم ناصر يدفع عنهم ذلك العذاب ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي وأمَّا ثمود فبيَّنَّا لهم طريق الهدى، ودللناهم على سبيل السعادة، فاختاروا الضلالة على الهداية، والكفر على الإيمان ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ﴾ أي فأخذتهم قارعة العذاب الموقع في الإهانة والذل ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي بسبب إجرامهم وطغيانهم وتكذيبهم لنبيّ الله «صالح» قال ابن كثير: بعث الله عليهم صيحةً ورجفة وذلاًّ وهوانًا، وعذابًا ونكالًا، بتكذيبهم صالحًا وعَقْرِهم الناقة[4] ﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ أي ونجينا صالحًا ومن آمن به من ذلك العذاب.

---

(١) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢١.

(٢) «التفسير الكبير» ١٢٧/ ١١٢. (ش): المودَعُ: الشخص الذي تعطيه النقود وغيرها لتكون عنده وَديعة، أي: أمانة. والمعنى: أنهم أنكروا الحق كما يُنكر الشخص المودَعُ ما أعطاه الناس إياه من أموال وغيرها كوديعة -أي أمانة- ليستردّوها فيما بعد.

(٣) نفس المرجع السابق ٢٧/ ١١٣.

(٤) «المختصر» ٣/ ٢٥٩.

قال الله تعالى:

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ۖ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى قصة عاد وثمود، وما أصابهم من العقوبة في الدنيا بطغيانهم وإجرامهم، ذكر هنا ما يصيب الكفار عامةً في الآخرة من العذاب والدمار، ليحصل منه تمام الاعتبار، في الزجر والتحذير عن ارتكاب المعاصي والكفر بنعم الله.

اللغَة: ﴿يُوزَعُونَ﴾ يُحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ تستخفُون، من الاستتار بمعنى الاختفاء عن الأعين ﴿أَرْدَاكُمْ﴾ أهلككم وأوقعكم في المهالك ﴿يَسْتَعْتِبُوا﴾ يطلبوا رضاء الله ﴿الْمُعْتَبِينَ﴾ جمع معتب وهو المقبول عتابه قال النابغة:

فَإِنْ أَكُ مَظْلُومًا فَعَبْدٌ ظَلَمْتَهُ ... وَإِنْ تَكُ ذَا عُتْبَى فَمِثْلُكَ يُعْتِبُ [1]

﴿وَقَيَّضْنَا﴾ هيأنا ﴿نُزُلًا﴾ ضيافة وكرامة ﴿يَسْأَمُونَ﴾ يملُّون.

سَبَبُ النّزول: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ ثَلاثَةُ نَفَرٍ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ أَوْ ثَقَفِيَّانِ

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٤٥٣.

وَقُرَشِيٌّ قَلِيلٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ كَثِيرٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ فَقَالَ أَحَدُهُمْ: «أَتَرَوْنَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟». وَقَالَ الآخَرُ: «يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلاَ يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا». وَقَالَ الآخَرُ: «إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَهُوَ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا». فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [1] الآية.

التفسير: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي واذكر يوم يُجمَع أعداء الله المجرمون في أرض المحشر لسَوْقِهم إلى النار ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يُحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا قال ابن كثير: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا[2] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ أي حتى إذا وقفوا للحساب ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي نطقت جوارحهم وشهدت عليهم بما اقترفوه من إجرام وآثام، وفي الحديث «فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ - أي فَمِه - فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ: انْطِقِي. قَالَ فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ - قَالَ - ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ، فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا. فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»[3] ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ أي وقالوا لأعضائهم وجلودهم توبيخًا وتعجبًا من هذا الأمر الغريب: لِمَ أقررتم علينا وشهدتم بما فعلْنا وإنما كنا نجادل وندافع عنكم؟ ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي قالوا معتذرين: ليس الأمر بيدنا وإنما أنطقنا الله بقدرته، الذي يُنطِق الجماد والإنسان والحيوان، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي هو أوجدكم من العدم، وأحياكم بعد أن لم تكونوا شيئًا، فمن قدر على هذا قدر على إنطاقنا ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي وإليه وحده تُردُّون بالبعث قال أبو السعود: المعنى: ليس نطقنا بعجبٍ من قدرة الله، الذي أنطق كل حي، فإن من قدر على خلقكم وإنشائكم أولًا، وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه ثانيًا، لا يُتعجب من إنطاقه لجوارحكم[4] ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي وما كنتم تستخفون من هؤلاء الشهود في الدنيا حين مباشرتكم الفواحش، لأنكم لم تظنوا أنها تشهد عليكم قال البيضاوي: أي كنتم تستترون عن الناس عند ارتكاب الفواحش مخافة الفضيحة، وما ظننتم أن أعضاءكم تشهد عليكم فما استخفيتم منها، وفيه تنبيهٌ على أن المؤمن ينبغي ألاَّ يمر عليه حالٌ إلا وعليه رقيب[5] ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي ولكنْ ظننتم أن الله تعالى لا يعلم كثيرًا من القبائح المخفية، ولذلك اجترأتم على المعاصي

---

(١) الحديث أخرجه مسلم كذا في القرطبي ١٥/ ٣٥١. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٦٠.

(٣) هذا جزء من حديث طويل أخرجه مسلم، وفيه دلالة على أن أعضاء الإنسان تشهد عليه يوم القيامة، والله على كل شئ قدير.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٢.

(٥) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٥٦

والآثام ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ أي وذلكم الظنُّ القبيح برب العالمين أنه لا يعلم كثيرًا من الخفايا هو الذي أوقعكم في الهلاك والدمار فأوردكم النار ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أي فخسرتم سعادتكم وأنفسكم وأهليكم، وهذا تمام الخسران والشقاء ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي فإن يصبروا على العذاب فالنارُ مقامهم ومنزلهم، لا محيد ولا محيص لهم عنها ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ أي وإن يطلبوا إرضاء الله، فما هم من المرضي عليهم، قال القرطبي: والعُتبى: رجوعُ المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتب، تقول: استَعتبتُه فأعْتبني أي استرضيتُه فأرضاني[١] ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ ﴾ أي هيَّأْنا للمشركين ويَسَّرْنا لهم قرناء سُوءٍ من الشياطين، ومن غُواةِ الإنس[٢] ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي حسَّنوا لهم أعمالهم القبيحة، الحاضرة والمستقبَلة. قال ابن كثير: حَسَّنُوا لهم أعمالهم فلم يروا أنفسهم إلا محسنين[٣] ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ أي ثبت وتحقق عليهم كلمة العذاب، وهو القضاء المحتَّم بشقائهم ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ أي في جملة أمم من الأشقياء المجرمين قد مضت من قبلهم، ممن فعلوا كفعلهم من الجنِّ والإنس ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ تعليلٌ لاستحقاقهم العذاب أي لأنهم كانوا من الخاسرين في الدنيا والآخرة، فلذلك استحقوا العذاب الأبدي ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ لما أخبر تعالى عن كفر عاد وثمود وغيرهم، أخبر عن مشركي قريش وأنهم كذبوا القرآن. والمعنى: قال الكافرون بعضهم لبعض: لا تستمعوا لمحمد إذا قرأ القرآن، وتشاغلوا عنه. ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ أي ارفعوا أصواتكم عند قراءته حتى لا يسمعه أحد لكي تغلبوه على دينه قال ابن عباس: قال أبو جهل: إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول[٤] ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أي فوالله لنذيقنَّ هؤلاء المستهزئين عذابًا شديدًا لا يخفّ ولا ينقطِع ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي ولنجازِينهم بِشَرِّ أعمالهم، وسَيئ أفعالهم، أسوأ وأقبح الجزاء ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ أي ذلك العذاب الشديد الذي هو أسوأُ الجزاء هو نار جهنم جزاء المجرمين، أعداء الله ورسوله ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أي لهم في جهنم دار الإقامة، لا يخرجون منها أبدًا ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي جزاءً لهم على كفرهم بالقرآن، واستهزائهم بآيات الرحمن قال الرازي: وسمَّى لغوهم بالقرآن جحودًا لأنهم لما علموا أن القرآن بالغٌ إلى حد الإعجاز، خافوا إن سمعه الناس أن يؤمنوا به، فاخترعوا تلك الطريقة الفاسدة، وذلك يدل على أنهم

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٥١

(٢) (ش): غوَى فلانٌ: أمعن في الضّلال، فهو غَاوٍ وغوِيّ.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٦١.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٥٦.

علموا كونه معجزًا إلا أنهم جحدوه حسدًا[١] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي ويقول الكفار إذا دخلوا جهنم: ربنا أرنا كل من أغوانا وأضلنا من الجن والإنس، وإنما جاء بلفظ الماضي «وقال» لتحققه ومعناه المستقبل قال أبو حيان: والظاهر أن المراد بـ ﴿ٱلَّذَيْنِ﴾ يراد بهما الجنس أي كل مُغْوٍ[٢] مِن هذه النوعين[٣] ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أن نطأهُما بأقدامنا انتقامًا وتشفيًا ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي ليكونا في الدرك الأسفل من النار، وهي أشد عذاب جهنم لأنها درك المنافقين، ولما ذكر تعالى حال الأشقياء المجرمين، أردفه بذكر حال السعداء المؤمنين فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي آمنوا بالله إيمانًا صادقًا وأخلصوا العمل له، ثم استقاموا على توحيد الله وطاعته، وثبتوا على ذلك حتى الممات، عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه أنه قال على المنبر بعد أن تلا الآية الكريمه: «استقاموا واللهِ على الطريقة لطاعته، ثم لم يروغوا روغان الثعالب»[٤] والغرضُ أنهم استقاموا على شريعة الله، في سلوكهم، وأخلاقهم وأقوالهم، وأفعالهم، فكانوا مؤمنين حقًّا، مسلمين صدقًا، وقد سئل بعض العارفين عن تعريف الكرامة فقال: الاستقامةُ عينُ الكرامة، وعن الحسن أنه كان يقول: اللهمَ أنت ربنا فارزقنا الاستقامة ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ أي تتنزل عليهم ملائكة الرحمة عند الموت بأن لا تخافوا ممَّا تقدُمون عليه من أحوال القيامة، ولا تحزنوا على ما خلَّفْتُموه في الدنيا من أهل ومالٍ وولد فنحن نخلفكم فيه ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي وأبشروا بجنة الخُلد التي وعدكم الله بها على لسان الرسل قال شيخ زاده: إن الملائكة تتنزل حين الاحتضار على المؤمنين بهذه البشارة أن لا تخافوا من هول الموت، ولا من هول القبر، وشدائد يوم القيامة، وإن المؤمن ينظر إلى حافظيه قائمين على رأسه يقولان: لا تخف اليوم ولا تحزن، وأبشر بالجنة التي كنت توعد، وإنك سترى اليوم أمورًا لم تر مثلها فلا تَهُولَنَّك فإنما يراد بها غيرك[٥] ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي تقول لهم الملائكة: نحن أنصاركم وأعوانكم في الدنيا والآخرة، نرشدكم إلى ما فيه خيركم وسعادتكم في الدارين ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي ولكم في الجنة ما تشتهيه نفوسكم، وتقَرُّ به عيونُكم[٦] من أنواع اللذائذ والشهوات، ولكم

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٧/ ١٢٠.

(٢) (ش): أغواه: غواه؛ أضَلّه وأغراه بالفَساد، فهو مُغْوٍ.

(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٤٩٥.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٥٨.

(٥) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ٢٦١.

(٦) (ش): قرَّت عينُه: بَرد دمعُها، ضدّ سخُنت، ويُكَنَّى به عن السرور والابتهاج، وقيل لأنَّه للسّرور دمعة باردة وللحزن دمعة حارّة.

فيها ما تطلبون وتتمنون ﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ أي ضيافة وكرامة من رب واسع المغفرة، عظيم الرحمة لعباده المتقين ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أي دعا إلى توحيد الله وطاعته، بقوله وفعله وحاله، وفعل الصالحات، وجعل الإسلام دينه ومذهبه قال ابن كثير: وهذه الآية عامة في كل من دعا إلى خير وهو نفسه مهتدٍ، وقال الزمخشري[1]: والآية عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث: أن يكون مؤمناً معتقدًا لدين الإسلام، عاملًا بالخير، داعيًا إليه، وما هم إلا طبقة العلماء العاملين[2] ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾ أي لا يتساوى فعل الحسنة مع فعل السيئة، بل بينهما فرقٌ عظيم في الجزاء وحسن العاقبة ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي ادفع السيئة بالخصلة التي هي أحسن، مثل أن تدفع الغضب بالصبر، والجهل بالحلم، والإساءة بالعفو قال ابن عباس: ادفع بحلمك جهل من جهل عليك[3] ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ أي فإذا فعلت ذلك صار عدوك كالصديق القريب، الخالص الصداقة في مودته ومحبته لك ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ أي وما ينال هذه المنزلة الرفيعة، والخصلة الحميدة، إلاّ من جاهد نفسه بكظم الغيظ واحتمال الأذى ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي وما يصل إليها وينالها إلا ذو نصيب وافر من السعادة واحتمال الأذى ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ أي وإن وسوس إليك الشيطان بتَرْك ما أُمرتَ به من الدَّفْع بالتي هي أحسن، وأراد أن يَحْملك على البطش والانتقام، فاستعذ بالله من كيده وشره ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي هو السميع لأقوال العباد، العليم بأفعالهم وأحوالهم، ثم ذكر تعالى دلائل قدرته الباهرة، وحكمته البالغة فقال ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ أي ومن علاماته الدالة على وحدانيته وقدرته تعاقب الليل والنهار، وتذليل الشمس والقمر، مسخَّرَيْن لمصالح البشر ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ أي لا تسجدوا للمخلوق واسجدوا للخالق، الذي خلق هذه الأشياء وأبدعها ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أي إن كنتم تفردونه بالعبادة فلا تسجدوا لأحدٍ سواه ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ أي فإن استكبر الكفار عن السجود لله ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أي فالملائكة الأبرار يعبدونه بالليل والنهار ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ أي لا يملّون عبادته.

قال الله تعالى:

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٦٤.

(٢) «الكشاف» ٤/ ١٥٦.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٦١.

ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ

المناسَبَة: لما ذكر صفات المؤمنين الأبرار، وأردفها بذكر الدلائل الدالة على وجوده سبحانه ووحدانيته[1]، وكمال علمه وحكمته، ذكر هنا ما يدل على البعث والنشور، من صفحات هذا الكون المنظور، ثم أعقبه بذكر الملحدين في آياته، المكذبين برسله وأنبيائه، وختم السورة الكريمة بيان حال الأشقياء المجرمين، المنكرين للقرآن العظيم.

اللغَة: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ يميلون عن الحق والاستقامة، والإلحادُ: الميلُ والعدول يقال: ألحد في دين الله أي: حاد عنه وعدَل[2] ﴿أَعْجَمِيًّا﴾ بلغة العجم ﴿وَقْرٌ﴾ صممٌ مانع من سماعه ﴿أَكْمَامِهَا﴾ جمع كُمّ وهو وعاء الثمرة بضم الكاف وكسرها ﴿مَّحِيصٍ﴾ فرار ومهرب من حاص يحيصُ حيصًا إذا هرب ﴿وَنَـَٔا﴾ تباعد وأعرض ﴿ٱلْءَافَاقِ﴾ أقطار السموات والأرض ﴿مِرْيَةٍ﴾ شك وارتياب عظيم.

---

(١) (ش): ليس القصد مِن ذِكر الآيات الكونية الاستدلال على وجود الله وانفراده بالخلق الذي هو عبارة عن توحيد الربوبية، لأن هذا يُقِرّ به جمهور العالم أو كل العالم ومنهم المخاطَبون بالقرآن بالذات، ومَن أقر بهذا فقط لم يكن مسلمًا، وإنما المقصود بسياق الآيات الكونية دائمًا الاستدلال بذلك على توحيد العبادة الذي ينكره المشركون.

(٢) (ش): عدَلَ عن الشيءِ، عُدولاً، فهو عادِلٌ: مَالَ.

التفسير: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ أي ومن البراهين والعلامات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته، أنك ترى الأرض يابسة جرداء لا نبات فيها، تشبه الرجل الخاضع الذليل ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت حركة شديدة وانتفخت وعلت بالنبات، وأخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ أي إن الإلـه الذي أحيا الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الأموات ويبعثهم من القبور ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه جل وعلا شيءٌ، فكما أخرج الزروع والثمار من الأرض المجدبة، فإنه قادر على إحياء الموتى.. ثم توعَّد تعالى من يلحد في آياته بعد ظهور الأدلة والبراهين على وجوده[1] فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ أي إن الذين يطعنون في آياتنا، بالتحريف والتكذيب والإنكار لها لا يغيب أمرهم عنا فنحن لهم بالمرصاد، وفيه وعيد وتهديد قال قتادة: الإلحادُ الكفر والعناد وقال ابن عباس: هو تبديلُ الكلام ووضعه في غير موضعه[2] ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي أفمن يُطرح في جهنم مع الخوف والفزع أفضل أم من يكون في الجنة آمنًا من عذاب الله يوم القيامة؟ قال الرازي: والغرضُ التنبيهُ على أن الملحدين في آيات الله يُلقون في النار، وأن المؤمنين بآيات الله يكونون آمنين يوم القيامة، وشتَّان ما بينهما[3] ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ أي افعلوا ما تشاءون في هذه الحياة، وهو تهديدٌ لا إباحة ملفَّع بظل الوعيد، بدليل قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي هو تعالى مطّلع على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية، من أحوالكم، وسيجازيكم عليها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي إن الذين كذبوا بالقرآن حين جاءهم من عند الله، وخبر «إنَّ» محذوفٌ لتهويل الأمر كأنه قيل: سيجازون بكفرهم جزاءً لا يكاد يوصف لشدة بشاعته وفظاعته[4] ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أي وإنه لكتاب غالب بقوة الحجة، لا نظير له لما احتوى عليه من الإعجاز، يدفع كل جاحد، ويقمع كلَّ معاند ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي لا يتطرق إليه الباطل من جهةٍ من الجهات، ولا مجال للطعن فيه قال ابن كثير: أي ليس للبطلان إليه سبيل، لأنه منزَّل من رب العالمين[5] ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي هو تنزيلٌ من إله حكيم في

---

(١) (ش): ليس القصد مِن ذِكر الآيات الكونية الاستدلال على وجود الله وانفراده بالخلق الذي هو عبارة عن توحيد الربوبية، لأن هذا يُقرّ به جمهور العالم أو كل العالم ومنهم المخاطَبون بالقرآن بالذات، ومن أقر بهذا فقط لم يكن مسلمًا، وإنما المقصود بسياق الآيات الكونية دائمًا الاستدلال بذلك على توحيد العبادة الذي ينكره المشركون.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٦٦.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٧/ ١٣١.

(٤) هذا رأي أكثر المفسرين. واختار أبو حيان في «البحر المحيط» أن الخبر مذكور وهو: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ ولكنه حذف منه العائد، والأول أظهر.

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٦٥.

تشريعه وأحواله وأفعاله، محمود من خلقه بسبب كثرة نعمه.

ثم سَلَّى تعالى نبيَّه على ما يصيبه من أذى الكفار فقال ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ أي ما يقول لك كفار قومك، إلاّ ما قد قال الكفار للرسل قبلهم من الكلام المؤذي، والطعن فيما أنزل الله قال القرطبي: يُعزّي نبيه ويُسلّيه من أذى وتكذيب قومه [1] ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ إي إن ربك يا محمد لهو الغفور لذنوب المؤمنين، ذو العقاب الشديد للكافرين، ففَوِّضْ أمرك إليه فإنه ينتقم من أعدائك، ثم ذكر تعالى تعنُّت الكافرين ومكابرتهم للحقِّ بعد سطوعه وظهوره فقال ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا ﴾ أي لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم ﴿لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ﴾ أي لقال المشركون: هَلا بُيِّنَتْ آياتُه بلسانٍ نفهمه وهَلا نزل بلُغَتِنا ﴿ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾؟ استفهام إنكاري، أي: أقُرآن أعجميٌّ ونبيٌّ عربي؟ قال الرازي: ذكروا أن الكفار كانوا يقولون لتعنتهم: هلَّا نزل القرآن بلغة العجم؟ (فأجيبوا بأن الأمر لو كان كما تقترحون لم تتركوا الاعتراض، ثم قال: والحقُّ عندي أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحدٌ متعلق بعضُه ببعض، وقد حكى تعالى عنهم في أول السورة أنهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ ﴾ [فصلت: ٥] فَرَدَّ تعالى عليهم هنا بأنه لو أنزل هذا القرآن بلُغَة العجم لكان لهم أن يقولوا: كيف أرسلت الكلام العجمي إلى القوم العرب) (ولصحَّ لهم أن يقولوا ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ ﴾ [فصلت: ٥] لأنا لا نفهمه ولا نحيط بمعناه)! أما وقد نزل بلغة العرب، وهم من أهل هذه اللغة، فكيف يمكنهم أن يقولوا ذلك؟ فظهر أن الآية على أحسن وجوه النظم [2] ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن هذا القرآن هدى للمؤمنين من الضلالة، وشفاء لهم من الجهل والشك والرَّيْب ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي والذين لا يصدّقون بهذا القرآن، في آذانهم صممٌ عن سماعه، ولذلك تواصوا باللغو فيه ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ أي كما أن هذا القرآن رحمة للمؤمنين، هو شقاء وتعاسة على الكافرين كقوله تعالى ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢] قال في «حاشية البيضاوي»: إن القرآن لوضوح آياته، وسطوع براهينه، هادٍ إلى الحق، ومُزيلٌ للرَّيْب والشك، وشفاءٌ من داء الجهل والكفر والارتياب، ومن ارتاب فيه ولم يؤمن به، فارتيابه إنما نشأ عن توغله في اتباع الشهوات، وتقاعده عن تفقد ما يُسعده

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٦٧.

(٢) «التفسير الكبير» وهذا الذي ذكره الإمام الفخر الأظهر، فإنهم لم يقترحوا أن ينزل بلغه العجم وإنما هو على الفرض بدليل: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا ﴾ وهذا الذي رجحناه هو ما ذهب إليه العلامة القرطبي حيث قال في تفسير الآية: المعنى لو جعلنا هذا القرآن بلغة غير العرب لقالوا: لولا بُيِّنت آياته بلغتنا فإنا عرب لا نفهم الأعجمية، فبيَّن تعالى أنه أُنزل بلسانهم ليتقرر به معنى الإعجاز، إذ هم أعلم الناس بأنواع الكلام نظمًا ونثرًا وإذا عجزوا عن معارضته؛ فذلك أدل دليل على أنه من عند الله.

وينجيه [١] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ أي أولئك الكافرون بالقرآن، كمن يُنادَى من مكان بعيد، فإنه لا يسمع ولا يفهم ما يُنادَى به، وهذا على سبيل التمثيل قال ابن عباس: يريد مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاءً ونداءً [٢] ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ﴾ أي والله لقد أعطينا موسى التوراة فاختلف فيها قومه ما بين مصدِّق لها ومكذب، هكذا حال قومك بالنسبة للقرآن قال القرطبي: وهذا تسلية للنبي ﷺ أي لا يحزنك اختلاف قومك في كتابك، فقد اختلف مَن قبلَهم في كتابهم، فآمن به قوم وكذَّب به قوم [٣] ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي ولولا أن الله حكم بتأخير الحساب والجزاء للخلائق إلى يوم القيامة لَعَذَّبهم وأهلكهم في الدنيا ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ أي وإن هؤلاء الكفار لفي شكٍّ من القرآن، لتبلد عقولهم وعمى بصائرهم، مُوقِع لهم في أشد الريبة والاضطراب ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ أي من عمل شيئًا من الصالحات في هذه الدنيا فإنما يعود نفع ذلك على نفسه، ومن أساء في الدنيا فإنما يرجع وبال ذلك وضرره عليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي وليس الله منسوبًا إلى الظلم حتى يعذِّب بغير إساءة، فهو تعالى لا يعاقب أحدًا إلا بذنبه، ولا يعاقبه إلا بجُرْمه قال المفسرون: ليست صيغة «ظلاَّم» هنا للمبالغة، وإنما هي صيغة نسبة مثل عطَّار، ونجَّار، وتمَّار، ولو كانت للمبالغة لأوهم أنه تعالى ليس كثير الظلم ولكنه يظلم أحيانًا، وهذا المعنى فاسد لأنه يستحيل عليه الظلم جل وعلا ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ أي إليه تعالى وحده علم وقت الساعة لا يعلمه غيره قال الإمام الفخر: أي لا يعلم وقت الساعة بعينه إلا اللهُ، ومناسبتُها لما قبلها أنه تعالى لما هدَّد الكفار بقوله ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ ومعناه أن جزاء كل أحدٍ يصل إليه في يوم القيامة، فكأن سائلًا قال: ومتى يكون ذلك اليوم؟ فبيَّن تعالى أن معرفة ذلك اليوم لا يعلمه إلا الله [٤] ﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا﴾ أي وما تخرج ثمرةٌ من الثمرات من غلافها ووعائها ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ أي ولا تحمل أنثى جنينًا في بطنها، ولا تلده إلا ملتبسًا بعلمه تعالى، لا يعزبُ عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي﴾؟ أي ويوم القيامة ينادي الله المشركين: أين شركائي الذين زعمتم أنهم آلهة؟ وفيه تقريعٌ وتهكمٌ بهم ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ﴾ أي قال المشركون: أعلمناك وأخبرناك الآن بالحقيقة ما منا من يشهد اليوم بأنَّ لك شريكًا قال المفسرون: لما عاينوا القيامة تبرءوا من الأصنام وتبرأت الأصنام منهم، أي: وأعلنوا إيمانهم وتوحيدهم في وقت لا ينفع فيه إيمان ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ

---

(١) «حاشية زاده علي البيضاوي» ٣/ ٢٦٥.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٧/ ١٣٤.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٧٠.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٧/ ١٣٦.

يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُ﴾ أي وغاب عنهم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من الآلهة المزعومة ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾ أي وأيقنوا أنه لا مهرب ولا مخلص لهم من عذاب الله ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي لا يملُّ الإنسان من سؤاله ودعائه بالخير لنفسه، كالمال والصحة العز والسلطان ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ أي وإن أصابه فقر أو مرض فهو عظيم اليأس، قانطٌ من رَوْح الله ورحمته[١] ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ أي ولئن أعطيناه غِنًى وصحة من بعد شدة وبلاء ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ أي ليقولنَّ هذا بسعْيي واجتهادي قال أبو حيان: سمَّى النعمة رحمة إذ هي من آثار رحمة الله[٢] ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ أي وما أعتقد أن القيامة ستكون ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي وعلى فرض أن القيامة حاصلة، فليُحْسِنَنَّ إليَّ ربِّي كما أحسن إليَّ في هذه الدنيا قال ابن كثير: يتمنى على الله عَزَّ وَجَلَّ مع إساءته العمل وعدم اليقين[٣] ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي فوالله لنُعْلِمَنَّ هؤلاء الكافرين بحقيقة أعمالهم، ولنبَصِّرَنَّهم بإجرامهم ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ أي ولَنُعَذِّبَنَّهم أشد العذاب، وهو الخلود في نار جهنم ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض عن شكر ربه، واستكبر عن الانقياد لأوامره، وشمخ بأنفه تكبراً وترفعًا ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ أي وإذا أصابه المكروه فهو ذو دعاء كثير، يديم التضرع ويكثر من الابتهال، وهكذا طبيعة الإنسان الجُحُود والنُّكْران، يعرف ربه في البلاء وينساه في الرخاء قال الرازي: استعير العرض لكثرة الدعاء، كما استعير الغلظ لشدة العذاب[٤] ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ أي قل لهم يا محمد: أخبروني يا معشر المشركين، إن كان هذا القرآن من عند الله، وكفرتم به من غير تأمل ولا نظر، كيف يكون حالكم؟ ﴿مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي، أي: لا أحد أضل منكم لفرط شِقاقِكم وعداوتِكم، قال أبو السعود: وضع الموصول «من أضلُّ» موضع الضمير «منكم» شرحًا لحالهم، وتعليلًا لمزيد ضلالهم[٥] ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ أي سنُظهِر لهؤلاء المشركين دلالاتِنا وحُجَجنا على أن القرآن حق منَزَّل من عند الله ﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾ أي في أقطار السمواتِ والأرض من الشمس والقمر والنجوم، والأشجار والنبات وغير ذلك من العجائب العلوية والسفلية ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي وفي عجائب قدرة الله في خلقهم وتكوينهم قال القرطبي: المراد

(١) (ش): رَوْح الله: رحمة الله.
(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٥٠٤.
(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٦٧.
(٤) «التفسير الكبير» ٢٧/ ١٣٨.
(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٧.

ما في أنفسهم من لطيف الصنعة، وبديع الحكمة، حتى سبيل الغائط والبول، فإن الرجل يأكل ويشرب من مكان واحدٍ، ويتميز ذلك من مكانين، ومن بديع صنعة الله وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء، ينظر بهما من الأرض إلى السماء، مسيرة خمسمائة عام، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة، وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه[1] ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي حتى يظهر لهم أن هذا القرآن حق ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾؟ أي أولم يكفهم برهانًا على صدقك أن ربك لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء؟ وأنه مطَّلع على كل شيء لا تخفى عليه خافية؟ ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ ألا استفتاحٌ لتنبيه السامع إلى ما يقال، أي: ألا فانتبهوا أيها القوم إن هؤلاء المشركين في شكٍّ من الحساب والبعث والجزاء، ولهذا لا يتفكرون ولا يؤمنون ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ أي ألا فانتهوا فإنه تعالى قد أحاط علمه بكل الأشياء جملة وتفصيلًا، فهو يجازيهم على كفرهم.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿بَشِيرًا .. وَنَذِيرًا﴾ وبين ﴿طَوْعًا .. كَرْهًا﴾ وبين ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ .. وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وبين ﴿ٱلْحَسَنَةُ .. ٱلسَّيِّئَةُ﴾ وبين ﴿مَغْفِرَةٍ .. عِقَابٍ﴾ وبين ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ .. وَعَرَبِىٌّ﴾ وبين ﴿تَحْمِلُ .. تَضَعُ﴾ وبين ﴿ٱلْخَيْرِ .. ٱلشَّرُّ﴾.

٢ - طباق السلب ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ .. وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ وكذلك ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٣ - الالتفات ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ [فصلت: ١٣] بعد قوله ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ [فصلت: ٩] وهو التفات من الخطاب إلى الغيبة، وناسب الإعراض عن مخاطبتهم لكونهم أعرضوا عن الحق، وهو تناسب حسن.

٤ - الاستعارة التمثيلية ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١] مثَّل تأثير قدرته تعالى في السموات والأرض بأمر السلطان لأحد رعيته أو عبيده بأمر من الأمور وامتثال الأمر سريعًا[2].

٥ - الاستعارة التصريحية ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥] ليس هناك على الحقيقة شيء مما قالوه، وإنما أخرجوا هذا الكلام مخرج الدلالة على استثقالهم ما يسمعونه من قوارع القرآن، وجوامع البيان، فكأنهم من شدة الكراهية له قد صُمَّت أسماعهم عن فهمه، وقلوبهم عن علمه.

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٥/ ٣٧٥.

(٢) (ش): هذا الكلام خلاف مدلول الآية من أن الله تعالى قال للسماء والأرض قولاً حقيقيًّا: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ وأنهما قالتا قولًا حقيقيًّا ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

٦ - الاستعارة أيضًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ شبّه حالهم في عدم قبول المواعظ، وإعراضهم عن القرآن وما فيه بحال من يُنادى من مكان بعيد، فلا يسمع ولا يفهم ما يُنادى به، والجامع عدم الفهم في كلٍّ.

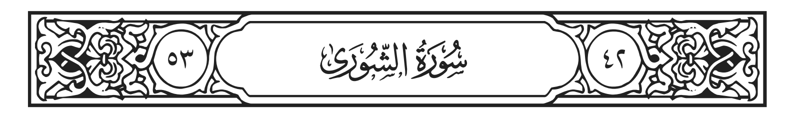
٨ - الأمر التهديدي ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ خرج الأمر عن صيغته الأصلية إلى معنى الوعيد والتهديد.

٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: ٣٤] ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه فهو مرسل مجمل.

١٠ - إن اللسان عاجز عن تصوير البلاغة في جمال الأسلوب القرآني، فتأمل الروعة البيانية في قوله تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاهَا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ وتصور التناسق الفني في التعبير والأداء، وتأمل لفظ الخشوع والاهتزاز والانتفاخ للأرض الميتة يبعثها الله كما يبعث الموتى من القبور، إنه جو بعث وإِخراج وإِحياء، ويا له من تصوير رائع يأخذ بالألباب.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة فصلت»





مكية وآياتها ثلاث وخمسون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مكية، وموضوعها نفس موضوع السور المكية التي تعالج أمور العقيدة «الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء» والمحور الذي تدور عليه السورة هو «الوحي والرسالة» وهو الهدف الأساسي للسورة الكريمة.

* تبتدئ السورة بتقرير مصدر الوحي، ومصدر الرسالة، فالله رب العالمين هو الذي أنزل الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي اصطفى لرسالاته من شاء من عباده، ليخرجوا الإنسانية من ظلمات الشرك والضلال إلى نور الهداية والإيمان.

* ثم تعرض لحالة بعض المشركين، ونسبتهم لله الذرية والولد، حتى إن السماوات ليكدن يتفطرن من هول تلك المقالة الشنيعة، وبينما هؤلاء المشركون في ضلالهم يتخبطون، إذا بالملأ الأعلى في تسبيحهم وتمجيدهم لله يستغرقون، وذلك للمقارنة بين كفر أهل الأرض وطغيانهم وإيمان أهل السماء وإذعانهم.

* ثم تعود السورة للحديث عن حقيقة الوحي والرسالة، فتقرر أن الدين واحد أرسل الله تعالى به جميع المرسلين، وأن شرائع الأنبياء وإن اختلفت إلا أن دينهم واحد، وهو الإسلام الذي بعث به نوحًا وموسى وعيسى وسائر الرسل الكرام ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾.

* وتنتقل السورة للحديث عن المكذبين بالقرآن، المنكرين للبعث والجزاء، وتنذرهم بالعذاب الشديد في يوم تشيب له الرءوس وتطير لهوله الأفئدة، بينما هم في الدنيا يهزءون ويسخرون، ويستعجلون قيام الساعة.

* وبعد أن تتحدث السورة عن دلائل الإيمان في هذا العالم المنظور، الذي هو أثر من آثار صنع الله الباهر وحكمته وقدرته، تدعو الناس إلى الاستجابة لدعوة الله والانقياد والاستسلام لحكمه قبل أن يفاجئهم ذلك اليوم العصيب، الذي لا ينفع فيه مال ولا قريب ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

* وتختم السورة بالحديث عن الوحي وعن القرآن، كما بدأت به في مطلع السورة الكريمة، ليتناسق الكلام في البدء والختام ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ ...﴾.

التسمية: سميت «سورة الشورى» تنويهًا بمكانة الشورى في الإسلام، وتعليمًا للمؤمنين

أن يقيموا حياتهم على هذا المنهج الأمثل الأكمل «منهج الشورى» لما له من أثر عظيم جليل في حياة الفرد والمجتمع كما قال تعالى ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ

اللغة: ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾ يتشققن، والفطور: الشقوق ومنه ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك: ٣] ﴿فَاطِرُ﴾ خالق ومبدع ومخترع ﴿يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾ يقوم القيامة لاجتماع الخلائق فيه ﴿أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾ مكة المكرمة ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾ ينشئكم ويكثركم ﴿مَقَالِيدُ﴾ مفاتيح جمع إقليد على غير قياس ﴿شَرَعَ﴾ بيَّن وسنَّ وأوضح ﴿كَبُرَ﴾ عظُم وشقَّ ﴿يُنِيبُ﴾ يرجع ويتوب من ذنبه ﴿مُرِيبٖ﴾

مُوقِـع في الريبة والقلـق ﴿دَاحِضَةٌ﴾ باطلة وزائلة يقال: دحضت حجتـه أي بطلت، ودَحضت رجله أي زلقت.

التفسِـير: ﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[١]، وإثارة انتباه الإنسـان بحروف أولية، وبدءٍ غير مألوف ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي مثـل مـا أوحى إليك ربـك يا محمد هـذا القرآن، أوحى إلى الرسـل من قبلـك في الكتب المنزلـة، اللهُ العزيـز في ملكه، الحكيـم في صنعـه ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي له ما في الكـون ملكًا وخلقًا وعبيدًا ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي هو المتعالي فوق خلقه، المنفرد بالكبرياء والعظمـة ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ﴾ أي تكاد السـمواتُ يتشـققن مـن عظمة الله وجلالـه، ومن شـناعة ما يقوله المشـركون مـن اتخاذ الله الولـد ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أي والملائكةُ الأبرار دائبون في تسبيح الله، ينزهونه عما لا يليق به ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ويطلبون المغفرة لذنوب من في الأرض من المؤمنين قال في التسـهيل: والآية عمومٌ يراد به الخصوص؛ لأن الملائكة إنما يستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض، فهي كقوله تعالـى ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧][٢] ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي ألا فانتبهـوا -أيهـا القـوم- إن الله هـو الغفور لذنوب عبـاده، الرحيم بهـم حيث لا يعاجلهـم بالعقوبة مع كفرهم وعصيانهم قال القرطبي: هَيَّب وعَظَّم جل وعلا في الابتداء، وألْطَفَ وبَشَّر في الانتهاء[٣] ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي جعلـوا لـه شـركاء وأنـدادًا ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي اللهُ تعالـى رقيـبٌ على أحوالهم وأعمالهم، لا يفوته منها شـيءٌ، وهو محاسـبُهم عليها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ أي ومـا أنت يا محمد بموكَّل على أعمالهم حتى تقسـرهم على الإيمان، إنما أنت منذرٌ فحسـب ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ أي وكما أوحينا إلى الرسـل قبلك أوحينا إليك يا محمد قرآنًا عربيًّا معجزًا، بلسان العرب لا لبس فيه ولا غموض ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ أي لتنـذر بهـذا القرآن أهل مكة ومن حولها من البلدان قـال الإمام الفخر: وأمُّ القُرى أصـلُ القـرى وهي مكة، وسـميت بهذا الاسـم إجـلالًا لها، لأن فيهـا البيت ومقـام إبراهيم، والعـربُ تسـمي أصل كل شـيءٍ أمـه، حتى يقال: هـذه القصيدة مـن أمهات قصائـد فلان[٤] ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾ أي وتخوّف الناس ذلك اليوم الرهيب، يوم اجتماع الخلائق للحسـاب في صعيدٍ واحد ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أي لا شك في وقوعه، ولا محالة من حدوثه ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ أي فريـقٌ منهم في جنـات النعيم وهم المؤمنون، وفريـق منهم في دركات الجحيم

---

(١) انظر التفصيل القول في أول سورة البقرة.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٧.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٥.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٧/ ١٤٧.

وهم الكافرون، حيث ينقسمون بعد الحساب إلى أشقياء وسعداء كقوله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٥] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي لو شاء الله لجعل الناس كلهم مهتدين، أهل دينٍ واحدٍ وملةٍ واحدة وهي الإسلام قال الضحاك: أهل دينٍ واحد، أهل ضلالةٍ أو أهل هُدى[١] ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾ أي ولكنَّه تعالى حكيمٌ لا يفعل إلاَّ ما فيه المصلحة، فمن علم منه اختيار الهدى يهديه فيدخله في جنته، ومن علم منه اختيار الضلال يضلُّه فيدخله بذلك السعير ولهذا قال ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أي والكافرون ليس لهم وليٌّ يتولاهم يوم القيامة، ولا نصيرٌ ينصرهم من عذاب الله قال أبو حيان: والآية تسليةٌ للرسول ﷺ عمَّا كان يقاسيه من كفر قومه، وتوقيفٌ على أنَّ ذلك راجعٌ إلى مشيئته جلَّ وعلا، ولكنْ من سبقت له السعادة أدخله في رحمته يعني دين الإسلام[٢] ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ استفهامٌ على سبيل الإنكار، أي: بل اتخذ المشركون من دون الله آلهة، يستعينون بهم، ويطلبون نصرهم وشفاعتهم ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ ﴾ أي فاللهُ وحده هو الوليُّ الحقُّ، الناصرُ للمؤمنين، لا وليَّ سواه ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي هو تعالى القادر على إحياء الموتى، لا تلك الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي لا يعجزه شيء فهو الحقيق بأن يُتخذ وليًّا دون من سواه ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي وما اختلفتم فيه أيها المؤمنون من شيء من أمر الدنيا أو الدين، فالحكم فيه إلى الله جل وعلا، هو الحاكم فيه بكتابه أو بسنة نبيه عليه السلام ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ أي الموصوف بهذه الصفات هو ربي وحده، وَلِيِّي ومالكُ أمري قال القرطبي: وفيه إضمارٌ، أي: قل لهم يا محمد: ذلك الذي يُحيي الموتى، ويحكم بين المختلفين هو ربّي[٣] ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي عليه وحده اعتمدت في جميع أموري ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي وإليه وحده أرجع في كل ما يعرض عليَّ من مشكلاتٍ ومعضلات، لا إلى أحدٍ سواه قال الرازي: والعبارة تفيد الحصر، أي: لا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه، وهو إشارة إلى تزييفِ طريقةِ مَن اتخذ غير الله وليًّا[٤].. ثم بيَّن تعالى صفاته الجليلة القدسية، التي هي من آثار ومظاهر الربوبية فقال ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي هو جل وعلا خالقهما ومبدعهما على غير مثالٍ سابق ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أي أوْجَد لكم بقدرته من جنسكم نساءً من الآدميَّات ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾ أي وخلق لكم كذلك من الإبل والبقر والضأن والمعز أصنافًا، ذكورًا وإناثًا ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ أي يكثّركم بسببه بالتوالد، ولولا أنه خلق الذكر والأنثى لما كان ثَمة تناسلٌ ولا توالدٌ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ أي ليس له تعالى مثيلٌ ولا نظير، لا في

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٦.
(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٥٠٩.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٧.
(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ١٤٩.

ذاتـه ولا في صفاتـه ولا في أفعاله، فهو الواحد الأحد، الفردُ الصمـد والغرضُ: تنزيهُ الله تعالى عن مشـابهة المخلوقين، والكاف هنا لتأكيد النفي، أي: ليس مثله شيءٌ، قال ابن قتيبة: العربُ تقيم المثل مقام النفس فتقول: مثلي لا يُقال له هذا، أي: أنا لا يُقال لي هذا، ومعنى الآية ليس كالله جل وعلا شـيءٌ[١] قال القرطبي: والذي يُعتقد في هذا الباب أن الله جلَّ اسـمُه في عظمته وكبريائه، وملكوته وحُسـنى أسمائه، لا يشبه شـيئًا من مخلوقاته، ولا يُشبَّه به أحد، وما أطلقه الشـرع علـى الخالق والمخلوق فلا تشـابه بينهمـا في المعنى الحقيقي، إذْ صفـاتُ القديم عزَّ وجـلَّ بخلاف صفات المخلوق، إذْ صفاتُهـم لا تنفك عن الأعراض والأغراض، وهو تعالى منـزَّه عن ذلك[٢]، وقد قـال بعض المحققين: التوحيـدُ إثباتُ ذاتٍ غير مُشْـبِهةٍ للذوات، ولا مُعطَّلة من الصفات، وزاد الواسطيُّ فقال: ليس كَذاتِه ذاتٌ، ولا كاسمِه اسمٌ، ولا كفِعله فِعلٌ، وهـذا مذهب أهـل الحق، أهـل السـنة والجماعـة[٣] ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي وهو تعالى السـميع لأقوال العبـاد، البصيـر بأفعالهـم ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي بيده جل وعلا مفاتيـح خزائنهما من المطر والنبات وسـائر الحاجـات ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسِّـعُ الرزق على من يشـاء، ويضيّق على من يشاء، حسـب الحكمة الإلهية ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تعليل لما سبق أي: لأن علمه تعالى محيط بكل الأشياء، فهو واسع العلم، يعلم إذا كان الغِنَى خيرًا للعبد أو الفقر ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي سَـنَّ وبيَّن لكم أيها المؤمنون من الشـريعة السـمحة والدين الحنيف، ما وصَّى به الرسـل، وأرباب الشرائع من مشاهير الأنبياء، كنوح ومحمد عليه السلام ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ أي ومـا أمرنـا به بطريق الإلزام إبراهيم وموسـى وعيسـى من أصول الشـرائع والأحكام قال الصـاوي: خصَّ هـؤلاء بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء، وأولو العـزم، وأصحاب المعظمة، فلكل واحد من هؤلاء الرسـل شـرعٌ جديد، وأمَّا مَن عَدَاهم، فإنما كان يُبعث بتبليغ شـرع من قبله، ولم يزل الأمر يتأكد بالرسـل، ويتناصر بالأنبياء، واحدًا بعد واحد، وشـريعةً إثر شريعة، حتى ختمها الله بخير الملل، ملةِ أكرم الرسل نبينا محمد ﷺ، فتبيَّن أن شرعنا معشَر الأمة المحمدية قد جمع جميع الشـرائع المتقدمة في أصول الاعتقادات، وأصول الأحكام[٤] ولهذا قال تعالى ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أي وصيناهـم بـأن أقيموا الدين الحق دين الإسـلام الذي هو توحيـدُ الله وطاعتـه، والإيمان بكتبه ورسـله، وبالبعث والجزاء قال القرطبـي: المراد اجعلوا

---

(١) انظر «حاشية الجمل على الجلالين» ٤/ ٥٥.

(٢) (ش): مثل هذا النفي مبتدع، لأنه مما سكت الله عنه وسكت عنه رسوله ﷺ، ولأنه يُراد بنَفْي الأغراض نفي الحكمة، وبنفي الأعراض نفي أفعاله المتجددة مثل الكلام والخلق والرزق.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٨.

(٤) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٣٢.

الدين قائمًا مستمرًّا محفوظًا من غير خلافٍ فيه ولا اضطراب، في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة وهي: التوحيد، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وغيرها فهذا كله مشروع دينًا واحدًا وملة متحدة[١]. ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي عظمُ وشقَّ على الكفار ما تدعوهم إليه من عبادة الله، وتوحيد الواحد القهار ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي اللهُ يصطفي ويختار للإِيمان والتوحيد من يشاء من عباده، ويهدي إلى دينه الحق من يرجع إلى طاعته، فيوفقه له ويقربه إليه رحمةً وإكرامًا ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي وما تفرَّق أهل الأديان المختلفة من اليهود والنصارى وغيرهم إلاّ من بعد ما قامت عليهم الحجج والبراهين من النبي المرسل إليهم ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي ظلمًا وتعديًا، وحسدًا وعنادًا ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ولولا أن الله قضى بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لَعَجَّل لهم العقوبة في الدنيا سريعًا باستئصالهم قال ابن كثير: أي لولا الكلمة السالفة من الله تعالى بإنظار العباد إلى يوم المعاد لعجل لهم العقوبة سريعًا[٢] ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي وإن بقيَّة أهل الكتاب الذين عاصروا رسول الله ﷺ من بعد أسلافهم السابقين ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي لفي شك من التوراة والإِنجيل، مُوقِع لهم في أشد الحيرة والريبة، لأنهم ليسوا على يقين من أمر دينهم وكتابهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا برهان قال البيضاوي: لا يعلمون كتابهم كما هو ولا يؤمنون به حق الإيمان، فهم في شك مقلق[٣] ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي فلأجل الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك، فادع يا محمد إليه والزم النهج القويم مع الاستقامة كما أمرك ربك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي ولا تتبع أهواء المشركين الباطلة فيما يدعونك إليه مِن تَرْك دعوة التوحيد ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أي صدَّقت بكل كتابٍ أنزله الله تعالى قال الرازي: يعني الإيمان بجميع الكتب السماوية، لأن أهل الكتاب المتفرقين في دينهم آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض[٤] ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي وأمرني ربي بأن أعدل بينكم في الحكم قال ابن جزي: يعني العدل في الأحكام إذا تخاصموا إليه[٥] ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي الله خالقنا جميعًا ومتولي أمورنا فيجب أن نفرده بالعبادة ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم، من خير أو شرٍّ، لا نستفيد من حسناتكم ولا نتضرر من سيئاتكم قال ابن كثير: هذا تبرؤٌ منهم، أي: نحن برآء منكم كقوله

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١١.
(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٧٢.
(٣) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٧٣.
(٤) «التفسير الكبير» ٢٧/ ١٥٨.
(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٩.

تعالى ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١][1] ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لا جدال ولا مناظرة بيننا وبينكم، فإن الحقَّ قد ظهر وبَانَ كالشمس في رابعة النهار، وأنتم تعاندون وتكابرون ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي الله يجمع بيننا يوم القيامة لفصل القضاء، وإليه المرجع والمآب فيجازي كل أحدٍ بعمله من خير وشر قال الصاوي: والغرضُ أن الحقَّ قد ظهر، والحجج قد قامت، فلم يبق إلا العناد، وبعد العناد لا حجة ولا جدل، والله يفصل بين الخلائق يوم المعاد، ويجازي كلًّا بعمله[2] ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي يخاصمون في دينه لصدِّ الناس عن الإيمان ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي من بعد ما استجاب الناسُ له ودخلوا في دينه ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي حجتهم باطلة لا ثبوت لها عند الله قال ابن عباس: نزلت في طائفةٍ من بني إسرائيل همَّت برد الناس عن الإسلام وإضلالهم ومحاجتهم بالباطل[3] ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي وعليهم غضب عظيم في الدنيا، وعذاب شديد في الآخرة، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي نـزَّل القرآن وسائر الكتب الإلهية متلبسًا بالصدق القاطع، والحقِّ الساطع، في أحكامه وتشريعاته وأخباره ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي ونـزَّل الميزان أي العدل والإنصاف، فهو من تسمية الشيء باسم السبب ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي وما ينبئك أيها المخاطب لعلَّ وقت الساعة قريب؟ فإن الواجب على العاقل أن يحذر منها، ويستعدَّ لها. قال أبو حيان: ووجه اتصال الآية بما سبق أن الساعة يوم الحساب فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم[4] ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أي يستعجل بالقيامة المشركون الذين لا يُصدِّقون بها فيقولون على سبيل الاستهزاء: متى تكون؟ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي والمؤمنون المصدِّقون بها خائفون وجلون من قيامها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ أي ويعلمون أنها كائنة وحاصلة لا محالة ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي الذين يُجادلون في أمر القيامة في ضلالٍ بعيد عن الحق، لإنكارهم عدل الله وحكمته.

قال الله تعالى:

ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٧٣.

(٢) «حاشية الصاوي» ٤/ ٣٣.

(٣) «البحر المحيط» ٧/ ٥١٣. (ش): ضعيف، رواه الطبري في «تفسيره». وذكره صاحب ««البحر المحيط»» بدون إسناد.

(٤) نفس المرجع ٧/ ٥١٣.

شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى الساعة وما يلقاه عند قيامها المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار من الحساب والجزاء، ذكر هنا أنه لطيف بالعباد لا يعاجل العقوبة للعصاة مع استحقاقهم للعذاب، ثم ذكر مآل المتقين، ومآل المجرمين في الآخرة، دار العدل والجزاء.

اللغَة: ﴿لَطِيفُۢ﴾ برٌّ رفيقٌ رحيم ﴿حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ الحرثُ في الأصل: إلقاء البذور في الأرض، ويطلق على الزرع الحاصل منه، ثم استُعمِل في ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة ﴿ٱلْفَصْلِ﴾ القضاء السابق ﴿يَقْتَرِفْ﴾ يكتسب ﴿رَوْضَاتِ﴾ جمع روضة وهو الموضع الكثير الأزهار والأشجار والثمار كالمنتزه وغيره ﴿يَقْتَرِفْ﴾ يكتسب ﴿ٱلْغَيْثَ﴾ المطر سمي غيثًا لأنه يغيث الخلق ﴿قَنَطُواْ﴾ يئسوا ﴿بَثَّ﴾ فرّق ونشر ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ فائتين من عذاب الله بالهرب.

التفسير: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ خَبِيرٌ﴾ أي بارٌّ رحيم بالخلق كثير الإحسان بهم، يفيض عليهم من الخيرات والبركات مع عصيانهم قال مقاتل: لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جوعًا بمعاصيهم[1] ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أي يوسِّع الرزق على من يشاء قال القرطبي: وفي تفضيل قوم بالمال حكمة، ليحتاج البعضُ إلى البعض، وهذا من لطفه بالعباد، وأيضًا ليمتحن الغنيَّ بالفقير، والفقير بالغني كقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠]؟[2] ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ﴾ أي القادر على كل ما يشاء ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي الغالبُ الذي لا يُغالَب ولا يُدافع

---

(١) «البحر المحيط» ٧/ ٥١٤.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٨.

ثم لما بيَّن كونه لطيفًا بالعباد، كثير الإحسان إليهم، أشار إلى أن الإنسان ما دام في هذه الحياة فعليه أن يسعى في طلب الخيرات لأسباب السعادة فقال ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ أي من كان يريد بعمله ثواب الآخرة ونعيمها، نزِدْ له في أجره وثوابه، بمضاعفة حسناته ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي ومن كان يريد بعمله متاع الدنيا ونعيمها فقط، نُعْطه بعض ما يطلبه من المتاع العاجل ممَّا قُدِّر له ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أي وليس له في الآخرة حظٌّ من الثواب والنعيم قال الزمخشري: سمَّى ما يعمله العامل مما يبتغي به الفائدة حرثًا على سبيل المجاز، وفرَّق بينهما بأن من عمل للآخرة ضُوعِفَت حسناته، ومن عمل للدنيا أُعطي شيئًا منها لا ما يريده ويبتغيه [١] وقال في التسهيل: حرثُ الآخرة عبارة عن العمل لها، وكذلك حرث الدنيا، وهو مستعارٌ من حرث الأرض، لأن الحرَّاث يعمل وينتظر المنفعة بما عمل[٢]، ثم أخذ ينكر على الكفار عبادتهم لغير الله، مع أنه الخالق المتفضل على العباد فقال ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي: ألهؤلاء الكفار شركاء من الشياطين أو آلهة من الأوثان، شرعوا لهم الشرك والعصيان الذي لم يأمر به الله؟ قال شيخ زاده: وإسناد الشرع إلى الأوثان، وهي جمادات إسناد مجازي، ومن إسناد الفعل إلى السبب، وسمَّاه دينًا للمشاكلة والتهكم [٣]﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لولا أنَّ الله حكم وقضى في سابق أزله أن الثواب والعقاب يكونان يوم القيامة لَحُكِم بين الكفار والمؤمنين، بتعجيل العقوبة للظالم، وإثابة المؤمن ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وإن الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان لهم عذابٌ موجع مؤلم. ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ أي ترى أيها المخاطب الكافرين يوم القيامة خائفين خوفًا شديدًا من جزاء السيئات التي ارتكبوها في الدنيا ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي والجزاء عليها نازلٌ بهم يوم القيامة لا محالة، سواءٌ خافوا أو لم يخافوا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ أي والمؤمنون الصالحون في رياض الجنة يتمتعون، في أطيب بقاعها، وفي أعلى منازلها ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم في الجنات ما يشتهونه من أنواع اللذائذ والنعيم والثواب العظيم عند رب كريم قال ابن كثير: فأين هذا من هذا؟ أين من هو في الذل والهوان، ممن هو في روضات الجنان فيما يشاء من مآكل ومشارب وملاذّ[٤]؟ ولهذا قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي ذلك النعيم والجزاء هو الفوز الأكبر الذي لا يوازيه شيء قال القرطبي: أي الفضل الذي لا يوصف، ولا

---

(١) «تفسير الكشاف» ٤/ ٤٧١.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٧١.

(٣) «حاشية البيضاوي» ٣/ ٢٧٥.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٧٥.

تهتدي العقول إلى حقيقة صفته، لأن الحقَّ جلّ وعلا إذا قال «كبير» فمن ذا الذي يقدر قدره[١] ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي ذلك الإكرام والإنعام هو الذي يبشر الله به عباده المؤمنين المتقين، ليتعجلوا السرور ويزدادوا شوقًا إلى لقائه ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي قل لهم يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة شيئًا من الأجر والمال، إلاَّ أن تحفظوا حقَّ القربى ولا تؤذوني حتى أبلغ رسالة ربي قال ابن كثير: أي لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح مالًا، وإنما أطلب أن تذروني حتى أبلغ رسالات ربي، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة قال ابن عباس: يقول إلا أن تصلوا ما بين وبينكم من القرابة[٢]، وتودُّوني في نفسي لقرابتي منكم ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي ومن يكتسب ويفعل طاعةً من الطاعات نضاعف له ثوابها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي غفور للذنوب شاكر لإحسان المحسن، لا يضيع عنده عمل العامل، ولهذا يغفر الكثير من السيئات، ويُكَثِّر القليل من الحسنات ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؟ أي بل أيقول كفار قريش: إن محمدًا اختلق الكذب على الله بنسبة القرآن إليه؟ قال أبو حيان: وهذا استفهام إنكار وتوبيخ للمشركين على هذه المقالة، أي: مثله لا يُنسَب إلى الكذب على الله مع اعترافكم له قبْلُ[٣] بالصدق والأمانة[٤] ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي لو افتريت على الله الكذب كما يزعم هؤلاء المجرمون لختم على قلبك فأنساك هذا القرآن، وسلبه من صدرك، ولكنك لم تَفْتَرِ على الله كذبًا ولهذا أيّدك وسدَّدك قال ابن كثير: وهذه كقوله جل وعلا ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦] وقال أبو السعود: والآيةُ استشهادٌ على بطلان ما قالوا ببيان أنه عليه السلام لو افترى على الله تعالى لَمَنَعه من ذلك قطعًا، بالختم على قلبه بحيث لا يخطر بباله معنى من معانيه، ولم ينطق بحرفٍ من حروفه[٥] ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي يزيل الله الباطل بالكلية ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ أي ويثبتُ اللهُ الحق ويوضّحه بكلامه المنزل، وقضائه المبرم وقال ابن كثير: بكلماته، أي: بحُجَجِه وبراهينه ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي عالم بما في القلوب، يعلم ما تكنه الضمائر، وتنطوي عليه السرائر وقال القرطبي: والمراد أنك لو حدثت نفسك أن تفتري الكذب لعلمه الله وطبع على قلبك[٦] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ هذا امتنانٌ من الرحمن على العباد، أي: هو جل وعلا بفضله وكرمه يتقبل التوبة

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٠.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٧٥.

(٣) (ش): أي قبل ذلك.

(٤) «البحر المحيط» ١٧/ ٥١٦.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٣٤.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٥.

من عباده، إذا أقلعوا عن المعاصي وأنابوا بصدقٍ وإخلاص نيّة ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي يصفح عن الذنوب صغيرها وكبيرها لمن يشاء ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي يعلم جميع ما تصنعون من خيرٍ أو شر ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي ويستجيب الله دعاء المؤمنين الصالحين قال الرازي: أي ويستجيبُ اللهُ للمؤمنين إلاَّ أنه حذف اللام كما حذف في قوله ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣] أي كالُوا لهم[١] ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي ويزيدهم من جوده وكرمه فوق ما سألوا واستحقوا لأنه الجواد الكريم، البرُّ الرحيم ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي وأما الكافرون بالله فلهم العذاب الموجع الأليم في دار الجحيم ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ولو وسَّع الله الرزق على عباده لطغوا وبغَوْا وأفسدوا في الأرض بالمعاصي والآثام، لأن الغنى يوجب الطغيان. قال ابن كثير: أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشرًا وبطرًا، وقال قتادة: خير العيش ما لا يُلهيك ولا يُطغيك[٢] ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ أي ولكنه تعالى يُنزّل أرزاق العباد بما تقتضيه الحكمة والمصلحة كما جاء في الحديث القدسي «إنَّ من عبادي من لا يصلُحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه»[٣] ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي عالم بأحوالهم وما يصلحهم، فيعطي ويمنع، ويبسط ويقبض، حسبما تقتضيه الحكمة الربانية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ تعديدٌ لنعمه على العباد أي هو تعالى الذي ينزّل المطر، الذي يغيثهم من الجدب، من بعد ما يئسوا من نزوله ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي ويبسط خيراته وبركاته على العباد ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي وهو الوليُّ الذي يتولى عباده، المحمود بكل لسان على ما أسدى من النعماء ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ومن دلائل قدرته، وعجائب حكمته، الدالة على وحدانيته، خلقُ السموات والأرض بهذا الشكل البديع ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي وما نشر وفرَّق في السماوات والأرض من مخلوقات قال ابن كثير: وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن، وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم وأجناسهم وأنواعهم[٤] وقال

---

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ١٦٩. (ش): قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ٢٠٥- ٢٠٦): «قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَاهُ يَسْتَجِيبُ الدُّعَاءَ لَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِأَصْحَابِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ. وَحَكَاهُ عَنْ بَعْضِ النُّحَاةِ، وَأَنَّهُ جَعَلَهَا كَقَوْلِهِ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٩٥]. وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّهُ جَعَلَ قَوْلَهُ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ [الزُّمَر:١٨] أَيْ: هُمُ الَّذِينَ يَسْتَجِيبُونَ لِلْحَقِّ وَيَتَّبِعُونَهُ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الْأَنْعَامِ:٣٦] وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَظْهَرُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أَيْ: يَسْتَجِيبُ دُعَاءَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ فَوْقَ ذَلِكَ».

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٧٧.

(٣) كذا ذكره ابن كثير عن أنس مرفوعًا. (ش): أخرجه الخطيب في «التاريخ»، وضعفه الألباني.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٧٨.

مجاهد: هم الناسُ والملائكة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ أي وهو تعالى قادر على جمع الخلائق للحشر والحساب والجزاء، في أيِّ وقتٍ شاء ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي وما أصابكم أيها الناس مصيبة من المصائب في النفس أو المال فإنما هي بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها قال الجلال: وعبَّر بالأيدي لأن أكثر الأفعال تُزاول بها[(١)] ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أي: ويصفح عن كثير من الذنوب فلا يعاقبكم عليها، ولو آخذكم بكل ما كسبتم لهلكتم وفي الحديث «لا يصيب ابن آدم خدش عود، أو عثرة قدم، ولا اختلاجُ عرقٍ إلا بذنبٍ، وما يعفو عنه أكثر»[(٢)] ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي ولستم أيها المشركون فائتين من عذاب الله، ولا هاربين من قضائه، وإِن هربتم من أقطارها كل مهرب ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي وليس لكم غير الله وليٌّ يتولى أموركم ويتعهد مصالحكم، ولا نصير يدفع عنكم عذابه وانتقامه.

فَائِدَة: المصائب التي تُصيب الناس لتكفير السيئات، وأما الأنبياء فإِنما هي لرفع الدرجات لأنهم معصومون عن الذنوب والآثام.

تنبيه: قال بعض العلماء: لا يستبعد أن يكون في الكواكب السيارة، والعوالم العلوية مخلوقات غير الملائكة تشبه مخلوقات الأرض، وأن يكون فيها حيوانات تشبه الحيوانات التي على أرضنا كما تدل الدلائل الفلكية على وجود حياةٍ في المريخ، واستدلوا بهذه الآية ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ الآية[(٣)]، أقول: يحتمل أن يوجد في هذا الفضاء الواسع، مخلوقات حيَّة غير الإِنسان، أمَّا الإِنسان فإِننا نقطع بأنه لا يوجد إلا فوق سطح الكوكب الأرضي[(٤)] لقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

---

(١) «تفسير الجلالين» ٤/ ٣٨.

(٢) كذا في «البحر المحيط» ٧/ ٨١٥، وذكر ابن كثير أن الحديث من رواية ابن أبي حاتم عن الحسن مرسلاً.

(ش): أي إنه حديث ضعيف لانقطاعه، فالحسن البصري ﵀ لم يدرك النبي ﷺ. وقال ﷺ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ). وقال ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى مِنْ مَرَضٍ فَمَا سِوَاهُ إِلاَّ حَطَّ اللهُ بِهِ سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٣) (ش): لا تطابق بين ما ذُكِر ومدلول الآية الكريمة، لأنها خصت السموات والأرض دون الكواكب بِبَثِّ الدواب فيها.

(٤) (ش): تسمية الأرض كوكبًا إطلاقٌ غريبٌ عن نصوص الوحيين الشريفين، فالكواكب في السماء، والأرض في السُّفْل، ولم يطلق على الكواكب اسم: الأرض، ومن لازم هذا الإطلاق أن تكون الأرض زينة للسماء الدنيا، وجعلها رجومًا للشياطين، وهذا باطل. [انظر: «معجم المناهي اللفظية» للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد (ص: ١١٨)].

قال الله تعالى:

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى بعض الدلائل على وحدانيته في خلق السموات والأرض، وما بثَّ فيهما من مخلوقات لا تُحصى، أتبعه بذكر آية أخرى تدل على وجود الإِله القادر الحكيم[1]، وهي السفن الضخمة التي تشبه الجبال تسير بقدرته تعالى فوق سطح البحر، محمَّلة بالأقوات والأرزاق، وختم السورة الكريمة ببيان إثبات الوحي وصدق القرآن.

اللغَة: ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ جمع جارية وهي السفينة سميت جارية لأنها تجري في الماء ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ جمع عَلَم وهو الجبل العظيم الشاهق قالت الخنساء:

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

---

(١) (ش): وجود الله يعرفه كل أحد، وإنما المقصود الاستدلال على وجوب إفراده بالعبادة.

﴿رَوَاكِدَ﴾ ثوابت ساكنة لا تسير، من ركدَ الماء إذا سكن ووقف عن الجري ﴿مَّحِيصٍ﴾ مهرب ومخلص من العذاب ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ يهلكهنَّ يقال: أوبقه أي أهلكه ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ جمع فاحشة وهي ما تناهى قبحه كالزنى والقتل والشرك وغيرها ﴿نَّكِيرٍ﴾ مُنكِر يُنكِر ما ينزل بكم من العذاب ﴿عَقِيمًا﴾ لا تلد.

التفسير: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي ومن علاماته الدالة على قدرته الباهرة، وسلطانه العظيم، السفنُ الجارية في البحر كأنها الجبال من عظمها وضخامتها ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ أي لو شاء تعالى لأسكن الرياح وأوقفها فتبقى السفن سواكن وثوابت على ظهر البحر لا تجري ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي إن في تسييرها لعبراً وعظات لكل مؤمن صابر في البأساء، شاكر في الرخاء قال الصاوي: أي كثير الصبر على البلايا، عظيم الشكر على العطايا[1] وقال أبو حيان: وإنما ذكر السفن الجارية في البحر، لما فيها من عظيم دلائل القدرة، من جهة أن الماء جسم لطيف شفاف، يغوص فيه الثقيل، والسفن تحمل الأجسام الثقيلة الكثيفة ومع ذلك جعل الله تعالى في الماء قوة يحملها بها ويمنعها من الغوص، ثم جعل الرياح سبباً لسيرها فإذا أراد أن ترسوا أسكن الريح فلا تبرح عن مكانها[2]، ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي وإن يشأ يجعل الرياح عواصف فيغرق هذه السفن وأهلها بسبب ما اقترفوا من جرائم ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ أي ويتجاوز عن كثير من الذنوب فينجيهم الله من الهلاك ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي وليعلم الكفار المجادلون في آيات الله بالباطل، أنه لا ملجأ لهم ولا مهرب من عذاب الله قال القرطبي: أي ليعلم الكفار إذا توسطوا البحر وغشيتهم الرياح من كل مكان أنه لا ملجأ لهم سوى لله، ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم فيخصلون له العبادة[3] ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي فما أُعطِيتُم أيها الناس من شيءٍ من نعيم الدنيا وزهرتها الفانية، فإنما هو نعيم زائل، تتمتعون به مدة حياتكم ثم يزول ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي وما عند الله من الثواب والنعيم، خيرٌ من الدنيا وما فيها لأنَّ نعيم الآخرة دائم مستمر، فلا تُقدِّموا الفاني على الباقي ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي للذين صدَّقوا الله ورسوله وصبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي واعتمدوا على الله وحده في جميع أمورهم ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي وهؤلاء المؤمنون هم الذين يجتنبون كبائر الذنوب كالشرك والقتل وعقوق الوالدين ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ قال ابن عباس: يعني الزنى ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي إذا غضبوا على أحدٍ ممَّن اعتدى عليهم عفوا وصفحوا قال الصاوي:

---

(١) «حاشية الصاوي» ٤/ ٣٩.

(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٥٢٠.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٣٣.

من مكارم الأخلاق التجاوز والحلم عند حصول الغضب، ولكن يشترط أن يكون الحلم غير مخل بالمروءة، ولا واجبًا كما إذا انتهكت حرماتُ الله فالواجب حنيئذٍ الغضب لا الحلم، وعليهٍ قول الشافعي «من استُغضِب ولم يغضب فهو حمار» وقال الشاعر «وحِلْمُ الْفَتَى فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ جَهْلُ»[١] ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾ أي أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة قال البيضاوي: نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان فاستجابوا[٢] ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أدوها بشروطها وآدابها، وحافظوا عليها في أوقاتها ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي يتشاورون في الأمور ولا يعجلون، ولا يُبرمون أمرًا من مهمات الدنيا والدين إلا بعد المشورة ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ أي وينفقون مما أعطاهم الله في سبيل الله بالإحسان إلى خلق الله ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ أي ينتقمون ممن بغى عليهم، ولا يستسلمون لظلم المعتدي قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون أن يُذلوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفساق[٣] قال أبو السعود: وهو وصفٌ لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر الفضائل، وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران فإن كلاًّ في موضعه محمود[٤] ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ أي وجزاء العدوان أن ينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدي عليه بالزيادة قال الإمام الفخر: لما قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ أردفه بما يدل على أن ذلك الانتصار يجب أن يكون مقيدًا بالمثل دون زيادة، وإنما سمَّى ذلك سيئة لأنها تسوء من تنزل به[٥] ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي فمن عفا عن الظالم، وأصلح بينه وبين عدوه، فإن الله يُثيبُه على ذلك الأجر الجزيل قال ابن كثير: شرع تعالى العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، فمن عفا فإن الله لا يضيع له ذلك كما جاء في الحديث: «وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إلاَّ عِزًّا»[٦] ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي إنه جل وعلا يبغض البادئين بالظلم، والمعتدين في الانتقام ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ أي انتصر ممن ظلمه دون عدوان ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أي فليس عليهم عقوبة ولا مؤاخذة، لأنهم أتوا بما أبيح لهم من الانتصار ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي إنما العقوبة والمؤاخذة

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٤٠.

(٢) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٧٥. (ش): ذكره البيضاوي بدون إسناد.

(٣) «القرطبي» ١٦/ ٣٩.

(٤) «أبو السعود» ٥/ ٣٦.

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٨٠.

(٦) «حاشية الصاوي» ٤/ ٤١. (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ. والعَفْوُ نوعان:

١ - نوعٌ يكون فيه العفو سببًا لتسكين الفتنة، وتهدئة النفوس، ومنع استفحال الشر، وهذا محمودٌ.

٢ - نوعٌ يكون فيه العفو سببًا لجراءة الظالم وتماديه فى غيّه، وهذا مذموم.

فالعفو عن العاجز المعترف بجُرمه محمود، والانتصار من المخاصِم المُصِرّ على جرمه والمتمادى فى غيّه محمود. [انظر: تفسير المراغي (٢٥/ ٥٣- ٥٤)].

على المعتدين الذين يظلمون الناس بعدوانهم ﴿وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي ويتكبرون في الأرض تجبراً وفسادًا بالمعاصي والاعتداء على الناس في النفوس والأموال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي أولئك الظالمون الباغون لهم عذاب مؤلم موجع بسبب ظلمهم وبغيهم ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي ولمن صبر على الأذى، وترك الانتصار لوجه الله تعالى، فإن ذلك الصبر والتجاوز من الأمور الحميدة التي أمر الله بها وأكد عليها قال الصاوي: كرَّر الصبر اهتمامًا به وترغيبًا فيه وللإشارة إلى أنه محمود العاقبة[١] ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي ومن يضلله اللهُ فليس له ناصر ولا هادٍ يهديه إلى الحق ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي وترى الكافرين حين شاهدوا عذاب جهنم ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي يطلبون الرجوع إلى الدنيا لهول ما يشاهدون من العذاب ويقولون: هل هناك طريق لعودتنا إلى الدنيا؟ قال القرطبي: يطلبون أن يُردُّوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ فلا يجابون[٢] ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي وتراهم أيها المخاطب يُعرضون على النار ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي متضائلين صاغرين مما يلحقهم من الذل والهوان ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي يسارقون النظر خوفًا منها وفزعًا كما ينظر من قُدِّم ليقتل بالسيف، فإنه لا يقدر أن ينظر إليه بملء عينه قال ابن عباس: ينظرون بطرفٍ ذابل ذليل وقال قتادة والسدي: يُسارقون النظر من شدة الخوف[٣] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يقول المؤمنون في الجنة لما عاينوا ما حلَّ بالكفار: إن الخسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء، فإنهم خسروا أنفسهم وأهليهم بخلودهم في نار جهنم ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي ألا إنهم في عذاب دائم لا ينقطع ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي وما كان لهم من أعوان ونُصَراء ينصرونهم من عذاب الله كما كانوا يرجون ذلك في الدنيا ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: ومن يضلله اللهُ فليس له طريق يصل به إلى الحق في الدنيا، وإلى الجنة في الآخرة، لأنه قد سُدَّت عليه طريق النجاة قال ابن كثير: من يضلله الله فليس له خلاص[٤] ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ أي استجيبوا أيها الناسُ إلى ما دعاكم إليه ربكم من الإيمان والطاعة ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي من قبل أن يأتي ذلك اليوم الرهيب الذي لا يقدر أحدٌ على ردِّه، لأنه ليس له دافع ولا مانع ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي ليس لكم مفر تلتجئون إليه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي وليس لكم مُنكِرٌ يُنكِر ما ينزل بكم من العذاب وقال أبو السعود: أي ما لكم إنكار لما اقترفتموه لأنه مدوَّن في

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٤٥.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٤٦.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٧/ ١٧٨.

(٤) «مختصر ابن كثير» ١٣/ ١٨٢.

صحائف أعمالكم وتشهد عليه جوارحكم[١] ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ ﴾ أي فإن أعرض المشركون عن الإيمان ولم يقبلوا هداية الرحمن ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ ﴾ أي فما أرسلناك يا محمدًا رقيبًا على أعمالهم ولا محاسبًا لهم ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾ أي ما عليك إلاَّ أن تبلغهم رسالة ربك وقد فعلت قال أبو حيان: والآية تسلية للرسول ﷺ وتأنيسٌ له، وإزالةٌ لهَمِّه[٢]، ثم أخبر تعالى أن طبيعة الإنسان الكفران لنعم الله فقال ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً فَرِحَ بِهَاۖ ﴾ وأراد بالإنسان الجنس بدليل قوله ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ ﴾ والمعنى: إنا إذا أكرمنا الإنسان بنعمةٍ من النعم من صحة وغنى وأمنٍ وغيرها بطر وتكبّر ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ أي وإن أصاب الناسَ جدبٌ ونقمة، وبلاءٌ وشدة، بسبب ما اقترفوه من آثام فإن الإنسان مبالغٌ في الجحود والكفران، ينسَى النعمة ويَذْكُر البليَّة[٣] قال الصاوي: والحكمةُ في تصدير النعمة ب «إذا» والبلاء بـ «إنْ» هو الإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول بخلاف البلاء، لأن رحمة الله تغلب غضبه[٤] وقال الإمام الفخر: نِعمُ اللهِ في الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر فلذلك سمَّاها ذوقًا، فبيَّن تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقير في الدنيا فإنه يفرح بها ويعظم غروره بسببها ويقع في العجب والكبر، ويظن أنه فاز بكل المُنى، وذلك لجهله بحال الدنيا وبحال الآخرة[٥] ﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ ﴾ أي هو تعالى المالك للكون كلِّه، علويه وسفليّه، والمتصرف فيه بالخلق والإيجاد، كيفما يشاء، والمقصودُ من الآية أن لا يغتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه، وأن يعلم أن الكل ملك الله وحده، وبيده مقاليد التصرف في السموات والأرض، يعطي ويمنع، لا رادَّ لقضائه ولا معقّب لحكمه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا ﴾ أي يخص من شاء من عباده بالإناث دون البنين ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ أي ويخص من شاء بالذكور دون الإناث ﴿ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾ أي يجعلهم إن شاء من النوعين فيجمع للإنسان بين البنين والبنات ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ ﴾ أي ويجعل بعض الرجال عقيمًا فلا يولد له، وبعض النساء عقيمًا فلا تلد قال البيضاوي: والمعنى: يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفة، على مقتضى المشيئة، فيهب لبعضٍ إمّا صنفًا واحدًا من ذكر أو أنثى، أو الصنفين جمعًا، ويُعقم آخرين[٦]، والمراد من الآية بيان نفاذ قدرته تعالى في الكائنات كيف يشاء، ولهذا

---

(١) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٣٧.
(٢) «البحر المحيط» ٧/ ٥٢٥.
(٣) (ش): بَليّة: بَلاء، مُصيبة ومِحْنَة.
(٤) «حاشية الصاوي» ٤/ ٤١.
(٥) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ١٨٤.
(٦) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٧٦.

قال ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي مبالغ في العلم والقدرة، يفعل ما فيه مصلحة وحكمة قال ابن كثير: جعل تعالى الناس أربعة أقسام: منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه النوعين الذكر والإناث، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيمًا لا نسل له ولا ولد، فسبحان العليم القدير[١].

ثم ذكر تعالى الوحي وأقسامه وأنواعه فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي وما صحَّ لأحدٍ من البشر أيًّا كان أن يكلمه الله إلا بطريق الوحي في الناس أو بالإلهام، لأن رؤيا الأنبياء حقٌّ كما وقع للخليل إبراهيم عليه السلام ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات:١٠٢] ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ أي أو يكلمه من وراء حجاب كما كلَّم موسى عليه السلام ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ أي أو يرسل ملكًا فيبلغ الوحي إلى الرسل بأمره تعالى ما يشاء تبليغه كما نزل جبريل بالوحي على الأنبياء قال في التسهيل: بيَّن تعالى في الآية أن كلامه لعباده على ثلاثة أوجه: **أحدها**: الوحي بطريق الإلهام أو المنام، **والآخر**: أن يُسمعه كلامه من وراء حجاب، **والثالث**: الوحي بواسطة الملك، وهذا خاص بالأنبياء، والثاني خاص بموسى وبمحمد إذ كلمه الله ليلة الإسراء، وأما الأول فيكون للأنبياء والأولياء[٢] وقال الصاوي: وقد يقع الإلهام لغير الأنبياء كالأولياء، غير أن إلهام الأولياء قد يختلط به الشيطان لأنهم غير معصومين، بخلاف الأنبياء فإلهامُهم محفوظ منه[٣] ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي إنه تعالى متعالٍ عن صفات المخلوقين، حكيم في أفعاله وصنعه، تجري أفعاله على موجب الحكمة ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ أي وكما أوحينا إلى غيرك من الرسل أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن، وسمَّاه روحًا لأن فيه حياة النفوس من موت الجهل، وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض[٤] ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي ما كنت يا محمد تعرف قبل الوحي ما هو القرآن، ولا كنت تعرف شرائع الإيمان ومعالمه على وجه التفصيل ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي ولكن جعلنا هذا القرآن نورًا وضياءً نهدي به عبادنا المتقين ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي وإنك يا محمد لَتُرشِد إلى دين قيِّم مستقيم هو الإسلام ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي هذا الدين الذي لا اعوجاج فيه هو دينُ الله الذي له كل

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٨٣.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٢٤. (ش): أي الوحي بطريق الإلهام أو المنام يكون للأنبياء والأولياء كما حدث مع أم موسى عليها السلام. كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧].

(٣) «حاشية الصاوي» ٤/ ٢٤.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٥٥.

مـا في الكـون ملكًا وخلقًا وعبيـدًا ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي ألا إلى الله وحده ترجع الأمور فيفصل فيها بين العباد بحكمه العادل وقضائه المبرم.

البَلَاغَة: تصمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان نوجزها فيما يلي:

١ – المجاز المرسـل ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ [الشورى: ٧] أي لتنذر أهل مكة لأن الإنذار لأهل القرية لا لها[1].

٢ – توالـي المؤكدات مع صيغة المبالغة ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشـورى: ٥] وهي ألا، وإن، وضمير الفصل.

٣ – الطباق بين ﴿ٱلْجَنَّةِ .. ٱلسَّعِيرِ﴾ وبين ﴿يَبْسُطُ .. وَيَقْدِرُ﴾ وبين ﴿ذُكْرَانًا .. وَإِنَـٰثًا﴾.

٤ – طبـاق السـلب ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨].

٥ – الاسـتعارة ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الشورى: ٢٠] الآيـة شـبه العمـل للآخرة بالـزارع يزرع الـزرع ليجني منه الثمرة والحب، بطريق الاسـتعارة التمثيليـة وهي من لطائف الاستعارة.

٦ – المقابلة ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ﴾ [الشورى: ٢٤].

٧ – عطف العام على الخاص ﴿يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشـورى: ٢٨] فالغيث خاص والرحمة عام.

٨ – التشبيه المرسل المجمل ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ أي كالجبال في الضخامة والعظم.

٩ – التقسيم ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا﴾.

١٠ – جناس الاشتقاق ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

١١ – صيغة المبالغة ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي عظيم الصبر، كبير الشكر.

١٢ – المشـاكلة ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ سـميت الثانيـة سـيئة لمشـابهتها للأولـى في الصورة.

١٣ – توافق الفواصل وهو من المحسنات البديعية وهو كثير في القرآن العظيم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشورى»

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) وفي الآية: أي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ احتباك حيث حذف من كل نظير ما أثبته في الآخر وتقديره: لتنذر أم القرى العذاب، وتنذر الناس يوم الجمع. (ش): الاحتباك: هو أن يُحْذَفَ من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابله في الأواخر، ويُحْذَفَ من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابله في الأوائل.



مكية وآياتها تسع وثمانون

بين يدي السورة

* سورة الزخرف مكية، وقد تناولت أسس العقيدة الإسلامية وأصول الإيمان «الإيمان بالوحدانية، وبالرسالة، وبالبعث والجزاء» كشأن سائر السور المكية.

* عرضت السورة لإثبات مصدر الوحي، وصدق هذا القرآن، الذي أنزله الله على النبي الأمي بأفصح لسان، وأنصع بيان، ليكون معجزة واضحة للنبي العربي.

* ثم عرضت إلى دلائل قدرته تعالى ووحدانيته، منبثة في هذا الكون الفسيح، في السماء والأرض، والجبال والوهاد، والبحار والأنهار، والماء الهاطل من السماء، والسفن التي تسير فوق سطح الماء، والأنعام التي سخرها الله للبشر ليأكلوا لحومها ويركبوا ظهورها.

* ثم تناولت السورة ما كان عليه المجتمع الجاهلي من الخرافات والوثنيات فقد كانوا يكرهون البنات، ومع ذلك اختاروا لله البنات سفهًا وجهلًا، فزعموا أن الملائكة بنات الله، فجاءت الآيات لتصحيح تلك الانحرافات، ورد النفوس إلى الفطرة، وإلى الحقائق الأولى القطعية.

* وتحدثت السورة بإيجاز عن دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام، الذي يزعم المشركون أنهم من سلالته وعلى ملته، فكذبتهم في تلك الدعوى، وبينت الآيات أن إبراهيم أول من تبرأ من الأوثان.

* ثم انتقلت إلى تفنيد تلك الشبهة السقيمة، التي أثارها المشركون حول رسالة محمد عليه السلام، فقد اقترحوا أن تتنزل الرسالة على رجل من أهل الجاه والثراء، لا على يتيم فقير كمحمد ﷺ فجاءت الآيات لتقرير أن الجاه والثراء ليسا ميزانًا لكرامة الإنسان واستحقاقه المناصب الرفيعة، وأن الدنيا من الحقارة والمهانة بحيث لو شاء الله لأغدقها على الكافرين ومنعها عباده المؤمنين.

* وذكرت السورة قصة «موسى وفرعون» لتأكيد تلك الحقيقة السابقة، فها هو فرعون الجبار يعتز ويفخر على موسى بملكه وسلطانه، كما يعتز الجاهلون من رؤساء قريش على النبي ﷺ ثم تكون نتيجته الغرق والدمار.

* وختمت السورة الكريمة ببيان بعض أحوال الآخرة وشدائدها وأهوالها، وبيان حال الأشقياء المجرمين، وهم يتقلبون في غمرات الجحيم.

* **التسمية**: سميت «سورة الزخرف» لما فيها من التمثيل الرائع - لمتاع الدنيا الزائل

وبريقها الخادع - بالزخرف اللامع، الذي ينخدع به الكثيرون، مع أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولهذا يعطيها الله للأبرار والفجار، وينالها الأخيار والأشرار، أما الآخرة فلا يمنحها الله إلا لعباده المتقين، فالدنيا دار الفناء، والآخرة دار البقاء.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ

اللغة: ﴿صَفْحًا﴾ إعراضًا يقال: ضربت عنه صفحًا إذا أعرضت عنه وتركته ﴿بَطْشًا﴾ قوة وانتقامًا، وبطش به أخذه بشدة وعنف ﴿مَهْدًا﴾ فراشًا وبساطًا ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ أحيينا، والنشور، الإحياء بعد الموت ﴿لِتَسْتَوُوا﴾ تستقروا وتركبوا ﴿مُقْرِنِينَ﴾ مطيقين ﴿كَظِيمٌ﴾ مملوء غمًّا وغيظًا ﴿يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون ﴿أُمَّةٍ﴾ دين وطريقة ﴿مُتْرَفُوهَا﴾ المترف: المتنعم المنغمس في الشهوات.

التفسير: ﴿حمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[1] ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾

---

(١) انظر تفصيل القول في أول سورة البقرة.

قسمٌ أقسم الله به، أي: أُقْسِمُ بالقرآن البيّن الواضح الجلي، المظهر طريق الهدى من طريق الضلال، المبيِّن للبشرية ما تحتاج إليه من الأحكام والدلائل الشرعية ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ هذا هو المقسم عليه، أي: أنزلناه بلغة العرب، مشتملًا على كمال الفصاحة والبلاغة، بأسلوب محكم، وبيانٍ معجز ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لكي تفهموا أحكامه، وتتدبروا معانيه، وتعقلوا أن أسلوبه الحكيم خارج عن طوق البشر قال البيضاوي: أقسم تعالى بالقرآن على أنه جعله قرآنًا عربيًّا، وهو من البدائع البلاغية لتناسب القسم والمُقْسم عليه، تنبيهًا على أنه لا شيء أعلى منه فيقسم به، وهذا يدل على شرف القرآن وعزته بأبلغ وجهٍ وأدقه[1] ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا﴾ أي وإنه في اللوح المحفوظ عندنا ﴿لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ أي رفيع الشأن عظيم القدر، ذو حكمةٍ بالغةٍ ومكانةٍ فائقة قال ابن كثير: بيَّن شرفَ القرآن في الملأ الأعلى، ليشرِّفه ويعظِّمه أهل الأرض، أي: وإن القرآن في اللوح المحفوظ عندنا ذو مكانةٍ عظيمة، وشرف وفضل[2] ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ الاستفهام إنكاري، أي: أنترك تذكيركم إعراضًا عنكم، ونعتبركم كالبهائم فلا نعظكم بالقرآن؟ ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أي لأجل أنكم مسرفون في التكذيب والعصيان؟ لا، بل نذكّركم ونعظكم به إلى أن ترجعوا إلى طريق الحق قال قتادة: لو أن هذا القرآن رُفع حين ردَّه الأوائل لهلكوا، ولكنَّ الله برحمته كرَّره عليهم، ودعاهم إليه عشرين سنة[3] قال ابن كثير: وقول قتادة لطيف المعنى جدًا، وحاصله أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير، وإلى الذكر الحكيم، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل يأمر به ليهتدي به مَن قدَّر هدايته، وتقوم الحجة على مَن كتَب شقاوته[4] ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾؟ تسلية للنبي عليه السلام أي ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم الأولين! ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي ولم يكن يأتيهم نبي إلا سخروا منه واستهزءوا به قال الصاوي: وهذا تسلية له ﷺ والمعنى تَسَلَّ[5] يا محمد ولا تحزن فإنه وقع للرسل قبلك ما وقع لك[6] ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي فأهلكنا قومًا كانوا أشد قوة من كفار مكة وأعتى منهم وأطغى ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي وسبق في القرآن أحاديثُ إهلاكهم، ليكونوا عظة وعبرة لمن بعدهم من المكذبين قال الإمام الفخر: إن كفار مكة سلكوا في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم، فليحذروا أن ينزل بهم مثل ما نزل

---

(١) «حاشية زاده على البيضاوي» ٣/ ٢٨٨.

(٢) «مختصر ابن الكثير» ٣/ ٢٨٤.

(٣) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ١٩٥.

(٤) «المختصر ٣/ ٢٨٥.

(٥) (ش): تسلَّى الشَّخصُ: طابت نفسُه وذهب ما بها من تعب أو همٍّ.

(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٤٤٠.

بأولئك فقد ضربنا لهم مثلَهم[١] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين من خلق السمواتِ والأرض بهذا الشكل البديع ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي ليقولُنَّ خلقهنَّ اللهُ وحده، العزيزُ في ملكه، العليمُ بخلقه قال القرطبي: أقروا له بالخلق والإيجاد، ثم عبدوا معه غيره جهلًا منهم وسفهًا[٢]. ثم بيَّن تعالى لهم صفاته الجليلة، الدالة على كمال القدرة والحكمة فقال ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ أي بسط الأرض وجعلها كالفراش لكم، تستقرون عليها وتقومون وتنامون ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أي وجعل لكم فيها طُرُقًا تسلكونها في أسفاركم ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي لكي تهتدوا إلى قدرة الخالق الحكيم، مُودِع هذا النظام العجيب[٣] ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾ أي نزَّل بقدرته الماء من السماء بمقدارٍ ووزنٍ معلوم، بحسب الحاجة والكفاية قال القرطبي: أي بمقدار ينفع ولا يضر[٤] ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أي فأحيينا به أرضًا ميتةً مقفرةً من النبات ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ أي كذلك نخرجكم من قبوركم كما نُخرج النبات من الأرض الميتة ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ أي خلق جميع الأصناف من الحيوان والنبات وغير ذلك قال ابن عباس: «الأزواج» الأصناف والأنواع كلها كالحلو والحامض، والأبيض والأسود، والذكر والأنثى[٥] ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ أي وسخَّر لكم من السفن في البحر، والإبل في البر ما تركبونه في أسفاركم قال ابن كثير أي ذلَّلها وسخَّرها ويسَّرها لكم، لتأكلوا لحومها وتركبوا ظهورها[٦] ﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ أي لتستقروا على ظهور هذا المركوب، سفينةً كانت أو جملًا ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي وتتذكروا نعمة ربكم الجليلة عليكم حين تستقرون فوقها فتشكروه بقلوبكم ﴿ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا ﴾ أي وتقولوا بألسنتكم عند ركوبكم: سبحان الله الذي ذلَّل ويسَّر لنا ركوب هذا المركوب ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾ أو وما كنا قادرين ولا مطيقين لركوبه لولا تسخيره تعالى لنا ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ أي وإنا إلى ربنا لراجعون، وصائرون إليه بعد الموت قال في «حاشية البيضاوي»: وليس المراد مِن ذِكْر نِّعمة تصوُّرها وإخطارها في البال، بل المراد تَذكُّر أنها نعمةٌ حاصلةٌ بتدبير القادر العليم الحكيم، مُستَدْعِيَة لطاعته وشُكره، فإن من تفكر في أنَّ ما يركبه الإنسان من الفُلك والأنعام، أكثر قوةً وأكبر جثةً من راكبه، ومع ذلك كان مسخرًا لراكبه

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ١٩٥.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٦٤.

(٣) (ش): أي الذي أوْدَع هذا النظام العجيب في هذا الكون.

(٤) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٧٧.

(٥) «حاشية الجمل على الجلالين» ٤/ ٧٧.

(٦) «مختصر ابن كثير» للصابوني ٣/ ٢٨٥.

يتمكن من تصريفه إلى أيِّ جانب شاء، وتفكر أيضًا في خلق البحر والريح وفي كونهما مُسخَّرَيْن للإنسان مع ما فيهما من المهابة والأهوال، استغرَق في معرفة عظمة الله تعالى وكبريائه، وكمال قدرته وحكمته، فيحمله ذلك الاستغراق على أن يقول متعجبًا من عظمة الله[١] ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾. ولما ذكر تعالى اعتراف المشركين بأن خالق السموات والأرض هو رب العالمين، ذكر بعده ما يدل على سفههم وجهلهم في عبادة غير الله فقال ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًا﴾ أي جعل المشركون لله ولدًا حيث قالوا: الملائكةُ بنات الله ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾ أي: إن القائل لهذا لَمُبالغٌ في الكفر، عظيم الجحود والطغيان قال البيضاوي: أي ظاهر الكفران لأن نسبة الولد إليه تعالى من فرط الجهل به والتحقير لشأنه[٢] ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ إنكار وتعجب من حالهم أي هل اتخذ تعالى لنفسه البنات، وخصَّكم واختار لكم البنين؟ قال ابن كثير: وهذا إنكار[٣] عليهم غاية الإنكار، ثم ذكر تعالى تمام الإنكار فقال ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا﴾ أي وإذا بُشِّر أحد المشركين بالأنثى التي جعلها مثلًا لله بنسبة البنات له ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي صار وجهه كأنه أسود من الكآبة والحزن، وهو ممتلئ غيظًا وغمًّا من سوء ما بُشّر به قال الإمام الفاخر: والمقصودُ من الآية التنبيهُ على قلة عقولهم وسخافة تفكيرهم، فإن الذي بلغ حاله في النقص إلى هذا الحدِّ كيف يجوز للعاقل إثباتُه لله تعالى؟ وقد روي عن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذي فيه المرأة[٤] ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ أي أيجعلون للهِ من يُربَّى في الزينة وينشأ ويكبر عليها وهنَّ الإناث؟ ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾ أي ومن هو في الجدال غيرُ مظهرٍ لحجته لضعف رأيه؟ أوَمَنْ يكونُ هكذا يُنْسب إلى جناب الله العظيم؟ قال في التسهيل: والمقصد الرد على الذين قالوا: الملائكةُ بنات الله، كأنه قال: أجعلتم للهِ من ينشأ في الحلية؟ يعني يكبر وينبت في استعمالها، وذلك صفةُ النقص، ثم أتبعها بصفة نقصٍ أُخرى فقال ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾ يعني أن الأنثى إذا خاصمت أو تكلمت لم تقدر أن تبيّن حجتها لنقص عقلها، وقلّما تجد امرأة إلا تفسد الكلام، وتخلط المعاني، فكيف يُنسب لله من يتصف بهذه النقائص[٥]؟ وقال ابن كثير: المرأة ناقصة في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي ليجبر ما فيها من نقص، كما قال بعض الشعراء:

---

(١) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ٢٩١.

(٢) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٧٧.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٨٦.

(٤) «التفسير الكبير للرازي» ٢٧/ ٢٠١.

(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٢٦.

وَمَـا الْحَلْيُ إِلَّا زِينَـةٌ مِـنْ نَقِيصَةٍ يُتَمِّمُ مِنْ حُسْنٍ إِذَا الْحُسْنُ قَصَّرا[١]

وأما نقصُ معناها فإنها صعيفةٌ عاجزةٌ عن الانتصار، كما قال بعض العرب وقد بُشِّر ببنت «مـا هي بنعم الولـد، نصرُها بكاءٌ، وبِرُّها سـرقة»[٢] ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ كفـرٌ آخر تضمنه قولهم الشـنيع، أي واعتقد كفار العـرب بأن الملائكة الذين هم أكمل العبـاد وأكرمهم على الله إنـاثٌ وحكموا عليهم بذلك ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ أي أَحَضرُوا وقت خلق الله لهم حتـى عرفوا أنهم إناث؟ وهذا تجهيلٌ وتهكمٌ بهم ﴿سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ أي سـنأمر الملائكة بكتابة شهادتهم الكاذبة في ديوان أعمالهم ويُسألون عنها يوم القيامة، وهو وعيدٌ شـديدٌ مـع التهديد قال المفسـرون: حكى تعالى عـن كفار العرب ثلاثة أقوال شـنيعة: الأول: أنهم نسبوا إلى الله الولد، الثاني: أنهم نسبوا إليه البناتِ دون البنين، الثالث: أنهم حكموا على الملائكة المكرمين بالأنوثة بلا دليل ولا برهان، فكذَّبهم القرآن الكريم في تلك الأقوال، ثـم زادوا ضلالًا وبهتانًا فزعموا أنَّ ذلك برضى الله ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم﴾ أي قالوا على سبيل السخرية والاستهزاء: لو شاء اللهُ ما عبدنا هؤلاء الملائكة ولا الأصنام، ولمَّا كانت عبادتنـا واقعة بمشـيئته فهو راضٍ بها قال القرطبي: وهذا منهم كلمـةُ حقٍّ أُريد بها باطل، فكل شيءٍ بإرادة الله، والمشيئةُ غير الرضى، ولا يصح الاحتجاج بالمشيئة، فإنهم لو عبدوا الله بدل الأصنـام لعلمنـا أنَّ الله أراد منهم ذلك[٣]، وقد كذبهـم الله بقوله ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي مـا لهم بذلك القـول حجة ولا برهـان ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي ما هم إلا يكذبـون ويتَقَوَّلون علـى الله كذبًا وزورًا ﴿أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ ردٌّ آخر عليهم، أي: أم أنزلنـا علـى هؤلاء المشـركين كتابًا من قبل القـرآن فهم بذلك الكتاب متمسـكون يعملون بتوجيهاتـه؟ قال الإمام الفخـر: والمعنى: هل وجدوا ذلك الباطل في كتـاب منزَّل قبل القرآن حتى يعوِّلوا عليه ويتمسـكوا بـه[٤] ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ (بل) للإضراب وهو الانتقـال مـن كلام إلى آخر أي لم يأتوا بحجةٍ عقليـة أو نقلية على ما زعموا بل اعترفوا بأنه لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم الجهَلة قال أبو السعود: والأُمَّةُ: الدينُ والطريقةُ سميت أمةً لأنها

---

(١) (ش): الحَلْيُ: الحِلْيَة: ما يُتزيّن به من المصوغات أو الأحجار الثَّمينة.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٢٨٧. (ش): المعنى أنه إذا كانت هناك محنة يحتاج أحدٌ فيها لمن ينصُره فهي لا تملك أمامها – لعجزها – إلا البكاء، كما أنها في الغالب عاجزة عن كسب دخل مادي تبر به من تريد برَّهم وإذا أرادت أن تبرهم فهي تسرق من مال زوجها لتبرهم به لأن الزوج غالبًا لا يسمح بأن تنفق ماله على أهلها. وكلام هذا العربي ليس صحيحًا بإطلاق فقد تكون البنت أفضل أولاد الأب والأم إن كانت صالحةً تبرُّهما في حياتهما بالإحسان إليهما والإنفاق عليهما إن كانت ذات مال، وبعد مماتهما تبرُّهما بالدعاء لهما. وفي ذات الوقت قد يكون مِن إخوانها مَن هم على النقيض من ذلك.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٧٣.

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ٢٠٦.

تُؤَمُّ وتُقصَد[(١)] ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي ونحن ماشُون على طريقتهم مهتدون بآثارهم ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي وكما تبع هؤلاء الكفار آباءهم بغير حجة ولا برهان كذلك فعَل مَن قبلهم من المكذبين، فما بعثنا قبلك رسولًا في أمةٍ من الأمم ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ أي إلا قال المتنعمون فيها الذين أبطَرَتْهُم النعمة، وأعمتهم الشهواتُ والملاهي عن تحمل المشاق في طلب الحق: إنا وجدنا أسلافنا على ملةٍ ودين، وإنا مقتدون بهم في طريقتهم قال البيضاوي: والآية تسليةٌ لرسول الله ﷺ ودلالةٌ على أن التقليد في نحو هذا ضلالٌ قديم، وأسلافُهم لم يكن لهم سندٌ منظور يُعتَدُّ به، وإنما خصَّص المترفين بالذكر للإشعار بأن التنعم وحبَّ البطالة صَرَفَهم عن النظر إلى التقليد الأعمى[(٢)]، وذكر هنا ﴿مُّقۡتَدُونَ﴾ وهناك ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ تفننًا لأن معناهما واحد ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ﴾؟ أي قال كل نبيٍّ لقومه حين أنذرهم عذاب الله: أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم بدينٍ أهدى وأرشد مما كانوا عليه؟ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي قالوا: إنا كافرون بكل ما أُرسلتم به من التوحيد والإيمان والبعث والنشور ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي فانتقمنا من الأمم المكذبة بأنواع العذاب فانظر كيف صار حالهم ومآلهم؟!

قال الله تعالى:

وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾

---

(١) «تفسير أبي السعود» ٢/ ١٧٨.

(٢) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٧٨

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾

المناسَبَة: لما حكى عن المشركين تقليدهم الأعمى للآباء، ذكر هنا إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام، الذي يفتخر به العرب وينتسبون إليه، وتبرؤه من قومه ومن عبادة الأوثان، للمقارنة بين الهدى والضلال، وبين منطق العقل السديد، ومنطق الهوى والتقليد.

اللغَة: ﴿بَرَآءٌ﴾ مصدر بمعنى بريء أي متبرئ يقال: تبرأتُ من الأمر أي تخليت عنه بالكلية ﴿عَقِبِهِۦ﴾ ذريته ونسله قال ابن شهاب: العقب: الولدُ وولد الولد ﴿سُخْرِيًّا﴾ أي مسخرًا في العمل مستخدمًا فيه ﴿وَمَعَارِجَ﴾ مصاعد ومراقي جمع مِعْراج وهو ما يصعد عليه الإنسان كالدَّرَج ونحوه[1] ﴿يَظْهَرُونَ﴾ يرتقون ويصعدون ﴿وَزُخْرُفًا﴾ زينة من ذهب وفضة وغيرهما ﴿يَعْشُ﴾ يُعرض وأصله من عشيَ البصرُ إذا ضعف قال الخليل: العشو هو النظر ببصر ضعيف.

التفسِير: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي واذكر يا محمد حين قال إبراهيم الخليل لأبيه وقومه المشركين: إنني بريءٌ من هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ أي لكنْ ربي الذي خلقني وأنشأني من العدم فإنه يرشدني إلى الدين الحق، ويهديني إلى طريق السعادة ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾ أي وجعل إبراهيم هذه الكلمة كلمة التوحيد باقيةً في ذريته فلا يزال فيهم من يوحِّد الله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي رجاء أن يرجع إلى الإيمان من أشرك منهم قال مجاهد: «وجعلها كلمة» يعني «لا إله إلا الله» لا يزال في ذريته من يقولها إلى يوم الدين[2] ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ أي بل متعتُ أهل مكة وآباءهم وهم من عقب إبراهيم بالإمداد في العمر والنعمة، فاغتروا بالمهلة واشتغلوا بالتنعم واتباع الشهوات عن كلمة التوحيد ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي حتى جاءهم القرآن ورسولٌ ظاهر الرسالة، مؤيدٌ بالمعجزات الباهرة من عند الله قال الإمام الفخر: وجه نظم الآية أنهم لما عوَّلوا على تقليد الآباء، ولم يتفكروا في الحجة، اغتروا بطول الإمهال وإمتاع الله إياهم بنعيم الدنيا فأعرضوا عن الحق[3] ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ أي ولمَّا جاءهم القرآن لينبههم من غفلتهم، ويرشدهم إلى التوحيد، ازدادوا عتوًّا وضلالًا فقالوا عن القرآن: إنه سحر ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي ونحن كافرون به، لا نصدّق أنه كلام الله قال أبو السعود:

---

(١) (ش): الدَّرَج: جمع دَرَجَة: مراقِي السُّلَّم، أو ما يُتَخَطَّى عليه من الأَدْنى إلى الأعلى في الصُّعود أو في النُّزول.
(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٨٨.
(٣) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٢٠٨.

سمَّوا القرآن سحرًا وكفروا به واستحقروا الرسول عليه السلام، فضمُّوا إلى كفرهم السابق معاندة الحق والاستهانة به[١] ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي وقال المشركون: هلاَّ أُنزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير في مكة أو الطائف!! قال المفسرون: يعنون «الوليد بن المغيرة» في مكة أو «عُروة بن مسعود الثقفي» في الطائف. استبعدت قريش نزول القرآن على محمد وهو فقير يتيم، واقترحوا أن ينزل على أحد الرؤساء والعظماء، ظنًّا منهم أن العظيم هو الذي يكون له مال وجاه، وفاتهم أن العظيم هو الذي يكون عند الله عظيمًا، وهم يعتبرون مقياس العظمة: الجاه والمال، وهذا رأي الجاهلين في كل زمانٍ ومكان، أما مقياسُ العظمة الحقيقية عند الله تعالى وعند العقلاء، فإنما هو عظمة النفس، وسُموُّ الروح، ومَنْ أعظمُ نفسًا وأسمى روحًا من محمد بن عبد الله عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام! ولهذا ردَّ تبارك وتعالى عليهم بقوله ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟ أي أهم يمنحون النبوة ويخصون بها من شاءوا من العباد، حتى يقترحوا أن تكون لفلانٍ الغنيِّ، أو فلانٍ الكبير في الناس؟ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي نحن بحِكمَتنا جعلنا هذا غنيًّا وهذا فقيرًا، وفاوَتْنَا بينهم في الأموال والأرزاق، وإذا كان أمر المعيشة وهو تافه حقير لم نتركه لهم بل تولَّيْنا قسمته بأنفسنا، فكيف نترك أمر النبوة وهو عظيم وخطير لأهوائهم ومشتهياتهم! قال في التسهيل: كما قسمنا المعايش في الدنيا كذلك قسمنا المواهب الدينية، وإذا كنا لم نهمل الحظوظ الحقيرة الفانية، فأولى وأحرى ألا نُهمل الحظوظ الشريفة الباقية[٢] ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أي فضلنا بين الخلق في الرزق والعيش، وجعلناهم مراتب: هذا غني، وهذا فقير، وهذا متوسط الحال ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي ليكون كلٌّ منهم مسخرًا للآخر، ويخدم بعضهم بعضًا، لينتظم أمر الحياة قال الصاوي: إن القصد مِن جَعْل الناس متفاوتين في الرزق، لينتفع بعضهم ببعض، ولو كانوا سواءً في جميع الأحوال لم يخدم أحدٌ أحدًا، فيُفضِي إلى خراب العالم وفسادِ نظامه[٣] وقال أبو حيان: وقوله تعالى: ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضم السين من التسخير بمعنى الاستخدام، لا من السخرية بمعنى الهزء، والحكمة هي أن يرتفق بعضهم ببعض[٤]، ويصلوا إلى منافعهم، ولو تولَّى كل واحدٍ جميع أشغاله بنفسه ما أطاق ذلك، وضاع وهلك، وفي قوله ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾ تزهيدٌ في الإكباب على طلب الدنيا، وعونٌ على التوكل على الله، وقال قتادة[٥]: تلقَى ضعيف القوة، قليل الحيلة، عيِيَّ اللسان وهو موسَّع عليه في الرزق، وتلقى

---

(١) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٤٣.
(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٢٨.
(٣) «حاشية الصاوي» ٤/ ٤٨.
(٤) (ش): ارتفق بالشَّيء: انتفع واستعان به.
(٥) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ١٣.

شديد الحيلة، بسيط اللسان وهو مقتَّر عليه في الرزق، وقال الشافعي:

وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى الْقَضَاءِ وَكَوْنِهِ ... بُؤْسُ اللَّبِيبِ وَطِيبُ عَيْشِ الْأَحْمَقِ[١]

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي وإنعامه تعالى عليك بالنبوة خيرٌ مما يجمع الناسُ من حطام الدنيا الفاني، ثم بَيَّن تعالى حقارة الدنيا ودناءة قدرها عند الله فقال ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ أي ولولا أن يرغب الناسُ في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الرزق، ويصيروا أمةً واحدة في الكفر، لخصصنا هذه الدنيا بالكفار، وجعلنا لهم القصور الشاهقة المزخرفة بأنواع الزينة والنقوش، سقفها من الفضة الخالصة ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي وجعلنا لهم مصاعدَ وسلالم من فضة عليها يرتقون ويصعدون ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا﴾ أي ولبيوتهم أبوابًا من فضة وسررًا من فضة، زيادةً في الرفاهية والنعيم ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ أي على تلك الأسرَّة الفضيَّة يتكئون ويجلسون ﴿وَزُخْرُفًا﴾ أي وجعلنا لهم زينةً من ستور ونمارق ونقوش. قال ابن عباس: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ ذهبًا، أي: جعلنا لهم سقفًا وأبوابًا وسررًا من فضة وذهب[٢] ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي وما كل ذلك النعيم العاجل الذي نعطيه للكفار، إلاّ شيء يُتمتع به في الحياة الدنيا الزائلة الحقيرة ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي والجنةُ وما فيها من أنواع الملاذ والنعم التي يقصر عنها البيان، هي خاصة بالمتقين لا يشاركهم فيها أحد قال المفسرون: والآياتُ سِيقتْ لبيان حقارة الدنيا وقلة شأنها، وأنها من الهوان بحيث لولا الفتنة لخصَّ بها الكافرين، فجعل بيوت الكفرة ودرجها وسقوفها من ذهب وفضة، وأعطى الكافر كل ذلك النعيم في الدنيا لعدم حظه في الآخرة، ولكنه تعالى رحيم بالعباد فلذلك أغنى بعض الكفار وأفقر بعضهم، وأغنى بعض المؤمنين وأفقر بعضهم وفي الحديث «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»[٣] قال الزمخشري: فإن قلت: فحين لم يوسّع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة عليهم، من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها، فهلاَّ وسَّع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام؟ قلتُ: التوسعةُ عليهم مفسدة أيضًا لما تؤدي إليها من دخول الناس في الإسلام لأَجل الدنيا وذلك من دين المنافقين، فكانت الحكمة فيما دبَّر، حيث جعل الفريقين أغنياء وفقراء، وغلَّب الفقر على الغِنَى[٤] ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي ومن يعرض ويتعَامَ[٥] ويتغافل عن القرآن وعبادة الرحمن ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ١٣.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٨٧ .

(٣) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح. (ش): وصححه الألباني.

(٤) «تفسير الكشاف» ٤/ ١٩٧.

(٥) (ش): يتعامَى: يتظاهر بالعمى، يدّعي أنّه لا يرى. يتعامَى عن الحقيقة: يُخفيها عن نفسه ويتظاهر أنّه يجهلها ولا يراها، يتغافل عنها، يتجاهلها.

أي نهيئ ونيسّر له شيطانًا لا ينفك عن الوسوسة له والإغواء كقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣] ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ فهو له ملازم ومصاحب له لا يفارقه ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الكفار الضالين عن طريق الهدى ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي ويحسب الكفار أنهم على نور وبصيرة وهدايةٍ من أمرهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا ﴾ أي حتى إذا جاء الكافر مع قرينه وقد ربط بلسلسةٍ واحدة ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ ﴾ أي قال الكافر لقرينه: يا ليت بيني وبينك مثل ما بين المشرق والمغرب قال الطبري: وهذا من التغليب كما يقال: القمران، والعمران، والأبوان، فغلَّب ههنا المشرق على المغرب[١] ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ أي فبئس الصاحب أنت لأنك كنت سببًا في شقائي بتَزْيينِكَ الباطلَ لي قال أبو سعيد الخدري: إذا بُعث الكافر زُوّد بقرينه من الشياطين، فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ أي ولن ينفعكم ويفيدكم اشتراككم في العذاب، ولن يخفف ذلك عنكم شيئًا بسبب ظلمكم، فإن لكل واحد نصيبه الأوفر منه قال في التسهيل: المراد أنه لا ينفعهم اشتراكهم في العذاب، ولا يجدون راحة التأسِّي التي يجدها المكروب في الدنيا إذا رأى غيره قد أصابه مثل ما أصابه[٢] لأن المصيبة إذا عمَّت هانت، فدفع تعالى ذلك التوهم بأن اشتراكهم في العذاب، لا يخفِّف عنهم البلاء ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي فأنت يا محمد تقدر أن تسمع هؤلاء الكفار الذين هم كالصُّم والعُمْي، ومن كان في ضلالٍ واضح؟ ليس لك ذلك فلا يَضِقْ صدرك إن كفروا قال المفسرون: والآية تسلية للنبي ﷺ فقد كان يجتهد في دعائهم إلى الإيمان، ولا يزدادون إلاَّ تعاميًا عن الحق وطغيانًا وضلالًا ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ أي إن عجَّلْنا وفاتَك قبل الانتقام منهم، فإنا سننتقم منهم بعد وفاتك ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾ أي أو نرينَّك يا محمد العذاب الذي وعدناهم به في حياتك فإنا قادرون عليهم فهم في قبضتنا لا يفوتوننا قال ابن عباس: قد أراه الله ذلك يوم بدر وقال ابن كثير: المعنى: لا بدَّ أن ننتقم منهم ونعاقبهم في حياتك أو بعد وفاتك، ولم يقبض الله تعالى رسوله حتى أقرَّ عَيْنَه من أعدائه[٣]، وحَكَّمه في نواصيهم[٤] ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ أي فتمسكْ يا محمد بالقرآن الذي أوحيناه لك ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي فإنك على الحق الواضح والطريق المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ

---

(١) «تفسير الطبري».

(٢) «التسهيل لعلوم النزيل» ٤/ ٢٩.

(٣) (ش): قرَّت عينُه: بَرَد دمعُها، ضدّ سخُنت، ويُكنَّى به عن السرور والابتهاج، وقيل: لأنَّه للسّرور دمعة باردة وللحزن دمعة حارّة.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٩٠.

تُسْـَٔلُونَ﴾ أي وإن هذا القرآن لشرفٌ عظيم لك ولقومك من قريش، إذ أُنزل بلغتهم وعلى رجل منهم وسوف تسألون عن شكر هذه النعمة قال في التسهيل: والذكرُ هنا بمعنى الشرف، وقومُ النبي ﷺ هم قريشٌ وسائر العرب، فإنهم نالوا بالإسلام شرف الدنيا والآخرة، ويكفيك أن فتحوا مشارق الدنيا ومغاربها وصارت فيهم الخلافة والملك[1]، وهذا القرآن شرفٌ لكل من تبعه، وهذه الآية نظير قوله تعالى ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]؟ ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ هذا على سبيل الفرض، وفي الكلام محذوف، أي: إن كنت يا محمد شاكًّا في أمر التوحيد فسلْ من سبقك من الرسل ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾؟ أي هل هناك أحدٌ من الرسل دعا لعبادة غير الله؟ والآية كقوله تعالى ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] قال أبو السعود: والمراد بالآية الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد، والتنبيه على أنه ليس ببدع ابتدعه حتى يُكذَّب ويُعادَى[2] وقال أبو حيان: ويظهر أن الخطاب للسامع، والسؤال هنا مجاز عن النظر في أديان الأنبياء، هل جاءت عبادة الأوثان في ملةٍ من مللهم؟ وهذا كما يسائل الشعراء الديار والأطلال، ومنه قولهم: سل الأرض من شقَّ أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإنها إن لم تجبك حوارًا أجابتك اعتبارًا، وهذا كله من باب المجاز[3].

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٢٩.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٤٥

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ١٩.

مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ

المناسَبَة: لما طغت قريش على الرسول ﷺ في أمر النبوة، بسبب أنه فقيرٌ عديم المال والجاه، واختاروا أن يتنزَّل القرآن على رجل كثير المال عظيم الجاه، ذكر تعالى قصة «موسى مع فرعون» ليشير إلى أن منطق العناد والطُّغيان واحد، فقد سبقهم فرعون إلى التجبر بماله وسلطانه، ورفض قبول دعوة الحق بحجة أنه أكثر مالًا وجاهًا من موسى، فردت الآيات الكريمة هذه الشبهة السقيمة بالحجة والبرهان.

اللغَة: ﴿يَنكُثُونَ﴾ نكث العهد: نقضه ﴿مَهِينٌ﴾ حقير لا قدر له ولا مكانة ﴿ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونا وغاظونا ﴿سَلَفًا﴾ قُدْوة ﴿يَصِدُّونَ﴾ بكسر الصاد بمعنى يَضِجّون ويصِيحون، وبضمها بمعنى الإعراض ومنع الناس عن الإيمان قال الجوهري: صدَّ يصِدُّ صديدًا أي ضجَّ، وقيل: إنه بالضم من الصدود وهو الإعراض، وبالكسر من الضجيج[1]، وقال الفراء: هما سواء ﴿تَمۡتَرُنَّ﴾ الامتراء: الشك، امترى في الأمر شكَّ فيه، والمريةُ: الشك.

سَبَبُ النّزول: عن مجاهد قال: إن قريشًا قالت: إن محمدًا يريد أن نعبده كما عبد النصارى عيسى ابن مريم فأنزل الله ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾[2].

التفسير: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي والله لقد أرسلنا موسى بالمعجزات الباهرة الدالة على صدقه إلى فرعون وقومه الأقباط ﴿فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي فقال له موسى: إني رسول الله إليك، أرسلني لأدعوك وقومك إلى عبادة الله وحده ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ﴾ أي فلما جاءهم بتلك الآيات الباهرة الدالة على رسالته ضحكوا سخريةً واستهزاءً به قال القرطبي: إنما ضحكوا منها ليوهموا أتباعهم أن تلك الآياتِ سحرٌ، وأنهم قادرون عليها[3]، قال تعالى ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَا﴾ أي وما نريهم آية من آيات العذاب كالطوفان، والجراد، والقُمَّل إلا وهي في غاية الكبر والظهور، بحيث تكون أوضح من سابقتها قال الصاوي: والمعنى إلا وهي بالغة الغاية

(١) انظر «الصحاح» و«لسان العرب» و«القاموس المحيط».

(٢) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٠٢. (ش): ضعيف لانقطاعه، إن كان مسندًا، فكيف وقد ذكره القرطبي بدون إسناد.
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِقُرَيْشٍ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ فِيهِ خَيْرٌ»، وَقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ النَّصَارَى تَعْبُدُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، وَمَا تَقُولُ فِي مُحَمَّدٍ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّ عِيسَى كَانَ نَبِيًّا وَعَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللهِ صَالِحًا، فَلَئِنْ كُنْتَ صَادِقًا، فَإِنَّ آلِهَتَهُمْ لَكَمَا تَقُولُونَ. قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧]. (رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ،، وحسنه الألباني، وأحمد شاكر والأرنؤوط).

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٩٧.

في الإعجاز، بحيث يظن الناظر إليها أنها أكبر من غيرها[١] ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عاقبناهم بأنواع العذاب الشديد، لعلهم يرجعون عما هم عليه من الكفر والتكذيب ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أي وقالوا لما عاينوا العذاب: ياأيها الساحرُ ادع لنا ربك ليكشف عنا هذا البلاء والعذاب ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي بالعهد الذي أعطاك إياه من استجابة دعائك ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي لنؤمنن بك إن كشف عنا العذاب بدعائك -قال المفسرون: ليس قولهم ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ على سبيل الانتقاص، وإنما هو تعظيم في زعمهم، لأن السحر كان عِلم زمانهم، ولم يكن مذمومًا، فنادوه بذلك على سبيل التعظيم- قال ابن عباس: معناه يا أيها العالم، وكان الساحر فيهم عظيمًا يوقرونه ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي فلما رفعنا عنهم العذاب بدعوة موسى، إذا هم ينقضون العهد ويصرون على الكفر والعصيان ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ أي نادى فرعون رؤساء القبط وعظماءهم، لما رأى الآيات الباهرة من موسى وخاف أن يؤمنوا ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾؟ أي قال مفتخرًا متبجحًا: أليست بلادُ مصرَ الواسعة الشاسعة ملكًا لي؟ وهذه الخُلجان والأنهار المتفرعة من نهر النيل تجري من تحت قصوري؟ قال القرطبي: ومعظمها أربعة: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تينس وكلها من النيل[٢] وقال قتادة: كانت جنانها وأنهارها تجري من تحت قصره[٣] ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ أفلا تبصرون عظمتي وسعة ملكي، وقلة موسى وذلته؟ ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ أي بل أنا خيرٌ من هذا الضعيف الحقير الذي لا عزَّ له ولا جاه ولا سلطان، فهو يمتهن نفسه في حاجاته لحقارته وضعفه؟ يعني بذلك موسى عليه السلام ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي لا يكاد يفصح عن كلامه، ويوضّح مقصوده، فكيف يصلح للرسالة؟ قال أبو السعود: قال فرعون ذلك افتراءً على موسى، وتنقيصًا له عليه السلام في أعين الناس، باعتبار ما كان في لسانه من عُقدة، ولكنَّ الله أذهبها عنه بدعائه ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٧-٢٨][٤] ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي فهلاَّ ألقى الله إليه أسورةً من ذهب كرامةً له ودلالة على نبوَّته! قال مجاهد: كانوا إذا أرادوا أن يجعلوا رجلًا رئيسًا عليهم سوروه بسوارين وطوقوه بطوق من ذهبٍ علامة لسيادته[٥] ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي أو جاءت معه الملائكةُ يكتنفونه خدمةً له وشهادة بصدقه قال أبو حيان: لما وصف فرعون نفسه بالعزة والمُلك، ووازن بينه وبين موسى عليه السلام، ووصفه بالضعف

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٥١.

(٢) نفس المرجع السابق ١٦/ ٩٨.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٢٢.

(٤) تفسير «أبي السعود» ٥/ ٤٦.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٠٠.

وقلة الأعوان، اعترض فقال: إن كان صادقًا فهلاَّ ملَّكه ربُه وسوَّره وجعل الملائكة أنصاره[١] ! ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ أي فاستخفَّ بعقول قومه واستجهلهم لخفة أحلامهم، فأطاعوه فيما دعاهم إليه من الضلالة ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ لأي إنما أجابوه لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ ﴾ أي فلما أغضبونا وغاظونا انتقمنا منهم بأشد أنواع العقاب ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ أي فأغرقنا فرعون وقومه في البحر أجمعين فلم نُبْقِ منهم أحدًا قال المفسرون: اغتر فرعون بالعظمة والسلطان والأنهار التي تجري من تحته، فأهلكه الله بجنس ما تكبر به هو وقومه وذلك بالغرق بماء البحر، وفيه إشارة إلى أن من تعزَّز بشيء أهلكه الله به ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴾ أي جعلنا قوم فرعون قُدوةً لمن بعدهم من الكفار في استحقاق العذاب والدمار، ومثلًا يعتبرون به لئلا يصيبهم مثل ذلك قال مجاهد: سلفًا لكفار قريش يتقدمونهم إلى النار، وعظة وعبرةً لمن يأتي بعدهم[٢] ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴾ أي ولمَّا ذُكر عيسى ابن مريم في القرآن وضُرب المثلُ بالآلهة التي عُبدت من دون الله إذا مشركو قريش يضجون وترتفع أصواتُهم بالصياح. قال المفسرون: «لما قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال ابن الزبعري: أهذا لنا أم لجميع الأمم؟ فقال عليه السلام: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم» فقال: قد خصمتك وربِّ الكعبة؟ أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود يعبدون عزيرًا؟ وبنو فلان يعبدون الملائكة!! فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، فسكت عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام انتظارًا للوحي، فظنوا أنه أُلزم الحجة فضحك المشركون وضجوا وارتفعت أصواتهم فأنزل الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴾[٣] [الأنبياء: ١٠١]» قال القرطبي: ولو تأمل ابن الزبعرى الآية ما اعترض عليها، لأنه تعالى قال ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ﴾ ولم يقل «ومنْ تعبدون» وإنما أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل، ولم يرد المسيح ولا الملائكة وإن كانوا معبودِين[٤] ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ ﴾ أي أآلهتنا خيرٌ أم عيسى؟ فإن كان عيسى في النار فلتكنْ آلهتنا

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٢٢.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٠٢.

(٣) «حاشية الصاوي» ٤/ ٥٢، وانظر «تفسير أبي السعود» ٥/ ٤٧. (ش): عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزل قوله تعالى ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ شقَّ ذلك على كفار قريش وقالوا: شتم آلهتنا وأتوا ابن الزِّبعري وأخبروه فقال: لو حضرتُه لرددتُ عليه قالوا: وما كنت تقول له؟ قال: أقول له: هذا المسيح تعبده النصارى، وهذا عزير تعبده اليهود؛ أفهما من حصب جهنم؟ فعجبت قريش من مقالته ورَأَوْا أنَّ محمدًا قد خصم فأنزل الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴾. أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» وإسناده حسن، وأخرج نحوَهُ الحاكمُ في «المستدرك» وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٠٣.

معه ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي ما قالوا هذا القول لك إلاَّ على وجه الجدل والمكابرة لا لطلب الحقِّ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي بل هم قوم شديدو الخصومة واللجاج بالباطل قال في التسهيل: أي ما ضربوا لك هذا المثال إلا على وجه الجدل، وهو أن يقصد الإنسان أن يغلب من يناظره، سواء غلبه بحق أو بباطل، فإن ابن الزبعري وأمثاله ممن لا يخفى عليه أن عيسى لم يدخل في قوله تعالى ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ولكنهم أرادوا المغالطة فوصفهم الله بأنهم قوم خَصِمون [1] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي ما عيسى إلا عبد كسائر العبيد أنعمنا عليه بالنبوة وشرفناه بالرسالة، وليس هو إلهًا ولا ابن إله كما زعم النصارى ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي وجعلناه آيةً وعبرةً لبني إسرائيل، يستدلون بها على قدرة الله تعالى، حيث خُلق من أم بلا أب قال الرازي: أي صيرناه عبرةً عجيبة كالمثل السائر حيث خلقناه من غير أب كما خلقنا آدم ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ أي ولو أردنا لجعلنا بدلًا منكم ملائكةً يسكنون في الأرض يكونون خلفًا عنكم قال مجاهد: ملائكة يعمرون الأرض بدلًا منكم ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي وإن عيسى علامة على قرب الساعة قال ابن عباس وقتادة: إن خروج عيسى عليه السلام من أعلام الساعة لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي فلا تشكُّوا في أمر الساعة فإنها آتية لا محالة وفي الحديث « لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا... » الحديث[2] ﴿وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي وقل لهم يا محمد: اتبعوا هُداي وشرعي، فإن هذا الذي أدعوكم إليه دينٌ قيّم وطريق مستقيم ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي لا تغتروا بوساوس الشيطان، واحذروا أن يصدكم عن اتباع الحق، فإنه لكم عدوٌّ ظاهر العداوة، حيث أخرج أباكم من الجنة، ونزع عنه لباس النور[3] ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ أي ولما جاء عيسى بالمعجزات وبالشرائع البينات الواضحات، قال: قد جئتكم بما تقتضيه الحكمة الإلهية من الشرائع ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٣٢.

(٢) (ش): قال ﷺ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ » رواه البخاري. وفي رواية: « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ » رواه البخاري. (يَضَعَ الْجِزْيَةَ)، أي لا يقبلها من اليهود والنصارى، بل لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل.

(٣) (ش): هكذا في بعض التفاسير ولم أجد من الأحاديث الصحيحة ما يدل عليه. قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]. وتفسيرها: يا بني آدم لا يخدعنَّكم الشيطان، فيزين لكم المعصية، كما زيَّنها لأبوَيكم آدم وحواء، فأخرجهما بسببها من الجنة، ينزع عنهما لباسهما الذي سترهما الله به؛ لتنكشف لهما عوراتهما. إن الشيطان يراكم هو وذريته وجنسه وأنتم لا ترونهم فاحذروهم. إنَّا جعلنا الشياطين أولياء للكفار الذين لا يوحدون الله، ولا يصدقون رسله، ولا يعملون بهديه.

بَعۡضَ ٱلَّذِى تَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي جئتكم لأبين لكم ما اختلفتم فيه من أمور الدين قال ابن جزي: وإنما قال ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِى تَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ دون الكل، لأن الأنبياء إنما يبيّنون أمور الدين لا أمور الدنيا وقال الطبري: يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية[1] ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي فاتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأطيعوا أمري فيما أبلغه إليكم من التكاليف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ أي إن الله جلّ وعلا هو الربُّ المعبود لا ربَّ سواه فأخلصوا له الطاعة والعبادة قال ابن كثير: أي أنا وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون في عبادته وحده[2] ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾ أي هذا التوحيد والتعبد بالشرائع، طريق مستقيم موصلٌ إلى جنات النعيم.

قال الله تعالى:

فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكۡوَابٍۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرًا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٌۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٌ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٌۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى أمر عيسى ودعوته إلى الدين الحق، أَتْبَعَه بِذِكْر ضلال أهل الكتاب حيث تفرقوا شيعًا وأحزابًا في شأنه، فقال بعضهم: إنه إله، وقال بعضهم: إنه ابن الإله، وقال آخرون: إنه ثالث ثلاثة، ثم ذكر تعالى أحوال القيامة وأهوالها، وختم السورة الكريمة ببيان صفات المعبود الحق، الواحد الأحد جلَّ وعلا.

اللغَة: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾ جمع خليل وهو الصديق الحميم ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ تُسرون وتفرحون،

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٩٥ قال ابن كثير: وهذا الذي قاله ابن جرير حسن جيد.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٩٥.

والحبورُ: السرور والفرح ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب وهو القدح الذي لا عُرْوةَ له[١] ﴿مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من الرحمة، وحزينون من شدة اليأس ﴿أَبْرَمُوٓاْ﴾ أحكموا الشيء يقال: أبرم القوم أمرهم أحكموه، والإبرام: الإحكام ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يُقلبون ويُصرفون، أَفكه أَفْكًا أي قلبه وصرفه عن الشيء.

سَبَبُ النّزول: عن مقاتل قال: مكر المشركون بالنبي ﷺ في دار الندوة، وتآمروا على قتله حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم، وهو أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا في قتله وتضعف المطالبة بدمه فنزلت: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾[٢].

التفسِير: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي اختلفت فرق النصارى في شأن عيسى وصاروا شيعًا وأحزابًا فيه قال ابن كثير: صاروا شيعًا فيه، منهم من يُقرُّ بأنه عبدُ الله ورسولُه وهو الحقُّ، ومنهم من يدّعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول: إنه الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا[٣] ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي فهلاكٌ ودمارٌ لهؤلاء الكفرة الظالمين من عذاب يومٍ مؤلم وهو يوم القيامة ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون إلا إتيانَ الساعة ومجيئها فجأةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم غافلون عنها مشتغلون بأمور الدنيا، وحينئذٍ يندمون حيث لا ينفعهم الندم، ثم ذكر تعالى أحوال القيامة فقال ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي الأصدقاء والأحباب يوم القيامة يصبحون أعداء «إلَّا من كانت صداقته ومحبته لله قال ابن كثير: كلُّ خلةٍ وصداقة لغير الله، فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله عَزَّ وَجَلَّ فإنه دائم بدوامه[٤] قال ابن عباس: صارت كل خلَّةٍ عداوةً يوم القيامة إلا المتقين تشريفًا وتطييبًا لقلوبهم فيقول: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ يا عباد الله المؤمنين الذين تحققتم في العبودية لرب العالمين، لا خوفٌ عليكم في هذا اليوم العصيب، ولا أنتم تحزنون على ما فاتكم من الدنيا، ثم وضَّحهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ أي هم الذين صدَّقوا بالقرآن، واستسلموا لحكم الله وأمره، وانقادوا لطاعته ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ أي يقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم ونساؤكم المؤمنات، تُنعَّمون فيها وتُسَرُّون سرورًا يظهر أثره على وجوهكم ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي يُطاف على أهل الجنة بأوانٍ من الذهب فيها طعام، وأقداح

---

(١) (ش): العُرْوَةُ من الدَّلْو أو الكوب: مقْبضُه.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٢٩٥. (ش): هكذا في أكثر من طبعة. وليس في «تفسير ابن كثير» ولا في «مختصره» للمؤلف. إنما وجدتُه في تفسير «القرطبي» وهو ضعيف لانقطاعه، إن كان مسندًا، فكيف وقد ذكره القرطبي بدون إسناد. وأيضًا مقاتل متهم بالكذب.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٢٩٥.

(٤) نفس المرجع السابق والصفحة.

من ذهب فيها الشراب قال المفسرون: آنية أهل الجنة التي يأكلون فيها الطعام، والكئوس التي يشربون فيها الشراب كلُّها من ذهب وفضة كما قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾ [الإنسان: ١٥] وفي الحديث: «لاَ تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ وَلاَ الدِّيباجَ وَلاَ تَشْرَبُوا فِى آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلاَ تَأْكُلُوا فِى صِحَافِهَا، فَإِنَّهَا لَهُمْ فِى الدُّنْيَا وَلَنَا فِى الآخِرَةِ»[1]. ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ أي وفي الجنة كل ما تشتهيه النفوس من أنواع اللذائذ والمشتهيات، وتُسرُّ به الأعين من فنون المناظر الجميلة، والمشاهد اللطيفة ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي وأنتم في الجنة باقون دائمون، لا تخرجون منها أبدًا قال أبو السعود: وهذا إتمامٌ للنعمة وإكمال للسرور، فإنَّ كل نعيمٍ زائل موجبٌ لخوف الزوال[2].. لمَّا ذكر الجنة وأنها موضع الحبور، ذكر ما فيها من النعم، فذكر أولًا المطاعم، ثم ذكر المشارب، ثم بعد ذلك التفصيل ذكر بيانًا كليًّا بقوله ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ ثم ذكر تمام النعمة بالخلود في دار النعيم، وهذا حصرٌ لأنواع النعم، لأنها إمّا مشتهاة في القلوب، أو مستلذةٌ في العيون[3] ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي وتلك الجنة الموصوفة بتلك الأوصاف الجليلة أُعطِيتُمُوها بسبب أعمالكم الصالحة التي قدمتموها في الدنيا قال ابن كثير: أي أعمالكم الصالحة كانت سببًا لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحد الجنة بعمله، ولكنْ برحمة الله وفضله، وإنما الدرجاتُ يُنال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات[4] وفي الحديث «ما من أحدٍ إلاّ وله منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار، الكافر يرث المؤمن منزله في النار، والمؤمن يرثُ الكافر منزله في الجنة، وذلك قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»[5] ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي لكم في الجنة من أنواع الفواكة والثمار الشيء الكثير سوى الطعام والشراب من هذه الفواكه تأكلون تفكهًا وتلذذًا قال المفسرون: يأكل أهل الجنة من بعض الثمار، وأما الباقي فعلى الأشجار على الدوام، لا ترى فيها شجرة تخلو عن ثمرها لحظة، فهي مزينةٌ بالثمار أبدًا، لأن كل ما يؤكل يخلف بدله وفي الحديث: «لا ينزع رجلٌ

---

(١) الحديث من رواية الشيخين. (ش): الصِّحَاف: الأواني.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٤٩.

(٣) «حاشية زاده على البيضاوي» ٣/ ٣٠٤.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٩٦.

(٥) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم. (ش): إسناده ضعيف. وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ لَهُ مَنْزِلاَنِ مَنْزِلٌ فِى الْجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فِى النَّارِ فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾». (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني. عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ النَّبِىُّ ﷺ «لاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إِلاَّ أُرِىَ مَقْعَدَهُ مِنَ لنَّارِ، لَوْ أَسَاءَ، لِيَزْدَادَ شُكْرًا، وَلاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلاَّ أُرِىَ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، لَوْ أَحْسَنَ، لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةً» رواه البخاري.

في الجنة من ثمرها إلا نبَت مِثلاها مكانها»[١]. ولما ذكر حال السعداء الأبرار أعقبه بذكر حال الأشقياء الفجار فقال ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ أي إن الكافرين الراسخين في الإجرام في العذاب الشديد في جهنم دائمون فيها أبدًا قال الصاوي: والمراد بالمجرمين الكفار لأنهم ذكروا في مقابلة المؤمنين[٢] ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي لا يخفَّف عنهم العذاب لحظة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي وهم في ذلك العذاب يائسون من كل خير ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي وما ظلمناهم بعقابنا لهم، ولكنْ كانوا هم الظالمين لتعريضهم أنفسهم للعذاب الخالد ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي ونادى الكفار مالكًا خازن النار قائلين: لِيُمِتْنا اللهُ حتى نستريح من العذاب قال ابن كثير: أي ليقبضْ أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه قال ابن عباس: فلم يجبهم إلا بعد ألف سنة[٣] ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ أي أجابهم إنكم مقيمون في العذاب أبدًا، لا خلاص لكم منه بموتٍ ولا بغيره ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ خطاب توبيخ وتقريع أي لقد جئناكم أيها الكفار بالحق الساطع المبين، ولكنكم كنتم كارهين لدين الله مشمئزين منه لكونه مخالفًا لأهوائكم وشهواتكم قال الرازي: هذا كالعلة لما ذُكِر والمرادُ نفرتهم عن محمد وعن القرآن، وشدة بُغضْهم لقبول الدين الحق[٤] ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ الكلام عن كفار قريش، أي: أم أحكم هؤلاء المشركون أمرًا في كيد محمد ﷺ فإنا مُحْكِمون أمرنا في نصرته وحمايته، وإهلاكهم وتدميرهم قال مقاتل: نزلت في تدبيرهم المكر بالنبي ﷺ في دار الندوة[٥] ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ أي أم يظنون أنَّا لا نسمع ما حدَّثوا به أنفسهم، وما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجي قال في التسهيل: السرُّ ما يحدث به الإنسان نفسه أو غيره في خفية، والنجوى ما تكلموا به بينهم[٦] ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي بلى إنا نسمع سرَّهم وعلانيتهم، وملائكتنا الحفظة يكتبون عليهم أعمالهم، روي أنها نزلت في «الأخنس بن شُريق» و «الأسود بن عبد يغوث» اجتمعنا فقال الأخنس: أترى الله يسمع سرَّنا؟! فقال الآخر: يسمع نجوانا ولا يسمع سرنا[٧] ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾

---

(١) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٤٩. (ش): رواه أبو نعيم الأصبهاني في «صفة الجنة» بإسناد ضعيف.

(٢) «حاشية الصاوي» ٤/ ٥٤.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٢٩٦.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٢٢٧.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١١٨

(٦) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٣٣.

(٧) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٣٣. (ش): ذكره بدون إسناد. وعَن ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ قَلِيلٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ كَثِيرٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ فَقَالَ أَحَدُهُمْ: «أَتَرَوْنَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟». وَقَالَ الآخَرُ: «يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلاَ يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا». وَقَالَ الآخَرُ: «إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَهُوَ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا». فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ الآية.

أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لو فُرِض أنَّ لله ولدًا لكنت أنا أول من يعبد ذلك الولد، ولكنه جلّ وعلا منزَّه عن الزوجة والولد قال القرطبي: وهذا كما تقول لمن تناظره: إن ثبتَ ما قلت بالدليل فأنا أوَّلُ من يعتقده، وهذا مبالغةٌ في الاستبعاد، وترقيقٌ في الكلام[١] وقال الطبري: هو ملاطفةٌ في الخطاب وقال البيضاوي: ولا يلزم من هذا الكلام صحة وجود الولد وعبادته له، بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه، وإنكاره للولد ليس للعناد والمراء، بل لو كان لكان أوْلَى الناس بالاعتراف به، فإن النبي يكون أعلم بالله وبما يصح له وما لا يصح[٢] ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزَّه وتقدَّس اللهُ العظيمُ الجليل، ربُّ السمواتِ والأرضِ، وربُّ العرشِ العظيم، عمَّا يصفه به الكافرون من نسبة الولد إليه ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ﴾ أي اترك كفار مكة في جهلهم وضلالهم، يخوضوا في باطلهم ويلعبوا بدنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي إلى ذلك اليوم الرهيب الذي وُعدوه وهو يوم القيامة فسوف يعلمون حينئذٍ كيف يكون حالهم ومصيرهم ومآلهم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أي هو جل وعلا معبودٌ في السماء ومعبود في الأرض، لأنه هو الإله الحق، المستحق للعبادة في السماء والأرض قال في التسهيل: أي هو الإله لأهل الأرض وأهل السماء وقال ابن كثير: أي هو إله من في السَّماء وإلهُ من في الأرض، يعبده أهلهما وكلُّهم خاضعون له أذلاء بين يديه[٣] ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي هو الحكيم في تدبير خلقه، العليمُ بمصالحهم، وهذا كالدليل على وحدانيته تعالى ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي تمجَّد وتعظَّم الله الذي له مُلك السمواتِ والأرض وما بينهما من المخلوقات، من الإنس والجن والملائكة، فهو الخالق والمالك والمتصرف في الكائنات بلا ممانعةٍ ولا مدافعة ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي وعنده وحده علم زمان قيام الساعة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي وإليه لا إلى غيره مرجع الخلائق للجزاء، فيجازي كلًّا بعمله ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي ولا يملك أحدٌ ممن يعبدونهم من دون الله أن يشفع عند الله لأحد، لأنه شفاعته إلا بإذنه ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي إلا لمن شهد بالحق، وآمن عن علم وبصيرة، فإنه تنفع شفاعته عند الله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي وهم يعلمون أن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه قال المفسرون: والمرادُ بـ ﴿مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ عيسى وعزير والملائكة، فإنهم يشهدون بالحق والوحدانية لله، فهؤلاء تنفع شفاعتهم للمؤمنين وإن كانوا قد عُبدوا من دون الله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي ولئن سألت يا محمد كفار مكة من الذي خلقهم وأوجدهم؟ ليقولُنَّ اللهُ خلقنا، فهم يعترفون

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١١٩.

(٢) هذا قول جيد وهو الصحيح في معنى الآية. وقيل: «إن» بمعنى «ما» أي ما كان للرحمن ولد. وتم الكلام ثم ابتدأ فقال: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾، وهذا قول ضعيف.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٣٣.

بأنه خالق ثم يعبدون غيره ممن لا يقدر على شيء ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف ينصرفون عن عبادة الرحمن إلى عبادة الأوثان؟ فهم في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقول ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي وقول محمد في شكواه لربه يا ربِّ إن هؤلاء قوم معاندون جبارون لا يصدقون برسالتي ولا بالقرآن قال قتادة: هذا قول نبيكم ﷺ يشكو قومه إلى ربه عَزَّ وَجَلَّ[1] ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ أي فأعرض عنهم يا محمد وسامحهم ولا تقابلهم بمثل ما يقابلونك به قال الصاوي: وهو تباعدٌ وتبرؤٌ منهم، وليس في الآية مشروعية السلام على الكفار[2] وقال قتادة: أمر بالصفح عنهم ثم أُمر بقتالهم، فصار الصفح منسوخًا بالسيف[3] ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي فسوف يعلمون عاقبة إجرامهم وتكذيبهم، وهو وعدٌ وتهديد للمشركين، وتسلية لرسول الله ﷺ[4].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ -التشبيه البليغ ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [الزخرف: ١٠] أي كالمهد والفراش حذفت منه الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغًا.

٢ - الاستعارة التبعية ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [الزخرف: ١١] شبَّه الأرض قبل نزول المطر بالإنسان الميت ثم أنشرها الله أي أحياها بالمطر ففيه استعارة تبعية[5].

٣ - التأكيد بإنَّ واللام مع صيغة المبالغة ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥] لأن (فعول وفعيل) من صيغ المبالغة.

٤ - الأسلوب التهكمي للتوبيخ والتقريع ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزخرف: ١٦]؟ وبين لفظ البنات والبنين طباقٌ.

٥ - المجاز المرسل ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨] المراد بالكلمة الجملة التي قالها ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦] ففي اللفظ مجاز.

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) «حاشية الصاوي» ٤/ ٥٦. (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: « لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلَامِ» (رواه الترمذي، وصححه الألباني). وعَنْ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَى مَجْلِسٍ فِيهِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ والْمُشرِكِين عَبَدَةِ الأَوثَانِ وَالْيَهُودِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِم النَّبِيُّ ﷺ رواه البخاري ومسلم. [انظر: «رياض الصالحين للنووي» باب تحريم ابتداء الكافر بالسلام وكيفية الرد عليهم واستحباب السلام على أهل مجلسٍ فيهم مسلمون وكفار].

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٢٤.

(٤) «أبو السعود» ٥/ ٥١.

(٥) (ش): الاستعارة التبعية: هي ما كان اللفظ المستعار فيها فعلاً، أو اسمًا مشتقًّا، أو حرفًا، والأسماء المشتقة هي: اسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، وأفعل التفضيل، واسما الزمان والمكان، واسم الآلة، وما إلى ذلك.

٦ - الاستعارة ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ [الزخرف: ٤٠] شبه الكفار بالصم والعمي بطريق الاستعارة التمثيلية.

٧ - جناس الاشتقاق ﴿أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف: ٤٥] لتغير الشكل وبعض الحروف بينهما.

٨ - حذف الإيجاز ﴿بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖ﴾ أي أكواب من ذهب وحذف لدلالة السابق عليه.

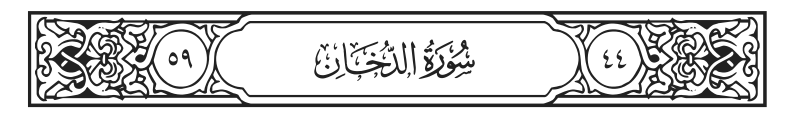
٩ - ذكر العام بعد الخاص ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ﴾ بعد قوله ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ﴾ الآية.

١٠ - الطباق ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُم﴾ لأن المراد سرُّهم وعلانيتهم.

١١ - السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١] ﴿مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢] ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٤] وغير ذلك وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الزخرف»





مكية وآياتها تسع وخمسون

بين يدي السورة

* سورة الدخان مكية وهي تتناول أهداف السور المكية «التوحيد، الرسالة، البعث» لترسيخ العقيدة وتثبيت دعائم الإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن العظيم - المعجزة الخالدة-[1] الباقي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون، وقد تحدثت عن إنزال الله تعالى له في ليلة مباركة من أفضل ليالي العمر هي «ليلة القدر» وبينت شرف تلك الليلة العظيمة التي تفصل وتدبر فيها أمور الخلق، والتي اختارها الله لإنزال خاتمة الكتب السماوية على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

* ثم تحدثت عن موقف المشركين من هذا القرآن العظيم، وأنهم في شك وارتياب من أمره، مع وضوح آياته، وسطوع براهينه، وأنذرتهم بالعذاب الشديد.

* ثم تحدثت عن قوم فرعون، وما حل بهم من العذاب والنكال نتيجة الطغيان والإجرام، وعن الآثار التي تركوها بعد هلاكهم، من قصور ودور، وحدائق وبساتين، وأنهار وعيون، وعن ميراث بني إسرائيل لهم، ثم ما حدث لهم من تشرد وضياع بسبب عصيانهم لأوامر الله.

* وتناولت السورة الكريمة مشركي قريش، وإنكارهم للبعث والنشور، واستبعادهم للحياة مرة أخرى ولذلك كذبوا الرسل، وبينت أن هؤلاء المكذبين ليسوا بأكرم على الله ممن سبقهم من الأمم الطاغية، وأن سنة الله لا تتخلف في إهلاك الطغاة المجرمين.

---

(١) (ش): مِن أشراط الساعة أن يُرفع القُرْآن من الصدور والمصاحف فلا يبقى منه آية لا في الصدور ولا في المصاحف، فعَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وآله وسلم: «يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ، يَقُولُونَ: «أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَنَحْنُ نَقُولُهَا»، فَقَالَ لَهُ صِلَةُ: «مَا تُغْنِي عَنْهُمْ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَهُمْ لَا يَدْرُونَ مَا صَلَاةٌ، وَلَا صِيَامٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ؟»، فَأَعْرَضَ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ رَدَّهَا عَلَيْهِ ثَلَاثًا، كُلَّ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي الثَّالِثَةِ، فَقَالَ: «يَا صِلَةُ، تُنْجِيهِمْ مِنَ النَّارِ» ثَلَاثًا. (رواه ابن ماجه، والحاكم في المستدرك، وصححه الحاكم، والذهبي، وابن تيمية، وابن حجر العسقلاني، والألباني).
(يَدْرُسُ) دَرَسَ الرَّسْمُ: عفا وهلك، دَرَسَ الثوب: صار عتيقًا. والمعنى: يُمْحَى قليلًا قليلًا، أي يذهب نسجه قليلًا قليلًا حتى يُمحى. (وَشْيُ الثَّوْبِ): نَقْشُه. (حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ) أي يأتي قوم لا يَدْرُون عن هذه الأمور وعن هذه الأحكام شيئًا، (وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ) فيُرفع القُرْآن من المصاحف ومن الصدور.

* وختمت السورة الكريمة ببيان مصير الأبرار ومصير الفجار، بطريق الجمع بين الترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار.

* **التسمية**: سميت «سورة الدخان» لأن الله تعالى جعله آية لتخويف الكفار، حيث أصيبوا بالقحط والمجاعة بسبب تكذيبهم للرسول ﷺ وبعث الله عليهم الدخان حتى كادوا يهلكون، ثم نجاهم بعد ذلك ببركة دعاء النبي ﷺ.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ

اللغَة: ﴿يُفْرَقُ﴾ يُبيَّن ويُفصَّل ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ انتظر ﴿يَغْشَى﴾ يغطِّي ويحيط ﴿نَبْطِشُ﴾ نأخذ بشدة وعنف ﴿فَتَنَّا﴾ ابتلينا وامتحنا ﴿تَعْلُوا۟﴾ تتكبروا وتتطاولوا ﴿عُذْتُ﴾ استجرْتُ والتجأْتُ إلى الله ﴿فَأَسْرِ﴾ سِرْ ليلًا ﴿رَهْوًا﴾ ساكنًا، والرهو عند العرب الساكن قال الشاعر:

وَالْخَيْلُ تَمْزَعُ رَهْوًا فِي أَعِنَّتِهَا ... كَالطَّيْرِ تَنْجُو مِنَ الشُّؤْبُوبِ ذِي الْبَرَدِ(١)

قال الجوهري: رها البحر أي سكن، وجاءت الخيل رهوًا أي برفق وسكينة ﴿مُنظَرِينَ﴾ مؤخرين ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ النَّعمة بفتح النون من التنعيم وهو سعة العيش والراحة، وبالكسر من المنة وهي العطية والإفضال.

---

(١) البيت للنابغة الذبياني كذا في «القرطبي» ١٦/ ١٣٧، ومعنى الشؤبوب: السحاب العظيم القطر. (ش): تَمْزَعُ: تمرُّ مرًّا سريعًا. عِنان: سَيرُ اللِّجام الذي يُمْسَك به الفَرَسُ ونحوُه كي يُتحكّم في سيره. والجمع أعِنَّة. والبَرَد: ماء جامد ينزلُ من السَّحاب قِطَعًا صغيرة شِبه شفَّافة، ويُسمَّى حَبَّ الغمام وحَبَّ المُزْن. والقَطْر: المطر.

سَبَبُ النّزول: عن ابن مسعود قال: إن قريشًا لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسِنِي يوسف، فأصابهم قحط وجهدٌ حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر الى السماء فيرى مابينه وبينها كهيئة الدخان من الجهْد، فأنزل الله تعالى ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾ فأتي رسولُ الله ﷺ فقيل: يا رسول الله) استسق لمضر فإنها قد هلكت، فاستسقى فُسقُوا فنزلت ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله ﴿ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾[١].

التفسير: ﴿ حمٓ ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن وقد تقدم[٢] ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ أي أُقسم بالقرآن البيِّن الواضح، الفارق بين طريق الهدى والضلال، البيِّن في إعجازه، الواضح في أحكامه، وجوابه ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ أي أنزلنا القرآن في ليلةٍ فاضلة كريمة هي ليلة القدر من شهر رمضان المبارك ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ [البقرة: ١٨٥] قال ابن جزي: وكيفيةُ إنزاله فيها أنه أُنزِل الى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم نزل به جبريل على النبي ﷺ شيئًا بعد شيء[٣]، وقيل: المعنى: ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر، قال القرطبي: ووصف الليلة بالبركة لما يُنزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب[٤] ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ أي لننذر به الخلق، لأن من شأننا وعادتنا ألاَّ نترك الناس دون إنذار وتحذير من العقاب، لتقوم الحجة عليهم ﴿ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴾ أي في ليلة القدر يُفصل ويُبيَّن كلُّ أمرٍ محكم من أرزاق العباد وآجالهم وسائر أحوالهم فلا يُبدَّل ولا يُغيَّر قال ابن عباس:

---

(١) الحديث أخرجه البخاري عن عبد الله بن مسعود. رضي الله عنه قَالَ: إنَّ قُرَيْشًا أَبْطَأُوا عَنِ الإِسْلَامِ فَدَعَا عَلَيْهِمِ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ»، فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ (وفي رواية: قَحْطٌ وَجَهْدٌ) حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى هَلَكُوا فِيهَا، وأكلوا المَيْتَةَ والجِيَفَ، والجُلودَ والعِظامَ، ويرى الرَّجُلُ ما بينَ السَّماءِ والأرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخانِ مِن الجَهْدِ والجوع. فجاءَهُ أبو سُفْيانَ، فقالَ: «يا مُحَمَّدُ! إنَّكَ تَأْمُرُ بطاعَةِ اللهِ، وَبِصِلَةِ الرَّحِم، وإنَّ قومَكَ قدْ هَلَكوا؛ فادْعُ اللهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُم، فدعَا، ثمَّ قالَ: «تَعُودُونَ بَعْدَ هَذَا»، فقرَأَ: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾، فدعَوْا: ﴿ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴾. فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، اسْتَسْقِ اللهَ لِمُضَرَ؛ فَإِنَّهَا قَدْ هَلَكَتْ». قَالَ: «لِمُضَرَ؟! إِنَّكَ لَجَرِيءٌ!». فَاسْتَسْقَى، فَسُقُوا الْغَيْثَ وَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ سَبْعًا، وَشَكَا النَّاسُ كَثْرَةَ الْمَطَرِ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴾، فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَعَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ، فَانْتَقَمَ اللهُ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ. (وَفِي رِوَايَةٍ: فَمُطِرُوا فَلَمَّا أَصَابَتْهُمُ الرَّفَاهِيَةُ عَادُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). (بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ): أَيْ بِسَبْعِ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ فِي الْقَحْطِ وَالْمِحْنَةِ وَالْبَلَاءِ. (السَّنَة)، هِيَ القحط والجَدْب. (حَصَّتْ): اسْتَأْصَلَتْ.

(٢) انظر تفصيل الموضوع في أول سورة البقرة.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٤٣.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٢٦.

يحكم الله أمر الدنيا إلى السنة القابلة ما كان من حياةٍ، أو موت، أو رزقٍ قال المفسرون: إن الله تعالى ينسخ من اللوح المحفوظ في ليلة القدر، ما يكون في تلك السنة من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم من خير وشر، وصالح وطالح، حتى إن الرجل ليمشي في الأسواق وينكحُ ويُولد له وقد وقع اسمه في الموتى[١] ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ أي جميع ما نقدِّره في تلك الليلة وما نوحي به إلى الملائكة من شئون العباد، هو أمرٌ حاصل من جهتنا، بعلمنا وتدبيرنا ﴿مُرْسِلِينَ﴾ أي نرسل الأنبياء إلى البشر بالشرائع الإلهية لهدايتهم وإرشادهم ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي من أجل الرأفة والرحمة بالعباد قال في البحر: وضع الظاهر ﴿رَّبِّكَ﴾ موضع الضمير «رحمةً منا» إيذانًا بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين[٢] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال العباد، العليمُ بأفعالهم وأحوالهم ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي الذي أنزل القرآن هو ربُّ السمواتِ والأرض وخالقهما ومالكهما ومن فيهما، إن كنتم من أهل الإيمان واليقين ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي لا ربَّ غيره، ولا معبود سواه، لأنه المتصف بصفات الجلال والكمال، يُحيي الأموات، ويميت الأحياء ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي هو خالقكم وخالق من سبقكم من الأمم الماضِين قال الرازي: والمقصودُ من الآية أن المُنَزِّل إذا كان موصوفًا بهذه الجلالة والكبرياء، كان المُنْزِل الذي هو القرآن في غاية الشرف والرفعة[٣] ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي ليسوا موقنين فيما يظهرونه من الإيمان في قولهم: اللهُ خالقنا[٤]، بل هم في شكٍّ من أمر البعث، فهم يلعبون ويسخرون ويهزءون قال شيخ زاده: التفت من الخطاب للغيبة فقال ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ تحقيرًا لشأنهم، وإبعادًا لهم عن موقف الخطاب، لكونهم من أهل الشك والامتراء، وكونُ أفعالهم الهزء واللعب لعدم التفاتهم إلى البراهين القاطعة، وعدم تمييزهم بين الحق والباطل، والضار والنافع[٥]، ثم لما بيَّن أن شأنهم الحماقة والطغيان التفت إلى حبيبه ﷺ تسليةً له، وإقناطًا من إيمانهم فقال ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي فانتظر يا محمد عذابهم يوم تأتي

---

(١) «حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٣١٠.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٣٣.

(٣) «التفسير الكبير».

(٤) (ش): ليس الإيمان مجرد الاعتراف بأن الله هو الخالق، فالإيمان هو: «الاعتراف المستلزم للقبول والإذعان» أما مجرد أن يؤمن الإنسان بالشيء بدون أن يكون لديه قبول وإذعان، فهذا ليس بإيمان، بدليل أن المشركين مؤمنون بوجود الله ومؤمنون بأن الله هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، المدبر للأمور، وكذلك أيضًا فإن الواحد منهم قد يقر برسالة النبي ﷺ ولا يكون مؤمنًا، فهذا أبو طالب عم النبي ﷺ كان يقرُّ بأن النبي ﷺ صادق وأن دينه حق، لكن لم ينفعه ذلك؛ لأنه لم يقْبله ولم يُذعِن له فكان - والعياذ بالله - بعد شفاعة النبي ﷺ في النَّارِ مُنْتَعِلًا بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ. (رواه مسلم).

(٥) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ٣١١.

السماءُ بدخانٍ كثيف، بَيِّن واضح يراه كل أحد قال ابن مسعود: إن قريشًا لما عصت الرسول ﷺ دعا عليهم فقال: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ» فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجِيَف، وكان الرجل يُحدِّث أخاه فيسمع صوته ولا يراه لشدة الدخان المنتشر بين السماء والأرض، ثم قال ابن مسعود: «خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ الدُّخَانُ وَاللِّزَامُ وَالرُّومُ وَالْبَطْشَةُ وَالْقَمَرُ»[1] وقال ابن عباس: لم يمض الدخان بل هو من أمارات الساعة، وهو يأتي قُبيل القيامة، يصيبُ المؤمن منه مثلُ الزكام، ويُنضِجُ رءوس الكافرين والمنافقين، حتى يصبح رأس الواحد كالرأس المشوي، ويغدو كالسكران فيملأ الدخان جوفه ويخرج من منخريه وأُذنيه ودبره[2] ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي يشمل كفار قريش ويعمهم من كل جانب ويقولون حين يصيبهم الدخان: هذا عذاب أليم ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي ويقولون مستغيثين: ربَّنا ارفع عنا العذاب فإننا مؤمنون بمحمد وبالقرآن إن كشفته عنا قال البيضاوي: وهذا وعدٌ بالإيمان إن كشف العذاب عنهم[3] ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾؟ استبعادًا لإيمانهم أي من أين يتذكرون ويتعظون عند كشف العذاب؟ ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي والحال أنه قد أتاهم رسولٌ بيّن الرسالة، مؤيَّدٌ بالبيِّنات الباهرة، والمعجزات القاهرة، ومع هذا لم يؤمنوا به ولم يتعبوه؟ ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي ثم أعرضوا عنه وبهتوه، ونسبوه إلى الجنون وحاشاه فهل يُتَوقع من قوم هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير؟! قال الإمام الفخر: إن كفار مكة كان لهم في ظهور القرآن على محمد ﷺ قولان: منهم من يقول: إن محمدًا يتعلم هذا الكلام من بعض الناس، ومنهم من كان يقول: إنه مجنون والجنُّ تلقي عليه

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٤. (ش): راجع سبب النزول السابق، وكلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رواه مسلم. وَالْمُرَادُ باللِّزَام: قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أَيْ يَكُونُ عَذَابُهُمْ لَازِمًا، وَهُوَ مَا جَرَى عَلَيْهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَهِيَ الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى. فَالْبَطْشَةُ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقَدْ مَضَتْ آيَةُ الدُّخَانِ، وَالْبَطْشَةُ وَاللِّزَامُ، وَآيَةُ الرُّوم. فعبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان يرى أن هذه خمس آيات مضت، يعني: حصلت وانتهت، فالدخان حصل وأن الآيات التي من سورة الدخان ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠ - ١١] فيقول: إن الدخان الذي ذكره الله عز وجل في هذه السورة، هو الذي حصل لقريش لما أعرضوا عن الإسلام، صار أحدهم إذا رفع بصره إلى السماء يرى كأن هناك دخانًا بينه وبين السماء، بسبب الجهد والجوع. واللزام الذي هو العذاب الذي لزمهم حصل لهم في غزوة بدر، وكذلك البطشة وآية الروم، والقمر يعني انشقاق القمر الذي حصل على عهد النبي ﷺ، فانشق القمر فرقتين، وانشقاق القمر من علامات الساعة التي مضت. وآية الروم أي: التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في أول سورة الروم، وأنها من أشراط الساعة.

(٢) قول ابن مسعود هو الأظهر وقد اختاره «أبو السعود». وقال: هو الذي يستدعيه مساق النظم الكريم، وذكر ابن كثير الرأيين ثم رجح رأي ابن عباس. وقال: إنَّ ما أورده فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن. اهـ. «ابن كثير» ٣/ ٣٠٠.

(٣) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٣١٢.

هـذا الكلام حال تخبطـه[١] ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ أي سنكشـف عنكم العذاب زمنـًا قليلًا ثم تعودون إلى ما كنتم عليه من الشـرك والعصيان قال الـرازي: والمقصودُ التنبيه علـى أنهم لا يوفون بعهدهم، وأنهـم في حال العجز يتضرعون إلى الله تعالى، فإذا زال الخوف عادوا إلى الكفر وتقليد الأسلاف[٢] قال ابن مسعود: لما كشف عنهم العذاب باستسقاء النبي ﷺ عـادوا إلى تكذيبـه ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ نَبْطِشُ، أي: واذكر يوم نبطش بالكفار بطشـتنا الكبرى انتقامًا منهم، والبطشُ: الأخذُ بقوة وشـدة قال ابن مسـعود: «البطشة الكبرى» يوم «بدر» وقال ابن عباس: هي يوم القيامة. قال ابن كثير: الظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يـومُ بدر يومَ بطشـةٍ أيضًا[٣] وقال الرازي: القـول الثاني أصح لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذي يوصف به هذا الوصف العظيم، ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة، ولمّا وصـف بكونها «كبرى» وجب أنتكون أعظم أنواع البطش على الإطلاق، وذلك إنما يكون في القيامـة[٤]، ثـم ذكَّر كفارَ قريش بما حَلَّ بالطاغين من قوم فرعون فقال ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي ولقد اختبَرْنا قبل هؤلاء المشركين قومَ فرعون وهم أقباط مصر ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ أي وجاءهم رسـولٌ شريف الحسب والنسب، من أكرم عباد الله وهو موسى الكليم عليه أفضل الصلاة والتسـليم ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ أي فقال لهم موسـى: ادفَعُوا إليَّ عبادَ الله وأَطْلِقُوهم من العذاب، يريد بني إسرائيل[٥] كقوله تعالى ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧] ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي إني رسـولٌ مؤتمنٌ على الوحي غيـرُ مُتَّهَم، وأنا لكم ناصح فاقبلوا نصحي ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي لا تتكبروا على الله ولا تترفَّعوا عن طاعته ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي قد جئتكم بحجةٍ واضحة، وبرهانٍ ساطع، يعترف بهما كل عاقل ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ أي التجأت إليه تعالى واسـتجرت به من أن تقتلوني قال القرطبي: كأنهم توعَّدوه بالقتل فاسـتجار بالله[٦] ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ أي وإن لم تصدقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل ما أَتَيْتُكم به من الحجة، فكُفُّوا عن أذاي وخَلُّوا سبيلي قال ابن كثير: أي لا تتعرضوا لي ودعوا الأمر مسالمةً إلى أنْ يقضيَ الله بيننا[٧] ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ أي فدعا عليهم لَمَّا كذبوه قائلًا: يا ربِّ إن هؤلاء قوم مجرمون فانتقم منهم ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ٢٤٤.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٠٢.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٢٤٤.

(٥) هذا قول مجاهد واختاره في «التسهيل»، وروي عن ابن عباس أن معناه: أن أدّوا إليَّ الطاعة والإيمان يا عباد الله

(٦) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٣٥.

(٧) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٠٢.

في الكلام حذف تقديره فأوحينا إليه وقلنا له: أسرِ بعبادي، أي: اخرج ببني إسرائيل ليلًا فإن فرعون وقومه يتبعونكم، ويكون ذلك سببًا لهلاكهم ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ أي واترك البحر ساكنًا منفرجًا على هيئته بعد أن تجاوزه ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أي إنَّ فرعون وقومه سيغرقون فيه قال في التسهيل: لمَّا جاوز موسى البحر أراد أن يضربه بعصاه فينطبق كما ضربه فانفلق، فأمره الله بأن يتركه ساكنًا كما هو ليدخله فرعون وقومه فيغرقوا فيه[١]، وإنما أخبره تعالى بذلك ليبقى فارغ القلب من شرهم وإيذائهم، مطمئنًا إلى أنهم لن يدركوا بني إسرئيل، ثم أخبر تعالى عن هلاكهم فقال ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ كم للتكثير، أي: لقد تركوا كثيرًا من البساتين والحدائق الغناء والأنهار والعيون الجارية ﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي ومزارع عديدة فيها أنواع المزروعات ومجالس ومنازل حسنة قال قتادة: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ هي المواضع الحسان من المجالس والمساكن وغيرها[٢] ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴾ أي وتنعم بالعيش مع الحسن والنضارة كانوا فيها ناعمين بالرفاهية وكمال السرور قال الإمام الفخر: بيَّن تعالى أنهم بعد غرقهم تركوا هذه الأشياء الخمسة وهي: الجنات، والعيون، والزروع، والمقام الكريم -وهو المجالس- والمنازل الحسنة، ونعمة العيش بفتح النون هي حسنُه ونضارته[٣] ﴿ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ أي كذلك فعلنا بهم حيث أهلكناهم وأورثنا ملكهم وديارهم لقوم آخرين، كانوا مُستَعبَدين في يد القبط وهم بنو إسرائيل قال ابن كثير: والمراد بهم بنو إسرائيل فقد استولوا بعد غرق فرعون وقومه على الممالك القبطية، والبلاد المصرية كما قال تعالى ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف: ١٣٧] وقال تعالى في مكان آخر ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٩][٤] ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ أي فما حزن على فَقْدهم أحدٌ، ولا تأثر بموتهم كائن من الخلق ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ أي ما كانوا مُؤَخَّرين ومُمْهَلين إلى وقت آخر. بل عُجّل عقابهم في الدنيا قال القرطبي: تقول العرب عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض، أي عمَّت مصيبتُه الأشياء حتى بكته الأرض والسماء، والريح والبرق قال الشاعر:

فَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَا لكَ مُورِقًا ... كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ لِمَوْتِ طَرِيفِ[٥]

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغةٌ في وجوب الجزع والبكاء عليه. والمعنى: أنهم هلكوا فلم تعظم مصيبتهم ولم يوجد لهم فقد، وقيل: هو على حذف مضاف أي ما بكى

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٣٥.
(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٣٦.
(٣) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ٢٤٦.
(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٠٣.
(٥) (ش): البيت لامرأة ترثي أخاها.

عليهم أهل السماء وأهل الأرض[١].

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ (٣٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى إهلاك فرعون وقومه، أردفه بذكر إحسانه لبني إسرائيل، ليشكروا ربهم على إنعامه وإحسانه، ثم حذَّر كفار مكة من بطش الله وانتقامه، وختم السورة الكريمة ببيان حال الأشقياء والسعداء في يوم الفصل والجزاء.

اللغَة: ﴿عَالِيًا﴾ متكبراً جبارًا ﴿بَلَاءٌ﴾ اختبار وامتحان ﴿بِمُنشَرِينَ﴾ مبعوثين بعد الموت، وأنشر الله الموتى أحياهم ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ ملوك اليمن، وكانوا يسمون ملوكهم التبابعة قال الجوهري: التبَابِعة ملوك اليمن، واحدهم تُبَّع[٢]، وقال أهل اللغة: تُبَّع لقب للملك منهم كالقياصرة للروم، والأكاسرة للفرس، والخلفاء للمسلمين[٣] ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ يوم القيامة ﴿مَوْلًى﴾ قريب وناصر ﴿كَالْمُهْلِ﴾ النحاس المذاب ﴿الْأَثِيمِ﴾ الفاجر من أثِمَ الرجل يأثم إذا وقع في الإثم والفجور ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ جرُّوه وسوقوه بعنفٍ وشدَّة ﴿سُندُسٍ﴾ رقيق الديباج ﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾ غليظ الديباج[٤] ﴿عِينٍ﴾ واسعات الأعين جمع عَيْناء ﴿فَارْتَقِبْ﴾ انتظِر.

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٣٩. (ش): هذا التعبير لا يتناسب مع كلام الله عز وجل، وهو خلاف ما يدل عليه من بكائهما حقيقةً، والأصل حَمْلُ كلام الله على الحقيقة، فلهما بكاء حقيقي يناسبهما.

(٢) «الصحاح» للجوهري مادة تبع.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٤٤.

(٤) (ش): الدِّيباج: الحرير.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي والله لقد أنقذنا بني إسرائيل من العذاب الشديد، المفرط في الإذلال والإهانة، وهو قتل أبنائهم واستخدام نسائهم، وإرهاقهم في الأعمال الشاقة ﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي من طغيان فرعون وجبروته إنه كان متكبرًا جبارًا، متجاوزًا الحد في الطغيان والإجرام قال الصاوي: هذه من جملة تعداد النعم على بني إسرائيل، والمقصود من ذلك تسليته ﷺ وتبشيره بأنه سينجيه وقومه المؤمنين من أيدي المشركين، فإنهم لم يبلغوا في التجبر مثل فرعون وقومه[١] ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي اصطفيناهم وشرفناهم على علمٍ منا باستحقاقهم لذلك الشرف على جميع الناس في زمانهم قال قتادة: على أهل زمانهم، لا على أمة محمد لقوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ أي وآتيناهم من الحجج والبراهين وخوارق العادات ما فيه اختبار وامتحان ظاهرٌ جَلِيٌّ لمن تدبَّر وتَبَصَّر قال الرازي: والآياتُ مثل فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنِّ والسلوى وغيرها من الآيات الباهرة، التي ما أظهر الله مثلها على أحدٍ سواهم[٢] ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي إن كفار قريش ليقولون: لن نموت إلا موتةً واحدةً وهي موتتنا الأولى في الدنيا، وفي قوله تعالى ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تحقيرٌ لهم وازدراءٌ بهم قال المفسرون: لمَّا كان الحديث في أول السورة عن كفار مكة، وجاءت قصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة والكفر، رجع إلى الحديث عن كفار قريش، والغرضُ من قولهم ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ إنكار البعث كأنهم قالوا: إذا متنا فلا بعث ولا حياة ولا نشور، ثم صرحوا بذلك بقولهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي وما نحن بمبعوثين ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ خطابٌ للرسول ﷺ والمؤمنين على وجه التعجيز، أي: أحْيُوا لنا آباءنا ليُخبرونا بصدقكم إن كنتم صادقين في أن هناك حياةً بعد هذه الحياة قال الإمام الفخر: إن الكفار احتجوا على نَفْي الحشر والنشر بأن قالوا: إن كان البعث والنشور ممكنًا معقولًا فعَجِّلُوا لنا إحياء مَن مات من آبائنا ليصير ذلك دليلًا عندنا على صِدْق دعواكم في البعث يوم القيامة[٣] وقال القرطبي: قال هذا أبو جهل، قال: يا محمد، إن كنتَ صادقًا في قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا أحدهما: قُصَيّ بن كلاب فإنه كان رجلًا صادقًا، لنسأله عما يكون بعد الموت[٤] ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ استفهام إنكار مع التهديد، أي: أهؤلاء المشركون أقوى وأشدُّ أم أهل سبأ ملوك اليمن؟ الذين كانوا أكثر أموالًا، وأعظم نعيمًا من كفار مكة؟ ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أي والذين

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤٨/ ٦٠.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ٢٤٨.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٢٤٩.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٤٤.

سبقوهم من الأمم العاتية أهلكناهم، وخربنا بلادهم، وفرقناهم شذر مذر[١] قال أبو السعود: والمراد بهم عاد وثمود وأضرابهم من كل جبار عنيد، أُولِي بأسٍ شديد، فأولئك كانوا أقوى من هؤلاء، وقد أهلكهم الله مع ما كانوا عليه من غاية القوة والشدة، فإِهلاك هؤلاء أَوْلَى[٢] ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ تعليل للإِهلاك أي أهلكناهم ودمرناهم بسبب إِجرامهم، وفيه وعيد وتهديد لقريش أن يفعل الله بهم ما فعل بقوم تُبَّع والمكذبين.

ثم نبه تعالى إلى دلائل البعث وهو خلق العالم بالحقِّ فقال ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أي ما خلقنا هذا الكون وما فيه من المخلوقات البديعة لعبًا وعبثًا ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات إلا بالعدل والحقِّ المبين، لنجازي المحسن بإِحسانه والمسيء بإِساءته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ذلك فينكرون البعث والجزاء قال المفسرون: إن الله تعالى خلق النوع الإِنساني، وخلق ما ينتظم به أسباب معاشهم، من السقف المرفوع، والمهاد المفروش، وما بينهما من عجائب المصنوعات، وبدائع المخلوقات، ثم كلَّفهم بالإِيمان والطاعة، فآمن البعض وكفر البعض، فلا بدَّ إذًا من دار جزاء يثاب فيها المحسن، ويعاقب فيها المسيء، لتجزى كل نفسٍ بما كسبت، ولو لم يحصل البعث والجزاء لكان هذا الخلق لهوًا وعبثًا، وتنزَّه الله عن ذلك، ولهذا قال بعده: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي إن يوم القيامة موعد حساب الخلائق أجمعين، سُمي ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ لأن الله تعالى يفصل فيه بين الخلق كما قال ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣] ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب، لا يدفع قريب عن قريبه، ولا صديقٌ عن صديقه، ولا ينفع أحدٌ أحدًا ولا ينصره ولو كان قريبه كقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣] ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ استثناء متصل أي لا يغني قريبٌ عن قريب إلا المؤمنين فإِنه يُؤذَن لهم في شفاعة بعضهم لبعض[٣] وقيل: منقطع أي لكنْ من رَحِمَهُ اللهُ فإِنه يشفع وينفع قال ابن عباس: يريد المؤمن فإِنه تشفع له الأنبياء والملائكة[٤] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي هو المنتقم من أعدائه، الرحيمُ بأوليائه.. ولما ذكر الأدلة على القيامة، أردفه بوصف ذلك اليوم العصيب، فذَكَر وعيدَ الكفار أولًا ثم وَعْد الأبرار ثانيًا للجمع بين الترهيب والترغيب فقال ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ أي إن هذه الشجرة

---

(١) (ش): شَذَرَ مَذَرَ: تركيبٌ يفيد التفرُّق والتشتُّت، وَلاَ يُقَال ذَلِك فِي الإقبال. تفرَّقوا شَذَرَ مَذَرَ: ذَهَبُوا مَذَاهِب شَتَّى مُخْتَلفين، ذهبوا في كل اتجاه.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٥٥.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٣٩.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٢٥١.

الخبيثة شجرة الزقوم التي تنبتُ في أصل الجحيم، طعامُ كل فاجر، ليس له طعام غيرها قال أبو حيان: الأثيمُ صفة مبالغة وهو الكثير الآثام، وفُسِّر بالمشرك[١] ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ﴾ أي هي في شناعتها وفظاعتها إذا أكلها الإنسان كالنحاس المذاب الذي تناهى حرُّه، فهو يُجرجر في البطن ﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي كغليان الماء الشديد الحرارة قال القرطبي: وشجرة الزقوم هي الشجرة التي خلقها الله في جهنم، وسمَّاها الشجرة الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها فأكلوا منها، فغلبت في بطونهم كما يغلي الماء الحار، وشبَّه تعالى ما يصير منها إلى بطونهم بالمُهل وهو النحاس المذاب، والمرادُ بالأثيم الفاجر ذو الإثم وهو أبو جهل، وذلك أنه كان يقول: يعدنا محمد أن في جهنم الزقوم، وإنما هو الثَّريد بالزبد والتمر[٢]، ثم يأتي بالزبد والتمر ويقول لأصحابه: تزقموا، سخريةً واستهزاءً بكلام الله، قال تعالى ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي يُقال للزبانية: خذوا هذا الفاجر اللئيم فسُوقُوه وجُرُّوه من تَلابِيبه[٣] بعنف وشدة إلى وسط الجحيم ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي ثم صبوا فوق رأس هذا الفاجر عذاب ذلك الحميم الذي تناهى حرُّه ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ أي يقال له على سبيل الاستهزاء والإهانة: ذقْ هذا العذاب فإنك أنت المعزَّز المكرَّم قال عكرمة: التقى النبي ﷺ بأبي جهل فقال النبي ﷺ: «إنَّ الله أمرني أن أقول لك ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤]» فقال: بأي شيءٍ تهددني! واللهِ ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئًا، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه، فقتله الله يوم بدر وأذلَّه ونزلت هذه الآية[٤] ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ أي إنَّ هذا العذاب هو ما كنتم تشُكُّون به في الدنيا، فذوقوه اليوم ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥] والجمعُ في الآية باعتبار المعنى لأن المراد جنس الأثيم.. ولما ذكر تعالى أحوال أهل النار أتبعه بذكر أحوال أهل الجنة فقال ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أي الذين اتقوا اللهَ في الدنيا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، هم اليوم في موضع إقامة يأمنون فيه من الآفات والمنغصات والمكاره، وهو الجنة ولهذا قال بعده ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي في حدائق وبساتين ناضرة، وعيونٍ جارية ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ أي يلبسون ثياب الحرير، الرقيق منه وهو السندس، والسميك منه وهو الإستبرق ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي متقابلين في المجالس ليستأنس بعضهم ببعض ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي كذلك أكرمناهم بأنواع الإكرام، وزوَّجناهم أيضًا بالحور الحسان في الجنان قال البيضاوي: أي قَرَنَّاهم بالحور

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٩.

(٢) «تفسير القرطبي١٦/ ١٤٩.

(٣) (ش): تَلْبيب: طَوْقُ الثَّوب والجمع تلابيبُ. أخذ بتلابيبه: أمسكه مِن أعلى ثوبه.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٥١. (ش): ضعيف، أخرجه الطبري في «تفسيره»، والواحدي في «أسباب النزول».

العين، والحوراءُ: البيضـاء، والعيناءُ عظيمة العينين[١]، وإنما وصف تعالى نعيمهم بذلك لأن الجنات والأنهار من أقوى أسباب نزهة الخاطر، وانفراجه عن الغم، ثم ذكر الحور الحِسـان لأن بها اكتمال سعادة الإنسـان كمـا قيل: «ثلاثةٌ تنفـي عن القلب الحزن: المـاء، والخضرةُ، والوجهُ الحسن» ثم زاد في بيان النعيم فقال ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ أي يطلبون مـن الخدم إحضار جميع أنواع الفواكه في الجنة، لأجل أنهم آمنون من التُّخَم والأمراض، فلا تعـب في الجنة ولا وَصَب[٢] ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ اسـتثناء منقطع أي لا يذوقـون في الجنـة الموت لكنهم قد ذاقوا الموتة الأولى في الدنيا فلم يعد ثَمَّةَ موت، بل خلـود أبد الآبدين ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي خلَّصهم ونجَّاهم من عذاب جهنم الشـديد الأليـم ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي فعل ذلك بهم تفضلًا منـه تعالى عليهم ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي ذلك الذي أُعطُوه من النعيم، هو الفوز العظيم الذي لا فوز وراءه ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي فإنمـا سَـهَّلْنا القرآن بلغتكم وهي لسـان العرب لعلهـم يتعظون وينزجرون ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ أي فانتظر يا محمد ما يحل بهم، إنهم منتظرون هلاكك، وسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر في الدنيا والآخرة، وفيه وعد للرسول ﷺ ووعيد للمشركين.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – صيغة المبالغة ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾.

٢ – الطبـاق ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الدخان: ٨] وكذلك ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾.

٣ – تحريك الهمة للإيمان والتبصر ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الدخان: ٧].

٤ – الإيجاز بحذف بعض الكلام ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ أي وقلنا له بأن أسر.

٥ – الاسـتعارة اللطيفة ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩] أي لم يتغير بهلاكهم شيء ولم تحزن عليهم السماء والأرض بعد انقطاع آثارهم، والعرب يقولون في التعظيم: بكت عليه السماء والأرض، وأظلمت له الدنيا ويقولون في التحقير: مات فلان فلم تخشع له الجبال.

٦ – أسلوب التعجيز ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

٧ – أسلوب التهكم والسخرية ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾.

٨ – التفجع وإظهار الأسـى والحسـرة ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٦]؟

---

(١) «تفسير البيضاوي» ٢/ ١٨٢.

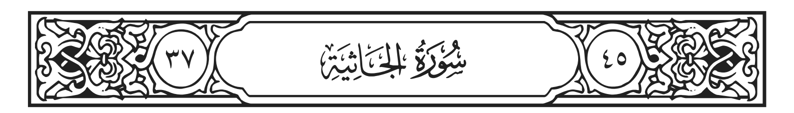
(٢) (ش): تُخْمَة: داءٌ يصيب الإنسان من أكل الطعام الثقيل أو من كثرة الأكل أو من عُسر الهضم. والجمع تُخُمَات وتُخْمات وتُخَم. وَصَب: تعب وفتور في البدن.

٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴾.

١٠ - السجع الرصين غير المتكلف الذي يزيد في رونق الكلام وجماله اقرأ مثلًا قوله تعالى ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الدخان»





مكية إلا آية ١٤ فمدنية وآياتها ٣٧ بعد الدخان

بين يدي السورة

* سورة الجاثية مكية، وقد تناولت العقيدة الإسلامية في إطارها الواسع «الإيمان بالله تعالى ووحدانيته، الإيمان بالقرآن ونبوة محمد عليه السلام، الإيمان بالآخرة، والبعث والجزاء» ويكاد يكون المحور الذي تدور حوله السورة الكريمة هو إقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين.

* تبتدئ السورة الكريمة بالحديث عن القرآن ومصدره، وهو الله العزيز في ملكه، الحكيم في خلقه، الذي أنزل كتابه المجيد رحمة بعباده، ليكون نبراسًا مضيئًا ينير للبشرية طريق السعادة والخير.

* ثم ذكرت الآيات الكونية المنبثة في هذا العالم الفسيح، ففي السماوات البديعة آيات، وفي الأرض الفسيحة آيات، وفي خلق البشر وسائر الأنعام والمخلوقات آيات، وفي تعاقب الليل والنهار، وتسخير الرياح والأمطار آيات، وكلها شواهد ناطقة بعظمة الله وجلاله، وقدرته ووحدانيته، ثم تحدثت عن المجرمين المكذبين بالقرآن الذين يسمعون آياته المنيرة، فلا يزدادون إلا استكبارًا وطغيانًا، وأنذرتهم بالعذاب الأليم في دركات الجحيم.

* وتحدثت السورة عن نعم الله الجليلة على عباده ليشكروه، ويتفكروا في آلائه التي أسبغها عليهم، ويعلموا أن الله وحده هو مصدر هذه النعم، الظاهرة والباطنة، وأنه لا خالق ولا رازق إلا الله[1].

* وتحدثت عن إكرام الله لبني إسرائيل بأنواع التكريم، ومقابلتهم ذلك الفضل والإحسان بالجحود والعصيان، وذكرت موقف الطغاة المجرمين من دعوة الرسل الكرام، وبينت أنه لا يتساوى في عدل الله وحكمته أن يجعل المجرمين كالمحسنين، ولا أن يجعل الأشرار

---

(١) (ش): المقصود من ذكر النعم الاستدلال بها على وجوب إفراد الله بالعبادة. ليس الإيمان مجرد الاعتراف بأن الله هو الخالق والرازق، فالإيمان هو: « الاعتراف المستلزم للقبول والإذعان » أما مجرد أن يؤمن الإنسان بالشيء بدون أن يكون لديه قبول وإذعان، فهذا ليس بإيمان، بدليل أن المشركين مؤمنون بوجود الله ومؤمنون بأن الله هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، المدبر للأمور، وكذلك أيضًا فإن الواحد منهم قد يقر برسالة النبي، ﷺ، ولا يكون مؤمنًا، فهذا أبو طالب عم النبي، ﷺ، كان يقرُّ بأن النبي، ﷺ، صادق وأن دينه حق، لكن لم ينفعه ذلك؛ لأنه لم يقْبله ولم يُذعِن له فكان - والعياذ بالله - بعد شفاعة النبي، ﷺ، فِي النَّارِ مُنْتَعِلًا بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ. (رواه مسلم).

كالأبرار، ثم بينت سبب ضلال المشركين، وهو إجرامهم واتخاذهم الهوى إلهًا ومعبودًا حتى طمست بصيرتهم فلم يهتدوا إلى الحق أبدًا.

* وختمت السورة بذكر الجزاء العادل يوم الدين، حيث تنقسم الإنسانية إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

التسمية: سميت «سورة الجاثية» للأهوال التي يلقاها الناس يوم الحساب، حيث تجثو الخلائق من الفزع على الركب في انتظار الحساب، ويغشى الناس من الأهوال ما لا يخطر على البال ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وحقًا إنه ليوم رهيب يشيب له الولدان!!

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ

اللغَة: ﴿يَبُثُّ﴾ ينشر ويفرِّق ﴿وَتَصْرِيفِ﴾ تقليب، صرَّف الله الريح قلَّبها من جهة إلى جهة ﴿وَيْلٌ﴾ كلمة تستعمل في العذاب والدمار ﴿أَفَّاكٍ﴾ كذَّاب، والإفك: الكذب ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم والإجرام ﴿رِّجْزٍ﴾ أشد العذاب ﴿يُصِرُّ﴾ أصرَّ على الشي: عزم على البقاء عليه بقوة وشدة ﴿يُغْنِي﴾ ينفع أو يدفع ومنه ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨] ﴿بَصَائِرُ﴾ دلائل ومعالم.

التفسير: ﴿حمٓ﴾ الحروف المقطَّعة للتنبيه على إعجاز القرآن[١] ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ أي هذا القرآن تنزيلٌ من الله، العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، الذي لا يصدر عنه إلا كل ما فيه حكمةٌ ومصلحة للعباد، ثم أخبر تعالى عن دلائل الوحدانية والقدرة فقال ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي إنَّ في خلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات العجيبة، والأحوال الغريبة، والأمور البديعة، لَعلاماتٍ باهرة على كمال قدرة الله وحكمته، لقوم يُصدِّقون بوجود الله ووحدانيته[٢] ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ أي وفي خلقكم أيها الناسُ من نطفةٍ ثم من علقة متقلبة في أطوارٍ مختلفة إلى تمام الخلق، وفيما ينشره تعالى ويُفرِّقه من أنواع المخلوقات التي تدبّ على وجه الأرض، آياتٌ باهرةٌ أيضًا لقومٍ يصدّقون عن إذعانٍ ويقين بقدرة ربِّ العالمين ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي وفي تعاقب الليل والنهار، دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وذاك بضيائه، بنظام محكم دقيق ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ﴾ أي وفيما أنزله الله تبارك وتعالى من السحاب، من المطر الذي به حياة البشر في معاشهم وأرزاقهم قال ابن كثير: وسمَّى تعالى المطر رزقًا لأنه به يحصل الرزق[٣] ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ أي فأحيا بالمطر الأرض بعدما كانت هامدةً يابسة لا نبات فيها ولا زرع، فأخرج فيها من أنواع الزروع والثمرات والنبات ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي وفي تقليب الرياح جنوبًا وشمالًا، باردة وحارة ﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ أي علامات ساطعة واضحة على وجود الله ووحدانيته، لقوم لهم عقول نيّرة وبصائر مشرقة قال الصاوي: ذكر الله سبحانه وتعالى من الدلائل ستةً في ثلاث آيات، ختم الأولى بـ ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، والثانية بـ ﴿يُوقِنُونَ﴾ والثالثة بـ ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ ووجه التغاير بينها في التعبير أن الإنسان إذا تأمل في السمواتِ والأرض، وأنه لا بدَّ لهما من صانع آمن، وإذا نظر في خلق نفسه ونحوها ازداد إيمانًا فأيقن، وإذا نظر في سائر الحوادث كمل عقله واستحكم علمه[٤] ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي هذه آيات الله وحججه وبراهينه، الدالة على وحدانيته وقدرته، نقُصُّها عليك يا محمد بالحق المبين الذي لا غموض فيه ولا التباس ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾؟ أي وإذا لم يصدِّق كفار مكة بكلام الله، ولم يؤمنوا بحججه وبراهينه، فبأي كلام يؤمنون ويصدِّقون؟ والغرضُ استعظام تكذيبهم للقرآن بعد وضوح بيانه وإعجازه ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ أي هلاك ودمارٌ لكل كذَّاب مبالغٍ في اقتراف

---

(١) انظر تفصيل البحث في الحروف المقطعة في أول سورة البقرة من هذا التفسير.

(٢) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح. وليس المقصود من الآيات الاستدلال على وجود الله؛ لأن معظم الناس لا ينكرون هذا خصوصًا المخاطَبين بالقرآن.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٠٨.

(٤) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٦٣.

الآثـام قال الرازي: وهذا وعيدٌ عظيـم، والأَفاك الكذَّاب، والأثيمُ المبالـغ في اقتراف الآثام[١] ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي يسـمع آيـات القرآن تُقـرأ عليه، وهي في غايـة الوضوح والبيان ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي ثـم يـدوم على حاله مـن الكفر، ويتمـادى في غيّه وضلاله، مسـتكبراً عن الإِيمان بالآيات كأنه لم يسـمعها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي فبشّره يا محمد بعذاب شـديد مؤلم، وسـمَّاه «بشارة» تهكمًا بهم، لأن البشـارة هي الخبر السارُّ قال في التسهيل: وإِنما عطفه ب «ثم» لاسـتعظام الإِصرار على الكفر بعد سـماعه آيات الله، واستبعاد ذلك في العقل والطبع[٢] قال المفسرون: نزلت في «النضر بن الحارث» كان يشتري أحاديث الأعاجم ويشغل بهـا الناس عن اسـتماع القرآن، والآيـةُ عامةٌ في كل من كان موصوفًـا بالصفة المذكورة ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أي إِذا بلغه شـيء من الآيات التي أنزلها الله على محمد، سـخر واسـتهزأ بهـا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي أولئك الأفاكون المسـتهزئون بالقـرآن لهم عذاب شديد مع الذل والإِهانة ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي أمامهم جهنم تنتظرهم لِما كانوا فيه من التعزُّز في الدنيـا والتكبر عن الحق ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾ أي لا ينفعهم ما ملكوه في الدنيا من المال والولد ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي ولا تنفعهم الأصنام التي عبدوها من دون الله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم عذاب دائم مؤلم قال أبو السعود: وتوسيط النفي ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟﴾ مـع أن عدم إِغناء الأصنـام أظهر وأجلى من عدم إِغناء الأمـوال والأولاد، مبنيٌ على زعمهم الفاسد حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم، وفيه تهكم بهم[٣] ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ أي هذا القرآن كامل في الهدايـة لمن آمن به واتَّبعه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي جحدوا بالقرآن مع سـطوعه، وفيه زيادة تشـنيع على كفرهم به، وتفظيع حالهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي لهم عذاب من أشدِّ أنواع العذاب مؤلمٌ موجعٌ قال الزمخشـري: والرجزُ أشـدُّ العذاب، والمراد بـ ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ القرآن[٤]. ثم لمَّا توعَّدهم بأنواع العذاب ذكَّرهم تعالى بنعمه الجليلة ليشكروه ويوحّدوه فقال ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ أي الله تعالى بقدرته وحكمته هو الذي ذلَّل لكم البحر على ضخامته وعظمه ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي لتسير السفنُ على سطحه بمشيئته وإِرادته، دون أن تغوص في أعماقه قال الإِمام الفخر: خلَق وجه الماء على الملاسـة التي تجري عليها السـفن، وخلق الخشـبة علـى وجه تبقى طافيةً علـى وجه الماء دون أن تغوص فيه، وذلـك لا يقدر عليه أحد إلا الله[٥] ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي ولتطلبـوا من فضل الله بسـبب التجارة، والغوص على اللؤلؤ

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٢٦١.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٣٨.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٥٨.

(٤) «الكشاف» ٤/ ٢٢٧.

(٥) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٢٦٢.

والمرجان، وصيد الأسماك وغيرها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولأجل أن تشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم وتفضَّل قال القرطبي: ذكر تعالى كمال قدرته، وتمام نعمته على عباده، وبيَّن أنه خلقَ ما خلق لمنافعهم، وكلٌّ ذلك من فعله وخلقه، وإحسانٌ منه وإنعام[١] ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي وخلق لكم كل ما في هذا الكون، من كواكب، وجبال، وبحار، وأنهار، ونباتٍ، وأشجار، الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه، من عنده وحده جلَّ وعلا ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إنَّ فيما ذُكر لعبرًا وعظاتٍ لقوم يتأملون في بدائع صنع الله فيستدلون على قدرته ووحدانيته ويؤمنون، ثم لما بيَّن تعالى دلائل التوحيد والقدرة والحكمة، أردفه بتعليم فضائل الأخلاق، ومحاسن الأفعال فقال ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أي قل يا محمد للمؤمنين يصفحوا عن الكفار، ويتجاوزوا عمَّا يصدر عنهم من الأذى والأفعال الموحشة. قال مقاتل: شتم رجلٌ من الكفار عمر بمكة فهمَّ أن يبطش به، فأمر الله بالعفو والتجاوز وأنزل هذه الآية[٢]، والمرادُ من قوله ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يخافون من بأسِ الله وعقابه لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ولا بلقاء الله قال ابن كثير: أُمر المسلمون أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك تأليفًا لهم، ثم لما أصرُّوا على العناد، شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد[٣] ﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ وعيدٌ وتهديد أي ليجازي الكفرة المجرمين بما اقترفوه من الإثم والإجرام، والتنكيرُ للتحقير ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي من فعلَ خيرًا في الدنيا فنفعُه لنفسه، ومن ارتكب سوءًا وشرًّا فضرره عائد عليها، ولا يكاد يسري عملٌ إلى غير عامله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي ثم مرجعكم يوم القيامة إلى الله وحده، فيجازي كُلًّا بعمله، المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته.

ولما ذكَّر بالنعم العامة أردفه بذكر النعم الخاصة على بني إسرائيل فقال ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي والله لقد أعطينا بني إسرائيل التوراة، وفصل الحكومات

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٦٠.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٢٧/ ٢٦٣. (ش): ذكره الرازي بدون إسناد. وهو ضعيف لانقطاعه، إن كان مسندًا، فكيف وقد ذكره الرازي بدون إسناد. وأيضًا مقاتل متهم بالكذب. وروى الواحدي في «أسباب النزول» بإسناد ضعيف عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قَالَ يَهُودِيٌّ بِالْمَدِينَةِ يُقَالُ لَهُ: فِنْحَاصُ-: «احْتَاجَ رَبُّ مُحَمَّدٍ». فَلَمَّا سَمِعَ عُمَرُ بِذَلِكَ اشْتَمَلَ عَلَى سَيْفِهِ وَخَرَجَ فِي طَلَبِهِ، فَجَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السلام إلى رسول الله ﷺ فَقَالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقُولُ لَكَ: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾، وَاعْلَمْ أَنَّ عُمَرَ قَدِ اشْتَمَلَ عَلَى سَيْفِهِ وَخَرَجَ فِي طَلَبِ الْيَهُودِيِّ. فَبَعَثَ رسول الله ﷺ فِي طَلَبِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: يَا عُمَرُ ضَعْ سَيْفَكَ، قَالَ: صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللهِ أَشْهَدُ أَنَّكَ أُرْسِلْتَ بِالْحَقِّ، قَالَ: فإن ربك عز وجل يَقُولُ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾ قَالَ: لَا جَرَمَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا يُرَى الْغَضَبُ فِي وَجْهِي.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٠٩ (ش): جالَدَ، مُجالدةً وجِلادًا، فهو مُجالِد. جالده بالسَّيف: ضارَبه به.

بين الناس، وجعلنا فيهم الأنبياء والمرسلين ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي ورزقناهم من أنواع النعم الكثيرة من المآكل والمشارب، والأقوات والثمار ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وفضلناهم على سائر الأمم في زمانهم قال الصاوي: والمقصود من ذلك تسليته ﷺ كأنه قال: لا تحزن يا محمد على كفر قومك، فإننا آتينا بني إسرائيل الكتاب والنعم العظيمة، فلم يشكروا بل أصرُّوا على الكفر، فكذلك قومك[١] ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي وبيَّنَّا لهم في التوراة أمر الشريعة وأمر محمد ﷺ على أكمل وجه قال ابن عباس: يعني أمر النبي ﷺ وشواهد نبوته بأنه يُهاجر من تهامة إلى يثرب وينصره أهلها[٢] ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي فما اختلفوا في ذلك الأمر، إلا من بعد ما جاءتهم الحجج والبراهين والأدلة القاطعة على صدقه ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي حسدًا وعنادًا وطلبًا للرياسة قال الإمام الفخر: والمقصودُ من الآية التعجبُ من هذه الحالة، لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف، وههنا صار العلم سببًا لحصول الاختلاف، لأنه لم يكن مقصودهم نفس العلم، وإنما المقصود منه طلب الرياسة والتقدم، فلذلك علموا وعاندوا[٣] ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي هو جل وعلا الذي يفصل بين العباد يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، وفي الآية زجرٌ للمشركين أن يسلكوا مسلك مَن سبقهم من الأمم العاتية الطاغية ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ أي ثم جعلناك يا محمد على طريقة واضحة، ومنهاج سديد رشيد من أمر الدين، فاتبع ما أوحى إليك ربُّك من الدين القيّم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي تتَّبع ضلالال المشركين قال البيضاوي: لا تتبع آراء الجهال التابعة للشهوات، وهم رؤساء قريش حيث قالوا: ارجع إلى دين آبائك[٤] ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي لن يدفعوا عنك شيئًا من العذاب إن سايَرْتَهم على ضلالهم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي وإن الظالمين يتولى بعضهم بعضًا في الدنيا ولا وَلِيَّ لهم في الآخرة ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي وهو تعالى ناصر ومعين المؤمنين المتقين في الدنيا والآخرة ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي هذا القرآن نور وضياء للناس بمنزلة البصائر في القلوب، وهو رحمة لمن آمن به وأيقن.

قال الله تعالى:

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٦٥.

(٢) «حاشية الجمل» ٤/ ١١٦.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٢٦٥.

(٤) «البيضاوي على زاده» ٣/ ٣٢٣.

كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ

المناسَبَة: لما حكى تعالى ضلالات بني إسرائيل، وبيَّن أن القرآن نور وهداية لمن تمسَّك به، أعقبه ببيان أنه لا يتساوى المؤمن مع الكافر، ولا البر مع الفاجر، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ثم ذكر الأدلة على البعث والنشور.

اللغَة: ﴿ٱجْتَرَحُوا۟﴾ اكتسبوا والاجتراحُ الاكتساب ومنه الجوارح ﴿غِشَٰوَةً﴾ غطاء وغشَّى الشيءَ غطَّاه ﴿جَاثِيَةً﴾ باركةً على الركب لشدة الهول جثا يجثو إذا قعد على ركبتيه ﴿نَسْتَنسِخُ﴾ استنسخ الشيء أمر بكتابته وتدوينه ﴿وَحَاقَ﴾ نزل وأحاط ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يُطلب منهم إرضاء ربهم يقال: استعتبتهُ فأعتبني أي استرضيتُه فقبل مني عذري ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ العظمة والمُلك والجلال.

سَبَبُ النّزول: رُوِيَ أن أبا جهل طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة، فتحدثا في شأن النبي ﷺ فقال أبو جهل: واللهِ إني لَأعلم إنه لصادق، فقال له: مهْ، وما دلَّك على ذلك؟ فقال يا أبا عبد شمس: كنا نسميه في صباه الصادق الأمين، فلما تمَّ عقلهُ وكمُل رشده نسميه الكذاب الخائن! والله إني لأعلم إنه لصادق، قال: فما يمنعك أن تصدِّقه وتُؤمن به؟ قال: تتحدث عني بنات قريش أني اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كِسْرة؛ واللاتِ والعُزَّى لا أتَّبعه أبدًا فنزلت ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ..﴾ الآية[1].

---

(١) رواه مقاتل كذا في «القرطبي» ١٦/ ١٧٠. (ش): هو ضعيف لانقطاعه، إن كان مسندًا، فكيف وقد ذكره القرطبي بدون إسناد. وأيضًا مقاتل متهم بالكذب.

التفسِير: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الاستفهام للإِنكار، والمعنى: هل يظنُّ الكفار الفجار الذين اكتسبوا المعاصي والآثام ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي نجعلهم كالمؤمنين الأبرار ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أي نساوي بينهم في المحيا والممات؟ لا يمكن أن نساوي بين المؤمنين والكفار، لا في الدنيا ولا في الآخرة، فإِن المؤمنين عاشوا على التقوى والطاعة، والكفار عاشوا على الكفر والمعصية، وشتان بين الفريقين كقوله ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨]؟ قال مجاهد: المؤمنُ يموت مؤمنًا ويُبعث مؤمنًا، والكافر يموت كافرًا[١] ويُبعث كافرًا ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي ساء حكمهم في تسويتهم بين أنفسهم وبين المؤمنين قال ابن كثير: ساء ما ظَنّوا بنا وبعَدْلِنا أن نساوي بين الأَبرار والفجار، فكما لا يُجتنى من الشوك العنبُ، كذلك لا ينال الفُجَّار منازل الأبرار[٢] ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي وخلق الله السموات والأرض بالعدل والأمر الحقِّ ليدل بهما على قدرته ووحدانيته ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي ولكي يُجزى كل إِنسان بعمله، وبما اكتسب من خير أو شر، دون أن يُنقص في ثوب المؤمن أو يُزاد في عذاب الكافر قال شيخ زاده: لمّا خلق تعالى السموات والأرض لأَجل إِظهار الحق، وكان خلقهما من جملة حكمته وعدله، لزم من ذلك أن ينتقم من الظالم لأجل المظلوم، فثبت بذلك حشر الخلائق للحساب[٣] ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي أخبرني يا محمد عن حال من ترك عبادة الله وعبد هواه ! قال في البحر: أي هو مِطْواعٌ لهوى نفسه[٤] يتبع ما تدعوه إليه، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إِلَهه[٥] قال ابن عباس: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئًا إلاّ ركبه ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي وأضلَّ الله ذلك الشقي في حال كونه عالمًا بالحق غير جاهل به، فهو أشدُّ قبحًا وشناعةً ممن يضل عن جهل، لأنه يُعرض عن الحقِّ والهُدى عنادًا كقوله تعالى ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ أي وطبع على سمعه وقلبه بحيث لا يتأثر بالمواعظ، ولا يتفكر في الآيات والنُّذر ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ أي وجعل على بصره غطاء حتى لا يبصر الرشد، ولا يرى حجة يستضيء بها ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾؟ أي فمن الذي يستطيع أن يهديه بعد أن أضله الله؟ لا أحد يقدر على ذلك ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تعتبرون أيها الناس وتتعظون؟ قال الصاوي: وصف تعالى الكفار بأربعة أوصاف: الأول: عبادة الهوى، والثاني: ضلالهم على علم الثالث: الطبع على

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٦٦.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٢/ ٣١١.

(٣) «حاشية زاده على البيضاوي» ٣/ ٣٢٥.

(٤) (ش): مِطْوَاع: صيغة مبالغة من طاعَ: مسرعٌ إلى الطّاعةِ، مكثِرٌ منها.

(٥) «البحر المحيط» ٨/ ٤٨.

أسماعهم وقلوبهم، الرابع: جعل الغشاوة على أبصارهم، وكل وصفٍ منها مقتضٍ للضلالة، فلا يمكن إيصال الهدى إليهم بوجهٍ من الوجوه[١].. ثم حكى تعالى عن المشركين شبهتهم في إنكار القيامة، وفي إنكار الإله القادر العليم فقال ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي وقال المشركون: لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا، يموت بعضنا ويحيا بعضنا، ولا آخرة، ولا بعث، ولا نشور قال ابن كثير: هذا قول الدهرية من الكفار ومَن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد، ومرادهم ما ثَمَّ إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وليس هناك مَعَادٌ ولا قيامة، وهذا قول الفلاسفة الدهريين، المنكرين للصانع، المعتقدين أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه[٢] ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ أي وما يهلكنا إلا مرورُ الزمان، وتعاقبُ الأيام قال الرازي: يريدون أن الموجب للحياة والموت تأثيراتُ الطبائع وحركاتُ الأفلاك، ولا حاجة إلى إثبات الخالق المختار، فهذه الطائفة جمعوا بين إنكار الإله وبين إنكار البعث والقيامة[٣]، قال تعالى ردًّا عليهم ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي وليس لهم مستندٌ من عقل أو نقل، ولذلك أنكروا وجود الله من غير حجةٍ ولا بَيِّنة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ما هم إلا قوم يتوهمون ويتخيلون، يتكلمون بالظن من غير يقين ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي وإذا قرئت آياتُ القرآن على المشركين، واضحات الدلالة على البعث والنشور ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي ما كان متمسكهم في دفع الحق الصريح إلا أن يقولوا: أحيْوا لنا آباءنا الأولين، إن كان ما تقولونه حقًّا، سُمِّيَ قولهم الباطل حجةً على سبيل التهكم ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: اللهُ الذي خلقكم ابتداءً حين كنتم نُطَفًا هو الذي يميتكم عند انقضاء آجالكم، لا كما زعمتم أنكم تحيون وتموتون بحكم الدهر ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي ثم بعد الموت يبعثكم للحساب والجزاء كما أحياكم في الدنيا، فإنَّ من قدر على البدء قدر على الإعادة، والحكمةُ اقتضت الجمع للجزاء في يوم القيامة، الذي لا شك فيه ولا ارتياب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ أكثر الناس لجهلهم وقصورهم في النظر والتفكر، لا يعلمون قدرة الله فينكرون البعث والجزاء. ثم بيَّن إمكان الحشر والنشر وذكر تفاصيل أحوال يوم القيامة فقال ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هو جل وعلا المالك لجميع الكائنات العلوية والسفلية ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي ويوم القيامة يخسر الكافرون الجاحدون بآيات الله ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي وترى أيها المخاطب كل أمةٍ من الأمم جالسةً على الركب من شدة الهول والفزع، كما يجثو الخصوم بين يدي الحاكم بهيئة الخائف

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٦٧.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣١١.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٧/ ٢٧٥.

الذليل قال ابن كثير: وهذا إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرةً لا يبقى أحدٌ إلا جثا على رُكبتيه[١] ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي كلُّ أمةٍ من تلك الأمم تُدعى إلى صحائف أعمالها ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم: في هذا اليوم الرهيب تنالون جزاء أعمالكم من خيرٍ أو شر ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي هذا كتابُ أعمالكم يشهد عليكم بالحق من غير زيادةٍ ولا نقصان قال في التسهيل: فإن قيل: كيف أضاف الكتاب تارةً إليهم وتارةً إلى الله تعالى؟ فالجواب أنه أضافه إليهم لأن أعمالهم ثابتةٌ فيه، وأضافه إلى الله تعالى لأنه مالكه وأنه هو الذي أمر الملائكة أن يكتبوه[٢] ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي كنَّا نأمر الملائكة بكتابة أعمالكم، وإثباتها عليكم قال المفسرون: تنسخ هنا بمعنى تكتب، وحقيقة النسخ هو النقل من أصل آخر، وقال ابن عباس: تكتب الملائكة أعمال العباد ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابل الملائكةُ الموكلون بديوان الأعمال ما كتبه الحفظة، مما قد أُبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلةِ قَدْر، ما كتبه الله في القِدم على العباد قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفًا ولا ينقص حرفًا، فذلك هو الاستنساخ، وكان ابن عباس يقول: ألستم عربًا، هل يكون الاستنساخ إلا من أصل[٣]؟ ثم بيَّن تعالى أحوال كل من المطيعين والعاصين فقال ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أيْ فأما المؤمنون الصالحون المتقون لله في الحياة الدنيا، فيدخلهم الله في الجنة، سُميت الجنة رحمةً لأنها مكان تنزل رحمةِ الله[٤] ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي ذلك هو الفوز العظيم، البيّن الظاهر الذي لا فوز وراءه ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي وأمَّا الكافرون فيقال لهم توبيخًا وتقريعًا: أفلم تكن الرسل تتلو عليكم آيات الله؟ ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي فتكبَّرْتُم عن الإيمان بها، وأعرضتم عن سماعها، وكنتم قومًا مغرقين في الإجرام ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي وإذا قيل لكم: إن البعث كائن لا محالة ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي والقيامة آتيةٌ لا شك فيها ولا ريب ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أي قلتم لِغاية عُتُوِّكم[٥]، أيُّ شيء هي؟ أحقٌّ أم باطل؟ قال البيضاوي: قالوا هذا استغرابًا واستبعادًا وإنكارًا لها[٦] ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي لا نصدِّق بها ولكن نسمع الناس يقولون: إنَّ هناك آخرة فنتوهم بها توهُّمًا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي ولسنا مصدِّقين بالآخرة يقينًا، وهذا تأكيد منهم لإنكار القيامة ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي وظهر لهم في الآخرة قبائح أعمالهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣١٢.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٤٠.

(٣) انظر «البحر المحيط» ١٨/ ٥١، و«مختصر ابن كثير» ٣/ ٢١٣.

(٤) (ش): الرحمن والرحيم من أسماء الله الحسنى، والجنة أثر من آثار رحمته تعالى.

(٥) (ش): أي بسبب شدة عُتُوِّكم واستكباركم عن قبول الحق.

(٦) «حاشية الجمل على الجلالين» ٤/ ١٢٢.

أي ونـزل وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون بـه في الدنيا ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي ويقـال لهـم: اليـوم نتركُكم في العـذاب ونعاملكم معاملة الناسـي، كما تركتم الطاعـة التـي هي الزاد ليـوم المعاد فلم تعملـوا لآخرتكم[1] ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي ومسـتقركم في نـار جهنـم ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي وليـس لكـم مَـن ينصرُكـم ويخلِّصُكم مـن عذاب الله ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أي إنما جازيناكم هذا الجزاء، بسـبب أنكم سـخرتم من كلام الله واسـتهزأتم بـه ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي خدعَتْكم الدنيا بزخارفهـا وأباطيلها، حتى ظننتم أن لا حياة سـواها، وأنْ لا بعث ولا نشـور ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي فاليوم لا يُخْرجـون مـن النـار، ولا يُطلبُ منهـم أن يُرضوا ربَّهُم بالتوبـة والطاعة لعـدم نَفْعها يومئذٍ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي فلله الحمد خاصة لا يسـتحق الحمد أحدٌ سـواه لأنه الخالق والمالك لجميع المخلوقات والكائنات ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي وله العظمة والجلال، والبقاء والكمال في السـموات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي الغالب الذي لا يُغْلب، الحكيم في صنعه وفعله وتدبيره.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – التأكيـد بـأنَّ والـلام ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ﴾ [الجاثيـة: ٣] لأن المخاطبين منكرون لوحدانية الله.

٢ – صيغة المبالغة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧].

---

(١) (ش): للنسيان معنيان:

أحدهما: الذهول عن شيء معلوم مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وهذا المعنى للنسيان مُنْتَفٍ عن الله عز وجل بالدليلين السمعي، والعقلي. أما السمعي: فقوله تعالى عن موسى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]. وأما العقلي: فإن النسيان نقص، والله تعالى منزه عن النقص، موصوف بالكمال، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠]. وعلى هذا فلا يجوز وصف الله بالنسيان بهذا المعنى على كل حال. والمعنى الثاني للنسيان: الترْك عن علم وعمد، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٤٤]. وهذا المعنى من النسيان ثابت لله تعالى عز وجل قال الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ [السجدة:١٤]. وقال تعالى في المنافقين: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة:٦٧]. وفي صحيح مسلم أن الله ﷻ يَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ له: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ فَيَقُولُ: لاَ. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي. وترْكُه للشيء صفة من صفاته الفعلية الواقعة بمشيئته التابعة لحكمته، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧]. وقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾ [الكهف:٩٩]. وقال: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ [العنكبوت:٣٥]. والنصوص في ثبوت الترك وغيره من أفعاله المتعلقة بمشيئته كثيرة معلومة، وهي دالة على كمال قدرته وسلطانه. وقيام هذه الأفعال به سبحانه لا يماثل قيامها بالمخلوقين، وإن شاركه في أصل المعنى، كما هو معلوم عند أهل السنة. [باختصار من «فتاوى الشيخ ابن عثيمين» (١/ ١٧٢-١٧٤).

٣ - الأسلوب التهكمي ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٨].

٤ - المجاز المرسل ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ [الجاثية: ٥] أي مطر، مجاز مرسل علاقته المسببية لأن الرزق لا ينزل من السماء، ولكن ينزل المطر الذي ينشأ عنه النبات والرزق.

٥ - التشبيه المرسل ﴿يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية: ٨] أي كأنه لم يسمع آيات القرآن.

٦ - المبالغة بذكر المصدر ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ [الجاثية: ١١] كأن القرآن لوضوح حجته عين الهُدى.

٧-الإطناب بتكرار اللفظ ﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ .. وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الجاثية:١٢،١٣] لإظهار الامتنان.

٨ - طباق السلب ﴿فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

٩ - المجاز المرسل ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي في الجنة لأنها مكان تنزل رحمة الله.

١٠ - الطباق بين ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [الجاثية: ١٥] وبين ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ وبين ﴿يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾.

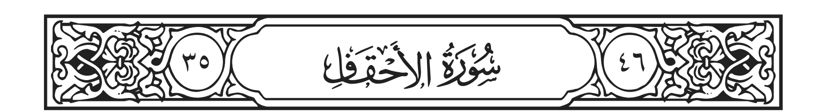
١١ - الاستعارة التصريحية ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي يشهد عليكم، والاستعارة هنا أبلغ من الحقيقة، لأن شهادة الكتاب ببيانه أقوى من شهادة الإنسان بلسانه.

١٢ - الالتفات ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة لإسقاطهم من رتبة الخطاب.

١٣ - الاستعارة التمثيلية ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ مَثَّل تركهم في العذاب بمن حُبس في مكانٍ ثم نسيه السَّجان من الطعام والشراب حتى هلك بطريق الاستعارة التمثيلية، والمراد من الآية نترككم في العذاب ونعاملكم معاملة الناسي، لأن الله تعالى لا ينسى ولا يَعرِض عليه النسيان.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجاثية»





مكية وآياتها خمس وثلاثون

بين يدي السورة

* هـذه السـورة مكية وأهدافها نفـس أهداف السـور المكية، العقيـدة في أصولها الكبرى «الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء» ومحور السورة الكريمة يدور حول «الرسالة والرسول» لإثبات صحة رسالة محمد ﷺ وصدق القرآن.

* تحدثت السورة في البدء عن القرآن العظيم المنزل من عند الله بالحق، ثم تناولت الأوثان التي عبدها المشـركون وزعموا أنها آلهة مع الله تشـفع لهم عنده، فبينت ضلالهم وخطأهم في عبادة ما لا يسـمع ولا ينفع، ثم تحدثت عن شـبهة المشـركين حول القرآن، فردت على ذلك بالحجة الدامغة، والبرهان الناصع.

* ثـم تناولـت نموذجين مـن نماذج البشـرية في هدايتها وضلالها، فذكـرت نموذج الولد الصالح، المسـتقيم في فطرتـه، البار بوالديه، الذي كلما زادت سـنه وتقدم في العمر ازداد تقى وصلاحًا وإحسـانًا لوالديـه.. ونموذج الولد الشـقي، المنحرف عن الفطـرة، العاق لوالديه، الذي يهزأ ويسخر من الإيمان والبعث والنشور ومآل كل منهما[1].

* ثم تحدثت السـورة عن قصة «هود» عليه السـلام مع قومه الطاغيـن «عاد» الذين طغوا في البـلاد واغتروا بمـا كانوا عليه من القوة والجـبروت، وما كان من نتيجتهـم حيث أهلكهم الله بالريـح العقيـم، تحذيـرًا لكفار قريش في طغيانهم واسـتكبارهم على أوامـر الله وتكذيبهم للرسول ﷺ.

* وختمت السـورة الكريمة بقصة النفر من الجن الذين اسـتمعوا إلى القرآن وآمنوا به ثم رجعوا منذرين إلى قومهم يدعونهم إلى الإيمان، تذكيرًا للمعاندين من الإنس بسبق الجن لهم إلى الإسلام.

التسمية: سميت «سورة الأحقاف» لأنها مساكن عاد الذين أهلكهم الله بطغيانهم وجبروتهم، وكانت مساكنهم بالأحقاف من أرض اليمن ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ الآية.

(١) (ش): أي مآل كُلٍّ من الولد الصالح والولد الشقي.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

اللغَة: ﴿شِرْكٌ﴾ شركة ونصيب ﴿أَثَٰرَةٍ﴾ بقية من الشيء ﴿تُفِيضُونَ﴾ الإفاضة في الشيء: الخوضُ فيه والاندفاع يقال: أفاضوا في الحديث اندفعوا فيه، وأفاض الناس من عرفات أي دفعوا منها ﴿بِدْعًا﴾ البدع بالكسر الشيء المبتدع قال الرازي: والبدعُ والبديع من كل شيء المبدع، والبدعة ما اخترع مما لم يكن موجودًا قبله بحكم السُنَّة[1] ﴿إِفْكٌ﴾ كذب ﴿كُرْهًا﴾ بكره

(١) «التفسير الكبير» ٢٨/ ٧. (ش): لا يقبل الله ﷻ من العمل إلا ما كان خالصًا أُريدَ به وجهه، وكان صوابًا موافقًا لمراده الشرعي. والاعتصام بالسُنَّة نجاة والبُعدُ عنها هلاك وضلال، وأهل السنة هم الطائفة الناجية المنصورة. وليس في البدع ما هو حسَنٌ أبدًا، بل كل بدعة في دين الله بالزيادة أو النقصان فهي ضلالة، ولا يُستَثْنَى شيءٌ من =

ومشقة ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ فطامه ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ ألهمني ﴿أُفّٖ﴾ كلمة تضجّر وتبرم ﴿خَلَتِ﴾ مضت.

التفسِـير: ﴿حمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجـاز القرآن وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية[1] ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ أي هذا الكتاب المجيد منزَّل من عند الإله العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي ما خلقنا السـموات والأرض وما بينهما من المخلوقات عبثًا، وإنما خلقناهما خلقًا متلبسًـا بالحكمة، لنـدل على وحدانيتنـا وكمال قدرتنا ﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي وإلى زمـن معيَّن هو زمن فنائهما يوم القيامـة ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾[إبراهيم:٤٨] ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ أي وهـؤلاء الكفار معرضـون عما خُوّفوه من العذاب ومن أهوال الآخرة، لا يتفكرون فيه لا يسـتعدون له.. ثم لما بيَّن وجود الإله العزيز الحكيم ردَّ على عبَدة الأصنـام فقال ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشـركين: أخبروني عـن هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله، وتزعمون أنها آلهة ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾؟ أي أرشـدوني وأخبروني أيَّ شـيءٍ خلقوا من أرجاء الأرض، وممَّا على سـطحها من إنسان أو حيـوان؟ ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؟ أي أمْ لهـم مشـاركة ونصيب مع الله في خلق السـموات؟ ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ﴾ أي هاتـوا كتابًـا مـن الكتب المنزلة من عنـد الله قبل هذا القرآن يأمركـم بعبادة هذه الأصنـام؟ وهو أمر تعجيز لأنهم ليس لهم كتابٌ يدل على الإشـراك بالله، بـل الكتب كلُّها ناطقـة بالتوحيـد ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ أي أو بقية من علم مـن علوم الأولين شـاهدة بذلك ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم أنها شـركاء مع الله قال في البحـر: طلـب منهم أن يأتوا بكتابٍ يشـهد بصحة ما هم عليه من عبـادة غير الله، أو بقيةٍ من علـوم الأولين، والغرضُ توبيخهم؛ لأن كل كتب الله المنزَّلة ناطقة بالتوحيد وإبطال الشـرك، فليـس لهم مستند من نقـل أو عقـل[2].. ثم أخبر تعالى عـن ضلال المشـركين فقال ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؟ أي لا أحـدَ أضـلُّ وأجهـلُ ممن يعبد أصنامًا لا تسـمع دعاء الداعين، ولا تعلم حاجاتِ المحتاجين، ولا تستجيب لمن ناداها أبـدًا لأنها جمادات لا تسـمع ولا تعقـل[3] ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ أي وهم لا يسـمعون ولا

= هذه العموم. والْبِدْعَةُ كما عَرَّفها الإمام الشاطبي في «الاعتصام»: « طَرِيقَة فِي الدِّينِ مُخْتَرَعَة، تُضَاهِي الشَّرْعِيَّةَ يُقْصَدُ بِالسُّلُوكِ عَلَيْهَا الْمُبَالَغَةُ فِي التَّعَبُّدِ للهِ ». تُضَاهِي: تُشَابِه.انظر: «الاعتصام» للإمام الشاطبي، و«حقيقة البدعة وأحكامها» للدكتور سعيد بن ناصر الغامدي. و«تهذيب كتاب الاعتصام» لمحقق هذا الكتاب.

(١) انظر تفصيل الموضوع في أول سورة البقرة.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٥٥.

(٣) (ش): كلمة «مَنْ» مِن صيغ العموم؛ فالآية عامة في كل ما عُبِدَ من دون الله من الأصنام والأنبياء والملائكة والأولياء والصالحين والقبور والأضرحة وغيرهم.

يفهمون دعاء العابدين، وفيه تهكم بها وبعَبَدتها، وإنما ذكر الأصنام بضمير العقلاء، لأنهم لما عبدوها ونزَّلوها منزلة من يضر وينفع، صحَّ أن توصف بعدم الاستجابة وبعدم السمع والنفع، مجاراة لزعم الكفار ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ أي وإذا جمع الناس للحساب يوم القيامة كانت الأصنام أعداءً لعابديها يضرونهم ولا ينفعونهم ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي وتتبرأ الأصنام من الذين عبدوها قال المفسرون: إن الله تعالى يحيي الأصنام يوم القيامة فتتبرأ من عابديها وتقول ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣] وهذه الآية كقوله تعالى ﴿كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢] واللهُ على كل شيء قدير[1] ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي وإذا قرئت عليهم آيات القرآن واضحات ظاهرات أنها من كلام الله ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي قال الكافرون عن القرآن الحق لما جاءهم من عند الله ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي هذا سحرٌ لا شبهة فيه ظاهر كونه سحرًا، وإنما وضع الظاهر ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ موضع الضمير تسجيلًا عليهم بكمال الكفر والضلالة قال في البحر: وفي قوله ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ تنبيه على أنهم لم يتأملوا ما يُتلى عليهم، بل بادروا أول سماعه إلى نسبته إلى السحر عنادًا وظلمًا، ووصفوه بأنه ﴿مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر أنه سحر لا شبهة فيه[2]﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي أيقولون: اختلق محمد هذا القرآن وافتراه من تلقاء نفسه؟ وهو إنكار توبيخي ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي قل إن افتريتُه على سبيل الفرض فالله حسبي في ذلك ،وهو الذي يعاقبني على الافتراء عليه، ولا تقتدرون أنتم على أن تردُّوا عني عذاب الله، فكيف أفتريه من أجلكم وأتعرض لعقابه؟ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي هو جل وعلا أعلمُ بما تخوضون في القرآن وتقدحون به من قولكم: هو شعر، هو سحر، هو افتراء، وغير ذلك من وجوه الطعن ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي كفى أن يكون تعالى شاهدًا بيني وبينكم، يشهد لي بالصدق والتبليغ، ويشهد عليكم بالجحود والتكذيب ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي وهو الغفور لمن تاب، الرحيم بعباده المؤمنين قال أبو حيان: وفيه وعدٌ لهم بالغفران والرحمة إن رجعوا عن الكفر، وإشعارٌ بحلمه تعالى عليهم إذْ لم يعالجهم بالعقوبة[3] ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي لست أول رسول طرق العالم، ولا جئت بأمرٍ لم يجئ به أحدٌ قبلي، بل جئت بما جاء به ناسٌ كثيرون قبلي، فلأيّ شيءٍ تنكرون ذلك عليَّ؟ والبدْعُ والبديعُ من الأشياء هو الذي لم يُر مثله قال ابن كثير: أي ما أنا بالأمر الذى لا نظير له حتى تستنكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم، فقد أرسل الله قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم ﴿وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ أي ولا أدري بما يقضي الله

---

(١) انظر «التفسير الكبير» ٢٨/ ٦.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٥٦.

(٣) «البحر المحيط»٥/ ٥٦.

علَـيَّ وعليكـم، فإن قدر الله مُغَيَّـب ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي لا أتبع إلا ما ينزله اللهُ علَيَّ من الوحـي، ولا أبتدع شـيئًا من عنـدي ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[١] أي وما أنا إلا رسـولٌ مُنذرٌ لكم من عذاب الله، بَيِّن الإِنذار بالشـواهد الظاهرة، والمعجزات الباهرة ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ أي قل يا محمد: أخبروني يا معشـر المشـركين إن كان هذا القرآن كلام الله حقًّا وقـد كذبتم به وجحتموه، وجوابـه محذوف تقديره: كيف يكـون حالكم؟ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي وقد شـهد رجل من علماء بني إِسـرائيل على صدق القرآن، فآمن به واسـتكبرتم أنتم عن الإِيمان، كيف يكون حالكم، ألسـتم أضل الناس وأظلم الناس؟ قال الزمخشري: وجوابُ الشرط محذوف تقديره: إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين؟ ودلَّ على هذا المحذوف قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢] أي لا يوفق للخير والإِيمان من كان فاجرًا ظالمًا قال المفسـرون: والشـاهدُ من بني إِسـرائيل هو «عبد الله بن سـلام» وذلك حين قدم رسـول الله ﷺ المدينة جاء إليه ابن سـلام ليمتحنه، فلما نظـر إلى وجهـه علم أنه ليس بوجـه كاذب، وتأمله فتحقق أنه هو النبـي المنتظر، فقال له: إني سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهنَّ إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومـا بـال الولد ينزع إلى أبيـه أو إلى أُمه؟ فلما أجابه ﷺ قال: أشـهد أنك رسـول الله حقًّا[٣]. الخ، ثم ردَّ تعالى على شـبهةٍ أخرى من شـبه المشركين فقال ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ أي:وقال كفار مكة في حق المؤمنين: لو كان هذا القرآن والدين خيرًا ما سـبقنا إليه هـؤلاء الفقراء الضعفاء!! وقال ابـن كثير: يعنون «بلالًا» و «عمـارًا» و «صهيبًا» و«خبابًا» وأشباههم من المستضعَفين والعبيد والإِماء ممن أسلم وآمن بالنبي ﷺ[٤] ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي: ولمّا لم يهتدوا بالقرآن مع وضوح إِعجازه، قالوا: هذا كذبٌ قديم مأثور عن الأقدمين، أتى به محمد ونسبه إلى الله تعالى ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي ومن قبل القرآن التوراة التي أنزلها الله على موسى قدوةً يُؤْتَم بها في دين الله وشرائعه كما يؤتم بالإِمام، ورحمة لمن آمن بها وعمل بما فيها قال الإِمام الفخر: ووجه تعلق الآية بما قبلها أن المشـركين طعنوا في صحة القرآن، وقالوا: لو كان خيرًا ما سـبقنا إليه هؤلاء الضعفـاء الصعاليك، فردَّ الله عليهم بأنكم لاتنازعون أن الله أنزل التوراة على موسـى، وجعل هذا الكتاب التوراة إمامًا يقتدى به، ثم إن التوراة مشتملة على البشارة بمحمد ﷺ فإِذا سلمتم

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣١٦.

(٢) «تفسير الكشاف» ٤/ ٢٣٦.

(٣) قصة إسلام عبد الله بن سلام مفصلة في صحيح البخاري.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣١٨.

كونها من عند الله، فاقبلوا حكمها بأن محمدًا ﷺ رسولُ حقًّا من عند الله[١] ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي وهذا القرآن كتاب عظيم الشأن، مصدِّقٌ للكتب قبله بلسانٍ عربي فصيح، فكيف ينكرونه وهو أفصح بيانًا، وأظهر برهانًا، وأبلغ إعجازًا من التوراة؟ ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي ليخوِّف كفار مكة الظالمين من عذاب الجحيم، ويبشر المؤمنين المحسنين بجنات النعيم.

ولما بيَّن تعالى أحوال المشركين المكذبين بالقرآن، أردفه بذكر أحوال المؤمنين المستقيمين على شريعة الله فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والتوحيد والاستقامة على شريعة الله ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي فلا يلحقهم مكروهٌ في الآخرة يخافون منه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي ولا هم يحزنون على ما خلَّفوا في الدنيا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي أولئك المؤمنون المستقيمون في دينهم، هم أهل الجنة ماكثين فيها أبدًا ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي نالوا ذلك النعيم جزاءً لهم على أعمالهم الصالحة ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ لمَّا كان رضا الله في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما حثَّ تعالى العباد عليه. والمعنى: أمَرْنا الإنسان أمرًا جازمًا مؤكدًا بالإحسان إلى الوالدين، ثم بَيَّن السبب فقال ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي حملته بكرهٍ ومشقة ووضعته بكرهٍ ومشقة ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ أي ومدة حمله ورضاعه عامان ونصف، فهي لا تزال تعاني التعب والمشقة طيلة هذه المدة قال ابن كثير: أي قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعبًا من وحَم، وغثيان، وثقل، وكرب إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ووضعته بمشقة أيضًا من الطَّلق وشدته، وقد استدل العلماء بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قويٌ صحيح[٢] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي حتى إذا عاش هذا الطفل وبلغ كما قوته وعقله ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي واستمر في الشباب والقوة حتى بلغ أربعين سنة وهو نهاية اكتمال العقل والرشد[٣] ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ أي قال: ربِّ ألهمني شكر نعمتك التي أنعمت بها عليَّ وعلى والديَّ حتى ربياني صغيرًا ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أي ووفقني لكي أعمل عملًا صالحًا يرضيك عني ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ أي اجعل ذريتي ونسلي صالحين قال شيخ زاده: طلب هذا الداعي من الله ثلاثة أشياء: الأول: أن يوفقه الله للشكر على النعمة، والثاني: أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله، والثالث: أن يصلح له في ذريته، وهذه

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٢٨/ ١٢.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٩١.

(٣) قال العلماء: ولذلك لم يبعث نبي قبل أربعين.

كمال السعادة البشرية [(١)] ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي إني يا رب تبت إليك من جميع الذنوب، وإني من المستمسكين بالإسلام قال ابن كثير: وفي الآية إرشادٌ لمن بلغ الأربعين أن يجدِّد التوبة والإنابة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ويعزم عليها[(٢)] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر نتقبل منهم طاعاتهم ونجازيهم على أعمالهم بأفضلها ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي ونصفح عن خطيئاتهم وزلاتهم، في جملة أصحاب الجنة الذين نكرمهم بالعفو والغفران ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أي بذلك الوعد الصادق الذي وعدناهم به على ألسنة الرسل، بأن نتقبل من محسنهم ونتجاوز عن مسيئهم.

ولما مثَّل تعالى لحال الإنسان البار بوالديه وما آل إليه حاله من الخير والسعادة، مثَّل لحال الإنسان العاقِّ لوالديه وما يئول إليه أمره من الشقاوة والتعاسة فقال ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ أي وأمَّا الوالد الفاجر الذي يقول لوالديه إذا دعواه إلى الإيمان أفٍ لكما، أي: قبحًا لكما على هذه الدعوة ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾؟ أي أتعدانني أن أُبعث بعد الموت وقد مضت قرونٌ من الناس قبلي ولم يُبعث منهم أحد؟ ﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ﴾ أي وأبواه يسألان الله أن يغيثه ويهديه للإسلام قائلين له: ويْلك آمنْ بالله وصَدِّقْ بالبعث والنشور وإلاَّ هلكت ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ أي وعد الله صدقٌ لا خُلف فيه ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي فيقول ذلك الشقي: ما هذا الذي تقولان من أمر البعث إلا خرافات وأباطيل سطَّرها الأولون في الكتب مما لا أصل له قال تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي أولئك المجرمون هم الذين حقَّ عليهم قول الله بأنهم أهل النار قال القرطبي: أي وجب عليهم العذاب وهي كلمة الله كما في الحديث «هَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي»[(٣)] ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ أي في جملة أمم من أصحاب النار قد مضت قبلهم من الكفرة الفجار من الجن والإنس ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ أي كانوا كافرين لذلك ضاع سَعْيُهم وخسروا آخرتهم، وهو تعليل لدخولهم جهنم قال الإمام الفخر: قال بعضهم: إن الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصّدِيق قبل إسلامه، والصحيحُ أنه لا يراد بالآية شخص معيَّن، بل المراد منها كل من كان موصوفًا بهذه الصفة، وهو كل من دعاه أبواه إلى الدين الحقِّ فأباه وأنكره، ويدل عليه أن الله تعالى وصف هذا الذي قال لوالديه ﴿أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ بأنه من الذين حقَّ عليهم

---

(١) «حاشية البيضاوي» ٣/ ٣٣٦.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٢٠.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ١٩٨. (ش): عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قَتَادَةَ السُّلَمِيِّ ﵁ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ، وَقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي»، قَالَ: فَقَالَ قَائِلٌ: «يَا رَسُولَ اللهِ، فَعَلَى مَاذَا نَعْمَلُ؟». قَالَ: «عَلَى مَوَاقِعِ الْقَدَرِ» (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ، وصححه الألباني).

القول بالعذاب، ولا شك أن عبد الرحمن آمن وحسن إسلامه وكان من سادات المسلمين فبطل حمْلُ الآية عليه[1] ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ أي لكلٍّ من المؤمنين والكافرين مراتب ومنازل بحسب أعمالهم، فمراتب المؤمنين في الجنة عالية، ومراتب الكافرين في جهنم سافلة ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي وليعطيهم جزاء أعمالهم وافيه كاملة، المؤمنون بحسب الدرجات، والكافرون بحسب الدركات، من غير نقصان بالثواب، ولا زيادة في العقاب.

قال الله تعالى:

وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى أحوال بعض الأشقياء، أعقبه بذكر حال الكفار والفجار في الآخرة، ثم ذكر قصة عاد الذين أهلكهم الله بطغيانهم مع ما كانوا عليه من القوة والشدة، تذكيرًا لكفار قريش بعاقبة التكذيب والطغيان، وختم السورة الكريمة بقصة النفر من الجنِّ

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٨/ ٢٣، وهذا اختيار المحققين من المفسرين كابن كثير والقرطبي وأبي السعود وصاحب «البحر المحيط».

الذين آمنوا بالقرآن حين سمعوه ودعوا قومهم إلى الإيمان.

اللغَة: ﴿ٱلْهُونِ﴾ الهوان والذل ﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾ الرمال العظيمة جمع حِقْف وهو ما استطال من الرمل العظيم واعوجَّ، والأحقاف ديار عاد[1] ﴿لِتَأْفِكَنَا﴾ لتصرِفَنا وتُزيلَنا، والإفك: الكذب ﴿عَارِضٌ﴾ سحاب يعرض في الأفق ﴿تُدَمِّرُ﴾ تُهلك، والتدميرُ الهلاك وكذلك الدَّمار ﴿صَرَفْنَآ﴾ بعَثْنا ووَجَّهْنا ﴿يَعْيَ﴾ يضعف ويعجز من الإعياء وهو التعب والعجز.

التفسِير: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي وذكّرهم يا محمد يوم يُكشف الغطاء عن نار جهنم، وتبرز للكافرين فيقرَّبون منها وينظرون إليها ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ في الكلام حذف، أي: ويقال لهم تقريعًا وتوبيخًا: أذهبتم طيباتكم، أي: لقد نلتم وأصبتم لذائذ الدنيا وشهواتها فلم يبق لكم نصيب اليوم في الآخرة قال في البحر: والطيبات هنا المستلذات من المآكل والمشارب، والملابس والمفارش. والمراكب والمواطئ، وغير ذلك مما يتنعَّم به أهل الرفاهية[2] ﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ أي وتمتعتم بتلك اللذائذ والطيبات في الدنيا قال المفسرون: المراد بالآية إنكم لم تؤمنوا حتى تنالوا نعيم الآخرة، بل اشتغلتم بشهوات الدنيا ولذائذها عن الإيمان والطاعة، وأفنيتم شبابكم في الكفر والمعاصي، وآثرتم الفاني على الباقي، فلم يبق لكم بعد ذلك شيء من النعيم، ولهذا قال بعده ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي ففي هذا اليوم يوم الجزاء تنالون عذاب الذُلِّ والهَوان ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي بسبب استكباركم في الدنيا عن الإيمان وعن الطاعة ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي وبسبب فسقكم وخروجكم عن طاعة الله، وارتكاب الفجور والآثام قال الإمام الفخر: وهذه الآية تدل على المنع من التنعم، لأن هذه الآية وردت في حق الكافر، وإنما وبَّخ الله الكافر لأنه يتمتع بالدنيا ولا يؤدي شكر المنعم بطاعته والإيمان به، وأما المؤمن فإنه يؤدي بإيمانه شكر المنعم فلا يوبخ بتمتعه ودليله ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] ! نعم لا يُنكر أن الاحتراز عن التنعيم أولى، وعليه يُحمل قول عمر «لو شئتُ لكنتُ أطيبكم طعامًا، وأحسنكم لباسًا، ولكني أستبقي طيباتي لحياتي الآخرة»[3] وقال في التسهيل: الآية في الكفار بدليل قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهي مع ذلك واعظةٌ لأهل التقوى من المؤمنين، ولذلك قال عمر لجابر بن عبد الله وقد رآه اشترى لحمًا: «أو كلما اشتهى أحدكم شيئًا جعله في بطنه» أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية ممن قال الله فيهم ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾[4] !! ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ أي اذكر يا محمد لهؤلاء المشركين قصة نبي الله هود عليه السلام مع قومه

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٠٣.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٦٣.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٨/ ٢٥.

(٤) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٤٤.

عادٍ ليعتبروا بها ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ أي حين حذَّر قومه من عذاب الله إِن لم يؤمنوا وهم مقيمون بالأحقاف وهي تلالٌ عظيمة من الرمل في بلاد اليمن قال ابن كثير: الأحقاف جمع حِقْف وهو الجبل من الرمل، قال قتادة: كانوا حيًّا باليمن أهل رملٍ مشرفين على البحر بأرضٍ يُقال لها: الشَّحْر[١] ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ أي وقد مضت الرسلُ بالإِنذار من قبل هودٍ ومن بعده، والجملة اعتراضية وهي إخبار من الله تعالى أنه قد بعث رسلًا متقدمين قبل هودٍ وبعده ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي حذَّرهم هود عليه السلام قائلا لهم: بأن لا تعبدوا إلا الله ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي إِني أخاف عليكم إِن عبدتم غير الله عذاب يومٍ هائل وهو يوم القيامة ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي قالوا جوابًا لإِنذاره: أجئتنا يا هود لتَصرفنا عن عبادة آلهتنا؟ وهو استفهام، يراد منه التسفيه والتجهيل لِمَا دعاهم إليه ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي فأتنا بالعذاب الذي وعدتنا به إن كنت صادقًا فيما تقول، قال ابن كثير: استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعادًا منهم لوقوعه[٢] ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي قال لهم هود: ليس علم وقت العذاب عندي إنما علمه عند الله ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ أي وإِنما أنا مبلّغٌ ما أرسلني به الله إليكم ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أي ولكنني أجدكم قومًا جهلة في سؤالكم استعجال العذاب ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أي فلما رأوا السحاب معترضًا في أفق السماء متجهًا نحو أوديتهم استبشروا به ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي وقالوا هذا السحاب يأتينا بالمطر قال المفسرون: كانت عاد قد أبطأ عنهم المطر، وقُحطوا مدةً طويلةً من الزمن، فلما رأوا ذلك السحاب العارض ظنوا أنه مطر ففرحوا به واستبشروا وقالوا: هذا عارضٌ ممطرنا ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ أي قال لهم هود: ليس الأمر كما زعمتم أنه مطر، بل هو ما استعجلتم به من العذاب ثم فسَّره بقوله ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي هو ريحٌ عاصفة مدمّرة فيها عذابٌ فظيع مؤلم ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي تُخرِّب وتُهلك كل شيء أتت عليه من رجالٍ ومواشٍ وأموال، بأمره تعالى وإِذنه قال ابن عباس: أول ما جاءت الريح على قوم عاد، كانت تأتي على الرجال والمواشي فترفعهم من الأرض وتطير بهم إلى السماء حتى يصبح الواحد منهم كالريشة، ثم تضربهم على الأرض، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم، فهي التي قال الله فيها ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي تدمِّر كل شيء مرت عليه من رجال عادٍ وأموالها، والتدميرُ الهلاك[٣]، وفي الحديث عن عائشة قالت: «كَانَ ﷺ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْغَيْمَ فَرِحُوا، رَجَاءَ

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٢٢.

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٣) انظر «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٠٦.

أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عُرِفَ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةُ؟ فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ مَا يُؤْمِننِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ؛ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ فَقَالُوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾»[1] ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ أي فأصبحوا هلكى لا تُرى إلا مساكنهم، لأن الريح لم تبق منهم إلا الآثار والديار خاوية ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي بمثل هذه العقوبة الشديدة نعاقب من كان عاصيًا مجرمًا قال الرازي: والمقصود منه تخويف أهل مكة[2]، ولهذا قال بعده ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ «إنْ» نافية بمعنى «ما» أي ولقد مكَّنَّا عادًا في الذي لم نمكنكم فيه يا أهل مكة من القوة، والسَّعة، وطول الأعمار[3]، وهو خطاب لكفار مكة على وجه التهديد ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ أي وأعطيناهم الأسماع والأبصار والقلوب، ليعرفوا تلك النعم ويستدلوا بها على الخالق المنعم ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي فما نفعتهم تلك الحواس أي نفع، ولا دفعت عنهم شيئًا من عذاب الله قال الإمام الفخر: المعنى أنّا فتحنا عليهم أبواب النعم: أعطيناهم سمعًا فما استعملوه في سماع الدلائل، وأعطيناهم أبصارًا فما استعملوها في تأمل العِبَر، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله، بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها، فلا جرم أنها لم تُغْنِ عنهم من عذاب الله شيئًا ﴿إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تعليلٌ لما سبق أي لأنهم كانوا يكفرون وينكرون آيات الله المنزَّلة على رسله ويكذبون رسله ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي ونزل وأحاطبهم العذاب الذي كانوا يستعجلون به بطريق الاستهزاء ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ تخويفٌ آخر لكفار مكة، أي: ولقد أهلكنا القرى المجاورة لكم يا أهل مكة والمحيطة بكم، كقرى عاد وثمود وسبأ وقوم لوط، والمراد بإهلاك القرى إهلاكُ أهلها ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي وكررنا الحجج والدلالات، والمواعظ والبينات، أوضحناها وبيَّناها لهم لعلهم يرجعون عن كفرهم وضلالهم ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ أي فهلاَّ نصرتهم آلهتهم التي ترقبوا بها إلى الله بزعمهم، وجعلوها شفعاءهم لتدفع عنهم العذاب؟! و«لولا» تحضيضية بمعنى هلَّا ومعناها النفي، أي: لم تنصرهم آلهتهم ولم تدفع عنهم عذاب الله ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾ أي غابوا عن نصرتهم وهم أحوج ما يكونون إليهم، فإن الصديق وقت الضيق قال أبو السعود: وفي الآية تهكمٌ بهم كأنَّ

---

(١) أخرجه البخاري. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٢٨/ ٢٩.

(٣) ذهب بعض المفسرين إلى أنَّ «إنْ» زائدة، والمعنى: ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه أي في مثل الذي مكناكم فيه، والأول أرجح لأن المقصود أنهم كانوا أقوى منكم ومع ذلك ما نجوا من عقاب الله فكيف يكون حالكم؟ وإنما لم يُؤْتَ بـ«ما» فيقال: فيما مكناكم فيه، دفعًا لثقل التكرار؟ (ش): هكذا في أكثر من طبعة والصواب أن يقال: وإنما لم يُؤْتَ بـ«ما» فيقال: فيما ما مكناكم فيه، دفعًا لثقل التكرار؟

عدم نصرهم كان لغيبتهم[١] ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي وذلك الذي أصابهم هو كذبهم وافتراؤهم على الله، حيث زعموا أن الأصنام شركاء الله وشفعاء لهم عند الله ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي واذكر يا محمد حين وجَّهْنا إليك وبعثْنا جماعةً من الجن ليستمعوا القرآن قال البيضاوي: والنفر دون العشرة، روي أنهم وافَوْا رسول الله ﷺ بوادي النخلة عند منصرفه من الطائف يقرأ في تهجده القرآن[٢] ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ أي فلما حضروا القرآن عند تلاوته قال بعضهم لبعضٍ: اسكتوا لاستماع القرآن قال القرطبي: هذا توبيخٌ لمشركي قريش، أي إن الجنَّ سمعوا القرآن فآمنوا به وعلموا أنه من عند الله، وأنتم مُعرِضُون مُصرُّون على الكفر[٣] ﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي فلما فُرغَ من قراءة القرآن رجعوا إلى قومهم مُخوِّفين لهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا قال الرازي: وذلك لا يكون إلا بعد إيمانهم، لأنهم لا يدعون غيرهم إلى استماع القرآن والتصديق به إلاّ وقد آمنوا[٤] ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ أي سمعنا كتابًا رائعًا مجيدًا منزَّلًا على رسولٍ من بعد موسى قال ابن عباس: إن الجنَّ لم تكن قد سمعت بأمر عيسى عليه السلام[٥] ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مصدِّقًا لما قبله من التوراة ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي هذا القرآن يرشد إلى الحقِّ المبين، وإلى دين الله القويم ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي أجيبوا محمدًا ﷺ فيما يدعوكم إليه من الإيمان وصدِّقوا برسالته ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي يمحو الله عنكم الذنوب والآثام ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي ويخلِّصْكم وينجكم من عذاب شديد مؤلمٍ ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا ترهيبٌ بعد الترغيب أي ومن لم يؤمن بالله ويستجب لدعوة رسوله، فإنه لا يفوت الله طلبًا، ولا يعجزه

---

(١) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٦٩.

(٢) حاشية البيضاوي ٣/ ٣٤١. (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ فَقَالُوا: «مَا لَكُمْ؟». فَقَالُوا: «حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ». قَالُوا: «مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلاَّ مَا حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِى حَدَثَ». فَانْطَلَقُوا فَضَرَبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا يَنْظُرُونَ مَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِى حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. قَالَ: فَانْطَلَقَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ - ﷺ - بِنَخْلَةَ، وَهُوَ عَامِدٌ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَهُوَ يُصَلِّى بِأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَسَمَّعُوا لَهُ فَقَالُوا: «هَذَا الَّذِى حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ». فَهُنَالِكَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: «يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا». وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ وَإِنَّمَا أُوحِىَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢١٠.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٨/ ٣٢.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٧٠.

هربًا ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أي وليس له أنصار يمنعونه من عذاب الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي أولئك الذين لا يستجيبون لدعوة الله في خسرانٍ واضح، وإلى هنا آخر كلام الجن الذين سمعوا القرآن، ثم ذكر تعالى الأدلة على قدرته ووحدانيته فقال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي أولم يعلم هؤلاء الكفار المنكرون للبعث والنشور أن الله العظيم القدير الذي خلق السمواتِ والأرض ابتداءً من غير مثال سابق ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي ولم يضعف ولم يتعب بخلقهنَّ ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟ أي قادرٌ على أن يعيد الموتى بعد الفناء، ويحييهم بعد تمزق الأشلاء؟ ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ أي بلى إنه تعالى قادر لا يعجزه شيء، فكما خلقهم يعيدهم ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين الأهوال والشدائد التي يرونها في الآخرة، وذَكِّرْهم يوم يُعرضون على النار فيقال لهم ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾؟ أي أليس هذا العذاب الذي تذوقونه حقًّا؟ ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥] ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أي قالوا: بلى وعزة ربنا، أكَّدوا كلامهم بالقسم طمعًا في الخلاص قال الفخر الرازي: والمقصود بالآية التهكمُ بهم، والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله ووعيده وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[1] [الشعراء: ١٣٨] ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي فيقال لهم: ذوقوا العذاب الأليم بسبب كفركم ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي فاصبر يا محمد على أذى المشركين كما صبر مشاهير الرسل الكرام وهم «نوح وإبراهيم وموسى وعيسى» ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي ولا تدع على كفار قريش تعجيل العذاب فإنه نازل بهم لا محالة ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭ﴾ أي كأنهم حين يعاينون العذاب في الآخرة لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعةً واحدة من النهار، لما يشاهدون من شدة العذاب وطوله ﴿بَلَٰغٞ﴾ أي هذا بلاغ وإنذار ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي لا يكون الهلاك والدمار إلا للكافرين الخارجين عن طاعة الله.

تنبيه: قال المفسرون: «إن الجنَّ كانوا يسترقون السمع، فلما حُرست السماء بالشهب، قال إبليس: إن هذا الذي حدث بالسماء من أمر حدث في الأرض، فبعث سراياه ليعرف الخبر، فذهب ركبٌ من نصيبين وهم أشراف الجن إلى تهامة، فلما بلغوا باطن نخلة سمعوا النبي ﷺ يصلي ويتلو القرآن، فاستمعوا له وقالوا: أنصتوا ثم لما انتهى ﷺ من القراءة آمنوا ثم رجعوا إلى قومهم منذرين فدعوهم إلى الإيمان، وجاءوا بعد ذلك جماعات جماعات إلى النبي ﷺ فذلك سبب قوله تعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[2].

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٨/ ٣٤.

(٢) (ش): راجع حديث البخاري ومسلم الذي سبق ذكره في التعليق السابق.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التعجيز ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ﴾ [الأحقاف: ٤] أمرٌ يراد منه التعجيز.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿يَدۡعُواْ .. وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ﴾ ومثله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ [الأحقاف: ١٠].

٣ - الطباق بين ﴿وَكَفَرۡتُم .. فَـَٔامَنَ﴾ وبين ﴿وَيُنذِرَ .. وَبُشۡرَىٰ﴾.

٤ - ذكر الخاص بعد العام ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ ثم قال ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا﴾ [الأحقاف: ١٥] فذكر الخاص بعد العام لزيادة العناية والاهتمام بشأن الأم لحقها العظيم.

٥ - الطباق بين ﴿حَمَلَتۡهُ .. وَوَضَعَتۡهُ﴾.

٦ - صيغة الحصر ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧].

٧ - الاستعارة ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف: ١٩] استعار الدرجات للمراتب، للسعداء والأشقياء.

٨ - الإيجاز بالحذف مع التوبيخ والتقريع ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي يقال لهم: أذهبتم.

٩ - الإطناب بتكرار اللفظ ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ﴾ ثم قال ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم﴾ لزيادة التقبيح والتشنيع عليهم.

١٠ - توافق الفواصل مما يزيد في جمال الكلام وحسن تناسقه وهو من المحسنات البديعية مثل ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الجاثية: ٣٣] ﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ ﴿وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحقاف»





مدنية وآياتها ثمان وثلاثون

بين يدي السورة

* سورة محمد من السور المدنية، وهي تعنى بالأحكام التشريعية، شأن سائر السور المدنية، وقد تناولت السورة أحكام القتال، والأسرى، والغنائم، وأحوال المنافقين، ولكن المحور الذي تدور عليه السورة هو موضوع «الجهاد في سبيل الله».

* ابتدأت السورة الكريمة بدءًا عجيبًا بإعلان حرب سافرة على الكفار أعداء الله، وأعداء رسوله، الذين حاربوا الإسلام، وكذبوا الرسول ﷺ، ووقفوا في وجه الدعوة المحمدية، ليصدوا الناس عن دين الله ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ الآيات..

* ثم أمرت المؤمنين بقتال الكافرين، وحصدهم بسيوف المجاهدين، لتطهير الأرض من رجسهم، حتى لا تبقى لهم شوكة ولا قوة، ثم دعت إلى أسرهم بعد إكثار القتل فيهم والجراحات ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ ...﴾ الآيات.

* ثم بينت طريق العزة والنصر، ووضعت الشروط لنصرة الله لعباده المؤمنين، وذلك بالتمسك بشريعته، ونصرة دينه ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا﴾.

*وتحدثت السورة بإسهاب عن صفات المنافقين، باعتبارهم الخطر الداهم على الإسلام والمسلمين، فكشفت عن مساويهم ومخازيهم ليحذر الناس مكرهم وخبثهم ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بدعوة المؤمنين إلى سلوك طريق العزة والنصر، بالجهاد في سبيل الله وعدم الوهن والضعف أمام قوى الشر والبغي، وحذرتهم من الدعوة إلى الصلح مع الأعداء، حرصًا على الحياة والبقاء، فإن الحياة الدنيا زائلة فانية، وما عند الله خير للأبرار ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ...﴾ إلى نهاية السورة الكريمة.

* وهكذا ختمت السورة بالدعوة إلى الجهاد، كما بدأت بالدعوة إليه، حفزًا لعزائم المؤمنين، وليتناسق البدء مع الختام ألطف التئام!!

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾

اللغَة: ﴿كَفَّرَ﴾ أزال ومحا ﴿أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أكثرتم فيهم القتل والجراح والأسر قال في المصباح: أثخن في الأرض إثخانًا، سار إلى العدو وأوسعهم قتلًا، وأثخنته الجراحة أوهنته وأضعفته[1] ﴿الْوَثَاقَ﴾ القيد والحبل الذي يربط به ﴿مَنًّا﴾ إطلاق الأسير من غير فدية ﴿أَوْزَارَهَا﴾ آلاتها وأثقالها وهي الأسلحة والعتاد يقال: وضعت الحرب أوزارها أي انقضت الحرب وانتهت، وأصل الأوزار الأثقال من السلاح والخيل قال الشاعر:

وَأَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا ... رِمَاحًا طِوَالًا وَخَيْلًا ذُكُورًا[2]

﴿فَتَعْسًا﴾ شقاءً وهلاكًا ﴿آسِنٍ﴾ متغيّر ومنتن ﴿حَمِيمًا﴾ حارًّا شديد الحرارة ﴿آنِفًا﴾ الآن، من قولهم: استأنف الأمر إذا ابتدأ به ﴿أَشْرَاطُ﴾ أمارات وعلامات.

---

(١) «المصباح المنير» مادة ثخن.

(٢) البيت للأعشى كذا في «القرطبي» ١٦/ ٢٢٩.

التفسِـير: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هـذا إِعـلان حـربٍ مـن الله تعالى علـى أعدائه وأعـداء دينـه. والمعنى: الذين جحـدوا بآيات الله وأعرضوا عن الإسـلام، ومنعوا الناس عن الدخـول فيـه ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أبطلها وأحبطها وجعلها ضائعة لا ثـواب لها لأنها لم تكن لله فبطلـت، والمراد أعمالهم الصالحـة كإطعام الطعام، وصلة الأرحام، وقرى الضيف[1] قال الزمخشـري: وحقيقة إضلال الأعمال جَعْلُها ضالـةً ضائعة، ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها كالضالـة من الإبـل، التي لا ربَّ لها يحفظهـا ويعتني بأمرها، والمـراد أعمالهم التي عملوها في كفرهـم بمـا كانوا يسـمونه «مكارم الأخلاق»، مـن صلة الأرحام، وفك الأسـارى، وقرى الأضياف، وحفظ الجوار[2] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي جمعوا بين الإيمان الصادق، والعمل الصالح[3] ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ أي صدَّقوا بما أنزل الله على رسـوله محمد ﷺ تصديقًـا جازمًا لا يخالجه شـك ولا ارتيـاب وهوعطف خاص على عـام، والنكتةُ فيه تعظيم أمره والاعتناء بشـأنه، إشـارةً إلـى أن الإيمان لا يتـمُّ بدونه[4]، ولذا أكَّـده بقوله ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي وهـو الثابـت المؤكد المقطوع بأنـه كلام الله ووحيُ المنزَّل من عنـد الله، والجملة اعتراضية لتأكيد السابق ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي أزال ومحا عنهم ما مضى من الذنوب والأوزار ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي أصلـح شـأنهم وحالهـم، في دينهـم ودنياهم، ثـم بيَّن تعالى سـبب ضلال الكفـار، واهتداء المؤمنين فقـال ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي ذلك الإضلال لأعمال الكفار بسـبب أنهم سـلكوا طريق الضلال، واختاروا الباطـل على الحق ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي وأن المؤمنين سـلكوا طريق الهدى، وتمسَّـكوا بالحق والإيمان المنزل من عنـد الرحمن ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي مثـل ذلك البيان الواضح، بيَّن الله أمر كلٍّ من الفريقين المؤمنين والكافرين بأوضح بيانٍ وأجلى برهان ليعتبر الناس ويتعظوا.. وبعد إعلان هـذه الحرب السـافرة على الكافرين أمر تعالى المؤمنيـن بجهادهم فقال ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أي فإِذا أدركتم الكفار في الحرب فاحصدوهم حصْدًا بالسيوف قال في التسهيل: وأصلـه فاضربوا الرقاب ضربًا ثم حذف الفعل وأقام المصدر مقامه والمراد: اقتلوهم، ولكنْ

---

(١) (ش): قرَى الضيفَ، قِرًى: أضافه وأكرمه، أحسن إليه.

(٢) «الكشاف» ٤/ ٢٥٠.

(٣) (ش): هذا التعبير يعطي التفريق بين الإيمان والعمل، وأنه يمكن أن يكون إيمان صادق بدون عمل، والصواب: أن العمل جزء من الإيمان فلا يكون إيمان بدون عمل، وعطْفُ العمل علي الإيمان من عطْف الخاص على العام اهتمامًا به.

(٤) «حاشية الصاوي» ٤/ ٨١. (ش): والصواب أن الإيمان لا يصح بدون التصديق بما أنزل على النبي محمد ﷺ لأن التمام غير الصحة، فتمام الأمر كمالُه.

عبَّـر عنه بضرب الرقاب، لأنه الغالب في صفة القتل[١] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ أي حتى إِذا هزمتموهـم وأكثرتـم فيهم القتل والجراحات ولم تبق لهم قوة للمقاومة فأْسِـروهم وكُفُّوا عـن قتلهم قال الزمخشـري: وفي هذه العبـارة ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ من الغلظة والشـدة ما ليس في لفـظ القتل، لما فيها من تصوير القتل بأشـنع صورة، وهو حزُّ العنق وإطارة رأس البدن، ولقد زاد في هـذه الغلظـة في قولـه ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ [الأنفال: ١٢] ومعنـى ﴿أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ أكثرتُم قتْلهم وأغلظتموه ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ أي فَأْسِـروهم، والوثاقَ اسـم لما يربط من حبلٍ وغيره[٢] ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي ثم أنتم مخيَّرون بعد أسْرهم إمَّا أن تمُنُّوا عليهم وتطلقوا سَراحهم بلا مقابل من مال، أو تأخذوا منهم مالًا فداءً لأنفسهم، ولكنْ بعد أن تكونوا قد كسـرتم شـوكتهم، وأعجزتموهم بكثرة القتل والجراح ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ أي حتى تنقضي الحرب وتنتهي بوضع آلاتها وأثقالها، وتنتهي الحرب بين المسلمين والمناوئين لهم، وذلك بعزة الإِسـلام واندحار المشـركين ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ أي الأمر فيهم مـا ذُكـر، ولـو أراد الله لانتصـر منهم وأهلكهـم بقدرتـه، دون أن يكلفكم أيهـا المؤمنون إلى قتالهم قال ابن كثير: أي لو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبةٍ ونكالٍ من عنده[٣] ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾ أي ولكنَّـه أمركم بجهادهم ليختبر إيمانكم وثباتكم، فيظهر حال الصادق في الإِيمـان من غيره كما قـال تعالـى ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١] وليبتلـي المؤمنين بالكافرين والكافريـن بالمؤمنين، فيصير من قُتل مـن المؤمنين إلى الجنة، ومن قتل مـن الكافرين إلى النار ولهذا قال ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي والذين استشـهدوا في سـبيل الله فلن يُبطـل الله عملهم، بل يكثِّـره ويضاعفه وينمِّيـه ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ﴾ أي سـيهديهم إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، بتوفيقهم إلى العمل الصالح وإرشادهم إلى الجنة دار الأبرار ﴿وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾ أي ويُصلح حالهم وشأنهم ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ أي ويدخلهم الجنـة دار النعيم بيَّنَها لهم بحيث يعلم كل واحدٍ منزله ويهتدي إليه قال مجاهد: يهتدي أهلُها إلـى بيوتهم ومسـاكنهم لا يخطئون كأنهم سـكنوها منذ خُلقوا[٤] وفي الحديـث «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّـدٍ بِيَـدِهِ لأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْـهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»[٥] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ أي إن تنصروا دينه ينصركم على أعدائكم ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ أي ويثبتكم في مواطـن الحـرب ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ أي والذين كفروا بالله وآياته فهلاكًا وشـقاءً لهم،

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٤٦.

(٢) «الكشاف» ٤/ ٢٥١.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٣٠.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٧٥.

(٥) جزء من حديث رواه البخاري.

وهو دعاءٌ عليهم بالتعاسة والخيبة والخذلان ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أبطلها وأحبطها لأنها كانت في طاعة الشيطان ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي ذلك التَّعْسُ والإِضلال بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله من الكتب والشرائع قال الزمخشري: أي كرهوا القرآن وما أنزل الله فيه من التكاليف والأحكام، لأنهم قد أَلِفُوا الإهمال وإطلاق العِنان في الشهوات والملاذِّ[1] فشقَّ عليهم ذلك وتعاظمهم[2] ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أذهبها وأضاعها لأن الإِيمان شرط لقبول الأعمال، والشرك محبط للعمل، ثم خوَّفهم تعالى عاقبة الكفر فقال ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي أفلم يسافر هؤلاء ليروا ما حلَّ بمن سبقهم من الأمم الطاغية كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم من المجرمين، كيف كان مآلهم؟ وماذا حلَّ بهم من العذاب؟ فإنَّ آثار ديارهم تُنْبِئ عن أخبارهم ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي أهلكهم الله، واستأصل كل ما يخصهم من مالٍ وبنين ومتاع، فإذا هو أنقاض متراكمة وإذا هم تحت هذه الأنقاض «ودمَّر عليهم» أبلغ من دمَّرهم لأن معناها أهلكهم مع أموالهم ودورهم وأولادهم وأطبق عليهم الهلاك إطباقًا فلم يبق شيء إلا شمله الدمار ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ أي ولكفار مكة أمثال تلك العاقبة الوخيمة والعذاب المدمّر ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي وليُّهم وناصرهم ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي لا ناصر لهم ولا معين ولا مغيث، ثم بيَّن تعالى مآل كلٍّ من الفريقين المؤمنين والكافرين في الآخرة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي يدخل المؤمنين جناتِ النعيم، التي فيها ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي والكافرون في الدنيا ينتفعون بشهواتها ولذائذها، ويأكلون كما تأكل البهائم، ليس لهم هَمٌّ إلا بطونهم وفروجهم ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي وجهنم مقامهم ومنزلهم في الآخرة قال الزمخشري: المراد أنهم ينتفعون بمتاع الدنيا أيامًا قلائل، ويأكلون غافلين غير مفكرين في العاقبة كما تأكل الأنعام في مسارحها ومعالفها غافلةً عما هي بصدده من النحر والذبح، والنار منزل ومقام لهم في الآخرة.[3]

ثم سلَّى تعالى رسوله ﷺ فقال ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ أي وكم من أهل قرية[4] عاتية ظالمة كانوا أقوى من أهل مكة الذين أخرجوك منها ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ أي أهلكناهم بأنواع العذاب فلم ينصرهم أحد فكذلك نفعل بهؤلاء قال ابن عباس: لما خرج النبي ﷺ من مكة واختفى بالغار ثم خرج مهاجرًا إلى المدينة، التفت إلى مكة ثم قال «إنك لأحبُّ البلاد إلى الله، وأحبُّ البلاد إليَّ، ولولا أنَّ قومك أخرجوني منك

---

(١) (ش): أطلق له العِنانَ: تَرَكه يفعل ما يشاء.

(٢) «الكشاف» ٤/ ٢٥٣.

(٣) «تفسير الكشاف» ٤/ ٢٥٣.

(٤) الكلام على حذف مضاف أي من أهل قرية وهو مجازٌ مشهور.

ما خرجت فنزلت الآية[١] ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي هل من كان على حجة وبصيرة، وثبات ويقين من أمر دينه ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾؟ أي كمن زُيّن له عمله القبيح فرآه حسناً؟ ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ أي أنهمكوا في الضلال حتى عبدوا الهوى؟ ليس هذا كهذا، وإنما جاء بصيغة الجمع مراعاةً للمعنى قال المفسرون: يريد بـ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ رسول الله ﷺ وبمن ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أبا جهل وكفار قريش. واللفظ أعمُّ لأن الغرض المباينة بين من يعبد الله، وبين من يعبد هواه، ولذلك مثَّل بعده بالفارق الكبير بين الجنة والنار فقال ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي صفة الجنة الغريبة العجيبة الشأن، التي وعد الله بها عباده الأبرار وأعدَّها للمتقين الأخيار ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي فيها أنهار جاريات من ماءٍ غير متغير الرائحة قال ابن مسعود: أنهار الجنة تفجَّر من جبل من مسكٍ[٢] ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ أي وأنهار جاريات من حليبٍ في غاية البياض والحلاوة والدسامة، لم يحمض بطول المقام ولم يفسد كما تفسد ألبان الدنيا وفي حديث مرفوع «لم يخرج من ضروع الماشية»[٣] ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي وأنهار جاريات من خمرٍ لذيذة الطعم يتلذذ بها الشاربون لأنه ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧] وإنما قيَّدها بأنها لذة للشاربين، لأن الخمر كريهة الطعم في الدنيا لا يلتذ بها إلاَّ فاسد المزاج، وأما خمر الآخرة فهي طيبة الطعم والرائحة، يشربها أهل الجنة لمجرد الالتذاذ ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أي وأنهارٌ جارياتٌ من عسل في غاية الصفاء وحسن اللون والريح، لم يخرج من بطون النحل قال أبو السعود: ﴿عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أي لم يخالطه الشمع وفضلات النحل[٤] ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي ولهم في الجنة أنواعٌ متعددة من جميع أصناف الفواكه والثمار قال في حاشية البيضاوي: وفي ذكر الثمرات بعد المشروب إشارة إلى أنَّ مأكول أهل الجنة للَّذَّة لا للحاجة[٥] ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي ولهم فوق ذلك النعيم الحسن نعيمٌ روحي وهو المغفرة من الله مع الرحمة والرضوان وفي الحديث «أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِى

(١) «حاشية الجمل على الجلالين» ٤/ ١٤٥. (ش): ضعيف جدًّا، رواه أبو يعلَى في «المسند»، والطبري وابن أبي حاتم في «تفسيرَيْهما». وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ حَمْرَاءَ الزُّهْرِيِّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَاقِفًا عَلَى الْحَزْوَرَةِ فَقَالَ: «وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ وَلَوْلاَ أَنِّى أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ». (رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وغيره، وصحّحه الألباني). (الْحَزْوَرَةُ): كَانَ سُوقَ مَكَّةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَقَدْ أُدْخِلَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَام. وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمَكَّةَ «مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ وَلَوْلاَ أَنَّ قَوْمِى أَخْرَجُونِى مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ». (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٣٢.

(٣) نفس المرجع السابق والصفحة. (ش): أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره»، وضعفه الألباني.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٧٤.

(٥) «حاشية زاده على البيضاوي»٣/ ٣٤٨.

فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا »[١] قال الصاوي: في الجنة ترفع عنهم التكاليف فيما يأكلونه ويشربونه، بخلاف الدنيا فإن مأكولها ومشروبها يترتب عليه الحساب والعقاب، ونعيم الآخرة لا حساب عليه ولا عقاب فيه[٢] ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي كمن هو مخلَّدٌ في الجحيم؟ والاستفهام للإنكار، أي: لا يستوي من هو في ذلك النعيم المقيم، بمن هو خالد في الجحيم؟ ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ أي وسُقوا مكان تلك الأشربة ماءً حارًّا شديد الغليان، فقطَّع أحشاءهم من فرط حرارته؟ قال المفسرون: بلغ الماء الغاية في الحرارة، إذا دنا منهم شوى وجوههم، ووقعت فروة رءوسهم، فإذا شربوه قطَّع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم[٣] ولمّا بيَّن تعالى حال الكافرين، ذكر حال المنافقين فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي ومن هؤلاء المنافقين جماعة يستمعون إلى حديثك يا محمد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ﴾ أي حتى إذا خرجوا من مجلسك ﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي قالوا علماء الصحابة كابن عباس وابن مسعود: ماذا قال محمدٌ قريبًا في تلك الساعة؟ قال ابن كثير: أخبر تعالى عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه، فلا يفهمون منه شيئًا، فإذا خرجوا من عنده قالوا لأهل العلم من الصحابة: ماذا قال محمد ﴿ءَانِفًا﴾ أي الساعة، لا يعقلون ما قال ولا يكترثون به[٤] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي ختم على قلوبهم بالكفر ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي ساروا وراء أهوائهم الباطلة ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي وأما المؤمنون المتقون فقد زادهم الله هدى وألهمهم رشدهم قال الإمام الفخر: لما بيَّن تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع، ويستعيد ولا يستفيد، بيَّن أن حال المؤمن المهتدي بخلافه، فإنه يستمع فيفهم، ويعمل بما يعلم، وفيه فائدة وهو قطع عذر المنافق، فإنه لو قال ما فهمت كلامه لغموضه، يُردُّ عليه بأن المؤمن فهم واستنبط، فذلك لِعَماءِ القلوب لا لِخفاء المطلوب[٥] ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي فهل ينتظرون إلا قيام الساعة فجأةً فتبغتهم وهم سادِرُون غارُّون غافلون[٦]؟ ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي فقد جاءت أماراتها وعلاماتها، ومنها بعثة خاتم الرسل ﷺ ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ أي فمن أين لهم التذكر

---

(١) (ش): عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- قَالَ: « إِنَّ اللهَ يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ: «يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ». فَيَقُولُونَ: «لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِى يَدَيْكَ». فَيَقُولُ: «هَلْ رَضِيتُمْ؟». فَيَقُولُونَ: «وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟». فَيَقُولُ: «أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟». فَيَقُولُونَ: «يَا رَبِّ وَأَىُّ شَىْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟». فَيَقُولُ: «أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِى فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٢) «حاشية الصاوي» ٤/ ٨٤.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٣٧.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٣٣.

(٥) «التفسير الكبير» ٢٨/ ٥٨.

(٦) (ش): سدِرَ الشَّخصُ: استهتَر، لم يهتمّ بما صنع ولم يُبالِ. غَرَّ الرَّجُلُ، فَهُوَ غَارٌّ: غَفَلَ.

إذا جاءتهم الساعة، حيث لا ينفع ندم ولا توبة؟ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي فدُمْ يا محمد على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي اطلب من الله المغفرة لك وللمؤمنين والمؤمنات ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي يعلم تصرفكم في الدنيا، ومصيركم في الآخرة، فأعدوا الزاد ليوم الميعاد.

قال الله تعالى:

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم

المناسَبَة: كان بدء السورة في الحديث عن الكافرين، ثم جاء عن المؤمنين، وهنا يأتي الحديث عن المنافقين، وقد استغرق الجانب الأكبر من السورة باعتبارهم الخطر الداهم على الإِسلام والمسلمين، والآيات الكريمة تتحدث عن الجهاد وعن موقف المنافقين منه.

اللغَة: ﴿سَوَّلَ﴾ زيَّن وسهَّل ﴿أَضْغَانَهُمْ﴾ أحقادهم الدفينة قال الجوهري: الضغنُ والضغينة: الحقد، وتضاغن القوم أبطنُوا على الأحقاد[1] ﴿سِيمَاهُمْ﴾ علامتهم ﴿السَّلْمِ﴾ الصلح والموادعة ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ يلحّ عليكم يقال: أحفى بالمسألة وألحف وألحَّ بمعنى

(١) «الصحاح» للجوهري مادة ضغن.

واحد ﴿يَتِرَكُمۡ﴾ يُنقِصكم يقال: وتره حقه أي نقصه.

التفسير: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾ أي ويقول المؤمنون المخصلون شوقًا إلى الجهاد وحرصًا على ثوابه: هلَّا أنزلت سورة فيها الأمر بالجهاد ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾ أي فإذا أنزلت سورة صريحةٌ ظاهرة الدلالة على الأمر بالقتال قال القرطبي: ﴿مُّحۡكَمَةٞ﴾ أي لم تنسخ وقد قال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين[١] ﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أي رأيت المنافقين الذين في قلوبهم شك ونفاق ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ أي ينظرون إليك يا محمد تشخص أبصارهم جبنًا وهلعًا، كما ينظر من أصابته الغشية من حلول الموت ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ أي فويلٌ لهم قال في التسهيل: وهي كلمة معناها التهديد والدعاء عليهم كقوله تعالى ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٥][٢] ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ﴾ مبتدأٌ محذوف الخبر أي طاعةٌ لك يا محمد، وقولٌ جميلٌ طيبٌ خيرٌ لهم وأفضل وأحسن، قال الرازي: وهو كلام مستأنف محذوف الخبر تقديره خيرٌ لهم أي أحسن وأمثل، وإنما جاز الابتداء بالنكرة لأنها موصوفة ويدل عليه قوله ﴿وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ﴾ كأنه قال: طاعة مخلصة، وقولٌ معروفٌ خيرٌ لهم[٣] ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي فإذا جدَّ الجِد وفُرض القتال ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ أي فلو أخلصوا نياتهم وجاهدوا بصدقٍ ويقين لكان ذلك خيرًا لهم من التقاعس والعصيان، والجملةُ جواب الشرط ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ أي فلعلَّكم إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية، من الإفساد في الأرض بالمعاصي، وقطع الأرحام! قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولَّوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، ويقطعوا الأرحام، ويعصوا الرحمن؟ قال أبو حيان: يريد ما جرى من الفترة بعد زمان الرسول ﷺ[٤] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ أي فأصمهم عن استماع الحق، وأعمى قلوبهم عن طريق الهدى فلا يهتدون إلى سبي الرشاد قال القرطبي: أخبر تعالى أن من فعل ذلك حقت عليه اللعنة، وسلبه الانتفاع بسمعه وبصره، حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه، فجعله كالبهيمة التي لا تعقل[٥] ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؟ الاستفهام توبيخي، أي: أفلا يتفهمون القرآن ويتصفحونه ليروا ما فيه من المواعظ والزواجر،

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٤٣.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٤٩، وذهب بعض المفسرين إلى أنَّ معنى ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ أي أحق وأجدر بهم وخبره ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ﴾ وما ذكرناه أظهر وهو اختيار القرطبي.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٨/ ٦٢.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٨٢.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٤٦.

حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات؟! ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ «أم» بمعنى «بل» وهو انتقالٌ من توبيخهم على عدم التدبر إلى توبيخهم على ظلمة القلوب وقسوتها حتى لا تقبل التفكر والتدبر والمعنى: بل قلوبهم قاسية مظلمة كأنها مكبَّلة بالأقفال الحديدية فلا ينفذ إليها نور ولا إيمان قال الرازي: إن القلب خُلق للمعرفة فإذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه غير موجود، وهذا كما يقول القائل في الإنسان المؤذي: هذا ليس بإنسان هذا وحش، وهذا ليس بقلب هذا حجر[1] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ أي رجعوا إلى الكفر بعد الإيمان، وبعد أن وضح لهم طريق الهدى بالدلائل الظاهرة والمعجزات الواضحة ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي الشيطان زيَّن لهم ذلك الأمر، وغرَّهم وخدعهم بالأمل، وطول الأجل ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي ذلك الإضلال بسبب أنهم قالوا لليهود الذين كرهوا القرآن الذي نزَّله الله حسدًا وبغيًا: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أي سنطيعكم في بعض ما تأمروننا به كالقعود عن الجهاد، وتثبيط المسلمين عنه وغير ذلك ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي وهو جل وعلا يعلم خفاياهم، وما يبطنونه من الكيد والدسّ والتآمر على الإسلام والمسلمين قال المفسرون: قال المنافقون لليهود ذلك سرًّا فأظهره الله تعالى وفضحهم ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي فكيف يكون حالهم حين تحضرهم ملائكة العذاب لقبض أرواحهم معهم مقامع من حديد يضربون بها وجوههم وظهورهم؟ قال القرطبي: المعنى على التخويف والتهديد، أي: إن تأخر عنهم العذاب فإلى انقضاء العمر[2] قال ابن عباس: لا يُتوفى أحد على معصية إلا تضرب الملائكة في وجهه وفي دبره[3] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أي ذلك العذاب بسبب أنهم سلكوا طريق النفاق وكرهوا ما يرضي الله من الإيمان والجهاد وغيرهما من الطاعات ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أبطل ما عملوه حال إيمانهم من أعمال البر ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾؟ أي أيعتقد المنافقون الذين في قلوبهم شك ونفاق أن الله لن يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ وأنه لن يُظهر بغضهم وأحقادهم على الإسلام والمسلمين؟ لا بدَّ أن يفضحهم ويكشف أمرهم ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي لو أردنا لأريناك يا محمد أشخاصهم فعرفتهم عيانًا بعلامتهم ولكنَّ الله ستر عليهم إبقاءً عليهم وعلى أقاربهم من المسلمين لعلهم يتوبون ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أي ولتعرفنَّ يا محمد المنافقين من فحوى كلامهم وأسلوبه، فيما يعرضونه بك من القول الذي

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٢٨/ ٦٦.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٥٠.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٨٤.

ظاهره إيمان وإسلام وباطنه كفر ومسبّة قال الكلبي: لم يتكلم بعد نزولها عند النبي ﷺ منافقٌ إلا عرفه[١] ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم فيجازيكم بحسب قصدكم، ففيه وعدٌ ووعيد ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي ولنَخْتَبِرَنَّكُم أيها الناسُ بالجهاد وغيره من التكاليف الشاقة حتى نعلم علم ظهور المجاهدين في سبيل الله، والصابرين على مشاقِّ الجهاد ﴿وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ أي ونختبر أعمالكم حَسَنَها وقبيحَها قال في التسهيل: المراد بقوله ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ﴾ أي نعلمه علمًا ظاهرًا في الوجود تقوم به الحجة عليكم، وقد علم الله الأشياء قبل كونها، ولكنه أراد إقامة الحجة على عباده بما يصدر منهم، وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تَبْتَلِنَا فإنك إذا ابتليتنا فضَحْتَنا وهتكْتَ أستارَنا[٢] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي جحدوا بآيات الله ومنعوا الناس على الدخول في الإسلام ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي عادَوا الرسول وخرجوا عن طاعته من بعد ما ظهر لهم صدقُه وأنه رسول الله بالحجج والآيات ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي لن يضروا الله بكُفرهم وصَدِّهم شيئًا من الضرر، وسيبطل أعمالهم من صدقة ونحوها فلا يرون لها في الآخرة ثوابًا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي امتثلوا أوامر الله وأوامر رسوله ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ أي ولا تُبطلوا أعمالكم بما أبطل به هؤلاء أعمالهم من الكفر والنفاق، والعُجْب والرياء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي جحدوا بآيات الله وصدُّوا الناس عن طريق الهدى والإيمان ﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾ أي وماتوا على الكفر ﴿فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ أي فلن يغفر الله لهم بحالٍ من الأحوال، وهذا قطع بأن من مات على الكفر لا يغفر اللهُ له لقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] قال أبو السعود: وهذا حكم يَعُمُّ كلَّ من مات على الكفر، وإن صحَّ نزوله في أصحاب[٣] القليب[٤] ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ﴾ أي فلا تضعفوا وتدعوا إلى المهادنة والصلح مع الكفار إذا لقيتموهم ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ أي وأنتم الأعزة الغالبون لأنكم مؤمنون ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ أي والله معكم بالعونِ والنصر ﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ أي لن يُنقِصَكم شيئًا من ثواب أعمالكم قال ابن كثير:

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٥٣.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٥٠.

(٣) (ش): أي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾

(٤) «أبو السعود» ٥/ ٧٨. لم أجد ما يدل على أن الآية نزلت في أصحاب القليب. والقليب: البئر المفتوحة. وأصحاب القليب: هم قتلَى مشركي مكة الذين ألقاهم المسلمون في قليب بدر. وعن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما –؛ قال: نزلت في أهل مكة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾(ضعيف، رواه الطبري في «تفسيره»).

وفي قوله ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء[١] ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾ أي ما الحياة الدنيا إلا زائلة فانية، لا قرار لها ولا ثبات، كاللعب واللهو الذي يتلهى به الأولاد قال شيخ زاده: بيَّن تعالى أن الدنيا وما فيها من الحظوظ العاجلة، لا يصلح مانعًا من الإقدام إلى الجهاد، وما يؤدي إلى ثواب الآخرة، لكونها بمنزلة اللهو اللعب في سرعة زوالها، وأن الآخرة هي الحياة الباقية، فلا ينبغي أن يكون حبُّ الدنيا والحرص على ما فيها من اللذات والشهوات سببًا للجبن عن الغزو والتخلف عن الجهاد[٢] ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ﴾ أي وإن تؤمنوا بالله وتتقوه حقَّ تقواه، يُعْطِكم ثواب أعمالكم كاملًا ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾ أي ولا يطلب منكم أن تنفقوا جميع أموالكم، بل الزكاة المفروضة فيها قال ابن كثير: أي هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئًا، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساةً لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك وثوابه عليكم[٣] ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ﴾ أي إن يسألكم جميع أموالكم ويبالغ في طلبها، ويلح عليكم في إنفاقها تبخلوا ﴿وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾ أي ويخرج ما في قلوبكم من البخل وكراهة الإنفاق قال في التسهيل: وذلك لأن الإنسان جبل على محبة الأموال، ومن نوزع في حبيبه ظهرت سرائره، فمن رحمته تعالى على عباده عدم التشديد عليهم في التكاليف[٤] ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي ها أنتم معشر المخاطبين تُدعَوْن للإنفاق في سبيل الله، وقد كلفتم ما تطيقون ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ﴾ أي فمنكم من يشح عن الإنفاق ويمسك عنه ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ أي ومن بخل عن الإنفاق في سبيل الله فإنما يعود ضرر بخله على نفسه، لأنه يمنعها الأجر والثواب قال الصاوي: وبخل يتعدى بـ «على» إذا ضُمِّن معنى شح، وبـ «عن» إذا ضُمِّن معنى أمسك[٥] ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾ أي والله مستغن عن إنفاقكم ليس بمحتاج إلى أموالكم، وأنتم محتاجون إليه ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ أي وإن تعرضوا عن طاعته واتباع أوامره، يخلف مكانكم قومًا آخرين يكونون أطوع لله منكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ أي لا يكونوا مثلكم في البخل عن الإنفاق بل يكونوا كرماء أسخياء.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - المقابلة بين الآية الأولى والثانية ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد:١] وبين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [محمد: ٢] الآية. وهو من المحسنات البديعية.

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٣٨.

(٢) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٣٥٢.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٣٨.

(٤) «التسهيل» ٤/ ٥٠.

(٥) «حاشية الصاوي» ٤/ ٨٩.

٢ – ذكر الخاص بعد العام ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾[(١)] [محمد: ٢] والنكتة تعظيمه والاعتناء بشأنه.

٣ – الاستعارة التبعية ﴿تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤] شبَّه ترك القتال بوضع آلته، واشتق من الوضع «تضع» بمعنى تنتهي وتترك بطريق الاستعارة التبعية.

٤ – المجاز المرسل ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] أطلق الجزء وأراد الكل أي يثبتكم، وعبَّر بالأقدام لأن الثبات والتزلزل يظهران فيها وهو مثل ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

٥ – الطباق بين ﴿مَنًّا .. فِدَآءً﴾ وبين ﴿ءَامَنُواْ .. وَكَفَرُواْ﴾ وبين ﴿ٱلْغَنِيُّ .. ٱلْفُقَرَآءُ﴾.

٦ – المجاز العقلي ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ نسب العزم إلى الأمر وهو لأهله مثل نهاره صائم.

٧ – الالتفات ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع.

٩ – الاستعارة التصريحية ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ شبَّه قلوبهم بالأبواب المقفلة، فإنها لا تنفتح لوعظ واعظ، ولا يفيد فيها عذل عاذل، وهي من لطائف الاستعارات.

١٠ – الإطناب بتكرار ذكر الأنهار ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ..﴾ [محمد: ١٥] الآية وذلك لزيادة التشويق إلى نعيم الجنة.

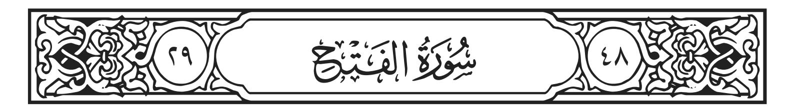
١١ – الكناية ﴿ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ كناية عن الكفر بعد الإيمان.

١٢ – السجع الرصين غير المتكلف ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ .. وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ .. وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة محمد»

❁ ❁ ❁

(١) (ش): في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾.



مدنية وآياتها تسع وعشرون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مدنية، وهي تعنى بجانب التشريع شأن سائر السور المدنية التي تعالج الأسس التشريعية في المعاملات، والعبادات، والأخلاق، والتوجيه.

* تحدثت السورة الكريمة عن «صلح الحديبية» الذي تم بين الرسول ﷺ وبين المشركين سنة ست من الهجرة، والذي كان بداية للفتح الأعظم «فتح مكة» وبه تم العز والنصر والتمكين للمؤمنين، ودخل الناس في دين الله أفواجًا ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ...﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن جهاد المؤمنين، وعن «بيعة الرضوان» التي بايع فيها الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله ﷺ على الجهاد في سبيل الله حتى الموت، وكانت بيعة جليلة الشأن ولذلك باركها الله، ورضي عن أصحابها، وسجلها في كتابه العظيم في سطور من نور ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ...﴾ الآية.

* وتحدثت عن الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ من الأعراب الذين في قلوبهم مرض، ومن المنافقين الذين ظنوا الظنون السيئة برسول الله ﷺ وبالمؤمنين فلم يخرجوا معهم، فجاءت الآيات تفضحهم وتكشف سرائرهم ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ...﴾.

* وتحدثت السورة عن الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ في منامه - في المدينة المنورة - وحدث بها أصحابه ففرحوا واستبشروا، وهي دخول الرسول ﷺ والمسلمين مكة آمنين مطمئنين، وقد تحققت تلك الرؤيا الصادقة فدخلها المؤمنون معتمرين مع الأمن والطمأنينة ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾.

* وختمت السورة الكريمة بالثناء على الرسول ﷺ وأصحابه الأطهار الأخيار ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ الآية.

التسمية: سميت سورة الفتح لأن الله تعالى بشر المؤمنين بالفتح المبين ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ..﴾ الآيات.

فضلها: نزلت السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية، ولما نزلت هذه السورة قال صلوات الله عليه: «لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما

فيها ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا..﴾» أخرجه الإمام أحمد[1].

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا

اللغة: ﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾ السكونُ والطمأنينة والثبات ﴿ٱلسَّوْءِ﴾ المساءة والحزن والألم قال الجوهري: ساءَه سَوْءًا بالفتح ومساءةً نقيضُ سَرَّه، والاسمُ السُّوءُ بالضم، ودائرة السُّوء يعني الهزيمة والشر، ومن فتح فهو من المَساءة[2] ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ تعظّموه وتنصروه وتمنعوا الأذى

---

(١) (ش): وصححه أحمد شاكر والأرنؤوط. ورواه البخاري بلفظ: « لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ». ثُمَّ قَرَأَ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾. وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: نَزَلَتْ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ مَرْجِعَهُ صلى الله عليه وسلم مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) «الصحاح للجوهري». (ش): ساء فلانًا: فعَلَ به ما يكره. والمَساءَة: الضرر، العيب، النقص، ما يُلحق سوءًا، أو ضررًا، أو إجحافًا. والجمع مساوِي.

عنه، وسمي التعزيرُ في الحدود تعزيرًا لأنه مانع من فعل القبيح ﴿نَّكَثَ﴾ نقض البيعة والعهد ﴿بُورًا﴾ هلكى قال الجوهري: البورُ: الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه، و «قومًا بورًا» جمع بائر، وبار فلان أي هلك[١] ﴿حَرَجٌ﴾ إثم وذنب.

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس قال: تخلف عن رسول الله ﷺ أعراب المدينة حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح، بعد أن كان استنفرهم معه حذرًا من قريش، وأحرم بعمرةٍ وساق معه الهَدْي ليعلم الناسُ أنه لا يريد حربًا، فتثاقلوا عنه واعتلّوا بالشغل فنزلت ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ..﴾ الآية[٢].

التفسِير: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أي قد فتحنا لك يا محمد مكة فتحًا بينًا ظاهرًا، وحكمنا لك بالفتح المبين على أعدائك، والمراد بالفتح فتح مكة، وعده الله به قبل أن يكون، وذكره بلفظ الماضي لتحققه، وكانت بشارة عظيمة من الله تعالى لرسوله وللمؤمنين قال الزمخشري: هو فتح مكة، وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية، وهو وعدٌ له بالفتح، وجيء به بلفظ الماضي على عادة ربّ العزَّة سبحانه في أخباره، لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن الفتح ما لا يخْفَى[٣] ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي ليغفر لك ربك يا محمد جميع ما فرط منك من ترك الأولى قال أبو السعود: وتسميتُه ذنبًا بالنظر إلى منصبه الجليل[٤] وقال ابن كثير: هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، وفيه تشريفٌ عظيم لرسول الله ﷺ إذ هو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة، وهو في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم يَنَلْها بشرٌ سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، ولما كان أطوع خلق الله بشره الله بالفتح المبين، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر[٥] ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أي وكمّل نعمته عليك بإعلاء الدين ورفع مناره ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي ويرشدك إلى الطريق القويم، المُوصِل إلى جنات النعيم[٦]؛ بما يشرعه لك من الدين العظيم ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٦٨. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير عن مجاهد وابن عباس ولكن بدون إسناد.

(٣) «الكشاف» ٤/ ٢٦٢، وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالفتح « صلح الحديبية» لما ترتب عليه من الآثار العظيمة، من بيعة الرضوان، ومن الصلح الذي عقده رسول الله ﷺ مع قريش، ومن دخول كثير في الإسلام، إلى غير ما هنالك، وإلى هذا ذهب ابن كثير. (ش): عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رضى الله عنه- ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قَالَ الْحُدَيْبِيَةُ. رواه البخاري: وعَنِ الْبَرَاءِ - رضى الله عنه - قَالَ: تَعُدُّونَ أَنْتُمُ الْفَتْحَ فَتْحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ. رواه البخاري.

(٤) «أبو السعود» ٥/ ٨٠.

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٤٠.

(٦) (ش): مُوصِل: اسم فاعل من أَوْصَلَ. أَوْصَلَ الطَّرِيقُ إِلَى الدَّارِ: أَدَّى. يقال: هذا طريقٌ يُوصِلُ إلى المدينة. مُوَصِّل: اسم فاعل من وَصَّلَ.

وينصرك الله على أعدائك نصرًا قويًا منيعًا، فيه عزةٌ وغلبة، يجمع لك به بين عز الدنيا والآخرة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هو جل وعلا الذي جعل السكون والطمأنينة في قلوب المؤمنين ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ أي ليزدادوا يقينًا مع يقينهم، وتصديقًا مع تصديقهم، برسوخ العقيدة في القلوب، والتوكل على علَّام الغيوب ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ولله جلَّت عظمته كل جنود السموات والأرض، من الملائكة والجن، والحيوانات، والصواعق المدمّرة، والزلازل، والخسف والغرق، جنودٌ لا تُحصى ولا تُغلب، يسلطها على من يشاء قال ابن كثير: ولو أرسل عليهم ملكًا واحدًا لأباد خضراءهم[١]، ولكنه تعالى شرع لعباده الجهاد، لما له في ذلك من الحجة القاطعة والحكمة البالغة[٢] ولذلك قال ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عليمًا بأحوال خلقه، حكيمًا في تقديره وتدبيره قال المفسرون: أراد بإنزال السكينة في قلوب المؤمنين «أهل الحديبية» حين بايعوا رسول الله ﷺ على مناجزة الحرب مع أهل مكة[٣]، بعد أن حصل لهم ما يُزعج النفوس ويُزيغ القلوب، مِن صَدّ الكفار لهم عن دخول مكة، ورجوع الصحابة دون بلوغ مقصود، فلم يرجع منهم أحدٌ عن الإيمان، بعد أن هاج الناس وماجوا[٤]، وزُلزلوا حتى جاء عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ وقال: «أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟» قَالَ «بَلَى». قَالَ: «أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟». قَالَ: «بَلَى». قَالَ: «فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟». قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي»[٥].. الخ.

---

(١) (ش): أباد اللهُ خضراءَهم: أفْنَاهم، أذهَب خِصبهم ونعيمهم.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٤١.

(٣) (ش): ناجزه الحربَ: نازَلَه، وقاتَلَه.

(٤) (ش): هاج القومُ: ثاروا وغضبوا لضررٍ أو عُسرٍ. ماج القومُ: اختلفت أمورُهم واضطربت، وازدحموا لكثرتهم.

(٥) انظر تفصيل القصة في صحيح البخاري وفي سيرة ابن هشام. (ش): لم يكن ذلك من عمر رضي الله عنه شكًّا، ولا معارضةً، بل كان استكشافًا لما خفي عنه، وحثًّا على قتال أهل الكفر، وإذلالهم، وحرصًا على ظهور المسلمين على عدوهم، وهذا على مقتضى ما كان عنده من القوة في دين الله، والجرأة، والشجاعة التي خصَّه الله بها. فليس في قصة صلح الحديبية ما ادعاه الشيعة من أن الصحابة رضي الله عنهم – ومنهم عمر رضي الله عنه – أرادوا مخالفة نبيهم ﷺ، ولكن الأمر أنهم فعلوا ما فعلوه حبًّا لدينهم وعقيدتهم وحنقًا على الكافرين، وظنوا كما يظن أي إنسان تعتريه الأعراض البشرية أن ما جاء في المعاهدة التي أُبرِمَت من الشروط ما يعتبر إجحافًا في حق المسلمين وهذا ما كان ظاهرًا وجليًّا في هذه المعاهدة، وهم ليسوا معصومين ويوحَى إليهم مثل نبيهم ﷺ ويقال للشيعة: كيف يخالف الصحابة نبيهم ولا يمتثلون أمره كما زعمتم ثم ينزل فيهم قوله تعالى ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨] فهذه الآية نزلت في صلح الحديبية، فكيف يخبر الله الذي يعلم السر وأخفى برضاه عن الصحابة لعلمه ما في قلوبهم من الصدق والوفاء والسمع والطاعة ويبشرهم بالفتح القريب ثم يأتي الشيعة ليشككوا في نيات الصحابة تجاه نبيهم ﷺ؟ وزعْمُ الشيعة أن عمر رضي الله عنه كان يشكك في نبوة ﷺ، فيه اتهام للنبي ﷺ لو كانوا يفقهون! فإذا كان الأمر كما يدَّعون فلماذا لم يأمر النبي ﷺ بقتله، أو حتى على الأقل يبين أن ما فعله عمر كان شَكًّا في نبوته ﷺ كما فهم الشيعة النابهون؟!

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ليدخلهم على طاعتهم وجهادهم حدائق وبساتين ناضرة، تجري من تحتها أنهار الجنة ماكثين فيها أبدًا ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي يمحو عنهم خطاياهم وذنوبهم ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي وكان ذلك الإدخال في الجنات والتكفير عن السيئات، فوزًا كبيرًا وسعادةً لا مزيد عليها، إذ ليس بعد نعيم الجنة نعيم ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أي وليعذِّب الله أهل النفاق والإشراك، وقدَّمهم على المشركين لأنهم أعظم خطرًا وأشد ضررًا من الكفار المجاهرين بالكفر ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أي الظانين بربهم أسوأ الظنون، ظنوا أن الله تعالى لن ينصر رسله والمؤمنين، وأن المشركين يستأصلونهم جميعًا كما قال تعالى ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ قال القرطبي: ظنوا أن النبي ﷺ لا يرجع إلى المدينة ولا أحدٌ من أصحابه حين خرج إلى الحديبية[1] ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ دعاءٌ عليهم، أي: عليهم ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين من الهلاك والدمار ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أي سخط تعالى عليهم بكفرهم ونفاقهم، وأبعَدهم عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي وهيأ لهم في الآخرة نارًا مستعرة هي نار جهنم، وساءت مرجعًا ومنقلبًا لأهل النفاق والضلال ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تأكيد للانتقام من الأعداء أعداء الإسلام من الكفَرة والمنافقين قال الرازي: كرر اللفظ لأن جنود الله قد يكون إنزالهم للرحمة، وقد يكون للعذاب، فذكرهم أولًا لبيان الرحمة للمؤمنين وثانيًا لبيان إنزال العذاب على الكافرين[2] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي عزيزًا في ملكه وسلطانه، حكيمًا في صنعه وتدبيره قال الصاوي: ذكر هذه الآية أولًا في معرض الخلق والتدبير فذيَّلها بقوله ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[3] وذكرها ثانيًا في معرض الانتقام فذيلها بقوله ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وهو في منتهى الترتيب الحسن، لأنه تعالى ينزل جنود الرحمة لنصرة المؤمنين، وجنود العذاب لإهلاك الكافرين.. ثم امتن تعالى على رسوله الكريم بتشريفه بالرسالة، وبعثه إلى كافة الخلق فقال ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: إنا أرسلناك يا محمد شاهدًا على الخلق يوم القيامة، ومبشرًا للمؤمنين بالجنة، ومنذرًا للكافرين من عذاب النار ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي أرسلنا الرسول لتؤمنوا أيها الناس بربكم ورسولكم حقَّ الإيمان، إيمانًا عن اعتقاد ويقين، لا يخالطه شك ولا ارتياب ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي تُفخِّموه وتُعظِّموه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي تحترموا وتجلُّوا أمره مع التعظيم والتكريم، والضمير فيهما للنبي ﷺ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي تسبحوا ربكم في

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٦٥.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٨/ ٨٤.

(٣) «حاشية الصاوي» ٤/ ٩٢.

الصباح والمساء[١]، ليكون القلب متصلاً بالله في كل آن، ثم قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي إن الذين يبايعونك يا محمد في الحديبية «بيعة الرضوان» إنما يبايعون في الحقيقة الله، وهذا تشريفٌ للنبي ﷺ حيث جعل مبايعته بمنزل مبايعة الله، لأن الرسول ﷺ سفيرٌ ومعبِّر عن الله قال المفسرون: المراد بالبيعة هنا بيعة الرضوان بالحديبية، حين بايع الصحابة رسول الله ﷺ على الموت كما روى الشيخان عن سلمة ابن الأكوع أنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على الموت»[٢] وسميت «بيعة الرضوان» لقول الله فيها ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال ابن كثير: أي هو تعالى حاضر معهم، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظاهرهم، فهو تعالى المبايع بواسطة رسول ﷺ وسلم[٣] وقال الزمخشري: يريد أن يد رسول الله ﷺ التي تعلو أيدي المبايعين هي يدُ الله، والمعنى أن من بايع الرسول فقد بايع الله كقوله تعالى ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] [٤] ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي فمن نقض البيعة فإنما يعود ضرر نكثه عليه، لأنه حرم نفسه الثواب وألزمها العقاب بنقضه العهد والميثاق الذي عاهد به ربه ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ أو ومنْ وفَّى بعهده ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي فسيعطيه الله ثوابًا جزيلًا، وهو الجنة دار الأبرار ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي سيقول لك يا محمد المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج معك عام الحديبية من أعراب المدينة: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ أي شُغلنا عن الخروج معك بالأموال والأولاد، فاطلب لنا من الله المغفرة، لأن تخلفنا لم يكن باختيار بل عن اضطرار قال في التسهيل: سمَّاهم تعالى بالمخلَّفين لأنهم تخلَّفوا عن غزوة الحديبية، والأعراب هم أهل البوادي من العرب. لما خرج رسول الله ﷺ إلى مكة يعتمر، رأوا أنه يستقبل عدوًّا كثيرًا من قريش وغيرهم فقعدوا عن الخروج معه، ولم يكن إيمانهم متمكنًا فظنوا أنه لا يرجع هو والمؤمنون من ذلك السفر، ففضحهم الله في هذه السورة وأعلمَ تعالى رسوله ﷺ بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل إليهم، وأعلمه أنهم كاذبون في اعتذارهم[٥] ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ اي يقولون خلاف

---

(١) الضمير هنا عائد على الله تعالى، وقيل: إنَّ الضمائر كلها راجعة على الله سبحانه وهو اختيار البيضاوي وأبي السعود، وما ذكرناه منقول عن الضحاك وهو اختيار القرطبي.

(٢) (ش): في روايات صحيحة أن البيعة كانت على الموت. وفي روايات صحيحة أخرى أنهم بايعوه على ألا يفروا وليس على الموت. أو أنهم بايعوه على الصبر. ولا تعارض في ذلك لأن المراد بالمبايعة على الموت ألا يفروا. [انظر: السيرة النبوية الصحيحة، محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية (٢/ ٤٤٠)].

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٤٢.

(٤) «الكشاف» ٤/ ٢٦٥.

(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٥٢.

مـا يبطنون وهـذا هو النفاق المحض، فهم كاذبون في الاعتذار وطلب الاستغفار، لأنهم قالوه ريـاءً من غير صدقٍ ولا توبـة ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾؟ أي قل لهم: مَن يمنعكم من مشيئة الله وقضائه، إن أراد أن يُلحق بكم أمرًا يضركم كالهزيمة، أو أمـرًا ينفعكـم كالنصر والغنيمة؟ قـال القرطبي: وهذا رَدٌّ عليهم حيـن ظنوا أن التخلف عن الرسول ﷺ يدفع عنهم الضرَّ، ويُعجل لهم النفع[1] ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ أي ليس الأمر كمـا زعمتم بل الله مطلـع على ما في قلوبكم من الكذب والنفاق، ثم أظهر تعالى ما يخفونه في نفوسـهم فقـال ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي بـل ظننتـم أيهـا المنافقون أن محمدًا وأصحابه لن يرجعوا إلى المدينة أبدًا ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي وزُيّن ذلك الضلال في قلوبكم ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أي ظننتم أنهم يُسْـتأصَلون بالقتل، ولا يرجع منهم أحد ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي وكنتم قومًا هالكين عند الله، مسـتوجبين لسـخطه وعقابه ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لما بيَّن حال المتخلفين عن رسول الله، وبيَّن حال ظنهم الفاسد، وأنـه يفضي بصاحبه إلى الكفر، حرَّضهم على الإيمان والتوبة على سبيل العموم. والمعنى: مـن لم يؤمن بالله ورسـوله بطريق الإخلاص والصـدق ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي فإنَّا هيأنا للكافرين نارًا شـديدة مستعرة، وهو وعيدٌ شديد للمنافقين ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي لـه جـل وعلا جميـع ما في السـموات والأرض، يتصرف في الكل كيف يشـاء ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أي يرحم من يشـاء من عباده ويُعذب من يشـاء، وهذا قطع لطمعهم في استغفار رسـول الله ﷺ لهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ أي سـيقول الذيـن تخلَّفـوا عن الخروج مع رسول الله في عمرة الحديبية، عند ذهابكم إلى مغانم خيبر لتحصلوا عليها ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي اتركونا نخرج معكم إلى خيبر لنقاتل معكم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي يريـدون أن يُغيّـروا وعد الله الذي وعده لأهل الحديبية[2] مِـن جَعْل غنائم خيبر لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد قال القرطبي: إن الله تعالى جعل لأهل الحديبية غنائم خيبر عوضًا عن فتح مكـة إذ رجعوا من الحديبية على صلـح[3] ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أي قل لهم: لا تتبعونا فلن يكون لكـم فيها نصيب ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي كذلكم حكم الله تعالى بأن غنيمة خيبر لمن شـهد الحديبية، ليس لغيرهم فيها نصيب قبل رجوعنا منها ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي فسـيقولون: ليس هذا من الله بل هو حسـد منكم لنا على مشاركتكم في الغنيمة، قال تعالى ردًّا

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٦٩.

(٢) (ش): أي كلام الله الذي وعد به أهل الحديبية.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٧١.

عليهم ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا يفهمون إلا فهمًا قليلًا وهو حرصهم على الغنائم وأمور الدنيا ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي قل لهؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية كرَّر وصفهم بهذا الإسم إظهارًا لشناعتة ومبالغةً في ذمهم: ستُدعون إلى حرب قوم أشداء، هم بنو حنيفة قوم مسليمة الكذاب أصحاب الردة ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي إما أن تقتلوهم أو يدخلوا في دينكم بلا قتال ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي فإن تستجيبوا وتخرجوا لقتالهم يعطكم الله الغنيمة والنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وإن تتخلفوا عن الخروج كما تخلفتم زمن الحديبية، يعذبكم اللهُ عذابًا شديدًا مؤلمًا في نار جهنم. ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد فقال ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي ليس على هؤلاء إثم أو ذنب في ترك الخروج للجهاد لما بهم من الأعذار الظاهرة ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي من يطع أمر الله وأمر الرسول يُدخِلْه جنات النعيم خالدًا فيها ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي ومن ينكل عن الجهاد لغير عذر يعذبه الله عذابًا شديدًا، في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالنار.

قال الله تعالى:

لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ

﴿أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾

المناسَبَة: لمَّا ذكر تعالى حال المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ، ذكر تعالى حال المؤمنين المجاهدين الذين بايعوا الرسول «بيعة الرضوان» تسجيلًا لرضى الله تعالى عنهم، وتخليدًا لمآثرهم الكريمة، وختم السورة الكريمة بالثناء على الصحابة الأبرار، بأبلغ ثناء وأكرم تمجيد.

اللغَة: ﴿أَظْفَرَكُمْ﴾ أظهركم وأعلاكم، ظفر بالشيء غلب عليه، وأظفره غلبه[1] ﴿مَعْكُوفًا﴾ محبوسًا ومنه الاعتكاف ﴿مَّعَرَّةٌۢ﴾ المعرَّة: العيب والمشقة اللاصقة بالإنسان من العُرِّ وهو الجرَب[2] ﴿تَزَيَّلُوا۟﴾ تميَّزوا ﴿ٱلْحَمِيَّةَ﴾ الأنفة والغضب الشديد ﴿سِيمَاهُمْ﴾ علامتهم ﴿شَطْـَٔهُۥ﴾ الشطء: الفراخ قال الجوهري: شطءُ الزرع والنبات فراخُه والجمع أشطاء[3] ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ قوَّاه وأعانه وشدَّه.

سَبَبُ النّزول: عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْه أن ثمانين من أهل مكة هبطوا على النبي ﷺ من التنعيم متسلّحين يريدون الغدر به وبأصحابه فأخذناهم أسرى فأنزل الله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ...﴾ الآية[4].

التفسير: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ اللام مُوطِّئةٌ لِقَسمٍ مَحذوف[5] أي والله لقد رَضِيَ اللهُ عَن المؤمنين حين بايعوك يا محمد «بيعة الرضوان» تحت ظل الشجرة بالحديبية قال المفسرون: كان سبب هذه البيعة أن رسول الله ﷺ لما بلغ الحديبية أرسل عثمان بن عفان إلى أهل مكة يخبرهم أنه إنما جاء معتمرًا، وأنه لا يريد حربًا، فلما ذهب عثمان حبسوه عندهم، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة على أن يدخلوا مكة حربًا، وبايعوه على الموت، فكانت بيعة الرضوان، فلما بلغ المشركين ذلك أخذهم الرعب وأطلقوا عثمان وطلبوا الصلح من رسول الله ﷺ على أن يأتي في العام القابل، ويدخلها ويقيم فيها ثلاثة أيام، وكانت هذه البيعة تحت شجرة سمرة بالحديبية وقد سميت «بيعة الرضوان» ولما رجع المسلمون يعلوهم الحزنُ والكآبة، أراد الله تسليتهم وإذهاب الحزن عنهم فأنزل الله هذه السورة على رسوله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] وكان عدد الذين بايعوا رسول الله ﷺ ألفًا وأربعمائة رجل،

---

(١) «البحر» ٨/ ٨٨.

(٢) (ش): العَرُّ والعُرُّ والعُرَّةُ: الجَرَبُ.

(٣) «الصحاح» للجوهري. (ش): أي فُروعهُ.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٨٠. (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ وغيره.

(٥) (ش): أي مُمَهِّدةٌ له؛ لأنها التي تُهَيِّئ الذهن لمعْرفَته.

وفيهم نزلت الآية الكريمة ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ ولم يتخلف عن البيعة إلا «الجد بن قيس» من المنافقين[١]، وحضر هذه البيعة روح القدس جبريل الأمين، ولهذا سُطرت في الكتاب المبين[٢] ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي فعلم تعالى ما في قلوبهم من الصدق والوفاء، عند مبايعتهم لك على حرب الأعداء ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي رزقهم الطمأنينة وسكون النفس عند البيعة ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي وجازاهم على بيعة الرضوان بفتح خيبر، وما فيها من النصر والغنائم، زيادةً على ثواب الآخرة ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ أي وجعل لهم الغنائم الكثيرة التي غنموها من خيبر قال ابن كثير: هو ما أجرى الله عَزَّ وَجَلَّ على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العامِّ بفَتْح خيبر، ثم فَتْح سائر البلاد والأقاليم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة[٣]، ولهذا قال تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي غالبًا على أمره، حكيمًا في تدبيره وصنعه، ولهذا نصركم عليهم وغَنَّمَكم أرضهم وديارهم وأموالهم[٤] ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ أي وعدكم الله معشر المؤمنين على جهادكم وصبركم الفتوحات الكثيرة، والغنائم الوفيرة تأخذونها من أعدائكم، قال ابن عباس: هي المغانم التي تكون إلى يوم القيامة[٥] قال في البحر: ولقد اتَّسع نطاق الإسلام، وفتح المسلمون فتوحًا لا تُحصى، وغنموا مغانم لا تُعدُّ وذلك في شرق البلاد وغربها، حتى في الهند والسودان تصديقًا لوعده تعالى وقدم علينا أحد ملوك غانة من بلاد التكرور[٦]، وقد فتح أكثر من خمس وعشرين مملكة من بلاد السودان، وأسلموا معه

---

(١) (ش): أي بايعوه جميعًا سوى الجد بن قيس لم يبايع لأنه كان من المنافقين. عن جَابِرِ بن عبد الله رضي الله عنهما قَالَ: كُنَّا أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً فَبَايَعْنَاهُ وَعُمَرُ آخِذٌ بِيَدِهِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ وَهِيَ سَمُرَةٌ فَبَايَعْنَاهُ غَيْرَ جَدِّ بْنِ قَيْسٍ الأَنْصَارِيِّ اخْتَبَأَ تَحْتَ بَطْنِ بَعِيرِهِ. (رواه مسلم). والسَّمُرَةُ: من شجر الطَّلْح، والجمع سَمُرٌ.

(٢) انظر تفصيل القصة في «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٧٤. (ش): لَم أجد ما يدل على حضور جبريل عليه السلام بيعة الرضوان.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٤٥.

(٤) (ش): أي جعلها لكم غنيمة.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٧٨.

(٦) (ش): مملكة التكرور هو اسم لشعب كبير أسس مملكة إفريقية قديمة جدًّا امتدت من غرب السودان إلى سواحل المحيط الأطلسي في أراضٍ شاسعة تزيد عن مساحة الجزيرة العربية والعراق والشام معًا. ضمت تلك المملكة أراضي المناطق المعروفة اليوم سياسيا بموريتانيا والسنغال ومالي ونيجيريا والنيجر وتشاد وصولا إلى حدود دارفور في السودان. دخل الإسلام مملكة التكرورو، على الأرجح، بداية القرن الخامس الهجري، أي قبل سنة ١٠٣٠م بعدة سنوات بإسلام أفراد وجماعات صغيرة على يد التجار المسلمين القادمين من شمال أفريقيا.ورغم قوة المملكة آنذاك، فقد دخل الإسلام مملكة التكرور طواعيةً دون قتال وباختيار أهلها. ففي حوالي سنة ١٠٣٠م أسلم ملك مملكة التكرور القوي «وارديابي» وأسلم معه رجال الدولة والعلماء ثم عَمَّ الإسلام كافة أرجاء المملكة. (وانظر كتاب: «سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور، رحلة في مالي وحديث عن ماضيها المجيد، وحاضرها الجديد»، لمحمد بن ناصر العبودي).

وقدم علينا ببعض ملوكهم يحُجّ معه[١] ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أي فعجَّل لكم غنائم خيبر بدون جهد وقتال ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي ومنع أيدي الناس أن تمتد إِليكم بسوء فقال المفسرون: المراد أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد وغطفان، حين جاءوا النصرتهم فقذف الله في قلوبهم الرعب ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ولتكون الغنائم، وفتح مكة، ودخول المسجد الحرام علامة واضحة تعرفون بها صدق الرسول فيما أخبركم به عن الله ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي ويهديكم تعالى إلى الطريق القويم، الموصل إلى جنات النعيم بجهادكم وإِخلاصكم قال الإمام الفخر: والآية للإِشارة إلى أنَّ ما أعطاهم من الفتح والمغانم، ليس هو كل الثواب، بل الجزاء أمامهم، وإِنما هو شيء عاجل عجَّله لهم لينتفعوا به، ولتكون آية لمن بعدهم من المؤمنين، تدل على صدق وعد الله في وصول ما وعدهم به كما وصل إِليكم[٢] ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ أي وغنيمةً أخرى يسَّرها لكم، لم تكونوا بقدرتكم تستطيعون عليها، ولكنَّ الله بفضله وكرمه فتحها لكم، والمراد بها فتح مكة ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي قد استولى الله عليها بقدرته ووهبها لكم، فهي كالشيء المحاط به من جوانبه محبوسٌ لكم لا يفوتكم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ أي قادرًا على كل شيء، لا يعجزه شيء أبدًا، فهو القادر على نصرة أوليائه، وهزم أعدائه قال ابن كثير: المعنى أي وغنيمةً أخرى وفتحًا آخر معينًا، لم تكونوا تقدرون عليها، قد يسَّرها الله عليكم وأحاط بها لكم، فإِنه تعالى يرزق عباده المتقين من حيث لا يحتسبون والمرادُ بها في هذه الآية «فتح مكة» وهو اختيار الطبري[٣] ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ تذكيرٌ لهم بنعمةٍ أخرى أي ولو قاتلكم أهل مكة ولم يقع الصلح بينكم وبينهم، لغلبوا وانهزموا أمامكم ولم يثبتوا ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي ثم لا يجدون من يتولّى أمرهم بالحفظ والرعاية، ولا من ينصرهم من عذاب الله ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي تلك طريقة الله وعادتُه التي سنَّها فيمن مضى من الأمم، من هزيمة الكافرين ونصر المؤمنين قال في البحر: أي سنَّ الله لأنبيائه ورسله سنة قديمة وهي قوله ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾[٤] [المجادلة: ٢١] ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي وسنته تعالى لا تتبدَّل ولا تتغيَّر ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أي وهو تعالى بقدرته

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٩٩٦. (ش): ما أثبتناه في هذا الهامش واثنين بعده هو الصواب، والمُثبَت في أكثر من طبعة غيرُ ذلك، وهي أخطاء طباعية واضحة.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٨/ ٩٦.

(٣) ما ذكره ابن كثير هو الراجح وهو اختيار الطبري وأبي حيان، وهو منقول عن قتادة والحسن، ويؤيده أن الله تعالى قال: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾، وهذا يدل على تقدُّم محاولة لفَتْحها وهو منطبقٌ على «فتح مكة»، وقيل: إن المراد فتح فارس والروم، وقيل: هوازن في حُنَين، وما ذكرناه أرجح.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٩٧.

وتدبيره صرف أيدي كفار مكة عنكم كما صرف عنهم أيديكم بالحديبية التي هي قريبة من البلد الحرام قال ابن كثير: هذا امتنانٌ من الله تعالى على عباده المؤمنين، حين كفَّ أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكفَّ أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلًّا من الفريقين وأوجد بينهم صلحًا، فيه خيرة للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة[١] ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي من بعد ما أخذتموهم أسارى وتمَكَّنْتُم منهم قال الجلال: وذلك أن ثمانين من المشركين طافوا بعسكر المؤمنين ليصيبوا منهم، فأخذوا وأُتي بهم إلى رسول الله ﷺ فعفا عنهم وخلَّى سبيلهم، فكان ذلك سبب الصلح[٢] وقال في التسهيل: وروي في سببها أن جماعةً من فتيان قريش خرجوا إلى الحديبية، ليصيبوا من عسكر رسول الله ﷺ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في جماعةٍ من المسلمين فهزموهم وأسروا منهم قومًا، وساقوهم إلى رسول الله ﷺ فأطلقهم[٣]، فكَفُّ أيدِي الكفارِ هو هزيمتُهم وأسْرُهم، وكفُّ أيدي المؤمنين عن الكفار هو إطلاقهم من الأسْر وسلامتُهم من القتل[٤] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي هو تعالى بصير بأعمالكم وأحوالكم، يعلم ما فيه مصلحة لكم، ولذلك حجزكم عن الكافرين رحمةً بكم، وحرمةً لبيته العتيق لئلا تسفك فيه الدماء.. ثم ذكر تعالى استحقاق المشركين للعذاب والدمار فقال ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي هم كفار قريش المعتدون الذين كفروا بالله والرسول، ومنعوا المؤمنين عن دخول المسجد الحرام لأداء مناسك العمرة عام الحديبية ﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي وصدُّوا الهدي أيضًا وهو ما يُهدى لبيت الله لفقراء الحرم معكوفًا، أي: محبوسًا عن أن يبلغ مكانه الذي يُذبَح فيه وهو الحرم قال القرطبي: يعني قريشًا منعوا المسلمين من دخول المسجد الحرام عام الحديبية، حين أحرم رسول الله ﷺ مع أصحابه بالعمرة، ومنعوا الهدي وحبسوه عن أن يبلغ محله، وهذا كانوا لا يعتقدونه، ولكنه حمَلَتْهم الأنَفَة ودعَتْهم الحَمِيَّة الجاهلية على أن يفعلوا ما لا يعتقدونه دينًا، فوبخهم الله على ذلك وتوعَّدهم عليه، وأدخل الأُنْس على رسول الله ببيانه ووعده[٥] ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ﴾ أي ولولا أن في مكة رجالًا ونساءً من المؤمنين المستضعفين، الذين يُخْفُون إيمانهم خوفًا من المشركين ﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ أي لا تعرفونهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ أي كراهة أن تُوقِعُوا بهم وتقتلوا منهم دون علم منكم

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٤٦.

(٢) «تفسير الجلالين» ٤/ ٩٧. (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(٣) (ش): ضعيف جدًّا رواه الطبري في «تفسيره».

(٤) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٥٤.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٨٣.

بإيمانهم، فينالكم بقَتْلهم إثم وعيب وجواب «لولا» محذوفٌ تقديره: لأَذِنَ لكم في دخول مكة، ولسلَّطكم على المشركين قال الصاوي: والجواب محذوف قدَّره الجلال بقوله: لأذِنَ لكم في الفتح، ومعنى الآية: لولا كراهة أن تُهلكوا أناسًا مؤمنين بين أظهر الكفار، حال كونكم جاهلين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه لما كفَّ أيديكم عنهم، ولأذن لكم في فتح مكة [١] ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي إنما فعل ذلك ليخلّص المؤمنين من بين أظهر المشركين، وليرجع كثيرٌ منهم إلى الإسلام قال القرطبي: أي لم يأذن الله لكم في قتال المشركين، ليُسْلم بعد الصلح مَن قضى أن يُسْلم من أهل مكة، وكذلك كان، أسلم كثير منهم وحسن إسلامُه، ودخلوا في رحمته وجنته[٢] ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي لو تفرقوا وتميَّز بعضهم عن بعض، وانفصل المؤمنون عن الكفار، لعذبنا الكافرين منهم أشدَّ العذاب، بالقتل والسبي والتشريد من الأوطان ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ﴾ أي حين دخل إلى قلوب الكفار الأنفة والكبرياء بالباطل، فرفضوا أن يكتبوا في كتاب الصلح «بسم الله الرحمن الرحيم» ورفضوا أن يكتبوا «محمد رسولُ الله» وقولهم: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك ولكنْ اكتبْ اسمك واسم أبيك[٣] ﴿حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي أَنَفةً وغطرسةً وعصبيةً جاهلية ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي جعل الطمأنينة والوقار في قلب الرسول والمؤمنين، ولم تلحقهم العصبية الجاهلية كما لحقت المشركين ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ أي اختار لهم كلمة التقوى إلزام تكريم وتشريف وهي كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» هذا قول الجمهور، والظاهر: أن المراد بكلمة التقوى هي إخلاصهم وطاعتهم لله ورسوله، وعدم شقّ صف الطاعة عندما كُتبت بنود الصلح، وكانت مجحفةً بحقوق المسلمين في الظاهر، فثبَّت الله المؤمنين على طاعة رسول الله ﷺ وكان في هذا الصلح كل الخير للمسلمين[٤] ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَا﴾ أي وكانوا أحقَّ بهذه الفضيلة من كفار مكة، لأن الله اختارهم لدينه وصحبة نبيه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ أي عالمًا بمن هو أهل للفضل، فيخصه بمزيد من الخير والتكريم. ثم أخبر تعالى عن رؤيا رسول الله ﷺ في المنام وهي رؤيا حق لأنها جزء من الوحي فقال ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّ﴾ اللام موطئة للقسم، و «قد» للتحقيق، أي: والله لقد جعل الله رؤيا رسوله صادقة محققة لم يدخلها الشيطان لأنها رؤيا حق قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ قد رأى في منامه أنه دخل مكة هو وأصحابه وطافوا بالبيت، ثم حلق بعضهم وقصَّر بعضهم، فحدَّث بها أصحابه ففرحوا واستبشروا، فلما

(١) «حاشية الصاوي علي الجلالين» ٤/ ٩٨.
(٢) تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٨٦.
(٣) (ش): رواه البخاري ومسلم.
(٤) هذا ما ألهمني الله إياه عند تفسير الآيات الكريمة من واقعة صلح الحديبية ولعله واضح لمن تمعَّن فيه.

خرج إلى الحديبية مع الصحابة، وصدَّه المشركون عن دخول مكة، وقع ما وقع من قضية الصلح، ارتاب المنافقون وقالوا: واللهِ ما حلقنا ولا قصَّرنا ولا رأينا البيت، فأين هي الرؤيا؟ ووقع في نفوس بعض المسلمين شيء فنزلت الآية ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ فأعلم تعالى أن رؤيا رسوله حقٌّ، وأنه لم يكذب فيما رأى، ولكنه ليس في الرؤيا أنه يدخلها عام ستة من الهجرة، وإنما أراه مجرد صورة الدخول، وقد حقق الله له ذلك بعد عام فذلك قوله تعالى ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي لتدخلن يا محمد أنت وأصحابك المسجد الحرام بمشيئة الله ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي تدخلونها آمنين من العدو، تؤدون مناسك العمرة ثم يحلق بعضكم رأسه، ويقصِّر بعض ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ أي غير خائفين، وليس فيه تكرارٌ لأن المراد (آمنين) وقت دخولكم، وحال المكث، وحال الخروج ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ أي فعلم تعالى ما في الصلح من الحكمة والخير والمصلحة لكم ما لم تعلموه أنتم قال ابن جزي: يريد ما قدَّره تعالى من ظهور الإسلام في تلك المدة، فإنه لما انعقد الصلح وارتفعت الحرب، رغب الناس في الإسلام، فكان رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية في ألف وأربعمائة، وغزا «غزوة الفتح» بعدها بعامين ومعه عشرة آلاف[1] ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي فجعل قبل ذلك فتحًا عاجلًا لكم وهو «صلح الحديبية» وسُمي فتحًا لما ترتَّب عليه من الآثار الجليلة، والعواقب الحميدة، ولهذا روى البخاري عن البراء رَضِيَ اللهُ عَنْه قَالَ: تَعُدُّونَ أَنْتُمُ الْفَتْحَ فَتْحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ»[2] الحديث ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي هو جلَّ وعلا الذي أرسل محمدًا بالهداية التامة الشاملة الكاملة، والدين الحق المستقيم دين الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي لعيله على جميع الأديان، ويرفعه على سائر الشرائع السماوية ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي وكفى بالله شاهدًا على أن محمدًا رسوله. ثم أثنى تعالى على أصحاب رسول الله بالثناء العاطر، وشهد لرسوله بصدق الرسالة فقال ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي هذا الرسول المسمَّى محمدًا هو رسولُ الله حقًّا لا كما يقول المشركون ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي وأصحابه الأبرار الأخيار غلاظٌ على الكفار متراحمون فيما بينهم كقوله تعالى ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] قال أبو السعود: أي يظهرون

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٥٦.

(٢) الحديث أخرجه البخاري وتتمته: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ - ﷺ - أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً، وَالْحُدَيْبِيَةُ بِئْرٌ فَنَزَحْنَاهَا، فَلَمْ نَتْرُكْ فِيهَا قَطْرَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ - ﷺ - فَأَتَاهَا، فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِهَا، ثُمَّ دَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ مَاءٍ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ مَضْمَضَ وَدَعَا، ثُمَّ صَبَّهُ فِيهَا فَتَرَكْنَاهَا غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ إِنَّهَا أَصْدَرَتْنَا مَا شِئْنَا نَحْنُ وَرِكَابَنَا». (ش): (فَنَزَحْنَاهَا) أخذنا ماءها شيئا فشيئا. (فَتَرَكْنَاهَا غَيْرَ بَعِيدٍ) تركناها مدة من الزمن قليلة. (أَصْدَرَتْنَا) أخرجَت لنا وأرجعَت ماء عوضًا عن الذي نُزِحَ منها. (مَا شِئْنَا) القدْر الذي نرغبه ونريده لشُرب وغيره. (وَرِكَابَنَا) هي الإبل التي يُسَارُ عليها ونحوها.

لمن خالف دينهم الشدة والصلابة، ولمن وافقهم في الدين الرحمة والرأفة[١] قال المفسرون: وذلك لأن الله أمرهم بالغلظة عليهم ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] وقد بلغ من تشديدهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تمسَّ أبدانهم، وكان الواحد منهم إذا رأى أخاه في الدين صافحه وعانقه ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أي تراهم أيها السامع راكعين ساجدين من كثرة صلاتهم وعبادتهم، رهبان بالليل أسودٌ بالنهار ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي يطلبون بعبادتهم رحمة الله ورضوانه قال ابن كثير: وصفه بكثرة الصلاة وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ والاحتساب عنده بجزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله ورضاه[٢] ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي علامتهم وسمتُهم كائنة في جباههم من كثرة السجود والصلاة قال القرطبي: لاحت في وجوههم علامات التهجد بالليل وأمارات السهر، قال ابن جريج: هو الوقار والبهاء، وقال مجاهد: هو الخشوع والتواضع، قال منصور: سألت مجاهدًا عن قوله تعالى ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾ أهو أثرٌ يكون بين عيني الرجل؟ قال: لا، ربما يكون بين عَيْنَي الرَّجُل مثل رُكْبة العَنْز[٣] وهو أقسى قلبًا من الحجارة، ولكنه نورٌ في وجوههم من الخشوع[٤] ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي ذلك وصفهم في التوراة: الشدة على الكفار، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة الصلاة والسجود ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج فراخه وفروعه ﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي فقوَّاه حتى صار غليظًا ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي فقام الرزع واستقام على أصوله ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي يعجب هذا الزرع الزراع، بقوته وكثافته وحسن منظره، ليغتاظ بهم الكفار قال الضحّاك: هذا مثل في غاية البيان، فالزرع محمد ﷺ، والشطءُ أصحابُه، كانوا قليلًا فكثروا، وضعفاء فقووا، وقال القرطبي: وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لأصحاب النبي ﷺ يعني أنهم يكونون قليلًا ثم يزدادون ويكثرون، فكان النبي ﷺ حين بدأ بالدعوة ضعيفًا، فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوي أمره، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفًا فيقوى حالًا بعد حال حتى يغلظ نباته، وأفراخه، فكان هذا من أصح مثل وأقوى بيان[٥] ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

---

(١) «أبو السعود» ٥/ ٨٦.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٥٥.

(٣) (ش): (رُكْبَة): مَوْصِل أسفل الفخذ بأعلى الساق. والجمع رُكُبات ورُكْبات ورُكَب. (الماعز): واحد من المَعْز، ذو الشَّعَر من الغنم، خلاف الضَّأن، يُطلق على الذَّكر والأنثى، وقد يقال للذَّكر: تَيْسٌ، وللأنثى: عَنْزٌ وماعزةٌ ومِعْزَاة.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٩٣.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٦/ ٢٩٥. (ش): في أكثر من طبعة هذا الهامش في نفس مكان الهامش السابق، وهو خطأ طباعي واضح.

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ أي وعدهم تعالى بالآخرة بالمغفرة التامة والأجر العظيم والرزق الكريم في جنات النعيم، اللهم ارزقنا محبتهم يا رب العالمين.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿مَا تَقَدَّمَ .. وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وبين ﴿وَمُبَشِّرًا .. وَنَذِيرًا﴾ وبين ﴿بُكْرَةً .. وَأَصِيلًا﴾ وبين ﴿نَّكَثَ .. أَوْفَىٰ﴾ وبين ﴿أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ [الفتح: ١١] وبين ﴿يَغْفِرُ .. وَيُعَذِّبُ﴾ وبين ﴿مُحَلِّقِينَ .. وَمُقَصِّرِينَ﴾ وبين ﴿أَشِدَّآءُ .. رُحَمَآءُ﴾.

٢ - المقابلة بين ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ ..﴾ [الفتح: ٥] الآية وبين ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ [الفتح: ٦] الآية.

٣ - الاستعارة التصريحية المكنية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] شبَّه المعاهدة على التضحية بالأنفس في سبيل الله طلبًا لمرضاته بدفع السِّلع في نظير الأموال، واستعير اسم المشَّبه به للمشبه واشتق من البيع يبايعون بمعنى يعاهدون على دفع أنفسهم في سبيل الله، والمكنية في قوله ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ شبَّه اطلاع الله على مبايعتهم ومجازاته على طاعتهم بملكٍ وضع يده على يد أميره ورعيته، وطوى ذكر المشبَّه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو اليد على طريق الاستعارة المكنية، ففي الآية استعارتان[1].

٤ - الكناية ﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ كناية عن الهزيمة لأن المنهزم يدير ظهره لعدوه للهرب.

٥ - التعبير بصيغة المضارع لاستحضار صورة المبايعة ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ ..﴾.

٦ - الالتفات من ضمير الغائب إلى الخطاب ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ﴾ بعد قوله تعالى ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك لتشريف المؤمنين في مقام الامتنان.

٧ - الإطناب بتكرار الحرج ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧] لتأكيد نفي الإثم عن أصحاب الأعذار.

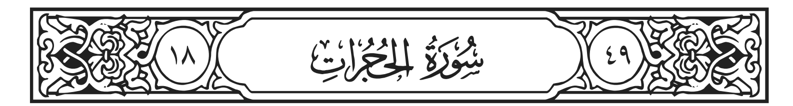
٨ - التشبيه التمثيلي ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ..﴾ الآية لأن وجه الشبه منتزعٌ من متعدد.

٩ - مراعاة الفواصل في نهاية الآيات وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفتح»

❀ ❀ ❀ ❀

(١) (ش): اليدان صفةٌ ذاتيةٌ لله عَزَّ وجَلَّ، نُثبتها كما نُثبت باقي صفاته تعالى؛ من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، وهي ثابتةٌ بالكتاب والسنة.



مدنية وآياتها ثماني عشرة

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مدنية، وهي على وجازتها سورة جليلة ضخمة، تتضمن حقائق التربية الخالدة وأسس المدنية الفاضلة، حتى سماها بعض المفسرين «سورة الأخلاق».

* ابتدأت السورة الكريمة بالأدب الرفيع الذي أدب الله به المؤمنين، تجاه شريعة الله وأمر رسوله وهو ألا يبرموا أمرًا، أو يبدوا رأيًا، أو يقضوا حكمًا في حضرة الرسول ﷺ حتى يستشيروه ويستمسكوا بإرشاداته الحكيمة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

* ثم انتقلت إلى أدب آخر وهو خفض الصوت إذا تحدثوا مع الرسول ﷺ تعظيمًا لقدره الشريف، واحترامًا لمقامه السامي، فإنه ليس كعامة الناس بل هو رسول الله، ومن واجب المؤمنين أن يتأدبوا معه في الخطاب مع التوقير والتعظيم والإجلال ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾.

* ومن الأدب الخاص إلى الأدب العام تنتقل السورة لتقرير دعائم المجتمع الفاضل، فتأمر المؤمنين بعدم السماع للإشاعات، وتأمر بالتثبت من الأنباء والأخبار، لاسيما إن كان الخبر صادرًا عن شخص غير عدل أو شخص متهم، فكم من كلمة نقلها فاجر فاسق سببت كارثة من الكوارث، وكم من خبر لم يتثبت منه سامعه جر وبالًا، وأحدث انقسامًا ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

* ودعت السورة إلى الإصلاح بين المتخاصمين، ودفع عدوان الباغين ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ الآيات.

* وحذرت السورة من السخرية والهمز واللمز، ونفرت من الغِيبة والتجسس والظن السيئ بالمؤمنين، ودعت إلى مكارم الأخلاق، والفضائل الاجتماعية، وحين حذرت من الغيبة جاء النهى في تعبير رائع عجيب، أبدعه القرآن غاية الإبداع، صورة رجل يجلس إلى جنب أخ له ميت ينهش منه ويأكل لحمه ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُ﴾ الآية. ويا له من تنفير عجيب!!

* وختمت السورة بالحديث عن الأعراب الذين ظنوا الإيمان كلمة تقال باللسان، وجاءوا يمنون على الرسول إيمانهم، فتبين حقيقة الإيمان، وحقيقة الإسلام، وشروط المؤمن الكامل وهو الذي جمع الإيمان والإخلاص والجهاد والعمل الصالح ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ إلى آخر السورة الكريمة.

التسمية: سميت «سورة الحجرات» لأن الله تعالى ذكر فيها حرمة بيوت النبي ﷺ وهي الحجرات التي كان يسكنها أمهات المؤمنين الطاهرات رضوان الله عليهن.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ

اللغة: ﴿يَغُضُّونَ﴾ غضَّ صوتَه خفضه وخافَت به ﴿فَاسِقُۢ﴾ الفاسق: الخارج من حدود الشرع، وهو في أصل الاشتقاق موضوع لما يدل على معنى الخروج، مأخوذ من قولهم: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها، وسمي فاسقًا لخروجه عن الطاعة ﴿بِنَبَإٖ﴾ النبأ: الخبر الهام قال الراغب: لا يقال للخبر في الأصل: نبأ حتى يكون ذا فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن[1] ﴿عَنِتُّمۡ﴾ وقعتم في العنت وهو المشقة والهلاك قال في اللسان: العنت: الهلاك وأعْنَته أوْقعه في الهلكة[2] ﴿ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ جمع راشد وهو المهتدي إلى محاسن الأمور

---

(١) مفردات القرآن للراغب.

(٢) «لسان العرب» مادة عنت.

﴿تفيء﴾ ترجع ﴿بَغَتْ﴾ اعتدت واستطالت وأصله مجاوزة الحد في الظلم والطغيان ﴿تَلْمِزُوٓاْ﴾ تعيبوا.

سَبَبُ النّزول: أ- روي أن بعض الأعراب الجفاة جاءوا إلى حجرات أزواج النبي ﷺ فجعلوا ينادونه: يا محمد أخرج إلينا، يا محمد اخرج إلينا فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[(١)].

ب- وروي أن النبي بعث «الوليد بن عقبة» إلى الحارث بن ضرار ليقبض ما كان عنده من الزكاة التي جمعها من قومه، فلما سار الوليد واقترب منهم خاف وفزع، فرجع إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إنهم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة، فهمَّ بعض الصحابة بالخروج إليهم وقتالهم فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الآية[(٢)].

ج - عن أنس قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت «عبد الله بن أُبيٍّ» وهو رأس المنافقين فانطلق إليه وركب حمارًا، وانطلق معه المسلمون يمشون، فلما أتاه النبي ﷺ قال له: إليك عني أي تنحَّ وابتعد عني فوالله لقد آذاني نتنُ حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمارُ رسول الله ﷺ أطيب ريحًا منك، فغضب لعبد الله رجلٌ من قومه، وغضب للأنصاري آخرون من قومه، فكان بينهم ضربٌ بالجريد والأيدي والنعال، فأنزل الله ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا..﴾[(٣)] الآية.

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي أيها المؤمنون، يا من اتصفتم بالإيمان، وصدَّقتم بكتاب الله، لا تقُدموا أمرًا أو فعلًا بين يدي الله ورسوله، وحُذِف المفعول للتعميم ليذهب ذهن السامع إلى كل ما يمكن تقديمه من قولٍ أو فعل، كما إذا عرضت مسألة في مجلسه ﷺ لا يسبقونه بالجواب، وإذا حضر الطعام لا يبتدئون بالأكل، وإذا ذهبوا معه إلى مكان لا يمشون أمامه ونحو ذلك قال ابن عباس: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه ﷺ وقال الضحاك: لا تقضوا أمرًا دون الله ورسوله من شرائع دينكم[(٤)] وقال البيضاوي: المعنى لا تقطعوا أمرًا قبل أن يحكم الله ورسوله به، وقيل: المراد بين يدي رسول الله، وذُكر اللهُ تعظيمًا له وإشعارًا بأنه من الله بمكان يوجب إجلاله[(٥)] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واتقوا الله فيما

---

(١) (ش): حسن، رواه أحمد والترمذي، وابن جرير، والطبراني.

(٢) انظر تفصيل الرواية في «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٥٨. (ش): ضعيف، رواه أحمد وغيره. وانظر في الدفاع عن الصحابي الجليل «الوليد بن عقبة» تعليقَ الشيخ محب الدين الخطيب رحمه الله على كتاب «العواصم من القواصم» للقاضي أبي بكر بن العربي المالكي (ص: ١٠٢-١٠٥).

(٣) أخرجه الشيخان.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٥٧.

(٥) «البيضاوي» ٣/ ٣٦٥ من الحاشية.

أمركم به، إن الله سميعٌ لأقوالكم، عليمٌ بنيَّاتكم وأحوالكم، وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والروعة في النفوس .. ثم أرشد تعالى المؤمنين إلى وجوب توقير الرسول وإجلاله واحترامه فقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ أي إذا كلمتم رسولَ الله ﷺ فاخفضوا أصواتكم ولا ترفعوها على صوتِ النبي ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ أي ولا تبلغوا حدَّ الجهر

عند مخاطبته ﷺ كما يجهر بعضكم في الحديث مع البعض، ولا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضًا فتقولوا: يا محمد، ولكنْ قولوا يا نبيَّ الله، ويا رسول الله، تعظيمًا لقدره، ومراعاةً للأدب قال المفسرون: نزلت في بعض الأعراب الجفاة الذين كانوا ينادون رسول الله باسمه، ولا يعرفون توقير الرسول الكريم[1] ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ أي خشية أن تبطل أعمالكم من حيث لا تشعرون ولا تدرون، فإن في رفع الصوت والجهر بالكلام في حضرته ﷺ استخفافًا قد يؤدي إلى الكفر المحبط للعمل قال ابن كثير: روي «أن ثابت بن قيس كان رفيع الصوت، فلما نزلت الآية قال: أنا الذي كنتُ أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أنا من أهل النار، حبط عملي، وجلس في أهله حزينًا، فافتقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقَّدك رسول الله ﷺ ما لك؟ فقال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ حبط عملي أنا من أهل النار، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال النبي ﷺ: «لا، بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ »[2]

وفي رواية «أترضى أنَ تعيش حميدًا، وتُقتَل شهيدًا، وتدخل الجنة؟» فقال: رضيتُ ببشرى الله تعالى ورسوله ﷺ ولا أرفع صوتي أبدًا على صوت رسول الله ﷺ.[3] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ أي إن الذين يخفضون أصواتهم في حضرة الرسول ﷺ أولئك الذين أخلص الله قلوبهم للتقوى ومرَّنها عليها وجعلها صفة راسخةً راسخة فيها قال ابن كثير: أي أَخلَصَها للتقوى وجعَلها أهلًا ومحلًّا ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ أي لهم في الآخرة صفحٌ عن ذنوبهم، وثواب عظيم في جنات النعيم.. ثم ذمَّ تعالى الأعراب الجفاة الذين ما كانوا يتأدبون في ندائهم للرسول ﷺ فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ ﴾ أي يدعونك من وراء الحجرات، منازل أزواجك الطاهرات ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ أي أكثر هؤلاء غير عقلاء، إذ العقل يقتضي حسن الأب، ومراعاة العظماء عند خطابهم، سيّما لمن كان بهذا المنصب الخطير قال البيضاوي: قيل إن الذي ناداه « عُيَيْنَة بن

---

(١) (ش): حسن، رواه أحمد والترمذي، وابن جرير، والطبراني.

(٢) الحديث أخرجه أحمد. (ش): ورواه البخاري ومسلم.

(٣) ذكر هذه الرواية ابن جرير الطبري. (ش): ضعفه الألباني.

حُصَين»[١] و «الأقرع بن حابس» وفَدَا على رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً من بني تميم وقت الظهيرة وهو راقد فقالا: يا محمد اخرج إلينا[٢] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي ولو أنَّ هؤلاء المُنَادين لم يزعجوا الرسول ﷺ بمناداتهم وصبروا حتى يخرج إليهم لكان ذلك الصبر خيرًا لهم وأفضل عند الله وعند الناس، لما فيه من مراعاة الأدب في مقام النبوة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي الغفور لذنوب العباد، الرحيم بالمؤمنين حيث اقتصر على نصحهم وتقريعهم، ولم يُنزل العقاب بهم. ثم حذَّر تعالى من الاستماع للأخبار بغير تثبت فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ أي إذا أتاكم رجل فاسق غير موثوق بصدقه وعدالته بخبر من الأخبار ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ أي فتثبتوا من صحة الخبر ﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي لئلا تصيبوا قومًا وأنتم جاهلون حقيقة الأمر ﴿فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ أي فتصيروا نادمين أشد الندم على صنيعكم[٣] ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي واعلموا أيها المؤمنون أنَّ بينكم الرسول المعظَّم، والنبيَّ المكرم، المعصوم عن اتباع الهوى ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي لو يسمع وشاياتكم، ويصغي بسمعه لآرائكم، ويطيعكم في غالب ما تشيرون عليه من الأمور، لوقعتم في الجهد والهلاك قال ابن كثير: أي اعلموا أنَّ بين أظهركم رسول الله فعظّموه ووقروه، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم، ولو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدَّى ذلك إلى عنتكم وحرجكم[٤] ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي ولكنه تعالى بمَنِّه وفضله نوَّر بصائركم فحبَّب إلى نفوسكم الإيمان ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي وحسَّنه في قلوبكم، حتى أصبح أغلى عندكم من كل شيء ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ أي وبغَّض إلى نفوسكم أنواع الضلال، من الكفر والمعاصي والخروج عن طاعة الله قال ابن كثير: والمراد بالفسوق الذنوبُ الكبار، وبالعصيان جميع المعاصي[٥] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي أولئك المتصفون بالنعوت الجليلة هم المهتدون، الراشدون في سيرتهم وسلوكهم، والجملة تفيد الحصر أي هم الراشدون لا غيرهم ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي هذا العطاء تفَضُّلٌ منه تعالى عليكم وإنعام ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليمٌ بمن يستحق الهداية، حكيم في خلقه وصنعه وتدبيره.. ثم عقَّب تعالى ما يترتب على سماع الأنباء المكذوبة من تخاصم وتباغضٍ وتقاتل

---

(١) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، والصواب: «عُيَيْنَة بن حِصْن».

(٢) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٣٦٧. (ش): رواه البيهقي في «دلائل النبوة» بإسناد ضعيف.
وروى أحمد بإسناد ضعيف أنها نزلت في الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ. وقد قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٣٦٩): «وَقَدْ ذُكر أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ التَّمِيمِيِّ».

(٣) انظر سبب النزول.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٦١.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير»

فقال ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ أي وإنْ حدث أنَّ فئتين وجماعتين من إخوانكم المؤمنين جنحوا إلى القتال فأصلحا بينهما، واسعوا جهدكم للإصلاح بينهما، والجمعُ ﴿ٱقْتَتَلُواْ﴾ باعتبار المعنى، والتثنية ﴿بَيْنَهُمَا﴾ باعتبار اللفظ ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي فإن بغت إحداهما على الأخرى، وتجاوزت حدَّها بالظلم والطغيان، ولم تقبل الصلح وصمَّمت على البغي ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي فقاتلوا الفئة الباغية حتى ترجع إلى حكم الله وشرعه، وتُقلع عن البغي والعدوان، وتعمل بمقتضى أخوة الإسلام ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ﴾ أي فإن رجعت وكَفَّتْ عن القتال فأصلحوا بينهما بالعدل، دون حيفٍ على إحدى الفئتين، واعدلوا في جميع أموركم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي يحبُّ العادلين الذين لا يجورون في أحكامهم قال البيضاوي: والآية نزلت في قتالٍ حدث بين «الأوس» و «الخزرج» في عهده ﷺ كان فيه ضربٌ بالسَّعَف والنعال[1]، وهي تدلُّ على أن الباغي مؤمن، وأنه إذا كفَّ عن الحرب تُرِك، وأنه يجب تقديم النصح والسعي في المصالحة[2] ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي ليس المؤمنون إلا اخوة، جمعتهم رابطة الإيمان، لا ينبغي أن تكون بينهم عداوة ولا شحناء، ولا تباغضٌ ولا تقاتل قال المفسرون: ﴿إِنَّمَا﴾ للحصر فكأنه يقول: لا أخوَّة إلا بين المؤمنين، ولا أخوة بين مؤمن وكافر، وفي الآية إشارة إلى أن أخوة الإسلام أقوى من أخوَّة النسب، بحيث لا تعتبر أخوَّة النسب إذا خلت عن أخوة الإسلام ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ أي فأصلحوا بين إخوانكم المؤمنين، ولا تتركوا الفرقة تدبُّ، والبغضاء تعمل عملها ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي اتقوا الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، لتنالكم رحمته، وتسعدوا بجنته ومرضاته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي يا معشر المؤمنين، يا من اتصفتم بالإيمان، وصدَّقتم بكتاب الله وبرسوله، لا يهزأ جماعة بجماعة، ولا يسخر أحد من أحد، فقد يكون المسخور منه خيرًا عند الله من الساخر، و«رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»[3] ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أي ولا يسخر نساء من نساء فعسى أن تكون المحتقر منها خيرًا عند الله وأفضل من الساخرة

---

(١) (ش): السَّعَف: جريدُ النّخل وورقُه. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ – صلى الله عليه وآله وسلم –: «لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ؟»، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وآله وسلم – وَرَكِبَ حِمَارًا فَانْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ يَمْشُونَ مَعَهُ وَهِيَ أَرْضٌ سَبِخَةٌ فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وآله وسلم – فَقَالَ: «إِلَيْكَ عَنِّي وَاللهِ لَقَدْ آذَانِي نَتْنُ حِمَارِك». فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ مِنْهُم: وَاللهِ لَحِمَارُ رَسُولِ اللهِ – صلى الله عليه وآله وسلم – أَطْيَبُ رِيحًا مِنْك. فَغَضِبَ لِعَبْدِ اللهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ فَشَتَمَه، فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ فَكَانَ بَيْنَهُمَا ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَالأَيْدِي وَالنِّعَالِ فَبَلَغَنَا أَنَّهَا أُنْزِلَتْ ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾» رواه البخاري ومسلم. (سَبِخَةٌ): أَيْ ذَاتُ سِبَاخ، وَهِيَ الأَرْض الَّتِي لَا تُنبِت لملوحتها.

(٢) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٣٧١.

(٣) هذا حديث صحيح. (ش): رواه الترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني. الطِمْرُ: الثوب البَالي.

﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ أي ولا يَعِب بعضكم بعضًا، ولا يَدْعُ بعضكم بعضًا بلقب السوء، وإنما قال ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ لأن المسلمين كأنهم نفسٌ واحدة ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ أي بئس أن يسمى الإنسان فاسقًا بعد أن صار مؤمنًا قال البيضاوي: وفي الآية دلالة على أن التنابز فسقٌ، والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح[1] ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي ومن لم يتبْ عن اللَّمز والتنابز فأولئك هم الظالمون بتعريض أنفسهم للعذاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ أي ابتعدوا عن التهمة والتخون وإساءة الظنِّ بالأهل والناس، وعبَّر بالكثير ليحتاط الإنسان في كل ظنٍّ ولا يسارع فيه بل يتأملُ ويتحقَّق ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ أي إنَّ بعض الظنِّ إثم وذنب يستحق صاحبه العقوبة عليه قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لا تظُنَّنَّ بكلمةٍ خرجت من أخيكَ المؤمنِ إلا خيرًا، وأنت تجدُ لها في الخير مَحْملًا»[2] ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ أي لا تبحثوا عن عورات المسلمين ولا تتبعوا معايبَهم[3] ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضًا بالسوء في غيبته بما يكرهه ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا﴾ تمثيلٌ لشناعة الغيبة وقبحها بما لا مزيد عليه من التقبيح أي هل يحب الواحد منكم أن يأكل لحم أخيه المسلم وهو ميت؟ ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾ أي فكما تكرهون هذا طبعًا فاكرهوا الغيبة شرعًا، فإن عقوبتها أشدُّ من هذا. شبَّه تعالى الغيبة بأكل لحم الأخ حال كونه ميتًا، وإذا كان الإنسان يكره لحم الإنسان فضلًا عن كونه أخًا، وفضلًا عن كونه ميتًا وجب عليه أن يكره الغيبة بمثل هذه الكراهة أو أشد ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ أي خافوا الله واحذروا عقابه، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ أي إنه تعالى كثير التوبة، عظيم الرحمة، لمن اتقى اللهَ وتاب وأناب، وفيه حثٌّ على التوبة، وترغيبٌ بالمسارعة إلى الندم والاعتراف بالخطأ لئلا يقنط الإنسان من رحمة الله.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦ يَمُنُّونَ

---

(١) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٣٧٣.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٦٤.

(٣) وفي الحديث: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ لاَ تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِى جَوْفِ بَيْتِهِ». أخرجه الحافظ أبو يعلى. (ش): ورواه أحمد وأبو داود والترمذي وابنُ حبان، وصححه الألباني.

عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ

المناسَبَة: لمَّا دعا تعالى إلى مكارم الأخلاق ونهى عن مساويها، وحذَّر المؤمنين من بعض الأفعال القبيحة، دعا الناس هنا جميعًا للتعارف والتآلف ونهاهم عن التفاخر بالأنساب، ثم بَيَّن صفات المؤمن الكامل.

اللغة: ﴿يَلِتْكُم﴾ ينقصكم ﴿وَقَبَآئِلَ﴾ جمع قبيلة وهي الجماعة التي يربطها حسبٌ أو نسبٌ، وهي أخصُّ من الشعب، لأن الشعب الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد، فالشعب يجمع القبيلة، والقبيلة تجمع البطون والأفخاذ ﴿يَرْتَابُوا۟﴾ يشكُّوا والريب: الشكُّ ﴿يَمُنُّونَ﴾ المنُّ: الامتنان على الشخص والاعتداد عليه بفعل المعروف، وأصله في اللغة القطع ومنه ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦].

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس قال: جاءت بنو أسدٍ إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أسلمنا، وقاتلتك العرب ولم نقاتلك، أخذوا يمنون عليه فنزلت الآية الكريمة ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ..﴾ [١] الآية.

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ الخطاب لجميع البشر أي نحن بقدرتنا خلقناكم من أصل واحد، وأوجدناكم من أب وأم فلا تفاخر بالآباء والأجداد، ولا اعتداد بالحسب والنسب، كلكم لآدم وآدمُ من تراب ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ أي وجعلناكم شعوبًا شتى وقبائل متعددة، ليحصل بينكم التعارف والتآلف، لا التناحر والتخالف قال مجاهد: ليعرف الإنسان نسبه فيقال: فلان ابن فلان من قبيلة كذا[٢]، وأصل تعارفوا (تتعارفوا) حُذِفتْ إحدى التاءين تخفيفًا قال شيخ زاده: والمعنى: إن الحكمة التي من أجلها جعلكم على شعوب وقبائل هي أن يعرف بعضكم نسب بعض ولا ينسبه إلى غير آبائه، لا أن نتفاخر بالآباء والأجداد، والنسبُ وإن كان يُعتبر عرفًا وشرعًا، حتى لا تُزَوَّج الشريفَة بالنَّبَطيّ[٣]، إلا أنه لا عبرة به عند ظهور ما هو أعظم قدرًا منه وأعز، وهو الإيمان والتقوى، كما لا تظهر الكواكب عند طلوع الشمس[٤] ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ أي إنما يتفاضل الناس بالتقوى

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٦٩. (ش): حسن، أخرجه أبو يعلى والبزار في «مسندَيهما».

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٦٧.

(٣) (ش): النبطيّ: مِنْ أَهْلِ النَّبَطِ: قَوْمٌ كَانُوا يَسْكُنُونَ بَيْنَ الْعِرَاقِ وَالْأُرْدُنِ، كَانَتْ لِدَوْلَتِهِمْ حَضَارَةٌ، عَاصِمَتُهَا الْبَتْرَاءُ، وَتُطْلَقُ الآنَ كَلِمَةُ أَنْبَاطٍ عَلَى أَخْلاطِ النَّاسِ وَعَوَامِّهِمْ.

(٤) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ٣٧٥. اتفق أهل العلم على أن الكفاءة في الدين معتبرة فلا تُزَوَّج المسلمة بكافر، ولا يَتزوج المسلمُ الكافرةَ إلا الكتابية بشرط الإحصان، وهو أن تكون عفيفة عن الزنا، أو تابت بعد زناها واستبرأ رحِمَها. والفاسق المشهور بفِسقه يُمنع من الزواج بالمرأة ذات الدين حيث لا يُؤمَن =

لا بالأحساب والأنساب، فمن أراد شرفًا في الدنيا ومنزلة في الآخرة فليتق الله[1] كما قال ﷺ: «من سرَّه أن يكون أكرم الناس فليتَّق الله»[2] وفي الحديث «النَّاسُ رَجُلَانِ: رَجُلٌ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللهِ»[3] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي عليمٌ بالعباد، مطلع على ظواهرهم وبواطنهم، يعلم التقي والشقي، والصالح والطالح ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢]. ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ أي زعم الأعراب أنهم آمنوا قل لهم يا محمد: إنكم لم تؤمنوا بعد، لأن الإيمان تصديقٌ مع ثقة واطمئنان قلب، ولم يحصل لكم، وإلا لَمَا مَنَنْتُم على الرسول بالإسلام وترك المقاتلة، ولكنْ قولوا استسلمنا خوف القتل والسبي قال المفسرون: نزلت في نفرٍ من بني أسد، قدموا المدينة في سنةٍ مجدبة، وأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وفلان، يريدون الصَّدقة ويمنّون على الرسول[4]، وقد دلت الآية على أن الإيمان مرتبةٌ أعلى من الإسلام، الذي هو الاستسلام والانقياد بالظاهر ولهذا قال تعالى ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي ولم يدخل الإيمان إلى قلوبكم ولم تصلوا إلى حقيقته بعدُ[5]، ولفظةُ «لمَّا» تفيد التوقع كأنه يقول: وسيحصل لكم الإيمان عند اطِّلاعكم على محاسن الإسلام، وتذوُّقكم لحلاوة الإيمان قال ابن كثير: وهؤلاء الأعراب المذكورون في هذه الآية ليسوا منافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادَّعوا لأنفسهم مقامًا أعلى مما وصلوا إليه فأُدِّبُوا في ذلك، ولو كانوا منافقين كما ذهب إليه البخاري لعُنِّفوا وفُضِحوا[6] ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي وإن أطعتم الله ورسوله بالإخلاص الصادق، والإيمان الكامل، وعدم المنِّ على الرسول لا ينقصكم من أجوركم شيئًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي عظيم

= عليها منه فقد يمنعها حقوقها أو يضطرها إلى ارتكاب ما حرم الله عليها. وأما الكفاءة في النسب فقد اختلف أهل العلم في اشتراطها على قولين: الأول أنها معتبرة، والقول الثاني أن المعتبر في الكفاءة الدين، وأنه لا يثبت في اعتبار الكفاءة بالنسب حديث. وهذا القول هو الذي تشهد له الأدلة. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] وثبت عنه ﷺ أنه قال: «إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ» رواه الترمذي، وحسنه الألباني.

(١) «البيضاوي» ٣/ ٣٧٥.

(٢) (ش): «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللهِ أَوْثَقَ مِمَّا فِي يَدِهِ» (رواه الحاكم وغيره بإسناد ضعيف).

(٣) جزء من خطبة قالها ﷺ عند فتح مكة وخطب الناس بها. (ش): رواه الترمذي، وحسنه الألباني.

(٤) (ش): انظر سبب النزول السابق.

(٥) (ش): لمَّا: حرف نفي يجزم المضارع، ويقلبه إلى ماضٍ ممتدٍّ حتّى وقت الحديث مع توقّع حدوثه في المستقبل القريب «لمَّا يذاكر درسَه» لم يفعله إلى وقت الحديث- ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾: لم يدخل حتّى الآن.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٦٩.

المغفرة، واسع الرحمة، لأن صيغة «فعول» و«فعيل» تفيد المبالغة. ثم ذكَر تعالى صفات المؤمنين الكُمَّل الصادقين في إيمانهم فقال ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي إنما المؤمنون الصادقون في دعوى الإيمان، الذين صدَّقوا الله ورسوله، فأقروا لله بالوحدانية، ولرسوله بالرسالة، عن يقين راسخ وإيمان كامل ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي ثم لم يشكوا ويتزلزلوا في إيمانهم بل ثبتوا على التصديق واليقين ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي وبذلوا أموالهم ومهجهم في سبيل الله وابتغاء رضوانه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي أولئك الذين صدقوا في ادعاء الإيمان.. وصف تعالى المؤمنين الكاملين بثلاثة أوصاف: الأول: التصديق الجازم بالله ورسوله، الثاني: عدم الشك والارتياب، الثالث: الجهاد بالمال والنفس، فمن جمع هذه الأوصاف فهو المؤمن الصادق ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: قل يا محمد، أتخبرون الله بما في ضمائركم وقلوبكم؟ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي وهو جل وعلا العليم بأحوال جميع العباد، لا تخفى عليه خافية لا في السموات ولا في الأرض ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي واسع العلم رقيب على كل شيء، لا يعزب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾ أي يعدون إسلامهم عليك يا محمد منَّة، يستوجبون عليها الحمد والثناء ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ أي قل لهم لا تمتنوا علَيَّ بإسلامكم، فإنّ نفعَ ذلك عائدٌ عليكم ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي بل للهِ المنةُ العظيمة عليكم، بالهداية للإيمان والتثبيت عليه إن كنتم صادقين في دعوى الإيمان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي يعلم ما غاب عن الأبصار في السموات والأرض ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي مطَّلع على أعمال العباد، لا تخفى عليه خافية. كرَّر تعالى الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وإحاطته بجميع المخلوقات، ليدل على سعة علمه، وشموله لكل صغيرة وكبيرة، في السر والعلن، والظاهر والباطن.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستعارة التمثيلية ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١] شبَّه حالهم في إبداء الرأي وقطع الأمر في حضرة الرسول بحال ملكٍ عظيم تقدَّم للسير أمامه بعض الناس وكان الأدب يقضي أن يسيروا خلفه لا أمامه، وهذا بطريق الاستعارة التمثيلية.

٢ - التشبيه المرسل المجمل ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢] لوجود أداة التشبيه.

٣ - الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ بعد قوله ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الحجرات: ٧] وهذا من المحسنات البديعية.

٤ - المقابلة بين ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وبين ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ

وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

٥ - الطباق ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩].

٦ - جناس الاشتقاق ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

٧ - التشبيه التمثيلي ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢] مثَّل للغيبة بمن يأكل لحم الميت، وفيه مبالغات عديدة لتصوير الاغتياب بأقبح الصور وأفحشها في الذهن.

٨ - طباق السلب ﴿ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾.

٩ - الاستفهام الإنكاري للتوبيخ ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾.

١٠ - التشبيه البليغ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] أصل الكلام المؤمنون كالإخوة في وجوب التراحم والتناصر، فحذف وجه الشبه وأداة التشبيه فأصبح بليغًا مع إفادة الجملة الحصر.

تنبيه: سورة الحجرات تسمى سورة «الأخلاق والآداب» فقد أرشدت إلى مكارم الأخلاق، وفضائل الأعمال، وجاء فيها النداء بوصف الإيمان خمس مراتٍ، وفي كل مرة إرشاد إلى مكرمة من المكارم وفضيلة من الفضائل، وهذه الآداب الرفيعة نستعرضها في فقرات:

أولًا: وجوب الطاعة والانقياد لأوامر الله ورسوله وعدم التقدم عليه بقول أو رأي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١].

ثانيًا: احترام الرسول وتعظيم شأنه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ..﴾ [الحجرات: ٢].

ثالثًا: وجوب التثبت من الأخبار ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴿٥﴾﴾. [الحجرات: ٦].

رابعًا: النهي عن السخرية بالناس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ..﴾ [الحجرات: ١١].

خامسًا: النهي عن التجسس والغيبة وسوء الظن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢] الآية.

لطيفَة: سئل بعض العلماء عما وقع بين الصحابة من قتال؟ فقال: «تلك دماءٌ قد طهَّر الله منها أيدينا فلا نلوِّث بها ألسنتنا، وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته».

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجرات»

❀ ❀ ❀ ❀



مكية وآياتها خمس وأربعون

بين يدي السورة

* هذه السورة مكية وهي تعالج أصول العقيدة الإسلامية «الوحدانية، الرسالة، البعث» ولكن المحور الذي تدور حوله هو موضوع «البعث والنشور» حتى ليكاد يكون هو الطابع الخاص للسورة الكريمة، وقد عالجه القرآن بالبرهان الناصع، والحجة الدامغة، وهذه السورة رهيبة، شديدة الوقع على الحس، تهز القلب هزًّا، وترج النفس رجًّا، وتثير فيها روعة الإعجاب، ورعشة الخوف بما فيها من الترغيب والترهيب.

* ابتدأت السورة بالقضية الأساسية التي أنكرها كفار قريش، وتعجبوا منها غاية العجب، وهي قضية الحياة بعد الموت، والبعث بعد الفناء ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ الآيات.

* ثم لفتت السورة أنظار المشركين -المنكرين للبعث- إلى قدرة الله العظيمة، المتجلية في صفحات هذا الكون المنظور، في السماء والأرض، والماء والنبات، والثمر والطلع، والنخيل والزرع وكلها براهين قاطعة على قدرة العلي الكبير ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا ...﴾ الآيات.

* وانتقلت السورة الكريمة للحديث عن المكذبين من الأمم السالفة، وما حل بهم من الكوارث وأنواع العذاب، تحذيرًا لكفار مكة أن يحل بهم ما حل بالسابقين ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ...﴾ الآيات.

* ثم انتقلت السورة للحديث عن سكرة الموت، ووهلة الحشر، وهول الحساب، وما يلقاه المجرم في ذلك اليوم العصيب من أهوال وشدائد تنتهي به بإلقائه في الجحيم ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن «صيحة الحق» وهي الصيحة التي يخرج الناس بها من القبور كأنهم جراد منتشر، ويساقون للحساب والجزاء لا يخفى على الله منهم أحد، وفيه إثبات للبعث والنشور الذي كذب به المشركون ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ...﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن «صيحة الحق» وهي الصيحة التي يخرج الناس بها من القبور كأنهم جراد منتشر، ويساقون للحساب والجزاء لا يخفى على الله منهم أحد، وفيه إثبات للبعث والنشور الذي كذب به المشركون ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ الآيات.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾

اللغَة: ﴿مَرِيجٍ﴾ مختلط قال ابن قيبة: مرج الأمر ومرج الدين اختلط، وأصله أن يقلق الشيء ولا يستقر يقال: مرج الخاتم في يدي إذا قلق للهزال ﴿فُرُوجٍ﴾ شقوق وصدوع جمع فرج وهو الشقُّ ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ طوال بسق الشيء بُسوقًا إذا طال ﴿نَضِيدٌ﴾ متراكب بعضه فوق بعض ﴿لَبْسٍ﴾ حيرة وشك واضطراب ﴿أَفَعَيِينَا﴾ عجزنا يقال: عيي به يعيا أي عجز عنه ﴿رَقِيبٌ﴾ حافظ شاهد على أعمال الإنسان ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر مهيأ قال الجوهري: العتيد الشيء الحاضر المهيأ ومنه ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ [يوسف: ٣١] وفرسٌ عَتَدٌ: مُعَدٌّ للجرْي(١) ﴿حَدِيدٌ﴾ حَادٌّ نافِذٌ.

التفسِير: ﴿ق﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وللإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية(٢) ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ قسمٌ حذف جوابه أي أقسم بالقرآن الكريم، ذي المجد والشرف على سائر الكتب السماوية لتبعثنَّ بعد الموت قال ابن كثير: وجواب القسم محذوف وهو مضمون الكلام بعده وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد وتقديره إنك يا محمد لرسول و إنَّ البعث لحق(٣)، وهذا كثير في القرآن. وقال

(١) «الصحاح» مادة عتد.

(٢) انظر أول سورة البقرة حول الحروف المقطعة.

(٣) هذا خلاصة قول ابن كثير وانظر «المختصر» ٣/ ٣٧١.

أبو حيان: والقرآنُ مقسم به، والمجيد صفته وهو الشريف على غيره من الكتب، والجواب محذوفٌ يدل عليه ما بعده تقديره: لقد جئتهم منذرًا بالبعث فلم يقبلوا[1] ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي تعجب المشركون من إرسال رسول إليهم من البشر يخوفهم من عذاب الله ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أي فقال كفار مكة: هذا شيءٌ في منتهى الغرابة والعَجَب، والإظهار في موضع الإضمار لتسجيل جريمة الكفر عليهم، والآية إنكارٌ لتعجُّبهم مما ليس بعجب، فإنهم قد عرفوا صدق الرسول وأمانته ونصحه، فكان الواجب عليهم أن يسارعوا إلى الإيمان لا أن يعجبوا ويستهزئوا، ثم أخبر تعالى عن وجه تعجبهم فقال ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ أي أئذا متنا واستحالت أجسادنا إلى تراب هل سنحيا ونرجع كما كنا؟ ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ أي ذلك رجوع بعيد غاية البعد، مستحيل حصوله ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ أي قد علمنا ما تنقصه الأرض من أجسادهم، وما تأكله من لحومهم وأشعارهم ودمائهم إذا ماتوا، فلا يضل عنا شيءٌ حتى تتعذَّر علينا الإعادة ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ أي ومع علمنا الواسع عندنا كتاب حافظ لعددهم وأسمائهم وما تأكله الأرض، وهو اللوح المحفوظ الذي يحصي تفصيل كل شيء ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ إضراب إلى ما هو أفظع وأشنع من التعجب وهو التكذيب بالقرآن العظيم أي كذبوا بالقرآن حين جاءهم، مع سطوع آياته، ووضوح بيانه ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ أي فهم في أمرٍ مختلط مضطرب، فتارة يقولون عن الرسول: إنه ساحر، وتارةً يقولون: إنه شاعر، وتارة يقولون: إنه كاهن، وهكذا قالوا أيضًا عن القرآن: إنه سحر، أو شعر، أو أساطير الأولين إلى غير ذلك.

ثُم ذَكَر تعالى دلائل القدرة والوحدانية الدالة على عظمة رب العالمين فقال ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ ﴾ أي أفلم ينظروا نظر تفكر واعتبار، إلى السماء في ارتفاعها وإحكامها، فيعلموا أن القادر على إيجادها قادر على إعادة الإنسان بعد موته؟ ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ أي كيف رفعناها بلا عمد وزيناها بالنجوم ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ أي ما لها من شقوق وصدوع ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ أي والأرض بسطناها ووسعناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ أي وجعلنا فيها جبالًا ثوابت تمنعها من الاضطراب بسكانها ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ أي وأنبتنا فيها من كل نوع من النبات حسن المنظر، يبهج ويسر الناظر إليه ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ أي فعلنا ذلك تبصيرًا منا وتذكيرًا عن كمال قدرتنا، لكل عبد راجع إلى الله متفكر في بديع مخلوقاته ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ أي ونزلنا من السحاب ماءً كثير المنافع والبركة ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ أي فأخرجنا بهذا الماء البساتين الناضرة، والأشجار المثمرة، وحبَّ الزرع المحصود، كالحنطة والشعير وسائر الحبوب التي تحصد ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ ﴾

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ١٢٠.

أي وأخرجنا شجر النخيل طوالًا مستويات ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ أي لها طلعٌ منضود، منظمٌ بعضه فوق بعض. قال أبو حيان: يريد كثرة الطلع وتراكمه وكثرة ما فيه من الثمر، وأول ظهور الثمر يكون منضَّدًا كحب الرمان، فما دام ملتصقًا بعضه ببعض فهو نضيد، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد[1] ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي أنبتنا كل ذلك رزقًا للخلق لينتفعوا به ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي وأحيينا بذلك الماء أرضًا جدبة لا ماء فيها ولا زرع فأنبتنا فيها الكلأ والعشب ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ أي كما أحييناها بعد موتها كذلك نخرجكم أحياء بعد موتكم قال ابن كثير: وهذه الأرض الميتة كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت، فكما أحيا الله الأرض الميتة كذلك يحيي الله الموتى..[2] ثم ذكَّر تعالى كفار مكة بما حلَّ بمن سبقهم من المكذبين إنذارًا لهم وإعذارًا فقال ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي كذَّب قبل هؤلاء الكفار قوم نوح ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ أي وأصحاب البئر وهم بقية من ثمود رسُّوا نبيَّهم فيها أي دسُّوهُ فيها[3] ﴿وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ سمَّاهم إخوانه لأنه صاهرهم وتزوج منهم ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ أي وأصحاب الشجر الكثير الملتف وهم قوم شعيب، نُسبوا إلى الأيكة لأنهم كانت تحيط بهم البساتين والأشجار الكثيرة، الملتف بعضُها على بعض ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ قال المفسرون: هو ملكٌ كان باليمن أسلم ودعا قومه إلى الإسلام فكذبوه وهو تُبَّع اليماني[4] ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي جميع هؤلاء المذكورين كذبوا رسلهم قال ابن كثير: وإنما جمع الرسل لأن من كذب رسولًا فإنما كذب جميع الرسل كقوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعرا: ١٠٥][5] ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي فوجب عليهم وعيدي وعقابي، والآية تسليةٌ للنبي ﷺ وتهديد للكفرة المجرمين ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي أفعجزنا عن ابتداء الخلق حتى نعجز عن إعادتهم بعد الموت؟ قال القرطبي: وهو توبيخٌ لمنكري البعث، وجوابٌ لقولهم ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾[6] ومراده

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ١٢٢.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٧٢.

(٣) (ش): قال المؤلف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ [الفرقان: ٣٨]: أي وأهلكنا عادًا وثمود وأصحاب البئر الذين انهارت بهم قال البيضاوي: وأصحابُ الرس قومٌ كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعيبًا فكذبوه فبينما هم حول الرَّسّ - وهي البئر غير المَطْوِيَّة - انهارت فخسفت بهم وبديارهم» انتهى كلام المؤلف وأحال إلى «تفسير البيضاوي» ٢/ ٦٨. والرَّسُّ: بئر قديمة متهدِّمة الجوانب. البئر المَطْوِيَّة: مَبْنِيَّة الجوانب، يقال: طوَيْتَ البئر إذا بنَيْتَها بالحجارة.

(٤) انظر «حاشية الجمل على الجلالين» ٤/ ٩١.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٧٢.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٨.

أن ابتداء الخلق لم يعجزنا، والإعادةُ أسهلُ منه فكيف يُتوهم عجزنا عن البعث والإعادة ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي بل هم في خلطٍ وشبهةٍ وحيرة من البعث والنشور قال الألوسي: وإنما نكَّر الخلق ووُصِف بـ «جديد»، ولم يقُل: «من الخلق الثاني» تنبيهًا على استبعادهم له وأنه خلْقٌ عظيم يجب أن يُهتَمَّ بشأنه فله نبأ عظيم[1] ثم نبه تعالى على سعة علمه وكمال قدرته فقال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ أي خلقنا جنس الإنسان ونعلم ما يجول في قلبه وخاطره، لا يخفى علينا شيء من خفايا ونواياه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ أي ونحن أقرب إليه من حبل وريده، وهو عرق كبير في العنق متصل بالقلب قال أبو حيان: ونحن أقرب إليه قرب علم، نعلم به وبأحواله لا يخفى علينا شيء من خفياته، فكأن ذاته تعالى قريبة منه، وهو تمثيل لفرط القُرْب كقول العرب: هو مني معقدَ الإزار[2] وقال ابن كثير: المراد ملائكتنا أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، والحلول والاتحاد منفيان بالإجماع تعالى الله وتقدَّس، وهذا كما قال في المحتضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] يريد به الملائكة[3]، ويدل عليه قوله بعده ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي حين يتلقى الملَكان الموَكَّلان بالإنسان، ملك عن يمينه يكتب الحسنات، وملك عن شماله يكتب السيئات، وفي الكلام حذفٌ تقديره عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد فحذف الأول لدلالة الثاني عليه قال مجاهد: وكل الله -بالإنسان مع علمه- بأحواله ملكين بالليل وملكين بالنهار يحفظان عمله ويكتبان أثره إلزامًا للحجة، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات فذلك قوله تعالى ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾[4] وقال الألوسي: والمراد أنه سبحانه أعلم بحال الإنسان من كل رقيب، حين يتلقى المتلقيان الحفيظان ما يتلفظ به، وفيه إيذانٌ بأنه عَزَّ وَجَلَّ غنيٌّ عن استحفاظ الملكين، فإنه تعالى أعلم منهما ومطَّلع على ما يخفى عليهما، لكن الحكمة اقتضت كتابة الملكين لعرض صحائفهما يوم يقوم الأشهاد، فإذا علم العبد ذلك مع علمه بإحاطة الله تعالى بعلمه ازداد رغبة في الحسنات، وانتهاءً عن السيئات[5] ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ أي ما يتلفظ كلمة من خيرٍ أو شر[6]، إلا وعنده ملك يرقب قوله ويكتبه ﴿عَتِيدٌ﴾ أي حاضر معه أينما كان مهيأٌ لكتابة ما

---

(١) «تفسير روح المعاني» ٢٦/ ١٧٨.

(٢) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ١٢٣. (ش): هو مِنِّي مَعْقِد الإزارِ، أي: قَريبُ المَنْزِلَةِ كَقُرْب مكان عَقْد الإزار. والإزار: ثوبٌ يحيط بالنصف الأسفل من البدن.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٧٣.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٩.

(٥) «تفسير روح المعاني» ٢٦/ ١٧٩.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٧٤.

أُمر بـه قال ابن عباس: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شـر وقال الحسـن: فإذا مات ابن آدم طويت صحيفته وقيل له يوم القيامة: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[1] [الإسراء: ١٤] ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي وجاءت غمرة الموت وشدته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله، بالأمر الحق من أهوال الآخرة حتى يراها المنكر لها عيانًا ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أي ذلك ما كنت تفر منه وتميل عنه وتهرب منه وتفزع، وفي الحديث عن عائشة أن النبي ﷺ لمّا تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «سبحان الله إنَّ للموت لسكرات»[2] ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾ أي ونفخ في الصور نفخة البعث ذلك هو اليوم الذي وعد الله الكفار به بالعذاب ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ أي وجاء كل إنسان براً كان أو فاجرًا ومعه ملكان: أحدهما يسوقه إلى المحشر، والآخر يشهد عليه بعمله قال ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد من أنفسهم وهي الأيدي والأرجل ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤] وقال مجاهد: السائق والشهيد ملكان، ملكٌ يسوقه وملك يشهد عليه[3] ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ ﴾ أي لقد كنت أيها الإنسان في غفلةٍ من هذا اليوم العصيب ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾ أي فأزلنا عنك الحجاب الذي كان على قلبك وسمعك وبصرك في الدنيا ﴿ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ أي بصرك اليوم قويٌّ نافذ، ترى به ما كان محجوبًا لزوال الموانع بالكلية.

قال الله تعالى:

وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ

---

(١) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ١٢٤.

(٢) رواه البخاري. (ش): ليس في البخاري بهذا اللفظ ولم أجده في غيره، لكن فيه عن عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِى الْمَاءِ، فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ وَيَقُولُ: « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ ».

(٣) اخترنا قول مجاهد هنا، لأنه الظاهر من الآية الكريمة، وهو ما رجحه الطبري وابن كثير.

نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ

مناسَبَة: لمّا حكى تعالى في الآيات السابقة إنكار المشركين للبعث، وأقام الأدلة والبراهين على البعث والنشور، ذكر هنا الأهوال والشدائد التي يلقاها الكافر في الآخرة، والنعيم الذي أعدَّه للمؤمنين الأبرار في الجنة، وختم السورة الكريمة ببيان دلائل البعث وأحواله وأطواره.

اللغة: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ﴾ قُربت يقال: زلف يزلف أي قرب، وأزلفه قرَّبه ﴿أَوَّابٍ﴾ رجَّاع إلى الله من آب يئوب أوبًا إذا رجع ﴿بَطْشًا ﴾ البطش: الأخذ بالشدة والعنف ﴿فَنَقَّبُواْ﴾ طوَّفوا وساروا وأصل التنقيب التنقير عن الشيء والبحث عنه قال الشاعر:

نَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ مِنْ حَذَرِ الموت وَجَالُوا فِي الْأَرْضِ كُلَّ مَجَالِ [1]

﴿مَّحِيصٍ ﴾ مفر ومهرب من حاص يحيص حيصًا إذا أراد الهرب ﴿لُّغُوبٍ ﴾ تعب.

سَبَبُ النّزول: عن قتادة أن اليهود قالوا: إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، وأنه تعب فاستراح يوم السبت وسمَّوه يوم الراحة فكذبهم تعالى فيما قالوا فنزلت ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾[2].

التفسير: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي وقال الملك الموكَّل به، هذا الذي وكَّلْتني به من بني آدم قد أحضَرْتُه وأحضَرْتُ ديوان عمله ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي يقول تعالى للملكين «السائق والشهيد»: اقذفا في جهنم كلَّ كافر معاند للحقِّ لا يؤمن بيوم الحساب ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي مبالغ في المنع لكل حقٍّ واجب عليه في ماله ﴿مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ أي ظالم غاشم شاكٍّ في الدين ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي أشرك بالله ولم يؤمن بوحدانيته ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ أي فألقياه في نار جهنم -وكرر اللفظ ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ للتوكيد- ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ أي قال قرينه وهو الشيطان المقيَّض له: ربنا ما أضللتُه ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ أي ولكنَّه ضلَّ باختياره، وآثر العمى على الهدى من غير إكراهٍ أو إجبار، وفي الآية محذوفٌ دل عليه السياق كأن الكافر قال: يا رب إن شيطاني هو الذي أطغاني فيقول قرينه: ربنا ما أطغيتُه بل كان هو نفسه ضالاًّ معاندًا للحق فأَعَنْتُه عليه ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ أي فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ للكافرين وقرنائهم من الشياطين: لا تتخاصموا هنا فما ينفع الخصام ولا الجدال، قد سبق أن أنذرتكم على ألسنة الرسل بعذابي، وحذرتكم شديد عقابي، فلم تنفعكم الآياتُ والنُّذر ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ أي ما يُغيَّر كلامي، ولا يُبدَّل حكمي بعقاب الكفرة المجرمين قال

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٢. (ش): جَالَ فِي الْأَرْضِ: طاف ودَارَ وتجوّل غير مستقرّ فيها.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٧٨. (ش): ضعيف، أخرجه الحاكم في «المستدرك»، والطبري في «تفسيره».

المفسرون: المراد وعده تعالى بعذاب الكافر وتخليده في النار بقوله تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1] [هود: ١١٩] ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي ولست ظالمًا حتى أعذب أحدًا بدون استحقاق، وأعاقبه بدون جرم ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾؟ أي اذكر ذلك اليوم الرهيب يوم يقول الله تعالى لجهنم هل امتلأت، وتقول هل هناك من زيادة؟ وفي الحديث « لاَ تَـزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ وَعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ - أي قد اكتفيتُ - وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ »[2].

والظاهر أن السؤال والجواب على حقيقتهما[3]، والله على كل شيء قدير، فإن إنطاق الجماد والشجر والحجر جائز عقلًا، وحاصلٌ شرعًا، وقد أخبر القرآن الكريم أنَّ نملة تكلمت، وأن كل شيء يسبح بحمد الله، وورد في «صحيح مسلم» أن المسلمين في آخر الزمان يقاتلون اليهود، حتى يختبئ اليهودي وراء الشجر والحجر، فيُنطِقُ الله الشجر والحجر.. إلخ وقيل: إن الآية على التمثيل وإنها تصويرٌ لسعة جهنم وتباعد أقطارها بحيث لو ألقي فيها جميع الكفرة والمجرمين فإنها تتسع لهم[4]، وهو كقولهم « قال الحائطُ للمسمار لم تَشُقُّني؟ قال: سَلْ مَن يدُقُّني »[5] ثم أخبر تعالى عن حال السعداء بعد أن ذكر حال الأشقياء فقال ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي قُرِّبت وأدنيت الجنة من المؤمنين المتقين مكانًا غير بعيد، بحيث تكون بمرأى منهم مبالغة في إكرامهم ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أي يقال لهم: هذا الذي ترونه من النعيم هو ما وعده الله لكل عبدٍ أوَّاب، أي: رجَّاع إلى الله، حافظٍ لعهده وأمره ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي خاف الرحمن فأطاعه دون أن يراه لقوة يقينه، وجاء بقلبٍ تائب خاضع خاشع ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ أي يقال لهم: ادخلوا الجنة

---

(١) «انظر حاشية الجمل» ٤/ ٩٦، و«القرطبي» ١٧/ ١٧.

(٢) الحديث من رواية البخاري ومسلم. (ش): يُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ: يُجْمَع ويُضَم.

(٣) (ش): بل هو الصواب الذي لا يصح غيره.

(٤) هذا القول: أنه ليس ثمة قول وإنما هو على طريق التمثيل قول الخلف، ونقل القرطبي أن هذا هو تفسير مجاهد، والقول الأول قول السلف. (ش): وكلُّ خيرٍ في اتباع مَن سلَف وكلُّ شرٍّ في ابتداع مَن خلَف. وما رُوي عن مجاهد رحمه الله ذكره القرطبي عنه بدون إسناد، وما أظن هذا القول يثبت عنه رحمه الله، فقد جاء في كثير من التفاسير عن مجاهد في تفسير الآية أن كلام الله وكلام النار كلام حقيقي، انظر «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٦٠)، «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٧٩)، «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» للسيوطي (٧/ ٦٠٢)، «فتح القدير» للشوكاني (٥/ ٩٢). وقد قال القرطبي في تفسيره بعد ذلك (١٧/ ١٨): «وَقِيلَ: يُنْطِقُ اللهُ النَّارَ حَتَّى تَقُولَ هَذَا كَمَا تَنْطِقُ الْجَوَارِحُ. وَهَذَا أَصَحُّ». ثم ذكر الحديث الذي أورده المؤلف.

(٥) (ش): هذا تأويل باطل، وهذا الكلام الفاسد خلاف مدلول الآية من أن الله تعالى قال لجهنم قولاً حقيقيًّا: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ وأنها تقول قولًا حقيقيًّا ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾. وكيف يقال ذلك وقد فسرها رسول الله ﷺ بغيره كما ورد في الحديث السابق؟

بسلامة من العذاب والهموم والأكدار، ذلك هو يوم البقاء الذي لا انتهاء له أبدًا، لأنه لا موت في الجنة ولا فناء ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ أي لهم في الجنة من كل ما تشتهيه أنفسهم، وتلذ به أعينهم ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي وعندنا زيادة على ذلك الإنعام والإكرام، وهو النظر إلى وجه الله الكريم[1].. ثم خوَّف تعالى كفار مكة بما حدث للمكذبين قبلهم فقال ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي وأهلكنا قبل كفار قريش أممًا كثيرين من الكفار المجرمين ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي هم أقوى من كفار قريش قوة، وأعظم منهم فتكًا وبطشًا ﴿فَنَقَّبُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي فساروا في البلاد، وطوَّفوا فيها وجالوا في أقطارها، فهل كان لهم من الموت مهرب؟ وهل كان لهم من عذاب الله مخلص؟ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي إن فيما ذُكر من إهلاك القرى الظالمة، لتذكرة وموعظة لمن كان له عقل يتدبر به، أو أصغى إلى الموعظة وهو حاضر القلب ليتذكَّر ويعتَبِر قال سفيان: لا يكون حاضرًا وقلبه غائب[2] وقال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه إذا استمع بأذنيه وهو شاهد بقلب غير غائب، وعبَّر عن العقل بالقلب لأنه موضعه كما قال تعالى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ هذه الآية ردٌّ على اليهود حيث زعموا أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، أوَّلُها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة وأنه تعب فاستراح يوم السبت واستلقى على ظهره فوق العرش، فكذبهم الله تعالى[3]. والمعنى: والله خلق السموات السبع في ارتفاعها وعظمتها، والأرض في كثافتها وسعتها، وما بينهما من المخلوقات البديعة في ستة أيام، وما مسَّنا من إعياء وتعب ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي فاصبرْ يا محمد على ما يقوله اليهود وغيرهم من كفار قريش، واهجرهم هجرًا جميلًا ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ أي ونَزِّهْ ربَّك عما لا يليق به، وصلِّ له واعبدْه وقتي الفجر والعصر، وخصَّهما بالذكر لزيادة فضلهما وشرفهما ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ أي ومن الليل فصلِّ لله تهجدًا وأعقاب الصلوات المفروضة قال ابن كثير: كانت الصلاة المفروضة قبل

---

(١) هذا القول مروى عن أنس وجابر بن عبد الله قالا: المزيد هو أن يتجلى الله تعالى لهم حتى يروه وذلك في كل جمعة، انظر «روح المعاني» ٢٦/ ١٩٠. (ش): رَوَى الْبَزَّارُ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، بإسناد ضعيف عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قَالَ: «يَظْهَرُ لَهُمُ الرَّبُّ، عَزَّ وَجَلَّ، فِي كُلِّ جُمُعَةٍ». وروى في ذلك الإمامُ الشافعي في «مُسنَده» حديثًا عن النبي ﷺ بإسنادٍ ضعيف جدًّا. وعَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه عَنِ لنَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟»، فَيَقُولُونَ: «أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟» فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ نَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ». ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٧٨.

(٣) هذا قول قتادة والكلبي كذا في «القرطبي» ١٧/ ٢٤.

الإسراء (ثنتان قبل طلوع الشمس، وثنتان قبل الغروب)، وكان قيام الليل واجبًا على النبي ﷺ وعلى أُمته حولًا ثم نسخ في حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نسخ كل ذلك ليلة الإسراء بخمس صلواتٍ، وبقي منهم صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب[١] ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي واستمع يا محمد النداء والصوت حين ينادي إسرافيل بالحشر من موضع قريب يصل صوته إلى الكل على السواء قال أبو السعود: وفيه تهويلٌ وتفظيع لشأن المخبر به، والمنادي هو إسرافيل عليه السلام يقول: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة، إن الله يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء[٢] ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي يسمعون صيحة البعث التي تأتي بالحقِّ وهي النفخة الثانية في الصور ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ ذلك هو يوم الخروج من القبور ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ أي نُحيي الخلائق ونميتُهم في الدنيا، وإلينا رجوعهم للجزاء في الآخرة، لا إلى غيرنا ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ أي يوم تنشقُّ الأرضُ عنهم فيخرجون من القبور مسرعين إلى موقف الحساب استجابةً لنداء المنادي ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي ذلك جمع وبعث سهلٌ هيِّنٌ علينا لا يحتاج إلى عناء ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي نحن أعلم بما يقول كفار قريش من إنكار البعث والسخرية والاستهزاء بك وبرسالتك، وفيه تسلية للنبي ﷺ وتهديدٌ لهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي وما أنت يا محمد بمسلَّط عليهم تجبرهم على الإسلام، إنما بُعِثْتَ مذكِّرًا ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي عِظْ بهذا القرآن من يخاف وعيدي.

ختم السورة الكريمة بالتذكير بالقرآن كما افتتحها بالقسم بالقرآن ليتناسق البدء مع الختام:

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإظهار في موطن الإضمار ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [ق: ٢] بدل فقالوا؛ للتسجيل عليهم بالكفر.

٢ - الاستفهام الإنكاري لاستبعاد البعث ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ [ق: ٢]؟

٣ - الإضراب عن السابق لبيان ما هو أفظع وأشنع من التعجب ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ٥] وهو التكذيب بآيات الله وبرسوله المؤيد بالمعجزات.

٤ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١] شَبَّه إِحياء الموتى بإخراج النبات من الأرض الميتة.

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٧٨.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٩٦. (ش): رواه البيهقي «شعب الإيمان» بإسناد ضعيف. وقد ذكره «أبو السعود» وغيره من المفسرين بدون إسناد.

٥ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] مَثَّل علمه تعالى بأحوال العبد، وبخطرات النفس، بحبل الوريد القريب من القلب، وهو تمثيلٌ للقرب بطريق الاستعارة كقول العرب: هو مني مقعد القابلة، وهو مني معقد الإزار[1].

٦ - الحذف بالإيجاز ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧] أصله عن اليمين قعيدٌ، وعن الشمال قعيد، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه، وبين اليمين والشمال طباقٌ وهو من المحسنات البديعية.

٧ - الاستعارة التصريحية ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [ق: ١٩] استعار لفظ السَّكرة للهول والشدة التي يلقاها المحتضر عند وفاته.

٨ - الجناس الناقص بين ﴿عَنِيدٍ﴾ و ﴿عَتِيدٌ﴾ لتغاير حرفي النون والتاء.

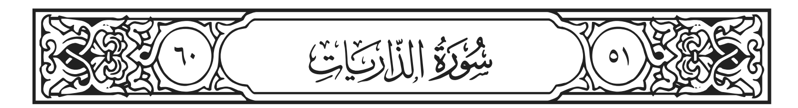
٩ - الطباق بين ﴿نُحْيِۦ﴾ و ﴿وَنُمِيتُ﴾.

١٠ - توافق الفواصل والسجع اللطيف غير المتكلف مثل ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠] ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١] ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ومثل ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ .. ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية، لما فيه من جميل الوقع على السمع.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة ق»



(١) (ش): هو مِنِّي مَقْعَد القابلة: شديدُ القُرْب كَقُرْب مكان القابلة (الداية) من المرأة الحامِل التي تُساعدها عند الولادة. هو مِنِّي مَعْقِد الإزارِ، أي: قَريبُ المَنْزِلَةِ كَقُرْب مكان عَقْد الإزار. والإزار: ثوبٌ يحيط بالنصف الأسفل من البدن.



مكية وآياتها ستون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المكية التي تقوم على تشييد دعائم الإيمان، وتوجيه الأبصار إلى قدرة الله الواحد القهار، وبناء العقيدة الراسخة على أسس التقوى والإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن الرياح التي تذرو الغبار، وتسير المراكب في البحار، وعن السحب التي تحمل مياه الأمطار، وعن السفن الجارية على سطح الماء بقدرة الواحد الأحد، وعن الملائكة الأطهار المكلفين بتدبير شئون الخلق، وأقسمت بهذه الأمور الأربعة على أن الحشر كائن لا محالة، وأنه لابد من البعث والجزاء.

* ثم انتقلت إلى الحديث عن كفار مكة، المكذبين بالقرآن وبالدار الآخرة، فبينت حالهم في الدنيا ومآلهم في الآخرة، حيث يعرضون على نار جهنم فيصلون عذابها ونكالها[1].

* ثم تحدثت عن المؤمنين المتقين، وما أعد الله لهم من النعيم والكرامة في الآخرة، لأنهم كانوا في الدنيا محسنين، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب، والإعذار والإنذار.

* ثم تحدثت عن دلائل القدرة والوحدانية في هذا الكون الفسيح، في سمائه وأرضه، وجباله ووهاده، وفي خلق الإنسان في أبدع صورة وأجمل تكوين، وكلها دلائل على قدرة رب العالمين.

* ثم انتقلت للحديث عن قصص الرسل الكرام، وعن موقف الأمم الطاغية من أنبيائهم وما حل بهم من العذاب والدمار، فذكرت قصة إبراهيم ولوط، وقصة موسى، وقصة الطغاة المتكبرين من قوم عاد وثمود وقوم نوح، وفي ذكر القصص وتكراره في القرآن تسلية للرسل الكرام، وعبرة لأولي الأبصار، يعتبر بها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

* وختمت السورة الكريمة ببيان الغاية من خلق الإنسان والجن، وهي معرفة الله جل وعلا، وعبادته وتوحيده، وإفراده بالإخلاص والتوجه لوجهه الكريم بأنواع القربات والعبادات.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾

(١) (ش): نَكَال: العقاب.

ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ

اللغـة: ﴿ٱلۡحُبُكِ﴾ الطرائق جمع حبيكة كطريقة وزنًا ومعنى قال الزجاج: الحُبك الطرائق الحسنة، والمحبوك في اللغة ما أُجيد عمله[1] وقال ابن الأعرابي: كلُّ شيءٍ أحكمته وأحسنت عمله فقد حبكته[2] ﴿ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾ جمع خرَّاص وهو الكذَّاب ﴿غَمۡرَةٖ﴾ الغمرة ما ستر الشيء وغطَّاه ومنه نهر غمر ﴿يَهۡجَعُونَ﴾ ينامون والهجوع النومُ ليلًا ﴿فَأَوۡجَسَ﴾ أحسَّ وشعر ﴿صَرَّةٖ﴾ صيحة وضجة ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلَّمة.

التفسير: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ هذا قسمٌ أقسم تعالى به أي أُقسم بالرياح التي تذرو التراب فتفرّقه، وتحمل الرمال من مكان إلى مكان ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ أي وأقسم بالسحب التي تحمل أثقال الأمطار، وهي محمَّلة بالماء الذي فيه حياة البشر ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ أي وأقسم بالسفن التي تجري على وجه الماء جريًا سهلًا بيسر وهي تحمل ذرية بني آدم ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ أي وأقسم بالملائكة التي تقسم الأرزاق والأَمطار بين العباد، وكل ملك مخصَّص بأمر، فجبريل صاحب الوحي إلى الأنبياء، وميكائيل صاحب الرزق والرحمة، وإسرافيل صاحب الصور، وعزرائيل صاحب قبض الأرواح[3] قال المفسرون: أقسم الله تعالى بهذه الأشياء لشرفها ولما فيها من الدلالة على عجيب صنعه وقدرته، ثم ذكر جواب القسم فقال ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ﴾

---

(١) «زاد المسير» ٨/ ٢٩.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ١٣٢.

(٣) «حاشية الجمل» ٤/ ٢٠١. (ش): اشتهر أن اسم ملك الموت عزرائيل، إلا أنه لم ترد تسمية ملك الموت بهذا الاسم في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية الصحيحة، وإنما ورد ذلك في بعض الآثار والتي قد تكون من الإسرائيليات. وعلى هذا، لا ينبغي الجزم بالنفي ولا بالإثبات، فلا نثبت أن اسم ملك الموت عزرائيل، ولا ننفي ذلك، بل نفوِّض الأمر إلى الله تعالى ونسميه بما سماه الله تعالى به «ملك الموت».

إي إن الذي توعدونه من الثواب والعقاب، والحشر والنشر، لَأَمْر صِدْق محقَّق لا كذبَ فيه ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ أي وإنَّ الجزاء لكائنٌ لا محالة، ثم ذكر تعالى قسمًا آخر فقال ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ أي وأقسم بالسماء ذات الطرائق المحكمة والبُنيان المُتقَن قال ابن عباس: ذات الخلْق الحَسَن المستوِي[١] ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ جواب القسم أي إنكم أيها الكفار لفي قول مضطرب في أمر محمد، فمنكم من يقول: إنه ساحر، ومنكم من يقول: إنه شاعر، وبعضكم يقول: إنه مجنون إلى غير ما هنالك من أقوال مختلفة ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي يُصرف عن الإيمان بالقرآن وبمحمد عليه السلام، من صُرف عن الهداية في علم الله تعالى وحُرم السعادة ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ أي لُعن الكذابون الذين قالوا: إن النبي ﷺ ساحر وكذاب وشاعر قال ابن الأنباري: والقتلُ إذا أُخبر عن الله به فهو بمعنى اللعنة، لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك[٢] ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ أي الذين هم غافلون لاهون عن أمر الآخرة ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي يقولون تكذيبًا واستهزاءً: متى يوم الحساب والجزاء؟ قال تعالى ردًّا عليهم ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي هذا الجزاء كائن يوم يدخلون جهنم ويُحرقون بها ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي تقول لهم خزنة النار: ذوقوا تعذيبكم وجزاءكم ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي هذا الذي كنتم تستعجلونه في الدنيا استهزاءً.. ولما ذكر حال الكفار ذكر المؤمنين الأبرار فقال ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي هم في بساتين فيها عيون جاريةٌ، تجري فيها على نهاية ما يُتنَزَّه به ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي راضين بما أعطاهم ربهم من الكرامة والنعيم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي كانوا في دار الدنيا محسنين في الأعمال، ثم ذكر طرفًا من إحسانهم فقال ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أي كانوا ينامون قليلًا من الليل ويصلُّون أكثره قال الحسن: كابدوا قيام الليل لا ينامون منه إلا قليلًا[٣] ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي وفي أواخر الليل يستغفرون الله من تقصيرهم، فهم مع إحسانهم يعدُّون أنفسهم مذنبين، ولذلك يكثرون الاستغفار بالأسحار قال أبو السعود: أي هم مع قلة نومهم وكثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار بالأسحار، كأنهم أسْلَفوا ليلَهم باقتراف الجرائم[٤]، وهو مدح ثانٍ للمحسنين ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ مدحٌ ثالث أي وفي أموالهم نصيب معلوم قد أوجبوه على أنفسهم بمقتضى الكرم للسائل المحتاج، وللمتعفف الذي لا يسأل لتعففه[٥] ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أي وفي الأرض

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٠٠.

(٢) «زاد المسير لابن الجوزي» ٨/ ٣٠.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ١٣٥.

(٤) «إرشاد العقل السليم» ٥/ ٢٤٠.

(٥) هو المشهور عن ابن عباس أنه حق سوى الزكاة، يقرى به ضيفًا، ويصل به رحمًا، ويحمل به كلاًّ، وقيل: إنه الزكاة وهو قول قتادة وابن سيرين.

دلائل واضحة على قدرة الله سبحانه ووحدانيته للموقنين بالله وعظمته، الذين يعرفونه بصنعه قال ابن كثير: أي وفي الأرض من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما فيها من صنوف النباتات والحيوانات، والجبال والقفار، والبحار والأنهار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الخلق البديع[١]، ولهذا قال بعده ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أي وفي أنفسكم آياتٌ وعبرٌ من مبدأ خلقكم إلى منتهاه، أفلا تبصرون قدرة الله في خلقكم لتعرفوا قدرته على البعث؟ قال ابن عباس: يريد اختلاف الصور، والألسنة، والألوان، والطبائع، والسمع والبصر والعقل[٢] إلى غير ذلك من العجائب المُودَعة في ابن آدم وقال قتادة: من تفكَّر في خلق نفسه عرف أنه إنما خُلِق ولُيِّنَتْ مفاصلُه للعبادة ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أي وفي السماء أسباب رزقكم ومعاشكم وهو المطر الذي به حياة البلاد والعباد، وما توعدون به من الثواب والعقاب مكتوب كذلك في السماء قال الصاوي: والآيةُ قُصد بها الامتنان والوعد والوعيد[٣] ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ أي أقسم بربِّ السماءِ والأرضِ إن ما توعدون به من الرزق والبعث والنشور لحقٌّ كائن لا محالة مثل نطقكم، فكما لا تَشُكُّون في نطقكم حين تنطقون فكذلك يجب ألا تَشُكُّوا في الرزق والبعث قال المفسرون: وهذا على سبيل التشبيه والتمثيل أي رزقكم مقسوم في السماء كنطقكم فلا تشكوا في ذلك، وهذا كقول القائل: هذا حق كما أنك ههنا، وهذا حق كما أنك ترى وتسمع[٤]، فالرزق مثل النطق لا يفارق الشخص في حالٍ من الأحوال وفي الحديث «لَوْ فَرَّ أَحَدُكُمْ مِنْ رِزْقِهِ لَأَدْرَكَهُ كَمَا يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ»[٥].

ثم ذكر تعالى قصة ضيف إبراهيم تسلية لقلب النبي الكريم فقال ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾؟ الاستفهام للتشويق ولتفخيم شأن تلك القصة كما يقول القائل: هل بلغك الخبر الفلاني؟ يريد تشويقه إلى استماعه. والمعنى: هل وصل إلى سمعك يا محمد خبر ضيوف إبراهيم المعظَّمين؟ قال ابن عباس: يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام[٦]، سُمُّوا مكرمين لكرامتهم عند الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ﴾ أي حين دخلوا على إبراهيم فقالوا: نسلِّم عليك سلامًا ﴿قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ أي قال: عليكم سلامٌ أنتم قومٌ غرباء لا نعرفكم فمن أنتم؟ قال ابن كثير: وإنما أنكرهم لأنهم قدموا عليه

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٨٤.
(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٠٣.
(٣) «حاشية الصاوي» ٤/ ١٢٥.
(٤) انظر «البحر المحيط» ٨/ ١٣٧.
(٥) ذكر القرطبي في «تفسيره» ١٧/ ٤٣ وأسنده إلى الثعلبي. (ش): رواه الطبراني، وحسنه الألباني.
(٦) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٤٤.

في صورة شبانٍ حسانٍ عليهم مهابة عظيمة ولهذا أنكرهم[1] وقال أبو حيان: والذي يناسب حال إِبراهيم عليه السلام أنه لا يخاطبهم بذلك، إِذْ فيه من عدم الأنس ما لا يخفى، وإِنما قال ذلك في نفسه، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه، بحيث لا يسمع ذلك الأضياف ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ أي فمضى إِلى أهله في سرعة وخفية عن ضيفه، لأن من أدب المضيف أن يبادر بإِحضار الضيافة من غير أن يشعر به الضيف، حذرًا من أن يمنعه الضيف، أو يُثقل عليه في التأخير قال ابن قتيبة: عدل إِليهم في خفية ولا يكون الرَّواغُ إِلا أن تُخفي ذهابك ومجيئك ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ أي فجاءهم بعجل سمينٍ مشوي، والعجلُ ولدُ البقرة وكان عامة ماله البقر، واختاره لهم سمينًا زيادة في إكرامهم ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ أي فأَدْناه منهم ووضعه بين أيديهم فلم يأكلوا فقال لهم في تلطف وبشاشة: ألا تأكلون هذا الطعام. قال ابن كثير: وفي الآية تلطف في العبارة وعرض حسن، وقد انتظمت الآية آداب الضيافة، فإِنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يتمنَّ عليهم أولًا فقال: نأتيكم بطعام بل جاء به بسرعةٍ وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله وهو عجل فَتِيٌّ سمين مشوي، فقرَّبه إليه ولم يضَعْه وقال اقتربوا بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرًا يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال: ألا تأكلون؟ على سبيل العرض والتلطف كما يقول القائل: إِن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ أي فأضمر في نفسه الخوف منهم لما رأى إِعراضهم عن الطعام ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ أي قالوا له: لا تخف إِنا رُسُلُ ربِّك ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ أي وبشروه بولدٍ يولد له من زوجته سارة يكون عالمًا عند بلوغه قال أبو حيان: وفيه تبشيرٌ بحياته حتى يكون من العلماء، والجمهور على أن المبشر به هو إِسحاق لقوله تعالى في سورة هود ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٧١] ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ﴾ أي فأقبلت سارة نحوهم حيث سمعت البشارة في صيحةٍ وضجة قال المفسرون: لما سمعت بالبشارة وكانت في زاوية من زوايا البيت جاءت نحوهم في صيحة عظيمة تريد أن تستفر الخبر ﴿فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ أي فلطمت وجهها على عادة النساء عند التعجب قال ابن عباس: لطمت وجهها تعجبًا كما تتعجب النساء من الأمر الغريب ﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾ أي قالت أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟ والعقيم هي التي لم تلد قطّ لانقطاع حَبَلِها. قال الإِمام الجلال: كان عمرها تسعًا وتسعين سنة، وعمر إِبراهيم مائة وعشرين ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي الأمر كما أخبرناك هكذا حكم وقضى ربك من الأزل فلا تعجبي ولا تشكّي فيه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي الحكيم في صنعه، العليم بمصالح خلقه ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ أي ما شأنكم الخطير الذي لأجله أرسلتم أيها الملائكة الأبرار؟ قال البيضاوي: لما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون مجتمعين

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٨٥.

إلا لأمرٍ عظيم سأل عنه[١] ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي قالوا: إن الله أرسلنا لإهلاك قوم لوط الذين ارتكبوا أفحش الجرائم «اللواط» وكانوا ذوي جرائم متعددة، وهي كبار المعاصي من كفر وعصيان ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ أي لنهلكهم بحجارةٍ من طين متحجر مطبوخ بالنار وهو السجيل قال أبو حيان: والسجيلُ طينٌ يطبخ كما يطبخ الآجُرُّ[٢] حتى يصبح في صلابة الحجارة[٣] ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي معلَّمة من عند الله بعلامة، على كل واحدةٍ منها اسم صاحبها الذي يهلك بها ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي المجاوزين الحدَّ في الفجور قال الصاوي: كان في قرى لوط ستمائة ألف فأدخل جبريل جناحه تحت الأرض فاقتلع قراهم، ورفعها حتى سمع أهل السماء أصواتهم ثم قلبها، ثم أرسل الحجارة على من كان خارجًا عنها[٤] ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فأخرجنا من كان في قرى أهل لوط من المؤمنين لئلا يهلكوا ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي فما كان فيها بعد البحث والتفتيش غير أهل بيت واحد من المسلمين قال: مجاهد هم لوطٌ وابنتاه، والغرضُ من الآية بيان قلة المؤمنين الناجين من العذاب، وكثرة الكافرين المستحقين للهلاك قال الإمام الجلال: وصفوا بالإيمان والإسلام أي هم مصدقون بقلوبهم، عاملون بجوارحهم الطاعات[٥] ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ أي أبقينا في تلك القرى المهلكة بعد إهلاك الظالمين علامةً على هلاكهم بجعل عاليها سافلها ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي للذين يخافون عذاب الله فإنهم المعتبرون به قال ابن كثير: ومعنى الآية ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ أي جعلناها عبرةً بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال، وجعلنا محلتهم بحيرةً منتنة خبيثة ففي ذلك عبرةٌ للمؤمنين الذين يخافون العذاب الأليم[٦].

تنبيه: قال الإمام الرازي: في قصة ضيف إبراهيم تسلية لقلب النبي الكريم ﷺ ببيان أن غيره من الأنبياء عليهم السلام كان مثله، واختار تعالى إبراهيم لكونه شيخ المرسلين، وكون النبي ﷺ على سنته في بعض الأشياء، وفيها إنذار لقومه بما أجرى من الضَّيْفِ[٧].

---

(١) «تفسير البيضاوي» ٤/ ١٦٧.

(٢) (ش): الآجُرُّ: طوب لبنٌ محروق مُعَدٌّ للبناء، وتتكوَّن المادّة المحرقة من الطِّين أو أي مخلوط آخر كالجير والرَّمل أو الأسمنت والرَّمل. واللَّبِن: قوالب مربَّعة أو مستطيلة مضروبة من الطِّين تستعمل في البناء.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ١٤٠.

(٤) «حاشية الصاوي» ٤/ ١٢٦.

(٥) «تفسير الجلالين» ٤/ ٢٠٥.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣٨٥.

(٧) (ش): قال الرازي: إِذَا كَانَ الْمُرَادُ مَا ذَكَرْتَ مِنَ التَّسْلِيَةِ وَالْإِنْذَارِ فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي حِكَايَةِ الضِّيَافَةِ؟ نقول: ليكونَ ذَلِكَ إِشَارَةً إِلَى الْفَرَجِ فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ، وَالْبَلَاءِ عَلَى الْجَهَلَةِ وَالْأَغْبِيَاءِ، إِذَا جَاءَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يُحْتَسَبُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ [الْحَشْر: ٢] فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَبَرٌ مِنْ إِنْزَالِ الْعَذَابِ مَعَ ارْتِفَاعِ مَكَانَتِهِ. ومن إنزال الحجارة على المذنبين المضلين.

قال الله تعالى:

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى قصة ضيف إبراهيم الذين أُرسلوا لهلاك قوم لوط أتبعه بذكر قصص الأمم الطاغية، فذكر منهم فرعون وجنوده، وعادًا، وثمود، وقوم نوح، تسليةً للنبي عليه السلام، وتذكيرًا للأنام بانتقام الله من أعدائه وأعداء رسله، ثم ذكر دلائل القدرة والوحدانية، وختم السورة الكريمة بإنكار المكذبين الضالين.

اللغَة: ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ طرَحْناهم ﴿ٱلْيَمِّ﴾ البحر ﴿مُلِيمٌ﴾ آتٍ بما يُلام عليه ﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾ الشيء الهالك البالي قال الزجاج: الرميمُ: الورق الجاف المتحطم مثل الهشيم[1]، ورَمَّ العظمُ إذا بلِيَ فهو رِمَّة ورميم قال جرير يرثي ابنه:

تَرَكْتَنِي حِينَ كَفَّ الدَّهْرُ مِنْ بَصَرِي ... وَإِذْ بَقِيتُ كَعَظْمِ الرِّمَّةِ الْبَالِي[2]

﴿ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ مهدتُ الفراش مهدًا بسَطتُه ووطَّأْتُه، والتمهيد تسوية الشيء وإصلاحه ﴿ذَنُوبًا﴾ الذَّنوب: بفتح الذال النصيب من العذاب.

التفسير: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أي وجعلنا في قصة موسى أيضًا آيةً وعبرة وقت إرسالنا له إلى فرعون ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة واضحة ودليل باهر ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي فأعرض عن الإيمان بموسى بجموعه وأجناده، وقوته وسلطانه قال مجاهد: تعزَّز عدوُّ الله بأصحابه[3] والغرض أن فرعون أعرض عن الإيمان بسبب ما كان يتقوى به من جنوده

---

(١) «زاد المسير» ٨/ ٣٩.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٥١.

(٣) «المختصر» ٣/ ٣٨٦، ونقل عن ابن عباس أن المراد «بركنه» أي بقوته وسلطانه، وقد جمعنا بين القولين في التفسير.

لأنهم كانوا له كالركن الذي يعتمد عليه البنيان ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي وقال اللعين في شأن موسى: إنه ساحرٌ ولذلك أتى بهذه الخوارق، أو مجنون ولذلك ادَّعى الرسالة، وإنما قال ذلك تمويهًا على قومه لا شكًّا منه في صدق موسى[١] ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ أي فأخذنا فرعون مع أصحابه وجنوده ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي فطرحناهم في البحر لما أغضبونا وكذبوا رسولنا ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي وهو آتٍ بما يُلامُ عليه من الكفر والطغيان.. ثم لما انتهى من قصة فرعون أعقبها بذكر قصة عاد فقال ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ أي وجعلنا في قصة عاد كذلك آية لمن تأمل حين أرسلنا عليهم الريح المدمرة، التي لا خير فيها ولا بركة، لأنها لا تحمل المطر ولا تلقّح الشجر[٢]، وإنما هي للإهلاك، وهي الريح التي تسمَّى الدبور وفي الصحيح «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ»[٣]. قال المفسرون: سميت ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ تشبيهًا لهم بعقم المرأة التي لا تحمل ولا تلد، ولما كانت هذه الريح لا تلقح سحابًا ولا شجرًا، ولا خير فيها ولا بركة لأنها لا تحمل المطر شبهت بالمرأة العقيم ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي ما تترك شيئًا مرَّت عليه في طريقها مما أراد الله تدميره وإهلاكه ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ أي إلا جعلته كالهشيم المتفتت البالي قال ابن عباس: ﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾ الشيء الهالك البالي وقال السدي: هو التراب والرماد المدقوق[٤] كقوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥] قال المفسرون: كانت الريح التي أرسلها الله عليهم ريحًا صرصرًا عاتية، استمرت عليهم ثمانية أيام متتابعة، فكانت تهدم البنيان وتنتزع الرجال فترفعهم إلى السماء حتى يرى الواحد منهم كالطير ثم ترمي به إلى الأرض جثة هامدة ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]. ثم أخبر تعالى عن هلاك ثمود فقال ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ أي وجعلنا في ثمود أيضًا آية وعبرة ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي حين قيل لهم: عيشوا متمتعين بالدنيا إلى وقت الهلاك بعد عقرهم للناقة، وهو ثلاثة أيام كما في هود ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥] ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي فاستكبروا عن امتثال أمر الله، وعصوا رسولهم فعقروا الناقة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي

---

(١) لفظه «أو» للشك، وذهب بعض المفسرين إلى أنها بمعنى الواو أي ساحر ومجنون لأن اللعين قال الأمرين معًا فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، وقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ وهو اختيار القرطبي، وقال الألوسي: لا ضرورة إلى ذلك التأويل لأن اللعين كان يتلوَّن تَلَوُّن الحرباء.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٠٥. (ش): في الهوامش من هنا حتى نهاية السورة أخطاء طباعية كثيرة في أكثر من طبعة، والمُثبَت هنا هو الصواب.

(٣) (ش): رواه البخاري ومسلم. (نُصِرْتُ بِالصَّبَا) الصَّبَا: هي الريح الشرقية، الريح التي تهب من مشرق الشمس ونُصرَتُه بها ﷺ كانت يوم الخندق أرسلها الله تعالى على الأحزاب باردة في ليلة شاتية فقلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم وقلبت قدورهم وكان ذلك سبب رجوعهم وانهزامهم. (وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ) الدَّبُورِ: هي الريح الغربية، الريح التي تهب من مغرب الشمس وبها كان هلاك قوم عاد كما قص علينا القرآن الكريم.

(٤) «حاشية الجمل» ٤/ ٢٠٧.

فأخذتهم الصيحة المهلكة صيحة العذاب ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي وهم يشاهدونها ويعاينونها لأنها جاءت في وضح النهار قال ابن كثير: وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار[١] وقال الألوسي: إن صالحًا عليه السلام وعدهم بالهلاك بعد ثلاثة أيام وقال لهم: تصبح وجوهكم غدًا مصفرة، وبعد غد محمرة، وفي اليوم الثالث مسودَّة، ثم يصبحكم العذاب، فلما رأوا الآيات التي بينها عليه السلام عمدوا إلى قتله فنجاه الله، وفي اليوم الرابع أتتهم الصاعقة وهي نار من السماء، وقيل: صيحة؛ فهلكوا [٢] ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ أي ما قدروا على الهرب والنهوض من شدة الصيحة، بل أصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ أي وما كانوا ممن ينتصر لنفسه فيدفع عنها العذاب.. ثم أخبر تعالى عن هلاك قوم نوح فقال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي وأهلكنا قوم نوح بالطوفان من قبل إهلاك هؤلاء المذكورين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ تعليلٌ للهلاك، أي: لأنهم كانوا فسقةً خارجين عن طاعة الرحمن بارتكابهم الكفر والعصيان.. ولما انتهى من أخبار هلاك الأمم الطاغية المكذبة، شرع في بيان دلال القدرة والوحدانية فقال ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ أي وشيدنا السماء وأحكَمْنا خلْقها بقوةٍ وقدرة قال ابن عباس: ﴿بِأَيْي۟دٍ﴾ بقوة [٣] ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي وإنا لمُوسعون في خلق السماء، فإن الأرض وما يحيط بها من الهواء والماء بالنسبة لها كحلقة صغيرة في فلاة كما ورد في الأحاديث[٤] وقال ابن عباس: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي لقادرون، من الوسع بمعنى الطاقة [٥] ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي والأرض مهدناها لتسقروا عليها، وبسطناها لكم ومددنا فيها لتنتفعوا بها بالطرقات وأنواع المزروعات، ولا ينافي ذلك كرويتها، فذلك أمرٌ مقطوع به، فإنها مع كرويتها واسعة ممتدة، فيها السهول الفسيحة، والبقاع الواسعة، مع الجبال والهضاب ولهذا قال تعالى ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ أي فنعم الباسطون الموسعون لها نحن، وصيغة الجمع للتعظيم ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي ومن كل شيء خلقنا صنفين ونوعين مختلفين ذكرًا وأنثى، وحلوًا وحامضًا ونحو ذلك[٦] ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي كي تتذكَّروا عظمة الله فتؤمنوا به، وتعلموا

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٨٦.

(٢) «روح المعاني» ٢٧/ ١٦.

(٣) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ٤٠.

(٤) (ش): قال ﷺ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلاَّ كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلاةِ عَلَى تِلْكَ الْحَلَقَةِ» (رواه ابن حبان والبيهقي، وصححه الألباني).

(٥) انظر إلى عظمة الكون بعين البصيرة والعقل، لترى عظمة الخالق الكبير المتعال، فإن هذه الأرض التي نعيش فوق سطحها ما هي إلا ذرة أو نقطة تسبح في هذا الكون الفسيح، الذي لا يعلم سعته وعظمته إلا الله رب العالمين، مُنشئ الأكوان وخالق الإنسان، وتمعَّنْ وأنت تقرأ هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ عظمة الكون لتسبح الله مع المسبحين بقلبك ولسانك.

(٦) هذا قول ابن زيد، وقال مجاهد: يعني به المتقابلات كالذكر والأنثى، والسماء والأرض، والشمس والقمر، =

أن خالق الأزواج واحدٌ أحدٌ ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي الجئوا إلى الله، واهرعوا إلى توحيده وطاعته قال أبو حيان: والأمر بالفرار إلى الله أمرٌ بالدخول في الإيمان وطاعة الرحمن، وإنما ذكر بلفظ الفرار لينبه على أن وراء الناس عقابًا وعذابًا، وأمرٌ حقُّه أن يُفرَّ منه، فقد جمعت اللفظة بين التحذير والاستدعاء، ومثله قول النبي ﷺ: « لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ »[1] وقال ابن الجوزي: المعنى اهربوا مما يُوجِب العقاب من الكفر والعصيان، إلى ما يُوجِب الثواب من الطاعة والإيمان[2] ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ أي إني أنذركم عذاب الله وأخوفكم انتقامه ﴿مُّبِينٌ﴾ أي واضحٌ أمري فقد أيدني الله بالمعجزات الباهرات ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي لا تشركوا مع الله أحدًا من بشر أو حجر ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ كرر اللفظ للتأكيد والتنبيه إلى خطر الإشراك بالله. قال الخازن: وإنما كرر اللفظ عند الأمر بالطاعة، والنهي عن الشرك، ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلاّ مع العمل، كما أن العمل لا ينفع إلا مع الإيمان، وأنه لا يفوز وينجو عند الله إلاّ الجامع بينهما[3] ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ أي كما كذبك قومك يا محمد، وقالوا عنك: إنك ساحرٌ أو مجنون، كذلك قال المكذِّبون الأوَّلون لرسلهم، فلا تحزن لما يقول المجرمون ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾ أي هل أوصَى أولُهُم آخرَهم بالتكذيب؟ وهو استفهام للتعجب من إجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة، ثم أضرب عن هذا النفي والتوبيخ فقال ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي لم يوص بعضهم بعضًا بذلك، بل حملهم الطغيان على التكذيب والعصيان فلذلك قالوا ما قالوا ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرض يا محمد عنهم ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ أي فلا لوم عليك ولا عتاب، لأنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة، وبذلت الجهد في النصح والإرشاد ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا تدع التذكير والموعظة فإن القلوب المؤمنة تنتفع وتتأثر بالموعظة الحسنة.. ثم ذكر تعالى الغاية من خلق الخلق فقال ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي وما خلقت الثقلين الإنس والجن إلا لعبادتي وتوحيدي، لا لطلب الدنيا والانهماك بها قال ابن عباس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إلا ليُقِرُّوا لي بالعبادة طوعًا أو كرهًا وقال مجاهد: إلا ليعرفوني[4] قال الرازي: لما بَيَّن تعالى حال المكذبين ذكر هذه الآية ليبيّن سوء صنيعهم حيث تركوا عبادة الله مع أن خلقهم لم يكن

= والليل والنهار، والنور والظلام، والخير والشر وأمثال ذلك. كذا في «القرطبي» ١٧/ ٥٣، وهو اختيار الطبري لأنه أَدَلُّ على العظمة والقدرة.

(١) «البحر المحيط» ٨/ ١٢٤. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ٤١.

(٣)«تفسير الخازن» (٤/ ١٩٦).

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٥٥.

إلا للعبادة[١] ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ ﴾ أي لا أريد منهم أن يرزقوني أو يرزقوا أنفسهم أو غيرهم بل أنا الرزَّاق المعطي ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴾ أي ولا أُريد منهم أن يطعموا خلقي ولا أن يطعموني فأنا الغني الحميد قال البيضاوي: والمراد أن يبيّن أن شأنه مع عباده ليس شأن السادة مع عبيدهم، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم[٢]، فكأنه سبحانه يقول: ما أريد أن أستعين بهم كما يستعين السادة بعبيدهم، فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ أي إنه جل وعلا هو الرزاق، المتكفل بأرزاق العباد وحاجاتهم، أتى باسم الجلالة الظاهر للتفخيم والتعظيم، وأكد الجملة بإن والضمير المنفصل لقطع أوهام الخلق في أمور الرزق، وليقوي اعتمادهم على الله ﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ ﴾ أي ذو القدرة الباهرة ﴿ٱلۡمَتِينُ ﴾ أي شديد القوة لا يطرأ عليه عجزٌ ولا ضعف قال ابن كثير: أخبر تعالى أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إلى الله في جميع أحوالهم فهو خالقهم ورازقهم، وفي الحديث القدسي «يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنًى وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِلَّا تَفْعَلْ، مَلأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ »[٣] ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ ﴾ أي فإن لهؤلاء الكفار الذين كذبوا الرسول ﷺ نصيبًا من العذاب مثل نصيب أسلافهم الذين أُهلكوا كقوم نوح وعاد وثمود ﴿فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴾ أي فلا يتعجلوا عذابي فإنه واقع لا محالة إن عاجلًا أو آجلًا ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ أي هلاك ودمار وشدة عذاب لهؤلاء الكفار في يوم القيامة الذي وعدهم الله به.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٩] لأن السائل الطالب، والمحروم المتعفف.

٢ - تأكيد الخبر بالقسم وإنَّ واللام ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ ﴾ [الذاريات: ٢٣] ويسمى هذا الضرب إنكاريًا، لأن المخاطب منكر لذلك.

٣ - أسلوب التشويق والتفخيم ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ [الذاريات:٢٤]؟

٤ - الاستعارة ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾ استعار الركن للجنود والجموع لأنه يحصل بهم التَقَوِّى والاعتماد كما يعتمد على الركن في البناء أو استعاره للقوة والشدة.

٥ - المجاز العقلي ﴿وَهُوَ مُلِيمٞ ﴾ أطلق اسم الفاعل على اسم المفعول، أي: ملام على طغيانه.

٦ - الاستعارة التبعية ﴿ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ شبه إهلاكهم وقطع دابرهم بعقم النساء وعدم

---

(١) «تفسير الفخر الرازي» ٧/ ٦٨٥.

(٢) «تفسير البيضاوي» ٤/ ١٦٨.

(٣) أخرجه الترمذي وأحمد وانظر «المختصر» ٣/ ٣٨٧. (ش): صححه الألباني وأحمد شاكر.

حملهن ثم أطلق المشبه به على المشبه واشتق منه العقيم بطريق الاستعارة.

٧ - حذف الإيجاز ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥] أي: أنتم قوم منكرون ومثلها ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾ [الذاريات: ٢٩] أي: أنا عجوز.

٨ - التشبيه المرسل المجمل ﴿ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ﴾ أي نصيبًا من العذاب مثل نصيب أسلافهم المكذبين في الشدة والغلظة، حذف منه وجه الشبه فهو مجمل.

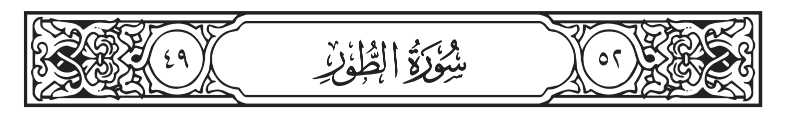
٩ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ للمبالغة والتأكيد.

١٠ - السجع الرصين غير المتكلف الذي يزيد في جمال الأسلوب ورونقه مثل ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ.. وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

لطيفَة: ذكر أن أعرابيًا سمع قارئًا يقرأ ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣] فقال: يا سبحان الله من الذي أغضب الجليل حتى حلف (ألم يصدقوه في قوله حتى ألجئوه إلى اليمين؟ يا ويح الناس)!

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الذاريات»





مكية وآياتها تسع وأربعون

بين يدي السورة

* سورة الطور من السور المكية التي تعالج موضوع العقيدة الإسلامية، وتبحث في أصول العقيدة وهي «الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء».

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن أهوال الآخرة وشدائدها، وعما يلقاه الكافرون في ذلك الموقف الرهيب «موقف الحساب» وأقسمت على أن العذاب نازل بالكفار لا محالة، لا يمنعه مانع ولا يدفعه دافع، وكان القسم بأمور خمسة تنبيهًا على أهمية الموضوع.

* ثم تناولت الحديث عن المتقين، وهم في جنات النعيم، على سرر متقابلين، وقد جمع الله لهم أنواع السعادة «الحور العين، واجتماع الشمل بالذرية والبنين، والتنعم والتلذذ بأنواع المآكل والمشارب من فواكه وثمار، ولحوم متنوعة مما يشتهى ويستطاب» إلى غير ما هنالك من أنواع النعيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

* ثم تحدثت عن رسالة محمد بن عبدالله صلوات الله عليه، وأمرته بالتذكير والإنذار للكفرة الفجار، غير عابئ بما يقوله المشركون وما يفتريه المفترون حول الرسالة والرسول، فليس محمد ﷺ بإنعام الله عليه بالنبوة وإكرامه بالرسالة بكاهن ولا مجنون كما زعم المجرمون.

* ثم أنكرت السورة على المشركين مزاعمهم الباطلة في شأن نبوة محمد ﷺ، وردت عليهم بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل، وأقامت الدلائل على صدق رسالة محمد عليه السلام.

* وختمت السورة الكريمة بالتهكم بالكافرين وأوثانهم بطريق التوبيخ والتقريع، وبينت شدة عنادهم، وفرط طغيانهم، وأمرت الرسول ﷺ بالصبر على تحمل الأذى في سبيل الله حتى يأتي نصر الله.

التسمية: سميت «سورة الطور» لأن الله تعالى بدأ السورة الكريمة بالقسم بجبل الطور الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام، ونال ذلك الجبل من الأنوار والتجليات والفيوضات الإلهية ما جعله مكانًا وبقعة مشرفة على سائر الجبال في بقاع الأرض.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ

اللغَة: ﴿رَقٍّ﴾ الرَّق بالفتح والكسر جلد رقيق يكتب فيه وقال أبو عبيدة: الرقُّ الورق وفي الصحاح: الرقُّ بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق[1] ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾ الموقد نارًا يقال: سجرت النار أي أوقدتها ﴿تَمُورُ﴾ مار الشيء يمور مورًا إذا تحرك واضطرب، وجاء وذهب، قال جرير:

فَمَا زَالَـتِ الْقَتْلَى تَمُجُّ دِمَـاءُهَـا ... بِدِجْلَةَ حَتَّى مَاءُ دِجْلَةَ أَشْكَلُ[2]

﴿يُدَعُّونَ﴾ يدفعـون بشـدة وعنـف، والـدَّع: الدفع بشـدة وإهانـة ﴿أَلَتْنَٰهُم﴾ أنقصناهم ﴿رَهِينٌ﴾ محبوس ﴿ٱلسَّمُومِ﴾ الريح الحارة النافذة في المسامّ.

التفسِير: ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ أقسم تعالى بجبل الطور الذي كلَّم الله عليه موسى، وأقسم بالكتاب الذي أنزله على خاتم رسله وهو القرآن العظيم المكتوب ﴿فِى رَقٍّ﴾ أي في أديمٍ من الجلد الرقيق ﴿مَّنشُورٍ﴾ أي مبسوط غير مطوي وغير مختوم عليه قال القرطبي: أقسم الله تعالى بالكتاب المسطور، أي: المكتوب وهو القرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف، ويقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ، وقيل: يعني بالكتاب سائر الكتب المنزلة على الأنبياء لأن كل كتاب في رقٍّ ينشره أهله لقراءته، والرقُّ ما رقّق من الجلد ليكتب فيه[3] ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ أي وأُقسم بالبيت المعمور الذي تطوف به الملائكة الأبرار، وهو لأهل السماء

---

(١) «الصحاح» مادة رقَّ.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٦٣. (ش): الأَشْكَلُ: ما فيه بياضٌ وحُمرة.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٥٨.

كالكعبة المشرفة لأهل الأرض، وفي حديث الإسراء «ثُمَّ رُفِعَ لِيَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ»[١] وقال ابن عباس: هو بيتٌ في السماء السابعة حيال الكعبة أي مقابلها وحذاءها تعمره الملائكة، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة ثم لا يعودون إليه[٢] ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ أي والسماء العالية المرتفعة، الواقفة بقدرة الله بلا عمد، سمَّى السماء سقفًا لأنها للأرض كالسقف للبيت ودليله ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗا﴾ [الأنبياء:٣٢] وقال ابن عباس: هو العرش وهو سقف الجنة[٣] قال ﷺ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» رواه البخاري. ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ أي والبحر المسجور الموقد نارًا يوم القيامة كقوله ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾ [التكوير:٦] أي أضرمت حتى تصير نارًا ملتهبة تتأجج تحيط بأهل الموقف ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾ هذا جواب القسم، أي: إن عذاب الله لنازل بالكافرين لا محالة قال ابن الجوزي: أقسم تعالى بهذه الأشياء الخمسة للتنبيه على ما فيها من عظيم قدرته على أن عذاب المشركين حق[٤] ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾ أي ليس له دافع يدفعه عنهم قال أبو حيان: والواو الأولى للقسم وما بعدها للعطف[٥]، والجملة المقسم عليها هي ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾ وفي إضافته إلى الرب وإضافته لكاف الخطاب أمانٌ له ﷺ وأن العذاب واقع بمن كذبه -ولفظ (واقع) أشد من كائن، كأنه مهيأ في مكان مرتفع فيقع على مَن حَلَّ به-[٦] ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾ أي تتحرك السماء

---

(١) أخرجه مسلمٌ في صحيحه. (ش): ورواه البخاري. (آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ) أي دخولُهم الأول ذلك هو آخر دخولٍ لهم لكثرتهم.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٨٨.

(٣) (ش): أي إن السقف المرفوع هو العرش وهو سقف الجنة.

(٤) «زاد المسير» ٨/ ٤٨.

(٥) (ش): الواو الأولى للقسم، أي قوله تعالى: (وَٱلطُّورِ).وما بعدها للعطف، أي قوله تعالى: (وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ)، (وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ) (وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ)، (وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ).

(٦) «البحر المحيط» ٨/ ١٤٧، والآية فيها أهوال وشدائد ينخلع لها قلب المؤمن، روى عن جبير بن مطعم أنه قال: قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب: ﴿وَٱلطُّورِ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ....﴾ إلى ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾ فكأنما صدع قلبي، فأسلمت خوفًا من نزول العذاب، وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب. (ش): عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ - رضى الله عنه - قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾ كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ. رواه البخاري.وعَنْ جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ رضي الله عنه أَنَّهُ جَاءَ فِي فِدَاءِ أُسَارَى أَهْلِ بَدْرٍ، قَالَ: فَوَافَقْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقْرَأُ فِي صَلاةِ الْمَغْرِبِ ﴿وَٱلطُّورِ ١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾ [الطور: ١ ٣]، قَالَ: فَأَخَذَنِي مِنْ قِرَاءَتِهِ كَالْكَرْبِ، فَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ مَا سَمِعْتُ مِنْ أَمْرِ الإِسْلامِ. فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾ [الطور: ٨]، وَقَدْ خَرَجَ صَوْتُهُ مِنَ الْمَسْجِدِ =

وتضطرب اضطرابًا شديدًا من هول ذلك اليوم ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ أي تنسف نسفًا عن وجه الأرض فتكون هباءً منثورًا كقوله ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ [طه: ١٠٥] قال الخازن: والحكمة في مور السماء وسير الجبال، الإنذارُ والإعلام بأن لا رجوع ولا عود إلى الدنيا، وذلك لأن الأرض والسماء وما بينهما من الجبال والبحار وغير ذلك إنما خلقت لعمارة الدنيا وانتفاع بني آدم بذلك، فلما لم يبق لهم عودٌ إليها أزالها الله تعالى وذلك لخراب الدنيا وعمارة الآخرة[1] ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي هلاك ودمار وشدة عذاب للمكذبين أرسلَ الله في ذلك اليوم الرهيب ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أي الذين هم في الدنيا يخوضون في الباطل غافلون ساهون عما يراد بهم ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ أي يوم يُدْفعون إلى نار جهنم دفعًا بشدة وعنف قال في البحر: وذلك أن خزنة جهنم يغلّون أيدي الكفار إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ويدفعون بهم دفعًا إلى النار على وجوههم وزجًّا في أقفيتهم حتى يردُّوا إلى النار،[2] فإذا دنَوْا منها قال لهم خزنتها ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أي هذه نار جهنم التي كنتم تهزءون وتكذبون بها في الدنيا ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ أي وتقول لهم الزبانية تقريعًا وتوبيخًا: هل هذا الذي ترونه بأعينكم من لعذاب سحرٌ، أم أنتم اليوم عُمْيٌ كما كنتم في الدنيا عُمْيًا عن الخير والإيمان؟ قال أبو السعود: وقوله تعالى ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ توبيخ لهم وتقريع حيث كانوا يسمون القرآن الناطق بالحق سحرًا فكأنه قيل لهم: كنتم تقولون عن القرآن: إنه سحر. أفهذا العذاب أيضًا سحر أم سُدَّت أبصاركم كما سُدَّت في الدنيا؟[3] ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ ﴾ أي قاسوا شدتها فاصبروا على العذاب أو لا تصبروا، وهو توبيخ آخر ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي يتساوى عليكم الصبر والجزع لأنكم مخلدون في جهنم أبدًا ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي إنما تنالون جزاء أعمالكم القبيحة من الكفر والتكذيب، ولا يظلم ربك أحدًا.. ولما ذكر حال الكفرة الأشقياء ذكر حال المؤمنين السعداء على عادة القرآن الكريم في الجمع بين الترهيب والترغيب فقال ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ أي إن الذين اتقوا ربهم في الدنيا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، هم في الآخرة في بساتين عظيمة ونعيم مقيم خالد ﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي متنعمين ومتلذذين بما أعطاهم ربهم

= ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور: ٨] ، فَكَأَنَّمَا صُدِعَ قَلْبِي (رواه الطبراني بإسناد حسن). قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ٤٣٧): «وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ كَانَ قَدْ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ فِي فِدَاءِ الْأُسَارَى، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ مُشْرِكًا، وَكَانَ سَمَاعُهُ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ جُمْلَةِ مَا حَمَلَهُ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ ذَلِكَ».

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ١٠٧.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ١٤٧.

(٣) «تفسير أبي السعود على هامش الرازي» ٧/ ٦٩٧.

من الخير والكرامة وأصناف الملاذ من مآكل ومشارب، وملابس ومراكب، وغير ذلك من ملاذ الجنة ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي وقد نجاهم ربهم من عذاب جهنم وصرف فيها من السرور ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر [(١)] ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم: كلوا واشربوا أكلًا وشربًا هنيًّا، لا تنغيص فيه ولا كدر، بسبب ما قدمتم من صالح الأعمال. ثم أخبر تعالى عن حالهم عند أكلهم وشربهم فقال ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي جالسين على هيئة المضطجع على سرر من ذهب مكلَّلة بالدر والياقوت، مصطفة بعضها إلى جانب بعض، قال ابن كثير: ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض كقوله ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] [(٢)] وفي الحديث «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَّكِئُ الْمُتَّكَأَ مِقْدَارَ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَا يَتَحَوَّلُ عَنْهُ وَلَا يَمَلُّهُ، يَأْتِيهِ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ وَلَذَّتْ عَيْنُهُ» [(٣)] ﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي وجعلنا لهم قرينات صالحات، وزوجات حسانًا من الحور العين، وهنَّ نساء بيض واسعات العيون -من الحَوَر وهو شدة البياض- والعِينُ جمع عيناء وهي كبيرة العين -والبياضُ مع سعة العين نهاية الحسن والجمال- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ﴾ أي كانوا مؤمنين وشاركهم أولادهم في الإيمان ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي ألحقنا الأبناء بالآباء لتقرَّ بهم أعينهم وإن لم يبلغوا أعمالهم قال ابن عباس: إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كان لم يبلغها بعمله لتقرَّ بهم عينه وتلا الآية [(٤)] قال الزمخشري: فيجمع الله لأهل الجنة أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم [(٥)] ﴿وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي وما نقصنا الآباء من ثواب عملهم شيئًا قال في البحر: المعنى أنه تعالى يُلحق المقصِّر بالمحسن ولا ينقص المحسن من أجره شيئًا [(٦)] ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي كل إنسان مرتهن بعمله لا يُحمل عليه ذنب غيره سواء كان أبًا أو ابنًا وقال ابن عباس: ارتهن أهل جهنم بأعمالهم، وصار أهل الجنة إلى نعيمهم [(٧)] وقال الخازن: المراد بالآية الكافر أي كل كافر بما عمل من الشرك مرتهن بعمله في النار، والمؤمن لا يكون مرتهنًا بعمله لقوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٢٩٠.

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة. (ش): رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» بإسناد ضعيف.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٦٦.

(٥) «تفسير الكشاف» ٤/ ٢٧٢.

(٦) «البحر المحيط» ٨/ ١٤٩، وهذا تأويل ابن عباس.

(٧) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٦٨.

﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾ [١] [المدثر: ٣٨-٣٩].. ثم ذكر ما وعدهم به من الفضل والنعمة فقال ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أي وزدناهم فوق ما لهم من النعيم بفواكه ولحوم من أنواع شتى مما يستطاب ويُشتهى ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾ أي يتعاطون في الجنة كأسًا من الخمر، يتجاذبها بعضهم من بعض تلذُّذًا وتأنُّسًا قال الألوسي: أي يتجاذبونها تجاذب ملاعبة كما يفعل ذلك النَّدامَى في الدنيا لشدة سرورهم [٢] ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ أي لا يقع بينهم بسبب شربها هذيان حتى يتكلموا بساقط الكلام، ولا يلحقهم إِثم كما يلحق شارب الخمر في الدنيا قال قتادة: نزّه الله خمر الآخرة عن قاذورات الكلام الفارغ الذي لا فائدة فيه، المتضمن للهذيان والفحش، ووصفها بحسن منظرها وطيب طعمها، فقال ﴿بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ٤٦ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾ [٣] [الصافات: ٤٦-٤٧] ثم قال تعالى ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ﴾ أي ويطوف عليهم للخدمة غلمان مماليك خصصهم تعالى لخدمتهم ﴿كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾ أي كأنهم في الحسن، والبياض، والصفاء اللؤلؤ المصون في الصدف قال القرطبي: وهؤلاء الغلمان قيل: هم أولاد المشركين وهم خدم أهل الجنة [٤]، وليس في الجنة نَصَبٌ ولا حاجة إلى خدمة، ولكنه أخبر بأنهم على غاية النعيم [٥] ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي أقبل أهل الجنة يسأل بعضهم بعضًا عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، تلذذًا بالحديث، واعترافًا بالنعمة ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ أي قال المسئولون: إنا كنا في دار الدنيا خائفين من ربنا، مشفقين من عذابه وعقابه ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي فأكرمنا الله بالمغفرة والجنة، وأجارنا مما نخاف، وحمانا من عذاب جهنم النافذة في المسام نفوذ الريح الحارة الشديدة وهي التي تسمى ﴿ٱلسَّمُومِ﴾ قال الفخر الرازي: والآية إشارة إلى أن أهل الجنة يعلمون ما جرى عليهم في الدنيا ويذكرونه، وكذلك الكافر لا ينسى ما كان له من النعيم في الدنيا، فتزداد لذة المؤمن

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٠٨.

(٢) «روح المعاني» ٢٧/ ٣٤. (ش): نَدامَى: جمع نَديم: مُجالِسٌ على الشّراب وعلى المائدة عامَّةً. والنديم: الرفيق والصاحب.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٩١.

(٤) (ش): أطفال المسلمين لا خلاف بين العلماء أنهم من أهل الجنة.
أما أطفال الكفار فقد اختلف العلماء فيه إلى أقوال:
١- أنّهم في الجنَّة. ٢- أنّهم مع آبائهم في النار. ٣- التوقف فيهم.
٤- أنّهم خدم أهل الجنَّة. قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ولا أصل لهذا القول». «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٧٩).
وقد ورد ذلك في حديث عند الطبراني والبزار، لكن ضعفه الأئمة ومنهم الحافظ ابن حجر.
٥- أنّهم يُمتَحَنون في الآخرة، فمن أطاع الله دخل الجنة، ومن عصى دخل النار. وهو قول طائفة من المحققين، وهو الذي مال إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو الذي رجحه الحافظ ابن كثير، وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٦٩.

حيث يرى نفسه انتقلت من الضيق إلى السعة، ومن السجن إلى الجنة، ويزداد الكفار ألمًا حيث يرى نفسه انتقلت من النعيم إلى الجحيم[١] ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُ﴾ أي قال أهل الجنة: إنا كنا في الدنيا نعبد الله ونتضرع إليه، فاستجاب الله لنا فأعطانا سُؤْلنا[٢] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي إنه تعالى هو المُحْسِن، والمتفضِّل على عباده بالرحمة والغفران، وهو كالتعليل لما سبق، عن مسروق أن عائشة رضي الله تعالى عنها قرأت هذه الآية ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ فقالت: اللهم مُنَّ علينا وقِنا عذاب السموم إنك أنت البر الرحيم[٣].

قال الله تعالى:

فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَۜيۡطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴿٤٤﴾ فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ

المناسَبَة: لما تقدم إقسام الله تعالى على وقوع العذاب بالكافرين، وذكر أشياء من أحوال المعذبين والناجين، أمر تعالى رسوله بالتذكير، إنذارًا للكافرين وتبشيرًا للمؤمنين، وختم السورة الكريمة ببيان عاقبة المكذبين، وحفظ الله ورعايته لرسوله الكريم ﷺ.

اللغَة: ﴿رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ حوادث الدهر وصروفه، والمنون هو الدهر قال أبو ذؤيب:

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ ... وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ[٤]

والمنون أيضًا الموتُ من المَنِّ بمعنى القطع لأنه يقطع الأعمار ﴿أَحۡلَٰمُهُم﴾ عقولهم جمع حُلم وهو العقل ﴿ٱلۡمُصَۜيۡطِرُونَ﴾ المسيطر: المتسلط على الشيء ﴿كِسۡفٗا﴾ قطعة يقال: كسف

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٧/ ٧٠٥.

(٢) (ش): سُؤْل: طَلَب، حاجة.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٩٢.

(٤) «زاد المسير» ٨/ ٥٤، وانظر «الصحاح» للجوهري. (ش): وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ: أي: ليس بمراجعٍ مَن يجزعُ منه.

بسكون السين وكسفة أي قطعة وجمعه كسف بفتح السين ﴿مَّرْكُومٌ﴾ متجمع ومتراكم بعضه فوق بعض.

التفسير: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي فذكّر يا محمد بالقرآن قومك وعِظْهُم به، فما أنت بإنعام الله عليك بالنبوة وإكرامه لك بالرسالة ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أي لست كاهنًا تخبر بالأمور الغيبية من غير وحي، ولا مجنونًا كما زعم المشركون، إنما تنطق بالوحي.. ثم أنكر عليهم مزاعمهم الباطلة في شأن الرسول فقال ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ أي بل أيقول المشركون هو شاعر ننتظر به حوادث الدهر وصروفه حتى يهلك فنستريح منه؟ قال الخازن: وريبُ المنون حوادث الدهر وصروفه، وغرضهم أنه يهلك ويموت كما هلك من كان قبله من الشعراء، والمنون اسم الموت وللدهر وأصله القطع، سُمِّيَا بذلك لأنهما يقطعان الأجل[١] ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: انتظروا بي الموت فإني منتظر هلاككم كما تنتظرون هلاكي، وهو تهكم بهم مع التهديد والوعيد ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا﴾؟ أي أم تأمرهم عقولهم بهذا الكذب والبهتان؟ قال الخازن: وذلك أن عظماء قريش كانوا يوصفون بالأحلام والعقول، فأزرى الله بعقولهم حين لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل[٢]، وهو تهكم آخر بالمشركين ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي بل هم قوم مجاوزون الحد في الكفر والطغيان، والمكابرة والعناد ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أي أم يقولون: إن محمدًا اختلق القرآن وافتراه من عند نفسه قال القرطبي: والتَقَوُّل تكلُّف القول، وإنما يستعمل في الكذب في غالب الأمر، يقال: قوَّلْتني ما لم أَقُل أي ادعيتَه عليَّ، وتقوَّل عليه، أي: كذب عليه[٣] ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا بل لا يصدقون بالقرآن استكبارًا وعنادًا ثم ألزمهم تعالى الحجة فقال ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أي فليأتوا بكلام مماثل للقرآن في نظمه وحسنه وبيانه، إن كانوا صادقين في قولهم: إن محمدًا افتراه، وهو تعجيزٌ لهم مع التوبيخ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي هل خُلقوا من غير ربٍّ ولا خالق؟ قال ابن عباس: من غير ربٍّ خلقهم وقدَّرهم[٤] ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي أم هم الخالقون لأنفسهم، حتى تجرءوا فأنكروا وجود الله جل وعلا[٥]؟ ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي أم هم خلقوا السموات والأرض؟ وإنما خصَّ السمواتِ والأرض بالذكر من بين سائر المخلوقات لعِظَمها وشرفها، ثم بيَّن

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٠٩.

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٧٣.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٧٤.

(٥) (ش): إن المشركين لم ينكروا وجود الله الخالق، وإنما ينكرون إفراده بالعبادة، والمراد بالآيات إثبات ما أنكروه لا إثبات ما يُقرون به؛ لأنه تحصيل حاصل ولأنه لا يكفي.

تعالى السبب في إنكارهم لوحدانية الله فقال ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ أي بل لا يصدقون ولا يؤمنون بوحدانية الله وقدرته على البعث ولذلك ينكرون الخالق قال الخازن: ومعنى الآية هل خُلِقوا من غير شيءٍ خَلَقهم فوجدوا بلا خالق وذلك مما لا يجوز أن يكون، لأن تعلق الخلق بالخالق ضروري، فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق، أم هم الخالقون لأنفسهم؟ وذلك في البطلان أشدُّ، لأن ما لا وجود له كيف يخلق؟ فإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقًا فليؤمنوا به، وليوحدوه، وليْعبدوه، ولْيوقنوا أنه ربهم وخالقهم[1] ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾؟ أي أعندهم خزائن رزق الله ورحمته حتى يعطوا النبوة من شاءوا ويمنعوها عمن شاءوا؟ قال ابن عباس: ﴿خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ المطر والرزقُ وقال عكرمة: النبوة[2] ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾؟ أي أم هم الغالبون القاهرون حتى يتصرفوا في الخلق كما يشاءون؟ لا بل الله عَزَّ وَجَلَّ هو الخالق المالك المتصرف وقال عطاء ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ أم هم الأرباب فيفعلون ما يشاءون ولا يكونون تحت أمر ولا نهي؟[3] ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾؟ أي أم لهم مرقى ومصعد إلى السماء يستمعون فيه كلام الملائكة والوحي فيعلمون أنهم على حقٍّ فهم به مستمسكون؟ ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أي فليأت من يزعم ذلك بحجة بينة واضحة على صدق استماعه كما أتى محمد بالبرهان القاطع.

ثم وبخهم تعالى على ما هو أشنع وأقبح من تلك المزاعم الباطلة وهو نسبتهم إلى الله البنات، وجعلهم لله جل وعلا ما يكرهون لأنفسهم فقال ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾؟ أي كيف تجعلون لله البنات مع كراهتكم لهن وتجعلون لأنفسكم البنين؟ أهذا هو المنطق والإنصاف؟ وقال القرطبي: سفَّه أحلامهم توبيخًا لهم وتقريعًا. والمعنى: أتضيفون إلى الله البنات مع أنَفَتِكم منهن، ومن كان عقله هكذا لا يُستبعد منه إنكار البعث[4] وقال أبو السعود: تسفيهٌ لهم وتركيكٌ لعقولهم، وإيذانٌ بأن من هذا رأيه لا يكاد يُعد من العقلاء، فضلًا عن الترقي إلى عالم الملكوت، والاطلاع على الأسرار الغيبية، والالتفات إلى الخطاب لتشديد الإنكار والتوبيخ[5] ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا ﴾ أي هل تسألهم يا محمد أجرًا على تبليغ الرسالة وتعليم أحكام الدين؟ ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ أي فهم بسبب ذلك الأجر والغُرْم الثقيل الذي أوجبته عليهم مجهدون ومتعبون؛ فلذلك يزهدون في اتّباعك، ولا يدخلون في الإسلام؟ فإن العادة أن مَن كلف إنسانًا مالًا وضربَ عليه جُعْلًا يَصير مُثقَلًا وغارمًا بسببه فيكرهه ولا يسمع قوله ولا يمتثله

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ١٢٠.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٧٤.

(٣) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ٥٧.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٧٦.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٧٥.

﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾؟ أي أعندهم علم الغيب حتى يعلموا أنَّ ما يخبرهم به الرسول ﷺ من أمور الآخرة والحشر والنشر باطلٌ فلذلك يكتبون هذه المعلومات عن معرفةٍ ويقين؟ قال قتادة: هو ردٌّ لقولهم ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ والمعنى: أعَلموا أن محمدًا يموتُ قبلهم حتى يحكموا بذلك؟[1] وقال ابن عباس: أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيهن، ويُخبرون الناس بما فيه؟[2] ليس الأمر كذلك فإنه لا يعلم أحدٌ من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾؟ أي أيريد هؤلاء المجرمون أن يتآمروا عليك يا محمد؟ قال المفسرون: والآية إشارة إلى كيدهم في دار الندوة وتآمرهم على قتل الرسول ﷺ كما قال تعالى ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴾ أي فالذين جحدوا رسالة محمد هم المجزيون بكيدهم لأن ضرر ذلك عائد عليهم، ووباله راجع على أنفسهم كقوله ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣] قال الصاوي: وأوقع الظاهر ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ موقع المضمر تشنيعًا وتقبيحًا عليهم بتسجيل وصف الكفر[3] ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾؟ أي أَلَهُم إله خالق رازق غير الله تعالى حتى يلجئوا إليه وقت الضيق والشدة؟ ويستنجدوا به لدفع الضُّرِّ والعذاب عنهم؟ ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تنزَّه وتقدَّس الله عما يشركون به من الأوثان والأصنام قال الإمام الجلال: والاستفهام بـ «أم» في مواضعها الخمسة عشر للتوبيخ والتقريع والإنكار[4].. ثم أخبر تعالى عن شدة طغيانهم وفرط عنادهم فقال ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا ﴾ أي لو عذبناهم بسقوط قطع من السماء نزلت عليهم لم ينتهوا ولم يرجعوا، ولقالوا في هذا النازل عنادًا واستهزاءً: إنه سحاب مركوم ﴿ يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ أي إنه سحاب متراكم بعضُه فوق بعض قد سقط علينا قال أبو حيان: كانت قريشٌ قد اقترحت على رسول الله ﷺ فيما اقترحت من قولهم ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ [الإسراء: ٩٢] فأخبر تعالى أنهم لو رأوا ذلك عيانًا حسب اقتراحهم لبلغ بهم عتوهم وجهلهم أن يغالطوا أنفسهم فيما عاينوه ويقولوا: هو سحابٌ مركوم، أي: سحاب تراكم بعضه فوق بعض مُمْطِرُنا، وليس بكِسْفٍ ساقطٍ للعذاب[5] ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ أي اتركهم يا محمد يتمادون في غيهم وضلالهم، حتى يلاقوا ذلك اليوم الرهيب يوم القيامة الذي يأتيهم فيه من العذاب ما يزيل عقولهم ويسلب ألبابهم ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ أي يوم لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الذي استعملوه في الدنيا ولا يدفع

---

(١) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ٥٨.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٧٦.
(٣) «حاشية الصاوي» ٤/ ١٣٤.
(٤) «تفسير الجلالين» ٤/ ٢٢١.
(٥) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ١٥٣.

عنهم شيئًا من العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي ولا هم يُمنعون من عذاب الله في الآخرة ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي وإن للذين كفروا عذابًا شديدًا في الدنيا قبل عذاب الآخرة قال ابن عباس: هو عذاب القبر وقال مجاهد: هو الجوع والقحط سبع سنين(١) ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أن العذاب نازل بهم ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي اصبرْ يا محمد على قضاء ربك وحكمه، فيما حمَّلك به من أعباء الرسالة ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي فإنك بحفظنا وكلاءتنا نحرسك ونرعاك(٢) ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي ونزِّه ربك عما لا يليق به من صفات النقص حين تقوم من منامك ومن كل مجلس بأن تقول: سبحان الله وبحمده قال ابن عباس: أي صلِّ لله حين تقومُ من منامك(٣) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي ومن الليل فاذكره واعبده بالتلاوة والصلاة والناسُ نيام كقوله ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ أي وصلِّ له في آخر الليل حين تُدْبِر وتغيب النجوم بضوء الصبح قال ابن عباس: هما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر وفي الحديث «رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(٤).

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ١٥٣.

(٢) (ش): فِي قَوْلِه تَعَالَى عَنْ سَفِينَةِ نُوْح ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ (القَمَر: ١٤) وَقَوْلِه لِمُوْسَى ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه: ٣٩). وقوله للنبي ﷺ ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] المَعْنَى عَلَى ظَاهِرِ الكَلَامِ وَحَقِيْقَتِهِ، لَكِنْ مَا ظَاهِرُ الكَلَامِ وَحَقِيْقَتُهُ هُنَا؟ هَلْ يُقَالُ: إِنَّ ظَاهِرَهُ وَحَقِيْقَتَهُ أَنَّ السَّفِيْنَةَ تَجْرِي فِي عَيْنِ اللهِ؛ أَوْ أَنَّ مُوْسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُرَبَّى فَوْقَ عَيْنِ اللهِ تَعَالَى؟! أَوْ يُقَالُ: إِنَّ ظَاهِرَهُ أَنَّ السَّفِيْنَةَ تَجْرِي وَعَيْنُ اللهِ تَرْعَاهَا وَتَكْلَؤُهَا، وَكَذَلِكَ تَرْبِيَةُ مُوْسَى تَكُوْنُ عَلَى عَيْنِ اللهِ تَعَالَى يَرْعَاهُ وَيَكْلَؤُهُ بِهَا، وَلَا رَيْبَ أَنَّ القَوْلَ الأَوَّلَ بَاطِلٌ، وَذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ: ١- أَنَّهُ لَا يَقْتَضِيْهِ الكَلَامُ بِمُقْتَضَى الخِطَابِ العَرَبِيِّ، وَالقُرْآنُ إِنَّمَا نَزَلَ بِلُغَةِ العَرَبِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يُوْسُف: ٢) وَلَا أَحَدَ يَفْهَمُ مِنْ قَوْلِ القَائِلِ: فُلَانٌ يَسِيْرُ بِعَيْنِي أَنَّ المَعْنَى أَنَّهُ يَسِيْرُ دَاخِلَ عَيْنِهِ، وَلَا مِنْ قَوْلِ القَائِلِ: فُلَانٌ تَخَرَّجَ عَلَى عَيْنِي؛ أَنَّ تَخَرُّجَهُ كَانَ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى عَيْنِهِ، وَلَوْ ادَّعَى مُدَّعٍ أَنَّ هَذَا هُوَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ فِي هَذَا الخِطَابِ لَضَحِكَ مِنْهُ السُّفَهَاءُ فَضْلًا عَنِ العُقَلَاءِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ: إِنَّكَ تَحْتَ عَيْنِي، وَفُلَانٌ تَخَرَّجَ مِنْ تَحْتِ يَدِي، وَفُلَانٌ يَدِي اليُمْنَى و... مِمَّا مَعْنَاهُ ظَاهِرٌ مَفْهُوْمٌ بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ.
٢- أَنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ غَايَةَ الامْتِنَاعِ، وَلَا يُمْكِنُ لِمَنْ عَرَفَ اللهَ وَقَدَّرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ أَنْ يَفْهَمَهُ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ لَا يَحُلُّ فِيْهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوْقَاتِهِ، وَلَا هُوَ حَالٌّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوْقَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فَإِذَا تَبَيَّنَ بُطْلَانُ هَذَا مِنَ النَّاحِيَةِ اللَّفْظِيَّةِ وَالمَعْنَوِيَّةِ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُوْنَ ظَاهِرُ الكَلَامِ هُوَ القَوْلُ الثَّانِي؛ أَنَّ السَّفِيْنَةَ تَجْرِي وَعَيْنُ اللهِ تَرْعَاهَا وَتَكْلَؤُهَا، وَكَذَلِكَ تَرْبِيَةُ مُوْسَى تَكُوْنُ عَلَى عَيْنِ اللهِ يَرْعَاهُ وَيَكْلَؤُهُ بِهَا، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ بَعْضِ السَّلَفِ بِمَرْأَىً مِنِّي، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا كَانَ يَكْلَؤُهُ بِعَيْنِهِ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَرَاهُ. وَوَجْهُ كَوْنِ العَيْنِ هِيَ الَّتِي تَرْعَاهُ دُوْنَ الوَجْهِ أَوِ اليَدِ أَو.... هُوَ لِأَنَّ العَيْنَ تُفِيْدُ الاطِّلَاعَ وَالمُرَاقَبَةَ وَالإِحَاطَةَ مِمَّا يُنَاسِبُ الحِفْظَ. وَاللهُ أَعْلَمُ. وفي هذه الآيات إثبات لصفة العينين لله تعالى بما يليق به، دون تشبيه بخلقه أو تكييف لذاته، سبحانه وبحمده، كما ثبت ذلك بالسنة، وأجمع عليه سلف الأمة، فأهل السنة والجماعة يعتقدون أنَّ الله يبصر بعين، كما يعتقدون أن الله عَزَّ وجلَّ له عينان تليقان به؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. واللفظ الذي ورد بصيغة الجمع (بِأَعْيُنِنَا) فإنما هو للتعظيم.

(٣) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ٦١.

(٤) «المختصر» ٣/ ٣٩٥. (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – جناس الاشتقاق ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ [الطور: ٩] و ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ [الطور: ١٠].

٢ – الإهانة والتوبيخ ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ ﴾ [الطور: ١٦] وبين قوله ﴿ فَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ وقوله ﴿ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ ﴾ طباق السلب وهو من المحسنات البديعية.

٣ – التشبيه المرسل المجمل ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الطور: ٢٤] حذف منه وجه الشبه فهو مجمل.

٤ – الاستعارة التبعية ﴿ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ شبهت حوادث الدهر بالريب الذي هو الشك بجامع التحير وعدم البقاء على حالة واحدة في كلٍ منهما واستعير لفظ الريب لصروف الدهر ونوائبه بطريق الاستعارة التبعية.

٥ – الأسلوب التهكمي ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ﴾؟ هذا بطريق التهكم والسخرية بعقولهم.

٦ – الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التوبيخ والتقريع لهم ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾؟

٧ –أسلوب الفرض والتقدير ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا ﴾ أي لو رأوا ذلك لقالوا ما قالوا.

٨ – السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ [الطور: ١٣] ومثل ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور: ٧٨] وهلم جرًّا.

فَائِدَة: عن جبير بن مطعم قال: قدمتُ المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر، فوافيتُه يقرأ في صلاة المغرب ﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾ [الطور: ١٢] فلما قرأ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور: ٧٨] فكأنما صُدع قلبي، فأسلمتُ خوفًا من نزول العذاب، فلما انتهى إلى هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ كاد قلبي أن يطير[1].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطور»

---

(١) (ش): عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ – رضى الله عنه – قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ – ﷺ – يَقْرَأُ فِى الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ كَادَ قَلْبِى أَنْ يَطِيرَ. رواه البخاري. وعَنْ مُحَمَّدِ بن جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ جَاءَ فِي فِدَاءِ أُسَارَى أَهْلِ بَدْرٍ، قَالَ: فَوَافَقْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقْرَأُ فِي صَلاةِ الْمَغْرِبِ ﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ [الطور: ١ ٣]، قَالَ: فَأَخَذَنِي مِنْ قِرَاءَتِهِ كَالْكَرْبِ، فَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ مَا سَمِعْتُ مِنْ أَمْرِ الإِسْلامِ. فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور: ٨] ، وَقَدْ خَرَجَ صَوْتُهُ مِنَ الْمَسْجِدِ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور: ٨] ، فَكَأَنَّمَا صُدِعَ قَلْبِي (رواه الطبراني بإسناد حسن). قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ٤٣٧): «وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ كَانَ قَدْ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ فِي فِدَاءِ الْأُسَارَى، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ مُشْرِكًا، وَكَانَ سَمَاعُهُ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ جُمْلَةِ مَا حَمَلَهُ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ ذَلِكَ».



مكية وآياتها ثنتان وستون

بين يدي السورة

* سورة النجم: مكية وهي تبحث عن موضوع الرسالة في إطارها العام، وعن موضوع الإيمان بالبعث والنشور شأن سائر السور المكية.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن موضوع «المعراج» الذي كان معجزة لرسول الإنسانية محمد بن عبد الله صلوات الله عليه، والذي رأى فيه الرسول الكريم عجائب وغرائب في ملكوت الله الواسع مما يدهش العقول ويحير الألباب، وذكرت الناس بما يجب عليهم من الإيمان والتصديق، وعدم المجادلة والمماراة في مواضيع الغيب والوحي.

* ثم تلاها الحديث عن الأوثان والأصنام التي عبدها المشركون من دون الله، وبينت بطلان تلك الآلهة المزعومة، وبطلان عبادة غير الله، سواء في ذلك عبادة الأصنام أو عبادة الملائكة الكرام.

* ثم تحدثت عن الجزاء العادل يوم الدين، حيث تجزى كل نفس بما كسبت، فينال المحسن جزاء إحسانه، والمسيء جزاء إساءته، ويتفرق الناس إلى فريقين: أبرار وفجار.

* وقد ذكرت برهانًا على الجزاء العادل بأن كل إنسان ليس له إلا عمله وسعيه، وأنه لا تحمل نفس وزر أخرى، لأن العقوبة لا تتعدى غير المجرم، وهو شرع الله المستقيم، وحكمه العادل الذي بينه في القرآن العظيم، وفي الكتب السماوية السابقة.

* وذكرت السورة الكريمة آثار قدرة الله جل وعلا في الإحياء والإماتة، والبعث بعد الفناء، والإغناء والإفقار، وخلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى.

* وختمت السورة الكريمة بما حل بالأمم الطاغية كقوم عاد، وثمود، وقوم نوح ولوط، من أنواع العذاب والدمار، تذكيرًا لكفار مكة بالعذاب الذي ينتظرهم بتكذيبهم لرسول الله ﷺ، وزجرًا لأهل البغي والطغيان عن الاستمرار في التمرد والعصيان.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ

نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ

اللغَـة: ﴿هَوَىٰ﴾ هـوى يهوي إذا سـقط إلى أسـفل ﴿مِرَّةٍ﴾ المِرَّة بكسـر الميـم القوة قال قطـرب: تقول العرب لكل جزل الرأي حصيف العقل: ذو مـرَّة[1] ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ التدلي: الامتداد من أعلى إلى أسفل يقال: تدلّى الغصن إذا امتد نحو الأسفل ﴿قَابَ﴾ قدر قال في البحر: القابُ والقـاد والقيـد: المقـدار[2] ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ جائرة مائلة عـن الحق يقال: ضـاز في الحكم أي جار، وضازه حقه أي بخسه قال الشاعر:

ضَـازَتْ بَنُـو أَسَـدٍ بِحُكْمِهِـمْ ... إِذْ يَجْعَلُـونَ الـرَّأْسَ كَـالـذَّنَـبِ

﴿ٱللَّمَمَ﴾ الصغائـر من الذنوب قال الزجاج: أصلُ اللَّمم ما يعمله الإنسـان المرَّة بعد المرة ولا يقيـم عليه يقال: ما فعلتُه إلا لممًـا ولِمامًا ﴿أَجِنَّةٌ﴾ جمع جنين وهو الولد ما دام في البطن سمي جنينًا لاستتاره.

التفسِـير: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ أي أقسـمُ بالنجم وقت سـقوطه من علو قال ابن عباس: أقسم سـبحانه بالنجوم إذا انقضَّت في إثر الشـياطين حين استراقها السـمع[3] وقال الحسن: المراد في الآيـة النجـوم إذا انتثـرت يوم القيامـة كقولـه ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الإنفطار: ٢] قـال ابن كثير: الخالق يُقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي أن يُقسم إلا بالخالق[4] ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ أي مـا ضلَّ محمدٌ عـن طريق الهداية، ولا حاد عن نهج الاسـتقامة ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ أي وما اعتقد باطـلًا قط بل هو في غاية الهدى والرشـد قال أبو السـعود: والخطاب لكفـار قريش، والتعبير

(١) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٨٦.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ١٥٤.

(٣) هذه إحدى الروايات عن ابن عباس، وعنه أن المراد بالنجم الثريا إذا سقطت مع الفجر.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٣/ ٣٩٦.

بلفظ ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله، فإن طول صحبتهم له، ومشاهدتهم لمحاسن أوصافه العظيمة مقتضيةٌ ذلك[١] ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أي لا يتكلم ﷺ عن هوى نفسي ورأي شخصي ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ أي لا يتكلم إلا عن وحي من الله عزَّ وجل قال البيضاوي: أي ما القرآن إلا وحيٌ يوحيه الله إليه[٢] ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ أي علَّمه القرآن ملَكٌ شديدٌ قُواه وهو جبريل الأمين قال المفسرون: ومما يدل على شدة قوته أنه قلع قرى قوم لوط وحملها على جناحه حتى بلغ بها السماء ثم قلبها، وصاح بثمود فأصبحوا خامدين، وكان هبوطه بالوحي على الأنبياء أو صعوده في أسرع من رجع الطرف ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ أي ذو حصافة في العقل، وقوةٍ في الجسم، فاستقرَّ جبريل على صورته الحقيقية ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي وهو بأفق السماء حيث تطلع الشمس جهة المشرق قال ابن عباس: المراد بالأفق الأعلى مطلع الشمس[٣] قال الخازن: كان جبريل يأتي رسول الله ﷺ في صورة الآدميين كما كان يأتي الأنبياء قبله، فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه على صورته التي جبل عليها فأراه نفسه مرتين: مرة في الأرض ومرة في السماء، فأما التي في الأرض فبالأفق الأعلى أي جانب المشرق حيث كان رسول الله ﷺ بحراء فطلع عليه جبريل من ناحية المشرق وفتح جناحيه فسدَّ ما بين المشرق والمغرب، فخرَّ رسول الله ﷺ مغشيًّا عليه، فنزل جبريل في صورة الآدميين فضمَّه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه وهو قوله ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ وأما التي في السماء فعند سدرة المنتهى، ولم يره أحدٌ من الأنبياء على صورته الملكية التي خُلق عليها إلا نبينا محمد ﷺ[٤] ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ أي ثم اقترب جبريل من محمد وزاد في القرب منه ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي فكان منه على مقدار قوسين أو أقل قال الألوسي: والمراد إفادة شدة القرب فكأنه قيل: فكان قريبًا منه[٥] ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ أي فأوحى جبريل إلى عبد الله ورسوله

---

(١) «تفسير أبي السعود» ٥.

(٢) تفسير البيضاوي ٤/ ١٧١.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٨٨.

(٤) «تفسير الخازن» ٤/ ٢١٣. (ش): عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَرَ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ إِلاَّ مَرَّتَيْنِ، أَمَّا مَرَّةٌ، فَإِنَّهُ سَأَلَهُ أَنْ يُرِيَهُ نَفْسَهُ فِي صُورَتِهِ، فَأَرَاهُ صُورَتَهُ فَسَدَّ الْأُفُقَ، وَأَمَّا الْأُخْرَى، فَإِنَّهُ صَعِدَ مَعَهُ حِينَ صَعِدَ بِهِ». وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٧-١٠] قَالَ: فَلَمَّا أَحَسَّ جِبْرِيلُ رَبَّهُ، عَادَ فِي صُورَتِهِ، وَسَجَدَ، فَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣-١٨]، قَالَ: خَلْقَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (رواه أحمد، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح). فَلَمَّا أَحَسَّ جِبْرِيلُ رَبَّهُ: أي: ظهر له آثار تجلّيه. عَادَ فِي صُورَتِهِ: أي صار في صورته الأصلية، فلذلك رآه النبي ﷺ في تلك الصورة. ولم أجد ما يدل على أن جبريل عليه السلام لم يره أحدٌ من الأنبياء على صورته المَلَكية التي خُلق عليها إلا نبينا محمد ﷺ.

(٥) تفسير الألوسي ٢٧/ ٤٨.

محمد ﷺ ما أوحى إليه من أوامر الله عز وجل ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ أي ما كذب قلب محمد ما رآه ببصره من صورة جبريل الحقيقية قال ابن مسعود: رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ، وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ[(١)] ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾؟ أي أفتجادلونه يا معشر المشركين على ما رأى ليلة الإسراء والمعراج؟ قال في البحر: كانت قريش حين أخبرهم ﷺ بأمره في الإسراء كذَّبوا واستخَفُّوا حتى وصف لهم ﷺ بيت المقدس، والجمهور على أن المرئي مرتين هو جبريل، وعن ابن عباس وعكرمة أن الرسول ﷺ رأى ربه بعيني رأسه[(٢)]، وأنكرت ذلك عائشة وقالت إنه رأى جبريل في صورته مرتين[(٣)] ثم قال أبو حيان: والصحيح أن جميع ما في هذه الآيات هو مع جبريل بدليل قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ فإنه يقتضي مرةً متقدمة[(٤)]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد. (ش): إسناده ضعيف ومعظم فقراته ثابتة في أحاديث أخرى. (التَّهَاوِيل): الأشياء المختلفة الألوان. عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، يَنْفُضُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاوِيلَ الدُّرَّ وَالْيَاقُوتَ» (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره»، وحسنه الألباني). وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ فِى صُورَتِهِ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وعَنْه رضي الله عنه فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١]، قَالَ: «رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي حُلَّةٍ مِنْ رَفْرَفٍ، قَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» (رواه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين) (مِنْ رَفْرَفٍ): نوع من عالي الثياب. عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أنها سَأَلَتْ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾. فَقَالَ: «إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِى خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ قُلْتُ لِعَائِشَةَ: فَأَيْنَ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾؛ قَالَتْ: إِنَّمَا ذَاكَ جِبْرِيلُ عليه السلام كَانَ يَأْتِيهِ فِى صُورَةِ الرِّجَالِ وَإِنَّهُ أَتَاهُ فِى هَذِهِ الْمَرَّةِ فِى صُورَتِهِ الَّتِى هِىَ صُورَتُهُ فَسَدَّ أُفُقَ السَّمَاءِ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٢) (ش): لم يثبت ذلك عنه رضي الله عنه بل الثابت عنه أنه قَالَ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قَالَ: رَآهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٣) (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٤) «البحر المحيط» ١٥٨/٨، أقول: ما ذكره صاحب «البحر» قوي من حيث الدلالة، ومذهب أهل السنة أن النبي ﷺ رأى ربه ليلة المعراج في السماوات العلى رؤية بصرية، ولهم أدلة من السنة النبوية، أما الآيات الكريمة فالراجح ما قاله الجمهور، والله أعلم. (ش): ثبت بالنصوص الصحيحة واتفاق سلف الأمة أنه لا يرى اللهَ أحدٌ في الدنيا بعينه إلا ما نازع فيه بعضهم من رؤية نبينا محمد خاصة واتفقوا على أن المؤمنين يرون الله يوم القيامة عيانًا. وقد ذهب أغلب الصحابة إلى أن النبي ﷺ لم يَرَ الله عز وجل بعينه ليلة المعراج، فقد ثبت عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ وَهُوَ يَقُولُ لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ...) (رواه البخاري). وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وفي رواية أنه ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ نُورًا». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ قَالَ: رَآهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وقد حكى الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب «الرؤية» إجماع الصحابة على أنه ﷺ لم ير ربه ليلة المعراج، وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك، وليس ذلك بخلافٍ في الحقيقة، فإن ابن عباس لم يقل رآه بعيني رأسه بل قال: رَآهُ بِفُؤَادِهِ. فعائشة رضي الله عنها =

﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴾ أي رأى الرسولُ جبريلَ في صورته الملَكية مرةً أُخرى ﴿ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴾ أي عند سدرة المنتهى التي هي في السماء السابعة قُرب العرش قال المفسرون: والسدرة شجرة النَّبق تنبع من أصلها الأنهار، وهي عن يمين العرش، وسميت سدرة المنتهى لأنه ينتهي إليها علم الخلائق وجميع الملائكة، ولا يعلم أحدٌ ما وراءها إلا الله جل وعلا وفي الحديث « صَعِدَ بِى إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَرُفِعَتْ لِى سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، فَإِذَا نَبِقُهَا - أي ثمرها - مِثْلُ قِلالِ هَجَرَ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفِيلَةِ »[١] ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴾ أي عند سدرة المنتهى الجنة التي تأوِي إليها الملائكة وأرواح الشهداء والمتقين ﴿ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴾ أي رآه وقت ما يغشى السدرة ما يغشى من العجائب قال الحسن: غشِيَها نور رب العالمين فاستنارت. وقال ابن مسعود: غشيها فراش من ذهب[٢] وفي الحديث« فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا »[٣] قال المفسرون: رأى عليه السلام شجرة سدرة المنتهى وقد غشيتها سُبُحات أنوار الله عَزَّ وَجَلَّ، حتى ما يستطيع أحد أن ينظر إليها، وغشيتها الملائكة أمثال الطيور يعبدون الله عندها، يجتمعون حولها مسبِّحين وزائرين كما يزور الناس الكعبة[٤] وفي الحديث « رأيتُ السِّدْرَةَ يَغْشَاهَا فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَرَأَيْتُ عَلَى كُلِّ وَرَقَةٍ مِنْ وَرَقِهَا مَلَكًا قَائِمًا يُسَبِّحُ لله تعالى »[٥] ﴿ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ ﴾ أي ما مال بصر النبي ﷺ في المقام وفي تلك الحضرة يمينًا وشمالاً ﴿ وَمَا طَغَىٰ ﴾ أي وما جاوز الحدَّ الذي رأى قال القرطبي: أي لم يمدَّ بصره إلى غير ما رأى من الآيات، وهذا وصف أدب النبي ﷺ في ذلك المقام إذ لم يلتفت يمينًا ولا شمالاً[٦] وقال الخازن: لما تجلَّى رب العزة وظهر نوره، ثبت ﷺ في ذلك

= أنكرت رؤية العين وابن عباس رضي الله عنهما أثبتَ رؤية الفؤاد. وقال ﷺ: « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِى لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). القِسطَ: الميزان. سُبُحَاتُ وَجْهِهِ: نوره تعالى وجلاله وبهاؤه وعظمته وهى جمع سُبْحَة فهذا النور هو - والله أعلم - النور المذكور في حديث أبي ذر رضي الله عنه « رَأَيْتُ نُورًا ». وليس فى الأدلة ما يقتضى أن النبي ﷺ رأى ربه بعينه، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ولا فى الكتاب والسنة ما يدل على ذلك بل النصوص الصحيحة على نفْيه أدل كما تقدم. وقد قال تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ ﴾ ولو كان قد أراه نفْسه بعينه لكان ذِكْرُ ذلك أولَى، وكذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ ﴿ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴾. ولو كان رآه بعينه لكان ذِكْرُ ذلك أولى.

(١) جزء من حديث أخرجه الشيخان.

(٢) الحديث رواه مسلم.

(٣) أخرجه مسلم أيضًا.

(٤) (ش): لم يذكر المؤلف دليلاً على هذا، ومعلوم أن مثل هذا لا يُقبل إلا بدليل.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٥٧. (ش): رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٩٨.

المقام العظيم الذي تحار فيه العقول، وتزلُّ فيه الأقدام، وتميل فيه الأبصار[١] ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ أي والله لقد رأى محمد ليلة المعراج عجائب ملكوت الله، رأى سدرة المنتهى، والبيت المعمور، والجنة والنار، ورأى جبريل في صورته التي يكون عليها في السموات له ستمائة جناح، ورأى رفرفًا أخضر من الجنة قد سدَّ الأفق[٢]، وغير ذلك من الآيات العظام قال الفخر: وفي الآية دليلٌ على أن النبي ﷺ رأى ليلة المعراج آياتِ الله ولم يرَ الله كما قال البعض، ووجهه أن الله ختم قصة المعراج برؤية الآيات، وقال في الإسراء ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ [الإسراء: ١] ولو كان رأى ربه لكان ذلك أعظم ما يمكن ولأخبر تعالى به[٣] ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ أي أخبرونا يا معشر الكفار عن هذه الآلهة التي تعبدونها «اللات والعزة ومناة» هل لها من القدرة والعظمة التي وُصف بها رب العزة شيء حتى زعمتم أنها آلهة؟ قال الخازن: هذه أسماء أصنام اتخذوها آلهة يعبدونها، واشتقوا لها أسماء من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ فقالوا من الله اللات، ومن العزيز: العُزَّى، وكانت اللات بالطائف، والعُزَّى بغطفان وقد حطمها خالد بن الوليد، ومناة صنم لخزاعة يعبده أهل مكة[٤] ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾؟ توبيخٌ وتقريع أي ألكم يا معشر المشركين النوع المحبوب من الأولاد وهو الذكر، وله تعالى النوع المذموم بزعمكم وهو الأنثى؟ ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ أي تلك القسمة قسمة جائرة غير عادلة حيث جعلتم لربكم ما تكرهونه لأنفسكم قال الرازي: إنهم ما قالوا: لنا البنون وله البنات، وإنما نسبوا إلى الله البنات وكانوا يكرهونهن كما قال تعالى ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل: ٦٢] فلما نسبوا إلى الله البنات حصل من تلك النسبة قسمة جائرة[٥] ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ أي ما هذه الأوثان إلا أسماء مجردة لا معنى تحتها لأنها لا تضر ولا تنفع، سميتموها آلهة أنتم وآباؤكم وهي مجرد تسميات ألقيت على جمادات ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ أي ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ أي ما يتبعون في عبادتها إلا الظنون والأوهام، وما تشتهيه أنفسهم مما زينه لهم الشيطان ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ أي والحال أنه قد جاءهم من ربهم البيان الساطع، والبرهان القاطع على أن الأصنام ليست بآلهة، وأن العبادة لا تصلح إلا لله

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢١٦.

(٢) رؤيته ﷺ للرفرف الأخضر الذي سد الأفق أخرجها البخاري عن ابن مسعود. (ش): ما رآه النبي ﷺ مما ذكره المؤلف ثابت في البخاري ومسلم ومسند أحمد وغيرهم.
(رفرفًا أخضر) ثيابًا خُضرًا مبسوطة. (أفق السماء) أطرافها.

(٣) «التفسير الكبير» ٧/ ٧٤٠.

(٤) «التفسير الخازن» ٤/ ٢١٨.

(٥) «التفسير الكببير» ٧/ ٧٤٣.

الواحد القهار قال ابن الجوزي: وفيه تعجيبٌ من حالهم إذ لم يتركوا عبادتها بعد وضوح البيان[١] ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ أي ليس لِلإنسان كل ما يشتهي حتى يطمع في شفاعة الأصنام قال الصاوي: والمراد بالإنسان الكافر، وهذه الآية تجر بذيلها على من يلتجئ لغير الله طلبًا للفاني، ويتبع هوى نفسه فيما تطلبه فليس له ما يشتهي، واتباعُ الهوى هوان[٢] ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ أي فالمُلْكُ كله لله يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، لأنه مالك الدنيا والآخرة، وليس الأمر كما يشتهي الإنسان، بل هو تعالى يعطي من اتبع هداه وترك هواه. ثم أكَّد هذا المعنى بقوله ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أي وكثير من الملائكة الأبرار الأطهار المُنْبَثِّين في السموات[٣] ﴿ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ أي إن الملائكة مع علو منزلتهم ورفعة شأنهم لا تنفع شفاعتهم أحدًا إلا بإذن الله، فكيف تشفع الأصنام مع حقارتها؟! ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ أي إلا من بعد أن يأذن تعالى في الشفاعة لمن يشاء من أهل التوحيد والإيمان ويرضى عنه كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨] قال ابن كثير: فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة الأصنام والأنداد عند الله تعالى؟[٤] ثم أخبر تعالى عن ضلالات المشركين فقال ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾ أي لا يصدقون بالبعث والحساب ﴿ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ أي ليزعمون أنهم إناثٌ وأنهم بناتُ الله ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي لا علم لهم بما يقولون أصلا، لأنهم لم يشاهدوا خلق الملائكة، ولا جاءهم عن الله حجة أو برهان ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ أي ما يتبعون في هذه الأقوال الباطلة إلا الظنون والأوهام ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ أي وإن الظنَّ لا يجدي شيئًا، ولا يقوم أبدًا مقام الحق ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾ أي فأعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين الذين استنكفوا عن الإيمان والقرآن ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي وليس له هَمٌّ إلا الدنيا وما فيها من النعيم الزائل، والمتعة الفانية قال أبو السعود: والمراد النهيُّ عن دعوة المعرض عن كلام الله وعدم الاعتناء بشأنه، فإن من أعرض عما ذكر، وانهمك في الدنيا بحيث صارت منتهى همته وقصارى سعيه، لا تزيده الدعوة إلا عنادًا وإصرارًا على الباطل[٥] ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أي ذلك نهاية علمهم وغاية إدراكهم أن آثروا الدنيا على الآخرة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ أي هو عالم بالفريقين: الضالين والمهتدين ويجازيهم بأعمالهم ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي له كل ما في الكون خلقًا وملكًا وتصرفًا ليس لأحدٍ من ذلك شيء

---

(١) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ٧٤.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٣٩.

(٣) (ش): انبثَّ: انتشر.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٠١.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٦٠.

أصلًا ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ أي ليجازي المسيء بإساءته ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ أي وليجازي المحسن بالجنة جزاء إحسانه قال ابن الجوزي: والآية إخبارٌ عن قدرته وسعة ملكه، وهو كلام معترض بين الآية الأولى وبين قوله ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ لأنه إذا كان أعلم بالمسيء وبالمحسن جازى كلًّا بما يستحقه، وإنما يقدر على مجازاة الفريقين إذا كان واسع الملك[1].

ثم ذكر تعالى صفات المتقين المحسنين فقال ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ أي يبتعدون عن كبائر الذنوب كالشرك والقتل وأكل مال اليتيم ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ أي ويبتعدون عن الفواحش -جمع فاحشة وهي ما تناهى قبحها عقلًا وشرعًا- كالزنى ونكاح زوجة الأب لقوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢] وقوله ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢] ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ أي إلا ما قلَّ وصغر من الذنوب قال القرطبي: وهي الصغائر التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله كالقبلة والغمزة والنظرة[2] وفي الحديث « إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ النُّطْقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ»[3] فإذا اجتنب العبد كبائر الذنوب غفر الله بفضله وكرمه الصغائر لقوله تعالى ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] يعني الصغائر[4] ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أي هو تعالى غفار الذنوب ستار العيوب، يغفر لمن فعل ذلك ثم تاب قال ابن كثير: أي رحمته وسعت كل شيء، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها[5] قال البيضاوي: ولعله عقَّب به وعيد المسيئين ووعد المحسنين، لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته، ولا يتوهم وجوب العقاب على الله تعالى[6] ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي هو جل وعلا أعلم بأحوالكم منكم قبل أن يخلقكم، ومن حين أن خلق أباكم آدم من التراب ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي ومن حين أن كنتم مستترين في أرحام أُمهاتكم، فهو تعالى يعلم التقيَّ والشقي، والمؤمن والكافر، والبرَّ والفاجر، علم ما

---

(١) «تفسير ابن الجوزي» ٥/ ١٦٠.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٠٦.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم. (ش): تَمَنَّى: تَتَمَنَّى.

(٤) قال الخازن: روى عن عمر وابن عباس أنهما قالا: لا كبيرة في الإسلام ومعناه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع الإصرار، فالكبيرة تمحى بالاستغفار والتوبة، والصغيرة تصير كبيرة بالإصرار عليها. (ش): عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: « كَمِ الْكَبَائِرُ؟ أَسَبْعٌ هِيَ؟ »، قَالَ: « إِلَى سَبْعِمِائَةٍ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى سَبْعٍ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ، وَلَا صَغِيرَةَ مَعَ إِصْرَارٍ » (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره»، وإسناده صحيح).

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٤٠٣.

(٦) «تفسير البيضاوي» ٤/ ١٧٣.

تفعلـون وإلى ماذا تصيرون ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي لا تمدحوها على سـبيل الإعجاب، ولا تشـهدوا لها بالكمال والتُّقى، فإن النفس خسيسـة إذا مُدِحَت اغترَّتْ وتكبَّرت قال أبو حيان: أي لا تنسـبوها إِلـى الطهارة عن المعاصي، ولا تُثْنُوا عليها، فقد علـم الله منكم الزكيَّ والتقي قبـل إخراجكـم من صلب آدم، وقبل إخراجكم من بطـون أُمهاتكم[1] ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي هو تعالى العالم بمن أخلص العمل، واتقى ربه في السر والعلن.

قال الله تعالى:

﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ۩﴾

المنَاسَـبَة: لما ذكر تعالى في الآيات السـابقة سـفاهات المشـركين وضلالاتهم في عبادتهم للأصنام، وميَّز بين المؤمنين والمجرمين، ذكر هنا نوعًا خاصًّا من أهل الإجرام، وختم السورة الكريمـة ببيـان ما حلَّ بالمكذبين من أنواع العذاب والدمار، تذكيرًا للمشـركين بانتقام الله من أعدائه المكذبين لرسوله.

اللغَـة: ﴿وَأَكۡدَىٰٓ﴾ قطع العطاء مأخوذ من الكُدْية يقال لمن حفر بئرًا ثم وجد صخرة تمنعه مـن إتمام الحفر: قد أكدى، ثم اسـتعمله العرب لمن أعطى ولم يتمم، ولمن طلب شـيئًا فلم يبلغ آخره قال الحُطيئة:

فَأَعْطَى قَلِيلًا ثُمَّ أَكْـدَى عَطَـاءَهُ ... وَمَنْ يَبْذُلِ الْمَعْرُوفَ فِي النَّاسِ يُحْمَد[2]

﴿وَأَقۡنَىٰ﴾ أعطـاه الكفاية من المال ورضَّاه بمـا أعطاه قال الجوهري: قَنِي الرجل يقْنِى مثل غَنِيَ يَغْنَى أي أعطاه الله ما يُقتنى من المال والنَّشب[3]، وأقناه الله رضَّاه[4] ﴿ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ الكوكب المضيء الذي يطلع بعد الجوزاء في شدة الحر ﴿أَزِفَتِ﴾ قربت قال كعب بن زهير:

(١) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ١٦٥.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ١٥٥.

(٣) (ش): النَّشَب: المَال وَالْعقَار.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١١٩.

بَانَ الشَّبَابُ وَهَذَا الشَّيبُ قَدْ أَزِفَا وَلا أَرَى لِشَبَابٍ بَائِنٍ خَلَفَا [١]

والآزفة القيامة سميت بذلك لقُربها ودُنُوّها ﴿سَٰمِدُونَ﴾ لاهون ولاعبون، والسمودُ اللهو.

سَبَبُ النّزول: روي أن «الوليد بن المغيرة» جلس عند النبي ﷺ وسمع وعظه، فتأثر قلبه بما سمع وكاد أن يُسلم، فعيَّره رجلٌ من المشركين وقال: تركت دين آبائك وضلَّلْتهم وزعمت أنهم في النار؟! فقال الوليد: إني خشيت عذاب الله، فضمن له الرجل إن هو أعطاه شيئًا من ماله، ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله عَزَّ وَجَلَّ، فأعطاه بعض الذي ضمن له ثم بخل ومنعه الباقي فأنزل الله ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾[٢] الآيات.

التفسير: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴾ أي أخبرني يا محمد عن هذا الفاجر الأثيم الذي أعرض عن الإيمان واتباع الهدى؟ ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾ أي وأعطى لصاحبه الذي عَيَّره قليلًا من المال المشروط ثم بخل بالباقي قال مجاهد: نزلت في الوليد بن المغيرة[٣] ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴾ أي أعنده علمٌ بالأمور الغيبية حتى يعلم أن صاحبه يتحمل عنه العذاب؟ ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾ أي لم يُخبر بما في التوراة المنزلة على موسى ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ أي وبما في صحف إبراهيم الذي تَمَّم ما أُمِر به من طاعة الله وتبليغ رسالته، على وجه الكمال والتمام قال الحسن: ما أمره الله بشيء إلا وَفَّى به كقوله تعالى ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي ألا تحمل نفسٌ ذنب غيرها، ولا يؤاخذ أحدٌ بجريرة غيره، والآية ردٌّ على من زعم أنه يتحمل العذاب عن غيره كقوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ [العنكبوت: ١٢] ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ أي وأنه ليس للإنسان إلا عمله وسعيه قال ابن كثير: أي كما لا يُحمل عليه وزرُ غيره، كذلك لا يحصل له من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه[٤] ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ أي وأن عمله سيُعرض عليه يوم القيامة، ويراه في ميزانه قال الخازن: وفي الآية بشارة للمؤمن، وذلك أن الله تعالى يُريه أعمالَه الصالحة ليفرح بها ويحزن الكافر بأعماله الفاسدة فيزداد غمًّا[٥] ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ أي ثم يُجزى بعمله الجزاء الأتم الأكمل، وهو وعيدٌ للكافر ووعدٌ للمؤمن ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ أي إليه جل وعلا المرجع والمآب والمصير

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ١٥٥.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٧/ ٧٦٤. (ش): ضعيف جدًّا، أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره». وإنما فيه أنه «رجُل أسلم فلقيه بعض من يُعَيِّره...». وما ذكره المؤلف هو في تفسير «الرازي» بدون إسناد هكذا: قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ...

(٣) انظر سبب النزول السابق.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٠٤.

(٥) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٢٣.

فيعاقِب ويُثِيب.. ثم شرع تعالى في بيان آثار قدرته فقال ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ أي هو الذي خلق الفرح والحزن، والسرور والغم، فأضحك في الدنيا من أضحك، وأبكى من أبكى قال مجاهد: أضحك أهل الجنة وأبكى أهل النار[١] ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي خلق الموت والحياة فهو جل وعلا القادر على الإماتة والإحياء لا غيره، ولهذا كرر الإسناد «هو» لبيان أن هذا من خصائص فعل الله ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ أي أوجد الصنفين الذكر والأنثى من أولاد آدم ومن كل حيوان قال الخازن: والغرض أنه تعالى هو القادر على إيجاد الضدين في محل واحد: الضحك والبكاء، والإحياء والإماتة، والذكر والأنثى، وهذا شيء لا يصل إليه فهم العقلاء ولا يعلمونه، وإنما هو بقدرة الله تعالى وخلقه لا بفعل الطبيعة، وفيه تنبيه على كمال قدرته، لأن النطفة شيء واحد خلق الله منها أعضاء مختلفة، وطباعًا متباينة، وخلق منها الذكر والأنثى، وهذا من عجيب صنعته وكمال قدرته[٢]، ولهذا قال ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ أي خلق الذكر والأنثى من نطفة إذا تدفقت من صلب الرجل، وصُبّت في رحم المرأة ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي وأن عليه جل وعلا إعادة خلق لنَّاس للحساب والجزاء، وإحياءهم بعد موتهم قال في البحر: لما كانت هذه النشأة ينكرها الكفار بولغ فيها بقوله تعالى ﴿عَلَيْهِ﴾ كأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه[٣] ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أي أغنى مَن شاء[٤]، وأفْقَر مَن شاء وقال ابن عباس: أعطى فأرضى، أغنى الإنسان ثم رَضَّاه بما أعطاه ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ أي هو ربُّ الكوكب المضيء المسمَّى بالشعرى الذي كانوا يعبدونه قال أبو السعود: أي هو رب معبودهم وكانت خزاعة تعبدها سَنَّ لهم ذلك رجلٌ من أشرافهم هو «أبو كبشة»[٥] ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي أهلك قوم عاد القدماء الذين بُعث لهم نبيُّ الله «هود» عليه السلام، وكانوا من أشد الناس وأقواهم، وأعتاهم على الله وأطغاهم، فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية قال البيضاوي: سميت عادًا الأولى أي القدماء لأنهم أُولى الأمم هلاكًا بعد قوم نوح عليه السلام[٦] ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ أي وثمود دمَّرهم فلم يُبْقِ منهم أحدًا ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي وقوم نوح قبل عادٍ وثمود أهلكناهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ أي كانوا أظلم من الفريقين، وأشد تمردًا وطغيانًا ممن سبقهم، قال في البحر: كانوا في غاية العتو والإيذاء لنوح عليه السلام، يضربونه حتى لا يكاد يتحرك، ولا يتأثرون بشيء مما يدعوهم إليه قال قتادة: دعاهم ألف سنة

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ١٦٨.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٢٤.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ١٦٨.

(٤) هذا قول ابن زيد ثم قرأ: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٦٣.

(٦) «تفسير البيضاوي» ٤/ ١٧٤.

إلا خمسين عامًا، كلما هلك قرن نشأ قرن، حتى كان الرجل يأخذ بيد ابنه يتمشى به إلى نوح ليحذره منه ويقول له: يا بني إن أبي مشى بي إلى هذا وأنا مثلك يومئذٍ فإياك أن تصدقه، فيموت الكبير على الكفر، وينشأ الصغير على بغض نوح[1] ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ أي وقرى قوم لوط أهواها فأسقطها على الأرض بعد أن انقلبت بهم فصار عاليها سافلها، وذلك أن جبريل رفعها إلى السماء ثم أهوى بها ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾[2] أي فغطَّاها من فنون العذاب ما غطَّى، وفيه تهويلٌ للعذاب وتعميمٌ لما أصابهم منه قال في البحر: والمؤتفكة هي مدائن قوم لوط، سميت بذلك لأنها انقلبت بأهلها، رفعها جبريل عليه السلام ثم أهوى بها إلى الأرض، ثم أمطرت عليهم حجارة من سجيل منضود فذلك قوله ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أي فبأي نعم الله الدالة على وحدانيته وقدرته تتشكك أيها الإنسان وتكذب!! ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي هذا هو محمد رسول الله منذر كسائر الرسل ومن جنس المنذرين الأولين وقد علمتم ما حلَّ بالمكذبين ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾ أي دنت الساعة واقتربت القيامة قال القرطبي: سميت آزفة لدُنُوِّها وقُرْب قيامها[3] ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي لا يقدر على كَشْفها ورَدِّها إذا غَشِيَتْ الخلق بأهوالها وشدائدها إلا الله تعالى ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾؟ استفهامٌ للتوبيخ أي أفمن هذا القرآن تعجبون يا معشر المشركين سخرية واستهزاءً؟ ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ أي وتضحكون عند سماعه، ولا تبكون من زواجره وآياته؟ وقد كان حقكم أن تبكوا الدم بدل الدمع حزنًا على ما فرطتم ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ أي وأنتم لاهون غافلون؟ ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ أي فاسجدوا لله الذي خلقكم وأَفْرِدُوه بالعبادة، ولا تعبدوا اللات والعزى، ومناة والشعرى، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا يليق السجود والعبادة إلاَّ له جلّ وعلا.

البَلَاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – الإبهام للتعظيم والتهويل ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] ومثله ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: ١٦] وكذلك ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾.

٢ – الجناس ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ... وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣] فالأول هو بمعنى خرَّ وسقط والثاني بمعنى هوى النفس.

٣ – الطباق بين ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ وبين ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ وبين ﴿ضَلَّ و ٱهْتَدَىٰ﴾ وبين ﴿ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٢٥] وبين ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ وهي من المحسنات البديعية.

٤ – المقابلة ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] كما فيه

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ١٧٠.

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٢٢.

إطناب في تكرار لفظ (يجزي) وكلاهما من المحسنات البديعية.

٥ - الاستفهام التوبيخي مع الإزراء بعقولهم ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١-٢٢].

٦ - الجناس الناقص بين ﴿أَغۡنَىٰ.. وَأَقۡنَىٰ﴾ لتغير بعض الحروف.

٧ - جناس الاشتقاق ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾.

٩ - عطف العام على الخاص ﴿فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ﴾.

١٠ - مراعاة الفواصل ورءوس الآيات، مما له أجمل الوقع على السمع مثل ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النجم: ١٩-٢٠]؟ ومثله ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ﴾؟ ويسمى بالسجع.

تنبيه: كانت الأصنام التي عبدها المشركون كثيرة تقرب من ثلاثمائة وستين صنمًا ومعظمها حول الكعبة وقد حطمها ﷺ عند فتحه لمكة، وأشهر هذه الأصنام «اللات، والعُزَّى، ومناة» وقد أرسل ﷺ عام الفتح خالد بن الوليد ليحطم العزَّى فحطَّمها وهو يقول:

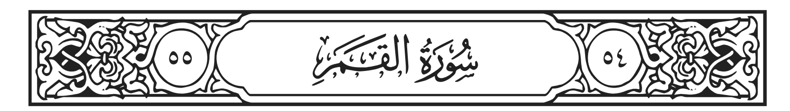
يَا عُزُّ كُفْرَانَكِ لا سُبْحَانَكِ ... إِنِّي رَأَيْتُ اللهَ قَدْ أَهَانَكِ[1]

وانتهت بفتح مكة عبادة الأوثان والأصنام، ودخل الناس في دين الإسلام أفواجًا.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النجم»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) (ش): رواه النسائي، وأبو نعيم، والبيهقي في «الدلائل» وابن أبي شيبة في «التاريخ» وابن سعد في «الطبقات». ولم تثبت في القصص التي تدور حول هدمها رواية صحيحة. [انظر: السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، للدكتور أكرم ضياء العمري (٢/ ٤٨٤)].



مكية وآياتها خمس وخمسون

بين يدي السورة

* سورة القمر من السور المكية، وقد عالجت أصول العقيدة الإسلامية، وهي من بدايتها إلى نهايتها حملة عنيفة مفزعة[1] على المكذبين بآيات القرآن، وطابع السورة الخاص، هو طابع التهديد والوعيد، والإعذار والإنذار، مع صور شتى من مشاهد العذاب والدمار.

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر تلك «المعجزة الكونية» معجزة انشقاق القمر، التي هي إحدى المعجزة العديدة لسيد البشر ﷺ، وذلك حين طلب المشركون منه معجزة جلية تدل على صدقه، وخصصوا بالذكر أن يشق لهم القمر ليشهدوا له بالرسالة، ومع ذلك عاندوا وكابروا ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ...﴾ الآيات.

* ثم انتقلت للحديث عن أهوال القيامة وشدائدها، بأسلوب مخيف يهز المشاعر هزًّا، ويحرك في النفس الرعب والفزع من هول ذلك اليوم العصيب ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾.

* وبعد الحديث عن كفار مكة، يأتي الحديث من مصارع المكذبين، وما نالهم في الدنيا من ضروب العذاب والدمار بدءًا بقوم نوح ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ...﴾.

* ثم تلاه الحديث عن الطغاة المتجبرين من الأمم السالفة، الذين كذبوا الرسل فأهلكهم الله إهلاكًا فظيعًا، ودمرهم عن بكرة أبيهم، وقد تحدثت الآيات عن قوم «عاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم فرعون» وغيرهم من الطغاة المتجبرين بشيء من الإسهاب، مع تصوير أنواع العذاب.

* وبعد عرض هذه المشاهد الأليمة -مشاهد العذاب والنكال- الذي حل بالمكذبين لرسل الله ﷺ توجهت السورة إلى مخاطبة قريش، وحذرتهم مصرعًا كهذه المصارع بل ما هو أشد وأنكى ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ فعقر..﴾ الآيات.

(١) (ش): هذا التعبير لا يليق بكلام الله عز وجل.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ

اللغة: ﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾ جمع جدَث وهو القبر ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ مسرعين يقال: أهطع في سيره أي أسرع ﴿مُّنْهَمِرٍ﴾ انهمر الماء نزل بقوة عزيرًا ﴿وَدُسُرٍ﴾ الدُّسُر: المسامير التي تُشدُّ بها السفينة جمع دِسار ككتاب وكُتب قال في الصحاح: الدِّسار واحد الدُسر وهي خيوط تشد بها ألواح السفينة ويقال هي المسامير[1] ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ مُتَّعِظ خائف وأصله مذتكر قلبت التاء دالاً ثم أدغمت الذال فيها فصارت مدّكر ﴿صَرْصَرًا﴾ الصرصر: الشديدة الصوت مع البرد مأخوذ من صرير الباب وهو تصويته ﴿أَعْجَازُ﴾ جمع عجز وهو مؤخر الشيء ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ المنقعر: المنقلع من أصله يقال: قعرت الشجرة قعرًا قلعتها من أصلها فانقعرت ﴿وَسُعُرٍ﴾ جنون من قولهم ناقة مسعورة كأنها من شدة نشاطها مجنونة قال الشاعر:

تَخالُ بِهَا سُعْرًا إِذَا السَّفْرُ هَزَّهَا[2]

﴿أَشِرٌ﴾ الأشر: البطر ورجل أشر، أي بطر أبطرته النعمة[3].

---

(١) «الصحاح» مادة دسر.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٣٨.

(٣) (ش): أَشِرَ الشخصُ، أَشَرًا، فهو أَشِرٌ: بطِر واستكبر ومرِح ونشِط. بطِرَ الشَّخصُ، بطَرًا، فهو بَطِرٌ: طغَى وغالى =

التفسير: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ أي دنت القيامة وقد انشق القمر ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ﴾ أي وإن يـر كفـار قريش علامة واضحة ومعجزة سـاطعة، تدل على صدق محمد ﷺ يُعرضـوا عـن الإيمـان ﴿وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ أي ويقولوا هذا سِحْرٌ دائم، سَحَر به محمد أعيننا قال المفسرون: إن كفار مكة قالوا للرسول ﷺ: إن كانت صادقًا فشقَّ لنا القمر فرقتين، ووعـدوه بالإيمـان إن فعـل، وكانت ليلة بدر، فسـأل رسـول الله ﷺ ربَّه أن يعطيـه ما طلبوا، فانشـقَّ القمر: نصف على جبل الصفا، ونصفٌ على جبل قيقعان المقابل له، حتى رأوا حراء بينهما، فقالوا: سحرنا محمد، ثم قالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم! فقـال أبـو جهل: اصبروا حتى تأتينا أهـل البوادي فإن أخبروا بانشـقاقه فهو صحيح، وإلا فقد سـحر محمد أعيننا، فجاءوا فأخبروا بانشـقاق القمر فقال أبو جهل والمشـركون: هذا سـحرٌ مستمر أي دائم فأنزل الله ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾[1] قال الخازن: وانشقاق القمر من آيات رسول الله ﷺ الظاهرة، ومعجزاته الباهرة، يدل عليه ما أخرجه الشيخان عن أنس «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يُريهم آية، فأراهم انشـقاق القمـر مرتين» وما روي عن ابن مسـعود قال: انشـق القمر على عهد رسـول الله ﷺ شقتين فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا»[2] وما روي عن جبير بن مطعم قال: «انشق القمر على عهد رسـول الله ﷺ فصار فرقتين، فقالت قريش: سـحر محمد أعيننا فقال بعضهم: لئن كان

= في مَرِحِه وزهْوِه واستخفافه، جاوز الحدَّ كِبْرًا. بطِر النِّعمةَ: استخفّها وكَفَرها ولم يَشْكُرها. بطِر الحقَّ ونحوَه: أنكره ولم يقبله تكبُّرًا وطُغيانًا.

(١) هذا قول جمهور المفسرين وهو مروي عن ابن عباس وأنس وابن عمر، وذهب بعضهم إلى أن القمر سينشق يوم القيامة قال ابن الجوزي: وهوقول شاذ لا يقاوم الإجماع. (ش):عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: هَذَا سِحْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ سَحَرَكُمْ، فَاسْأَلُوا السُّفَّارَ فَسَأَلُوهُمْ فَقَالُوا: نَعَمْ قَدْ رَأَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾(أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» والبيهقي في «دلائل النبوة»، وإسناده صحيح). (ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ): قِيلَ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ خُزَاعَةَ كَانَ يَعْبُدُ الشِّعْرَى وَلَمْ يُوَافِقْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ فِي عِبَادَتِهَا فَشَبَّهُوا النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم بِهِ لِمُخَالَفَتِهِ إِيَّاهُمْ فِي دِينِهِمْ كَمَا خَالَفَهُمْ أَبُو كَبْشَةَ. وَقِيلَ: إِنَّ أَبَا كَبْشَةَ جَدُّ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ قِبَلِ أُمِّهِ. وَقِيلَ: هُوَ أَبُوهُ مِنَ الرَّضَاعَةِ. وَقِيلَ: نَسَبُوهُ إِلَى نَسَبٍ لَهُ غَيْرِ نَسَبِهِ الْمَشْهُورِ إِذْ لَمْ يُمْكِنْهُمُ الطَّعْنُ فِي نَسَبِهِ الْمَعْلُومِ الْمَشْهُورِ، وَقَدْ كَانَ وَهْبُ بْنُ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ جَدُّهُ أَبُو آمِنَةَ يُكَنَّى أَبَا كَبْشَةَ. (السُّفَّار): الْمُسَافِرِينَ. وحديثُ انشقاق القمر أصله في الصحيحين لكن ليس عندهما التصريح بنزول الآيات. عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم شِقَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «اشْهَدُوا» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وَفِي رِوَايَةٍ: عَنْهُ رضي الله عنه قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم فِلْقَتَيْنِ، فَسَتَرَ الْجَبَلُ فِلْقَةً، وَكَانَتْ فِلْقَةٌ فَوْقَ الْجَبَلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهُمَّ اشْهَدْ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). أَمَّا مَا يَذْكُرُهُ بَعْضُ الْقُصَّاصِ مِنْ أَنَّ الْقَمَرَ سَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ، حَتَّى دَخَلَ فِي كُمِّ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، وَخَرَجَ مِنَ الْكُمِّ الْآخَرِ، فَلَا أَصْلَ لَهُ، وَهُوَ كَذِبٌ مُفْتَرًى، لَيْسَ بِصَحِيحٍ.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

سحرنا فما يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فكانوا يتلقون الركبان فيخبرونهم بأنهم قد رأوه فيكذبونهم»(١) فهذه الأحاديث الصحيحة، قد وردت بهذه المعجزة العظيمة، مع شهادة القرآن العظيم بذلك، فإنه أدل دليل وأقوى مثبتٍ له وإمكانه لا يشك فيه مؤمن، وقيل في معنى الآية ينشق القمر يوم القيامة، وهذا قول باطل لا يصح، وشاذ لا يثبت، لإجماع المفسرين على خلافه، ولأن الله ذكره بلفظ الماضي ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ وحمل الماضي على المستقبل بعيد(٢) ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي وكذبوا النبي ﷺ وما عاينوا من قدرة الله تعالى في انشقاق القمر، واتبعوا ما زين لهم الشيطان من الباطل ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي وكل أمرٍ من الأمور مُنْتَهٍ إلى غاية يستقر عليها لا محالة إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر قال مقاتل: لكل حديثٍ منتهى وحقيقة ينتهي إليها وقال قتادة: إن الخير يستقر بأهل الخير، والشر يستقر بأهل الشر، وكل أمرٍ مستقر بأهله(٣) ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي ولقد جاء هؤلاء الكفار من أخبار الأمم الماضية المكذبين للرسل، ما فيه واعظ لهم عن التمادي في الكفر والضلال ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ أي هذا القرآن حكمة بالغة، بلغت النهاية في الهداية والبيان ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي أيَّ شيءٍ تُغنى النُّذُر عمن كتب الله عليه الشقاوة، وختم على سمعه وقلبه؟! قال المفسرون: المعنى: لقد جاءهم القرآن وهو حكمة تامة قد بلغت الغاية، فماذا تنفع الإنذارات والمواعيد لقوم أصموا آذانهم عن سماع كلام الله؟ كقوله تعالى ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[يونس: ١٠١] ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي فأعرض يا محمد عن هؤلاء المجرمين وانتظرهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ أي يوم يدعو إسرافيل إلى شيءٍ منكر فظيع، تنكره النفوس لشدته وهوله، وهو يوم القيامة وما فيه من البلاء والأهوال ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي ذليلةً أبصارهم لا يستطيعون رفعها من شدة الهول ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي يخرجون من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أي كأنهم في انتشارهم وسرعة إجابتهم للداعي جرادٌ منتشر في الآفاق، لا يدرون أين يذهبون من الخوف والحيرة قال ابن الجوزي: وإنما شبههم بالجراد المنتشر، لأن الجراد لا جهة له يقصدها، فهم يخرجون من القبور فَزِعِين ليس لأحدٍ منهم جهة يقصدها، والداعي هو إسرافيل(٤) ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ أي مسرعين مَادِّي أعناقهم إلى الداعي لا يتلكئون ولا يتأخرون ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي يقول الكافرون: هذا يوم صعبٌ شديد قال الخازن: وفيه إشارة إلى أنَّ ذلك اليوم يومٌ شديد على الكافرين لا

---

(١) أخرجه الترمذي وغيره.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٢٦.

(٣) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ٨٩.

(٤) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ٩١.

على المؤمنين[١] كقوله تعالى ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ١٠].. ثم ذكر تعالى وقائع الأمم المكذبين وما حلَّ بهم من العذاب والنكال تسلية لرسول الله ﷺ تحذيرًا لكفار مكة فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي كذب قبل قومك يا محمد قومُ نوح ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ أي فكذبوا عبدنا نوحًا وقالوا: إنه مجنون، وانتهروه وزجروه عن دعوى النبوة بالسب والتخويف والوعيد بقولهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] قال في البحر: لم يقنعوا بتكذيبه حتى نسبوه إلى الجنون أي إنه يقول ما لا يقبله عاقل وذلك مبالغة في تكذيبهم، وإنما قال ﴿عَبْدَنَا﴾ تشريفًا له وخصوصية بالعبودية[٢] ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ أي فدعا نوح ربه وقال: يا ربِّ إني ضعيف عن مقاومة هؤلاء المجرمين، فانتقم لي منهم وانتصر لدينك قال أبو حيان: وإنما دعا عليهم بعدما يئس منهم وتفاقم أمرهم، وكان الواحد من قومه يخنقه إلى أن يخر مغشيًّا عليه وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[٣] ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ أي فأرسلنا المطر من السماء منصبًّا بقوة وغزارة قال أبو السعود: وهو تمثيلٌ لكثرة الأمطار وشدة انصبابها[٤] ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي جعلنا الأرض كلها عيونًا متفجرة بالماء ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي فالتقى ماء السماء وماء الأرض على حالٍ قد قدَّرها الله في الأزل وقضاها بإهلاك المكذبين غرقًا قال قتادة: قضي عليهم في أم الكتاب إذا كفروا أن يُغرقوا ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ أي وحملنا نوحًا على السفينة ذات الألواح الخشبية العريضة المشدودة بالمسامير قال في البحر: وذات الألواح والدُّسر هي السفينة التي أنشأها نوح عليه السلام، ويفهم من هذين الوصفين أنها «السفينة» فهي صفة تقوم مقام الموصوف وتنو بعنه ونحوه: قميصي مسرودة من حديد، أي: درع، وهذا من فصيح الكلام وبديعه، ولو جمعت بين الصفة والموصوف لم يكن بالفصيح، والدُّسُر: المسامير[٥] ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ أي تسير على وجه الماء بحفظنا وكلاءتنا وتحت رعايتنا[٦] ﴿جَزَآءً

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٢٨.

(٢) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ١٧٦.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ١٧٦.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٧/ ٧٨٦.

(٥) «البحر المحيط» ٨/ ١٧٧.

(٦) (ش): في قَوْلِهُ تَعَالَى عَنْ سَفِيْنَةِ نُوْح ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ (القَمر:١٤) وَقَوْلِهُ لِمُوْسَى ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طَه:٣٩). وقوله للنبي ﷺ ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] المَعْنَى عَلَى ظَاهِرِ الكَلَامِ وَحَقِيْقَتِهِ، لَكِنْ مَا ظَاهِرُ الكَلَامِ وَحَقِيْقَتُهُ هُنَا؟ هَلْ يُقَالُ: إِنَّ ظَاهِرَهُ وَحَقِيْقَتَهُ أَنَّ السَّفِيْنَةَ تَجْرِي فِي عَيْنِ اللهِ؛ أَوْ أَنَّ مُوْسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُرَبَّى فَوْقَ عَيْنِ اللهِ تَعَالَى ؟!! أَوْ يُقَالُ: إِنَّ ظَاهِرَهُ أَنَّ السَّفِيْنَةَ تَجْرِي وَعَيْنُ اللهِ تَرْعَاهَا وَتَكْلَؤُهَا، وَكَذَلِكَ تَرْبِيَةُ مُوْسَى تَكُوْنُ عَلَى عَيْنِ اللهِ تَعَالَى يَرْعَاهُ وَيَكْلَؤُهُ بِهَا، وَلَا رَيْبَ أَنَّ القَوْلَ الأَوَّلَ بَاطِلٌ، وَذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ: ١- أَنَّهُ لَا يَقْتَضِيهِ الكَلَامُ بِمُقْتَضَى الخِطَابِ العَرَبِيِّ، وَالقُرْآنُ إِنَّمَا نَزَلَ بِلُغَةِ العَرَبِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: =

﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي أغرقنا قوم نوح انتصارًا لعبدنا نوح لأنه كان قد كُذِّب وجُحِد فضلُه قال الألوسي: أي فعلنا ذلك جزاء لنوح لأنه كان نعمة أنعمها الله على قومه فكفروها، وكذلك كلُ نبي نعمةٌ من الله تعالى على أمته[1] ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ أي تركنا تلك الحادثة «الطوفان» عبرة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي فهل من معتبر ومتعظ؟ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ استفهام تهويل وتعجيب أي فكيف كان عذابي وإنذاري لمن كذب رسلي، ولم يتعظ بآياتي؟ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي والله لقد سهلنا القرآن للحفظ والتدبر والاتعاظ، لما اشتمل عليه من أنواع المواعظ والعبر ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي فهل من متعظٍ بمواعظه، معتبر بقصصه وزواجره؟ قال الخازن: وفيه الحث على تعلم القرآن والاشتغال به، لأنه قد يسره اللهُ وسهله على من يشاء من عباده، بحيث يسهل حفظه للصغير والكبير، والعربي والعجمي قال سعيد بن جبير: يسرناه للحفظ والقراءة، وليس شيء من كُتب الله تعالى يُقرأ كلُّه ظاهرًا إلا القرآن[2]، وبالجملة فقد جعل الله القرآن مهيئًا ومسهلًا لمن أراد حفظه وفهمه أو الاتعاظ به، فهو رأس سعادة الدنيا والآخرة ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي كذبت عادٌ رسولهم هودًا فكيف كان إنذاري لهم بالعذاب؟ ثم شرع في بيان ما حلَّ بهم من العذاب الفظيع المدمر فقال ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي أرسلنا عليهم ريحًا عاصفة باردة شديدة الهبوب والصوت قال ابن عباس: الصرصر: الشديدة البرد وقال السدي: الشديدة الصوت[3] ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ أي في يوم

= ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يُوسُف:٢) وَلَا أَحَدَ يَفْهَمُ مِنْ قَوْلِ القَائِلِ: فُلَانٌ يَسِيرُ بِعَيْنِي أَنَّ المَعْنَى أَنَّهُ يَسِيرُ دَاخِلَ عَيْنِهِ، وَلَا مِنْ قَوْلِ القَائِلِ: فُلَانٌ تَخَرَّجَ عَلَى عَيْنِي؛ أَنَّ تَخَرُّجَهُ كَانَ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى عَيْنِهِ، وَلَوْ ادَّعَى مُدَّعٍ أَنَّ هَذَا هُوَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ فِي هَذَا الخِطَابِ لَضَحِكَ مِنْهُ السُّفَهَاءُ فَضْلًا عَنِ العُقَلَاءِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ: إِنَّكَ تَحْتَ عَيْنِي، وَفُلَانٌ تَخَرَّجَ مِنْ تَحْتِ يَدِي، وَفُلَانٌ يَدِي اليُمْنَى وَ... مِمَّا مَعْنَاهُ ظَاهِرٌ مَفْهُومٌ بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ.

٢- أَنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ غَايَةَ الامْتِنَاعِ، وَلَا يُمْكِنُ لِمَنْ عَرَفَ اللهَ وَقَدَّرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ أَنْ يَفْهَمَهُ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ لَا يَحُلُّ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوْقَاتِهِ، وَلَا هُوَ حَالٌّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوْقَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فَإِذَا تَبَيَّنَ بُطْلَانُ هَذَا مِنَ النَّاحِيَةِ اللَّفْظِيَّةِ وَالمَعْنَوِيَّةِ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُوْنَ ظَاهِرُ الكَلَامِ هُوَ القَوْلُ الثَّانِي؛ أَنَّ السَّفِيْنَةَ تَجْرِي وَعَيْنُ اللهِ تَرْعَاهَا وَتَكْلَؤُهَا، وَكَذَلِكَ تَرْبِيَةُ مُوْسَى تَكُوْنُ عَلَى عَيْنِ اللهِ يَرْعَاهُ وَيَكْلَؤُهُ بِهَا، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ بَعْضِ السَّلَفِ بِمَرْأًى مِنِّي، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا كَانَ يَكْلَؤُهُ بِعَيْنِهِ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَرَاهُ. وَوَجْهُ كَوْنِ العَيْنِ هِيَ الَّتِي تَرْعَاهُ دُوْنَ الوَجْهِ أَوِ اليَدِ أَو.... هُوَ لِأَنَّ العَيْنَ تُفِيْدُ الاطِّلَاعَ وَالمُرَاقَبَةَ وَالإِحَاطَةَ مِمَّا يُنَاسِبُ الحِفْظَ. وَاللهُ أَعْلَمُ. وفي هذه الآيات إثبات لصفة العينين لله تعالى بما يليق به، دون تشبيه بخلقه أو تكييف لذاته، سبحانه وبحمده، كما ثبت ذلك بالسنة، وأجمع عليه سلف الأمة، فأهل السنة والجماعة يعتقدون أنَّ الله يبصر بعين، كما يعتقدون أن الله عزَّ وجلَّ له عينان تليقان به؛ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [الشورى:١١]. واللفظ الذي ورد بصيغة الجمع (بِأَعْيُنِنَا) فإنما هو للتعظيم.

(١) روح المعاني ٢٧/ ٨٣.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٢٨.

(٣) قال ابن كثير بعد أن نقل الأقوال: والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فقد كانت ريحًا شديدة قوية، وكانت باردة شديدة البرد، وكانت ذات صوت مزعج.اهـ. وهذا القول هو الذي اخترناه.

مشئوم دائم الشؤم، استمر عليهم بشؤمه فلم يبق منهم أحدٌ إلا هلك فيه قال ابن كثير: استمر عليهم نحسه ودماره، لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي تقلع الريح القوم ثم ترمي بهم على رءوسهم فتدقُّ رقابهم وتتركهم ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أي كأنهم أُصول نخلٍ قد انقلعت من مغارسها وسقطت على الأرض، شبهوا بالنخل لطولهم وضخامة أجسامهم فتبقى أجسامهم بلا رءوس كعجز النخلة الملقاة على الأرض(١) ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ تهويلٌ لما حلَّ بهم من العذاب وتعجبٌ من أمره أي كيف كان عذابي وإنذاري لهم؟ ألم يكن هائلًا فظيعًا؟ ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾؟ كرره للتنبيه على فضل الله على المؤمنين بتيسير حفظ القرآن، أي: ولقد سهلنا القرآن للحفظ والفهم، فهل من متعظٍ ومعتبر بزواجر القرآن؟ ثم أخبر تعالى عن قوم ثمود المكذبين لرسولهم صالح عليه السلام فقال ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ أي كذبت ثمود بالإنذارات والمواعظ التي أنذرهم بها نبيهم صالح ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ أي أنتَّبع إنسانًا مثلنا من آحاد الناس، ليس من الأشراف ولا العظماء، ونحن جماعة كثيرون؟ قال في البحر: قالوا ذلك حسدًا منهم واستبعادًا أن يكون نوع البشر يفضل بعضُه بعضًا هذا الفضل، فقالوا: أنكون جمعًا ونتبع واحدًا منا؟ ولم يعلموا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، ويفيض نور الهدى على مَن رَضِيَه(٢) ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ﴾ أي إنا إذا اتبعناه لفي خطأ وذهابٍ عن الحقِّ واضح، وجنون دائم قال ابن عباس: سُعُر، أي: جنون من قولهم ناقة مسعورة كأنها من شدة نشاطها مجنونة(٣) ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ استفهام إنكاري، أي: هل خصَّ بالوحي والرسالة وحده دوننا، وفينا من هو أكثر منه مالًا وأحسن حالًا؟ قال الإمام الفخر: وفي الآية إشارة إلى ما كانوا ينكرونه بطريق المبالغة، وذلك لأن الإلقاء إنزالٌ بسرعة، فكأنهم قالوا: الملَك جِسمٌ والسماء بعيدة فكيف ينزل عليه الوحي في لحظة؟ وقولهم «عليه» إنكارٌ آخر كأنهم قالوا: ما أُلقي عليه ذكرٌ أصلًا، وعلى فرض نزوله فلا يكون عليه من بيننا وفينا من هو فوقه في الشرف والذكاء؟ وقولهم ﴿أَءُلۡقِيَ﴾ بدلًا من قولهم «أألقى الله» إشارة إلى أن الإلقاء من السماء غير ممكن فضلًا عن أن يكون من الله تعالى(٤) ﴿بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾ أي بل هو كاذب في دعوى النبوة، متجاوز في حد الكذب، متكبرٌ بطِرٌ يريد العُلو علينا، وإنما وصفوه بأنه ﴿أَشِرٞ﴾ مبالغة منهم في رفض دعواه كأنهم قالوا: إنه كَذَبَ لا لضرورةٍ وحاجةٍ إلى الخلاص كما يكذب الضعيف، وإنما تكبَّر وبطر وطلب الرياسة عليكم

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٢٩.

(٢) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ١٨٠. (ش): هذا التعبير بالفيض قد يُفهَم منه التوافق مع قول الفلاسفة أن النبوة فيْض وليست وحْيًا. والمؤلف لا يقصد ذلك طبعًا، يتضح ذلك من كلامه في مواضع كثيرة من هذا الكتاب.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٣٨.

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٧/ ٧٩٩.

وأراد أن تتبعوه فكذب على الله، فلا يلتفت إلى كلامه لأنه جمع بين رذيلتين: الكذب والتكبر، وكلٌّ منهما مانع من اتباعه، قال تعالى تهديدًا لهم وردًّا لبهتانهم ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ أي سيعلمون في الآخرة من هو الكذَّاب الأشر، هل هو صالح عليه السلام أم قومه المكذبون المجرمون؟ قال الألوسي: المراد سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشِرُون، لكنْ أورد ذلك مورد الإبهام إيماءً إلى أنه مما لا يكاد يخفى[1] ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي مخرجو الناقة من الصخرة الصماء محنة لهم واختبارًا كما شاءوا وطلبوا قال ابن كثير: أخرج الله لهم ناقة عظيمة عشراء، من صخرة صماء طبق ما سألوا لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح عليه السلام فيما جاءهم به[2] ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ أي فانتظرهم وتبصَّرْ ما يَصنعون وما يُصنَع بهم، واصبر على أذاهم فإن الله ناصرك عليهم ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ أي وأَعْلِمْهم أنَّ الماء الذي يمرُّ بواديهم مقسومٌ بين ثمود وبين الناقة كقوله تعالى ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] قال ابن عباس: إذا كان يوم شربهم لا تشرب الناقةُ شيئًا من الماء وتسقيهم لبنًا وكانوا في نعيم، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كله فلم تُبق لهم شيئًا[3]، وإنما قال تعالى ﴿بَيْنَهُمْ﴾ تغليبًا للعقلاء ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ أي كل نصيب وحصة من الماء يحضرها من كانت نوبته، فإذا كان يوم الناقة حضرت القوم شربها، وإذا كان يومهم حضروا شربهم ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ أي فنادت قبيلة ثمود أشقى القوم واسمه «قدار بن سالف» لقتل الناقة فتناول الناقة بسيفه فقتلها غير مكترث بالأمر العظيم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي فكيف كان عقابي وإنذاري لهم؟ ألم يكن فظيعًا شديدًا؟! ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي أهلكناهم بصيحة واحدة صاح بها جبريل عليه السلام فلم تَبْقَ منه عينٌ تطْرِف[4] ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ أي فصاروا هشيمًا متفتتًا كيابسِ الشجر إذا بَلِيَ وتحطَّم وداسَتْه الأقدام قال الإمام الجلال: المحتظر هو الذي يجعل لغنمه حظيرةً من يابس الشجر والشوك يحفظهن فيها من الذئاب والسباع، وما سقط من ذلك فداسته فهو الهشيم ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي يسرناه للحفظ والاتعاظ فهل من معتبر؟

قال الله تعالى:

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ

---

(١) روح المعاني ٢٧/ ٨٨.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤١١.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٤٠.

(٤) (ش): طَرَفت العينُ: تحرَّك جفناها. ما بقِيَتْ منهم عينٌ تَطرِف: هلكوا جميعًا.

فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى المكذبين من قوم «عاد وثمود» ذكر هنا قوم لوط وقوم فرعون وما حل بهم من العذاب والدمار، تذكيرًا لكفار مكة بانتقام الله من أعدائه وأعداء رسله، وختم السورة الكريمة ببيان سنة الله في عقاب الكفرة المجرمين.

اللغَة: ﴿حَاصِبًا﴾ الحاصب: الحجارة وقيل: هي الريح الشديدة التي تثير الحصباء وهي الحصى ﴿بَطْشَتَنَا﴾ عقابنا الشديد ﴿الزُّبُرِ﴾ الكتب السماوية جمع زبور وهو الكتاب الإلهي ﴿أَدْهَىٰ﴾ أفظع من الداهية وهي الأمر المنكر العظيم ﴿وَسُعُرٍ﴾ خسرانٍ وجنون ﴿سَقَرَ﴾ اسم من أسماء جهنم أعاذنا الله منها.

سَبَبُ النّزول: عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يُخَاصِمُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِى الْقَدَرِ فَنَزَلَتْ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ﴾[1].

التفسير: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ أي كذبوا بالإنذارات التي أنذرهم بها نبيهم لوط عليه السلام ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي أرسلنا عليهم حجارة قذفوا بها من السماء قال ابن كثير: أمر تعالى جبريل فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عَنان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها وأُتبعت بحجارةٍ من سجيل منضود، والحاصب هي الحجارة[2] ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ أي غير لوطٍ وأتباعه المؤمنين ﴿نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ﴾ أي نجيناهم من الهلاك قُبَيل الصبح وقت السَّحر[3] ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي إنعامًا منَّا عليهم نجيناهم من العذاب ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الكريم، نجزي من شكر نعمتنا بالإيمان والطاعة ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ أي ولقد خوفهم لوط عقوبتنا الشديدة، وانتقامنا منهم بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْاْ بِالنُّذُرِ﴾ أي فتشككوا وكذبوا بالإنذار والوعيد ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ أي طلبوا منه أن يُسَلِّم لهم أضيافه وهم الملائكة ليفجروا بهم بطريق اللواطة ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ أي أعمينا أعينهم وأزلنا أثرها حتى فقدوا

---

(١) أخرجه مسلم والترمذي.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤١٢.

(٣) (ش): قُبَيْل: تصغير قَبْل: قبل الشّيء بقليل، يقال: جاء قُبَيْل الظُّهر، أي قبله بزمن قليل- تحطّمت الطّائرة قُبَيْل المطار».

أبصارهم قال المفسرون: لما جاءت الملائكة إلى لوط في صورة شبابٍ مردٍ حسان، أضافهم لوط عليه السلام، فجاء قومه يُهرعون إليه لقصد الفاحشة بهم، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، فخرج عليهم جبريل فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست أعينهم وعموا[١] ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي فذوقوا عذابي وإنذاري الذي أنذركم به لوط ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي جاءهم وقت الصبح عذابٌ دائم متصل بعذاب الآخرة قال الصاوي: وذلك أن جبريل قلع بلادهم فرفعها ثم قلبها بهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل، واتصل عذاب الدنيا بعذاب الآخرة فلا يزول عنهم حتى يصلوا إلى النار[٢] ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي فذوقوا أيها المجرمون عذابي الأليم، وإنذاري لكم على لسان رسولي ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي ولقد يسرنا القرآن للحفظ والتدبير فهل من متعظٍ ومعتبر؟ قال المفسرون: حكمة تكرار ذلك في كل قصة، التنبيهُ على الاتعاظ والتدبير في أنباء الغابرين، وللإشارة إلى أن تكذيب كل رسولٍ مقتضٍ لنزول العذاب كما كرر قوله ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] تقريرًا للنعم المختلفة المعدودة، فكلما ذكر نعمةً وبَّخ على التكذيب بها[٣] ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ أي جاء فرعون وقومه الإنذارات المتكررة فلم يعتبروا قال أبو السعود: صُدِّرَتْ قصتُهم بالقسم المؤكد لإبراز كمال الاعتناء بشأنها، لغاية عِظَم ما فيها من الآيات وكثرتها، وهو ما لا قَوْه من العذاب[٤]، وفرعون رأس الطغيان ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ أي كذَّبوا بالمعجزات التسع التي أُعطِيها موسى[٥] ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي فانتقمنا منهم بإغراقهم في البحر، وأخذناهم بالعذاب أخذ إلهٍ غالب في انتقامه، قادرٍ على إهلاكهم لا يعجزه شيء.. ثم خوَّف تعالى كفار مكة فقال ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾؟ الاستفهام إنكاري للتقريع والتوبيخ، أي: أكفاركم يا معشر العرب خيرٌ من أولئكم الكفار الذين أحللت بهم نقمتي مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم فرعون، حتَّى لا أعذبهم؟ قال القرطبي: استفهام إنكار ومعناه النفي، أي: ليس كفاركم خيرًا من كفار من تقدم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم[٦] ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي أم لكم يا كفار قريش براءة من العذاب في الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء؟ ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أي بل أيقولون نحن جمعٌ كثير،

---

(١) انظر «تفسير الخازن»٤/ ٢٣٠، و «تفسير الرازي» ٧/ ٨٠٨.

(٢) «حاشية الصاوي» ٤/ ١٥٠.

(٣) «انظر التفسير الكبير» للرازي ٧/ ٨١٠..

(٤) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٧٨.

(٥) قال القرطبي: المراد المعجزات الدالة على توحيد الله ونبوة موسى وهي: «العصا، واليد، والسنون، والطمس، والطوفان، والجراد، والقُمل، والضفادع، والدم».

(٦) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٤٥.

واثقـون بكثرتنـا وقوتنا، منتصرون علـى محمد؟ قال تعالـى ردًا عليهم ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ أي سيهزم جمع المشركين ويولون الأدبار منهزمين قال ابن الجوزي: وهذا مما أخبر الله بـه نَبِيَّه من علم الغيب، فكانت الهزيمةُ يوم بدر[1] ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ أي ليس هذا تمام عقابهـم بل القيامة موعد عذابهم ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أي أعظم داهيةً وأشـدُّ مرارةً من القتل والأسـر ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ أي إن المجرميـن في حيرةٍ وتخبـطٍ في الدنيا، وفي نيرانٍ مسـعَّرة في الآخرة قال ابن عباس: في خسـرانٍ وجنون[2] ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ أي يـوم يُجرُّون في النار علـى وجوههم عقابًا وإذلالًا لهـم ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾ أي يقال لهم: ذوقوا أيهـا المكذبون عذاب جهنم قال أبو السعود: وسـقر عَلَمٌ لجهنم ولذلـك لم يُصرف[3] ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ أي إنـا خلقنـا كل شـيءٍ مقدَّرًا مكتوبًا في اللـوح المحفوظ من الأزل ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ أي ومـا شـأننا في الخلق والإيجاد إلا مـرة واحدة كلمح البصر في السـرعة نقول للشـيء: كن فيكون قال ابن كثير: أي إنما نأمر بالشـيء مرة واحدة لا نحتاج إلـى تأكيـدٍ بثانية، فيكون ذلك موجـودًا كلمح البصر لا يتأخر طرفـة عين[4] ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ ﴾ أي ووالله لقد أهلكنا أشـباهكم ونظراءكم في الكفر والضلال من الأمم السـالفة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي فهـل من يتذكر ويتعظ؟ ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ أي وجميع مـا فعلتـه الأمم المكذبة من خير وشـر مكتوب عليهم، مسـجل في كتب الحفظـة التي بأيدي الملائكـة قال ابن زيد: ﴿فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ أي في دواويـن الحفظة ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ أي وكل صغيرٍ وكبيـر من الأعمال مسـطورٌ في اللـوح المحفوظ، مُثْبَـتٌ فيه ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ أي في جنـات وأنهـار قال القرطبـي: يعني أنهار الماء، والخمر، والعسـل، واللبن ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ أي في مكانٍ مرضِيٍّ، ومقامٍ حسَن ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ أي عند ربٍّ عظيم جليل، قادرٍ في ملكه وسلطانه، لا يعجزه شيء، وهو الله رب العالمين.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – الاسـتعارة التمثيلية ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [القمر: ١١] شـبه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت بها أبواب السماء، وانشق بها أديم الخضراء بطريق الاستعارة التمثيلية.

٢ – جناس الاشتقاق ﴿ يَدْعُ ٱلدَّاعِ ﴾.

---

(١) «تفسير ابن الجوزي» ٨/ ١٠٠.

(٢) «روح المعاني» ٢٧/ ٩٣.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٧٩. (ش): أي ممنوع من الصرف لأنه اسم علَم لـ «جهنم» و«جهنم» علَمٌ مؤنث، فصار مجرورًا بالفتحة نيابةً عن الكسرة لأنه مضاف إليه: ﴿سَقَرَ﴾ وليس (سَقَرٍ).

(٤) «المختصر» ٣/ ٤١٤.

٣ – الكناية ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٣] كناية عن السفينة التي تحوي الأخشاب والمسامير.

٤ – التشبيه المرسل والمجمل ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] ومثله ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

٥ – صيغة المبالغة ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥] أي كثير الكذب عظيم البطر؛ لأن (فعَّال وفعل) للمبالغة.

٦ – الإطناب بتكرار اللفظ ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ لزيادة التخويف والتهويل.

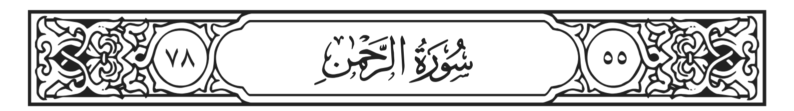
٧ – المقابلة بين المجرمين والمتقين ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ و ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾.

٨ – الطباق بين ﴿صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾.

٩ – السجع المرصَّع غير المتكلف الذي يزيد في جمال اللفظ وموسيقاه، اقرأ مثلًا قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القمر»





مدنية وآياتها ثمان وسبعون

بين يدي السورة

* سـورة الرحمن من السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية، وهي كالعروس بين سائر السور الكريمة، ولهذا ورد في الحديث الشريف: «لكل شيء عروس وعروس القرآن سورة الرحمن»[1].

* ابتـدأت السـورة بتعديـد آلاء الله الباهـرة، ونعمه الكثيـرة الظاهرة على العبـاد، التي لا يحصيها عد، وفي مقدمتها نعمة «تعليم القرآن» بوصفه المنة الكبرى على الإنسـان، تسـبق في الذكر خلق الإنسـان ذاته وتعليمه البيان ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾.

* ثـم فتحت السـورة صحائف الوجود، الناطقة بآلاء الله الجليلـة، وآثاره العظيمة التي لا تحصى، الشمس والقمر، والنجم والشجر، والسماء المرفوعة بلا عمد، وما فيها من عجائب القـدرة وغرائب الصنعة، والأرض التي بـث فيها من أنواع الفواكه، والـزروع، والثمار، رزقًا للبشر ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ الآيات.

* وتحدثت السـورة عن دلائل القدرة الباهرة في تسـيير الأفلاك، وتسـخير السفن الكبيرة تمخر عباب البحار[2] وكأنها الجبال الشـاهقة عظمة وضخامة، وهي تجري فوق سـطح الماء ﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ الآيات.

* ثم بعد ذلك الاسـتعراض السـريع لصفحة الكون المنظور، تطـوى صفحات الوجود، وتتلاشـى الخلائق بأسـرها، فيلفها شـبح الموت الرهيب، ويطويها الفناء، ولا يبقى إلا الحي القيوم متفردًا بالبقاء ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾.

* وتناولـت السـورة أهوال القيامـة، فتحدثت عن حال الأشـقياء المجرمين، وما يلاقونه من الفزع والشدائد في ذلك اليوم العصيب ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ...﴾ الآيات.

* وبعد الحديث عن مشـهد العذاب للمجرمين، تناولت السـورة مشهد النعيم للمتقين في شـيء من الإسـهاب والتفصيل، حيث يكونون في الجنان مع الحور والولدان ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ..﴾ الآيات.

---

(١) (ش): «لكل شَيْء عروس وعروس الْقُرْآن الرَّحْمَن». (رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان، وضعفه الألباني).

(٢) (ش): مخَرتِ السَّفينةُ: جرت في البحر بدفع الماء، جرت تشقّ الماءَ مندفعة مع إحداث صوت. عُباب البحر: مَوْجُه.

* وختمت السورة بتمجيد الله جل وعلا والثناء عليه، على ما أنعم على عباده من فنون النعم والإكرام، وهو أنسب ختام لسورة الرحمن ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ وهكذا يتناسق البدء مع الختام في أروع صور البيان!

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

اللغَة: ﴿بِحُسۡبَانٖ﴾ الحُسبان بضم الحاء مصدر مثل الغُفران والكُفران ومعناه الحساب ﴿ٱلۡأَنَامِ﴾ الخلق وكلُّ ما دبَّ على وجه الأرض ﴿ٱلۡعَصۡفِ﴾ ورق الزرع الأخضر إذا يبس ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ كل نبات طيب الريح، سمي ريحانًا لرائحته الطيبة ﴿مَّارِجٖ﴾ المارج: اللهب الذي يعلو النار قال الليث: هو الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد[1] ﴿ٱلۡجَوَارِ﴾ جمع جارية وهي السفينة سميت جارية لأنها تمشي على سطح الماء ﴿كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ الجبال جمع عَلَم وهو الجبل الطويل قال الشاعر:

إذا قطَعْنَ عَلَمًا بَدَا عَلَمْ

(١) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٦١.

﴿تَنفُذُواْ﴾ النفوذ: الخروج من الشي بسرعة ﴿شُوَاظٌ﴾: اللهب الذي لا دخان له ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ الجلد الأحمر ﴿ءَانٍ﴾ نهاية في الحرارة.

التفسِـير: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي الله الرحمنُ علَّم القرآن، ويسَّره للحفظ والفهم قـال مقاتل: لما نزل قولـه تعالى ﴿ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٠] قال كفـار مكة: وما الرحمن؟ فأنكـروه وقالوا: لا نعرف الرحمـن[1] فقال تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ الـذي أنكروه هو الذي ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾[2] وقال الخازن: إن الله عَزَّ وَجَلَّ عدَّد نِعَمَه على عباده، فقدَّم أعظمها نعمة، وأعلاها رتبة، وهو القرآن العزيز لأنه أعظم وحي الله إلى أنبيائه، وأشـرفه منزلة عند أوليائه وأصفيائه، وأكثـره ذكرًا، وأحسنـه في أبواب الدين أثرًا، وهو سـنام الكتب السـماوية المنزَّلة على أفضل البريـة[3] ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أي خلق الإنسـان السـميع البصيـر الناطق، والمرادُ بالإِنسـان الجنسُ ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ أي ألهمه النطق الذي يستطيع به أن يُبين عن مقاصده ورغباته ويتميَّز به عن سـائر الحيوان قال البيضاوي: والمقصودُ تعداد ما أنعم الله به على الإِنسـان، حثًا على شكره، وتنبيهًا على تقصيرهم فيه، وإنما قدَّم تعليم القرآن على خلق الإِنسان، لأنه أصل النعم الدينية فقدَّم الأهم[4] ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ أي الشـمس والقمر يجريان بحساب معلوم في بروجهما، ويتنقلان في منازلهما لمصالح العباد قال ابن كثير: أي يجريان متعاقبين بحساب مُقنَّـن لا يختلـف ولا يضطـرب[5] ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ أي والنجـم والشـجر ينقادان للرحمن فيما يريده منهما هـذا بالتنقل بالبروج وذاك بإخراج الثمار[6] ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ أي والسـماء خلقهـا عالية محكمة البناء رفيعة القدر والشـأن، وأمر بالميزان عند الأخذ والإِعطاء لينال الإِنسـان حقه وافيًا ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ أي لئلا تبخسـوا في الميزان ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي اجعلـوا الـوزن مسـتقيمًا بالعـدل والإِنصـاف ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ أي لا تطففـوا الـوزن ولا تُنقصـوه كقولـه تعالـى ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففيـن: ١] ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ أي والأرض بسـطها لأجل الخلق، ليستقروا عليها، وينتفعوا بما خلق الله على ظهرها قال ابن كثير: أي أرساها بالجبال الشامخات لتستقر بما على وَجْهِها من

---

(١) (ش): قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ [الفرقان: ٦٠].

(٢) «زاد المسير» ٨/ ١٠٥.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٤٦.

(٤) «حاشية زاده على البيضاوي» ٣/ ٤٢٧.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤١٥.

(٦) (ش): هذا تأويل للسجود عن حقيقته من غير دليل. وكل شيء يسجد سجودًا حقيقيًّا بكيفية يعلمها الله، كالتسبيح، وقد قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾.

الأنام وهم الخلائق، المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم في سائر أرجائها[١] ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ أي فيها من أنواع الفواكه المختلفة الألوان والطعوم والروائح ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ أي وفيها النخل التي يطلع فيها أوعية الثمر قال ابن كثير: أفرد النخل بالذكر لشرفه ونفعه رطبًا ويابسًا، والأكمام هي أوعية الطلع كما قال ابن عباس، وهو الذي يطلع فيه القنو، ثم ينشق عنه العنقود فيكون بُسرًا ثم رُطبًا، ثم ينضج ويتناهى يَنْعُه واستواؤه[٢] ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ أي والنجمُ والشجر ينقادان للرحمن فيما يريده منهما، هذا بالتنقل بالبروج، وذاك بإخراج الثمار ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي وفيها أنواع الحب كالحنطة[٣] والشعير وسائر ما يُتغذى به، ذو التبن الذي هو غذاء الحيوان ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ أي وفيها كل مشموم طيب الريح من النبات كالورد، والفُل، والياسمين وما شاكلها قال في البحر: ذكر تعالى الفاكهة أولًا ونكَّر لفظها لأن الانتفاع بها نفسها، ثم ثنَّى بالنخل فذكر الأصل ولم يذكر ثمرها وهو التمر، لكثرة الانتفاع بها من ليفٍ، وسَعَف، وجريدٍ، وجذوع، وجُمَّار، وثمر[٤]، ثم ذكر الحب الذي هو قوام عيش الإنسان وهو البر والشعير وكل ما له سنبل وأوراق، ووصفه بقوله ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ تنبيهًا على إنعامه عليهم بما يقوتهم به من الحب، وما يَقُوتُ بهائمَهم مِن ورقه وهو التبنُ، وبدأ بالفاكهة وختم بالمَشْمُوم ليحصل ما به يُتفكَّه، وما به يُتقوَّت، وما به تقع اللذاذة من الرائحة الطيبة[٥]، ولما عدَّد نعمه خاطب الإِنس والجن بقوله ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله يا معشر الإنس والجن تكذبان؟ أليست نعم الله عليكم كثيرة لا تُحصى؟ عن ابن عمر «أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا، فقال: «مَا لِي أَسْمَعُ الْجِنَّ أَحْسَنَ جَوابًا لِرَبِّهَا مِنْكُمْ؟ مَا أَتَيتُ عَلَى قَوْلِ اللهِ تعالى ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إِلَّا قَالُوا: لاَ بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ »[٦].

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤١٦.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤١٦. قَال َمُحَقِّقُهُ: قُنْو/ قِنْو: سُباطة، عِذْق بما فيه من الرُّطب، وهو من لنَّخل كالعنقود من العنب. البُسْرُ: تمرُ النَّخل إذا تلوّن ولم ينضِج. ينَعَ الثَّمرُ، يَنْعًا ويُنوعًا: نَضِج، طاب وحَانَ قِطافُه. نضِجَتِ الفاكهةُ: طابَتْ، بلغَتْ ما يرادُ منها من اكتمال الطّراوة والرّائحة والطّعم واللّون.

(٣) (ش): الحِنْطَةُ: القَمْح والبُرُّ.

(٤) (ش): سَعَف: جريدُ النّخل وورقُه، ورق النّخل اليابس. جُمّار: قلب النخل.

(٥) «البحر المحيط» ٨/ ١٩٠. (ش): تفكَّه الشَّخصُ: أكل الفاكهة. تفكَّه بالشَّيء: تمتَّع به وتلذَّذ. تقوَّت بالشَّيء: اقتات به؛ أكله. قاتَ الشَّخصَ قَوْتًا: أطْعَمَهُ قُوتًا يَسُدُّ الرَّمَقَ.

(٦) أخرجه الترمذي وصححه الحاكم. (ش): رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» عن ابن عمر بهذا اللفظ. والترمذي، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وحسنه الألباني. ولفظ الترمذي: عَنْ جَابِرٍ رضى الله عنه قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا فَسَكَتُوا فَقَالَ: « لَقَدْ قَرَأْتُها عَلَى الْجِنِّ لَيْلَةَ الْجِنِّ فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قَالُوا لاَ بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ ».

ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته فقال ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ أي خلق أباكم آدم من طين يابسٍ يُسمع له صلصلة أي صوتٌ إذا نُقِر قال المفسرون: ذكر تعالى في هذه السورة أنه خلق آدم ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ وفي سورة الحجر ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] أي من طين أسود متغير، وفي الصافات ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] أي يلتصق باليد، وفي آل عمران ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] ولا تنافي بينها، وذلك لأن الله تعالى أخذه من تراب الأرض، فعجنه بالماء فصار طينًا لازبًا، أي: متلاصقًا يلصق باليد، ثم تركه حتى صار حمأً مسنونًا، أي: طينًا أسود منتنًا، ثم صوَّره كما تُصوَّر الأواني ثم أيبسه حتى صار في غاية الصلابة كالفخار إذا نُقر صوَّت، فالمذكور هنا آخر الأطوار[١] ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أي وخلق الجنَّ من لهبٍ خالص لا دخان فيه من النار[٢] قال ابن عباس: ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ أي لهب خالص لا دخان فيه وقال مجاهد: هو اللهب المختلط بسواد النار، وفي الحديث «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»[٣] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله يا معشر الإنس والجن تكذبان؟ قال أبو حيان: والتكرار في هذه الفواصل للتأكيد والتنبيه والتحريك، وقال ابن قتيبة: إن هذا التكرار إنما هو لاختلاف النعم، فكلما ذكر نعمةً كرر قوله ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٤] وقد ذُكرت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة، والاستفهام فيها للتَّقْريع والتوبيخ ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ أي هو جل وعلا ربُّ مشرق الشمس والقمر، وربُّ مغربهما، ولمَّا ذكر الشمس والقمر في قوله ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ذكر هنا أنه رب مشرقهما ومغربهما ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله التي لا تحصى تكذبان؟ ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ أي أرسل البحر المِلْح والبحر العذب[٥] يتجاوران يلتقيان ولا يمتزجان ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي بينهما حاجزٌ من قدرة الله تعالى لا يطغى أحدهما على الآخر بالممازجة قال ابن كثير: والمراد بالبحرين: الملح والحلو، فالملح هذه البحار، والحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس، وجعل الله بينهما برزخًا وهو الحاجز من الأرض لئلا يبغي هذا على هذا فيفسد كل واحد منهما الآخر[٦] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله تكذبان؟ ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي يُخرج لكم من الماء اللؤلؤ والمرجان، كما يخرج من

---

(١) انظر «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ٤٣٠ و«حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٥٤.

(٢) «روح المعاني»٢٧/ ١٠٥.

(٣) أخرجه مسلم وأحمد.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ١٩٠.

(٥) (ش): مَلُح الماءُ: صار مِلْحًا، عكسه عَذُبَ.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤١٧.

التراب الحب والعصف والريحان، قال الألوسي: واللؤلؤ صغار الدُّر، والمرجان كباره قاله ابن عباس، وعن ابن مسعود أن المرجان الخرز الأحمر[1]، والآية بيانٌ لعجائب صنع الله حيث يخرج من الماء الملح أنواع الحلية كالدر والياقوت والمرجان، فسبحان الواحد المنَّان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعمة من نعم الله تكذبان؟ ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ أي وله جل وعلا السفن المرفوعات الجارياتُ في البحر كالجبال في العِظَم والضخامة قال القرطبي: ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ أي كالجبال، والعلمُ الجبل الطويل، فالسفن في البحر كالجبال في البر[2]، ووجه الامتنان بها أن الله تعالى سيَّر هذه السفن الضخمة التي تشبه الجبال على وجه الماء، وهو جسم لطيف مائع يحمل فوقه هذه السفن الكبار المحمَّلة بالأرزاق والمكاسب والمتاجر من قطر إلى قطر، ومن إقليم إلى إقليم قال شيخ زاده: واعلم أن أصول الأشياء أربعة: الترابُ، والماءُ والهواءُ، والنارُ، فبيَّن تعالى بقوله ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ﴾ أن التراب أصلٌ لمخلوق شريف مكرَّم، وبيَّن قوله ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أن النار أيضًا أصلٌ لمخلوق آخر عجيب الشأن، وبيَّن بقوله ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أن الماء أيضًا أصل لمخلوق له قدرٌ وقيمة، ثم ذكر أن الهواء له تأثير عظيم في جري السفن المشابهة للجبال فقال ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ وخصَّ السفن بالذكر لأن جريها في البحر لا صنع للبشر فيه، هم معترفون بذلك حيث يقولون: «لك الفُلك ولك المُلك» وإذا خافوا الغرق دعوا الله تعالى خاصة ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[3] [العنكبوت: ٦٥] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعمةٍ من نعم الله تكذبان؟ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أي كل من على وجه الأرض من الإنسان والحيوان هالك وسيموت ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي ويبقى ذات الله الواحد الأحد، ذو العظمة والكبرياء والإنعام والإكرام كقوله ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] قال ابن عباس: الوجهُ عبارة عن الله جل وعلا الباقي الدائم[4]. قال

---

(١) «روح المعاني» ٢٧/ ١٠٦.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٦٤.

(٣) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ٤٣٠.

(٤) (ش): لم يذكر المؤلف المصدر الذي نقل منه قول ابن عباس رضي الله عنهما، وقد بحثت عنه كثيرًا في كتب التفاسير فلم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد بلفظ: «الْوَجْهُ عِبَارَةٌ عَنْهُ». انتهى. وما أظنه يثبت عنه رضي الله عنه، فالوارد عن ابن عباس رضي الله عنهما إثبات الوجه لله تعالى. [انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٣٥٨)، تفسير ابن كثير (٤/ ٢٦٢)، «تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي» (٢/ ١٢٧)].

إن تأويل الوجهِ بالذاتِ تأويلٌ باطلٌ؛ لأنه نَفيٌ لصفةٍ ثابتةٍ لله تعالى. وَ نُّصُوصُ فِي إِثْبَاتِ الْوَجْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا تُحْصَى كَثْرَةً، وَكُلُّهَا تَنفِي تَأْوِيلَ الَّذِينَ يُفَسِّرُونَ الْوَجْهَ بِالْجِهَةِ أَوِ الثَّوَابِ أَوِ الذَّاتِ، وَالَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ الْحَقِّ أَنَّ الْوَجْهَ صفةٌ غيرُ الذَّاتِ، وَلَا يَقْتَضِي إِثْبَاتُهُ كَوْنَهُ تَعَالَى مُرَكَّبًا مِنْ أَعْضَاءٍ، كَمَا يَقُولُهُ المجسِّمة، بَلْ هُوَ صِفَةٌ لِلَّهِ عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ، فَلَا يُشْبِهُ وَجْهًا وَلَا يُشْبِهُهُ وَجْهٌ. قال الإمام ابن خزيمة: «بَابُ ذِكْرِ إِثْبَاتِ وَجْهِ اللهِ =

القرطبي: ووجه النعمة في فناء الخلق التسويةُ بينهم في الموت ومع الموت تستوي الأقدام، والموتُ سبب النقلة من دار الفناء إلى دار الثواب والجزاء[1] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي

= الَّذِي وَصَفَهُ بِالْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وَنَفَى عَنْهُ الْهَلَاكَ إِذَا أَهْلَكَ اللهُ مَا قَدْ قَضَى عَلَيْهِ الْهَلَاكُ مِمَّا قَدْ خَلَقَهُ اللهُ لِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ، جَلَّ رَبُّنَا، عَنْ أَنْ يَهْلِكَ شَيْءٌ مِنْهُ مِمَّا هُوَ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ، قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وَقَالَ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]» [التوحيد لابن خزيمة (١/ ٢٤)]. وقد تَضَمَّنَتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ إِثْبَاتَ صِفَةِ الْوَجْهِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. ولا يصح قول من استدلَّ بهما عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَجْهِ الذَّاتُ؛ قائلًا: إنه لَا خُصُوصَ لِلْوَجْهِ فِي الْبَقَاءِ وَعَدَمِ الْهَلَاكِ، وأنه لو كان المراد به صفة زائدة على الذات لكان المعنى المراد في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أن ذاتَه تهلك إلا وجهه. والجواب عن هذه الشبهة من وجهين: مجمل ومفصَّل: أما المجمل، فإنه يقال: قد دلَّ الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها على أن لله تعالى وجهًا كما أن له يدَيْن وسمعًا وبصرًا وعلمًا وحياةً، وغير ذلك ممَّا وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله محمد ﷺ، فيجب إثبات الوجه لله تعالى إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل؛ لأن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية١١]؛ فكما أننا نثبت لله تعالى ذاتًا لا تُشبه الذوات، فكذلك نثبت لله تعالى وجهًا لا شبيه له ولا نظير. وأمَّا الجواب المفصَّل؛ فمن وجوه:

١- عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ « أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيمِ وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ». (رواه أبو داود، وصححه الألباني). فقوله ﷺ: «وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ»: دليل على إثبات الوجه لله تعالى. وفي هذا رَدٌّ على من زعم أن الوجه هو الذات؛ فالنبي ﷺ استعاذ أولًا بالله العظيم، ثم استعاذ ثانيًا بوجهه الكريم، والعطف يدل على أن الوجه غير الذات.

٢- إننا لو سلَّمنا أن المراد بقول الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾؛ أي: إلا ذاته، أو: إلا هو، لم يكن في ذلك دليل على نفي الوجه عن الله تعالى؛ لأن النصوص كثيرة في إثبات الوجه لله تعالى.

٣- إن تأويل الوجه بالذات باطل؛ لأنه أضاف الوجه إلى نفسه فقال: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ والمضاف ليس كالمضاف إليه؛ لأن الشيء لا يضاف إلى نفسه. فقد ورد الوجه مضافًا إلى الذات الإلهية وأضاف النعت إلى الوجه في قول الحق تبارك وتعالى ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فدل على أن الجلال والإكرام من صفات الوجه وأن الوجه من صفة الذات اللائقة بجلال الله تعالى وعظمته فإضافته إلى الله تعالى من إضافة الصفة إلى موصوفها.

٤- إن في هاتين الآيتين دلالة أن وجه الله صفة من صفات الله، صفات الذات، لا أن وجه الله هو الله؛ لأن وجه الله لو كان هو الله لقُرِئَ: (ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام)! ففي قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أضاف الله تبارك وتعالى الوجه إلى الذات ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾، ثم وجَّه النعْتَ ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ إلى الوجه. ولو كان الأمر كما قال هؤلاء المؤولون من أن الوجه هو الذات لقال بعد ذلك ﴿ذي الجلال والإكرام﴾ فتكون وصفًا لكلمة ﴿رَبِّكَ﴾ إلا أنّ رفْعه لكلمة ﴿ذُو﴾ يدل على أنه نعتٌ للوجه وأن الوجه صفة لله تبارك وتعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فأضاف الوجه إلى الذات ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾، وأضاف النعت إلى الوجه، فقال ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فلما قال: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ علِمْنا أنه نعْتٌ للوجه، وهو صفةٌ للذات. وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن النعت في الآية للوجه فقال في «تفسيره» (٧/ ٤٩٤): «وَقَدْ نَعَتَ تَعَالَى وَجْهَهُ الْكَرِيمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّهُ ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أَيْ: هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُجَلَّ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُطَاعَ فَلَا يُخَالَفُ.

(١) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٦٥.

فبأي نعمةٍ من نعم الله تكذبان ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي يفتقر إليه تعالى من السموات والأرض، ويطلبون منه العون والرزق بلسان المقال أو بلسان الحال ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ أي كل ساعة ولحظة هو تعالى في شأن من شئون الخلق، يغفر ذنبًا، ويفرّج كربًا، ويرفع قومًا، ويضع آخرين قال المفسرون: هي شئونٌ يُبديها ولا يَبتَديها أي يُظهِرها للخلق ولا يُنشِئُها من جديد لأن القلم جَفَّ على ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة، فهو تعالى يرفع من يشاء ويضع من يشاء، ويشفي سقيمًا ويُمرِض سليمًا، ويعز ذليلًا ويذل عزيزًا، ويفقر غنيًّا ويغني فقيرًا قال مقاتل: إن الآية نزلت في اليهود قالوا: إن الله تعالى لا يقضي يوم السبت شيئًا، فردَّ الله عليهم بذلك[١] ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان أيها الإنس والجان؟ ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ أي سنحاسبكم على أعمالكم يا معشر الإنس والجنِّ قال ابن عباس: هذا وعيدٌ من الله تعالى للعباد، وليس بالله تعالى شغل وهو فارغ[٢] قال في البحر: أي ننظر في أموركم يوم القيامة، لا أنه تعالى كان له شغل فيفرغ فيه، وجرى هذا على كلام العرب يقول الرجل لمن يتهدده: سأفرغ لك، أي: سأتجرد للانتقام منك من كل ما شغلني[٣] وقال البيضاوي: أي سنتجرد لحسابكم وجزائكم يوم القيامة، وفيه تهديد مستعارٌ من قولك لمن تهدده: سأفرغ لك، فإن المتجرد للشيء يكون أقوى عليه، وأجَدَّ فيه، والثقلان: الإنسُ والجنُّ سُمِّيَا بذلك لثقلهما على الأرض[٤] ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ أي إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السمواتِ والأرض هاربين من الله، فارين من قضائه فاخرجوا منها، وخلصوا أنفسكم من عقابه، والأمر للتعجيز ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي لا تقدرون على الخروج إلا بقوةٍ وقهر وغلبة، وأنَّى لكم ذلك؟ قال ابن كثير: معنى الآية أنكم لا تستطيعون هربًا من أمر الله وقدره، بل هو محيطٌ بكم لا تقدرون على التخلص من حكمه، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا في مقام الحشر حيث الملائكة مُحْدِقةٌ بالخلائق سبعة صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب إلا بسلطان أي إلا بأمر الله وإرادته[٥] ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ [القيامة: ١٠]؟[٦]

---

(١) تفسير الألوسي ٢٧/ ١١١. (ش): ذكره الألوسي بدون إسناد. وإن ثبت عنه فمقاتل مُتَّهم بالكذب، وهناك انقطاع بينه وبين النبي ﷺ فمقاتل توفي بعد عام ١٥٠ هـ.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤١٩. (ش): فَإِن سُبْحَانَهُ كل يَوْم هُوَ فِي شَأْن وَلاَ يشْغلهُ شأن عَن شَأْن، قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله إن هذا وعيد، وليس المعنى أن الله عز وجل مشغول الآن، وسيخلفه الفراغ فيما بعد. [القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٣١٨)].

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ١٩٤.

(٤) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٤٣٢.

(٥) (ش): أحدَقَ به: أحاط به من كُلِّ جهة.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤١٩.

وهـذا إنما يكون في القيامـة لا في الدنيا بدليل قوله تعالى بعـده ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ﴾[١] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ تقدم تفسيره ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ﴾ أي يرسـل عليكما يوم القيامة لهب النار الحامية ﴿وَنُحَاسٞ﴾ أي ونحاسٌ مذاب يصبُّ فوق رءوسكم قال مجاهد: هو الصُّفْر المعروف يصب على رءوسـهم يوم القيامة[٢] وقال ابن عباس: ﴿وَنُحَاسٞ﴾ هو الدخان الـذي لا لهـب فيه، وقـول مجاهد أظهر ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي فلا ينصر بعضكم بعضًا، ولا يخلصه من عذاب الله قال ابن كثير: ومعنى الآية لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لَرَدَّتْكم الملائكةُ وزبانيةُ جهنم، بإرسـال اللهب مـن النار والنحاس المذاب عليكـم لترجعوا فلا تجدون لكم ناصرًا[٣] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسـيره ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي فإذا انصدعت يـوم القيامة لِتَنْزِل الملائكـة منها لتحيط بالخلائق من كل جانب ﴿فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ أي فكانـت مثـل الورد الأحمر من حرارة النـار، ومثل الأديم الأحمر أي الجلـد الأحمر قاله ابن عباس: وذلك من شـدة الهول، ومن رهبة ذلك اليوم العظيم ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسـيره ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾ أي ففي ذلك اليوم الرهيب يوم تنشـق السماء، لا يُسـأل أحد من المذنبين مـن الإنس والجن عن ذنبه، لأن للمذنـب علامات تدل على ذنبه كاسـوداد الوجـوه، وزرقة العيون قال الإمام الفخر: لا يُسـأل أحد عن ذنبه فـلا يقال له: أنتَ المذنب أو غيرك؟ ولا يقال: من المذنب منكم؟ بل يعرفون بسواد وجوههم وغيره[٤] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسـيره ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ﴾ أي يُعرف يوم القيامة أهل الإجرام بعلامات تظهر عليهم وهي ما يغشـاهم من الكآبة والحزن قال الحسـن: سواد الوجه وزرقـة الأعين كقوله تعالـى ﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾ [طه: ١٠٢] وقوله ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ

---

(١) جنح بعض المتأخرين في هذه إلى تفسير الآية تفسيرًا خطأ فزعموا أن الإنسان يُمكنه الصعود إلى السماوات وإلى الكواكب وفسروا «السلطان» بالعلم وهو مخالف لأقول المفسرين، ويردُّه سياق الآية وسباقها، فإن الآية سيقت لبيان أهوال الآخرة وشدائدها بدليل قوله تعالى قبلها: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ وقوله بعدها: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ﴾ وقد اتفق المفسرون على أنها في الآخرة، ونحن لانستنكر إمكان وصول الإنسان. بالصواريخ والمخترعات الحديثة. إلى القمر أو بعض الكواكب، فإن ذلك مقدور الإنسان ويستطيع بواسطة العلم أن يدور حول الأرض ويعلو في الأجواء ولكنه لا يستطيع أن يصل إلى السماء، فقد جعلها الله سقفًا محفوظًا، أما القمر وسائر الكواكب فهي دون السماء الدنيا ويمكن الوصول إليها. ولكننا نستنكر ونتعجب ممن يتهجم على القرآن بدون علم ولا فهم، ويقول في كتاب الله برأيه دون الرجوع إلى أقوال المفسرين المعتمدين، وانظر ما كتبناه في مجلة رابطة العالم الإسلامي سنة ١٣٨٧ حول الوصول إلى القمر. (ش): تُفهم الكلمة أو الجملة مِن السباق (ما قبلها من الكلام) و السياق (ما حولها) و اللحاق (ما بعدها).

(٢) (ش): الصُفْر: خليط من نُحاس والزّنك (الخارصين) ويُسمَّى النُّحاس الأصفر.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤١٩.

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٢٩/ ١١٨.

وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾[1] [آل عمران: ١٠٦] ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ أي فتأخذ الملائكة بنواصيهم، أي: بشعور مقدَّم رءوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في جهنم قال ابن عباس: يُؤخذ بناصية المجرم وقدميه فيُكسر كما يُكسر الحطب ثم يُلقى في النار ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي يقال لهم تقريعًا وتوبيخًا: هذه النار التي أُخْبِرتُم بها فكذَّبتم قال ابن كثير: أي هذه النار التي كنتم تكذّبون بوجودها، ها هي حاضرةٌ تشاهدونها عيانًا[2] ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ أي يترددون بين نار جهنم وبين ماءٍ حار بلغ النهاية في الحرارة قال قتادة: يطوفون مرةً بين الحميم، ومرة بين الجحيم، والجحيم النارُ، والحميم الشراب الذي انتهى حره ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله تكذبان يا معشر الإنس والجان؟

قال الله تعالى:

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى أحوال أهل النار، ذكر ما أعدَّه للمؤمنين الأبرار من الجنان والولدان والحور الحسان، ليتميز الفارق الهائل بين منازل المجرمين ومراتب المتقين، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب.

اللغَة: ﴿أَفْنَانٍ﴾ جمع فَنَن وهو الغُصْن قال الشاعر يصف حمامة:

رُبَّ وَرْقَاءَ هَتُوفٍ فِي الضُّحَى ... ذَاتِ شَدْوٍ صَدَحَتْ فِي فَنَنِ
ذَكَرَتْ إِلْفًا وَدَهْرًا خَالِيًا ... فَبَكَتْ شَوْقًا فَهَاجَتْ حَزَنِي[3]

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٧٥.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٤٢١.

(٣) (ش): هتَف الشَّخصُ: صاح مادًّا صوتَه، يُقَال: هتَفت الحمامةُ.هَتوف: هتّاف: صيغة مبالغة من هتَفَ، كثير الصّياح النّواح (يستوي فيها المذكَّر والمؤنّث) يُقَال رجل هتوف وحمامةٌ هَتوف.شَدْو: غناء. صدَح الطَّائرُ: =

﴿وَإِسۡتَبۡرَقٍ﴾ ما غلُظَ من الديباج وخشُن ﴿وَجَنَى﴾ الجنى: ما يُجتنَى من الشجر ويُقطَف ﴿يَطۡمِثۡهُنَّ﴾ الطمثُ: الجماع المؤدي إلى خروج دم البِكْر ثم أُطلِق على كل جماع، ومعنى ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ﴾ أي لم يصبهن بالجماع قبل أزواجهن أحد قال الفراء: الطمث الافتضاض وهو النكاح بالتَّدْمِيَة[1] ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ﴾ سوداوان من شدة الخضرة، والدهمةُ في اللغة السواد ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ فوَّارتان بالماء لا تنقطعان ﴿وَعَبۡقَرِيٍّ﴾ طَنَافس جمع، عبقرية أي طنْفَسَةٌ ثخينة فيها أنواع النقوش[2] قال الفراء: العبقري الطنافس الثخان منها وقال أبو عبيد: كل ثوبٍ وُشِيَ عند العرب فهو عبقري منسوب إلى أرضٍ يُعمَل فيها الوشْيُ[3] قال ذو الرمة:

حَتَّى كَأَنَّ رِيَاضَ الْقُفِّ أَلْبَسَهَا ... مِنْ وَشْيِ عَبْقَر تَجْلِيل وَتَنْجِيدُ[4]

التفسير: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ أي وللعبد الذي يخاف قيامه بين يدي ربه للحساب[5] جنتان: جنةٌ لسكنه، وجنةٌ لأزواجه وخدمة، كما هي حال ملوك الدنيا حيث يكون له قصرٌ ولأزواجه قصر[6] قال القرطبي: وإنما كانتا اثنتين ليضاعف له السرور بالتنقل من وجهة إلى جهة وقال الزمخشري: جنة لفعل الطاعات، وجنة لترك المعاصي وفي الحديث «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلاَّ رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»[7] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ثم وصف تعالى

= صاح، غرَّد ورفع صَوْتَهَ فأطرب. إِلْف: صديق ودود، حبيب، أنيس. فَبَكَتْ شَوْقًا فَهَاجَتْ حَزَنِي: أي إن بكاءها أثار في نفسه الحزَن، يقال: حزِن الرَّجلُ حَزَنًا وحُزْنًا: اغتمَّ.

(١) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٨.

(٢) (ش): الطِّنْفَسَةُ: البساطُ.

(٣) (ش): وشَى/ وشَّى الثَّوبَ ونحوَه: زخرفه، حَسَّنَهُ بالألوان ونقشه. والوَشْي: التطريز، والنَّقْش يكون في الثَّوب ونحوه.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ١٨٦. (ش): القُفّ ما ارتفع من الأرض وصلُبَت حجارتُه. جلَّل الشيءَ تجليلاً: غطَّاه، كساه بغطاء. النَّجْدُ: ما يُنجَّدُ به البيتُ من المتاع، أي يزيِّنُ؛ والجمع نُجودٌ. والتَّنْجيدُ: التزيين. والشاعر يشبه الزهر في هذا المكان المرتفع في اختلاف ألوانه بوَشْيٍ مصنوع في عبقر، ويشبهه بنجود الْبَيْت التي يُكْسَى بها ويُزَيَّن.

(٥) (ش): قال المؤلف في تفسير سورة النازعات: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي وأمَّا من خاف عظمة ربه وجلاله، وخاف مقامه بين يديْ ربه يوم الحساب، لعلمه ويقينه بالمبدأ والمعاد.

(٦) قال الفخر الرازي: «لما قال تعالى في حق المجرم: إنه يطوف بين نار، وبين حميم آن، قال في حق المؤمن الخائف: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ وقد ذكر تعالى الجنة، والجنتين، والجنات فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ﴾ وقال: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ فهي لاتِّصَالِ أشجارِها ومساكنها وعدم وقوع الفاصل بينها كمَهَامِه وقِفَار صارت كجنة واحدة ولسعتها وتنوع أشجارها وكثرة مساكنها كأنها جنات، ولاشتمالها على ما تلتذ به الروح والجسم كأنها جنتان» انتهى من «التفسير الكبير» ٢٩/ ١٢٣. (ش): مَهْمَهُ، ومَهْمَهَةٌ: مفازةٌ بَعِيدَةٌ لَا ماءَ بِهَا وَلَا أَنيسَ، وَالْجَمْعُ مَهامِهُ. القَفْر: الْخَلَاء من الأَرْض لَا مَاء فِيهِ وَلَا نَاس، وَالْجَمْعُ قِفار.

(٧) أخرجه البخاري. (ش): رواه البخاري ومسلم.

الجنتين فقال ﴿ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴾ أي ذواتا أغصان متفرعة وثمار متنوعة قال في البحر: وخصَّ الأفنان وهي الغصون بالذكر لأنها لا تُورِق وتُثْمِر، ومنها تمتد الظلال وتُجنَى الثمار ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴾ أي في كل واحدة من الجنتين عين جارية، تجري بالماء الزلال كقوله تعالى ﴿فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ﴾ [الغاشية: ١٢] قال ابن كثير: أي تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان، فتثمر من جميع الألوان[1] قال الحسن: تجريان بالماء الزُّلال[2] إحداهما التسنيم، والأخرى السلسبيل ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ تقدم تفسيره ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴾ أي فيهما من جميع أنواع الفواكه والثمار صنفان: معروفٌ، وغريب لم يعرفوه في الدنيا قال ابن عباس: ما في الدنيا ثمرةٌ حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل، إلا أنه حلو، وليس في الدنيا مما في الآخرة إلَّا لأسماء ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ تقدم تفسيره قال الفخر الرازي: إن قوله تعالى ﴿ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴾ و ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴾ و ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴾ كلها أوصافٌ للجنتين المذكورتين، وإنما فصَل بين الأغصان والفواكه بذكر العينين الجاريتين على عادة المتنعمين، فإنهم إذا دخلوا البستان لا يبادرون إلى أكل الثمار، بل يقدِّمون التفرج على الأكل، مع أن الإنسان في بستان الدنيا لا يأكل حتى يجوع ويشتهي شهوة شديدة فكيف في الجنة! فذكر تعالى ما يتم به النزهة وهو خضرة الأشجار، وجريان الأنهار، ثم ذكر ما يكون بعد النزهة وهو أكل الثمار، فسبحان من يأتي بالآيات بأحسن المعاني في أبيَنِ المَباني[3] ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۢ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ ﴾ أي مضطجعين في جنان الخلد على فرشٍ وثيرة بطائنها من ديباج وهو الحرير السميك المزين بالذهب، وهذا يدل على نهاية شرفها لأن البطانة إذا كانت بهذا الوصف فما بالك بالظهارة؟ قال ابن مسعود: هذه البطائن فيكف لو رأيتم الظواهر؟ وقال ابن عباس: لما سئل عن الآية: ذلك مما قال الله تعالى ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ ﴾ [السجدة: ١٧][4] ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴾ أي ثمرها قريب يناله القاعد والقائم والنائم، بخلاف ثمار الدنيا فإنها لا تنال إلا بكدٍ وتعب قال ابن عباس: تدنو الشجرة حتى يجتنيها وليُّ الله إن شاء قائمًا، وإن شاء قاعدًا، وإن شاء مضطجعًا[5] ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ ﴾ أي في تلك الجنان نساء قاصرات الطرف قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يَرَيْن غيرهم،

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ / ٤٢٢.

(٢) (ش): زُلال: ماء عذب بارد صافٍ سهل المرور في الحلق. والزلال: الصافي من كُل شَيْءٍ، يقال: ذهب زُلال/ فضّة زُلال.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٩/ ١٢٥.

(٤) «روح المعاني» ٢٧/ ١١٨.

(٥) «تفسير الخازن» ٤/ ١٠.

كما هو حال المخدَّرات العفائف[١] ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي لم يمسهنَّ ولم يجامعهن أحدٌ قبل أزواجهنَّ لا من الإنس ولا من الجن، بل هنَّ أبكار عذارى قال الألوسي: وأصلُ الطمث خروج الدم ولذلك يقال للحيض: طمثٌ، ثم أُطلق على جماع الأبكار لما فيه من خروج الدم، ثم على كل جماع وإن لم يكن فيه خروج دم[٢] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي كأنهن يشبهن الياقوت والمرجان في صفائِهن وحُمْرتهن قال قتادة: كأنهن في صفاء الياقوت وحمرة المرجان، لو أدخلت في الياقوت سلكًا ثم نظرت إليه لرأيته من ورائه[٣] وفي الحديث: «إِنَّ الْمَرْأَةَ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُرَى بَيَاضُ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ سَبْعِينَ حُلَّةً حَتَّى يُرَى مُخُّهَا»[٤] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يُحسن إليه في الآخرة قال أبو السعود: أي ما جزاء الإحسان في العمل، إلا الإحسان في الثواب[٥] والغرضُ أنَّ من قدم المعروف والإحسان استحق الإنعام والإكرام ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي ومن دون تلك الجنتين في الفضيلة والقدر جنتان أخريان قال المفسرون: الجنتان الأوليان للسابقين، والأخريان لأصحاب اليمين ولا شك أن مقام السابقين أعظم وأرفع لقوله تعالى ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨-١١] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن؟ ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي سوداوان من شدة الخضرة والريّ قال الألوسي: والمراد أنهما شَدِيدتَا الخضرة، والخضرةُ إذا اشتدت ضربت إلى السواد وذلك من كثرة الريّ بالماء[٦] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي فوَّارتان بالماء لا تنقطعان وقال ابن مسعود وابن عباس: تنْضَخُ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور في دور أهل الجنة كرَخِّ المطر[٧] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ أي في الجنتين من أنواع الفواكه كلها وأنواع النخل والرمان، وإنما ذكر النخل والرمان

---

(١) (ش): خدَّر المرأةَ: ألزمها الخِدْرَ، والخِدْر: ستارة، سِتْرٌ يُمَدّ للمرأة في ناحية البيت ليحجبَ ما وراءَه. العفيفة: المتصفة بالعِفَّة، والجمع عفائف.

(٢) «تفسير الألوسي» ٢٧/ ١١٩.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ١٩٨.

(٤) أخرجه الترمذي عن ابن مسعود مرفوعًا وموقوفًا، قال ابن كثير: والموقوف أصح. (ش): ضعفه الألباني.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٢٧.

(٦) «روح المعاني» ٢٧/ ١٢١.

(٧) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٨٥. (ش): رخَّ المطرُ: اشتدّ نزولُه.

تنبيهًا على فضلهما وشرفهما على سائر الفواكه ولأنهما غالب فاكهة العرب قال الألوسي: ثم إن نخل الجنة ورمانها وراءَ ما نعرفه[١] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ أي في تلك الجنان نساء صالحات كريمات الأخلاق، حِسان الوجوه ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ أي هنَّ الحورُ العين المخدرات المستورات لا يخرجن لكرامتهن وشرفهن، قد قُصِرْنَ في خدورهن في خيام اللؤلؤ المجوَّف، قال أبو حيان: والنساء تُمدَح بذلك إذ ملازمتهن البيوت تدل على صيانتهن قال الحسن: لسن بطوَّافات في الطرق، وخيامُ الجنة بيوت اللؤلؤ[٢]، وفي الحديث « إنَّ فِى الْجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلًا، فِى كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ، مَا يَرَوْنَ الآخَرِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ »[٣] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي لم يُجامِعْهُن ولم يَغْشَهُنَّ أحدٌ قبل أزواجهم لا من الإنس ولا من الجن قال في التسهيل: الجنتان المذكورتان أولًا للسابقين، والجنتان المذكورتان ثانيًا لأصحاب اليمين، وانظر كيف جعل أوصاف الجنتين الأوليين أعلى من أوصاف الجنتين اللتين بعدهما، فقال هناك: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ وقال هنا: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ والجريُ أشدُّ من النضح، وقال هناك: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ وقال هنا ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ والأول أعم وأشمل، وقال في صفة الحور هناك: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ وقال هنا: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ وليس كل حُسْنٍ كحسن الياقوت والمرجان فالوصف هناك أبلغ، وقال هناك في وصف الفرش: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو الديباج وقال هنا: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ ولا شك أن الفرش المُعدَّة للاتِّكاء أفضل من فضل الخباء[٤] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا مشعر الإنس والجن؟ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ أي مُستندين على وسائد خضر من وسائد الجنة[٥] ﴿وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ﴾ أي وطنافس ثخينة مزخرفة، محلاَّة بأنواع الصور والزينة

---

(١) «روح المعاني» ٢٧/ ١٢٢.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ١٩٨.

(٣) أخرجه البخاري. (ش): ورواه مسلم بلفظ: «فِى الْجَنَّةِ خَيْمَةٌ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلاً فِى كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الآخَرِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ».

(٤) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٨٦، والقرطبي ١٧/ ١٨٣. (ش): جاء في «تفسير القرطبي»: وَقَالَ فِي الْأُولَيَيْنِ: « مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُش بَطَائِنهَا مِنْ إِسْتَبْرَق » [الرَّحْمَن: ٥٤] وَهُوَ الدِّيبَاج ، وَفِي الْأُخْرَيَيْنِ « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَف خُضْر وَعَبْقَرِيّ حِسَان » [الرَّحْمَن: ٧٦] وَالْعَبْقَرِيّ الْوَشْي ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الدِّيبَاج أَعْلَى مِنَ الْوَشْي ، وَالرَّفْرَف كِسَر الْخِبَاء ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْفُرُش الْمُعَدَّة لِلِاتِّكَاءِ عَلَيْهَا أَفْضَل مِنْ فَضْل الْخِبَاء». اهـ. الخِباء: خيمة تُنصب على عمودَين أو ثلاثة. والرفرف ما فضل عن الشيء وعُطِف، أي ما زاد عن الشيء وثُنِي ومنه كسر الخباء. وكِسَر الخِباء جانبُه. وهو الجزء الذي يُرفع عند دخول الخباء والخروج منه ونحوهما.

(٥) هذا قول الحسن وقال ابن عباس: الرفرف: فضول المحابس وهي ما يُطرَح على ظهر الفراش للنوم عليه.

قال الصاوي: وهي نسبة إلى «عبقر» قرية بناحية اليمن، يُنسج فيها بسط منقوشة بلغت النهاية في الحسن، فقرَّب الله لنا فرش الجنتين بتلك البسط المنقوشة[١] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعمةٍ من نعم الله تعالى تكذبان يا معشر الإنس والجن ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ أي تنزه وتقدَّس الله العظيم الجليل، وكثرت خيراته وفاضت بركاته ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي صاحب العظمة والكبرياء، والفضل والإنعام قال في البحر: لما ختم تعالى نعم الدنيا بقوله ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] ختم نعم الآخرة بقوله ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وناسب هناك ذكر البقاء والديمومة له تعالى بعد ذكر فناء العالم، وناسب هنا ذكر البركة وهي النماء والزيادة عقب امتنانه على المؤمنين في دار كرامته وما آتاهم من الخير والفضل في دار النعيم[٢].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيا يلي:

١ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: ٧] وبين ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ [الرحمن: ١٠] وكذلك المقابلة بين ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥].

٢ - التشبيه المرسل المجمل ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤] أي كالجبال في العظم.

٣ - المجاز المرسل ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] أي ذاته المقدسة وهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل[٣].

٤ - الاستعارة التمثيلية ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] شبَّه انتهاء الدنيا وما فيها من تدبير شئون الخلق ومجيء الآخرة وبقاء شأن واحد وهو محاسبة الإنس والجن بفراغ من يشغله أمور فتفرَّغ لأمرٍ واحد، والله تعالى لا يشغله شأن عن شأن وإنما هو على سبيل التمثيل.

٥ - الأمر التعجيزي ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ .. فَٱنفُذُوا۟﴾ [الرحمن: ٣٣] فالأمر هنا للتعجيز.

٦ - التشبيه البليغ ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ [الرحمن: ٣٧] أي كالوردة في الحمرة حذف وجه الشبه وأداة التشبيه فصار بليغًا.

٧ - الجناس الناقص ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾ لتغير الشكل والحروف، ويسمَّى جناس الاشتقاق.

٨ - الإيجاز بحذف الموصوف وإبقاء الصفة ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي نساءٌ قصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم.

٩ - السجع المرصَّع غير المتكلف كأنه حبات در منظومة في سلكٍ واحد اقرأ قوله تعالى

---

(١) «حاشية الصاوي» ٤/ ١٦٠.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٢٠٠.

(٣) (ش): تَضَمَّنَتْ هذه الآيَةُ إِثْبَاتَ صِفَةِ الْوَجْهِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَالنُّصُوصُ فِي إِثْبَاتِ الْوَجْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لاَ تُحْصَى كَثْرَةً. (راجع التعليق على كلام المؤلف عند تفسير هذه الآية).

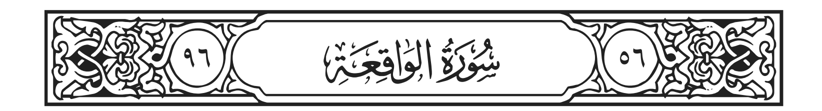
﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١٤] وأمثاله في السورة كثير.

فَائِدَة: تسمى سورة الرحمن «عروس القرآن» لما ورد «لكل شيء عروسٌ، وعروسُ القرآنِ سورةُ الرحمن»[(١)].

«انتهى تفسير سورة الرحمن»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٥٢. (ش): «لكل شَيْء عروس وعروس الْقُرْآن الرَّحْمَن». (رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان، وضعفه الألباني).



مكية وآياتها ست وتسعون

بين يدي السورة

* تشتمل هذه السورة الكريمة على أحوال يوم القيامة، وما يكون بين يدي الساعة من أهوال، وانقسام الناس إلى ثلاث طوائف (أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، السابقون).

* وقد تحدثت السورة عن مآل كل فريق، وما أعده الله تعالى لهم من الجزاء العادل يوم الدين، كما أقامت الدلائل على وجود الله ووحدانيته، وكمال قدرته في بديع خلقه وصنعه، في خلق الإنسان، وإخراج النبات، وإنزال الماء، وما أودعه الله من القوة في النار... ثم نوهت بذكر القرآن العظيم، وأنه تنزيل رب العالمين، وما يلقاه الإنسان عند الاحتضار من شدائد وأهوال.

* وختمت السورة بذكر الطوائف الثلاث وهم أهل السعادة، وأهل الشقاوة، والسابقون إلى الخيرات من أهل النعيم، وبينت عاقبة كل منهم، فكان ذلك كالتفصيل لما ورد في أول السورة من إجمال، والإشادة بذكر مآثر المقربين في البدء والختام.

فضلها: أ- عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبدًا»[1].

ب- وأخرج الحافظ ابن عساكر في ترجمة (عبد الله بن مسعود) بسنده عن أبي ظبية قال: «مرض عبد الله مرضه الذي توفي فيه، فعاده عثمان بن عفان فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني، قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه، قال: يكون لبناتك من بعدك، قال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدًا»[2] فكان أبو ظبية لا يدعها[3].

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى وابن عساكر.
(٢) (ش): رواه البيهقي وضعفه الألباني. فاقة: فَقْر؛ حاجة؛ ضيق الحال.
(٣) «تفسير ابن كثير» ٤/ ٢٨١.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ﴿٥﴾ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ﴿٦﴾ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ﴿٧﴾ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴿٢٩﴾ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴿٣٧﴾ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ

اللغة: ﴿رُجَّتِ﴾ زُلزِلَت وحُرِّكت تحريكًا شديدًا ﴿وَبُسَّتِ﴾ فُتِّتَتْ حتى صارت كالدقيق المبسوس[1] ﴿هَبَآءٗ﴾ الهباء ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة ﴿ثُلَّةٞ﴾ جماعة من ثَلَلْتُ الشيء، أي: قطَّعْتُه قاله الزجاج، فمعنى ثُلة كمعنى فِرْقة وزنًا ومعنًى ﴿مَّوۡضُونَةٖ﴾ منسوجة مُحكمَة النَّسْج كأنّ بعضها أُدخِلَ في بعض قال الأعشى:

وَمِنْ نَسْجِ دَاوُدَ مَوْضُونَةٌ تَسِيرُ مَعَ الْحَيِّ عِيرًا فَعِيرَا[2]

﴿يُصَدَّعُونَ﴾ صُدِّعَ القومُ بالخمر لحقهم الصُداع في رءوسهم منها ﴿يُنزِفُونَ﴾ يسكرون

---

(١) (ش): أي المبلول. بسَّ الدَّقيقَ: بلّله بالماء.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٠١. (ش): الموضونة: الدرع المنسوجة. قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [سبأ: ١٠ - ١٢]. (اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ): أي اعمل دروعًا تامات واسعات وقدِّر المسامير في حِلَق الدروع، فلا تعمل الحلقة صغيرة فتَضْعُف، فلا تقوى الدروع على الدفاع، ولا تجعلها كبيرة فتثقُل على لابسها.

فتذهب عقولهم ﴿مَّخۡضُودٖ﴾ خُضِّد شَوكُه، أي: قُطِع قال أمية بن أبي الصلت:

إِنَّ الْـحَـدَائِـقَ فِـي الْـجِـنَـانِ ظَلِيلَةٌ فِيهَا الْكَوَاعِبُ سِدْرُهَا مَخْضُودُ[(١)]

﴿وَطَلۡحٖ﴾ الطلحُ: شَجَرُ الْمَوْز ﴿مَّنضُودٖ﴾ متراكب بعضه فوق بعض ﴿عُرُبًا﴾ جمع عَرُوب وهي المتحَبِّبة إلى زوجها ﴿سَمُومٖ﴾ ريح حارة تدخل في مَسَامّ البدن ﴿يَحۡمُومٖ﴾ اليحموم الشديد السواد ﴿ٱلۡحَمِيمِ﴾ الماء المغلي ﴿ٱلۡهِيمِ﴾ الإبل العطاش التي لا تروى لداء يصيبها.

التفسير: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ أي إذا قامت القيامة التي لا بد من وقوعها، وحدثت الداهية الطامة التي ينخلع لها قلب الإنسان، كان من الأهوال ما لا يصفه الخيال قال البيضاوي: سميت واقعة لتحقق وقوعها[(٢)] وقال ابن عباس: الواقعة اسم من أسماء القيامة كالصاخة والآزفة والطامة، وهذه الأشياء تقتضي عِظَم شأنها[(٣)] ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي لا يكون عند وقوعها نفس كاذبة تكذِّب بوقوعها كحال المكذبين اليوم، لأن كل نفس تؤمن حينئذٍ لأنها ترى العذاب عيانًا كقوله تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤] ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ أي هي خافضة لأقوام رافعةٌ لآخرين، تخفض أعداء الله في النار، وترفع أولياء الله في الجنة قال الحسن: تخفض أقوامًا إلى الجحيم وإن كانوا في الدنيا أعزة، وترفع آخرين إلى أعلى عليين وإن كانوا في الدنيا وضعاء[(٤)].. ثم بيَّن تعالى متى يكون ذلك فقال ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا﴾ أي زُلزلت زلزالًا عنيفًا، واضطربت اضطرابًا شديدًا، بحيث ينهدم كل ما فوقها من بناء شامخ، وطَوْدٍ راسخ[(٥)] قال المفسرون: تُرجُّ كما يرجُّ الصبي في المهد حتى ينهدم كل ما عليها من بناء، وينكسر كل ما فيها من جبال وحصون[(٦)] ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا﴾ أي فُتِّتَتْ تفتيتًا حتى صارت كالدقيق المبسوس وهو المبلول بعد أن كانت شامخة ﴿فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾ أي فصارت غبارًا متفرقًا متطايرًا في الهواء، كالذي يُرَى في شعاع الشمس إذا دخل النافذة فهذا هو الهباء[(٧)]، والمنبثُّ المتفرق، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وقوله ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠] ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٢٠١. (ش): البيت في وصْف الْجَنَّة، والمعنى أنَّ الْحَدَائِقَ فِي الْجَنَّةِ ظَلِيلَةٌ وفيها أشجار النبق الذي قُطِع شوْكُه، وفِيهَا الْكَوَاعِبُ: نساء عذارى نواهد قد برزت أَثْداؤهنَّ.

(٢) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٤٣٧.

(٣) «تفسير المحيط» ٨/ ٢٠٢.

(٤) هذا القول هو الأرجح في تفسير الآية الكريمة وهو اختيار البيضاوي وأبي السعود والألوسي، واختيار ابن كثير أن المعنى ليس لوقوعها -إذا أراد الله- صارفٌ يصْرِفها ولا دافعٌ يدْفعها، ورُوي نحو هذا عن الحسن وقتادة: والأول أدق وأظهر والله أعلم.

(٥) (ش): شامِخ: مرتفع. طَوْد: جبل. راسخ: ثابت.

(٦) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٤٢٨.

(٧) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٩٦.

أي وكنتم أيها الناس أصنافًا وفرقًا ثلاث «أهل اليمين، وأهل الشمال، وأهل السبق» فأما السابقون فهم أهل الدرجات العُلى في الجنة، وأما أصحاب اليمين فهم سائر أهل الجنة، وأما أصحاب الشمال فهم أهل النار(١)، وهذه مراتب الناس في الآخرة قال ميمون بن مهران: اثنان في الجنة وواحد في النار، ثم فصَّلهم تعالى بقوله ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾؟ استفهام للتفخيم والتعظيم أي هل تدري أيُّ شيء أصحاب الميمنة؟ من هم وما حالهم وصِفَتُهم؟ إنهم الذين يُؤْتَوْن صحائفهم في أيمانهم، فهو تعجيبٌ لحالهم، وتعظيم لشأنهم في دخولهم الجنة وتنعمهم بها ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾؟ أي هل تدري من هم؟ وما حالهم وصفتهم؟ إنهم الذين يؤتون صحائفهم بشمالهم، ففيه تعجيب لحالهم في دخولهم النار وشقائهم(٢) قال القرطبي: والتكرير في ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ و ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ للتفخيم والتعجيب كقوله ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١٢] وقوله ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١٢](٣) وقال الألوسي: والمقصود التفخيم في الأول، والتفظيع في الثاني، وتعجيب السامع من شأن الفريقين في الفخامة والفظاعة كأنه قيل: فأصحاب الميمنة في غاية حُسْن الحال، وأصحاب المشأمة في غاية سوء الحال(٤) ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ هذا هو الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة، أي: والسابقون إلى الخيرات والحسنات، هم السابقون إلى النعيم والجنات، ثم أثنى عليهم بقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ أي أولئك هم المقربون من الله، في جواره، وفي ظل عرشه، ودار كرامته ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي هم في جنات الخلد يتنعمون فيها قال الخازن: فإن قلت: لم أخَّر ذكر السابقين وكانوا أولى بالتقديم على أصحاب اليمين؟ قلت: فيه لطيفة وذلك أنَّ الله ذكر في أول السورة الأمور الهائلة عند قيام الساعة تخويفًا لعباده، فإما محسنٌ فيزداد رغبةً في الثواب، وإمّا مسيء فيرجع عن إساءته خوفًا من العقاب، فلذلك قدَّم أصحاب اليمين ليسمعوا ويرغبوا، ثم ذكر أصحاب الشمال ليرهبوا، ثم ذكر السابقين وهم الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ليَجِدُّوا ويجتهدوا(٥) ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي السابقون المقربون جماعة كثيرة من الأمم السالفة ﴿وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي وهم قليلٌ من هذه الأمة قال القرطبي: وسمُّوا قليلًا بالإضافة إلى من كان قبلهم، لأن الأنبياء المتقدمين كانوا كثرة، فكثر السابقون إلى الإيمان منهم فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمتنا، قال الحسن: سابقو من مضى أكثر من سابقينا ثم تلا الآية(٦) وقيل: إن المراد بقوله ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ أول هذه

(١) هذا قول ابن عباس.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٢٨.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ١٩٩.
(٤) «تفسير الألوسي» ٢٧/ ١٣١.
(٥) «تفسير الخازن» ٤/ ١٥.
(٦) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٠٠.

الأمة، والآخرون والمتأخرون من هذه الأمة، فيكون كلا الفريقين من أمة محمد ﷺ[١] ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ أي جالسين على أَسِرَّة منسوجة بقضبان الذهب، مُرَصَّعَة بالدر والياقوت[٢] قال ابن عباس: ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ أي مرمولة بالذهب يعني منسوجة به[٣] ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾ أي حال كونهم مضطجعين على تلك الأسرَّة شأن المنعَّمين المترفين ﴿مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض، ليس أحد وراء أحد، وهذا أَدْخَلُ في السرور، وأكْملُ في أدب الجلوس ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي يدور عليهم للخدمة أطفال في نضارة الصبا، لا يموتون ولا يهرمون قال أبو حيان: وُصفوا بالخلد وإن كان كل من في الجنة مخلدًا ليدل على أنهم يبقون دائمًا في سنِّ الولدان، لا يتحولون ولا يكبرون كما وصفهم جل وعلا[٤] ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ أي بأقداح كبيرة مستديرة لا عُرى لها[٥] ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمع إبريق أي وبأباريق لها عُرى تبرق من صفاء لونها ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي وكأسٍ من خمرٍ لذة جارية من العيون قال ابن عباس: لم تعصر كخمر الدنيا بل هي من عيون سارحة قال القرطبي: والمعين الجاري من ماء أو خمر، غير أن المراد في هذا الموضع الخمر الجارية من العيون، ليست كخمر الدنيا التي تستخرج بعصرٍ وتكلف ومعالجة[٦] ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي لا تنصدع رءوسهم من شربها ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي ولا يسكرون فتذهب بعقولهم كخمر الدنيا قال ابن عباس: في الخمر أربع خصال: السُّكرُ والصُّداع، والقيءُ، والبول، وقد ذكر تعالى خمر الجنة ونزَّهها عن هذه الخصال الذميمة[٧] ﴿وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي ولهم فيها فاكهة كثيرة يختارون ما تشتهيه نفوسهم لكثرتها وتنوُّعها ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي ولحم طيرٍ مما يحبون ويشتهون قال ابن عباس: يخطر على قلب أحدهم لحم الطير فيطير حتى يقع بين يديه على ما اشتهى مقليًّا أو مشويًّا وفي الحديث « إِنَّكَ لَتَنْظُرُ

---

(١) القول الأول الذي أسلفناه هو اختيار جمهور المفسرين، كابن جرير، وأبي السعود، والقرطبي، والبيضاوي، والألوسي، واختار ابن كثير القول الثاني فقال: القول الذي اختاره ابن جرير فيه نظر بل هو ضعيف، لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها.. إلخ، أقول: قد علمت أن الأنبياء كثرة كثيرة وكلهم من السابقين، فإذا انضم إليهم أتباعهم من الخواص كانوا أكثر من خواص هذه الأمة، وتبقى أمة محمد ﷺ أكثر الأمم دخولًا الجنة وأفضل الأمم بمجموعها لا بخواصها، فيندفع بذلك الإشكال والله أعلم.

(٢) (ش): رصَّع الشيءَ: حَلاَّه بالرصائع. والرصيعة: كل حلية يرصع بهَا أَو كل حلية مستديرة يحَلَّى بهَا التَّاج وَغَيره، يُقَال: رصع التَّاج أَو السَّيْف بالجواهر.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٤٣٠.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٢٠٥.

(٥) (ش): العُرْوَةُ من الدَّلْو أَو الكوب: مقْبِضُه.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٠٣.

(٧) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٣٠.

إِلَى الطَّيْرِ فِي الْجَنَّةِ فَتَشْتَهِيهِ فَيَخِرُّ بَيْنَ يَدَيْكَ مَشْوِيًّا »[١] قال الرازي: وقدَّم الفاكهة على اللحم لأن أهل الجنة يأكلون لا عن جوع بل للتفكُّه، فميلهم إلى الفاكهة أكثر كحال الشبعان في الدنيا فلذلك قدَّمها[٢] ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ أي ولهم مع ذلك النعيم نساء من الحور العين، الواسعات العيون، في غاية الجمال والبهاء، كأنهن اللؤلؤ في الصفاء والنقاء، الذي لم تمسه الأيدي قال في التسهيل: شبَّههُن باللؤلؤ في البياض، ووصفه بالمكنون لأنه أبعد عن تغيير حسنه، وحين سألت أم سلمة رسول الله ﷺ عن هذا التشبيه قال: « صَفَاؤُهُنَّ صفاءُ الدُّرِّ الَّذِي فِي الْأَصْدَافِ، الَّذِي لَمْ تَمَسَّه الْأَيْدِي »[٣] ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي جعلنا لهم ذلك كله جزاءً لعملهم الصالح في الدنيا.. ثم أخبر تعالى عن كمال نعيمهم في الجنة فقال ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا﴾ أي لا يطرق آذانهم فاحشُ الكلام، ولا يلحقهم إثمُ ممّا يسمعون قال ابن عباس: لا يسمعون باطلًا ولا كذبًا[٤] ﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ أي إلا قول بعضهم لبعض: سلامًا سلامًا، يُحيي به بعضهم بعضًا ويفشون السلام فيما بينهم قال في البحر: والظاهر أنه استثناء منقطع لأنه لم يندرج في اللغو ولا التأثيم[٥] وقال أبو السعود: والمعنى: أنهم يفشون السلام فيسلمون سلامًا بعد سلام، أو لا يسمع كلٌ منهم إلا سلام الآخر بدءًا أو ردًّا[٦]. ثم شرع في تفصيل أحوال الصنف الثاني وهم أصحاب اليمين فقال ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾؟ استفهام للتعظيم والتعجيب من حالهم، أي: ما أدراك من هم، وما حالهم؟ ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾ أي هم تحت أشجار النبق الذي قطع شوكه قال المفسرون: والسِّدرُ: شجر النبق، والمخضود الذي خُضد، أي: قُطع شوكه، وفي الحديث أن أعرابيًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللهِ، لَقَدْ ذَكَرَ اللهُ فِي الْقُرْآنِ شَجَرَةً مُؤْذِيَةً وَمَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً تُؤْذِي صَاحِبَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَمَا هِيَ؟» قَالَ: السِّدْرُ، فَإِنَّ لَهَا شَوْكًا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَيْسَ اللهُ يَقُولُ: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾ يَخْضِدُ اللهُ شَوْكَهُ فَيُجْعَلُ مَكَانَ كُلِّ شَوْكَةٍ ثَمَرَةٌ، فَإِنَّهَا تُنْبِتُ ثَمَرًا تُفْتَقُ الثَّمَرَةُ مَعَهَا عَنِ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لَوْنًا مِنْ طَعَامٍ مَا مِنْهَا لَوْنٌ يُشْبِهُ الْآخَرَ »[٧] ﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾ هو شجر الموز ومعنى ﴿مَّنضُودٖ﴾ أي متراكم قد نُضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كذا في ابن كثير ٣/ ٤٣١. (ش): ضعيف جدًّا.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٩/ ١٥٣.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٨٩. (ش): رواه الطبراني بسند ضعيف.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٠٦.

(٥) «البحر المحيط» ٨/ ٢٠٦.

(٦) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٣٠.

(٧) أخرجه الحاكم والبيهقي وانظر روح المعاني ٢٧/ ١٤٠. (ش): رواه ابن أبي الدنيا والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي والألباني. تُفْتَقُ: تَنْشَقّ.

أي وظل دائم باقٍ لا يزول ولا تنسخه الشمس، لأن الجنة ظل كلها لا شمس فيها ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣] وفي الحديث «إِنَّ فِى الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِى ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[1]» وقال الرازي: ومعنى ﴿مَّمْدُودٍ﴾ أي لا زوال له فهو دائم ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] أي: دائم، والظلُّ ليس ظل الأشجار، بل ظِل يخلقه الله تعالى[2] ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ أي وماءٍ جارٍ دائمًا لا ينقطع يجري في غير أخدود قال القرطبي: كانت العرب أصحاب بادية، والأنهار في بلادهم عزيزة، لا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشاء، فوُعِدوا بالجنة بأسباب النزهة وهي الأشجار وظلالها، والمياه والأنهار وجريانها[3] ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي وفاكهةٍ كثيرة متنوعة، ليست بالقليلة العزيزة كما كانت في بلادهم، لا تنقطع كما تنقطع ثمار الدنيا في الشتاء، وليست ممنوعة عن أحد، قال ابن عباس: لا تنقطع إذا جُنِيَت، ولا تمتَنِع من أحدٍ إذا أراد أخْذَها[4] وفي الحديث «ما قُطعت ثمرةٌ من ثمار الجنة إلا عاد مكانها أخرى»[5] ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي عالية وطيئة ناعمة وفي الحديث «ارتفاعُها كما بين السماءِ والأرض، ومسيرةُ ما بينهما خَمْسُمائة عام»[6] قال الألوسي: ولا تستبعد هذا من حيث العروجُ والنزولُ، فالعالم عالم آخر فوق طور عقلك[7] تنخفض للمؤمن إذا أراد الجلوس عليها ثم ترتفع به، والله على كل شيء قدير ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ أي خلقنا نساء الجنة خلقًا جديدًا، وأبدعناهن إبداعًا عجيبًا، قال في التسهيل: ومعنى إنشاء النساء أن الله تعالى يخلقهن في الجنة خلقًا آخر في غاية الحسن بخلاف الدنيا، فالعجوز ترجع شابة، والقبيحة ترجع جميلة[8] قال ابن عباس: يعني الآدميات العجائز الشمط خلقهن الله بعد الكبر والهرم خلقًا آخر[9] ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ أي فجعلناهن عذارى، كلما أتاهنَّ أزواجهن وجدوهنَّ أبكارًا ﴿عُرُبًا﴾ جمع عَرُوب وهي المتحببة لزوجها العاشقة له قال

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) التفسير الكبير ٢٩/ ١٦٤. (ش): كيف يستقيم هذا الكلام مع قوله ﷺ: «إِنَّ فِى الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِى ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾». (رواه البخاري) وقد أورده المؤلف، وهذا الحديث يُثبت للأشجار ظِلًّا: «شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِى ظِلِّهَا».

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٠٩.

(٤) «تفسير الخازن» ٤/ ١٨.

(٥) أخرجه الطبراني. (ش): أخرجه البزار، والطبراني، وضعفه الألباني.

(٦) أخرجه النسائي والترمذي. (ش): ضعفه الألباني.

(٧) «روح المعاني» ٢٧/ ١٤١.

(٨) «التسهيل» ٤/ ٩٠.

(٩) «تفسير الخازن» ٤/ ١٨.

مجاهد: هنَّ العاشقات لأزواجهن المتحببات لهن اللواتي يشتهين أزواجهن[(١)] ﴿أَتْرَابًا﴾ أي مستويات في السنِّ مع أزواجهن، في سنّ أبناء ثلاث وثلاثين، عن أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْها قالت: سألت النبي ﷺ عن قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ فقال: «يا أم سلمة هنَّ اللواتي قُبضن في الدنيا عجائز، شُمْطًا عُمْشًا، رُمْصًا، جعلهن الله بعد الكِبر أترابًا على ميلادٍ واحد في الاستواء»[(٢)] وفي الحديث أن امرأة عجوزًا جاءت النبي ﷺ فَقالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يُدْخِلَنِي الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «يَا أُمَّ فُلَانٍ، إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ» قَالَ: فَوَلَّتْ تَبْكِي فَقَالَ: «أَخْبِرُوهَا أَنَّهَا لَا تَدْخُلُهَا وَهِيَ عَجُوزٌ» إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾[(٣)] ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي أنشأنا هؤلاء النساء الأبكار لأصحاب اليمين ليستمتعوا بهنَّ في الجنة، ثم قال تعالى ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أي هم جماعة من الأولين من الأمم الماضية، وجماعة من المتأخرين من أُمة محمد ﷺ، قال في البحر: ولا تنافي بين هذه الآية ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ وبين الآية التي سبقَتْها وهي قوله ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ لأن الثانية في السابقين فلذلك قال ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ وهذه في أصحاب اليمين ولذلك قال ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾[(٤)].. ثم شرع تعالى في بيان الصنف الثالث وهم أهل النار فقال ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ استفهام بمعنى التهويل والتفظيع والتعجيب من حالهم، أي: وأصحابُ الشمال وهم الذين يُعطَوْن كتبَهم بشمائلهم ما أصحاب الشمال؟ أي ما حالهم وكيف مآلهم؟ ثم فصَّل تعالى حالهم فقال ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ أي في ريح حارة من النار تنفذ في المسام، وماءٍ شديد الحرارة ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ أي وفي ظل من دخان أسود شديد السواد ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ أي ليس هذا الظل باردًا يستروح به الإنسان من شدة الحر ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي وليس حسن المنظر يُسرُّ به من يستفيء بظله قال الخازن: إن فائدة الظل ترجع إلى أمرين: أحدهما: دفع الحر، والثاني: حسن المنظر وكون الإنسان فيه مكرمًا، وظلُّ أهل النار بخلاف هذا لأنهم في ظل من دخان أسود حار[(٥)].. ثم بيَّن تعالى سبب استحقاقهم ذلك فقال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي لأنهم كانوا في الدنيا مُنعَّمين، مُقبلين على الشهوات والملذات ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى

---

(١) «تفسير الألوسي» ٢٧/ ١٤٣.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢١٠، والحديث أخرجه الترمذي عن أنس مرفوعًا. (ش): بهذا اللفظ رواه الطبراني بسند ضعيف، وروى بعضَه الترمذي وضعفه الألباني. (شُمْطًا): الشَمْطَاءُ: من اختلط سوادُ شعرها ببياض. (عُمْشًا): جَمْعُ عَمْشَاءَ مِنَ الْعَمَشِ فِي الْعَيْنِ، وَهُوَ ضَعْفُ الرُّؤْيَةِ مَعَ سَيَلَانِ دَمْعِهَا فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهَا. (رُمْصًا): جَمْعُ رَمْصَاءَ مِنَ الرَّمَصِ مُحَرَّكَةً وَهُوَ وَسَخٌ أَبْيَضُ يَجْتَمِعُ فِي الْمُوقِ، وهي مجاري الدُّموع من العين، أي: من طرفها ممّا يلي الأنف.

(٣) أخرجه الترمذي في الشمائل. (ش): حسنه الألباني.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٢٠٧.

(٥) «تفسير الخازن» ٤/ ٢١.

﴿ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي وكانوا يداومون على الذنب العظيم وهو الشرك بالله قال المفسرون: لفظ الإَصرار يدل على المداومة على المعصية، والحنثُ هو الذنب الكبير والمراد به هنا الكفر بالله كما قاله ابن عباس ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي هل سنبعث بعد أن تصبح أجسادنا ترابًا وعظامًا نخرة؟ وهذا استبعادٌ منهم لأمر البعث وتكذيب له ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾؟ تأكيدٌ للإنكار ومبالغة فيه، أي: وهل سيبعث آباؤنا الأوائل بعد أن بليت أجسامهم وتفتَّتت عظامهم؟ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن الخلائق جميعًا السابقين منهم واللاحقين، سيجمعون ويحشرون ليوم الحساب الذي حدَّده الله بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٤] ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ أي ثم إنكم يا معشر كفار مكة، الضالون عن الهدى، المكذبون بالبعث والنشور، لآكلون من شجر الزقوم الذي ينبت في أصل الجحيم ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ أي فمالئون بطونكم من تلك الشجرة الخبيثة لغلبة الجوع عليكم ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي فشاربون عليه الماء الحار الذي اشتد غليانه ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ أي فشاربون شرب الإبل العطاش قال ابن عباس: الهيمُ الإبل العطاش التي لا تروى لداء يصيبها[٦] وقال أبو السعود: إنه يسلط على أهل النار من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمُهل، فإذا ملئوا منه بطونهم- وهو في غاية الحرارة والمرارة- سُلِّط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم، فيشربونه شرب الهيم -وهي الإبل التي بها الهيام وهو داء يصيبها فتشرب ولا تروى-[٧] ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي هذه ضيافتهم وكرامتهم يوم القيامة، وفيه تهكم بهم قال الصاوي: والنُزُل في الأصل ما يُهَيَّأ للضيف أوَّلَ قدومه من التُّحَف والكرامة[٨]، فتسميةُ الزقوم نُزلاً تهكمٌ بهم.

قال الله تعالى:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾

---

(٦) «تفسير القرطبي» ٧/ ٢١٥.

(٧) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٣٢.

(٨) (ش): أي الإكرام الزائد عن المعتاد: ما يُقدَّم للضيف مما هو ليس مطابقًا لعادة المُضيف التي كان قد اعتادها، فيتكلف إذا نزل به الضيف ويزيد في البِرِّ على ما يُحضِره في سائر الأيام.

ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى الأشقياء المجرمين وأحوالهم في نار جهنم، ذكر هنا الأدلة والبراهين على قدرة الله ووحدانيته في بديع خلقه وصنعه، لتقوم الحجة على المُنكِر المكذب بوجود الله، وختم السورة الكريمة بالتنويه بذكر أهل السعادة، وأهل الشقاوة، والسابقين إلى الخيرات، ليكون ذلك كالتفصيل لما ورد في أول السورة من الإجمال، والإشادة بذكر مآثر المقربين في البدء والمآل.

اللغَة: ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تفكّه بالشيء تمتّع به، ورجلٌ فَكِهٌ منبسط النفس غيرُ مكترث بشيء ﴿ٱلْمُزْنِ﴾ السحاب جمع مُزْنة قال الشاعر:

فَنَحْنُ كَمَاءِ الْمُزْنِ مَا فِي نِصَابِنَا ... كَـهَامٌ وَلَا فِينَا يُعدُّ بَخِيلُ[1]

﴿تُورُونَ﴾ أورى النار من الزناد قدَحها ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ المسافرين يقال: أقْوى الرجل إذا دخل القَواء وهو القَفْر[2]، والقوى الجوع، قال الشاعر:

وَإِنِّي لَأَخْتَارُ الْقَوَى طَاوِيَ الْحَشَى ... مُحَافَظَةً مِنْ أَنْ يُقَالَ: لَئِيمُ[3]

﴿مُّدْهِنُونَ﴾ المدهن: الذي ظاهره خلاف باطنه، كأنه شُبِّه بالدهن في سهولة ظاهره ومنه المداهنة ﴿مَدِينِينَ﴾ مجْزِيِّين ومحاسَبين من الدِّين بمعنى الجزاء ﴿فَرَوْحٌ﴾ الرُّوح بفتح الراء الاستراحة ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ الريحان: كل مشموم طيب الريح من النبات.

التفسِير: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي نحن خلقناكم أيها الناسُ من العدم، فهلّا تُصدِّقون بالبعث؟ فإن من قدر على البدء قادرٌ على الإعادة ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ أي أخبروني

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٢٠. (ش): نِصابُ كل شي: أصلُه. ورجل كَهَامٌ وكَهِيمٌ: ثقيل، بطيءٌ عَن النُّصْرَة وَالْحَرب، لا غَنَاءَ عنده.

(٢) (ش): القَوَاء: الأَرض الْخَالِيَةُ.

(٣) نفس المرجع السابق ١٧/ ٢٢٢. (ش): المُقْوِي الَّذِي لاَ زَادَ مَعَهُ، ويُقَالُ: أَقْوَى الرجلُ إذا نَفِد زَادُهُ. طَاوِيَ الْحَشَى: جوعان.

عمَّا تصبُّونه من المنيّ في أرحام النساء ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾؟ أي هل أنتم تخلقون هذا المنيَّ بشرًا سويًّا، أم نحن بقدرتنا خلقناه وصوَّرناه؟ قال القرطبي: وهذا احتجاج على المشركين وبيانٌ للآية الأولى والمعنى: إذا أقررتم بأنا خالقوه لا غيرنا فاعترفوا بالبعث[1] ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي نحن قضينا وحكمنا عليكم بالموت وساوينا بينكم فيه قال الضحاك: ساوى فيه بين أهل السماء والأرض[2]، سواء فيه الشريف والوضيع، والأمير والصُّعلُوك[3] ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي وما نحن بعاجزين ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أي على أن نهلككم ونستبدل قومًا غيركم يكونون أطوع لله منكم كقوله تعالى ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩] ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ولسنا بعاجزين أيضًا أن نعيدكم يوم القيامة في خِلْقَةٍ لا تعلمونها ولا تصل إليها عقولكم، والغرضُ أن الله قادر على أن يهلكهم وأن يعيدهم وأن يبعثهم يوم القيامة، ففي الآية تهديد واحتجاج على البعث[4] ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي ولقد عرفتم أن الله أنشأكم من العدم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا، فخلقكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي فهلا تتذكرون بأن الله قادر على إعادتكم كما قدر على خلقكم أول مرة؟ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧]؟ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ هذه حجة أخرى على وحدانية الله وقدرته، أي: أخبروني عن البذر الذي تلقونه في الطين ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾؟ أي أأنتم تنبتونه وتنشئونه حتى يكون فيه السنبل والحبُّ أم نحن الفاعلون لذلك؟ فإذا أقررتم أن الله هو الذي يخرج الحبَّ وينبت الزرع، فكيف تنكرون إخراجه الأموات من الأرض؟ ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ أي لو أردنا لجعلنا هذا الزرع هشيمًا متكسرًا لا ينتفع به في طعام ولا غيره قال القرطبي: والحُطام الهشيم الهالك الذي لا يُنتفع به في مطعم ولا غذاء، فنبَّههم بذلك على أمرين: أحدهما: ما أَوْلَاهم به من النعم في زرعهم ليشكروه. الثاني: ليعتَبِروا في أنفسهم فكما أنه تعالى يجعل الزرع حُطامًا إذا شاء، كذلك يهلكهم إذا شاء ليتعظوا فينزجروا[5] ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي فظللتم وبقيتم تتفجعون وتحزنون على الزرع مما حلَّ به وتقولون ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي إنا لمُحَمَّلون الغرم[6] في إنفاقنا حيث ذهب زرْعُنا وغُرِمْنا الحَبَّ الذي

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢١٦.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٣٦.

(٣) (ش): صُعلُوك: فَقِير.

(٤) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٩١.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢١٨.

(٦) قال الضحاك «مغْرَمون» من الغرم، والمُغْرَم الذي ذهب ماله بغير عوض، وقال ابن عباس: معذَّبُون، والغرام العذاب.

بذرْناه ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ أي بل نحن محرومون الرزقَ، غُرِمْنا قيمة البذر، وحُرِمْنا خروج الزرع ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ﴾ أي أخبروني عن الماء الذي تشربونه عذبًا فراتًا لتدفعوا عنكم شدة العطش ﴿ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ﴾ أي هل أنتم الذين أنزلتموه من السحاب أم نحن المنزلون له بقدرتنا؟ قال الخازن: ذكَّرهم تعالى نعمتَه عليهم بإنزال المطر الذي لا يقدر عليه إلا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ[1] ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا﴾ أي لو شئنا لجعلناه ماء مالحًا شديد الملوحة لا يصلح لشرب ولا لزرع قال ابن عباس: ﴿أُجَاجٗا﴾ شديد الملوحة وقال الحسن: مُرًّا زُعافًا لا يمكن شُرْبه[2] ﴿فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ أي فهلاَّ تشكرون ربكم على نعمه الجليلة عليكم؟! وفي الحديث أن النبي ﷺ كان إذا شرب الماء قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَقَانَا عَذْبًا فُرَاتًا بِرَحْمَتِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِلْحًا أُجَاجًا بِذُنُوبِنَا»[3] ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ أي أخبروني عن النار التي تقدحونها وتستخرجونها من الشجر الرطب ﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ﴾ أي هل أنتم خلقتم شجرها أم نحن الخالقون المخترعون؟ قال ابن كثير: وللعرب شجرتان: إحداهما المرخُ، والأُخرى العُفار، إذا أُخذ منهما غصنان أخضران، فحُكَّ أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر النار[4]، وقيل: أراد جميع الشجر الذي توقد منه النار، لما روي عن ابن عباس أنه قال: ما من شجرة ولا عود إلا وفيه النار سوى العُنَّاب[5] ﴿نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ﴾ أي جعلنا نار الدنيا تذكيرًا للنار الكبرى «نار جهنم» إذا رآها الرائي ذكر بها نار جهنم، فيخشى اللهَ ويخاف عقابه وفي الحديث: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ». قَالُوا: «وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللهِ». قَالَ: «فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا»[6] ﴿وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ﴾ أي ومنفعةً للمسافرين قال ابن عباس: ﴿لِّلۡمُقۡوِينَ﴾ المسافرين، وقال مجاهد: للحاضر والمسافر، المستمتعين بالنار من الناس أجمعين[7] قال الخازن: والمُقوِي النازلُ في الأرض القَواء وهي الأرض الخالية البعيدة عن العمران. والمعنى: أنه ينتفع بها أهل البوادي والسُفَّار، فإن منفعتهم أكثر من المقيم، فإنهم يوقدون النار بالليل لتهرب السباع ويهتدي بها الضال إلى غير ذلك من المنافع وهو قول أكثر المفسرين[8].

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٣.

(٢) (ش): سمٌّ زُعافٌ: سريع القَتْل، قاتِلٌ في حِينِه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم. (ش): ورواه أبو نعيم في «الحلية». وضعفه الألباني.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٣٨.

(٥) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٦٦. (ش): العُنَّاب: شجرٌ شائك.

(٦) أخرجه الشيخان ومالك.

(٧) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٣٨.

(٨) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٤.

ولما ذكر دلائل القدرة والوحدانية في الإنسان، والنبات، والماء، والنار، أمر رسوله بتسبيح الله الواحد القهار فقال ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي فنزِّهْ يا محمد ربك عما أضافه إليه المشركون من صفات العجز والنقص وقل: سبحان من خلق هذه الأشياء بقدرته، وسخَّرها لنا بحكمته، سبحانه ما أعظم شأنه، وأكبر سلطانه! (عدَّد سبحانه وتعالى نعمه على عباده، فبدأ بذكر خلق الإنسان فقال ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾ ثم بما به قوامه ومعيشته وهو الزرع فقال ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ ثم بما به حياته وبقاؤُه وهو الماء فقال ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾ ثم بما يصنع به طعامه، ويصلح به اللحوم والخضار وهو النار فقال ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ فيا له من إله كريم، ومنعم عظيم) ! ثم شرع بالقسم على جلال القرآن ورفعته، وعلو شأنه ومنزلته، وأنه تنزيل العزيز الحكيم فقال ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ اللام لتأكيد الكلام وتقويته، وزيادة «لا» كثير في كلام العرب ومشهور قال الشاعر:

تَـذَكَّـرْتُ لَيْلَى فَاعْتَرَتْنِي صَبَابَةٌ ... وَكَـادَ نِيَاطُ الْقَلْبِ لَا يَتَقَطَّعُ[1]

أَيْ كاد يَتَقَطَّعُ قال القرطبي: «لا» صلة في قول أكثر المفسرين. والمعنى: «فأقسم»[2] بدليل قوله بعده ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ ﴾[3] أي فأقسم بمنازل النجوم وأماكن دورانها في أفلاكها وبروجها ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ أي وإن هذا القسم العظيم جليل، لو عرفتم عظمته لآمَنْتم وانتفعْتم به[4]، لما في المُقسَم به من الدلالة على عظيم القدرة، وكمال الحكمة، وفرط الرحمة، ومن مقتضيات رحمته تعالى أن لا يترك عباده سُدى ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ هذا هو المُقسَم عليه. والمعنى: أقسم بمواقع النجوم أن هذا القرآن وقرآن كريم، ليس بسحرٍ ولا كهانة وليس بمفترى، بل هو قرآن كريم مجيد، جعله الله معجزة لنبيه محمد ﷺ وهو كثير المنافع والخيرات والبركات ﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ أي في كتاب مصونٍ عند الله تعالى، محفوظ عن الباطل وعن التبديل والتغيير قال ابن عباس: هو اللوح المحفوظ، وقال مجاهد: هو

---

(١) (ش): صَبَابَةٌ: عِشق وحُبٌّ. نِيَاطُ الْقَلْبِ: عِرقٌ غليظٌ ممتدٌّ من الرِّئتين ومتّصل بالقلب، فإذا قُطِعَ مات صاحبُه.

(٢) (ش): أي «لا» صِلَةَ زَائِدَة مُؤَكِّدَة، أي توصل للمعنى الأساسي لتأكيده وتقويته.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٢٣، وانظر تفصيل الأقوال وأرجحها في كتابنا «تفسير آيات الأحكام» الجزء الثاني ص ٥٠٥.

(٤) لم يكن المخاطبون يعلمون عن مواقع النجوم إلا القليل، أما في هذا العصر فقد ظهرت معجزة القرآن يقول الفلكيون: إن مجموعة واحدة من المجموعات التي لا تحصى في الفضاء الهائل، الذي لا ينعرف له حدودًا مجموعة واحدة هي «المجرة» التي تنتسب إليها أسرتنا الشمسية تبلغ ألف مليون نجم، وإن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة «بلايين» نجم منها ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة، هذه كلها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب نجم من مجال نجم آخر، أو يصطدم بكوكب آخر، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض بآخر في المحيط الهادي، ويسيران باتجاه واحد وبسرعة واحدة وهو احتمال بعيد جدًا إن لم يكن مستحيلًا، نقلًا عن كتاب «الله والعلم الحديث ص ٣٣».

المصحف الذي بأيدينا[١] ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ أي لا يمس ذلك الكتاب المكنون إلا المطهرون، وهم الملائكة الموصوفون بالطهارة من الشرك والذنوب والأحداث، أو لا يمسُّه إلا من كان متوضئًا طاهرًا قال القرطبي: المراد بالكتاب المصحف الذي بأيدينا وهو الأظهر لقول ابن عمر «لا تمسَّ القرآن إلا وأنت طاهر» ولكتاب رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم «ألَّا يَمَس الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ»[٢] ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي منزَّل من عند الله جل وعلا.. ثم لمَّا عظم أمر القرآن ومجَّد شأنه وبخ الكفار فقال ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾ أي أفبهذا القرآن يا معشر الكفار تكذبون وتكفرون؟ ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ أي وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون برازقكم، وهو المُنعِم المتفضل عليكم؟ ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ أي فهلاَّ إذا بلغت الروح الحلقوم عند معالجة سكرات الموت ﴿وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ﴾ أي وأنتم في ذلك الوقت تنظرون إلى المحتضر وما يكابده من شدائد وأهوال ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ أي ونحن بعلمنا واطلاعنا أقرب إلى الميت منكم ولكنْ لا تعلمون ذلك، ولا تبصرون ملائكتنا الذين حضروه لقبض روحه قال ابن كثير: ومعنى الآية ملائكتنا أقرب إليه منكم ولكن لا ترونهم كما قال تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١][٣] ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ أي فهلاَّ إن كنتم غير مجزيين بأعمالكم كما تزعمون ﴿تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي تردون نفس هذا الميت إلى جسده بعد ما بلغت الحلقوم قال ابن عباس: ﴿غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ أي غير محاسبين ولا مجزيين قال الخازن: أجاب عن قوله ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ وعن قوله ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ بجواب واحد وهو قوله ﴿تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ومعنى الآية: إن كان الأمر كما تقولون أنه لا بعث ولا حساب، ولا إله يجازي، فهلاّ تردُّون نفْس من يعزُّ عليكم إذا بلغت الحلقوم؟ وإذا لم يمكنكم ذلك فاعلموا أن الأمر إلى غيركم وهو الله تعالى فآمنوا به[٤].. ثم ذكر تعالى طبقات الناس عند الموت وعند البعث، وبيَّنَ درجاتهم في الآخرة فقال ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ أي فأما إن كان هذا الميت من المحسنين السابقين بالدرجات العلا، فله عند ربه استراحة ورزق حسن وجنة واسعة يتنعم فيها قال القرطبي: والمراد بالمقربين السابقون المذكورون في أول السورة[٥] ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي وأما إن كان المحتضر من السعداء أهل الجنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي فسلامٌ لك يا محمد منهم،

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٢٥.

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة. (ش): رواه الطبراني وصححه الألباني.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٤٠.

(٤) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٧.

(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٩٤.

لأنهم في راحةٍ وسعادة ونعيم ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي وأما إِن كان المحتضر من المنكرين للبعث، الضالين عن الهدى والحق ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي فضيافتهم التي يُكرمون بها أول قدومهم، الحميمُ الذي يصهر البطون لشدة حرارته قال في التسهيل: لنُزل أول شيءٍ يُقدم للضيف(١) ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي ولهم إِصلاءٌ بنار جهنم وإِذاقة لهم من حرها ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي إِن هذا الذي قصصناه عليك يا محمد من جزاء السابقين، والسعداء، والأشقياء لهو الحقُّ الثابت الذي لا شك فيه ولا ريب، وهو عين اليقين الذي لا يمكن إِنكاره ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي فنزِّه ربك عن النقص والسوء، وعمَّا يصفه به الظالمون، لما نزلت هذه الآية الكريمة قال النبي ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ»، ولما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١] قال ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ»(٢).

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – جناس الاشتقاق ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١] والجناس الناقص في قوله ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾.

٢ – الطباق بين ﴿ٱلْمَيْمَنَةِ .. ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ وبين ﴿ٱلْأَوَّلِينَ .. وَٱلْآخِرِينَ﴾ وبين ﴿خَافِضَةٌ .. رَّافِعَةٌ﴾ وفي إِسناد الخفض والرفع إِلى القيامة مجاز عقلي، لأن الخافض والرافع على الحقيقة هو الله وحده، يرفَع أولياءه ويخفِض أعداءه، ونُسِب إِلى القيامة مجازًا كقولهم «نهاره صائم».

٣ – التشبيه المرسل المجمل ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢-٢٣] أي كأمثال اللؤلؤ في بياضه وصفائه، حذف منه وجه الشبه فهو مرسل مجمل.

٤ – التفخيم والتعظيم ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧] كرره بطريق الاستفهام تفخيمًا.

٥ – التفنن بذكر أصحاب الميمنة ثم بذكر أصحاب اليمين، وكذلك بذكر المشأمة وذكر أصحاب الشمال ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة: ٨] ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧].

٦ – تأكيد المدح بما يشبه الذم ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة:٢٥-٢٦] لأن السلام ليس من جنس اللغو والتأثيم، فهو مدح لهم بإِفشاء السلام، وهذا كقول القائل «لا ذنب لي إلا محبتُك».

٧ – التهكم والاستهزاء ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥٦] أي: هذا العذاب أول ضيافتهم

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٩٤.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه وصححه الحاكم. (ش): ضعفه الألباني.

يوم القيامة ففيه سخرية وتهكم بهم؛ لأن النزل هو أول ما يقدم للضيف من الكرامة.

٨ – الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٥١] ثم قال بعد ذلك ملتفتًا عن خطابهم ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥٦] وذلك للتحقير من شأنهم، والأصل هذا نزلكم.

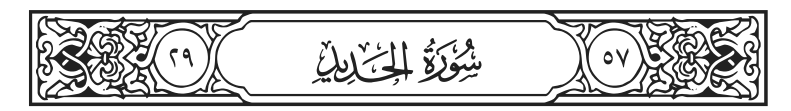
٩ – الجملة الاعتراضية وفائدتها لفت الأنظار إلى أهمية القسم ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ جاءت الجملة الاعتراضية ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ بين الصفة والموصوف للتهويل من شأن القسم.

١٠ – توافق الفواصل في الحرف الأخير مما يزيد في رونق الكلام وجماله مثل ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٨-٣٠] ومثل ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٤-٥٥] ويسمى هذا بالسجع المرصَّع وهو من المحسنات البديعية.

لطيفة: المناسبة بين المقسم به وهو النجوم وبين المقسم عليه وهو القرآن ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ أن النجوم جعلها الله ليهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يُهتدى بها في ظلمات الجهل والضلالة، وتلك ظلمات حسية، وهذه ظلمات معنوية، فالقسم جاء جامعًا بين الهدايتين: الحسية للنجوم، والمعنوية للقرآن، فهذا وجه المناسبة والله أعلم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الواقعة»





مدنية وآياتها تسع وعشرون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية، التي تعني بالتشريع التربية والتوجيه، وتبني المجتمع الإسلامي على أساس العقيدة الصافية، والخلق الكريم، والتشريع الحكيم.

* وقد تناولت السورة الكريمة «سورة الحديد» ثلاثة مواضيع رئيسة وهي:

* **أولًا**: أن الكون كله لله جل وعلا، هو خالقه ومبدعه، والمتصرف فيه بما يشاء.

* **ثانيًا**: وجوب التضحية بالنفس والنفيس لإعزاز دين الله، ورفع منار الإسلام.

* **ثالثًا**: تصوير حقيقة الدنيا بما فيها من بهرج ومتاع خادع حتى لا يغتبر بها الإنسان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن عظمة الخالق جل وعلا الذي سبح له كل ما في الكون من شجر وحجر، ومدر، وإنسان، وحيوان، وجماد، فالكل ناطق بعظمته شاهد بوحدانيته.

* ثم ذكرت صفا ت الله الحسنى، وأسماءه العليا، فهو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، والظاهر بآثار مخلوقاته، والباطن الذي لا يعرف كنه حقيقته أحد[1]، وهو الخالق للإنسان والمدبر للأكوان.

* ثم تلتها الآيات وهي تدعو المسلمين إلى البذل والسخاء والإنفاق في سبيل الله بما يحقق عز الإسلام ورفعة شانه، فلا بد للمؤمن من الجهاد بالنفس والمال لينال السعادة في الدنيا والمثوبة في الآخرة.

* وتحدثت السورة عن أهل الإيمان، وأهل النفاق، فالمؤمنون يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، والمنافقون يتخبطون في الظلمات، كما كانوا في الدنيا يعيشون كالبهائم في ظلمات الجهل والغي والضلال.

* وتحدثت السورة عن حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، وصورتهما أدق تصوير، فالدنيا دار الفناء، فهي زائلة فانية، كمثل الزرع الخصيب الذي ينبت بقوة بنزول الغيث، ثم يصفر ويذبل

---

(١) (ش): فسر المؤلف اسم الله الظاهر والباطن تفسيرًا يخالف ما فسرهما به رسول الله ﷺ وقد ساق المؤلف تفسير الرسول ﷺ لهذين الاسمين الكريمين بما يُبطِل تفسيره هذا. قال ﷺ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). فقد فسر ﷺ الظهور بظهور ذاته وعلوها فوق مخلوقاته، وفسر البطون بقُربه من عباده. فكان يجب على المؤلف أن يلتزم بتفسير النبي ﷺ لا سيما أنه قد نقل في تفسير «سورة الكوثر» عن أبي حيان في «البحرالمحيط» قوله: إن فِي الْكَوْثَرِ سِتَّةً وَعِشْرِينَ قَوْلًا، وَأن الصَّحِيحُ هُوَ مَا فَسَّرَهُ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

حتى يصير هشيمًا وحطامًا تذروه الرياح، بينما الآخرة دار الخلود والبقاء، التي لا نصب فيها ولا تعب، ولا هم ولا شقاء.

* وختمت السورة الكريمة بالغاية من بعثة الرسل الكرام، والأمر بتقوى الله عز وجل، والاقتداء بهدى رسله وأنبيائه.

التسمية: سميت السورة «سورة الحديد» لذكر الحديد فيها، وهو قوة الإنسان في السلم والحرب، وعدته في البنيان والعمران، فمن الحديد تبنى الجسور الضخمة، وتشاد العمائر، وتصنع الدروع والسيوف والرماح، وتكون الدبابات والغواصات والمدافع الثقيلة إلى غير ما هنالك من منافع.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ

اللغَة: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ نزَّه الله ومجَّده وقدَّسه ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ القوي الغالب على كل شيء ﴿ٱلۡأَوَّلُ﴾ السابق على جميع الموجودات ﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾ الباقي بعد فنائها ﴿يَلِجُ﴾ يدخل ﴿يَعۡرُجُ﴾ يصعد ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ بوجُوده ومصنوعَاته وآثاره ﴿وَٱلۡبَاطِنُ﴾ بكُنْه ذاته عن إدراك الأبصار له[1]

(١) (ش): فسر المؤلف اسم الله الظاهر والباطن تفسيرًا يخالف ما فسرهما به رسول الله ﷺ وقد ساق المؤلف =

﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ المثوبة الحسنة والمراد بها الجنة ﴿ٱنظُرُونَا﴾ انتظرونا ﴿نَقْتَبِسْ﴾ نستضيء ونهتد بنوركم ﴿سُورٍ﴾ حاجز بين الجنة والنار ﴿ٱلْغَرُورِ﴾ الشيطان وكل من خدع غيره فهو غارٌّ وغَرُور.

التفسِير: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مجَّد اللهَ ونزَّهه عن السوء كلُّ ما في الكون من إِنسان، وحيوان، ونبات قال الصاوي: والتسبيحُ تنزيهُ المولى عن كل ما لا يليق به قولًا، وفعلًا، واعتقادًا، من سبح في الأرض والماءِ إِذا ذهب وأبعد فيهما، وتسبيحُ العقلاء بلسان المقال، وتسبيح الجماد بلسان الحال، أي إِن ذاتها دالة على تنزيه صانعها عن كل نقص، وقيل بلسان المقال أيضًا ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤][1] وقال الخازن: تسبيحُ العقلاء تنزيهُ الله عَزَّ وَجَلَّ عن كل سوء، وعما لا يليق بجلاله، وتسبيحُ غير العقلاء من ناطق وجماد اختلفوا فيه، فقيل: تسبيحه دلالته على صانعه، فكأنه ناطق بتسبيحه، وقيل: تسبيحه بالقول يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] أي قولهم، والحقُّ أن التسبيح هو القولُ الذي لا يصدر إِلا من العاقل العارف بالله تعالى[2]، وما سوى العاقل ففي تسبيحه وجهان: **أحدهما**: أنها تدل على تعظيمه وتنزيهه **والثاني**: أن جميع الموجودات بأسرها منقادةٌ له يتصرف فيها كيف يشاء[3]، فإِن حملْنا التسبيح على القول كان المراد بقوله ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الملائكةُ والمؤمنون العارفون بالله، وإِن حملنا التسبيح على التسبيح المعنوي، فجميع أجزاء السموات وما فيها من شمس، وقمر، ونجوم وغير ذلك وجميع ذرات الأرضين وما فيها من جبالٍ، وبحار، وشجر، ودواب وغير ذلك كلها مسبحة خاشعة خاضعة لجلال عظمة الله، منقادةٌ له يتصرف فيها كيف يشاء، فإِن قيل: قد جاء في بعض فواتح السور ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ بلفظ الماضي، وفي بعضها ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ بلفظ المضارع فما المراد؟ قلت: فيه إِشارة إِلى كون جميع الأشياء مسبحًا لله أبدًا، غير مختص بوقت دون وقت، بل هي كانت مسبحة أبدًا في الماضي، وستكون مسبحة أبدًا في المستقبل[4] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي وهو الغالب على أمره الذي لا يمانعه ولا ينازعه شيء، الحكيمُ في أفعاله الذي لا

= تفسير الرسول ﷺ لهذين الاسمين الكريمين بما يُبطِل تفسيره هذا. قال ﷺ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). فقد فسر ﷺ الظهور بظهور ذاته وعلوها فوق مخلوقاته، وفسر البطون بقربه من عباده.

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٦٨.

(٢) (ش): هذا الترجيح خلاف ظاهر الآية ولا دليل عليه.

(٣) (ش): قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ والله قادر على أن يجعل للكائنات نطقًا يناسبها لا نفهمه نحن.

(٤) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٩.

يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.. ثم ذكر تعالى عظمته وقدرته فقال ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي هو جلّ وعلا المالك المتصرف في خلقه، يحيي من يشاء، ويُميت من يشاء قال القرطبي: يميتُ الأحياء في الدنيا، ويحيي الأموات للبعث والنشور[1] ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يُعجِزُه شيء في الأرض ولا في السماء، ولفظُ ﴿قَدِيرٌ﴾ مبالغة في القادر لأن «فعيل» من صيغ المبالغة ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ أي ليس لوجوده بداية، ولا لبقائه نهاية ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ أي الظاهرُ للعقول بالأدلة والبراهين الدالة على وجوده، الباطنُ الذي لا تدركه الأبصار، ولا تصلُ العقول إلى معرفة كنه ذاته[2] وفي الحديث «أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»[3] قال شيخ زاده: وقد فسَّر صاحب الكشاف «الباطن» بأنه غير المدرك بالحواسِ وهو تفسير بحسب التشهي يؤيد مذهبه من استحالة رؤية الله في الآخرة، والحقُّ أنه تعالى ظاهرٌ بوجوده، باطنٌ بكنهه، وأنه تعالى جامعٌ بين الوصفين أزلًا وأبدًا[4] ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو تعالى عالمٌ بكل ذرةٍ في الكون، لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي خلقهما في مقدار ستة أيام ولو شاء لخلقهما بلمح البصر، وهو تحقيقٌ لعزته، وكمال قدرته، كما أن قوله ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تحقيق لحكمته، وكمال علمه ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواءً يليق بجلاله من غير تمثيلٍ ولا تكييفٍ[5]

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٣٦.

(٢) هذا أرجح الأقوال في تفسير «الظاهر والباطن» وقد اختاره «أبو السعود» والألوسي.

(ش): فسر المؤلف اسم الله الظاهر والباطن تفسيرًا يخالف ما فسرهما به رسول الله ﷺ وقد ساق المؤلف تفسير الرسول ﷺ لهذين الاسمين الكريمين بما يُبطِل تفسيره هذا. قال ﷺ: اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). فقد فسر ﷺ الظهور بظهور ذاته وعلوها فوق مخلوقاته، وفسر البطون بقربه من عباده.

(٣) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم وأحمد.

(٤) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٤٨.

(٥) انظر تفصيل معنى الاستواء في سورة الأعراف. (ش): فسر المؤلف الاستواء بالعلو في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٣] فقال: «أي علا فوق العرش علوًّا يليق بجلاله». وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]: «﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ الاستواء: العلوّ والاستقرار». وقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيلٍ ولا تحريف كما هو مذهب السلف وكما قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: الاستواء معلوم، والكَيْف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: أخبارُ الصفات تُمَرُّ كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل فلا يقال: كيف؟ ولِمَ؟ نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء، وكما شاء بلا حدٍّ ولا صفةٍ يبلغها واصف أو يحدها حادٌّ، نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونَكِلُ الكيفية في الصفات إلى علم الله عَزَّ وَجَلَّ وقال القرطبي: لم ينكر أحدٌ من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقةً وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تُعلم حقيقته.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي يعلم ما يدخل في الأرض من مطر وأموات، وما يخرج منها من معادن ونبات وغير ذلك ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي وما ينزل من السماء من الأرزاق، والملائكة، والرحمة، والعذاب، وما يصعد فيها من الملائكة والأعمال الصالحة كقوله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أي هو جل وعلا حاضرٌ مع كل أحدٍ بعلمه وإحاطته قال ابن عباس: هو عالمٌ بكم أينما كنتم قال ابن كثير: أي هو رقيبٌ عليكم، شهيدٌ على أعمالكم، حيث كنتم وأين كنتم، من برٍّ وبحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو القفار[1]، الجميع في علمه على السواء، يسمع كلامكم ويرى مكّانكم، ويعلم سرَّكم ونجواكم[2] ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي رقيب على أعمال العباد، مُطَّلع على كل صغيرة وكبيرة

---

(١) (ش): أقفر المكانُ: خلا من الماء والعُشْب والنّاس. قِفار: جمع قَفْر: خالٍ من الماء والعُشب والناس.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٤٥، قال في البحر: أجمعت الأمة على تأويل هذه الآية وأنها لا تُحمَل على ظاهرها من المعية بالذات ثم قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أي بالعلم والقدرة. اهـ. وقال القرطبي: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أي بقدرته وسلطانه وعلمه وقال البيضاوي: أي لا ينفك علمه وقدرته عنكم. وقال الألوسي: والآية تمثيل لإحاطة علم الله بهم، وتصوير لعدم خروجهم عنه أينما كانوا. اهـ. أقول: وهذه الأقوال عن السلف والخلف ترد على منع التأويل في كتاب الله تعالى مطلقًا إذ كيف يمكن أن نفهم قوله تعالى عن سفينة نوح: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾، وقوله لموسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾، وقوله عليه السلام: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض»!! (ش): تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ بالعلم ليس بتأويل ولكنه هو معنى آيات المعية عند أهل السنة والجماعة. كما حكى الإمام أبو عمر بن عبد البر وأبو عمر الطلمنكي إجماع أهل السنة على ذلك، وذلك لأن النصوص من الكتاب والسنة الدالة على علوه وفوقيته وتنزيهه سبحانه عن الحلول والاتحاد تقتضي ذلك، ومن تأمل الآيات الواردة في ذلك علم أنها تدل على أن المراد بالمعية العلم بأحوال عباده واطلاعه على شئونهم مع دلالة المعية الخاصة على كلاءته ورعايته وحفظه ونصره لأنبيائه وأوليائه. مع علمه واطلاعه على أحوالهم، والعرب الذين نزل عليهم الكتاب وجاءت السُنّة بلغتهم يعلمون ذلك ولا يشتبه عليهم، ولهذا لم يسألوا النبي ﷺ عن معاني هذه الآيات لظهورها لهم. أما النصوص الأخرى فلا تحتاج إلى تأويل لأن المعنى فيها ظاهر مثل قوله سبحانه: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ فلا يدور بخَلَد أحد أن السفينة تجري بعين الله ولا أن محمدا عليه الصلاة والسلام في عين الله وإنما المراد بذلك أن السفينة تجري برعاية الله وعنايته وتسخيره لها وحفظه لها، وأن محمدًا ﷺ تحت رعاية مولاه وعنايته وحفظه وكلاءته، وهكذا قوله في حق موسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ أي تحت رعايتي وحفظي. وأما قوله سبحانه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ فقد فسره جماعة بقرب الملائكة لأن قربهم من العبد حين يتلقى المتلقيان وحين الموت كان بأمره سبحانه وتقديره ورعايته لعباده، وفسره آخرون بأنه قربه سبحانه بعلمه وقدرته وإحاطته بعباده كالمعية وكقربه من عابديه وسائليه مع علوه وفوقيته سبحانه وليس المراد الحلول ولا الاتحاد، تعالى الله عن ذلك وتقدس لأن الأدلة القطعية من الكتاب والسنة تدل على أنه سبحانه فوق العرش بائن من خلقه عالٍ عليهم وعِلْمُه في كل مكان. فمن تدبر النصوص من الكتاب والسنة وفسر بعضها ببعض اتضح له المعنى ولم يحتج إلى التأويل، وقد اختار أبو جعفر بن جرير – رحمه الله – في تفسيره القول الثاني في سورة (ق) والقول الأول في سورة الواقعة. وأما حديث (الحجر الأسود يمين الله في الأرض) فهو حديث قال الألباني عنه: إنه موضوع. وقد أنكر أهل السنة على من تأول نصوص الصفات وبدَّعوه لما يترتب على تأويلها من أنواع الباطل وتحريف الكلم عن مواضعه وتجريد الرب سبحانه من صفات الكمال وسوء الظن به، وأنه خاطب عباده بما ظاهره تشبيه وتمثيل وأن المراد غيره. وهذا هو التأويل المذموم وهذا =

﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ كرره للتأكيد والتمهيد لإثبات الحشر والنشر أي هو المعبود على الحقيقة[١]، المتصرف في الخلق كيف يشاء ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أي إليه وحده مرجع أمور الخلائق في الآخرة فيجازيهم على أعمالهم ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ أي هو المتصرف في الكون كيف يشاء، يقلِّب الليل والنهار بحكمته وتقديره، ويُدْخِل كلًّا منهما في الآخر، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وأُخرى بالعكس ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي هو العالم بالسرائر والضمائر، وما فيها من النوايا والخفايا، ومن كانت هذه صفته فلا يجوز أن يُعبد سواه ثم لما ذكر دلائل عظمته وقدرته، أمر بتوحيده وطاعته فقال ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أي صدِّقوا بأن الله واحد[٢] وأن محمدًا عبده ورسوله ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ أي وتصدّقوا من الأموال التي جعلكم الله خلفاء في التصرف فيها، فهي في الحقيقة لله لا لكم قال في التسهيل: يعني أن الأموال التي بأيديكم إنما هي أموال الله لأنه خلقها، ولكنه مَتَّعكم بها وجعلكم خلفاء بالتصرف فيها، فأنتم فيها بمنزلة الوكلاء فلا تمنعوها من الإنفاق فيما أمركم مالكها أن تنفقوها فيه[٣]، والمقصود التحريضُ على الإنفاق والتزهيد في الدنيا ولهذا قال بعده: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ أي فالذين جمعوا بين الإيمان الصادق والإنفاق في سبيل الله[٤] ابتغاء وجهه الكريم لهم أجر عظيم وهو الجنة قال أبو السعود: وفي الآية من المبالغات ما لا يخفى، حيث جعل الجملة اسمية ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ وأعيد ذكرُ الإيمان والإنفاق ﴿ ءَامَنُوا۟ وَأَنفَقُوا۟ ﴾ وكرر الإسناد ﴿ لَهُمْ ﴾ وفَخَّم الأجر بالتنكير ووصفه بالكبير ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ استفهام للإنكار والتوبيخ أي أيُّ عذرٍ لكم في ترك الإيمان بالله؟ ﴿ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ﴾ أي والحالُ أن الرسول ﷺ يدعوكم للإيمان بربكم وخالقكم،

= هو الذي سلكه أهل الكلام وأنكره عليهم أهل السنة وضلَّلوهم في ذلك، لكَوْنهم أوَّلوا النصوص عن ظاهرها وصرفوها عن الحق الذي دلت عليه بلا حجة ولا برهان من كتاب ولا سنة، بل بمقتضى عقولهم وآرائهم التي لم يُنزل الله بها مِن حجة ولا قام عليها برهان. وقد ألزموهم فيما أثبتوا نظير ما فروا منه فيما تأولوه وهو لازم لهم بلا شك. ولا يسلم من التناقض واللوازم الباطلة إلا من أثبت ما أثبته الله ورسوله ونفى ما نفاه الله ورسوله وهم أهل السنة والجماعة، والله المستعان.

(١) (ش): في الواقع معبوداتٌ كثيرة بالباطل، فالصواب أن يقال: «هو الذي يجب أن يُعبَدَ على الحقيقة». وسيأتي بعد قليل قول المؤلف عن الله: «ومن كانت هذه صفته فلا يجوز أن يُعبَد سواه».

(٢) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٩٥ وقيل المعنى: مما جعلكم خلفاء عمن كان قبلكم فيما كان بأيديهم فانتقل لكم بالإرث وسيخلفكم فيه من بعدكم، والأول أظهر.

(٤) (ش): هذا التعبير يعطي التفريق بين الإيمان والعمل، وأنه يمكن أن يكون إيمان صادق بدون عمل، والصواب: أن العمل جزء من الإيمان فلا يكون إيمان بدون عمل، وعطْفُ العمل على الإيمان من عطْف الخاص على العام اهتمامًا به.

بالبراهين القاطعة، والحجج الدامغة ﴿وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾ أي وقد أخذ الله ميثاقكم وهو العهد المؤكد بما رُكِز في العقول من الأدلة الدالة على وجود الله[١] قال أبو السعود: وذلك بنصب الأدلة والتمكين من النظر[٢] وقال الخازن: أخذ ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر آدم وأعلمكم بأن الله ربكم لا إله لكم سواه، وقيل: أخذ ميثاقكم حيث ركب فيكم العقول، ونصب لكم الأدلة والبراهين والحجج التي تدعو إلى متابعة الرسول[٣] ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ شرطٌ حذف جوابه أي إن كنتم مؤمنين في وقت من الأوقات فالآن أحرى الأوقات لقيام الحجج والبراهين عليكم.. ثم ذكر تعالى بعض الأدلة الدالة على وجوب الإيمان فقال ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ أي هو تعالى الذي ينزّل على محمد القرآن العظيم، المُعْجز في بيانه، الواضح في أحكامه قال القرطبي: يريد بالآيات البينات القرآن -وقيل: المعجزات- أي لزمكم الإيمان بمحمد ﷺ لما معه من المعجزات، والقرآنُ أكبرها وأعظمها[٤] ﴿لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ أي ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ أي مبالغ في الرأفة والرحمة بكم، حيث أنزل الكتب وأرسل الرسل لهدايتكم، ولم يقتصر على ما نصب لكم من الحجج العقلية ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؟ أيْ أيُّ شيءٍ يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله، وفيما يقربكم من ربكم، وأنتم تموتون وتخلّفون أموالكم وهي صائرة إلى الله تعالى؟ قال الإمام الفخر: المعنى: إنكم ستموتون فتورَثُون، فهلَّا قدمتموه في الإنفاق في طاعة الله[٥]!! وهذا من أبلغ الحث على الإنفاق في سبيل الله ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ﴾ أي لا يستوي في الفضل من أنفق ماله وقاتل الأعداء مع رسول الله قبل فتح مكة، مع من أنفق ماله وقاتل بعد فتح مكة قال المفسرون: وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم، لأن حاجة الإسلام إلى الجهاد والإنفاق كانت أشد، ثم أعز الله الإسلام بعد الفتح وكثَّر ناصريه، ودخل الناس في دين الله أفواجًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ أي أعظم أجرًا، وأرفع منزلة من الذين أنفقوا من بعد فتح مكة وقاتلوا لإعلاء كلمة

---

(١) (ش): في هذا التعبير نظر، والأولَى أن يقال: بما رُكِز في العقول من معرفة الله بالأدلة. وليس المقصود من الأدلة مجرد معرفة وجود الله فقط، لأن لفظ الوجود ليس فيه مدح لأنه يشترك فيه كل موجود، وإنما المقصود من الأدلة معرفة استحقاقه للعبادة وحده.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٣٧.

(٣) ««تفسير الخازن»» ٤/ ٣١. (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ١١): «وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ [الْمَائِدَة:٧]. وَيَعْنِي بِذَلِكَ: بَيْعَةَ الرَّسُولِ ﷺ. وَزَعَمَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ الْمِيثَاقُ الَّذِي أُخِذَ عَلَيْهِمْ فِي صُلْبِ آدَمَ، وَهُوَ مَذْهَبُ مُجَاهِدٍ، فَاللهُ أَعْلَمُ».

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٣٩.

(٥) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢١٨.

الله قال الكلبي: نزلت في «أبي بكر» لأنه أول من أسلم، وأول من أنفق ماله في سبيل الله، وذبَّ عن رسول الله ﷺ[١] ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي وكلاً ممن آمن وأنفق قبل الفتح، ومن آمن وأنفق بعد الفتح، وعده الله الجنة مع تفاوت الدرجات ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي عالمٌ بأعمالكم، مُطَّلعٌ على خفاياكم ونواياكم، ومجازيكم عليه، وفي الآية وعدٌ ووعيد ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي من ذا الذي ينفق ماله في سبيل الله ابتغاء رضوانه ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ أي يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفًا ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي وله مع المضاعفة ثواب عظيم كريم وهو الجنة قال ابن كثير: أي جزاء جميل ورزق باهر وهو الجنة، ولما نزلت هذه الآية قال «أبو الدحداح الأنصاري»: يا رسول الله، وإنَّ الله ليريد منا القرض؟ قال: «نعم يا أبا الدحداح»، قال: أرني يدك يا رسول الله، فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي -أي بستاني- وله فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه هي وعيالها، فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح قالت: لبيك، قال اخرجي فقد أقرضته ربي عَزَّ وَجَلَّ، فقالت: «ربح بيعك يا أبا الدحداح ونقلت منه متاعها وصبيانها[٢]. ثم أخبر تعالى عن المؤمنين الأبرار، وما يتقدمهم من الأنوار وهم على الصراط فقال ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ أي اذكر يوم ترى أنوار المؤمنين والمؤمنات تتلألأ من أمامهم ومن جميع جهاتهم ليستضيئوا بها على الصراط، وتكون وجوههم مضيئة كإضاءة القمر في سواد الليل ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي ويقال لهم: أبشروا اليوم بجنات الخلد والنعيم، التي تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبدًا ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي الفوز الذي لا فوز بعده لأنه سبب السعادة الأبدية، رُوِيَ أن نور كل أحدٍ على قدر إيمانه، وأنهم متفاوتون في النور، فمنهم من يضيء نوره ما قرب من قدميه، ومنهم من يُطفأ نوره مرة ويظهر مرة[٣] قال الزمخشري: وإنما قال ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٣٢. (ش): ذكره الخازن بدون إسناد. والكلبي محمد بن السائب مُتهَم بالكذب، أضف إلى ذلك الانقطاع بينه وبين النبي ﷺ فالكلبي من الذين عاصروا صغار التابعين وقد توفي عام ١٤٦ هـ.

(٢) تفسير ابن كثير المختصر ٣/ ٤٤٨. (ش): ضعَّفه البوصيري والألباني. عَنْ أَنَس، أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّ لِفُلَانٍ نَخْلَةً، وَأَنَا أُقِيمُ حَائِطِي بِهَا، فَأْمُرْهُ أَنْ يُعْطِيَنِي حَتَّى أُقِيمَ حَائِطِي بِهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعْطِهَا إِيَّاهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ فَأَبَى، فَأَتَاهُ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَقَالَ: بِعْنِي نَخْلَتَكَ بِحَائِطِي. فَفَعَلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدِ ابْتَعْتُ النَّخْلَةَ بِحَائِطِي. قَالَ: «فَاجْعَلْهَا لَهُ، فَقَدْ أَعْطَيْتُكَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَمْ مِنْ عَذْقٍ رَدَاحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ» قَالَهَا مِرَارًا. قَالَ: فَأَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ اخْرُجِي مِنَ الْحَائِطِ، فَإِنِّي قَدْ بِعْتُهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ. فَقَالَتْ: رَبِحَ الْبَيْعُ. أَوْ كَلِمَةً تُشْبِهُهَا. (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ والحاكم وصححه، والألباني).
«عذق» قيل: بالكسر الغصن، وبالفتح النخلة أو الحائط، والظاهر أن المراد ها هنا النخلة. «رداح»: ثقيل لكثرة ما فيه من الثمار.

(٣) (ش): رواه ابن جرير الطبري في « تفسيره» بإسناد ضعيف.

الجهتين، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم[١] . . ولما شرح حال المؤمنين يوم القيامة، أتبع ذلك بشرح حال المنافقين فقال ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ أي انتظرونا لنستضيء من نوركم قال المفسرون: إن الله تعالى يعطي المؤمنين نورًا يوم القيامة على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط، ويترك الكافرين والمنافقين بلا نور، فيستضيء المنافقون بنور المؤمنين، فبينما هم يمشون إِذ بعث الله فيهم ريحًا وظلمة، فبقوا في الظلمة لا يبصرون مواضع أقدامهم فيقولون للمؤمنين:انتظرونا لنستضيء بنوركم ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ أي فيقول لهم المؤمنون سخريةً واستهزاءً بهم: ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا هذه الأنوار هناك قال أبو حيان: وقد علموا أن لا نور وراءهم، وإنما هو إِقناطٌ لهم[٢] ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ أي فضرب بين المؤمنين والمنافقين بحاجزٍ له باب، يحجز بين أهل الجنة وأهل النار ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي في باطن السور الذي هو جهة المؤمنين الرحمةُ وهي الجنة، وفي ظاهره وهو جهة الكافرين العذاب وهو النارُ قال ابن كثير: هو سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإِذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإِذا استكملوا دخولهم أغلق الباب، وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب[٣] ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين: ألم نكن معكم في الدنيا، نصلي كما تصلون، ونصوم كما تصومون، ونحضر الجمعة والجماعات، ونقاتل معكم في الغزوات؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي قال لهم المؤمنون: نعم كنتم معنا في الظاهر ولكنكم أهلكتم أنفسكم بالنفاق ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ انتظرتم بالمؤمنين الدوائر ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أي شَككْتم في أمر الدين ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ أي خدعَتْكم الأمانيُّ الفارغة بسعة رحمة الله ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي حتى جاءكم الموتُ ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي وخدعكم الشيطان الماكر بقوله: إن الله عفو كريم لا يعذبكم قال قتادة: ما زالوا على خُدعةٍ من الشيطان حتى قذفهم الله في نار جهنم[٤] قال المفسرون: الغرور بفتح الغين الشيطان؛ لأنه يغر ويخدع الإِنسان قال تعالى ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٥٦] ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ففي هذا اليوم العصيب لا يقبل منكم بدلٌ ولا عوضٌ يا معشر المنافقين، ولا من الكافرين الجاحدين بالله وآيات. وفي الحديث «إِنَّ اللهَ يَقُولُ لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِى الأَرْضِ مِنْ شَىْءٍ كُنْتَ تَفْتَدِى بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِى صُلْبِ آدَمَ أَنْ لاَ

---

(١) «تفسير الكشاف» ٤/ ٣٤٢.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٢٢١. (ش): أقنط الشَّخْصَ إقناطًا: جعله يَيْأَس.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٥٠.

(٤) ««تفسير الخازن»» ٤/ ٣٤.

تُشْرِكَ بِي. فَأَبَيْتَ إِلاَّ الشِّرْكَ»(١) ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي مقامكم ومنزلكم نار جهنم ﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي هو عونكم وسندكم وناصركم لا ناصر لكم غيرها، وهو تهكم بهم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وبئس المرجع والمنقلب نار جهنم. قال بعض العلماء: «السَّعِيدُ مَنْ لَا يَغْتَرُّ بِالطَّمَعِ، وَلَا يَرْكَنُ إِلَى الْخُدَعِ، وَمَنْ أَطَالَ الْأَمَلَ نَسِيَ الْعَمَلَ، وَغَفَلَ عَنِ الْأَجَلِ»(٢).

قال الله تعالى:

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ

المناسَبَة: لما ذكر تعالى اغترار المنافقين والكافرين بالحياة الدنيا، نبَّه المؤمنين ألا يكونوا مثلهم، أو مثل أهل الكتاب بالاغترار بدار الفناء، ثم ضرب مثلًا للحياة الدنيا وبهرجها الخادع

---

(١) «تفسير الألوسي» ٢٧/ ١٨٧، والحديث في الصحاح. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٤٧.

الكاذب[١]، وختم السورة الكريمة ببيان فضيلة التقوى والعمل الصالح، وأرشد المؤمنين إلى مضاعفة الأجر والنور باتباعهم هدي الرسول ﷺ.

اللغَة: ﴿يَأْنِ﴾ يحن يقال: أَنَي يأْنِي مثل رمَى يرمِي أي حانَ، قال الشاعر:

أَلَمْ يَأْنِ لِي يَا قَلْبُ أَنْ أَتْرُكَ الْجَهْلَا … وَأَنْ يُحْدِثَ الشَّيْبُ الْمُبِينُ لَنَا عَقْلَا[٢]

﴿تَخْشَعَ﴾ تذل وتلين ﴿ٱلْأَمَدُ﴾ الأجل أو الزمان ﴿يَهِيجُ﴾ هاج الزرع إذا جف ويبس بعد خضرته ونضارته ﴿حُطَٰمًا﴾ فُتاتًا يتلاشى بالرياح ﴿قَفَّيْنَا﴾ ألحقنا وأتبعنا ﴿كِفْلَيْنِ﴾ مثنى كفل وهو النصيب.

سَببُ النّزول: لما قدم المؤمنون المدينة، أصابوا من لين العيش ورفاهيته، ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا ونزلت هذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٣] قال ابن مسعود: « مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللهُ بِهَذِهِ الآيَةِ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلاَّ أَرْبَعُ سِنِينَ »[٤].

التفسِير: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي أما حان للمؤمنين أن ترقَّ قلوبهم وتلين لمواعظ الله؟ ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي ولما نزل من آيات القرآن المبين؟ ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ أي ولا يكونوا كاليهود والنصارى الذين أعطاهم الله التوراة والإنجيل ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي فطال عليهم الزمن الذي بينهم وبين أنبيائهم، حتى صلُبَتْ قلوبُهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة قال ابن عباس: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ القرآن وقال أبو حيان: أي صلُبَت بحيث لا تنفعل للخير والطاعة[٥] والغرض أن الله يحذِّر المؤمنين أن يكونوا مع القرآن كاليهود والنصارى حين قست قلوبهم لما طال عليهم الزمان ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي وكثير من أهل الكتاب خارجون عن طاعة الله، رافضون لتعليم دينهم، من فرط قسوة القلب قال ابن كثير: نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حُمِّلُوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الزمن بدَّلوا كتاب الله الذي بأيديهم، ونبذوه وراء ظهورهم، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوَعْدٍ ولا وَعيد[٦] ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي اعلموا يا معشر المؤمنين أن الله يُحيِي الأرض القاحلة المجدبة[٧]

---

(١) (ش): بَهْرَج: باطل.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٤٨.

(٣) (ش): ضعيف، أخرجه عبد الله بن المبارك في «الزهد» وعبد الرزاق في «تفسيره».

(٤) أخرجه مسلم.

(٥) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٢٣. (ش): انفعل بأمرٍ: تأثَّر به؛ أثار الأمرُ مشاعرَه أو عواطفه.

(٦) «تفسير مختصر ابن كثير» ٣/ ٤٥١.

(٧) (ش): قحَلتِ الأرضُ: يَبِسَت. جدِبت/ جدَبت/ جدُبت الأرضُ: يبِسَتْ لاحتباس الماء عنها.

بالمطر، ويخرج منها النبات بعد يُبْسِها، وهو تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر وتلاوة القرآن، كما تحيا الأرض المجدبة بالغيث الهَتَّان[١] قال ابن عباس: يلين القلوب بعد قسوتها فيجعلها مخبتةً منيبة، وكذلك يحيي القلوب الميتة بالعلم والحكمة[٢] قال في البحر: ويظهر أنه تمثيلٌ لتليين القلوب بعد قسوتها، ولتأثير ذكر الله فيها، فكما يؤثر الغيث في الأرض فتعود بعد إجدابها مُخصِبةً[٣]، كذلك تعود القلوب النافرة مقبلةً يظهر فيها أثر الخشوع والطاعات[٤] ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ أي وضَّحْنا لكم الحُجَج والبراهين الدالة على كمال قدرتنا ووحدانيتنا ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لكي تعقلوا وتتدبروا ما أنزل الله في القرآن ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي الذين تصدقوا بأموالهم على الفقراء ابتغاء وجه الله، والذين أنفقوا في سبيل الله وفي وجوه البر والإحسان طيِّبةً بها نفوسُهم ﴿يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي يضاعَف لهم ثوابهم بأن تكتب الحسنة بعشر أمثالها، ولهم فوق ذلك ثواب حسن جزيل وهو الجنة -قال المفسرون: أصل ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ المتصدقين أدغمت التاء في الصاد فصارت المصدّقين- ومعنى القرض الحسن هو التصدق عن طيب النفس، وخلوص النية للفقير، فكأن الإنسان بإحسانه إلى الفقير قد أقرض اللهَ قرضًا يستحق عليه الوفاء في دار الجزاء ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ أي صدَّقوا بوحدانية الله ووجوده، وآمنوا برسله إيمانًا راسخًا كاملًا، لا يخالجه شك ولا ارتياب ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي أولئك الموصوفون بالإيمان بالله ورسله، هم الذين جمعوا أعلى المراتب فحازوا درجة الصديقية والشهادة في سبيل الله قال مجاهد: كل من آمن بالله ورسله فهو صدِّيقٌ وشهيد[٥] ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي لهم في الآخرة الثواب الجزيل، والنور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي والذين جحدوا بوحدانية الله وكذبوا بآياته أولئك هم المخلدون في دار الجحيم قال البيضاوي: فيه دليل على أن الخلود في النار مخصوص بالكفار، من حيث إن الصيغة تُشعِر بالاختصاص ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ والصحبة تدل على الملازمة[٦]. ولما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين، ذكر بعده ما يدل على حقارة الدنيا وكمال حال الآخرة فقال ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ أي اعلموا يا معشر السامعين أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا لعبٌ يُتعب الناس فيها أنفسهم كإتعاب الصبيان

---

(١) (ش): هَتَنتِ السَّماءُ: تتابعت أمطارُها وانصبّت.
(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٣٥.
(٣) (ش): مُخصِبةً:كثر فيها العشبُ والكلأُ والخيرُ.
(٤) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٢٣.
(٥) «التفسير الكبير للرازي» ٢٩/ ٢٣٢.
(٦) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٤٥٣.

أنفسهم باللعب ﴿وَلَهْوٌ﴾ أي وشغل للإنسان يشغله عن الآخرة وطاعة الله ﴿وَزِينَةٌ﴾ أي وزينة يتزين بها الجهلاء كالملابس الحسنة، والمراكب البهية، والمنازل الرفيعة ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ أي ومباهاة وافتخار بالأحساب والأنساب والمال والولد كما قال القائل:

أَرَى أَهْلَ الْقُصُورِ إِذَا أُمِيتُوا ... بَنَوْا فَوْقَ الْمَقَابِرِ بِالصُّخُورِ
أَبَوْا إِلَّا مُبَاهَاةً وَفَخْرًا ... عَلَى الْفُقَرَاءِ حَتَّى فِي الْقُبُورِ[1]

﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي مباهاة بكثرة الأموال والأولاد قال ابن عباس: يجمع المال من سخط الله، ويتباهى به على أولياء الله، ويصرفه في مساخط الله، فهو ظلماتٌ بعضها فوق بعض[2] ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ أي كمثل مطرٍ غزير أصاب أرضًا، فأعجب الزُرَّاع نباتُه الناشئ عنه ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ أي ثم ييبس بعد خضرته ونُضرته فتراه مصفر اللون بعد أن كان زاهيًا ناضرًا ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ أي ثم يتحطم ويتكسر بعد يبسه وجفافه فيصبح هشيمًا تذروه الرياح كذلك حال الدنيا قال القرطبي: والمراد بالكفار هنا الزُرَّاع لأنهم يُغطُّون البذر، ومعنى الآية أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشيمًا كأن لم يكن، وإذا أعجب الزراع فهو في غاية الحسن[3] ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أي والجزاء في الآخرة إما عذاب شديد للفجار، وإما مغفرة من الله ورضوانٌ للأبرار ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أي وليست الحياة الدنيا في حقارتها وسرعة انقضائها إلا متاعٌ زائل، ينخدع بها الغافل، ويغتر بها الجاهل قال سعيد بن جبير: الدنيا متاع الغُرور إنْ ألْهَتْك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعَتْك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة، فنعم المتاع ونعم الوسيلة[4]. ولما حقَّر الدنيا وصغَّر أمرها، وعظَّم الآخرة وفخَّم شأنها، حثَّ على المسارعة إلى نيل مرضاة الله، التي هي سبب للسعادة الأبدية في دار الخلود والجزاء فقال ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي تسابَقُوا أيها الناس وسارِعوا بالأعمال الصالحة التي تُوجِبُ المغفرة لكم من ربكم قال أبو حيان: وجاء التعبير بلفظ ﴿سَابِقُوا﴾ كأنهم في ميدان سباق يجْرُون إلى غايةٍ مُسابقين إليها، والمعنى: سابقوا إلى سبب المغفرة وهو الإيمانُ، وعملُ الطاعات[5] ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وسارعوا إلى جنةٍ واسعة فسيحة، عرضها كعرض السموات السبع من الأرض مجتمعة قال السدي: إن الله تعالى شَبَّه عرض الجنة بعرض السموات السبع والأرضين السبع، ولا شك أن طولها أزيد

---

(١) كنت سمعت هذين البيتين من شيخنا الجليل فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة عالم الشهباء أمدَّ الله في عمره.
(٢) «التفسير الكبير للرازي» ٢٩/ ٢٣٣.
(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٥٥.
(٤) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢٣٤.
(٥) «البحر المحيط» ٨/ ٢٢٥.

من عرضها، فذكر العرض تنبيهًا على أن طولها أضعاف ذلك[١] وقال البيضاوي: إذا كان العرض كذلك فما ظنك بالطول[٢]، ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي هيَّأها الله وأعدَّها للمؤمنين المصدِّقين بالله ورسله قال المفسرون: وفي الآية دلالة على أن الجنة مخلوقة وموجودة لأن ما لم يُخلق بعد لا يوصف بأنه أُعدَّ وهُيِّئ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي ذلك الموعود به من المغفرة والجنة هو عطاء الله الواسع، يتفضل به على من يشاء من عباده من غير إيجاب ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي ذو العطاء الواسع والإحسان الجليل ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ما يحدث في الأرض مصيبةً من المصائب كقحطٍ، وزلزلةٍ، وعاهة في الزروع، ونقصٍ في الثمار ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي من الأمراض، والأوصاب[٣]، والفقر، وذهاب الأولاد ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي إلاَّ وهي مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن نخلُقَها ونُوجِدَها قال في التسهيل: المعنى أن الأمور كلها مقدَّرة في الأزل، مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن تكون، وفي الحديث « كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ – قَالَ – وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»[٤] ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي إن إثبات ذلك على كثرته سهلٌ هيّنٌ على الله عَزَّ وَجَلَّ وإن كان عسيرًا على العباد.. ثم بيَّن تعالى لنا الحكمة في إعلامنا عن كون هذه الأشياء واقعة بالقضاء والقدر فقال ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي أثبت وكتب ذلك كي لا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي ولكي لا تبطروا بما أعطاكم الله من زهرة الدنيا ونعيمها قال المفسرون: والمراد بالحزن الحزنُ الذي يوجب القنوط، وبالفرح الفرحُ الذي يورث الأشر والبطر، ولهذا قال ابن عباس: «ليس من أحدٍ إلا وهو يحزن ويفرح، ولكنَّ المؤمن يجعل مصيبته صبرًا، وغنيمته شكرًا»[٥] ومعنى الآية: لا تحزنوا حزنًا يخرجكم إلى أن تُهلِكوا أنفسكم، ولا تفرحوا فرحًا شديدًا يطغيكم حتى تأشروا فيه وتبطروا، ولهذا قال بعض العارفين: «من عرف سرَّ الله في القدر هانت عليه المصائب»[٦] وقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه: «ما أصابتني مصيبة إلا وجدت فيها ثلاث نعم: **الأولى**: أنها لم تكن في ديني، **الثانية**: أنها لم تكن أعظم مما كانت، الثالثة: أن الله يعطي عليها الثواب العظيم والأجر الكبير». ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ

(١) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢٣٤.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٩٩.

(٣) (ش): وَصَب: تعبٌ وفتور في البدن.

(٤) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٤٥٤. (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٥٨.

(٦) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢٣٩.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧] ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ أي لا يحب كل متكبِّرٍ مُعجَبٍ بما أعطاه الله من حظوظ الدنيا، فخور به على الناس.. ثم بيَّن تعالى أوصاف هؤلاء المذمومين فقال ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ أي يبخلون بالإنفاق في سبيل الله، ولا يكفيهم ذلك حتى يأمروا الناس بالبخل ويُرَغِّبُوهم في الإمساك ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي ومن يعرض عن الإنفاق ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ أي فإن الله مُسْتَغْنٍ عنه وعن إنفاقه، محمودٌ في ذاته وصفاته، لا يضُرُّه الإعراض عن شكره، ولا تنفعه طاعة الطائعين، وفيه وعيدٌ وتهديدٌ ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ اللام مُوَطِّئَةٌ لِقَسَم مَحذوف[1] أي والله لقد بعثنا رسلنا بالحجج القواطع والمعجزات البينات ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ أي وأنزلنا معهم الكتب السماوية التي فيها سعادة البشرية، وأنزلنا القانون الذي يُحكَم به بين الناس[2]، وفسَّر بعضهم الميزان بأنه العدلُ وقال ابن زيد: وهو ما يُوزن به ويُتعامل ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي ليقوم الناس بالحق والعدل في معاملاتهم ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ أي وخلقنا وأوجدنا الحديد فيه بأس شديد، لأن آلات الحرب تُتخذ منه، كالدروع، والرماح، والتروس، والدبابات وغاير ذلك ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي وفيه منافع كثيرة للناس كسِكَك الحراثة[3]، والسكِّين، والفأس وغير ذلك وما من صناعةٍ إلا والحديدُ آلةٌ فيها قال أبو حيان: وعبَّر تعالى عن إيجاده بالإنزال كما قال ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ [الزمر: ٦] لأن الأوامر وجميع القضايا والأحكام لما كانت تُلقى من السماء جعل الكل نزولًا منها، وأراد بالحديد جنسه من المعادن قاله الجمهور[4] ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ عطفٌ على محذوف مقدر، أي: وأنزلنا الحديد ليقاتل به المؤمنون أعداءهم ويجاهدوا لإعلاء كلمة الله، وليعلم الله من ينصر دينه ورسله باستعمال السيوف والرماح وسائر الأسلحة مؤمنًا بالغيب قال ابن عباس: ينصُرونه ولا يُبصِرونه[5]، ثم قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ أي قادر على الانتقام من أعدائه بنفسه، عزيزٌ، أي: غالب لا يُغالَب، فهو غني بقدرته وعزته عن كل أحد قال البيضاوي: أي قوي على إهلاك مَن أراد إهلاكه، عزيزٌ لا يفتقر إلى نُصرة أحد، وإنما أمرهم بالجهاد لينتفعوا به ويستوجبوا الثواب[6] وقال ابن كثير: معنى الآية أنه جعل الحديد رادعًا لمن أبى الحقَّ وعانده بعد قيام الحجة عليه، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة

---

(١) (ش): أي مُمَهِّدةٌ له؛ لأنها التي تُهَيِّئ الذهن لمعْرفَته.

(٢) (ش): أي القرآن والسنة فهما يجب أن يكونا مصدر القوانين.

(٣) (ش): سِكّة الحراثة: حديدة المحراث التي تشقّ الأرض.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٢٢٦.

(٥) «تفسير الجلالين» ٤/ ١٧٦. (ش): أي ينصرون الله وهم لا يرونه.

(٦) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٤٥٦.

تُوحى إليه السور، ويقارعهم بالحجة والبرهان، فلما قامت الحجة على من خالف أمر الله، شرع الله الهجرة وأمر المؤمنين بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب، ولهذا قال عليه السلام: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[1] ثم قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي هو قوي عزيز ينصر من شاء من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليَبْلُوَ بعضهم ببعض[2] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ لما ذكر بعثة الرسل ذكر هنا شيخ الأنبياء نوحًا عليه السلام، وأبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام وبيَّن أنه جعل في نسلهما النبوة والكتب السماوية، أي: وبالله لقد أرسلنا نوحًا وإبراهيم وجعلنا النبوة في نسلهما، كما أنزلنا الكتب الأربعة وهي «التوراة والزبور والإنجيل والقرآن» على ذريتهما، وإنما خصَّ نوحًا وإبراهيم بالذكر تشريفًا لهما وتخليدًا لمآثرهما الحميدة ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي فمن ذرية نوح وإبراهيم أناس مهتدون، وكثيرٌ منهم عصاة خارجون عن الطاعة وعن الطريق المستقيم ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ أي ثم أتبعنا بعدهم برسلنا الكرام، أرسلناهم رسولًا بعد رسول، موسى، وإلياس، وداود، وسليمان، ويونس وغيرهم ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي وجعلناه بعد أولئك الرسل لأن كان آخر الأنبياء من بني إسرائيل ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ أي وأنزلنا عليه الإنجيل الذي فيه البشارة بمحمد ﷺ ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي وجعلنا في قلوب أتباعه الحواريين الشفقة واللين قال في التسهيل: هذا ثناء من الله عليهم بمحبة بعضهم في بعض كما وصف تعالى أصحاب سيدنا محمد ﷺ بأنهم ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[3] [الفتح: ٢٩] ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي ورهبانيةً ابتدعها القسسُ والرهبان وأحدثوها من تلقاء أنفسهم، ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها قال أبو حيان: والرهبانيةُ رفضُ النساء وشهوات الدنيا، واتخاذ الصوامع ومعنى ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي أحدثوها من عند أنفسهم[4] ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أي ما أمرناهم إلا بما يرضي الله -والاستثناء منقطع- والمعنى: ماكتبنا عليهم الرهبانية، ولكنهم فعلوها من تلقاء أنفسهم ابتغاء رضوان الله ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي فما قاموا بها حقَّ القيام، ولا حافظوا عليها كما ينبغي قال ابن كثير: وهذا ذمٌّ لهم من وجهين: **أحدهما**: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به اللهُ. **والثاني**: في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة تقربهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ[5]، وفي الحديث «لكل أمة رهبانية، ورهبانية أمتي

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود. (ش): صححه الألباني وأحمد شاكر.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٥٥.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٠٠.

(٤) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٢٨.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٥٦.

الجهاد في سبيل الله»[١] ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي فأعطينا الصالحين من أتباع عيسى الذين ثبتوا على العهد وآمنوا بمحمد ﷺ ثوابهم مضاعفًا ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ أي وكثير من النصارى خارجون عن حدود الطاعة منتهكون لمحارم الله كقوله تعالى ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ أي يا من صدقتم بالله[٢] اتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ودوموا واثبتوا على الإيمان ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي يعطكم ضعفين من رحمته ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ أي ويجعل لكم في الآخرة نورًا تمشون به على الصراط ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي ويغفر لكم ما أسلفتم من المعاصي ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي إنما بالغنا في هذا البيان ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على تخصيص فضل الله بهم، ولا يمكنهم حصر الرسالة والنبوة فيهم، فـ«لا» في قوله ﴿لِّئَلَّا﴾ زائدة والمعنى: ليعلم[٣]. قال المفسرون: إن أهل الكتاب كانوا يقولون الوحي والرسالة فينا، والكتابُ والشرع ليس إلا لنا، والله خصنا بهذه الفضيلة العظيمة من بين جميع العالمين، فردَّ الله عليهم بهذه الآية الكريمة ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي وأن أمر النبوة والهداية والإيمان بيد الرحمن يعطيه لمن يشاء من خلقه ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي والله واسع الفضل والإحسان.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ وبين ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ﴾ وبين ﴿وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾.

٢ - المقابلة بين ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ وبين ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾[الحديد: ٤].

٣ - رَدُّ العجُز على الصدر ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحديد: ٦] وهو وما

---

(١) أخرجه الإمام أحمد. (ش): إنما رواه الإمام أحمد بلفظ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ رَهْبَانِيَّةٌ، وَرَهْبَانِيَّةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ» وضعفه الألباني. واللفظ الذي ذكره المؤلف: «لِكُلِّ أُمَّةٍ رَهْبَانِيَّةٌ، وَرَهْبَانِيَّةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ» (رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى والطبراني وضعفه الألباني). وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فَقَالَ: أَوْصِنِي. فَقَالَ: سَأَلْتَ عَمَّا سَأَلْتُ عَنْهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ قَبْلِكَ، «أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ، فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ، فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الْإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللهِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ، وَذِكْرٌ لَكَ فِي الْأَرْضِ» (رَوَاهُ أَحْمَدُ، وحسنه الألباني). (رَهْبَانِيَّةُ الْإِسْلَامِ) أي: الانقطاع إليه تعالى في هذا الدين. (رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ): أي: سبب حياتك عند الله، قال تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]. (وَذِكْرٌ لَكَ): أي: شرفٌ لك. قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

(٢) (ش): تفسير الإيمان بالتصديق تفسيرٌ قاصر ومخالفٌ لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٣) (ش): أي «لا» صِلَة زَائِدَة مُؤَكِّدَة، أي توصل للمعنى الأساسي لتأكيده وتقويته.

سبقه من المحسنات البديعية[١].

٤ - حذف الإيجاز ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ [الحديد: ١٠] حذف منه جملة «ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل» وذلك لدلالة الكلام عليه ويسمى هذا الحذف بالإيجاز.

٥ - الاستعارة اللطيفة ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩] أي ليخرجكم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، فاستعار لفظ ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ للكفر والضلالة ولفظ ﴿النُّورِ﴾ للإيمان والهداية وقد تقدم.

٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١١] مثَّل لمن ينفق ماله ابتغاء وجه الله مخلصًا في عمله بمن يُقرض ربه قرضًا واجب الوفاء بطريق الاستعارة التمثيلية.

٧ - الأسلوب التهكمي ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ [الحديد: ١٥] أي لا ولي لكم ولا ناصر إلا نار جهنم وهو تهكم بهم.

٨ - المقابلة اللطيفة بين قوله ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ وقوله ﴿وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد:١٣].

٩ - التشبيه التمثيلي ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ..﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

١٠ - الجناس الناقص ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف.

١١ - السجع المرصَّع كأنه الدر المنظوم ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وقوله تعالى ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] وهو كثير في القرآن.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحديد»



(١) (ش): رَدُّ العجُز على الصدر: أنْ يَجْعَلَ المتكلِّمُ أحَدَ اللّفْظَيْنِ المكرَّرَين أو المتجانسين، أو مَا هو مُلْحَقٌ بالمتجانِسَيْن في أوّل الفقْرَة، والآخر في آخِرها مثل ما يلي: (١) قول الله عزَّ وجلَّ خطابًا لرسوله ﷺ بشأن تزوجِّه من زينبَ مُطَلَّقة متبنَّاه زَيْد بن حارثة رضي الله عنه: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ...﴾ هذا مثال اللفظين والمكرّرَيْن. (٢) قول الله -عزَّ وجلَّ- في حكاية ما قال نوحٌ -عليه السلام- لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾. هذا مثال للّفظَيْن المتلاقِيَيْن في الاشتقاق. (٣) قول الله -عزَّ وجلَّ- حكاية لما قال لوطٌ -عليه السلام- لقومه: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾. هذا مثال للّفظَيْنِ المتلاقِيَيْنِ فيما يشبه الاشتقاق.



مدنية وآياتها ثنتان وعشرون

بين يدي السورة

* سورة المجادلة مدنية، وقد تناولت أحكامًا تشريعية كثيرة كأحكام الظهار، والكفارة التي تجب على المظاهر، وحكم التناجي، وآداب المجالس، وتقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ، وعدم مودة أعداء الله، إلى غير ذلك، كما تحدثت عن المنافقين وعن اليهود.

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان قصة المجادلة «خولة بنت ثعلبة» التي ظاهر منها زوجها - على عادة أهل الجاهلية في تحريم الزوجة بالظهار- وقد جاءت تلك المرأة رسول الله تشكو ظلم زوجها لها وقالت: يا رسول الله: «أكل مالي، وأفنى شبابي، ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني» ورسول الله ﷺ يقول لها: «ما أراك إلا قد حرمت عليه»، فكانت تجادله وتقول يا رسول الله: ما طلقني ولكنه ظاهر مني، فيرد عليها قوله السابق، ثم قالت: اللهم إني أشكو إليك، فاستجاب الله دعاءها وفرج كربتها وشكواها ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ . .﴾ [1] الآيات.

* ثم تناولت حكم كفارة الظهار ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ...﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن موضوع التناجي، وهو الكلام سرًّا بين اثنين فأكثر، وقد كان هذا من

---

(١) (ش): عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: «تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي، ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ﴾ [المجادلة: ١] «(رواه ابن ماجه، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني). نَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي: أكثَرْتُ له الأولاد، تريد أنها كانت شابة تلد الأولاد عنده. وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، قَالَ: كَانَتْ خَوْلَةُ ابْنَةُ ثَعْلَبَةَ تَحْتَ أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ، وَكَانَ رَجُلًا بِهِ لَمَمٌ، فَقَالَ فِي بَعْضِ هِجْرَاتِهِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي، ثُمَّ نَدِمَ عَلَى مَا قَالَ، فَقَالَ لَهَا: مَا أَظُنُّكِ إِلَّا قَدْ حَرُمْتِ عَلَيَّ. قَالَتْ: لَا تَقُلْ ذَلِكَ، فَوَاللهِ مَا أَحَبَّ اللهُ طَلَاقًا. قَالَتِ: ائْتِ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَسَلْهُ. فَقَالَ: إِنِّي أَجِدُنِي أَسْتَحِي مِنْهُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْ هَذَا، فَقَالَتْ: فَدَعْنِي أَنْ أَسْأَلَهُ، فَقَالَ لَهَا: سَلِيهِ؛ فَجَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللهِ إِنَّ أَوْسَ بْنَ الصَّامِتِ أَبُو وَلَدِي، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، قَدْ قَالَ كَلِمَةً، وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مَا ذَكَرَ طَلَاقًا، قَالَ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا أَرَاكِ إِلَّا قَدْ حَرُمْتِ عَلَيْهِ». قَالَتْ: لَا تَقُلْ ذَلِكَ يَا نَبِيَّ اللهِ، وَاللهِ مَا ذَكَرَ طَلَاقًا؛ فَرَادَّتِ النَّبِيَّ ﷺ مِرَارًا، ثُمَّ قَالَتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو الْيَوْمَ شِدَّةَ حَالِي وَوَحْدَتِي، وَمَا يَشُقُّ عَلَيَّ مِنْ فِرَاقِهِ، اللَّهُمَّ فَأَنْزِلْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكَ. فَلَمْ تَرِمْ مَكَانَهَا حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ﴾ [المجادلة: ١] (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف). لَمْ تَرِمْ مَكَانَهَا: لم تبرحه.

دأب اليهود والمنافقين لإيذاء المؤمنين، فبينت حكمه وحذرت المؤمنين من عواقبه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن اليهود اللعناء، الذين كانوا يحضرون مجلس الرسول ﷺ فيحيونه بتحية ملغوزة، ظاهرها نحية التحية والسلام، وباطنها الشتيمة والمسبة كقولهم: السام عليك يا محمد -يعنون الموت- ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾.

* وتناولت السورة الحديث عن المنافقين بشيء من الإسهاب، فقد اتخذوا اليهود بخاصة أصدقاء، يحبونهم ويوالونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين، فكشفت الستار عن هؤلاء المذبذبين وفضحتهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة ببيان حقيقة الحب في الله، والبغض في الله، الذي هو أصل الإيمان وأوثق عرى الدين، ولابد من في اكتمال الإيمان من معاداة أعداء الله ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ إلى آخر السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

اللغة: ﴿تَحَاوُرَكُمَا﴾ المحاورة: المراجعة في الكلام من حار الشيء يحور إذا رجع يرجع

ومنه الدعاء المأثور «نَعُوذُ باللهِ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ»[(١)].

قال عنترة في فرسه:

لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا الْمُحَاوَرَةُ اشْتَكَى وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامَ مُكَلِّمِي

﴿يُظَٰهِرُونَ﴾ الظهار مشتق من الظهر يقال: ظاهر من امرأته إذا حرمها على نفسه بقوله: أنتِ عليَّ كظهر أُمِّي ﴿مُنكَرًا﴾ المنكر: كل ما قبَّحه الشرع وحرَّمه ونفَّر منه، وهو خلاف المعروف ﴿يُحَآدُّونَ﴾ المحادَّة: المعاداة والمخالفة في الحدود والأحكام وهي مثل المشاقة قال الزجاج: المُحَادَّة أن تكون في حدٍّ يخالف حَدَّ صاحبك، وأصلها المُمَانَعة ﴿كُبِتُواْ﴾ الكبتُ: القهر والإذلال والخزي يقال: كبته أي قهره وأخزاه ﴿نَّجْوَىٰ﴾ النجوى: الكلام بين اثنين فأكثر سرًّا، تناجى القوم تحدثوا فيما بينهم سرًّا ﴿حَسْبُهُمْ﴾ كافِيهم.

سَبَبُ النّزول: أ- روي أن خولة بن ثعلبة امرأة أوس بن الصامت «أراد زوجها مواقعتها يومًا فأبت، فغضب وظاهر منها، فأتت رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله، إن أوسًا ظاهر مني بعد أن كبرت سني، ورقَّ عظمي، وإنَّ لي منه صبيةً صغارًا، إن ضممتُهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا فما ترى؟! فقال لها: «ما أراك إلا قد حرمت عليه»، فقالتْ يا رسول الله: واللهِ ما ذكر طلاقًا وهو أبو ولدي وأحبُّ الناس إليَّ، فجعل رسول الله ﷺ يعيد قوله: ما أراك إلا قد حرمتِ عليه، هي تكرر قولها، فما زالت تراجعه ويراجعها حتى نزل قول الله تعالى ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ الآيات[(٢)].

ب- وروى البخاري «عن عائشة أنها قالت: تبارك الذي وسع سمعُه الأصواتَ، لقد جاءت المجادلة خولة بنت ثعلبة فكلمت رسول الله ﷺ وأنا في جانب البيت أسمع كلامها ويخفى عليَّ بعضه، وهي تشتكي زوجها وتقول: يا رسول الله: أبلى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهَرَ مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات»[(٣)].

---

(١) (ش): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَرْجِسَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ وَدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الأَهْلِ وَالْمَالِ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). الْحَوْرِ: النقصان. الْكَوْرِ: الزيادة. الوَعْثَاءِ: الشدة والمشقة.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٧٩. (ش): ضعيف، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» والواحدي في «أسباب النزول». رَقَّ عظمي: أي كبُر وضعُف. وانظر التعليق السابق على مقدمة السورة والتعليق التالي.

(٣) أخرجه البخاري وابن ماجه والبيهقي. (ش): عَنْ عَائِشَةَ قَالَتِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ رواه البخاري. وعَنْ عَائِشَةُ رضي الله عنها قَالَتْ: «تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي، ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]». (رواه ابن ماجه، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني).

التفسير: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ «قد» لا تدخل إلا على الأفعال، وإذا دخلت على الماضي أفادت التحقيق، وإذا دخلت على المضارع أفادت التقليل كقولك: قد يجودُ البخيلُ، وقد ينزل المطر والمعنى: حقًا لقد سمع الله قول المرأة التي تراجعك وتحاورك في شأن زوجها قال الزمخشري: ومعنى سماعه تعالى لقولها إجابة دعائها، لا مجرد علمه تعالى بذلك، وهو كقول المصلي: سمع اللهُ لمن حمده[١] ﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي وتتضرع إلى الله في تفريج كربتها ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ أي واللهُ جلَّ وعلا يسمع حديثكما ومراجعتكما الكلام، ماذا قالتْ لك، وماذا رددْتَ عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ أي سميع بمن يناجيه ويتضرع إليه، بصير بأعمال العباد، وهو كالتعليل لما قبله، وكلاهما من صِيَغ المبالغة، أي: مبالِغٌ في العلم بالمسموعات والمبصرات[٢]. ثم ذمَّ تعالى الظهار وبيَّن حكمه وجزاء فاعله فقال ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ أي الذين يقولون لنسائهم: أنتن كظهور أمهاتنا يقصدون بذلك تحريمهن عليهم كتحريم أمهاتهن، لَسْنَ في الحقيقة أمهاتهم وإنما هنَّ زوجاتهم قال الإمام الفخر: الظهار هو عبارة عن قول الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظهر أمي، يقصد عُلُوِّي عليك حرامٌ كعُلُوِّي على أمي، والعربُ تقول في الطلاق: نزلتُ عن امرأتي، أي: طلقتها، فغرضهم من هذه اللفظة تحريم معاشرتها تشبيهًا بالأم وقوله ﴿مِنكُم﴾ توبيخٌ للعرب وتهجينٌ لعادتهم في الظهار لأنه كان من أيمان أهل الجاهلية خاصةً دون سائر الأمم[٣] ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ أي ما أمهاتهم في الحقيقة إلاَّ الوالدات اللاتي ولَدْنهم من بطونهم وفي المثل «وُلْدُكِ مَنْ دَمَّي عِقَبَيْك»[٤] وهو تأكيد لقوله ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ زيادة في التوضيح والبيان[٥] ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أي والحال إن هؤلاء المظاهرين ليقولون

---

(١) «تفسير الكشاف» ٤/ ١٥٠. (ش): تفسير الزمخشري هذا تفسيرٌ باطل، لأن معناه نفْيُ صفة السمع عن الله وتأويلها بإجابة الدعاء. وتشبيه السمع بقول المصلي: «سمع الله لمن حمده» تشبيه مع الفارق بينهما لأن «سمع الله» هنا مُعَدًّى بنفسه، ومعناه السماع الحقيقي، و(سمع الله لمن حمده) مُعَدًّى باللام ومعناه الإجابة.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٤٣. (ش): السمع والبصر صفتان ذاتيَّتان ثابتتان لله عزَّ وجَلَّ بالكتاب والسنة، و(السميع) و(البصير): من أسمائه تعالى. و«تفسير أبي السعود» لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ بأن معناها مبالِغٌ في العلم بالمسموعات والمبصرات، معناه نفي صفتي السمع والبصر عن الله تعالى وتأويلهما بالعلم، وهو تأويل باطل.

(٣) «تفسير الكبير» بشيء من الإيجاز ٢٩/ ٢٥١.

(٤) (ش): الوُلْد: الوَلَد، أي ابْنُك مَنْ دَمَّي عَقِبَيْكِ. يُحكى أنَّ امرأة الطُّفَيل بن مالك بن جَعْفر بن كِلَاب ولدت له عَقِيل بن الطُّفيل فتَبنَّته كَبْشَة بنت عُرْوَة بن جعفر بن كلاب فقدِم عَقِيلٌ على أمِّه يومًا فضربَتْه فجاءتها كبشة حتى منعَتْها وقَالَت: «ابنى ابنى» فقَالَت امرأة الطُّفَيل: «وُلْدُكِ مَنْ دَمَّي عِقَبَيْك»، يعني الذي نُفِسْتِ به فأدْمَى النفاسُ عَقِبَيْكِ أي من ولَدْتِه فهو ابنك لَا هذا.

(٥) (ش): أي قوله تعالى ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ تأكيد لقوله ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾.

كلامًا منكرًا تنكره الحقيقة وينكره الشرع، وهو كذبٌ وزورٌ وبهتان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي مبالغ في العفو والمغفرة لمن تاب وأناب قال في التسـهيل: أخبر تعالى أن الظهار منكر وزور، فالمنكر هو الذي لا تعرف له حقيقة، والزور هو الكذب، وإنما جعله كذبًا لأن المظاهر يجعل امرأته كأمه. وهي لا تصير كذلك أبدًا والظهار محرم ويدل على تحريمه أربعة أشـياء: أحدها قوله ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾ فإن ذلك تكذيب للمظاهر والثاني أنه سـمَّاه منكرًا والثالث أنه سماه زورًا والرابـع قولـه تعالـى ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ فإنَّ العفـو والمغفرة لا تقـع إلا عن ذنب، والذنـب مـع ذلك لازمٌ للمظاهر حتى يرفعه بالكفارة[١].. ثم بَيَّن تعالى طريق الكفارة عن هذا القول الشنيع فقال ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ أي يظاهرون من زوجاتهم بتشبيههنَّ بالأمهات ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ أي يعـودون عمَّـا قالـوا، ويندمون على ما فرط منهـم، ويرغبون في إعادة أزواجهـم إليهـم ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي فعليهم إعتاقُ رقبةٍ عبـدًا كان أو أمةً من مقبل أن يعاشـر زوجته التي ظاهر منها أو يجامعها -والتَّمَاسُّ كنايةٌ عن الجماع ودواعيه من التقبيـل واللمس عند الجمهور- قال الخازن: المرادُ من التماسِّ المجامعةُ فلا يحل للمظاهر وطءُ امرأته التي ظاهر منها ما لم يُكَفِّر[٢] وقال القرطبي: لا يجوز للمظاهر الوطءُ قبل التكفير، فـإن جامعهـا قبل التكفير أثم وعصى ولا يسـقط عنه التكفير، وعن مجاهـد: تلزمه كفارتان[٣] ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي ذلكـم هـو حكـم الله فيمن ظاهر ليتعـظ به المؤمنـون، حتى تتركوا الظهـار ولا تعودوا إليه ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي عالـم بظواهر الأمور وبواطنها ومُجازيكُم بها، فحافِظوا على حدود ما شـرع لكم من الأحكام ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي فمن لـم يجد الرقبة التي يعتقها فعليه صيام شهرين متواليين من قبل الجماع قال المفسرون: لو أفطر يومًا منها انقطع التتابع ووجب عليه أن يستأنِفها[٤]. ﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗا﴾ أي فمـن لـم يسـتطع الصيام لكِبَرٍ أو مرضٍ، فعليه أن يُطعم سـتين مسـكينًا ما يشبعهم ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي ذلك الذي بَيَّنَّاه من أحكام الظهار من أجل أن تصدقوا بالله ورسـوله في العمل بشرائعه، ولا تسـتمروا على أحكام الجاهلية ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي وتلك هي أوامرُ الله وحدوده فلا تعتدوها ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وللجاحدين والمكذبين

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٠٢.

(٢) ««تفسير الخازن»» ٤/ ٤٥.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٨٣.

(٤) (ش): لو أفطر يومًا منها بغير عذر انقطع التتابع ووجب عليه أن يبدأ صيام شهرين آخرين. أما إن تخلل صومَ الكفارة صومُ شهر رمضان أو فطرٌ واجب كفطر العيد أو الفطر لمرضٍ لم ينقطع التتابع. فإذا تخلل صوم الظهار زمان لا يصح صومه عن الكفارة مثل أن يبدأ الصوم من أول شعبان فيتخلله رمضان ويوم الفطر، أو يبتدئ من ذي الحجة فيتخلله يوم النحر وأيام التشريق، فإن التتابع لا ينقطع بهذا، ويبني على ما مضى من صيامه.

بهذه الحدود عذاب مؤلم مُوجِع قال الألوسي: أطلق الكافر على مُتَعَدِّي الحدود تغليظًا وزجرًا[١]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ﴾ ولما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده، ذكر المُحَادِّين المخالفين لها فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي يخالفون أمر الله ورسوله، ويعادون الله ورسوله قال أبو السعود: أي يُعادُونهما ويشاقُّونهما لأن كلًّا من المتعادِيَيْن في حدٍّ وجِهَةٍ غير حدِّ الآخر وجِهَته، وإنما ذُكرَت المُحادَّة هنا دون المعاداة والمشاقّة لمناسبة ذكر «حدود الله» فكان بينهما من حسن الموقع ما لا غايةَ وراءه[٢] ﴿كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي خُذلوا وأهينوا كما خُذل من قبلهم من المنافقين والكفار الذين حادُّوا الله ورسله وأُذِلوا وأُهِينوا ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ أي والحال أنا قد أنزلنا آياتٍ واضحات، فيها الحلال والحرام، والفرائض والأحكام ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ أي وللكافرين الذين جحدوها ولم يعملوا بها عذاب شديد يُهينهم ويُذهِب عزَّهم قال الصاوي: وقد نزلت هذه الآية في كفار مكة يوم الأحزاب حين أرادوا التحزب على رسول الله ﷺ والمقصودُ بها تسلية رسول الله ﷺ وبشارته مع المؤمنين بأن أعداءهم المتحزبين سيُذَلُّون ويُخذَلون ويُفرَّق جمعُهم فلا تخشَوا بأسهم[٣] ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾ أي اذكر ذلك اليوم الرهيب حين يحشر الله المجرمين كلهم في صعيد واحد ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ أي فيخبرهم بما ارتكبوا في الدنيا من جرائم وآثام ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ أي ضبطه الله وحفظه عليهم في صحائف أعمالهم، بينما هم نسوا تلك الجرائم لاعتقادهم أن لا حساب ولا جزاء ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ أي وهو جل وعلا مُطَّلعٌ وناظرٌ لا يغيب عنه شيء، ولا يخفَى عليه شيء.. ثم بيَّن تعالى سعة علمه، وإحاطته بجميع الأشياء، وأنه تعالى يرى الخلق ويسمع كلامهم ويرى مكانهم حيث كانوا وأين كانوا فقال ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ أي ألم تعلم أيها السامع العاقل أن الله مُطَّلعٌ على كل ذرةٍ في الكون، لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى عليه سرٌّ ولا علانية، ما يقع من حديثٍ وسرٍّ بين ثلاثة أشخاص إلا كان الله رابعهم بعلمه ومشاركًا لهم فيما يتحدثون ويتهامسون به في خفية عن الناس. ﴿وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ﴾ أي ولا يقع مناجاةٌ وحديث بالسر بين خمسة أشخاص إلا كان الله معهم بعلمه حتى يكون هو سادسهم ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْ﴾ أي ولا أقلَّ من ذلك العدد ولا أكثر منه إلاّ واللهُ معهم يعلم ما يجري بينهم من حديثٍ ونجوى، والغرض: أنه تعالى حاضر عباده، مطَّلع على أحوالهم وأعمالهم، وما تَهجِس به أفئدتهم[٤]،

---

(١) «تفسير الألوسي» ٢٨/ ٢٠.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٤٤.

(٣) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٨١. (ش): لم أعثر على سبب النزول مُسنَدًا.

(٤) (ش): أي ما يخطر ببالهم.

لا يخفى عليه شيء من أمور العباد، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي ثم يخبرهم تعالى بما عملوا من حَسَنٍ وسيِّئ ويجازيهم عليه يوم القيامة، لأنه عالم بكل شيء من الأشياء قال المفسرون: ابتدأ الله هذه الآيات بالعلم بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ واختتمها بالعلم بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لينبه إلى إحاطة علمه جل وعلا بالجزئيات والكليات، وأنه لا يغيب عنه شيء في الكائنات لأنه قد أحاط بكل شيء علمًا، قال ابن كثير: وقد حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بالمعية في هذه الآية ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ معية علمه تعالى، ولا شك في إرادة ذلك، فسمعه مع علمه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه مطَّلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء[1].. ثم أخبر تعالى عن أحوال اليهود والمنافقين فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ قال القرطبي: نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت[2] ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ أي ثم يرجعون إلى المناجاة التي نُهُوا عنها قال أبو السعود: والهمزة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتعجيب من حالهم، وصيغة المضارع ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ للدلالة على تكرُّر عَوْدِهم وتجدُّده واستحضار صورته العجيبة[3] ﴿وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي ويتحدثون فيما بينهم بما هو إثم وعدوان ومخالفة لأمر الرسول ﷺ لأن حديثهم يدور حول المكر والكيد بالمسلمين، قال أبو حيان: بدأ بالإثم لعمومه، ثم بالعُدوان لعظمته في النفوس إذ هي ظُلامات العباد[4]، ثم ترقَّى إلى ما هو أعظم وهو معصية الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام، وفي هذا طعنٌ على المنافقين إذ كان تَنَاجِيهِم في ذلك[5] ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي وإذا أحضروا عندك يا محمد حيَّوْك بتحيةٍ ظالمةٍ لم يشرعها الله ولم يأذَن فيها، وهي قولهم «السامُ عليكم» أي الموت عليكم قال المفسرون: «كان اليهود يأتون رسول الله ﷺ فيقولون: السامُ علكيم بدلًا من السلام عليكم، والسامُ الموتُ وهو ما أرادوه بقولهم، وكان رسول الله ﷺ يقول لهم: وعلكيم لا يزيد عليها، فسمعتهم عائشة يومًا فقالت: بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، فلما انصرفوا قال لها رسول الله ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفُحْشَ وَالتَّفَحُّشَ» فقالت: يَا رَسُولَ اللهِ أَمَا سَمِعْتَ مَا قَالُوا؟. فقال لها: «أَوَمَا سَمِعْتِ مَا رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ، فَإِنَّهُ يُسْتَجَابُ لِي

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٦١.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٩١. (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد. وهو في «القرطبي» أيضًا بدون إسناد.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٤٥.

(٤) (ش): الظُّلامة: مَا يَطْلُبُهُ الْمَظْلُوم وَهُوَ اسْم مَا أُخِذَ مِنْهُ ظلمًا.

(٥) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٣٦.

فِيهِمْ وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ »[١] ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ اي ويقولون فيما بينهم: هَلَّا يعذبنا الله بهذا القول لو كان محمد نبيًّا؟ فلو كان نبيًّا حقًّا لعذبنا الله على هذا الكلام قال تعالى ردًا عليهم ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي يكفيهم عذابًا أن يدخلوا نار جهنم ويصلوا حرها ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي بئست جهنم مرجعًا ومستقرًا لهم قال ابن العربي: كانوا يقولون: لو كان محمد نبيًّا لما أمهلنا الله بسبِّه والاستخفاف به، وجهلوا أن الباري تعالى حليمٌ لا يعاجل العقوبة لمن سبَّه فكيف من سبَّ نبيه؟! وقد ثبت في الصحيح « لاَ أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ »[٢] فأنزل الله تعالى هذا كشفًا لسرائرهم، وفضحًا لبواطنهم وتكريمًا لرسوله ﷺ[٣]، وأما إمهالهم في الدنيا فمن كراماته ﷺ على ربه لكونه بعث رحمةً للعالمين.. ثم نهى تعالى المؤمنين عن التناجي بما هو إثم ومعصية فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي إذا تحدثتم فيما بينكم سرًّا فلا تتحدثوا بما فيه إثم كالقبيح من القول، أو بما هو عدوان على الغير، أو مخالفة ومعصية لأمر الرسول ﷺ ﴿وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي وتحدثوا بما فيه خيرٌ وطاعة وإحسان قال القرطبي: نهى تعالى المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفِعْل المنافقين واليهود، وأمرهم أن يتناجوا بالطاعة والتقوى والعفاف عما نهى الله عنه[٤] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وخافوا الله بامتثالكم أوامره واجتنابكم نواهيه، الذي سيجمعكم للحساب، ويجازي كُلًّا بعمله ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي ليست النجوى بالإثم والعدوان إلا من تزيين الشيطان، ليُدْخِل بها الحزن على المؤمنين قال ابن كثير: أي إنما يصدر هذا من المتناجين عن تزيين الشيطان وتسويله[٥] ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي وليس هذا التناجي بضارٍّ المؤمنين شيئًا إلا بمشيئة الله وإرادته ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي وعلى الله وحده فليعتمد ولْيثق المؤمنون، ولا يُبالُوا بنجوَى المنافقين فإن الله يعصمهم من شرهم وكيدهم، وفي الحديث « إِذَا كُنْتُمْ ثَلاَثَةً فَلاَ يَتَنَاجَ اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ »[٦].

(١) (ش): انظر: البخاري ومسلم ومسند أحمد، ومسند إسحق بن راهوَيْه. وفي رواية لمسلم «وَإِنَّا نُجَابُ عَلَيْهِمْ وَلاَ يُجَابُونَ عَلَيْنَا». وفي رواية للبخاري ومسلم: «يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ». السَّامُ: الْمَوْتُ، وَالذَّامُ: الذَّمُّ. [وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، للألباني (٦/ ٤٩١-٤٩٣)].

(٢) (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(٣) نقلاً عن «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٩٢.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٩٤.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٦٣.

(٦) أخرجه البخاري ومسلم.

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

المناسَبَة: لما نهى تعالى عباده المؤمنين عمَّا يكون سببًا للتباغض والتنافر، أمرهم بما يصير سببًا لزيادة المحبة والمودَّة، وهو التوسع في المجالس بأن يفسح بعضهم لبعض، ثم حذَّر من موالاة أعداء الله، وختم السورة الكريمة ببيان أوصاف المؤمنين الكاملين.

اللغَة: ﴿تَفَسَّحُوا﴾ توسَّعوا يقال: فسح له في المجلس، أي: وسَّع له، ومنه مكان فسيح أي: واسع ﴿فَانْشُزُوا﴾ انهضوا وارتفعوا يقال: نشز ينشُز إذا تنحَّى من مجلسه وارتفع منه، وأصله من النَّشز وهو ما ارتفع من الأرض ﴿جُنَّةً﴾ بضم الجيم وقاية ﴿اسْتَحْوَذَ﴾ استولى وغلب على عقولهم ﴿الْأَذَلِّينَ﴾ الأذلاء المغمورين في الذل والهوان.

سَبَبُ النّزول: أ- عن مقاتل قال: «كان النبي ﷺ يُكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناسٌ من أهل بدر فيهم «ثابت بن قيس» وقد سُبقوا إلى المجلس، فقاموا حيال النبي ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسَّع لهم فلم يفسحوا لهم، فشقَّ ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله من غير أهل بدر قم يا فلان، قم يا فلان، بعدد الواقفين من أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، وطعن المنافقون في ذلك وقالوا: ما عدل هؤلاء، قوم أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب منه فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه!! فأنزل الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ

لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ..﴾»[١] الآية.

عن ابن عباس قال: «إن الناس سألوا رسول الله ﷺ وأكثروا عليه حتى شقَّ ذلك عليه ﷺ فأراد الله أن يخفّف عن نبيه ويثبّطهم عن ذلك فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ..﴾ الآية. فلما نزلت جبن كثير من المسلمين وكفّوا عن المسألة[٢].

قال السدي: «كان «عبد الله بن نبتل» المنافق يجالس رسول الله ﷺ ويرفع حديثه إلى اليهود، فبينا رسول الله ﷺ في حجرةٍ من حجراته إذ قال يدخل عليكم الآن رجلٌ قلبه قلبُ جبار وينظر بعيني شيطان، فدخل عبد الله بن نبتل وكان أزرق العينين فقال له النبي ﷺ: علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فحلف بالله ما فعل ذلك، فقال له النبي ﷺ: بل فعلت، فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبُّوه فأنزل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾»[٣].

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ نداءٌ من الله تعالى للمؤمنين بأكرم وصفٍ وألطف عبارة أي: يا من صدَّقتم الله ورسوله وتحلَّيْتم بالإيمان الذي هو زينة الإنسان ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ﴾ أي إذا قال لكم أحد توسعوا في المجالس سواءٌ كان مجلس الرسول ﷺ أو غيره من المجالس فتوسعوا وافسحوا له ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي يوسِّع لكم ربكم في رحمته وجنته قال مجاهد: كانوا يتنافسون في مجلس النبي ﷺ فأُمِرُوا أن يفسح بعضهم لبعض[٤] قال الخازن: أمر الله المؤمنين بالتواضع وأن يفسحوا في المجلس لمن أراد الجلوس عند النبي ﷺ ليتساوى الناس في الأخذ من حظهم من رسول الله ﷺ[٥] وفي الحديث: «لاَ يُقِيمَنَّ أَحَدُكُمُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ، ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ[٦]». قال الإمام الفخر: وقوله ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ مطلَقٌ في كل ما يطلب الناس الفسحة فيه في المكان، والرزق، والصدر، والقبر، والجنة، واعلم أن الآية دلت على أن كل من وسَّع على

---

(١) انظر «القرطبي» ١٧/ ٢٩٧، و«التفسير الكبير للرازي» ٢٨/ ٢٦٨. (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول».

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٦٥، و«تفسير الخازن» ٤/ ٥٢. (ش): رواه ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم في «تفسيرَيْهما» بإسناد حسن.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٣٠٤. (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول».

(٤) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٢٩٦.

(٥) «تفسير الخازن» ٤/ ٥٠.

(٦) أخرجه البخاري ومسلم. (ش): «لاَ يُقِيمَنَّ أَحَدُكُمُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ، ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا» (رواه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني). «لاَ يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَقْعَدِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). «لاَ يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ، وَلَكِنْ افْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ» (صحيح، رواه أحمد).

عباد الله أبواب الخير والراحة وسَّع عليه خيرات الدنيا والآخرة وفي الحديث «لا يزال الله في عون العبد ما زال العبد في عون أخيه»(١) ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ أي وإِذا قيل لكم أيها المؤمنون: انهضوا من المجلس وقوموا لتوسّعوا لغيركم فارتفِعوا منه وقوموا (٢) قال ابن عباس: معناه إِذا قيل لكم: ارتفعوا فارتفعوا قال في البحر: أُمِروا أولًا بالتفسُّح في المجلس، ثم ثانيًا بامتثال الأمر فيه إِذا أُمروا(٣)، وألا يجدوا في ذلك غضاضة ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ أي يرفع الله المؤمنين بامتثال أوامره وأوامر رسوله، والعالمين منهم خاصة أعلى المراتب، ويمنحهم أعلى الدرجات الرفيعة في الجنة قال ابن مسعود: مدح الله العلماء في هذه الآية ثم قال: يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولْتُرَغِّبْكم في العلم؛ فإن الله يقول: يرفع المؤمن العالم فوق المؤمن الذي ليس بعالم درجات. وقال القرطبي: بَيّن في هذه الآية أن الرِّفعة عند الله بالعلم والإِيمان، لا بالسبق إِلى صدور المجالس، وفي الحديث « إِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ »(٤) وعنه ﷺ «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء»(٥) فأعظِمْ بمنزلةٍ هي واسطةٌ بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله ﷺ(٦) ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي خبير بمن يستحق الفضل والثواب ممن لا يستحقه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ أي إِذا أردتم محادثته سرًا ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾ أي فقدموا قبلها صدقة تصدَّقوا بها على الفقراء قال الألوسي: وفي هذا الأمر تعظيم لمقام الرسول ﷺ، ونفعٌ للفقراء، وتمييزٌ بين المخلص والمنافق، وبين محب الدنيا ومحب الآخرة(٧) ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾ أي تقديم الصدقات، قبل مناجاته

---

(١) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٦٩. (ش): قال ﷺ: وَالآخِرَةِ وَاللهُ فِى عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِى عَوْنِ أَخِيهِ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) أورد العلامة ابن كثير عند هذه الآية الكريمة: «حكم القيام للقادم» فقال رحمه الله: وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال: فمنهم من رخص في ذلك محتجًا بحديث: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ» ومنهم من منع ذلك محتجاً بحديث: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبوَّأْ مَقْعَدَه مِنَ النَّارِ» ومنهم من فصَّل فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في ولايته لقصة سعد بن معاذ لما استدمه النبي ﷺ ليحكم في بني قريظة فلما أقبل قال: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ» وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحُكمه.. ثم قال: وأما اتخاذه دينًا فإنه من شعار العجم، وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكان إذا جاء لا يقومون له، لما يعلمون من كراهته لذلك وفي السنن أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس، ولكن حيث يجلس ﷺ يكون هو صدر المجلس. اهـ. (ش): «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ » رواه البخاري ومسلم. « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النارِ» (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٢٣٧.

(٤) (ش): رواه أبو داود وصححه الألباني.

(٥) (ش): رواه ابن ماجه، وقال الألباني: موضوع.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٣٠٠.

(٧) «تفسير الألوسي» ٢٨/ ٣٠.

أفضـل لكـم عند الله لما فيه من امتثال أمر الله، وأطهـر لذنوبكم ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فـإن لـم تجدوا ما تتصدقون به فإن الله يسـامحكم ويعفو عنكم، لأنـه لم يكلف بذلك إلا القـادر منكم ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ عتابٌ للمؤمنيـن رقيقٌ رفيق أي أخِفْتُم أيهـا المؤمنـون الفقر إذا تصدقتم قبل مناجاتكم للرسـول ﷺ؟ والغـرضُ: لا تخافوا فإن الله يرزقكم لأنه غني بيده خزائن السـموات والأرض، وهو عتاب لطيف كما بَيَّنَّا، ثم نسـخ تعالى الحكم تيسـيرًا على المؤمنين فقال ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي فإذا لم تفعلوا ما أُمرتم به وشـقَّ ذلك عليكـم، وعفا الله عنكم بأن رخّـص لكم مناجاته من غيـر تقديم صدقة ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي فاكتفوا بالمحافظة على الصلاة ودفع الزكاة المفروضة ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسـوله في جميع أحوالكم ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي محيطٌ بأعمالكم ونيَّاتكم قال المفسـرون: نسـخ الله ذلك تخفيفًا على العباد حتى قال ابن عباس: ما كان ذلك إلا ساعةً من نهار ثم نُسِخ[1] قال القرطبي: نَسَخَتْ فرضيةُ الزكاة هذه الصدقةَ، وهذا يـدل على جواز النسـخ قبل الفعـل، وما روي عن عليٍّ رَضِـيَ اللهُ عَنْه أنه قـال: «آية في كتاب الله لـم يعمل بها على أحـد قبلي ولا بعدي، كان عندي دينار فتصدقت به ثم ناجيت الرسـول ﷺ» إلخفضعيـفٌ لأن الله تعالـى قـال ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ وهـذا يـدل علـى أن أحـدًا لم يتصدق بشـيء[2] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ تعجيبٌ للرسول ﷺ من أمر المنافقين الذين اتخـذوا اليهود المغضوب عليهم أوليـاء، يناصحونهم وينقلون إليهم أسـرار المؤمنين!! قال الإمـام الفخر: كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم في قوله ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائـدة: ٦٠] وكانوا ينقلون إليهم أسـرار المؤمنين[3] ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي ليـس هؤلاء المنافقون من المسـلمين ولا من اليهود، بل هم مُذَبذَبـون بين ذلك كقوله تعالى ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [النساء: ٤٣] قال الصاوي: أي ليسوا من المؤمنين الخلَّـص، ولا مـن الكافرين الخُلَّص، لا ينتسـبون إلى هؤلاء ولا إلـى هؤلاء[4] ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي ويحلفون بالله كاذبين يقولون: والله إنا لمسـلمون، وهم يعملون أنهم كذبة فجرة قال أبو السـعود: والصيغةُ مفيدة لكمال شـناعة ما فعلوا، فإن الحلف على ما يُعلم أنـه كذبٌ في غايـة القبـح[5] ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي هيأ لهم تعالى بسـبب نفاقهم عذابًا في نهاية الشـدة والألم، وهو الدرك الأسـفل في جهنم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٥٣.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٣٠٣.

(٣) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢٧٣.

(٤) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٨٤.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٤٧.

﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥] ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي بئس ما فعلوا وبئس ما صنعوا ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ أي جعلوا أيمانهم الكاذبة الفاجرة وقايةً لأنفسهم وسترةً لها من القتل قال في التسهيل: أصل الجُنَّة ما يُستَتَر به ويُتَّقَى به المحذور كالتُّرس[1]، ثم استُعمِل هنا بطريق الاستعارة؛ لأنهم كانوا يُظهِرون الإِسلام ليعصموا دماءهم وأموالهم[2] ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي فمنعوا الناس عن الدخول في الإِسلام، بإلقاء الشبهات في قلوب الضعفاء، والمكر والخداع بالمسلمين ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي فلهم عذاب شديد في غاية الشدة والإِهانة ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم في الآخرة، ولن تدفع عنهم شيئًا من عذاب الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي هم أهل النار لا يخرجون منها أبدًا ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي يحشرهم يوم القيامة جميعًا للحساب والجزاء ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أي فيحلفون لله تعالى كما يحلفون لكم اليوم في الدنيا كذبًا أنهم مسلمون قال ابن عباس: هو قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[3] [الأنعام: ٢٣] ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي يظنون أن حلفهم في الآخرة ينفعهم وينجيهم من عذابها كما نفعهم في الدنيا بدَفْعِ القتل عنهم قال أبو حيان: والعجب منهم كيف يعتقدون أن كفرهم يخفى على عَّلام الغيوب، ويُجْرونه مَجرَى المؤمنين في عدم اطِّلاعهم على كُفْرهم ونفاقهم، والمقصود أنهم تعوَّدوا الكذب حتى كان على ألسنتهم في الآخرة كما كان في الدنيا[4] ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها الناس إِن هؤلاء هم البالغون في الكذب الغاية القصوى حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علام الغيوب ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ أي استولى على قلوبهم الشيطان وغلب عليهم تملَّك نفوسهم حتى أنساهم أن يذكروا ربهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي أولئك هم أتباع الشيطان وأعوانه وأنصاره ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي أتباع الشيطان وجنوده هم الكاملون في الخسران والضلالة، لأنهم فوَّتوا على أنفسهم النعيم الدائم وعرَّضُوها للعذاب المقيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي يعادون الله ورسوله ويخالفون أمرهما ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ أي أولئك في جملة الأذلاء المبعدين من رحمة الله ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ أي قضى الله وحكم أن الغلبة لدينه ورسله وعباده المؤمنين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ أي هو تعالى قويٌّ على نصر رسله وأوليائه، غالبٌ على أعدائه، لا يُقهر ولا يغلب قال مقاتل: لما فتح الله مكة والطائف وخيبر للمؤمنين قالوا: نرجو أن يُظهرنا الله على فارس والروم، فقال عبد الله بن سلول: «أتظنون أن الروم وفارس كبعض القرى التي غُلِبتُم عليها؟!

---

(١) (ش): التُرْس: صفحة من الفولاذ مستديرة أو بيضية الشكل تُحمل لوقاية الوجه والرأس من الضربات.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٠٥.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٧/ ٣٠٥.

(٤) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٣٨.

والله إنهم لأكثر عددًا، وأشد بطشًا من أن تظنوا فيهم ذلك» فنزلت ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾[١] ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي لا يمكن أن ترى أيها السامع جماعة يُصدِّقون بالله وباليوم الآخر يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وخالف أمرهما، لأن من أحبَّ الله عادى أعداءه، ولا يجتمع في قلب واحد حبُّ الله وحبُّ أعدائه، كما لا يجتمع النور والظلام قال المفسرون: غرضُ الآية النهي عن مصادقة ومحبة الكفرة والمجرمين، ولكنها جاءت بصورة إخبارٍ مبالغةً في النهي والتحذير قال الإمام الفخر: المعنى: أنه لا يجتمع الإيمان مع حبِّ أعداء الله، وذلك لأن من أحبَّ أحدًا امتنع أن يحب عدوه، لأنهما لا يجتمعان في القلب، فإذا حصل في القلب مودة أعداء الله لم يحصل فيه الإيمان[٢] ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ﴾ أي ولو كان هؤلاء المُحَادُّون لله ورسوله أقربَ الناس إليهم، كالآباء، والأبناء، والإخوان، والعشيرة، فإن قضية الإيمان بالله تقتضي معاداة أعداء الله قال في البحر: بدأ بالآباء لأن طاعتهم واجبة على الأولاد، ثم بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب، ثم بالإخوان لأنهم بهم التعاضد[٣]، ثم بالعشيرة لأن بهم التناصر والمقاتلة والتغلب على الأعداء كما قال القائل:

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ ... فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا[٤]

قال ابن كثير: نزلت ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ﴾ في «أبي عبيدة» قتل أباه «الجراح» يوم بدر[٥]، ﴿أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ في الصِّديق هَمَّ بقَتْل ابنه «عبد الرحمن بن أبي بكر» ﴿أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ﴾ في مُصعب بن عمير قتل أخاه عُبيد بن عمير يومئذٍ ﴿أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ﴾ في حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث، قتلوا عُتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة يوم بدر[٦] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ أي أثبت الإيمان ومكَّنه في قلوبهم، فهي مؤمنةٌ مُوقنةٌ مُخلِصة ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُ﴾ أي وقوَّاهم بنصره وتأييده قال ابن عباس: نصرهم على عدوهم، سمى ذلك النصر رُوحًا لأن به يحيا أمرهم[٧] ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي ويدخلهم في الآخرة بساتين فسيحة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبد

---

(١) انظر «البحر المحيط» ٨/ ٢٣٨، و«تفسير الألوسي» ٢٨/ ٣٤. (ش): هو فيهما بدون إسناد، ومقاتل متهم بالكذب.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢٧٦.

(٣) (ش): التعاضد: التعاون والتناصر والمساعدة.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٢٣٩. (ش): نائِبَة: مصيبة شديدة، ما ينزل بالمرء من الكوارث والحوادث المؤلمة. أي لا يسألون صاحبَهم دليلًا على ما قاله حين يناديهم برَفْع صوته في المصائب الشديدة.

(٥) (ش): ضعيف، رواه الطبراني والحاكم. ورواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٦٧. (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٧) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢٧٧.

الآبدين ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ أي قبل الله أعمالهم فرضي عنهم، ونالوا ثوابه فرضوا بما أعطاهم، وإنما ذكر رضوانه عليهم بعدد دخولهم الجنة لأنه أعظم النعم، وأجلّ المراتب قال ابن كثير: وفي الآية سر بديع وهو أنهم لما سخطوا على الأقارب والعشائر في الله تعالى، عَوَّضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم[1] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾ أي أولئك جماعة الله وخاصته وأولياؤه ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي هم الفائزون بخيري الدنيا والآخرة، وهذا في مقابلة قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - صيغة المبالغة في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] وفي ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ وفي ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

٢ - الإطناب بذكر الأُمهات ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ [المجادلة: ٢] زيادة في التقرير والبيان.

٣ - الطباق ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ [المجادلة: ٧] لأن معنى أدنى (أقل) فصار الطباق بينها وبين «أكثر».

٤ - عطف الخاص على العام تنبيهًا على شرفه ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ فإن ﴿والذين أُوتُواْ العلم﴾ دخلوا في المؤمنين أولًا ثم خُصُّوا بالذكر ثانيًا تعظيمًا لهم.

٥ - الاستعارة ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾ استعار اليدين لمعنى قبل، أي: قبل نجواكم.

٦ - الاستفهام والمراد منه التعجيب ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم ..﴾.

٧ - الجناس الناقص بين ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ و ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ لتغير الرسم.

٨ - المقابلة بين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ وبين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِ..﴾ الآية.

٩ - تحلية الجملة بفنون المؤكدات مثل: «ألا، وإنَّ، وهم» في قوله ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

١٠ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ، ٱلۡكَٰذِبُونَ، خَٰلِدُونَ، يَعۡمَلُونَ﴾.

لطيفَة: روى الإمام أحمد عن أبي الطفيل أن «نافع بن عبد الحارث» لقي عمر بن الخطاب بعسفان وكان عمر استعمله على مكة فقال عمر: من استخلفت على أهل البوادي؟ فقال: استخلفت عليهم «ابن أبزى» فقال: ومن ابن أبزى؟ فقال: رجلٌ من موالينا فقال عمر:

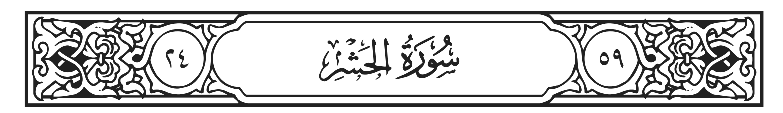
(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٦٨.

استخلفت عليهم مولى؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قارئٌ لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاضٍ، فقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه: أما إِن نبيكم ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»[1].

«انتهى تفسير سورة المجادلة»



(١) (ش): ورواه مسلم.



مدنية وآياتها أربع وعشرون

بين يدي السورة

* سورة الحشر مدنية وهي تعني بجانب التشريع شأن سائر السور المدنية، والمحور الرئيس الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث عن «غزوة بني النضير» وهم اليهود الذين نقضوا العهد مع الرسول ﷺ فأجلاهم عن المدينة المنورة، ولهذا كان ابن عباس يسمى هذه السورة «سورة بني النضير» وفي هذه السورة الحديث عن المنافقين الذين تحالفوا مع اليهود، وبإيجاز هي السورة «الغزوات، والجهاد؛ والفيء، والغنائم».

* ابتدأت سورة الكريمة بتنزيه الله وتمجيده، فالكون كله بما فيه من إنسان، وحيوان، ونبات، وجماد، شاهد بوحدانية الله وقدرته وجلاله، ناطق بعظمته وسلطانه ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

* ثم ذكرت السورة بعض آثار قدرته، ومظاهر عزته بإجلاء اليهود من ديارهم وأوطانهم، مع ما كانوا فيه من الحصون والقلاع، وكانوا يعتقدون أنهم في عزة ومنعة لا يستطيع أحد عليهم[1]، فجاءهم بأس الله وعذابه من حيث لم يكن في حسابهم ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ...﴾ الآيات.

* ثم تناولت السورة موضوع الفيء والغنيمة، فبينت شروطه وأحكامه، ووضحت الحكمة من تخصيص الفيء بالفقراء، لئلا يستأثر به الأغنياء، وليكون هناك بعض التعادل بين طبقات المجتمع، بما فيه خير الفريقين، وبما يحقق المصلحة العامة ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ...﴾ الآيات.

* وتناولت السورة أصحاب رسول الله ﷺ بالثناء العاطر، فنوهت بفضائل المهاجرين ومآثر الأنصار، فالمهاجرون هجروا الديار والأوطان حبًّا في الله، والأنصار نصروا دين الله، و آثروا إخوانهم -المهاجرين- بالأموال والديار على أنفهسم مع فقرهم وحاجهتم ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ..﴾ الآيات.

* وفي مقابلة ذكر المهاجرين والأنصار، ذكرت السورة المنافقين الأشرار، الذين تحالفوا مع اليهود ضد الإسلام، وضربت لهم أسوأ الأمثال، فمثلتهم بالشيطان الذي يغري الإنسان

---

(١) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، ولعل الصواب: «لا يستطيع أحدٌ الدخول عليهم» أو «لا يستطيع أحدٌ التغلب عليهم».

بالكفر والضلال ثم يتخلى عنه ويخذله، وهكذا كان شأن المنافقين مع إخوانهم اليهود ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ الآيات.

* ووعظت السورة المؤمنين بتذكير ذلك اليوم الرهيب، الذي لا ينفع فيه حسب ولا نسب، ولا يفيد فيه جاه ولا مال، وبينت الفارق الهائل بين أهل الجنة وأهل النار، ومصير السعداء ومصير الأشقاء في دار العدل والجزاء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ الآيات.

* وختمت السورة بذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا وبتنزيهه عن صفات النقص ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ

اللغَة: ﴿ٱلْحَشْرِ﴾ الجمع، وسمي يوم القيامة يوم الحشر لأنه يوم اجتماع الناس للحساب والجزاء ومنه ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾ [النمل: ١٧] أي جمع له الجنود ﴿وَقَذَفَ﴾ ألقى وأنزل بشدة ﴿ٱلْجَلَآءَ﴾ الخروج من الوطن مع الأهل والولد ﴿شَآقُّوا۟﴾ عادَوْا وخالَفوا ﴿لِّينَةٍ﴾ بكسر اللام

النخلة القريبة من الأرض، الكريمة الطيبة، سميت لِينَة لجودة ثمرها وأنشد الأخفش:

قَدْ شَجَانِي الْحَمَامُ حِينَ تَغَنَّى   بِفِرَاقِ الْأَحْبَابِ مِنْ فَوْقِ لِينَهْ[١]

﴿أَوۡجَفۡتُمۡ﴾ الوجيف: سرعة السير يقال: أوجف البعيرَ إذا حثَّه وحمَله على السير السريع ﴿دُولَةَۢ﴾ بضم الدال الشيء الذي يتداول من الأموال، وينتقل من يد إلى يد ﴿خَصَاصَةٞ﴾ فقر واحتياج ﴿غِلّٗا﴾ حِقدًا وضغينة.

سَبَبُ النّزول: لما نقض اليهود «بنو النضير» العهد مع رسول الله ﷺ حاصرهم ﷺ وأمر بقطع نخيلهم وإِحراقه إِهانةً لهم وإِرعابًا لقلوبهم، فقالوا يا محمد: ألست تزعم أنك نبيٌّ؟ وأنك تنهى عن الفساد؟ فما بالك تأمر بقطع الأشجار وتحريقها؟ فأنزل الله تعالى ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ..﴾[٢] الآية.

التفسِير: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي نزَّه الله تعالى ومجَّده وقدَّسه جميع ما في السموات والأرض مِن ملَكٍ، وإِنسان، وجماد، وشجر كقوله تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] قال ابن كثير: يخبر تعالى أن جميع ما في السموات والأرض يسبح له ويُمجده ويقدِّسه ويُوحِّده[٣] ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي وهو العزيز في ملكه، الحكيمُ في صنعه ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ بيانٌ لبعض آثار قدرته تعالى الباهرة وعزته الظاهرة أي هو جلَّ وعلا الذي أخرج يهود بني النضير من مساكنهم بالمدينة المنورة ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِ﴾ أي في أول مرة حُشروا وأخرجوا فيها من جزيرة العرب، إِذ لم يصبهم هذا الذل قبل ذلك قال البيضاوي: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صالح «بني النضير» على ألاَّ يكونوا معه ولا عليه، فلما ظهر يوم بدر قالوا: إِنه النبي المنعوتُ في التوراة بالنصرة لا تُردُّ له راية، فلما هُزم المسلمون يوم أُحد ارتابوا ونكثوا، وخرج «كعب بن الأشرف» في أربعين راكبًا إِلى مكة وحالفوا «أبا سفيان» فأمر رسول الله ﷺ «محمد بن مسلمة» أخا كعبٍ من الرضاعة فقتَله غيلةً[٤]، ثم صبَّحهم بالكتائب وحاصرهم، حتى صالحوه على الجلاء، فجلا أكثرهم إلى الشام، ولحقت طائفة بخيبر، فذلك قوله ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِ﴾ قال الألوسي: ومعنى ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِ﴾[٥] أن هذا أول حشرهم إلى الشام

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٩. (ش): شجِيَ المُحِبُّ: اهتمَّ وحزن وأهاجَتْه الذّكرى.

(٢) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢٨٣. (ش): ضعيف جدًا، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره». وعَن ابْن عُمَرَ - رضى الله عنهما - قَالَ حَرَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَخلَ بَنِى النَّضِيرِ وَقَطَعَ فَنَزَلَتْ ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٦٩.

(٤) (ش): قتَله غِيلَةً: قتَله على غفلةٍ منه، قتَله بواسطة خُدْعة. وقصة مقتل كعب بن الأشرف رواها البخاري.

(٥) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٤٦٩.

-أي اول ما حُشروا وأُخرجوا-ونبَّه بلفظ ﴿لِأَوَّلِ﴾ على أنهم لم يصبهم جلاءٌ قبله[١] ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾ أي ما ظننتم أيها المؤمنون أن يخرجوا من أوطانهم وديارهم بهذا الذل والهوان، لعزتهم ومنعتهم، وشدة بأسهم، حيث كانوا أصحاب حصون وعقار، ونخيلٍ وثمار ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي وظنوا أن حصونهم الحصينة تمنعهم من بأس الله، وتدفع عنهم عذابه وانتقامه قال البيضاوي: والأصل أن يُقال: وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم من بأس الله، وتغييرُ النظم بتقديم الخبر وإسناد الجملة إلى ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بكونها حصينة، بحيث ظنوا أنه لا يخرجهم منها أحد لأنهم في عزة ومنعة[٢] ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ أي فجاءهم بأسُ الله وعذابه من حيث لم يكن في حسابهم، ولم يخطر ببالهم[٣] ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أي وألقى في قلوب بني النضير الخوف الشديد، مما أضعف قوتهم، وسلبهم الأمن والطمأنينة، حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ وفي الحديث «وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مِنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ»[٤] ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يهدمون بيوتهم بأيديهم من الداخل، وأيدي المؤمنين من الخارج قال المفسرون: كانوا بنو النضير قبل إجلائهم عن ديارهم يخربون بيوتهم فيقلعون العَمَد، وينقضون السقوف، وينقبون الجدران[٥]، لئلا يسكنها المؤمنون حسدًا منهم وبغضًا، وكان المسلمون يخربون سائر الجوانب من ظاهرها ليقتحموا حصونهم ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي فاتعظوا بما جرى عليهم يا ذوي العقول والألباب ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ أي ولولا أن الله تعالى قضى عليهم بالخروج من أوطانهم مع الأهل والأولاد ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي لعذبهم في الدنيا بالسيف كما فعل بإخوانهم بني قريظة ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ أي ولهم مع عذاب الدنيا عذاب جهنم المؤبد ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي ذلك الجلاء والعذاب بسبب أنهم خالفوا الله وعادَوْه وعصَوْا أمره، وارتكبوا ما ارتكبوا من جرائم، ونقضٍ للعهود في حق

---

(١) «تفسير الألوسي» ٢٨/ ٣٩.

(٢) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ٤٧٠.

(٣) (ش): ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ أي أَخَذَهُمْ وَدَهَاهُمْ وَبَاغَتَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا. (أَتى): تأتي بعدة معان، مِنْهَا: بِمَعْنَى الْمَجِيءِ، وَمِنْهَا بِمَعْنَى الْإِنْذَارِ، وَمِنْهَا بِمَعْنَى الْمُدَاهَمَةِ. وَيُقَالُ: أُتِيَ فُلَانٌ بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَكَسْرِ التَّاءِ إِذَا أَظَلَّ عَلَيْهِ الْعَدُوُّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: «مِنْ مَأْمَنِهِ يُؤْتَى الْحَذِرُ»، أَمَّا مَعْنَى الْآيَةِ، فَإِنَّ سِيَاقَ الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مِثْلَ هَذَا السِّيَاقِ لَيْسَ مِنْ بَابِ الصِّفَاتِ كَمَا فِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾، أَيْ هَدَمَهُ وَاقْتَلَعَهُ مِنَ قَوَاعِدِهِ، [انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨/ ١٨)].

(٤) (ش): رواه أحمد بهذا اللفظ، ورواه البخاري بلفظ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ». الرعب: الخوف والفزع، كأن أعداءه قد أوقع الله في قلوبهم الخوف منه ﷺ وبينهم وبينه مسيرة شهر فإذا كان كذلك فزعوا منه ورهبوه.

(٥) (ش): عَمَدٌ وعُمُدٌ: أعمدة: جمع عمود. نقَب البناءَ أو نقَب الحائطَ: ثقَبه، وفتح فيه ثُغرةً.

رسوله ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي ومن يخالف أمر الله، ويُعَادِ دينَه فاللهُ ينتقم منه لأن عذابه شديد، وعقابه أليم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].. ثم أخبر تعالى أن كل ما جرى من المؤمنين من قطع النخيل، وإحراق بعض الأشجار المثمرة، فإنما كان بأمر الله وإرادته فقال ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي ما قطعتم أيها المؤمنون من شجرة نخيل، أو تركتموها كما كانت قائمة على سوقها فبأمر الله وإرادته ورضاه ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي وليغيظَ اليهود ويُذِلَّهم، بقَطْع أشجارهم ونخيلهم قال الرازي: المعنى إنما أَذِنَ تعالى في ذلك حتى يزداد غيظ الكفار، وتتضاعف حسرتهم، بسبب نفاذ حكم أعدائهم في أعزِّ أموالهم[1] قال المفسرون: لما حصار رسول الله ﷺ بني النضير، كان بعض الصحابة قد شرع يقطع ويحرق في نخيلهم، إهانةً لهم وإرعابًا لقلوبهم، فقالوا: ما هذا الإفساد يا محمد؟ إنك كنت تنهى عن الفساد، فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة[2] ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ أي وما أعاد الله وردَّه غنيمة على رسوله من أموال يهود بني النضير ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ أي لم تسيروا إليه خيلكم ولا ركابكم، ولا تعبتم في تحصيله -قال القرطبي-: يقال: وجَفَ البعير وجيفًا إذا أسرع السير، وأوجفه صاحبه إذا حمَلَه على السير السريع، والرِّكاب، ما يُركَبُ من الإبل- والمعنى: لم تَقْطعوا إليها شُقةً، ولا لقِيتُم بها حربًا ولا مشقة، وإنما كانت من المدينة على ميلين، فافتتحها رسول الله ﷺ صلحًا، وأجلاهم عنها وأخذ أموالهم، فجعلها الله لرسوله ﷺ خاصة يضعها حيث شاء[3] ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي ولكنه تعالى من سنته أن ينصر رسله بقذف الرعب في قلوب أعدائه، من غير أن يقاسوا شدائد الحروب ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو تعالى قادرٌ على كل شيءٍ، لا يُغالَب ولا يُمانَع ولا يُعجِزُه شيء ثم بيَّن تعالى حكم الفيء عامةً وهو ما يغنمه المسلمون بدون حرب فقال ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي ما جعله الله غنيمةً لرسوله بدون قتال من أموال الكفار قال ابن عباس: هي قريظة، والنضير، وفَدَك، وخَيْبر[4] ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ أي فحكمها أنها لله تعالى يضعها حيث يشاء، ولرسوله يصرفها على نفسه وعلى مصالح المسلمين ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ أي ولأقرباء الرسول من بني هاشم وعبد المطلب، ولليتامى الذين مات آباؤهم، وللمساكين ذوي الحاجة والفقر ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وللغريب المنقطع في سفره قال في التسهيل: لا تعارض بين هذه الآية وبين آية الأنفال، فإن آية الأنفال في حكم الغنيمة التي

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) «التفسير الكبير للرازي» ٢٩/ ٢٨٣.

(٣) انظر «مختصر ابن كثير» ٣٨/ ٤٧١، و«البحر المحيط» ٨/ ٢٤٤، وانظر سبب النزول السابق.

(٤) «تفسير الخازن» ٤/ ٦٠.

تؤخذ بالقتال وإيجاف الخيل والركاب، فتلك يؤخذ منها الخمس ويقسم الباقي على الغانمين، وأما هذه ففي «حكم الفيء» وهو ما يؤخذ من الكفار من غير قتال فلا تعارض بينهما ولا نسخ، وقد قرر الفقهاء الفرق بين الغنيمة والفيء، وأنَّ حكمهما مختلف، فالغنيمة ما أُخذت بالقتال، والفيءُ ما أُخذ صلحًا، وانظر كيف ذكر هنا لفظ الفيء ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ وذكر في الأنفال لفظ الغنيمة ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم﴾[1] [الأنفال: ٤١] ! ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ﴾ أي لئلا ينتفع بهذا المال ويستأثر به الأغنياء دون الفقراء، مع شدة حاجة الفقراء للمال قال القرطبي: أي فعلنا ذلك كيلا يتقاسمه الرؤساء والأغنياء بينهم دون الفقراء والضعفاء، لأن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا أخذ الرئيس ربعها لنفسه وهو المرباعُ ثم يصطفي منها أيضًا ما يشاء[2] قال المفسرون: إن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير على المهاجرين فإنهم كانوا حنيئذٍ فقراء، ولم يُعط الأنصار منها شيئًا فإنهم كانوا أغنياء، فقال بعض الأنصار: لنا سهمنا من هذا الفيء فأنزل الله هذه الآية ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ أي ما أمركم به الرسول ﷺ فافعلوه، وما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بكل خير وصلاح، وينهى عن كل شرٍّ وفساد قال المفسرون: والآية وإن نزلت في أموال الفيء، إلا أنها عامة في كل ما أمر به النبي ﷺ أو نهى عنه من واجب، أو مندوب، أو مستحب، أو محرم، فيدخل فيها الفيء وغيره[3]، عن ابن مسعود أنه قال: «لَعَنَ اللهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُوتَشِمَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ. فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِى أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ، فَجَاءَتْ فَقَالَتْ إِنَّهُ بَلَغَنِى أَنَّكَ لَعَنْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ. فَقَالَ وَمَا لِى لاَ أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَنْ هُوَ فِى كِتَابِ اللهِ فَقَالَتْ لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ مَا تَقُولُ. قَالَ لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ، أَمَا قَرَأْتِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾»[4]؟ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي خافوا ربكم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه أي فإن عقابه أليم وعذابه شديد، لمن عصاه وخالف ما أمره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ هذا متعلقٌ بما سبق من حكم الفيء كأنه يقول: الفيءُ والغنائم لهؤلاء الفقراء المهاجرين الذين أَلْجَأَهُم كفارُ مكة إلى الهجرة من أوطانهم، فتركوا الديار والأموال، ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي قاصدين بالهجرة إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالصفات

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٠٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٦.

(٣) انظر «التفسير الكبير للرازي» ٢٩/ ٢٨٦.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم، قال العلماء: الوشم هو غرْز العضو من الإنسان بالإبرة ثم يُحشَى بكحل، والمستوشمة هي التي تطلب أن يفعل بها ذلك، والنامصة هي التي تنتف الشعر من الوجه، والمتفلجة هي التي تتكلف تفريج ما بين أسنانها من أجل الحُسْن، وكل ذلك مَنْهِيٌّ عنه لأن فيه تغييرًا لخلق الله.

الحميدة هم الصادقون في إيمانهم قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال، والأهلين والأوطان، حبًا لله ورسوله، حتى إن الرجل منهم كان يعصب الحجر على بطنه ليُقيم به صُلبه من الجوع[١] ثم مدح تعالى الأنصار وبيَّن فضلهم وشرفهم فقال ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي والذين اتخذوا المدينة منزلًا وسكنًا وآمنوا قبل كثيرٍ من المهاجرين وهم الأنصار قال القرطبي: أي تبوءوا الدار من قبل المهاجرين، واعتقدوا الإيمان وأخلصوه، والتبوؤ: التمكن والاستقرار، وليس يريد أن الأنصار آمنوا قبل المهاجرين، بل أراد آمنوا قبل هجرة النبي ﷺ إليهم[٢] ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي يحبون إخوانهم المهاجرين ويواسونهم بأموالهم قال الخازن: وذلك أنهم أنزلوا المهاجرين في منازلهم، وأشركوهم في أموالهم[٣] ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي ولا يجد الأنصار حزازةً[٤] وغيظًا وحسدًا مما أُعطِيَ المهاجِرون من الغنيمة دُونَهم قال المفسرون: إن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير بين المهاجرين ولم يُعْطِ الأنصار منها شيئًا إلا ثلاثة منهم، فطبت أنفس الأنصار بتلك القسمة ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي يفضلون غيرهم بالمال على أنفسهم ولو كانوا في غاية الحاجة والفاقة إليه[٥]، فإيثارهم ليس عن غِنًى عن المال، ولكنّه عن حاجة وفقر، وذلك غاية الإيثار ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾أي ومن حماه الله وسلم من البخل فقد أفلح ونجح، والشُّحُّ هو البخل الشديد مع الجشع والطمع، وهو غريزة في النفس ولذلك أضيف إليها، قال ابن عمر: ليس الشح أن يمنع الرجل ماله، إنما الشحُّ أن تطمع عينه فيما ليس له[٦] وفي الحديث «وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»[٧] ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين المستحقين للإحسان والفضل، وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ أي يدعون لهم قائلين: يا ربنا اغفر لنا ولإخواننا المؤمنين الذين سبقونا بالإيمان قال أبو السعود: وصفهم بالسبق بالإيمان اعترافًا بفضلهم، لأن أخوة الدين عندهم أعزُّ وأشرف من النسب[٨] ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٩.
(٢) «تفيسر القرطبي» ١٨/ ٢٠.
(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ٦٢.
(٤) (ش): حَزَازة: عداوة أو ضغينة.
(٥) (ش): فاقَةٌ: فَقرٌ؛ حاجة؛ ضيقُ الحال.
(٦) «حاشية الصاوي» ٤/ ١٩٠.
(٧) أخرجه مسلم.
(٨) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٥٢.

﴿قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي ولا تجعل في قلوبنا بغضًا وحسدًا لأحدٍ من المؤمنين ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مبالغٌ في الرأفة والرحمة فاستجب دعاءنا، قال ابن كثير: وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الغنيمة شيء لعدم اتصافه بأوصاف المؤمنين[(١)]، وقال شيخ زادة: بيَّن تعالى أن مِن شأنِ مَن جاء مِن بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السابقين بالرحمة والدعاء، فمن لم يكن كذلك بل ذكرهم بسوء فقد كان خارجًا عن جملة أقسام المؤمنين بمقتضى هذه الآيات، وقد روي عن الشعبي أنه قال: تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة، سئلت اليهود: من خير أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب موسى، وسئلت النصارى فقالوا: أصحاب عيسى، وسئلت الرافضة من شرُّ أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحابُ محمد ﷺ أُمِرُوا بالاستغفار لهم فسَبُّوهم، فالسيفُ عليهم مسلول إلى يوم القيامة[(٢)].. اللهم ارزقنا محبة أصحاب نبيك الكريم.

قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى أوصاف المؤمنين الصادقين، أعقبه بذكر أوصاف المنافقين

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٤٧٥.

(٢) «حاشية زاده على البيضاوي» ٣/ ٤٧٧.

المخادعين، الذين تركوا نصرة المؤمنين وصادقوا اليهود وحالفوهم على حرب المسلمين، ثـم ذكر البون الشاسع بيـن أصحاب النار وأصحـاب الجنة، وأنهم لا يستوون في الحال ولا المآل، وختم السورة الكريمة بذكر بعض أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا.

اللغـة: ﴿شَتَّىٰ﴾ متفرقة تشـتَّت جمعُهم أي تفـرقَ ﴿خَٰشِعٗا﴾ ذليلًا خاضعًا ﴿مُّتَصَدِّعٗا﴾ متشـققًا، تصـدَّع البنيان، أي: تشـقق ﴿ٱلۡقُدُّوسُ﴾ المنـزَّه عن كل نقـص وعيب ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ المصـدّق لرسله بالمعجـزات ﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ الرقيـب علـى كل شـيء ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ القوي الغالـب ﴿ٱلۡجَبَّارُ﴾ العظيم القاهر، صاحب العظمة والجـبروت ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُ﴾ المبالغ في الكبرياء والعظمة ﴿ٱلۡبَارِئُ﴾ المبدع المخترع ﴿ٱلۡمُصَوِّرُ﴾ خالق الصور.

التفسـير: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ تعجيبٌ من الله تعالى لرسـوله من حال المنافقين أي ألا تعجـب يا محمد من شـأن هؤلاء المنافقيـن الذين أظهروا خلاف مـا أضمروا؟ ﴿يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي يقولـون ليهـود بنـي قريظة والنضيـر الذين كفروا برسـالة محمد ﷺ: ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ﴾ أي لئـن أخرجتم من المدينة لنخرجنَّ معكـم منهـا قال في التسـهيل: نزلت في عبـد الله بن أُبي بن سـلول وقوم مـن المنافقين، بعثوا إلـى بنـي النضير وقالـوا لهم: اثبتوا في حصونكم فإنـا معكم كيف ما تقلبـت حالكم[1]، وإنما جعـل المنافقين إخوانهم لأنهم كفار مثلهـم ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا﴾ أي ولا نطيع أمر محمد في قتالكم، ولا نسـمع من أحدٍ إذا أمرنـا بخذلانكم ﴿وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ﴾ أي ولئن قاتلكم أحـد لنعاوننكـم على عدوكـم ونكون بجانبكـم ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي والله يشـهد إن المنافقيـن لكاذبـون فيما قالوه ووعدوهم به.. ثم أخبر الله عن حـال المنافقين بالتفصيل فقال ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ﴾ أي لئـن أخـرج اليهـود لا يخرج المنافقـون معهم ﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ﴾ أي ولئـن قوتـل اليهـود لا ينصرهم المنافقـون ولا يقاتلون معهم قـال القرطبي: وفي هـذا دليل علـى صحة نبوَّة محمد ﷺ مـن جهة أمر الغيب، لأنهم أُخرجـوا فلم يخرجوا معهـم، وقوتلوا فلم ينصروهم كما أخبر عنهـم القرآن[2] ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي ولئـن جـاءوا لنصرتهـم وقاتلوا معهم على سـبيل الفرض والتقدير فسـوف ينهزمـون، ثـم لا ينفعهم نصرة المنافقين قـال الإمام الفخر: أخبر تعالـى أن هؤلاء اليهود لئن أخرجـوا فإن المنافقين لا يخرجون معهـم وقد كان الأمر كذلك، فإن بني النضير لما أُخرجوا لـم يخـرج معهم المنافقون وقُوتلـوا كذلك فما نصروهم وأما قولـه تعالى ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ﴾ فهذا على سبيل الفرض والتقدير أي بتقدير أنهم أرادوا نصرتهم لا بدّوأن، يتركوا تلك النصرة

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١١٠. (ش): ذكره بدون إسناد.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٣٤.

وينهزموا[١] ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي لأنتم يا معشر المسلمين أشدُّ خوفًا وخشيةً في قلوب المنافقين من الله، فإنهم يرهبون ويخافون منكم أشدَّ من رهبتهم من الله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي ذلك الخوف منكم بسبب أنهم لا يعلمون عظمة الله تعالى حتى يخشوه حقَّ خشيته قال القرطبي: أي لا يفقهون قدر عظمة الله وقدرته[٢] ثم أخبر تعالى عن اليهود والمنافقين بأنهم جبناء من شدة الهلع، وأنهم لا يقدرون على قتال المسلمين إلا إذا كانوا متحصِّنين في قلاعهم وحصونهم فقال ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ أي لا يقدرون على مقاتلتكم مجتمعين إلا إذا كانوا في قرى محصَّنة بالأسوار والخنادق ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ أي أو يكونوا من وراء الحيطان ليتستروا بها، لفرط جبنهم وهلعهم ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي عداوتهم فيما بينهم شديدة ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ أي تظنهم مجتمعين على أمرٍ ورأي في الصورة ذوي ألفةٍ واتحاد، وهم مختلفون غاية الاختلاف لأن أراءهم مختلفة، وقلوبهم متفرقة قال قتادة: أهل الباطل مختلفةٌ آراؤهم، مختلفة أهواؤهم، مختلفةٌ شهادتهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق[٣] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي ذلك التفرق والشتات بسبب أنهم لا عقل لهم يعقلون به أمر الله. قال في البحر: وموجب ذلك التفرق والشتات هو انتفاء عقولهم، فهم كالبهائم لا تتفق على حالة[٤] ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ أي صفةُ بني النضير فيما وقع لهم من الجلاء والذل، كصفةِ كفار مكة فيما وقع لهم يوم بدر من الهزيمة والأسر قال البيضاوي: أي مثل اليهود كمثل أهل بدر، أو المهلكين من الأمم الماضية في زمان قريب[٥] ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي ذاقوا سوء عاقبة إجرامهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولهم عذاب شديد موجعٌ في الآخرة ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ أي مثل المنافقين في إغراء اليهود على القتال، كمثل الشيطان الذي أغرى الإنسان بالكفر ثم تخلى عنه وخذله ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ أي فلما كفر الإنسان تبرأ منه الشيطان وقال ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أخاف عذاب الله وانتقامه إن كفرتُ به قال في التسهيل: هذا مثلٌ، مثَّل اللهُ المنافقين الذين أغووا يهود بني النضير ثم خذلوهم بعد ذلك بالشيطان الذي يُغوي ابن آدم ثم يتبرأ منه، والمراد بالشيطان والإنسان هنا الجنس[٦]، وقولُ الشيطان ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ كذبٌ منه ورياءٌ لأنه لو خاف الله لامتثل أمره وما عصاه[٧] ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢٨٩.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٣٥.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ٦٦.

(٤) تفسير البحر ٨/ ٢٤٩.

(٥) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٤٧٨.

(٦) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١١٠.

(٧) قال ابن كثير: أي مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين، كمثل الشيطان إذ سول للإنسان الكفر ثم تبرأ منه وتنصل وقال: إني أخاف الله رب العالمين. المختصر ٣/ ٤٧٦.

أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ أي فكان عاقبة المنافقين واليهود، مثل عاقبة الشيطان والإِنسان، حيث صارا إِلى المؤبدة ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي وذلك عقاب كل ظالم فاجر، منتهكٍ لحرمات الله والدين.. ولمَّا ذكر صفات كل من المنافقين واليهود وضرب لهم الأمثال، وعظ المؤمنين بموعظةٍ حسنة، تحذيرًا من أن يكونوا مثل من تقدم ذكرهم فقال ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي خافوا الله واحذروا عقابه، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي ولتنظر كلُّ نفسٍ ما قدَّمت من الأعمال الصالحة ليوم القيامة قال ابن كثير: انظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعَرْضكم على ربكم[1]، وسُمي يوم القيامة غدًا لقرب مجيئه ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧] والتنكير فيه للتفخيم والتهويل[2] ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ كرَّره للتأكيد ولبيان منزلة التقوى التي هي وصية الله تعالى للأولين والآخرين ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي ولا تكونوا يا معشر المؤمنين كالذين تركوا ذكر الله ومراقبته وطاعته، فأنساهم حقوق أنفسهم والنظر لها بما يصلحها قال أبو حيان: وهذا من المجازاة على الذنب بالذنب، تركوا عبادة الله وامتثال أوامره، فعوقبوا على ذلك بأن أنساهم حظَّ أنفسهم[3]، حتى لم يقدموا لهما خيرًا ينفعها ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ أي أولئك هم الفجرة الخارجون عن طاعة الله ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي لا يتساوى يوم القيامة الأشقياء والسعداء، أهل النار وأهل الجنة في الفضل والرتبة ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي أصحاب الجنة هم الفائزون بالسعادة الأبدية في دار النعيم، وذلك هو الفوز العظيم.. ثم ذكر تعالى روعة القرآن، وتأثيره في الصُمِّ الراسيات من الجبال[4] فقال ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي لو خلقنا في الجبل عقلًا وتمييزًا كما خلقنا للإِنسان، وأنزلنا عليه هذا القرآن، بوعده ووعيده، لخشع وخضع وتشقق، خوفًا من الله تعالى، ومهابةً له وهذا تصويرٌ لعظمة قدر القرآن، وقوة تأثيره، وأنه بحيث لو خوطب به جبلٌ على شدته وصلابته لرأيته ذليلًا متصدعًا من خشية الله، والمراد منه توبيخ الإِنسان بأنه لا يتخشع عند تلاوة القرآن، بل يُعرِض عما فيه من عجائب وعظائم، فهذه الآية في بيان عظمة القرآن، ودناءة حال الإِنسان[5] وقال في البحر: والغرضُ توبيخ

---

(١) «تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٧٧.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٥٤.

(٣) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٥١.

(٤) (ش): صُمّ: جمع أصمُّ: مُصْمَت، صُلْب متين.

(٥) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٧٩.

الإنسان على قسوة قلبه، وعدم تأثره بهذا الذي لو أُنزل على الجبلُ لتخشَّع وتصدَّع، وإذا كان الجبل على عظمته وتصلبه يعرض له الخشوع والتصدع، فابن آدم كان أولى بذلك، لكنه على حقارته وضعفه لا يتأثر[١] ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي وتلك الأمثال نفصّلها ونوضحها للناس لعلهم يتفكرون في آثار قدرة الله ووحدانيته فيؤمنون.. ثم لما وصف القرآن بالرفعة والعظمة، أَتْبَعَه بشرح عظمة الله وجلاله فقال ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي هو جلَّ وعلا الإله المعبود بحق لا إله ولا رب سواه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي عالم السر والعلن، يعلم ما غاب عن العباد مما لم يبصروه، وما شاهدوه وعلموه ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي هو تعالى ذو الرحمة الواسعة في الدنيا والآخرة ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرر اللفظ اعتناءً بأمر التوحيد، أي: لا معبود ولا رب سواه[٢] ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ أي المالك لجميع المخلوقات، المتصرف في خلقه بالأمر والنهي، والإيجاد والإعدام ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ أي المُنَزَّه عن القبائح وصفات الحوادث قال في التسهيل: القُدُّوسُ مشتقٌ من التقديس وهو التنزه عن صفات المخلوقين، وعن كل نقص وعيب، والصيغة للمبالغة كالسبُّوح[٣]، وقد ورد أن الملائكة تقول في تسبيحها: «سبُّوح قُدُّوس، ربُّ الملائكة والروح»[٤] ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ أي الذي سلِمَ الخلقُ من عقابه، وأمِنُوا من جَوْرِه ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] وقال البيضاوي: أي ذو السلامة من كل نقص وآفة، وهو مصدر وُصِفَ به للمبالغة[٥] ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ أي المصدِّق لرسله بإظهار المعجزات على أيديهم ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ أي الرقيبُ الحافظ لكل شيء وقال ابن عباس: الشهيد على عباده بأعمالهم الذي لا يغيب عنه شيء[٦] ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي القادر القاهر الذي لا يُغلب ولا يناله ذل ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ أي القهار العالي الجناب الذي يذلّ له مَن دُونه قال ابن عباس: هو العظيم الذي إذا أراد أمرًا فعله، وجبروتُ الله عظمته[٧] ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ أي الذي له الكبرياء حقًا ولا تليق إلا به وفي الحديث القدسي: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ ثُمَّ قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»[٨] قال الإمام الفخر: واعلم

---

(١) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٥١.

(٢) (ش): أي لا معبود بحقٍّ إلا الله.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١١١.

(٤) (ش): لم أجد ما يدل على ذلك. وكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِى رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ « سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٥) «تفسير الخازن» ٤/ ٧٢.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٤٧.

(٧) «تفسير الخازن» ٤/ ٧٢.

(٨) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٤٧. (ش): الذي في الأصل في أكثر من طبعة: «الْعَظَمَةُ إِزَارِي، والْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهِمَا قَصَمْتُهُ وَلَا أُبَالِي»، والمُثبت هنا منقول من «تفسير القرطبي». قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «الْعِزُّ إِزَارُهُ =

أن المتكبر في صفة الناس صفة ذم، لأن المتكبر هو الذي يُظهر من نفسه الكِبْر، وذلك نقصٌ في حق الخلق، لأنه ليس له كبر ولا علو، بل ليس له إلا الذلة والمسكنة، فإذا أظهر العلو كان كاذبًا فكان مذمومًا في حق الناس، وأما الحقُّ سبحانه فله جميع أنواع العلو والكبرياء، فإذا أظهر فقد أرشد العباد إلى تعريف جلاله وعظمته وعلوه، فكان ذلك في غاية المدح في حقه جل وعلا[1]، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزَّه الله وتقدَّس في جلاله وعظمته، عمَّا يلحقون به من الشركاء والأنداد ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ﴾ أي هو جل وعلا الإله الخالق لجميع الأشياء، المُوجِد لها من العدم، المُنشِئ لها بطريق الاختراع ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ أي المبدع للأشكال على حسب إرادته ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦] قال الخازن: أي الذي يخلق صورة الخلق على ما يريده[2] ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي له الأسماء الرفيعة الدالة على محاسن المعاني ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ينزهه تعالى عن صفات العجز والنقص جميع ما في الكون بلسان الحال أو المقال قال الصاوي: ختم السورة كما ابتدأها به إشارة إلى أنها المقصود الأعظم، والمبدأ والنهاية، وأن غاية المعرفة بالله تنزيه عظمته عما صَوَّرَتْه العقول[3] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي العزيز في ملكه، الحكيم في خلقه وصنعه.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - طباق السلب ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢].

٢ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ وبين ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

٣ - وضع الضمير بين المبتدأ والخبر لإفادة الحصر ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [الحشر: ٩] شبَّه الإيمان المتمكن في نفوسهم، بمنزلٍ ومستقر للإنسان نزل فيه وتمكَّن منه حتى صار منزلًا له، وهو من لطيف الاستعارة.

٥ - الاستفهام الذي يراد به الإنكار والتعجيب ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ..﴾ الآية.

٦ - الطباق بين جميعًا وشتى في قولهم ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾.

٧ - التشبيه التمثيلي ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ ..﴾ وجه الشبه منتزع من متعدد.

= وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ» (رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه، وصححه الألباني). «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي رِدَائِي قَصَمْتُهُ». (رواه الحاكم وصححه).

(١) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٢٩٤.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٧٣.

(٣) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٩٤.

٨ - الكناية اللطيفة ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ كَنَّى عن القيامة بالغد لقربها.

٩ - الطباق بين ﴿ٱلۡغَيۡبِ .. وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وبين ﴿ٱلۡجَنَّةِ .. ٱلنَّارِ﴾ إلخ.

لطيفة: أخرج الشيخان عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْه قال: «جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله، إني مجهود - أي اشتد بي الجوع والفاقة - فأرسلَ إلى بعض نسائه يسألها هل عندك شيء؟ فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا الماء، ثم أرسل إلى أُخرى فقالت مثل ذلك، وقلن كلهن مثل ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللهُ». فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: أَبُو طَلْحَةَ، فقال: أنا يا رسول الله! فانطلق به إلى رحله -أي إلى منزله- فقال لها: هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخري عنه شيئًا وأكرميه، فقالت: ما عندي إلا قوتُ الصبيان، فقال، عَلِّلِيهِم بشيء ونوِّمِيهِم، فإذا دخل ضيفنا فأريه أنا نأكل ثم قومي إلى السراج كي تصلحيه فأطْفِئيه، ففعلت فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاوِيَيْن، فلما أصبح غدَا على رسول الله ﷺ فلما نظر إليه رسول الله ﷺ تبسم، ثم قال: «لَقَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ» وأنزل الله ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ ..﴾ »[الحشر: ٩] الآية[١].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحشر»

❀ ❀ ❀ ❀

---

(١) (ش): ليس في هذا الحديث دليل على الاختلاط بين الرجال والنساء، فقد كان هذا قبل نزول آيات الحجاب، وما ورد من الأحاديث مِمَّا ظاهرُه عدم الحجاب، فإنه يُحمَل على أن ذلك كان قبل نزول آيات الحجاب. وبيان ذلك أن هذه القصة كانت سببًا في نزول قوله تعالى: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ (الحشر: ٩)، وهي آية من سورة الحشر وقد نزلت سورة الحشر كلها في إثْر إجلاء بني النضير، ولذلك كان يسميها عبد الله بن عباس سورة بني النضير، كما أخرج ذلك البخاري في صحيحه عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: «قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: «سُورَةُ التَّوْبَةِ؟»، قَالَ: «التَّوْبَةُ هِيَ الْفَاضِحَةُ، مَا زَالَتْ تَنْزِلُ وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا لَمْ تُبْقِ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا». قُلْتُ: «سُورَةُ الأَنْفَالِ؟». قَالَ: «نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ». قُلْتُ: «سُورَةُ الْحَشْرِ؟». قَالَ: «نَزَلَتْ فِي بَنِي النَّضِيرِ». وقد أجلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بني النضير على أكثر الأقوال في سنة أربع، وباتفاق أهل العلم أن الأحزاب كانت بعد إجلاء بني النضير؛ فهذا يعني أن الآية الكريمة نزلت قبل الحجاب بالإجماع، وأن القصة التي نزلت الآية بشأنها، وجاءت متقدمة على نزول الآية كانت قبل سورة الأحزاب المتضمنة لآيات الحجاب؛ فيكون أمر هذه القصة كله قبل نزول أحكام الحجاب. (إِلَّا قُوت صِبْيَانِي) يَحْتَمِل أَنْ يَكُون هُوَ وَامْرَأَته تَعَشَّيَا وَكَانَ صِبْيَانهمْ حِينَئِذٍ فِي شُغْلهمْ أَوْ نِيَامًا فَأَخَّرُوا لَهُمْ مَا يَكْفِيهِمْ، أَوْ نَسَبُوا الْعَشَاء إِلَى الصِّبْيَة لِأَنَّهُمْ إِلَيْهِ أَشَدّ طَلَبًا. (طَاوِيَيْنِ) أَيْ بغَيْرِ عَشَاء. (فَانْطَلَقَ بِهِ إلى رَحْلِهِ) إلى مَنْزِلِه. (فَعَلِّلِيهِمْ): علَّلَه بكذا: شَغَلَه به وأَلْهاهُ وَصَبَّرَهُ. وفِعْلُهُمَا هَذَا مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّ الصِّبْيَانَ لَمْ يَكُونُوا مُحْتَاجِينَ إِلَى الْأَكْلِ وَإِنَّمَا تَطْلُبُهُ أَنْفُسُهُمْ عَلَى عَادَةِ الصِّبْيَانِ مِنْ غَيْرِ جُوعٍ يَضُرُّهُمْ فَإِنَّهُمْ لَوْ كَانُوا عَلَى حَاجَةٍ بِحَيْثُ يَضُرُّهُمْ تَرْكُ الْأَكْلِ لَكَانَ إِطْعَامُهُمْ وَاجِبًا وَيَجِبُ تَقْدِيمُهُ عَلَى الضِّيَافَةِ وَقَدْ أَثْنَى اللهُ وَرَسُولُهُ ﷺ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ وَامْرَأَتِهِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمَا لَمْ يَتْرُكَا وَاجِبًا بَلْ أَحْسَنَا وَأَجْمَلَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. وَأَمَّا هُوَ وَامْرَأَتُهُ فَآثَرَا عَلَى أَنْفُسِهِمَا بِرِضَاهُمَا مَعَ حَاجَتِهِمَا وَخَصَاصَتِهِمَا فَمَدَحَهُمَا اللهُ تَعَالَى وَأَنْزَلَ فِيهِمَا ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾. [انظر: شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٢)، فتح الباري لابن حجر (٧/ ١١٩)، الاختلاط بين الرجال والنساء (٢/ ٤١٩ -٤٢٠) لمحقق هذا الكتاب].



مدنية وآياتها ثلاث عشرة

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية، التي تهتم بجانب التشريع، ومحور السورة يدور حول فكرة «الحب والبغض في الله» الذي هو أوثق عرى الإيمان، وقد نزل صدر السورة عتابًا لحاطب بن أبي بلتعة حين كتب كتابًا لأهل مكة يخبرهم أن الرسول ﷺ قد تجهز لغزوهم، كما ذكر تعالى حكم موالاة أعداء الله، وضرب الأمثال في إبراهيم والمؤمنين في تبرئهم من المشركين، وبين حكم الذين لم يقاتلوا المسلمين، وحكم المؤمنات المهاجرات وضرورة امتحانهن، وغير ذلك من الأحكام التشريعية.

* ابتدأت السورة الكريمة بالتحذير من موالاة أعداء الله، الذين آذوا المؤمنين حتى اضطروهم إلى الهجرة وترك الديار والأوطان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ ...﴾ الآيات. ثم بينت السورة أن القرابة والنسب والصداقة في هذه الحياة لن تنفع الإنسان أبدًا يوم القيامة، حيث لا ينفع الإنسان إلا الإيمان والعمل الصالح ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ...﴾ الآيات.

* ثم ضربت المثل في إيمان إبراهيم عليه السلام وأتباعه المؤمنين، حين تبرءوا من قومهم المشركين، ليكون ذلك حافزًا لكل مؤمن على الاقتداء بأبي الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن حكم الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ وحكم الذين قاتلوا المؤمنين وآذوهم ﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ ...﴾ الآيات.

* وبينت السورة وجوب امتحان المؤمنات عند الهجرة، وعدم ردهن إلى الكفار إذا ثبت إيمانهن، وقررت عدم الاعتداد بعصمة الكافر، ثم حكم مبايعة النساء للرسول ﷺ وشروط هذه البيعة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ...﴾ الآيات وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ الآيات.

* وختمت السورة بتحذير المؤمنين من موالاة أعداء الله الكافرين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ وهكذا ختمت السورة بمثل ما بدأت به من التحذير من موالاة أعداء الله، ليتناسق الكلام في البدء والختام.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ

اللغة: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أصدقاء وأحِبّاء جمع وليّ وهو الصديق والناصر والمعين ﴿يَثْقَفُوكُمْ﴾ يظْفروا بكم ويتمكَّنوا منكم، وأصل الثقف الحذقُ في إدراك الشيء وفِعله، ومنه قولهم! «رجلٌ ثَقِفٌ لَقِفٌ»[1] ثم استُعمِل في الظفر والإدراك مطلقًا[2] ﴿أُسْوَةٌ﴾ قدوة يقتدى به

---

(١) (ش): يقال: «إنه ثَقِفٌ لَقِفٌ»، إذا كان جيد الحَذر في القتال، بصيرًا بمواقع القتل. ويقال: «إنه ثَقِفٌ لَقِفٌ»، إذا كان سريع الْأَخذ لما يُرْمَى إِلَيْهِ بِالْيَدِ وسريع الْفَهم لما يُرْمَى إِلَيْهِ من كَلَامٍ بِاللِّسَانِ. ويقال: «إنه ثَقِفٌ لَقِفٌ» إِذَا كَانَ مُحْكَمًا لِمَا يَتَنَاوَلُهُ مِنَ الْأُمُورِ.

(٢) «تفسير الألوسي» ٢٨/ ٦٨.

﴿أَرْحَامُكُمْ﴾ جمع رحم وهو في الأصل رحم المرأة، واشتهر في القرابة حتى صار كالحقيقة فيها ﴿وَظَاهَرُواْ﴾ أعانوا ﴿عِصَمِ﴾ جمع عِصْمة وهي ما يعتصم ويتمسك به الإنسان من حبلٍ أو عقد والمراد به هنا عقد النكاح ﴿ٱلْكَوَافِرِ﴾ جمع كافرة وهي التي لا تؤمن بالله.

سَبَبُ النّزول: «لما تجهز رسول الله ﷺ لفتح مكة، كتب «حاطب بن أبي بلتعة» إلى أهل مكة يخبرهم بذلك وقال لهم: إن رسول الله ﷺ يريد أن يغزوكم فخذوا حذركم، ثم أرسل الكتاب مع ظعينةٍ -أي امرأةٍ- مسافرة فنزل الوحي على رسول الله ﷺ يخبره بذلك، فبعث رسول الله ﷺ عليًّا، والزبير، والمقداد وقال: «انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ[1]، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً[2] وَمَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوهُ مِنْهَا». فخرجْنَا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، فقلنا لها: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فقال لها: لتخرجنَّ الكتاب أو لنُلْقِيَنَّ الثياب. فأخرجته من عِقاصها[3]، فأتينا به النبي ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناسٍ من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: «مَا هَذَا يَا حَاطِبُ؟» فقال: يَا رَسُولَ اللهِ، لاَ تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ، يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ كُفْرًا وَلاَ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي. قَالَ عُمَرُ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ. فقال عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ..﴾» الآية[4].

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي يا معشر المؤمنين، يا من صدقتم بالله ورسوله[5]، لا تتخذوا الكفار الذين هم أعدائي وأعداؤكم أصدقاء وأحباء، فإنَّ من علامة الإيمان بغض أعداء الله لا مودتهم وصداقتهم قال في التسهيل: نزلت عتابًا لحاطب وزجرًا عن أن يفعل أحد مثل فعله، وفيها مع ذلك تشريفٌ له لأن الله شهد له بالإيمان في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[6] ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي تحبُّونهم وتودُّونهم وتُصادِقونهم مع أنهم

---

(١) روضة خاخ: مكان على بعد قليل من المدينة.

(٢) (ش): الظَّعِينَةُ: المرأة في الهودج. والهودج، مقعد ذو قُبّة يوضع على ظَهر الجمل لتركب فيه النِّساء، كانت فيه المرأة أو لم تكن.

(٣) عقاصها: ضفائر شعرها.

(٤) أخرجه الشيخان وانظر روح المعاني ٢٨/ ٦٥، والقرطبي ١٨/ ٥٠.

(٥) (ش): تفسيرُ الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالفٌ لِمَا عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٦) «التسهيل» ٤/ ١١٢.

أعداء ألِدَّاء لكم[١] قال القرطبي: أي تخبرونهم بسرائر المسلمين وتنصحون لهم[٢] ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم﴾ أي والحال أنهم كافرون بدينكم وبقرآنكم الذي أنزله الله عليكم بالحق الواضح ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي يُخرِجون محمدًا من مكة ظلمًا وعدوانًا كما يُخرِجون أيضًا منها المؤمنين قال في البحر: وقدَّم الرسول تشريفًا له ولأنه الأصلُ للمؤمنين[٣]، ومعنى إخراجهم أنهم ضيقوا عليهم وآذوهم حتى خرجوا منها مهاجرين إلى المدينة ﴿أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي من أجل أنكم آمنتم بالله الواحد الأحد كقوله ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ شرطٌ حذف جوابه، أي: إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيل الله طلبًا لرضوانه فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء قال الألوسي: وجوابُ الشرط محذوف دلَّ عليه ما تقدم كأنه قيل: لا تتولَّوْا أعدائي إنْ كُنتم أوليائي[٤] ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ أي تسرون إليهم بالنصيحة وأنا العالم بسريرتكم وعلانيتكم، لا يخفى عَلَيَّ شيءٌ من أحوالكم؟ والغرض منه التوبيخُ والعتاب ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي ومن يصادِق أعداءَ الله، ويُفْشِ أسرار الرسول[٥]، فقد حاد عن طريق الحق والصواب.. ثم أخبر تعالى المؤمنين بعداوة الكفار الشديدة لهم، المستحكمة في قلوبهم فقال ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ أي إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم، يُظهِروا ما في قلوبهم من العداوة الشديدة لكم ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي يمدوا إليكم أيديهم بالضرب والقتل، وألسنتهم بالشتم والسب ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي وقد تمنوا أن تكفروا لتكونوا مثلهم قال الزمخشري: وإنما أورده بذكر الماضي ﴿وَوَدُّواْ﴾ بعد أن ذكر جواب الشرط بلفظ المضارع ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ لأنهم أرادوا كفرهم قبل كل شيء[٦] كقوله تعالى ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩] ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ أي لن تفيدكم قراباتكم ولا أولادكم الذين توالون الكفار من أجلهم يوم القيامة شيئًا، فلن يجلبوا لكم نفعًا، ولن يدفعوا عنكم ضُرًّا قال الصاوي: هذه تخطئةٌ لحاطب في رأيه كأنه قال: لا تحْمِلْكم قراباتُكم وأولادُكم الذين بمكة، على خيانة رسول الله ﷺ والمؤمنين، ونَقْل

(١) (ش): لدَّ الشَّخْصَ: خاصَمَه خُصُومةً شديدة. ألدّاءُ: جمع أَلَدُّ: شديد الخصومة. أَلِدَّة: جمع لَدود: صيغة مبالغة من لدَّ: شديد الخصومة.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٥٢.

(٣) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٥٣.

(٤) «تفسير الألوسي» ٢٨/ ٦٧. (ش): في أكثر من طبعة: «لا تتخذوا أعدائي إن كنتم أوليائي»، وهو خطأ طباعي واضح، والمُثبَت من «تفسير الألوسي».

(٥) (ش): أفشى السِّرَّ/ أفشى بالسِّرِّ: نشره، أذاعَه، أعطَى معلوماتٍ عنه، كشفه.

(٦) «الكشاف» ٤/ ٢٩٥.

أخبارهم وموالاة أعدائهم، فإنه لا تنفعكم الأرحام ولا الأولاد الذين عصيتم الله من أجلهم[١] ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب، يحكم الله بين المؤمنين والكافرين، فيُدخِل المؤمنين جنات النعيم، ويُدخِل المجرمين دركات الجحيم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي مطلّع على جميع أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي قد كان لكم يا معشر المؤمنين قُدوة حسنةٌ في الخليل إبراهيم ومن معه من المؤمنين ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي حين قالوا للكفار: إننا متبرءون منكم ومن الأصنام التي تعبدونها من دون الله ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي كفرنا بدينكم وطريقتكم ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ أي وظهرت بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاء إلى الأَبد ما دمتم على هذه الحالة ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ أي إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده، وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك والأوثان قال المفسرون: أمر الله المؤمنين أن يقتدوا بإبراهيم الخليل عليه السلام وبالذين معه في عداوة المشركين والتبرؤ منهم، لأن الإيمان يقتضي مقاطعة أعداء الله وبغضهم ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ أي إلا في استغفار إبراهيم لأبيه فلا تقتدوا به، فإنه إنما استغفر لأبيه المشرك رجاء إسلامه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ هذا من تتمة كلام إبراهيم لأبيه، أي: ما أدفع عنك من عذاب الله شيئًا إن أشركت به، ولا أملك لك شيئًا غير الاستغفار ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ أي عليك اعتمدنا في جميع أمورنا ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أي وإليك رجعنا وتبنا ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وإليك المرجع والمعاد في الدار الآخرة قال المفسرون: إن إبراهيم وعد أباه بالاستغفار كما في سورة مريم قال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] واستغفر له بالقول فعلًا كما في سورة الشعراء ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦] وكلُّ هذا كان رجاء إسلامه، ثم رجع عن ذلك لمَّا تيقَّن كفره كما في سورة التوبة ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا بعذاب لا نطيقه[٢] وقال مجاهد: أي لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذابٍ من عندك فيقولوا: لو كان هؤلاء على الحق لما أصابهم ذلك ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ أي اغفر لنا ما فرط من الذنوب[٣] ﴿رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي أنت يا الله الغالب الذي لا يَذِلّ من التجأ إليه، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما فيه الخير والمصلحة، وتكرار النداء للمبالغة في التضرُّع

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ١٩٥.

(٢) القول الأول مروي عن ابن عباس، والثاني قول مجاهد. والأول هو الأرجح لأنه دعاءٌ لأنفسهم بعدم تمكين الكفار من رقابهم، وهو اختيار ابن عطية.

(٣) (ش): أي اغفر لنا ما سبق من الذنوب.

والجُـؤَار[١] ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي لقـد كان لكم في إبراهيـم ومن معه من المؤمنين قدوةٌ حسـنة في التبرُّؤ من الكفار قال أبو السـعود: والتكريرُ للمبالغة في الحثِّ على الاقتداء به عليه السـلام ولذلك صُدِّر بالقسـم[٢] ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي لمن كان يرجو ثواب الله تعالـى، ويخـاف عقابـه في الآخـرة ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي ومـن يُعـرض عن الإيمـان وطاعة الرحمن، فإن الله مُستَغْنٍ عن أمثاله وعن الخلـق أجمعين، وهو المحمود في ذاتـه وصفاتـه ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ أي لعـلَّ الله جل وعلا يجعل بينكم وبين الذين عاديتموهم من أقاربكم المشـركين محبةً ومودة، محبةً بعد البغضاء، وأُلفةً بعد الشـحناء قال في التسـهيل: لما أمر الله المسـلمين بعداوة الكفار ومقاطعتهم، على ما كان بينهـم وبيـن الكفار من القرابـة والمودة، وعلم الله صدقهم آنسـهم بهذه الآيـة، ووعدهم بأن يجعل بينهم مودة، أي: محبة، وهذه المودة كملت في فتح مكة فإنه أسلم حينئذٍ سائر قريش[٣]، وجمع الله الشـمل بعد التفرق وقال الرازي: و(عسـى) وعدٌ من الله تعالى وقد حقق تعالى ما وعدهم به من اجتماع كفار مكة بالمسـلمين، ومخالطتهـم لهم حين فتح مكة[٤] ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أي قادر لا يعجزه شيء، يقدر على تقليب القلوب وتغيير الأحوال ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة، لمن تاب إليه وأناب ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ أي لا ينهاكم عن البر بهؤلاء الذين لم يحاربوكم لأجل دينكم، ولم يخرجوكم من أوطانكم كالنساء والصبيان، ولفظة ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ في موضع جر بـ «عن» أي لا ينهاكم جلَّ وعلا عن البر والإحسـان لهؤلاء ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي تعدلـوا معهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي يحـب العادليـن في جميع أمورهم وأحكامهم قال ابن عباس: نزلت في خزاعة، وذلك أنهم صالحوا رسول الله ﷺ على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحدًا، فرخَّص الله في برهم والإحسان إليهـم[٥]. وروي «عن أسـماء بنت أبي بكر أنها قالـت: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهْيَ مُشْـرِكَةٌ في عهد قريـش حيـن عاهدوا رسـول الله ﷺ تعني في صلح الحديبية فأتيتُ رسـول الله ﷺ فقلت: يا رسـول الله، إِنَّ أُمِّـي قَدِمَـتْ وَهْـيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِـلُ أُمِّي؟» قـال: « نَعَمْ صِلِي أُمَّـكِ» فأنزل الله

(١) (ش): تضرَّع فلانٌ إلى الله/ تضرَّع فلانٌ لله: تذلّلَ وخضع له، تقرَّب وتوسَّل إليه، ابتهَل إليه ودعاه. جأَر فلانٌ إلى الله جَأْرًا وجُؤَارًا: رفع صوتَه بالدعاء وتضرّع إلى الله.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٥٧.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١١٤.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٣٠٣.

(٥) «التفسر الكبير» للرازي ٢٩/ ٣٤. (ش): ذكره الرازي بدون إسناد، فقال: «اخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ: فَالْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّهُمْ أَهْلُ الْعَهْدِ الَّذِينَ عَاهَدُوا رَسُولُ الله ﷺ عَلَى تَرْكِ الْقِتَالِ، وَالْمُظَاهَرَةِ فِي الْعَدَاوَةِ، وَهُمْ خُزَاعَةُ كَانُوا عَاهَدُوا الرَّسُولَ عَلَى أَنْ لَا يُقَاتِلُوهُ وَلَا يُخْرِجُوهُ، فَأَمَرَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْبِرِّ وَالْوَفَاءِ إِلَى مُدَّةِ أَجَلِهِمْ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ».

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾[(١)] الآية ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ أي إنما ينهاكم الله عن صداقة ومودة الذين ناصبوكم العداوة، وقاتلوكم لأجل دينكم، وأعانوا أعداءكم على إخراجكم من دياريكم، أن تتولَّوهم فتتخذوهم أولياء وأنصارًا وأحبابًا ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي ومن يصادق أعداء الله ويجعلهم أنصارًا وأحبابًا، فأولئك هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ أي اختبروهنَّ لتعلموا صدق إيمانهنَّ قال المفسرون: «كان صلح الحديبية الذي جرى بين رسول الله ﷺ وكفار مكة قد تضمن أن مَن أتى أهل مكة من المسلمين لم يُردَّ إليهم، ومن أتى المسلمين من أهل مكة يعني المشركين رُدَّ إليهم، فجاءت «أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط» مهاجِرةً إلى رسول الله ﷺ، فخرج في أثرها أخواها «عُمارة» و«الوليد» فقالوا للنبي ﷺ: رُدَّها علينا بالشرط، فقال ﷺ: «كان الشرطُ في الرجال لا في النساء» فأنزل الله الآية[(٢)]، قال ابن عباس: كانت المرأة تُستحلف أنها ما هاجرت بغضًا لزوجها، ولا طمعًا في الدنيا، وأنها ما خرجت إلا حبًّا لله ورسوله، ورغبةً في دين الإسلام[(٣)] ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ أي الله أعلم بصدقهن في دعوى الإيمان، لأنه تعالى المطّلع على قلوبهن، والجملة اعتراضية لبيان أن هذا الامتحان بالنسبة للمؤمنين، وإلا فالله عالمٌ بالسرائر لا تخفى عليه خافية ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أي فإن تحققتم بإيمانهن بعد امتحانهن فلا تردوهنَّ إلى أزواجهن الكفار ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أي لا تحل المؤمنة للمشرك، ولا يحل للمؤمن نكاح المشركة قال الألوسي: والتكرير للتأكيد والمبالغة في الحرمة وقطع العلاقة بين المؤمنة والمشرك[(٤)] ﴿وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا﴾ أي أعطوا أزواجهن الكفار ما أنفقوا عليهن من المهور قال في البحر: أمر أن يُعطى الزوج الكافر ما أنفق على زوجته إذا أسلمَتْ، فَلَا يُجْمَعُ عَلَيْهِ خُسْرَانُ الزَّوْجِيَّةِ وَالْمَالِيَّةِ[(٥)] ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي ولا حرج ولا إثم عليكم أن تتزوجوا هؤلاء المهاجرات إذا دفعتم لهن مهورهنَّ قال الخازن: أباح الله للمسلمين نكاح المهاجرات من دار الحرب إلى دار الإسلام وإن كان لهن أزواج كفار لأن الإسلام فرَّق بينهن وبين أزواجهنَّ الكفار، وتقع الفرقة بانقضاء عدتها[(٦)]

(١) أخرجه الشيخان وأحمد.

(٢) (ش): ضعيف، أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى».

(٣) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٥٦.

(٤) «تفسير الألوسي» ٢٨/ ٧٦.

(٥) «البحر المحيط» ٨/ ٢٥٧. (ش): في أكثر من طبعة: «فلا يُجمع عليه خُسران الزوجة والمالية»، والمُثبَت هنا من «البحر المحيط».

(٦) «تفسير الخازن» ٤/ ٧٩.

﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ أي ولا تتمسكوا بعقود زوجاتكم الكافرات، فليس بينكم وبينهن عصمة ولا علاقة زوجية قال القرطبي: المراد بالعصمة هنا النكاحُ، يقول: من كانت له امرأةٌ كافرة بمكة فلا يعتد بها فليست امرأته، فقد انقطعت عصمتُها لاختلاف الدارين[١] ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ أي اطلبوا يا أيها المؤمنون ما أنفقتم من المهر إذا لحقتْ أزواجكم بالكفار، وليطلبوا هم أي المشركون ما أنفقوا على أزواجهم المهاجرات قال ابن العربي: كان من ذهب من المسلمات مرتداتٍ إلى الكفار يقال للكفار: هاتوا مهرها، ويقال للمسلمين إذا جاءت إحدى الكافرات مسلمةً مهاجرة: ردُّوا إلى الكفار مهرها، وكان ذلك نَصَفًا وعدلًا بين الحالتين[٢] ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ أي ذلك هو شرعُ الله وحكمه العادل بينكم وبين أعدائكم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بمصالح العباد، حكيم في تشريعه لهم، يشرع ما تقتضيه الحكمة البالغة ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٌ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ أي وإن فرَّتْ زوجةُ أحدٍ من المسلمين ولحقَتْ بالكفار ﴿فَعَاقَبۡتُمۡ﴾ أي فغزوتم وغَنِمتُم وأصبتم من الكفار غنيمة ﴿فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ أي فأعطوا لمن فرَّت زوجته، مثل ما أنفق عليها من المهر، من الغنيمة التي بأيديكم قال ابن عباس: يعني إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار، أمَرَ لَهُ رسولُ الله ﷺ أن يُعطى مثل ما أنفق من الغنيمة[٣] قال القرطبي: لما نزلت الآية السابقة ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ قال المسلمون: رضينا بما حكم اللهُ، وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا فنزلت هذه الآية[٤] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي وراقبوا الله في أقوالكم وأفعالكم، واحذروا عذابه وانتقامه إن خالفتم أوامره ﴿ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ أي الذي آمنتم وصدقتم بوجوده[٥]، فإن من مستلزمات الإيمان تقوى الرحمن.

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٦٥. (ش): لاختلاف الدارين: أي دار الإسلام ودار الكفر. ودار الإسلام: هي البلاد التي غالب أهلها مسلمون، وهم فيها آمنون وتقام فيها شعائر الإسلام كالأذان والصلاة جماعة والجُمَع والأعياد الشرعية والصوم والحج وما أشبه ذلك على وجه عام شامل. ودار الكفر: هي البلاد التي تقام فيها شعائر الكفر ولا تقام فيه شعائر الإسلام كالأذان والصلاة جماعة، والأعياد، والجمعة على وجه عام شامل. أما البلاد التي تقام فيه هذه الشعائر على وجه محصور كبلاد الكفار التي فيها أقليات مسلمة فإنها لا تكون بلاد إسلام بما تُقيمه الأقليات المسلمة فيها من شعائر الإسلام.

ودار الكفر تنقسم إلى قسمين:

١- دار الحرب: وهي أراضي الدولة الكافرة التي أعلنت الحرب على المسلمين.

٢- دار العهد: وهي أراضي الدولة الكافرة التي ارتبطت بمعاهدات عدم اعتداء مع المسلمين.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٦٨.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٨٦. (ش): ضعيف، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره».

(٤) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٦٨ ثم نقل القرطبي عن قتادة أن هذا الحكم قد نسخ بسورة براءة.

(٥) (ش): ليس الإيمان مجرد التصديق بوجود الله. وتفسير الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

ولما فتح رسول الله ﷺ مكة جاء نساء أهل مكة يُبايعْنَه على الإسلام، كما بايعه الرجال فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[١] أي إذا جاء إليك النساء المؤمنات للبيعة فبايعْهُنَّ على هذه الأمور الستة الهامة، وفي مقدمتها عدم الإشراك بالله جلَّ وعلا ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ أي ولا يرتكبن جريمة السرقة ولا جريمة الزنى، التي هي من أفحش الفواحش ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ أي ولا يئدن البنات كما كان يفعله أهل الجاهلية خوف العار أو خشية الفقر، قال ابن كثير: وهذا يشمل قتله بعد وجوده، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق أو العار، ويعمُّ قتله وهو جنينٌ كما يفعله بعض النساء الجاهلات، تُطرح نفسها لئلا تحبل، إمّا لغرضٍ فاسد أو ما أشبهه[٢] ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي لا تنسب إلى زوجها ولدًا لقيطًا ليس منه تقول له: هذا ولدي منك قال المفسرون: كانت المرأة إذا خافت مفارقة زوجها لها لعدم الحمل، التقطت ولدًا ونسبته له ليبقيها عنده، فالمراد بالآية اللقيط، وليس المراد الزنى لتقدمه في النهي صريحًا[٣] قال ابن عباس: لا تُلحق بزوجها ولدًا ليس منه، وقال الفراء: كانت المرأة تلتقطُ المولود فتقول لزوجها: هذا ولدي منك، وإنما قال ﴿يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ لأن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها[٤] ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ أي ولا يخالِفْن أمْرك فيما أمَرْتَهُنَّ به من معروف، أو نَهَيْتَهُن عن منكر، بل يسمَعْن ويُطِعْن ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ أي فبايعهن يا محمد على ما تقدم من الشروط، واطلب لهنَّ من الله الصفح والغفران لما سلف من الذنوب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة وعظيم الرحمة قال أبو حيان: «كانت» بيعة النساء «في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا، بعدما فرغ من بيعة الرجال، وكان رسول الله ﷺ على الصفا وعمر أسفل منه، يبايعهنَّ بأمره ويبلغهنَّ عنه[٥]، وما مست يده عليه السلام يد امرأةٍ أجنبيةٍ قطُّ[٦]، وقالت «أسماء بنتُ السكن»: كنتُ في النسوة المبايعات،

---

(١) (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٨٩.

(٣) انظر «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٠٠، و«تفسير أبي السعود» ٥/ ١٥٨، وتفسير الرازي ٢٩/ ٣٠٨.

(٤) روح المعاني للألوسي ٢٨/ ٨٠.

(٥) (ش): رواه بن أبي حاتم بإسناد ضعيف.

(٦) (ش): عن عائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: كَانَتِ الْمُؤْمِنَاتُ إِذَا هَاجَرْنَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يُمْتَحَنَّ بِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ. قَالَتْ عَائِشَةُ فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ فَقَدْ أَقَرَّ بِالْمِحْنَةِ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَقْرَرْنَ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِنَّ قَالَ لَهُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ « انْطَلِقْنَ فَقَدْ بَايَعْتُكُنَّ ». وَلاَ وَاللهِ مَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ. غَيْرَ أَنَّهُ يُبَايِعُهُنَّ بِالْكَلاَمِ – قَالَتْ عَائِشَةُ وَاللهِ مَا أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى النِّسَاءِ قَطُّ إِلاَّ بِمَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى وَمَا مَسَّتْ كَفُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَفَّ امْرَأَةٍ قَطُّ وَكَانَ يَقُولُ لَهُنَّ إِذَا أَخَذَ عَلَيْهِنَّ « قَدْ بَايَعْتُكُنَّ ». كَلاَمًا. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

فقلت: يا رسول الله ابسط، يدك نبايعك، فقال لي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إني لا أصافح النساء، لكنْ آخُذُ عليهنَّ ما أخَذ اللهُ عليهنَّ[١] وكانت «هند بنت عُتبة» - وهي التي شقت بطن حمزة يوم أحد[٢] - متنكرة في النساء، فلما قرأ عليهن الآية ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ﴾ قالت وهي متنكرة: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح، وإني لأصيب الهَنَة أي القليل وبعض الشيء من ماله، لا أدري أيحل لي ذلك أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيءٍ فيما مضَى وفيما غبَر فهو لك حلال[٣]، فضحك رسول الله ﷺ وعرفَها فقال لها: «وإنك لهند بنتُ عتبة»؟ قالت: نعم فاعفُ عما سلف يا نبيَّ الله، عفا الله عنك، فلما قرأ ﴿وَلَا يَزۡنِينَ﴾ قالت: أو تزني الحُرة؟ فلما قرأ ﴿وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾ قالت: ربيناهم صغارًا وقتلتهم كبارًا فلأنتم وهم أعلم -وكان ابنها حنظلة قد قُتل يوم بدر- فضحك عمر حتى استلقى، وتبسم رسول الله ﷺ فلما قرأ ﴿وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾ قالت هند: والله إن البهتان لأمرٌ قبيح، ولا يأمر اللهُ إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فلما قرأ ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾ قالت: واللهِ ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء»[٤] وأخرج الإمام أحمد عَنْ أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ، «أخت السيدة خديجة وخالة فاطمة الزهراء قَالَتْ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فِي نِسَاءٍ نُبَايِعُهُ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا مَا فِي الْقُرْآنِ: أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا: الْآيَةَ، قَالَ: «فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ». قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا. قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا تُصَافِحُنَا؟ قَالَ: «إِنِّي لَا أُصَافِحُ النِّسَاءَ، إِنَّمَا قَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، كَقَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ[٥] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي لا تصادقوا يا معشر المؤمنين الكفرة أعداء الدين، ولا

---

(١) (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.وعَنْ أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ، قَالَتْ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فِي نِسَاءٍ نُبَايِعُهُ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا مَا فِي الْقُرْآنِ: أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا الْآيَةَ، قَالَ: «فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ». قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا. قُلْنَا: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا تُصَافِحُنَا؟». قَالَ: «إِنِّي لَا أُصَافِحُ النِّسَاءَ، إِنَّمَا قَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، كَقَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ» (رواه الإمام أحمد، وصححه الألباني).

(٢) (ش): ثبت في الأحاديث الصحيحة التمثيلُ بجثة حمزة رضي الله عنه وشَقُّ بطنِه بعد استشهاده. أما ما ورد من استخراج كبده وتناول هند بنت عتبة رضي الله عنها منها وعدم استساغتها إياها فلا يثبت فيه شَيء. فهند بريئة من هذا الفعل المشين. وإن صح ذلك فقد كان هذا قبل إسلامهما، ثم بعد ذلك أسلمت وحَسُن إسلامها. والإِسْلَامُ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ كما قال النبي ﷺ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٣) (ش): عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ هِنْدَ بِنْتَ عُتْبَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، وَلَيْس يُعْطِينِى مَا يَكْفِينِى وَوَلَدِى، إِلاَّ مَا أَخَذْتُ مِنْهُ وَهْوَ لاَ يَعْلَمُ فَقَالَ: «خُذِى مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالْمَعْرُوفِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٤) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٥٨، وانظر «التفسير الكبير للرازي» ٢٩/ ٣٠٧. (ش): رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف. وروَى بعضَه ابن أبي حاتم في «تفسيره» بإسناد ضعيف. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/ ٩٩): «وَهَذَا أَثَرٌ غَرِيبٌ، وَفِي بَعْضِهِ نَكَارَةٌ، وَاللهُ أَعْلَمُ؛ فَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ وَامْرَأَتَهُ لَمَّا أَسْلَمَا لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخِيفُهُمَا، بَلْ أَظْهَرَ الصَّفَاءَ وَالْوُدَّ لَهُ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ مِنْ جَانِبِهِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَهُمَا».

(٥) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي. (ش): صححه الألباني.

تتخذوهم أحباء وأصدقاء توالونهم وتأخذون بآرائهم، فإنهم قوم غضب الله عليهم ولعنهم قال الحسن البصري: هم اليهود لقوله تعالى ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] وقال ابن عباس: هم كفار قريش لأن كلكافر عليه غضبٌ من الله[١]، والظاهر أن الآية عامة كما قال ابن كثير: يعني اليهود والنصارى وسائر الكفار، ممن غضب الله عليه ولعنه[٢] ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي أولئك الفجار الذين يئسوا من ثواب الآخرة ونعيمها ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أي كما يئس الكفار المكذبون بالبعث والنشور، من أمواتهم أن يعودوا إلى الحياة مرة ثانية بعد أن يموتوا، فقد كانوا يقولون: إذا مات لهم قريب أو صديق: هذا آخر العهد به، ولن يبعث أبدًا[٣].

ختم تعالى السورة الكريمة بمثل ما فتحها به وهو النهي عن موالاة الكفار أعداء الله، وهو بمثابة التأكيد للكلام، وتناسق الآيات في البدء والختام، وهو من البلاغة في مكان.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق في قوله ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ لأن الإخفاء يطابق الإعلان.

٢ - العتاب والتوبيخ ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ﴾ الآية.

٣ - تقديم ما حقه التأخير لإفادة الصيغة للحصر ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾، والأصل توكلنا عليك، وانبنا إليك.. الخ.

٤ - صيغة المبالغة ﴿قَدِيرٌ، غَفُورٌ، رَّحِيمٌ﴾ وهو كثير في القرآن ومثله ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٥ - طباق السلب ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية.

٦ - الجملة الاعتراضية ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ للإشارة إلى أن للإنسان الظاهر والله يتولى السرائر.

٧ - العكسُ والتبديلُ ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ وهو من أنواع البديع.

٨ - الكناية اللطيفة ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ نَّى بذلك عن اللقيط، وهي من لطائف الكنايات.

٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ كما أنه فيه من المحسنات البديعية ما يسمى رد العجز على الصدر، حيث ختم السورة بمثل ما ابتدأها ليتناسق البدء مع الختام.

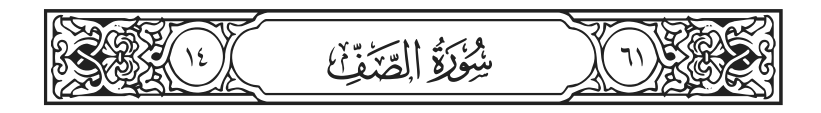
«تم بعونه تعالى تفسير سورة الممتحنة»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٢٥٩.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٩٠.

(٣) هذا هو الراجح من تفسير الآية الكريمة وهو خلاصة قول ابن عباس وقتادة والحسن، وقال مجاهد معناه أنهم يئسوا من نعيم الآخرة كما يئس الكفار الذين هم في القبول من كل خير، والأول أظهر والله أعلم.



مدنية وآياتها أربع عشرة

بين يدي السورة

* سورة الصف هي إحدى السور المدنية، التي تعنى بالأحكام التشريعية، وهذه السورة تتحدث عن موضوع «القتال» وجهاد أعداء الله، والتضحية في سبيل الله لإعزاز دينه، وإعلاء كلمته، وعن التجارة الرابحة التي بها سعادة المؤمن في الدنيا والآخرة، ولكن المحور الذي تدور عليه السورة هو «القتال»، ولهذا سميت سورة الصف.

* ابتدأت السورة الكريمة -بعد تسبيح الله وتمجيده- بتحذير المؤمنين من إخلاف الوعد، وعدم الوفاء بما التزموا به ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

* ثم تحدثت عن قتال أعداء الله بشجاعة المؤمن وبسالته، لأنه يقاتل من أجل غرض نبيل، وهو رفع منار الحق، وإعلاء كلمة الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾.

* وتناولت السورة بعد ذلك موقف اليهود من دعوة موسى وعيسى عليهما السلام، وما أصابهما من الأذى في سبيل الله، وذلك تسلية لرسول الله ﷺ فيما ناله من كفار مكة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن سنة الله في نصرة دينه، وأنبيائه، وأوليائه، وضربت المثل للمشركين في عزمهم على محاربة دين الله، بمن يريد إطفاء نور الشمس بفمه الحقير ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

* ودعت السورة المؤمنين إلى التجارة الرابحة، وحرضتهم على الجهاد في سبيل الله بالنفس والنفيس، لينالوا السعادة الكبيرة الدائمة مع النصرة العاجلة في الدنيا، وخاطبتهم بأسلوب الترغيب والتشويق ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآيات.

* وختمت السورة بدعوة أهل الإيمان إلى نصرة دين الرحمن، كما فعل الحواريون أصحاب عيسى حين دعاهم إلى نصرة دين الله فاستجابوا ونصروا الحق والرسول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ...﴾ وهكذا يتناسق البدء مع الختام في أبدع بيان وإحكام.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴿٤﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٩﴾

اللغَة: ﴿سَبَّحَ﴾ التسبيح تمجيد الله وتنزيهه عما لا يليق به من صفات النقص ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ الغالب الذي لا يُغلب ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء في مواضعها ويفعل ما تقتضيه الحكمة ﴿مَقۡتًا﴾ بُغضًا قال الزمخشري: المقتُ: أشدُّ البغض وأبلغه وأفحشه[1] ﴿مَّرۡصُوصٞ﴾ المتماسك المتلاصق بعضه ببعض قال الفراء: رصصتُ البناء إذا لائمتُ بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة[2] ﴿زَاغُوٓاْ﴾ مالوا عن الهدى والحق ﴿ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات الواضحات.

سَبَبُ النّزول: روي أن المسلمين قالوا: لو علمنا أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا! فلما فرض الله الجهاد كره بعضهم فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾[3].

التفسير: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي نـزَّه اللهَ وقدَّسه ومجَّده جميعٌ ما في السمواتِ والأرض من مَلَك، وإنسان، ونبات، وجماد ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤] قال الإمام الفخر: أي شهد له بالربوبية والوحدانية وغيرهما من الصفات الحميدة جميع ما في السموات والأرض[4] ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي وهو الغالب في ملكه، الحكيم في صنعه، الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ أي يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله[5] لم تقولون بألسنتكم شيئًا ولا

(١) «تفسير الكشاف» ٤/ ٣١٤.
(٢) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٣١١.
(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٥٩. (ش): رواه الترمذي والحاكم، وصححه الألباني.
(٤) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٣١٠.
(٥) (ش): تفسيرُ الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالفٌ لِمَا عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

تفعلونه؟ ولأي شيءٍ تقولون نفعل ما لا تفعلونه من الخير والمعروف؟ وهو استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ قال ابن كثير: هذا إنكارٌ لعى من يَعِد وعدًا، أو يقول قولًا لا يفي به، وفي الصحيحين « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ »[١] ثم أكَّد الإنكار عليهم بقوله ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي عَظُم فِعْلُكم هذا بغضًا عند ربكم ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي أن تقولوا شيئًا ثم لا تفعلونه، وأن تَعِدوا بشيء ثم لا تَفُون به[٢] قال ابن عباس: كان ناسٌ من المؤمنين قبل أن يُفرض الجهاد يقولون: لوددنا أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ دلنا على أحبِّ الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان بالله لا شك فيه، وجهاد أهلِ معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناسٌ من المؤمنين وشقَّ عليهم أمره فنزلت الآية[٣] وقيل: هو أن يأمر الإنسان أخاه بالمعروف ولا يأتمر به، وينهاه عن المنكر ولا ينتهي عنه كقوله تعالى ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤]؟ ثم أخبرهم تعالى بفضيلة الجهاد في سبيل الله فقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ أي يحب المجاهدين الذين يصفُّون أنفسهم عند القتال صفًا، ويثْبُتون في أماكنهم عند لقاء العدو ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ أي كأنهم في تراصِّهم وثبوتهم في المعركة، بناءٌ قد رُصَّ بعضُه ببعض، وأُلصِق وأُحكِم حتى صار شيئًا واحدًا قال القرطبي: ومعنى الآية: أنه تعالى يحب منثبت في الجهاد في سبيل الله ويلزم مكانه كثبوت البناء، وهذا تعليمٌ من الله تعالى للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوهم[٤] ولما ذكر تعالى أمر الجهاد، بيَّن أنَّ موسى وعيسى أمرا بالتوحيد، وجاهدا في سبيل الله وأوذيا بسبب ذلك فقال ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾؟ أي واذكر يا محمد لقومك قصة عبده وكليمه «موسى بن عمران» حين قال لقومه بني إِسرائيل: لِمَ تفعلون ما يؤذيني؟[٥] ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي والحال

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ١٩٤.

(٢) (ش): وفَى الشَّخصُ الوَعْدَ/ وفَى الشَّخْصُ بالوَعْد: حافظ عليه وعمل به، أتمّه وأنجزه.

(٣) المختصر ٣/ ٤٩٢، وهذا القول هو اختيار الطبري. (ش): رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف. وعن عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَعَدْنَا نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْنَا: « لَوْ نَعْلَمُ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ، لَعَمِلْنَاهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، وَقَرَأَهَا عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ. (رواه الترمذي والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي والألباني).

(٤) «تفسير الطبري» ١٨/ ٨٢.

(٥) قال القرطبي: وإذايتُه عليه السلام حين رموه بالأُدْرَة. وهو انتفاخ الخصية. ومن الأذى أنهم دسوا امرأة تدعي عليه الفجور، ومن الأذى قولهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ وقولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾. (ش): قصة رميهم موسى عليه السلام بالأُدْرَة رَوَاها الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

أنكم تعلمون علمًا قطعيًا بما شاهدتموه من المعجزات الباهرة أني رسولُ اللهِ إليكم، وتعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة؟ وفي هذا تسليةٌ لرسول الله ﷺ فيما أصابه من كفار مكة ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ أي فلما مالوا عن الحقِّ، أمال الله قلوبهم عن الهدى ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي واللهُ لا يوفق للخير والهدى من كان فاسقًا خارجًا عن طاعة الله قال الرازي: وفي هذا تنبيهٌ على عِظَم إيذاء الرسل، حتى إنه يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى[١].. ثم ذكر تعالى قصة عيسى عليه السلام فقال ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾ أي واذكر يا محمد لقومك هذه القصة أيضًا حين قال عيسى لبني إسرائيل: إني رسول اللهِ أُرسِلْت إليكم بالوصف المذكور في التوراة قال القرطبي: ولم يقل «يا قوم» كما قال موسى، لأنه لا نسب له فيهم فيكونون قومه[٢] فإنه لم يكن له فيهم أب ﴿مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ أي حال كوني مصدِّقًا ومعترفًا بأحكام التوراة، وكُتُب الله وأنبيائه جميعًا، ولم آتِكُم بشيء يخالف التوراة حتى تَنفِروا عني ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ أي وجئت لأبشركم ببعثة رسولٍ يأتي بعدي يسمى «أحمد» قال الألوسي: وهذا الاسم الكريم علمٌ لنبينا محمد ﷺ كما قال حسان:

صَلَّى الْإِلَـهُ وَمَـنْ يَحِفُّ بِعَرْشِهِ … وَالطَّيِّبُونَ عَلَى الْمُبَارَكِ أَحْمَدَ[٣]

وفي الحديث «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِي الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ»[٤] ومعنى العاقب الذي لا نبيَّ بعده، وروي أن الصحابة قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنَا عَنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ: «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبِشَارَةُ عِيسَى قَوْمَهُ، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ»[٥] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي فلما جاءهم عيسى بالمعجزات الواضحات، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من المعجزات الدالة على صدقه في دعوى الرسالة[٦] ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي قالوا عن عيسى: هذا ساحرٌ جاءنا بهذا السحر الواضح، والإشارة بقولهم «سحر» إلى المعجزات التي ظهرت على يديه عليه السلام، قال المفسرون: بشَّر كلُّ نبي قومه بنبيِّنا

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٣١٣.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٨٣.

(٣) «تفسير الألوسي» ٢٨/ ٨٦.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم.

(٥) سيرة ابن إسحاق قال ابن كثير: إسناده جيد. (ش): ورواه أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني والأرنؤوط. (وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ): أي الرُّؤْيَا التي رَأَتْها في المنام.

(٦) هذا هو الظاهر أن الضمير يعود على «عيسى» لأنه المحدَّث عنه، وقيل: يعود على «أحمد» الذي بُشِّرُوا به، والأول اختيار البيضاوي والألوسي وصاحب «البحر المحيط»، وهو الأظهر.

محمد ﷺ، وإنما أفرد تعالى ذكر عيسى بالبشارة في هذا الموضع لأنه آخر نبي قبل نبينا ﷺ، فبيَّن تعالى أن البشارة به عمَّت جميع الأنبياء واحدًا بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى عليه السلام آخر أنبياء بني إسرائيل ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ استفهامٌ بمعنى النفي، أي: لا أحد أظلم ممن يدعوه ربه إلى الإسلام على لسان نبيه، فيجعل مكان إجابته افتراء الكذب على الله بتسمية نبيه ساحرًا، وتسمية آيات الله المنزلة سحرًا ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يوفق ولا يرشد إلى الفلاح والهدى من كان فاجرًا ظالمًا ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي يريد المشركون بأن يطفئوا دين الله وشرعه المنير بأفواههم قال الفخر الرازي: وإطفاء نور الله تعالى تهكمٌ بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن: إنه ساحر، شُبِّهَتْ حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بِفِيهِ ليطفئه[1]، وفيه تهكم وسخريةٌ بهم ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ أي والله مُظْهِرٌ لدينه، بنشره في الآفاق، وإعلائه على الأديان، كما جاء في الحديث «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»[2] الحديث والمراد أنَّ هذا الدين سينتشر في مشارق الدنيا ومغاربها ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي ولو كره ذلك الكافرون المجرمون، فإنَّ الله سيُعِزُّ شأن هذا الدين رغم أنف الكافرين قال في حاشية البيضاوي: كان كفار مكة يكرهون هذا الدين الحق، من أجل توغلهم في الشرك والضلال، فكان المناسب إذلالهم وإرغامهم بإظهار ما يكرهونه من الحق، وليس المراد من إظهاره ألا يبقى في العالم من يكفر بهذا الدين، بل المرادُ أن يكون أهلُهُ عالين غالبين على سائر أهل الأديان بالحجة والبرهان، والسيف واللسان، إلى آخر الزمان[3] ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي هو جلَّ وعلا بقدرته وحكمته بعث رسوله محمدًا ﷺ بالقرآن الواضح، والدين الساطع ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي ليُعْلِيَه على سائر الأديان المخالفة له، من يهودية ونصرانية وغيرهما ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أي ولو كره ذلك أعداءُ الله، المشركون بالله غيره قال أبو السعود: ولقد أنجز الله وعده بإعزاز دين الإسلام، حيث جعله بحيث لم يبق دينٌ من الأديان، إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام[4].

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٣١٤. (ش): بِفِيهِ: بفَمِهِ.

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم، ومعنى: «زوي الأرض» أي جمعها حتى رآها صلى الله عليه.

(٣) «حاشية زاده على البيضاوي» ٣/ ٤٩٠.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٦١.

كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ

المنَاسَبَة: لما بيَّن تعالى أن المشركين يريدون إطفاء نور الله، أمر المؤمنين بمجاهدة أعداء الدين، ودعاهم إلى التضحية بالمال والنفس والجهاد في سبيل الله، وبيَّن لهم أنها التجارة الرابحة لمن أراد سعادة الدارين.

اللغَة: ﴿تُنجِيكُم﴾ تُخَلِّصكم وتُنقِذكم ﴿لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ الأصفياء والخواص من أتباع عيسى، وهم الذين ناصروا المسيح عليه السلام ﴿فَأَيَّدۡنَا﴾ قوَّينا وساندنا ﴿ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين بالحجة والبرهان.

سَبَبُ النّزول: روي أن بعض الصحابة قالوا: يا نبيّ الله، لوددنا أن نعلم أي التجارات أحب إلى الله فنتجر فيها!! فنزلت ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾؟[1]

التفسِير: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ ﴾ أي يا من صدقتم الله ورسوله وآمنتم بربكم حقَّ الإيمان، هل أدلكم على تجارة رابحة جليلة الشأن؟ والاستفهام للتشويق ﴿تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ أي تخلِّصكم وتنقذكم من عذاب شديد مؤلم.. ثم بيَّن تلك التجارة ووضحها فقال ﴿ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إيمانًا صادقًا، لا يشوبه شكٌّ ولا نفاق ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ أي وتجاهدون أعداء الدين بالمال والنفس، لإعلاء كلمة الله قال المفسرون: جعل الإيمان والجهاد في سبيله «تجارة» تشبيهًا لهما بالتجارة، فإنها عبارة عن مبادلة شيء بشيء، طمعًا في الربح، ومن آمن وجاهد بماله ونفسه فقد بذل ما عنده وما في وُسْعه، لنَيْل ما عند ربه من جزيل ثوابه، والنجاة من أليم عقابه، فشبَّه هذا الثواب والنجاة من العذاب بالتجارة؛ لقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] قال الإمام الفخر: والجهاد ثلاثةُ أنواع:

١ - جهادٌ فيما بينه وبين نفسه، وهو قهرُ النفس ومنعُها عن اللذات والشهوات.

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٨٧. (ش): عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ ﴾ الْآيَةَ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ قَالَ الْمُسْلِمُونَ: لَوْ عَلِمْنَا مَا هَذِهِ التِّجَارَةُ، لأعْطَيْنَا فِيهَا الْأَمْوَالَ، وَالْأَهْلِينَ، فَبَيَّنَ لَهُمُ التِّجَارَةَ، فَقَالَ: « تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ». (ضعيف، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، و«لباب النقول» ونسبه لابن أبي حاتم. وعن عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَعَدْنَا نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْنَا: « لَوْ نَعْلَمُ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ، لعَمِلْنَاهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، وَقَرَأَهَا عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ. (رواه الترمذي والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي والألباني). قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ١١٢): «تقدَّم فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ أَنَّ الصَّحَابَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، أَرَادُوا أَنْ يَسْأَلُوا عَنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِيَفْعَلُوهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ السورة، ومن جملتها هذا الْآيَةُ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ]».

٢ - وجهادٌ فيما بينه وبين الخلق، وهو أن يَدَع الطمعَ منهم ويُشفقَ عليهم ويرحمَهم.

٣- وجهادُ أعداء الله بالنفس والمال نُصرةً لدين الله[1] ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي ما أمَرْتُكم به من الإيمان والجهاد في سبيل الله، خيرٌ لكم من كل شيء في هذه الحياة، إن كان عندكم فهمٌ وعلم ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ هذا جواب الجملة الخبرية ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لأن معناها معنى الأمر أي آمنوا بالله وجاهدوا في سبيله فإذا فعلتم ذلك يغفر لكم ذنوبكم، أي: يسترها عليكم، ويَمْحُها بفضله عنكم ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي ويدخلكم حدائق وبساتين، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي ويسكنكم في قصور رفيعة في جنات الإقامة ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي ذلك الجزاء المذكور هو الفوز العظيم الذي لا فوز وراءه، والسعادة الدائمة الكبيرة التي لا سعادة بعدها ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أي ويَمُنُّ عليكم بخصلةٍ أُخرى تحبونها وهي ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي ان ينصركم على أعدائكم، ويفتح لكم مكة وقال ابن عباس: يريد فتح فارس والروم ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وبشِّر يا محمد المؤمنين، بهذا الفضل المبين قال في البحر: لما ذكر تعالى ما يمنحهم من الثواب في الآخرة، ذكر لهم ما يَسُرُّهم في العاجلة، وهي ما يفتح الله عليهم من البلاد[2]، فهذه هي خير الدنيا موصولٌ بنعيم الآخرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ﴾ أي انصروا دين الله وأعلوا مناره ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ﴾ أي كما نصر الحواريون دين الله حين قال لهم عيسى بن مريم ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي من ينصرني ويكون عوني لتبليغ دعوة الله، ونصرة دينه؟ ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ أي قال أتباع عيسى وهم المؤمنون الخُلَّص من خاصته المستجيبون لدعوته: نحن أنصار دين الله قال البيضاوي: والحواريون أصفياؤه وهم أوَّلُ مَن آمن به، مُشتق من الحَوَر وهو البياض، وكانوا اثني عشر رجلًا[3] وقال الرازي: والتشبيه في الآية محمول على المعنى أي كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار الله[4] ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾ أي فانقسم بنو إسرائيل إلى جماعتين: جماعةٌ آمنت به وصدَّقته، وجماعةٌ كفرت وكذبت برسالة عيسى ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ أي فقوَّيْنا المؤمنين على أعدائهم الكافرين ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي حتى صاروا غالبين عليهم بالحجة والبرهان قال ابن كثير: لما بلَّغ عيسى بن مريم رسالة ربه، اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلَّت طائفة فجحدوا نبوته، ورموه وأُمه بالعظائم، وهم اليهود عليهم لعنة الله، وغلت فيه طائفةٌ من أتباعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فيه فرقًا وشيعًا، فمنهم من زعم أن ابنُ

---

(١) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٣١٦.

(٢) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٦٣.

(٣) حاشية البيضاوي ٣/ ٤٩٢.

(٤) «التفسير الكبير» ٢٩/ ٣١٩.

الله، ومنهم من قال إنه ثالث ثلاثة «الأب والابن وروح القدس» ومنهم من قال: إنه الله -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- فنصر الله المؤمنين على من عاداهم من فرق النصارى[1].

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يأتي:

١ - أسلوب التوبيخ ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]؟ وهي «ما» الاستفهامية حذفت ألفها تخفيفًا، والغرض من الاستفهام التوبيخ.

٢ - الإطناب بتكرار ذكر اللفظ لبيان غاية قبح ما فعلوه ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣] وبين ﴿تَقُولُوا۟ .. تَفْعَلُوا۟﴾ طباقٌ.

٣ - التشبيه المرسل المفصَّل ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] أي في المتانة والتراص.

٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٨] استعار نور الله لدينه وشرعه المنير، وشبَّه من أراد إبطال الدين بمن أراد إطفاء الشمس بفمه الحقير، على طريق الاستعارة التمثيلية، وهذا من لطيف الاستعارات.

٥ - الاستفهام للترغيب والتشويق ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾؟

٦ - الطباق ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ .. وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾.

٧ - السجع المرصَّع كأنه حبات در منظومة في سلك واحد مثل ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥] ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦] ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: إنما قرنت قصة موسى وعيسى في هذه السورة لأنهما من أنبياء بني إسرائيل، وهما من أعظم أنبيائهم ومن أولي العزم الذين ذكرهم الله في كتابه العزيز بالثناء والتبجيل.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الصف»

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٤٩٥.



مدنية وآياتها إحدى عشرة

بين يدي السورة

* هـذه السـورة الكريمة مدنية وهـي تتناول جانب التشـريع، والمحور الـذي تدور عليه السورة بيان أحكام صلاة الجمعة التي فرضها الله على المؤمنين.

* تناولـت السـورة الكريمة بعثة خاتم الرسـل محمد بـن عبد الله ﷺ وبينـت أنه الرحمة المهـداة، أنقذ الله به العرب من ظلام الشـرك والضلال، وأكرم به الإنسـانية، فكانت رسـالته بلسمًا لأمراض المجتمع البشري، بعد أن كان يتخبط في الظلام.

* ثم تحدثت السـورة عن اليهود، وانحرافهم عن شـريعة الله، حيث كلفوا بالعمل بأحكام التـوراة، ولكنهم أعرضـوا عنها ونبذوهـا وراء ظهورهم، وضربت مثلًا لهـم بالحمار، الذي يحمـل علـى ظهره الكتب الكبيـرة النافعة، ولكنه لا يناله منها إلا العنـاء والتعب، وذلك نهاية الشقاء والتعاسة.

* ثـم تناولـت أحـكام صـلاة الجمعة، فدعـت المؤمنيـن إلـى المسـارعة لأداء الصلاة، وحرمـت عليهم البيـع وقت الأذان ووقـت النداء لهـا، وختمت بالتحذير من الانشـغال عن الصلاة بالتجارة واللهو كحال المنافقين، الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى متثاقلين.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ

اللغَـة: ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ العرب المعاصرين للنبي ﷺ سُـمُّوا بذلك لاشـتهارهم بالأمية وهي عـدم القراءة والكتابـة ﴿يُزَكِّيهِمۡ﴾ من التزكية وهـي التطهير من دنس الشـرك والمعاصي ﴿أَسۡفَارَۢا﴾ جمع سِفْر وهو الكتاب الكبير قال الشاعر:

زَوَامِـلُ لِلْأَسْفَارِ لاَ عِلْمَ عِنْدَهُمْ ... بِجَيِّـدِهَـا إِلاَّ كَـعِلْـمِ الْأَبَـاعِـرِ

لَعَمْرُكَ مَا يَـدْرِي الْبَعِيرُ إِذَا غَـدَا ... بِأَوْسَاقِهِ أَوْ رَاحَ مَا فِي الْغَرَائِرِ [١]

﴿هَادُواْ﴾ تدينوا باليهودية ﴿ٱنفَضُّوٓاْ﴾ تفرقوا وانصرفوا.

سَـبَبُ النّزول: عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْه قال: «بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة قائمًا، إذْ قدمت عيرٌ من المدينة، فابتدرها أصحابُ رسول الله ﷺ حتى لم يَبْقَ منهم إلا اثنا عشر رجلًا أنـا فيهم وأبو بكر وعمر، فأنزل الله تعالـى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾[٢] الآية.

التفسـير: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ينـزِّه الله ويمجـده ويقدِّسـه كلُّ شـيء في الكـوم، من إنسـان، وحيوان، ونبات، وجمـاد، وصيغةُ المضـارع ﴿يُسَبِّحُ﴾ لإفادة التجدد والاستمرار، فهو تسبيحٌ دائم على الدوام ﴿ٱلۡمَلِكِ﴾ أي هو الإله المالك لكل شيء، والمتصرف في خلقـه بالإيجاد والإعدام ﴿ٱلۡقُدُّوسِ﴾ أي المقدَّس والمنزَّه عن النقائص، المتصف بصفات الكمـال ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ أي العزيز في ملْكِه، الحكيم في صُنْعه ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي هـو جـل وعـلا برحمته وحكمتـه الذي بعث في العرب رسـولًا مـن جملتهم، أميًّا مثلهـم لا يقرأ ولا يكتب قال المفسـرون: سُـمي العـرب أميِّين لأنهم لا يقـرأون ولا يكتبون، فقد اشـتهرت فيهم الأمِّية كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّـلَام: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لاَ نَكْتُبُ وَلاَ نَحْسُـبُ»[٣] الحديث والحكمةُ في اقتصاره على ذكر الأميين، مع أنه رسـولٌ إلى كافة الخلق، تشـريفُ العـرب حيـث أُضيف صلـوات الله عليهـم إليهم، وكفى بذلك شـرفًا للعـرب ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي يقـرأ عليهم آيات القـرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ أي ويطهرهم من دنس الكفر والذنوب قال ابـن عباس: أي يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمـان[٤] ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي ويعلمهم مـا يتلى مـن الآيات والسـنة النبويـة المطهـرة ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي وإنَّ الحال

---

(١) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٦٦. (ش): البيتان في قوم يجمعون الكتب، ولا يستفيدون منها. زَوَامِلُ: جمع زاملة: مَا يُحمَل عَلَيْهِ من الْإِبِل وَغيرهَا. الوَسْق: حِمْل البعير. أباعِرُ: جمع بَعير: ما صلَح للركوب والحَمْل من الجِمال، وذلك إذا استكمل أربع سنوات، يُطلَق على الجمل والنَّاقة. الغرائر: جمع الغِرَارة: كيس من الخَيْش ونحوه تُوضع فيه الحبوبُ. والخَيْش: نسيج غليظ خشن يُتَّخذ من الكتان وغيره، تصنع منه الأكياس.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وانظر تفسير «روح المعاني» للألوسي ٢٨/ ١٠٤.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٩٢.

والشأن أنهم كانوا من قبل إرسال محمد ﷺ إليهم لفي ضلالٍ واضح، عن النهج القويم، والصراط المستقيم قال ابن كثير: بعث الله محمدًا ﷺ على حين فترةٍ من الرسل، وطموسٍ من السُّبُل[١]، وقد اشتدت الحاجة إليه، فقد كان العرب متمسكين بدين إبراهيم الخليل فبدلوه وغيَّروه، واستبدلوا بالتوحيد شركًا، وباليقين شكًا، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها اللهُ، وكذلك كان أهل الكتاب قد بدَّلوا كتبهم وحرفوها، فبعث الله محمدًا ﷺ بشرع عظيم، شامل كامل، فيه الهداية والبيان لكل ما يحتاج الناس إليه من أمر معاشهم ومعادهم، وجمع له تعالى جميع المحاسن، وأعطاه ما لم يعط أحدًا من الأولين والآخرين[٢] ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾ أي وبعث الرسول إلى قوم آخرين، لم يكونوا في زمانهم وسيجيئون بعدهم، وهم جميع من أسلم إلى يوم القيامة[٣]، وفي الحديث عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْجُمُعَةِ فَلَمَّا قَرَأَ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾ قَالَ رَجُلٌ: «مَنْ هَؤُلاَءِ يَا رَسُولَ اللهِ؟». فَلَمْ يُرَاجِعْهُ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى سَأَلَهُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا وَفِينَا سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ. فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ ثُمَّ قَالَ: «لَوْ كَانَ الإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ هَؤُلاَءِ».[٤] قال مجاهد: في تفسير الآية: هم الأعاجم وكلُّ من صدَّق النبي ﷺ من غير العرب[٥] ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي القويُّ الغالب في ملكه، الحكيم في صنعه ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي ذلك الشرف الذي امتاز به سيد البشر، وهو كونه معبوثًا إلى كافة الناس، وما شرَّف الله به العرب من نزول القرآن بلغتهم، وإرسال خاتم الرسل إليهم، هو فضلُ اللهِ يعطيه لمن يشاء من خلقه ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي هو جل وعلا ذو الفضل الواسع على جميع خلقه في الدنيا والآخرة.. ثم شرع تعالى في ذم اليهود الذين أكرمهم الله بالتوراة، فلم ينتفعوا بها ولم يطبقوها، وشَبههم بالحمار الذي يحمل الأسفار فقال ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ أي مثل اليهود الذين أُعطُوا التوراة، وكُلِّفُوا العمل بما فيها ﴿ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾ أي ثم لم يعملوا بها، ولم ينتفعوا بهديها ونورها ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ أي مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل الكتب النافعة الضخمة، ولا يناله منها إلا التعب والعناء قال القرطبي: شبههم تعالى والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها بالحمار يحمل كتبًا، وليس له إلاّ ثقل الحمل من غير فائدة، فهو يتعب في حملها ولا ينتفع بما فيها[٦] وقال في حاشية البيضاوي: ذمَّ تعالى اليهود بأنهم قُرَّاءُ

---

(١) (ش): الفترة: زمن انقطاع الوحي ما بين الرسولين لعدم إرسال الله تعالى رسولاً. إذ انقطع الوحي منذ رفْع عيسى عليه السلام إلى السماء. طمَسَ الشَّيءُ، طُمُوسًا: تغيَّرت صورتُه، درَس وامَّحى أثرُه.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٤٩٧.

(٣) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٠٤.

(٤) أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم.

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٤٩٨.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٩٥.

التوراة، عالمون بما فيها، وفيها آياتٌ دالة على صحة نبوة محمد ﷺ ووجوب الإيمان به، ولكنهم لم ينتفعوا بها، ووجه التشبيه حرمان الانتفاع بما هو أبلغ شيء في الانتفاع، مع الكدِّ والتعب[(١)] ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بئس هذا المثل الذي ضربناه لليهود، مثلًا للقوم الذين كذبوا بآيات الله، الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام[(٢)] ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يوفق للخير، ولا يرشد للإيمان من كان ظالمًا فاسقًا قال عطاء: هم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيبهم للأنبياء[(٣)]، ثم كذَّب تعالى اليهود في دعوى أنهم أحباء الله فقال ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الذين تهودوا وتمسكوا بملة اليهودية ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ أي إن كنتم أولياء الله وأحباءه حقًّا كما تدَّعون ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي فتمنوا من الله أن يميتكم، لتنقلوا سريعًا إلى دار كرامته المعدَّة لأوليائه، إن كنتم صادقين في هذه الدعوة قال أبو السعود: كان اليهود يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] ويدَّعون أن الدار الآخرة لم عند الله، خالصة، ويقولون ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا﴾ [البقرة: ١١] فأمر الله رسوله أن يقول لهم إظهارًا لكَذِبهم: إن زعمتم ذلك فتمنوا الموت، لتنقلوا من دار البلاء إلى دار الكرامة، فإنَّ من أيقن بأنه من أهل الجنة، أحبَّ أن يتخلص إليها من هذه الدار التي هي مقرُّ الأكدار[(٤)]، قال تعالى فاضحًا لهم، ومبينًا كَذِبهم: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي ولا يتمنون الموت بحالٍ من الأحوال، بسبب ما أسلفوه من الكفر والمعاصي وتكذيب محمد عليه السلام وفي الحديث «والذي نفسي بيده، لو تمنوا الموتَ ما بقي على ظهرها يهودي إلا مات»[(٥)] قال الألوسي: لم يتمَنَّ أحدٌ الموت منهم، لأنهم كانوا موقنين بصدقه عليه السلام، فعلموا أنهم لو تمنوه لماتوا من ساعتهم، وهذه إحدى المعجزات، وجاء في سورة البقرة نفْيُ هذا تمنِّي بلفظ ﴿وَلَنْ﴾ وهو من باب التفنن على القول المشهور[(٦)] ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي عالمٌ بهم وما صدر عنهم من فنون الظلم

---

(١) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» ٣/ ٤٩٤.

(٢) أقول: هذه الآية الكريمة فيها تعريض بنا معشر المسلمين إن لم نطبق أحكام القرآن ونعمل بمقتضاه وهو على حد قولهم: إياك أعني واسمعي يا جارة.

(٣) «التفسير الكبير للرازي» ٥/ ٢٩.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٦٣.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٩٦. (ش): لم أجده بهذا اللفظ، ورُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أنه قَالَ: «لَوْ تَمَنَّوْهُ يَوْمَ قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ، مَا بَقِيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ يَهُودِيٌّ إِلَّا مَاتَ» رواه ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم في «تفسيرَيْهما» بإسناد ضعيف. وقال ﷺ: «لَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ، لَمَاتُوا، وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ» (رواه أحمد، وصححه الألباني، وأحمد شاكر، والأرنؤوط). وقال ﷺ: «لَوْ تَابَعَنِي عَشْرَةٌ مِنَ الْيَهُودِ لَمْ يَبْقَ عَلَى ظَهْرِهَا يَهُودِيٌّ إِلاَّ أَسْلَمَ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٦) روح المعاني ٢٨/ ٩٦. (ش): التفنُّن: التنويع.

والمعاصي، وإنما وضع الظاهر موضع الضمير «عليمٌ بهم» ذمًّا لهم، وتسجيلًا عليهم بأنهم ظالمون[١] ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن هذا الموت الذي تهربون منه، وتخافون أن تتمنوه حتى بلسانكم ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ أي فإنه آتيكم لا محالة، لا ينفعكم الفرار منه كقوله تعالى ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] لأنه قدرٌ محتوم، ولا يغني حذرٌ عن قدر ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي ثم ترجعون إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيجازيكم على أعمالكم، وفيه وعيدٌ وتهديد.. ثم شرع تعالى في بيان أحكام الجمعة فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ أي يا معشر المؤمنين المصدّقين بالله ورسوله، إذا سمعتم المؤذن ينادي لصلاة الجمعة ويُؤذن لها ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ أي فامضوا إلى سماع خطبة الجمعة وأداء الصلاة، واتركوا البيع والشراء، اتركوا التجارة الخاسرة واسعوا إلى التجارة الرابحة قال في التسهيل: والسعيُ في الآية بمعنى المشْي لا بمعنى الجَرْي[٢] لحديث «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ فَلاَ تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ وَلَكِنِ ائْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَمْشُونَ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ»[٣]. وقال الحسن: واللهِ ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نُهوا أن يأتوا الصلاة إلا عليهم السكينة والوقار، ولكنه سعيٌ بالقلوب، والنية، والخشوع[٤] ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي ذلك السعي إلى مرضاة الله، وتركُ البيع والشراء، خيرٌ لكم وأنفع من تجارة الدنيا، فإن نفع الآخرة أجَلُّ وأبْقَى ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم من أهل العلم القويم، والفهم السليم ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أي فإذا أديتم الصلاة وفرغتم منها ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي فتفرقوا في الأرض وانْبَثُّوا فيها للتجارة وقضاء مصالحكم ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي واطلبوا من فضل الله وإنعامه، فإن الرزق بيده جلَّ وعلا هو المُنعم المتفضل، الذي لا يُضِيع عمَل العامل، ولا يخيِّب أملَ السائل ﴿

---

(١) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٦٣.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١١٩.

(٣) أخرجه الستة. (ش): في اصطلاح أهل العلم:

١- الصحيحان: صحيح البخاري، وصحيح مسلم.

٢- رواه الشيخان: البخاري ومسلم.

٣- رواه الثلاثة: أبو داود والترمذي والنسائي.

٤- رواه الأربعة: أصحاب السنن الأربعة: أبوداود والترمذي والنسائي، وابن ماجه.

٥- رواه الخمسة: أحمد وأصحاب السنن الأربعة: أبوداود والترمذي والنسائي، وابن ماجه.

٦- رواه الستة: البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة: أبوداود والترمذي والنسائي، وابن ماجه.

٧- رواه السبعة: رواه الجماعة: الصحيحان: (البخاري ومسلم) والخمسة: أحمد وأصحاب السنن الأربعة: أبوداود والترمذي والنسائي، وابن ماجه.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٠٣.

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ أي واذكروا ربكم ذكرًا كثيرًا، باللسان والجَنَان[١]، لا وقتَ الصلاة فحسب ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي كي تفوزوا بخير الدارين قال سعيد بن جبير: ذكرُ الله طاعته، فمن أطاع اللهَ فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكرٍ ولو كان كثير التسبيح[٢]. . ثم أخبر تعالى أنَّ فريقًا من الناس يؤثرون الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، ويفضلون العاجل على الآجل فقال ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ هذا عتابٌ لبعض الصحابة الذين انصرفوا عن رسول الله ﷺ وتركوه قائمًا يخطب يوم الجمعة، والمعنى: إِذا سمعوا بتجارة رابحة، أو صفقةٍ قادمة، أو شيء من لهو الدنيا وزينتها، تفرقوا عنك يا محمد وانصرفوا إِليها، وأعاد الضمير إِلى التجارة دون اللهو ﴿ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ لأنها الأهم المقصود ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾ أي وتركوا الرسول قائمًا على المنبر يخطب قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ قائمًا على المنبر يخطب يوم الجمعة، فأقبلت عيرٌ من الشام بطعام قدم بها «دحية الكلبي» وكان أصاب أهل المدنية جوعٌ وغلاء سعر وكانت عادتهم أن تدخل العير المدينة بالطبل والصياح سرورًا بها[٣]، فلما دخلت العير كذلك انفضَّ أهلُ المسجد إِليها، وتركوا رسول الله ﷺ قائمًا على المنبر، ولم يبق معه إِلا اثنى عشر رجلًا قال جابر بن عبد الله: أنا أحدهم فنزلت الآية[٤] قال ابن كثير: وينبغي أن يُعلم أن هذه القصة كانت لمَّا كان رسول الله ﷺ يقدم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة كما هو الحال في العيدين، كما روى ذلك أبو داود[٥] ﴿قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾ أي قل لهم يا محمد: إِنَّ ما عند الله من الثواب والنعيم، خير مما أصبتموه من اللهو والتجارة ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي خير من رزق وأعطى، فاطلبوا منه الرزق، وبه استعينوا لنيل فضله وإِنعامه.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

---

(١) (ش): الجَنَان: القلب.

(٢) «حاشية زاده على البيضاوي» ٣/ ٤٩٦.

(٣) (ش): ما رُوِيَ من أَنَّ التِّجَارَةَ كَانَتْ لِدَحْيَةَ الكلبي، ضعيف، رواه أبو داود في «المراسيل»، وَما رُوِيَ من أنه كَانَ مَعَهَا طَبْلٌ، ضعيفٌ أيضًا ذكره الحافظ ابن كثير في «تفسيره» عن مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ، ومقاتل لم يدرك الصحابة رضي الله عنهم، قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ١٢٣): «وَزَعَمَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: أَنَّ التِّجَارَةَ كَانَتْ لِدَحْيَةَ بْنِ خَلِيفَةَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ، وَكَانَ مَعَهَا طَبْلٌ».

(٤) انظر سبب النزول المتقدم.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ (ش): أشار الحافظ ابن كثير في «تفسيره «(٨/ ١٢٤) إلى ضعْف هذا الحديث فقال: «ولكن هاهنا شَيْءٌ يَنْبَغِي أَنْ يُعلم وَهُوَ: أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ قَدْ قِيلَ: إِنَّهَا كَانَتْ لَمَّا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُقَدِّمُ الصَّلَاةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَى الْخُطْبَةِ، كَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ «الْمَرَاسِيلِ»... اهـ. فالحديث ليس في «سنن أبي داود» الذي فيه الصحيح والحسَن والضعيف، ولكن رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ «الْمَرَاسِيلِ» وهو كتاب جمع فيه الأَحاديث المرفوعة من التابعين إلى رسول الله، أي التي فيها انقطاع بين النبي ﷺ والتابعين الذين لم يرَوْه، والحديث المُرسَل من أنواع من الضعيف.٥٠٢.

١ - التشبيه التمثيلي ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد، أي: مثلهم في عدم الانتفاع بالتوراة، كمثل الحمار الذي يحمل على ظهره الكتب العظيمة ولا يكون له منها إلا التعب والعناء.

٢ - طباق السلب ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ .. وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا﴾.

٣ - الطباق بين ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٤ - التفنن بتقديم الأهم في الذكر ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا﴾ لأن المقصود الأساسي هو التجارة فقدمها ثم قال ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ فقدَّم اللهو على التجارة لأن الخسارة بما لا نفع فيه أعظم، فقدَّم ما هو أهم في الموضعين.

٥ - المجاز المرسل ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ أطلق البيع وقصد جميع أنواع المعاملة من بيع وشراء وإجارة وغيرها.

تنبيه: يوم الجمعة سمي بذلك لاجتماع المسلمين فيه للصلاة، وقد كان يسمى في الجاهلية «يوم العروبة» ومعناه الرحمة كما قال السهيلي، وأول من سمَّاه جمعة «كعب بن لؤي» وأول من صلى بالمسلمين الجمعة «أسعد بن زرارة» صلى بهم ركعتين وذكَّرهم، فسميت الجمعة حين اجتمعوا إليه، فهي أول جمعة في الإسلام[٦].

فَائِدَة: كان «عراك بن مالك» إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: «اللهم إني أجبتُ دعوتك، وصليتُ فريضَتك، وانتشَرْتُ كما أمَرْتَني، فارزُقْني من فضلك وأنت خيرُ الرازقين»[٧].

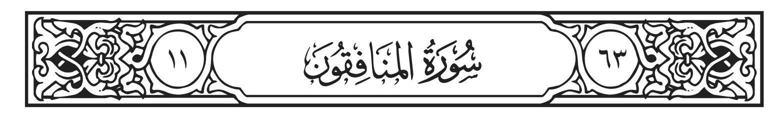
لطيفَة: التعبير بقوله تعالى ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فيه لطيفة، وهي أنه ينبغي للمسلم أن يقوم إلى صلاة الجمعة بعزيمة وهمة، وجِدّ ونشاط، لأن لفظ السعي يفيد الجد والعزم، ولهذا قال الحسن البصري: «والله ما هو سعيٌ على الأقدام، ولكنه سعيٌ بالنية والقلوب».

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجمعة»



(٦) روح المعاني ٢٨/ ١٠٠. (ش): رواه أبو داود، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني.

(٧) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٠٣.



مدنية وآياتها إحدى عشرة

بين يدي السورة

* سورة (المنافقون) مدنية، شأنها شأن سائر السور المدنية، التي تعالج «التشريعات والأحكام» وتتحدث عن الإسلام من زاويته العملية، وهي القضايا التشريعية.

* والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث بإسهاب عن النفاق والمنافقين، حتى سميت السورة بهذا الاسم الفاضح، الكاشف لأستار النفاق «سورة المنافقون».

* تناولت السورة الكريمة في البدء أخلاق المنافقين، وصفاتهم الذميمة التي من أظهرها الكذب، ومخالفة الظاهر للباطن، فإنهم يقولون بألسنتهم ما لا تعتقده قلوبهم، ثم تآمرهم على الرسول ﷺ وعلى المسلمين، وقد فضحتهم السورة وكشفت عن مخازيهم وإجرامهم، فهم تظاهرهم بالإسلام يصدون الناس عن دين الله وينالون من دعوة الإسلام ما لا يناله الكافر المعلن لكفره، ولذلك خطرهم أعظم، وضررهم أكبر وأجسم ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾.

* كما تحدثت السورة الكريمة عن مقالاتهم الشنيعة في حق الرسول ﷺ، واعتقادهم بأن دعوته ستضمحل وتتلاشى، وأنهم بعد عودتهم من «غزوة بني المصطلق» سيطردون الرسول والمؤمنين من المدينة المنورة، إلى غير ما هنالك من أقوال شنيعة.

* وختمت السورة الكريمة بتحذير المؤمنين من أن ينشغلوا بزينة الدنيا ولهوها ومتاعها عن طاعة الله وعبادته شأن المنافقين، وبينت أن ذلك طريق الخسران، وأمرت بالإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله قبل أن يفوت الأوان بانتهاء الأجل، فيتحسر الإنسان ويندم حيث لا تنفع الحسرة والندم.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

اللغَة: ﴿جُنَّةً﴾ وقاية وسُترة يحفظون بها أنفسهم وأموالهم وفي الحديث «الصوم جُنَّة» أي: وقاية من عذاب الله ﴿فَطُبِعَ﴾ ختم عليها بالكفر، والطَّبْعُ: الخَتْم ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يُصْرفون عن الحق إلى الضلال، من الإِفك وهو الصَّرْف ﴿لَوَّوْاْ﴾ عطفوا وحرَّكوا يقال: لوَّى رأسه إِذا حرَّكه وأداره ﴿يَنفَضُّواْ﴾ يتفرقوا ﴿تُلْهِكُمْ﴾ تشغلكم، واللهو: ما لا خير فيه ولا فائدة من القول أو العمل.

سَبَبُ النّزول: روي أن النبيَّ ﷺ غزا «بني المُصطلق» فازدحم الناسُ على ماءٍ فيه، فكان ممن ازدحم عليه «جهجاه بن سعيد: أجير لعمر بن الخطاب، و«سنان الجُهني» حليفٌ لعبد الله بن سلول رأس المنافقين فلطم الجهجاهُ سنانًا، فغضب سنان وصرخ ياللأنصار، وصرخ جهجاه يا للمهاجرين، فقال» عبد الله بن سلول «أو قد فعلوها! (والله ما مثلنا ومثل هؤلاء يعني المهاجرين إلا كما قال الأول «سمِّنْ كلبك يأكلك»، أما واللهِ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل يعني بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ وصحبه ثم قال لقومه: إنما يقيم هؤلاء المهاجرون بالمدينة بسبب معونتكم وإنفاقكم عليهم، ولو قطعتم ذلك عنهم لفروا عن بلدكم، فسمعه «زيد بن أرقم» فأخبر بذلك رسول الله ﷺ، وبلغ ذلك ابن سلول فحلف أنه ما قال من ذلك شيئًا وكذَّب زيدًا، فنزلت السورة إلى قوله تعالى ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ..﴾[1] الآيات.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٢٢، وانظر البخاري. (ش): ضعيف بهذا السياق، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره». وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ - رضى الله عنه - قَالَ. كُنْتُ مَعَ عَمِّى فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَىِّ ابْنَ سَلُولَ يَقُولُ: «لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا. وَقَالَ أَيْضًا لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّى فَذَكَرَ عَمِّى لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَىٍّ وَأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، فَصَدَّقَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَذَّبَنِى، فَأَصَابَنِى هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِى مِثْلُهُ، فَجَلَسْتُ فِى بَيْتِى، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ فَأَرْسَلَ إِلَىَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَرَأَهَا عَلَىَّ ثُمَّ قَالَ «إِنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وعَنْ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ مَعَنَا نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ فَكُنَّا نَبْتَدِرُ الْمَاءَ، وَكَانَ الْأَعْرَابُ يَسْبِقُونَا فَيَسْبِقُ الْأَعْرَابِيُّ أَصْحَابَهُ فَيَمْلَأُ الْحَوْضَ، وَيَجْعَلُ حَوْلَهُ حِجَارَةً، وَيَجْعَلُ النِّطْعَ عَلَيْهِ حَتَّى يَجِيءَ أَصْحَابُهُ، فَأَتَى =

التفسِير: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ أي إذا أتاك يا محمد المنافقون وحضروا مجلسك كعبد الله بن سلول وأصحابه ﴿قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي قالوا بألسنتهم نفاقًا ورياءً: نشهد بأنك يا محمد رسولُ الله، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قال أبو السعود: أكَّدوا كلامهم بإنَّ واللام ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ للإيذان بأنَّ شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلوبهم، وخلوص اعتقادهم، ووفور رغبتهم ونشاطهم[1] ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ أي واللهُ جل وعلا يعلم أنك يا محمد رسولُه حقًا، لأنه هو الذي أرسلك، والجملةُ اعتراضية جيء بها لدفع توهم تكذيبهم في دعوة رسالته ﷺ لئلا يتوهم السامع أن قولهم ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ كذبٌ في حدِّ ذاته قال في التسهيل: وقوله ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ ليس من كلام المنافقين، وإنما هو من كلام الله تعالى، ولو لم يذكره لكان يوهم أن قوله ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ إبطالٌ للرسالة، فوسَّطه بين حكاية المنافقين وبين تكذيبهم ليزيل هذا الوهم وليحقق الرسالة[2] ثم قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي يشهد بكَذِب المنافقين فيما أظهروه من شهادتهم وحَلِفهم بألسنتهم، لأنَّ من قال بلسانه شيئًا واعتقد خلافه فهو كاذب، والإظهار في موضع الإضمار ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ لذمهم وتسجيل هذه الصفة القبيحة عليهم، كما جاءت الصيغة مؤكدة بإنَّ واللام زيادةً في التقرير والبيان ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ أي اتخذوا أيمانهم الفاجرة وقاية وسُترةً يستترون بها من القتل قال الضحاك: هي حَلِفُهم بالله إنهم مسلمون ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

= رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ الْأَعْرَابِيَّ فَأَرْخَى زِمَامَ نَاقَتِهِ لِتَشْرَبَ، فَأَبَى أَنْ يَدَعَهُ فَانْتَزَعَ حَجَرًا فَفَاضَ فَرَفَعَ الْأَعْرَابِيُّ خَشَبَةً، فَضَرَبَ بِهَا رَأْسَ الْأَنْصَارِيِّ فَشَجَّهُ، فَأَتَى عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ رَأْسُ الْمُنَافِقِينَ فَأَخْبَرَهُ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ فَغَضِبَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ، ثُمَّ قَالَ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ يَعْنِي الْأَعْرَابَ، وَكَانُوا يُحَدِّثُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عِنْدَ الطَّعَامِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ لِأَصْحَابِهِ: إِذَا انْفَضُّوا مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ، فَأْتُوا مُحَمَّدًا لِلطَّعَامِ فَلْيَأْكُلْ هُوَ وَمَنْ عِنْدَهُ، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلْيُخْرِجِ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، قَالَ زَيْدٌ: وَأَنَا رِدْفُ عَمِّي، فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ وَكُنَّا أَخْوَالَهُ فَأَخْبَرْتُ عَمِّي، فَانْطَلَقَ فَأَخْبَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَحَلَفَ وَجَحَدَ وَاعْتَذَرَ، فَصَدَّقَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَذَّبَنِي، فَجَاءَ إِلَيَّ عَمِّي، فَقَالَ: مَا أَرَدْتَ إِنْ مَقَتَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَذَّبَكَ، وَكَذَّبَكَ الْمُسْلِمُونَ. فَوَقَعَ عَلَيَّ مِنَ الْغَمِّ مَا لَمْ يَقَعْ عَلَى أَحَدٍ قَطُّ، فَبَيْنَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ وَقَدْ خَفَقْتُ بِرَأْسِي مِنَ الْهَمِّ، فَأَتَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ «فَعَرَكَ أُذُنِي وَضَحِكَ فِي وَجْهِي» فَمَا كَانَ يَسُرُّنِي أَنَّ لِيَ بِهَا الْخُلْدُ أَوِ الدُّنْيَا، ثُمَّ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَحِقَنِي، فَقَالَ: مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قُلْتُ: مَا قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّهُ «عَرَكَ أُذُنِي وَضَحِكَ فِي وَجْهِي» فَقَالَ: أَبْشِرْ. ثُمَّ لَحِقَنِي عُمَرُ فَقَالَ: مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ فَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ قَوْلِي لِأَبِي بَكْرٍ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا « قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سُورَةَ الْمُنَافِقُونَ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] حَتَّى بَلَغَ ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ [المنافقون: ٧] حَتَّى بَلَغَ ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]. (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي).

(١) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٦٤. (ش): وفَرَ المالُ وغيرُه، وَفْرًا ووُفورًا: كَثُر واتَّسع.

(٢) «التسهيل» ٤/ ٢١٢.

أي فمنعوا الناسَ عن الجهادِ، وعن الإيمان بمحمد ﷺ قال الطبري: أي أعرضوا عن دين الله الذي بعث به نبيه ﷺ وشريعته التي شرعها لخلقه[١] وقال ابن كثير: إِن المنافقين اتقوا الناس بالإِيمان الكاذبة، فاغترَّ بهم من لا يعرف جليَّة أمرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون، وهم في الباطن لا يأْلُون الإِسلام وأهله خبالًا[٢]، فحصل بذلك ضررٌ كبير على كثير من الناس[٣] ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي قبح عملهم وصنيعهم لأنهم يظهرون بمظهر الإِيمان، وهم من أهل النفاق والعصيان، فبئست أعمالهم الخبيثة من نفاقهم وأيمانهم الكاذبة قال الصاوي: وساءَ كـ (بئس) في إرادة الذم، وفيها معنى التعجب[٤] وتعظيم أمرهم عند السامعين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ أي ذلك الحلف الكاذب والصدُّ عن سبيل الله، بسبب أنهم آمنوا بألسنتهم وكفروا بقلوبهم قال أبو السعود: أي نطقوا بكلمة الشهادة عند المؤمنين، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم المجرمين، وما فيه من الإِشارة بالبعيد «ذلك» للإِشعار ببعد منزلته في الشر[٥] ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي ختم على قلوبهم فلا يصل إِليها هدى ولا نور ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي فهم لا يعرفون الخير والإيمان، ولا يفرقون بين الحَسَن والقبيح، لَخَتَم الله على قلوبهم ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ أي وإِذا رأيتَ هؤلاء المنافقين، أعجبتك هيئاتهم ومناظرهم، لحُسْنها ونضارتها وضخامتها ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي وإِن يتكلموا تُصْغِ لكلامهم، لفصاحتهم وذلاقة لسانهم[٦] قال ابن عباس: كان ابن سلول رأس المنافقين جسيمًا، وفصيحًا، ذلق اللسان، فإِذا قال سمع النبي ﷺ قوله، وكذلك كان أصحابه إِذا حضروا مجلس النبي ﷺ يعجب الناس بهياكلهم[٧] ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ أي يشبهون الأخشاب المسنَّدة إِلى الحائط، في كونهم صورًا خالية عن العلم والنظر، فهم أشباحٌ بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام قال أبو حيان: شُبّهوا بالخشب لعزوب أفهامهم، وفراغ قلوبهم من الإِيمان، والجملة التشبيهية وصْفٌ لهم بالجُبْن والخور[٨]، ولهذا قال ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي يظنون لجُبنِهم وهَلَعهم كلَّ نداءٍ وكل صوت، أنهم يُرادون بذلك، فهم دائمًا في خوفٍ ووجل من أن يهتك الله أستارهم، ويكشف أسرارهم قال ابن كثير: كلما وقع أمر أو خوفٌ يعتقدون لجبنهم أنه نازل بهم[٩] قال

(١) «تفسير الطبري» ٢٨/ ٦٩.
(٢) (ش): لَا يَأْلُونَ جُهْدًا، وَلَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْ عَمَلٍ فِيهِ إِيْذَاءٌ وَإِضْرَارٌ بالإِسلام وأهله.
(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٠٣.
(٤) «حاشية الصاوي» / ٢٠٨.
(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٦٥.
(٦) (ش): ذلَق اللِّسانُ، ذَلاقةً: كان حادًّا طَلْقًا.
(٧) «حاشية الصاوي» ٤/ ٢٠٨.
(٨) «البحر المحيط» ٨/ ٢٧٢. (ش): خوِرَ الشخصُ خَوَرًا: خارَ، ضعُف وانكسر.
(٩) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٠٤.

مقاتل: إذا سمعوا نشدان ضالة[١]، أو صياحًا بأي وجه كان، طارت عقولهم، وظنوا ذلك إيقاعًا بهم[٢] ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾ أي هم الأعداء الكاملون في العداوة لك وللمؤمنين وإن أظهروا الإسلام، فاحذَرْهم ولا تأمَنْهم على سرّ، فإنهم عيونٌ لأعدائك ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ جملة دُعَائية أي أخزاهم الله ولعنهم وأبعدهم عن رحمته ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال؟ وكيف تضل عقولهم مع وضوح الدلائل والبراهين؟ وفيه تعجيب من جهلهم وضلالهم، وانصرافهم عن الإيمان بعد قيام البرهان، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لِلْمُنَافِقِينَ عَلَامَاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا: تَحِيَّتُهُمْ لَعْنَةٌ، وَطَعَامُهُمْ نُهْبَةٌ، وَغَنِيمَتُهُمْ غُلُولٌ، وَلَا يَقْرَبُونَ الْمَسَاجِدَ إِلَّا هَجْرًا، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا دَبْرًا، مُسْتَكْبِرِينَ، لَا يَأْلَفُونَ وَلَا يُؤْلَفُونَ، خُشُبٌ بِاللَّيْلِ، صُخُبٌ بِالنَّهَارِ»[٣] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المنافقين: هلُمُّوا إلى رسول الله حتى يطلب لكم المغفرة من الله ﴿لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾ أي حركوها وهزوها استهزاء واستكبارًا ﴿وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ أي وتراهم يُعرِضون عمَّا دُعوا إليه، وهم متكبرون عن استغفار رسول الله ﷺ لهم، وجيء بصيغة المضارع ليدل على استمرارهم على الإعراض والعناد[٤] قال المفسرون: لمَّا نزلت الآيات تفضح المنافقين وتكشف الأستار عنهم، مشى إليهم أقرباؤهم من المؤمنين، وقالوا لهم: ويلكم لقد افتضحتم بالنفاق وأهلكتم أنفسكم، فأتوا رسول الله وتوبوا إليه من النفاق واسألوه يستغفر لكم، فأبوا وحركوا رءوسهم سخريةً واستهزاءً فنزلت الآية، ثم جاءوا إلى «ابن سلول» وقالوا له: امض إلى رسول الله ﷺ واعترفْ بذنبك يستغفر لك، فلوَّى رأسه إنكارًا لهذا الرأي ثم قال لهم: لقد أشرتم عليَّ بالإيمان فآمنتُ، وأشرتم عليَّ بأن أعطي زكاة مالي ففعلتُ، ولم يبق لكم إلاَّ أن تأمروني بالسجود لمحمد! ثم بيَّن تعالى عدم فائدة الاستغفار لهم، لأنهم مردوا على النفاق فقال ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ أي يتساوى الأمر بالنسبة لهم، فإنه لا ينفع استغفارك لهم شيئًا، لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ورسوله قال الصاوي: والآية للتيئيس من إيمانهم، أي: إن استغفارك يا محمد وعدمه سواء،

---

(١) (ش): نشَدَ الشّيءَ، نَشْدًا ونِشْدانًا: طلَبه وسأَل عنه. والضالة: كلّ ما ضاع وفُقِد.

(٢) «تفسير الألوسي» ٢٨/ ١١١.

(٣) أخرجه أحمد كذا في ابن كثير ٣/ ٥٠٤. (ش): ضعفه الألباني والأرنؤوط، وحسنه أحمد شاكر. نُهبْة: شيءٌ منهوب. انتهبَ مالَ غيره: نهبه؛ أخذَه قهرًا. (لَا يَقْرَبُونَ الْمَسَاجِدَ إِلَّا هَجْرًا): إلا تركًا له وإعراضًا عنه. أي لا يقربون المساجد، بل يهجرونها. (وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا دَبْرًا): دَبْرًا و دُبْرًا: أي: آخرًا، حين كاد الإمام أن يفرغ. (خُشُبٌ بِاللَّيْلِ): أي ينامون الليل لا يصلون. شبههم في تمددهم نيامًا بالخشب المطّرحة. (صُخُبٌ بِالنَّهَارِ): والصخب: الضجة واضطراب الأصوات للخصام. والمراد رفع أصواتهم وضجيجهم في المجادلات والخصومات وغير ذلك.

(٤) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٧٣.

فهم لا يؤمنون لسبق الشقاوة لهم[١] ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ أي لن يصفح الله عنهم لرسوخهم في الكفر، وإِصرارهم على العصيان، ثم علَّله بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي لا يُوَفق للإيمان، من كان فاسقًا خارجًا عن طاعة الرحمن.. ثم زاد تعالى في بيان قبائحهم وجرائمهم فقال ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ أي هم الفجرة الذين قالوا: لا تنفقوا على المهاجرين حتى يتفرقوا عن محمد قال في البحر: والإِشارة إِلى ابن سلول ومن وافقه من قومه، سفَّه أحلامهم في أنهم ظنوا أن رزق المهاجرين بأيديهم، ما علموا أن ذلك بيد الله تعالى، وقولهم ﴿عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ هو على سبيل الهزء، إِذ لو كانوا مقرين برسالته ما صدر منهم ما صدر، والظاهر أنهم لم ينطقوا بنفس ذلك اللفظ، ولكنه تعالى عبَّر به عن رسوله إكرامًا له وإِجلالًا[٢] ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هو تعالى بيده مفاتيح الرزق يعطي من يشاء ويمنع عن من يشاء، ولا يملك أحدٌ أن يمنع فضل الله عن عباده ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي ولكنَّ المنافقين لا يفهمون حكمة الله وتدبيره، فلذلك يقولون ما يقولون من مقالات الكفر والضلال. ثم عدَّد تعالى بعض قبائحهم وأقوالهم الشنيعة فقال ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي يقولون لئن رجعنا من هذه الغزوة غزوة بني المصطلق وعدنا إِلى بلدنا «المدينة المنورة» ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ أي لنخرجنَّ منها محمدًا وصحبه، والقائل هو ابن سلول، وعنى بالأعز نفسه وأتباعه، وبالأذل رسول الله ﷺ ومن معه[٣] قال المفسرون: لما قال ابن سلول ما قال ورجع إِلى المدينة، وقف له ولده «عبد الله» على باب المدينة واستلَّ سيفه، فجعل الناسُ يمرون به، فلما جاء أبوه قال له ابنه: وراءك، والله لا تدخل المدينة أبدًا حتى تقول: إنَّ رسول الله هو الأعزُّ، وأنا الأذل فقالها، ثم جاء إِلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، بلغني أنك تريد أن تقتل أبي، فإِن كنت فاعلًا فمرني فأنا أحمل إِليك رأسه! فقال له رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»[٤] ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لله جل وعلا القوة والغلبة ولمن أعزه وأيده من رسوله والمؤمنين لا لغيرهم، والصيغة تفيد الحصر قال القرطبي: توهموا أن العزة بكثرة الأموال والأتباع، فبيَّن الله أن العزة والمنعة لله ولرسوله وللمؤمنين[٥] ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ المنافقين لفَرْط جهلهم وغُرورهم لا يعلمون أن العزة والغلبة لأوليائه دون أعدائه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لما ذكر

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٩.

(٢) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٧٤.

(٣) انظر سبب النزول والمتقدم.

(٤) يستحسن الرجوع إلى سيرة ابن إسحاق ففيها تفصيل للقصة وتوضيح.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٢٩. (ش): رواه ابن إسحاق في «السيرة» والبيهقي في «دلائل النبوة» بإسناد ضعيف.

قبائح المنافقين، نهى المؤمنين عن التشبه بهم في الاغترار بالأموال والأولاد والمعنى: لا تشغلكم أيها المؤمنون الأموال والأولاد عن طاعة الله وعبادته، وعن أداء ما افترضته عليكم من الصلاة، والزكاة، والحج، كما شغلت المنافقين قال أبو حيان: أي لا تشغلكم أموالكم بالسعي في نمائها، والتلذذ بجمعها، ولا أولادكم بسروركم بهم، وبالنظر في مصالحهم، عن ذكر الله وهو عام في الصلاة، والتسبيح، والتحميد، وسائر الطاعات[1] ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي ومن تشغله الدنيا عن طاعة الله وعبادته، فأولئك هم الكاملون في الخسران، حيث آثروا الحقير الفاني على العظيم الباقي، وفضلوا العاجل على الآجل ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ أي وأنفقوا في مرضاة الله، من بعض ما أعطيناكم وتفضلنا به عليكم من الأموال ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي قبل أن يحلَّ الموتُ بالإِنسان، ويصبح في حالة الاحتضار ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي فيقول عند تيَقُّنِه الموت: يا ربِّ هَلَّا أمْهَلْتني وأخَّرْتَ موتي إلى زمنٍ قليل! ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي فأتصدق وأحسن عملي، وأصبح تقيًّا صالحًا قال ابن كثير: كلُّ مفرطٍ يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ليستدرك ما فات، ولكن هيهات[2] ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ أي ولن يمهل الله أحدًا أيًّا كان إذا انتهى أجله، ولن يزيد في عمره، وفيه تحريضٌ على المبادرة بأعمال الطاعات، حذرًا أن يجيء الأجل وقد فرَّط ولم يستعد للقاء ربه ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي مُطَّلِعٌ وعالِمٌ بأعمالكم من خير أو شر، ومجازيكم عليها.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من الفصاحة والبيان نوجزها فيما يلي:

١ – التأكيد بالقسم وإنَّ واللام ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ زيادة في التقرير والبيان.

٢ – الجملة الاعتراضية ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ جاءت معترضة بين الشرط وجوابه لبيان أنهم ما قالوا ذلك عن اعتقاد، ولدَفْع توَهُّم تكذيبهم في دعواهم الشهادة بالرسالة، والأصلُ ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ فجاءت الجملة اعتراضية بينهما.

٣ – الاستعارة ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ فإن أصل الجنَّة ما يُستتر به ويُتقى به المحذور كالترس، ثم استعمل هنا استعارة لأنهم كانوا يُظهرون الإِسلام ليعصموا دماءهم وأموالهم.

٤ – الطباق بين ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ وبين ﴿الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٥ – التشبيه المرسل المجمل ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ وهو من روائع التشبيه.

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٢٧٤.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٠٦.

٦ - طباق السلب ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾.

٧ - الجملة الدُّعَائية ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ وهي دعاءٌ عليهم باللعنة والخزي والهلاك.

٨ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات، وهو كثير في القرآن يزيد في رونق الكلام.

تنبيه: النفاق لم يكن بمكة وإنما كان بها الكفر، ولم يظهر النفاق إلا بالمدينة المنورة حين عزَّ الإسلام وكثر أنصاره، وقد كان المنافقون يظهرون الإسلام لصون دمائهم وأموالهم كما قال الشاعر:

وَمَا انْتَسَبُوا إِلَى الْإِسْلَامِ إِلَّا ... لِصَوْنِ دِمَائِهِمْ أَن لَا تُسَالَا

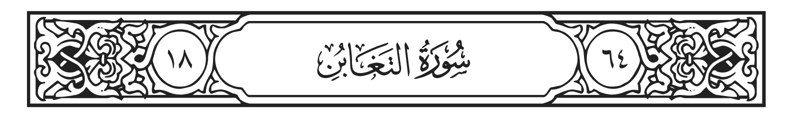
فَائِدَة: العزةُ غير الكبر، ولا يحلَ للمسلم أن يُذلَّ نفسه، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه، والكبر جهل الإنسان بنفسه، قيل للحسن بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهما: إن الناس يزعمون أن فيك كبراً وتيهًا فقال: ليس بتيه[1] ولكنه عزة المسلم ثم تلا الآية ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

لطيفَة: عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهما قال: «من كان له مال يبلغه حج بيت ربه، أو تجب عليه فيه زكاةٌ فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت، فقال رجلٌ يا ابن عباس: اتق الله فإنما يسأل الرجعة الكفار!! فقال: سأتلو عليكم بذلك قرآنا ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ ..﴾ الآية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المنافقون»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) (ش): تاه الشَّخصُ في مشيه تَيْهًا وتِيهًا وتَيهانًا: تكبَّر.



مدنية وآياتها ثماني عشرة

بين يدي السورة

* سورة التغابن من السور المدنية التي تعنى بالتشريع، ولكن جوها جو السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية.

* تحدثت السورة الكريمة عن جلال الله وعظمته وآثار قدرته، ثم تناولت موضوع الإنسان المعترف بربه، والإنسان الكافر الجاحد بآلاء الله.

* وضربت الأمثال بالقرون الماضية، والأمم الخالية، التي كذبت رسل الله، وما حل بهم من العذاب والدمار، نتيجة لكفرهم وعنادهم وضلالهم.

* وأقسمت السورة على أن البعث حق لابد منه، أقر به المشركون أو أنكروه.

* وأمرت بطاعة الله وطاعة رسوله، وحذرت من الإعراض عن دعوة الله.

* كما حذرت من عداوة بعض الزوجات والأولاد، فإنهم كثيرًا ما يمنعون الإنسان عن الجهاد والهجرة.

* وختمت السورة بالأمر بالإنفاق في سبيل الله لإعلاء دينه، وحذرت من الشح والبخل، فإن من صفات المؤمن الإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وهو شطر الجهاد في سبيل الله.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

اللغَة: ﴿صَوَّرَكُمْ﴾ التصوير: التخطيط والتشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يتميز بها عن غيره ﴿نَبَؤُاْ﴾ النبأ: الخبر الهام ﴿وَبَالَ﴾ الوبال: العقوبة والنكال ﴿زَعَمَ﴾ ظنَّ، والزعمُ هو القول بالظن ومنه قولهم «زعموا مطيةُ الكذب» قال شريح: «لكل شيءٍ كُنيةٌ، وكُنيةُ الكذب زعموا»[1] ﴿ٱلتَّغَابُنِ﴾ الغَبْنُ ومعناه: النقص يقال: غَبنه غَبْنًا إذا أخذ الشيء منه بدون قيمته، وسمي يوم القيامة يوم التغابن، لأنه يظهر فيه غَبْن الكافر بتركه الإيمان، وغَبْن المؤمن بتقصيره في الإحسان.

سبب النزول: روى أن رجالًا من أهل مكة أسلموا، وأرادوا أن يهاجروا إلى النبي ﷺ فمنعهم أزواجهم وأولادهم، وقالوا: صبرنا على إسلامكم ولا صبر لنا على فراقكم! فأطاعوهم وتركوا الهجرة فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ...﴾[2] الآية.

التفسير: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ينزه الله تعالى ويمجده جميع ما في السموات والأرض من مخلوقات، تنزيهًا دائمًا مستمرًّا بدون انقطاع، وصيغة المضارع تفيد التجدد والاستمرار ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ أي له جل وعلا المُلك التام والتصرف الكامل في خلقه، وهو المستحق للثناء وحده، لأن جميع النعم منه سبحانه وتعالى، وقدَّم

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٣٥. (ش): قال ﷺ: «بِئْسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ زَعَمُوا». (رواه أحمد وأبو داود، وصححه الألباني). (بِئْسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ) الْمَطِيَّةُ بِمَعْنَى الْمَرْكُوبِ (زَعَمُوا) الزَّعْمُ - بِالضَّمِّ وَالْفَتْحِ - قَرِيبٌ مِنَ الظَّنِّ أَيْ أَسْوَأُ عَادَةٍ لِلرَّجُلِ أَنْ يَتَّخِذَ لَفْظَ زَعَمُوا مَرْكَبًا إِلَى مَقَاصِدِهِ فَيُخْبِرَ عَنْ أَمْرٍ تَقْلِيدًا مِنْ غَيْرِ تَثَبُّتٍ فَيُخْطِئَ وَيُجَرَّبَ عَلَيْهِ الْكَذِبُ. فَالرَّجُلَ إِذَا أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى بَلَدٍ رَكِبَ مَطِيَّةً وَسَارَ حَتَّى يَبْلُغَ حَاجَتَهُ فَشَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ مَا يُقَدِّمُهُ الرَّجُلُ أَمَامَ كَلَامِهِ وَيَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى حَاجَتِهِ مِنْ قَوْلِهِمْ زَعَمُوا كَذَا وَكَذَا بِالْمَطِيَّةِ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يَقْصِدُهُ. وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْإِخْبَارَ بِخَبَرٍ مَبْنَاهُ عَلَى الشَّكِّ وَالتَّخْمِينِ دُونَ الْجَزْمِ وَالْيَقِينِ قَبِيحٌ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لِخَبَرِهِ سَنَدٌ وَثُبُوتٌ وَيَكُونَ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ ذَلِكَ لَا مُجَرَّدَ حِكَايَةٍ عَلَى ظَنٍّ وَحُسْبَانٍ.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢١٢. (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ قَالَ: هَؤُلَاءِ رِجَالٌ أَسْلَمُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَأَرَادُوا أَنْ يَأْتُوا النَّبِيَّ ﷺ فَأَبَى أَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ أَنْ يَدَعُوهُمْ أَنْ يَأْتُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَلَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَوُا النَّاسَ قَدْ فَقِهُوا فِي الدِّينِ هَمُّوا أَنْ يُعَاقِبُوهُمْ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ الآيَةَ. (رواه الترمذي، وحسنه الألباني).

الجار والمجرور فيهما لإفادة حصر الملك والحمد فيه سبحانه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر على كل شيء، يُغْنِي ويُفْقِر، ويُعِزّ ويُذِلّ، وإذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، وهو كالدليل لما تقدم من أنَّ الملك والحمد له سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ هذا تفصيلٌ لبعض آثار قدرته، أي: هو الذي خلقكم أيها الناس بهذا الشكل البديع المحكم، فكان يجب على كل واحدٍ منكم الإيمان به، لكنْ منكم من كفر بربه، ومنكم من آمن وصدَّق بخالقه قال الطبري: أي منكم كافرٌ بخالقه وأنه هو الذي خلقه، ومنكم مصدِّق به موقنٌ أنه خالقه وبارئه[1]، وقدَّم الكافر على المؤمن، لكثر الكفار وقلة المؤمنين ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي عالمٌ بأحوالكم، مطَّلعٌ على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية من شئونكم وسيجازيكم عليها.. ثم فصَّل تعالى آثار قدرته ودلائل وحدانيته فقال ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي خلقهما بالحكمة البالغة، المتضمنة لمصالح الدنيا والدين، لا عبثًا ولا لهوًا ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي خلقكم في أحسن صورة وأجمل شكل، فأتقنَ وأحكَمَ خَلْقكم وتصويرَكم كقوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] فإن من نظر في شكل الإنسان وهيئته وتناسُب أعضائه، علم أن صورته أحسن صورة بالنسبة لسائر أنواع الحيوان، ومن حسن صورته أنه خُلِق مُنتصبًا غير مُنْكَبٍّ على وجهه[2] ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وإليه تعالى وحده المرجع والمآب، فيجازي كلًا بعمله ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي يعلم ما في الكائنات من أجرام ومخلوقات ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي ويعلم ما تُخْفُونه وما تُظهِرونه من نواياكم وأعمالكم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي عالم بما في الصدور من الأسرار والخفايا، فكيف تخفى عليه أعمالكم الظاهرة؟ قال في البحر: نبَّه تعالى بعلمه بما في السمواتِ والأرض، ثم بعلمه بما يخفيه العباد وما يعلنونه، ثم بعلمه بما أَكَنَّتْه الصدور، على أنه تعالى لا يغيب عن علمه شيء، لا من الكليات ولا من الجزيئات، فابتدأ بالعلم الشامل، ثم بسرِّ العباد وعلانيتهم، ثم بما تنطوي عليه صدورهم، وهذا كله في معنى الوعيد، إذ هو تعالى المجازي عليه بالثواب والعقاب[3].

ثم ذكَّرهم تعالى بما حلَّ بالكفار قبلهم فقال ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي ألم يأتكم يا معشر قريش خبر كفار الأمم الماضية كقوم عاد وثمود، ماذا حَلَّ بهم من العذاب والنكال! ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي فذاقوا العقوبة الوخيمة على كفرهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ

---

(١) «تفسير الطبري» ٢٨/ ٧٨.

(٢) فإن قيل: إن بعض الناس قبيح المنظر والشكل، فالجواب أن ذلك لا يُخرِجه عن حسن الصورة الإنسانية، وإنما هو قبيح بالنظر إلى من هو أحسن منه.

(٣) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٧٧.

﴿أَلِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب شديد موجع ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي ذلك العذاب الذي ذاقوه في الدنيا وما سيذوقونه في الآخرة، بسبب أنه جاءتهم رسلهم بالمعجزات الواضحات، والبراهين الساطعات، الدالة على صدقهم ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾؟ أي فقالوا على سبيل الاستغراب والتعجب: أرسلٌ من البشر يصيرون هداةً لنا قال الرازي: أنكروا أن يكون الرسول بشرًا، ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجرًا[١]، وذلك لقلة عقولهم وسخافة أحلامهم ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾ أي فكفروا بالرسول، وأعرضوا عن الإيمان واتباع هدى الرحمن ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ أي استغنى الله عن طاعتهم وعبادتهم قال الطبري: أي استغنى اللهُ عنهم، وعن إيمانهم به وبرسله[٢] ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي غنيٌّ عن خلقه، محمودٌ في ذاته وصفاته، لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية، لأنه مُستَغْنٍ عن العالمين.. ثم أخبر تعالى عن إنكارهم للبعث بعد تكذيبهم للرسالة فقال ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾ أي ادَّعى كفار مكة وظنوا أن الله لن يبعثهم من قبورهم بعد موتهم أبدًا ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ أي قل لهم يا محمد: ليس الأمر كما زعمتم، وأقسم بربي لتخرجن من قبوركم أحياء ولتبعثنَّ ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي ثم لَتُخْبَرُنَّ بجميع أعمالكم، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، وتُجْزَوْن بها ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي وذلك البعث والجزاء، سَهْلٌ هَيِّنٌ على الله، لأن الإعادة أسهل من الابتداء قال الرازي: أنكروا البعث بعد أن صاروا ترابًا، فأخبر تعالى أن إعادتهم أهونُ في العقول من إنشائهم[٣].. ولما بالغ في الإخبار عن البعث، وذكر أحوال الأمم المكذبة، أمر بالاعتصام بالإيمان والتمسك بالقرآن فقال ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ أي فصدِّقوا بالله وبرسوله وبهذا القرآن الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ فإنه النور الوضاء، المبدّد للشبهات، كما يبدد النور الظلمات ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ أي واذكروا ذلك اليوم الرهيب يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الخلائق كلها في صعيد واحد للحساب والجزاء قال ابن كثير: سمُي «يوم الجمع» لأن الله تعالى يجمع فيه الأولين والآخرين في صعيد واحد، يُسْمِعهم الداعي ويَنْفُذُهم البصر، كقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣][٤] ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ أي ذلك هو اليوم الذي يظهر فيه غبن الكافر وخسارته بتركه الإيمان، وذلك أن المؤمنين اشتروا الجنة بترك الدنيا، واشترى الكفار النار بترك الآخرة، فظهر غبن الكافرين قال الخازن: وأصله من الغبن وهو أخذ الشيء بدون قيمته، والمغبونُ من غُبن

(١) «تفسير الفخر الرازي» ٣٠/ ٢٣.
(٢) «تفسير الطبري» ٢٨/ ٧٨.
(٣) «تفسير الفخر الرازي» ٣٠/ ٢٣.
(٤) تفسير «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٠٩.

أهلـه ومنازلـه في الجنة، وذلك لأن كل كافر له أهلٌ ومنزل في الجنة لو أسـلم[١]، فيظهر يومئذٍ غبن كل كافر بترْكه الإيمان، ويظهر غبْن كل مؤمن بتقصيره في الإحسـان[٢] ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ أي ومـن يُصَـدِّق بالله ويعمل عملًا صالحًـا، يَمْحُ الله تعالى عنه ذنوبـه ﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي ويُدْخِله جنـات النعيم، التي تجري من تحت أشـجارها وقصورها أنهارُ الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي مقيمين في تلك الجنات أبد الحياة، لا يموتون لا يُخرجون منها ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي ذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه، والسـعادة التي لا سـعادة بعدها ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي والذين جحدوا بوحدانية الله وقدرته، وكذبوا بالدلائل الدالة على البعث وبآيات القرآن الكريم ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي أولئك مآلهم جهنم، ما كثين فيها أبدًا ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي وبئسـت النار مرجعًا ومسـتقرًّا لأهل الكفر والضلال.. ثم أخبر تعالى بـأن كل ما يحدث في الكون بقضائه وإرادته فقـال ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي ما أصاب أحدًا مصيبةٌ في نفسـه أو مالـه أو ولده، إلا بقضاء الله وقدره ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ أي ومـن يُصَـدِّق بالله ويعلم أن كل حادثة بقضائه وقدره، يَهْدِ قلبـه للصبر والرضا ويُثَبِّته على الإيمـان قـال ابن عباس: يهدِ قلبه لليقين، حتى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، ما أخطأه لم يكن ليصيبه[٣] وقال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضَى بها ويُسَلِّم لقضاء الله[٤] ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو الله تعالى عالمٌ بكل الأشـياء، لا يخفى عليه شـيء في الأرض ولا في السـماء قال القرطبي: أي لا يخفى عليه تسـليمُ مَن انقادَ وسَـلَّم لأمره، ولا كراهـة من كرهه[٥] ولم يرض بقضائـه ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسـوله في كل ما شرع لكم من الأوامر والنواهي، وكرَّر الأمر للتأكيد ولبيان أن طاعة الرسول واجبة كطاعـة الله ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي فـإن أعرضتم عن إجابة الرسول فيما دعاكم إليه من الهداية والإيمان، فليس عليه ضرر إنما ضرر ذلك عليكم، إذ ليس على الرسـول إلا تبليغ الرسالة وقد أدى ما عليه، والله ينتقم ممن عصاه وخالف أمره ﴿اللَّهُ لَا

---

(١) (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ قَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ لَهُ مَنْزِلاَنِ مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾». (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إِلاَّ أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، لَوْ أَسَاءَ، لِيَزْدَادَ شُكْرًا، وَلاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلاَّ أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، لَوْ أَحْسَنَ، لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةً» رواه البخاري.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ١٠٤. (ش): قَالَ: «لَوْ أَنَّ عَبْدًا خَرَّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يَوْمِ وُلِدَ، إِلَى أَنْ يَمُوتَ هَرَمًا فِي طَاعَةِ اللهِ، لَحَقَّرَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَلَوَدَّ أَنَّهُ رُدَّ إِلَى الدُّنْيَا كَيْمَا يَزْدَادَ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ» (رواه أحمد، وصححه الألباني).

(٣) «تفسير الطبري» ٢٨/ ٨٠.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥١٠.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٤٠.

﴿إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي اللهُ جل وعلا لا معبود سواه[١]، ولا خالق غيره، عليه الاعتماد وإليه المرجع والمآب ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فعليه وحده توكلوا أيها المؤمنون في جميع أموركم قال الصاوي: وهو تحريضٌ وحَثٌّ للنبي ﷺ على التوكل على الله، والالتجاء إليه، وفيه تعليمٌ للأمة ذلك[٢]، بأن يلتجئوا إلى الله ويثقوا بنصره وتأييده ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ أي يا معشر المؤمنين، إن بعض الزوجات والأولاد أعداء لكم، يصدونكم عن سبيل الله، ويثبطونكم عن طاعة الله، فاحذروا أن تستجيبوا لهم وتطيعوهم قال المفسرون: إن قومًا أسلموا وأرادوا الهجرة، فثبطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة، فلم يهاجروا إلا بعد مدة، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فندموا وأسفوا وهمُّوا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم فنزلت الآية الكريمة[٣]، والآية نعم كلَّ من انشغل عن طاعة الله بالأزواج والأولاد ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ﴾ أي وإن عفوتم عنهم في تثبيطكم عن الخير، وصَفَحْتم عما صدر منهم، وغفرتم لهم زلاتهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فإن الله واسع المغفرة عظيم الرحمة، يعاملكم بمثل ما عاملتم ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي ليست الأموالُ والأولادُ إلا اختبارًا وابتلاءً من الله تعالى لخلقه، ليعلم من يطيعه ومن يعصيه، وقدَّم المال لأن فتنته أشدُّ ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي وما عند الله من الأجر والثواب أعظم من متاع الدنيا، فلا تشغلكم الأموال والأولاد عن طاعة الله، والآية ترغيبٌ في الآخرة وتزهيدٌ في الدنيا، وفي الأموال والأولاد التي فتن الناسُ بها ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ أي ابذلوا أيها المؤمنون في طاعة الله جهدكم وطاقتكم، ولا تكلفوا أنفسكم ما لا تطيقون قال المفسرون: هذا في المأمورات وفضائل الأعمال يأتي الإنسان منها بقدر طاقته، وأما في المحظورات فلا بدَّ من اجتنابها بالكلية ويدل عليه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُم بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[٤] ﴿وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ أي واسمعوا ما توعظون به، وأطيعوا فيما تُؤْمرون به وتُنهون عنه ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أي وأنفقوا في سبيل الله من أموالكم، يكنْ خيرًا لأنفسكم ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي ومَن سَلِمَ من البخل والطمع الذي تدعو إليه النفس، فقد فاز بكل مطلوب ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي إذا تصدقتم في سبيل الله عن طيب نفس، فإن الله يضاعف لكم الأجر والثواب، وفي تصوير الصدقة بصورة القرض تلطفٌ بليغ في الإحسان إلى الفقراء ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي ويمحُ عنكم سيئاتكم ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي

---

(١) (ش): الصواب: لا معبود بحق سواه، لأن هناك معبودات بغير حق.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢١٢.

(٣) انظر سبب النزول المتقدم.

(٤) أخرجه الشيخان.

شاكرٌ للمحسن إِحسانه، حليمٌ بالعباد حيث لا يُعاجِلُهم بالعقوبة مع كثرة ذنوبهم ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي هو تعالى العالم بما غاب وحضر، لا تخفى عليه خافية ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي الغالب في ملكه الحكيم في صنعه.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق في الاسم مثل ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ وكذلك بين ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ والطباق في الفعل مثل ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٢ - تقديم الجار والمجرور لإِفادة الحصر ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ أي له وحده الملك والحمد.

٣ - الإِستعارة اللطيفة ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ أطلق على القرآن النور بطريق الاستعارة، فإِن القرآن يزيل الشبهات، كما يزيل النور الظلمات.

٤ - المقابلة بين جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا ..﴾ الآية وبين ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ الآية.

٥ - الجناس الناقص ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ لاختلاف الحركات في الشكل.

٦ - جناس الاشتقاق ﴿أَصَابَ .. مُّصِيبَةٍ﴾ و ﴿يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾.

٧ - الإِطناب بتكرار الفعل زيادة في التأكيد واعتناءً بشأن الطاعة ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾.

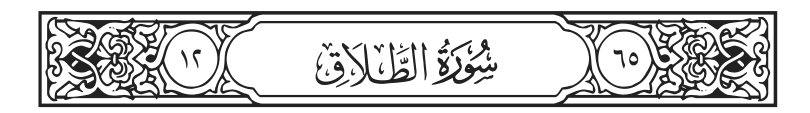
٨ - صيغة المبالغة ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ لأن (فعل وفعيل) من صيغ المبالغة.

٩ - الاستعارة التمثيلية ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ شبَّه الإِنفاق في سبيل الله والتصدق على الفقراء، بمن يُقرض الله قرضًا واجب الوفاء وذلك بطريق التمثيل، وهو من لطيف الاستعارة وبديع العبارة.

١٠ - السجع المرصَّع لتوافق الفواصل مثل ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التغابن»

❀ ❀ ❀ ❀



مدنية وآياتها اثنتا عشرة

بين يدي السورة

* سورة الطلاق مدنية وقد تناولت بعض الأحكام التشريعية المتعلقة بأحوال الزوجين، كبيان أحكام الطلاق السني وكيفيته، وما يترتب على الطلاق من العدة، والنفقة، والسكنى، وأجر المرضع إلى غير ما هنالك من أحكام.

* وتناولت السورة الكريمة في البدء أحكام الطلاق -الطلاق السني، والطلاق البدعي- فأمرت المؤمنين بسلوك أفضل الطرق، عند تعذر استمرار الحياة الزوجية، ودعت إلى تطليق الزوجة في الوقت المناسب وعلى الوجه المشروع، وهو أن يطلقها طاهرًا من غير جماع، ثم يتركها إلى انقضاء عدتها.

* وفي هذا التوجيه الإلهي دعوة للرجال أن يتمهلوا ولا يسرعوا في فصل عرى الزوجية، فإن الطلاق أبغض الحلال إلى الله[١]، ولولا الضرورات القسرية لما أبيح الطلاق لأنه هدم للأسرة.

* ودعت السورة إلى إحصاء العدة لضبط انتهائها، لئلا تختلط الأنساب، ولئلا يطول الأمد على المطلقة فيلحقها الضرر، ودعت إلى الوقوف عند حدود الله، وعدم عصيان أوامره.

* وتناولت السورة أحكام العدة، فبينت عدة اليائس التي انقطع عنها دم الحيض لكبر أو مرض، وكذلك عدة الصغيرة، وعدة الحامل فبينته أوضح بيان مع التوجيه والإرشاد.

* وفي خلال تلك الأحكام التشريعية تكررت الدعوة إلى «تقوى الله» بالترغيب تارة، وبالترهيب أخرى، لئلا يقع حيف أو ظلم من أحد الزوجين، كما وضحت أحكام السكنى والنفقة.

* وختمت السورة بالتحذير من تعدي حدود الله، وضربت الأمثلة بالأمم الباغية التي عتت عن أمر الله، وما ذاقت من الوبال والدمار، ثم أشارت إلى قدرة الله في خلق سبع سماوات طباق، وخلق الأرضين، وكلها براهين على وحدانية رب العالمين.

---

(١) (ش): حديث «أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللهِ الطَّلَاقُ» (رواه أبو داود، وابن ماجه، وضعفه الألباني). وعَنِ الأَعْمَش عَنْ أَبِى سُفْيَانَ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً يَجِىءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا. قَالَ: ثُمَّ يَجِىءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ قَالَ فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ». قَالَ الأَعْمَشُ أُرَاهُ قَالَ «فَيَلْتَزِمُهُ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ۖ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

اللغة: ﴿الْعِدَّةَ﴾ المدة التي تُحْتَبَس فيها المـرأةُ لمعرفة براءة رحِمِها ﴿وَأَحْصُوا﴾ اضبطوا بطريق العـدد ﴿حَسْبُهُ﴾ كافِيه ﴿وُجْدِكُمْ﴾ طاقتكم ووُسْعكم ﴿ارْتَبْتُمْ﴾ شككتم ﴿وَكَأَيِّنْ﴾ كثير ﴿عَتَتْ﴾ تكبرَتْ وتجبرَتْ وأعرضَتْ ﴿نُكْرًا﴾ منكرًا شنيعًا وفظيعًا ﴿خُسْرًا﴾ خسارًا وهلاكًا.

سَبَبُ النّزول: أ- روى البخاري أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ - رضي الله عنهما - طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ، فَذَكَرَ عُمَرُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَغَيَّظَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «لِيُرَاجِعْهَا ثُمَّ يُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ فَتَطْهُرَ، فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا فَتِلْكَ الْعِدَّةُ والتي أمرَ بها اللهُ عز وجل»(١).

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

ب- وروي عن أنس قال طلّق رسول الله ﷺ حفصة فأتت أهلها فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فقيل له: راجعْها فإنها صوَّامة قوَّامة، وهي من أزواجك ونسائك في الجنة[١].

ج - ورُوي أنه لما نزل قوله تعالى ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨] قال جماعة من الصحابة يا رسول الله: فما عدةُ مَن لا قُرء لها من صغر أو كِبَر فنزلت ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾. الآية[٢].

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ الخطابُ للنبي ﷺ والحكم عام له ولأمته، وخصَّ هو بالنداء ﷺ تعظيمًا له، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا أي افعل أنت وقومك، فهو نداء على سبيل التكريم والتعظيم قال القرطبي: الخطابُ للنبي ﷺ خوطب بلفظ الجماعة ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ تعظيمًا وتفخيمًا[٣] والمعنى: يا أيها النبي ويا أيها المؤمنون إذا أردتم تطليق النساء ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي فطلقوهن مستقبلاتٍ لعدتهن، وذلك في الطهر، ولا تطلقوهن في الحيض قال مجاهد: أي طاهرًا من غير جماع لقوله ﷺ: «فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا فَتِلْكَ الْعِدَّةُ والتي أمرَ بها اللهُ عز وجل»[٤] قال المفسرون: وإنما نُهي عن طلاق المرأة وقت الحيض لئلا تطول عليها العدة فتتضرر، ولأن حالة الحيض منفِّرة للزوج، تجعله يتسرع في طلاقها بخلاف ما إذا كانت طاهرًا، وكونه لم يجامعها في ذلك الطهر، لئلا يحصل من ذلك الوطء حملٌ، فتنتقل العدة من الحيض لوضع الحمل وفي ذلك ضرر ظاهر[٥] ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي اضبطُوها وأكمِلوها ثلاثة أقراء كاملة لئَلَّا تختلط الأنساب ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أي خافوا الله ربَّ العالمين، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي لا تُخرجُوهن من مساكنهم، بعد فراقكم لهن إلى أن تنقضي عدتُهن ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي ولا يخرجن من البيوت حتى تنقضي عدتهن، إلا إذا قارفت المطلقة عملًا قبيحًا كالزنى فتخرج لإقامة الحد عليها قال في التسهيل: نهى الله سبحانه وتعالى أن يُخرج الرجلُ المرأة المطلّقة من المسكن الذي طلقها فيه، ونهاها

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥١٢. (ش): ضعيف، رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره».

(٢) روح المعاني ٢٨/ ١٣٧. (ش): رُوِيَ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي عَدَدٍ مِنْ عَدَدِ النِّسَاءِ قَالُوا: قَدْ بَقِيَ عَدَدٌ مِنَ النِّسَاءِ لَمْ يُذْكَرْنَ الصِّغَارُ وَالْكُبَّارُ، وَلَا مَنِ انْقَطَعَتْ عَنْهُنَّ الْحَيْضُ، وَذَوَاتُ الْأَحْمَالِ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْآيَةَ الَّتِي فِي سُورَةِ النِّسَاءِ ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] (ضعيف، رواه الحاكم والبيهقي).

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٤٨.

(٤) الحديث في الصحيحين وانظر سبب النزول المتقدم.

(٥) انظر حكمة التشريع في كتابنا «روائع البيان» ٢/ ٦٠٤.

هي أن تخرج باختيارها، فلا يجوز لها المبيت خارجًا عن بيتها، ولا أن تغيب عنه نهارًا إلا لضرورة التصرف، وذلك لحفظ النسب وصيانة المرأة، واختلف في الفاحشة التي تبيح خروج المعتدة فقيل: إنها الزنى فتخرج لإقامة الحد عليها[1]، وقيل: إنه سوء الكلام مع الأصهار[2] وبذاءة اللسان فتخرج ويسقط حقها من السكنى، ويؤيده قراءة «إلا أن يَفْحُشْن عليكم»[3] ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي وهذه الأحكام هي شرائع الله ومحارمه ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أي ومن يخرج عن هذه الأحكام، ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها، فقد ظلم نفسه بتعريضها للعقاب، وأضرَّ بها حيث فوَّت على نفسه إمكانَ إرجاع زوجته إليه قال الرازي: وهذا تشديدٌ فيمن يتعدى طلاق السنة، ومن يطلق لغير العدة ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ أي لا تعرف أيها السامع ماذا يُحدِث اللهُ بعد ذلك الطلاق من الأمر؟ فلعل الله يقلّب قلبه مِن بُغْضِها إلى محبَّتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، فيجعله راغبًا في زوجته بعدما كان كارهًا لها قال ابن عباس: يريد الندم على طلاقها، والمحبة لرجعتها في العدة[4] ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي فإذا شارَفْن على انقضاء العدة وقارَبْنَ ذلك[5] ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي فراجِعُوهنَّ إلى عصمة النكاح مع الإحسان في صحبتهن كما أمر الله، أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فيملكن أنفسهن قال المفسرون: الإمساك بالمعروف هو إحسان العشرة وتَوْفِية النفَقَة[6]، من غير قصد المضارة في الرجعة لتطول عليها العدة، والفراق بالمعروف هو أداء الصَّداق، والمتعة عند الطلاق، والوفاء بالشروط مع تَوْفِيَة جميع حقوقها ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي وأَشهِدوا عند الطلاق أو الرجعة، شخصين من أهل العدالة والاستقامة ممن تثقون في دينهما وأمانتهما قال في البحر: وهذا الإشهاد مندوبٌ إليه

---

(١) تفسير الفاحشة بالزنى هو قول ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة، وروى عن ابن عباس أيضًا أنه البذاء باللسان على الأحماء وهو قول أبي بن كعب.

(٢) (ش): صِهْر: قريب بالزَّواج.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٢٦. (ش): ليست بقراءة متواترة، ولم أجدها في كتب القراءات الشاذة، كـ«المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها» لابن جني الموصلي.

(٤) قال ابن القيم: «إن الله تعالى لما كان يبغض الطلاق، لما فيه من انفصام عُرَى الزوجية، وموافقة عدوه إبليس حيث يفرح بافتراق الزوجين، وكان مع ذلك يحتاج إليه الزوج أو الزوجة، شرعه على وجه تحصل به المصلحة، وتندفع به المفسدة وحرمه على غير ذلك الوجه، فشرع له أن يطلقها طاهرًا من غير جماع، طلقةً واحدة، ثم يتركها حتى تنقضي عدتُها، فإن زالت أسباب الخلاف وحصلت الموافقة كان له سبيل إلى إعادتها، وجعل العدة ثلاثة قروء ليطول زمن المهلة والاختيار، فهذا هو الذي شرعه وأذن فيه»! نقلًا عن «محاسن التأويل» ١٦/ ٥٨٣٢. (ش): راجع أول تعليق في السورة.

(٥) (ش): شارَف الشيءَ: قارَبه، دنَا منه.

(٦) (ش): وفَّى الشّخصَ حقَّه، تَوْفِيَةً: أوفَاه؛ أعطاه إيّاه تامًّا، أتمَّ ما وعده به.

عند أبي حنيفة كقوله تعالى ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وعند الشافعية واجبٌ في الرجعة، مندوبٌ إليه في الفرقة[١] ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ أي اشهدوا بالحق دون تحيز لأحد، خالصًا لوجه الله تعالى من غير تبديل ولا تغيير، ودون مراعاةٍ للمشهود له أو المشهود عليه ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي هذا الذي شرعناه من الأحكام، إنما ينتفع ويتعظ به المؤمن الذي يخشى الله، ويخاف الحساب والعقاب في الدار الآخرة ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي ومن يراقب الله ويقف عند حدوده، يجعل له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيقٍ مخرجًا، ويرزقه من وجه لا يخطر بباله ولا يعلمه قال مجاهد: كنت عند ابن عباس فجاءه رجلٌ فقال: إنه طلَّق امرأته ثلاثًا، فسكت حتى ظننت أنه رادها إليه، ثم قال: ينطلق أحدكم فيركب أحموقته[٢] ثم يقول: يا ابن عباس، يا ابن عباس!! والله تعالى يقول ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ وإنك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجًا، عصيت ربك وبانت منك امرأتك[٣] وقال المفسرون: الآية عامة وقد «نزلت في «عوف بن مالك الأشجعي» أسر المشركون ابنه، فأتى رسول الله ﷺ وشكا إليه الفاقة وقال: إن العدوَّ أسر ابني وجزعتْ أمه فما تأمرني؟ فقال ﷺ له: «اتق الله واصبر، وآمرك وإياها أن تستكثروا من قول» لا حول ولا قوة إلا بالله «ففعل هو وامرأته، فبينا هو في بيته إذ قرع ابنه الباب، ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها» فنزلت ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[٤] ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي ومن يعتمد على الله، ويثق به فيما أصابه ونَابَه[٥]، فإن الله كافيه قال الصاوي: أي من فوَّض إليه أمره كفاه ما أهَمَّه، والأخذُ بالأسباب لا يُنافي التوكل، لأنه مأمور به ولكنْ لا يعتمد على تلك الأسباب[٦]، وفي الحديث « لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا »[٧] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ أي نافذُ أمْره في جميع خلقه، يبلغ ما يريد ولا يعجزه شيء قال في التسهيل: وهذا حضٌّ على التوكل وتأكيدٌ له، لأن العبد إذا خلقه، يبلغ ما يريد ولا يعجزه شيء قال في التسهيل: وهذا حضٌّ على التوكل وتأكيدٌ له، لأ، العبد إذا تحقق أن الأمور كلها بيد الله، توكَّل على الله

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٢٨٢.

(٢) (ش): الأحموقة: مَا يصدر عَن الشَّخْص فيُوصَم بالحماقة.

(٣) عن محاسن التأويل ١٦/ ٥٨٣٨.

(٤) انظر «القرطبي» ١٨/ ١٦٠، و«الطبري» ٢٨/ ٩٠. (ش): ضعيف جدًّا، رواه الحاكم، والواحدي في «أسباب النزول».

(٥) (ش): نابَه أمرٌ: أصابه، نزل به.

(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢١٥.

(٧) أخرجه الترمذي. (ش): صححه الألباني. تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا: تغدو بكرةً وهي جِياعٌ، وتروتح عِشاءً وهي ممتلئةُ الأجواف.

وحده ولم يُعوِّل على سواه[١] ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي قد جعل الله لكل أمرٍ من الأمور، مقدارًا معلومًا ووقتًا محدودًا، حسب الحكمة الأزلية قال القرطبي: أي جعل لكل شيءٍ من الشدة والرخاء أجلًا ينتهي إليه[٢].. ثم بيَّن سبحانه حكم المطلَّقة التي لا تحيض لصغرها أو لكبر سنها فقال ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أي والنسوة اللواتي انقطع حيضهن لكبر سنهنَّ، إن شككتم وجهلتم كيف عدتهن؟ فهذا حكمهن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أي فعدةُ الواحدة منهن ثلاثة أشهر، كل شهرٍ يقوم مقام حيضة ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ أي وكذلك اللواتي لم يحضن لصغرهن عدتهن ثلاثة أشهر ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي والمرأة الحامل تنتهي عدتها بوضع الحمل، سواءً كانت مطلقة، أو متوفى عنها زوجها ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ أي ومن يخش الله في أقواله وأفعاله، ويجتنب ما حرَّم الله عليه، يسهِّل عليه أمره ويوفقه لكل خير ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ أي ذلك هو حكم الله وشرعه الحكيم، أنزله عليكم أيها المؤمنون لتأتمروا به، وتعملوا بمقتضاه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ أي ومن يتَّق ربَّه يَمْحُ عنه ذنوبه، ويضاعِف له الأجر والثواب قال الصاوي: كرر التقوى لعلمه سبحانه وتعالى أن النساء ناقصات عقل ودين، فلا يصبر على أمورهن إلا أهل التقوى[٣] وقال في البحر: لمَّا كان الكلام في أمر المطلقات، وكنَّ لا يُطلَّقن إلا عن بُغضِ أزواجهنَّ لهنَّ، وقد ينسب الزوج إليها ما يَشِينُها وينفِّر الخُطَّاب عنها، فلذلك تكرر الأمر بالتقوى، وجاء مُبرَّزًا[٤] في صورة شرط وجزاء ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل﴾[٥] الآية ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي أسكنوا هؤلاء المطلقات في بعض مساكنكم التي تسكنونها، على قدر طاقتكم ومقدرتكم، فإن كان موسرًا وسَّع عليها في المسكن والنفقة، وإن كان فقيرًا فعلى قدر الطاقة ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ أي ولا تضيقوا عليهن في السكنى والنفقة، حتى تضطروهن إلى الخروج أو الافتداء ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ﴾ أي وإن كانت المطلَّقة حاملًا ﴿فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي فعلى الزوج أن ينفق عليها ولو طالت مدة الحمل حتى تضع حملها ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي فإذا ولدت ورضيت أن ترضع له ولده ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي فعلى الرجل أن يدفع لها أجر الرضاعة، لأن الأولاد ينسبون إلى الآباء قال في التسهيل: والمعنى: إن أرضع هؤلاء الزوجات المطلقات أولادكم، فآتوهنَّ أجرة الرضاع وهي النفقة

---

(١) «التسهيل» ٤/ ١٢٨.

(٢) «القرطبي» ١٨/ ١٦٨.

(٣) «حاشية الصاوي» ٤/ ٢١٧.

(٤) (ش): مُبرَّزًا: مُميَّزًا ظاهرًا.

(٥) «البحر المحيط» ٨/ ٢٨٤.

وسائر المؤن[١] ﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي وليأمر كلٌّ منهما صاحبه بالخير، من المسامحة والرفق والإِحسان، قال القرطبي: أي وليقبل بعضكم من بعض ما أمره به من المعروف الجميل، والمعروف منها: إرضاعُ الولد من غير أجرة، والمعروف منه: توفيرُ الأجرة عليها للإرضاع[٢] ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي تضايقتم وتشددتم، وعسر الاتفاق بين الزوجين، فأبى الزوج أن يدفع لها ما تطلب، وأبت الزوجة أن ترضعه بأنقص من ذلك الأجر ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ أي فليستأجر لولده مرضعةً غيرها وهو خبرٌ بمعنى الأمر أي فليسْتَرضِعْ لولده مُرضِعةً أُخرى قال أبو حيان: وفيه عتابٌ للأم لطيف كما تقول لمن تطلب منه حاجة فيتوانى عنها: سيقضيها غيرك، تريد أنها لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم[٣] قال الضحاك: إن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى، فإن لم يقبل أُجبرت أمه على الرضاع بالأجر[٤] ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ هذا بيانٌ لقدر الإنفاق. والمعنى: لينفقْ الزوج على زوجته وعلى ولده الصغير، على قدر وُسْعه وطاقته، قال في التسهيل: وهو أمرٌ بأن ينفق كل واحد على مقدار حاله، فلا يُكلَّف الزوج ما لا يطيق، ولا تُضيَّع الزوجة بل يكون الحال معتدلًا، وفي الآية دليلٌ على أن النفقة تختلف باختلاف أحوال الناس يسرًا وعسرًا[٥] ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ أي ومن ضُيّق عليه رزقه فكان دون الكفاية ﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي فلينفق على مقدار طاقته، وعلى قدر ما آتاه الله من المال ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ أي لا يكلِّف الله أحدًا إلا قدر طاقته واستطاعته، فلا يكلِّف الفقير مثل ما يكلِّف الغني قال أبو السعود: وفيه تطييبٌ لقلب المعسر، وترغيبٌ له في بذل مجهوده[٦]، وقد أكد ذلك الوعد بقوله ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي سيجعل الله بعد الضيق الغنى، وبعد الشدة السعة والرخاء، وفيه بشارة للفقراء بفتح أبواب الرزق عليهم.

ثم حذَّر تعالى من عصيانه وتعدِّي حدودِه، وضرَبَ الأمثال بالأمم السابقة فقال ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي وكثير من أهل قرية من الأمم السالفة ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ أي طغت وتمردت على أوامر الله وأوامر رسله ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ أي فجازيناها على عصيانها وطغيانها بأنواع العذاب الأليم، من الجوع والقحط وعذاب الاستئصال ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي عذابًا منكرًا عظيمًا يفوق التصور ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي فذاقت عاقبة كفرها وطغيانها وتمردها على أوامر الله ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ أي وكانت نتيجة بَغْيِها الهلاك والدمار،

---

(١) «التسهيل» ٤/ ١٢٩.
(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٦٩.
(٣) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٢٨٥.
(٤) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٦٩.
(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٢٩.
(٦) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٧٢.

والخسـران الذي ما بعده خسران.. ولما ذكر ما حلَّ بالأمم الطاغية، أمر المؤمنين بتقوى الله، تحذيـرًا من عقابه لئلا يصيبهم ما أصاب أولئك المجرمين فقال ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي هيـأ الله لهم في الآخرة عذاب جهنم الشـديد المؤبـد ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي فخافوا الله واحذروا بطشـه وانتقامه يا أصحاب العقول السـليمة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي أنتم يا معشر المؤمنين الذين صدقتم بالله ورسوله ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ أي قد أنزل الله إليكم وحيًا يتلى وهو القرآنُ الحكيـم[1] ﴿رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ أي وأرسـل إليكم رسـولاً وهو محمد ﷺ يقرأ عليكم آياتِ الله، واضحات جليات، تبيِّن الحلال والحرام وما تحتاجون إليه من الأحكام قال في البحر: والظاهر أن الذكر هو القرآن، وأن الرسول هو محمد ﷺ[2] ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي ليخـرج المؤمنين المتقين، مـن الضلالة إلى الهدى، ومن ظلمـة الكفـر والجهل إلى نور الإيمان والعلـم ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي ومن يُصدق بـالله ويعمـل بطاعته ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي يدخلـه في الآخرة جنات النعيم، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي ماكثين في تلك الجنات -جنات الخلـد- أبـدًا لا يخرجون منهـا ولا يموتون ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ أي قـد طيَّب الله رزقهم في الجنة ووسَّـعه لهم، لأن نعيمهـا دائم لا ينقطع قال الطبري: أي وسَّـع لهم في الجنات الرزق، وهو ما رزقهم من المطاعم والمشـارب وسـائر ما أعـدَّ لأوليائه فيها فطيَّبه لهـم[3]، وفي الآية معنى التعجب والتعظيم لما رزق الله المؤمن من الثواب.

ثم أشـار تعالى إلى آثار قدرته، وعظيم سـلطانه وجلاله فقال ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي اللهُ العظيم الكبير هو الذي خلق بقدرته سبع سـمواتٍ طباقًا، ومن الأرض كذلـك خلق سـبع أرضين بعضها فـوق بعض بدون فتوق بخلاف السـموات[4] ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي يتنزل وحيُ الله ويجري أمره وقضاؤه بين السـموات والأرضين ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لتعلموا أن من قدر على خلق ذلك قادر على كل شيءٍ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ

---

(١) اختار بعض المفسرين أن المراد بالذِّكْر هو الرسول ﷺ بدليل أنه أبدل منه قوله ﴿رَّسُولًا يَتْلُواْ﴾ وإليه ذهب الطبري، و«أبو السعود»، وما ذكرناه هو أرجح الأقوال أن المراد بالذكر «القرآن» وبالرسول محمد ﷺ وهو منصوب بفعل محذوف تقديره: وأرسل رسولاً، وهو اختيار ابن عطية وصاحب «البحر المحيط».

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٢٨٦.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٨/ ٩٨.

(٤) لا خلاف بين العلماء أن السماوات سبع، وأما الأرض فاختلِفَ فيها فقيل: إنها سبع أرضين لظاهر الآية وللحديث الصحيح: «مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ » وقيل: إنها أرض واحدة وإن المماثلة ليست في العدد وإنما هي في الخلق والإبداع أي مثلهن في الإبداع والإحكام، والأول أظهر والله أعلم. (ش): القول الأول هو الصحيح، والقول الثاني يخالف الحديث الصحيح وظاهر الآية. والحديث رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾ أي ولتعلموا أنه تعالى عالم بكل شيء، لا تخفى عليه خافية.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ وكذلك ﴿بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾.

٢ - الإظهار في موضع الإضمار للتهويل ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾.

٣ - الالتفات لمزيد الاهتما ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ ورد بطريق الخطاب والأصل أن يكون بطريق الغائب «لا يدري».

٤ - إيجاز الحذف ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ﴾ حذف منه الخبر، أي: فعدتهن ثلاثة أشهر أيضًا.

٥ - تكرار الوعيد للتفظيع والترهيب ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا﴾ الآية.

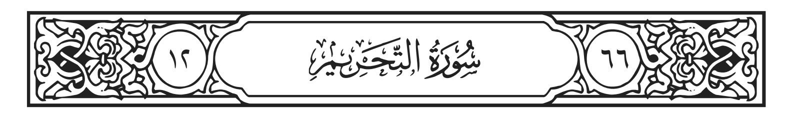
٦ - المجاز المرسل ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ يراد بها أهل القرية من باب تسمية الحال باسم المحل.

٧ - الاستعارة اللطيفة ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ استعار الظلمات للضلال والكفر، واستعار النور للهدى والإيمان، وهو من روائع البيان، وجلال تعبير القرآن.

٨ - السجع المرصَّع كأنه الدر والياقوت مثل ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا .. يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا. وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا . وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطلاق»

❁ ❁ ❁ ❁



مدنية وآياتها اثنتا عشرة

بين يدي السورة

* سورة التحريم من السور المدنية التي تتناول الشئون التشريعية، وهي هنا تعالج قضايا وأحكامًا تتعلق «ببيت النبوة» وبأمهات المؤمنين أزواج رسول الله ﷺ الطاهرات، وذلك في إطار تهيئة البيت المسلم، والنموذج الأكمل للأسرة السعيدة.

* تناولت السورة الكريمة في البدء الحديث عن تحريم الرسول ﷺ لجاريته ومملوكته «مارية القبطية» على نفسه، وامتناعه عن معاشرتها إرضاء لرغبة بعض زوجاته الطاهرات[١]، وجاء العتاب له لطيفًا رقيقًا، يشف عن عناية الله بعبده ورسوله محمد ﷺ أن يضيق على نفسه ما وسعه الله له ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾ الآية.

* ثم تناولت السورة أمرًا على جانب كبير من الخطورة ألا وهو «إفشاء السر» الذي يكون بين الزوجين، والذي يهدد الحياة الزوجية، وضرب المثل على ذلك برسول الله ﷺ حين أسر إلى حفصة بسر واستكتمها إياه، فأفشته إلى عائشة حتى شاع الأمر وذاع، مما أغضب الرسول حتى هم بتطليق أزواجه ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾ الآية.

* وحملت السورة الكريمة حملة شديدة عنيفة، على أزواج النبي ﷺ حين حدث ما حدث بينهن من التنافس، وغيرة بعضهن من بعض لأمور يسيرة وتوعدتهن بإبدال الله لرسوله عليه السلام بنساء خير منهن، انتصارًا لرسول الله ﷺ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ الآية.

* وختمت السورة بضرب مثلين: مثلًا للزوجة الكافرة في عصمة الرجل الصالح المؤمن، ومثلًا للزوجة المؤمنة في عصمة الرجل الفاجر الكافر، تنبيهًا للعباد على أنه لا يغني في الآخرة أحد عن أحد، ولا ينفع حسب ولا نسب، إذا لم يكن عمل الإنسان صالحًا ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ - أي كفرتا بالله ولم تؤمنا- ﴿فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ ...﴾ الآيات. وهو ختم رائع يتناسق مع جو السورة وهدفها في ترسيخ دعائم الفضيلة والإيمان.

---

(١) (ش): عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِحَفْصَةَ: «لاَ تُحَدِّثِي أَحَدًا وَإِنَّ أُمَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيَّ حَرَامٌ». فَقَالَتْ: «أَتُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ؟». قَالَ: «فَوَاللهِ لَا أَقْرَبُهَا». قَالَ: فَلَمْ يَقْرَبْهَا نَفْسَهَا حَتَّى أَخْبَرَتْ عَائِشَةَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ رواه الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» بإسناد صححه ابن كثير، ورواه الحاكم والنسائي دون تسمية الأمَة، وصححه ابن كثير وابن حجر. وأُمَّ إِبْرَاهِيمَ هي مارية القبطية رضي الله عنها.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ

اللغَـة: ﴿تَحِلَّةَ﴾ تحليل اليمين بالكفارة ﴿صَغَتْ﴾ مالت عن الحقِّ وزاغت، وأصغى الإِناء أماله ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ مطيعات من القنوت وهو ملازمة الطاعة مع الخضوع ﴿نَّصُوحًا﴾ خالصة صادقة، والتوبةُ النَّصوح هي التي لا عودة بعدها إِلى الذنب، سميت نصوحًا لما فيها من الصدق والإِخلاص يقال: هذا عسلٌ ناصح إِذا خلص من الشمع[1] ﴿غِلَاظٌ﴾ من الغلظة وهي الشدة ﴿أَحْصَنَتْ﴾ عفَّت وصانت نفسها عن مقارفة الفاحشة.

سَبَبُ النّزول: أ- روي «أنَّ النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه، فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبويها فأذن لها، فلما خرجت أرسل إِلى جاريته «مارية القبطية» فعاشرها في بيت حفصة، فرجعت فوجدتها في بيتها، فغارت غيرةً شديدة، وقالت: أدخلتها بيتي في غيابي وعاشرتها على فراشي؟ (ما أراك فعلت هذا إِلا لهواني عليك) فقال لها رسول الله ﷺ

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٩٩.

مسترضيًا لها: «إني حرمتها عليَّ ولا تخبري بذلك أحدًا»، فلما خرج من عندها قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة وكانتا متصافيتين وأخبرتها بسرِّ النبي ﷺ فغضب رسول الله وحلف ألا يدخل على نسائه شهرًا واعتزلهن» فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ..﴾ الآية[1].

ب- وروي «أن رسول الله ﷺ كان يدخل على زوجه «زينب» رَضِيَ اللهُ عَنْها فيشرب عندها عسلًا، فاتفقت عائشة وحفصة على أن تقول له كل واحدة إذا دنا منها: أكلتَ معافير -وهو طعام حلو كريه الريح- فلما مرَّ على حفصة قالت له ذلك، ثم دخل على عائشة فقالت له مثل ذلك وكان ﷺ يكره أن توجد منه رائحة كريهة فقال عليه السلام: «لاَ بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ ابْنَةِ جَحْشٍ وَلَنْ أَعُودَ لَهُ» فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ..﴾»[2] الآيات.

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ الخطاب بلفظ النبوة مشعرٌ بالتوقير والتعظيم،

---

(١) انظر «تفسير الطبري» ١٨/ ١٠١، وحاشية الصاوي ٤/ ٢١٩. (ش): ضعيف جدًا، رواه الطبري في «تفسيره». وعَنْ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِحَفْصَةَ: «لَا تُحَدِّثِي أَحَدًا وَإِنَّ أُمَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيَّ حَرَامٌ». فَقَالَتْ: «أَتُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ؟». قَالَ: «فَوَاللهِ لَا أَقْرَبُهَا». قَالَ: فَلَمْ يَقْرَبْهَا نَفْسَهَا حَتَّى أَخْبَرَتْ عَائِشَةَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ (رواه الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» بإسناد صححه ابن كثير، ورواه الحاكم والنسائي دون تسمية الأمَة، وصححه ابن كثير وابن حجر. وأُمُّ إِبْرَاهِيمَ هي مارية القبطية رضي الله عنها.

(٢) الرواية الأولى عند المفسرين أشهر في سبب النزول، وهي أن الرسول ﷺ حرّم عليه «مارية القبطية» وقد أخرجها الدارقطني عن ابن عباس، والرواية الثانية ذُكِرَت في «الصحيحين» بأوسع من هذا وهي أصح إسنادًا من الأولى، ولكن لكونها سببًا للنزول مستبعد، والذي يرجح الرواية الأولى أمور: أن مثل تحريم بعض النساء مما يبتغي به مرضاة بعض الزوجات لا شرب العسل أو عدمه، ثانيًا: أن الاهتمام بإنزال سورة فيها الوعيد والتهديد لأزواج رسول الله بالطلاق واستبدالهن بنساء خير منهم، وأن الله وملائكته وصالح المؤمنين عونٌ لرسول الله ﷺ، يدل على وجود تنافس بينهن وغيرة بعضهن من بعض، مما أدى إلى إيذاء رسول الله ﷺ فعلًا حتى حرَّم بعض جواريه إرضاءً لهن، واستكتم البعض منهن الأمر فأفشَين السر. وهذا يرجح ما ذكرناه وقد قال العلامة ابن كثير: وكون قضية شرب العسل سببًا للنزول فيه نظر والله أعلم. (ش): الحديث رواه البخاري ومسلم. وقال الحافظ في الفتح ١٠ / ٢٨٣): «يحتمل أن تكون الآية نزلت في السببين معًا» ا. هـ. أي بسبب تحريمه العسل وتحريمه جاريته. وقال الشوكاني في تفسيره (٥ / ٢٥٢): «فهذا سببان صحيحان لنزول الآية، والجمعُ ممكنٌ بوقوع القصتين: قصة العسل وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعًا وفي كل واحد منهما أنه أسر الحديث إلى بعض أزواجه». أما قول المؤلف: «وقد قال العلامة ابن كثير: وكون قضية شرب العسل سببًا للنزول فيه نظر والله أعلم». فلم أجده بهذا اللفظ، بل قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» بعد أن ذكر رواية ضعيفة في سبب النزول (٨/ ١٦٠): «وَالصَّحِيحُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي تَحْرِيمِهِ الْعَسَلَ». ثم قال بعد أن ذكر روايات البخاري ومسلم في تحريمه ﷺ العسل وأن في بعضها أَنَّ حَفْصَةَ هِيَ السَّاقِيَةُ لِلْعَسَلِ، وفي أخرى أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ هِيَ الَّتِي سَقَتِ الْعَسَلَ، وَأَنَّ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ تَوَاطَأَتَا وَتَظَاهَرَتَا عَلَيْهِ (٨/ ١٦٢) قال: «فَاللهُ أَعْلَمُ. وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّهُمَا وَاقِعَتَانِ، وَلَا بُعْدَ فِي ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّ كونهما سَبَبًا لِنُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فِيهِ نَظَرٌ، وَاللهُ أَعْلَمُ». فالذي يبدو أن الحافظ ابن كثير يستبعد أن تكون الواقعتان في تحريمه ﷺ للعسل -الواقعتان معًا- سببًا لنزول الآية، فقد قال: إن الصَّحِيح أَنَّ سبب النزول كَانَ فِي تَحْرِيمِهِ ﷺ الْعَسَل.

والتنويه بمقامه الرفيع الشريف، فلم يخاطبه باسمه العلم كما خاطب سائر الرسل بقوله «يا إبراهيم، يا نوح، يا عيسى بن مريم» وإنما خاطبه بلفظ النبوة أو الرسالة، وذلك أعظم دليلٍ وبرهانٍ على أنه صلوات الله عليه أفضل الأنبياء والمرسلين ومعنى الآية: يا أيها الموحَى إليه من السماء، المُنبَّأ بواسطة الأمين جبريل عليه السلام، لما تمنَع نفسَك ما أحلَّ الله لك من النساء؟! قال المفسرون: إن رسول الله ﷺ خلا بأم ولده «مارية» في بيت حفصة وعلمت بذلك فقال لها: اكتمي عليَّ، وقد حرمت مارية على نفسي؛ فنزلت الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾[1] وفي افتتاح العتاب من حسن التلطف ما لا يخفى، فقد عاتبه على إتعاب نفسه والتضييق عليها من أجل مرضاة أزواجه، كأنه يقول: لا تتعب نفسك في سبيل أزواجك، وأزواجك يسعين في مرضاتك، فأَرِحْ نفسَك من هذا العناء ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾؟ أي تطلب رضا أزواجك بتحريم ما أحلَّ الله لك؟ قال في التسهيل: يعني تحريمه للجارية ابتغاء رضا حفصة، وهذا يدل على أنها نزلت في تحريم الجارية، وأما تحريم العسل فلم يقصد فيه رضا أزواجه وإنما تركه لرائحته[2] ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي والله واسع المغفرة، عظيم الرحمة، حيث سامحك في امتناعك عن مارية، وإنما عاتبك رحمة بك، وفي هذه إشارة إلى أن عتابه في ذلك إنما كان كرامةً له، وإنما وقع العتاب لتضييقه -عليه السلام- على نفسه، وامتناعه مما كان له فيه أُنسٌ ومتعة، وبئس ما قاله الزمخشري في أن هذا كان منه ﷺ زلة لأنه حرَّم ما أحل الله له.. إلخ. فإن هذا القول قلة أدب مع مقام النبوة، وجهل بصفات المعصوم، فلم يكن منه صلوات الله عليه تحريمٌ للحلال كما زعم حتى تعتبر مخالفة ومعصية، وإنما امتنع عن بعض إمائه تطييبًا لخاطر بعض أزواجه، فعاتبه الله تعالى عليه رفقًا به، وتنويهًا بقدره، وإجلالًا لمنصبه عليه السلام أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه، جريًا على ما أُلف من لطف الله تعالى به[3] ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي قد شرع الله لكم يا معشر المؤمنين ما تتحللون به من أيمانكم وذلك بالكفارة ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي واللهُ وليكم وناصركم ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي وهو العليم بخلقه الحكيم في صنعه، فلا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

ثم شرع تعالى في بيان القصة التي حدثت لرسول الله ﷺ مع بعض زوجته فقال ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ أي واذكر حين أسرَّ النبي محمد ﷺ إلى زوجاته حفصة خبراً واستكتمها إياه قال ابن عباس: هو ما أسرَّ إلى حفصة من تحريم الجارية على نفسه، كما

---

(١) انظر سبب النزول المتقدم ففيه توضيح للقصة.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٣٠.

(٣) شنَّ صاحب «الإنصاف على الكشاف» الغارة على الزمخشري وشنع عليه وهو مُحِقٌّ في ذلك، لأن من نظر إلى لطف العتاب عرف حقيقة الأمر والصواب.

أخبرها بأن الخلافة بعده تكون في أبي بكر وعمر[١]، وطلب منها ألا تخبر بذلك أحدًا ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أي فلما أخبرت بذلك السرِّ عائشة وأفْشَتْه لها ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي وأطلع الله نبيه بواسطة جبريل الأمين على إفشائها للسرِّ ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ أي أعلمها وأخبرها رسول الله ﷺ ببعض الحديث الذي أفْشَتْه معاتبًا لها، ولم يخبرها بجميع ما حصل منها حياءً منه وكرمًا، فإن من عادة الفضلاء التغافل عن الزلات، والتقصير في اللوم والعتاب قال الحسن: «ما استقصى كريمٌ قط»، وقال سفيان: «ما زال التغافل من شِيَم الكرام»[٢] قال الخازن: المعنى: أن النبي ﷺ أخبر حفصة ببعض ما أخبرت به عائشة وهو تحريم مارية على نفسه، وأعرض عن ذكر الخلافة لأنه ﷺ كره أن ينتشر ذلك في الناس[٣] ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ أي فلما أخبر الرسول حفصة بأنها قد أفشت سرَّه ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ أي قالت: من أخبرك يا رسول الله بأني أفشيتُ سرك؟ قال أبو حيان: ظنت حفصة أن عائشة فضحتها وكانت قد استكْتَمَتْها فقالت: من أنبأك هذا على سبيل التثبيت، فأخبرها أن الله جل وعلا هو الذي نبأه به فسكتت وسلَّمت[٤] ﴿قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي فقال عليه السلام: أخبرني بذلك ربُّ العزة، العليم بسرائر العباد، الخبير الذي لا تخفى عليه خافية ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الخطاب لحفصة وعائشة، خاطبهما بطريق الالتفات ليكون أبلغ من معاتبتهما وحملهما على التوبة مما بدر منهما من الإيذاء لسيد الأنبياء، وجوابه محذوف تقديره أي إن تبتما كان خيرًا لكما من التعاون على النبي ﷺ بالإيذاء ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي فقد زاغَت ومالَت قلوبكما عما يجب عليكما من الإخلاص لرسول الله، بحُبِّ ما يُحِبه، وكراهة ما يكرهه[٥] ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي وإن تتعاونا على النبي ﷺ بما يسوءه، من الوقيعة بينه وبين سائر نسائه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ أي فإنَّ الله تعالى هو وليُّه وناصره، فلا يضره ذلك التظاهر منكما ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وجبريل كذلك وليه وناصره، والصالحون من المؤمنين قال ابن عباس: أراد بصالح المؤمنين أبا بكر وعمر فقد كانا عونًا له عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ عليهما قال في التسهيل: معنى الآية: إن تعاونتما عليه ﷺ بما يسوءه من إفراط الغيرة، وإفشاء سره ونحو ذلك، فإنَّ له من ينصره ويتولاه، وقد ورد في الصحيح أنه لما وقع ذلك جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال:

---

(١) قال الرازي: لما رأى النبي ﷺ الغيرة في وجه حفصة أراد أن يترضاها، فأسر إليها بشيئين: تحريم الأمة على نفسه، والبشارة بأن الخلافة بعده في أبي بكر وعمر. اهـ. «التفسير الكبير» ٣٠/ ٤٣.
(ش): ضعيف جدًا، رواه الطبراني وغيره.

(٢) «روح المعاني» ٢٨/ ١٥٠. (ش): شِيمَة: خُلُق، طبيعة، غريزة، خِصْلة. والجمع شِيمات وشِيَم.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ١١٧.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٢٩٠.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٧٤.

يـا رسـول الله: ما يشقُّ عليك من شـأن النسـاء؟ فـإن كنت طلقتهـنَّ فإنَّ الله معـك وملائكته وجبريل، وأبو بكر وعمر معك فنزلت الآية موافقة لقول عمر[١] ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أي والملائكة الأبرار بعد حضرة الله، وجبريل، وصالح المؤمنين أعوانٌ لرسـول الله ﷺ على مَن عَاداه، فماذا يُفيد تظاهر امرأتين على من هؤلاء أعوانه وأنصارهُ؟! أفرد ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ بالذكر تعظيمًا له، وإظهارًا لمكانته عند الله تعالى فيكون قد ذُكر مرتين: مرةً بالإفراد، ومرةً في العموم، ووسَّـط ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بيـن جبريل والملائكة تشـريفًا لهم، واعتناءً بهم، وإشـادةً بفضل الصـلاح، وختـم الآية بذكـر ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أعظم المخلوقـات وجعلهم ظُهَـرَاء للنبي عليه السلام ليكون أفخم بالنبي صلوات الله عليه، وعِظَم مكانته، والانتصار له، إذ هم بمثابة جيشٍ جـرار، يملأ القفـار، نُصرةً للنبي المختار، فمن ذا الذي يسـتطيع أن يُناوئ الرسـول ﷺ بعد ذلك؟[٢] ثم خوَّف تعالى نسـاء النبي بقوله ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ قال المفسـرون: ﴿عَسَىٰ﴾ مـن الله واجبٌ أي حـقٌّ واجب على الله إن طلقكنَّ رسـوله ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ أي أن يعطيه عليه السـلام بدلكُنَّ زوجاتٍ صالحاتٍ خيرًا وأفضل منكنَّ قال القرطبي: هذا وعدٌ من الله تعالى لرسـوله لو طلقهن في الدنيا أن يزوجه نسـاءً خيرًا منهـن، والله عالم بأنه لا يطلقهن، ولكـنْ أخبر عن قدرته، على أن رسـوله لو طلقهـن، لَأَبْدَله خيـرًا منهن، تخويفًـا لهنَّ[٣]. ثم وصف تعالى هؤلاء الزوجات اللواتي سيبدله بهنَّ فقال ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ أي خاضعات مستسلماتٍ لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ أي مُصدِّقاتٍ بالله وبرسوله[٤] ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ أي مطيعات لمـا يُؤمـرن به، مواظباتٍ علـى الطاعة ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ أي تائبـاتٍ من الذنـوب، ولا يُصْرِرْن على معصيـة ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ أي متعبداتٍ لله تعالى يكثرن العبـادة، كأنَّ العبادة امتزجت بقلوبهن حتى صارت سَـجِيَّةً لهن[٥] ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي مسافراتٍ مهاجراتٍ إلى الله ورسوله[٦] ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٣١. (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(٢) لا يخفى أن الكلام في الآية مسوق للمبالغة: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ وإلا فكفى بالله وليًّا، وكفى بالله نصيرًا.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٩٣.

(٤) (ش): تفسيرُ الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالفٌ لِمَا عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٥) (ش): سَجِيّة: طبيعة، خُلُق، صفة فطريّة في الإنسان.

(٦) قال ابن عباس: ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي صائمات واستدل بحديث: «سياحة هذه الأمة الصيام» وقال زيد بن أسلم: ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي مهاجرات وتلا قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ أي المهاجرون، ولعل هذا الرأي أرجح لأنه يتفق مع المعنى اللغوي للسياحة وهي السفر في الأرض للاعتبار، وقد رجح ابن كثير الرأي الأول والله أعلم. (ش): روى ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سياحةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الصِّيَامُ. ورُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنه قَالَ: «السَّائِحُونَ هُمُ الصَّائِمُونَ» (رواه الحاكم، وابن جرير الطبري في «تفسيره» وضعفه الألباني).

أي منهنَّ ثيبات، ومنهم أبكارا قال ابن كثير: قسمهن إلى نوعين ليكون ذلك أشهى إلى النفس، فإنَّ التنوع يبسط النفس[١]، وإنما دخلت واو العطف على هنا ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ للتنويع والتقسيم، ولو سقطت لاختل المعنى، لأن الثيوبة والبكارة لا يجتمعان، فتدبر سرَّ القرآن.. ولما وعظ نساء الرسول موعظةً خاصة، أتبع ذلك بموعظةٍ للمؤمنين فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ أي يا من صدقتم بالله ورسوله وأسْلَمْتم وجوهكم لله[٢]، احفظوا أنفسكم، وصونوا أزواجكم وأولادكم، من نارٍ حامية مستعرة، وذلك بتَرْك المعاصي وفِعْل الطاعات، وبتأديبهم وتعليمهم قال مجاهد: أي اتقوا الله، وأَوْصُوا أهليكم بتقوى الله. وقال الخازن: أي مُرُوهم بالخير، وانهَوْهم عن الشر، وعَلِّموهم وأَدِّبُوهم حتى تَقُوهم بذلك من النار[٣]، والمراد بالأهل النساءُ والأولاد وما أُلْحِقَ بهما ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ أي حطبها الذي تُسعَّر به نار جهنم هو الخلائق والحجارة قال المفسرون: أراد بالحجارة حجارة الكبريت، لأنها أشد الأشياء حرًّا، وأسرع اتِّقادًا، وعنى بذلك أنها مفرطة الحرارة، تتقد بما ذكر، لا كنار الدنيا تتقد بالحطب ونحوه قال ابن مسعود: حطبها الذي يلقى فيها بنو آدم، وحجارةٌ من كبريت أنتن من الجيفة[٤] ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ أي على هذه النار زبانيةٌ غلاظ القلوب، لا يَرْحَمون أحدًا، مكلَّفون بتعذيب الكفار قال القرطبي: المراد بالملائكة الزبانية، وهم غلاظ القلوب لا يَرحَمُون إذا استُرْحِموا، لأنهم خُلِقُوا من الغضب[٥]، وحُبِّبَ إليهم عذاب الخلق كما حُبِّب لبني آدم أكل الطعام والشراب[٦] ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ أي لا يعصون أمر الله بحالٍ من الأحوال ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ أي وينفِّذون الأوامر بدون إمهال ولا تأخير ثم يقال للكفار عند دخولهم النار ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي لا تعتذروا عن ذنوبكم وإجرامكم، فلا ينفعكم اليوم الاعتذار، لأنه قد قُدِّم إليكم الإنذار والإعذار ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي إنما تنالون جزاء أعمالكم القبيحة، ولا تظلمون شيئًا كقوله تعالى ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧] ثم دعا المؤمنين إلى التوبة الصادقة الناصحة فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ أي

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٢٢.

(٢) (ش): تفسيرُ الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالفٌ لِمَا عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ١٢١.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٢٣.

(٥) (ش): أي أن الغضب لهم خُلُقٌ وطبيعة، لا أن الغضب مادَّة خلْقِهم، فالملائكة مخلوقون من نور كما أخبرنا الصادق المصدوق ﷺ فقال: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٦) «تفسير القرطبي» ١٨/ ١٩٦.

توبوا إلى الله من ذنوبكم توبةً صادقةً خالصة، بالغةً في النصح الغاية القصوى، سئل عمر عن التوبة النصوح فقال: هي أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب، كما لا يعود اللبن إلى الضَّرْع[1] قال العلماء: التوبة النصوح هي التي جمعت ثلاثة شروط: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما حدث، والعزم على عدم العودة إليه، وإن كان الحق لآدمي زِيدَ شرطٌ رابع وهو: رَدُّ المظالم لأصحابها ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي لعل الله يرحمكم فيمحو عنكم ذنوبكم قال المفسرون: «عسى» من الله واجبة بمنزلة التحقيق، وهذا إطماعٌ من الله لعباده في قبول التوبة، تفضلًا منه وتكرمًا، لأن العظيم إذا وعَد وَفَّى، وعادةُ الملوك أنهم إذا أرادوا فعْلًا قالوا «عسى» فهو بمنزلة المحقَّق[2] ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي ويدخلكم في الآخرة حدائق وبساتين ناضرة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي يوم لا يفضح الله النبي وأتباعه المؤمنين أمام الكفار، بل يُعِزُّهم ويُكْرمهم قال أبو السعود: وفيه تعريضٌ بمن أخزاهم اللهُ تعالى من أهل الكفر والفسوق[3] ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾ أي نور هؤلاء المؤمنين يضيء لهم على الصراط، ويسطع أمامهم وخلفهم وعن أيمانهم وشمائلهم، كإضاءة القمر في سواد الليل[4] ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ أي يدعون الله قائلين: يا ربنا أكْمِل علينا هذا النور وأَدِمْه لنا، ولا تتركنا نتخبط في الظلمات قال ابن عباس: هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين[5]، يدعون ربهم به إشفاقًا حتى يصلوا إلى الجنة ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾ أي وامح عنا ما فرط من الذنوب ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إنك أنت القادر على كل شيء، من المغفرة والعقاب، والرحمة والعذاب.. ثم أمر تعالى بجهاد أعداء الله من الكفرة والمنافقين فقال ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ أي جاهد الكفار بالسيف والسِّنان، والمنافقين بالحجة والبرهان، لأن المنافقين يُظهِرون الإيمان، فهم مسلمون ظاهرًا فلذلك لم يُؤمَر عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ بقتالهم ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي وشَدِّدْ عليهم في الخطاب، ولا تعاملهم بالرأفة واللين، إرعابًا وإذلالًا لهم، لتنكسر صلابتهم وتلين شكيمَتُهم[6] ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي ومستقرهم في الآخرة جهنم

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ١٢٢.

(٢) «انظر روح المعاني للألوسي» ٢٨/ ١٦٠.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٧٥.

(٤) وفي الحديث أن النبي ﷺ سئل: كيف تعرف أمتك يوم القيامة من بين الأمم؟ فقال: «إِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ آثَارِ الْوُضُوءِ» أي تسطع جباههم وأيديهم بالنور من آثار الطهور فيعرفهم بذلك رسول الله ﷺ.
(ش): الحديث رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٠١.

(٦) (ش): شَكِيمة: عِزّة وشدّة وعزيمة.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وبئست جهنم مستقرا ومصيرا للمجرمين.. ثم ضرب الله تعالى مثلًا للكفار في عدم انتفاعهم بصلة القرابة أو المصاهرة أو النكاح، لأن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة ولا ينفع إلا العمل الصالح فقال ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ أي مَثَّل تعالى للكفار في عدم استفادتهم بقرابة المؤمنين، بحال امرأة نوح وامرأة لوط ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ أي كانتا في عصمة نبيين عظيمين هما «نوح» ولوط «عليهما السلام، وإنما وصفهما بالعبودية تشريفًا وتكريمًا لهما بإضافتهما إليه تعالى ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي فخانت كل واحدة زوجها بالكفر وعدم الإيمان[1]، فلم يدفعَا عن امرأتَيْهِما مع نُبُوَّتِهِما شيئًا من عذاب الله ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ أي وتقول لهما خزنة النار يوم القيامة: ادخلا نار جهنم مع سائر الداخلين، من الكفرة المجرمين قال القرطبي: ضرب تعالى هذا المثل تنبيهًا على أنه لا يُغْنِي في الآخرة أحدٌ عن قريبٍ ولا نسيب، إذا فرَّق بينهما الدين، كما لم يدفع نوح ولوط مع كرامتهما على الله تعالى عن زوجتيهما لما عصتا شيئًا من عذاب الله[2] ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ وهذا مثلٌ آخر للمؤمن في عدم تضرره ببقاء قريبه على الكفر إذا كان هو مؤمنًا قال أبو السعود: أي جعل حالها مثلًا لحال المؤمنين في أن وصلة الكفر لا تضرهم، حيث كانت في الدنيا تحت أعدى أعداء الله «فرعون» وهي في أعلى غرف الجنة[3] قال المفسرون: واسمها «آسية بنت مزاحم» آمنت بموسى عليه السلام، فبلغ ذلك فرعون فأمر بقتلها، فنجَّاها الله من شره، فلم يضر امرأةَ فرعون اتصالُها به وهو مِن أكْفر الكافرين، ولم ينفع امرأةَ نوح ولوط اتصالُهما بهما وهما رسولا ربِّ العالمين ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ أي حين دعت ربها قائلةً: يا ربِّ اجعل لي قصرًا مشيدًا بجوار رحمتك في جنة النعيم قال بعض العلماء: ما أحسن هذا الكلام فقد اختارت الجار قبل الدار حيث قالت ﴿ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ فهي تطمع في جوار الله قبل طمعها في القصور، وفي الآية دليل على إيمانها وتصديقها بالبعث

---

(١) الخيانة هنا يراد بها الخيانة في الدين لا في العرض، وقد أخطأ بعض المفسرين حيث نسب لهما فاحشة الزنى، وهذا لا يجوز لأن الله تعالى أكرم أنبياءه أن تتعاطى واحدة منهن الفجور، بل هن شريفات مصونات لحرمة الأنبياء، وقد قال ابن عباس: «ما بغت امرأة نبي قط، وإنما كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما، وكانتا مشركتين»، فتدبره فإنه دقيق.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٠١.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٧٦. (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ فِرْعَوْنَ، أَوْتَدَ لِامْرَأَتِهِ أَرْبَعَةَ أَوْتَادٍ فِي يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا، فَكَانَ إِذَا تَفَرَّقُوا عَنْهَا ظَلَّلَتْهَا الْمَلَائِكَةُ، فَقَالَتْ: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]، فَكَشَفَ لَهَا عَنْ بَيْتِهَا فِي الْجَنَّةِ. (رواه أبو يعلى الموصلي في مُسنده، وصححه الألباني). وعَنْ سَلْمَانَ رضي الله عنه قَالَ: « كَانَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ تُعَذَّبُ بِالشَّمْسِ، فَإِذَا انْصَرَفُوا عَنْهَا أَظَلَّتْهَا الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا، وَكَانَتْ تَرَى بَيْتَهَا فِي الْجَنَّةِ » (رواه الحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني).

﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ أي وأنقذني من كفر فرعون وطغيانه ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي وأنقذني من الأقباط، أتباع فرعون الطاغين، قال الحسن: لما دعت بالنجاة نجَّاها الله تعالى أكرم نجاة، فرفعها إلى الجنة تأكل وتشرب وتتنعم[1] ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ أي ومريم ابنة عمران مَثَلٌ آخر في الإيمان ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي حفظت فرجها وصانته عن مقارنة الفواحش، فهي عفيفةٌ شريفة طاهرة، لا كما زعم اليهود عليهم لعنة الله، أنها زنت وأن ولدها عيسى ابن زنى ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي فنفخ رسولنا جبريل في فتحة جيبها، فوصل أثر ذلك إلى فرجها فحملت بعيسى قال ابن كثير: إن الله بعث جبريل فتمثل لها في صورة بشر، وأمره أن ينفخ بفيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام[2] ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ أي وآمنت بشرائع الله القدسية، وكتبه السماوية ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي وكانت من القوم المطيعين، العابدين لله عَزَّ وَجَلَّ، وهو ثناءٌ عليها بكثرة العبادة والطاعة، والخشوع، وفي الحديث «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»[3].

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين حرَّم وأحلَّ ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ﴾ وبين ﴿عَرَّفَ .. وَأَعْرَضَ﴾ وبين ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ وكلها من المحسنات البديعية التي تزيد في جمال الكلام.

٢ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ زيادةً في اللوم والعتاب.

٣ - صيغ المبالغة ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ﴿نَّصُوحًا﴾ ﴿ظَهِيرٌ﴾ ﴿قَدِيرٌ﴾ إلخ.

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٢٩٥.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٢٥.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم. (ش): رواه البخاري ومسلم بلفظ: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ». ورواه ابنُ مَرْدَوَيْهِ بلفظ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلا ثَلاث: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ» (وصحح إسناده ابن كثير والألباني). الثَّريد: طعام من خبز مفتوت ولَحْم ومَرَق. قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث من صحيح مسلم: «قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ أَنَّ الثَّرِيدَ من كل طعام أَفْضَلُ مِنَ الْمَرَقِ، فَثَرِيدُ اللَّحْمِ أَفْضَلُ مِنْ مَرَقِهِ بِلَا ثَرِيد، وثَرِيد مَا لَا لَحْمَ فِيهِ أَفْضَلُ مِنْ مَرَقِهِ، وَالْمُرَادُ بِالْفَضِيلَةِ نَفْعُهُ وَالشِّبَعُ مِنْهُ وَسُهُولَةُ مَسَاغِهِ وَالِالْتِذَاذُ بِهِ وَتَيَسُّرُ تَنَاوُلِهِ وَتَمَكُّنُ الْإِنْسَانِ مِنْ أَخْذِ كِفَايَتِهِ مِنْهُ بِسُرْعَةٍ وَغَيْرُ ذَلِكَ، فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْمَرَقِ كُلِّهِ وَمِنْ سَائِرِ الْأَطْعِمَةِ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ زَائِدٌ كَزِيَادَةِ فَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَطْعِمَةِ» [شرح النووي على مسلم (١٥/ ١٩٩)].

٤ - ذكر العام بعد الخاص ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فقد خص جبريل بالذكر تشريفًا، ثم ذكره ثانية مع العموم اعتناءً بشأن الرسول ﷺ ووسَّط صالح المؤمنين بين الملائكة المقربين.

٥ - المجاز المرسل ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ ذكر المسبَّب وأراد السبب أي لازموا على الطاعة لتقوا أنفسكم وأهليكم من عذاب الله.

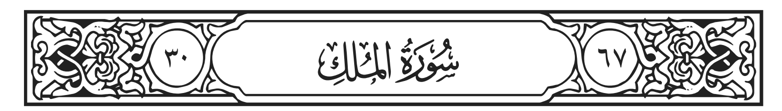
٦ - المقابلة بين مصير أهل الإيمان ومصير أهل الطغيان ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ و﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٧ - التغليب ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ غلَّب الذكور على الإناث.

٨ - السجع المرصَّع كأنه اللؤلؤ والمرجان، وهو كثير في القرآن فتدبره بإمعان.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التحريم»





مكية وآياتها ثلاثون

بين يدي السورة

* سورة الملك من السور المكية، شأنها شأن سائر السور المكية، التي تعالج موضوع العقيدة في أصولها الكبرى، وقد تناولت هذه السورة أهدافًا رئيسة ثلاثة وهي «إثبات عظمة الله وقدرته على الإحياء والإماتة.. وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين.. ثم بيان عاقبة المكذبين الجاحدين للبعث والنشور».

* ابتدأت السورة الكريمة بتوضيح الهدف الأول، فذكرت أن الله جل وعلا بيده الملك والسلطان، وهو المهيمن على الأكوان، الذي تخضع لعظمته الرقاب وتعنو له الجباه[1]، وهو المتصرف في الكائنات بالخلق والإيجاد، والإحياء والإماتة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ...﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن خلق السماوات السبع، وما زين الله به السماء الدنيا من الكواكب الساطعة، والنجوم اللامعة، وكلها أدلة على قدرة الله ووحدانيته ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ...﴾ الآيات.

* ثم تناولت الحديث عن المجرمين بشيء من الإسهاب، وهم يرون جهنم تتلظى وتكاد تتقطع من شدة الغضب والغيظ على أعداء الله، وقارنت بين مآل الكافرين والمؤمنين، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ..﴾.

* وبعد أن ساقت بعض الأدلة والشواهد على عظمة الله وقدرته، حذرت من عذابه وسخطه أن يحل بأولئك الكفرة الجاحدين ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ..﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بالإنذار والتحذير للمكذبين بدعوة الرسول، من حلول العذاب بهم في الوقت الذي كانوا يتمنون فيه موت الرسول ﷺ وهلاك المؤمنين ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؟ الآيات ويا له من وعيد شديد، ترتعد له الفرائص!

فضلها: تسمى هذه السورة «الواقية» و «المنجية» لأنها تقى قارئها من عذاب القبر فقد قال ﷺ: «هي المانعة هي المنجية من عذاب القبر» أخرجه الترمذي[2].

---

(١) (ش): تَعنُو: تَخضع. الجِبَاه: جمع جَبْهَة: ما بين الحاجبين ومقدّم الرأس موضع السجود من الوجه.

(٢) (ش): ضعفه الألباني. وقال: «وإنما يصح منه قوله: «هِيَ الْمَانِعَةُ». وقد صححه بلفظ: «سُورَةَ تَبَارك هِيَ الْمَانِعَةُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ». (رواه الحاكم وغيره). وقَالَ ﷺ: « إِنَّ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ ثَلاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ وَهِىَ سُورَةُ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ» (رواه أحمد والترمذي، وحسنه الألباني).

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ

اللغَة: ﴿طِبَاقًا﴾ بعضها فوق بعض، من طابَقَ النَّعْلَ بالنعْلِ إذا قطعه بقدره وجعله فوقه ﴿فُطُورٍ﴾ شقوق وخروق، من فطَر بمعنى شَقَّ قال الشاعر:

بَنَى لَكُمُو بِلَا عَمَدٍ سَمَاءً ... وَسَوَّاهَا فَمَا فِيهَا فُطُورُ [1]

﴿حَسِيرٌ﴾ كليل من الحسور وهو الإعياء يقال: حسر البعير إذا كَلَّ وانقطع قال الشاعر:

نَظَرَتْ إِلَيْهَا بِالْمُحَصَّبِ مِنْ مِنًى ... فَعَادَ إِلَيَّ الطَّرْفُ وَهُوَ حَسِير [2]

﴿شَهِيقًا﴾ صوتًا منكرًا كصوت الحمير ﴿تَمَيَّزُ﴾ تتقطع وينفصل بعضها من بعض،

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٢٩٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢١٠. (ش): المُحَصَّب: موضع رمي الجِمار بمنًى.

وأصلها تتميَّز حذفت إحدى التاءين تخفيفًا ﴿مَنَاكِبِهَا﴾ أطرافها ونواحيها، وأصل المِنكَب: الجانب ومنه مِنكَب الرجل ﴿لَّجُّواْ﴾ تمادَوْا وأصَرُّوا ﴿تَمُورُ﴾ ترتج وتضطرب ﴿زُلْفَةً﴾ قريبًا منهم ﴿غَوْرًا﴾ غائرًا ذاهبًا في الأرض.

التفسِير: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي تمجَّد وتعالى اللهُ العلي الكبير، المفيض على المخلوقات من فنون الخيرات، الذي بقبضة قدرته ملك السموات والأرض، يتصرف فيهما كيف يشاء قال ابن عباس: بيده الملك، يعزُّ من يشاء ويذل من يشاء، ويحيي ويميت، ويُغنِي ويُفقِر، ويعطي ويمنع[١] ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وهو القادر على كل شيء له القدرة التامة، والتصرف الكامل في كل الأمور، من غير مُنازع ولا مُدافِع.. ثم بيَّن تعالى آثار قدرته، وجليل حكمته فقال ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ أي أوجد في الدنيا الحياة والموت، فأحيا من شاء وأمات من شاء، وهو الواحد القهار، وإنما قدم الموت لأنه أهيب في النفوس وأفزع قال العلماء: ليس الموت فناءً وانقطاعًا بالكلية عن الحياة، وإنما هو انتقال من دار إلى دار، ولهذا ثبت في الصحيح أن الميت يسمع، ويرى، ويُحسُّ وهو في قبره كما قال عليه السلام «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِى قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ»[٢] الحديث وقال ﷺ: «وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لاَ يُجِيبُونَ»[٣].

فالموتُ هو انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقتها للجسد ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي ليَمْتَحِنكم ويختَبِركم أيها الناس فيرى المحسن منكم من المسيء قال القرطبي: أي يعاملكم

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٠٦.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) (ش): قال ﷺ مخاطبًا قتلى المشركين الذين جُعِلُوا فِى بِئْرٍ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ:« يَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ وَيَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ حَقًّا فَإِنِّى قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِىَ اللهُ حَقًّا». فقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تُكَلِّمُ أَجْسَادًا لاَ أَرْوَاحَ فِيهَا؟». قَالَ «وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لاَ يُجِيبُونَ ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وقد اختلف العلماء في مسألة سماع الأموات كلام الأحياء، فمنهم من قال بأنهم يسمعون كلام الأحياء، ومنهم من نَفَى ذلك. وجاء في «فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء(١/ ١٥١-١٥٢)، (٩/ ٨٢): «الأصلُ عدم سماع الأموات كلام الأحياء، إلا ما ورد فيه النَّصُّ؛ لقول الله سبحانه يخاطب نبيَّه ﷺ: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآية، وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾. فالأصل أن الأموات صالحين كانوا أو غير صالحين لا يسمعون كلام البشر؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ولكن قد يُسمِع الله الموتى صوتَ رسول من رسله لحكمة من الحكم، كما أسمع سبحانه قتلى بدر من الكفار صوت رسوله ﷺ؛ إهانةً وتبكيتًا لهم، وتكريمًا لرسوله ﷺ؛ وأما سماع الميت حيث يوضع في قبره قرع نعال المشيعين فهو إسماع خاص ثبت في النص فلا يُزاد عليه لاستثنائه من الأدلة العامة الدالة على عدم سماع الموتى. (وراجع كتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات على مذهب الحنفية السادات» للآلوسي، بتحقيق الألباني.

معاملة المختبر، فإن الله تعالى عالم بالمطيع والعاصي أزلًا[١] ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي الغالبُ في انتقامه ممن عصاه ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ لذنوب من تاب وأناب إليه ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾ أي خلق سبع سماوات بعضها فوق بعض، كل سماء كالقبة للأخرى ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾ أي لست ترى أيها السامع في خلق الرحمن البديع من نقص أو خلل، أو اختلاف أو تنافر، بل هي في غاية الإحكام والإتقان، وإنما قال ﴿فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ ولم يقل «فيهن» تعظيمًا لخلقهن، وتنبيهًا على باهر قدرة الله ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾؟ أي فكرّر النظر في السموات وردّده في خلقهن المحكم، هل ترى من شقوق وصدوع؟ ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ أي ثم ردِّد النظر مرةً بعد أُخرى، وانظر بعين الاعتبار في هذه السموات العجيبة، مرةً بعد مرة ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا﴾ أي يرجع إليك بصرك خاشعًا ذليلًا، لم ير ما تريد ﴿وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ أي وهو كليلٌ مُتعَب[٢] قد بلغ الغاية في الإعياء قال الإمام الفخر: المعنى: إنك إذا كررت نظرك لم يرجع إليك بصرك بما طلبْتَه من وجود الخلل والعيب، بل رجع خاسئًا مُبعَدًا لم يرَ ما يهوَى مع الكَلال والإعياء[٣] وقال القرطبي: أي اردد طرفك وقلّب البصر في السماء ﴿كَرَّتَيۡنِ﴾ أي مرةً بعد أخرى، يرجع إليك البصر خاشعًا صاغرًا، متباعدًا عن أن يرى شيئًا من ذلك العيب والخلل، وإنما أمر بالنظر كرتين، لأن الإنسان إذا نظر في الشيء مرة لا يرى عيبه، ما لم ينظر إليه مرة أخرى، والمراد بالكرتين التكثير بدليل قوله ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ وهو دليلٌ على كثرة النظر[٤].

ثم بيَّن تعالى ما زين به السماء من النجوم الزاهرة والكواكب الساطعة فقال ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي خلق سبع سمواتٍ متطابقة، بعضها فوق بعض، كل سماء كالقبة للأُخرى ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ اللام لام القسم و ﴿قَدۡ﴾ للتحقيق والمعنى: والله لقد زينا السماء القريبة منكم أيها الناس بكواكب مضيئة ساطعة، هي السماء الأولى أقرب السموات إلى الأرض قال المفسرون: سميت الكواكب مصابيح لإضاءتها بالليل إضاءة السراج ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ أي وجعلنا لها فائدةً أُخرى وهي رجم أعدائكم الشياطين، الذين يسترقون السمع قال قتادة: خلق الله تعالى النجوم لثلاثٍ: زينةً للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدى بها في البر والبحر[٥] وقال الخازن: فإن قيل: كيف تكون زينةً للسماء، ورجومًا للشياطين، وكونها زينة يقتضي بقاءها، وكونها رجومًا يقتضي زوالها،

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٠٧.
(٢) (ش): كلِيلٌ: ضعيفٌ.
(٣) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٥٨.
(٤) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٠٩.
(٥) «البحر المحيط» ٨/ ٢٩٩.

فكيف الجمع بين هاتين الحالتين؟ فالجواب أنه ليس المراد أنهم يرمون بأجرام الكواكب، بل يجوز أن تنفصل من الكواكب شعلة وتُرمى الشياطين بتلك الشعلة وهي الشهب، ومثلها كمثل قبس يؤخذ من النار وهي على حالها[١]، أقول: ويؤيده قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠] فعلى هذا، الكواكب لا يرجم بها؛ وإنما يكون الرجم بالشهب ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي وهَيَّأْنا وأعْدَدْنا للشياطين في الآخرة بعد الإحراق بالشهب في الدنيا العذاب المستعر، وهو النار الموقدة ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ أي وللكافرين بربهم عذاب جهنم أيضًا، فليس العذاب مختصًّا بالشياطين بل هو لكل كافر بالله من الإنس والجن ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وبئست النار مرجعًا ومصيرًا للكافرين.. ثم وصف تعالى جهنم وما فيها من العذاب والأهوال والأغلال فقال ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا﴾ أي إذا قُذِفوا وطُرِحُوا في جهنم كما يطرح الحطبُ في النار العظيمة ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا﴾ أي سمعوا لجهنم صوتًا منكرًا فظيعًا كصوت الحمار، لشدة توَقُّدها وغليانها[٢] قال ابن عباس: الشهيقُ لجهنم عند إلقاء الكفار فيها، تشهق إليهم شهقة البغلة للشعير، ثم تزفرُ زفرة لا يبقى أحدٌ إلا خاف[٣] ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ أي وهي تغلي بهم كما يغْلِي المِرْجَل - القِدْر - من شدة الغضب ومن شدة اللهب قال مجاهد: تفور بهم كما يفور الحبُّ القليل في الماء الكثير ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي تكاد جهنم تتقطع وينفصل بعضها من بعض، من شدة غيظها وحنقها على أعداء الله ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ أي كلما طُرِح فيها جماعةٌ من الكفرة ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ أي سألتهم الملائكة الموَكَّلُون على جهنم وهم الزبانية سؤال توبيخ وتقريع ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي ألم يأتكم رسولٌ ينذركم ويخوفكم من هذا اليوم الرهيب؟ قال المفسرون: وهذا السؤال زيادة لهم في الإيلام، ليزدادوا حسرةً فوق حسرتهم، وعذابًا فوق عذابهم ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ أي أجابوا نعم لقد جاءنا رسول منذر، وتلا علينا آيات الله، ولكننا كذبناه وأنكرنا رسالته ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ أي وقلنا إمعانًا في التكذيب وتماديًا في النكير: ما أنزل الله شيئًا من الوحي على أحدٍ قال الرازي: هذا اعترافٌ منهم بعدل الله، وإقرار بأن الله أزاح عِلَلَهم ببعثة الرسل الكرام، ولكنهم كذبوا الرسل وقالوا ما نزَّل الله من شيء[٤] ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ هذا من تتمة كلام الكفار أي ما أنتم يا معشر الرسل إلا في بُعْدٍ عن الحق، وضلال واضح عميق ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ أي وقال الكفار: لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو كنا نسمع سماع طالب للحق، ملتمسٍ للهدى ﴿مَا كُنَّا

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ١٢٥.

(٢) قال في التسهيل: الشهيق أقبح ما يكون من صوت الحمار، ويعني به ما يسمع من صوت جهنم لشدة غليانه وهولها.

(٣) التسهيل ٤/ ١٣٤، و«تفسير القرطبي» ١٨/ ٢١١.

(٤) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٦٤.

﴿فِىٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي ما كنا نستوجب الخلود في جهنم ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾ أي فأقروا بإجرامهم وتكذيبهم للرسل ﴿فَسُحۡقًا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي فبعدًا وهلاكًا لأهل النار قال ابن كثير: عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة[1]، والجملة دُعائية أي أبعَدَهم الله من رحمته وسَحَقهم سحْقًا. ثم لما ذكر حال الأشقياء الكفار أتبعه بذكر حال السعداء الأبرار فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي يخافون ربهم ولم يَرَوْه، ويَكُفُّون عن المعاصي طلبًا لمرضاة الله ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ أي لهم عند الله مغفرةٌ عظيمة لذنوبهم، وثواب جزيل لا يعلم قدره غير الله تعالى ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ﴾ الخطاب لجميع الخلق أي أخفوْا قولكم وكلامكم أيها الناس أو أعلنوا وأظهروه، فسواءٌ أخفيتموه أو أظهرتموه فإنَّ الله يعلمه ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي لأنه تعالى العالم بالخفايا والنوايا، يعلم ما يخطر في القلوب، وما توسوس به الصدور قال ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من رسول الله ﷺ فيخبره جبريل بما قالوا، فقال بعضهم لبعض: أسرُّوا قولكم حتى لا يسمع إله محمد[2]، فأخبره الله أنه لا تخفى عليه خافية[3] ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾؟ أي ألا يعلم الخالق مخلوقاته؟ كيف لا يعلم من خلق الأشياء وأوجدها سِرَّ المخلوق وجهرَه؟ ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ أي والحال أنه اللطيف بالعباد، الذي يعلم دقائق الأمور وغوامضها، الخبير الذي لا يعزب عن علمه شيء، فلا تتحرك ذرة، ولا تسكن أو تضطرب نفْسٌ إلا وعنده خبرها ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته، وآثار فضله وامتنانه على العباد فقال ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا﴾ أي الله جل وعلا جعل لكم الأرض ليِّنةً سهْلة المسالك ﴿فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ أي فاسلكوا أيها الناس في جوانبها وأطرافها قال ابن كثير: أي فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وتردّدوا في أقاليمها وأرجائها للمكاسب والتجارات[4] ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾ أي وانتفعوا بما أنعم به جل وعلا عليكم من أنواع الكسب والرزق قال الألوسي: كثيرًا ما يُعبر عن وجوه الانتفاع بالأكل لأنه الأهم الأعم، وفي الآية دليل على ندب التسبب والكسب، وهو لا ينافي التوكل، فقد مرَّ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه بقوم فقال: من أنتم؟ فقالوا: المتوكلون فقال: بل أنتم المتواكلون، إنما المتوكل رجل ألقى حبه في بطن الأرض وتوكل على ربه عَزَّ وَجَلَّ[5] ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي وإليه تعالى المرجع بعد الموت والفناء، للحساب والجزاء.. ثم توعّد تعالى كفار مكة المكذبين لرسول الله ﷺ فقال ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي هل أمِنْتُم يا معشر الكفار ربَّكم العَليَّ الكبير

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٢٨.

(٢) (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٣) «الخازن» ٤/ ١٢٦، «والألوسي» ٢٩/ ١٣.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٢٨.

(٥) «تفسير الألوسي» ٢٩/ ١٥.

أن يخسف بكم الأرض فيُغَيِّبَكم في مجاهلها[١]، بعد ما جعلها لكم ذلولاً تمشون في مناكبها؟ ﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ أي فإذا بها تضطرب وتهتز بكم هزًّا شديدًا عنيفًا قال الرازي: والمراد أنَّ الله تعالى يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرك، فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها فيذهبون، والأرضُ فوقهم تمور فتلقيهم إلى أسفل سافلين[٢] ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي أم أمنتم الله العليَّ الكبير أن يرسل عليكم حجارة من السماء، كما أرسلها على قوم لوطٍ وأصحاب الفيل؟ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي فستعلمون عند معاينة العذاب، كيف يكون إنذاري وعقابي للمكذبين!! وفيه وعيد وتهديدٌ شديد، وأصلها (نذيري) و(نكيري) حذفت الياء مراعاةً لرءوس الآيات ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي ولقد كذب كفار الأمم السابقة رسلهم، كقوم نوح وعادٍ وثمود وأمثالهم، وهذا تسلية للرسول ﷺ وتهديد لقومه المشركين ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم بنزول العذاب؟ ألم يكن في غاية الهول والفظاعة؟ ثم لما حذَّرهم ما عسى أن يحل بهم من الخسف وإرسال الحاصب، نبَّههم على الاعتبار بالطير، وما أحكم الله من خلقها، وعن عجز آلهتهم المزعومة عن خلق شيءٍ من ذلك فقال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ أي أولم ينظروا نظر اعتبار الى الطيور فوقهم، باسطاتٍ أجنحتهن في الجو عند طيرانها وتحليقها، ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي ويَضْمُمْنَها إذا ضربن بها جنوبهن وقتًا بعد وقت؟ ولما كان الغالب هو فتح الجناحين فكأنه هو الثابت عبَّر عنه بالإسم ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ وكان القبض متجددًا عبَّر عنه بالفعل ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ قال في التسهيل: فإن قيل: لِمَ لم يقل «قابضات» على طريقة ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾؟ فالجواب أن بسط الجناحين هو الأصل في الطيران، كما أن مدَّ الأطراف هو الأصل في السباحة، فذكره بصيغة اسم الفاعل ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ لدوامه وكثرته، وأما قبضُ الجناحين فإنما يفعله الطائر قليلًا للاستراحة والاستعانة، فلذلك ذكره بلفظ الفعل لقلته[٣] ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي ما يمسكهن في الجو عن السقوط في حال البسط والقبض، إلا الخالق الرحمن الذي وسعت رحمته كل ما في الأكوان قال الرازي: وذلك أنها مع ثقلها وضخامة أجسامها، لم يكن بقاؤها في جو الهواء إلا بإمساك الله وحفظه، وإلهامها الى كيفية البسط والقبض المطابق للمنفعة من رحمة الرحمن[٤] ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ أي يعلم كيف يخلق، وكيف يبدع العجائب، بمقتضى علمه وحكمته.

ثم وبَّخ تعالى المشركين في عبادتهم لما لا ينفع ولا يسمع فقال ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؟ أي من هذا الذي يستطيع أن يدفع عنكم عذاب الله من الأنصار

---

(١) (ش): غيَّبَ فلانًا: دفنَه. مَجاهِلُ: جمع مَجْهَل ومَجهلة: أرض يضلّ فيها الإنسان ولا يهتدي.

(٢) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٧٠.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٣٦.

(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٧١.

والأعوان؟! قال ابن عباس: أي من ينصركم مِني إِن أردتُ عذابكم؟[١] ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ أي ما الكافرون في اعتقادهم أن آلهتهم تنفع أو تضرُّ إلا في جهل عظيم، وضلال مبين، حيث ظنوا الأوهام حقائق، فاعتزوا بالأوثان والأصنام ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾؟ أي من هذا الذي يرزقكم غير الله إِن منع الله عنكم رزقه؟ والخطاب في الآيتين للكفار على وجه التوبيخ والتهديد، وإِقامة الحجة عليهم[٢] ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي بل تمادوا في الطغيان، وأصرّوا على العصيان، ونفروا عن الحق والإِيمان.. ثم ضرب تعالى مثلًا للكافر والمؤمن فقال: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟ أي هل من يمشي منكسًا رأسه، لا يرى طريقه فهو يَخبِط خَبْطَ عَشْواء[٣]، مثل الأعمى الذي يتعثر كل ساعة فيخرّ لوَجْهه، هل هذا أهْدى أم مَن يمشي منتصب القامة، ويرى طريقه ولا يتعثر في خطواته، لأنه يسير على طريق بَيِّنٍ واضح؟ قال المفسرون: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر كالأعمى الماشي على غير هدى وبصيرة، لا يهتدي إلى الطريق فيتعسف ولا يزال ينكَبّ على وجْهه، والمؤمن كالرجل السويّ الصحيح البصَر، الماشي على الطريق المستقيم فهو آمِنٌ من الخَبْط والعِثَار[٤]، هذا مَثَلهما في الدنيا، وكذلك يكون حالهما في الآخرة، المؤمن يُحشَر يمشي سويًّا على صراطٍ مستقيم، والكافر يُحشَر يمشي على وجهه إِلى دركات الجحيم قال قتادة: الكافر أكبَّ على معاصي الله فحشره الله يوم القيامة على وجهه، والمؤمن كان على الدين الواضح فحشره الله على الطريق السويّ يوم القيامة. وقال ابن عباس: هو مَثَلٌ لمن سلك طريق الضلالة ولمن سلك طريق الهدى[٥] ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه الجليلة، ليعرفوا قبح ما هم عليه من الكفر والإِشراك فقال ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي قل لهم يا محمد: الله جل وعلا هو الذي أوجدكم من العدم، وأنعم عليكم بهذه النعم «السمع والبصر والعقل» وخصَّ هذه الجوارح بالذكر لأنها أداة العلم والفهم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي قلَّما تشكرون ربكم على نعمه التي لا تُحصى[٦] قال الطبري: أي قليلاً ما تشكرون ربكم على

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ١٢٦.

(٢) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٧٣.

(٣) (ش): يَخبِط خَبْطَ عَشْواء: يتصرَّف على غير هدًى، يُخطِئ ويصيب.

(٤) (ش): خبط: سار على غير هدى. عثَرَ: زلّ، تعرقَل في شيءٍ.

(٥) قال ابن كثير: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه من الضلالة كمثل من يمشي مُكِبًا على وجهه أي منحنيًا لا مستويًا، لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب، فهو تائه حائر ضال، والمؤمن يمشي منتصب القامة على طريق واضح بين، أيهما أهدي سبيلًا أهذا أم ذاك!! «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٠.

(٦) قال ابن عطية: المراد نفي الشكر، فعبر بالقِلة كما تقول العرب: هذه أرضٌ قَلَّ ما تُنبِت كذا وهي لا تُنبته البتة. اهـ. نقلًا عن «البحر» ٨/ ٣٠٣.

هـذه النعم التـي أنعمها عليكـم [١] ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي خلقكم وكثَّركم في الأرض ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وإليـه وحـده مرجعكم للحسـاب والجـزاء ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي متـى يكون الحشـر والجزاء الذي تَعِدُوننا بـه؟ إن كنتم صادقين فيما تخبروننا به من مجيء الساعة الحشر، وهذا استهزاء منهم ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد: علم وقت قيام الساعة ووقت العذاب عند الله تعالى لا يعلمه غيره ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي وما أنا إلا رسـولٌ مُنذِرٌ أُخوِّفُكم عذاب الله امتثالًا لأمره.. ثم أخبر تعالى عن حال المشركين في ذلك اليـوم العصيب فقال ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي فلما رأوا العذاب قريبًا منهم، وعاينوا أهوال القيامة ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ظهـرت علـى وجوههم آثار الاسـتياء، فعَلَتْهـا الكآبة والغم والحزن، وغَشِـيَها الذُل والانكسار، قال في البحر: أي سـاءتْ رؤيةُ العذاب وُجوهَهم، وظهر فيها السـوء والكآبة، كمن يُساقُ إلى القتل[٢] ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي وقالت لهم الملائكة توبيخًا وتبكيتًا: هذا الذي كنتم تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه استهزاءً وتكذيبًا ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يتمنون هلاكك: أخبروني إن أماتني الله ومن معي من المؤمنين، أو رحمنا بتأخير آجالنا ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي فمـن يحميكـم من عـذاب الله الأليم، ووضع لفـظ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ عوضًا عن الضمير «يجيركم» تشـنيعًا وتسجيلًا عليهم بالكفر قال المفسـرون: كان الكفار يتمنون هلاك النبي ﷺ والمسـلمين، فأمره الله أن يقول لهم: إن أهلكني الله بالإماتة وأهلك من معي، فأي راحـةٍ وأي منفعـة لكم فيـه، ومن الـذي يجيركم من عـذاب الله إذا نزل بكم؟ هـل تظنون أن الأصنـام تخلصكم وتنقذكم مـن العذاب الأليـم[٣]؟ ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي قـل لهم: آمنـا بالله الواحد الأحد، وعليـه اعتمدنا في جميع أمورنا، لا علـى الأموال والرجال ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي فسوف تعلمون عن قريب من هو في الضلالة نحن أم أنتم؟ وفيـه تهديد للمشـركين ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي قل لهم يـا محمد: أخبروني إذا صار المـاء غائـرًا ذاهبًا في أعماق الأرض، بحيث لا تسـتطيعون إخراجـه ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ أي فمـن الذي يُخرِجُه لكم حتـى يكون ظاهرًا جاريًا على وجه الأرض؟ هـل يأتيكم غير الله به؟ فلِمَ تُشركون مع الخالق الرازق غيره من الأصنام والأوثان؟

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿ٱلْمَوْتَ.. وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ وبين ﴿وَأَسِرُّوا۟.. أَوِ ٱجْهَرُوا۟﴾ وبين ﴿صَٰٓفَّٰتٍ.. وَيَقْبِضْنَ﴾ لأن المعنى صافات وقابضات.

---

(١) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٧.

(٢) البحر ٨/ ٣٠٧.

(٣) انظر «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٧٦.

٢ - وضع الموصول للتفخيم والتعظيم ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي له الملك السلطان، والتصرف في الأكوان.

٣ - الإطناب بتكرار الجملة مرتين زيادة في التذكير والتنبيه ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ.. ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ وكذلك ﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ.. فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

٤ - الاستفهام الإنكاري للتقريع والتوبيخ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾؟

٥ - المقابلة ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ قابله بقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

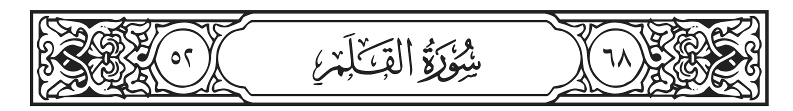
٦ - الاستعارة المكنية ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ شبَّه جهنم في شدة غليانها ولهبها بإنسان شديد الغيظ والحنق على عدوه يكاد يتقطع من شدة الغيظ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الغيظ الشديد بطريق الاستعارة المكنية.

٧ - الاستعارة التمثيلية ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هذا بطريق التمثيل للمؤمن والكافر، فالمؤمن من يمشي سويًا على صراط مستقيم، والكافر يمشي مكبًا على وجهه إلى طريق الجحيم، ويا لها من استعارة رائعة!!

٨ - السجع المرصَّع مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟ ﴿بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ ومثل ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ ﴿فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الملك»





مكية وآياتها ثنتان وخمسون

بين يدي السورة

* سورة القلم من السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة والإيمان، وقد تناولت هذه السورة ثلاثة مواضيع أساسية وهي:

أ- موضوع الرسالة، والشبه التي أثارها كفار مكة حول دعوة محمد بن عبد الله ﷺ.

ب- قصة أصحاب الجنة «البستان»، لبيان نتيجة الكفر بنعم الله تعالى.

ج- الآخرة وأهوالها وشدائدها، وما أعدَّ الله للفريقين: المسلمين والمجرمين.

* ولكن المحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو موضوع إثبات نبوة محمد ﷺ.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على رفعة قدر الرسول ﷺ وشرفه وبراءته مما ألصقه به المشركون من اتهامه -وحاشاه- بالجنون، وبينت أخلاقه العظيمة، ومناقبه السامية ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ الآيات.

* ثم تناولت موقف المجرمين من دعوة رسول الله ﷺ، وما أعد الله لهم من العذاب والنكال ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ...﴾ الآيات.

* ثم ضربت مثلًا لكفار مكة في كفرانهم نعمة الله العظمى ببعثة خاتم الرسل ﷺ إليهم وتكذيبهم به بقصة أصحاب الجنة «الحديقة» ذات الأشجار والزروع والثمار، حيث جحدوا نعمة الله ومنعوا حقوق الفقراء والمساكين، فأحرق الله حديقتهم وجعل قصتهم عبرة للمعتبرين ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ الآيات.

* ثم قارنت السورة بين المؤمنين والمجرمين، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ...﴾ الآيات.

* وتناولت السورة الكريمة القيامة وأحوالها وأهوالها، وموقف المجرمين من ذلك اليوم العصيب، الذي يكلفون فيه بالسجود لرب العالمين فلا يقدرون ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالصبر على أذى المشركين، وعدم التبرم والضجر بما يلقاه في سبيل تبليغ دعوة الله كما حدث من يونس عليه السلام حين ترك قومه وسارع إلى ركوب البحر ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ الآيات.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٧ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ١٦ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ١٨ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ٢٠ فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ٢١ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ٢٢ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ٢٣ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ٢٤ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ٢٥ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ٢٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٢٧ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ٢٨ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ٣٠ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٣٣ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٣٤ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٦ أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ٣٧ إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ٣٨ أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ ٣٩ سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ٤٠ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٤١ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٤٢ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ٤٣ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٤ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ٤٥ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٦ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ٤٧ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٥٠ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٥٢﴾

اللغَة: ﴿يَسۡطُرُونَ﴾ يكتبون، سَطَر العلمَ كتبه بالقلم ﴿مَمۡنُونٖ﴾ مقطوع يقال: مننْتُ الحبل إذا قطعْتُه ﴿عُتُلِّۭ﴾ العُتُل: الغليظ الجافي، السريع إلى الشر، مأخوذ من العَتْل وهو الجرُّ ﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ﴾ [الدخان: ٤٧] قال في الصحاح: عَتَلْتُ الرجُلَ إذا جذبْتُه جذبًا عنيفًا[١] ﴿زَنِيمٍ﴾ الزنيمُ: الملصق بالقوم وليس منهم، وهو الدَّعِيُّ الذي لا يعرف أبوه قال الشاعر:

زَنِيمٌ لَيْسَ يُعْرَفُ مَنْ أَبُوْهُ ... بَغِيُّ الأُمِّ ذُو حَسَبٍ لَئِيمِ[٢]

﴿صَٰرِمِينَ﴾ صرم الشيء قطعه، وصرم النخلة قطع ثمرها ﴿حَرۡدٖ﴾ قصد وعزم ﴿زَعِيمٌ﴾ كفيل وضمين ﴿مَكۡظُومٞ﴾ مملوءٌ غيظًا وغما.

---

(١) الصحاح للجوهري مادة عتل.

(٢) تفسر القرطبي ١٨/ ٢٣٤.

التفسير: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ نون حرف من الحروف المقطعة، ذكر للتنبيه على إعجاز القرآن[١].. أَقسَم تعالى بالقلم الذي يكتب الناس به العلوم والمعارف، فإن القلم أخو اللسان ونعمة من الرحمن على عباده والمعنى: أُقسِم بالقلم وما يكتبه الكاتبون على صدق محمد وسلامته مما نسبه إليه المجرمون من السفه والجنون، وفي القسم بالقلم والكتابة إشادة بفضل الكتابة والقراءة، فالإنسان من بين سائر المخلوقات خصه الله بمعرفة الكتابة ليفصح عما في ضميره ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ٤٥] وحسبك دليلًا على شرف القلم أن الله أقسم به في هذه السورة تمجيدًا لشأن الكاتبين، ورفعًا من قدر أهل العلم، ففي القلم البيان كما في اللسان، وبه قوام العلوم والمعارف قال ابن كثير: والظاهر من قوله تعالى ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ أنه جنس من القلم الذي يكتب به، وهو قسم منه تعالى لتنبيه خلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تُنالُ العلوم[٢] ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ أي لست -يا محمد- بفضل الله وإنعامه عليك بالنبوة بمجنون، كما يقول الجهلة المجرمون[٣]، فأنت بحمد الله عاقل لا كما قالوا ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الحجر:٦] قال ابن عطية: هذا جواب القسم، وقوله ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ اعتراض كما تقول للإنسان: أنت بحمد الله فاضل[٤] ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾ أي وإنّ لك لثوابًا على ما تحملت من الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله غير مقطوع ولا منقوص ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ أي وإنك يا محمد لعلى أدب رفيع جم وخلق فاضل كريم، فقد جمع الله فيك الفضائل والكمالات.. يا له من شرف عظيم، لم يُدرِك شَأْوه بَشَرٌ[٥]، فربُّ العزة جل علا يصف محمدًا بهذا الوصف الجليل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ وقد كان من خلقه ﷺ العلم والحلم، وشدة الحياء، وكثرة العبادة والسخاء، والصبر والشكر، والتواضع والزهد، والرحمة والشفقة، وحسن المعاشرة والأدب، إلى غير ذلك من الخلال العلية، والأخلاق المَرْضِية[٦] ولقد أحسن القائل:

---

(١) انظر التحقيق العلمي الذي كتبناه في أول سورة البقرة حول الحروف المقطعة.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٣٢.

(٣) (ش): رُوِيَ أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ: إنه لمجنون به شيطان؛ فنزلت: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ (ضعيف، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، و«لباب النقول» ونسبه لابن المنذر.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٣٠٧.، قال أبو حيان: والآية كالدليل القاطع على صحة الدعوى لأن النعمة كانت ظاهرة في حقه عليه السلام من كمال الفصاحة والعقل والسيرة المَرْضيَّة والاتِّصاف بكل مَكرمة مما يكذِّب التهمة.

(٥) (ش): شَأْو: أمَد، غاية.

(٦) أخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أف قط، ولا قال لي لشيء فعلته: لمَ فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟ وكان ﷺ أحسن الناس خُلقًا، وما مسست خزًا ولا حريرًا، ولا شيئًا كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكًا ولا عطرًا كان أطيب من عرَق رسول الله ﷺ» أخرجه البخاري ومسلم، وفي البخاري عن عائشة لما سئلت عن خُلُقه ﷺ قالت: «كان خُلقه القرآن» تعني =

إِذَا اللهُ أَثْنَى بِالَّذِي هُوَ أَهْلُهُ عَلَيْكَ فَما مِقْدارُ ما يَمْدَحُ الوَرَى؟

﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾ أي فسوف ترى يا محمد، ويرى قومك ومخالفوك كفار مكة إذا نزل بهم العذاب ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ أي أيكم الذي فتن بالجنون؟ هل أنت كما يفترون، أم هم بكفرهم وانصرافهم على الهدى؟ قال القرطبي: والمفتون: المجنون الذي فتنه الشيطان، ومعظم السورة نزل في «الوليد بن المغيرة» و «أبي جهل»(١) وقد كان المشركون يقولون: إن بمحمد شيطانًا، وعَنَوا بالمجنون هذا، فقال الله تعالى سيعلمون غدًا بأيهم المجنون أي الشيطان الذي يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل(٢) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي هو سبحانه العالم بالشقي المنحرف عن دين الله وطريق الهدى ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ أي وهو العالم بالتقي المهتدي إلى الدين الحق، وهو تعليل لما قبله وتأكيد للوعد والوعيد كأنه يقول: إنهم هم المجانين على الحقيقة لا أنت، حيث كانت لهم عقول لم ينتفعوا بها، ولا استعملوها فيما ينجيهم ويسعدهم ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي فلا تطع رؤساء الكفر والضلال الذين كذبوا برسالتك وبالقرآن، فيما يدعونك إليه قال الرازي: دعاه رؤساء أهل مكة إلى دين آبائه، فنهاه الله أن يطيعهم، وهذا من الله إلهاب وتهييج للتشدد في مخالفتهم(٣) ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ أي تمنوا لو تلين لهم يا محمد، وتترك بعض ما لا يرضونه مصانعة لهم، فيلينوا لك ويفعلوا مثل ذلك في التسهيل: المداهنة: هي الملاينة والمداراة فيما لا ينبغي، روي أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: لو عبدت آلهتنا لعبدنا إلهك فنزلت الآية(٤) ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ﴾ أي ولا تطع يا محمد كثير الحلق بالحف والباطل، الذي يكثر من الحلف ستهينًا بعظمة الله ﴿مَّهِينٍ﴾ أي فاجر حقير ﴿هَمَّازٖ﴾ أي مغتاب يأكل لحوم الناس بالطعن والعيب ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾ أي يمشي بالنميمة بين الناس، وينقل حديثهم ليوقع بينهم وهو الفتان، وفي الحديث الصحيح «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ»(٥) ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾ أي بخيل ممسك عن الإنفاق في سبيل الله ﴿مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي ظالم متجاوز في الظلم والعدوان، كثير الآثام والإجرام، وجاءت الأوصاف ﴿حَلَّافٖ، هَمَّازٖ، مَّشَّآءِۭ، مَّنَّاعٖ﴾ بصيغة المبالغة للدلالة على الكثرة ﴿عُتُلِّۭ﴾ أي جاف غليظ،

= التأدب بآدابه. (ش): الخزّ: نسيج من حرير خالص. وكلام عائشة رضي الله عنها ليس في صحيح البخاري بل في صحيح مسلم.

(١) (ش): قيل: إنها نزلت في الوليد بن المغيرة، وقيل: في الأسود بن عبد يغوث، وقيل: في الأخنس بن شريق. وكلها أقوال في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٢٩.

(٣) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٨٣.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٣٨. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٥) أخرجه مسلم.

قاسي القلب عديم الفهم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد تلك الأوصاف الذميمة التي تقدمت ﴿زَنِيمٍ﴾ أي ابن زنا، وهو أشدُّ معايبه وأقبَحُها، أنه لصِيق دَعِيٌّ ليس له نسبٌ صحيح قال المفسرون: نزلت في «الوليد بن المغيرة» فقد كان دعِيًا في قريش وليس منهم، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة، أي: تبناه ونسبه لنفسه بعد أن كان لا يُعرف له أب. قال ابن عباس: لا نعلم أحدًا وصفه الله بهذه العيوب غير هذا، فألحق به عارًا لا يفارقه أبدًا، وإنما ذُمَّ بذلك لأن النطفة إذا خبثت خبث الولد، وروي أن الآية لما نزلت جاء الوليد إلى أمه فقال لها: إن محمدًا وصفني بتسع صفات، كلها ظاهرة فيَّ أعرفها غير التاسع منها يريد أنه ﴿زَنِيمٍ﴾ فإن لم تصدقيني ضربت عنقك بالسيف، فقالت له: إن أباك كان عِنِّينًا أي لا يستطيع معاشرة النساء فخِفْتُ على المال فمكَّنْت راعيًا من نفسي فأنت ابن ذلك الراعي، فلم يعرف أنه ابن زنا حتى نزلت الآية[(١)] ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي لأنْ كان ذا مال وبنين قال في القرآن ما قال، وزعم أنه أساطير الأولين؟ [(٢)] وكان ينبغي أن يقابل النعمة بالشكر لا بالجحود والتكذيب ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي إذا قرئت آيات القرآن على ذلك الفاجر قال مستهزئًا ساخرًا: إنها خرفات وأباطيل المتقدمين اختلقها محمد ونسبها إلى الله، قال تعالى ردًا عليه متوعدًا له بالعذاب ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ أي سنجعل له علامة على أنفه بالخطم عليه يعرف بها إلى موته، وكنى بالخرطوم عن أنفه على سبيل الاستخفاف به، لأن الخرطوم للفيل والخنزير، فإذا شبه أنف الإنسان به كان ذلك غاية في الإذلال والإهانة كما يعبر عن شفاه الناس بالمشافر، وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر[(٣)]، قال ابن عباس: سنخْطم أنْفه بالسيف فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش، وقد خطم يوم بدر بالسيف[(٤)]. قال الإمام الفخر: لما كان الوجه

---

(١) انظر «تفسير الجلالين» وحاشية الصاوي عليه ٤/ ٢٣٣. (ش): لم أجدْ هذه القصة إلا في بعض التفاسير بدون إسناد. وعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما-: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾؛ قال: «رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ لَهُ زَنَمَةٌ مِثْلُ زَنَمَةِ الشَّاةِ». (رواه البخاري). (زنمة) قطعة جلد أو لحم زائدة، كالأصبع الزائدة مثلًا. (زنمة الشاة) هي ما يقطع من أذنها ويترك معلَّقًا. وَقيل: هِي لحْمَة معلقَة فِي عُنُقهَا. وفي رواية عنه ﷺ قال: نزل على النبي ﷺ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾، قال: فلم نعرِفْه حتى نزل على النبي ﷺ: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾، فعرفناه له زنمة كزَنَمَة الشاة. (حسن، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره»).

(٢) اختار الطبري وابن كثير هذا المعنى أن الآية متعلقة بما بعدها أي لأنه ذو مال وبنين يتكبر بماله وبَنِيه ويقول: إن القرآن خرافات وأباطيل. واختار غيرهما أن الآية متعلقة بما سبق أي لا تطعه بسبب كثرة ماله وولده، «تفسير الطبري»٢٩/ ١٨.

(٣) (ش): مِشْفَر: شفة البعير الغليظة. والجمع مَشافِرُ. ظِلْف: ظفر مشقوق، للبقرة والشّاة والظبي ونحوهم، وهو بمنزلة الحافر للفرس والظفر للإنسان. حافِر الدَّابَّة: ما يقابل القدمَ من الإنسان، والجمع حوافِرُ.

(٤) «تفسير الطبري»٢٩/ ١٨. (ش): رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسنادٍ ضعيف. والْخَطْمُ: الْأَثَرُ عَلَى الْأَنْفِ.

أكرم موضع الجسـد، والأنف أكرم موضع في الوجه لارتفاعه عليه، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الأَنَفَة، وقالوا في الذليل: رغِمَ أنفه، فعبّر بالوسْم على الخرطوم عن غاية الإِذلال والإِهانـة، لأن السـمة على الوجه شَـيْن[١]، فكيف على أكرم موضـع من الوجه[٢]!! ثـم ذكر تعالى قصة أصحـاب الحديقة وما ابتلاهم تعالى به من إتلاف الزروع والثمار وضربه مثـلًا لكفار مكة فقـال ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي إنا اختبرنا أهل مكة بالقحط والجوع بدعـوة رسـول الله ﷺ كما اختبرنا أصحاب البسـتان المشـتمل على أنواع الثمـار والفواكه، وكلفنـا أهل مكة أن يشـكروا ربهم علـى النعم، كما كلفنا أصحاب الجنة أن يشـكروا ويعطوا الفقراء حقوقهم قال المفسـرون: كان لرجل مسـلم بقرب صنعاء بسـتان فيه من أنواع النخيل والزروع والثمار، وكان إذا حان وقت الحصاد دعا الفقراء فأعطاهم نصيبًا وافرًا منه وأكرمهم غايـة الإِكرام. فلما مات الأب ورثـه أبناؤه الثلاثة فقالوا: عيالنا كثيـر والمال قليل ولا يمكننا أن نعطي المساكين كما كان يفعل أبونا، فتشاوروا فيما بينهم وعزموا على ألا يعطوا أحدًا من الفقراء شيئًا، وأن يجنوا ثمرها وقت الصباح خفية عنهم، وحلفوا على ذلك، فأرسل الله تعالى نـارًا علـى الحديقة ليلًا أحرقت الأشـجار وأتلفت الثمار، فلما أصبحوا ذهبـوا إِلى حديقتهم فلم يروا فيها شـجرًا ولا ثمرًا، فظنوا أنهم أخطئوا الطريق، ثم تبين لهم أنه بسـتانهم وحديقتهم وعرفـوا أن الله تعالى عاقبهم فيها بنيتهم السـيئة، فندموا وتابوا بعد أن فات الأوان[٣] ﴿إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي حيـن حلفوا ليقطعن ثمرها وقت الصباح، قبل أن يخرج إليهم المسـاكين ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ أي ولـم يقولوا إن شـاء الله حين حلفوا، كأنهم واثقون من الأمر ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ أي فطرَقَهـا طـارِقٌ مـن عـذاب الله[٤]، وهم في غفلةٍ عمَّا حـدث لأنهم كانوا نيامًا، قال الكلبي: أرسـل الله عليها نارًا من السـماء فاحترقت وهم نائمون ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ أي فأصبحـت كالـزرع المحصود إذا أصبح هشـيمًا يابسًـا قال ابن عبـاس: أصبحت كالرماد الأسود، قد حُرِمُوا خيرَ جنتهم بذنبهم ﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ﴾ أي نادى بعضهم بعضًا حين أصبحوا ليمضـوا علـى الميعاد إِلـى بسـتانهم ﴿ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴾ أي اذهبـوا مبكرين إلى ثماركم وزروعكـم وأعنابكم إن كنتم حاصدين للثمار تريدون قطعها ﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴾ أي فانطلقـوا نحـو البسـتان وهم يخفـون كلامهم خوفًـا من أن يشـعر بهم المسـاكين قائلين ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أي لا تدخلـوا في هـذا اليـوم أحـدًا من الفقراء إلى البسـتان ولا تُمَكِّنـوه مـن الدخـول ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ أي ومضـوا على قصـد وقدرة في أنفسـهم يظنون

---

(١) (ش): شَيْن: عَيْب.

(٢) «تفسير الفخر الرازي» ٣٠/ ٨٦.

(٣) انظر «التفسير الكبير» للفخر الرازي ٣٠/ ٨٧، و«البحر المحيط» لأبي حيان ٨/ ٣١١.

(٤) (ش): طرَقَ فلانٌ القومَ: أتَاهم ليلاً.

أنـه تمكنـوا من مرادهم قـال ابن عبـاس: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ على قـدرة وقصد، وقال السـدي: على حنـق وغضب، وقال الحسـن: على فاقة وحاجـة[1]، وقول ابن عبـاس أظهر ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي فلما رأوا حديقتهم سوداء محترقة، قد استحالت من النضارة والبهجة إلى السواد والظلمة، قالوا: لقد ضللنا الطريق إليها وليست هذه حديقتنا قال أبو حيان: كان قولهم ذلك في أول وصولهم إليها، أنكروا أنها هي واعتقدوا أنهم أخطئوا الطريق، ثم وضح لهم أنها هي وأنه أصابهـا من عذاب الله مـا أذهب خيرها فقالوا عند ذلك[2] ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي لسـنا مخطئين للطريق بل نحن محرومون، حُرِمْنا ثمرَها وخيرَها بجِنايَتِنا على أنفسـنا ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾؟ أي قال أعقَلُهم وأفضلُهم رأيًا: هلا تسـبحون الله فتقولوا «سـبحان الله» أو «إن شاء الله» قـال في البحـر: نبههم ووبخهم على تركهـم ما حضهم عليه من التسـبيح، ولو ذكروا الله وإحسانه إليهم لامتثلوا ما أمر به من مواساة المساكين، واقتفوا سنة أبيهم في ذلك، فلما غفلوا عـن ذكـر الله وعزموا على منع المسـاكين ابتلاهـم الله[3] وقال الرازي: إن القـوم حين عزموا علـى منع الزكاة واغتروا بمالهم وقوتهم، قال الأوسـط لهم توبوا عن هذه المعصية قبل نزول العـذاب، فلما رأوا حالة البسـتان ذكرهم بالكلام الأول، فاشـتغلوا بالتوبـة ولكن بعد خراب البصـرة[4] ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي فقالـوا حينئـذٍ: تنزه الله ربنا عـن الظلم فيما فعل، بل نحن كنا الظالمين لأنفسـنا في منعنا حق المسـاكين ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ أي يلوم بعضهم بعضًا يقول هذا أنت أشـرت علينا بهذا الرأي، ويقول ذاك: بل أنت، ويقول آخر: أنت الذي خوفتنا الفقر ورغبتنا في جمع المال، فهذا هو التلاوم[5] ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ أي قالوا يـا هلاكنا وتعاسـتنا إن لم يغفر لنا ربنا، فقد كنا عاصين وباغيـن في منعنا الفقراء، وعد التوكل على الله، فقال الرازي: والمراد أنهم اسـتعظموا جرمهم[6] ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ أي لعل الله يعطينـا أفضل منها بسـبب توبتنا واعترافنـا بخطيئتنـا ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ أي فنحن راجون

---

(١) قال الطبري: وأولى الأقوال بالصواب قول من قال معناه: وَغَدَوْا عَلَى أَمْرٍ قَدْ قَصَدُوهُ وَاعْتَمَدُوهُ، وَاسْتَسَرُّوهُ بَيْنَهُمْ، قَادِرِينَ عَلَيْهِ، وهو ترجيح لقول ابن عباس وهو الذي اخترناه.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٣١٣.

(٣) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٩٠.

(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٩٠. (ش): بعد خراب البصرة: أحد الأمثال المشهورة، ويُضرب للذي يقوم بعمل ولكن بعد فوات الأوان، وأصل المثل ربما يعود إلى زمان الدولة العباسية عندما قاد أحد الزنوج ثورة على الخليفة العباسي «المعتمِد على الله»، فهاجم البصرة وأحرقها يوم ١٤ شوال سنة ٢٥٧هـ، وقُتل في هذه الواقعة عشرات آلاف من المسلمين،وبعد أربع عشرة سنة استرد الخليفة «الموفق» المدينة من الثوار الزنوج ولكن (بعد خراب البصرة).

(٥) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٩١.

(٦) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٩١.

لعفوه، طالبون لإحسانه وفضله.

ساق تعالى هذه القصة ليُعلمنا أن مصير البخيل ومانع الزكاة إلى التلف، وأنه يضن ببعض ماله في سبيل الله فيهلك كل ماله مصحوبًا بغضب الله، ولذلك عقب تعالى بعد ذكر هذه القصة بقوله ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ أي مثل هذا العذاب الذي نزل بأهل الجنة ينزل بقريش، ولعذاب الآخرة أعظم وأشد من عذاب الدنيا لو كان عندهم فهم وعلم، قال ابن عباس: هذا مَثَل لأهل مكة حين خرجوا إلى بدر، وحلفوا ألا يرجعوا إلى مكة حتى يقتلوا محمدًا ﷺ وأصحابه، ويشربوا الخمور، وتضرب القينات - المغنيات - على رءوسهم، فأخلف الله ظنهم، فقُتِلوا وأُسِروا وانهزموا كأهل هذه الجنة لما خرجوا عازمين على الصرام فخابوا[1].. ثم أخبر تعالى عن حال المؤمنين المتقين بعد أن ذكر حال المجرمين من كفار مكة فقال ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي إن للمتقين في الآخرة حدائق وبساتين ليس فيها إلا النعيم الخالص، الذي لا يشوبه كدر ولا منغص كما هو حال الدنيا ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾؟ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أفنُساوي بين المطيع والعاصي، والمحسن والمجرم؟ ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾؟ تعجب منهم حيث إنهم يسوُّون المطيع بالعاصي، والمؤمن بالكافر، فإن مثل هذه لا يصدر عن عاقل ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾؟ أي هل عندكم كتاب منزل من السماء تقرءون وتدرسون فيه ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ هذه الجملة مفعول لتدرسون أي تدرسون في هذا الكتاب أن لكم ما تشتهون وتطلبون؟ وهذا توبيخ آخر للمشركين فيما كانوا يزعمونه من الباطل حيث قالوا: إن كان ثمة بعث وجزاء، فسنعطى خيرًا من المؤمنين كما أعطينا في الدنيا قال الطبري: وهذا توبيخ لهؤلاء القوم وتقريع لهم فيما كانوا يقولون من الباطل، ويتمنون من الأماني الكاذبة[2] ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي هل لكم عهود ومواثيق مؤكدة من جهتنا ثابتة إلى يوم القيامة؟ ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ هذا جوابه أي إن لكم الذي تريدونه وتحكمون به؟ قال ابن كثير: المعنى أمعكم عهود ومواثيق مؤكدة أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون[3] ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾ أي سل يا محمد هؤلاء المكابرين أيهم كفيل وضامن بهذا الذي يزعمون؟ وفيه نوع من السخرية والتهكم بهم، حيث يحكمون بأمور خارجة عن العقول، يرفضها المنطق وتأباها العدالة ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ أي أم لهم شركاء وأرباب يكلفون لهم بذلك، فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في دعواهم قال في التسهيل: وهذا تعجيز للكفار والمراد إن كان لكم شركاء يقدرون على شيء، فأتوا بهم

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٤٦.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٢٣.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٣٧.

وأحضروهم حتى نرى حالهم[١]. ولما أبطل مزاعمهم وسفه أحلامهم، شرع في بيان أهوال الآخرة وشدائدها فقال ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي اذكر يا محمد لقومك ذلك اليوم العصيب الذي يكشف فيه عن أمر فظيع شديد في غاية الهول والشدة، قال ابن عباس: هو يوم القيامة يوم كرب وشدة[٢]

قال القرطبي: والأصل فيه أن من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجدّ شَمَّر عن ساقه، فاستعير الساق والكشف عنها موضع الشدة[٣] كقول الراجز:

قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا فَشُدُّوا وَجَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فَجِدُّوا

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي ويدعى الكفار للسجود لرب العالمين فلا يستطيعون

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٤٠.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٣٨. (ش): هذا أحد القولين في تفسير الآية: أن المراد بها شدة الهول يوم القيامة، وعليه فليست من آيات الصفات. والقول الثاني: أن المراد في الآية هنا أن الله يكشف عن ساقِه، ويدل على هذا قولُ النبي ﷺ: «يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِئَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا» (رواه البخاري ومسلم).

وسبب الخلاف في تفسير الآية أنه ليس في ظاهرها أنَّ ذلك صفة لله تعالى؛ لأنه قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، ولم يَقُل: عن ساق الله، ولا قال: يكشف الرب عن ساقه، وإنما ذكر ساقًا نكرة غير مُعَرَّفة ولا مضافة، وهذا اللفظ بمجرده لا يدل على أنها ساق الله، والذين جعلوا ذلك من صفات الله تعالى أثبتوه بالحديث الصحيح المفسِّر للقرآن. واستدلوا أيضًا بما يلي:

١- إن تنكير الساق في الآية للتعظيم والتفخيم، كأنه قال: يُكشَف عن ساقٍ عظيمة؛ جلَّتْ عظمتُها، وتعالَى شأنُها أن يكون لها نظير أو مثيل أو شبيه.

٢- إن حمل الآية على الشِّدَّة لا يصح، لأن اللغة في مثل ذلك أن يقال: كُشِفَتِ الشِّدَّة عن القوم، لا كُشِف عنها، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ [المؤمنون: ٧٥]؛ فالعذاب والشِّدَّة هو المكشوف لا المكشوف عنه، وأيضًا يوم القيامة تحدث الشِّدَّة وتشتد، ولا تُزال إلا بدخول الجنة، وهناك - أي في الجنة - لا يُدعَون إلى السجود، وإنما يدعون إليه أشدَّ ما كانت الشِّدَّة.

٣- أنه أخبر أنه يُكشَف عن ساق ويدعون إلى السجود، والسجود لا يصلح إلا لله، فعُلِم أنه هُو الكاشف عن ساقه، وهذا لا يظهر من مجرد لفظة سَاقٍ، بل بالتركيب والسياق وتدبُّر المعنى المقصود. وممَّا يجب أن يُعْلَم أن الذين فسَّروا الآية بالتفسير الأول- أي شدة الهول يوم القيامة - لم ينفُوا عن الله تعالى صفة الساق التي ثبتَتْ بها السُنة، لكنهم لم يرَوْا أن الآية دالَّةٌ عليها ولم يعُدُّوها من آيات الصفات، إنما أثبتوا صفة الساق بالسُّنَّة ولا منافاةَ بين القولين، فالله يكشف عن ساقه يوم شدة الهول، وذلك بخلاف المعَطِّلة الذين ينفون صفة الساق، ولا يُثْبِتونها لا بالقرآن ولا بالسُّنَّة، بل حمَلُوا الآية والحديث على شدة الأمر. وهذا وإن كان محتملًا في الآية لكنه لا يحتَمَل في تفسير الحديث، لورود الساق مضافة إلى الضمير العائد على الله تعالى: «يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ». [انظر: «الصواعق المُرسَلة في الرد على الجهْمية والمعطِّلة»، لابن قيم الجوزية (١/ ٢٥٣). «أنوار الهلالين في التعقبات على الجلالين» للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس، (ص: ٣٢-٣٤)].

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٤٩.

لأن ظهر أحدهم يصبح طبقًا واحدًا، وفي الحديث «يَسْجُدُ لِلهِ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا»[١] ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي ذليلة متواضعة أبصارهم لا يستطيعون رفعها ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي تغشاهم وتلحقهم الذلة والهوان ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أي والحال أنهم كانوا في الدنيا يُدعَوْن إلى السجود وهم أصِحَّاء الجسم مُعافَوْن فيأبَوْن. قال الإمام الفخر: لا يُدْعَون إلى السجود تعبُّدًا وتكليفًا، ولكن توبيخًا وتعنيفًا على تركهم السجود في الدنيا، ثم إنه تعالى يسلب عنهم القدرة على السجود ويَحُول بينهم وبين الاستطاعة حتى تزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا فيه، حين دُعُوا إليه في الدنيا وهم سالمو الأطراف والمفاصل[٢] ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي اتركني يا محمد ومن يكذب بهذا القرآن لأكفيك شره وأنتقم لك منه!! وهذا منتهى الوعيد ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي سنأخذهم بطريق الاستدراج بالنعم، إلى الهلاك والدمار، من حيث لا يشعرون قال الحسن: كم من مفتون بالثناء عليه، وكم من مغرور بالستر عليه[٣] قال الرازي: الاستدراج أن يستنزله إليه درجة درجة حتى يورطه فيه، فكلما أذنبوا ذنبًا جدَّد الله لهم نعمة وأنساهم الاستغفار، فالاستدراج إنما حصل لهم من الإنعام عليهم، لأنهم يحسبونه تفضيلًا لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب لهلاكهم[٤] ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي أُمهلهم وأُطيل في أعمارهم ليزدادوا إثمًا ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي إن انتقامي من الكافرين قوي شديد وفي الحديث «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثُمَّ قَرَأَ ﷺ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[٥] وإنما سمي إحسانه كيدًا كما سماه استدراجًا لكونه في صورة الكيد، فما وقع لهم من سعة الأرزاق، وطول الأعمار، وعافية الأبدان، إحسانٌ في الظاهر، وبلاء في الباطن، لأن المقصود معاقبتهم وتعذيبهم به ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي أتسألهم يا محمد غرامة مالية على تبليغ الرسالة، فهم مُعرِضون عن الإيمان بسبب ذلك التكليف الثقيل ببذلهم المال؟ والغرض توبيخهم في عدم الإيمان فإن الرسول لا يطلب منهم شيئًا من الأجر قال الخازن: المعنى أتطلب منهم أجرًا فيثقل عليهم

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري ومسلم. (ش): (فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا): أي يصبح عظامًا بلا مفاصل لا ينثني عند الرفع والخفض. ساق المؤلف آخر هذا الحديث: (يَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ) ولم يذكر أوّله (يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ) الذي فيه بيان المراد بالساق. (راجع التعليق السابق).

(٢) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٩٦.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٥١.

(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٩٦.

(٥) أخرجه الشيخان.

محمل الغرامات في أموالهم فيثبطهم عن الإيمان[١] ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ أي أم هل عندهم اللوح المحفوظ الذي فيه الغيب، فهم ينقلون منه أنهم خير من أهل الإيمان، فلذلك أصروا على الكفر والطغيان؟ وهو استفهام على سبيل الإنكار والتوبيخ ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ أي فاصبر يا محمد على أذاهم، وامض لما أُمرت به من تبليغ رسالة ربك ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ أي ولا تكن في الضجر والعجلة، كيونس بن متى عليه السلام، لما غضب على قومه لأنهم لم يؤمنوا فتركهم وركب البحر ثم التقمه الحوت،وكان من أمره ما كان ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٌ﴾ أي حين دعا ربه في بطن الحوت وهو مملوء غمًا وغيظًا بقوله ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي لولا أن تداركته رحمة الله ﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٌ﴾ أي لطرح في الفضاء الواسع الخالي من الأشجار والجبال، وهو مُلامٌ على ما ارتكب، ولكن الله أنعم عليه بالتوفيق للتوبة فلم يبق مذمومًا ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي فاصطفاه ربه واختاره لنفسه فجعله من المقربين قال ابن عباس: رد الله إليه الوحي وشفعه في قومه[٢] ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ أي ولقد كاد الكفار من شدة عداوتهم لك يا محمد أن يصرعوك بأعينهم ويهلكوك، من قولهم نظر إلي نظرًا كاد يصرعني قال ابن كثير: وفي الآية دليل على أن العين وإصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عَزَّ وَجَلَّ، ويؤيده حديث «لَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ»[٣] ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٌ﴾ أي حين سمعوك تقرأ القرآن، ويقولون من شدة بغضهم وحسدهم لك إن محمدًا مجنون، قال تعالى ردًّا عليهم ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٌ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي وما هذا القرآن المعجز إلا موعظة وتذكير للإنس والجن، فكيف ينسب من نزل عليه إلى الجنون؟! ختم تعالى السورة ببيان عظمة القرآن، كما بدأها ببيان عظمة الرسول، ليتناسق البدء مع الختام في أروع بيان وأجمل ختام.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من الفصاحة والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الجناس الناقص بين لفظي ﴿لَمَجۡنُونٌ﴾ و ﴿مَمۡنُونٍ﴾ لا ختلاف الحرف الثاني.

٢ - الوعيد والتهديد ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ وحذف المفعول للتهويل.

٣ - صيغ المبالغة في ﴿حَلَّافٍ، هَمَّازٍ، مَّشَّآءِۭ، مَّنَّاعٍ﴾ وكذلك في ﴿أَثِيمٍ.. زَنِيمٍ﴾.

٤ - الاستعارة القائمة ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ استعار الخرطوم للأنف لأن أصل الخرطوم للفيل، واستعارته لأنف الإنسان تجعله في غاية الإبداع لأن الغرض الاستهانة به والاستخفاف.

٥ - الطباق بين ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ وبين ﴿ضَلَّ.. بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

---

(١) «تفسير الخازن»٤/ ١٤٠.

(٢) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٩٩.

(٣) الحديث رواه أحمد والترمذي قال الترمذي: حسن صحيح. (ش): ورَوَاهُ مُسْلِمٌ.

٦ - جناس الاشتقاق ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾.

٧ - التقريع والتوبيخ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾؟ والجُمَل التي بعدها.

٨ - التشبيه المقلوب بجعل المشبه به مشبهًا والعكس ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾؟ لأن الأصل أفنجعل المجرمين كالمسلمين في الأجر والمثوبة؟ فقلب التشبيه ليكون أبلغ وأروع.

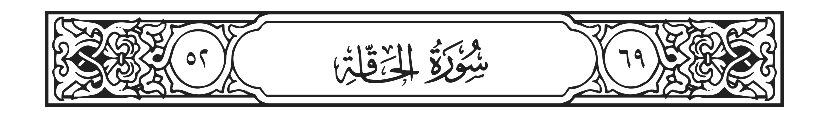
٩ - الكناية الرائقة الفائقة ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ كناية عن شدة الهول، وتفاقم الخطب يوم القيامة[1].

١٠ - السجع المرصع المحبوك، كأنه الدر المنظوم اقرأ الآيات الكريمة ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ إلخ وتدبر روعة القرآن!

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القلم»

❀ ❀ ❀ ❀

(١) (ش): تقدم أن هناك قولين في تفسير الآية: القول الأول: أن المراد بها شدة الهول يوم القيامة، وعليه فليست من آيات الصفات. والقول الثاني: أن المراد في الآية هنا أن الله يكشف عن ساقِه، ويدل على هذا قولُ النبي ﷺ: «يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِئَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا» (رواه البخاري ومسلم).



مكية وآياتها ثنتان وخمسون

بين يدي السورة

* سورة الحاقة من السور المكية، شأنها شأن سائر السور المكية في تثبيت العقيدة والإيمان، وقد تناولت أمورًا عديدة كالحديث عن القيامة وأهوالها، والساعة وشدائدها، والحديث عن المكذبين وما جرى لهم، مثل قوم عاد، وثمود، وقوم لوط، وفرعون، وقوم نوح، وغيرهم من الطغاة المفسدين في الأرض، كما تناولت ذكر السعداء والأشقياء، ولكن المحور الذي تدور عليه السورة هو «إثبات صدق» القرآن وأنه كلام الحكيم العليم، وبراءة الرسول ﷺ مما اتهم به أهل الضلال.

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان أهوال القيامة والمكذبين بها، وما عاقب تعالى به أهل الكفر والعناد ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ..﴾ الآيات.

* ثم تناولت الوقائع والفجائع التي تكون عند النفخ في الصور، من خراب العالم، واندكاك الجبال، وانشقاق السماوات إلخ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ الآيات.

* ثم ذكرت حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم المفزع، حيث يعطى المؤمن كتابه بيمينه، ويلقى الإكرام والإنعام، ويعطى الكافر كتابه بشماله ويلقى الذل والهوان ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ .. وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ ..﴾ الآيات.

* وبعد هذا العرض لأحوال الأبرار والفجار، جاء القسم البليغ بصدق الرسول، وصدق ما جاء به من الله، ورد افتراءات المشركين الذين زعموا أن القرآن سحر أو كهانة ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

* ثم ذكرت البرهان القاطع على صدق القرآن، وأمانة الرسول ﷺ في تبليغه الوحي كما نزل عليه، بذلك التصوير الذي يهز القلب هزًا، ويثير في النفس الخوف والفزع من هول الموضوع ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ...﴾ الآيات.

* وختمت السورة بتمجيد القرآن وبيان أنه رحمة للمؤمنين وحسرة على الكافرين ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ

اللغَة: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ القيامة سُمِّيت حاقة لأنها حَقٌّ، مقطوعٌ بوقوعها ﴿صَرْصَرٍ﴾ شديدة الصوت والبرد ﴿حُسُومًا﴾ متتابعة لا تنقطع من الحسم وهو القطع قال الشاعر:

فَدَارَتْ عَلَيْهِمْ فَكَانَتْ حُسُومًا[1]

﴿رَّابِيَةً﴾ زائدة في الشِّدة والعذاب ﴿وَاهِيَةٌ﴾ ساقطة القوة، ضعيفة متراخية من قولهم: وهي البناء اذا ضعف وتداعى للسقوط ﴿هَآؤُمُ﴾ اسم فعل أمر بمعنى خذوا ﴿قُطُوفُهَا﴾ جمع قِطْف وهو ما يُجتَنَى من الثمر ويُقطَف ﴿غِسْلِينٍ﴾ صديد أهل النار قال الكلبي: هو ما يسيل من أهل النار من القيح والصديد والدم إذا عُذِّبوا فهو ﴿غِسْلِينٍ﴾ فِعْلين[2] من الغَسْل[3]

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣١٩.

(٢) (ش): أي على وزن فِعْلين.

(٣) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١١٦.

﴿ٱلْوَتِينَ﴾ عرق متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه ويسمى الأبهر وفي الحديث «مَا زَالَتْ أَكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدُنِي فَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أَبْهَرِى »[١] ﴿حَسْرَةٌ﴾ ندامة عظيمة.

التفسير: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ اسم للقيامة سميت بذلك لتحقق وقوعها، فهي حقٌّ قاطع، وأمر واقع، لا شك فيه ولا جدال ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾؟ التكرار لتفخيم شأنها، وتعظيم أمرها، وكان الأصل أن يقال: ما هي؟ ولكنه وضع الظاهر موضع الضمير زيادة في التعظيم والتهويل ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾؟ وما أعلمك يا محمد ما القيامة؟ إنك لا تعلمها إذ لم تعاينها، ولم تَرَ ما فيها من الأهوال، فإنها من العظم والشدة بحيث لا يحيط بها وصف ولا خيال[٢]، وهذا على طريقة العرب فإنهم إذا أرادوا تشويق المخاطب لأمرٍ أتوا بصيغة الاستفهام يقول: أتدري ماذا حدث؟ والآية من هذا القبيل زيادة في التعظيم والتهويل كأنه قال: إنها شيء مُريع وخَطْبٌ فظيع.. ثم بعد أن عَظَّم أمرَها وفخَّم شأنَها، ذكَر مَن كذَّب بها وما حلَّ بهم بسبب التكذيب، تذكيرًا لكفار مكة وتخويفًا لهم فقال ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ أي كذب قوم صالح، وقوم هود بالقيامة، التي تقرع القلوب بأهوالها ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ أي فأمَّا ثمود قوم صالح فأُهلكوا بالصيحة المدمرة، التي جاوزت الحدَّ في الشدة قال قتادة: هي الصيحة التي خرجت عن حدِّ كل صيحة[٣] ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي وأما قوم هود فأُهلكوا بالريح العاصفة ذات الصوت الشديد وهي الدَّبور وفي الحديث « نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ »[٤] ﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي متجاوزة الحدَّ في الهبوب والبرودة، كأنها عتت على خزانها فلم يتمكنوا من ضبطها[٥]، قال ابن عباس: ما أرسل الله من ريح قط إلا بمكيال، ولا أنزل قطرة قطُّ إلا بمكيال، إلا يوم نوح ويوم عاد، فإن الماء يوم نوح طغى على الخُزَّان فلم يكن لهم عليه سبيل ثم قرأ ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[٦] ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي سلَّطها الله عليهم

---

(١) نفس المرجع السابق ٣٠/ ١١٩. (ش): بهذا اللفظ رواه البزار، وابنُ سنِّي، وأبو نعيم في «الطب النبوي»، وصححه الألباني. ورواه البخاري بلفظ: «مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِى أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِى مِنْ ذَلِكَ السَّمِّ».

(٢) قال «أبو السعود»: والتكرار تأكيد لهولها وفظاعتها، ببيان خروجها عن دائرة علم المخلوقات، على معنى أن عظم شأنها ومدى هولها لا تكاد تبلغه دراية أحدٍ ولا وهمه.اهـ.

(٣) روي عن مجاهد أن معنى الآية أهلكوا بطغيانهم، والأول أرجح لمقابلته بعذاب عاد، «أبو السعود» ٥/ ١٨٨.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم. (ش): (نُصِرْتُ بِالصَّبَا) الصَّبَا: هي الريح الشرقية، الريح التي تهب من مشرق الشمس ونُصرَتُه بها ﷺ كانت يوم الخندق إذا أرسلها الله تعالى على الأحزاب باردة في ليلة شاتية فقلعَتْ خيامهم وأطفأت نيرانهم وقلبت قدورهم وكان ذلك سبب رجوعهم وانهزامهم. (وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ) الدَّبُورِ:هي الريح الغربية، الريح التي تهب من مغرب الشمس وبها كان هلاك قوم عاد كما قص علينا القرآن الكريم.

(٥) هذا قول علي وهو مروي عن الكلبي وابن عباس.

(٦) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٣٢، وقد رفعه القرطبي والصحيح أنه موقوف على ابن عباس. (ش): (رفعه القرطبي): =

سبع ليالٍ وثمانية أيام متتابعة لا تفتر ولا تنقطع ﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ﴾ أي فترى أيها المخاطب القوم في منازلهم موتى، لا حراك بهم ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ أي كأنهم أصول نخل متآكلة الأجواف قال المفسرون: كانت الريح تقطع رءوسهم كما تقطع رءوس النخل، وتدخُلُ من أفواههم وتخرج من أدبارهم حتى تصرعهم، فيصبحوا كالنخلة الخاوية الجوف ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾؟ أي فهل ترى أحدًا من بقاياهم؟ أو تجد لهم أثرًا؟ لقد هلكوا عن آخرهم كقوله تعالى ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡ﴾ ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ﴾ أي وجاء فرعون الجبار، ومن تقدَّمه من الأمم الطاغية التي كفرت برسلها ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ﴾ أي والأمم الذين انقلبت بهم ديارهم قرى قوم لوط حيث جعل الله عاليها سافلها قال الصاوي: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ﴾ أي المنقلبات وهي قرى قوم لوط، التي اقتلعها جبريل ورفعها على جناحه قرب السماء ثم قلبها، وكانت خمس قرى[(١)] ﴿بِٱلۡخَاطِئَةِ﴾ أي بالفَعْلة الخاطئة المنكرة، وهي الكفر والعصيان[(٢)] ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ﴾ أي فعصى فرعون رسول الله موسى، وعصى قوم لوطٍ رسولهم لوطًا ﴿فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً﴾ أي فأخذهم الله أخذةً زائدةً في الشدة، على عقوبات مَن سَبَقهم، كما أن جرائمهم زادت في القُبح والشناعة على سائر الكفار ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ أي لما تجاوز الماء حدَّه حتى علا كل شيء وارتفع فوقه حملناكم في السفينة ﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ﴾ أي لنجعل تلك الحادثة عظةً للناس وعبرة، تدل على انتقام الله ممن كذَّب رسله ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ أي وتحفظها وتذكرها أذن واعية للمواعظ، تنتفع بما تسمع قال القرطبي: والمقصود من قصص هذه الأمم وذِكْر ما حَلَّ بهم من العذاب، زجْرُ هذه الأمة عن الاقتداء بهم في معصية الرسول ﷺ[(٣)]، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ قال قتادة: الواعية هي التي عقلت عن الله وانتفعت بما سمعت من كتاب الله عزّ وجّل[(٤)]. ولما ذَكَر قصصَ المكذبين، أَتْبَعه بذِكْر أهوال القيامة وشدائدها فقال ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ أي فإذا نفَخ إِسرافيل في الصور نفخةً واحدة لخراب العالم قال ابن عباس: هي النفخة الأولى التي يحصل عنها خراب الدنيا ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي ورفعت الأرض والجبال عن أماكنها، فضُرِب بعضُها

= أي ذكره منسوبًا إلى النبي ص. وما ذكره القرطبي رواه أبو الشيخ الأصبهاني في «العظمة» بإسناد ضعيف. والكلام المنسوب لابن عباس رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف أيضًا.

(١) حاشية الصاوي ٤/ ٢٤٠.

(٢) وقال مجاهد: ﴿بِٱلۡخَاطِئَةِ﴾ أي بالذنوب والخطايا التي كانوا يفعلونها. (ش): فَعْلَة: اسم مرَّة من فعَلَ: كلمة يُشار بها إلى العمل المُستَنكَر.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٦٣.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٣٢٢.

ببعضٍ حتى تندقَّ وتتفتَّت وتصير كثيبًا مهيلًا[١] ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي ففي ذلك الحين قامت القيامة الكبرى، وحدثت الداهية العظمى ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي وانصدعت السماء فهي يومئذٍ ضعيفة مسترخية، ليس فيها تماسك ولا صلابة ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ أي والملائكة على أطرافها وجوانبها قال المفسرون: وذلك لأن السماء مسكن الملائكة، فاذا انشقت السماء وقفوا على أطرافها فزعًا مما داخلَهم من هوْلِ ذلك اليوم[٢]، ومن عظمة ذي الجلال، الكبير المتعال ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ أي ويحمل عرش الرحمن ثمانية من الملائكة العظام فوق رءوسهم وقال ابن عباس: ثمانية صفوفٍ من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله[٣] ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب، تعرضون على ملك الملوك ذي الجلال للحساب والجزاء، لا يخفى عليه منكم أحدٌ، ولا يغيب عنه سرٌّ من أسراركم، لأنه العالم بالظواهر والسرائر والضمائر ثم بَيَّن تعالى حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم فقال ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ أي فأما من أُعطي كتاب أعماله بيمينه لأنه من السعداء ﴿فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ أي فيقول ابتهاجًا وسرورًا: خذوا اقرءوا كتابي، والهاء في ﴿كِتَابِيَهْ﴾ هاء السكت[٤] وكذلك في ﴿حِسَابِيَهْ﴾ و ﴿مَالِيَهْ﴾ و ﴿سُلْطَانِيَهْ﴾ قال الرازي: ويدل قوله ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ على أنه بلغ الغاية في السرور، لأنه لما أُعطي كتابه بيمينه، علم أنه من الناجين ومن الفائزين بالنعيم، فأحب أن يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا بما ناله[٥] ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي إِني أيقنت وتحققت بأني سألقى حسابي وجزائي يوم القيامة، فأعددت له العدة من الإِيمان، والعمل الصالح قال الحسن: إِن المؤمن أحسن الظنَّ بربه فأحسن العمل، وإِنَّ المنافق أساء الظن بربه فأساء العمل[٦] وقال الضحاك: كل ظنٍ في القرآن من المؤمن فهو

---

(١) (ش): قال المؤلف في تفسير قوله تعالى في سورة المزمل: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾: أي وتصبح الجبال على صلابتها تلًّا من الرَّمل سائلًا متناثرًا، بعد أن كانت صلبة جامدة.

(٢) (ش): داخَلَ الأمرُ فُلانًا: تَسَرَّبَ إلى نفسه ووقَع فيها.

(٣) القول الأول قول ابن زيد وهو الأظهر، ويؤيده حديث «حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة قَوَاهم الله بأربعة آخرين فكانوا ثمانية» وانظر «تفسير الطبري» ٢٩/ ٣٨. (ش): هذا الحديث رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسنادٍ ضعيف.

(٤) (ش): هاءُ السَّكْت – وتسمى: هاء الاستراحة: هاءٌ تُضاف في نهاية الكلمة بعد حركةٍ طويلة أو قصيرة عند الوقف مثل: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].
(اقْتَدِهْ): اقْتَدِ. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ [القارعة: ١٠] (مَا هِيَهْ): مَا هِيَ. فناديتُ القبور فلَم يُجِبْنَهْ، (فلم يُجِبْنَهْ): فلَم يُجِبْنَ. غَامَتِ السَّماءُ وَلَمْ تَصْفُهْ. (وَلَمْ تصْفُهْ): لم تَصْفُ.
(عَمَّهْ؟): عَمَّ؟ (لِمَهْ؟): لِمَ؟ (فِيمَهْ؟): فِيمَ؟

(٥) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١١١.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٧٠.

يقين، ومن الكافر فهو شك[١].. قال تعالى مبينًا جزاءه ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي فهو في عيشة هنيئة مرضية، يرضى بها صاحبها، لما ورد في الصحيح «أنهم يعيشون فلا يموتون أبدًا، ويصحون فلا يمرضون أبدًا، وينعمون فلا يرون بؤسًا أبدًا»[٢] ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي في جنةٍ رفيعة القدر، وقصور عالية شاهقة ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي ثمارها قريبة، يتناولها القائم، والقاعد، والمضطجع قال في التسهيل: القطوف جمع قطف وهو ما يجتنى من الثمار ويقطف كالعنقود، روي أن العبد يأخذها بفمه من شجرها وهو قائم أو قاعد أو مضطجع[٣] ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أي يقال لهم تفضلًا وإنعامًا: كلوا واشربوا أكلًا وشربًا هنيئًا، بعيدًا عن كل أذى، سالمًا من كل مكروه ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة في الأيام الماضية يعني أيام الدنيا.. ولما ذكر حال السعداء أعقبه بذكر حال الأشقياء فقال ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ أي وأما من أعطي كتابه بشماله وهذه علامة الشقاوة والخسران ﴿فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ أي فيقول إذا رأى قبائح أعماله: يا ليتني لم أعط كتابي قال المفسرون: وذلك لما يحصل له من الخجل والافتضاح فيتمنى عندئذٍ أنه لم يعط كتاب أعماله، ويندم أشد الندم ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ أي ولم أعرف عظم حسابي وشدته، والاستفهام للتعظيم والتهويل ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ أي يا ليت الموتة الأولى التي مِتُّها في الدنيا، كانت القاطعة لحياتي، فلم أبعث بعدها ولم أُعذب قال قتادة: تمنى الموت[٤] ولم يكن شيء عنده أكره من الموت، لأنه رأى تلك الحالة أشنَع وأمَرَّ ممَّا ذاقه من الموت ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ أي ما نفعني مالي الذي جمعته ولا دفع عني من عذاب الله شيئًا ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ أي زال عني ملكي وسلطاني، ونسبي وجاهي، فلا معين لي ولا مجير، ولا صديق ولا نصير ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ أي يقول تعالى لزبانية جهنم: خذوا هذا المجرم الأثيم فشدوه بالأغلال قال القرطبي: فيبتدره مائة ألف ملك، ثم تجمع يده الى عنقه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَغُلُّوهُ﴾[٥] ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي ثم أَدْخِلوه النار العظيمة المتأجِّجة، ليَصْلَى حرَّها ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ أي ثم أدخلوه في سلسلةٍ حديدية طولها سبعون ذراعًا قال ابن عباس: بذراع الملَك، تدخل السلسلة من دبره،

---

(١) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٢) (ش): عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، حَدِّثْنَا عَنِ الْجَنَّةِ، مَا بِنَاؤُهَا؟ قَالَ: «لَبِنَةُ ذَهَبٍ وَلَبِنَةُ فِضَّةٍ، وَمِلَاطُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلَا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ» (رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني). (مِلاط): طينٌ يُجعل بين حجرين في البناء، مؤنة البناء. (أذْفَر): أي: طيِّب الريح.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٤٣. (ش): قال البَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ ﷺ في هذه الآية قطوفها دانية: «يتناول الرجل من فواكهها وهو نائم» (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد صحيح).

(٤) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٣٩.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٧٢.

وتخرج من حلْقه، ثم يجمع بين ناصيته وقدميه[١] والسلسلة هي حلق منتظمة، كل حلقة منها في حلقة، يلف بها حتى لا يستطيع حراكًا. لمّا بيَّن العذاب الشديد بيَّن سببه فقال ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي كان لا يصدِّق بوحدانية الله وعظمته[٢] قال في البحر: بدأ بأقوى أسباب تعذيبه وهو كفره بالله، وهو تعليلٌ مستأنف كأن قائلًا قال: لم يعذِّب هذا العذاب البليغ؟ فأجيب إنه كان لا يؤمن بالله[٣] ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ أي ولا يحُثُّ نفسه ولا غيره على إطعام المسكين قال المفسرون: ذكر الحضَّ دون الفعل للتنبيه على أن تارك الحض بهذه المنزلة، فكيف بتارك الإحسان والصدقة؟ ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ﴾ أي فليس له في الآخرة صديق يدفع عنه العذاب، لأن الأصدقاء يتحاشَوْنه، ويفرُّون منه ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾ أي وليس له طعام إلا صديد أهل النار، الذي يسيل من جراحاتهم[٤] ﴿لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ أي لا يأكله إلا الآثمون المجرمون المرتكبون للخطايا والآثام قال المفسرون: ﴿ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ جمع خاطئ وهو الذي يتعمَّد الذنب، والمخطئ الذي يفعل الشيء خطأً دون قصد، ولهذا قال ﴿ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ ولم يقل المخطئون.. ولما ذكر أحوال السعداء من أهل الجنة، ثم أحوال الأشقياء من أهل النار، ختم الكلام بتعظيم القرآن فقال ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ أي فأقسم بالمشاهدات والمغيبات، أُقسم بما ترونه وما لا ترونه، مما هو واقعٌ تحت الأبصار، وما غاب وخفي عن الأنظار[٥]، و ﴿لَا﴾ في قوله ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ لتأكيد القسم وليست نافية[٦] قال الإمام الفخر: والآية تدل على العموم والشمول، لأنها لا تخرج عن قسمين: مبصرٍ وغير مبصر، فشملت الخالق والخلق، والدنيا والآخرة، والأجسام والأرواح، والإنس والجن، والنعم الظاهرة والباطنة[٧] قال قتادة: هو عام في جميع مخلوقاته جلَّ وعلا، وقال عطاء: ما تبصرون

---

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١١٤، وقال الحسن: الله أعلم بأي ذراع هو؟.

(٢) (ش): تفسيرُ الإيمان بالتصديق تفسيرٌ قاصر ومخالفٌ لِمَا عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٣٢٦.

(٤) نقله الطبري عن ابن عباس، وقال قتادة: شرُّ الطعام وأخبثه وأبشعه.

(٥) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ ». وَفِي رِوَايَةٍ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ » (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ ابْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلاَ، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم).

(٦) هذا هو القول الراجح بدليل ذكر جواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ وقيل: إنها نافية كأنه قال: لا يحتاج الأمر إلى قسم لوضوح الحق وسطوعه.

(٧) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ١١٦.

من آثار القدرة، وما لا تبصرون من أسرار القدرة[١] ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ أي إن هذا القرآن لكلام الرحمن، يتْلوه ويقرؤه رسولٌ كريم، هو محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم قال القرطبي: والرسول ههنا محمد ﷺ ونسب القول إليه لأنه تاليه ومُبَلِّغُه عن الله تعالى[٢] ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖ﴾ أي وليس القرآن كلام شاعر كما تزعمون، لأنه مُبَاينٌ لأوزان الشعر كلها[٣]، فليس شعرًا ولا نثرًا ﴿قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾ أي قلَّما تؤمنون بهذا القرآن قال مقاتل: يعني بالقليل أنهم لا يصدقون بأن القرآن من الله، بمعنى لا يؤمنون به أصلًا، والعرب تقول: قلَّما يأتينا يريدون لا يأتينا[٤] ﴿وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖ﴾ أي وليس هو بقول كاهنٍ يدعي معرفة الغيب، لأن القرآن يُغاير بأسلوبه سجع الكهان[٥] ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي قلَّما تتذكرون وتتعظون ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي هو تنزيلٌ من ربِّ العزة جل وعلا كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء] والغرض من الآية تبرئة الرسول ﷺ مما نسبه إليه المشركون من دعوى السحر والكهانة، ثم أكَّد ذلك بأعظم برهان على أن القرآن من عند الله فقال ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾ أي لو اختلقَ محمدٌ الأقوال، ونسبَ إلينا ما لم نَقُلْه ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾ أي لانتقَمْنا منه بقُوَّتنا وقُدرتنا[٦] ﴿ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾

---

(١) «تفسير الألوسي» ٢٩/ ٥٢.

(٢) القرطبي ١٨/ ٢٧٤.

(٣) (ش): مُبَاينٌ: مُخَالِفٌ.

(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١١٧.

(٥) (ش): يُغَاير: يُخَالِف.

(٦) هذا قول ابن عباس ومجاهد. (ش): قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٣/ ٥٩٢ -٥٩٣): ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾ يقول: لأخَذْنا منه بالقوة منا والقدرة، ثم لَقطعنا منه نِيَاط القلب، وإنما يعني بذلك أنه كان يعاجله بالعقوبة، ولا يؤخره بها. وقد قيل: إن معنى قوله: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾: لأخذنا منه باليد اليمنى من يديه؛ قالوا: وإنما ذلك مَثَلٌ، ومعناه: إنا كنا نذله ونهينه، ثم نقطع منه بعد ذلك الوتين، قالوا: وإنما ذلك كقول ذي السلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض من بين يديه لبعض أعوانه، خذ بيده فأَقِمْه، وافعل به كذا وكذا، قالوا: وكذلك معنى قوله: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾ أي لأَهَنَّاه كالذي يُفعَل بالذي وصَفْنا حالَه» اهـ. والنِياط: عِرقٌ غليظٌ ممتدٌّ من الرِّئتين ومتّصل بالقلب، فإذا قُطِعَ مات صاحبُه. وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/ ٢١٨): ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ لَانْتَقَمْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ؛ لِأَنَّهَا أَشَدُّ فِي الْبَطْشِ، وَقِيلَ: لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِيَمِينِهِ» اهـ. إذن في تفسير الآية قولان: ١- قول ينسب اليمين لله. ٢- قول يقول: إن معنى الآية: لأخذنا بيده اليمنى، والأخذ في الآية معناه الإهانة والإذلال. وليس في أحد القولين تأويل بمعناه الاصطلاحي أي: إخراج النص عن ظاهره، إذ كِلا القولين في تفسير الآية محتمَل من غير مرجِّحٍ لأحدهما، فيمكن أن يكون المعنى لأخذنا بيمينه أي بيمين العبد، ويمكن أن يقال لأخذنا منه باليمين، أي: بأيماننا، ويمكن أن يقال أن المراد بأيماننا أي: بأيدينا، ويمكن أن يكون المعنى مجازيًا بمعنى القوة والقدرة، وهذه الآراء سائغة في تفسير الآية، والقول بأنَّ هذه التفاسير تأويلٌ للنصِّ غيرُ صحيح، فإن دلالة النص غير قطعية ولا ظاهرة في معنى خاص، وإنما النص بذاته محتمَل، فالقول بأحد القولين السابقين في تفسير الآية ليس تأويلًا بالمعنى الإصطلاحي، وإنما هو من خلاف التنوع في التفسير. =

أي ثم لقطعنا نِيَاطَ قلبه[١] حتى يموت قال القرطبي: والوتين عرق يتعلق به القلب، إذا انقطع مات صاحبه[٢] والغرض أنه تعالى يعاجله بالعقوبة ولا يمهله، لو نسب إلى الله شيئًا ولو قليلاً، فإن تسمية الأقوال بالأقاويل للتصغير والتحقير ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أي فما يقدر أحد منكم أن يحجز بيننا وبينه، لو أردنا حينئذٍ عقوبته، ولا أن يدفع عنه عذابنا قال الخازن: المعنى: إن محمدًا لا يتكلم الكذب علينا لأجلكم، مع علمه أنه لو تكلم لَعَاقَبناه، ولا يقدر أحدٌ على دفع عقوبتنا عنه[٣] ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وإن هذا القرآن لعظةٌ للمؤمنين والمتقين الذين يخشون الله، وخصَّ المتقين بالذكر لأنهم المنتفعون به ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ أي ونحن نعلم أن منكم من يكذب بهذا القرآن مع وضوح آياته، ويزعم أنه أساطير الأولين، وفي الآية وعيدٌ لمن كذب بالقرآن[٤] ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي وإنه لحسرة عليهم في الآخرة، لأنهم يتأسفون إذا رأوا ثواب من آمن به ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي وإنه لَحَقٌّ يقينيٌّ لا يحوم حوله ريب، ولا يشك عاقل أنه كلام رب العالمين ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي فنزِّه ربك العظيم عن السوء والنقائص، واشكره على ما أعطاك من النعم العظيمة، التي من أعظمها نعمة القرآن.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من الفصاحة والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الإطناب بتكرار الاسم للتهويل والتعظيم ﴿الْحَاقَّةُ﴾ إلخ.

٢ - التفصيل بعد الإجمال زيادة في البيان ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ ثم فصله بقوله ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ﴾ الآية وفيه لف ونشر مرتب.

٣ - التشبيه المرسل المجمل ﴿فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه.

٤ - الاستعارة اللطيفة الفائقة ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ الطغيان من صفات الإنسان، فشبه ارتفاع الماء وكثرته، بطغيان الإنسان على الإنسان بطريق الاستعارة.

٥ - جناس الاشتقاق مثل ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ومثل ﴿لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

٦ - المقابلة البديعة ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ قابلها بقوله ﴿وَأَمَّا

= وقد ثبتت صفة اليد اليمنى لله بنصوص أخرى دالة على حقيقة اليد من القرآن والسُّنَّة الصحيحة. فقد وردت صفة اليد مضافة لله في آياتٍ كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فأثبتت هذه الآية صفة اليدين لله تعالى، ووصفتهما بالبسط دلالة على سعة الكرم والعطاء. وقوله تعالى: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾. والمسلم عند إثباته صفة اليد لله وغيرها يجب عليه تجنب كل سبيل لتخيُّل هذه الصفة أو تلك، فالله ليس كمثله شيء، وصفاته ليست كصفات المخلوقين.

(١) (ش): النِياط: عِرقٌ غليظٌ ممتدٌّ من الرِّئتين ومتّصل بالقلب، فإذا قُطِعَ مات صاحبُه.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٧٦.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ١٤٨.

(٤) الظاهر أن الضمير يعود إلى القرآن. وقال الطبري: وإن التكذيب لحسرة وندامة على الكافرين، وهو قول مقاتل.

مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ..﴾ الخ وهي من المحسنات البديعية.

٧ – طباق السلب ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾.

٨ – الكناية ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾ لفظ اليمين كناية عن القوة والقدرة[1].

٩ – توافق الفواصل مراعاةً لرءوس الآيات مثل ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ﴾ ومثل ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ ويسمى في علم البديع السجع المرصَّع والله أعلم.

تنبيه: روى الحافظ ابن كثير عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْه قال: خرجت أعترض سول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، قال فقلت في نفسي: هذا والله شاعر كما قالت قريش، فقرأ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾ فقلت: كاهن، فقرأ ﴿وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ الخ السورة، قال: فوقع في قلبي الإِسلام كل موقع، حتى هداني الله تعالى له.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحاقة»

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) (ش): راجع التعليق على تفسير الآية.

سُورَةُ المَعَارِج ٧٠ ٤٤

مكية وآياتها أربع وأربعون

بين يدي السورة

* سورة المعارج من السور المكية، التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية، وقد تناولت الحديث عن القيامة وأهوالها، والآخرة وما فيها من سعادة وشقاوة، وراحة ونصب، وعن أحوال المؤمنين والمجرمين، في دار الجزاء والخلود، والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث عن كفار مكة وإنكارهم للبعث والنشور، واستهزاؤهم بدعوة الرسول ﷺ.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن طغيان أهل مكة، وعن تمردهم على طاعة الرسول ﷺ، واستهزائهم بالإنذار والعذاب الذي خُوفوا به، وذكرت مثلًا لطغيانهم بما طلبه بعض صناديدهم وهو «النضر بن الحارث» حين دعا أن ينزل الله عليه وعلى قومه العذاب العاجل، ليستمتعوا به في الدنيا قبل الآخرة، وذلك مكابرة في الجحود والعناد ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ الآيات.

* ثم تناولت الحديث عن المجرمين في ذلك اليوم الفظيع الذي تنفطر فيه السماوات، وتتطاير فيه الجبال فتصير كالصوف الملون ألوانًا غريبة ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾.

* ثم استطردت السورة إلى ذكر طبيعة الإنسان، فإنه يجزع عند الشدة، ويبطر عند النعمة، فيمنع حق الفقير والمسكين ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾.

* ثم تحدثت عن المؤمنين وما اتصفوا به من جلائل الصفات، وفضائل الأخلاق، وبينت ما أعد الله لهم من عظيم الأجر في جنات الخلد والنعيم ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ۝٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ الآيات.

* ثم تناولت الكفرة المستهزئين بالرسول، الطامعين في دخول جنات النعيم ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ۝٣٦ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ۝٣٨ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾.

* وختمت السورة الكريمة بالقسم الجليل برب العالمين على أن البعث والجزاء حق لا ريب فيه، وعلى أن الله تعالى قادر على أن يخلق خيرًا منهم ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ...﴾ إلى قوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ

اللغة: ﴿ٱلْمَعَارِجِ﴾ المصاعد والمدارج التي يرتقي بها الإنسان جمع مِعْرَج وهو المصعد، والعروج الارتفاع إلى السماء ومنه معراج النبي ﷺ ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ النحاس المذاب ﴿كَٱلْعِهْنِ﴾ الصوف المنفوش ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ الفصيلة: العشيرة الذين فُصِل عنهم وتولَّد منهم ﴿لَظَىٰ﴾ اسم لجهنم سميت بذلك لأن نيرانها تتلظى؛ أي: تلتهب ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾ جمع شواة وهي جلدة الرأس قال الأعشى:

قَالَتْ قُتَيْلَةُ مَا لَهُ ... قَدْ جُلِّلَتْ شَيْبًا شَوَاتُهْ[1]

﴿هَلُوعًا﴾ كثير الجزع والضجر، قال أبو عبيدة: الهلوع هو الذي إذا مسَّه الخير لم يشكر، وإذا مسَّه الضر لم يصبر[2] ﴿عِزِينَ﴾ جماعات متفرقين جمع عِزَة وهي الجماعة المتفرقة قال الشاعر:

فَجَاءُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى ... يَكُونُوا حَوْلَ مِنْبَرِهِ عِزِينَا[3]

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ١٢٨. (ش): جُلِّلَتْ شَيْبًا شَوَاتُهُ: أي غَطَّى الشَّيْبُ جلدةَ رأسِه.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٩٠.

(٣) روح المعاني ٢٩/ ٦٤. (ش): يُهْرَعُونَ: يُسرِعون.

﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون يقال: أوفض البعير اذا أسرع السير[١].

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس أن النضر بن الحارث قال حين خوَّفهم رسول الله ﷺ من عذاب الله ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] فأنزل الله ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾[٢].

التفسِير: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي دعا داعٍ من كفار مكة لنفسه ولقومه عذاب واقع لا محالة قال المفسرون: السائل هو «النضر بن الحارث» من صناديد قريش وطواغيتها، لمَّا خوفهم رسول الله عذاب الله قال ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] فأهلكه الله يوم بدر، ومات شر ميتة، ونزلت الآية بذمه ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي دعا بهذا العذاب على الكافرين ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ أي لا رادَّ له إذا أراد الله وقوعه، وهو نازل بهم لا محالة، سواءً طلبوه أو لم يطلبوه، وإذا نزل العذاب فلن يرفع أو يُدفع ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي هو صادر من الله العظيم الجليل، صاحب المصاعد التي تصعد بها الملائكة، وتنزل بأمره ووحيه، ثم فصَّل ذلك بقوله ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي تصعد الملائكة الأبرار وجبريل الأمين[٣] الذي خصه الله بالوحي إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي في يوم طوله خمسون ألف سنة من سِنِي الدنيا[٤] قال ابن عباس: هو يوم القيامة جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ثم يدخلون النار للاستقرار[٥] قال المفسرون: الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في سورة السجدة ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] أن القيامة مواقف ومواطن، فيها خمسون موطنًا كل موطن ألف سنة، وأن هذه المدة الطويلة تخف على المؤمن حتى تكون أخفَّ عليه من صلاة مكتوبة[٦] ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أي فاصبر يا محمد على استهزاء قومك وأذاهم ولا

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٣٢.

(٢) (ش): عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما–؛ قال في قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾: «هو النضر بن الحارث بن كلدة». (حسن، رواه النسائي في «تفسيره»، والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي).

(٣) إنما أفرد جبريل بالذكر وإن كان من جملة الملائكة لشرفه وفضل منزلته، وهو المسمى بالروح لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾.

(٤) (ش): حُذفت النون للإضافة. فكلمة «سنون» تُرفع بالواو، وتنصب وتجر بالياء، لأنها ملحقة بجمع المذكر السالم، وذهب قومٌ منهم الفراء إلى أنه يجوز في سنين أن تلزمها الياء ويكون الإعراب على النون فتقول: هذه سنينٌ، ورأيت سنينًا، ومررت بسنينٍ. وهي لغة غير مشهورة.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٨٢.

(٦) أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قيل: يا رسول الله ما أطول هذا اليوم! فقال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا». (ش): رواه أحمد وابن حبان بإسناد ضعيف. (ش): ورد في سورة الحج قوله تعالى ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وفي سورة السجدة ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وفي سورة المعارج =

تضجر، فإن الله ناصرك عليهم، وهذا تسليةٌ له عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ، لأن استعجال العذاب إنما كان على وجه الاستهزاء برسول الله ﷺ فأمره الله بالصبر قال القرطبي: والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه، ولا شكوى لغير الله[1] ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ أي إن هؤلاء المستهزئين يستبعدون العذاب ويعتقدون أنه غير نازل، لإنكارهم للبعث والحساب ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ أي ونحن نراه قريبًا لأن كل ما هو آتٍ قريب. ثم أخبر تعالى عن هول العذاب وشدته وعن أهوال يوم القيامة فقال ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ أي تكون السماء سائلة غير متماسكة، كالرصاص المذاب قال ابن عباس: كَدُرْدِيِّ الزَّيْتِ أي كَعَكَرِ الزَّيْتِ[2] ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ أي وتكون الجبال متناثرة متطايرة، كالصوف المنفوش إذا طَيَّرَتْهُ الريح قال القرطبي: العهن الصوف الأحمر أو ذو الألوان، شبَّه الجبال به في تلونها ألوانًا، وأول ما تتغير الجبال تصير رملًا مهيلًا، ثم عهنًا منفوشًا، ثم هباءً منثورًا[3].. هذه حال السماء والأرض في ذلك اليوم المفزع، أما حال الخلائق فهي كما قال تعالى ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي لا يسأل صديق صديقه، ولا قريب قريبه عن شأنه، لشغل كل إنسانٍ بنفسه، وذلك لشدة ما يحيط بهم من الهول والفزع ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي يرونهم ويعرفونهم، حتى يرى الرجل أباه وأخاه وقرابته وعشيرته، فلا يسأله ولا يكلمه بل يفر منه كقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧] قال ابن عباس: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي يعرف بعضهم بعضًا ويتعارفون بينهم، ثم يفرُّ بعضهم من بعض[4] ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ أي يتمنى الكافر مرتكب جريمة الجحود والتكذيب لو يفدي نفسه من عذاب الله، بأعز من كان عليه في الدنيا من ابنٍ، وزوجةٍ، وأخٍ ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ أي وعشيرته التي كانت تضمه إليها،

= ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، وقد كثرت أقوال أهل التفسير في تحديد هذه الأيام وأحسن ما يقال فيها إن اليوم الذي ذُكِر في سورة الحج هو عبارة عن الزمان وتقديره عند الله، وأن آية السجدة هي في نزول الملائكة بالأمر وعروجهم به في الدنيا، وإن آية المعارج هي في يوم القيامة. قَالَ رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وآله وسلم -: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْم كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(١) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٨٤.

(٢) وهذا قول مجاهد كذا في «الطبري» ٢٦/ ٤٦. (ش): (عَكَرُ الزَّيْتِ): الدَّنَسُ والدرن الذي تحت الزيت.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٨٥. (ش): قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤] أي رمْلًا سائلا متناثرًا. وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] أي كالصوف متعدد الألوان الذي يُنْفَش باليد، فيصير هبَاء ويزُول. وقال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥، ٦] وفُتِّتَتْ الجبال تفتيتًا دقيقًا، فصارت غبارًا متطايرًا في الجو قد ذَرَتْه الريح.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٦/ ٤٦.

ويتكل في نوائبه عليها، وليس هذا فحسب بل يتمنى لو يفتدي بجميع أهل الأرض ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ أي وبجميع من في الأرض من البشر وغيرهم ثم ينجو من عذاب الله، ولكن هيهات أن ينجو المجرم من العذاب، أو ينقذه ذلك من شدة الكرب، وفادح الخطب، قال الإمام الفخر: ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإنجاء يعني يتمنى لو كان هؤلاء جميعًا تحت يده، وبذلهم في فداء نفسه ثم ينجيه ذلك، وهيهات أن ينجيه[1] ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ أداة زجر وتعنيف أي لينزجر هذا الكافر الأثيم وليرتدع عن هذه الأماني، فليس ينجيه من عذاب الله فداء، بل أمامه جهنم، تتلظَّى نيرانها وتلتهب ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ أي تنزع بشدة حرها جلدة الرأس[2] من الإنسان كلما قلعت عادت كما كانت زيادة في التنكيل والعذاب، وخصَّها بالذكر لأنها أشد الجسم حساسيةً وتأثرًا بالنار ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي تنادي جهنم وتهتف بمن كذب بالرحمن، وأعرض عن الإيمان، قال ابن عباس: تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح تقول: إليَّ يا كافر، إليَّ يا منافق، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب[3] ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ أي وتدعو من جمع المال وخبأه وكنزه في الخزائن والصناديق، ولم يؤد منه حقَّ الله وحق المساكين قال المفسرون: والآية وعيدٌ شديد لمن يبخل بالمال، ويحرص على جمعه، فلا ينفقه في سبيل الخير، ولا يخرج منه حق الله وحقَّ المسكين، وقد كان الحسن البصري يقول: يا ابن آدم سمعتَ وعيدَ الله ثم وعيت الدنيا جمعتها من حلالٍ وحرام!! ثم أخبر تعالى عن طبيعة الإنسان، وما جبل عليه من الحرص الشديد على جمع حطام الدنيا فقال ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي إن الإنسان جبل على الضجر، لا يصبر على بلاء، ولا يشكر على نعماء قال المفسرون: الهلع: شدة الحرص وقلة الصبر، يقال: جاعَ فهَلِعَ[4]، والمراد بالإنسان العموم بدليل الاستثناء، والاستثناء معيار العموم، ثم فسَّره تعالى بقوله ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ أي إذا نزل به مكروه من فقر، أو مرض، أو خوف، كان مبالغًا في الجزع مكثرًا منه، واستولى عليه اليأس والقنوط ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أي وإذا أصابه خيرٌ من غنى، وصحة وسعة رزق كان مبالغًا في المنع والإمساك، فهو إذا أصابه الفقر لم يصبر، وإذا أغناه الله لم ينفق قال ابن كيسان: خلق الله الإنسان يحب ما يسره، ويهرب مما يكرهه، ثم تعبَّده بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكره[5] ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ استثناهم من أفراد البشر الموصوفين بالهلع، لأن صلاتهم تحملهم

---

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٢٧.

(٢) هذا قول ابن عباس وقال مقاتل: تنزع لنَّارُ الهامَة والأطراف فلا تترك لحمًا ولا جِلدًا إلا أحرقَتْه.

(ش): الهامة: الرَّأس.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٨٩.

(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٢٨.

(٥) «تفسير البغوي» ٤/ ١٥١.

على قلة الاكتراث بالدنيا، فلا يجزعون من شرها ولا يبخلون بخيرها ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ أي مواظبون على أداء الصلاة، لا يشغلهم عنها شاغل، لأن نفوسهم صَفَتْ من أكدار الحياة، بتعرضهم لنفحات الله ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾ أي في أموالهم نصيبٌ معيَّن فرضه الله عليهم وهو الزكاة ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ أي للفقير الذي يسأل ويتكفف الناس، والمحروم الذي يتعفف عن السؤال، فيُظَنُّ أنه غني فيُحرَم كقوله تعالى ﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي يؤمنون بيوم الحساب والجزاء، ويصدِّقون بمجيئه تصديقًا جازمًا لا يشوبه شك أو ارتياب، فيستعدون له بالأعمال الصالحة ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ أي خائفون على أنفسهم من عذاب الله، يرجون الثواب ويخافون العقاب ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ أي لأن عذاب الله لا ينبغي أن يأمنه إنسان، إلاَّ من أمنَّه الرحمن والأمور بخواتيمها.. إنَّ هؤلاء المصدقين المشفقين قلَّما تَزدَهِيهم الدنيا، أو يُبْطِرهم نعيمها[١]، أو يجزعون على ما فاتهم من حطامها، فسواءٌ عليهم أخسروا حظوظ الدنيا أم غنموا، إذ إن لديهم من الفكر في جلال ربهم، وذِكْر مَعادهم، ما يشغلهم عن الجزع إذا مسَّهم الشر، ويربأُ بهم عن المنع[٢] إذا مسهم الخير، ثم ذكر تعالى الفريق الخامس من الموفقين للخيرات وفعل الطاعات فقال ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ أي أعِفَّاء[٣] لا يرتكبون المحارم، ولا يتلوثون بالمآثم، قد صانوا أنفسهم عن الزنى والفواحش ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ أي يقتصرون على ما أحلَّ الله لهم من الزوجات المنكوحات، والرقيقات المملوكات ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ أي فإنهم غير مؤاخَذين لأن وضع الشهوة فيما أباح الله من الزوجات والمملوكات، حلالٌ يُؤْجَر عليه الإنسان، لما فيه من تكثير النسل والذرية[٤]

---

(١) (ش): ازدهَى الشَّخصَ: حَمَلَه على العُجْب. أبطرهُ المالُ ونحوُه: جعله متكبِّرًا طاغيًا، جعله يغالِي في زهْوه واستخفافِه ويتغطرس.

(٢) (ش): أي يرفعُهم ويُنزِّهُهم عن المنع.

(٣) (ش): جمع عفيف.

(٤) (ش): عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ. قَالَ «أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ قَالَ «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). الدُّثُورُ: جَمْعُ دَثْرٍ، وَهُوَ الْمَالُ الْكَثِيرُ. (وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ) الْبُضْعُ يُطْلَقُ عَلَى الْجِمَاعِ وَيُطْلَقُ عَلَى الْفَرْجِ نَفْسِهِ وَكِلَاهُمَا تَصِحُّ إِرَادَتُهُ هُنَا، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُبَاحَاتِ تَصِيرُ طَاعَاتٍ بِالنِّيَّاتِ الصَّادِقَاتِ فَالْجِمَاعُ يَكُونُ عِبَادَةً إِذَا نَوَى بِهِ قَضَاءَ حَقِّ الزَّوْجَةِ وَمُعَاشَرَتَهَا بِالْمَعْرُوفِ الَّذِي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ أَوْ طَلَبَ وَلَدٍ صَالِحٍ أَوْ إِعْفَافَ نَفْسِهِ أَوْ إِعْفَافَ الزَّوْجَةِ وَمَنْعَهُمَا جَمِيعًا مِنَ النَّظَرِ إِلَى حَرَامٍ أَوِ الْفِكْرِ فِيهِ أَوِ الْهَمِّ بِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الصَّالِحَةِ. [انظر: شرح النووي على مسلم (٧/ ٩١- ٩٢)].

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي فمن طلب لقضاء شهوته غير الزوجات والمملوكات، فقد تعدَّى حدود الله وعرَّض نفسه لعذاب الله قال الطبري: من التمس لفرجه منكحًا سوى زوجته أو ملك يمينه، ففاعلوا ذلك هم العادون، الذين تعدوا حدود ما أحل الله لهم، إلى ما حرَّمه عليهم، فهم المَلُومون[1] ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ أي يؤدون الأمانات، ويحفظون العهود، فإذا ائتُمِنوا لم يخونوا، وإذا عاهَدوا لم يغْدُروا ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ أي يشهدون بالحق على القريب والبعيد، ولا يكتمون الشهادة ولا يغيرونها، بل يؤدونها على وجهها الكامل، بحيث تصان بها حقوق الناس ومصالحه، وخصَّها بالذكر مع اندراجها في الأمانات، تنبيهًا على فضلها لأن في إقامتها إحياء للحقوق، وفي تركها تضييع للحقوق ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ هذا هو الوصف الثامن من أوصاف المؤمنين الذين وفقهم الله إلى تطهير نفوسهم مِن خُلُق الهَلَع المذموم أي يراعون شرائط الصلاة ويلتزمون آدابها، ولا سيما الخشوع والتدبر ومراقبة الله فيها، وإلاَّ كانت حركات صورية لا يجنِي العبدُ ثمرتَها، فإن فائدة الصلاة أن تكُفَّ عن المحارم ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥][2] ولما كانت الصلاة عمود الإسلام بولغ في التوكيد فيها، فذكرت في أول الخصال الحميدة وفي آخرها، ليعلم مرتبتها في الأركان التي بني عليها الإسلام[3]، قال القرطبي: ذكر تعالى من أوصافهم في البدء ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ ثم قال في الختم ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ والدوام غير المحافظة، فدوامهم عليها أن يحافظوا على أدائها، لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيءٍ من الشواغل، ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها، ويقيموا أركانها، ويكملوها بسننها وآدابها، ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم، فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات، والمحافظة ترجع إلى أحوالها[4]، وبعد أن ذكر تعالى أوصاف المؤمنين المتقين، ذكر مآلهم وعاقبتهم فقال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ أي أولئك المتصفون بتلك

---

(١) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٥٣.

(٢) (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّ فُلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ، فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ قَالَ: «إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ» (رواه أحمد، وصححه الألباني).

أما حديث: «مَن لم تَنْهَهُ صلاتُه عن الفحشاء والمنكر لم يَزْدَدْ من الله إلا بُعدًا» أو «فلا صلاة له»، فحديث لا يثبت، وقد رواه الطبراني، وابن أبي حاتم، قال الألباني: «وهو مع اشتهاره على الألسنة لا يصح مِن قِبَل إسنادِه، ولا من جهة مَتْنه... فأنت ترى أن النبي ﷺ أخبر أن هذا الرجل سينتهي عن السرقة بسبب صلاته - إذا كانت على الوجه الأكمل طبعًا كالخشوع فيها والتدبر في قراءتها - ولم يقل: إنه « لا يزداد بها إلا بعدًا «مع أنه لَمَّا ينتهِ عن السرقة». [انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (١/ ٥٤، ٥٨)].

(٣) قال ابن كثير: افتتح تعالى الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها. اهـ. «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٥٠.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٩٢.

الأوصاف الجليلة، والمناقب الرفيعة، مستقرون في جنات النعيم، التي أكرمهم الله فيها بأنواع الكرامات، مع الإنعام والتكريم بأنواع المَلاذّ والمشتَهَيات، لاتِّصَافهم بمكارم الأخلاق ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾؟ أي ما لهؤلاء الكفرة المجرمين، مسرعين نحوك يا محمد، مادِّينَ أعناقهم إليك، مقبلين بأبصارهم عليك؟ قال المفسرون: كان المشركون يجتمعون حول النبي ﷺ حلقًا حلقًا، يسمعون كلامه ويستهزئون به وبأصحابه، ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم فنزلت الآية[1] ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي جالسين عن يمينك وعن شمالك فرقًا فرقًا، وجماعات جماعاتٍ يتحدثون ويتعجبون؟ قال أبو عبيدة: عزين أي جماعاتٍ جماعاتٍ في تفرقة، ومنه «مَا لِي أَرَاكُمْ عِزِينَ، أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا»[2] ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ﴾ استفهام إنكاري مع التقريع والتوبيخ، أي: أيطمع كل واحد من هؤلاء الكفار، أن يدخله الله جنات النعيم، وقد كَذَّب خاتمَ المرسلين؟ ﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجر أي ليس الأمر كما يطمعون، فإنهم لا يدخلونها أبدًا ثم قال ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ أي خلقناهم من الأشياء المستقذرة، من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، فمن أين يتشرفون بدخول جنات النعيم قبل المؤمنين، وليس لهم فضل يستوجبون به دخول الجنة؟ وإنما يستوجب دخول الجنة من أطاع الله قال القرطبي: كانوا يستهزئون بفقراء المسلمين ويتكبرون عليهم فقال تعالى ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ أي من القذر فلا يليق بهم هذا التكبر[3] ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ أي فأقسم برب مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي قادرون على إهلاكهم، واستبدالهم بقوم أفضل منهم وأطوع لله ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ أي ولسنا بعاجزين عن ذلك ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾ أي اتركهم يا محمد يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم، واشتغِلْ أنت بما أُمِرْتَ به، وهو أمرٌ على جهة الوعيد والتهديد للمشركين ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي حتى يلاقوا ذلك اليوم العصيب الرهيب، الذي لا ينفعهم فيه توبة ولا ندم ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا﴾ ويوم يخرجون من القبور إلى أرض المحشر مسرعين ﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ أي كأنهم يسعَون ويستبِقُون إلى أصنامهم التي نصبوها ليعبدوها، شبَّه حالة إسراعهم إلى موقف الحساب، بحالة إسراعهم وتسابقهم في الدنيا، إلى آلهتهم وطواغيتهم، وفي هذا التشبيه تهكُّمٌ بهم،

---

(١) انظر «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٩٥، و«تفسير الخازن» ٤/ ١٥٢.

(٢) «تفسير القرطبي» ٨/ ٢٩٣ والحديث أخرجه مسلم. (ش): عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ فَرَآنَا حِلَقًا فَقَالَ «مَا لِي أَرَاكُمْ عِزِينَ». قَالَ: ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا». فَقُلْنَا: «يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟». قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). (فَرَآنَا حِلَقًا) - بِكَسْرِ الْحَاءِ وَفَتْحِهَا- جَمْعُ حَلْقَةٍ.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٨/ ٢٩٤.

وتعريض بسخافة عقولهم، إذ عبدوا ما لا يستحق العبادة، وتركوا عبادة الواحد الأحد ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ أي خاضعة منكسرة أبصارهم إلى الأرض لا يرفعونها خجلًا من الله ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۚ﴾ أي يغشاهم الذل والهوان من كل مكان، وعلى وجوههم آثار الذلة والانكسار ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أي هذا هو اليوم الذي وعدوا به في الدنيا وكانوا يهزءون ويكذبون، فاليوم يرون عقابهم وجزاءهم!!

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿بَعِيدًا.. قَرِيبًا﴾ وبين ﴿ٱلۡيَمِينِ.. ٱلشِّمَالِ﴾ وبين ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ وكذلك ﴿ٱلۡمَعَارِجِ.. تَعۡرُجُ﴾.

٣ - ذكر الخاص بعد العام تنبيهًا لفضله وتشريفًا له ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ الورح هو جبريل.

٤ - التشبيه المرسل المجمل ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ لحذف وجه الشبه.

٥ - ذكر العام بعد الخاص ﴿لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ.. وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ جاء بالعموم بعد الخصوص لبيان هول الموقف.

٦ - المقابلة اللطيفة ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا﴾ قابله بقوله ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾.

٧ - الاستفهام الإنكاري للتقريع والتوبيخ ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ﴾؟

٨ - الكناية الفائقة الرائقة ﴿كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ كناية عن المني القذر، مع النزاهة التامة في التعبير، وحسن الإيقاظ والتذكير، بألطف عبارة وأبلغ إشارة.

٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ وفي تشبيههم بذلك تهكم بهم، وتعريض بسخافة عقولهم، وتسجيل عليهم بالجهل المشين بالإسراع في عبادة غير من يستحق العبادة.

١٠ - السجع المرصَّع كأنه الدر والياقوت مثل ﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ الخ.

تنبيه: نبَّه تعالى بقوله ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ الآيات. إلى طبائع البشر، فبيَّن أنَّ الإنسان يتسرع إلى مشتهاه، اتباعًا لهواه، وأنه مفرط في الهلع والجزع، فإن مسه خير شحت به نفسه، وإن نزل به شر اشتد له قلقه، ثم استثنى من ذلك الخُلُق الذميم أصنافًا من البشر، وهم الذين جمعوا مع الإيمان صالحَ الأعمال[1].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المعارج»

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) (ش): العمل الصالح من الإيمان، فهو داخلٌ في حقيقته، وعطفُه على الإيمان من عطفِ الخاص على العام اهتمامًا به، مثل قوله تعالى. ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾.



مكية وآياتها ثمان وعشرون

بين يدي السورة

* سورة نوح مكية، شأنها شان سائر السور المكية التي تعني بأصول العقيدة، وتثبيت قواعد الإيمان، وقد تناولت السورة تفصيلًا قصة شيخ الأنبياء «نوح» عليه السلام، من بدء دعوته حتى نهاية حادثة الطوفان، التي أغرق الله بها المكذبين من قومه، وهذا سميت «سورة نوح»، وفي السورة بيان لسنة الله تعالى في الأمم التي انحرفت عن دعوة الله، وبيان لعاقبة المرسلين، وعاقبة المجرمين، في شتى العصور والأزمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بإرسال الله تعالى لنوح عليه السلام، وتكليفه بتبليغ الدعوة وإنذار قومه من عذاب الله ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

* ثم ذكرت السورة جهاد نوح، وصبره، وتضحيته في سبيل تبليغ الدعوى، فقد دعا قومه ليلًا ونهارًا، وسرًا وجهارًا، فلم يزدهم ذلك إلا إمعانًا في الضلال والعصيان ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا﴾.

* ثم تابعت السورة تذكرهم بإنعام الله وإفضاله على لسان نوح عليه السلام، ليجدوا في طاعة الله، ويروا آثار قدرته ورحمته في هذا الكون ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾!!

* ومع كل هذا التذكير والنصح والإرشاد، فقد تمادى قومه في الكفر والضلال والعناد، واستخفوا بدعوة نبيهم نوح عليه السلام حتى أهلكهم الله بالطوفان ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ۝٢١ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ۝٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا ...﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بدعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك والدمار، بعد أن مكث فيهم تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى الله، فما لانت قلوبهم، ولا انتفعت بالتذكير والإنذار ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ۝٢٧ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا

اللغَة: ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟﴾ غطوا غشَّاه أي غطاه، والغشاء الغطاء ﴿مِّدْرَارًا﴾ غزيرًا متتابعًا ﴿أَطْوَارًا﴾ أحوالًا مختلفة طورًا بعد طور قال الشاعر:

وَالْمَرْءُ يُخْلَقُ طَوْرًا بَعْدَ أَطْوَارِ[1]

﴿فِجَاجًا﴾ واسعات جمع فج وهو الطريق الواسعة ﴿كُبَّارًا﴾ كبيرًا بالغ الغاية في الكِبَر ﴿دَيَّارًا﴾ أحدًا يدور أو يتحرك على ظهر الأرض ﴿تَبَارًا﴾ هلاكًا ودمارًا.

التفسِير: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ أي بعثنا شيخ الأنبياء نوحًا عليه السلام إلى سكان جزيرة العرب قال الألوسي: واشتهر أنه عليه السلام كان يسكن أرض الكوفة وهناك أرسل[2] ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي بأن خَوِّفْ قومَك وحَذِّرْهم إن لم يؤمنوا من عذاب شديد مؤلم، وهو عذاب الطوفان في الدنيا، وعذاب النار في الآخرة ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي فدعاهم إلى الله وقال لهم: إني لكم منذر، موضح لحقيقة الأمر، أُنذركم وأُخوفكم عذاب الله، فأمري واضح ودعوتي ظاهرة قال المفسرون: نوح عليه السلام أول نبي أرسل،

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٣٧.

(٢) روح المعاني ٢٩/ ٦٩.

ويقال له: شيخ المرسلين، لأنه أطولهم عمرًا فقد مكث في قومه كما قص القرآن الكريم ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] يدعوهم إلى الله، ومع طول هذه المدة لم يؤمن معه إلا قليل، وقد أفرد القرآن قصته في هذه السورة الكريمة التي تسمى «سورة نوح» من بدء الدعوة إلى نهايتها، حيث أهلك الله قومه بالطوفان، وهو أحد الرسل الكبار من أولي العزم وهم خمسة «نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد» صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد شاع الكفر في زمانه وذاع، واشتهر قومه بعبادة الأوثان، واكثروا من البغي والظلم والعصيان، فبعث الله لهم نوحًا عليه السلام وكان من خبرهم مع نبيهم ما قصه الله علينا في القرآن ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ أي فقال لهم: اعبدوا الله وحده، واتركوا محارمه، واجتنبوا مآثمه، وأطيعوني فيما أمرتكم به من طاعة الله، وترك عبادة الأوثان والأصنام ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي إنكم إن فعلتم ما أمرتكم به، يمح الله عنكم ذنوبكم التي اقترفتموها، وإنما قال ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي بعض ذنوبكم التي حصلت قبل الإسلام، لأن الإيمان يجب ما قبله من الذنوب لا ما بعده[1] ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ويمدّ في أعماركم إن أطعتم ربكم، إلى وقت مقدر ومقرر في علم الله تعالى، مع التمتع بالحياة السعيدة، والعيش الرغيد قال المفسرون: المراد بتأخير الأجل هو التأخير بلا عذاب، أي يمهلهم في الدنيا بدون عذاب إلى انتهاء آجالهم، وأما العمر فهو محدود لا يتقدم ولا يتأخر ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] ولهذا قال بعده ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ أي إن عمر الإنسان عند الله محدود، لا يزيد ولا ينقص، وإنما أضيف الأجل إلى الله سبحانه لأنه هو الذي كتبه وأثبته[2] ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لو كنتم تعلمون ذلك لسارعتم إلى الإيمان ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي قال نوح بعد أن بذل غاية الجهد، وضاقت عليه الحيل: يا رب إني دعوت قومي إلى الإيمان والطاعة، في الليل والنهار، من غير فتور ولا توانٍ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ أي فلم يزدهم دعائي لهم إلى الإيمان إلا هربًا، وشرودًا عن الحق، وإعراضًا عنه.

ثم وَصَف نفورَهم وصَوَّر إعراضَهم أبلغَ تصوير فقال ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي لـ لما دعوتهم إلى الإقرار بوحدانية الله والعمل بطاعته، ليكون سببًا في مغفرة ذنوبهم قال في التسهيل: ذكر المغفرة التي هي سبب عن الإيمان، والعمل بطاعته، ليكون سببًا في مغفرة ذنوبهم قال في التسهيل: ذكر المغفرة التي هي سبب عن الإيمان، ليظهر قبح إعراضهم عنه، فإنهم أعرضوا عن سعادتهم[3] ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا دعوتي

(١) هذا ما رجحه أبو حيان في البحر، واختار الطبري أن «من» ليست للتبعيض وإنما هي بمعنى «عن» أي يغفر لكم عن ذنوبكم بمعنى لكم جميع الذنوب، والأول أرجح.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٤٩.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٤٩.

﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ أي غطوا رءوسهم ووجوههم بثيابهم، لئلا يسمعوا كلامي أو يروني قال في البحر: والظاهر أن ذلك حقيقة، سدوا مسامعهم حتى لا يسمعوا ما دعاهم إليه، وتغطَّوا بثيابهم حتى لا ينظروا إليه، كراهة وبغضًا من سماع النصح ورؤية الناصح، ويجوز أن يكون ذلك كناية عن المبالغة في إعراضهم عمَّا دعاهم إليه، فهم بمنزلة من سد سمعه، ومنع بصره[١] ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ أي واستمروا على الكفر والطغيان، واستكبروا عن الإيمان استكبارًا عظيمًا، وفيه إشارة إلى فرط عنادهم، وغلوهم في الضلال ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا﴾ أي دعوتهم علنًا على رءوس الأشهاد، مجاهرًا بدعوتي لهم دون خوف أو تحفظ ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ أي أخبرتهم سرًا وعلنًا، خيفةً وجهرًا، وسلكت معهم كل طريق في الدعوة إليك قال المفسرون: والعطف بثُمَّ يشعر بأن الإعلان والإسرار الأخيرين، كانا طريقة ثالثة سلكها نوح في الدعوة، غير طريقة السر المحضة، وغير طريقة الجهر المحضة، فكان في الطريقة الثالثة يعلن لهم الدعوة مرة حيث يصلح الإعلان، ويسرها لهم أخرى حيث يتوقع نفع الإسرار، ثم وضح ما وعظهم به سرًا وعلانية فقال ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ أي آمِنوا باللهِ وتوبُوا عن الكفر والمعاصي، فإن ربكم تواب رحيم، يغفر الذنب ويقبل التوب ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ أي ينزل المطر عليكم غزيرًا متتابعًا، شديد الانسكَاب[٢] ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ أي يكثر أموالكم وأولادكم ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ أي ويجعل لكم الحدائق الفسيحة، ذات الأشجار المظلة المثمرة، ويجعل لكم الأنهار تجري خلالها.. أطمعهم نوح عليه السلام بالحصول على بركات السماء وبركات الأرض، إن هم آمنوا بالله الذي بيده مفاتيح هذه الخزائن، وأتاهم من طريق القلب لتحريك العواطف، ولبيان أن ما هم فيه من انحباس الأمطار، وما حرموه من الرزق والذرية، إنما سببه كفرهم بالله الذي بيده وحده إرسال المطر، وإغداق الرزق، والإمداد بالأموال والبنين، وأنه لا ينبغي لهم أن يكفروا بهذا الإله القادر، ويعبدوا آلهة أخرى اخترعوها، لا تضر ولا تنفع، ثم عاد فهزَّ نفوسهم هزًا، وعطفها نحو الإيمان بأسلوب آخر من أساليب البيان فقال ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ أي ما لكم أيها القوم لا تخافون عظمة الله وسلطانه، ولا ترهبون له جانبًا! قال ابن عباس: أي ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته[٣] ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ أي وقد خلقكم في أطوار مختلفة، وأدوار متباينة، طورًا نطفة، وطورًا علقة، وطورًا مضغة، إلى سائر الأحوال العجيبة، فتبارك الله أحسن الخالقين ثم نبههم إلى دلائل القدرة والوحدانية، المنبثة في هذا الكون الفسيح فقال

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٣٨.

(٢) (ش): انسَكَب الماءُ ونحوُه: انصَبَّ وسالَ.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٥٩.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي ألم تشاهدوا يا معشر القوم عظمة الله وقدرته، وتنظروا نظر اعتبار وتفكر وتدبر، كيف أن الله العظيم الجليل خلق سبع سموات سماء فوق سماء، متطابقة بعضها فوق بعض، وهي في غاية الإبداع والإتقان! ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي وجعل القمر في السماء الدنيا، منورًا لوجه الأرض في ظلمة الليل قال الإمام الفخر: القمر في السماء الدنيا وليس في السموات بأسرها، وهذا كما يقال: السلطان في العراق ليس المراد أن ذاته حاصلة في كل أنحائها، بل إن ذاته في حيز من جملة أنحاء العراق، فكذا ههنا[1] وقال في البحر: والقمر في السماء الدنيا، وصح كون السموات ظرفًا للقمر لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأ المظروف، تقول زيد في المدينة وهو في جزء منها[2] ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ أي وجعل الشمس مصباحًا مضيئًا يستضيء به أهل الدنيا كما يستضيء الناس بالسراج في بيوتهم، ولما كان نور الشمس أشدّ، وأتم، وأكمل في الانتفاع من نور القمر، عبر عن الشمس بالسراج لأنه يضيء بنفسه، وعبر عن القمر بالنور لأنه يستمد نوره من غيره، ويؤيده ما تقرر في علم الفلك من أن نور الشمس ذاتي فيها، ونور القمر عرضي مكتسب من نورها، فسبحان من أحاط بكل شيء علمًا ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ بعد أن ذكر دليل الآفاق، ذكر هنا دليل الأنفس، وذلك لأن في ذِكْر هذه الأمور، دلالة واضحة على عظمة الله، وقدرته وباهر مصنوعاته. والمعنى: خلقكم وأنشأكم من الأرض كما يَخرج النبات، وسَلَّكم من تراب الأرض كما يُسَلُّ النبات منها[3] قال المفسرون: لما كان إخراجهم وإنشاؤهم إنما يتم بتناولهم عناصر الغذاء الحيوانية والنباتية المستمدة من الأرض، كانوا من هذه الجهة مشابهين للنباتات التي تنمو بامتصاص غذائها من الأرض، فلذا سمى خلقهم وإنشاءهم إنباتًا، أو يكون ذلك إشارة إلى خلق آدم حيث خلق من تراب الأرض، ثم جاءت منه ذريته، فصح نسبتهم إلى أنهم أنبتوا من الأرض[4]

---

(١) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ١٤٠.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٣٤٠. أقول: ليس ثَمَّةَ نَصٌّ صريح على أن القمر داخل السماوات إلا هذا النص، وقد عرفتَ تأويله، وإذا كان القمر أقرب الكواكب إلى الأرض، وثبت بالنص القاطع أن الله تعالى جعل الكواكب زينة للسماء، وجعلها في السماء الدنيا: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ فإنه لا يُستبعد أن يصل الناس إلى القمر، لأنه دون السماء الأولى، كما وصلت إليه المركبة الفضائية في زماننا وكما أثبت العلم الحديث إمكان ذلك، فليس ثَمَّةَ محظورٌ ديني على غزو الكواكب والفضاء، وأما الوصول إلى السماء واختراقها فذلك أمر مستحيل ودونه خرط القتاد لأن الله تعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾. (ش): القَتاد: شجر صلب له شوك كالإبَر. والخرْط: التقطيع. دونه خَرْط القَتاد: مَثَلٌ يُضرب للشّيء لا يُنال إلاّ بمشقّة عظيمة.

(٣) (ش): سلَّ الشَّيءَ من الشَّيءِ: انتزعَه وأخرجَه برفق.

(٤) انظر ما كتبه العلامة أبو حيان في تفسيره «البحر المحيط» ٨/ ٣٤٠، وتفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربي ص ١٣١.

﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ أي يرجعكم إلى الأرض بعد موتكم فتدفنون فيها، ثم يخرجكم منها يوم البعث والحشر للحساب والجزاء، وأكده بالمصدر ﴿إِخْرَاجًا﴾ لبيان أن ذلك واقع لا محالة، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥] ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ أي جعلها فسيحة ممتدة ممهدة لكم، تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه قال في التسهيل: شبه الأرض بالبساط في امتدادها واستقرار الناس عليها، وأخذ بعضهم من الآية أنها غير كروية، وفي ذلك نظر[١] وقال الألوسي: وليس في الآية دلالة على أن الأرض مبسوطة غير كروية، لأن الكرة العظيمة يرى كل من عليها ما يليه مسطحًا، ثم إن اعتقاد الكرية أو عدمها ليس بلازم في الشريعة، لكن كريتها كالأمر اليقيني، ومعنى جعلها بساطًا أي تتقلبون عليها كالبساط[٢] ﴿ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ أي لتسلكوا في الأرض طرقًا واسعة في أسفاركم، وتنقُّلكم في أرجائها؟ ولما أصروا على العصيان، وقابلوه بأقبح الأقوال والأفعال، حكى عنهم ما قصه القرآن ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ﴾ أي إنهم بالغوا في تكذيبي وعصيان أمري ﴿ وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ أي واتَّبعوا أغنياءهم ورؤساءهم، الذين أَبْطَرَتْهم الأموال والأولاد[٣]، فهلكوا وخسروا سعادة الدارين، فصاروا أسوة لهم في الخسار ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ أي ومكر بهم الرؤساء مكرًا عظيمًا مُتَنَاهيًا في الكِبَر[٤] قال الألوسي: ﴿كُبَّارًا﴾ مبالغة في الكبر، أي: كبيرًا في الغاية، وذلك احتيالهم في الدين، وصدهم الناس عنه، وإغراؤهم وتحريضهم على أذية نوح عليه السلام[٥] ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ﴾ أي لا تتركوا عبادة الأوثان والأصنام، وتعبدوا رب نوح ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ أي ولا تتركوا على وجه الخصوص هذه الأصنام الخمسة ودًّا، وسواعًا، ويغوث، ويعوق، ونسرًا قال الصاوي: وهذه أسماء أصنام كانوا يعبدونها[٦]، وكانت أكبر أصنامهم وأعظمهم عندهم، ولذا خصوها بالذكر[٧]، وهذا من شدة كفرهم، وفرط تعنتهم في المكر والاحتيال، فقد كانوا يلبسون ثوب المتنصح المخلص، ويسلكون في تثبيت الضعفاء على عبادة الآباء شتى الأساليب في المكر والخداع ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ أي وقد

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٥١.

(٢) روح المعاني ٢٩/ ٧٦، وانظر ما كتبناه حول كروية الأرض في سورة لقمان من هذا التفسير.

(٣) (ش): أبطَرَهُ المالُ ونحوُه: جعله متكبِّرًا طاغيًا، جعله يُغالِي في زهْوه واستخفافِه ويتغطرس.

(٤) (ش): تَنَاهَى، تناهيًا، فهو مُتَنَاهٍ: بلغ نهايتَه. يُقَال: « مُتَنَاهٍ في الدِّقَّة/ مُتَنَاهٍ في الصِّغر».

(٥) «روح المعاني» ٢٩/ ٧٦.

(٦) (ش): هذه العبارة تخالف ما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن هذه أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِى كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ.

(٧) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٥١.

أضـل كبراؤهم خلقًا وناسًـا كثيرين، بما زينوا لهم من طرق الغوايـة والضلال، ثم دعا عليهم بالضـلال فقـال ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ أي ولا تزدهـم يـا رب على طغيانهـم وعدوانهم، إلا ضـلالًا فوق ضلالهم قال المفسـرون: دعا عليهم لما يئس مـن إيمانهم بإخبار الله له بقوله ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] فاستجاب الله دعاءه وأغرقهم، ولهذا قال تعالى ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ أي مـن أجل ذنوبهـم وإجرامهم، وإصرارهـم على الكفر والطغيان، أُغرِقوا بالطوفان وأُدخِلوا النيران، قال في التسهيل: وهذا من كلام الله تعالى إخبارًا عن أمرهم، و ﴿مَا﴾ في ﴿مِّمَّا﴾ زائدة للتأكيد[1]، وإنما قدم هذا المجرور للتأكيد أيضًا، ليبين أن إغراقهم وإدخالهم النار إنما كان بسـبب خطاياهم وهي الكفر وسائر المعاصي[2] ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي لـم يجـدوا من ينصرهم أو يدفع عنهم عذاب الله قال أبو السـعود: وفيـه تعريض باتخاذهـم آلهة من دون الله تعالى، وأنها غير قـادرة على نصرهم، وتهكم بهم[3] ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي لا تترك أحدًا على وجه الأرض من الكافرين قال في التسهيل: و﴿دَيَّارًا﴾ من الأسماء المستعملة في النفي العام يقال: ما في الدار دَيَّار أي ما فيهـا أحد[4] ثـم علل ذلك بقوله ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ أي إنك إن أبقيت منهم أحدًا، أضلـوا عبادك عن طريق الهـدى ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أي ولا يأتي من أصلابهم إلا كل فاجر وكافر قال الإمام الفخر: فإن قيل: كيف عرف نوح ذلك؟ قلنا بالاستقراء، فإنه لبث فيهم ألف سـنة إلا خمسـين عامًا، فعرف طباعهم وجربهم، وكان الرجل ينطلق بابنه إليه ويقول: يا بني احذر فإنه كذاب، وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية، فيموت الكبير وينشـأ الصغير على ذلك، فلذلك قال ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.. ولما دعا على الكفار أعقبه بالدعاء للمؤمنين فقال ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بدأ بنفسه ثم بأبويه، ثـم عمَّم لجميع المؤمنيـن والمؤمنات، ليكون ذلك أبلغ وأجمع ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ أي ولا تزد يا رب من جحد بآياتك وكذب رسلك، إلا هلاكًا وخسارًا في الدنيا والآخرة.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿أَعْلَنتُ.. وَأَسْرَرْتُ﴾ وبين ﴿جِهَارًا.. وإِسْرَارًا﴾ وبين ﴿لَيْلًا.. وَنَهَارًا﴾ وبين ﴿يُعِيدُكُمْ.. وَيُخْرِجُكُمْ﴾.

٢ - المجـاز المرسـل ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ المـراد رءوس الأصابـع فهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء.

---

(١) (ش): مِمَّا: من ما.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٥١.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٩٩.

(٤) «التسهيل» ٤/ ١٥١. (ش): الديَّار: ساكِن المنزل.

٣ - الاستعارة التبعية ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ شبه إنشاءهم وخلقهم في أدوار بالنبات الذي تخرجه الأرض، واشتق من لفظ النبات أنبتكم على طريق الاستعارة التعبية.

٤ - ذكر المصدر للتأكيد مثل ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ و﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ و﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ ويسمى هذا في علم البديع بالإطناب.

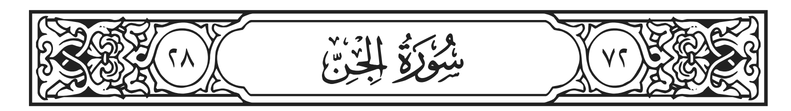
٥ - ذكر الخاص بعد العام ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ الآية وعكسه ذكر العام بعد الخاص ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وكلاهما من باب الإطناب، وهو من المحسنات البديعية.

٦ - السجع المرصع مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿مِّدْرَارًا، أَنْهَٰرًا، وَقَارًا، أَطْوَارًا﴾ إلخ.

فَائِدَة: استدل العلماء على عذاب القبر بقوله تعالى ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ قالوا: المراد بها نار القبر وعذابه، لأنه تعالى عطف بالفاء، والفاء تفيد الترتيب مع التعقيب، ونار الآخرة لم يذوقوها بعد، فدل على أن المراد عذاب القبر، وهو استدلال لطيف.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة نوح»





مكية وآياتها ثمان وعشرون

بين يدي السورة

* سورة الجن مكية وهي تعالج أصول العقيدة الإسلامية «الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء» ومحور السورة يدور حول الجن، وما يتعلق بهم من أمور خاصة، بدءًا من استماعهم للقرآن، إلى دخولهم في الإيمان، وقد تناولت السورة بعض الأنباء العجيبة الخاصة بهم، كاستراقهم للسمع، ورميهم بالشهب المحرقة، واطلاعهم على بعض الأسرار الغيبية، إلى غير ذلك من الأخبار المثيرة.

* ابتدأت السورة الكريمة بالإخبار عن استماع فريق من الجن للقرآن، وتأثرهم بما فيه من روعة البيان، حتى آمنوا به فور استماعه[1] ودعوا قومهم إلى الإيمان ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ الآيات.

* ثم انتقلت للحديث عن تمجيدهم وتنزيههم لله جل وعلا، وإفرادهم له بالعبادة، وتسفيههم لمن جعل لله ولدًا ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ الآيات.

* ثم تحدثت السورة عن استراق الجن للسمع، وإحاطة السماء بالحرس من الملائكة، وإرسال الشهب على الجن بعد بعثة رسول الله ﷺ، وتعجبهم من هذا الحديث الغريب ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا...﴾ الآيات.

* ثم تحدثت السورة عن انقسام الجن إلى فريقين: مؤمنين، وكافرين ومآل كل من الفريقين ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.

* ثم انتقلت للحديث عن دعوة رسول الله ﷺ، وعن التفاف الجن حوله حين سمعوه يتلو القرآن ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾.

* ثم أمرت الرسول عليه السلام بأن يعلن استسلامه وخضوعه لله، ويفرده جل وعلا بإخلاص العمل، وأن يتبرأ من الحول والطول ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾.

* وختمت السورة ببيان اختصاص الله جل وعلا بمعرفة الغيب، وإحاطته بعلم جميع ما

(١) (ش): آمنوا به فَوْرَ استماعِه: آمنوا به بعد استماعِه مُباشرةً.

في الكائنات ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا...﴾ الآيات إلى آخر السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ٦ وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا ٧ وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ٩ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ١٣ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ١٤ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ١٧ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩ قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٠ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ٢٤ قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا

اللغَة: ﴿ٱلرُّشۡدِ﴾ الحق والصواب ﴿جَدُّ﴾ الجَد لغةً: العظمة والجلال والسلطان يقال: جَدَّ فلانٌ في عيني، أي: عَظُم وجَلَّ، والجَد: الحظُّ، وأبو الأب ﴿حَرَسٗا﴾ جمع حارس أو اسم جمع كخدم يقال: حرس وحُراس، والحارس: الحافظ للشيء يرعاه ويرقبه ﴿قِدَدٗا﴾ متفرقة مختلفة جمع قِدَّة قال الشاعر:

إذْ هُمْ طَرَائِقُ فِي أَهْوَائِهِمْ قِدَدُ(١)

﴿غَدَقٗا﴾ كثيرًا واسعًا ﴿ٱلۡقَٰسِطُونَ﴾ الجائرون عن طريق الحق، يقال قسط الرجل إذا جار ﴿صَعَدٗا﴾ شاقًا يعلو الإنسان ويغلبه فلا يطيقه يقال: فلان في صعد من أمره أي في مشقة

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٤٤. (ش): أي فِرَقٌ شتى من الناس تختلف آراؤهم وأهواؤهم.

﴿يَسۡلُكۡهُ﴾ يُدْخِلْه ﴿لِبَدٗا﴾ متراكمين بعضهم فوق بعض يقال: تلبد الشيء أي تراكم بعضه فوق بعض ﴿مُلۡتَحَدًا﴾ ملجأ وحرزًا يتحصن به الإنسان.

التفسير: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ أي قل يا محمد لقومك: إن ربي أوحى إلى جماعة من الجن استمعوا لتلاوتي للقرآن، فآمنوا به وصدقوه وأسلموا ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ أي فقالوا لقومهم حين رجعوا إليهم: إنا سمعنا قرآنًا عجيبًا، مؤثرًا في حُسْن نَظْمه، وبلاغة أسلوبه، وما حَواه من بديع الحِكَم والعظات و ﴿عَجَبٗا﴾ مصدر وُصِف به للمبالغة قال المفسرون: استمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن في صلاة الفجر، ولم يشعر بهم ولا باستماعهم، وإنما أخبر به الرسول بواسطة الوحي[1] بدليل قوله ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ ويؤيده ما قصه الله على نبيه في سورة الأحقاف من خبرهم ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] والغرض من الإخبار عن استماع الجن، توبيخ وتقريع قريش والعرب في كونهم تباطئوا عن الإيمان، إذ كانت الجن خيرًا منهم وأسرع إلى الإيمان، فإنهم من حين ما سمعوا القرآن استعظموه وآمنوا

---

(١) هذا قول ابن عباس ويدل عليه ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس: « مَا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْجِنِّ وَمَا رَآهُمْ» الحديث، ورُوِيَ عن ابن مسعود خلافُه. (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِى طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ فَقَالُوا: «مَا لَكُمْ؟». فَقَالُوا: «حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ ». قَالُوا: «مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلاَّ مَا حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِى حَدَثَ». فَانْطَلَقُوا فَضَرَبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا يَنْظُرُونَ مَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِى حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. قَالَ: فَانْطَلَقَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِنَخْلَةَ، وَهْوَ عَامِدٌ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَهْوَ يُصَلِّى بِأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَسَمَّعُوا لَهُ فَقَالُوا: «هَذَا الَّذِى حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ». فَهُنَالِكَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: «يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا». وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ وَإِنَّمَا أُوحِىَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَفَقَدْنَاهُ فَالْتَمَسْنَاهُ فِى الأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ فَقُلْنَا اسْتُطِيرَ أَوِ اغْتِيلَ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءٍ مِنْ قِبَلِ حِرَاءٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ فَقَدْنَاكَ فَطَلَبْنَاكَ فَلَمْ نَجِدْكَ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ. فَقَالَ: « أَتَانِى دَاعِى الْجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ». قَالَ فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ وَسَأَلُوهُ الزَّادَ فَقَالَ « لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِى أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا وَكُلُّ بَعَرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ ». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَلاَ تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). الأودية: جمع الوادي وهو منفَرَج بين جبال أو تِلال يكون منفذًا للسيل. والشعاب: جمع الشِعب وهو فجوة أو انفراج بين جبلين، طريق أو ممرّ جبليّ. اسْتُطِيرَ: طَارَتْ بِهِ الْجِنُّ. اغْتِيلَ: قُتِلَ سِرًّا، وَالْغِيلَةُ هِيَ الْقَتْلُ فِي خُفْيَةٍ. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ٢٩١): «قَالَ الْحَافِظُ الْبَيْهَقِيُّ: «وَهَذَا الَّذِي حَكَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، إِنَّمَا هُوَ فِي أَوَّلِ مَا سَمِعَتِ الْجِنُّ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلِمَتْ حَالَهُ، وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَمْ يَقْرَأْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَرَهُمْ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَتَاهُ دَاعِي الْجِنِّ فَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، وَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ، عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا رَوَاهُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ».

ورجعوا إلى قومهم منذرين، بخلاف العرب الذين نزل بلسانهم، فإنهم كذبوا واستهزءوا وهم يعلمون أنه كلام مُعجِز، وأن محمدًا أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، وشتَّان ما بين موقف الإنس والجن! ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ أي يهدي هذا القرآن إلى الحق والرشاد والصواب فصدَّقنا به ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ أي ولن نعود إلى ما كنا عليه من الشرك، ولن نجعل لله شريكًا بعد اليوم من خلقه قال الخازن: وفي الآية دليل على أن أولئك النفر كانوا مشركين[١] ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي تعالت عظمة ربنا وجلاله ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أي ليس له زوجة ولا ولد، لأن الزوجةَ تُتَّخَذُ للحاجة، والولدَ للاستئناس، والله تعالى مُنَزَّه عن النقائص ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ أي وأن الأحمق الجاهل فينا كان ينسب إلى الله ما لا يليق بجلاله وقدسيته ويقول قولًا شططًا بعيدًا عن الحق وحَدِّ الاعتدال قال مجاهد: السفيه هو إبليس دعاهم إلى عبادة غير الله[٢] ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي كنا نظن أن أحدًا لن يكْذب على الله تعالى لا من الإنس ولا من الجن في نِسبة الصاحبة والولد إليه، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكْذبون على الله في ذلك[٣] قال الطبري: وإنما أنكر هؤلاء النفر من الجن أن تكون علمَتْ أن أحدًا يجترئ على الكذب على الله لما سمعت القرآن، لأنهم قبل أن يسمعوه وقبل أن يعلموا تكذيب الله للزاعمين لله الصاحبة والولد كانوا يحسبون أن إبليس صادق، فلما سمعوا القرآن أيقنوا أنه كان كاذبًا في ذلك فسموه سفيهًا[٤] ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي كان خلائق من الإنس يستجيرون برجال من الجن ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بهم إثمًا وطغيانًا، وعتوًا وضلالًا قال أبو السعود: كان الرجل إذا أمسى في واد قفر وخاف على نفسه قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه يريد الجن وكبيرهم، فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا: سُدْنا الإنس والجن، فزاد الرجال الجن تكبرًا وعتوًا، فذلك قوله ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[٥] ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ أي وأن كفار الإنس ظنوا كما ظننتم يا معشر الجن، أن الله لن يبعثُ أحدًا بعد الموت، فقد أنكروا البعث كما أنكرتموه أنتم[٦] ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ١٥٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٩.

(٣) هذا خلاصة رأي ابن كثير نقلناه مع شيء من التصرف.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٦٨.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٠٠.

(٦) هذا هو ظاهر من سياق الآيات أنه من كلام الجن لقومهم وهو اختيار الطبري، واختار بعض المفسرين أنه من الوحي الذي أوحاه الله إلى رسوله وأن المعنى: وأن الجن كانوا ينكرون البعث كإنكاركم يا معشر قريش، فلما سمعوا القرآن اهتدوا، فهلَّا اهتديتم؟

﴿شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ يقول الجن: وأنا طلبنا بلوغ السماء لاستماع كلام أهلها، فوجدناها قد ملئت بالملائكة الكثيرين الذين يحرسونها، وبالشهب المحرقة التي تقذف من يحاول الاقتراب منها ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ أي كنا قبل بعثة محمد نطرق السماء لنستمع إلى أخبارها ونلقيها إلى الكهان ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي فمن يحاول الآن استراق السمع، يجد شهابًا ينتظره بالمرصاد يحرقه ويُهلِكه ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا نعلم نحن معشر الجن ما الله فاعل بسكان الأرض، ولا نعلم هل امتلاء السماء بالحرس والشهب لعذاب يريد الله أن يُنْزِلَه بأهل الأرض؟ ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أي أم لخير يريده الله بهم، بأن يبعث فيهم رسولًا مرشدًا يرشدهم إلى الحق؟ وهذا من أدب الجن حيث نسبوا الخير إلى الله، ولم ينسبوا الشر إليه فقالوا ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ قال ابن كثير: وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك، وهذا هو الذي حملهم على تطلب السبب، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فرأوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا أن هذا هو الذي حُفِظَتْ من أجله السماء، فدنوا منه حرصًا على سماع القرآن ثم أسلموا[1] ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي منا قوم صالحون أبرار، عاملون بما يرضي الله، ومنا قوم ليسوا صلحاء قال في التسهيل: وأرادوا بقولهم ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي الذي ليس صلاحهم كاملًا، أو الذين ليس لهم صلاح[2] ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أي كنا فرقًا شتى، ومذاهب مختلفة، فمنا الصالح ومنا الطالح، وفينا التقي والشقي ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ أي علِمْنا وأَيْقَنَّا أن الله قادر علينا، وأننا في قبضته وسلطانه أينما كنا، لن نعجزه بهرب، ولن نتفلت من عقابه إذا أراد بنا سوءًا قال القرطبي: أي علمنا بالاستدلال والتفكر في آيات الله، أنا في قبضته وسلطانه لن نفُوته بهرب ولا غيره[3] ثم عادوا إلى شكر الله تعالى على نعمة الإيمان واهتدائهم بسماع آيات القرآن فقالوا ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي لما سمعنا القرآن العظيم آمنا به وبمن أنزله، وصدقنا محمدًا ﷺ في رسالته ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي فمن يؤمن بالله تعالى فلا يخشى نقصانًا من حسناته ولا ظلمًا بزيادة سيئاته قال ابن عباس: لا يخاف أن ينقص من حسناته، ولا أن يزاد في سيئاته، لأن البخس النقصان، والرهق العدوان[4] ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ أي وأنا بعد سماعنا القرآن منا من أسلم، وصدق برسالة محمد ﷺ، ومنا من جار عن الحق وكفر قال المفسرون: يقال: قسط الرجل إذا جارَ، وأقسط إذ عدَلَ، اسم الفاعل من الأول قاسط، ومن الثاني مُقْسِط ومنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٥٧. (ش): راجع حديث ابن عباس في التعليق السابق.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٥٣.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٥.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٦.

وأما القاسط فهو الظالم الجائر ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أي فمن اعتنق الإسلام واتبع الرسول عليه السلام، فأولئك الذين قصدوا الرشد، واهتدَوْا إلى طريق السعادة والنجاة ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي وأما الكافرون الجائرون عن طريق الحق والإيمان، فسيكونون وقودًا لجهنم، توقد بهم كما توقد بكفار الإنس.. وإلى هنا انتهى كلام الجن[١]، مما يدل على قوة إيمانهم، وصدقهم وإخلاصهم، ثم قال تعالى مخبرًا عن أهل مكة ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أي لو آمن هؤلاء الكفار، واستقاموا على شريعة الله ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ أي لبسطنا لهم في الرزق، ووسعنا عليهم في الدنيا، زيادة على ما يحصل لهم في الآخرة من النعيم الدائم، وبذلك يحوزون عز الدنيا والآخرة قال في التسهيل: الماء الغدق: الكثير، وذلك استعارة في توسيع الرزق، والطريقة هي الإسلام وطاعة الله والمعنى: لو استقاموا على ذلك لوسع الله أرزاقهم فهو كقوله ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦][٢] ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنختبرهم به أيشكرون أم يكفرون؟ ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي ومن يعرض عن طاعة الله وعبادته، يدخله ربه عذابًا شديدًا شاقًا لا راحة فيه قال قتادة: ﴿صَعَدًا﴾ عذابًا لا راحة فيه[٣] وقال عكرمة: هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها، فإذا انتهى إلى أعلاها حُدِر إلى جهنم[٤] ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ هذا من جملة الموحى به للرسول ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ والمعنى وأوحي إلي أن المساجد وبيوت العبادة هي مختصة بالله، فلا تعبدوا فيها غيره وأخلِصوا له العبادة فيها قال مجاهد: كان اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم، أشركوا بالله فيها، فأمر الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه والمؤمنين أن يخلصوا الدعوة لله إذا دخلوا المساجد كلها[٥] ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ أي وأنه لما قام محمد ﷺ يعبد ربه ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي كاد الجن يركب بعضهم بعضًا من شدة الازدحام، حرصًا على سماع القرآن قال ابن عباس: كادوا ينقضون عليه لاستماع القرآن[٦]، وإنما وصفه تعالى بالعبودية، ولم يذكره باسمه زيادة في تشريفه وتكريمه عليه السلام ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين طلبوا منك أن ترجع عن دينك: إنما أعبد ربي وحده، ولا أشرك مع الله غيره بشرًا ولا صنمًا قال الصاوي: سبب نزولها أن كفار قريش قالوا له: إنك جئتَ بأمر عظيم، وقد عادَيْتَ الناس كلهم، فارجِع عن هذا فنحن نُجيرك وننصرك فنزلت[٧] ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي قل يا محمد في

---

(١) هذا هو قول الجمهور، وأن الكلام بعده من كلام الله تعالى الذي أوحاه لرسوله لا من كلام الجن.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٥٤.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٧٣.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٣٥٢.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢١.

(٦) «البحر المحيط» ٨/ ٣٥٣.

(٧) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٥٧. (ش): ضعيف، رواه البغوي في «تفسيره».

محاجَّة هؤلاء: إني لا أقدر أن أدفع عنكم ضرًا، ولا أجلب لكم نفعًا، وإنما الذي يملك هذا هو الله رب العالمين ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي قل لهم أيضًا: إنه لن ينقذني من عذاب الله أحدٌ إن عصَيْتُه، ولن أجد لي نصيرًا ولا ملجأً منه، فكيف أجيبكم إلى ما طلبتم؟ قال قتادة: ﴿مُلْتَحَدًا﴾ ملجأ ونصيرًا[1] ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ أي لا أجد ملجأً إلا إذا بلغت رسالة ربي، ونصحتكم وأرشدتكم كما أمرني الله فحينئذ يجيرني ربي من العذاب كقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] قال ابن كثير: أي لا يجيرني منه ويخلصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها عَلَيَّ[2] ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي ومن كذب الله ورسوله، ولم يؤمن بلقاء الله، وأعرض عن سماع الآيات وتدبر الرسالات، فإن جزاءه جهنم لا يخرج منها أبدًا -وإنما جمع ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حملًا على معنى ﴿وَمَن﴾ لأن لفظها مفرد ومعناها جمع- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ أي حتى إذا رأى المشركون ما يوعدون من العذاب ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أي فسيعلمون حينئذٍ من هم أضعف ناصرًا ومعينًا، وأقل نفرًا وجندًا؟ هل هم؟ أم المؤمنون الموحدون؟ ولا شك أن الله ناصِر عباده المؤمنين، فهم الأقوى ناصرًا والأكثر عددًا، لأن الله معهم وملائكته الأبرار ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾؟ أي قل لهم يا محمد: ما أدري هل هذا العذاب الذي وُعِدتُم به قريبٌ زمنُه ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ أي أم هو بعيد له مدة طويلة وأجل محدود؟ قال المفسرون: كان ﷺ كلما خوف المكذبين نار جهنم، وحذرهم أهوال الساعة، أظهروا الاسخفاف بقوله، وسألوه متى هذا العذاب؟ ومتى تقوم هذه الساعة؟ فأمره تعالى أن يقول لهم: لا أدري وقت ذلك، هل هو قريب أم بعيد؟ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي هو جل وعلا عالمٌ بما غاب عن الأبصار، وخفِيَ عن الأنظار، فلا يُطْلِع على غيبه أحدًا من خلقه ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أي إلا من اختاره الله وارتضاه لرسالته ونبوته، فيُظْهِره الله على ما يشاء من الغيب قال المفسرون: لا يُطْلِع الله على غيبه أحدًا إلا بعض الرسل، فإنه يُطْلِعُهم على بعض الغيب، ليكون معجزةً لهم، فإن الرسل مؤيَّدُون بالمعجزات، ومنها الإخبار عن بعض المغيَّبات، كما قال عن عيسى ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩] ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ أي فإنه تعالى يرسل من أمام الرسول ومن خلفه، ملائكة وحرسًا يحفظونه من الجن، ويحرسونه في ضبط ما يلقيه تعالى إليه من علم الغيب قال الطبري: أي فإنه تعالى يرسل من أمامه ومن خلفه حرسًا وحفظةً يحفظونه من الجن[3] ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي ليعلم الله علم

---

(١) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٧٦.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٦٠.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٧٧.

ظهور[1] فإنه تعالى عالم بما كان وما يكون أن رسله الكرام قد بلَّغُوا عنه وَحْيَه كما أوحاه إليهم محفوظًا من الزيادة والنقصان قال ابن كثير: المعنى أن الله يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، مع العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعًا لا محالة[2] ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي أحاط عِلْمُه بما عند الرسل، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أي علم تعالى علم ضبط واستقصاء جميع الأشياء، المُنبَثَّة في الأرضين والسموات من القَطْر[3]، والرمْل، وورق الشجر، وزبد البحار، فلا يغيب عنه شيء، ولا يخفَى عليه أمر، فكيف لا يحيط علمًا بما عند رسله من رسالاته ووحيه، التي أمرهم بتبليغها إلى خلقه؟ وكيف يمكن لرسله أن يفرطوا في تلك الرسالات، أو يزيدوا أو ينقصوا أو يحرفوا فيها أو يغيروا، وهو تعالى محيط بها، مُحْصٍ لجميع الأشياء جليلها وحقيرها؟

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – الوصف بالمصدر للمبالغة ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ أي عجيبًا في حسن إيجازه، وروعة إعجازه.

٢ – طباق السلب ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ لأن الإيمان نفي للشرك.

٣ – جناس الاشتقاق ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ لما بين اللفظتين من الاشتقاق اللطيف.

٤ – الأسلوب الرفيع بنسبة الخير إلى الله، دون الشر أدبًا مع الخالق ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾؟ وبين لفظ «الشر» و «الرشد» طباقٌ في المعنى.

٥ – الطباق بين ﴿ٱلْإِنسِ.. وَٱلْجِنُّ﴾ وبين ﴿ضَرًّا.. رَشَدًا﴾ وبين ﴿ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾.

٦ – الاستعارة اللطيفة ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ استعارة الطرائق للمذاهب المختلفة، وهو من لطيف الاستعارة.

٧ – توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿أَحَدًا، وَلَدًا، رَصَدًا، رَشَدًا، صَعَدًا، عَدَدًا﴾ إلخ وهو ما يسمى في علم البديع بالسجع المرصع والله أعلم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجن»

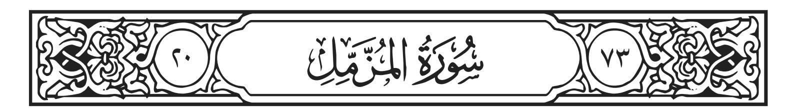
❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) قال المفسرون: ما جاء في القرآن من تعليل لعلم الله كقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾، وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ فإنما هو علمُ ظهور لا علم بَدَاء، فإنه تعالى عالم بالأشياء أزلًا وإنما يُظهِر علمه لعباده.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٦١.

(٣) (ش): المُنبَثَّة: المنتشرة. القَطْر: المطر.



مكية وآياتها عشرون

بين يدي السورة

* سورة المزمل مكية، وهي تتناول جانبًا من حياة الرسول الأعظم ﷺ في تبتله، وطاعته، وقيامه الليل، وتلاوته لكتاب الله عز وجل، ومحور السورة يدور حول الرسول عليه الصلاة والسلام، ولهذا سميت «سورة المزمل».

* ابتدأت السورة الكريمة بنداء الرسول ﷺ نداء شفيفًا لطيفًا، ينم عن لطف الله عز وجل ورحمته بعبده ورسوله محمد ﷺ الذي كان يجهد نفسه في عبادة الله ابتغاء مرضاته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾.

* ثم تناولت السورة موضوع ثقل الوحي الذي كلف الله به رسوله، ليقوم بتبليغه للناس بجد ونشاط، ويستعين على ذلك بالاستعداد الروحي بإحياء الليل في العبادة ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾.

* وأمرت السورة الرسول عليه السلام بالصبر على أذى المشركين، وهجرهم هجرًا جميلًا، إلى أن ينتقم الله منهم ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا...﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بتخفيف الله عن رسوله وعن المؤمنين من قيام الليل رحمة به وبهم، ليتفرغ الرسول وأصحابه لبعض شئون الحياة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ...﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ

فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ

اللغـة: ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ المتلفِّف بثيابه يقـال: تزمَّل بثوبه، أي: التَفَّ به وتغطَّى، وزمَّلَ غيرَه إذا غطَّاه قال امرؤ القيس:

كَبِيرُ أُنَاسٍ فِي بِجَادٍ مُزَمَّلِ[1]

﴿سَبْحًا﴾ تصرفًا وتقلبًا في مهماتك، وأصلُ السَّبْح العومُ على وجه الماء، واستعير للتصرف والتقلب في شئون الحياة ﴿أَنكَالًا﴾ جمع نِكْلٍ وهو القيد الثقيل الذي يقيد به المجرم ﴿كَثِيبًا﴾ الكثيب: الرمل المجتمع ﴿مَّهِيلًا﴾ سائلًا متناثرًا منهارًا قال أهل اللغة: المهيل الذي إذا وطئْته بالقـدم زلَّ مِـن تحتِها، وإذا أخذ أسـفله انهال، وأصله مهيول كمكيـل أصله مكيول ﴿وَبِيلًا﴾ شديدًا وخيم العاقبة.

التفسـير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ أي يـا أيهـا المتلفـف بثيابه، وأصلـه المتزمل وهـو الذي تلفف وتغطـى، وخطابـه ﷺ بهذا الوصـف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ فيه تأنيسٌ وملاطفة له عليه السـلام قال السـهيلي: إن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطَب وترْك معاتبته سَمُّوه باسم مشتق من حالته التـي هـو عليها كقول النبي ﷺ لعلي حين غاضـبَ فاطمة وقد نام ولصق بجنبه التراب: « قُمْ أَبَـا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ »، إشـعارًا بأنه ملاطفٌ له، وغير عاتـب عليه[2]، والفائدة الثانية، التنبيهُ لـكل متزمل راقد ليلـه، ليتنبَّه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى، لأنه الاسـم المشـتق من الفعل، يشترك فيه المخاطَب، وكل من اتصف بتلك الصفة[3]، وسبب هذا التزمل ما روي في الصحيح «أن رسـول الله ﷺ لمـا جـاءه جبريل وهـو في غار حراء في ابتـداء الوحي رجـع إلى خديجة يرجف فؤاده فقال: « زَمِّلُونِى زَمِّلُونِى، لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِى»، وأخبرها بما جرى[4]، فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ » أي يـا أيهـا الذي تلفَّفَ بقطيفَته، واضطجع في زاويةِ بيته، وقد أشْـبَه من يُؤْثِر

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٥٨. (ش): البِجَاد: الكساء المخطط.

(٢) (ش): عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ت قَالَ: جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْتَ فَاطِمَةَ، فَلَمْ يَجِدْ عَلِيًّا فِى الْبَيْتِ فَقَالَ: «أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ». قَالَتْ: «كَانَ بَيْنِى وَبَيْنَهُ شَىْءٌ، فَغَاضَبَنِى فَخَرَجَ فَلَمْ يَقِلْ عِنْدِى». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِإِنْسَانٍ: «انْظُرْ أَيْنَ هُوَ». فَجَاءَ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، هُوَ فِى الْمَسْجِدِ رَاقِدٌ»، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهْوَ مُضْطَجِعٌ، قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ، وَأَصَابَهُ تُرَابٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْسَحُهُ عَنْهُ وَيَقُولُ «قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ». (رواه البخاري ومسلم).

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٣٣.

(٤) راجع صحيح البخاري «باب أول نزول الوحي». (ش): رواه البخاري ومسلم.

الراحة والسكون، ويحاول التخلص مما كُلِّف به من مهمات الأمور [(١)] ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي دع التزمل والتلفف، وانشط لصلاة الليل، والقيام فيه ساعات في عبادة ربك، لتستعد للأمر الجليل، والمهمة الشاقة، ألا وهي تبليغ دعوة ربك للناس، وتبصيرهم بالدين الجديد.. ثم وضَّح المقدار الذي ينبغي أن يصرفه في عبادة الله فقال ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ أي قم للصلاة والعبادة نصف الليل، أو أقل من النصف قليلًا، أو أكثر من النصف، والمراد أن تكون هذه الساعات طويلة بحيث لا تقل عن ثلث الليل، ولا تزيد على الثلثين قال ابن عباس: إن قيام الليل كان فريضة على رسول الله ﷺ لقوله ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ ثم نسخ بقوله تعالى ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ وكان بين أول هذا الوجوب ونسخِه سَنَةٌ [(٢)]، وهذه هي السورة التي نسخ آخرُها أوَّلَها، حيث رحِم الله المؤمنين فأنزل التخفيف عليهم بقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ الآية ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ أي اقرأ القرآن أثناء قيامك في الليل قراءة تثبت وتُؤَدَة وتَمَهُّل، ليكون عونًا لك على فهم القرآن وتدبُّره، قال الخازن: لما أمره تعالى بقيام الليل أتبعه بترتيل القرآن، حتى يتمكن المصلي من حضور القلب، والتفكر والتأمل في حقائق الآيات ومعانيها، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر بقلبه عظمة الله وجلاله، وعند ذكر الوعد والوعيد يحصل له الرجاء والخوف، وعند ذكر القصص والأمثال يحصل له الاعتبار، فيستنير القلب بنور معرفة الله، والإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني، فظهر بذلك أن المقصود من الترتيل، إنما هو حضور القلب عند القراءة[(٣)]، وقد كان رسول الله ﷺ يقطِّع القراءة حرفًا حرفًا أي يقرأ القرآن بتمهل، ويخرج الحروف واضحة

---

(١) (ش): هذه الألفاظ لا تليق بمقام النبي ﷺ.

(٢) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ١٧١، وإنما كلف رسول الله ﷺ وأصحابه بقيام الليل، ليكون ذلك حافزًا لهم على الاستعداد الكامل لمجابهة خصوم الدعوة، وتربيتهم التربية «الجسمية والروحية» على أكمل الوجوه، حتى يصبروا على تحمل المشاق والمصاعب، وتَجَشُّم الأهوال والأخطار، ويستفيدوا من هذه التربية الكريمة ما يجعلهم يتغلبون على كل أمر عسير يعْرِض لهم، وقد كان من أثر هذه «التربية الروحية» أنْ مَلَك المسلمون مشارق الأرض ومغاربها بجهادهم وصبرهم وتحملهم للأذى في سبيل الله. عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ أنه سأل قَالَ لِعَائِشَةَ رضي الله عنها: «يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ حَدِّثِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ». قَالَتْ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَإِنَّ خُلُقَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ». قَالَ: «حَدِّثِينِي عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ». قَالَتْ: «أَلَستَ تَقْرَأ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾؟». قَالَ: «بَلَى». قَالَتْ: «فَإِنَّ أَوَّلَ هَذِهِ السُّورَةِ نَزَلَتْ فَقَامَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ حُبِسَ خَاتِمَتُهَا فِي السَّمَاءِ اثْنَىْ عَشَرَ شَهْرًا ثُمَّ نَزَلَ آخِرُهَا فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وعن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: «لما نزلت أول المزمل؛ كانوا يقومون نحوًا من قيامهم في شهر رمضان، حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها سنة» (رواه أبو داود وصححه الألباني).

(ش): تَجَشُّم الأهوال والأخطار: تحَمُّلُها عن كُرهٍ ومشقَّة.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ١٦٥.

لا يمر بآية رحمةٍ إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذابٍ إلا وقف وتعوَّذ[١] ثم بعد أن أمره تعالى باطراح النوم، وقيام الليل، وتدبر القرآن وتفهمه، انتقل إلى بيان السبب في هذه الأوامر الثلاثة، ذات التكليف الصعب الشاق فقال ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي سننزل عليك يا محمد كلامًا عظيمًا جليلًا، له هيبة وروعةٌ وجلال، لأنه كلام الملِك العلاَّم قال الإمام الفخر: والمراد من كونه ثقيلًا هو عِظَم قَدْره، وجلالة خطره، وكل شيء نفس وعظم خطره فهو ثقيل، وهذا معنى قول ابن عباس: ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ يعني كلامًا عظيمًا، وقيل: المراد ما في القرآن من الأوامر والنواهي، التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين، ووجه النظم عندي أنه لما أمره بصلاة الليل فكأنه قال: إنما أَمَرْتُك بصلاة الليل، لأنا سنُلقي عليك قولًا عظيمًا، ولا بد أن تصيّر نفسك مستعدَّة لذلك القول العظيم، وذلك بصلاة الليل، فإن الإنسان إذا اشتغل بعبادة الله في الليلة الظلماء، وأقبل على ذكره والتضرع بين يديه، استعدت نفسه لإشراق وجلال الله فيها[٢] أقول: وهذا المعنى لطيف في الربط بين قيام الليل، وتلاوة القرآن، فإن الله تعالى كلَّف رسوله أن يدعو الناس إلى دين جديد، فيه تكاليف شاقة على النفس، وأن يكلفهم العمل بشرائعه وأحكامه، ولا شك أن مثل هذا التكليف، يحتاج إلى مجاهدة للنفس ومصابرة، لما فيه من حملهم على ترك ما ألفوه من العقائد، ونبذ ما ورثوه من أسلافهم من العادات، فأنت يا محمد مُعَرَّضٌ لمتاعب كثيرة، وأخطار جَمَّة في سبيل هذه الدعوة، وحَمْل الناس على قبولها، فكيف يمكنك أن تقوم بهذه المهمة الكبيرة، وأنت على ما أنت عليه من التزمُّل والتلَفُّف، والخلود إلى الراحة والسكون[٣]، والبعد عن المشاقِّ، ومجاهدة النفس بطول العبادة وكثرة التهجد، ودراسة آيات القرآن دراسة تفهم وتدبر؟ فانشط من مضجعك إذًا، واسهر معظم ليلك في مناجاة ربك، استعدادًا لتحمل مشاق الدعوة، والتبشير بهذا الدين الجديد، ويا لها من لفتةٍ كريمة، تيَقَّظَ لها قلبُ النبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ، فشمَّر عن ساعد الجد والعمل، وقام بين يدي ربه حتى تشققت قدماه ثم بيَّن تعالى فضل إحياء الليل بالعبادة فقال ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي إن ساعات الليل وأوقاته التي فيها التفرغ والصفاء، وما يُنشِئه المرء ويُحْدِثه من طاعةٍ وعبادة، يقوم لها من مضجعه بعد هدأةٍ من الليل[٤] ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ أي هي أشد على المصلي

---

(١) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير عن تلاوة الرسول عليه السلام وعن فضائل تلاوة القرآن ٣/ ٥٦٢. (ش): عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ صَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَكَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ». وَفِي سُجُودِهِ «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى». وَمَا أَتَى عَلَى آيَةِ رَحْمَةٍ إِلاَّ وَقَفَ وَسَأَلَ وَمَا أَتَى عَلَى آيَةِ عَذَابٍ إِلاَّ وَقَفَ وَتَعَوَّذَ. (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

(٢) «التفسير الكبير للرازي» ٢٩.

(٣) (ش): هذه الألفاظ لا تليق بمقام النبي ﷺ.

(٤) (ش): هدأةٍ من الليل: جزء من اللَّيل.

وأثقل من صلاة النهار، لأن الليل جعل للنوم والراحة، فقيامه على النفس أشد وأثقل، ومن شأن هذه الممارسة الصعبة أن تقوّي النفوس، وتشد العزائم، وتصلب الأبدان، ولا ريب أن مصاولة الجاحدين أعداء الله تحتاج إلى نفوس قوية، وأبدان صلبة ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي أَثْبَتُ وأَبْيَنُ قولًا، لأن الليل تهدأ فيه الأصوات، وتنقطع فيه الحركات، فتكون النفس أصفى، والذهن أجمع، فإن هدوَّ الصوت في الليل، وسكون البشر فيه، أعون للنفس على التدبر والتفطن، والتأمل في أسرار القرآن ومقاصده ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي إن لك في النهار تصرفًا وتقلبًا، واشتغالًا طويلًا في شئونك، فاجعل ناشئة الليل لتهجدك وعبادتك قال في التسهيل: السبحُ هنا عبارة عن التصرف في الأعمال والأشغل والمعنى: يكفيك النهار للتصرف في أشغالك، وتفرغ بالليل لعبادة ربك[1].. وبعد أن قرر الخطاب الإلهي هذه المقدمات التي هي بمثابة تمهيدٍ وبساطٍ للدعوة، انتقل إلى أمر الرسول ﷺ بتبليغ الدعوة، وتعليمه كيفية السير فيها عملًا، بعد أن مهدها له نظرًا فقال ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي استعن على دعوتك بذكر الله ليلًا ونهارًا، وانقطع إليه انقطاعًا تامًا في عبادتك وتوكلك عليه، ولا تعتمد في شأنٍ من شئونك على غيره تعالى قال ابن كثير: أي أكْثِر من ذِكْره وانقطِع إليه جلّ وعلا، وتفرَّغْ لعبادته إذا فرغتَ من أشغالك مع إخلاص العبادة له[2] ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي هو جل وعلا الخالق المتصرف بتدبير شئون الخلق، وهو المالك لمشارق الأرض ومغاربها، لا إله غيره ولا ربَّ سواه، فاعتمِدْ عليه وفوِّض أمورَك إليه ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أي اصبر على أذى هؤلاء السفهاء المكذبين فيما يتقولونه عليك من قولهم: «ساحر، شاعر، مجنون» فإن الله ناصرك عليهم ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ أي اتركهم ولا تتعرض لهم بأذى ولا شتيمة، قال المفسرون: الهجر الجميل هو الذي لا عتاب معه[3]، ولا يشوبه أذى ولا شتم، وقد كان هذا قبل أن يؤمر بالقتال كما قال سبحانه ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨] ثم أُمر ﷺ بقتالهم وقتلهم، والحكمة في هذا أن المؤمنين كانوا بمكة قلة مستضعفين، فأُمِرُوا بالصبر وبالمجاهدة الليلية، حتى يُعِدُّوا أنفسهم بهذه التربية الروحية على مناجزة الأعداء، وحتى يكثر عددهم فيقفوا في وجه الطغيان، أما قبل الوصول إلى هذه المرحلة فينبغي الصبر والاقتصار على الدعوة باللسان ثم قال تعالى متوعدًا ومتهددًا صناديد قريش ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾ أي دعني يا محمد وهؤلاء المكذبين بآياتي، أصحاب الغِنَى، والتنعُّم في الدنيا، والترف والبطر فأنا أكفيك شرهم قال الصاوي: المعنى اتركني أنتقم منهم،

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٥٧.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٦٤.
(٣) كذا قال ابن كثير ٣/ ٥٦٤.

ولا تشفع لهم[١]، وهذا من مزيد التعظيم له ﷺ، وإِجلال قدره[٢] ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي وأمْهِلهمْ زمنًا يسيرًا حتى ينالوا العذاب الشديد قال المفسرون: أمهلهم الله تعالى إلى أن هاجر رسول الله ﷺ من مكة، فلما خرج منها سلَّط عليهم السنين المجدبة وهو العذاب العام، ثم قتل صناديدهم ببدر وهو العذاب الخاص[٣].. ثم وصف تعالى ما أعده لهم من العذاب في الآخرة فقال ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ أي إنَّ لهم عندنا في الآخرة قيودًا عظيمة ثقيلة يقيدون بها، ونارًا مستعرة هي نار الجحيم يحرقون بها قال في التسهيل: الأنكال جمع نِكْل وهو القيد من الحديد، وروي أنها قيود سُودٌ من نار[٤] ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ أي وطعامًا كريهًا غير سائغ، يغصُّ به الإنسان[٥] وهو الزقوم والضريع قال ابن عباس: شوك من نار يعترض في حلوقهم لا يخرج ولا ينزل[٦] ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وعذابًا وجيعًا مؤلمًا، زيادة على ما ذكر من النكال والأغلال.. ثم ذكر تعالى وقت هذا العذاب فقال ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي يوم تتزلزل الأرض وتهتز بمن عليها اهتزازًا عنيفًا شديدًا هي وسائر الجبال، وذلك يوم القيامة ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي وتصبح الجبال على صلابتها تلًّا من الرمل سائلًا متناثرًا، بعد أن كانت صلبة جامدة قال ابن كثير: أي تصير الجبال ككثبان الرمال، بعد ما كانت حجارة صماء، ثم إنها تُنسف نسفًا فلا يبقى منها شيء إلا ذهب[٧] كقوله تعالى ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧] أي لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع.. ذكر تعالى العذاب المؤلم الذي أعده للمشركين، ومكانه وهو الجحيم، وآلاته وهي القيود وطعام الزقوم، ووقته وهو عند اضطراب الأرض وتزلزلها بمن عليها، وأراد بذلك تخويف المكذبين وتهديدهم بأنه تعالى سيعاقبهم بذلك كله، إن بَقُوا مُستمرّين في تكذيبهم لرسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ، ثم أعقبه بتذكيرهم بما حلَّ بالأمم الباغية التي قد خلت من قبلهم، وكيف عصت وتمردت فأنزل بها من أمره ما أنزل، وضرب لهم المثل بفرعون الجبار فقال ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي بعثنا لكم يا أهل مكة محمدًا ﷺ شاهدًا على أعمالكم، يشهد عليكم بما صدر منكم من الكفر والعصيان ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ

---

(١) (ش): تعبير الصاوي غير سليم؛ لأنه لا أحد يشفع عند الله إلا مِن بعدِ إذنه، فكيف يليق بالرسول ﷺ أن يشفع قبل الإذن حتى يُنهَى عن ذلك. وأيضًا النبي ﷺ لا يشفع للمشركين.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٦٠.

(٣) حاشية الصاوي ٤/ ٢٦٠.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٥٨. (ش): روى ابن جرير الطبري في «تفسيره» عن حماد بن أبي سليمان أنه قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ قال: «قيودا سوداء من نار جهنم». وحماد بن أبي سليمان من صغار التابعين.

(٥) (ش): غصَّ بالطَّعام أو الماءِ ونحوِهما: اعترض في حلقه فمنعه التَّنفّس والبلع.

(٦) «البحر المحيط» ٨/ ٣٦٤.

(٧) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٦٥.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ أي كما بعثنا إلى ذلك الطاغية فرعون الجبار، رسولًا من أولئك الرسل العظام «أولي العزم» وهو موسى بن عمران قال الخازن: وإنما خصَّ فرعون وموسى بالذكر من بين سائر الأمم والرسل، لأن محمدًا ﷺ آذاه أهل مكة واستخفوا به لأنه وُلد فيهم، كما أن فرعون ازدرى بموسى وآذاه لأنه ربَّاه[1] ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ أي فكذب فرعون بموسى ولم يؤمن به، وعصى أمره كما عصيتم يا معشر قريش محمدًا ﷺ وكذبتم برسالته ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي فأهلكناه إهلاكًا شديدًا فظيعًا، خارجًا عن حدود التصور، وذلك بإغراقه في البحر مع قومه قال أبو السعود: وفي الآية التنبيه على أنه سيحيق بهؤلاء ما حاق بأولئك لا محالة، و «الوبيلُ» الثقيل الغليظ من قولهم كَلأٌ وبيلٌ أي وخيم لا يُستَمْرَأُ لثِقَله[2] وبعد أن ذكر الله أَخْذَه لفرعون، وأن مُلكه وجبروته لم يدفعا عنه العذاب، عاد فذكَّر كفار مكة بالقيامة وأهوالها ليبيّن لهم أنهم لن يفلتوا من العذاب كما لم يفلت فرعون مما حدث له فقال ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ أي كيف لا تحذرون وتخافون يا معشر قريش عذاب يوم هائل إن كفرتم بالله ولم تؤمنوا به؟ وكيف تأمنون ذلك اليوم الرهيب الذي يشيب فيه الوليد من شدة هوله، وفظاعة أمره؟ قال الطبري: وإنما تشيب الولدان من شدة هوله وكربه، وذلك حين يقول الله لآدم: أخرج من ذريتك بعث النار، من كل ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعون، فيشيب هنالك كل وليد[3] ثم زاد في وصفه وهوْله فقال ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ أي السماء متشققة ومتصدّعة من هول ذلك اليوم الرهيب العصيب ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ أي كان وعده تعالى بمجيء ذلك اليوم واقعًا لا محالة، لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ أي إن هذه الآيات المخوّفة، التي فيها القوارع والزواجر، عظةٌ وعبرةٌ للناس ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي فمن شاء من الغافلين الناسين، أن يستفيد من هذه التذكرة قبل فوات الأوان، فليسلك طريقًا موصلًا إلى الرحمن، بالإيمان والطاعة، فالأسبابُ ميسرة، والسُبُل مُعَبَّدة[4]، قال المفسرون: والغرض

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ١٦٩.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٠٥. (ش): وخُم الطَّعامُ: ثَقُل وكان فاسدًا. استمرأ الطَّعامَ وغيرَه: وجده مقبولاً مُستساغًا، استطَابَه.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٨٦، و«مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٦٥. (ش): عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ النَّبِىُّ ﷺ «يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِى يَدَيْكَ. فَيَقُولُ أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ. قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَأَيُّنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ قَالَ «أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلٌ، وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفٌ». ثُمَّ قَالَ «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، إِنِّى أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ «مَا أَنْتُمْ فِى النَّاسِ إِلاَّ كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِى جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِى جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ». رواه البخاري ومسلم.

(٤) (ش): عبَّد الطَّريقَ ونحوَه: ذلَّله ومهَّده.

الحضُّ على الإيمان وطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، والترغيب في الأعمال الصالحة، لتبقى ذخرًا في الآخرة.. ثم عادت الآيات الكريمة للحديث عمَّا بدأته في أول السورة من قيام الليل فقال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي إن ربك يا محمد يعلم أنك تقوم مع أصحابك[1] للتهجد والعبادة أقل من ثلثي الليل، وتارة تقومون نصفه، وتارةً ثلثه كقوله تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٧-١٨] ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي والله جلّ وعلا هو العالم بمقادير الليل والنهار، وأجزائهما وساعاتهما، لا يفوته علم ما تفعلون من قيام هذه الساعات في غلس الظلام ابتغاء رضوانه، وهو تعالى المدبّر لأمر الليل والنهار ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي علم تعالى أنكم لن تطيقوا قيام الليل كله ولا معظمه، فرحمكم ورجع عليكم بالتخفيف قال الطبري: أي علم ربكم أن لن تطيقوا قيامه، فتاب عليكم بالتخفيف عنكم[2] ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، وإنما عبَّر عن الصلاة بالقراءة، لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة قال ابن عباس: سقط عن أصحاب رسول الله قيام الليل وصارت تطوعًا، وبقي ذلك فرضًا على رسول الله ﷺ[3] ثم بين تعالى الحكمة في هذا التخفيف فقال ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ أي علم تعالى أنه سيوجد فيكم مَن يُعجِزه المرضُ عن قيام الليل، فخفف عنكم رحمة بكم ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي وقوم آخرون يسافرون في البلاد للتجارة، يطلبون الرزق وكسب المال الحلال ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ﴾ أي وقوم آخرون وهم الغزاة المجاهدون، يجاهدون في سبيل الله لإعلاء كلمته ونشر دينه، وكل من هذه الفرق الثلاثة يشقُّ عليهم قيام الليل، فلذلك خفف الله عنهم، ذكر تعالى في هذه الآية الأعذار التي

---

(١) الآية نص صريح على أن قيام الليل كان واجبًا على الرسول وعلى يأصحابه، وقد كُلِفوا أن يقوموا ساعات من الليل طويلة، لا تقل على ثلثه، ولا تزيد على ثلثيه، فإن قيام الليل وإحياءه بأنواع الطاعات المختلفة من ذكر، وصلاة، وتلاوة قرآن، يُقَوِّي أبدانهم، ويزكِّي أرواحهم، ويعَوِّدهم الخشونة في العيش، واجتناب ما عليه المُترَفون من الراحة والرخاوة والانغماس في الملذات، كلفهم الله تعالى بذلك ليُعِدَّهم إعدادًا روحيًّا وجسميًا للقيام بأعباء الدعوة الجديدة، وتحمُّل المَشاقّ في سبيل نشر هذا الدين، ويالها من تربية كريمة مجيدة، تُنشِئ الرجال والأبطال.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٨٨.

(٣) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ١٨٧. (ش): لم أجده بهذا اللفظ إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ يعني بالنافلة أنها للنبيّ ﷺ خاصة، أُمر بقيام الليل وكُتب عليه. (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف). وقد اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ، هَل كَانَ فَرْضًا عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَوْ لَمْ يَكُنْ فَرْضًا، مَعَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى عَدَمِ فَرْضِيَّتِهِ عَلَى الأُمَّةِ. [انظر: الموسوعة الفقهية (٢/ ٢٥٧-٢٥٨)، (٣٤/ ١١٨)]. أما حديث: «ثَلاثٌ هُنَّ عَلَيَّ فَرَائِضُ، وَهُنَّ لَكُمْ تَطَوُّعٌ: الْوَتْرُ، وَالنَّحْرُ، وَصَلاةُ الضُّحَى» فقد رواه أحمد وضعفه أحمد شاكر والأرنؤوط. ورواه الحاكم بلفظ: «ثَلَاثٌ هُنَّ عَلَيَّ فَرَائِضُ وَلَكُمْ تَطَوُّعٌ: النَّحْرُ، وَالْوِتْرُ، وَرَكْعَتَا الْفَجْرِ»، وضعفه الذهبي والألباني.

تكـون للعباد تمنعهـم من قيام الليل، فمنها المرض، ومنها السـفر للتجـارة، ومنها الجهاد في سبيل الله، ثم كرر الأمر بقراءة ما تيسر من القرآن تأكيدًا للتخفيف عنهم قال الإمام الفخر: أما المرضَـى فإنهم لا يمكنهم الاشـتغال بالتهجد لمرضهم، وأما المسـافرون والمجاهدون فهم مشـغولون في النهار بالأعمال الشـاقة، فلو لم يناموا في الليل لتواليت أسـباب المشقة عليهم، فلذلـك خفف الله عنهم وصار وجوب التهجد منسـوخًا في حقهم[1] ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ أي فصلوا ما تيسَّـر لكم من صلاة الليل، واقرءوا في صلاتكم ما تيسـر من القرآن ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي وأدوا الصـلاة المفروضـة على الوجه الأكمل، والـزكاة الواجبة عليكم إلى مسـتحقيها قال المفسـرون: قلَّما يُذكر الأمر بالصلاة في القرآن، إلا ويُقرن معه الأمر بالزكاة، فـإن الصلاة عماد الدين بين العبد وربه، والزكاة عماد الدين بينه وبين إخوانه، والصلاة أعظم العبادات البدنية، والزكاة أعظم العبادات المالية ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾ أي تصدقوا في وجوه الـبر والإحسـان ابتغاء وجه الله قال ابن عباس: يريد سـائر الصدقات سـوى الـزكاة، من صلة الرحم، وقِرَى الضيف وغيرهما[2] ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي أيَّ شيء تفعلوه أيهـا الناس من وجوه البر والخيـر تلقوا أجره وثوابه عند ربكم ﴿هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾ أي تجدوا ذلـك الأجـر والثواب يوم القيامة خيرًا لكم مما قدمتـم في الدنيا من صلح الأعمال، فإن الدنيا فانيـة والآخـرة باقية، وما عند الله خيـرٌ للأبرار ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ﴾ أي اطلبـوا مغفرة الله في جميع أحوالكم، فإن الإنسـان قَلَّما يخلو من تقصير أو تفريط ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ أي عظيم المغفرة، واسـع الرحمة ختم تعالى السـورة بِإرشاد المنفقين المحسـنين، إلى أن يطلبوا من الله الصفح والعفو، إذ ربما كانوا لم يخلصوا النية في الإنفاق، أو لم يحسـنوا العمل في الإقراض، فيضعوا النفقة في غير مواضعها، أو ينفقوها فيما لهم فيه غرض وشهوة، وهو ختم يتناسق مع موضوع الإنفاق، فسبحان منزل القرآن بأوضح بيان!!

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – الطباق بين ﴿ٱنقُصۡ مِنۡهُ .. أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ وبين ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ .. وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ وبين ﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

٢ – جناس الاشتقاق ﴿أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا﴾.

٣ – تأكيـد الفعـل بالمصـدر مثـل ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ زيادة في البيان والإيضاح.

٤ – الالتفـات مـن الغيبـة إلى الخطـاب ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا﴾ ولو جـرى على الأصل لقال: إنا أرسلنا إليهم، والغرض من الالتفات التقريع والتوبيخ على عدم الإيمان.

---

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٨٧.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ١٧١. (ش): قرَى الضيفَ: أضافه وأكرمه، أحسن إليه.

٥ - المجاز المرسل ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ أراد به الصلاة، فأطلق اسم الجزء على الكل، لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة.

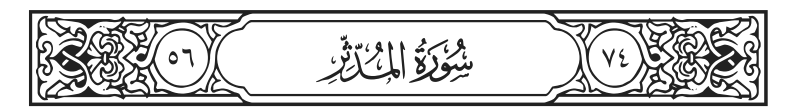
٦ - ذكر العام بعد الخاص ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ عمَّم بعد ذكر الصلاة، والزكاة، والإنفاق ليعم جميع الصالحات.

٧ - الاستعارة التبعية ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ شبَّه الإحسان إلى الفقراء والمساكين بإقراض رب العالمين، وهو من لطيف الاستعارة.

٨ - السجع المُرَصَّع مثل ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ﴿١٢﴾ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا﴾ الخ.

«انتهى تفسير سورة المزمل»





مكية وآياتها ست وخمسون

بين يدي السورة

* سورة المدثر مكية، شأنها كسابقتها -سورة المزمل- تتحدث عن بعض جوانب من شخصية الرسول الأعظم ﷺ، ولهذا سميت سورة المدثر.

* ابتدأت السورة الكريمة بتكليف الرسول بالنهوض بأعباء الدعوة، والقيام بمهمة التبليغ بجد ونشاط، وإنذار الكفار، والصبر على أذى الفجار، حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾.

* ثم توالت السورة تنذر وتهدد أولئك المجرمين بيوم، عصيب شديد لا راحة لهم فيه، لما فيه من الأهوال والشدائد ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾.

* وبعد ذلك البيان الذي يرتعد له الإنسان، تحدثت السورة عن قصة ذلك الشقي الفاجر «الوليد بن المغيرة» الذي سمع القرآن وعرف أنه كلام الله، ولكنه في سبيل الزعامة وحب الرئاسة زعم أنه من قبيل السحر الذي تعارفه البشر ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ۝١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ۝١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾[1].

* ثم تحدثت السورة عن النار التي أوعد الله بها الكفار، وعن خزنتها الأشداء، وزبانيتها الذين كلفوا بتعذيب أهلها، وعددهم والحكمة من تخصيص ذلك العدد ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ...﴾ الآيات.

---

(١) (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: «يَا عَمُّ، إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالاً». قَالَ: «لِمَ؟». قَالَ: «لِيُعْطُوكَهُ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتُعْرِضَ لِمَا قِبَلَهُ». قَالَ: «قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالاً». قَالَ: «فَقُلْ فِيهِ قَوْلاً يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ». قَالَ: «وَمَاذَا أَقُولُ؛ فَوَاللهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَوَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ». قَالَ: «لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ». قَالَ: «فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ»، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: «هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ يَأْثُرُهُ مِنْ غَيْرِهِ فَنَزَلَتْ ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾. (رواه الحاكم في المستدرك، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، والألباني). (الرجز): إنشاد الشعر، وهو بحر من بحوره عند العروضيين. (أثر الحديث): ذكَرَه ونَقَله عن غيره. (طَلَاوَة/ طُلَاوَة/ طِلَاوَة): حُسْن، ورَوْنَق. (مُغْدِق): كثير المياه.

* وأقسمت السورة بالقمر وضيائه[(١)]، والصبح وبهائه، على أن جهنم إحدى البلايا العظام ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾.

* ثم تحدثت السورة عن الحوار الذي يجري بين المؤمنين والمجرمين، في سبب دخولهم الجحيم ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ الآيات.

* وختم السورة ببيان سبب إعراض المشركين عن الإيمان ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ

---

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ ». وَفِي رِوَايَةٍ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ » (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ ابنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلَا، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم).

اللغَة: ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ المتغطي بثيابه، تدثر: لبس الدثار وهو الثوب الذي فوق الشعار، والشعار الثوب الذي يلي الجسد، ومنه حديث « الأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ »[١]

﴿ٱلنَّاقُورِ﴾ الصور الذي ينفخ فيه، والنقر في كلام العرب الصوت، سمي ناقورًا لأنه يخرج منه صوت عظيم رهيب، يَفزَع الناس منه ويموتون[٢] ﴿عَبَسَ﴾ قطَّب بين عَينيه[٣] ﴿وَبَسَرَ﴾ كلح وجهه وتغير لونه[٤] قال الليث: عَبَس إذا قَطَّب ما بين عينيه، فإن أبدَى عن أسنانه في عبوسه قيل: كَلَح، فإن اهتم في الأمر وفكر فيه قيل: بَسَر، فإن غضب مع ذلك قيل: بَسَل[٥] ﴿أَسۡفَرَ﴾ أضاء وانكشف ﴿ٱلۡكُبَرِ﴾ الدواهي وعظائم المصائب والعقوبات قال الراجز:

يَا ابْنَ الْمُعَلَّى نَزَلَتْ إِحْدَى الْكُبَرِ ... دَاهِيَةُ الدَّهْرِ وَصَمَّاءُ الغَبَرْ[٦]

﴿قَسۡوَرَةٍ﴾ أسد، من القسر وهو القهر، سمي بذلك لأنه يقهر السباع، وقيل: هم جماعة الرماة الذين يتصيدون، قال الأزهري: هو اسم جمع للرماة لا واحد له من جنسه قال لبيد:

إِذَا مَا هَتَفْنَا هَتْفَةً فِي نَدِيِّنَا ... أَتَانَا الرِّجَالُ الصَّائِدُونَ الْقَسَاوِرُ[٧]

سَبَبُ النّزول: روي أنه لما نزل قوله تعالى ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم إن ابن أبي كبشة -يعني محمدًا ﷺ- يتوعدنا ويخوفنا بجهنم، ويخبر أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الجمع العظيم، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم!! فقال «أبو الأشد الجمحي»: أنا أكفيكم منهم سبعة عشر، واكفوني اثنين، فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ...﴾ الآية[٨].

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ أي يا أيها المتغطي بقطيفته يريد النوم والراحة، قم من

---

(١) (ش): رواه البخاري ومسلم. (الأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ): أي: انهم بمنزلة ذلك الثوب، وإنهم الخاصة والبطانة وأَلْصَق الناس بي،، والناس هم العامة.

(٢) (ش): الصور: بوقٌ يُنفخ فيه.

(٣) (ش): أي ضَمَّ جِلد مَا بَين عَيْنَيْهِ وَجلد جَبهته، وصَار كريه الْوَجْه.

(٤) (ش): كلَح الشَّخصُ: عَبَس وأفرطَ في العبوس من ضيق أو حزن.

(٥) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٢٠١.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٨٣.

(٧) «البحر المحيط» ٨/ ٣٦٩. (ش): هتَف الشَّخصُ: صاح مادًّا صوتَه. النَدِيّ: النَادِي: المُنتدَى: مجلس القوم ومتحدَّثُهم، مكان يجلس القوم فيه ويتبادلون الحديث.

(٨) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٠٣، و«تفسير الخازن» ٤/ ١٧٧. (ش): دَاهِيَةُ الدَّهْرِ وَصَمَّاءُ الغَبَرْ: أي بَلِيَّةٌ لاَ تَكَادُ تَذْهَبُ، إِن ذُكِرتْ يَقُولُونَ لَا تَسْمَعُوهَا فإنها عَظِيمَةٌ. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد. وعن السدي؛ قال: لما نزلت: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾؛ قال رجل من قريش يدعى أبا الأشدين: يا معشر قريش! لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة وبمنكبي الأيسر التسعة؛ فأنزل الله -تعالى-: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ (ضعيف جدًا، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، و«لباب النقول» ونسبه لابن أبي حاتم).

مضجعك قيام عزم وتصميم، وحذر الناس من عذاب الله إن لم يؤمنوا، خوطب ﷺ بهذا اللفظ «المدثر» مؤانسة له ﷺ وتلطفًا، كما خوطب بلفظ ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ في السورة السابقة قال المفسرون: كان ﷺ يتعبد في غار حراء فجاءه جبريل بالآيات الكريمة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ..﴾ [العلق: ١] الآيات وهي أول ما نزل عليه من القرآن، فرجع يرجف فؤاده فقال لخديجة: زملوني، زملوني فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ① قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ » [المزمل: ١٢] الآيات ثم فتر الوحي فحزن ﷺ فبينا هو يمشي سمع صوتًا من السماء، فرفع رأسه فإذا الملك الذي جاءه بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فعَرَاهُ ﷺ من رؤيته الرعب والفزع[1]، فجاء إلى أهله فقال: دثروني، دثروني فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ﴾[2] قال القرطبي: وفي هذا النداء ملاطفة في الخطاب، من الكريم إلى الحبيب، إذ ناداه بوصفه ولم يقل «يا محمد» ليستشعر اللين والملاطفة من ربه، ومثله قول النبي ﷺ لحذيفة بن اليمان يوم الخندق: «قم يا نومان»[3]

---

(١) (ش): عَرَاهُ: أصابه، غَشِيَه، أَلَمَّ به.

(٢) هذه الرواية ذكرها الطبري عن جابر بن عبد الله كذا في الطبري ٢٩/ ٩٠. (ش): عن جابر بْنِ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ – قَالَ فِي حَدِيثِهِ: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ» قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «فَجُئِثْتُ مِنْهُ فَرَقًا فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. فَدَثَّرُونِي فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ وَهِيَ الأَوْثَانُ قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ الْوَحْيُ. (رواه البخاري ومسلم). فَجُئِثْتُ: ففزعتُ.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٦٠. (ش): عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ». فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ثُمَّ قَالَ « أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ». فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ثُمَّ قَالَ: « أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ». فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ فَقَالَ « قُمْ يَا حُذَيْفَةُ فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ ». فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ. قَالَ: « اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ ». فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ « وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ ». وَلَوْ رَمَيْتُهُ لأَصَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «قُمْ يَا نَوْمَانُ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). قَوْلُهُ (كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ فَقَالَ رَجُلٌ لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ فَقَالَ لَهُ حُذَيْفَةُ مَا قَالَ) مَعْنَاهُ أَنَّ حُذَيْفَةَ فَهِمَ مِنْهُ أَنَّهُ لَوْ أَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ لَبَالَغَ فِي نُصْرَتِهِ وَلَزَادَ عَلَى الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فَأَخْبَرَهُ بِخَبَرِهِ فِي لَيْلَةِ الأَحْزَابِ وَقَصَدَ زَجْرَهُ عَنْ ظَنِّهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ أَكْثَرَ مِنْ فِعْلِ الصَّحَابَةِ. (قُرٌّ): بَرْدٌ. (قُرِرْتُ): أَيْ بَرَدْتُ. (وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ) لَا تُفْزِعْهُمْ عَلَيَّ وَلَا تُحَرِّكْهُمْ عَلَيَّ وَقِيلَ مَعْنَاهُ لَا تُنَفِّرْهُمْ وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْمَعْنَى الْأَوَّلِ وَالْمُرَادُ لَا تُحَرِّكْهُمْ عَلَيْكَ فَإِنَّهُمْ إِنْ أَخَذُوكَ كَانَ ذَلِكَ ضَرَرًا عَلَيَّ لِأَنَّكَ رَسُولِي وَصَاحِبِي. (كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ) يَعْنِي أَنَّهُ لَمْ يَجِدِ الْبَرْدَ الَّذِي يَجِدُهُ النَّاسُ وَلَا مِنْ تِلْكَ الرِّيحِ الشَّدِيدَةِ شَيْئًا بَلْ عَافَاهُ اللهُ مِنْهُ بِبَرَكَةِ إِجَابَتِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَذَهَابِهِ فِيمَا وَجَّهَهُ لَهُ وَدُعَائِهِ ﷺ لَهُ وَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ اللُّطْفُ بِهِ وَمُعَافَاتُهُ مِنَ الْبَرْدِ حَتَّى عَادَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا رَجَعَ وَوَصَلَ =

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ أي عظِّم ربك، وخُصَّه بالتمجيد والتقديس، وأَفْرِدْه بالعظمة والكبرياء، فليس هناك من هو أكبر من الله قال الألوسي: أي اخصص ربك بالتكبير، وهو وصفه تعالى بالكبرياء والعظمة، اعتقادًا وقولًا[١]، وإنما ذكرت هذه الجملة بعد الأمر بالإنذار، تنبيهًا للنبي ﷺ على عدم الاكتراث بالكفار، فإن نواصي الخلائق بيد الجبار، فلا ينبغي أن يبالي الرسول بأحد من الخلق، ولا أن يرهب سوى الله، فإن كل كبير مقهور تحت عظمته تعالى وكبريائه ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ أي وثيابك فطهرها من النجاسات والمستقذَرات، فإن المؤمن طيبٌ طاهر، لا يليق منه أن يحمل الخبيث، قال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه[٢] وقال ابن عباس: كنَّى بالثياب عن القلب. والمعنى: وقلبك فطهر من الإثم والمعاصي واستشهد بقول غيلان:

فَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ لا ثَوْبَ فَاجِرٍ لَبِسْتُ وَلَا مِنْ غَـدْرَةٍ أَتَـقَـنَّعُ[٣]

يقول العرب: فلان طاهر الثياب أو نقي الثياب، يريدون وصفه بالنقاء من المعايب وذميم الصفات، ويقولون: فلان دنس الثياب إذا كان موصوفًا بالأخلاق الذميمة قال الرازي: والسبب في حسن هذه الكناية، أن الثوب كالشيء الملازم للإنسان، فلهذا السبب جعلوا الثوب كناية عن الإنسان، فقالوا: المجدُ في ثوبه، والعفة في إزاره[٤] ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ أي اترك عبادة الأصنام والأوثان ولا تقربها[٥] قال ابن زيد: الرجز: الآلهة التي كانوا يعبدونها، فأمره أن يهجرها فلا يأتيها ولا يقربها وقال الإمام الفخر: الرجز: اسم للقبيح المستقذر كالرجس قال تعالى ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] وقوله ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ كلام جامع لمكارم الأخلاق، كأنه قيل له: اهجُر الجفاء، والسفَه، وكُلَّ قبيح، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين، والمراد بالهجر الأمر بالمداومة على ذلك الهجران، كما يقول المسلم: ﴿ ٱهۡدِنَا

= عَادَ إِلَيْهِ الْبَرْدُ الَّذِي يَجِدُهُ النَّاسُ وَهَذِهِ مِنْ مُعْجِزَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. وَلَفْظَةُ الْحَمَّامِ عَرَبِيَّةٌ وَهُوَ مُذَكَّرٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الْحَمِيمِ وَهُوَ الْمَاءُ الْحَارُّ. (يَصْلِي ظَهْرَهُ) أَيْ يُدْفِئُهُ وَيُدْنِيهِ مِنْهَا. (كَبِدِ الْقَوْسِ) هُوَ مِقْبَضُهَا وَكَبِدُ كُلِّ شَيْءٍ وَسَطُهُ. (أَصْبَحْتُ) أَيْ طَلَعَ الْفَجْرُ. (قُمْ يَا نَوْمَانُ) النَّوْمَانُ: كَثِيرُ النَّوْمِ وَأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي النِّدَاءِ. [باختصار من شرح صحيح مسلم للنووي (١٢/ ١٤٥-١٤٦).

(١) روح المعاني ٢٩/ ١١٦.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٦٨.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٩١، واختار ابن جرير القول الأول وقال: هو أظهر. (ش): بِحَمْدِ اللهِ: والحَمْدُ للهِ. لاَ ثَوْبَ فَاجِرٍ لَبِسْتُ: لم أَلبِسْ ثَوْبَ فَاجِرٍ، أي لم أفعل فِعْل الفُجَّار. أَتَقَنَّعُ: أستُر وجهي. غدَر فلانًا/ غدَر بفلان: خانه، نقَض عهدَه وترَك الوفاء به. وَلَا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ: أي لم أغدر بأحد فأستتر من الناس من عار ذلك الفعل.

(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٩٢.

(٥) «تفسير الطبري» ٢٩/ ٩٣.

﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ليس معناه أنه ليس على الهداية، بل المراد ثبتنا على هذه الهداية[١] ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ أي ولا تعط الناس عطاء وتستكثره، لأن الكريم يستقِلّ ما يعطِي وإن كان كثيرًا[٢]، وأَعْطِ عطاءَ من لا يخاف الفقر وقال ابن عباس: لا تُعطِ عطيَّةً تلتمس بها أفضل منها[٣] بمعنى: لا تُعطِ شيئًا لتُعطَى أكثر منه، وسر النهي أن يكون العطاء خاليًا عن انتظار العوض تعفُّفًا وكمالًا، فإن النبي ﷺ مأمور بأشرف الآداب وأجَلّ الأخلاق ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ أي اصبر على أذى قومك، ابتغاء وجه ربك.. ثم أخبر تعالى عن أهوال القيامة وشدائدها فقال: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ أي فإذا نفخ في الصور، نفخة البعث والنشور، وعبر عن النفخ وعن الصور، بالنقر في الناقور لبيان هول الأمر وشدته، فإن النفر في كلام العرب معناه الصوت وإذا اشتد الصوت أصبح مفزعًا، فكأنه يقول: إصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أذاهم، وتلقى عاقبة صبرك، ولهذا قال بعده ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾ أي فذلك اليوم يوم شديد هائل، يشتد فيه الهول ويعسر الأمر عليهم، والإشارة بالبعيد ﴿فَذَٰلِكَ﴾ للإيذان ببعد منزلته في الهول والفظاعة[٤] ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ أي هو عسير على الكافرين، غير هَيِّنٍ ولا يسير عليهم، لأنهم يُناقَشُون الحساب[٥]، وتَسْوَدُّ وجوههم، ويُحشرون زرقًا، ويفتضحون على رءوس الأشهاد، قال الصاوي: ودلت الآية على أنه يسير على المؤمنين، لأنه قيد عسره بالكافرين، وفيها زيادة وعيد وغيظ للكافرين، وبشرى وتسلية للمؤمنين[٦]. ثم أخبر عن قصة ذلك الشقي الكافر «الوليد بن المغيرة» وقوله الشنيع في القرآن فقال ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾

---

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٩٣.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٦٠.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٦٨.

(٤) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٠٨.

(٥) (ش): عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ». فَقُلْتُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ فَقَالَ «لَيْسَ ذَاكِ الْحِسَابُ إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ». وفي رواية: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ » (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). (مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ): نُوقِشَ: اُسْتُقْصِيَ عَلَيْهِ. (عُذِّبَ): أي أَنَّهُ مُفْضٍ إِلَى الْعَذَابِ بِالنَّارِ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ التَّقْصِيرَ غَالِبٌ فِي الْعِبَادِ فَمَنِ اُسْتُقْصِيَ عَلَيْهِ وَلَمْ يُسَامَحْ هَلَكَ وَدَخَلَ النَّارَ وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى يَعْفُو وَيَغْفِرُ مَا دُونَ الشِّرْكِ لِمَنْ يَشَاءُ. (إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ) أي تُعرَض الأعمال على الشخص حتى يُقِرّ؛ فإذا أقَرَّ بها قال الله تعالى له: «سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ». قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ أَتَعرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعرِفُ ذَنْبَ كَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ». (رواه البخاري ومسلم). فمن يشأ الله أن يعفوَ عنه يحاسبه الحسابَ اليسير الذي فسره النبي ﷺ بالعرض. أما الذين يدخلون النار بذنوبهم فهم ممن يُناقَش الحساب.

(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٦٥.

أي دعني يا محمد وهذا الشقي، الذي خلقته في بطن أُمه وحيدًا فريدًا، لا مال ولا ولد، ولا حول له ولا مدد، ثم كفر بي وكذب بآياتي قال المفسرون: نزلت في «الوليد بن المغيرة» كان من أكابر قريش، ولذلك لقب الوحيد وريحانة قريش، وقد أنعم الله عليه بنعم الدنيا من المال والبنين، وأغدق عليه الرزق فكان ماله كالنهر الدافق، وكان للوليد بستان في الطائف لا ينقطع ثمره صيفًا ولا شتاء، فكفر بأنعم الله وبدلها كفرًا، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها، وفيه نزل ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ وهو أسلوب بليغ في التهديد، كما نزلت فيه الآيات المتقدمة في سورة نون[١]، ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ..﴾ إلى ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ [القلم] وهو الذي آذى رسول الله ﷺ وكاد له، فإن صناديد قريشٍ لما بَرِمُوا برسول الله[٢]، وضاقت عليهم الحيل في إسكاته، وإطفاء نور دعوته، لجئوا إلى الوليد فأشار عليهم بأن يلقبوه ﷺ بالساحر، ويأمروا عبيدهم وصبيانهم أن ينادوا بذلك في مكة، فجعلوا ينادون: إن محمدًا ساحر، فحزن لذلك رسول الله ﷺ فنزلت الآيات الكريمة في معرض تهديده وتخويفه، ليكون ذلك أدعى للكسر من كبريائه ثم قال تعالى ﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا﴾ أي جعلت له المال الواسع المبسوط، من الإبل، والخيل، والغنم، والبساتين النضرة قال البيضاوي: ﴿مَّمۡدُودٗا﴾ أي مبسوطًا كثيرًا، وكان له الزرع والضرع والتجارة[٣] قال ابن عباس: كان ماله ممدودًا ما بين مكة والطائف وقال مقاتل: كان له بستان لا ينقطع نفعه شتاء ولا صيفًا[٤] ﴿وَبَنِينَ شُهُودٗا﴾ أي وأولادًا مقيمين معه في بلده، يحضرون معه المحافل والمجامع، يستأنس بهم ولا يتنغَّص عيشه لفراقهم قال المفسرون: كان له عشرة بنين لا يفارقونه سفرًا ولا حضرًا، وكان مستأنسًا بهم وله بهم عز ومنعة، أسلم منهم ثلاثة: «خالد، وهشام، والوليد»[٥] وبعد أن ذكر من مظاهر النعم

---

(١) انظر ما كتبناه في سورة «ن» حول قصة الوليد بن المغيرة من هذا التفسير. (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: «يَا عَمُّ، إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا». قَالَ: «لِمَ؟». قَالَ: «لِيُعْطُوكَهُ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتُعْرِضَ لِمَا قِبَلَهُ». قَالَ: «قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا». قَالَ: «فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ». قَالَ: «وَمَاذَا أَقُولُ؛ فَوَاللهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَوَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ». قَالَ: «لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ». قَالَ: «فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ»، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: «هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ يَأْثُرُهُ مِنْ غَيْرِهِ فَنَزَلَتْ ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾. (رواه الحاكم في المستدرك، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، والألباني). (الرجز): إنشاد الشعر، وهو بحر من بحوره عند العروضيين. (أثر الحديث): ذكَره ونَقَله عن غيره. (طَلَاوة/ طُلَاوة/ طِلَاوة): حُسْن، ورَوْنق. (مُغْدِق): كثير المياه.

(٢) (ش): بَرِمُوا: مَلُّوا وضَجِروا.

(٣) «تفسير البيضاوي» ٢/ ٤٩٢.

(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٩٨.

(٥) ذكر بعض المفسرين تبعًا للزمخشري أن الذين أسلموا «خالد، وعمارة، وهشام» والصحيح أنه الوليد فأما عمارة فإنه مات كافرًا، وانظر حاشية الشهاب ٨/ ٢٧٤.

المال والبنين عاد فعمم الخيرات الدنيوية التي أنعم بها الله عليه فقال ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ أي بسطت بين يديه الدنيا بسطًا، ويسرت له تكاليف الحياة، ومظاهر الجاه والعز والسيادة، فكان في قريش عزيزًا منيعًا، وسيدًا مطاعًا ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾ أي ثم بعد هذا العطاء الجزيل يطمع أن أزيد له في ماله وولده وقد كفر بي قال الفخر الرازي: لفظ ﴿ثُمَّ﴾ هنا للإنكار والتعجب، كما تقول لصاحبك: أنزلتك داري، وأطعمتك وأكرمتك ثم أنت تشتمني[1]! (أي ومع كل هذا الإنعام والإكرام فقد كفر وجحد، وبدل أن يشكر الوليد لربه هذا الإحسان، ويقابله بالطاعة والإيمان، عكس الأمر وقابله بالجحود والكفران ﴿كَلَّآۖ﴾ ردع وزجر أي ليرتدع هذا الفاجر الأثيم عن ذلك الطمع الفاسد، ثم علل ذلك بقوله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾ أي لأنه معاند للحق، جاحد بآيات الله، مكذب لرسوله، فكيف يطمع بالزيادة هذا الشقي العنيد؟ ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ أي سأكَلِّفه وأُلْجِئُه إلى عذاب صعب شاق لا يُطاق، تَضعُف عنه قوتُه كما تضعف قوة من يصعد في الجبل قال القرطبي: ﴿صَعُودًا﴾ صخرة ملساء يُكلَّف صعودها، فإذا صار في أعلاها حدر في جهنم، فيهوي ألف عام قبل أن يبلغ قرارها[2] وفي الحديث « الصَّعُودُ: جَبَلٌ مِنْ نَارٍ، يَصْعَدُ فِيهِ سَبْعِينَ خَرِيفًا، ثُمَّ يَهْوِي بِهِ كَذَلِكَ فِيهِ أَبَدًا »[3] ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ أي إنه فكر في شأن النبي والقرآن، وأجال رأية وذهنه الثاقب، ثم رتب وهيأ كلامًا في نفسه، ماذا يقول في القرآن؟ وبماذا يطعن فيه؟ قال تعالى دعاء عليه: ﴿فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾ أي قاتله الله وأخزاه على تلك الكلمة الحمقاء التي أجالها في نفسه، حيث قال عن القرآن، إنه سحر، وقال عن محمد إنه ساحر، وفي الآية استهزاء به وتَهَكُّم، حيث قَدَّر ما لا يصح تقديرُه، ولا يسُوغُ أن يقوله عاقل[4] قال في البحر: يقول العرب عند استعظام الأمر والتعجب منه: قاتله الله، ومرادهم أنه قد بلغ المبلغ الذي يُحسد عليه ويُدعَي عليه من حُسَّاده، والاستفهام في قوله ﴿كَيۡفَ قَدَّرَ﴾؟ في معنى ما أعجب تقديره وما أغربه به؟ كقولهم أي رجل هذا؟ أي ما أعظمه![5] ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾ كرر العبارة تأكيدًا لذمه وتقبيحًا لحاله، ولغاية التهكم به، كأنه قال: قاتله الله ما أروع تفكيره، وأبدع رأيه الحصيف![6] حيث قال عن القرآن إنه سحر يؤثر؟ قال المفسرون: مر الوليد بالنبي ﷺ وهو يصلي ويقرأ القرآن، فاستمع لقراءته وتأثر بها، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام

---

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٩٩.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٧٢.

(٣) أخرجه الترمذي والحاكم وصححه. (ش): رواه أحمد والترمذي، وضعفه الألباني.

(٤) (ش): لا يسُوغُ: لا يجوز ولا يُبَاح.

(٥) «البحر المحيط» ٨/ ٣٧٤.

(٦) هذا كما قال الزمخشري: ثناء عليه بطريق الاستهزاء والتهكم بمعنى أن ما أتى به في غاية الركاكة والسقوط.

الجن، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمُثمِر، وإن أسفله لمُغدِق، وإنه ليعلُو وما يُعلَى عليه، ثم انصرف إلى منزله، فقالت قريش: لقد صبأ والله الوليد، ولتصبأن قريش كلها. فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فانطلق حتى جلس إلى جانب الوليد حزينًا، فقال له الوليد: ما لي أراك حزينًا يا ابن أخي؟ فقال: كيف لا أحزن وهذه قريش تجمع لك مالًا ليعينوك به على كبر سنك، ويزعمون أنك زيَّنْت كلام محمد وصبأتَ لتصيب من فضل طعامه، وتنال من ماله، فغضب الوليد وقال: ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالًا وولدًا؟ وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام؟ ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم: تزعمون أن محمدًا مجنون. فهل رأيتموه، يُخنَق؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن. فهل رأيتموه تكهن قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه شاعر: فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟ قالوا اللهم لا، قال: تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه كذبًا قط؟ قالوا اللهم لا، فقالت قريش للوليد: فما هو؟ ففكر في نفسه ثم قال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرِّق بين الرجل وأهله وولده، وما هذا الذي يقوله إلا سحر يؤثر، فذلك قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ الآيات[1] تركنا الوليد يفكر ويقدر، ولنرجع إليه لنرى ماذا فعل بعد، قال تعالى ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي أجَالَ النظر مرة أُخرى متفكرًا في شأن القرآن ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أي ثم قَطَّب وجهه وكَلَّحُه ضِيقًا بما يقول ﴿وَبَسَرَ﴾ أي وزاد في القبض والكُلُوح، كالمهتم المتفكر في أمر يدبِّره قال في التسهيل: البُسُور تقطيب الوجه وهو أشد من العُبُوس[2] ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي ثم أعرض عن الإيمان، وتكبر عن اتباع الهدى والحق ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي فقال: ما هذا الذي يقوله محمد إلا سحر ينقله ويرويه عن السحرة ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ أي ليس هذا كلام الله، وما هو إلا كلام المخلوقين، يخدع به محمد القلوب، ويؤثر فيها كما يؤثر السحر بالمسحور قال الألوسي: هذا كالتأكيد للجملة الأولى، لأن المقصود منهما نفي كونه قرآنا أو من كلام الله تعالى، ولذلك لم يعطف عليها بالواو، وفي وصف إشكاله واستنباطه هذا القول السخيف استهزاء به، وإشارة إلى أنه عن الحق بمعزل، ويظهر من تتبع أحوال الوليد، أنه إنما قال ذلك عنادًا وحمية جاهلية، لا جهلًا بحقيقة الحال[3]، ألا ترى ثناءه على القرآن ونفيه عنه جميع ما نسبوا إليه من الشعر والكهانة والجنون!! ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أي سأدخله جهنم يتلظَّى حرها، ويذوق عذابها ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾؟ استفهام للتهويل والتفظيع، أي: وما أعلمك أي شيء هي سقر؟ ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾ أي لا تبقي على شيء فيها إلا أهلكته، ولا تترك أحدًا من الفجار إلا أحرقته قال

---

(١) انظر «تفسير القرطبي» ١٩/ ٧٣ و«الخازن» ٤/ ١٧٦ و«التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٠١ وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام. (ش): وانظر التعليق في مقدمة السورة.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٦١.

(٣) «روح المعاني» ٢٩/ ١٢٤.

ابن عباس: لا تبقي من الدم والعظم واللحم شيئًا، فإذا أعيد خلقهم من جديد تعاود إحراقهم بأشد مما كانت وهكذا أبدًا[١] ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي تلوح وتظهر لأنظار الناس من مسافات بعيدة لعظمها وهو لها كقوله تعالى ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦] قال الحسن: تلوح لهم من مسيرة خمسمائة عام حتى يروها عيانًا[٢] فهي بارزة إلى أنظارهم، يرونها من غير استشراف ولا مدِّ أعناق ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي خزنتها الموكلون عليها تسعة عشر ملكًا من الزبانية الأشداء كقوله تعالى ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] قال ابن عباس: «ما بين منكبي الواحد منهم مسيرة سنة، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمِقْمَع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان في قعر جهنم»[٣] قال الألوسي: روي عن ابن عباس أنها لما نزلت ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أُمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة -يعني محمدًا- يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدَّهم أي العدد الشجعان، أفيعجز كل عشرةٍ منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأشد الجمحي: وكان شديد البطش أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين، فأنزل الله ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾[٤] أي وما جعلنا خزنة النار إلا من الملائكة الغلاظ الشداد، ولم نجعلهم من البشر حتى يصارعوهم ويغالبوهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لم نجعل ذلك العدد إلاَّ سببًا لفتنة وضلال المشركين، حين استقلوا بعددهم واستهزءوا حتى قال أبو جهل: أفيعجز كل مائةٍ منكم أن يبطشوا بواحدٍ منهم ثم تخرجون من النار؟[٥] قال الطبري: وإنما جعل الله الخبر عن عدة خزنة جهنم فتنةً للكافرين، لتكذيبهم بذلك وقول بعضهم لأصحابه على سبيل الاستهزاء أنا أكفيكموهم[٦] ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي ليتيقن أهل الكتاب من صدق

---

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٠٢.

(٢) اختار بعض المفسرين أن معنى: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي محرقة للجلود مسودة لها، تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل وإن: «البشر» جمع بشرة وهي جلدة الإنسان الظاهرة، والظاهر ما ذكرناه لأن الله تعالى ذكر من وصفها بتسويد البشرة بعد ذلك، وما اخترناه هو ما رجحه القرطبي ونسبه إلى ابن عباس وكذلك ما رجحه الإمام الفخر ارازي والله أعلم.

(٣) (ش): ذكره القرطبي في «تفسيره» بدون إسناد.
مِقْمع: مِقْمعة:، خشبة أو حديدة معوجَّة الرَّأس يُضرب بها رأسُ الإنسان أو الحيوان لإهانته وإذلاله. والجمع مَقامِعُ. وَقِيلَ: الْمَقَامِعُ: الْمَطَارِقُ.

(٤) «تفسير الألوسي» ٢٩/ ١٢٦. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد. وعن السدي؛ قال: لما نزلت: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾؛ قال رجل من قريش يدعى أبا الأشدين: يا معشر قريش! لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة وبمنكبي الأيسر التسعة؛ فأنزل الله -تعالى-: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ (ضعيف جدًا، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، و«لباب النقول» ونسبه لابن أبي حاتم).

(٥) تفيسر القرطبي ١٩/ ٧٩.

(٦) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٠١.

محمد، وأن هذا القرآن من عند الله، إذ يجدون هذا العدد في كتبهم المنزَّلة ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ أي ويزداد المؤمنون تصديقًا لله ورسوله، بما يشهدان من صدق أخبار نبيهم ﷺ وتسليم أهل الكتاب لما جاء في القرآن موافقًا للتوراة والإنجيل ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي ولا يشك أهل الكتاب والمؤمنون في عددهم، وهذا تأكيدٌ لما قبله لأنه لما ذكر اليقين نفى عنهم الشك، فكان قوله ﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾ مبالغة وتأكيدًا[1]، وهو ما يسميه علماء البلاغة الإطناب ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ أي وليقول الذين في قلوبهم شك ونفاق والكافرون من أهل مكة: أيَّ شيء أراد الله بهذا القول العجيب، الذي هو مثل في الغرابة والبداعة؟ ولماذا يخوفنا بواسطته من سقر وخزنتها التسعة عشر؟ قال الرازي: إثبات اليقين في بعض الأحوال لا ينافي حصول الارتياب بعد ذلك، فالمقصود من إعادة هذا الكلام هو أنه حصل لهم يقين جازم بحيث لا يحصل عقيبه البتة شك ولا ريب، وقد كان ﷺ يعلم من حال قريش أنه متى أخبرهم بهذا العدد العجيب فإنهم يستهزئون به ويضحكون منه، ولذلك بيَّن تعالى الغاية من ذكر هذا الخبر أوضح بيان[2] ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي مثل ما أضلَّ الله أبا جهل وأصحابه، يضلُّ الله عن الهداية والإيمان من أراد إضلاله، ويهدي من أراد هدايته[3]، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي وما يعلم عدد الملائكة، وقوتهم وضخامة خلقهم، وكثرتهم إلا الله رب العالمين، وفي الآية ردٌّ على أبي جهل حين قال: أما لربِّ محمد أعوان إلاّ تسعة عشر؟ ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي وما هذه النار التي وصفها لكم الجبار، إلا موعظة وتذكرة للخلق ليخافوا ويطيعوا ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾ ﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر ثم أقسم الله تعالى بالقمر على أن سقر حق[4]، ونشر ضياءه على الأرجاء

---

(١) نقل هذا القول صاحب التسهيل عن الزمخشري.

(٢) «التفسير الكبير» بشيء من التصرف ٣٠/ ٢٠٦.

(٣) قال علماء التوحيد: ليس معنى إضلال الله لفريق وهدايته لفريق أنه تعالى يجبر كلا منهما على الضلالة والهدى، ولا أنه تعالى يكرههم على سلوك سبيلي الخير والشر، كلا فإن هذا الإكراه مُنافٍ للعدل الإلهي بل مُنافٍ لحكمة التشريع السماوي، ولا يتفق مع نصوص الشريعة المتواترة القاطعة، الدالة على أن العبد له إرادة واختيار، هما مناط التكليف والمؤاخذة وكذلك فهم الصحابة والسلف الصالح سأل رجلٌ عليا رضي الله عنه فقال: أكان مسيرك إلى الشام – يعني لقتال أهلها– بقضاء الله وقدره؟! فقال له: ويحك، لعلك ظننت قضاء لازمًا، وقدرًا حاتمًا، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد إن الله سبحانه أمر عباده تخييرًا، ونهاهم تحذيرًا وكلف يسيرًا ولم يكلف عسيرًا، ولم ينزل الكتب للعباد عبثًا، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلًا: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ اهـ، وعلى ضوء هذا يفهم معنى الهداية والإضلال.

(٤) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ ابْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلاَ، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ =

﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ﴾ أي إن جهنم لإحدى الدواهي الكبيرة، والبلايا الخطيرة، فكيف يستهزئون بها ويكذبون؟ قال أبو حيان: أقسم تعالى بهذه الأشياء تشريفًا لها، وتنبيهًا على ما يظهر فيها من عجائب الله وقدرته، وقوام الوجود بإيجادها، أقسم على أن جهنم إحدى الدواهي العظيمة التي لا نظير لها[١] وفي الآية إيماء إلى أن الشمس والقمر مخلوقان لله، وأنهما في حركاتهما وإدبارهما وإسفارهما، ونشوء الليل والنهار عنهما، مسخران لأمره تعالى، ساجدان بين يدي قدرته وقهره، فكيف يحسن بالبشر أن يعبدوهما ويكفروا بالإله الذي خلقهما؟ ثم قال تعالى عن جهنم ﴿نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ﴾ أي هي إنذار للخلق ليتقوا ربهم ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ أي لمن أراد من العباد أن يتقرب الى ربه بفِعْل الخيرات أو يتأخر بفعل الموبقات قال في البحر: والمراد بالتقدم والتأخر: السبق الى الخير والتخلف عنه كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾[٢] [الكهف: ٢٩] قال ابن عباس: من شاء اتبع طاعة الله، ومن شاء تأخر عنها بمعصيته[٣] ﴿كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ أي كل نفس محبوسة بعملها، مرهونةٌ عند الله بكَسْبها، ولا تُفَكّ حتى تؤدي ما عليها من الحقوق والعقوبات ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي إلا فريق السعداء المؤمنين، فإنهم فكوا رقابهم وخلَّصوها من السجن والعذاب، بالإيمان وطاعة الرحمن ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي هم في جناتٍ وبساتين لا يُدرَك وصفُها، يسأل بعضهم بعضًا عن حال المجرمين الذين في النار، والسؤال لزيادة تبكيت أولئك المجرمين وتوبيخهم، وإدخال الألم والحسرة على نفوسهم، يقولون لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾؟ ما الذي أدخلكم جهنم، وجعلكم تذوقون سعيرها؟ قال في البحر: وسؤالهم سؤال توبيخ لهم وتحقير، وإلاّ فهم عالمون ما الذي أدخلهم النار[٤] ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ أي قال المجرمون مجيبين للسائلين: لم نكن من المصلين في الدنيا لرب العالمين ﴿وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾ أي ولم نكن نتصدق ونحسن إلى الفقراء والمساكين قال ابن كثير: مرادهم في الآيتين: ما عبدنا ربنا، ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا[٥] ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾ أي وكنا نتحدث بالباطل مع أهل الغواية والضلالة، ونقع معهم فيما لا ينبغي من الأباطيل قال في التسهيل: والخوض هو كثرة الكلام

= تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ» (رواه البخاري ومسلم). والمعنى ليرتدعْ أولئك المستهزئون بالوحي والقرآن عن فعلهم وسوء صنيعهم، وأُقسم بالقمر ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ أي وأُقسم بالليل حين ولّى بظلمته ذاهبًا ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ أي وبالصبح إذا تبلَّج وأضاء. (ش): تبلَّج الصُّبحُ: أشرق وأضاء.

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٣٧٨.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٣٧٩.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٠٣.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٣٨٠.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٧٣.

بما لا ينبغي من الباطل وشبهه[١] ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي نكذب بيوم القيامة، وبالجزاء والمعاد، وإِنما أخر التكذيب بيوم الدين تعظيمًا له، لأنه أعظم جرائمهم وأفحشها ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ أي حتى جاءنا الموت ونحن في تلك المنكرات والضلالات، قال تعالى معقبًا على اعترافهم بتلك الجرائم ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ أي ليس لهم شافع ينقذهم من عذاب الله، ولو شفع لهم أهل الأرض ما قُبِلَتْ شفاعتهم فيهم قال ابن كثير: من كان متصفًا بمثل هذه الصفات، فإِنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه، لأن الشفاعة إنما تنجع إِذا كان المحل قابلًا، فأما من وافى الله كافرًا فإِنه مخلد في النار أبدًا[٢] ولما ذكر تعالى قبائحهم وشنائعهم عاد بالتوبيخ والتقريع عليهم فقال ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾؟ فما لهؤلاء المشركين معرضين عن القرآن وآياته، وما فيه من المواعظ البليغة والنصائح والإِرشادات؟ ﴿كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾ أي كأن هؤلاء الكفار حمر وحشية نافرة وشاردة ﴿فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ﴾ أي هربت ونفرت من الأسد من شدة الفزع قال في البحر: شبههم تعالى بالحُمُر النافرة مذمَّةً لهم وتهجينًا[٣] وقال ابن عباس: الحمر الوحشية إِذا عاينت الأسد هربت، كذلك هؤلاء المشركون إِذا رأوا محمدًا ﷺ هربوا منه كما يهرب الحمار من الأسد ثم قال: والقسورة: الأسد[٤] ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾ أي بل يطمع كل واحد من هؤلاء المجرمين أن ينزل عليه كتاب من الله كما أُنزل على محمد ﷺ، ويريد أن يتنزَّل عليه الوحي كما تنزَّل على الرسل والأنبياء، والغرض من الآية بيان إمعانهم في الضلالة وكأنه يقول: دع عنك ذكر إِعراضهم وغباوتهم ونفارهم نفار العجماوات مما فيه خيرهم وسعادتهم، واستمع لما هو أعجب وأغرب، وذلك طمع كل فردٍ منهم أن يكون رسولًا يوحى إِليه، وهيهات أن يصل الأشقياء إلى مراتب الأنبياء، ثم قال تعالى ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي ليرتدعوا وينزجروا عن مثل ذلك الطمع، بل الحقيقة أنهم قوم لا يصدقون بالبعث والحساب، ولا يؤمنون بالنعيم والعذاب، وهذا هو الذي أفسدهم وجعلهم يعرضون عن مواعظ القرآن ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ كرَّر الردع والزجر لهم بقوله ﴿كَلَّآ﴾ ثم قال ﴿إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ أي إِنَّ هذا القرآن موعِظةٌ بليغةٌ، كافية لاتِّعاظهم لو أرادوا لأنفسهم السعادة ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي فمن شاء اتعظ بما فيه، وانتفع بهداه ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي وما يتعظون به إِلا أن يشاء الله لهم الهدى فيتذكروا ويتعظوا، وفيه تسلية للنبي ﷺ وترويح عن قلبه الشريف، مما كان يخامره من إِعراضهم وتكذيبهم له ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ أي هو جل وعلا أهلٌ لِأن يُتَّقى لشدة عقابه، وأهل لأن يَغفِر الذنوب لكرمه

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٦٢.
(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٧٣.
(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٣٨٠. (ش): هجَّن الأمرَ، تهجينًا: قبَّحه وعَابَه.
(٤) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٢١٢.

وسعة رحمته، قال الألوسي: حقيق بأن يُتَّقَى عذابُه ويؤمَن به ويُطاع وحقيقٌ بأن يَغفِر لمن آمن به وأطاعه»[1]. وفي الحديث عن أنس «أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ ثم قال: «قَالَ رَبُّكُمْ: أَنَا أَهْلٌ أَنْ أُتَّقَى، فَلَا يُجْعَلْ مَعِي إِلَهٌ، فَمَن اتَّقى أَنْ يَجْعَلَ مَعِي إِلَهًا، كَانَ أَهْلًا أَنْ أَغْفِرَ لَهُ»[2].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿عَسِيرٌ .. يَسِيرٍ﴾ كما أن بين اللفظتين جناس الاشتقاق.

٢ - المقابلة بين ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ وبين ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾.

٣ - الإطناب بتكرار الجملة ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ زيادة في التوبيخ والتشنيع.

٤ - جناس الاشتقاق ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾.

٥ - تقديم المفعول لإفادة الاختصاص ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾.

٦ - الطباق بين ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وبين ﴿يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾.

٧ - أسلوب التقريع والتوبيخ بطريق الاستفهام ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾؟

٨ - التشبيه التمثيلي ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

٩ - الإيجاز بحذف بعض الجمل ﴿يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾؟ أي قائلين لهم: ما سلككم في سقر، فحذف اعتمادًا على فهم المخاطبين.

١٠ - الاستفهام للتهويل والتفخيم ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾؟

١١ - ذكر الخاص بعد العام ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ خصَّه بالذكر مع أنه داخل في الخوض بالباطل مع الخائضين لبيان تعظيم هذا الذنب[3].

١٢ - السجع المرصَّع مثل ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝٣٢ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝٣٤ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ ومثل ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المدثر»



---

(١) ٢٩/ ١٣٥.

(٢) رواه أحمد والترمذي وحسنه. (ش): ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وأشار الحافظ ابن كثير إلى ضعفه، وضعفه الألباني والأرنؤوط.

(٣) (ش): قال تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر: ٤٥، ٤٦].



مكية وآياتها أربعون

بين يدي السورة

* سورة القيامة مكية، وهي تعالج موضوع «البعث والجزاء» الذي هو أحد أركان الإيمان، وتركز بوجه خاص على القيامة وأهوالها، والساعة وشدائدها، وعن حالة الإنسان عند الاحتضار، وما يلقاه الكافر في الآخرة من المصاعب والمتاعب، ولذلك سميت سورة القيامة.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة، على أن البعث حق لا ريب فيه ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾.

* ثم ذكرت طرفًا من علامات ذلك اليوم المهول، الذي يخسف فيه القمر، ويتحير البصر، ويجمع فيه الخلائق والبشر للحساب والجزاء ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾.

* وتحدثت السورة عن اهتمام الرسول بضبط القرآن عند تلاوة جبريل عليه، فقد كان عليه السلام يجهد نفسه في متابعة جبريل، ويحرك لسانه معه ليسرع في حفظ ما يتلوه، فأمره تعالى أن يستمع للتلاوة ولا يحرك لسانه به ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾.

* وذكرت السورة انقسام الناس في الآخرة إلى فريقين: سعداء وأشقياء، فالسعداء وجوههم مضيئة تتلألأ بالأنوار، ينظرون إلى الرب جل وعلا، والأشقياء وجوههم مظلمة قاتمة يعلوها الذل والقترة ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ۝٢٣ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾.

* ثم تحدثت السورة عن حال المرء وقت الاحتضار، حيث تكون الأهوال والشدائد، ويلقى الإنسان من الكرب والضيق ما لم يكن في الحسبان ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ۝٣٠ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾.

* وختمت السورة الكريمة بإثبات الحشر والمعاد بالأدلة والبراهين العقلية ﴿أَيَحۡسَبُ

ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

اللغَة: ﴿بَنَانَهُۥ﴾ البَنان: أطراف الأصابع أو الأصابع نفسها جمع بنانة قال النابغة:

بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كَأَنَّ بَنَانَهُ ... عَنَمٌ يَكَادُ مِنَ اللَّطَافَةِ يُعْقَدُ [(١)]

﴿بَرِقَ﴾ فزع وبُهت وتحيَّر، وأصله النظر إلى البرق فيدهش البصر قال ذو الرمة:

وَلَوْ أَنَّ لُقْمَانَ الْحَكِيمَ تعرَّضَتْ ... لِعَيْنَيْهِ مَيٌّ سَافِرًا كَادَ يَبْرُقُ [(٢)]

﴿وَزَرَ﴾ ملجأ وحصن يتلجىء إليه ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ حَسَنةٌ مُشرِقة متهلّلة، والنُضرة: النعمة وجمال البشـرة والإشـراقة الجميلة ﴿بَاسِرَةٌ﴾ شـديدة الكلوحة والعبوس يقال: بَسرَ وجهه إذا اشتد في عبوسه وكلاحته[(٣)] ﴿فَاقِرَةٌ﴾ الفاقرة: الداهية والأمر العظيم يقال: فَقَرته المصيبة، أي: كسرت

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٩٢. (ش): النابغة الذبياني شاعر جاهلي من الطبقة الأولى. سَقَطَ النصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ فتناولَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بالْيَدِ بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كَأَنَّ بَنَانَهُ عَنَمٌ يَكادُ مِنَ اللَطافَةِ يُعْقَدُ النصيف: الخمار: ما تغطي به المرأة رأسها ووجهها وعنقها وجيبها. وَاتَّقَتْنا باليَدِ: احترست بيدها. أي إنها عندما سقط خمارها عن وجهها، التقطَتْه بيدها، وغطَّت وجهها بيدها الأخرى. بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ: رَخْص: رطِب. يقصد يدها الليِّنة الملساء المخضَّبة، أي التي تغيّر لونُها بالحِنّاء. كَأَنَّ بَنانَهُ عَنَمٌ يَكادُ مِنَ اللَطافَةِ يُعقَدِ: شبَّه أصابع يدها بشجر لين الأغصان. وفي البيت إقواء: وهو اختلاف حركة الرَويّ (الحَرْفُ الذي تُبنَى عليه القصيدة). فحركة الروِيّ في البيت الأول الكسرة (بالْيَدِ). وفي البيت الثاني تغيرت حركة الرَويّ من الكسرة إلى الضمة (يُعقَدُ).

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٣٨٢. (ش): سَافِرًا: بارزة الوجه قد ألقت عنها نقابها. يَبْرُقُ: يبقى مفتوح العين كالمتحير.

(٣) (ش): كلَح الشَّخصُ: عَبَس وأفرطَ في العبوس من ضيق أو حزن.

فَقَار ظهره[١] ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ يتبختر في مشيته اختيالاً وكِبْرًا.

التفسير: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي أقسم بيوم القيامة، يوم الحساب والجزاء ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ أي وأقسم بالنفس المؤمنة التقية، التي تلوم صاحبها على ترْك الطاعات، وفعل الموبقات قال المفسرون: ﴿لَآ﴾ لتأكيد القسم، وقد اشتهر في كلام العرب زيادة ﴿لَآ﴾ قبل القسم لتأكيد الكلام، كأنه من الوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج إلى قسم، وجوابُ القسم محذوف تقديره «لتبعثنَّ ولتحاسبنَّ» دل عليه قوله ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾؟[٢].. أقسم تعالى بيوم القيامة لعِظَمِه وهوْله، وأقسم بالنفس التي تلوم صاحبها على التقصير في جنب الله، وتستغفر وتنيب مع طاعتها وإحسانها قال الحسن البصري: هي نفس المؤمن، إن المؤمن ما تراه إلا يلوم نفسه: ماذا أردتُ بكلامي؟ وماذا أردتُ بعملي؟ وإن الكافر يمضي ولا يحاسب نفسه ولا يعاتبها[٣] ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي أيظن هذا الإنسان الكافر، المكذِّب للبعث والنشور، أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرقها؟ قال المفسرون: نزلت هذه الآية في «عدي بن ربيعة» جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، حدثني عن يوم القيامة، متى يكون؟ وكيف أمره؟ فأخبره رسول الله ﷺ فقال: لو عاينْتُ ذلك اليوم لم أصدِّقْك يا محمد ولم أومن بك، كيف يجمع الله العظام؟ فنزلت هذه الآية[٤]، قال تعالى ردًّا عليه[٥] ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أي بلى نجمعها ونحن قادرون على أن نعيد أطراف أصابعه، التي هي أصغر أعضائه، وأدقها أجزاءً وألطفها التئامًا، فكيف بكبار العظام؟ وإنما ذكر تعالى البنان، وهي رءوس الأصابع لما فيها من غرابة الوضع، ودقة الصنع، لأن الخطوط والتجاويف الدقيقة التي في أطراف أصابع إنسان، لا تماثلها خطوطٌ أُخرى في أصابع شخص آخر على وجه الأرض، ولذلك يعتمدون على بصمات الأصابع في تحقيق شخصية الإنسان في هذا العصر ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أي بل يريد الإنسان بهذا الإنكار أن يستمر على الفجور، ويقدم على الشهوات والآثام، دون وازع من خُلُق أو دين، وينطلق كالحيوان ليس له هَمٌّ إلا نَيْل شهواته البهيمية، ولذلك ينكر القيامة ويكذب بها ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي

---

(١) (ش): فَقارة: واحدة من عظام السِّلسلة العظميَّة الظهريّة الممتدّة من الرأس إلى العُصْعُص، وهي خرزات منضَّدَة بعضها فوق بعض وفيها النّخاع الشَّوكي وتتفرَّع خلالها الأعصاب الشَّوكيَّة. والجمع فَقَار.

(٢) انظر التسهيل ٤/ ١٦٣، والألوسي ٢٩/ ١٣٥، وحاشية الصاوي ٤/ ٢٧٠.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ١٨٢.

(٤) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٢٧١. (ش): ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٥) ثبت علميًا أن بشرة الأصابع مغطاة بخطوط دقيقة متناهية في الدقة، منها ما هو على كل بشكل «أقواس، أو عراوٍ، أو دوَّامات» وهذه الخطوط لا يمكن أن يشابه إنسان فيها آخر، ولهذا اعتمدَتْها الدول رسميًا وأصبحت تميز الإنسان ببصمة الإبهام، فتبارك الله أحسن الخالقين. انظر ما كتبناه في كتابنا «التبيان في علوم القرآن» حول هذه المعجزة العلمية ص ١٣٦.

يسـأل هذا الكافر الفاجر على سبيل الاسـتهزاء والتكذيب متى يكون هذا اليوم يوم القيامة؟[١] قال الرازي: والسؤال هنا سؤال مُتعَنِّتٍ ومُستبعِدٍ لقيام الساعة، ونظيره ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [يونس: ٤٨]؟ ولذلك ينكر المعاد ويكذب بالبعث والنشـور، والغرض من الآية ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أن الإنسان الذي يميل طبعه إلى الاسترسال في الشهوات، والاستكثار من اللذات، لا يكاد يُقر بالحشـر والنشـر، وبعث الأمـوات، لئلا تتنغص عليه اللذات الجسـمانية، فيكـون أبدًا منكرًا لذلك، قائلًا على سبيل الهزء والسخرية: أيَّان يومُ القيامة، قال تعالى ردًا على هؤلاء المنكرين: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي فإذا زاغ البصر وتحيَّر، وانبهر من شـدة الأهوال والمخاطر ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي ذهـب ضوءه وأظلم ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي جمـع بينهما يوم القيامة، وأُلْقِيَا في النار ليكونا عذابًا على الكفار قال عطاء: يُجمَعان يوم القيامة ثم يُقذَفان في البحر، فيكون نار الله الكبرى[٢] ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي يقـول الفاجـر الكافر في ذلـك اليوم: أين المهـرب؟ وأين الفرار والمنجـى مـن هذه الكارثة الداهية؟ يقول قول الآيِس، لعلْمـه بأنه لا فرار حينئذٍ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ ردعٌ لـه عـن طلب الفـرار، أي ليرْتـدِع وينزَجِر عن ذلك القـول، فلا ملجأ لـه، ولا مُغِيث من عـذاب الله ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ أي إلـى الله وحده مصير ومرجع الخلائق قال الألوسـي: إليه جل وعلا وحده استقرار العباد، لا ملجأ ولا منجى لهم غيره[٣]... والمقصود من الآيات بيان أهوال الآخرة، فالأبصار تنبهر يوم القيامة، وتخشـع وتحَارُ من شدة الأهوال[٤]؛ ومن عِظَم ما تشـاهده من الأمـور العظيمة، والإنسـان يطيـش عقله، ويذهب رشـده، ويبحث عـن النجاة والمخلص، ولكن هيهات فقد جاءت القيامة وانتهت الحياة ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي يُخبر الإنسان في ذلك اليوم بجميع أعماله، صغيرها وكبيرها، عظيمها وحقيرها، ما قدَّمه منها في حياته، ما أخره بعد مماته، من سنةٍ حسنة أو سيئة، ومن سمعة طيبةٍ أو قبيحة[٥] وفي الحديث «مَنْ سَـنَّ فِى الإِسْـلَامِ سُـنَّةً حَسَـنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَىْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِى الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَـىْءٌ»[٦] ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ أي بل هو شـاهد على نفسه،

---

(١) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٢١٨.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١١٣، وروى عن مجاهد أن المراد كُوِّرَا كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ وقيل: المراد جُمِعا فطلعَا من المغرب، ولا يناسبه لأن الكلام عن القيامة.

(٣) «روح المعاني» ٢٩/ ١٤٠.

(٤) (ش): حار بصرُه: ارتدَّ بعد أن عجز عن مواصلة النَّظر إلى الشَّيء.

(٥) هذا معنى ما روى عن ابن عباس وابن مسعود وهو الأرجح. وقيل: بما قدم في أول عمره وما أخر في آخره.

(٦) الحديث في الصحاح. (ش): عَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِى صَدْرِ النَّهَارِ قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِى النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ مُتَقَلِّدِى السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ =

وسوء عمله، وقُبْح صَنِيعه، لا يحتاج إلى شاهد آخر كقوله ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] والهاءُ في ﴿بَصِيرَةٌ﴾ للمبالغة كراوِيَة وعلاَّمَة قال ابن عباس: الإنسان شاهد على نفسه وحده، يشهد عليه سمعُه، وبصرُه، ورِجْلاه، وجوارحُه[١] ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي ولو جاء بكل معذرة ليبرِّر إجرامه وفجوره، فإنه لا ينفعه ذلك، لأنه شاهدٌ على نفسه، وحُجةٌ بَيِّنَةٌ عليها قال الفخر: المعنى أن الإنسان وإن اعتذر عن نفسه، وجادل عنها، وأتى بكل عذر وحجة، فإنه لا ينفعه ذلك لأنه شاهد على نفسه بما جَنَت واقترفَتْ من الموبقات[٢]. وبعد هذا البيان انتقل الحديث إلى القرآن، وطريقة تلقي الوحي عن جبريل فقال تعالى مخاطبًا رسوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أي لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي عليك بواسطة جبريل، لأجل أن تتعجل بحفظه مخافة أن يتفلَّت منك ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي إن علينا أن نجمعه في صدرك يا محمد وأن تحفظه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي فإذا قرأه عليك جبريل، فأَنصِتْ

= «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ وَالآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ – حَتَّى قَالَ – وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ». قَالَ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ – قَالَ – ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَىْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَىْءٌ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). المجتاب: اللابس. المذهبة: الشيء المموه بالذهب. النمار: جمع نمرة وهي كساء فيه خطوط بيض وسود تلبسه الأعراب قال الإمام الشاطبي ﵀: «لَيْسَ الْمُرَادُ بِالْحَدِيثِ الِاسْتِنَانَ بِمَعْنَى الِاخْتِرَاعِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ الْعَمَلُ بِمَا ثَبَتَ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَذَلِكَ لِوَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ السَّبَبَ الَّذِي جَاءَ لِأَجْلِهِ الْحَدِيثُ هُوَ الصَّدَقَةُ الْمَشْرُوعَةُ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ السُّنَّةَ هَاهُنَا مِثْلُ مَا فَعَلَ ذَلِكَ الصَّحَابِيُّ، وَهُوَ الْعَمَلُ بِمَا ثَبَتَ كَوْنُهُ سُنَّةً، فَكَأَنَّهَا كَانَتْ سُنَّةً أَيْقَظَهَا رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ بِفِعْلِهِ، فَلَيْسَ مَعْنَاهُ: مَنِ اخْتَرَعَ سُنَّةً وَابْتَدَعَهَا وَلَمْ تَكُنْ ثَابِتَةً. فَإِذًا؛ قَوْلُهُ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً»، مَعْنَاهُ: مَنْ عَمِلَ بِسُنَّةٍ، لَا مَنِ اخْتَرَعَ سُنَّةً. وَالْوَجْهُ الثَّانِي مِنْ وَجْهَيِ الْجَوَابِ: أَنَّ قَوْلَهُ: مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً؛ لَا يُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ مِنْ أَصْلٍ، لِأَنَّ كَوْنَهَا حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً لَا يُعْرَفُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ، فَلَزِمَ أَنْ تَكُونَ السُّنَّةُ فِي الْحَدِيثِ إِمَّا حَسَنَةً فِي الشَّرْعِ وَإِمَّا قَبِيحَةً بِالشَّرْعِ، فَلَا يَصْدُقُ إِلَّا عَلَى مِثْلِ الصَّدَقَةِ الْمَذْكُورَةِ وَمَا أَشْبَهَهَا مِنَ السُّنَنِ الْمَشْرُوعَةِ، وَتَبْقَى السُّنَّةُ السَّيِّئَةُ مُنَزَّلَةً عَلَى الْمَعَاصِي الَّتِي ثَبَتَ بِالشَّرْعِ كَوْنُهَا مَعَاصِيَ، كَالْقَتْلِ الْمُنَبَّهِ عَلَيْهِ فِي حَدِيثِ ابْنِ آدَمَ، حَيْثُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ، (رواه البخاري). وَعَلَى الْبِدَعِ، لِأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ ذَمُّهَا وَالنَّهْيُ عَنْهَا بِالشَّرْعِ، (انظر: الاعتصام (١/ ١٧٩ – ١٨١). فالحديث لا يُثبت الابتداع الحسن في الإسلام، فقد قال ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً»، ولم يقل: «من ابتدع في الإسلام بدعة حسنة». وقد ردّ النبي ﷺ قول الثلاثة الذين قال أحدهم: «أما أنا فأنا أصلى الليل أبدًا»، وقال آخر: «أنا أصوم الدهر ولا أفطر» وقال آخر: «أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا»، وقال لهم: «من رغب عن سنتي فليس مني» (رواه البخاري). مع أن لفعلهم هذا أصلًا في الشرع من الصلاة والصيام؟

(١) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١١٥.

(٢) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٢٢.

لاستماعه حتى يفرغ، ولا تحرِّك شفتَيْك أثناء قراءته ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي ثم إن علينا بيان ما أشكل عليك فهمه يا محمد من معانيه وأحكامه، قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يعالِج من التنزيل شدةً، فكان يحرك به لسانه وشفتيه، مخافة أن ينفلت منه يريد أن يحفظه فأنزل الله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ ..﴾ الآيات، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام أطرق[1] واستمع، فإذا ذهب قرأه كما وعد الله عَزَّ وَجَلَّ[2] قال ابن عباس ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قال: فاستمعْ وأَنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ قال: أن نبينه بلسانك[3] وقال ابن كثير: كان ﷺ يبادِر إلى أخْذ القرآن، ويُسابِق الملك في قراءته، فأمره الله عَزَّ وَجَلَّ أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن يبينه له ويوضحه، فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوتُه، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه[4] ثم عاد الحديث عن المكذبين بيوم الدين فقال تعالى مخاطبًا كفار مكة: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي ارتَدِعوا يا معشر المشركين، فليس الأمر كما زعمتم أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء، بل أنتم قومٌ تحبون الدنيا الفانية، وتَتْركون الآخرة الباقية، ولذلك لا تفكرون في العمل للآخرة مع أنها خيرٌ وأبقى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ لما ذكر تعالى أن الناس يُؤْثِرون الدنيا ولذائذها الفانية على الآخرة ومسَرَّاتها الباقية، وَصَف ما يكون يوم القيامة من انقسام الخلق إلى فريقين: أبرار، وفُجَّار، والمعنى وجوه أهل السعادة يوم القيامة مشرقة حسنة مضيئة، من أثر النعيم، وبشاشة السرور عليها، كقوله تعالى ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤] ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي تنظر إلى جلال ربها، وتهيم في جماله، أعظم نعيم لأهل الجنة رؤية المولى جلَّ وعلا والنظر إلى وجهه الكريم بلا حجاب. قال الحسن البصري: تنظر إلى الخالق، وحُقَّ لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق[5]، وبذلك وردت النصوص الصحيحة[6] ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ﴾ أي ووجوهٌ يوم القيامة عابسة كالحة، شديدة العبوس والكلوح، وهي وجوه الأشقياء أهل الجحيم ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي تتوقع أن

---

(١) (ش): (أَطْرَقَ): سكت وأرخى عينيه ينظر إلى الأرض منصِتا متفهِّمًا.

(٢) أخرجه الشيخان وأحمد.

(٣) هذه الرواية عن ابن عباس ثابتة في الصحيحين.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٧٦.

(٥) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٢٠.

(٦) هذا هو مذهب أهل السنة، ويؤيده ما ورد في الصحيحين: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ» الحديث وفي صحيح مسلم: «فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ» وأنكر المعتزلة رؤية الله في الآخرة وأوَّلوا الآية: ﴿نَاظِرَةٌ﴾ بمعنى منتظرة تنتظر ثواب ربها، وهذا باطل لأن «نظر» بمعنى انتظر يتعدى بغير حرف الجر، وانظر الأدلة وافية في «تفسير الخازن» ٤/ ١٨٦.
(ش): المعنى أن «نظر» بمعنى «انتظر» يتعدى بغير حرف الجر، فلا يقال: نظر إلى الثواب، بمعنى انتظر الثواب. بل يقال: نظر الثواب - بدون حرف الجر «إلى».

تنـزل بهـا داهية عظمى، تقصِم فَقَار الظهر، قال ابن كثير: هـذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة كالحة عابسـة، تسـتيقن أنها هالكة[١]، وتتوقع أن تَحِلَّ بها داهيةٌ تكسـر فَقَار الظهر ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ وزَجْـر عـن إيثـار العاجلـة، أي: ارتدعوا يا معشـر المشـركين عن ذلك، وتنبهوا لما بين أيديكم من الأهوال والمخاطر، فإن الدنيا دار الفناء، ولا بد أن تتجرعوا كأس المَنِيَّة[٢]، وإذا بلغت الروح ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ أعالي الصدر[٣]، وشارف الإنسان على الموت ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ أي وقـال أهلـه وأقربـاؤه: من يَرقِيه ويشـفِيه ممَّا هو فيـه؟ قال في البحـر: ذكَّرهم تعالى بصعوبـة الموت، وهـو أول مراحل الآخرة، حين تبلغ الروح التراقي وهي عظام أعلى الصدر فقال أهله: من يرقي ويَطُبُّ ويشـفي هذا المريض؟[٤] ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ أي وأيْقن المحتضِر أنه سـيفارق الدنيـا والأهل والمـال، لمعاينته ملائكـة المـوت ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أي والتفَّت إحدى ساقي المحتضر على الأخرى، من شدة كرب الموت وسكراته قال الحسن: هما ساقاه إذا التفَّتـا في الكفـن[٥]، وروي عـن ابن عباس أن المراد اجتمعت عليه شـدة مفارقة الدنيا، مع شـدة كرب الآخرة، كما يقال: شـمَّرت الحرب عن ساق، استعارةً لشدتها[٦] ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ أي إلـى الله جل وعلا مسـاق العباد، يجتمـع عنده الأبرار والفجار، ثم يُسَـاقُون إلى الجنـة أو النار قـال الخازن: أي مرجع العباد إلى الله تعالى، يُسَـاقُون إليه يـوم القيامة ليفصل بينهـم ثـم أخبر تعالى عـن حال الجاحـد المكـذب فقـال ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾[٧] أي لم يصدق بالقـرآن، ولم يصلِّ للرحمن قال أبو حيـان: والجمهور على أنها نزلت في «أبي جهل» وكادت أن تصرح به في قوله ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ فإنها كانت مشيته ومشـية قومه بني مخزوم، وكان يكثر منها[٨] ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي ولكـن كذب بالقرآن، وأعرض عن الإيمان ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي ذهب يتبختر في مشيته، وذلـك عبارة عن التكبر والخيـلاء ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ أي ويلٌ لك يا أيها الشقي ثم ويلٌ لك قال المفسرون: هذه العبارة في لغة العرب ذهبت مذهب المثل في التخويف والتحذيـر والتهديـد وأصلها أنها أفْعَلُ تفضيل من وَلِيَه الشـيء إذا قاربه ودنـا منه، أي: ولِيَك الشـر وأوشـك أن يصيبك، فاحذر وانتبه لأمركذ... روي أن النبي ﷺ أخذ بيد أبي جهل ثم

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٧٨.

(٢) (ش): المَنِيَّة: الموت.

(٣) قال الفخر الرازي: واعلم أنه يكنى ببلوغ النفس التراقي عن القرب من الموت، ومنه قول ابن الصِّمَّةِ:

وَرُبَّ عَظِيمَةٍ دَافَعْتُ عَنْهَا ... وَقَدْ بَلَغَتْ نُفُوسُهُمُ التَّرَاقِي.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٢٣. (ش): يَطُبُّ: يداوي ويعالج.

(٥) انظر البحر المخيط ٨/ ٣٩٠.

(٦) «تفسير الخازن» ٤/ ١٨٧.

(٧) «البحر المحيط» ٨/ ٣٨٩.

(٨) البحر المخيط ٨/ ٣٩١. (ش): رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف جدًا.

قال له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ فقال أبو جهل: أتتوعدني يا محمد وتهددني؟ والله لا تستطيع أنتَ وربُك أن تفعلا بي شيئًا، والله إني لأعزُّ أهل الوادي، ثم لم يلبث أن قُتل ببدر شر قتلة[١]﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ كرره مبالغة في التهديد والوعيد، كأنه يقول: إني أكرر عليك التحذير والتخويف، فاحذر وانتبه لنفسك، قبل نزول العقوبة بك. . ولما ذكر في أول السورة إمكان البعث، ذكر في آخر السورة الأدلة على البعث والنشور فقال ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾؟ أي أفيظن الإنسان أن يُترك هملًا، من غير بعثٍ ولا حساب ولا جزاءٍ؟ وبدون تكليف بحيث يبقى كالبهائم المرسلة؟ لا ينبغي له ولا يليق به هذا الحسبان ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ الاستفهام للتقرير أي أمَا كان هذا الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين، يُرَاقُ ويُصَبُّ في الأرحام؟ والغرض بيان حقارة حاله كأنه يقول: إنه مخلوق من المني الذي يجري مجرى البول ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي ثم أصبح بعد ذلك قطعة من دم غليظ متجمد يشبه العلقة، فخلقه الله بقدرته في أجمل صورة، وسَوَّى صُورتَه وأتقنها في أحسن تقويم ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ أي فجعل من هذا الإنسان صنفين، ذكرًا وأنثى بقدرته تعالى، هذا هو أصل الإنسان وتركيبه، فكيف يليق بمثل هذا الضعيف أن يتكبر على طاعة الله؟ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي أليس ذلك الإله الخالق الحكيم، الذي أنشأ هذه الأشياء العجيبة، وأوجد الإنسان من ماءٍ مهين، بقادرٍ على إعادة الخلق بعد فنائهم؟ بلى إنه على كل شيء قدير. روي أن النبي ﷺ إذا قرأ هذه الآية قال: «سبحانك اللهم بلى»[٢].

---

(١) (ش): عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠] إلى قوله: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، فلما سمع أبو جهل بذلك؛ قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسْمَعُ ابن أبي كبشة يخبركم: أن خزَنة النار تسعة عشر وأنتم الدُّهم، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فأوحي إلى رسول الله ﷺ أن يأتي أبا جهل فيأخذ بيده في بطحاء مكة، فيقول له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾، فلما فعل ذلك به رسول الله ﷺ؛ قال أبو جهل: والله لا تفعل أنت وربك شيئًا، فأخزاه الله يوم بدر» (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بإسناد ضعيف جدًا). وعن قتادة؛ قال: في قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ وعيد على وعيد كما تسمعون، زعم أن هذا أنزل في عدو الله أبي جهل، ذُكر لنا أن نبي الله ﷺ أخذ بمجامع ثيابه، فقال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾، فقال عدو الله أبو جهل: أيوعدني محمد؟! والله ما تستطيع لي أنت ولا ربك شيئًا؛ والله لأنا أعزُّ مَن مشى بين جبليها» (رواه ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم في «تفسيرَيهما» بإسناد ضعيف).

(٢) (ش): عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عَائِشَةَ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يُصَلِّي فَوْقَ بَيْتِهِ وَكَانَ إِذَا قَرَأَ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ قَالَ: «سُبْحَانَكَ فَبَلَى»، فَسَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ -ﷺ.(رواه أبو داود، وصححه الألباني). ويُرْوَى عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « مَنْ قَرَأَ مِنْكُمْ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فَانْتَهَى إِلَى آخِرِهَا ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فَلْيَقُلْ بَلَى وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَمَنْ قَرَأَ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فَانْتَهَى إِلَى ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فَلْيَقُلْ بَلَى وَمَنْ قَرَأَ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ فَبَلَغَ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ فَلْيَقُلْ آمَنَّا بِاللهِ». (رواه أبو داود والترمذي، وضعفه الألباني).

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿قَدَّمَ .. وَأَخَّرَ﴾ وكذلك بين ﴿صَدَّقَ .. وَكَذَّبَ﴾[1].

٢ - الاستفهام الإنكاري بغرض التوبيخ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾؟ ومثله ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾؟ لأن الغاية التوبيخ والتقريع.

٣ - استبعاد تحقق الأمر ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فالغرض من الاستفهام الاستبعاد والإِنكار.

٤ - الجناس غير التام بين ﴿بَنَانَهُۥ﴾ و ﴿بَيَانَهُۥ﴾ لاختلاف بعض الحروف.

٥ - المقابلة اللطيفة بين نضارة وجوه المؤمنين، وكلاحة وجوه المجرمين ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وبين ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ..﴾ الخ.

٦ - الجناس الناقص بين لفظ ﴿ٱلسَّاقُ﴾ و ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾.

٧ - المجاز المرسل ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ عبر بالوجه عن الجملة فهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل.

٨ - الالتفات ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى المخاطب تقبيحًا له وتشنيعًا.

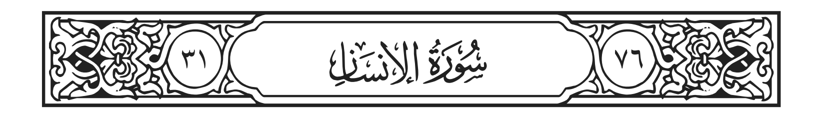
٩ - توافق الفواصل ويسمى في علم البديع السجع المرصَّع مثل ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ وهذا من خصائص القرآن، معجزة محمد عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القيامة»

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) انظر «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٣٣، و«تفسير القرطبي» ١٩/ ١١٣.



مدنية وآياتها إحدى وثلاثون

بين يدي السورة

* سورة الدهر من السور المدنية، وهي تعالج أمورًا تتعلق بالآخرة، وبوجه خاص تتحدث عن نعيم المتقين الأبرار، في دار الخلد والإقامة في جنات النعيم، ويكاد يكون جو السورة هو جو السور المكية لإيحاءاتها وأسلوبها ومواضيعها المتنوعة.

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان قدرة الله في خلق الإنسان في أطوار، وتهيئته ليقوم بما كلف به من أنواع العبادة، حيث جعل الله تعالى له السمع والبصر وسائر الحواس ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾.

* ثم تحدثت عن النعيم الذي أعده الله في الآخرة لأهل الجنة ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾.

*ثم ذكرت أوصاف هؤلاء السعداء بشيء من الإسهاب، فوصفتهم بالوفاء بالنذر، وإطعام الفقراء الذي تكلح فيه الوجوه[1] ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴿٧﴾ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ الآيات.

* وأشادت -بعد ذكر أوصافهم- بما لهم عند الله من الأجر والكرامة في دار الإقامة، وبما حباهم الله من الفضل والنعيم يوم الدين ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾.

* وتتابعت السورة في سرد أهل الجنة في مأكلهم، ومشربهم، وملبسهم، وخدمهم الذين يطوفون عليهم صباح مساء ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ﴿١٦﴾ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا﴾.

* وختمت السورة الكريمة ببيان أن هذا القرآن تذكرة لمن كان له قلب يعي، أو فكر ثاقب يستضيء بنوره ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾.

---

(١) (ش): كلَح الشَّخصُ: عَبَس وأفرطَ في العبوس من ضيق أو حزن.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

اللغَة: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أخلاط جمع مَشْج ومَشِيج مثل شريف و أشراف، يقال للشيء إذا خُلط بغيره: مشيجٌ كخَليط لفظًا ومعنى ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ منتشرًا غاية الانتشار يقال: استطار الشيء انتشر ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ القمطرير: الشديد العصيب الذي يطول بلاؤه قال الأخفش: القمطرير أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء[1] ﴿وَدَانِيَةً﴾ قريبة ﴿وَذُلِّلَتْ﴾ سُخِّرَت وقُرِّبَتْ ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ السلسبيل: الشراب اللذيذ الذي هو غاية في السلالة، والذي يسهل في الحلق لعذوبته وصفائه ﴿سُندُسٍ﴾ السندس: الرقيق من ثياب الحرير ﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾ ثياب الحرير الغليظة ويسمى الديباج ﴿أَسْرَهُمْ﴾ الأسر في الاصل: الشَّدّ والربْط، ثم أطلق على الخلق يقال: شدَّ أَسْره، أي: أحسنَ خلْقه وأحكم تكوينه، قال الأخطل:

مِنْ كُلِّ مُجْتَنِبٍ شَدِيدٍ أَسْرُهُ   سَلِسِ الْقِيَادِ تَخَالُهُ مُخْتَالا[2]

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٣٣.

(٢) نفس المرجع السابق ١٤٩/١٩. (ش): مُجْتَنِبٍ: على وزن مُفْتَعِل، من الجَنِيبَة: وهي الفرس تُقاد ولا تركب وكانوا يركبون الإبل ويجنبون الخيل فإذا صاروا إلى الحرب ركبوا الخيل. وكلُّ طائعٍ مُنْقادٍ جَنِيبٌ. =

التفسير: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ أي قد مضى على الإنسان وقت طويل من الزمان ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ أي كان من العدم، لم يكن له ذكر ولا وجود قال ابن كثير: يخبر تعالى عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئًا يُذْكَر لحقارته وضَعْفه[١] قال المفسرون: ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ بمعنى قد أتى كما تقول: هل رأيت صنيع فلان، وقد علمت أنه قد رآه، وتقول: هل أكرمتك، هل وعظتك؟ ومقصودك أن تقرره بأنك قد أكرمته ووعظته، والمرادُ بالإنسان الجنس، وبالحين مدة لبثه في بطن أمه[٢]، والغرض من الآية تذكير الإنسان بأصل نشأته، فقد كان شيئًا مَنسِيًّا لا يُفْطَن له، وكان في العدم جرثومة في صلب أبيه، وماءً مهينًا لا يعلم به إلا الذي يريد أن يخلقه، ومرَّ عليه حينٌ من الدهر كانت الكرة الأرضية خالية منه، ثم خلقه الله، وأبدع تكوينه وإنشاءه، بعد أن كان مغمورًا ومنسيًّا لا يعلم به أحد.. وبعد أن قرر أن الإنسان مرَّ عليه وقت لم يكن موجودًا، أخذ يشرح كيف أفاض عليه نعمة الوجود، واختبره بالتكاليف الشرعية بعد أن متَّعه بنعمة العقل والحواس فقال ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي نحن بقدرتنا خلقنا هذا الإنسان من ماءٍ مهين وهو المنيُّ الذي ينطف من صلب الرجل، ويختلط بماء المرأة «البويضة الأنثوية» فيتكون منهما هذا المخلوق العجيب قال ابن عباس: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ يعني أخلاط، وهو ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور، ومن حال إلى حال[٣] ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي لنختبره بالتكاليف الشرعية، والأوامر الإلهية، لننظر أَيَشْكُر أم يكفُر؟ وهل يستقيم في سيره أم ينحرف ويزيغ؟ ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي فجعلناه من أجل ذلك عاقلًا مميزًا، ذا سمع وبصر، ليسمع الآيات التنزيلية، ويبصر الدلائل الكونية، على وجود الخالق الحكيم قال الإمام الفخر: أعطاه تعالى ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر، وهما كنايتان عن الفهم والتمييز، كما قال تعالى حاكيًا عن إبراهيم: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾[٤] [مريم: ٤٢]؟ وقد يراد بهما الحاستان المعروفتان، وخصَّهما بالذكر لأنهما أعظم الحواسِّ وأشرفها[٥] ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي بيَّنَّا للإنسان

= سَلِسِ الْقِيَادِ: طيِّع: سهل الانقياد. تَخَالُهُ: تظنُّه. اختالَ الشَّخصُ: تكبّر، تصرَّف بطريقة تدل على التَّباهي. اختال في مَشْيه: تبختر، تمايل كِبْرًا.

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٨٠.

(٢) انظر «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٢٣٥.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٨٠.

(٤) (ش): أنكر إبراهيم عليه السلام على أبيه عندما عبَد ما لا يبصر ولا يسمع، ﴿قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم:٤٢]. فدل هذا على أن الذي لا يسمع ولا يبصر لا يغني شيئًا، وأنه لا يستحق العبادة، والله عز وجل مستحقٌّ للعبادة، وهو الخالق سبحانه وتعالى، فلزم من ذلك: أنه سميع بصير.

(٥) «تفسير الفخر الرازي» ٣٠/ ٢٣٧.

وعرَّفناه طريق الهدى والضلال، والخير والشر، ببعثة الرسل، وإنزال الكتب.. أخبر تعالى أنه بعد أن ركبه وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة، بيَّن له سبيل الهدى والضلال، ومنحه العقل وترك له حرية الاختيار، ثم هو بعد ذلك إما أن يشكر، أو يكفر، ولهذا قال بعده: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي إما أن يكون مؤمنًا شاكرًا لنعمة الله، فيسلك سبيل الخير والطاعة، وإما أن يكون شقيًّا فاجرًا، فيكفر بنعمة الله ويسلك سبيل الشر والفجور قال المفسرون: المراد هديناه السبيل ليكون إمَّا شاكرًا وإمّا كفورًا، فالله تعالى دلَّ الإنسان على سبيل الشكر والكفر، وعلى الإنسان أن يختار سلوك هذا أو ذاك، وهذه الآية من جملة الآيات الكثيرة الدالة على أن للإنسان إرادةً واختيارًا هما مناط التكليف، كقوله تعالى ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ [الإسراء: ١٨] إلى ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾[1] [الإسراء: ١٩]. وكقوله ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] فلا إكراه لأحدٍ ولا إجبار، وإنما هو بمحض الإرادة والاختيار[2].. ثم بعد هذا البيان الواضح، بيَّن ما أعدَّه للأبرار والفجار في دار القرار فقال ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ أي هيأنا للكافرين المجرمين قيودًا تُشَدُّ بها أرجلهم، وأغلالًا تُغَلُّ بها أيديهم إلى أعناقهم، وسعيرًا، أي: نارًا موقدَة مستَعِرة يُحرقون بها كقوله تعالى ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر] ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ أي الذين كانوا في الدنيا أبرارًا بطاعتهم الجبار، فإنهم يشربون كأسًا من الخمر، ممزوجة بأنفس أنواع الطيب وهو الكافور، قال المفسرون: الكافور طيبٌ معروف يستحضر من أشجار ببلاد الهند والصين، وهو من أنفس الطيب عند العرب، والمراد أن من شرب تلك الكأس وجدها في طيب رائحتها، وفوحان شذاها كالكافور[3]. قال ابن عباس: الكافور اسم عين ماءٍ في الجنة يقال له: عين الكافور تمتزج الكأس بماء هذه العين وتختم بالمسك فتكون ألذَّ شراب، ولهذا قال تعالى ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ أي هذا الكافور يتدفق من عينٍ جارية من عيون الجنة يشرب منها عباد الله الأبرار، وصفهم بالعبودية تكريمًا لهم وتشريفًا بإضافتهم إليه تعالى ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ والمراد بهم المؤمنون المتقون ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي يجرو لها حيث شاءوا من الدور والقصور قال الصاوي: المراد أنها سهلة لا تمتنع عليهم، وَرَدَ أن الرجل منهم يمشي في بيوته، ويصعد إلى قصوره وبيده قضيب يشير به إلى الماء، فيجري معه حيثما دار في منازله،

---

(١) (ش): قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩]

(٢) انظر «التفسير الكبير للرازي» ٣٠/ ٢٣٨.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٢٣. (ش): فاحَ الشيءُ، فَوْحًا وفَوَحانًا: انتشرت رائحته. الشَّذا: قوّة الرّائحة.

ويتبعه حيثما صعد إلى أعلَى قصوره[١] ولما ذكر ثواب الأبرار، بيَّن صفاتهم الجليلة التي استحقوا بها ذلك الأجر الجزيل فقال ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ أي يوفون بما قطعوه على أنفسهم مِن نَذْرٍ في طاعة الله[٢]، إذا نذروا طاعةً فعلوها قال الطبري: النذرُ كلُّ ما أوجبه الإنسان على نفسه من فعل، فإذا نذروا بَرُّوا بوفائهم لله بالنذور التي في طاعة الله، من صلاة، وزكاة، وحج، وصدقة قال المفسرون: وهذا مبالغة في وصفهم بأداء الواجبات، لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه، كان بما أوجبه الله عليه أوفى[٣] ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ أي ويخافون هول يوم عظيم كانت أهوالُه وشدائدُه - من تفطُّر السموات، وتناثُر الكواكب، وتَطايُر الجبال، وغير ذلك من الأهوال - ممتدةً منتشرةً فاشيةً، بالغةً أقصى حدود الشدة والفزع، قال قتادة: استطار والله شرُّ ذلك اليوم حتى بلغ السموات السبع والأرض[٤] ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ أي ويطعمون الطعام مع شهوتهم له، وحاجتهم إليه ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ أي فقيرًا لا يملك من حطام الدنيا شيئًا، ويتيمًا مات أبوه وهو صغير، فعدم الناصر والكفيل، وأسيرًا وهو من أُسر في الحرب من المشركين قال الحسن البصري: كان رسول الله ﷺ يُؤتى بالأسير، فيدفعه إلى بعض المسلمين ويقول له: أحسن إليه فيكون عنده اليومين والثلاثة فيُؤْثِره على نفسه[٥].. نبَّه تعالى إلى أن أولئك الأبرار مع حاجتهم إلى ذلك الطعام، في سدِّ جَوْعتهم وجَوْعة عيالهم، يطيبون نفسًا عنه للبؤساء، ويُؤْثِرونهم به على أنفسهم كقوله تعالى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ أي إنما نحسن إليكم ابتغاء مرضاة الله وطلب ثوابه ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي لا نبتغي من وراء هذا الإحسان مكافأةً، ولا نقصد الحمد والثناء منكم قال مجاهد: أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به في قلوبهم، فأثنى عليهم به، ليرغب في ذلك راغب[٦] ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ أي إنما نفعل ذلك رجاء أن يقينا الله هول يوم شديد، تعبس فيه الوجوه من فظاعة أمره، وشدة هوله، وهو يومٌ قمطرير أي شديد عصيب[٧] ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾ أي حماهم الله ودفع عنهم شرَّ ذلك اليوم وشدته ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أي وأعطاهم نضرةً في الوجه، وسرورًا في القلب، والتنكير في ﴿وَسُرُورًا﴾ للتعظيم

---

(١) حاشية الصاوي ٤/ ٢٧٤. (ش): روى أبو نعيم في «حلية الأولياء» عن عبد الله بن شوذب (وهو من أتباع التابعين) أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾: « معهم قضبان الذهب يفجرون ما ينبع بقضبانهم، حيث مالوا مالت معهم ».

(٢) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٢٩.

(٣) انظر «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٤١.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٢٩.

(٥) «روح المعاني» ٢٩/ ١٥٥. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٦) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٨٢.

(٧) قال الطبري: ﴿قمطرير﴾ شديد يقال: يوم قمطرير أي شديد عصيب. اهـ. ٢٩/ ١٣١.

والتفخيم ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي وأثابهم بسبب صبرهم على مرارة الطاعة والإيثار بالمال، جنةً واسعة وألبسهم فيها الحرير كما قال تعالى ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج:٢٣].. وفي الآية إيجازٌ، آخِذٌ بأطراف الإعجاز، فقد أشـار تعالى بقوله ﴿جَنَّةً﴾ إلى ما يتمتع به أولئك الأبرار في دار الكرامة من أصناف الفواكه والثمار، والمطاعم والمشـارب الهنية، فإن الجنة لا تسمَّى جنـة إلا وفيهـا كل أسـباب الراحة كما قـال تعالـى ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١] وأشـار بقوله ﴿وَحَرِيرًا﴾ إلى ما يتمتعون به من أنواع الزينة واللباس، التي من أنفسـها وأغلاها عند العرب الحرير، فقد جمع لهم أنواع الطعام والشراب واللباس، وهو قُصارَى ما تتطلع له نفوس الناس.. ولما ذكر طعامهم ولباسهم وصف نعيمهم ومساكنهم فقـال ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي مضطجعيـن في الجنـة على الأسِـرَّة المُزَيَّنـة بفاخر الثياب والسُّـتور قال المفسـرون: الأرائك جمع أريكة وهي السـرير ترخى عليه الحجلة -والحجلة هي ما يُسـدَل على السـرير مـن فاخر الثياب والسـتور- وإنمـا خصَّهم بهذه الحالـة لأنها أتَمّ حـالات المتنعِّـم ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي لا يجـدون فيهـا حرًا ولا بـردًا، لأن هواءها معتـدل فلا حـرَّ ولا قرَّ[1]، وإنما هي نسـمات تهبُّ مـن العرش تُحْيِـي الأنفاس ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ أي ظلال الأشـجار في الجنة قريبةٌ من الأبرار ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي أُدْنِيَت ثمارُها منهم، وسَهل عليهم تناولُها قال ابن عباس: إذا همَّ أن يتناول من ثمارها تدلَّت إليه حتى يتناول منهـا ما يريد[2].. ولما وصف طعامهم ولباسـهم ومسـكنهم، وصف بعد ذلك شـرابهم فقال ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ أي يدور عليهم الخدم بالأواني الفضية فيها الطعام والشـراب على عـادة أهل الترف والنعيم في الدنيا فيتناول كل واحدٍ منهم حاجته، وهذه الأواني هي الصّحاف بعضها من فضـة وبعضها من ذهب كما قال تعالى ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٧١] قـال الرازي: ولا منافاة بين الآيتين، فتارةً يسـقون بهذا، وتارة بذاك[3] ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ أي وأكواب وهي كالأقداح رقيقة شفافة كالزجاج في صفائه قال في البحر: ومعنى ﴿كَانَتْ﴾ أن الله تعالـى أوجدهـا بقدرته، فيكون تفخيمًا لتلـك الخلقة العجيبة الشـأن، الجامعة بين بياض الفضـة ونصوعها، وشـفيف القوارير وصفائهـا[4] ﴿قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ﴾ أي هي جامعـة بين صفاء الزجاج، وحسـن الفضة قال ابن عباس: ليس في الدنيا شـيء مما في الجنة إلا الأسماء يعني أن ما في الجنة أسمى وأشرف وأعلى ولو أخذت فضةً من فضة الدنيا، فضربتها حتى جعلتها مثل

---

(١) (ش): القَرُّ: البرد.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٣٧.

(٣) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٤٩.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٣٩٧.

جناح الذباب، لم يُرَ الماء من ورائها، ولكنَّ قوارير الجنة ببياض الفضة، مع صفاء القوارير[١] ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي قدَّرها السُّقاة على مقدار حاجتهم، لا تزيد ولا تنقص، وذلك ألذُّ وأشهى قال ابن عباس: أتوابها على قدر الحاجة لا يفضلون شيئًا، ولا يشتهون بعدها شيئًا[٢] ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ أي يسقى هؤلاء الأبرار في الجنة كأسًا من الخمر ممزوجةً بالزنجبيل، والعرب تستلذ من الشراب ما مزج بالزنجبيل لطيب رائحته قال القرطبي: فرغبوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النعمة الطيب[٣] قال قتادة: الزنجبيل اسمٌ لِعَيْنٍ في الجنة يشرب منها المقربون صِرْفًا، وتُمزَج لسائر أهل الجنة[٤] ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ أي يشربون من عين في الجنة تسمى السلسبيل، لسهولة مساغها وانحدارها في الحلق قال المفسرون: السلسبيل: الماء العذب، السهل الجريان في الحلق لعذوبته وصفائه، وإنما وصف بأنه سلسبيل، لأن ذلك الشراب يكون في طعم الزنجبيل، ولكن ليس فيه لذعته، فيشعر الشاربون بطعمه، لكنهم لا يشعرون بحَرَافَته[٥]، فيبقى الشراب سلسبيلاً، سهل المسَاغ في الحلق ثم وصف بعد ذلك خدم أهل الجنة فقال ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي ويدور على هؤلاء الأبرار، غلمانٌ يُنشِئُهم الله تعالى لخدمة المؤمنين ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي دائمون على ما هم عليه من الطراوة والبهاء قال القرطبي: أي باقون على ما هم عليه من الشباب، والنضارة، والغضاضة، والحسن، لا يهرمون ولا يتغيرون، ويكونون على سن واحدة على مَرِّ الأزمنة[٦] ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي إذا نظرتهم منتشرين في الجنة لخدمة أهلها، خلتهم لحسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوهم، كأنهم اللؤلؤ المنثور قال الرازي: هذا من التشبيه العجيب، لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقًا يكون أحسن في المنظر، لوقوع شعاع بعضه على بعض فيكون أرْوَع وأبْدَع[٧]، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أي وإذا رأيت هناك ما في الجنة من مظاهر الأنس والسرور، رأيت نعيمًا لا يكاد يُوصَف، وملكًا واسعًا عظيمًا لا غاية له، كما في الحديث القدسي «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْن رَأَتْ، وَلاَ أُذُن سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[٨] قال ابن كثير: وثبت في الصحيح أن «أقل أهل الجنة منزلةً من له قَدْر الدنيا وعشرة أمثالها»[٩] فإذا كان هذا عطاءه تعالى لأدنى

---

(١) «تفسير الألوسي» ٢٩/ ١٥٩.

(٢) «تفسير الألوسي» ٢٩/ ١٦٠.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٤٠.

(٤) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٣٩٨.

(٥) (ش): الحَرافَة: حِدَّة في الطَّعم تحرِق اللِّسانَ والفمَ وتلذعهما كأثر الفلفل وغيره.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٤١.

(٧) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٥١.

(٨) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٩) (ش): رواه البخاري ومسلم.

من يكون في الجنة، فما ظنك بمن هو أعلى منزلةً وأحْظَى عنده تعالى؟[١] ثم زاد تعالى في بيان وصف نعيمهم فقال ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ أي تعلوهم الثياب الفاخرة الخضراء، المزينة بأنواع الزينة، من الحرير الرقيق وهو السندس والحرير الثخين وهو الإستبرق فلباسهم في الجنة الحرير كما قال تعالى ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣] قال المفسرون: السندس ما رَقَّ من الحرير، والإستبرق ما غَلُظ من الحرير، وهذا لباس الأبرار في الجنة، وإنما قال ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ ليُنبِّه على أن لهم عِدَّةً من الثياب، ولكنَّ الذي يعلوها هي هذه، فتكون أفضلها ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ أي وألبسوا في الجنة أساور فضية للزينة والحلية وعبَّر بالماضي إشارةً لتحقق وقوعه قال الصاوي: فإن قيل: كيف قال هنا ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ وفي سورة الكهف ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١]وفي سورة فاطر ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [فاطر: ٣٣]؟ فالجواب أنهم تارةً يلبسون الذهب فقط، وتارةً يلبسون الفضة، وتارةً يلبسون اللؤلؤ فقط على حسب ما يشتهون، ويمكن أن يجمع في يد أحدهم أسورة الذهب والفضة واللؤلؤ[٢] ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي سقاهم الله فوق ذلك النعيم شرابًا طاهرًا لم تدنسه الأيدي، وليس بنجس كخمر الدنيا قال الطبري: سُقي هؤلاء الأبرار شرابًا طهورًا، ومن طُهْره أنه لايصير بولًا نجسًا، بل رشحًا من أبدانهم كرشح المسك، روي أن الرجل من أهل الجنة يقسم له شهوة مائة رجل من أهل الدنيا، فإذا أكل سقي شرابًا طهورًا، فيصير رشحًا يخرج من جلده أطيب ريحًا من المسك الأذفر[٣] ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ أي يقال لهم بعد دخولهم الجنة ومشاهدتهم نعيمها: هذا مقابل أعمالكم الصالحة في الدنيا ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ أي وكان عملكم مقبولًا مرضيًّا، جوزيتم عليه أحسن الجزاء، مع الشكر والثناء. . مرَّ في الآيات السابقة أن الله تعالى أعدَّ للكافرين السلاسل والأغلال، كما هيأ للأبرار أرائك يتكئون عليها، وعليهم ثياب السندس والإستبرق، وفي معاصمهم أساور الفضة، وبين أيديهم ولدانٌ مخلدون كأنهم اللؤلؤ المنثور، يطوفون على أولئك الأبرار بصحاف الفضة وأكوابها الصافية النقية، وقد مُلِئَتْ شرابًا ممزوجًا بالزجبيل والكافور، وكل ذلك للترغيب والترهيب، على

---

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٨٤. (ش): حظِيَ فلانٌ عند النَّاس: علا شأنُه عندهم وأحبّوه، فهو حَظِيّ.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٧٨.

(٣) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٣٧. (ش): في أكثر من طبعة: «أطيبُ ريحًا من المسك الإذخر»، والتصحيح من «تفسير الطبري». المسك الأذْفَر: المسك شديد الرائحة. والإِذْخِر: جمع إذخرة: نبات طيب الرائحة. وما ذكره المؤلف رواه الطبري عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ في تفسيره للآية. وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ﵁ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالشَّهْوَةِ وَالْجِمَاعِ». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ: «فَإِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ تَكُونُ لَهُ الْحَاجَةُ». فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «حَاجَةُ أَحَدِهِمْ عَرَقٌ يَفِيضُ مِنْ جِلْدِهِ، فَإِذَا بَطْنُهُ قَدْ ضَمُرَ» (رواه أحمد، وصححه الألباني والأرنؤوط). ضمُر الشَّيءُ: انكمش وانضمَّ بعضُه إلى بعض.

طريقة القرآن في المقارنة بين أحوال الأبرار والفجار.. وبعد هذا الوضوح والبيان، كان المشركون يقابلون كل هذه الآيات بالصَّدِّ والإعراض، والاستهزاء بالقرآن وبمحمد عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ، وكان الرسول يتألم ويحزن لموقف المعاندين، لذلك جاءت الآيات تشدُّ من عزيمته، وتُسلِّيه وتخفف عن قلبه الشريفِ آثارَ الهَمِّ والضجر ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ أي نحن الذين أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن مُفرَّقًا، لتُذكِّرهم بما فيه من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، فلا تبتَئِسْ ولا تحزَنْ ولا تَضْجَر[1]، فالقرآن حقٌّ ووعده صدقٌ ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي اصبر يا محمد وانتظر لحكم ربك وقضائه، فلا بدَّ أن ينتقم منهم، ويُقِرَّ عينَك بإهلاكهم، إنْ عاجلًا أو آجلًا[2] ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا﴾ أي ولا تطع من هؤلاء الفجرة من كان ﴿ءَاثِمًا﴾ منغمسًا في الشهوات، غارقًا في الموبقات ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ أي ولا تطع من كان مبالغًا في الكفر والضلال، لا ينزجر ولا يرعوي[3]، وصيغة ﴿كَفُورًا﴾ من صيغ المبالغة ومعناها المبالِغ في الكفر والجحود قال المفسرون: نزلت في «عتبة بن ربيعة» و«الوليد بن المغيرة» قالا للنبي ﷺ: إن كنت تريد النساء والمال فارجع عن هذا الأمر ونحن نكفيك ذلك، فقال عتبة: أنا أُزوجك ابنتي وأسوقها لك من غير مهر، وقال الوليد: أنا أعطيك من المال حتى ترضى فنزلت[4]، والأحسنُ أنها على العموم لأن لفظها عام فهي تشمل كل فاسق وكافر ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي صَلِّ لربك وأَكْثِرْ من عبادته وطاعته ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي في أول النهار وآخره، في الصباح والمساء ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ أي ومن الليل فصَلِّ له، متهجدًا مستغرقًا في مناجاته ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ أي وأَكْثِرْ من التهجد والقيام لربك في جناح الظلام[5] والناس نيام كقوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] والمقصود أن يكون عابدًا لله ذاكرًا له في جميع الأوقات، في الليل والنهار، والصباح والمساء، بقلبه ولسانه، ليتقوى على مجابهة أعدائه.. وبعد تسلية النبي الكريم، عاد إلى شرح أحوال الكفرة المجرمين فقال ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي إن هؤلاء المشركين يفضلون الدنيا على الآخرة، وينهمكون في لذائذها الفانية ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ أي ويتركون أمامهم يومًا عسيرًا شديدًا، عظيم الأهوال والشدائد، وهو يوم القيامة ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أي: نحن بقدرتنا أوجَدْناهم من العدم، وأحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق، حتى كانوا أقوياء أشِدَّاء ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي ولو أردنا أهلكناهم، ثم

---

(١) (ش): ضجِرَ: تبرَّمَ وقَلِقَ، ضاقَ، اغتمَّ.

(٢) (ش): أقرَّ اللهُ عينَه: أعطاه ما يشتهيه ويرضاه.

(٣) (ش): يرعوي: يرتَدِع.

(٤) انظر «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٥٨، و«تفسير القرطبي» ١٩/ ١٤٧، وحاشية الصاوي ٤/ ٢٧٨. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٥) (ش): جَناح: جانب. جُنْح اللَّيْل/ جِنْح اللَّيْل: ظلامه.

بدلنا خيرًا منهم يكونون أعْبَدَ لله وأطْوَعَ، وفي الآية تهديدٌ ووعيد ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ أي هذه الآيات الكريمة بمعناها الدقيق، ولفظها الرشيق، موعظة وذكرى، يتذكر بها العاقل، وينزجر بها الجاهل ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي فمن أراد الانتفاع والاعتبار وسلوك طريق السعادة، فليعتَبِر بآيات القرآن، وليستنِر بنوره وضيائه، وليتَّخِذْ طريقًا موصلًا إلى ربه، بطاعته وطلب مرضاته، فأسباب السعادة ميسورة، وسبل النجاة ممهدة ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي وما تشاءون أمرًا من الأمور، إلا بتقدير الله ومشيئته، ولا يحصل شيء من الطاعة والاستقامة إلا بإذنه تعالى وإرادته، قال ابن كثير: أي لا يقدر أحدٌ أن يهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان، ولا يجر لنفسه نفعًا، إلا بمشيئة الله تعالى[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عالمًا بأحوال خلقه، حكيمًا في تدبيره وصنعه، يعلم من يستحق الهداية فييسِّرها له، ومن يستحق الضلالة فيسهل له أسبابها، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي يدخل من شاء من عباده جنَّته ورضوانه حسب مشيئته وحكمته وهم المؤمنون ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وأما المشركون الظالمون فقد هيأ لهم عذابًا شديدًا مؤلمًا في دار الجحيم، ختم السورة الكريمة ببيان مآل المتقين، ومآل الكفرة المجرمين.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – الطباق بين ﴿شَاكِرًا .. كَفُورًا﴾ وبين ﴿بُكْرَةً .. وَأَصِيلًا﴾ وبين ﴿شَمْسًا .. زَمْهَرِيرًا﴾.

٢ – اللف والنشر المشوش ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟﴾ فإنه قدَّم أولًا ذكر الشاكر ثم الكافر ﴿شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ثم عاد بالذكر على الثاني دون الأول ففيه لف ونشر غير مرتب.

٣ – المجاز العقلي ﴿يَوْمًا عَبُوسًا﴾ إسناد العبوس إلى اليوم من إسناد الشيء إلى زمانه كـ (نهاره صائم).

٤ – الجناس غير التام ﴿فَوَقَىٰهُمُ .. وَلَقَّىٰهُمْ﴾ فبين وقاهم ولقاهم جناس.

٥ – جناس الاشتقاق ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾.

٦ – الطباق ﴿يُحِبُّونَ .. وَيَذَرُونَ﴾.

٧ – الإيجاز بالحذف ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ أي يقال لهم: إن هذا.. إلخ.

٨ – التشبيه البديع الرائع ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي كاللؤلؤ المنتثر.

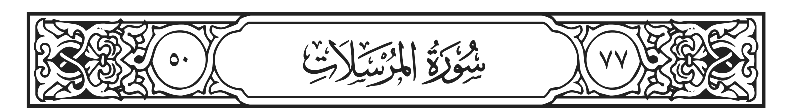
٩ – المقابلة اللطيفة ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ قابل بين المحبة والترك وبين العاجلة والباقية.

١٠ – السجع المرصَّع مثل ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا .. شَرَابًا طَهُورًا .. وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا .. ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الدهر»



(١) ١٤/ ٤٥٨.



مكية وآياتها خمسون

بين يدي السورة

* سورة المرسلات مكية، وهي كسائر السور المكية، تعالج أمور العقيدة، وتبحث عن شئون الآخرة، ودلائل القدرة والوحدانية، وسائر الأمور الغيبية.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بأنواع الملائكة[1]، المكلفين بتدبير شئون الكون، على أن القيامة حق، وأن العذاب والهلاك واقع على الكافرين ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾.

* ثم تحدثت عن وقت ذلك العذاب الذي وُعد به المجرمون ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾.

* وتناولت السورة بعد ذلك دلائل قدرة الله الباهرة على إعادة الإنسان بعد الموت، وإحيائه بعد الفناء ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ الآيات. * ثم تحدثت عن مآل المجرمين في الآخرة وما يلقون فيه من نكال وعقاب ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ الآيات.

* وبعد الحديث عن المجرمين، تحدثت السورة عن المؤمنين المتقين، وذكرت ما أعده الله تعالى لهم من أنواع الإفضال والإكرام ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

* وختمت السورة الكريمة ببيان سبب امتناع الكفار، عن عبادة الله الواحد القهار، وهو الطغيان والإجرام ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ ». وَفِي رِوَايَةٍ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ » (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلاَ، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم).

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ

اللغَة: ﴿فُرِجَتْ﴾ فُتِحَت وشُقَّتْ يقال: فَرَجْت الشيءَ فانفرجَ، أي: فتَحْته فانفتحَ ﴿كِفَاتًا﴾ الكفت في اللغة: الضَّمُّ والجمعَ قال الشاعر:

فَأَنْتَ الْيَوْمَ فَوْقَ الْأَرْضِ حَيٌّ ... وَأَنْتَ غَدًا تَضُمُّكَ فِي كِفَاتِ[1]

﴿شَامِخَاتٍ﴾ عاليات مرتفعات، يقال: شَمَخ بأنفه إذا رفعَه كِبرًا ﴿فُرَاتًا﴾ عذبًا شديد الحلاوة ﴿بِشَرَرٍ﴾ الشَّرر: ما تَطايَر من النار وتفرَّق، جمع شرَرَة.

التفسِير: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ أي أُقسم بالرياح حين تهب متتابعة، يقفو بعضها أثَر بعض[2]، قال المفسرون: هي رياح العذاب التي يهلك الله بها الظالمين ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ أي

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٥٩.

(٢) اختلف المفسرون اختلافًا كبيرًا في تفسير هذه الآيات الخمس فبعضهم حمَلها جميعًا على الرياح وبعضهم حملها جميعًا على الملائكة وبعضهم فصَّل، وتوقف الإمام ابن جرير. وقد اخترنا ما ذهب إليه ابن كثير وما رجحه صاحب التسهيل حيث قال: «والأظهر في: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ و﴿فَالْعَاصِفَاتِ﴾ أنها الرياح لأن وصف الريح بالعصف حقيقة والأظهر في: ﴿وَالنَّاشِرَاتِ﴾ و ﴿فَالْفَارِقَاتِ﴾ أنها الملائكة لأن قوله: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ المذكورة بعدها هي الملائكة ولم يقل أحد إنها الرياح ولذلك عطف المتجانسين بالفاء فقال: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ ﴿فَالْعَاصِفَاتِ﴾ ثم عطف ما ليس من جنسها بالواو فقال: ﴿وَالنَّاشِرَاتِ﴾ ثم عطف بالفاء»، وهو قول جيد. (ش): قفَا الأثَر: تتبَّعه.

وأُقسِم بالملائكة الموكَّلين بالسحُب يسُوقُونها حيث شاء الله، لتنشر رحمةَ الله – المطر – فتُحيِي به البلاد والعباد ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا﴾ أي وأُقْسِم بالملائكة التي تفرِّق بين الحق والباطل، والحلال والحرام[(١)] ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ أي وأُقسم بالملائكة تَنزل بالوحي، وتُلقِي كتب الله تبارك وتعالى إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[(٢)] ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾ أي تلقي الوحي إعذارًا من الله للعباد لئلا يبقى لهم حجة عند الله، أو إنذارًا من الله للخلق بالنقمة والعذاب ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ أي وأُقسم بالرياح الشديدة الهبوب، إذا أُرسلت عاصفة شديدة، قلعت الأشجار، وخربت الديار، وغيَّرت الآثار ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾ هذا هو جواب القسم، أي: إنَّ ما توعدون به من أمر القيامة، وأمر الحساب والجزاء، كائن لا محالة قال المفسرون: أقسم تعالى بخمسة أشياء، تنبيهًا على جلالة قدر المقسم به، وتعظيمًا لشأن المقسم عليه، فأقسم بالرياح التي تحمل الرحمة والعذاب، وتسوق للعباد الخير أو الشر، وبالملائكة الأبرار، الذي يتنزلون بالوحي للإعذار والإنذار، أقسم على أن أمر القيامة حق لا شك فيه، وأن ما أوعد الله تعالى به المكذبين، من مجيء الساعة والثواب والعقاب، كائن لا محالة، فلا ينبغي الشك والامتراء[(٣)].. ثم بَيَّن تعالى وفَصَّل وقت وقوع ذلك فقال ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ أي مُحِيَت النجوم وذهب نورُها وضياؤها ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾ أي شقت السماء وتصدَّعت ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾ أي تطايرت الجبال وتناثرت حتى أصبحت هباءً تذروه الرياح كقوله تعالى ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾ [طه: ١٠٥] ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ﴾ أي جُعِل للرسل وقتٌ وأجَلٌ، للفصل بينهم وبين الأمم، وهو يوم القيامة[(٤)] كقوله تعالى ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ﴾[المائدة:١٠٩]؟ وأصل ﴿أُقِّتَتۡ﴾ وُقِّتَتْ من الوقت أي يُجعَل لها وقتٌ محدد، قال الطبري: أي أُجِّلَتْ للاجتماع لوقتها يوم القيامة وقال مجاهد: هو الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم[(٥)] ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾؟ استفهامٌ لتعظيم ذلك اليوم، والتعجيب لما يقع فيه من الهول والشدة، أي: لأي يوم عظيم أُخرت الرسل؟ ثم قال ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾ أي ليوم القضاء والفصل بين الخلائق، يوم يفصل الله بين الأنبياء وأممهم المكذبين بحكمه العادل ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾؟ استفهام

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٤٠٤.

(٢) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِم إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ ». وَفِي رِوَايَةٍ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ » (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلاَ، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم).

(٣) انظر «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٦٥.

(٤) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٤٣.

(٥) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٦٩.

للتعظيم والتهويل، أي: وما أعلمك أيها الإنسان بيوم الفصل وشدته وهوله؟ فإن ذلك اليوم أعظم من أن يعرف أمره إنسان، أو يحيط به عقل أو وجدان، ووضع الظاهر ﴿مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ مكان الضمير «ما هو» لزيادة تفظيع وتهويل أمره قال الإمام الفخر: عَجَّب العباد من تعظيم ذلك اليوم فقال: لأي يوم أُجّلت الأمور المتعلقة بهؤلاء الرسل، وهي تعذيب من كذَّبهم، وتعظيم من آمن بهم، وظهور ما كانوا يدعون الخلق إلى الإيمان به، من الأهوال والعرض والحساب، ثم إنه تعالى بين ذلك فقال ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ وهو يوم يفصل الرحمن بين الخلائق، ثم أتبع ذلك تعظيمًا ثانيًا فقال ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي وما أعْلَمك ما يوم الفصل وشدته ومهَابته؟[1] وجواب الشرط ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ﴾ إلخ محذوف لدلالة الكلام عليه تقديره: وقع ما توعدون به، وجرى ما أخبركم به الرسل من مجيء القيامة، والحذف على هذه الصورة من أساليب الإيجاز البياني الذي امتاز به القرآن ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك عظيم وخسار كبير في ذلك اليوم لأولئك المكذبين بهذا اليوم الموعود قال المفسرون: كرَّر هذه الجملة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في هذه السورة عشر مرات لمزيد الترغيب والترهيب، وفي كل جملة وَرَدَتْ إخبارٌ عن أشياء عن أحوال الآخرة، وتذكيرٌ بأحوال الدنيا، فناسب أن يذكر الوعيد عقيب كل جملة منها بالويل والدمار للكفرة الفجار، ولما كان في سورة الإنسان السابقة ذكر بعضًا من أحوال الكفار في الآخرة، وأطنب في وصف أحوال المؤمنين هناك، جاء في هذه السورة بالإطناب في وصف الكفار، والإيجاز في وصف المؤمنين.. ثم بعد أن أكد الخبر بيوم القيامة، وأنه حق كائن لا محالة، وبعد أن خوَّف المكذبين من شدة هول ذلك اليوم، وفظاعة ما يقع فيه، عاد فخوَّفهم من بطش الله وانتقامه بأسلوب آخر فقال ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؟ أي ألم نهلك السابقين بتكذيبهم للرسل، كقوم نوح وعادٍ وثمود؟ ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾؟ أي ثم ألحقنا بهم المتأخرين ممن كانوا مثلهم في التكذيب والعصيان، كقوم لوط وشعيب وقوم موسى «فرعون وأتباعه» ومن على شاكلتهم ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الإهلاك الفظيع نفعل بهؤلاء المجرمين «كفار مكة» لتكذيبهم لسيد المرسلين ﷺ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار لكل مكذب بالتوحيد والنبوة، والبعث والحساب ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ تذكير للمكذبين وتعجيب من غفلتهم وذهولهم عن أبسط الأمور المشاهَدة، وهي أن مَن خلَقهم من النطفة الحقيرة الضعيفة كان قادرًا على إعادة خلقهم للبعث والحساب والمعنى: ألم نخلقكم يا معشر الكفار من ماءٍ ضعيف حقير هو منيُّ الرجل؟ وفي الحديث القدسي يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: «ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ» الحديث[2] ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ أي

---

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٢٧٠.

(٢) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند، ورواه ابن ماجه في سننه، وتمامه أن رسول الله ﷺ بصق يَوْمًا في كَفِّهِ، فَوَضَعَ عَلَيْهَا أُصْبُعَهُ، ثُمَّ قَالَ: «قَالَ اللهُ: ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ =

فجعلنا هذا الماء المهين في مكان حريز[١] وهو رحم المرأة ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي إلى مقدار من الزمن محدَّد معيَّن، معلوم عند الله تعالى وهو وقت الولادة ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ أي فقدَرْنا على خلقه من النطفة، فنعم القادرون نحن حيث خلقناه في أحسن الصور، وأجمل الإشكال ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين بقدرتنا قال الصاوي: هذه الآية تذكير من الله تعالى للكفار بعظيم إنعامه عليهم، وقدرته على ابتداء خلقهم، والقادرُ على الابتداء قادر على الإعادة، ففيها رَدٌّ على المُنكرين للبعث[٢].. ثم ذكَّرهم بنعمة إيجادهم على الأرض حال الحياة، ومُوَارَاتهم في باطنها بعد الموت[٣] فقال ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾؟ إلى ألم نجعل هذه الأرض التي تعيشون عليها كالأم لكم، تجمع الأحياء على ظهرها، والأموات في بطنها؟ قال المفسرون: الكَفْت: الجَمع والضَّمُّ، فالأرض تجمع وتضُمُّ إليها جميعَ البشر، فهي كالأم لهم، الأحياء يسكنون فوق ظهرها في المنازل والدور، والأموات يسكنون في بطنها في القبور ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] قال الشعبي: بطنها لأمواتكم وظهرها لأحيائكم[٤] ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ أي وجعلنا في الأرض جبالاً راسخات عاليات مرتفعات لئلا تضطرب بكم[٥] ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ أي وأسقيناكم ماءً عذبًا حلوًا بالغ العذوبة، أنزلناه لكم من السحاب، وأخرجناه لكم من العيون والأنهار، لتشربوا منه أنتم ودوابُّكم، وتَسقُوا منه زَرعكم وأشجاركم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي انطلقوا إلى عذاب جهنم الذي كنتم تكذبون به في دار الدنيا، وهذا الكلام تقوله لهم خزنة النار تقريعًا وتوبيخًا.. ثم وضَّح ذلك العذاب وفصَّله فقال ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ

= وَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ، قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ» (ش): صححه الألباني. (البُرْد): كساء مُخَطّط أو مُزَخرف يُلتحف به. (الوَئِيد): المشي بتُؤَدَة، أي بتَأَنٍّ وتمهُّل.

(١) (ش): حَرِيز: حَصين، مَنيع.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٨٠.

(٣) (ش): وارَى الشيءَ: أخفاه، ستره. وارَى الميِّتَ: دفَنه.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٨٨.

(٥) لقد كشف القرآن عن حكمة وجود الجبال قبل أن يكتشفها العلم الحديث، فالجبال كالأوتاد للأرض تثبِّتها وتقيها الاضطرابَ والمَيَدانَ كما تقي أوتاد الخيمةِ الخيمةَ، وقد كشف الوحيُ عن هذا المعنى فقال في سورة النحل: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ ولولا هذه الجبال الشاهقة لكانت الأرض بما في جوفها من الغازات والأبخرة والمواد المتراكمة المشتعلة دائمة الاضطراب والخفقان، ولكانت كالريشة في مهب الهواء، فسبحان الحكيم العليم على أن في خلق الجبال الشوامخ نعمة أخرى هي نشوء السحب فوقها، وهطول الأمطار والثلوج عليها، فتتكون بسبب ذلك الأنهار والعيون، ثم تكثر الأشجار والزروع، فالجبال مخازن للثلوج والأمطار، ومستودعات عامة لبركات السماء، ولهذا قرن تعالى بها نعمة الماء فقال: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ فلله ما أبدع أسرار القرآن! (ش): ماد الشَّيءُ، مَيْدًا ومَيَدَانًا: تحرَّك واضطرب.

شُعَبٍ﴾ أي اذهبوا فاستظلوا بدخانٍ كثيف من دخان جهنم، يتفرع منه ثلاث شعب ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أي لا يُظِلّ مَن يكون تحته، ولا يَقيه حر الشمس كما هو حال الظل الممدود، ولا هو يدفع عنه أيضًا ألسنة النار المندلعة من كل جانب قال الطبري: لا هو يُظِلّهم من حرها، ولا يَكُ هم من لهبها[١]، وذلك أنه يرتفع من وقود جهنم الدخان، فإذا تصاعد تفرَّق شعبًا ثلاثة[٢] قال المفسرون: سمَّى العذاب ظلاًّ تهكمًا واستهزاءً بالمعذبين، فالمؤمنون في ظلال وعيون، والمجرمون في سموم وحميم، وظل من يحموم، واليحموم دخانٌ أسود قاتم، فكيف يصح أن يسمى ما هم فيه ظلًا إلا على طريق التهكم والاستهزاء؟ ثم زاد تعالى في وصف جهنم وأهوالها فقال ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ أي إن جهنم تقذف بشرر عظيم من النار، كلُّ شرارةٍ منه كأنها القصر العظيم قال ابن كثير: يتطاير الشرر من لهبها كالحصون[٣] ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ أي كأن شرر جهنم المتطاير منها الإبل الصفر في لونها وسرعة حركتها قال الرازي: شبَّه تعالى الشرر في العظم بالقصر، وفي اللون والكثرة وسرعة الحركة بالجمالات الصفر[٤]، وهذا التشبيه من روائع صور التشبيه، لأن الشرارة إذا كانت مثل القصر الضخم، فكيف تكون حال تلك النار الملتهبة؟ أجارنا الله من نار جهنم بفضله ورحمته ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين بآيات الله ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي هذا اليوم الرهيب، الذي لا ينطق فيه أولئك المكذبون ولا يكتمون كلامًا ينفعهم، فهم في ذلك اليوم خُرْسٌ بُكْمٌ ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ أي ولا يقبل لهم عذرٌ ولا حجة فيما أتوا به من القبائح والجرائم، بل لا يؤذن لهم في أن يعتذروا، لأنه لا تسمع منهم تلك الحجج والأعذار ولا تقبل كقوله تعالى ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢] ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي يقال لهم: هذا يوم الفصل بين الخلائق، الذي يفصل الله فيه بحكمه العادل بين السعداء والأشقياء، جمعناكم فيه مع مَن تَقدَّمَكم من الأمم لنحكم بينكم جميعًا ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ أي فإن كان لكم حيلة في الخلاص من العذاب فاحتَالُوا، وأَنقِذوا أنفسكم من بطش الله وانتقامه إن قدرتم، وهذا تعجيزٌ لهم وتوبيخ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك يومئذٍ للمكذبين بيوم الدين.. وبعد أن ذكر أحوال الأشقياء المجرمين، أعقبه بذكر أحوال السعداء المتقين فقال ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ أي الذين خافوا ربهم في الدنيا، واتقوا عذابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، هم يوم

(١) (ش): كَنَّ الشَّيءَ: أخفاه وستَره وصَانه.
(٢) «تفسير الطبري» ٢٩/ ١٤٦.
(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٨٨.
(٤) «التفسير الكبير» ٣٠/ ٥٧٧.

القيامة في ظلال الأشجار الوارقة، وعيون الماء الجارية، يتنعمون في دار الخلد، والكرامة، على عكس أولئك المجرمين المكذبين، الذين هم في ظل من يحموم وهو دخان جهنم الأسود الذي لا يقي حرًّا، ولا يدفع عطشًا، ولا يجد المستظِل به مما يشتهيه لراحته سوى شرر النار الهائل ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أي وفواكه كثيرة متنوعة مما يستلذون ويستطيبون ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي ويقال لهم على سبيل الأُنس والتكريم: كلوا أكلًا لذيذًا واشربوا شربًا هنيئًا، بسبب ما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي إنا مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي من أحسن عمله، وأخلص نيته، واتقى ربه ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين بيوم الدين ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ أي يقال للكفار على سبيل التهديد والوعيد: كلوا من لذائذ الدنيا، واستمتعوا بشهواتها الفانية، كما هو شأن البهائم التي هَمُّها مَلْءُ بطونها ونَيْل شهواتها زمانًا قليلًا إلى منتهى آجالكم، فإنكم مجرمون لا تستحقون الإنعام والتكريم ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار يوم القيامة للمكذبين بنعم الله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المشركين صلُّوا لله، واخشعوا في صلاتكم لعظمته وجلاله، لا يخشعون ولا يصلون، بل يظلون على استكبارهم يصرون قال مقاتل: نزلت هذه الآية في ثقيف، امتنعوا عن الصلاة وقالوا لرسول الله ﷺ: حطَّ عنا الصلاة فإنا لا ننحني، إنها مَسَبَّة علينا، فأبى وقال: «لا خير في دين لا صلاة فيه»[1] ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاكٌ ودمار يوم القيامة للمكذبين بأوامر الله ونواهيه ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾؟ أي فبأي كتابٍ وكلام بعد هذا القرآن المعجز الواضح يصدّقون إن لم يؤمنوا بالقرآن؟ فإذا كذبوا بالقرآن ولم يؤمنوا به، مع بلوغه الغاية في الإعجاز، ونصوع الحجة، وروعة البيان، فبأي شيءٍ بعد ذلك يؤمنون؟ قال القرطبي: كرر قوله ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مراتٍ للتخويف والوعيد، وقيل: إنه ليس بتكرار، لأنه أراد بكل قولٍ منه غير الذي أراده بالآخر، كأنه ذكر شيئًا فقال: ويلٌ لمن يكذب بهذا، ثم ذكر شيئًا آخر فقال: ويل لمن يكذب بهذا، وهكذا إلى آخر السورة الكريمة[2].

---

(١) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٤٠٨. (ش): بهذا اللفظ رواه الثعلبي في «تفسيره» عن مقاتل بدون إسناد، ومقاتل متروكٌ ومتهَمٌ بالكذب. ورواه أحمد وأبو داود بلفظ: «لاَ خَيْرَ فِي دِينٍ لَيْسَ فِيهِ رُكُوعٌ» في قصة وَفْدِ ثَقِيفٍ لَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وضعفه الألباني.

والصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، وقد أمر الله بالمحافظة عليها في السفر، والحضر، والسلم، والحرب، وفي حال الصحة، والمرض. وقد قال ﷺ: «بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ: تَرْكُ الصَّلَاةِ» (رواه مسلم). وقال - صلى الله عليه وآله وسلم -: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ» (رواه أحمد والترمذي والنسائي، وصححه الألباني).

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٦٧.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التأكيد بذكر المصدر زيادة في البيان وتقوية للكلام مثل ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ وهو من المحسنات اللفظية.

٢ - الطباق بين ﴿عُذْرًا .. نُذْرًا﴾ وبين ﴿أَحْيَآءً .. وَأَمْوَٰتًا﴾ وبين ﴿ٱلْأَوَّلِينَ مَرْقُومٌ. وَٱلْآخِرِينَ﴾ وكلها من المحسنات البديعية.

٣ - وضع الظاهر مكان الضمير، والمجيء بصيغة الاستفهام ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾؟ لزيادة تفظيع الأمر وتهويله.

٤ - الاستفهام التقريري ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؟ ومثله ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾؟

٥ - الجناس غير التام بين لفظتي ﴿مَّهِينٍ﴾ و ﴿مَّكِينٍ﴾.

٦ - التشبيه المرسل المجمل ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ والمرسل المفصل ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾.

٧ - المقابلة بين نعيم الأبرار وعذاب الفجار ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قابل ذلك بقوله ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾.

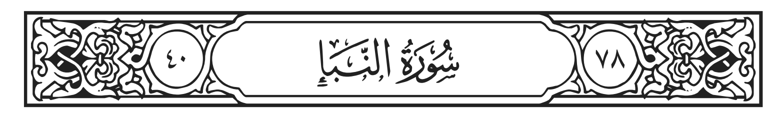
٨ - أسلوب التهكم ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ﴾ سمَّى العذاب ظلًا تهكمًا وسخرية بهم.

٩ - المجاز المرسل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ أطلق الركوع وأراد به الصلاة فهو من باب إطلاق البعض وإرادة الكل، أي: وإذا قيل لهم: صلوا لا يصلون.

١٠ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ .. إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ إلخ ويسمى بالسجع المرصَّع وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المرسلات»





مكية وآياتها أربعون

بين يدي السورة

* سورة عم مكية وتسمى (سورة النبأ) لأن فيها الخبر الهام عن القيامة والبعث والنشور، ومحور السورة يدور حول إثبات «عقيدة البعث» التي طالما أنكرها المشركون.

* ابتدأت السورة الكريمة بالإخبار عن موضوع القيامة، والبعث والجزاء، هذا الموضوع الذي شغل أذهان الكثيرين من كفار مكة، حتى صاروا فيه ما بين مصدق ومكذب ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ..﴾ الآيات.

* ثم أقامت الدلائل والبراهين على قدرة رب العالمين، فإن الذي يقدر على خلق العجائب والبدائع، لا يعجزه إعادة خلق الإنسان بعد فنائه ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ الآيات.

* ثم أعقبت ذلك بذكر البعث، وحددت وقته وميعاده، وهو يوم الفصل بين العباد، حيث يجمع الله الأولين والآخرين للحساب ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝١٧ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن جهنم التي أعدها الله للكافرين، وما فيها من ألوان العذاب المهين ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ الآيات.

* وبعد الحديث عن الكافرين، تحدثت عن المتقين، وما أعد الله تعالى لهم من ضروب النعيم، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن هول يوم القيامة، حيث يتمنى الكافر أن يكون ترابًا فلا يحشر ولا يحاسب ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝١٧ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ

فَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا

اللغَـة: ﴿سُبَاتًا﴾ السَّبْتُ في اللغة: القطعُ، سمي الليل سُباتًا لأنه يقطع العمل والحركة ﴿وَهَّاجًا﴾ الوهَّاج: المتقد المتلألئ من قولهم: وَهجت النار إذا أضاءت ﴿ثَجَّاجًا﴾ شديد الانصباب يقال: ثجَّ إذا سال بكثرة وفي الحديث «أَفْضَلُ الحجِّ: الْعَجُّ والثَّجُّ»[1] العجُّ: رفع الصوت بالتلبية، والثجُّ: إراقة الدماء وذبحُ الهدايا ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جمع كاعب وهي التي برز نَهْدُها[2] مع ارتفاع يسير ﴿دِهَاقًا﴾ مملوءة يقال: أدهقتُ الكأسَ أي ملأتها قال الشاعر:

أَتَـانَا عَـامِرٌ يَبْغِي قِـرَانَا ... فَأَتْرَعْنَا لَـهُ كَأْسًا دِهَـاقًا[3]

التفسير: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾؟ أي: عن أيِّ شيءٍ يسأل هؤلاء الجاحدون بعضهم بعضًا؟ وأصل ﴿عَمَّ﴾ عنْ ما، أدغمت الميم في النون وحذفت ألف ﴿مَا﴾ الاستفهامية، وليس المراد هنا مجرد الاستفهام وإنما المراد تفخيم الأمر وتعظيمه، وقد كان المشركون يتساءلون عن البعث فيما بينهم، ويخوضون فيه إنكارًا واستهزاءً فجاء اللفظ بصيغة الاستفهام للتفخيم والتهويل وتعجيب السامعين من أمر المشركين، ثم ذكر تعالى ذلك الأمر الخطير فقال ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي يتساءلون عن الخبر العظيم الهام وهو أمر البعث[4] ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ أي الذي اختلفوا فيه ما بين شاكٍّ في وقوعه، ومكذب منكرٍ لحصوله ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ردعٌ وزجر، أي: ليرتدعْ أولئك المكذبون عن التساؤل عن البعث، فسيعلمون حقيقة الحال، حين يرون البعث أمرًا واقعًا، ويرون عاقبة استهزائهم ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تأكيد للوعيد مع التهويل أي سيعلمون

---

(١) (ش): عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ أَيُّ الْحَجِّ أَفْضَلُ؟ قَالَ « الْعَجُّ وَالثَّجُّ ». (رواه الترمذي وحسنه الألباني).

(٢) (ش): نَهْد: ثَدْي.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٤٠٩، والقرطبي ١٩/ ١٨١. (ش): أَتْرَعَ الإناءَ: مَلأه.

(٤) هذا هو الراجح أن المراد بالنبأ العظيم أمر البعث لأنه ذكر بعده دلائل القدرة على إمكان البعث من قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا..﴾ إلخ. وذكر منها تسعة أمور، وقيل: المراد بالنبأ القرآن أو النبوة وما ذكرناه هو الراجح وهو اختيار العلامة أبي السعود.

مـا يحـل بهم من العذاب والنكال.. ثم أشـار تعالى إلى الأدلة الدالة علـى قدرته تعالى، ليقيم الحجة على الكفار فيما أنكروه من أمر البعث، وكأنه يقول: إن الإله الذي قدر على إيجاد هذه المخلوقـات العظـام، قادرٌ على إحيـاء الناس بعد موتهم فقـال ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾ أي ألم نجعل هذه الأرض التي تسكنونها ممهدة للاستقرار عليها، والتقلب في أنحائها؟ جعلناها لكم كالفراش والبساط لتستقروا على ظهرها، وتستفيدوا من سهولها الواسعة بأنواع المزروعات؟ ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي وجعلنـا الجبـال كالأوتاد لـلأرض تثبتها لئلا تميد بكم كمـا يثبت البيت بالأوتاد قال في التسهيل: شبَّهها بالأوتاد لأنها تمسكُ الأرض أن تميد[1] ﴿وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي وجعلناكم أيها الناس أصنافًا ذكورًا وإناثًا، لينتظم أمر النكاح والتناسـل، ولا تنقطع الحياة عن ظهـر هذا الكوكب الأرضـي[2] ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي وجعلنا النوم راحة لأبدانكم، قاطعًا لأشغالكم، تتخلصون به من مشاق العمل بالنهار ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي جعلنا الليل كاللباس يغشاكم ويستركم بظلامه، كما يستركم اللباس، وتُغطّيكم ظلمته كما يغطى الثوبُ لابسه قال في التسـهيل: شبهه بالثياب التي تُلبس لأنه سَتْرٌ عن العيون[3] ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي وجعلنا النهـار سـببًا لتحصيل المعاش، تتصرفون فيـه لقضاء حوائجكم قال ابن كثير: جعلناه مشـرقًا مضيئًـا ليتمكن الناس من التصـرف فيه، بالذهاب والمجيء للمعاش والتكسـب والتجارات وغير ذلك[4] ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي وبنينا فوقكم أيها الناس سـبع سـمواتٍ محكمة الخلـق بديعـة الصنع، متينةً في إحكامهـا وإتقانها، لا تتأثر بمرور العصـور والأزمان، خلقناها بقدرتنا لتكون كالسـقف للأرض كقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] وقوله ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أي وأنشـأنا لكم شمسًـا منيرة سـاطعة، يتوهج ضوءها ويتوقد لأهل الأرض كلهم، دائمة الحرارة والتوقد قال المفسـرون: الوهَّاج المتوقد الشـديد الإضاءة، الذي يضطرم ويلتهب من شدة لهبه وقال ابـن عبـاس: المنير المتلألـئ[5] ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ أي وأنزلنا من السـحب التي حان وقت إمطارها ماءً دافقًا منهمرًا بشـدةٍ وقوة قال في التسـهيل: المعصرات هي السـحب،

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٧٣. (ش): مَادَ الشَّيءُ: تحرَّك واضطرب.

(٢) (ش): تسمية الأرض كوكبًا إطلاقٌ غريبٌ عن نصوص الوحيين الشريفين، فالكواكب في السماء، والأرض في السُّفْل، ولم يطلق على الكواكب اسم: الأرض، ومن لازم هذا الإطلاق أن تكون الأرض زينة للسماء الدنيا، وجعلها رجومًا للشياطين، وهذا باطل. [انظر: «معجم المناهي اللفظية» للشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد (ص: ١١٨)].

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٧٣.

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٩٠.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٧٠.

مأخوذةٌ من العصر لأن السحاب ينعصر فينزل منه الماء[١]، شبهت السحابة التي حان وقت إمطارها بالجارية التي قد دنا حيضها ﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا﴾ أي لنخرج بهذا الماء أنواع الحبوب والزروع، التي تنبت في الأرض غذاءً للإنسان والحيوان ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا﴾ أي وحدائق وبساتين كثيرة الأشجار والأغصان، ملتفةً بعضها على بعض لكثرة أغصانها وتقارب أشجارها.. ذكر تعالى هذه الأدلة التسع على قدرته تعالى، كبرهانٍ واضح على إمكان البعث والنشور[٢]، فإن من قدر على هذه الأشياء قادرٌ على البعث والإحياء ولهذا قال بعده ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا﴾ أي إن يوم الحساب والجزاء، ويوم الفصل بين الخلائق، له وقت محدودٌ معلوم في علمه تعالى وقضائه، لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٤] قال القرطبي: سمي يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه، وقد جعله وقتًا وميعادًا للأولين والآخرين[٣] ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا﴾ أي يكون ذلك يوم أن ينفخ في الصور نفخة القيام من القبور، فتحضرون جماعات جماعات، وزمرًا زمرًا للحساب والجزاء، ثم ذكر تعالى أوصاف ذلك اليوم الرهيب فقال ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ أي تشققت السماء من كل جانب، حتى كان فيها صدوعٌ وفتوحٌ كالأبواب في الجدران، من هول ذلك اليوم كقوله تعالى ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الإنشقاق: ١] وعبَّر بالماضي ﴿وَفُتِحَتِ﴾ لتحقق الوقوع ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ أي ونسفت الجبال وقلعت من أماكنها، حتى أصبح يخيَّل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء، كالسراب يظنه الرائي ماءً وليس بماء قال القرطبي: صارت الجبال بعد نسفها هباءً منبثًا[٤]، لعين الناظر كالسراب الذي يظنه من يراه ماءً وهو في الحقيقة هباء[٥] ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا﴾ أي إن جهنم تنتظر وتترقب نزلاءها الكفار، كما يترصد الإنسان ويترقب عدوه ليأخذه على حين غرة قال المفسرون: المرصاد المكان الذي يرصد فيه الراصد العدو، وجهنم تترصَّد أعداء الله لتعذبهم بسعيرها، وهي مترقبة ومتطلعة لمن يمرُّ عليها من الكفار الفجار لتلتقطهم إليها ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا﴾ أي هي مرجع ومأوى ومنزل للطغاة المجرمين ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ أي ماكثين في النار دهورًا متتابعةً لا نهاية

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٧٣.

(٢) (ش): قول المؤلف: «ذكر تعالى هذه الأدلة التسع على قدرته تعالى، كبرهان واضح على إمكان البعث والنشور»، تعبير غير سليم، لأنه يعطي معنى التشبيه بمعنى أنها تشبه البرهان وليست برهانًا، وهذا تعبير صحفي دارج لا يليق بأسلوب التفسير.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٧٣.

(٤) (ش): أي صارت غبارًا متطايرًا في الجو قد ذَرَتْه الريح.

(٥) «تفسير الطبري» ٣٠/ ٧.

لهـا[1] قال القرطبي: أي ماكثين في النار ما دامت الأحقاب أي: الدهور -وهي لا تنقطع، كلما مضى حُقْب جاء حُقْبٌ، لأن أحقاب الآخرة لا نهاية لها[2] قال الربيع وقتادة: هذه الأحقاب لا انقضـاء لها ولا انقطـاع[3] ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي لا يذوقون في جهنم برودة تخفف عنهم حرَّ النار، ولا شـرابًا يسكِّنُ عطشهم فيها ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ أي إلا ماءً حارًّا بالغًا الغاية في الحـرارة، وغسـاقًا -أي صديدًا يسـيل من جلـود أهل النـار- ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أي يعاقبهم الله بذلك جزاءً موافقًا لأعمالهم السيئة ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي لم يكونوا يتوقعون الحساب والجـزاء، ولا يؤمنون بلقاء الله، فجازاهم الله بذلـك الجزاء العادل ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ أي وكانوا يكذبون بآيات الله الدالة على البعث وبالآيات القرآنية تكذيبًا شديدًا ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ أي وكل مـا فعلـوه من جرائم وآثام ضبطنـاه في كتاب لنجازيهم عليه ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ أي فذوقـوا يـا معشـر الكفار فلن نزيدكم على اسـتغاثتكم إلاَّ عذابًا فوق عذابكم قال المفسـرون: ليس في القرآن على أهل النار آية هي أشـد من هذه الآية، كلما اسـتغاثوا بنوعٍ من العذاب أغيثوا بأشـد منه[4] ولما ذكر تعالى أحوال الأشقياء أهل النار، ذكر بعدها أحوال السعداء الأبرار فقال ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أي إن للمؤمنين الأبرار الذين أطاعوا ربهـم في الدنيا، موضع ظفر وفـوز بجنات النعيم، وخلاص من عذاب الجحيم، ثم فسَّـر هذا الفوز فقال ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ أي بسـاتين ناضرة فيها من جميع الأشـجار والأزهار، وفيها كروم الأعناب الطيبة المتنوعة من كل ما تشتهيه النفوس ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ أي ونساءً عذارى نواهد قد برزت أَثْداؤهنَّ، وهنَّ في سنٍ واحدة قال في التسهيل: الكواعب جمع كاعب وهي الجارية التي خرج ثديها[5] ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ أي وكأسًـا من الخمر ممتلئةً صافية قال القرطبي: المرادُ بالكأس الخمـرُ كأنه قال: وخمـرًا ذات دِهاقٍ، أي: مملوءة قد عُصِـرَت وصُفِّيَت[6] ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ أي لا يسـمعون في الجنة كلامًا فارغًا لا فائدة فيه، ولا كذبًا من القول لأن الجنة دار السلام، وكل ما فيها سالمٌ من الباطل والنقص ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي جازاهم الله بذلك الجزاء العظيم، تفضلًا منه وإِحسانًا كافيًا على حسب أعمالهم ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

---

(١) ليس في الآية الكريمة ما يدل على تناهي تلك الأحقاب، لأن الحقب في كلام العرب لا يكاد يستعمل إلا فيما هو متتابع متلاحق، وهو كناية التأبيد، فخاطبهم بما تذهب إليه أوهامهم وما يعرفون، وقيل: إنها في عصاة المؤمنين وهذا خطأ لأنها في الكفار لقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾.

(٢) «تفسير الطبري» ١٩/ ١٧٥.

(٣) «انظر القرطبي» ١٩/ ١٨٠،و «حاشية الصاوي» ٤/ ٢٨٥.

(٤) انظر «القرطبي» ١٩/ ١٨٠، و«حاشية الصاوي» ٤/ ٢٨٥.

(٥) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٧٤.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٨١.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي هذا الجزاء صادرٌ من الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ أي لا يقدر أحدٌ أن يخاطبه في دفع بلاء، أو رفع عذاب في ذلك اليوم، هيبةً وجلالًا ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗا﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب يقف جبريل والملائكة مصطفين خاشعين ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ أي لا يتكلم أحد منهم إلاّ من أذن الله له بالكلام والشفاعة ونطق بالصواب قال الصاوي: وإذا كان الملائكة الذين هم أفضل الخلائق وأقربهم من الله لا يقدرون أن يشفعوا إلا بإذنه، فكيف يملك غيرهم؟[١] ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي ذلك هو اليوم الكائن الواقع لا محالة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي فمن شاء أن يسلك إلى ربه مرجعًا كريمًا بالإيمان والعمل الصالح فلْيفعلْ، وهو حث وترغيب ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ الخطاب لكفار قريش المنكرين للبعث أي إنا حذَّرْناكم وخوَّفْناكم عذابًا قريبًا وقوعه هو عذاب الآخرة، سمَّاه قريبًا لأن كل ما هو آتٍ قريب ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ أي يوم يرى كل إنسان ما قدَّم من خير أو شر مثبتًا في صحيفته كقوله تعالى ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗا﴾ [الكهف: ٤٩] ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ أي ويتمنى الكافر أنه لم يخلق ولم يُكلَّف ويقول: يا ليتني كنت ترابًا حتى لا أحاسَب ولا أعاقَب قال المفسرون: وذلك حين يحشر الله الحيوان يوم القيامة فيقتصُّ للجمّاء من القَرْناء، وبعد ذلك يصيّرها ترابًا، فيتمنى الكافر أن لو كان كذلك حتى لا يعذب[٢].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإطناب بتكرار الجملة للوعيد والتهديد ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾.

٢ - الإيجاز بحذف الفعل لدلالة المتقدم عليه ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي يتساءلون عن النبأ العظيم.

٣ - التشبيه البليغ ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ۝٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾؟ أصل الكلام جعلنا الأرض كالمهاد الذي يفترشه النائم، والجبال كالأوتاد التي تثبت الدعائم، فحذف أداة التشبيه ووجه الشبه؛ فأصبح بليغًا، ومثله ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ أي كاللباس في الستر والخفاء.

٤ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ وبين ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾ قابل بين الليل والنهار، والراحة والعمل، وهو من المحسنات البديعية.

٥ - التشبيه البليغ ﴿فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ أي كالأبواب في التشقق والانصداع، فحذفت الأداة

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٨٦.

(٢) (ش): قال ﷺ: «يَقْضِي اللهُ بَيْنَ خَلْقِهِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ، وَإِنَّهُ لَيَقِيدُ يَوْمَئِذٍ الْجَمَّاءَ مِنَ الْقَرْنَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ تَبِعَةٌ عِنْدَ وَاحِدَةٍ لِأُخْرَى، قَالَ اللهُ: كُونُوا تُرَابًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الْكَافِرُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا» (رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره»، وصححه الألباني). تَبِعَةٌ: ظُلامة، مَظْلَمة. الجَمّاء: التي ليس لها قرون. القَرْناء: التي لها قرون.

ووجه الشبه فأصبح بليغًا.

٦ - الأمر الذي يراد به الإهانة والتحقير ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ وفيه أيضًا التفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والإهانة.

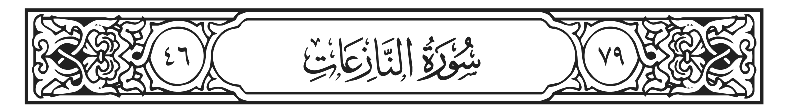
٧ - الطباق بين ﴿بَرۡدًا..حَمِيمًا﴾.

٨ - ذكر العام بعد الخاص ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ الروح وهو «جبريل» داخل في الملائكة، فقد ذكر مرتين مرة استقلالًا، ومرة ضمن الملائكة، تنبيهًا على جلالة قدره.

٩ - السجع المرصَّع مثل ﴿أَلۡفَافًا، أَفۡوَاجًا، أَبۡوَٰبًا، مَـَٔابًا، أَحۡقَابًا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النبأ»





مكية وآياتها ست وأربعون

بين يدي السورة

* سورة النازعات مكية، شأنها كشأن سائر السور المكية، التي تُعنى بأصول العقيدة «الوحدانية الرسالة، البعث والجزاء»، ومحور السورة يدور حول القيامة وأحوالها، والساعة وأهوالها، وعن مآل المتقين، ومآل المجرمين.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالملائكة الأبرار[1] التي تنزع أرواح المؤمنين بلطف ولين، وتنزع أرواح المجرمين بشدة وغلظة، والتي تدبر شئون الخلائق بأمر الله جل وعلا ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن المشركين، المنكرين للبعث والنشور، فصورت حالتهم في ذلك اليوم الفظيع ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ الآيات.

* ثم تناولت السورة «فرعون» الطاغية، الذي ادعى الربوبية وتمادى في الجبروت والطغيان، فقصمه الله وأهلكه بالغرق هو وقومه الأقباط ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن طغيان أهل مكة وتمردهم على رسول الله ﷺ، وذكرتهم بأنهم أضعف من كثير من مخلوقات الله ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ الآيات.

* وختم السورة الكريمة ببيان وقت الساعة الذي استبعده المشركون وأنكروه وكذبوا بحدوثه ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾.

---

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ ». وَفِي رِوَايَةٍ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ » (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلاَ، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم).

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

اللغَة: ﴿وَاجِفَةٌ﴾ خائفة فزعة يقال: وجف القلبُ وجيفًا إِذا خفق واضطرب من شدة الفزع ﴿الْحَافِرَةِ﴾ الرجوع إِلى الحالة التي كان عليها يقال: رجع فلان في حافرته، أي: رجع من حيث جاء قال الشاعر:

أَحَافِرَةٌ عَلَى صَلَعٍ وَشَيْبٍ ... مَعَاذَ اللهِ مِنْ سَفَهٍ وَعَارِ (١)

﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾ وجه الأرض، والعربُ تسمي وجه الأرض والفلاة ساهرة لأنه يُسهر عليها ﴿سَمْكَهَا﴾ السَّمك: العلُوُّ والارتفاع، وبناءٌ ممسوك أي عال مرتفع ﴿وَأَغْطَشَ﴾ أظلم يقال: غطش الليلُ وأغْطَشه اللهُ أي صار مظلمًا وأظلمه الله ﴿دَحَاهَا﴾ بسطها وسوَّاها قال زيد بن عمرو:

دَحَاهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ شَدَّهَا ... بِأَيْدٍ وَأَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالَا (٢)

﴿الطَّامَّةُ﴾ الداهية العظمى التي لا تُستطاع، قال الشاعر:

---

(١) أنشده ابن الأعرابي والمراد: أأرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل والصبا بعد أن شِبْتُ وصَلِعْتُ؟ (ش): الصَّبا: الحنين والشوق. الصِبا: صِغَرُ سِنّ وحداثةُ. شاب الرّجلُ: تقدَّم في السنِّ. صلِع الشَّخصُ: سقط شعرُ مُقدَّم رأسه أو وسطه.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٤١٨. (ش): بِأَيْدٍ: بقوة وقدرة عظيمة.

إنَّ بَعْضَ الْحُبِّ يُعْمِي وَيُصِمُّ   وَكَذَاكَ الْبُغْضُ أَدْهَى وأَطَمُّ[1]

التفسير: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ أي أُقسمُ بالملائكة التي تنزع أرواح الكفار نزعًا بالغًا أقصى الغاية في الشدة والعسر[2] ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ أي وأُقسمُ بالملائكة التي تنزع أرواح المؤمنين بسهولةٍ ويسر، وتَسلُّها سلًّا رفيقًا قال ابن مسعود: إن ملكَ الموت وأعوانه ينزعون روح الكافر كما ينزع السَّفود - سيخ الحديد - الكثير الشُّعب من الصوف المبتلّ، فتخرج نفس الكافر كالغريق في الماء، وينزع روح المؤمن برفق ولين، ويقبضها كما ينشط العِقال من يد البعير[3] قال ابن كثير: أقسم سبحانه بالملائكة حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ رُوحه بسهولة وكأنما حَلَّته مِن نشَاط[4] ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ أي وأقسم بالملائكة التي تنزل بأمر الله ووحيه من السماء كالذي يسبح في الماء، مسرعين لتنفيذ أمر الله ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ أي الملائكة التي تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ أي الملائكة تدبّر شئون الكون بأمره تعالى، في الرياح، والأمطار، والأرزاق، والأعمار، وغير ذلك من شئون الدنيا، أقسم سبحانه بهذه الأصناف الخمسة على أن القيامة حق، وجواب القسم محذوف تقديره: لتبعثنَّ ولتحاسبنَّ، وقد دل عليه قوله ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ أي يوم ينفخ في الصُّور النفخة الأولى التي يرتجف ويتزلزل لها كل شيء، تتبعها النفخة الثانية وهي نفخة القيام من القبور قال ابن عباس: الراجفة والرادفة هما النفختان الأولى والثانية، أما الأولى فتُميت كلَّ شيء بإذن الله تعالى، وأما الثانية فتحيي كل شيء بإذن الله تعالى[5].. ثم ذكر تعالى حالة المكذبين وما يَلقَوْنه من الشدائد والأهوال فقال ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾ أي قلوب الكفار في ذلك اليوم خائفة وجلة مضطربة ﴿أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾ أي أبصار أصحابها ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾ أي يقولون في الدنيا استهزاءً واستبعادًا للبعث: أنرد بعد الموت فنيصر أحياء بعد فنانا ونرجع كما كنا أول مرة؟ قال القرطبي: إذا قيل لهم: إنكم تبعثون بعد والعرب تقول:

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٠٤.

(٢) (ش): تقدَّم كثيرًا أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لاَ يجوز أن يُقْسِمَ إلاَّ بِالْخَالِقِ.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٠٤. (ش): السَّفُّودُ: عُودٌ من حديد له شُعَب، أي أسنان، يُغْرَز فيها اللّحم ليُشْوَى. وقد صح عن النبي ﷺ أنّ رُوحَ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنَ تَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، وأنّ رُوحَ الْعَبْدِ الْكَافِرِ يَنْتَزِعُهَا مَلَكُ الْمَوْتِ كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ. (رواه أحمد، وصححه الألباني). أنشَط العُقْدة: حلهَا وَفك أنشوطتها، وهي عقدة يسهل انحلالها إذا أخذ بأحد طرفيها. وأنشط الدَّابَّة عَن عقالها: أطلقها مِنْهُ. والعِقال: الحبل الذي يُشَدُّ به البعير.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٥٩٥ ثم قال: وهذا هو الصحيح وعليه الأكثرون. (ش): وكأنما حَلَّته مِن نشَاط: أي: كأنما كان مربوطًا فحَلَّتْ رباطه.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٩٣.

رجع فلان في حافرته أي رجع من حيث جاء[١] ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ أي هل إذا صرنا عظامًا بالية متفتتة سَنُرَدُّ ونُبعَث من جديد؟ ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي إن كان البعث حقًا، وبُعِثْنا بعد موتنا فسوف نكون من الخاسرين لأننا من أهل النار، قال تعالى ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي فإنما هي يحة واحدة، يُنفخ فيها في الصور للقيام من القبور ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ أي فإذا الخلائق جميعًا على وجه الأرض بعدما كانوا في بطنها. ثم ذكر تعالى قصة موسى مع فرعون تسليةً لرسول الله ﷺ وتحذيرًا لقومه أن يحل بهم ما حلَّ بالطغاة المكذبين من قوم فرعون فقال ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ أسلوب تشويق وترغيب لسماع القصة، أي: هل جاءك يا محمد خبر موسى الكليم؟ ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أي حين ناجاه ربه بالوادي المطهَّر المبارك المسمَّى ﴿طُوًى﴾ في أسفل جبل طور سيناء، قائلًا له ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي إذهب إلى فرعون الطاغية الجبار، الذي جاوز الحدَّ في الظلم والطغيان ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾؟ أي هل لك رغبةٌ وميلٌ إلى أن تتطهر من الذنوب والآثام؟ ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ أي وأرشدك إلى معرفة ربك وطاعته فتتقيه وتخشاه؟ قال الزمخشري: ذكر الخشية لأنها ملاك الأمر، من خشي الله أتى منه كل خير، وبدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العَرْض كما يقول الرجل لضيفه: هل لك أن تنزل بنا؟ وأردفه الكلام الرفيق الرقيق ليستدعيه بالتلطف، ويستنزله بالمداراة من عتوه كما في قوله تعالى ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤][٢] ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ في الكلام محذوف، أي: فذهب موسى إليه ودعاه وكلَّمه، فلما امتنع عن الإيمان أراه المعجزة الكبرى، وهي قلب العصا حيةً تسعى قال القرطبي: أراه العلامة العظمى وهي المعجزة قال ابن عباس: هي العصا[٣] ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ أي فكذب فرعون نبيَّ الله موسى، وعصى أمر الله بعد ظهور تلك المعجزة الباهرة ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ أي ولّى مدبرًا هاربًا من الحية، يُسرع في مشيه من هول ما رأى ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ أي فجمع السحرة والجنود والأتباع، ووقف خطيبًا في الناس ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي فقال لهم بصوت عال: أنا ربكم المعبود العظيم الذي لا ربَّ فوقي ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي فأهلكه الله عقوبةً له على مقالته الأخيرة ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ والأولى هي قوله ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[٤] [القصص: ٣٨] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ أي إن فيما ذكر من قصة فرعون وطغيانه، وما حلَّ به من العذاب والنكال، لَعِظَةً واعتبارًا لمن يخاف الله عَزَّ وَجَلَّ ويخشى عقابه.. ولما انتهى الحديث عن قصة الطاغية فرعون، رجع إلى

---

(١) نفس المرجع السابق ١٩/ ١٩٤.

(٢) «تفسير الكشاف» ٤/ ٦٩٥.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٠٢.

(٤) هذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة، قال ابن عباس: كان بين كلمتيه الفاجرتين أربعون سنة، فأمهله الله ثم أخذه.

منكري البعث من كفار قريش فنبههم إلى آثار قدرته، ومظاهر عظمته وجلاله فقال ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ. والمعنى هل أنتم يا معشر المشركين أشَقُّ وأصعَبُ خلقًا أم خَلْق السماء العظيمة البديعة؟ فإن مَن رفَع السماء على عِظَمها، هيِّنٌ عليه خَلْقكم وإحياؤكم بعد مماتكم، فكيف تنكرون البعث؟ قال الرازي: نبههم على أمرٍ يُعلم بالمشاهدة، وذلك لأن خلق الإنسان على صِغره وضَعْفه، إذا أضيف إلى خلق السماء على عظمها وعظم أحوالها يسير، وإذا كان كذلك فإعادتهم سهلة فكيف ينكرون ذلك؟[1] كقوله تعالى ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] ﴿بَنَىٰهَا﴾ أي رفعها عاليةً فوقكم محكمة البناء، بلا عمد ولا أوتاد، ثم زاد في التوضيح والبيان فقال ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ أي رفع جرمها وأعلى سقفها فوقكم فجعلها مستويةً لا تفاوت فيها ولا شقوق ولا فُطور[2] قال ابن كثير: أي جعلها عاليةَ البناء، بعيدة الفناء، مستوية الأرجاء، مكلَّلة بالكواكب في الليلة الظلماء[3] ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي جعل ليلها مظلمًا حالكًا، ونهارها مشرقًا مضيئًا قال ابن عباس: أظلم ليلها وأنار نهارها[4] ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي والأرض بعد خلق السماء بسَطَها ومهَّدها لسكنى أهلها[5] ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ أي أخرج من الأرض عيون الماء المتفجرة، وأجرى فيها الأنهار، وأنبت فيها الكلأ والمرعى مما يأكله الناس والأنعام ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ أي والجبال أثبتها في الأرض، وجعلها كالأوتاد لتستقر وتسكن بأهلها ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ أي فعل ذلك كله، فأنبع العيون، وأجرى الأنهار، وأنبت الزرع والأشجار، كل ذلك منفعةً للعباد وتحقيقًا لمصالحهم ومصالح أنعامهم ومواشيهم، قال الرازي: أراد بمرعاها ما يأكله الناسُ والأنعام، بدليل قوله ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ وانظر كيف دلَّ بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ على جميع ما أخرجه من الأرض قوتًا ومتاعًا للأنام والأنعام من العشب، والشجر، والحب، والثمر، والعصف، والحطب، واللباس والدواء، حتى الملح والنار، فالملح متولد من الماء، والنارُ من الأشجار[6].. ولما ذكر تعالى خلق السموات والأرض، وما أبدع فيهما من عجائب الخلق والتكوين، ليقيم الدليل على إمكان الحشر عقلًا، أخبر

---

(١) «التفسير الكبير للرازي» ١٣/ ٤٣.

(٢) (ش): فُطُور: شُقوق.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير».

(٤) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٥) لا ينافي هذا القول بكروية الأرض، فإن ذلك مقطوع به حتى قال الإمام الفخر ما نصه: «كانت الأرض أولاً كالكرة المجتمعة، ثم إن الله تعالى مدها وبسطها، وليس معنى: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ مجرد البسط، بل المراد أنه بسطها بسطًا مهيأً لنبات الأقوات، يدل عليه قوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ والجسم العظيم يكون ظاهره كالسطح المستوي..» اهـ. «التفسير الكبير» ٣١/ ٤٨.

(٦) «التفسير الكبير» ٣١/ ٤٩.

بعـد ذلك عن وقوعه فعـلًا فقال ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي فإذا جاءت القيامة وهي الداهية العظمى، التي تعمُّ بأهوالها كل شـيء، وتعلو على سـائر الدواهي قال ابن عباس: هي القيامة سـميت بذلـك لأنها تَطُمّ على كل أمـر هائل مُفظِـع[١] ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ أي في ذلك اليوم يتذكر الإنسـان ما عمله من خير أو شـر، ويراه مدوَّنًا في صحيفة أعماله ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ أي أُظهِرت جهنم للناظرين فرآها الناسُ عيانًا، باديةً لكل ذي بصر.. وبعد أن وصف حال القيامة وأهوالها، ذكر انقسـام الناس إلى فريقين: أشقياء وسعداء فقال ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ أي جاوز الحدَّ في الكفر والعصيان ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي فضَّل الحياة الفانية على الآخرة الباقية، وانهمك في شهوات الحياة المحرَّمة، ولم يستعد لآخرته بالعمل الصالح ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي فـإنَّ جهنم المتأجِّجة[٢] هي منزله ومأواه، لا منزل له سـواها ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي وأمَّـا من خـاف عظمة ربه وجلاله، وخـاف مقامه بين يـديْ ربه يوم الحسـاب، لعلمه ويقينه بالمبدأ والمعاد ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي وزجر نفسـه عن المعاصي والمحارم، وكَفَّها عن الشهوات التي تؤدي بها إلى المعاطب ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي فإن منزله ومصيره هي الجنة دار النعيـم، ليس لـه منزل غيرها[٣].. ثـم ذكر تعالى موقـف المكذبين بالقيامة، المسـتهزئين بأخبار السـاعة فقال ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي يسألك يا محمد هؤلاء المشركون عن القيامة متى وقوعُها وقيامُها؟ قال المفسـرون: كان المشركون يسمعون أنباء القيامة، ووصفها بالأوصاف الهائلة مثل «طامة، وصاخة، وقارعة» فيقولون على سبيل الاستهزاء: متى يوجدها الله ويقيمهـا، ومتى تحـدُث وتقَع؟ فنزلت الآيـة[٤] ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي ليـس علمها إليك حتـى تذكرها لهـم، لأنها من الغيوب التي اسـتأثر الله بعلمها، فلماذا يسـألونك عنها ويُلحّون في السـؤال؟ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي مردُّهـا ومراجعهـا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فهـو الذي يعلم وقتها على التعيين، لا يعلمه أحد سـواه ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أي ما واجبك يا محمد إلا إنذار مـن يخاف القيامة، لا الإعلام بوقتها، وخصَّ الإنذار بمن يخشـى، لأنه هو الذي ينتفع بذلك

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٩٨.

(٢) (ش): تأجَّجتِ النَّارُ: اشتعلت، التهبت وتوقّدت.

(٣) هذه الآيات الكريمة هي «الميزان الدقيق» لمعرفة الإنسان نفسه، هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار؟ وهل هو من السعداء أم من الأشقياء؟ فمن طغى وبغى، وآثر شهوات الحياة على طاعة ربه فهو الشقي المعذب بالجحيم، ومن أطاع الله واتقاه، وسارع إلى مرضاة مولاه، ونهى النفس عما تهواه فهو السعيد المكرم في دار النعيم، فليضع الإنسان نفسه في هذا الميزان.

(٤) (ش): عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: إن مشركي أهل مكة سألوا النبي ﷺ، فقالوا: متى تقوم الساعة -استهزاء منهم-؟ فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾؛ (ضعيف جدًا، ذكره السيوطي في «لباب النقول»، ونسبه لابن أبي حاتم. وعَنْ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- قَالَتْ: « لَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُسْأَلُ عَنِ السَّاعَةِ حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾. (صحيح، رواه الحاكم وابن جرير الطبري في «تفسيره»).

الإنذار ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي كأن هؤلاء الكفار يوم يشاهدون القيامة وما فيها من الأهوال، لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار، بمقدار عشيةٍ أو ضحاها[1]. قال ابن كثير: يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم عشية يوم، أو ضحى يوم.. ختم تعالى السورة الكريمة، بما أقسم عليه في أولها من إثبات «الحشر، والبعث» فكان ذلك كالدليل والبرهان على مجيء القيامة والساعة[2]، وليتناسق البدء مع الختام.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين الآخرة والأولى في قوله ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ لأن المراد كلمتيه الشنيعتين الأولى والأخيرة، والطباق كذلك بين ﴿عَشِيَّةً .. ضُحَىٰهَا﴾.

٢ - جناس الاشتقاق في قوله ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾.

٣ - المقابلة بين قوله ﴿ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ وبين ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ وكذلك المقابلة بين ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ وبين ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ الآيات.

٤ - أسلوب التشويق ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾؟ فإن المراد منه التشويق الى معرفة القصة.

٥ - الطباق بين ﴿ٱلْجَنَّةَ .. ٱلْجَحِيمِ﴾ وبين ﴿ٱلسَّمَآءُ .. ٱلْأَرْضَ﴾ الوارد في الآيات.

٦ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾.

٧ - الاستعارة التصريحية ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ شبَّه أكل الناس برعْي الأنعام، واستعير الرعي للإنسان بجامع أكل الإنسان والحيوان من النبات، ففيه استعارة لطيفة.

٨ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿ضُحَىٰهَا، دَحَىٰهَآ، وَمَرْعَىٰهَا، أَرْسَىٰهَا﴾ وهو من المحسنات البديعية وسمى السجع.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النازعات»



(١) (ش): العَشِيّ: الْوَقْت من بَعْدِ الظُّهْرِ إِلَى الْمغرب، أَو من صَلاَة الْمغرب إِلَى الْعَتَمَة، والعَتَمَة: ظُلْمة اللَّيل. والعَتَمَة: وقت صلاة العشاء: من مغيب الشفق الأحمر إلى نصف الليل. الضُّحَى: الْوَقْت من طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى وَقْتِ الظُّهْرِ.

(٢) (ش): قول المؤلف: « فكان ذلك كالدليل والبرهان على مجيء القيامة والساعة »، تعبير غير سليم، لأنه يعطي معنى التشبيه بمعنى أنها تشبه الدليل والبرهان وليست دليلًا ولا برهانًا، وهذا تعبير صحفي دارج لا يليق بأسلوب التفسير.



سُورَةُ عَبَسَ

مكية وآياتها ثنتان وأربعون

بين يدي السورة

* سورة عبس من السور المكية، وهي تتناول شئونًا تتعلق بالعقيدة وأمر الرسالة، كما أنها تتحدث عن دلائل القدرة، والوحدانية في خلق الإنسان، والنبات، والطعام، وفيها الحديث عن القيامة وأهوالها، وشدة ذلك اليوم العصيب.

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر قصة الأعمى «عبد الله بن أم مكتوم» الذي جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله، ورسول الله ﷺ مشغول مع جماعة من كبراء قريش يدعوهم إلى الإسلام فعبس ﷺ وجهه وأعرض عنه، فنزلت القرآن بالعتاب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن جحود الإنسان، وكفره الفاحش بربه مع كثرة نعم الله تعالى عليه ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ الآيات.

* ثم تناولت دلائل القدرة في هذا الكون، حيث يسر الله للإنسان سبل العيش فوق سطح هذه المعمورة ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة ببيان أهوال القيامة، وفرار الإنسان من أحبابه من شدة الهول والفزع، وبينت حال المؤمنين وحال الكافرين في ذلك اليوم العصيب ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ

وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ

اللغَة: ﴿عَبَسَ﴾ كلح وجهه وقطَّب ﴿تَصَدَّىٰ﴾ تتعرض له وتصغي لكلامه ﴿سَفَرَةٍ﴾ السفرة: الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد جمع سافر مثل كاتب كَتَبة ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ جعل له قبراً وأمر أن يُقْبر ﴿وَقَضْبًا﴾ القضبُ: كل ما يقطع من البقول فينبت أصلهُ مثل البرسيم «الفصة» والباقِلَاء، والكُرَّاث وغيرها[١] ﴿غُلْبًا﴾ كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان جمع غلباء ﴿وَأَبًّا﴾ الأَبُّ: المرعى وكل ما أنبتت الأرض مما تأكله البهائم كالكلأ والعشب ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ الصيحة التي تُصِمُّ الآذان لشدتها ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ مشرقة مضيئة ﴿غَبَرَةٌ﴾ غبار ودخان ﴿قَتَرَةٌ﴾ سواد وظلمة.

سَببُ النّزول: روي أن النبي ﷺ كان مشغولًا مع صناديد قريش يدعوهم إِلى الإِسلام، وكان يطمع في إِسلامهم رجاء أن يسلم أتباعهم، فبينما رسول الله ﷺ مشتغل بمن عنده من وجوه قريش، جاء إِليه «عبد الله بن أُم مكتوم» وهو أعمى، فقال: يا رسول الله، علمني مما علَّمك الله، وكرَّر ذلك وهو لا يعلم أن الرسول مشغول مع هؤلاء المشركين؛ فكره رسول الله ﷺ قطعة لكلامه وعبس وأعرض عنه وقال في نفسه: «يقول هؤلاء إِنما أتباعه العميان والسَّفلة والعبيد، فعبس وجهه وأقبل على القوم يكلمهم فأنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ الآيات[٢].

التفسير: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ أي كلَّح وجهه وقطَّبه[٣] وأعرض عنه كارهًا، لأنْ جاءه الأعمى يسأل عن أمور دينه قال الصاوي: إِنما أتى بضمائر الغيبة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ تلطفًا به ﷺ وإِجلالًا له، لما في المشافهة بتاء الخطاب ما لا يخفى من الشدة والصعوبة[٤] واسم الأعمى «عبد الله بن أُم مكتوم» وكان بعد نزول آيات العتاب إِذا جاءه يقول له: «مرحبًا بمن

---

(١) (ش): باقِلاَّءُ: نبات عُشبيّ حَوْليّ تؤكل قُرونُه مطبوخة وكذلك بذورُه، مثل الفول واللوبيا. وقيل: القَضْبُ هو عَلَف الدَّوَابِّ.

(٢) حاشية الصاوي ٤/ ٢٩٢، و«تفسير القرطبي» ١٩/ ٢١٠. (ش): عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: أُنْزِلَتْ عَبَسَ وَتَوَلَّى فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُوم الْأَعْمَى فَقَالَتْ: أَتَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَعَلَ يَقُولُ: أَرْشِدْنِي، قَالَتْ: وَعِنْدَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ، قَالَتْ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعْرِضُ عَنْهُ، وَيُقْبِلُ عَلَى الْآخرِ وَيَقُولُ: «أَتَرى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا» فَيَقُولُ: «لَا» فَفِي هَذَا أُنْزِلَتْ عَبَسَ وَتَوَلَّى» (صحيح، رواه الترمذي، والحاكم، والطبري في «تفسيره»).

(أَتَرى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا): أي هل ترى في كلامي خطأً؟ أليس كلامي صوابًا؟، أليس ما أقوله حقًّا؟

(٣) (ش): أي ضَمَّ جِلد مَا بين عَيْنَيْهِ وَجِلد جَبهته، وَظهَرَ أَثَرُ التَّغيُّر عَلَى وجهه.

(٤) (ش): فلم يقل: عبسْتَ وتولَّيْتَ، ولما انتهى العتاب وجه إليه الخطاب بصيغة المخاطب، قال- تعالى-: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس: ٣]... إلى آخر الآيات.

عاتبني فيه ربي، ويبسط له رداءه»[1] ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي وما يُعلمك ويخبرك يا محمد لعلَّ هذا الأعمى الذي عبستَ في وجهه، يتطهر من ذنوبه بما يتلقاه عنك من العلم والمعرفة! ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ أي أويتعظ بما يسمع فتنفعه موعظتك ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي أما من استغنى عن اللهِ وعن الإِيمان، بما له من الثروة والمال ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي فأنت تتعرَّض له وتصغي لكلامه، وتهتم بتبليغه دعوتك ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي ولا حرج عليك أن لا يتطهر من دنس الكفر والعصيان، ولست بمطالب بهدايته، إنما عليك البلاغ قال الألوسي: وفيه مزيد تنفير له ﷺ عن مصاحبتهم، فإِن الإقبال على المُدْبر مُخِلٌّ بالمرُوءة كما قال القائل:

وَاللهِ لَوْ كَرِهَتْ كَفِّي مُصَاحَبَتِي ... يَوْمًا لَقُلْتُ لَهَا عَنْ صُحْبَتِي بِينِي[2]

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ أي وأمَّا من جاءك يسرع ويمشي في طلب العلم للهِ ويحرص على طلب الخير ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ أي وهو يخاف الله تعالى ويتقي محارمه ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي فأنت يا محمد تتشاغل عنه، وتتلهى بالانصراف عنه إِلى رؤساء الكفر والضلال﴾ ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي لا تفعل بعدم اليوم مثل ذلك، فهذه الآيات موعظة وتبصرة للخلق، يجب أن يتعظ بها ويعمل بموجبها العقلاء ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي فمن شاء من عباد الله اتعظ بالقرآن، واستفاد من إِرشاداته وتوجيهاته، قال المفسرون: كان ﷺ بعد هذا العتاب، لا يعبس في وجه فقير قط، ولا يتصدى لغني أبدًا، وكان الفقراء في مجلسه أمراء[3]، وكان إِذا دخل عليه «ابن أم مكتوم» يبسط له رداءه ويقول: مرحبًا بما عاتبني فيه ربي[4]. ثم بعد هذا البيان أخبر عن جلالة قدر

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» / ٢٩١. (ش): عن قتادة؛ قال: نزلت في ابن أم مكتوم أربع آيات: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾، ونزل فيه: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾، ونزل فيه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، ونزل فيه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١]؛ فدعا به النبي ﷺ، فأدناه وقربه، وقال: «أنت الذي عاتبني فيك ربي». (ضعيف، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، ونسبه لابن المنذر). وعن أنس بن مالك قال: جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أُبيّ بن خلف؛ فأعرض عنه؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ قال: فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه». (صحيح، رواه ابن جرير الطبري «تفسيره»).

(٢) روح المعاني للألوسي ٣٠/ ٤٠. (ش): أي لَوْ كَرِهَتْنِي يَدِي ما صَحِبْتُني. بِينِي: أي انفصلي. بان الشَّخصُ عنه/ بان الشَّخصُ منه: بَعُد وانفصل، انقطع عنه وفارقه.

يُنسب لذي الإصبع العدواني قوله:

لَا أَبْتَغِي وَصْلًا لِمَنْ لَا يَبْتَغِي صِلَتِي ... وَلاَ أَلِينُ لِمَنْ لاَ يَبْتَغِي لِينِي

وَاللهِ لَوْ كَرِهَتْ كَفِّي مُصَاحَبَتِي ... لَقُلْتُ لِلْكَفِّ بِينِي إِذْ كَرِهْتِينِي

(٣) (ش): ما رُوِيَ من أنه ﷺ كان بعد هذا العتاب، لا يعبس في وجه فقير قط، ولا يتصدى لغني أبدًا، وكان الفقراء في مجلسه أمراء، لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٤) عن قتادة؛ قال: نزلت في ابن أم مكتوم أربع آيات: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾، ونزل فيه: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾، ونزل فيه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، ونزل فيه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١]؛ فدعا به النبي ﷺ، فأدناه وقربه، وقال: «أنت الذي عاتبني فيك ربي». (ضعيف، ذكره السيوطي في «الدر المنثور»، =

القرآن فقال ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ أي هو في صحفٍ مكرمة عند الله ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ أي عالية القدر والمكانة، منزهة عن أيدي الشياطين، وعن كل دنسٍ ونقص ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ أي بأيدي ملائكة جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ أي مكرمين معظمين عند الله، أتقياء صُلَحاء ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] ثم ذكر تعالى قُبْحَ جريمة الكافر، وإفراطِه في الكفر والعصيان مع كثرة إحسان الله إليه فقال ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ أي لُعِن الكافر وطُرِد من رحمة الله، ما أشدَّ كفره بالله مع كثرة إحسانه إليه وأيَادِيه عنده![1] قال الألوسي: والآية دعاءٌ عليه بأشنع الدعوات وأفظعها، وتعجيبٌ من إفراطه في الكفر والعصيان، وهذا في غاية الإيجاز والبيان[2] ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أي من أي شيء خلق الله هذا الكافر حتى يتكبر على ربه؟ ثم وضَّح ذلك فقال ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ أي من ماءٍ مهين حقير بدأ خلقه، فقدَّره في بطن أمه أطوارًا من نطفة ثم من علقة إلى أن تمَّ خَلْقُه قال ابن كثير: قدَّر رزقه، وأجله، وعمله، وشقيّ أو سعيد[3] ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ أي ثم سهَّل له طريق الخروج من بطن أمه[4] قال الحسن البصري: كيف يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين؟[5] يعني الذَكَر والفَرْج ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ أي ثم أماته وجعل له قبراً يُوارَى فيه إكرامًا له، ولم يجعله مُلقًى للسباع والوحوش والطيور. قال الخازن: وهذه تكرمة لبني آدم على سائر الحيوانات ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ أي ثم حين يشاء الله إحياءه، يُحْيِيه بعد موته للبعث والحساب والجزاء[6]، وإنما قال ﴿إِذَا شَاءَ﴾ لأن وقت البعث غير معلوم لأحد، فهو إلى مشيئة الله تعالى، متى شاء أن يحيي الخلق أحياهم ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ أي ليرتدع وينزجر هذا الكافر عن تكبره وتجبره، فإنه لم يؤد ما فرض عليه، ولم يفعل ما كلفه به ربه من الإيمان والطاعة.. ولما ذكر خلق الإنسان، ذكر بعده رزقه، ليعتبر بما أغدق الله عليه من أنواع النعم، فيشكر ربه ويطيعه فقال ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ أي فلينظر هذا الإنسان الجاحد نظر تفكر واعتبار، إلى أمر حياته، كيف خلقه بقدرته، ويسره برحمته، وكيف هيأ له أسباب المعاش، وخلق له الطعام الذي به قوام حياته؟! ثم فصَّل ذلك فقال

= ونسبه لابن المنذر). وعن أنس بن مالك قال: جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أُبيّ بن خلف؛ فأعرض عنه؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ قال: فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه». (صحيح، رواه ابن جرير الطبري «تفسيره»).

(١) (ش): أي مع كثرة إحسانه إليه ونعمه عنده.

(٢) روح المعاني للألوسي ٣٠/ ٤٣.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٠٠.

(٤) (ش): وقيل: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ أي ثم بَيَّنَ له طريق الخير والشر.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢١٦.

(٦) «تفسير الخازن» ٤/ ٢١٠.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ أي أنا بقدرتنا أنزلنا الماء من السحاب على الأرض إنزالًا عجيبًا ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي شققنا الأرض بخروج النبات منها شقًّا بديعًا ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ أي فأخرج بذلك الماء أنواع الحبوب والنباتات: حبًّا يقتات الناس به ويدخرونه، وعنبًا شهيًا لذيذًا، وسائر البقول مما يؤكل رَطِبًا ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ أي وأخرجنا كذلك أشجار الزيتون والنخيل، يخرج منها الزيت والرطَب والتمْر[1] ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ أي وبساتين كثيرة الأشجار، ملتفة الأغصان ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ أي وأنواع الفواكه والثمار، كما أخرجنا ما تراعاه البهائم قال القرطبي: الأبُّ ما تأكله البهائم من العشب[2] ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ أي أخرجنا ذلك وأنبتناه ليكون منفعة ومعاشًا لكم أيها الناس ولأنعامكم قال ابن كثير: وفي هذه الآيات امتنانٌ على العباد وفيها استدلال بإِحياء النبات من الأرض الهامدة، على إِحياء الأجسام بعدما كانت عظامًا باليةً وأوصالًا متفرقة[3] ثم ذكر تعالى بعد ذلك أهوال القيامة فقال ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ أي فإِذا جاءت صيحة القيامة التي تصخ الآذان حتى تكاد تصمها ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب يهرب الإِنسان من أحبابه، من أخيه، وأمه، وأبيه، وزوجته، وأولاده لاشتغاله بنفسه قال في التسهيل: ذكر تعالى فرار الإِنسان من أحبابه، ورتبهم على مراتبهم في الحُنُوّ والشفقة[4]، فبدأ بالأقل وختم بالأكثر، لأن الإِنسان أشدُّ شفقةً على بنيه من كل من تقدم ذكره[5] ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي لكل إِنسان منهم في ذلك اليوم العصيب، شأنٌ يشغله عن شأن غيره، فإِنه لا يفكر في سِوَى نفسه، حتى إِن الأنبياء صلوات الله عليهم ليقول الواحد منهم يومئذٍ «نَفْسِي نَفْسِي»[6].. ولما بيَّن تعالى حال القيامة وأهوالها، بيَّن بعدها حال الناس وانقسامهم في ذلك اليوم إِلى سعداء وأشقياء، فقال في وصف السعداء: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ أي وجوه في ذلك اليوم مضيئة مشرقة من البهجة والسرور ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي فَرِحَةٌ مسرورة بما رأَتْه من كرامة الله ورضوانه، ومستبشرة بذلك النعيم الدائم ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي ووجوه في ذلك اليوم عليها غبارٌ ودخان ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي تغشاها وتعلوها ظلمةٌ وسواد ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ أي أولئك الموصوفون بسواد الوجوه، هم الجامعون بين الكفر والفجور، قال الصاوي: جمع الله تعالى إِلى سواد وجوههم

---

(١) (ش): التَمْر: ما يَبِسَ من البلح (ثمر النخل)، أي جَفّ بعد رُطوبة، وهو كالزّبيب من العنب. الرطَب: ما نضج من البلح قبل أن يصير تَمْرًا. أي ما صار ليِّنًا حُلوًا قبل أن يصير تَمْرًا.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٢٠.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٠١.

(٤) (ش): حَنَا على فلانٍ: عطف وأشفق عليه.

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٨٠.

(٦) هذا جزء من حديث في الشفاعة أخرجه البخاري ومسلم.

الغَبرة كما جمعوا الكفر إلى الفجور[1].

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في العتاب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾.

. ثم قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾؟ فالتفت تنبيهًا للرسول ﷺ إلى العناية بشأن الأعمى.

٢ - جناس الاشتقاق بين ﴿يَذَّكَّرُ .. ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾.

٣ - الكناية الرائقة ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ كنَّى بالسبيل عن خروجه من فرج الأم.

٤ - أسلوب التعجب ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾؟ تعجبٌ من إفراط كفره، مع كثرة إحسان الله إليه.

٥ - الطباق بين ﴿تَصَدَّىٰ﴾ وبين ﴿تَلَهَّىٰ﴾ لأن المراد بهما تتعرض وتنشغل.

٦ - التفصيل بعد الإجمال ﴿مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ ثم فصَّل ذلك وبيَّنه بقوله ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾.

٧ - المقابلة اللطيفة بين السعداء والأشقياء ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ قابلها بقوله ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾.

٨ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات، وهو من المحسنات البديعية ويسمى السجع مثل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ ومثل ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ يَذَّكَّرُ .﴾ إلخ.

لطيفَة: اقتبس بعض الأدباء من قوله تعالى ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾؟ هذين البيتين:

يَتَمَنَّى الْمَرْءُ فِي الصَّيْفِ الشِّتَا فَإِذَا جَاءَ الشِّتَا أَنْكَرَهْ
فَهُوَ لاَ يَرْضَى بِحَالٍ وَاحِدٍ قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهْ[2]

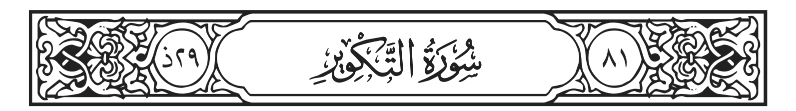
«انتهى تفسير سورة عبس»

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٢٩٤.

(٢) (ش): الشِّتَا: الشِّتَاء.



مكية وآياتها تسع وعشرون

بين يدي السورة

* سورة التكوير من السور المكية، وهي تعالج حقيقتين هامتين هما: «حقيقة القيامة» وحقيقة «الوحي والرسالة» وكلاهما من لوازم الإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بيان القيامة وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل، يشمل الشمس، والنجوم، والجبال، والبحار، والأرض، والسماء، والأنعام، والوحوش، كما يشمل البشر، ويهز الكون هزًّا عنيفًا طويلًا، ينتثر فيه كل ما في الوجود، ولا يبقى شيء إلا وقد تبدل وتغير من هول ما يحدث في ذلك اليوم الرهيب ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾ الآيات.

* ثم تناولت حقيقة الوحي، وصفة النبي الذي يتلقاه، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي الذي نزل لينقلهم من ظلمات الشرك والضلال، إلى نور العلم والإيمان ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة ببيان بطلان مزاعم المشركين حول القرآن العظيم، وذكرت أنه موعظة من الله تعالى لعباده ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ۝٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ۝١٤ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ۝٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ۝٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ۝٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ

اللغَة: ﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾ تناثرت ﴿ٱلۡعِشَارُ﴾ جمع عُشَراء وهي الناقة التي مرَّ على حملها عشرة أشهر ﴿كُشِطَتۡ﴾ نُزِعَت وقُلِعَت يقال: كَشَطْت جلدَ الشاة أي نزعْته وسلَخْته عنها ﴿بِٱلۡخُنَّسِ﴾ الكواكب المضيئة التي تخنس نهارًا وتختفي عن البصر جمع خانس ﴿ٱلۡكُنَّسِ﴾ النجوم التي

تغيب يقال: كنس إذا دخل الكناس وهو المكان الذي تأوي إليه الظِّباء ﴿عَسْعَسَ﴾ أقبل بظلامه. قال الخليل: عسعس الليلُ: إذا أقبل أو أدبر فهو من الأضداد قال الشاعر:

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسَا وَانْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسْعَسَا [(١)]

التفسير: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ هذه الآيات بيانٌ لأهوال القيامة وما يكون فيها من الشدائد والكوارث، وما يعتري الكون والوجود من مظاهر التغيير والتخريب. والمعنى: إذا الشمس لُفَّتْ ومُحِيَ ضَوْءُها ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ أي وإذا النجوم تساقطت من مواضعها وتناثرت ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي وإذا الجبال حُرِّكَت من أماكنها، وسُيِّرت في الهواء حتى صارت كالهَبَاء[(٢)] كقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧] ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أي وإذا النوق[(٣)] الحوامل تُرِكَت هَمَلاً بلا راع ولا طالب، وخصَّ النوق بالذكر لأنها كرائم أموال العرب[(٤)] ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي وإذا الوحوش جُمِعَت من أوْكارها وأجحارها ذاهلةً من شدة الفزع[(٥)] ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي وإذا البحار تأججت نارًا، وصارت نيرانًا تضطرم وتلتهب ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي وإذا النفوس قُرِنَت بأشباهها، فقُرِن الفاجرُ مع الفاجر، والصالحُ مع الصالح، قال الطبري: يُقرَن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، وبين الرجل السوء مع الرجل السُّوء في النار[(٦)]

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ أي وإذا البنت التي دفنت وهي حية سئلت توبيخًا لقاتلها: ما ذنبها حتى قتلت؟ قال في التسهيل: الموءودة هي البنت التي كان بعض العرب يدفنها حيَّةً من كراهته لها أو غَيْرته عليها، فتُسْأل يوم القيامة ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾؟ على وجه التوبيخ لقاتلها[(٧)] ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ أي وإذا صحف الأعمال نُشِرت وبُسِطَت عند الحساب ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ أي وإذا السماء أُزِيلَت ونُزِعَت من مكانها كما يُنزَع الجلد عن الشاة ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أي وإذا نار جهنم أُوقِدَت وأُضْرِمَت لأعداء الله تعالى ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أي وإذا الجنة أُدْنِيَت

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٤٣٠.

(٢) (ش): الهَبَاء: ما يُرى في ضوء الشمس من الغبار الخفيف.

(٣) (ش): النوق: جمع ناقَة: وهي الأنثى من الإِبْل، أنثَى الجمل.

(٤) (ش): كرائمُ الأموال: نفائسها وخيارها.

(٥) (ش): أَوْكار: جمع وَكْر: عُشُّ الطائر الذي يبيض فيه ويُفرِّخ، سواء أكان ذلك في جبل أم شجر أم غيرهما. أجْحَار: جمع جُحْر: حُفْرة تأوي إليها وصغار الحيوانات والهوامّ. والهوامّ جمع هامَّة: ما كان له سمٌّ قاتل، كالحيَّة.

(٦) هذه رواية الطبري عن عمر بن الخطاب، وقيل المراد: قَرْنُ الأجساد بالأرواح، والأول أرجح والله أعلم. (ش): هكذا في «تفسير الطبري»، ولعل الصواب: يُقرَن الرجلُ الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، والرجلُ السوء مع الرجل السُّوء في النار، أو: يُقرَن بين الرجل الصالح والرجل الصالح في الجنة، وبين الرجل السوء والرجل السُّوء في النار.

(٧) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٨١.

وقُرِّبَت من المتقين ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ أي علمت كل نفسٍ ما أحضرتْ من خيرٍ أو شر، وهذه الجملة ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ هي جواب ما تقدم من أول السورة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ إلى هنا. والمعنى إذا حدثت تلك الأمور العجيبة الغريبة، علمت حينئذٍ كل نفسٍ ما قدَّمَتْه من صالح أو طالح.. ثم أقسم تعالى على صدق القرآن، وصحة رسالة محمد عليه السلام فقال ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ أي فأقسم قسمًا مؤكدًا بالنجوم المضيئة التي تختفي بالنهار، وتظهر بالليل[1] ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ أي التي تجري وتسير مع الشمس والقمر ثم تستتر وقت غروبها، كما تستتر الظباء في كناسها -مغاراتها- قال القرطبي: النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل، وتنكس وقت غروبها أي تستتر، كما تنكس الظباء في المغار وهو الكناس[2] ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أي وأقسم بالليل إذا أقبل بظلامه حتى غطَّى الكون[3] ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي وبالصبح إذا أضاء وتبلَّج، واتَّسع ضياؤه حتى صار نهارًا واضحًا ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هذا هو المُقْسَم عليه، أي: إن هذا القرآن الكريم، لَكلامُ الله المنزَّل بواسطة ملك عزيز على الله هو جبريل كقوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤] قال المفسرون: أراد بالرسول «جبريل» وأضاف القرآن إليه لأنه جاء به، وهو في الحقيقة قول الله تعالى، ومما يدل على أن المراد به جبريل قوله بعده ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي شديد القوة، صاحب مكانة رفيعة، ومنزلة سامية عند الله جلّ وعلا ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أي مطاع هناك في الملأ الأعلى، تطيعه الملائكة الأبرار، مؤتمن على الوحي الذي ينزل به على الأنبياء ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ أي وليس محمد الذي صاحبتموه يا معشر قريش، وعرفتم صدقه ونزاهته ورجاحة عقله بمجنون كما زعمتم قال الخازن: أقسم تعالى على أن القرآن نزل به جبريل الأمين، وأن محمدًا ﷺ ليس بمجنون كما يزعم أهل مكة، فنفى تعالى عنه الجنون، وكون القرآن من عند نفسه[4] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي وأقسمُ لقد رأى محمد ﷺ جبريل في صورته الملكية التي خلقه الله عليها بجهة الأفق الأعلى البيِّن من ناحية المشرق حيث تطلع الشمس قال في البحر: وهذه الرؤية بعد أمر غار حراء، حين رأى جبريل على كرسي بين السماء والأرض، في صورته له ستمائة جناح قد سدَّ ما بين المشرق والمغرب[5] ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أي وما محمد على الوحي ببخيل

---

(١) هذا قول علي وابن عباس ومجاهد والحسن، كذا في «الطبري» ٣٠/ ٤٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٣٥.

(٣) هذا القول أرجح لمقابلته بالصبح فكأنه يقول: أقسم بالليل حين يقبل بظلامه، وبالنهار حين يقبل بضيائه، وهو اختيار ابن كثير.

(٤) «تفسير الخازن» ٤/ ٢١٥.

(٥) «البحر المحيط» ٨/ ٤٣٤. (ش): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ لَهُ سِتُّمِائَةِ =

يقصِّر في تبليغه وتعليمه، بل يبلغ رسالة ربه بكل أمانةٍ وصدق ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أي وما هذا القرآن بقول شيطان ملعون كما يقول المشركون ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أيْ فأيَّ طريقٍ تسلكون في تكذيبكم للقرآن، واتهامكم له بالسحر والكهانة والشعر، مع وضوح آياته وسطوع براهنيه؟ وهذا كما تقول لمن ترك الطريق المستقيم: هذا الطريق الواضح فأين تذهب؟ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن إلا موعظة وتذكرة للخلق أجمعين ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ أي لمن شاء منكم أن يتبع الحق، ويستقيم على شريعة الله، ويسلك طريق الأبرار ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وما تقدرون على شيء إلا بتوفيق الله ولُطْفه، فاطلبوا من الله التوفيق إلى أفضل طريق.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الجناس الناقص بين ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾ و ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾.

٢ -الاستعارة التصريحية ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ شبَّه إقبال النهار وسطوع الضياء بنسمات الهواء العليل التي تحيي القلب، واستعار لفظ التنفس لإقبال النهار بعد الظلام الدامس، وهذا من لطيف الاستعارة وأبلغها تصويرًا حيث عبر عنه بتنفس الصبح[1].

٣ - الكناية اللطيفة ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ كنى عن محمد ﷺ بلفظ ﴿صَاحِبُكُم﴾.

٤ - الطباق بين لفظ ﴿ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ.. ٱلْجَنَّةُ﴾.

٥ - الجناس غير التام بين ﴿أَمِينٍ.. مَكِينٍ﴾.

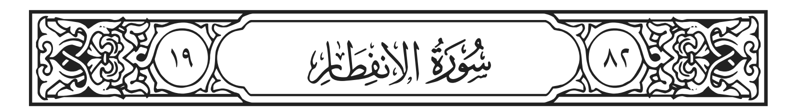
٦ - توافق الفواصل رعاية لرءوس الآيات مثل ﴿كُوِّرَتْ، سُيِّرَتْ، سُجِّرَتْ، سُعِّرَتْ﴾ ومثل ﴿بِٱلْخُنَّسِ، ٱلْكُنَّسِ، عَسْعَسَ، تَنَفَّسَ﴾ الخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التكوير»

❀ ❀ ❀ ❀

= جَنَاح. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّهُ قَالَ: « إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَرَ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ، أَمَّا مَرَّةٌ، فَإِنَّهُ سَأَلَهُ أَنْ يُرِيَهُ نَفْسَهُ فِي صُورَتِهِ، فَأَرَاهُ صُورَتَهُ فَسَدَّ الْأُفُقَ، وَأَمَّا الْأُخْرَى، فَإِنَّهُ صَعِدَ مَعَهُ حِينَ صَعِدَ بِهِ. (رواه أحمد، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح). وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ - قَالَ فِى حَدِيثِهِ: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِى سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِى فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِى جَاءَنِى بِحِرَاءٍ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ » قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « فَجُئِثْتُ مِنْهُ فَرَقًا فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمِّلُونِى زَمِّلُونِى. فَدَثَّرُونِى فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ وَهِىَ الأَوْثَانُ قَالَ ثُمَّ تَتَابَعَ الْوَحْىُ. (رواه البخاري ومسلم). فَجُئِثْتُ: ففزعتُ.

(١) (ش): النَّسيم: ريح خفيفة لا تُحرِّك شجرًا ولا تُعفِّي أثرًا. الهواء العليل: نسيمٌ رقيق ليِّنُ الهبوبِ، مُنعشٌ لطيف. دمَسَ الظَّلامُ: اشتدَّ سوادُه.



مكية وآياتها تسع عشرة

بين يدي السورة

* سورة الانفطار من السور المكية، وهي تعالج - كسابقتها سورة التكوير - الانقلاب الكوني الذي يصاحب قيام الساعة، وما يحدث في ذلك اليوم الخطير من أحداث جسام[1]، ثم بيان حال الأبرار، وحال الفجار، يوم البعث والنشور.

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان مشاهد الانقلاب الذي يحدث في الكون، من انفطار السماء وانتثار الكواكب، وتفجير البحار، وبعثرة القبور، وما يعقب ذلك من الحساب والجزاء ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾.

* ثم تحدثت عن جحود الإنسان وكفرانه لنعم ربه، وهو يتلقى فيوض النعمة منه جل وعلا، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها، ولا يعرف لربه قدره، ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾؟!

* ثم ذكر علة هذا الجحود والإنكار، ووضحت أن الله تعالى وكل بكل إنسان ملائكة يسجلون عليه أعماله، ويتعقبون أفعاله ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾.

* وذكرت السورة انقسام الناس في الآخرة إلى قسمين: أبرار، وفجار، وبينت مآل كل من الفريقين ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ۝١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بتصوير ضخامة يوم القيامة وهوله، وتجرد النفوس يومئذٍ من كل حول وقوة، وتفرد الله جل وعلا بالحكم والسلطان ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ .

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ

(١) (ش): أحداثٌ جِسَام: أحداثٌ عظيمة.

أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ

اللغـة: ﴿ٱنفَطَرَتْ﴾ انشقت، والفَطْرُ: الشقُّ ومنه فطر نابُ البعير ﴿ٱنتَثَرَتْ﴾ تساقطت وتهاوت ﴿بُعْثِرَتْ﴾ قُلبت يقال: بعثرت المتاع قَلَبْته ظهرًا لبطن ﴿غَرَّكَ﴾ خدعك ﴿سَوَّىٰكَ﴾ جعل أعضاءك سليمة سويّة ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ويذوقون لهبها وحرَّها.

التفسير: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ أي إذا السماء انشقت بأمر الله لنزول الملائكة كقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ أي وإذا النجوم تساقطت وتناثرت، وزالت عن بروجها وأماكنها ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي وإذا البحار فُتِح بعضُها إلى بعض، فاختلط عذبُها بمالحها، وأصبحت بحرًا واحدًا ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي وإذا القبور قُلِبت، ونُبِشَ ما فيها من الموتى[1]، وصار ما في بطنها ظاهرًا على وجهها ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ هذا هو الجواب أي علمت عندئذٍ كل نفس ما أسلفت من خير أو شر، وما قدمت من صالح أو طالح قال الطبري: ما قدمت من عمل صالح، وما أخرت من شيء سَنَّه فعُمِل به بعده[2] ثم بعد ذِكْر أحوال الآخرة وأهوالها، انتقلت الآيات لتذكير الإنسان الغافل الجاهل بما أمامه من أهوال وشدائد فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ أيْ أيُّ شيءٍ خدعك بربك الحليم الكريم، حتى عصيته وتجرأت على مخالفة أمره، مع إحسانه إليك وعطفه عليك؟[3] وهذا توبيخ وعتاب كأنه قال: كيف قابلتَ إحسان ربك بالعصيان، ورأفته بك بالتمرد والطغيان ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]؟ ثم عدَّد نعمه عليه فقال ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ أي الذي أوجدك من العدم، فجعلك سويًّا سالم الأعضاء، تسمع وتعقل وتبصر ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي جعلك معتدل القامة منتصبًا في أحسن الهيئات والأشكال ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ أي رَكَّبك في أي صورة شاءها واختارها لك من الصور الحسنة العجيبة ولم يجعل في الشكل كالبهيمة كقوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].. ثم وبَّخ المشركين على تكذيبهم بيوم الدين فقال ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ أي ارتدعوا يا أهل مكة، ولا تغتروا بحلم الله، بل أنتم تكذبون بيوم الحساب والجزاء ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ أي والحالُ أن عليكم ملائكة حفظة يضبطون أعمالكم ويراقبون تصرفاتكم قال القرطبي: أي

(١) (ش): أي قُلِبَ تُرَابُهَا، وَخَرَجَ الأَمْوَاتُ مِنْهَا.

(٢) «تفسير الطبري» ٣٠/ ٥٤.

(٣) هذه الآية واردة على سبيل التوبيخ والتعجب من حال الإنسان الجاحد لنعم ربه، وليست واردة على سبيل تلقين الحجة كما قال البعض حتى قالوا: يُلَقِّنه أن يقول: غَرَّني كرمُك، ويؤيد ما ذكرناه قول عمر: «غره حُمقُه وجَهلُه».

عليكم رقباء من الملائكة[1] ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ أي كرامًا على الله، يكتبون أقوالكم وأعمالكم ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي يعلمون ما يصدر منكم من خير وشر، ويسجلونه في صحائف أعمالكم، لتُجازَوْا به يوم القيامة.. ثم بيَّن تعالى انقسام الخلق يوم القيامة إلى أبرار وفجار، وذكر مآل كلٍّ من الفريقين فقال ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ أي إن المؤمنين الذين اتقوا ربهم في الدنيا، لَفِي بهجة وسرور لا يُوصَف، يتنعمون في رياض الجنة بما لا عينٌ رأتْ ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهم مخلدون في الجنة ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ أي وإن الكفرة الفجار، الذين عصوا ربهم في الدنيا، لفي نار محرقةٍ، وعذاب دائم مقيم في دار الجحيم ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي يدخلونها ويقاسون حرها يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ أي وليسوا بغائبين عن جهنم، بعيدين عنها لا يرونها، بل هي أمامهم يَصْلَونَ ويذوقون سعيرها ولا يخرجون منها أبدًا ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ تعظيمٌ له وتهويل أي ما أعلمك ما يوم الدين؟ وأيُّ شيءٍ هو في شدته وهوله؟ ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؟ كرر ذكره تعظيمًا لشأنه، وتهويلًا لأمره كقوله ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١٣]؟ كأنه يقول: إن يوم الجزاء من شدته بحيث لا يدري أحدٌ مقدار هوله وعظمته، فهو فوق الوصف والبيان ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي هو ذلك اليوم الرهيب الذي لا يستطيع أحد أن ينفع أحدًا بشيء من الأشياء، ولا أن يدفع عنه ضرًّا ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أي والأمر في ذلك اليوم لله وحده لا ينازعه فيه أحد.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿قَدَّمَتْ﴾ و ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٢ - المقابلة اللطيفة بين الأبرار والفجار ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ فقد قابل الأبرار بالفجار، والنعيم بالجحيم وفيه أيضًا من المحسنات البديعية ما يسمى بالترصيع.

٣ - الاستعارة المكنية ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ شبَّه الكواكب بجواهر قُطِع سِلْكُها[2] فتناثرت متفرقة، وطوى ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الانتثار على طريق الاستعارة المكنية.

٤ - الاستفهام للتوبيخ والإنكار ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؟

٥ - التنكير في كل من لفظة ﴿نَعِيمٍ﴾ و ﴿جَحِيمٍ﴾ للتعظيم والتهويل.

٦ - الإطناب بإعادة الجملة ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؟ لتعظيم

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٤٥.

(٢) (ش): سِلْك: خيط يُنظم فيه الخرز ونحوه أو يخاط به.

هول ذلك اليوم وبيان شدته كأنه فوق الوصف والخيال.

٧ – السجع المرصَّع وهو من المحسنات البديعية مثل ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ ومثل ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾ ومثل ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾.

لطيفَة: روي أن الخليفة «سليمان بن عبد الملك» قال لأبي حازم المزني: ليت شعري أين مصيرنا يوم القيامة؟ وما لنا عند الله؟ فقال له: اعرضْ عملك على كتاب الله تجد ما لك عند الله (فقال: وأين أجد ذلك في كتاب الله؟ قال: عند قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ قال سليمان: فإين إذًا هي رحمة الله؟ فأجابه بقوله ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الانفطار»





مكية وآياتها ست وثلاثون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مكية، وأهدافها نفس أهداف السور المكية، تعالج أمور العقيدة وتتحدث عن الدعوة الإسلامية في مواجهة خصومها الألداء.

* ابتدأت السورة الكريمة بإعلان الحرب على المطففين في الكيل والوزن، الذين لا يخافون الآخرة ولا يحسبون حسابًا للوقفة الرهيبة بين يدي أحكم الحاكمين ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

* ثم تحدثت عن الأشقياء الفجار، وصورت جزاءهم يوم القيامة، حيث يساقون إلى الجحيم مع الزجر والتهديد ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ الآيات.

* ثم عرضت لصفحة المتقين الأبرار، وما لهم من النعيم الخالد الدائم، في دار العز والكرامة، وذلك في مقابلة ما أعده الله للأشقياء الأشرار، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.

* وختمت السورة الكريمة بمواقف أهل الشقاء والضلال، من عباد الله الأخيار، حيث كانوا يهزءون بهم في الدنيا ويسخرون عليهم لإيمانهم وصلاحهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ إلى آخر السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ

وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ

اللغَة: ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ جمع مُطفِّف وهو الذي يُنقِص في الكيل والوزن، والتطفيف: النقصان وأصله من الطفيف وهو الشيء اليسير، لأن المطفِّف لا يكاد يسرق في الكيل والوزن إلا الشيء اليسير ﴿رَانَ﴾ غطَّى وغشَّى كالصدأ يغشى السيف، وأصله الغلبة يقال: رانَت الخمرُ على عقل شاربها أي غلبَتْه قال الشاعر:

وَكَمْ رَانَ مِنْ ذَنْبٍ عَلَى قَلْبِ فَاجِرِ[1]

﴿رَّحِيقٍ﴾ أجود الخمر وأصفاه وفي الصحاح: الرحيق صفوة الخمر وقال الأخفش: هو الشراب الذي لا غش فيه قال الحسن:

بَرَدَى يُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ[2]

﴿فَكِهِينَ﴾ معجبين متلذذين ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ يشيرون إليهم بالأعين استهزاءً ﴿ثُوِّبَ﴾ جُوزِيَ ﴿تَسْنِيمٍ﴾ عينٌ عالية شرابها أشرف شراب، وأصل التسنيم الارتفاع ومنه سَنام البعير[3].

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس قال «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، كانوا من أخبث الناس كيلًا فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسَنوا الكيل بعد ذلك»[4].

التفسير: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ أي هلاك وعذاب ودمار، لأولئك الفجار الذين ينقصون المكيال والميزان، ثم بيَّن أوصافهم القبيحة بقوله ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أي إذا أخذوا الكيل من الناس أخذوه وافيًا كاملًا لأنفسهم ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ أي وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم، يُنقِصون الكيل والوزن قال المفسرون: نزلت في رجل يُعرف بـ «أبي جهينة» كان له صاعان، يأخذ بأحدهما ويعطي بالآخر[5]، وهو وعيدٌ لكل مَن طفَّف الكيل والوزن، وقد أهلك الله قوم شعيب لبخسهم المكيال والميزان، وفي الحديث «ولا

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٤٣٨.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٦٤. (ش): البيت يُنسَب لحسان بن ثابت، يمدح الغساسنة في الجاهلية. بَرَدَى: أي ماءَ بَرَدَى، نهر بدمشق. يُصَفَّقُ: يُمزَج. سَلْسَل: عذْبٌ صافٍ سَلِس سهل.

(٣) (ش): سَنَام البعير: سَنَام الجمل: كتلة كبيرة من الشَّحْم مُحدَّبة على ظهره.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦١٣. (ش): حسن، رواه الحاكم، وابن ماجه، وابن حبان، وابن جرير الطبري في «تفسيره».

(٥) (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول».

طففوا الكيل إلاّ منعوا النبات وأُخذوا بالسنين»[١] ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ أي ألاَ يَعْلم ويستَيْقِن أولئك المطففون أنهم سيبعثون ليوم عصيب، شديد الهول، كثير الفزع؟! ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي يوم يقفون في المحشر حفاةً عراةً، خاشعين خاضعين لرب العالمين[٢] قال في البحر: وفي هذا الإنكار والتعجيب، ووصف اليوم بالعِظَم، وقيام الناس لله خاضعين، ووصفهُ برب العالمين، دليلٌ على عِظَم هذا الذنب وهو التطفيف[٣]، وفي الحديث عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ[٤].. ثم ذكر تعالى مآل الفجار، ومآل الأبرار فقال ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ أي لِيرتدِعْ هؤلاء المطففون عن الغفلة عن البعث والجزاء، فإن كتاب أعمال الأشقياء الفجار، لفي مكان ضيّق في أسفل سافلين ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ استفهام للتعظيم والتهويل أي هل تعلم ما سجين؟ ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي هو كتاب مكتوبٌ كالرَّقْم في الثوب[٥]، لا يُنسَى ولا يُمحَى، أُثبِتَتْ فيه أعمالهم الشريرة قال ابن كثير: ﴿سِجِّينٍ﴾ مأخوذ من السجن وهو الضيق، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل سافلين، وهي تجمع الضيق والسفول، أخبر تعالى أنه كتاب مرقوم، أي: مكتوبٌ مفروغ منه، لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد[٦] ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي يكذبون بيوم الحساب والجزاء ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي وما يكذب بيوم الحساب والجزاء ألا كل متجاوز الحد في الكفر والضلال، مُبالِغ في العصيان والطغيان، كثير الآثام، ثم وضّح من إجرامه فقال ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي إذا تُلِيَتْ عليه آيات القرآن، الناطقة بحصول البعث والجزاء، قال

---

(١) جزء من حديث أخرجه الحاكم والطبراني عن ابن عباس مرفوعًا، وانظر الألوسي ٣٠/ ٧١. (ش): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ – رضي الله عنهما – قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وآله وسلم – فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمِ الَّذِينَ مَضَوْا. وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا. وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ. وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ» (حسن رواه ابن ماجه). (الْفَاحِشَةُ) أي الزنا. (الْأَوْجَاعُ) أي الأمراض. (السِّنِين) أي الفقر. (الْقَطْرَ) أي المطر. (بَأْسَهُمْ) أي حربهم.

(٢) (ش): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ –رضي الله عنهما– عَنِ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وآله وسلم – قَالَ: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا»، ثُمَّ قَرَأَ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾» (رواه البخاري). (غُرْلًا):غير مَخْتُونِينَ.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٤٤٠.

(٤) أخرجه الشيخان ومالك. (ش): الرشح: العرق.

(٥) (ش): رقَم الثَّوبَ ونحوَه: طرّزه وخطّطه.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦١٤.

عنها: هذه حكايات وخرافات الأوائل، سطروها وزخرفوها في كتبهم ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ليرتدع هذا الفاجر عن ذلك القول الباطل، فليس القرآن أساطير الأولين، بل غطَّى على قلوبهم ما كسبوا من الذنوب، فطمَس بصائرَهم فصاروا لا يعرفون الرشد من الغي قال المفسرون: الرَّان هو الذنب على الذنب حتى يَسْوَدَّ القلب[1] ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أي لِيرتدِعْ هؤلاء المكذبون عن غيِّهم وضلالهم، فهم في الآخرة محجوبون عن رؤية المولى جل وعلا فلا يرَوْنه قال الشافعي: وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرَوْنه عزَّ وَجَلَّ -وقال مالك: لما حجب أعداءَه فلم يروْه، تجلَّى لأوليائه حتى رَأَوْه[2]- ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي ثم إنهم مع الحرمان عن رؤية الرحمن، لداخلو الجحيم وذائقو عذابها الأليم ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي ثم تقول لهم خزنة جهنم على وجه التقريع والتوبيخ: هذا العذاب الذي كنتم تكذبون به في الدنيا ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]؟..

وبعد الحديث عن حال الفجار، ذكر تعالى نعيم الأبرار فقال ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ وزجر، أي: ليس الأمر كما يزعمون من مساواة الفجار بالأبرار، بل كتابه في سجين، وكتاب الأبرار في عليين، وهو مكان عالٍ مشرَّف في أعلى الجنة، قال في التسهيل: ولفظ ﴿عِلِّيِّينَ﴾ للمبالغة، وهو مشتق من العلو لأنه سبب في ارتفاع الدرجات في الجنة، أو لأنه في مكان عليٍّ رفيع فقد رُوِي أنه تحت العرش[3] ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ تفخيمٌ وتعظيم لشأنه أي وما أعلمك يا محمد ما عليون؟ ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي كتابُ الأبرار كتاب مُسَطَّر، مكتوب فيه أعمالهم، وهو في عليين في أعلى درجات الجنة، يشهده المقربون من الملائكة قال المفسرون: إن روح المؤمن إذا قُبضت صُعد بها إلى العرش، فيخرج لهم رقٌّ فيكتب فيه ويختم عليه بالنجاة من الحساب والعذاب ويشهده المقربون[4] ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾

---

(١) وفي الحديث: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِى قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ؛ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ وَهُوَ الرَّانُ الَّذِى ذَكَرَ اللهُ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾». رواه الترمذي. (ش): ورواه أحمد وحسنه الألباني. (نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ) أَيْ جُعِلَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ أَيْ أَثَرٌ قَلِيلٌ كَالنُّقْطَةِ شَبَهُ الْوَسَخِ فِي الْمِرْآةِ وَالسَّيْفِ وَنَحْوِهِمَا. (نَزَعَ) أَيْ كفَّ نَفْسَهُ وانتهى عَن ارْتِكَابِ الْمَعَاصِي. (صُقِلَ قَلْبُهُ) أي نُظِّفَ، وَصُفِّيَتْ مِرْآةُ قَلْبِهِ؛ لِأَنَّ التَّوْبَةَ بِمَنْزِلَةِ الْمِصْقَلَةِ تَمْحُو وَسَخَ الْقَلْبِ. (وَإِنْ عَادَ) أَيْ الْعَبْدُ فِي الذَّنْبِ وَالْخَطِيئَةِ (زِيدَ فِيهَا) أَيْ فِي النُّكْتَةِ السَّوْدَاءِ (حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ) أَيْ تَعْلُوَ النُّكَت قَلْبَهُ، أَيْ تُطْفِئَ نُورَ قَلْبِهِ فَتُعْمِيَ بَصِيرَتَهُ (وَهُوَ) أي الْأَثَرُ الْمُسْتَقْبَحُ الْمُسْتَعْلِي (الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ) أَيْ فِي كِتَابِهِ.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٥٩.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٨٥. (ش): رواه الطبري من كلام قتادة في تفسير الآية.

(٤) ذكره القرطبي عن كعب ١٩/ ٢٦٠. (ش): هو كعب بن ماتع الحميرى، المعروف بكعب الأحبار، من كبار التابعين، كان من أهل اليمن، وكان على دين اليهود، فأسلم فى خلافة أبى بكر رضي الله عنه، وتوفِّي فى آخر خلافة عثمان رضي الله عنه. وعَنْ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ بُدَيْلٌ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «إِذَا خَرَجَتْ رُوحُ =

أي إن المطيعين لله في الجنات الوارفة، والظلال الممتدة يتنعمون ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ أي هم على السُّرُر المُزَيَّنة بفاخِر الثياب والسُّتور، ينظرون إلى ما أعدَّ الله لهم من أنواع الكرامة والنعيم في الجنة ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي إذا رأيتهم تعرف أنهم أهل نعمة، لما ترى في وجوههم من النور والبياض والحسن، ومن بهجة السرور ورَوْنَقه[1] ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ﴾ أي يُسقون من خمرٍ في الجنة، بيضاء طيبة صافية، لم تُكدِّرْها الأيدي، قد خُتْم على تلك الأواني فلا يفُكّ خَتْمها إلا الأبرار ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ﴾ أي آخر الشراب تفوح منه رائحة المسك ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أي وفي هذا النعيم والشراب الهنيء، فليرغب بالمبادرة إلى طاعة الله، وليتسابق المتسابقون قال الطبري: التنافسُ مأخوذ من الشيء النفيس الذي يحرص عليه الناس، وتشتهيه وتطلبه نفوسهم. والمعنى: فليستبقوا في طلب هذا النعيم، ولتحرص عليه نفوسهم[2] ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ﴾ أي يمزج ذلك الرحيق من عينٍ عالية رفيعة، هي أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه تسمى «التسنيم» ولهذا قال بعده ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ أي هي عينٌ في الجنة يشرب منها المقربون صرفًا، وتمزج لسائر أهل الجنة قال في التسهيل: تسنيم أسمٌ لعين في الجنة يشرب منها المقربون صرفًا، ويمزج منه الرحيق الذي يشرب منه الأبرار، فدل ذلك على إن درجة المقربين فوق درجة الأبرار[3] ولما ذكر تعالى نعيم الأبرار، أعقبه بذكر مآل الفجار، تسليةً للمؤمنين وتقويةً لقلوبهم فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ أي: إن المجرمين الذين من طبيعتهم الإجرام وارتكاب الآثام، كانوا في الدنيا يضحكون من المؤمنين استهزاءً بهم قال في التسهيل: نزلت هذه الآية في صناديد قريش كأبي جهل وغيره، مرَّ بهم علي بن أبي طالب وجماعة من المؤمنون، فضحكوا

= الْمُؤْمِنِ تَلَقَّاهَا مَلَكَانِ يُصْعِدَانِهَا». قَالَ حَمَّادٌ: فَذَكَرَ مِنْ طِيبِ رِيحِهَا وَذَكَرَ الْمِسْكَ. قَالَ: «وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: «رُوحٌ طَيِّبَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ صَلَّى اللهُ عَلَيْكِ وَعَلَى جَسَدٍ كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ». فَيُنْطَلَقُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَقُولُ: «انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الأَجَلِ». قَالَ: « وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ - قَالَ حَمَّادٌ: وَذَكَرَ مِنْ نَتْنِهَا وَذَكَرَ لَعْنًا - وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: «رُوحٌ خَبِيثَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ». قَالَ: فَيُقَالُ: «انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الأَجَلِ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَيْطَةً كَانَتْ عَلَيْهِ عَلَى أَنْفِهِ هَكَذَا. (رواه مسلم). قال النووي: «قَوْلُهُ فِي رُوحِ الْمُؤْمِنِ (ثُمَّ يَقُولُ انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ ثُمَّ قَالَ فِي رُوحِ الْكَافِرِ فَيُقَالُ انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ) قَالَ الْقَاضِي الْمُرَادُ بِالْأَوَّلِ انْطَلِقُوا بِرُوحِ الْمُؤْمِنِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَالْمُرَادُ بِالثَّانِي انْطَلِقُوا بِرُوحِ الْكَافِرِ إِلَى سِجِّينٍ فَهِيَ مُنْتَهَى الْأَجَلِ وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ إِلَى انْقِضَاءِ أَجَلِ الدُّنْيَا. قَوْلُهُ (فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَيْطَةً كَانَتْ عَلَيْهِ عَلَى أَنْفِهِ) الرَّيْطَةُ بِفَتْحِ الرَّاءِ وَإِسْكَانِ الْيَاءِ وَهُوَ ثَوْبٌ رَقِيقٌ وَقِيلَ هِيَ الْمُلَاءَةُ وَكَانَ سَبَبُ رَدِّهَا عَلَى الْأَنْفِ بِسَبَبِ مَا ذَكَرَ مِنْ نَتْنِ رِيحِ رُوحِ الْكَافِرِ» [شرح النووي على مسلم (١٧/ ٢٠٥)].

(١) (ش): رَوْنَق: حُسْن وبهاء وإشراق.

(٢) «تفسير الطبري» ٣٠/ ٦٨.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٨٥.

منهم واستخفوا بهم[١] ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ أي وإذا مرَّ هؤلاء المؤمنين بالكفار، غمز بعضهم بعضًا بأعينهم سخرية واستهزاءً بهم قال المفسرون: كان المشركون إذا مرَّ بهم أصحاب رسول الله، تغامزوا بأعينهم عليهم احتقارًا لهم وازدراءً يقولون: جاءكم ملوك الدنيا، يسخرون منهم لإيمانهم واستمساكهم بالدين ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ أي وإذا انصرف المشركون ورجعوا إلى منازلهم وأهليهم، رجعوا متلذيين يتفكهون بذكر المؤمنين والاستخفاف بهم قال في البحر: أي رجعوا متلذذين بذكرهم وبالضحك منهم استخفافًا بأهل الإيمان[٢] ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ أي وإذا رأى الكفار المؤمنين قالوا: إن هؤلاء لضالون لإيمانهم بمحمد، وتَرْكهم شهوات الحياة قال تعالى ردًّا عليهم ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ أي وما أُرسل الكفار حافظين على المؤمنين، يحفظون أعمالهم ويشهدون برشدهم أو ضلالهم، وفيه تهكم وسخرية بالكفار كأنه يقول: أنا ما أرسلْتُهم رُقَباء[٣]، ولا وَكَّلْتُهم بحفظ أعمال عبادي المؤمنين، حتى يرشدوهم إلى مصالحهم، فلم يشغلون أنفسهم فيما لا يعنيهم؟ ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ أي ففي هذا اليوم يوم القيامة يضحك المؤمنون من الكفار، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا، جزاءً وفاقًا ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ أي والمؤمنون على أسِرَّة الدر والياقوت، ينظرون إلى الكفار ويضحكون عليهم قال القرطبي: يقال لأهل النار وهم في النار: اخرجوا، فتفتح لهم أبواب النار، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا انتهوا إلى أبوابها أغلقت دونهم، فيضحك منهم المؤمنون[٤] ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي هل جوزي الكفار في الآخرة بما كانوا يفعلونه بالمؤمنين من السخرية والاستهزاء؟ نعم.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التنكير للتهويل والتفخيم ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾.

٢ - الطباق بين ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ و ﴿يُخْسِرُونَ﴾.

٣ - المقابلة بين حال الفجار والأبرار ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ مَّرْقُومٌ.﴾ إلخ و ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ مَّرْقُومٌ.﴾ إلخ. ٤ - التفخيم والتعظيم لمراتب الأبرار ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾؟

٥ - جناس الاشتقاق ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

٦ - الإطناب بذكر أوصاف ونعيم المتقين ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٨٦. (ش): لم أجِدْه إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٤٤٣.

(٣) (ش): رُقَبَاءُ: جمع رقيب.

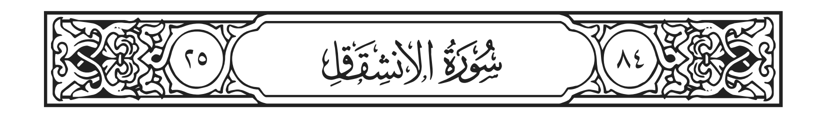
(٤) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٦٨.

٧ – التشبيه البليغ ﴿خِتَـٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ أي كالمسك في الطيب والبهجة، فحذف منه الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغًا.

٨ – توافق الفواصل مراعاةً لرءوس الآيات مثل ﴿يَضۡحَكُونَ، يَنظُرُونَ، يَكۡسِبُونَ، يَفۡعَلُونَ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المطففين»





سورة الانشقاق ٨٤ ٢٥

مكية وآياتها خمس وعشرون

بين يدي السورة

* سورة الانشقاق مكية، وقد تناولت الحديث عن أهوال القيامة، كشأن سائر السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية.

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر بعض مشاهد الآخرة، وصورت الانقلاب الذي يحدث في الكون عند قيام الساعة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾.

* ثم تحدثت عن خلق الإنسان الذي يكد ويتعب في تحصيل أسباب رزقه ومعاشه؛ ليقدم لآخرته ما يشتهي من صالح أو طالح[1]، ومن خير أو شر، ثم هناك الجزاء العادل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ الآيات.

* ثم تناولت موقف المشركين من هذا القرآن العظيم، وأقسمت بأنهم سيلقون الأهوال والشدائد ويركبون الأخطار والأهوال في ذلك اليوم العصيب الذي لا ينفع فيه مال ولا ولد ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بتوبيخ المشركين على عدم إيمانهم بالله، مع وضوح آياته وسطوع براهينه، وبشرتهم بالعذاب الأليم في دار الجحيم ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ٩ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ١٥ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩ فَمَا لَهُمۡ

---

(١) (ش): طَالِح: شرِّير، فاسد، خلاف صالح.

لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ

اللغَة: ﴿كَدْحًا﴾ الكدح: الجد والاجتهاد وجهد النفس في العمل قال الشاعر:

وَمَضَتْ بَشَاشَةُ كُلِّ عَيْشٍ صَالِحٍ ... وَبَقِيتُ أَكْدَحُ لِلْحَيَاةِ وَأَنْصَبُ [١]

﴿يَحُورَ﴾ يرجع يقال: حار يحور إذا رجع؛ ومنه حديث «أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ» أي الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة[٢] ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾ الحمرة التي تكون بعد مغيب الشمس ﴿وَسَقَ﴾ جمع وضم ولف ﴿ٱتَّسَقَ﴾ اجتمع وتكامل وتم نوره ﴿مَمْنُونٍ﴾ مقطوع.

التفسِير: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ هذه الآيات بيان لأهوال القيامة، وتصويرٌ لما يحدث بين يدي الساعة من كوارث وأهوال يفزع لها الخيال. والمعنى: إذا تشققت السماء وتصدَّعت مُؤْذِنَةً بخراب الكون[٣] قال الألوسي: تنشق لهول يوم القيامة[٤] ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أي واستمعت لأمر ربها وانقادت لحكمه وحُقَّ لها أن تسمع وتطيع، وأن تنشق من أهوال القيامة ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي وإذا الأرض زادت سعة بإزالة جبالها وآكامها، وصارت مستوية لا بناء فيها ولا وهاد ولا جبال ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أي رمَتْ ما في جوفها من الموتى والكنوز والمعادن وتخلت عنهم قال القرطبي: أخرجت أمواتها وتخلت عنهم، وألقت ما في بطنها من الكنوز والمعادن كما تلقى الحامل ما في بطنها من الحمل، وذلك يُؤْذِنُ بعظم الهول[٥] ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أي واستمعت لأمر ربها وأطاعت، وحُقَّ لها أن تسمع وتطيع.. وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف ليكون أبلغ في التهويل أي إذا حدث كل ما تقدم، لقي الإنسان من الشدائد والأهوال، ما لا يحيط به الخيال.. ثم أخبر تعالى عن كدِّ الإنسان وتعبه في هذه الحياة، وأنه يلقى جزاءه عند الله فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ الخطاب عام لكل إنسان، أي: أنت يا ابن آدم جاهدٌ ومُجِدٌّ بأعمالك التي عاقِبَتُها الموت، والزمانُ يطير وأنت في كل لحظة تقطع شوطًا من عمرك القصير، فكأنك سائر مسرعٌ إلى الموت، ثم تلاقي ربك فيكافئك على عملك، إن كان خيرًا فخيرٌ، وإن كان شرًّا فشرٌّ قال في البحر: كادحٌ أي جاهد في عملك من خير وشر

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٤٤٤. (ش): أَنْصَبُ: أَتعَب.

(٢) (ش): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَرْجِسَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ، وَدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِى الأَهْلِ وَالْمَالِ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). الْحَوْرِ: النقصان. الْكَوْرِ: الزيادة. الوَعْثَاء: الشدة والمشقة.

(٣) (ش): أي مُعْلِمَةً بقُرب خراب الكون. يقال: آذن بالأمر: نادى وأعلَمَ به. آذَنَت الشَّمسُ بالغروب: أوشكت أن تغرُب.

(٤) «روح المعاني» ٣٠/ ٧٨.

(٥) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٦٨. (ش): يُؤْذِنُ: يُعْلِم، يُخبر، يدل على.

طول حياتك إلى لقاء ربك، فملاقٍ جزاء كدحك من ثوابٍ وعقاب[١].. ثم ذكر تعالى انقسام الناس إلى سعداء وأشقياء وإلى من يأخذ كتابه بيمينه، ومن يأخذ كتابه بشماله فقال ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه، وهذه علامة السعادة ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ أي فسوف يكون حسابه سهلًا هينًا، يُجازى على حسناته، ويُتجاوز عن سيئاته، وهذا هو العرضُ كما جاء في الحديث الصحيح[٢] ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ أي ويرجع إلى أهله في الجنة مبتهجًا مسرورًا بما أعطاه الله من الفضل والكرامة ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ أي وأمَّا من أعطي كتاب أعماله بشماله من وراء ظهره، وهذه علامة الشقاوة ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ أي يصيح بالويل والثبور، ويتمنى الهلاك والموت ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ أي ويدخل نارًا مستعرة، يقاسي عذابها وحرَّها ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ أي لأنه كان في الدنيا مسرورًا مع أهله، غافلًا لاهيًا، لا يفكر في العواقب، ولا تخطر بباله الآخرة قال ابن زيد: وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، ووصف أهل النار بالسرور بالدنيا والضحك فيها، فأعقبهم به الحزن الطويل[٣] ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي إنه ظنَّ أن لن يرجع إلى ربه، ولن يحييه الله بعد موته للحساب والجزاء، فلذلك كفر وفجر ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ أي بلى سيعيده الله بعد موته، ويجازيه على أعماله كلها خيرها وشرها، فإنه تعالى مُطَّلِع على العباد، لا تخفى عليه خافية من شئونهم ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ ﴿فَلَآ﴾ لتأكيد القسم أي فأقسم قسمًا مؤكدًا بحمرة الأفق بعد غروب الشمس ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي وبالليل وما جمع وضمَّ إليه، وما لفَّ في ظلمته من الناس والدواب والأنعام، فكل يأوي إلى مكانه وسربه، ولهذا امتن تعالى على العباد فقال ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦] فإذا جاء النهار انتشروا،

---

(١) «البحر المحيط» ٨/ ٤٤٦.

(٢) المراد بالحساب اليسير في الآية هو «العرض» لما روى أن النبي ﷺ قَالَ: «مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ». فَقَالَتْ عَائِشَةُ: «أَوَ لَيْسَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، فَقَالَ ﷺ «إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ» رواه البخاري ومسلم. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» فهذا» هو المراد من الحساب اليسير. (ش): حديث «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ» رواه البخاري ومسلم. (مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ): نُوقِشَ: أُسْتُقْصِيَ عَلَيْهِ. (عُذِّبَ): أي إنه مُفْضٍ إِلَى الْعَذَابِ بِالنَّارِ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ التَّقْصِيرَ غَالِبٌ فِي الْعِبَادِ فَمَنِ اُسْتُقْصِيَ عَلَيْهِ وَلَمْ يُسَامَحْ هَلَكَ وَدَخَلَ النَّارَ وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى يَعْفُو وَيَغْفِرُ مَا دُونَ الشِّرْكِ لِمَنْ يَشَاءُ. (إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ) أي تُعرَض الأعمال على الشخص حتى يُقِرّ؛ فإذا أقرَّ بها قال الله تعالى له: «سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ». فمن يشأ الله أن يعفوَ عنه يحاسبه الحسابَ اليسير الذي فسره النبي ﷺ بالعرض. أما الذين يدخلون النار بذنوبهم فهم ممن يُناقَش الحساب.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٧١.

وإذا جاء الليل أوَى كلُّ شيء إلى مأواه ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ أي وأقسمُ بالقمر إذا تكامل ضوؤه ونوره، وصار بدرًا ساطعًا مضيئًا ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ هذا جواب القسم أي لتلاقُنَّ يا معشر الناس أهوالًا وشدائد في الآخرة عصيبة قال الألوسي: يعني لتركبن أحوالًا بعد أحوال، هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض، وهي الموتُ وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها[1] وقال الطبري: المراد أنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأهواله أحوالًا[2] ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ استفهام يقصد به التوبيخ، أي: فيما لهؤلاء المشركين لا يؤمنون بالله، ولا يصدّقون بالبعث بعد الموت، بعد وضوح الدلائل وقيام البراهين على وقوعه؟ ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ أي وإذا سمعوا آيات القرآن، لم يخضعوا ولم يسجدوا للرحمن؟ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ﴾ أي بل طبيعة هؤلاء الكفار التكذيب والعناد والجحود، ولذلك لا يخضعون عند تلاوته ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي والله أعلم بما يجمعون في صدورهم من الكفر والتكذيب قال ابن عباس: ﴿يُوعُونَ﴾ أي يُضْمِرون من عداوة الرسول ﷺ والمؤمنين[3] ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي فبشرهم على كفرهم وضلالهم بعذاب مؤلم موجع، واجعل ذلك بمنزلة البشارة لهم قال في التسهيل: ووَضْع البشارة في موضع الإنذار تهكُّمٌ بالكفار[4] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي لكن الذين صدَّقوا الله ورسوله[5]، وجمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال[6] ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾ أي لهم ثوابٌ في الآخرة غير منقوص ولا مقطوع، بل هو دائم مستمر.

ختم تعالى السورة الكريمة ببيان نعيم الأبرار، بعد أن ذكر مآل الفجار، وهو توضيح لما أجمله في أول السورة من ملاقاة كل عامل لجزائه في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين لفظ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ و ﴿ٱلْأَرْضُ﴾.

٢ - المقابلة بين ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وبين ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾.

٣ - الكناية ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ كنَّى به عن الشدة والأهوال التي يلقاها الإنسان.

---

(١) «روح المعاني» للألوسي ٣٠/ ٨٢.

(٢) «تفسير القرطبي» ٣٠/ ٨٠.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٤٤٨. (ش): يُضْمِرون: يُخْفون.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٨٨.

(٥) (ش): تفسيرُ الإيمان بالتصديق تفسيرٌ قاصرٌ ومخالفٌ لِمَا عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٦) (ش): العمل الصالح من الإيمان، فهو داخل في حقيقته وعطْفُه على الإيمان من عطف الخاص على العام اهتمامًا به، مثل قوله تعالى. ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾.

٤ - الجناس الناقص بين كلمتي ﴿وَسَقَ﴾ و ﴿ٱتَّسَقَ﴾.

٥ - الأسلوب التهكمي ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استعمال البشارة في موضع الإنذار تهكم وسخرية بالكفار.

٦ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ومثل ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ ويسمى بالسجع وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الانشقاق»





مكية وآياتها ثنتان وعشرون

بين يدي السورة

* هـذه السـورة الكريمـة من السـور المكية، وهـي تعرض لحقائـق العقيدة الإسـلامية، والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هي حادثة «أصحاب الأخدود» وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة والإيمان.

* ابتدأت السـورة الكريمة بالقسـم بالسماء ذات النجوم الهائلة، ومداراتها الضخمة، التي تدور فيها تلك الأفلاك، وباليوم العظيم المشـهود وهو يوم القيامة، وبالرسـل والخلائق على هلاك ودمار المجرمين، الذين طرحوا المؤمنين في النار ليفتنوهم عند دينهم ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ الآيات.

* ثم تلاها الوعيد والإنذار لأولئك الفجار على فعلتهم القبيحة الشـنيعة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾.

* وبعد ذلك تحدثت عن قدرة الله على الانتقام من أعدائه الذين فتنوا عباده وأولياءه ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾.

* وختمت السـورة الكريمة بقصة الطاغية الجبار «فرعـون» وما أصابه وقومه من الهلاك والدمار بسبب البغي والطغيان ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ وهـو ختم رائع يناسـب موضوع السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ

اللغَة: ﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾ الشَّـقّ العظيم المستطيل في الأرض كالخندق، وجمعه أخاديد ﴿قُتِلَ﴾ لُعن أشـدَّ اللعن ﴿نَقَمُواْ﴾ عابوا وكرهوا ﴿بَطْشَ﴾ البطش: الأخذ بشدة ﴿يُبْدِئُ﴾ يخلق ابتداءً بقدرته ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ العظيم الجليل المتعالي.

التفسِـير: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ أي وأُقسم بالسماء البديعة ذات المنازل الرفيعة، التي تنزلها الكواكب أثناء سيرها قال المفسرون: سميت هذه المنازل بروجًا لظهورها، وشبهت بالقصور لعلوها وارتفاعها لأنها منازل للكواكب السيارة ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ أي وأُقسم باليوم الموعود وهـو يوم القيامة، الـذي وعد الله به الخلائق بقولـه ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧] ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ أي وأُقسم بمحمـد والأنبياء الذين يشـهدون على أممهم يوم القيامـة، وبجميع الأمم والخلائق الذين يجتمعون في أرض المحشـر للحسـاب كقوله تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وقيـل: الشـاهد هذه الأمة، المشـهود سـائر الأمم ودليله ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣][1] ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ هذا هو جواب القسم، والجملة دُعائية أي قاتل الله ولعن أصحاب الأخدود، الذين شـقوا الأرض طولًا وجعلوها أخاديد، وأضرموا فيهـا النار ليحرقـوا بها المؤمنين قال القرطبي: الأخدودُ الشـقُّ العظيم المسـتطيل في الأرض كالخنـدق وجمعـه أخاديـد، ومعنـى ﴿قُتِلَ﴾ أي لعـن، قال ابن عبـاس: كل شـيءٍ في القرآن ﴿قُتِلَ﴾ فهُـو لَعْـن[2].. ثم فصَّـل تعالى المراد مـن الأخدود فقـال ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ أي النار العظيمـة المتأججة، ذات الحطب[3] واللهـب، التي أضرمها الكفار في تلك الأخاديد لِإحراق المؤمنيـن قال أبو السـعود: وهذا وصف لهـا بغاية العظم، وارتفاع اللهـب، وكثرة ما فيها من الحطـب، والقصدُ وصف النار بالشـدة والهول.. ثم بالـغ تعالى في وصـف المجرمين فقال ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أي حين هم جلوس حول النار؛ يتشـفون بإِحراق المؤمنين فيها، ويشـهدون ذلك الفعل الشـنيع[4] والغرضُ تخويف كفار قريش، فقد

---

(١) اختلف المفسرون في تفسير: «الشاهد» و «المشهود» اختلافًا كبيرًا حتى ذكر بعضهم فيها ستة عشر قولاً، فقيل: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، وقيل: الشاهد هو محمد والمشهود هو يوم القيامة، وقيل: الشاهد هو جوارح الإنسان والمشهود عليه هو ابن آدم.. إلخ. قال الصاوي: والأحسن أن يراد ما هو أعم؛ ولذلك نكرهما ليعم كل شاهد ومشهود.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٨٤.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٥٢.

(٤) خلاصة القصة: «أن ملكًا ظالمًا كافرًا أسلم أهل بلده، فأمر بالأخدود فشُق في أفواه السكك، وأضرم فيها النيران، ثم أمر زبانيته وجنوده أن يأتوا بكل مؤمن ومؤمنة ويعرضوه على النار، فمن لم يرجع عن دينه فلْيُلقوه فيها ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أُمَّاه اصبري فإنك على الحق» «انظر تفصيل القصة في صحيح مسلم». (ش): (السِّكَك): الطُّرُق، وَأَفْوَاهها: أَبْوَابهَا. (تَقَاعَسَتْ): تَوَقَّفَتْ وَلَزِمَتْ مَوْضِعهَا، وَكَرِهَتْ الدُّخول فِي النَّار.

كانـوا يعذبون من أسـلم مـن قومهم، ليرجعوا عن الإسـلام، فذكر الله تعالـى قصة «أصحاب الأخـدود» وعيدًا للكفار، وتسـليةً للمؤمنيـن المعذبين، ثم قال تعالـى ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي ومـا كان لهـم ذنب ولا انتقموا منهـم، إلا لأنهم آمنوا بالله العزيز الحميـد الغالـب الذي لا يُضَام مَـن لاذَ بجنابه[١]، الحميد في جميع أقوالـه وأفعاله، والغرضُ أن سـبب البطش بهـم، وتحريقهم بالنار، لم يكـن إلا إيمانهم بالله الواحـد الأحد، وهذا ليس بذنب يسـتحقون به العقوبة، ولكنه الطغيان والإجـرام[٢] ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هـذا الإله الجليل المالك لجميع الكائنات، المسـتحق للمجد والثناء قال في البحر: وإنما ذكـر الأوصاف التي يسـتحق بها تعالى أن يؤمن به، وهـي كونه تعالى ﴿عَزِيزًا﴾ أي غالبًا قادرًا يُخشَـى عقابُـه ﴿حَمِيدًا﴾ أي مُنعِمًا يجب له الحمد علـى نِعَمه ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي وكل مـن فيهما يحق عليه عبادته والخشـوع لـه، إنما ذكر ذلك تقريـرًا لأن ما نقموه منهم هـو الحقُّ الذي لا ينقمـه إلا مُبطِلٌ مُنهَمِكٌ في الغَـيِّ[٣] ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي هو تعالى مطلِّـع علـى أعمـال عباده، لا تخفـى عليه خافية من شـئونهم، وفيـه وعدٌ للمؤمنيـن، ووعيدٌ للمجرميـن ثـم شـدَّد تعالى النكير علـى المجرمين الذيـن عذبوا المؤمنيـن فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي عذبـوا وأحرقـوا المؤمنين والمؤمنات بالنـار ليفتنوهم عن دينهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ أي ثـم لـم يرجعوا عن كفرهم وطغيانهـم ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي فلهـم عذاب جهنم المخزي بكفرهم، ولهم العذاب المحـرق بإحراقهم المؤمنين.. ولما ذكـر مصير المجرميـن أعقبه بذكر مصير المؤمنين فقـال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي الذيـن جمعوا بين الإيمان الصادق والعمـل الصالح ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي لهم البسـاتين والحدائق الزاهرة، التي تجري من تحت قصورها أنهار الجنة قال الطبري: هي أنهار الخمر واللبن والعسـل[٤] ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي ذلك هو الظفر العظيم بغاية المطلوب، الـذي لا سـعادة ولا فوز بعده.. ثـم أخبر تعالى عن انتقامه الشـديد من أعداء رسـله وأوليائه فقال ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي إن انتقام الله وأخذه الجبابرة والظلمة، بالغ الغاية في الشدة قال أبـو السـعود: البطش الأخذ بعنف، وحيث وصف بالشـدة فقد تضاعف وتفاقم، وهو بطشـه بالجبابـرة والظلمة وأخـذه إياهم بالعذاب والانتقـام[٥] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي هو جل وعلا الخالـق القادر، الذي يبـدأ الخلق من العدم، ثم يعيدهم أحيـاء بعد الموت ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾

(١) (ش): أي لا يُذَلُّ مَن لجأ إليه واستعانَ به.

(٢) (ش): الطغيان والإجرام من هؤلاء المشركين.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٤٥١.

(٤) «تفسير الطبري» ٣٠/ ٨٨.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٥٣.

أي وهو الساتر لذنوب عباده المؤمنين، اللطيف المحسن إلى أوليائه، المحبُّ لهم قال ابن عباس: يَوَدُّ أولياءَه كما يَوَدُّ أحدكم أخاه بالبشرَى والمحبة[١] ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي صاحب العرش العظيم، وإنما أضاف العرش إلى الله وخصَّه بالذكر، لأن العرش أعظم المخلوقات، وأوسعُ من السمواتِ السبع، وخلقُه بهذا الوصف يدل على عظمة خالقه ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ أي هو تعالى المجيدُ، العالي على جميع الخلائق، المتصف بجميع صفات الجلال والكمال ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه ولا رادَّ لقضائه قال القرطبي: أي لا يمتنع عليه شيء يريده[٢]. روي أن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْه قيل له وهو في مرض الموت: هل نظر إليك الطبيبُ؟ قال: نعم، قالوا: فماذا قال لك؟ قال قال لي: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[٣] ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾؟ استفهامٌ للتشويق أي هل بلغك يا محمد خبر الجموع الكافرة، الذين تجنَّدوا لحرب الرسل والأنبياء؟ هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس، وما أنزل عليهم من النقمة والعذاب؟ قال القرطبي: يُؤْنِسُه بذلك ويُسَلِّيه، ثم بَيَّن تعالى مَن هم فقال ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ أي هم فرعون وثمود، أولي البأس والشدة، فقد كانوا أشد بأسًا، وأقوى مراسًا من قومك، ومع ذلك فقد أخذهم الله تعالى بذنوبهم ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ﴾ أي لم يعتبر كفار قريش بما حلَّ بأولئك الكفرة المكذبين، بل هم مستمرون في التكذيب فهم أشد منهم كفرًا وطغيانًا ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ أي والله تعالى قادرٌ عليهم، لا يفُوتُونه ولا يُعجِزونه، لأنهم في قبضته في كل حينٍ وزمان ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ أي بل هذا الذي كذبوا به، كتابٌ عظيم شريف، متناهٍ في الشرف والمكانة، قد سما على سائر الكتب السماوية، في إعجازه ونَظْمِه وصحة معانيه ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ أي هو في اللوح المحفوظ الذي في السماء، محفوظٍ من الزيادة والنقص، والتحريف والتبديل.

البَلَاغَة: تضمنت السورة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿يُبْدِئُ.. وَيُعِيدُ﴾.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿شَاهِدٌ.. وَمَشْهُودٍ﴾.

٣ - تأكيد المدح بما يشبه الذم ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ كأنه يقول: ليس لهم جريمة إلا إيمانهم بالله، وهذا من أعظم المفاخر والمآثر.

٤ - المقابلة بين مصير المؤمنين ومصير المجرمين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية قابله قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ..﴾ إلخ.

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٢٩٤.

(٢) «القرطبي» ١٩/ ٢٩٥.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٢٥.

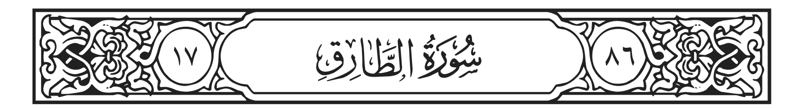
٥ - أسلوب التشويق لاستماع القصة ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ﴾؟

٦ - صيغة المبالغة مثل ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ وأمثال ذلك.

٧ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥﴾. إلخ. وهو من المحسنات البديعية ويسمى بالسجع والله أعلم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البروج»





مكية وآياتها سبع عشرة

بين يدي السورة

* هـذه السـورة الكريمة من السـور المكية، وهـي تعالج بعض الأمـور المتعلقة بالعقيدة الإسـلامية، ومحور السورة يدور حول الإيمان بالبعث والنشور، وقد أقامت البرهان الساطع والدليل القاطع على قدرة الله جل وعلا على إمكان البعث، فإن الذي خلق الإنسان من العدم قادر على إعادته بعد موته.

* ابتدأت السـورة الكريمة بالقسـم بالسـماء ذات الكواكب السـاطعة(1)، التـي تطلع ليلاً لتضيء للناس سُبلهم، ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، على أن كل إنسـان قد وُكل به من يحرسـه، ويتعهد أمره من الملائكة الأبرار ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾.

* ثم سـاقت الأدلـة والبراهين، على قدرة رب العالمين، على إعادة الإنسـان بعد فنائه ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾.

* ثم أخبرت عن كشـف الأسـرار، وهتك الأسـتار في الآخرة، حيث لا معين للإنسان ولا نصير ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾.

* وختمت السـورة الكريمـة بالحديث عن القـرآن العظيم، معجزة محمـد ﷺ الخالدة، وحجتـه البالغـة إلى الناس أجمعين، وبينـت صدق هذا القرآن، وأوعـدت الكفرة المجرمين بالعذاب الأليم ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن

---

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ ». وَفِي رِوَايَةٍ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ » (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلَا، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم).

قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا

اللغَـة: ﴿الطَّارِقُ﴾ مأخـوذ مـن الطرق بمعنـى الضرب بشـدة، ومنه المِطْرقـة، وكل ما جاء بليل يسـمى طارقًا ﴿دَافِقٍ﴾ مصبوب بقوة وشـدة يقال: دفق الماء دفقًا إِذا انصبَّ بدفع وشـدة ﴿وَالتَّرَائِبِ﴾ عظام الصدر جمع تَرِيبَة مثل فَصِيلة وفصائل قال امرؤ القيس:

تَـرَائِـبُـهَـا مَـصْـقُـولَـةٌ كَـالـسَّـجَـنْـجَـلِ [1]

﴿الرَّجْعِ﴾ المطـر سـمي به لرجوعـه إِلـى الأرض مـرارًا ﴿الصَّدْعِ﴾ النبات الذي تنشـق عنه الأرض ﴿رُوَيْدًا﴾ قليلًا أو قريبًا.

التفسِـير: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ أي أقسـم بالسـماء وبالكواكب النيرة، التي تظهـر ليلًا وتختفي نهارًا قال المفسـرون: سُمي النجم طارقًا لأنه إِنما يظهر بالليل ويختفي بالنهار، وكلُّ ما يجيء ليلًا فهو طارق ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ استفهام للتفخيم والتعظيم أي وما الذي أعلمك يا محمد مـا حقيقة هذا النجم؟ ثم فسـره بقولـه ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ أي النجم المضيء الـذي يثقب الظلام بضيائـه قال الصـاوي: قد كثر منه تعالـى في كتابه المجيد ذكرُ الشـمس والقمر والنجوم، لأن أحوالها في أشـكالها وسـيرها ومطالعها، ومغاربها عجيبة دالة على انفراد خالقها بالكمالات، لأن الصّنعـة تـدل على الصانـع[2] ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ هذا جواب القسـم أي ما كلُّ نفسٍ إِلا عليهـا حافظ مـن الملائكة، يحفظ عملها ويحصي عليها ما تكسـب من خيرٍ وشـر كقوله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١] قـال ابن كثير: أي كلُّ نفسٍ عليها من الله حافظ يحرسـها من الآفات[3].. ثم أمر تعالى بالنظر والتفكر في خلق الإِنسـان، تنبيهًا على إِمـكان البعث والحشـر فقال ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾؟ أي فلينظر الإِنسـان في أول نشـأته نظرة تكفرٍ واعتبار، من أي شـيءٍ خلقـه الله؟ ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ أي خلق من المنيّ المتدفق، الذي ينصـب بقوةٍ وشـدة، يتدفق مـن الرجل والمرأة فيتكـون منه الولد بـإِذن الله ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ أي يخـرج هـذا الماء من بيـن الصلب وعظم الصدر، من الرجـل والمرأة[4] ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ أي إِن الله تعالى الذي خلق الإِنسان ابتداءً، قادر على إِعادته بعد موته قال ابن كثير: نبه تعالى الإِنسـان على ضعف أصله الذي خلق منه، وأرشـده إِلى الاعتراف بالمعاد، لأن من قدر على البداءة، فهو قادر على الإِعادة بطريق الأولى ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي يوم تُمتحَن القلوب

---

(١) «روح المعاني» للألوسي ٣٠/ ٩٧. (ش): السَّجَنْجَلُ: المرآةُ. و السَّجَنْجَلُ: الذهَبُ. والسَّجَنْجَلُ: سبائِكُ الفضَّةِ.

(٢) «حاشية الصاوي» ٤/ ٣٠٩.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٢٩.

(٤) الصلب: فقار الظهر ويسمى سلسلة الظهر، والترائب: عظام الصدر، وكنى بالصلب عن الرجل، وبالترائب عن المرأة.

وتُختبَر، ويُعرَف ما بها من العقائد النِّيَّات، ويُميَّز بين ما طاب منها وما خَبُثَ ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ أي فليس للإِنسان في ذلك الوقت قوة تدفع عنه العذاب، ولا ناصر ينصره ويجيره، قال في التسهيل: لما كان دفع المكاره في الدنيا إِما بقوة الإِنسان، أو بنصرة غيره له، أخبره الله تعالى أنه يعدمهما يوم القيامة[1]، فلا قوة له في نفسه، ولا أحد ينصره من الله. ولما ذكر تعالى أمر المبدأ والمعاد، عاد فأقسم على صدق هذا الكتاب المعجز فقال ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ أي أُقسم بالسماء ذات المطر، الذي يرجع على العباد حينًا بعد حين قال ابن عباس: الرَّجع المطرُ ولولاه لهلك الناس وهلكت مواشيهم[2] ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ أي وأُقسم بالأرض التي تتصدع وتنشق، فيخرج منها النبات والأشجار والأزهار قال ابن عباس: هو انصداعها عن النبات والثمار[3].. أقسم سبحانه وتعالى بالسماء التي تفيض علينا الماء، والأرض التي تخرج لنا الثمار والنبات، والسماء للخلق كالأب، والأرض لهم كالأم، ومن بينهما تتولد النعم العظيمة، والخيرات العميمة، التي بها بقاء الإِنسان والحيوان ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ أي إِن هذا القرآن لقولٌ فاصل بين الحق والباطل، قد بلغ الغاية في بيانه وتشريعه وإِعجازه ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ أي ليس فيه شيءٌ من اللهو والباطل والعبث، بل هو جدٌّ كله، لأنه كلام أحكم الحاكمين، فجديرٌ بقارئه أن يتعظ بآياته، ويستنير بتوجيهاته وإِرشاداته ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾ أي إِن هؤلاء المشركين كفار مكة يعملون المكايد لإِطفاء نور الله، وإِبطال شريعة محمد ﷺ ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ أي وأجازيهم على كيدهم بالإِمهال ثم النَّكال[4]، حيث آخذهم أخذ عزيز مقتدر كقوله تعالى ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] قال أبو السعود: أي أقابلهم بكيد متين لا يمكن رده حيث أستدرجهم من حيث لا يعلمون[5] ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ أي لا تستعجل في هلاكهم والانتقام منهم، وأمهلهم قليلًا فسوف ترى ما أصنع بهم، وهذا منتهى الوعيد والتهديد.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستفهام للتفخيم والتعظيم ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾؟

٢ - الطباق بين ﴿ٱلسَّمَآءِ.. وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وبين ﴿ٱلۡفَصۡلِ.. بِٱلۡهَزۡلِ﴾.

٣ - جناس الاشتقاق ﴿يَكِيدُونَ.. كَيۡدٗا﴾.

٤ - الإِطناب بتكرار الفعل مبالغة في الوعيد ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾.

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٩٢.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٢٨.

(٣) «تفسير الطبري» ٣٠/ ٩٥.

(٤) (ش): النَّكال: العقاب.

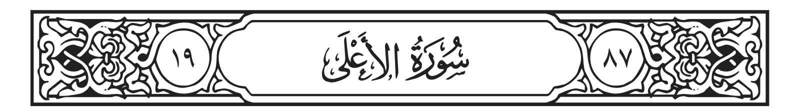
(٥) «تفسير أبي السعود» ٨/ ٤٣٨.

٥ - الكناية اللطيفة ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ كنَّى بالصلب عن الرجل، وبالترائب عن المرأة، وهذا من لطيف الكنايات.

٦ - السجع الرصين الذي يزيد في جمال الأسلوب ورشاقته ونضارته مثل ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ ومثل ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطارق»





مكية وآياتها تسع عشرة

بين يدي السورة

* سورة الأعلى من السور المكية، وهي تعالج باختصار المواضيع الآتية:

١- الذات العلية وبعض صفات الله جل وعلا، والدلائل على القدرة والوحدانية.

٢- الوحي والقرآن المنزل على خاتم الرسل ﷺ وتيسير حفظه عليه ﷺ.

٣- الموعظة الحسنة التي ينتفع بها أهل القلوب الحيَّة، ويستفيد منها أهل السعادة والإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بتنزيه الله جلّ وعلا، الذي خلق فأبدع، وصور فأحسن وأخرجا العشب، والنبات، رحمة بالعباد ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن الوحي والقرآن، وآنست الرسول ﷺ بالبشارة بتحفيظه هذا الكتاب المجيد، وتيسير حفظه عليه، بحيث لا ينساه أبدًا ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾.

* ثم أمرت بالتذكير بهذا القرآن، الذي سيفيد من نوره المؤمنون، ويتعظ بهديه المتقون، ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ الآيات.

* وختمت السورة ببيان فوز من طهَّر نفسه من الذنوب والآثام، وزكاها بصالح الأعمال ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ إلى نهاية السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ

اللغة: ﴿غُثَآءً﴾ الغُثاء: ما يقذف به السيل على جانب الوادي من الحشائش والأوراق والنباتات ﴿أَحْوَىٰ﴾ أسود مأخوذ من الْحُوَّةُ وهي السواد أو السُّمرة ﴿يَصْلَى﴾ يدخل ويقاسي حرّها يقال: أصليتُه نارًا وجعلته يذوق حرها.

التفسير: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ أي نزِّه يا محمد ربك العلي الكبير عن صفات النقص، وعما يقوله الظالمون، مما لا يليق به سبحانه وتعالى من النقائص والقبائح، وفي الحديث أنه ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «سبحان ربي الأعلى»(١). ثم ذكر من أوصافه الجليلة، ومظاهر قدرته الباهرة، ودلائل وحدانيته وكماله فقال ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي خلق المخلوقات جميعها، فأتقن خلقها، وأبدع صنعها، في أجمل الأشكال، وأحسن الهيئات قال في البحر: أي خلق كل شيء فسواه، بحيث لم يأت متفاوتًا، بل متناسبًا على إحكام وإتقان، للدلالة على أنه صادر من عالم حكيم(٢) ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أي قدَّر في كل شيء خواصه ومزاياه بما تجلُّ عنه العقول والأفهام، وهدى الإنسان لوجه الانتفاع بما أودعه فيها، وهدى الأنعام إلى مراعيها، ولو تأملت ما في النباتات من الخواص، وما في المعادن من المزايا والمنافع، واهتداء الإنسان لاستخراج الأدوية والعقاقير النافعة من النباتات، واستخدام المعادن في صنع المدافع والطائرات، لعلمتَ حكمةَ العلي القدير، الذي لولا تقديره وهدايته لكنا نهيم في دياجير الظلام كسائر الأنعام قال المفسرون: إنما حذف المفعول لإفادة العموم أي قدَّر لكل مخلوق وحيوان ما يصلحه، فهداه إليه وعرَّفه وجه الانتفاع به(٣) ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ أي أنبت ما ترعاه الدواب، من الحشائش والأعشاب ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ أي فصيَّره بعد الخضرة أسود باليًا، بعد أن كان ناضرًا زاهيًا، ولا يخفى ما في المرعى من المنفعة بعد صيرورته هشيمًا يابسًا، فإنه يكون طعامًا جيدًا لكثير من الحيوانات، فسبحان من أحكم كل شيء و ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] !! وبعد أن ذكر دلائل قدرته ووحدانيته، ذكر فضله وإنعامه على رسوله فقال ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ أي سنقرئك يا محمد هذا القرآن العظيم فتحفظه في صدرك ولا تنساه ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي لكن ما أراد الله نسخه فإنك تنساه.. وفي هذه الآية معجزة له عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ، لأنه كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، وكان مع ذلك لا ينسى ما أقرأه جبريل عليه السلام، وكونه يحفظ هذا الكتاب العظيم من غير دراسة ولا تكرار ولا ينساه أبدًا، من أعظم البراهين على صدق نبوته ﷺ قال ابن كثير: هذا إخبار من الله تعالى ووعدٌ لرسوله ﷺ بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها(٤) ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ أي هو تعالى عالم بما يجهر به العباد وما يخفونه من الأقوال والأفعال، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ أي ونوفقك للشريعة السمحة البالغة اليسر، التي هي أيسر وأسهل الشرائع السماوية، وهي شريعة الإسلام ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ أي فذكر يا محمد بهذا القرآن حيث

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس. (ش): ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٤٥٨.

(٣) «انظر روح المعاني» ٣٠/ ١٠٤، و«التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٩٣.

(٤) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٣٠.

تنفع الموعظة والتذكرة كقوله ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] قال ابن كثير: ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله، كما قال علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لاَ تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلاَّ كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً» وقال: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله»[١]؟ ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ أي سينتفع بهذه الذكرى والموعظة من يخاف الله تعالى ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ أي ويرفضها ويبتعد عن قبول الموعظة الكافر المبالغ في الشقاوة ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي الذي يدخل نار جهنم المستعرة، العظيمة الفظيعة قال الحسن: النار الكبرى نارُ الآخرة، والصغرى نارُ الدنيا[٢] ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي لا يموت فيستريح، ولا يحيا الحياة الطيبة الكريمة، بل هو دائم في العذاب والشقاء[٣] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي قد فاز من طهَّر نفسه بالإيمان، وأخلص عمله للرحمن ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ أي وذكر عظمة ربه وجلاله، فصلى خشوعًا وامتثالا لأمره ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي بل تفضلون أيها الناس هذه الحياة الفانية على الآخرة الباقية، فتشتغلون لها وتنسون الآخرة ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي والحال أن الآخرة خيرٌ من الدنيا وأبقى، لأن الدنيا فانية، والآخرة باقية، والباقي خيرٌ من الفاني، فكيف يؤثر عاقلٌ ما يفنى على ما يبقى؟ وكيف يهتم بالغرور، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلود؟ قرأ ابن مسعود هذه الآية فقال لأصحابه: أتدرون لم آثَرْنا الحياةَ الدنيا على الآخرة؟ قالوا: لا، قال: لأن الدنيا أُحضِرَت وعُجِّلَت لنا بطعامها، وشرابها، ونسائها، ولذَّاتها، وبهجتها، وإن الآخرة غُيِّبَتْ وزُوِيَت عنا[٤]، فأحبَبْنا العاجلَ، وتركنا الآجلَ[٥] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ أي إن هذه المواعظ المذكورة في هذه السورة، مثبتة في الصحف القديمة المنزلة على إبراهيم وموسى عليهما السلام، فهي مما توافقت فيه الشرائع، وسطرته الكتب السماوية، كما سطره هذا الكتاب المجيد.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق ﴿لَا يَمُوتُ .. وَلَا يَحْيَىٰ﴾ وكذلك ﴿ٱلْجَهْرَ .. وَمَا يَخْفَىٰ﴾.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ و ﴿فَذَكِّرْ .. ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

٣ - المقابلة بين ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ وبين ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾.

---

(١) نفس المرجع السابق والصفحة. (ش): كلام علي ﵁ رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وكلام ابن مسعود ﵁ رواه البخاري تعليقًا.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٤٥٩.

(٣) قال الطبري: العرب إذا وصفَت الرجل بوقوعه في شدة شديدة قالوا: لا هو حي ولا هو ميت فخاطبهم الله بما يعرفون «الطبري» ٣/ ٥٩.

(٤) (ش): زُوِيَت: أُخْفِيَتْ.

(٥) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٣٦.

٤ - حـذف المفعول ليفيـد العموم في قوله ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ وفي ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ لأن المراد خلق كل شيء فسواه، وقدر كل شيء فهداه.

٥ - السـجع غير المتكلـف وهو كثير في القرآن مثـل ﴿أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: صحف موسى غير التوراة، وقد رود أنه أعطي عشر صحف وكانت كلها عبراً، قال أبو ذر: سألت رسول الله ﷺ عن صحف موسى ما كانت؟ قال: «كانت عبرًا كلها: عجبتُ لمن أيقن بالموت كيف يفرح، عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك، عجبتُ لمن رأى الدنيا وتقلُّبها بأهلها كيف يطمئن إليها، عجبت لمن أيقن بالقَدَر ثم ينْصَب، عجبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل»[١].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأعلى»



(١) (ش): رواه ابن حبان وضعفه الألباني. النصَب: التعَب.



مكية وآياتها ست وعشرون

بين يدي السورة

* سورة الغاشية مكية، وقد تناولت موضوعين أساسين وهما:

١- القيامة وأحوالها وأهوالها، وما يلقاه الكافر فيها من العناء والبلاء، وما يلقاه المؤمن فيها من السعادة والهناء.

٢- الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، وقدرته الباهرة، في خلق الإبل العجيبة، والسماء البديعة، والجبال المرتفعة، والأرض الممتدة الواسعة، وكلها شواهد على وحدانية الله وجلال سلطانه، وختمت السورة الكريمة بالتذكير برجوع الناس جميعًا إلى الله سبحانه للحساب والجزاء.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم

اللغَة: ﴿الْغَاشِيَةِ﴾ القيامة تغشى الناس بأهوالها ﴿خَاشِعَةٌ﴾ ذليلة خاضعة ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ من النصَب وهو التعب ﴿ضَرِيعٍ﴾ شيء في النار كالشوك مرٌّ مُنْتِنٌ ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ ذات حُسْن وبهجة ونضارة ﴿وَنَمَارِقُ﴾ وَسَائد ومرَافِق[1] يُتَّكأ عليها جمع نمرقة، قال زهير:

كُهُولًا وَشُبَّانًا حِسَانًا وُجُوهُهُمْ ... عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَنَمَارِقِ[2]

﴿وَزَرَابِيُّ﴾ بُسُط فاخرة جمع زَرْبِيَّة وقال الفراء: هي الطنافس التي لها خمَلٌ رقيق[3]،

---

(١) (ش): الْمِرْفَق: مِخَدَّةٌ أَوْ أَيُّ شَيْءٍ آخَرَ مِمَّا يُتَّكَأُ عَلَيْهِ.

(٢) «روح المعاني» ٣٠/ ١١٥.

(٣) (ش): بُسُط: فُرُش تُبسَط للجلوس عليها. الطنفسة: الْبِسَاط. (الخَمَل) الخَمْلُ: هُدْبُ القطِيفَة وَنَحْوهَا (أي حاشيتها، أطرافها) مِمَّا يُنْسَجُ وتَفضُلُ لَهُ فُضولٌ.

﴿مَبۡثُوثَةٌ﴾ مفرَّقة في المجالس ﴿إِيَابَهُمۡ﴾ رجوعهم.

التفسِـير: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ الاستفهام للتشويق الى استماع الخبر، وللتنبيه والتفخيم لشأنها، أي: هل جاءك يا محمد خبرُ الداهية العظيمة التي تغشى الناس وتعمُّهم بشدائدها وأهوالها، وهي القيامة؟ قال المفسرون: سميت غاشية لأنها تغشى الخلائق بأهوالها وشدائدها، وتعمُّهم بما فيها من المكاره والكوارث العظيمة ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ أي وجوهٌ في ذلك اليوم ذليلة خاضعةٌ مهينة ﴿عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ﴾ أي دائبة العمل فيما يُتعِبها ويُشقيها في النار قال المفسرون: هذه الآية في الكفار، يتعبون ويشقون بسبب جر السلاسل والأغلال، وخوضهم في النار خوض الإبل في الوَحل، والصعود والهبوط في تلالها ودركاتها كما قال تعالى ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ [غافر] وهذا جزاء تكبرهم في الدنيا عن عبادة الله، وانهماكهم في اللذات والشهوات ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ﴾ أي تدخل نارًا مسعَّرة شديدة الحر قال ابن عباس: قد حَمِيَت فهي تتلَظَّى على أعداء الله[(١)] ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ﴾ أي تُسقَى من عين متناهية الحرارة، وصل حَرُّها وغليانها درجة النهاية ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾ أي ليس لأهل النار طعام إلا الضريع وهو نبتٌ ذو شوك تسميه قريش «الشِّبْرِق» وهو أخبث طعام وأبشعه وهو سُمٌّ قاتل قال قتادة: هو شر الطعام وأبشعه وأخبثه[(٢)].. ذكر تعالى هنا أن طعامهم الضريع ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾ وقال في الحاقة ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾ [الحاقة: ٣٦] ولا تَنَافِيَ بينهما[(٣)]، لأن العقاب ألوان، والمعذَّبون أنواع، فمنهم من يكون طعامه الزقوم، ومنهم من يكون طعامه الضريع، ومنهم من يكون طعامه الغسلين، وهكذا يتنوع العذاب ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾ أي لا يفيد القوة والسِّمَن[(٤)] في البدن، ولا يدفع الجوع عن آكِلِه قال أبو السعود: أي ليس من شأنه الإِسْمَانُ والإِشباع، كما هو شأن طعام الدنيا، وقد روي أنه يُسلَّط عليهم الجوع بحيث يضطرهم إلى أكل الضريع، فإذا أكلوه يُسلط عليهم العطش فيضطرهم إلى شرب الحميم، فيشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم[(٥)]

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٣٧.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٣٢.

(٣) (ش): التَنَافي: التعَارُض.

(٤) (ش): سمِن/ سمُن الإنسانُ أو الحيوانُ: كثر لحمُه وشحمُه.

(٥) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٥٩. (ش): رُوِيَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «يُلْقَى عَلَى أَهْلِ النَّارِ الْجُوعُ فَيَعْدِلُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ؛ فَيَسْتَغِيثُونَ؛ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ مِنْ ضَرِيعٍ لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ؛ فَيَسْتَغِيثُونَ بِالطَّعَامِ؛ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ ذِي غُصَّةٍ؛ فَيَذْكُرُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُجِيزُونَ الْغُصَصَ فِي الدُّنْيَا بِالشَّرَابِ فَيَسْتَغِيثُونَ بِالشَّرَابِ، فَيُرْفَعُ إِلَيْهِمُ الْحَمِيمُ بِكَلاَلِيبِ الْحَدِيدِ، فَإِذَا دَنَتْ مِنْ وُجُوهِهِمْ شَوَتْ وُجُوهَهُمْ فَإِذَا دَخَلَتْ بُطُونَهُمْ قَطَّعَتْ مَا فِي بُطُونِهِمْ (رواه الترمذي، وضعفه الألباني).

﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد: ١٥].. ولما ذكر حال الأشقياء أهل النار، أتْبَعَه بذكر حال السعداء أهل الجنة فقال ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾ أي وجوه المؤمنين يوم القيامة ناعمة ذات بهجةٍ وحُسْن، وإشراق ونضارة كقوله تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٣٤] ﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا وطاعتها لله راضية مطمئنة، لأن هذا العمل أورثها الفردوس دار المتقين ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾ أي في حدائق وبساتين مرتفعة مكانًا وقدرًا، وهم في الغرفات آمنون ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ أي لا تسمع في الجنة شتمًا، أو سَبًّا، أو فُحشًا قال ابن عباس: لا تسمع أذى ولا باطلًا [(١)] ﴿فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ﴾ أي فيها عيونٌ تجري بالماء السلسبيل لا تنقطع أبدًا قال الزمخشري: التنوين في ﴿عَيۡنٞ﴾ للتكثير أي عيونٌ كثيرة تجري مياهها[(٢)] ﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ﴾ أي في الجنة أَسِرَّة مرتفعة، مُكلَّلة بالزبرَجد والياقوت، عليها الحور العين، فإذا أراد وليُّ الله أن يجلس على تلك السُّرُر العالية تواضَعَتْ له[(٣)] ﴿وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ﴾ أي وأقداح موضوعة على حافات العيون، معدة لشرابهم لا تحتاج إلى من يملؤها ﴿وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ﴾ أي ووسائد - مِخَدَّات -[(٤)] قد صُفَّ بعضها إلى جانب بعض ليستندوا عليها ﴿وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ﴾ أي وفيها طنافس فاخرة لها خمل رقيق مبسوطة في أنحاء الجنة[(٥)]. ثم ذكر تعالى الدلائل والبراهين الدالة على قدرته ووحدانيته فقال ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ أي أفلا ينظر هؤلاء الناس نظر تفكر واعتبار، إلى الإبل - الجِمال - كيف خلقها الله خلقًا عجيبًا بديعًا يدل على قدرة خالقها؟ قال في التسهيل: في الآية حض على النظر في خلقتها، لما فيها من العجائب في قوتها، وانقيادها مع ذلك لكل ضعيف، وصبرها على العطش، وكثرة المنافع التي فيها، من الركوب والحمل عليها، وأَكْل لحومها، وشُرْب ألبانها وغير ذلك[(٦)] ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾

---

(١) «تفسير الطبري» ٣٠/ ١٠٤.

(٢) روح المعاني ٣٠/ ١١٥.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٣٣.

(٤) (ش): مِخَدَّة: وسادة يُوضع عليها الخدّ أو الرأس عند النَّوم.

(٥) (ش): الطنفسة: الْبِسَاط. الْبُسُط: فُرُش تُبسَط للجلوس عليها. (الخَمَل) الخَمْلُ: هُدْبُ القطِيفَة وَنَحْوهَا (أي حاشيتها، أطرافها) مِمَّا يُنْسَجُ وتَفضُلُ لَهُ فُضولٌ.

(٦) «التسهيل» ٤/ ١٩٦ إنما خص تعالى الإبل بالذكر، لأنها أفضل دواب العرب، وأكثرها نفعًا ولهذا تسمى «سفينة الصحراء» فانظر إلى خلقها العجيب، فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تنقاد مع الطفل الضعيف، وهي تجلس لتضع عليها حمولتها عن قرب، ثم تقوم بما تحمله بما ينوء عنه العصبة أولو القوة، ثم صَبْرها على الجوع والعطش الأيام المعدودة، ثم بلوغها المسافات الطويلة، ورعْيها بكل نبات في البرارِي، =

أي وإلى السماء البديعة المحكمة، كيف رفع الله بناءها، وأَعْلَى سَمْكَها بلا عمد ولا دعائم[١]؟ ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أي إلى الجبال الشاهقة كيف نُصِبَت على الأرض نصبًا ثابتًا راسخًا لا يتزلزل؟ ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي وإلى الأرض التي يعيشون عليها، كيف بُسِطت ومُهدَت حتى صارت شاسعة واسعة يستقرون عليها، ويزرعون فيها أنواع المزروعات؟! قال الألوسي: ولا ينافي هذا، القول بأنها كرة أو قريبة من الكرة لمكان عِظَمِها[٢] والحكمةُ في تخصيص هذه الأشياء بالذِّكْر، أن القرآن نزل على العرب وكانوا يسافرون كثيرًا في الأودية والبراري منفردين عن الناس، والإنسان إذا ابتعد عن المدينة أقبل على التفكر، فأول ما يقع بصره على البعير الذي يركبه فيرى نظرًا عجيبًا، وإن نظر فوقَ لم يَرَ غير السماء، وإن نظر يمينًا وشمالًا لم يَرَ غير الجبال، وإن نظر تحتَ لم يَرَ غير الأرض، فلذلك ذكر هذه الأشياء قال ابن كثير: نبه تعالى البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكبٌ عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته، على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم، الخالق المالك المتصرف، الذي لا يستحق العبادة سواه[٣]. ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد ولم يَعتَبِر بذلك الكفار، أمر نبيه ﷺ بوعظهم وتذكيرهم فقال ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ أي فعِظْهُم يا محمد وخَوِّفْهم، ولا يُهِمَّنَّك أنهم لا ينظرون ولا يتفكرون، فإنما أنت واعظ ومرشد ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ أي لست بمُتَسَلِّطٍ عليهم ولا قاهرٍ لهم حتى تُجبرهم على الإيمان ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ أي لكن من أعرض عن الوعظ والتذكير، وكفر بالله العلي القدير ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ أي فيعذبه الله بنار جهنم الدائم عذابها قال القرطبي: وإنما قال ﴿ٱلْأَكْبَرَ﴾ لأنهم عُذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والقتل والأسر[٤] ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ أي إلينا وحدنا رجوعهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ أي ثم إن علينا وحدنا حسابهم وجزاءهم.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - أسلوب التشويق ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾؟

= وغير ذلك من عجائب الخلق والتكوين، فسبحان الحكيم العليم!. (ش): بما ينوء عنه العصبة أولو القوة: أي لا يستطيعون حمْلَه. البراري: الصحاري.

(١) (ش): سَمْكَهَا: سَقْفَهَا.

(٢) أثبت علماؤنا أن الأرض كروية كالإمام الفخر الرازي، وأبي السعود، والألوسي، كما نقلنا بعض ذلك في سورة لقمان، وأما كونها مسطحة أو مبسوطة فإنما هي بالنسبة لعظمها وسمتها، أو بالنسبة للناظرين، فليس في القرآن ما يخالف الحقائق العلمية.

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٣٤.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٣٧.

٢ - المجاز المرسل بإطلاق الجزء وإرادة الكل ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ المراد أصحابها.

٣ - الطباق في الحرف بين ﴿إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ .. عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾.

٤ - جناس الاشتقاق ﴿فَذَكِّرْ .. مُذَكِّرٌ﴾ وبين ﴿فَيُعَذِّبُهُ .. الْعَذَابَ﴾.

٥ - المقابلة بين وجوه الأبرار ووجوه الفجار ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ قابل بينها وبين سابقتها ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾.

٦ - السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾.. إلخ.

تنبيه: روي أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْه لما قدم الشام، أتاه راهب شيخ كبير عليه سواد، فلما رآه عمر بكى، فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين إنه نصراني؟ فقال: ذكرتُ قول الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ فبكيتُ رحمةً عليه[1].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الغاشية»

❀ ❀ ❀ ❀

(١) انظر «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٣٢.



مكية وآياتها ثلاثون

بين يدي السورة

* سورة الفجر مكية، وهي تتحدث عن أمور ثلاثة رئيسة وهي:

١- ذكر قصص بعض الأمم المكذبين لرسل الله، كقوم عاد، وثمود، وقوم فرعون، وبيان ما حل بهم من العذاب والدمار، بسبب طغيانهم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ...﴾ الآيات.

٢- بيان سنة الله تعالى في ابتلاء العباد في هذه الحياة بالخير والشر، والغنى والفقر، وطبيعة الإنسان في حبه الشديد للمال ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ...﴾ الآيات.

٣- الآخرة وأهوالها وشدائدها، وانقسام الناس يوم القيامة إلى سعداء وأشقياء، وبيان مآل النفس الشريرة، والنفس الكريمة الخيرة ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ إلى نهاية السورة الكريمة.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ

اللغة: ﴿حِجْرٍ﴾ عقْل ولُبٌّ قال الفراء: العرب تقول: إنه لذو حجر إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها، وأصل الحَجْر المنع، وسمي العقل حجرًا؛ لأنه يمنع عن السفه قال الشاعر:

وَكَيْفَ يُرجَى أَنْ تَتُوبَ وَإِنَّمَا ... يُرجَى مِنَ الْفَتيَانِ مَنْ كَانَ ذَا حِجْرِ[1]

﴿جَابُوا﴾ قطعوا ومنه قولهم: فلان يجوب البلاد أي يقطعها ﴿التُّرَاثَ﴾ الميراث ﴿لَّمًّا﴾

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٤٣.

شديدًا وأصله الجمع ومنه قولهم: لَمَّ اللهُ شَعْثَه [١]
﴿جَمًّا﴾ كثيرًا عظيمًا كبيرًا قال الشاعر:

إنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا … وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا[٢]

التفسير: ﴿والفجر وَلَيالٍ عَشْرٍ﴾ هذا قَسَمٌ [٣] أي أُقسم بضوء الصبح عند مطاردته ظلمة الليل، وبالليالي العشر المباركات من أول ذي الحجة، لأنها أيام الاشتغال بأعمال الحج[٤] قال المفسرون: أقسم تعالى بالفجر لما فيه من خشوع القلب في حضرة الرب، وبالليالي الفاضلة المباركة وهي عشر ذي الحجة، لأنها أفضل أيام السنة، كما ثبت في صحيح البخاري: «مَا مِنْ أَيَّام الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّام - يَعْنِي أَيَّامَ الْعَشْرِ -» قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلا رَجُلًا خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ»[٥].

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ أي وأقسم بالزوج والفرد من كل شيء فكأنه تعالى أقسم بكل شيء، لأن الأشياء إما زوجٌ وإما فردٌ، أو هو قسمٌ بالخلق والخالق، فإن الله تعالى واحد «وتر» والمخلوقات ذكرٌ وأنثى «شفع»[٦] ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أي وأقسم بالليل إذا يمضي بحركة الكون العجيبة، والتقييد بسريانه لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة، ووفور النعمة ﴿هَلْ فِي

---

(١) (ش): لَمَّ اللهُ شَعْثَه: أَيْ جَمَعَ مَا تَفَرَّقَ مِنْ أُمُورِهِ. لمَّ اللهُ شعثَهم: جمع شملَهم وضمّ شتاتَهم بعد تفرُّق.

(٢) (ش): الْبَيْتُ لِأُمَيَّةَ بْنِ الصَّلْتِ، وقد أَنْشَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا» (رواه الترمذي، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني). (الْكَبَائِرُ)كُلُّ ذَنْبٍ تَوَعَّدَ اللهُ عَلَيْهِ بِالنَّارِ أَوْ مَا عَيَّنَ لَهُ حَدًّا أَوْ ذَمَّ فَاعِلَهُ ذَمًّا شَدِيدًا. وَالْفَوَاحِشُ جَمْعُ فَاحِشَةٍ وَهِيَ كُلُّ ذَنْبٍ فِيهِ وَعِيدٌ أَوْ مُخْتَصٌّ بِالزِّنَا. (اللَّمَمَ) أَيْ الصَّغَائِرَ. (إِنْ تَغْفِرْ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا) أَيْ كَثِيرًا كَبِيرًا. وَ(إِنْ تَغْفِرْ) لَيْسَ لِلشَّكِّ بَلْ لِلتَّعْلِيلِ نَحْو إِنْ كُنْت سُلْطَانًا فَأَعْطِ الْجَزِيلَ، أَيْ لِأَجْلِ أَنَّك غَفَّارٌ اِغْفِرْ جَمًّا. (وَأَيُّ عَبْدٍ لَك لَا أَلَمَّا) أَيْ لَمْ يُلِمَّ بِمَعْصِيَةٍ يُقَالُ أَلَمَّ إِذَا فَعَلَ اللَّمَمَ. أَيْ مِنْ شَأْنِك غُفْرَانُ كَثِيرٍ مِنْ ذُنُوبٍ عِظَامٍ. وَأَمَّا الْجَرَائِمُ الصَّغِيرَةُ فَلَا تُنْسَبُ إِلَيْك لِأَنَّ أَحَدًا لَا يَخْلُو عَنْهَا وَأَنَّهَا مُكَفَّرَةٌ بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ.

(٣) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِم إِلَّا بِالْخَالِق. قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ ابْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلاَ، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ» (رواه البخاري ومسلم).

(٤) هذا قول الجمهور وهو مروي عن ابن عباس، وقيل هي العشر الأخير من رمضان؟ لأن فيها ليلة القدر، وهي رواية أيضًا عن ابن عباس، والأول أرجح.

(٥) (ش): (لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ): أي ذهب مالُه واستُشهِد.

(٦) هذا القول روي عن مجاهد وابن عباس، وروي عن ابن عباس أيضًا أن الشفع يوم النحر لكونه العاشر، والوتر يوم عرفة لكونه التاسع، وذكرت أقوال أخرى كثيرة غير هذه.

﴿ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ أي هل فيما ذُكِر من الأشياء قسمٌ مُقنِع لذي لُبٍّ وعقل؟ والاستفهام تقريريٌ لفخامة شأن الأمور المقسَم بها، كأنه يقول: إِن هذا لقسمٌ عظيمٌ عند ذوي العقول والألباب، فمن كان ذا لُب وعقل عَلِم أن ما أقسم الله عَزَّ وَجَلَّ به من هذه الأشياء فيها عجائب ودلائل تدل على توحيده وربوبيته، فهو حقيق بأن يُقسم له لدلالته على الإِله الخالق العظيم قال القرطبي: قد يُقسم الله بأسمائه وصفاته لعلمه، ويُقسم بأفعاله لقدرته كما قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [الليل: ٣] ويُقسم بمفعولاته لعجائب صنعه كما قال ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١] ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١]، ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[1] وجواب القسم محذوب تقديره: ورب هذه الأشياء ليعذبنَّ الكفار[2]، ويدل عليه قوله ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾؟ أي ألم يبلغك يا محمد ويصل إِلى علمك، ماذا فعل الله بعاد قوم هود؟ ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أي عادٍ الأولى أهل إِرَم ذات البناء الرفيع، الذين كانوا يسكنون بالأحقاف بين عُمان وحضرموت ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ أي تلك القبيلة التي لم يخلق الله مثلهم في قوتهم، وشدتهم، وضخامة أجسامهم، والمقصود من ذلك تخويف أهل مكة بما صنع تعالى بعاد، وكيف أهلكهم وكانوا أطول أعمارًا، وأشَدَّ قوة من كفار مكة!؟ قال ابن كثير: وهؤلاء «عاد الأولى» وهم الذين بعث الله فيهم رسوله «هودًا» عليه السلام فكذبوه وخالفوه، وكانوا عتاة متمردين جبارين، خارجين عن طاعة الله مكذبين لرسله، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمَّرهم، وجعلهم أحاديث وعِبرًا[3] ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ أي وكذلك ثمود الذين قطعوا صخر الجبال، ونحتوا بيوتًا بوادي القُرى ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢] وكانت مساكنهم في الحجر بين الحجاز وتبوك قال المفسرون: أول من نحت الجبال والصخور والرخام قبيلة ثمود وكانوا لِقُوتِهِم يُخرِجون الصخور، ويَنْقُبون الجبال[4] فيجعلونها بيوتًا لأنفسهم، وقد بنوا ألفًا وسبعمائة مدينة كلها بالحجارة بوادي القرى[5] ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ أي وكذلك فرعون الطاغية الجبار، ذي الجنود والجموع والجيوش التي تشد ملكه قال أبو السعود: وصف بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التي يضربونها في منازلهم أو لتعذيبه بالأوتاد[6] ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ أي أولئك المتجبرين «عادًا، وثمود، وفرعون» الذين تمردوا وعتوا عن أمر الله، وجاوزوا

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٤١.

(٢) انظر «روح المعاني» للألوسي ٣٠/ ١٢٢.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٣٦.

(٤) (ش): نقَب البِنَاءَ أو نقَب الحائطَ: ثقبَه، وفتح فيه ثُغرَةً.

(٥) انظر القرطبي ١٩/ ٤٨، والبحر المحيط» ٨/ ٤٧٠.

(٦) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٦٢.

الحدَّ في الظلم والطغيان ﴿فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ أي فأكثروا في البلاد الظلم والجَوْر[1] والقتل، وسائر المعاصي والآثام ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي فأنزل عليهم ربك ألوانًا شديدة من العذاب بسبب إجرامهم وطغيانهم قال المفسرون: استعمل لفظ الصبّ لاقتضائه السرعة في النزول على المضروب، كما قال القائل «صَبَبْنَا عَلَيْهِمْ ظَالِمِينَ سِيَاطَنَا» والمراد أنه تعالى أنزل على كل طائفة نوعًا من العذاب، فأُهلكت عادٌ بالريح، وثمود بالصيحة، وفرعون وجنوده بالغرق كما قال تعالى ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠][2] ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ أي إن ربك يا محمد لَيَرْقُب عمل الناس، ويُحصيه عليهم، ويجازيهم به. قال في التسهيل: المرصاد المكان الذي يترقب فيه الرصَد[3]، والمراد أنه تعالى رقيبٌ على كل إنسان، وأنه لا يفُوته أحد من الجبابرة والكفار، وفي ذلك تهديدٌ لكفار قريش[4].. ولما ذكر تعالى ما حلَّ بالطغاة المتجبرين، ذكر هنا طبيعة الإنسان الكافر، الذي يبطر عند الرخاء، ويقنط عند الضراء فقال ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي إذا اختبره وامتحنه ربه بالنعمة ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ أي فأكرمه بالغِنَى واليسار[5]، وجعله مُنَعَّمًا في الدنيا بالبنين والجاه والسلطان ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ أي فيقول: ربي أحسن إليَّ بما أعطاني من النعم التي أستحقها، ولم يعلم أن هذا ابتلاء له أيشكر أم يكفر؟ ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ أي وأما إذا اختبره وامتحنه ربه بالفقر وتضييق الرزق ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ أي فيقول غافلًا عن الحكمة: إن ربي أهانني بتضييقه الرزق عليَّ قال القرطبي: وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث، وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظّ في الدنيا وقلّته، وأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه المؤدي إلى حظ الآخرة، وإن وسَّع عليه في الدنيا حمده وشكره[6]، وإنما أنكر تعالى على الإنسان قوله ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ وقوله ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ لأنه إنما قال ذلك على وجه الفخر والكبر، لا على وجه الشكر، وقال: أهانن على وجه التشكي من الله وقلة الصبر، وكان الواجب عليه أن يشكر على الخير، ويصبر على الشر، ولهذا ردعه وزجره بقوله ﴿كَلَّا﴾[7] أي ليس الإكرام بالغنى، والإهانة بالفقر كما تظنون، بل الإكرام والإهانة بطاعة الله ومعصيته

---

(١) (ش): الجَوْر: الظلم.

(٢) سورة العنكبوت: آية ٤٠، وانظر «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٣١٧.

(٣) (ش): رَصَد: راصِدٌ، مُراقِب.

(٤) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ١٩٧.

(٥) (ش): يَسار: غِنًى وثَرْوة، رخاء، سِعَة.

(٦) «تفسير القرطبي» ١٩/ ٥١.

(٧) (ش): في أكثر من طبعة: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾، والمُثبَت هنا هو الصواب ويدل عليه ما بعده.

ولكنكم لا تعلمون، ثم قال ﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ أي بل أنتم تفعلون ماهو شرٌّ من ذلك، وهو أنكم لا تكرمون اليتيم مع إكرام الله لكم بكثرة المال! ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ أي ولا يحض بعضكم بعضًا ولا يحثه على إطعام المحتاج وعون المسكين ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ أي وتأكلون الميراث أكلًا شديدًا، لا تسألون أمن حلالٍ هو أم من حرام؟ قال في التسهيل: هو أن يأخذ في الميراث نصيبه ونصيب غيره، لأن العرب كانوا لا يُعطون من الميراث أنثى ولا صغيرًا، بل ينفرد به الرجال[١] ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ أي وتحبون المال حبًّا كثيرًا مع الحرص والشرَهِ[٢]، وهذا ذمٌّ لهم لتكالبهم على المال، وبخلهم بإنفاقه ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾ ﴿كَلَّآ﴾ للردع أي: ارتدعوا أيها الغافلون وانزجروا عن ذلك، فأمامكم أهوال عظيمة في ذلك اليوم العصيب، وذلك حين تُزَلزَل الأرضُ وتُحَرَّكُ تَحريكًا متتابعًا، قال الجلال: أي زُلْزِلَتْ حَتَّى يَنْهَدِم كُلّ بِنَاء عَلَيْهَا وَيَنْعَدِم[٣] ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ أي وجاء ربك يا محمد لفصل القضاء بين العباد، وجاء الملائكة صفوفًا متتابعة صفًا بعد صف، قال في التسهيل: قال المنذر بن سعيد: معناه ظهوره للخلق هنالك، وهذه الآية وأمثالها مما يجب الإيمان به من غير تكييفٍ ولا تمثيل[٤] وقال ابن كثير: قام الخلائق من قبورهم لربهم، وجاء ربك لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم محمد ﷺ، فيجيء الربُّ تبارك وتعالى لفصل القضاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا[٥] ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ﴾ أي وأحضرت جهنم ليراها المجرمون كقوله ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧] وفي الحديث « يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٩٨.

(٢) (ش): الشَّرَه: شدة الحرص.

(٣) «تفسير الجلالين» ٤/ ٣١٨.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٩٨. (ش): ما ذكره المؤلف في بداية تفسير الآية هو الصواب، فالماجيء صفة من صفات الله على الحقيقة على ما هو لائق بالله بلا معرفة الكَيْف. وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ لا يصح تأويله بظهور الله للخلق. بل هذا مع مخالفته لظاهر القرآن يخالف نص السنة الصحيحة، فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: يَجْمَعُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، قِيَامًا أَرْبَعِينَ سَنَةً شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ، يَنْتَظِرُونَ فَصْلَ الْقَضَاءِ، وَيَنْزِلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الْكُرْسِيِّ» (رواه ابن أبي الدنيا والطبراني، والحاكم وصححه، وحسنه الذهبي، وصححه الألباني). وبذلك قال أئمة التفسير. قال الإمام الطبري في تفسيره (٢٤/ ٤١٧): « يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَإِذَا جَاءَ رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ وَأَمْلَاكُهُ صُفُوفًا صَفًّا بَعْدَ صَفٍّ ». اهـ. ثم أورد من الأحاديث والآثار ما يدل لقوله ويثبت مجيء الله تعالى. وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/ ٣٩٩): ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ يَعْنِي: لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ خَلْقِهِ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا يَسْتَشْفِعُونَ إِلَيْهِ بِسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٌ ﷺ،... فَيَذْهَبُ فَيَشْفَعُ عِنْدَ اللهِ فِي أَنْ يَأْتِيَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ فَيُشَفِّعُهُ اللهُ فِي ذَلِكَ،... فَيَجِيءُ الرَّبُّ تَعَالَى لِفَصْلِ الْقَضَاءِ كَمَا يَشَاءُ، وَالْمَلَائِكَةُ يَجِيئُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ صُفُوفًا صُفُوفًا ».

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٣٨.

سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»[١] ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب، والموقف العصيب، يتذكر الإنسان علمه، ويندم على تفريطه وعصيانه، ويريد أن يُقْلِع[٢] ويتوب ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي ومن أين يكون له الانتفاع بالذكرى وقد فات أوانها؟! ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ أي يقول نادمًا متحسرًا: يا ليتني قدمت عملًا صالحًا ينفعني في آخرتي، لحياتي الباقية قال تعالى ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي ففي ذلك اليوم ليس أحد أشد عذابًا من تعذيب الله من عصاه ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي ولا يُقيِّد أحدٌ بالسلاسل والأغلال مثلَ تقييدِ الله للكافر الفاجر، وهذا في حق المجرمين من الخلائق، فأما النفس الزكية المطمئنة فيقال لها ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ أي يا أيتها النفس الطاهرة الزكية، المطمئنة بوعد الله التي لا يلحقها اليوم خوفٌ ولا فزع ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ أي ارجعي إلى رضوان ربك وجنته، راضيةً بما أعطاك الله من النعم، مرضيةً عنده بما قدمت من عمل قال المفسرون: هذا الخطاب والنداء يكون عند الموت، فيقال للمؤمن عند احتضاره تلك المقالة: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ أي فادخلي في زمرة عبادي الصالحين ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ أي وادخلي جنتي دار الأبرار الصالحين.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يليك

١ - الاستفهام التقريري ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾؟

٢ - الطباق بين ﴿وَٱلشَّفْعِ .. وَٱلْوَتْرِ﴾.

٣ - جناس الاشتقاق ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ ﴿يَتَذَكَّرُ .. ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

٤ - المقابلة ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ وبين ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ الآية فقد قابل بين ﴿أَكْرَمَنِ﴾ و ﴿أَهَٰنَنِ﴾ وبين توسعة الرزق[٣].

٥ - الاستعارة اللطيفة الفائقة ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ شبه العذاب الشديد الذي نزل عليهم بسياطٍ لاذعة تكوي جسد المعذَّب واستعمل الصبَّ للإنزال.

٦ - الالتفات ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ فيه التفات من ضمير الغائب إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والعتاب، والأصل ﴿بل لا يكرمون﴾.

٧ - الإضافة للتشريف ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾.

٨ - السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ ومثل ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ الآيات.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفجر»

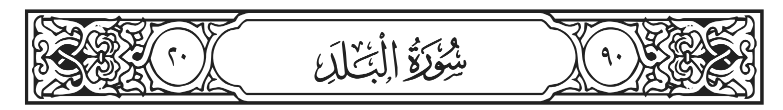
❀ ❀ ❀

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا.

(٢) (ش): أي يُقْلِع عن الذنوب، أقلع عن الشَّيءِ: كَفَّ عنه وتركه، امتنع وتوَقَّف عنه.

(٣) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، ولعل الصواب: وبين تَوسعة الرزق وتضييق الرزق.



مكية وآياتها عشرون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مكية، وأهدافها نفس أهداف السور المكية، من تثبيت العقيدة والإيمان، والتركيز على الإيمان بالحساب والجزاء، والتمييز بين الأبرار والفجار.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالبلد الحرام، الذي هو سكنُ النبي عليه الصلاة والسلام، تعظيمًا لشأنه، وتكريمًا لمقامه الرفيع عند ربه، ولفتًا لأنظار الكفار إلى أن إيذاء الرسول في البلد الأمين من أكبر الكبائر عند الله تعالى.

* ثم تحدثت عن بعض كفار مكة، الذين اغتروا بقوتهم، فعاندوا الحقَّ، وكذبوا رسول الله ﷺ وأنفقوا أموالهم في المباهاة والمفاخرة، ظنًا منها أن إنفاق الأموال يدفع عنهم عذاب الله، وقد ردت عليهم الآيات بالحجة القاطعة والبرهان الساطع.

* ثم تناولت أهوال القيامة وشدائدها، وما يكون بين يدي الإنسان في الآخرة من مصاعب ومتاعب وعقباتٍ لا يستطيع أن يقطعها يجتازها إلا بالإيمان والعمل الصالح.

* وختمت السورة الكريمة بالتفريق بين المؤمنين والكفار في ذلك اليوم العصيب، وبينت مآل السعداء، ومآل الأشقياء، في دار الجزاء.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

اللغَة: ﴿كَبَدٍ﴾ الكبَدُ: الشدة والمشقة، وأصله من كَبِد الرجل كبَدًا إذا وجعَتْه كبدُه ثم استعمل في كل تعَب ومشقة، ومنه المكابدة لمقاساة الشدائد ﴿ٱقْتَحَمَ﴾ الاقتحامُ: الدخول بسرعة وشدة يقال: اقتحم الأمر، واقتحم الحصن إذا رمى نفسه فيه بدون رَوِيَّة[1] ﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾

(١) (ش): رَوِيَّة: نَظَرٌ وتفكيرٌ في الأمور.

الطريق الوَعْر في الجبل[١] ﴿فَكُّ﴾ الفكُّ تخليص الشيء من الشيء يقال: فككت الحبل، وفككت الأسير، أي: خلصته من الأسر ﴿مَسْغَبَةٍ﴾ مجاعة يقال: سَغِبَ الرجل إذا جاع وقال الراغب: هو الجوع مع التعب[٢] ﴿مَتْرَبَةٍ﴾ افتقار يقال: تربَ الرجل إذا افتقر ولصق بالتراب، وأترب إذا استغنى وكذلك أثرى[٣] ﴿مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ مُطْبَقَة من أوْصَد البابَ إذا أغلقه وأطبَقه[٤].

التفسير: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ هذا قسمٌ، أقسم سبحانه بالبلد الحرام «مكة»[٥] التي شرَّفها الله تعالى بالبيت العتيق قبلة أهل الشرق والغرب، وجعَلَها مهبِط الرحَمَات[٦]، وإليها تُجبَى ثمراتُ كل شيء، وجعلها حرمًا آمنًا، وجعل حرمتها منذ خلق السموات والأرض[٧]، فلما استجمعت تلك المزايا والفضائل أقسم الله تعالى بها قال في التسهيل: أراد بالبلد «مكة» باتفاق، وأقسم بها تشريفًا لها[٨] ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ أي وأنت يا محمد ساكنٌ ومقيم بمكة بلد الله الأمين قال البيضاوي: أقسم بالبلد الحرام وقيَّده بحلوله عليه السلام فيه أي إقامته فيه إظهارًا لمزيد فضله، وإشعارًا بأن شرف المكان بشرف أهله[٩] ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ أي وأُقسم بآدم وذريته الصالحين قال مجاهد: الوالد آدم عليه السلام ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ جميع ذريته قال ابن كثير: وما ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسنٌ قوي، لأنه تعالى لما أقسم بأُم القرى وهي المساكن، أقسم بعده بالساكن وهو «آدم» أبو البشر وولده[١٠]. وقال الخازن: أقسم الله تعالى بمكة لشرفها وحرمتها، وبآدم وبالآنبياء والصالحين من ذريته، لأن الكافر وإن كان من ذريته لا حرمة له

---

(١) (ش): طريق وَعْر: طريق صلْب، والسَّيرُ فيه صعبٌ، مخيف، مُوحِش.

(٢) روح المعاني ٣٠/ ١٣٨.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٤٧٣.

(٤) (ش): أطبقَ: أغلق.

(٥) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ ». وَفِي رِوَايَةٍ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ » (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلاَ، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم).

(٦) (ش): أي مكان نزول الرحَمَات. مَهْبَط/ مَهْبِط: مكان النُّزول.

(٧) في الحديث الذي رواه الشيخان: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهِيَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَلاَ تَحِلُّ لأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ». الحديث. (ش): أي يَسَّرَ الله وصُولَ الثَّمَرَاتِ والأَمتِعَةِ والأَرْزَاقِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ إلى أهلِ الحَرَم.

(٨) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٩٩.

(٩) «تفسير البيضاوي» ٣/ ٦٦٠.

(١٠) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٤٠.

حتى يقسم به[١] ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ هذا هو المقْسَم عليه أي لقد خلقنا الإِنسان في تعب ومشقة، فإنه لا يزال يقاسي أنواع الشدائد، من وقت نفخ الروح فيه إلى حين نزعها منه قال ابن عباس: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أي في مشقة وشدة، من حمله، وولادته، ورضاعه، وفطامه، ومعاشه، وحياته، وموته[٢]، وأصل الكبد: الشدة، وقيل: لم يخلق الله خلقًا يكابد ما يكابد ابن آدم، وهو مع ذلك أضعف الخلق[٣] قال أبو السعود: والآية تسليةٌ لرسول الله ﷺ مما كان يكابده من كفار مكة[٤].. ثم أخبر تعالى عن طبيعة الإِنسان الجاحد بقدرة الله، والمكذب للبعث والنشور فقال ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ أي أيظن هذا الشقي الفاجر، المغتر بقوته، أنَّ الله تعالى لا يقدر عليه لشدته وقوته؟ قال المفسرون: نزلت في «أبي الأشد بن كلدة» كان شديدًا مغترًّا بقوته، وكان يبسط له الأديم الجلد فيوضع تحت قدميه، ويقول: «مَن أزالني عنه فله كذا»، فيجذبه عشرة فيتقطع قطعًا ولا تَزِلّ قدماه[٥]، ومعنى الآية: أيظن هذا القوي المارد، المستضعف للمؤمنين، أنه لن يقدر على الانتقام منه أحد؟ ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ أي يقول هذا الكافر: أنفقت مالًا كثيرًا في عداوة محمد ﷺ قال الألوسي: أي يقول فخرًا ومباهاة على المؤمنين: أنفقت مالًا كثيرًا، وأراد بذلك ما أنفقه «رياءً وسمعةً» وعبر عن الإِنفاق بالإِهلاك، إظهارًا لعدم الاكتراث، وأنه لم يفعل ذلك رجاء نفع، فكأنه جعل المال الكثير ضائعًا، وقيل: يقول ذلك إظهارًا لشدة عداوته لرسول الله ﷺ[٦] ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾؟ أي أيظن أنَّ الله تعالى لم يره حين كان ينفق، ويظن أن أعماله تخفى على رب العباد؟ ليس الأمر كما يظن، بل إن الله رقيب مطلعٌ عليه، سيسأله يوم القيامة ويجازيه عليه. ثم ذكَّره تعالى بنعمه عليه ليعتبر ويتعظ فقال ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ﴾ أي ألم نجعل له عينين يُبصِر بهما؟ ﴿وَلِسَانٗا﴾ أي ولسانًا ينطق به فيعبر عما في ضميره؟ ﴿وَشَفَتَيۡنِ﴾ أي وشفتين يُطْبِقهُما[٧] على فمه، ويستعين بهما على الأكل والشرب والنفخ وغير ذلك، قال الخازن: يريد أن نِعم الله على عبده مُتظاهرة، يقرره بها كي يشكره[٨] ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ أي وبيَّنَّا له طريقَي الخير والشر، والهدى والضلال، ليسلك طريق السعادة، ويتجنب طريق الشقاوة قال ابن مسعود: ﴿ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ الخير والشر كقوله تعالى

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٤٨.
(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٤٨.
(٣) نفس المرجع السابق.
(٤) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٦٥.
(٥) (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد. وفيه مبالغة ظاهرة في قوة هذا الرجل.
(٦) «تفسير الألوسي» ٣٠/ ١٣٦.
(٧) (ش): يُطْبِقهُما: يُغلِقهما.
(٨) «تفيسر الخازن» ٤/ ٢٤٩.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣][١] ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ أي فهلا أنفق ماله في اجتياز العقبة الكئود[٢]، بدل أن ينفقه في عداوة محمد ﷺ؟! قال في البحر: والعقبةُ استعارةٌ للعمل الشاق على النفس، من حيث فيه بذل المال، تشبيهًا لها بعقبة الجبل وهو ما صعب منه وقت الصعود، فإنه يلحقه مشقة في سلوكها، ومعنى اقتحمها دخلها بسرعة وشدة[٣]، وهو مثلٌ ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس، والهوى، والشيطان، حتى ينال رِضَى الرحمن ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾[٤] أي وما أعلمك ما اقتحام العقبة؟ وفيه تعظيم لشأنها وتهويل.. ثم فسرها تعالى بقوله ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي هي عتق الرقبة في سبيل الله، وتخليص صاحبها من الأَسْر والرِّق، فمن أعتق رقبة كانت له فداءً من النار[٥] ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ أي أو أن يطعم الفقير في يوم عصيب ذي مجاعة. قال الصاوي: وقيد الإطعام بيوم المجاعة، لأن إخراج المال فيه أشد على النفس[٦] ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي أطعم اليتيم الذي بينه وبينه قرابة ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أو المسكين الفقير البائس الذي قد لصق بالتراب مِن فَقْره وضُرِّه، وهو كناية عن شدة الفقر والبؤس قال ابن عباس: هو المطروح على ظهر الطريق لا يقيه من التراب شيء ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي عمل هذه القربات لوجه الله تعالى، وكان مع ذلك مؤمنًا صادق الإيمان قال المفسرون: وفي الآية إشارة أن هذه القُرَب والطاعات لا تنفع إلا مع الإيمان ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أي وأوصى بعضهم بعضًا بالصبر على الإيمان وطاعة الرحمن، وبالرحمة والشفقة على الضعفاء والمساكين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الجليلة، هم أصحاب الجنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ويسعدون بدخول جنات النعيم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ قرن بين الأبرار والفجار على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب، لبيان المفارقة الهائلة بين أهل الجنة وأهل النار، وبين السعداء والأشرار، أي: والذين جحدوا نبوة محمد وكذبوا بالقرآن هم أهل الشمال أهل النار لأنهم يأخذون كتبهم بشمائلهم، وعبر عنهم بضمير الغائب إشارة إلى أنهم غائبون عن حضرة قُدْسه، وكرامة أُنسه ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ أي عليهم نارٌ مُطْبَقَة مُغلَقَة، لا يدخل فيها رَوْحٌ ولا رَيْحان[٧]، ولا يخرجون

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٤١.

(٢) (ش): كأَد الأمرُ عليه: اشتدّ وصعُب. عقبة كئود: صعبة، يصعب صعودها وتجاوزها.

(٣) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٤٧٦.

(٤) (ش): في أكثر من طبعة: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾، والمُثْبَت هنا هو الصواب ويدل عليه ما بعده.

(٥) (ش): قال ﷺ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ حَتَّى يُعْتِقَ فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٣٢٢.

(٧) (ش): رَوْحٌ: رَاحَةٌ أَوْ رَحْمَةٌ.

منها أبَدَ الزمان[١]. اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، ونجنا من ذلك يا رب.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - زيادة ﴿لَآ﴾ لتأكيد الكلام، وهو مستفيض في كلام العرب ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ أي أُقسم بهذا البلد، وفائدتها تأكيد القسم كقولك: لا والله ما ذاك كما تقول، أي: والله. قال امرؤ القيس: « لَا وَأَبِيكِ ابْنَةَ الْعَامِرِيِّ... »[٢].

٢ جناس الاشتقاق ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ فكل من الوالد والولد مشتق من الولادة.

٣ - الاستفهام الإنكاري للتوبيخ ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾؟ ومثله ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾؟

٤ - الاستفهام التقريري للتذكير بالنعم ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ﴾؟

٥ - الاستفهام للتهويل والتعظيم ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾؟ لأن الغرض تعظيم شأنها.

٦ - الاستعارة اللطيفة ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ أي طريقَي الخير والشر، وأصل النجد الطريق المرتفع، استُعير كلٌّ منهما لسلوك طريق السعادة، وسلوك طريق الشقاوة.

٧ - الاستعارة كذلك في قوله ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ لأن أصل العقبة الطريق الوَعْر في الجبل، واستُعيرت هنا للأعمال الصالحة لأنها لا تصعب وتشق على النفوس، ففيه استعارة تبعية.

٨ - الجناس الناقص بين ﴿مَقۡرَبَةٍ﴾ و﴿مَتۡرَبَةٖ﴾ لتغير بعض الحروف.

٩ - المقابلة اللطيفة بين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ وبين ﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾.

١٠ - مراعاة الفواصل ورءوس الآيات مثل ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ.. وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ ومثل ﴿عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البلد»

❁ ❁ ❁ ❁

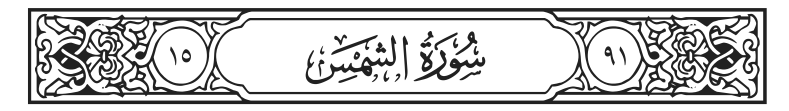
---

(١) اقتبسنا هذا التفسير من الطبري والقرطبي و«البحر المحيط» وتفسير ابن كثير وغيرها من أمهات كتب التفسير.
(ش): رَوْحٌ: رَحْمَةٌ وَاسِعَةٌ، وَاسْتِرَاحَةٌ، وَفَرَحٌ. رَيْحان: رِزْقٌ حَسَنٌ، وَرَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، وَجَمِيعُ مَا تَطِيبُ بِهِ نَفْسُهُ.

(٢) (ش):

لَا وَأَبِيكِ ابْنَةَ الْعَامِرِيِّ ... لَا يَدَّعِي الْقَوْمُ إِنِّي أَفِرُّ

(ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ» (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ ابْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ» (رواه البخاري ومسلم).



مكية وآياتها خمس عشرة

بين يدي السورة

* سورة الشمس مكية، وقد تناولت موضوعين اثنين وهما:

١- موضوع النفس الإنسانية، وما جبلها الله عليه من الخير والشر، والهدى والضلال.

٢- وموضوع الطغيان ممثلًا في ﴿ثَمُودُ﴾ الذين عقروا الناقة فأهلكهم الله ودمرهم.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بسبعة أشياء من مخلوقات الله جل وعلا، فأقسم تعالى بالشمس وضوئها الساطع، وبالقمر إذا أعقبها وهو طالع، ثم بالنهار إذا جلى ظلمة الليل بضيائه، وبالليل إذا غطى الكائنات بظلامه، ثم بالقادر الذي أحكم بناء السماء بلا عمد، وبالأرض الذي بسطها على ماء جمد، وبالنفس البشرية التي كملها الله وزينها بالفضائل والكمالات، وأقسم بهذه الأمور على فلاح الإنسان ونجاحه إذا اتقى الله، وعلى شقاوته وخسرانه إذا طغى وتمرد.

* ثم ذكر تعالى قصة ﴿ثَمُودُ﴾ قوم صالح حين كذبوا رسولهم، وطغوا وبغوا في الأرض، وعقروا الناقة التي خلقها الله تعالى من صخر أصم[1]

معجزة لرسوله صالح عليه السلام، وما كان من أمر هلاكهم الفظيع الذي بقي عبرة لمن يعتبر، وهو نموذج لكل كافرٍ فاجر مكذب لرسل الله.

* وقد ختمت السورة الكريمة بأنه تعالى لا يخاف عاقبة إهلاكهم وتدميرهم، لأنه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا

اللغَة: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ ضوءها، والضحى وقت ارتفاع الشمس أول النهار قال المبرد: الضحى مشتقٌ من الضحِّ وهو نور الشمس[2] ﴿طَحَىٰهَا﴾ بسطها ومَدَّها قال الجوهري: طَحَوتُه مثل

(١) (ش): صخر أصمُّ: صُلْب متين، مُصْمَت لا فراغ فيه.

(٢) «روح المعاني» للألوسي ٣٠/ ١٤٠.

دَحَوْته أي بسَطْتُه[١] ﴿دَسَّىٰهَا﴾ أخفاها وأصل الكلمة دسَّسَها أُبدِلَت السين الثانية أَلِفًا تخفيفًا ﴿فَدَمْدَمَ﴾ الدمْدمة: إِطباقُ الشيء على الشيء[٢] يقال: دمدم عليه القبر، أي: أطبَقَه، والمراد به هنا إِطباقُ العذابِ عليهم بمعنى إِهلاكهم بطريق الاستئصال ﴿عُقْبَٰهَا﴾ عاقِبَتها وتَبعَتها.

التفسِير: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ① وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ② وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ③ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ④ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ أي أُقسم بالشمس وضوئها الساطع إِذا أنار الكون وبدَّد الظلام[٣] ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ أي وأُقسم بالقمر إِذا سطع مضيئًا، وتبع الشمس طالعًا بعد غروبها قال المفسرون: وذلك في النصف الأول من الشهر، إِذا غربت الشمس تلاها القمر في الإِضاءة وخَلَفها في النور، وحكمةُ القسم بالشمس أن العالم في وقت غيبة الشمس عنهم كالأموات، فإِذا ظهر الصبح وبزغت الشمس دبت فيهم الحياة، وصار الأموات أحياء فانتشروا لأعمالهم وقت الضحوة، وهذه الحالة تشبه أحوال القيامة، ووقتُ الضحى يشبه استقرار أهل الجنة فيها، والشمسُ والقمر مخلوقان لمصالح البشر، والقسم بهما للتنبيه على مافيهما من المنافع العظيمة[٤] ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ أي وأُقسم بالنهار إِذا جلا ظلمة الله بضيائه، وكشفها بنوره وقال ابن كثير: إِذا جلّى البسيطة وأضاء الكون بنوره[٥] ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ أي وأقسمُ بالليل إِذا غطّى الكون بظلامه، ولفَّه بشَبَحه، فالنهار يُجَلِّي المعمورة ويُظهِرها، والليل يغطّيها ويَستُرها، قال الصاوي: وأتى بالفعل مضارعًا ﴿يَغْشَىٰهَا﴾ ولم يقل ﴿غشاها﴾ مراعاةً للفواصل[٦] ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ أي وأقسم بالقادر العظيم الذي بنى السماء، وأحكم بناءها بلا عمد قال المفسرون: ﴿وَمَا﴾ اسم موصول بمعنى «منْ» أي والسماء ومن بناها والمراد به الله رب العالمين، بدليل قوله بعده ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ كأنه قال: والقادر العظيم الشأن الذي بناها، فدلَّ بناؤها وإِحكامها على وجوده، وكمال قدرته[٧] ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ أي وأُقسمُ بالأرض ومن بسطها من كل جانب، وجعلها ممتدة ممهَّدة، صالحة لسُكْنَى الإِنسان والحيوان[٨]، وهذا لا ينافي كرويتها كما

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٤٤.

(٢) (ش): أطبقَ الشيءُ الشيءَ: غطّاه.

(٣) (ش): تقدَّم كثيرًا أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لاَ يجوز أَنْ يُقْسِمَ إِلا بِالْخَالِقِ.

(٤) انظر «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٣٢٣.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٤٤.

(٦) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٣٢١.

(٧) (ش): ليس المراد من ذكر الآيات الكونية مجرد الاستدلال على وجود الله؛ لأن المخاطَبين يُقِرُّون بذلك وإنما المراد الاستدلال على إفراده بالعبادة وهو الذي يجحده المخاطَبون. ومما يؤيد أن المراد الاستدلال على إفراده بالعبادة أن المؤلف قد قال بعد قليل: إن الله أقسم بسبعة أشياء «الشمس، والقمر، والليل، والنهار، والسماء، والأرض، والنفس البشرية» إظهارًا لعظمة قدرته، وانفراده بالألوهية.

(٨) (ش): سكَن المكانَ/ سكَن بالمكانِ/ سكَن في المكانِ: أقام به واستوطنه.

قال المفسرون،[١] لأن الغرض من الآية الامتنان بجعل الأرض ممتدة واسعة، ميسَّرة للزراعة والفِلاحة[٢] وسُكْنَى الإنسان ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أي وأُقسمُ بالنفس البشرية وبالذي أنشأها وأبدعها، وجعلها مستعدة لكمالها، وذلك بتعديل أعضائها، وقواها الظاهرة والباطنة، ومن تمام تسويتها أن وهبها العقل الذي تميز به بين الخير والشر، والتقوى والفجور، ولهذا قال ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ أي وعرَّفها الفجور والتقوى وما تميز به بين رشدها وضلالها قال ابن عباس: بيَّن لها الخير والشر، والطاعة والمعصية، وعرَّفها ما تَأتِي وما تَتَّقِي[٣]، قال المفسرون: أقسم سبحانه بسبعة أشياء «الشمس، والقمر، والليل، والنهار، والسماء، والأرض، والنفس البشرية» إظهارًا لعظمة قدرته، وانفراده بالألوهية، وإشارةً إلى كثرة مصالح تلك الأشياء وعِظَم نفعها وأنها لا بد لها من صانع ومدبر لحركاتها وسكناتها وقال الإمام الفخر: لما كانت الشمس أعظم المحسوسات، ذكرها تعالى مع أوصافها الأربعة الدالة على عِظَمِها، ثم ذكر سبحانه ذاته المقدسة، ووصفها جلَّ وعلا بصفاتٍ ثلاث[٤] ليحظى العقل بإدراك جلال الله تعالى وعظمته، كما يليق به جلَّ جلاله، فكان ذلك طريقًا إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات، إلى بيداء أَوْج كبريائه جلَّ شأنه[٥] ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ هذا هو جواب القسم، أي: لقد فاز وأفلحَ من زكَّى نفسه بطاعة الله، وطهَّرها من دنس المعاصي والآثام ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي وقد خسر وخاب من حقَّر نفسه بالكفر والمعاصي، وأوْرَدها موارد الهلكة، فإنَّ من طاوع هواه، وعصى أمر مولاه، فقد نقَص من عِداد العقلاء[٦]، والتحق بالجهلة الأغبياء ثم ضرب تعالى مثلًا لمن طغَى وبغَى، ولم يطهر نفسه من دنس الكفر والعصيان، فذكر ﴿ثَمُودُ﴾ قوم صالح عليه السلام فقال ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ أي كذَّبت ثمودُ نبيَّها بسبب طغيانها ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ أي حين انطلق أشقى القوم بسرعةٍ ونشاط يعقر الناقة قال ابن كثير: وهو «قدار بن سالف» الذي قال الله فيه ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩] وكان عزيزًا شريفًا في قومه، ورئيسًا مطاعًا فيهم، وهو أشقى القبيلة[٧] ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي فقال لهم صالح عليه السلام ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا﴾ أي احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء،

---

(١) انظر أقوال المفسرين في إثبات كروية الأرض في سورة لقمان.

(٢) (ش): الفِلاحة: الزراعة؛ القيام بشئون الأرض الزراعيّة مِن حَرْث وزَرع ورَيّ وغيرِ ذلك.

(٣) (ش): أي عرَّفها ما يجب عليها أن تفعله، وما يجب عليها ألا تفعله.

(٤) (ش): هذه الصفات الثلاث في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٥ - ٧]، قال الرازي: «ثُمَّ ذَكَرَ ذَاتَهُ الْمُقَدَّسَةَ بَعْدَ ذَلِكَ وَوَصَفَهَا بِصِفَاتٍ ثَلَاثَةٍ وَهِيَ تَدْبِيرُهُ سُبْحَانَهُ لِلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلِلْمُرَكَّبَاتِ، وَنَبَّهَ عَلَى الْمُرَكَّبَاتِ بِذِكْرِ أَشْرَفِهَا وَهِيَ النَّفْسُ» [«التفسير الكبير» (٣١/ ١٧٥)].

(٥) «التفسير الكبير للرازي» ٣٠. (ش): أَوْج: قمَّة، ذروة أو علوّ وارتفاع.

(٦) (ش): أي لم يَعُدْ منهم. يقال: فلان في عِداد الصَّالحين: أي من بينهم، في جملتهم، معدودٌ منهم.

(٧) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٤٥.

واحذروا أيضًا أن تمنعوها من سُقياها، أي: شربها ونصيبها من الماء كما قال تعالى ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ أي فكذبوا نبيه صالحًا وقتلوا الناقة، ولم يلتفتوا إلى تحذيره ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ﴾ أي فأهلكهم اللهُ ودمَّرهم عن آخرهم بسبب إجرامهم وطغيانهم قال الخازن: والدمْدَمة: هلاكٌ باستئصال. والمعنى: أطبق عليهم العذاب طبقًا فلم ينفلت منهم أحد[1] ﴿فَسَوَّاهَا﴾ أي فسوَّى بين القبيلة في العقوبة فلم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، ولا غنيّ ولا فقير ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ أي ولا يخاف تعالى عاقبة إهلاكهم وتدميرهم، كما يخاف الرؤساء والملوك عاقبة ما يفعلون، لأنه تعالى لا يُسأل عما يفعل.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ﴾ و ﴿وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وبين ﴿فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

٢ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ وبين ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ وبين ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ وبين ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ وكلٌّ من الطباق والمقابلة من المحسنات البديعية.

٣ - الإضافة للتكريم والتشريف ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ نسبت إلى الله تشريفًا لأنها خرجت من حجرٍ أصم معجزةً لصالح عليه السلام.

٤ - التهويل والتفظيع ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ﴾ فإن التعبير بالدمدمة يدل على هول العذاب.

٥ - السجع المرصَّع مراعاة للفواصل ورءوس الآيات وهو ظاهرٌ جليٌّ في السورة الكريمة.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشمس»



(١) «الخازن» ٤/ ٤٣٣.



مكية وآياتها إحدى وعشرون

بين يدي السورة

* سورة الليل مكية، وهي تتحدث عن سعي الإنسان وعمله، وعن كفاحه ونضاله في هذه الحياة، ثم نهايته إلى النعيم أو إلى الجحيم.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالليل[1] إذا غشي الخليقة بظلامه، وبالنهار إذا أنار الوجود بإشراقه وضيائه، وبالخالق العظيم الذي أوجد النوعين الذكر والأنثى، أقسم على أن عمل الخلائق مختلف، وطريقهم متباين ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾.

* ثم وضحت سبيل السعادة، وسبيل الشقاء، ورسمت الخط الباني لطالب النجاة، وبينت أوصاف الأبرار والفجار، وأهل الجنة وأهل النار ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾.

* ثم نبهت إلى اغترار بعض الناس بأموالهم التي جمعوها، وثرواتهم التي كدسوها، وهي لا تنفعهم في القيامة شيئًا، وذكرتهم بحكمة الله في توضيحه لعباده طريق الهداية وطريق الضلالة ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾.

* وختمت السورة بذكر نموذج للمؤمن الصالح، الذي ينفق ماله في وجوه الخير، ليزكي نفسه ويصونها من عذاب الله، وضربت المثل بابي بكر الصديق رضي الله عنه حين اشترى بلالًا وأعتقه في سبيل الله ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾[2].

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾

---

(١) (ش): نقل المؤلف في تفسير سورة «النجم» عن تفسير ابن كثير أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِم إِلَّا بِالْخَالِق. قال ﷺ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ ». وَفِي رِوَايَةٍ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ » (رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلَا، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ » (رواه البخاري ومسلم).

(٢) (ش): انظر التعليق التالي.

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ

اللغَة: ﴿تَجَلَّىٰ﴾ انكشف وظهر ﴿لَشَتَّىٰ﴾ متفرِّق ومختلِف ﴿بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ الكلمة الحسنى وهي كلمة التوحيد ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ الخصلة المؤدية إلى اليسر والراحة وهي الجنة ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ الخصلة المؤدية إلى العسر والشدة وهي جهنم ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ هلكَ وسقَط في الهاوية ﴿تَلَظَّىٰ﴾ أصلها تتلظى أي تتلهَّب وتتوقَّد ﴿يَصْلَىٰهَآ﴾ يدخلها ويقاسي حرها.

المنَاسَبَة: روي أن بلالًا رَضِيَ اللهُ عَنْه كان عبدًا مملوكًا ل «أُمية بن خلف» وكان سيده يعذبه لإسلامه، ويخرجه إذا حميت الشمسُ فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد! (فيقول وهو في تلك الحالة: أحدٌ، أحدٌ، فمرَّ به أبو بكر الصديق وهم يصنعون به ذلك، فقال لأمية: ألا تتقي الله في هذا المسكين) ! فقال له: أنت أفسدته عليَّ فأنقذه مما ترى، فاشتراه أبو بكرٍ منه وأعتقه في سبيل الله، فقال المشركون: إنما أعتقه ليدٍ كانت له عنده فنزلت ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[1].

التفسِير: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ أي أُقسمُ بالليل إذا غطَّى بظلمته الكون، وستر بشبحه الوجود ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ أي وأُقسمُ بالنهار إذا تجلَّى وانكشف، وأنار العالم وأضاء الكون قال المفسرون: أقسم تعالى بالليل لأنه سكنٌ لكافة الخلق، يأوي فيه الإنسان والحيوان إلى مأواه، ويسكن عن الاضطراب والحركة، ثم أقسم بالنهار لأن فيه حركة الخلق وسعيهم إلى اكتساب

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٣٢٦، و«تفسير الخازن» ٤/ ٢٥٦. (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد. وهناك رواية أخرى أن سبب نزولها إعتاق أبي بكر لبلال رضي الله عنهما خصوصًا، رواها الآجريُّ في «الشريعة» وأبو الشيخ، والواحدي في «أسباب النزول» بإسناد ضعيف. وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: « نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ٢٠] فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ » . (حسن، رواه البزار). عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: قَالَ أَبُو قُحَافَةَ لِأَبِي بَكْرٍ: «أَرَاكَ تُعْتِقُ رِقَابًا ضِعَافًا فَلَوْ أَنَّكَ إِذْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ أَعْتَقْتَ رِجَالًا جُلْدًا يَمْنَعُونَكَ وَيَقُومُونَ دُونَكَ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: «يَا أَبَتِ إِنِّي إِنَّمَا أُرِيدُ مَا أُرِيدُ»، قَالَ: فَيُتَحَدَّثُ مَا نَزَلَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتُ إِلَّا فِيهِ، وَفِيمَا قَالَ أَبُوهُ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ٦].(رواه أحمد في فضائل الصحابة، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي). جُلْدًا: جمع جَلْد: قوي، شديد البأس. قَالَ: فَيُتَحَدَّثُ مَا نَزَلَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتُ إِلَّا فِيهِ،... هذا من كلام عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ. وقد ثبت أن أبا بكر أعتق بلالًا رضي الله عنهما، فعَنْ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ عُمَرُ يَقُولُ: « أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا». يَعْنِي بِلَالًا. رواه البخاري.

الرزق، والحكمة في هذا القسم ما في تعاقب الليل والنهار من مصالح لا تُحصى فإنه لو كان العمر كله ليلًا لتعذر المعاش، ولو كان كله نهارًا لما سكن الإنسان إلى الراحة، ولَاخْتَلَّتْ مصالحُ البشر ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ أي وأُقسمُ بالقادر العظيم الذي خلق صنفي الذكر والأنثى، من نطفةٍ إذا تُمْنَى.. أقسم تعالى بذاته على خلق النوْعَيْن ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ للتنبيه على أنه الخالق المبدع الحكيم، إذْ لا يُعقل أن هذا التخالف بين الذكر والأنثى يحصل بمحض الصدفة من طبيعة بلهاء لا شعور لها فإن الأجزاء الأصلية في المَنِيّ متساوية، فتكوينُ الولد من عناصر واحدة تارةً ذكرًا، وتارة أنثى، دليلٌ على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل، مُحكِمٌ لما يصنع ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ هذا هو جواب القسم أي إن عملكم لمختلف، فمنكم تقِيٌّ ومنكم شقِيٌّ، ومنكم صالحٌ ومنكم طالِحٌ[1]، ثم فسَّره بقوله ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ أي فأما من أعطى ماله وأنفق ابتغاء وجه الله، واتقى ربه فكف عن محارم الله قال ابن كثير: أعطى ما أُمِرَ بإخراجه، واتقى الله في أموره[2] ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي وصدَّق بالجنة التي أعدَّها الله للأبرار ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي فسنُهَيِّئُه لعمَل الخير، ونسهّل عليه الخصلة المؤدية لليسر، وهي فعل الطاعات وترك المحرمات ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ أي وأمَّا من بخل بإنفاق المال، واستغنى عن عبادة ذي الجلال قال ابن عباس: بخل بماله، واستغنى عن ربه عزَّ وجل ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي وكذَّب بالجنة ونعيمها ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي فسنهيئه للخصلة المؤدية للعسر، وهي الحياة السيئة في الدنيا والآخرة وهي طريق الشر قال المفسرون: سمَّى طريقة الخير يسرى؛ لأن عاقبتها اليسر وهي دخول الجنة دار النعيم، وسمَّى طريقة الشرِّ عسرى؛ لأن عاقبتها العسر وهو دخول الجحيم ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ استفهام إنكاري أيْ أيُّ شيء ينفعه ماله إذا هلك وهو في نار جهنم؟ هل نفعه المال، ويدفع عنه الوبال؟ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي إنَّ علينا أن نُبيِّن للناس طريق الهدى من طريق الضلالة، ونوضِّح سبيل الرشد من سبيل الغَيِّ كقوله ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ أي لنا ما في الدنيا والآخرة، فمن طلبهما من غير الله فقد أخطأ الطريق ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أي فحذَّرْتُكم يا أهل مكة نارًا تتوقَّد وتتوهج من شدة حرارتها ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ أي لا يدخلها للخلود فيها ولا يذوق سعيرها، إلاّ الكافر الشقي.. ثم فسَّره تعالى بقوله ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي كذَّب الرسل وأعرض عن الإيمان ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ أي وسيُبعَد عن النار التَّقِيُّ النَّقِيُّ، المبالغ في اجتناب الشرك والمعاصي.. ثم فسَّره تعالى بقوله ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ أي الذي ينفق ماله في وجوه الخير ليزكي نفسه ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ أي وليس لأحدٍ عنده نعمة حتى يكافئه عليها،

---

(١) (ش): طَالِح: شِرِّير، فاسد، خلاف صالح.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٤٦.

وإنما ينفق لوجه الله قال المفسرون: نزلت الآيات في حقِّ «أبي بكر الصديق» حين اشترى بلالًا وأعتقه في سبيل الله فقال المشركون: إنما فعل ذلك ليد كانت له عنده فنزلت ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1] قَالَ أي ليس له غاية إلا مرضاة الله ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أي ولسوف يعطيه الله في الآخرة ما يرضيه وهو وعدٌ كريم من رب رحيم.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين لفظة ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ و ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ وبين ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ و ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾.

٢ - المقابلة اللطيفة ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ وبين ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ الآيات.

٣ - جناس الاشتقاق ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ لأن اليسرى من التيسير فبينهما مجانسة.

٤ - حذف المفعول للتعميم ليذهب ذهن السامع كل مذهب ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ..﴾ الآيات.

٥ - السجع الرصين غير المتكلف كقوله ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى.. وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ إلخ.

كان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه يقول: أعتق سيدُنا سيدَنا يريد أعتق سيدنا أبو بكر سيدنا بلالًا، فما أروع هذه النفوس! اللهم ارزقنا محبة أصحاب الرسول جميعًا[2].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الليل»



(١) مُحَقِّقُهُ: انظر التعليق التالي.

(٢) (ش): عَنْ جَابِرِ بْن عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ عُمَرُ يَقُولُ: «أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا». يَعْنِي بِلَالاً. (رواه البخاري).



مكية وآياتها إحدى عشرة

بين يدي السورة

* سورة الضحى مكية، وهي تتناول شخصية النبي الأعظم ﷺ، وما حباه الله به من الفضل والإنعام في الدنيا والآخرة[1]، ليشكر الله على تلك النعم الجليلة.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على جلالة قدر الرسول ﷺ وأن ربه لم يهجره ولم يبغضه كما زعم المشركون، بل هو عند الله رفيع القدر، عظيم الشأن والمكانة ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾.

* ثم بشرته بالعطاء الجزيل في الآخرة، وما أداه الله تعالى لرسوله من أنواع الكرامات، ومنها الشفاعة العظمى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.

* ثم ذكرته بما كان عليه في الصغر، من اليتيم، والفقر، والفاقة، والضياع، فآواه ربه وأغناه وأحاطه بكلئه وعنايته ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.

* وختمت السورة بتوصيته ﷺ بوصايا ثلاث، مقابل تلك النعم الثلاث، ليعطف على اليتيم ويرحم المحتاج، ويمسح دمعة البائس المسكين ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ وهو ختم يتناسق فيه جمال اللفظ مع روعة البيان.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ

اللغة: ﴿سَجَىٰ﴾ سجى الليلُ: اشتد ظلامه ﴿قَلَىٰ﴾ أبغض قال الراغب: القَلْيُ: شدةُ البُغض، يقال: قلاه ويقليه أي أبغضه[2] ﴿فَآوَىٰ﴾ ضمَّه إلى من يرعاه ﴿عَائِلًا﴾ فقيرًا معدمًا وهو من اشتد به الفقر قال جرير:

اللهُ نَـزَّلَ فِي الْكِتَـابِ فَرِيضَـةً ... لِابْنِ السَّبِيلِ وَلِلْفَقِيرِ الْعَائِلِ[3]

---

(١) (ش): يقال: حباه اللهُ الخيرَ: أي أعطاه بلا جزاء.

(٢) «مفردات القرآن» للراغب الأصفهاني.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٤٨٦.

﴿نَقْهَرْ﴾ تذلّه وتحْقِره ﴿تَنْهَرْ﴾ تزْجُره وتُغلِظ عليه في الكلام.

سَـبَبُ النّزول: اشـتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا فجاءت امرأةٌ وهي أم جميل امرأة أبي لهب فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شـيطانك قد تركك! لم أره قربك ليلتين أو ثلاثًا فأنزل اله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [١].

التفسِـير: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أقسـم تعالى بوقت الضحى وهو صدر النهار حين ترتفع الشـمسُ، وأقسـم بالليل إذا اشـتد ظلامه، وغطَّى كل شـيء في الوجود قال ابن عباس: ﴿سَجَىٰ﴾ أقبل بظلامه[٢] قال ابن كثير: هذا قسـمٌ منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء، وبالليل إذا سكن فأظلم وادْلَهمَّ[٣]، وذلك دليلٌ ظاهر على قدرته تعالى[٤] ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ أي مـا تـركك ربك يا محمد منذ اختـارك، ولا أبغضك منذ أحبك، وهذا ردٌّ على المشـركين حين قالوا: هجره ربه، وهو جواب القسم ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ أي وللدارُ الآخرة خيرٌ لـك يا محمد من هـذه الحياة الدنيا، لأن الآخـرة باقية، والدنيا فانية، ولهذا كان عليه السـلام يقول: «اللَّهُمَّ لاَ عَيْش إلاَّ عَيْشُ الآخِرَهْ»[٥] ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ أي سـوف يعطيك ربـك في الآخرة من الثواب، والكرامة، والشـفاعة، وغير ذلك إلـى أن ترضى قال ابن عباس: هـي الشـفاعة في أُمته حتى يرضى، لمـا روي أن النبي ﷺ ذكـر أمته فقَالَ: اللَّهُـمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي. وَبَكَى فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ فَسَـلْهُ مَا يُبْكِيكَ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ - فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ. وَهُوَ أَعْلَمُ. فَقَالَ: اللهُ يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ إِنَّا سَـ نُرْضِيكَ فِى أُمَّتِكَ وَلاَ نَسُـوءُكَ»[٦]، وفي الحديث « لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْـتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ وَإِنِّى اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِى شَـفَاعَةً لأُمَّتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[٧] الحديث

---

(١) الحديث في الصحيحين بدون ذكر اسم المرأة. (ش): وقد ورد ذِكرُ اسم المرأة في حديث ضعيف رواه الحاكم عن زيد بن أرقم -رضي الله عنه-؛ قال: لما نزلت: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾ [المسد:٤ - ٥]؛ قال: فقيل لامرأة أبي لهب: إن محمدًا قد هجاك؛ فأتت رسول الله ﷺ وهو جالس في الملأ، فقالت: يا محمد! على ما تهجوني؟ قال: فقال: «والله ما هجوتك، ما هجاك إلا الله»، قال: فقالت: هل رأيتني أحمل حطبًا أو رأيت في جيدي حبلًا من مسد، ثم انطلقت فمكث رسول الله ﷺ أيامًا لا ينزل عليه؛ فأتته فقالت: يا محمد! ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٨٥٢.

(٣) (ش): ادلهمَّ اللَّيلُ/ ادلهمَّ الظَّلامُ: كَثُف واسْوَدَّ، اشتدّ سوادُه.

(٤) أخرجه مسلم.

(٥) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٦) أخرجه مسلم.

(٧) أخرجه الشيخان.

قال الخازن: والأولى حملُ الآية على ظاهرها ليشمل خيري الدنيا والآخرة معًا، فقد أعطاه الله تعالى في الدنيا النصر والظفر على الأعداء، وكثرة الأتباع والفتوح، وأعلى دينه، وجعل أمته خير الأمم، وأعطاه في الآخرة الشفاعة العامة، والمقام المحمود، وغير ذلك من خيري الدنيا والآخرة[١].. ثم لما وعده بهذا الوعد الجليل، ذكَّره بنعمه عليه في حال صغره ليشكر ربه فقال ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ أي ألم تكنْ يا محمد يتيمًا في صغرك، فآواك الله إلى عمك أبي طالب وضمَّك إليه؟ قال ابن كثير: وذلك أن أباه توفي وهو حملٌ في بطن أمه، ثم توفيت أُمه وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده «عبد المطلب» إلى أن تُوفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه «أبو طالب» ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره حتى ابتعثه الله على رأس الأربعين وأبو طالب على عبادة الأوثان مثل قومه ومع ذلك كان يدفع الأذى عن رسول الله ﷺ، وكلُّ هذا من حفظ الله له، وكلاءته وعنايته به[٢] ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ أي ووجدك تائهًا عن معرفة الشريعة والدين فهداك إليها كقوله تعالى ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] قال الإمام الجلال: أي وجدك ضالًّا عما أنت عليه الآن من الشريعة فهداك إليها[٣]، وقيل: ضلَّ في بعض شعاب مكة وهو صغير فردَّه الله إلى جده[٤] قال أبو حيان: لا يمكن حَمْله على الضلال الذي يقابله الهدى، لأن الأنبياء معصومون من ذلك قال ابن عباس: هو ضلاله وهو في صغره في شعاب مكة، وقيل: ضلَّ وهو مع عمه طريق الشام[٥] ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ أي ووجدك فقيرًا محتاجًا فأغناك عن الخلق، بما يسَّر لك من أسباب التجارة.. ولمَّا عدَّد عليه هذه النعم الثلاث، وصَّاه بثلاث وصايا مقابله فقال ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي فأما اليتيم فلا تحتقره ولا تغلبه على ماله قال مجاهد: أي لا تحتقره وقال سفيان: لا تظلمه بتضييع ماله، والمراد كن لليتيم كالأب الرحيم، فقد كنت يتيمًا فآواك الله ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي وأمَّا السائل المُستَجْدِي[٦] الذي يَسأل عن حاجةٍ وفقرٍ، فلا تزجُرْه إذا سألك ولا تُغلِظ له القول بل أعْطِه أو رُدَّه ردًّا جميلًا قال قتادة: ردَّ المسكين برفقٍ ولين ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي حدِّث الناس بفضل الله وإنعامه عليك، فإن التحدث بالنعمة شكر لها قال الألوسي: كنت يتيمًا وضالًّا وعائلًا، فآواك الله وهداك وأغناك، فلا تنس نعمة الله عليك في هذه الثلاث، فتعطَّفْ على اليتيم، وترحَّمْ على السائق، فقد ذُقْتَ اليُتْم والفقر، وأَرْشِد العباد

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٥٨.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٥٠.

(٣) «تفسير الجلالين» ٤/ ٣٣٠.

(٤) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٦٠.

(٥) «البحر المحيط» في التفسير ٨/ ٤٨١.

(٦) (ش): المُستَجْدِي: مَن يستَجْدي الناسَ، أي يطلب منهم العَطِيّة مُستَرحِمًا مُتوسِّلاً.

إلى طريق الرشاد، كما هداك ربُّك[١].

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ و ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ لأن المراد بالأولى الدنيا وهي تطابق الآخرة.

٢ - المقابلة اللطيفة ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ .. وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ قابلها بقوله ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ وهي من لطائف علم البديع.

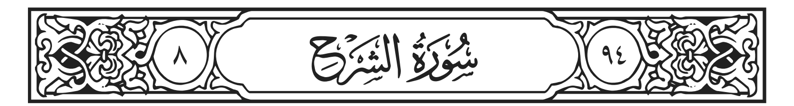
٣ - الجناس الناقص بين ﴿تَقْهَرْ﴾ و ﴿تَنْهَرْ﴾ لتغير الحرف الثاني من الكلمتين.

٤ - السجع المرصَّع كأنه الدر المنظوم في عقد كريم ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ إلخ.

«تم بحمده تعالى تفسير سورة الضحى»



(١) «تفسير الألوسي» ٣٠/ ١٦٤.



مكية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

* سورة الانشراح مكية، وهي تتحدث عن مكانة الرسول الجلية، ومقامه الرفيع عند الله تعالى، وقد تناولت الحديث عن نعم الله العديدة على عبده ورسوله محمد ﷺ، وذلك بشرح صدره بالإيمان، وتنوير قلبه بالحكمة والعرفان، وتطهيره من الذنوب والأوزار، وكل ذلك بقصد التسلية لرسول الله عليه السلام عما يلقاه من أذى الفجار، وتطييب خاطره الشريف بما منحه الله من الأنوار ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾.

* ثم تحدثت عن إعلاء منزلة الرسول، ورفع مقامه في الدنيا والآخرة، وقرن اسمه ﷺ باسم الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

* وتناولت السورة دعوة الرسول ﷺ وهو بمكة يقاسي مع المؤمنين الشدائد والأهوال من الكفرة المكذبين، فآنسه بقرب الفرج وقرب النصر على الأعداء ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

* وختمت بالتذكير للمصطفى ﷺ بواجب التفرغ لعبادة الله، بعد انتهائه من تبليغ الرسالة، شكرًا لله على ما أولاه من النعم الجلية ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾

التفسير: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ استفهامٌ بمعنى التقرير، أي: قد شرحنا لك صدرك يا محمد بالهدى والإيمان، ونور القرآن كقوله تعالى ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] قال ابن كثير: أي نورناه وجعلناه فسيحًا، رحيبًا، واسعًا، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحًا، سمحًا، سهلًا، لا حرج فيه ولا إصرٌ ولا ضيق[1] وقال أبو حيان: شرحُ الصدر تنْويرُه بالحكمة، وتوسيعه لتَلَقِّي ما يُوحَى إليه وهو قول الجمهور، وقيل: هو شَقُّ جبريل لصدره في صغره وهو مرويٌّ عن ابن عباس[2] ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أي حططْنا

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٢٥٦.

(٢) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٤٨٧، والرواية التي أشار إليها ذكرت في صحيح مسلم، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ =

عنك حملك الثقيل ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي الذي أثقل وأوهن ظهرك قال المفسرون: المراد بالوزر الأمور التي فعلها ﷺ، ووَضْعُها عنه هو غفرانها له كقوله تعالى ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وليس المراد بالذنوب المعاصي والآثام، فإن الرسل معصومون من مقارفة الجرائم، ولكن ما فعله عليه السلام عن اجتهاد وعوتب عليه، كإذنه ﷺ للمنافقين في التخلف عن الجهاد حين اعتذروا، وأخذه الفداء من أسرى بدر، وعبسه في وجه الأعمى ونحو ذلك، قال في التسهيل: وإنما وصفت ذنوب الأنبياء بالثقل، وهي صغائر مغفورة لهم، لهمِّهم بها وتحسرهم عليها؛ فهي ثقيلة عندهم لشدة خوفهم من الله وهذا كما ورد في الأثر: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا»[1] والنقيضُ هو الصوتُ الذي يسمع من المَحْمَل فوق ظهر البعير من شدة الحمل ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أي رفعنا شأنك، وأعلينا مقامك في الدنيا والآخرة، وجعلنا اسمك مقرونًا باسمي قال مجاهد: لا أُذكَر إلا ذُكِرْتَ معي وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب، ولا مُتَشهّد، ولا صاحب صلاة إلا ينادي: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وفي الحديث «أتاني جبريل فقال لي يا محمد: إن ربك يقول: أتدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت: الله تعالى أعلم، قال: إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معي»[2]

قال في البحر: قرن الله ذكر الرسول بذكره جل وعلا في كلمة الشهادة، والأذان والإقامة، والتشهد، والخطب، وفي غير موضع من القرآن، وأخذ على الأنبياء وأممهم أن يؤمنوا به[3]

= عَلَقَةً فَقَالَ: «هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ». ثُمَّ غَسَلَهُ فِى طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ لأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِى مَكَانِهِ وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ - يَعْنِى ظِئْرَهُ المُرضِعة - فَقَالُوا: «إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ». فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ. قَالَ أَنَسٌ: وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِى صَدْرِهِ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). (ش): العَلَقَة: الدَّمُ الغَلِيظُ المُنعَقِد. (الطَّسْتُ): الطَّسْتُ: إِنَاءٌ مَعْرُوفٌ: إناء كبير مستدير من نُحاس أو نحوه يُستعمل للغسيل. (لأَمَهُ): جَمَعَهُ وَضَمَّ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ. (ظِئْرَهُ) وَهِيَ الْمُرْضِعَةُ غَيْرَ وَلَدِهَا، وَيُقَالُ أَيْضًا لِزَوْجِ الْمُرْضِعَةِ: ظِئْرٌ. (مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ) أَيْ مُتَغَيِّرُ اللَّوْنِ. (الْمِخْيَطِ) الْإِبْرَةُ.

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٢٠٦. (ش): رواه البخاري من كلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. (إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ) السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ مُنَوَّرٌ فَإِذَا رَأَى مِنْ نَفْسِهِ مَا يُخَالِفُ مَا يُنَوَّرُ بِهِ قَلْبَهُ عَظُمَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ وَالْحِكْمَةُ فِي التَّمْثِيلِ بِالْجَبَلِ أَنَّ غَيْرَهُ مِنَ الْمُهْلِكَاتِ قَدْ يَحْصُلُ التَّسَبُّبُ إِلَى النَّجَاةِ مِنْهُ بِخِلَافِ الْجَبَلِ إِذَا سَقَطَ عَلَى الشَّخْصِ لَا يَنْجُو مِنْهُ عَادَةً وَحَاصِلُهُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْخَوْفُ لِقُوَّةِ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْإِيمَانِ فَلَا يَأْمَنُ الْعُقُوبَةَ بِسَبَبِهَا وَهَذَا شَأْنُ الْمُسْلِمِ أَنَّهُ دَائِمُ الْخَوْفِ وَالْمُرَاقَبَةِ يَسْتَصْغِرُ عَمَلَهُ الصَّالح ويخشى من صَغِير عمله السيئ (وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ) أَيْ ذَنْبُهُ سَهْلٌ عِنْدَهُ لَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ بِسَبَبِهِ كَبِيرُ ضَرَرٍ كَمَا أَنَّ ضَرَرَ الذُّبَابِ عِنْدَهُ سَهْلٌ وَكَذَا دَفْعُهُ عَنْهُ. (فَقَالَ بِهِ هَكَذَا) أَيْ نَحَّاهُ بِيَدِهِ أَوْ دَفَعَهُ هُوَ مِنْ إِطْلَاقِ الْقَوْلِ عَلَى الْفِعْلِ. [فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٠٥)].

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٥٢. (ش): رواه ابن حبان، وابْنُ جَرِيرٍ الطبري وابْنُ أَبِي حَاتِمٍ في «تفسيريهما» وضعفه الألباني.

(٣) «تفسير البحر المحيط» ٨/ ٤٨٨.

كما قال حسان بن ثابت:

وَضَـمَّ الْإِلَـهُ اسْـمَ النَّبِيِّ إِلَـى اسْمِهِ ... إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ
وَشَـقَّ لَـهُ مِـنِ اسْـمِـهِ لِيُـجِلَّـهُ ... فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ[١]

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ أي بعد الضيق يأتي الفرج، وبعد الشـدة يكون المخرج قال المفسـرون: كان رسـول الله ﷺ كما عدَّد عليه النعم في أول السـورة تسلية وتأنيسًا له، لتطيب نفسه ويقوى رجـاؤه، وكأن الله تعالـى يقول: إنَّ الـذي أنعم عليك بهـذه النعم الجليلة، سـينصُرك عليهم، ويُظهِر أمرك، ويبدِّل لك هذا العُسـر بيُسرٍ قريب، ولذلك كرره مبالغةً فقال: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ أي سيأتي الفرج بعد الضيق، واليسر بعد العسر فلا تحزن ولا تضجر وفي الحديث «لَنْ يَغْلِبَ عُسْـرٌ يُسْـرَيْنِ»[٢] ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ﴾ أي فـإذا فرغت يـا محمد من دعوة الخلـق، فاجتهد في عبـادة الخالق، وإذا انتهيت من أمور الدنيا، فأتعِبْ نفسـك في طلب الآخرة ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ أي اجعل همَّك ورغبتك فيما عند الله، لا في هذه الدنيا الفانية قال ابن كثير: المعنى إذا فرغْتَ من أمور الدنيا وأشـغالها، وقطعْتَ علائقها، فانصَبْ إلى العبادة، وقم إليها نشيطًا فارغ البال، وأخلِصْ لربِّك النيةَ والرغبة[٣].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستفهام التقريري للامتنان والتذكير بنعم الرحمن ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ..﴾ إلخ.

٢ - الاسـتعارة التمثيليـة ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾ شـبَّه الذنوب بحمل ثقيل يرهق كاهل الإنسان ويعجز عن حمله بطريق الاستعارة التمثيلية.

٣ - التنكير للتفخيم والتعظيم ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ نكر اليسر للتعظيم كأنه قال يسرًا كبيرًا.

٤ - الجناس الناقص بين لفظ ﴿يُسۡرًا﴾ و ﴿ٱلۡعُسۡرِ﴾.

٥ - تكريـر الجملة لتقرير معناها في النفوس وتمكينها في القلوب ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ ويسمى هذا بالإطناب.

٦ - السـجع المرصَّع مراعاة لرءوس الآيـات ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ﴾ ومثلها ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشرح»

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٥٢.

(٢) أخرجه الحاكم والبيهقي. (ش): ضعفه الذهبي والألباني.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٥٣



مكية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

* سورة التين مكية، وهي تعالج موضوعين بارزين هما:

الأول: تكريم الله جل وعلا للنوع البشري.

الثاني: موضوع الإيمان بالحساب والجزاء.

* ابتدأت السورة بالقسم بالبقاع المقدسة والأماكن المشرفة، التي خصها الله تعالى بإنزال الوحي فيها على أنبيائه ورسله، وهي «بيت المقدس» و «جبل الطور» و «مكة المكرمة» على أن الله تعالى كرم الإنسان، فخلقه في أجمل صورة، وأبدع شكل، وإذا لم يشكر نعمة ربه فسيرد إلى أسفل دركات الجحيم ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾.

* ووبخت الكافر على إنكاره للبعث والنشور، بعد تلك الدلائل الباهرة التي تدل على قدرة رب العالمين، في خلقه للإنسان في أحسن شكل، وأجمل صورة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

* وختمت ببيان عدل الله بإثابة المؤمنين، وعقاب الكافرين ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾؟ وفيها تقرير للجزاء، وإثبات للمعاد.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ

اللغة: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هو جبل الطور الذي كلم الله عليه موسى ومعنى ﴿سِينِينَ﴾ المبارك ﴿تَقْوِيمٍ﴾ تعديل يقال: قوَّم العودَ أي عدَّله وجعله مستقيمًا، وقوَّمه الدهرُ جعله متزنًا حصيف الرأي والعقل[1] ﴿مَمْنُونٍ﴾ مقطوع ﴿بِالدِّينِ﴾ الجزاء مأخوذ من دان بمعنى جازى، ومنه الحديث الشريف «كَمَا تَدِينُ تُدانُ»[2] أي كما تفعل تُجازَى.

التفسير: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ هذا قسمٌ أي أُقسمُ بالتين والزيتون لبركَتِهما وعظيم منفعتِهما[3].

---

(١) (ش): حَصيف: ذكيّ حكيم. رأيٌ حصيف: رأيٌ مُحكَمٌ لا خلَل فيه.

(٢) (ش): رواه البيهقي وغيره، وضعفه الألباني.

(٣) (ش): تقدم كثيرًا أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأَن الْمَخْلُوق لاَ يُقْسِمَ إِلاَّ بِالْخَالِقِ.

قال ابن عباس: هو تِينُكم الذي تأكلون، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت[١] وقال عكرمة: أقسم الله تعالى بمنابت التين والزيتون، فإن التين ينبتُ كثيرًا بدمشق، والزيتون ببيت المقدس[٢].. وهو الأظهر، ويدل عليه أن الله تعالى عطَف عليه الأماكن «جبل الطور» و «البلد الأمين» فيكون قسَمًا بالبقاع المقدسة التي شرَّفها الله تعالى بالوحي والرسالات السماوية ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ أي وأُقسم بالجبل المبارك الذي كلَّم الله عليه موسى وهو «طور سيناء» ذو الشجر الكثير، الحسن المبارك قال الخازن: سمي «سينين» و «سيناء» لحسنه ولكونه مباركًا، وكلُّ جبلٍ فيه أشجارٌ مثمرة يسمى سينين وسيناء[٣] ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ أي وأقسم بالبلد الأمين «مكة المكرمة» التي يأمن فيها من دخلها على نفسه وماله كقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] ! قال الألوسي: هذه أقْسامٌ[٤] ببقاع مباركة شريفة على ما ذهب إليه الكثيرون، فأما البلد الأمين فمكة المكرمة حماها الله بلا خوف، وأما طور سينين فالجبل الذي كلم الله تعالى موسى عليه، ويقال له: طور سيناء، وأما التين والزيتون فروي عن قتادة أن المراد بهما جبلان: أحدهما بدمشق، والثاني ببيت المقدس، وعنى بالتين والزيتون منبتيهما، وقيل: المراد بهما الشجران المعروفان وهو قول ابن عباس ومجاهد، والغرض من القسم بتلك الأشياء الإبانة عن شرف البقاع المباركة، وما ظهر فيها من الخير والبركة ببعثة الأنبياء والمرسلين[٥] وقال ابن كثير: ذهب بعض الأئمة إلى أن هذه محال ثلاث، بعث الله في كلٍ منها نبيًا مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار فالأول: محلة التين والزيتون وهيَ «بيت المقدس» التي بعث الله فيها عيسى عليه السلام. والثاني: طور سينين وهو «طور سيناء» الذي كلَّم الله عليه موسى بن عمران. والثالث: البلد الأمين الذي من دخله كان آمنًا، وهو الذي أرسل الله فيه محمدًا ﷺ، وقد ذكر في آخر التوراة هذه الأماكن الثلاثة «جاء اللهُ من طور سيناء الجبل الذي كلم الله عليه موسى وأشرق من ساعير يعني جبل المقدس الذي بعث الله منه عيسى واستعلن من جبال فاران يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمدًا ﷺ » فذكرهم بحسب ترتيبهم بالزمان، وأقسم بالأشرف ثم الأشرف منه، ثم بالأشرف منهما[٦]، وجواب القسم هو قوله ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي خلقنا جنس الإنسان في أحسن شكل، متصفًا بأجمل وأكمل الصفات، من حُسْن الصورة،

---

(١) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١١٠.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٤٨٩.

(٣) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٦٦.

(٤) (ش): أقْسامٌ: جمع قَسَم.

(٥) «روح المعاني» ٣٠/ ١٧٣ بشيء من الإيجاز.

(٦) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٥٤.

وانتصاب القامة، وتناسب الأعضاء، مُزَيَّنًا بالعلم والفهم، والعقل والتمييز، والنطق والأدب، قال مجاهد: ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أحسن صورة، وأبدع خلق[١] ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي ثم أنزلنا درجته إلى أسفل سافلين، لعدم قيامه بموجب ما خلقناه عليه، حين لم يشكر نِعمةَ خلْقِنا له في أحسن صورة، ولم يستعمِل ما خصصناه به من المزايا في طاعتنا، فلذلك سنرده إلى أسفل سافلين وهي جهنم قال مجاهد والحسن: ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أسفل دركات النار وقال الضحاك: أي رددناه إلى أرذل العمر، وهو الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة[٢] قال الألوسي: والمتبادرُ من السياقِ الإشارة إلى حالة الكافر يوم القيامة، وأنه يكون على أقبح صورة وأبشعها، بعد أن كان على أحسن صورة وأبدعها[٣] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي إلا المؤمنين المتقين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح[٤] ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي فلهم ثواب دائم غير مقطوع عنهم، وهو الجنة دار المتقين ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ الخطاب للإنسان على طريقة الالتفات أي فما سبب تكذيبك أيها الانسان، بعد هذا البيان وبعد وضوح الدلائل والبراهين؟ فإن خلق الإنسان من نطفة، وإيجاده في أجمل شكل وأبدع صورة، من أوضح الدلائل على قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ على البعث والجزاء، فما الذي يدعوك إلى التكذيب بيوم الدين بعد هذه البراهين؟ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي أليس الله الذي خلق وأبدع، بأعدل العادلين حكمًا وقضاءً وفصلًا بين العباد؟ وفي الحديث «أن النبي ﷺ كان إذا قرأها قال: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين». ويُرْوَى عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «مَنْ قَرَأَ مِنْكُمْ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فَانْتَهَى إِلَى آخِرِهَا ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فَلْيَقُلْ بَلَى وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ»[٥].

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - المجاز العقلي بإطلاق الحَالّ وإرادة المحلّ[٦].

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ أراد موضِعهما الشام وبيت المقدس على القول الراجح.

٢ - الطباق بين ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وبين ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾.

---

(١) «تفسير الطبري» ٣٠/ ١٥٦.

(٢) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١١٥. (ش): قد استَثْنَت الآياتُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات من أن يُرَدُّوا أَسْفَلَ سَافِلِينَ، ومِنهم مَن يصيبه الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة.

(٣) «تفسير الطبري» ٣٠/ ١٧٦.

(٤) (ش): هذا التعبير يعطي أن الإيمان غير العمل، وهذا خلاف مذهب أهل السنة والجماعة من أن العمل داخلٌ في مسمَّى الإيمان بحيث لا يتحقق الإيمان بدونه، وعطْف العمل على الإيمان عندهم من عطف الخاص على العام اهتمامًا به، كما قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

(٥) (ش): المحلّ: المكان، والحالّ: الموجود بالمكان.

(٦) رواه أبو داود والترمذي، وضعفه الألباني.

٣ – جناس الاشتقاق ﴿بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.
٤ – الالتفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والعتاب ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾؟
٥ – الاستفهام التقريري ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾؟
٦ – السجع المرصَّع ﴿ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ.. أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ .. بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ والله أعلم.

لطيفَة: ذكر الإمام القرطبي: أن «عيسى الهاشمي» كان يحب زوجته حبا شديدًا، فقال لها يومًا: أنت طالقٌ ثلاثًا إن لم تكوني أحسن من القمر! فاحتجبت عنه وقالت: طلقتني، فحزن حزنًا شديدًا وذهب إلى الخليفة «المنصور» وأخبره الخبر، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طُلِّقت، إلا رجلًا واحدًا من أصحاب أبي حنيفة فقد بقي ساكتًا فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم؟ فقال له الرجل يا أمير المؤمنين: يقول الله تعالى ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ فليس شيء أحسن من الإنسان، فقال: صدقت، ورَدَّها إلى زوجها.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التين»





مكية وآياتها تسع عشرة

بين يدي السورة

* سورة العلق وتسمى «سورة اقرأ» مكية، وهي تعالج القضايا الآتية:

أولًا: موضوع بدء نزول الوحي على خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

ثانيًا: موضوع طغيان الإنسان بالمال وتمرده على أوامر الله.

ثالثًا: قصة الشقي «أبي جهل» ونهيه الرسول ﷺ عن الصلاة[(١)].

* ابتدأت السورة ببيان فضل الله على رسوله الكريم ﷺ بإنزاله هذا القرآن «المعجزة الخالدة» وتذكيره بأول النعماء[(٢)] وهو يتعبد ربه بغار حراء، حيث تنزَّل عليه الوحي بآيات الذكر الحكيم ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾.

* ثم تحدثت عن طغيان الإنسان في هذه الحياة بالقوة والثراء، وتمرده على أوامر الله بسبب نعمة الغنى، وكان الواجب عليه أن يشكر ربه على إفضاله[(٣)]، لا أن يجحد النعماء، وذكرته بالعودة إلى ربه لينال الجزاء ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾.

* ثم تناولت قصة «أبي جهل» فرعون هذه الأمة، الذي كان يتوعد الرسول ويتهدده، وينهاه عن الصلاة، انتصارًا للأوثان والأصنام ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ﴿٩﴾ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ الآيات.

* وختمت السورة بوعيد ذلك الشقي الكافر، بأشد العقاب إذا استمر على ضلاله وطغيانه، كما أمرت الرسول الكريم ﷺ بعدم الإصغاء إلى وعيد ذلك المجرم الأثيم ﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ إلى ختام السورة ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾.

* وقد بدأت السورة بالدعوة إلى القراءة والتعلم، وختمت بالصلاة والعبادة، ليقترن العلم بالعمل، ويتناسق البدء مع الختام.

---

(١) (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضى الله عنهما- قَالَ: «مَرَّ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: أَلَمْ أَنْهَكَ، أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا؟ فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَانْتَهَرَهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: «لِمَ تَنْتَهِرُنِي يَا مُحَمَّدُ؟ فَوَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا بِهَا رَجُلٌ أَكْثَرُ نَادِيًا مِنِّي»، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فَوَاللهِ لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لَأَخَذَتْهُ زَبَانِيَةُ اللهِ». (صحيح، رواه أحمد والترمذي).

انْتَهَرَهُ: زجره بعُنف وأغضبه.

(٢) النَّعْماء: النعمة.

(٣) (ش): الإفضال: الإنعام.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ﴿٩﴾ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴿١٦﴾ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب

اللغَة: ﴿عَلَقٍ﴾ جمع عَلَقة وهي الدَّمُ الجامد، سُمِّيت علقة لأنها تَعْلَق بالرحم [١] ﴿لَنَسۡفَعَۢا﴾ السَّفع: الجذب بشدة وقوة قال أهل اللغة: سفعت بالشيء إذا قبضتُ عليه وجذبته جذبًا شديدًا، وسفع بناصية فرسه جذبها قال الشاعر:

قَـوْمٌ إِذَا كَثُرَ الصِّيَاحُ رَأَيْتَهُمْ ... مِنْ بَيْنِ مُلْجِمِ مُهْرِهِ أَوْ سَافِعِ [٢]

﴿بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ شَعر مُقَدَّم الرأس ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ مأخوذ من الزَّبن وهو الدفع، والمراد بهم ملائكة العذاب، الغلاظ الشداد، والعرب يطلقون هذا الاسم على من اشتد بطشه قال الشاعر:

مَطَاعِيمُ فِي الْقُصْوَى
مَطَاعِينُ فِي الْوَغَى ... زَبَانِيَةٌ غُلْبٌ عِظَامٌ حُلُومُهَا [٣]

رُوِي «أن أبا جهل قال لأصحابه يومًا: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟- يريد هل يصلي ويسجد أمامكم- قالوا: نعم، فقال: وَاللاَّتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ أَوْ لأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، فجاء يومًا فوجد رسول الله ﷺ يصلي، فأقبل يريد أن يطأ على رقبته، فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ وَهُوَ يَنْكِصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لاَخْتَطَفَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا». فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿أَرَأَيْتَ الذي ينهى عَبْدًا إِذَا صلى﴾ إلى آخر السورة» [٤].

---

(١) (ش): علق: تعلَّق. يقال: علِق الشَّوكُ بثوبه.

(٢) «البحر المحيط» ٨/ ٤٩١. (ش): لجَم/ ألجم الفرسَ: ألبسه اللِّجام. وضَع في فمها حديدةً لقيادتها. المُهْر: ولد الفرس. والسافع: المُمْسك برأس فرسه ليركبه بسرعة من غير لجام.

(٣) «روح المعاني» ٣٠/ ١٨٨. (ش): مَطَاعِيمُ: جمع مِطعام: كثير الإطعام، كثير الأضياف. القُصْوَى: الغايَةُ البعيدةُ، غاية ما يمكن بلوغه من الشَّيء. مَطاعين: جَمْعُ مِطْعانٍ: كَثِير الطَّعْن. غُلْب: جمع أغْلَب وهو الغليظ الرقبة. والعرب تصف السادة بغلظ الرقبة وطولها. والحُلوم: جمع الحِلم وهو العقْل.

(٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة، وانظر «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٥٨، والخازن ٤/ ٢٧٠. (ش): وروى البخاري بعضه.

(هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ) أَيْ يَسْجُدُ وَيُلْصِقُ وَجْهَهُ بِالْعَفَرِ وَهُوَ التُّرَابُ. (فَجِئَهُمْ) فجَأَهُم، أي إن ذلك حدث في وقت لم يتوقَّعوه فيه. (يَنْكِصُ): يَرجعُ عَلَى عَقِبَيْهِ، يَمْشِي عَلَى وَرَائِهِ. (الهَوْل): فَزَع ورهبة. والجمع أهوال.

التفسير: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ هـذا أول خطـاب إلهي إلـى النبي ﷺ وفيـه دعوةٌ إلى القراءة والكتابة والعلم، لأنه شـعار دين الإسـلام، أي: اقرأ يا محمد القرآن مُبتدِئًا ومسـتعينًا باسـم ربك الجليل، الذي خلـق المخلوقات، وأوْجَد جميع العوالم، ثم فسَّـر الخلق تفخيمًا لشـأن الإنسـان فقـال ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أي خلق هـذا الإنسـان البديع الشـكل، الذي هو أشـرف المخلوقـات من العلقة – وهـي الدودة الصغيـرة [١]– وقد أثبت الطـبُّ الحديث أن المنيّ الذي خلق منه الإنسـان مُحتوٍ على حيواناتٍ وديدان صغيرة لا تُرى بالعين، وإنما ترى بالمجهـر الدقيـق (الميكرسـكوب) وأن لها رأسًـا وذنبًا، فتبـارك الله أحسـن الخالقين[٢] قال القرطبي: خصَّ الإنسـان بالذكر تشـريفًا لـه، والعلقةُ قطعة من دم رَطْب، سُـميت بذلك لأنها تَعْلق لرطوبتها بما تمرُّ عليه[٣] ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ أي اقرأ يا محمد وربك العظيم الكريم، الذي لا يسـاويه ولا يدانيـه كريـم، وقد دلَّ على كمـال كرمه أنه علَّم العباد ما لـم يعلموا ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أي الـذي علَّـم الخـطَّ والكتابة بالقلم، وعلَّم البشـر ما لم يكونوا يعرفونـه من العلـوم والمعارف، فنقلهم من ظلمـة الجهل إلى نور العلم، فكما علَّم سـبحانه بواسـطة الكتابة بالقلم، فإنه يعَلِّمك بلا واسـطة وإن كنت أميًّا لا تقرأ ولا تكتب قال القرطبي: نبَّـه تعالـى على فضل علـم الكتابة، لما فيه مـن المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إنسـان، وما دُوِّنَـت العلوم ولا قُيِّدَت الحِكَـم، ولا ضُبِطَت أخبارُ الأولين ومقالاتهم، ولا كتبُ الله المنزَّلة إلا بالكتابـة، ولولاها ما اسـتقامت أمور الدنيـا والدين[٤]. وهذه الآيـات الخمس هي أول ما تنـزَّل مـن القرآن، كما ثبـت في الصحاح أن النبي ﷺ نزل عليه الملك وهـو يتعبَّد بغار حِراء، فَقَـالَ: «اقْـرَأْ». فَقَالَ: «مَا أَنَا بِقَـارِئٍ»[٥].. إلخ. قال ابن كثير: أول شـيء نزل من القرآن هذه الآيـات المبـاركات، وهنَّ أول رحمةٍ رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم، وفيها

---

(١) (ش): أي خُلِقَ من شيء يُشبه الدودة الصغيرة، والعلَقة في اللغة: واحدة العلق، وتُطلق على الدم الغليظ والجامد، وعلى دودة في المياه الراكدة تعْلَق بالجسد فتمتص دمه، وعلى كل ما يعْلَق بغيره أو يُعَلَّق عليه، ويبدأُ طور العلقة بعد أربعين يومًا من بدءِ الحمل، كما جاءَ في الحديث الشريف الذي رواه البخاري ومسلم. وفي طور العلقة يصبح الجنين كالدودة العالقة بالرحم. وهذه العلقة جامدة في طبيعتها، لونها أحمر بسواد، تتعلق بجدار الرحم، تمتص منه غذاءها كما يمتص العَلَقُ من الدابة غذاءَه.فالعلق في لغة العرب على ثلاثة معانٍ: الدم، والشيء الذي يعْلَق بغيره، وما يقوم على غيره، وهذه المعاني غير متناقضة ويشملها كلها حال الجنين.

(٢) اقرأ كتاب «الطب محرابُ الإيمان» ٢/ ٥٣.

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١١٩.

(٤) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٢٠.

(٥) أخرج الشيخان عن عائشة قالت: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ – ﷺ – مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ، فَكَانَ يَأْتِي غَارَ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ – أَي يَتَعَبَّدُ– فِيهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ» الحديث.

التنبيه على ابتداء خلق الإِنسان من علقة، وأن من كرمه تعالى أنْ علَّم الإِنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرَّمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به «آدم» على الملائكة[١].. ثم أخبر تعالى عن سبب بَطَر الإنسان وطغيانه[٢] فقال ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ أي حقًا إِن الإِنسان ليتجاوز الحد في الطغيان، واتباع هوى النفس، ويستكبر على ربه عَزَّ وَجَلَّ ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ أي من أجل أن رأى نفسه غنيًّا، وأصبح ذا ثروة ومال أَشِر وبَطِرَ[٣]، ثم تَوَعَّده وتَهَدَّده بقوله ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ أي إنَّ إِلى ربك أيها الإنسانُ المرجع والمصير فيجازيك على أعمالك، وفي الآية تهديدٌ وتحذير لهذا الإِنسان من عاقبة الطغيان، ثم هو عام لكل طَاغٍ متكبر قال المفسرون: نزلت هذه الآيات إِلى آخر السورة في «أبي جهل»[٤] بعد نزول صدرِ السورة بمدة طويلة، وذلك أن أبا جهل كان يطغى بكثرة ماله، ويبالغ في عداوة الرسول ﷺ -والعبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب-[٥] ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ تعَجُّبٌ من حال ذلك الشقي الفاجر أي أَخْبِرني يا محمد عن ذلك المجرم الأثيم، الذي ينهى عبدًا من عباد الله عن الصلاة، ما أسخفَ عقله، وما أشنع فعله! قال أبو السعود: هذه الآية تقبيحٌ وتشنيعٌ لحال الطاغي وتعجيب منها، وإِيذان بأنها من الشناعة والغرابة بحيث يقضى منها العَجَب[٦]، وقد أجمع المفسرون على أن العبد المصلي هو محمد ﷺ، وأن الذي نهاه هو اللعين «أبو جهل» حيث قال: لئن رأيتُ محمدًا يصلي لأطأن على عنقه[٧] ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي أخبرني إن كان هذا العبد المصلي وهو النبي ﷺ الذي تنهاه عن الصلاة صالحًا مهتديًا، على الطريقة المستقيمة في قوله وفعله ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ أي أو كان آمرًا بالإِخلاص والتوحيد، داعيًا إِلى الهدى والرشاد، كيف تزجره وتنهاه[٨] فما أبْلَهك[٩] أيها الغَبِيُّ الذي تنهى من هذه أوصافه: عبدٌ لله مطيعٌ مُهتدٍ منيبٌ، داعٍ إِلى الهدى والرشاد؟ وما أعجب هذا! ثم عاد لخطاب الرسول ﷺ فقال ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي أخبرني يا محمد إِن كذَّب بالقرآن، وأعرض عن الإِيمان ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٥٦.
(٢) (ش): بطِرَ الشَّخصُ، بَطَرًا، فهو بَطِرٌ: طغَى وغالى في مَرحِه وزهْوِه واستخفافه، جاوز الحدَّ كِبْرًا. بطِر النِّعمةَ: استخفّها وكَفَرها ولم يَشْكُرها. بطِر الحقَّ ونحوَه: أنكره ولم يقبله تكبُّرًا وطُغيانًا.
(٣) (ش): أشِرَ الشخصُ، أَشَرًا، فهو أَشِرٌ: بطِر واستكبر ومرِح ونشِط.
(٤) (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ.
(٥) انظر «حاشية الصاوي» ٤/ ٣٣٦، و«تفسير القرطبي» ١٩/ ١٢٣.
(٦) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٧٤.
(٧) انظر سبب النزول المتقدم.
(٨) هذا هو الظاهر أن الذي هو على الهدى، أو أمر بالتقوى هو محمد ﷺ، وهو اختيار ابن عطية والجمهور، وذهب الزمخشري إلى أنها في الناهي، وهو ضعيف.
(٩) (ش): بلِهَ الشَّخصُ، بَلَهًا وبَلاهَةً، فهو أَبْلَه: ضَعُفَ عَقْلُه وغلبت عليه الغَفْلَةُ وقلَّ تمييزُه.

ألـم يعلم ذلك الشـقي أن الله مُطَّلع علـى أحواله، مُراقِب لأفعاله، وسـيجازيه عليها﴾ ويْلَه ما أجْهَلَـه وأغْبَـاه! ثم ردَعه وزجَره فقـال ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أي ليرتدع هذا الفاجـر «أبو جهل» عن غيـه وضلاله، فوالله لئـن لم ينته عن أذى الرسـول، ويكف عمَّا هو عليه مـن الكفر والضلال ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي لنأخذنه بناصيته مقدم شعر الرأس فلنجرنه إلى النار بعنفٍ وشدة ونقذفه فيهـا ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي صاحب هذه الناصية كاذبٌ، فاجـرٌ، كثير الذنوب والإجرام قال في التسـهيل: ووصفهـا بالكـذب والخطيئة مجازٌ، والـكاذب الخاطـىء في الحقيقة صاحبها، والخاطئ الذي يفعل الذنب متعمدًا، والمخطئ الذي يفعله بدون قصد[1] ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي فلْيَدْع أهلَ نادِيه[2] ولْيَسـتنْصِر بهم ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ أي سـندعو خَزَنة جهنم، الملائكة الغلاظ الشـداد، روي «أن أبا جهل مرَّ على النبي ﷺ وهو يصلي عند المقام فقال: ألم أنهك عن هذا يا محمد، فأغلظ له رسول الله ﷺ القول، فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني يا محمد؛ والله إني لأكثر أهل الوادي هذا ناديًا فأنزل الله ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ » قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب مِن ساعته[3]

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ أي ليرتـدع هـذا الفاجر، ولا تطعه يا محمد فيما دعاك إليه من ترك الصلاة ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ وأي وواظب على سجودك وصلاتك، وتقرَّب بذلك إلى ربك وفي الحديث « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ »[4].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ – الإطنـاب بتكرار الفعل ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ..﴾ ثم قـال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ لمزيد الاهتمام بشأن القراءة والعلم.

٢ – الجناس الناقص بين ﴿خَلَقَ﴾ و ﴿عَلَقٍ﴾.

٣ – طباق السلب ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

٤ – الكنايـة ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا﴾ كنَّـى بالعبـد عن رسـول الله ﷺ ولـم يقل: ينهاك تفخيمًا لشأنه وتعظيمًا لقدره.

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٢٠٩.

(٢) (ش): قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/ ٤٣٨): « ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أَيْ: قَوْمَهُ وَعَشِيرَتَهُ».

(٣) «تفسير القرطبي» ١٩/ ١٢٧. (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رضى الله عنهما– قَالَ: « مَرَّ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: أَلَمْ أَنْهَكَ، أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ –ﷺ– فَانْتَهَرَهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: «لِمَ تَنْتَهِرُنِي يَا مُحَمَّدُ؟ فَوَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا بِهَا رَجُلٌ أَكْثَرُ نَادِيًا مِنِّي»، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فَوَاللهِ لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لأَخَذَتْهُ زَبَانِيَةُ اللهِ». (صحيح، رواه أحمد والترمذي). انْتَهَرَهُ: زجره بعُنف وأغضبه.

(٤) رواه مسلم في «صحيحه».

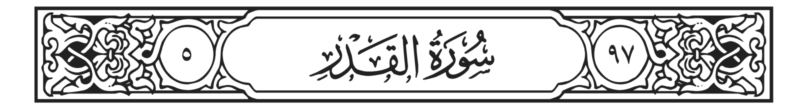
٥ - الاستفهام للتعجيب من شأن الناهي ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾؟ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾؟

٦ - المجـاز العقلـي ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي كاذب صاحبهـا خاطئ فأسـند الكذب إِليها مجازًا.

٧ - السجع المرصَّع مثل ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾.

«تم بحمده تعالى تفسير سورة العلق»





مكية وآياتها خمس

بين يدي السورة

* سورة القدر مكية، وقد تحدثت عن بدء نزول القرآن العظيم، وعن فضل ليلة القدر على سائر الأيام والشهور، لما فيها من الأنوار والتجليات القدسية، والنفحات الربانية، التي يفيضها الباري جل وعلا على عباده المؤمنين، تكريمًا لنزول القرآن المبين، كما تحدثت عن نزول الملائكة الأبرار حتى طلوع الفجر، فيا لها من ليلة عظيمة القدر، هي خير عند الله من ألف شهر!

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

التفسير: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ أي نحن أنزلنا هذا القرآن المعجز في ليلة القدر والشرف قال المفسرون: سميت ليلة القدر لعِظَمِها وقدرها وشرفها، والمرادُ بإِنزال القرآن إِنزالهُ من اللوح المحفوظ إِلى السماء الدنيا، ثم نزل به جبريل إِلى الأرض في مدة ثلاث وعشرين سنة كما قال ابن عباس: أنزل الله القرآن جملةً واحدة من اللوح المحفوظ إِلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مُفَصَّلًا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ[1] ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ تعظيمٌ وتفخيمٌ لأمرها أي وما أعلمك يا محمد ما ليلة القدر والشرف؟ قال الخازن: وهذا على سبيل التعظيم لها والتشويق لخبرها كأنه قال: أي شيء يبلغ علمك بقدرها ومبلغ فضلها؟[2] ثم ذكر فضلها من ثلاثة أوجه فقال تعالى ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي ليلة القدر في الشرف والفضل خيرٌ من ألف شهر، لما اختصت به من شرف إِنزال القرآن الكريم فيها قال المفسرون: العمل الصالح في ليلة القدر خيرٌ من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وقد روي أن رجلًا لبس السلاح وجاهد في سبيل الله ألف شهر، فعجب رسول الله والمسلمون من ذلك، وتمنى رسول الله ﷺ لأُمته فقال « يا رب،

(١) انظر «مختصر ابن كثير» ٣/ ٦٥٩، والقرطبي ١٩/ ١٣٠. (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: « نَزَلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي عِشْرِينَ سَنَةً» (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي وابن كثير).

(٢) «تفسير الخازن» ٤/ ٢٧٥.

جعلت أُمتي أقصر الأمم أعمارًا، وأقلها أعمالًا فأعطاه الله ليلة القدر، وقال: ليلةُ القدر خيرٌ لك ولأمتك من ألف شهر، جاهد فيها ذلك الرجل»[١] قال مجاهد: عملها وصيامها وقيامها خير من ألف شهر، وهذا هو الوجه الأول من فضلها ثم قال تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي تتنـزَّل الملائكةُ[٢] وجبريل إلى الأرض في تلك الليلة بأمر ربهم من أجل كل أمرٍ قدَّره الله وقضاه لتلك السنة إلى السنة القابلة، وهذا هو الوجه الثاني من فضلها، والوجه الثالث قوله تعالى ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي هي سلام من أول يومها إلى طلوع الفجر، تسلّم فيها الملائكة على المؤمنين، ولا يُقدّر الله فيها إلا الخير والسلامة لبني الإنسان.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإطناب بذكر ليلة القدر ثلاث مرات، زيادة في الاعتناء بشأنها، وتفخيمًا لأمرها.

٢ - الاستفهام بغرض التفخيم والتعظيم ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾؟

٣ - ذكر الخاص بعد العام ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ ﴾ فذكر جبريل بعد الملائكة ليُنبِّه على جلالة قدره.

٤ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿ٱلْقَدْرِ، شَهْرٍ، أَمْرٍ، ٱلْفَجْرِ﴾ وهو من المحسنات البديعية اللفظية والله أعلم.

«تم بحمده تعالى تفسير سورة القدر»



(١) روى هذا عن ابن عباس ومجاهد. (ش): لم أجده بهذا السياق إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.
وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إسرائيل لَبس السلاح في سَبيل اللهِ أَلْفَ شَهْر، فَعَجب الْمُسْلِمُونَ مِنْ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ الَّتِي لَبِسَ ذَلِكَ الرَّجُلُ السِّلَاحَ فِي سَبيلِ اللهِ أَلْفَ شَهْرٍ (رواه ابْنُ أَبِي حَاتِم بإسناد ضعيف).
وَرُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُرِيَ أَعْمَارَ النَّاسِ قَبْلَهُ فتقالها، أَوْ مَا شَاءَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ، فَكَأَنَّهُ تَقَاصَرَ أَعْمَارَ أُمَّتِهِ، أَنْ لَا يَبْلُغُوا مِنَ الْعَمَلِ مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ غَيْرُهُمْ فِي طُولِ الْعُمْرِ، فَأَعْطَاهُ اللهُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. (رواه مالك في الموطأ بإسنادَ ضعيف).
(٢) (ش): أي تتنَزَّل.



مدنية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

* سورة البينة وتسمى ﴿سورة لم يكن﴾ مدنية، وهي تعالج القضايا الآتية:

١- موقف أهل الكتاب من رسالة محمد ﷺ.

٢- موضوع إخلاص العبادة لله جل وعلا.

٣- مصير كل من السعداء والأشقياء في الآخرة.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن «اليهود والنصارى» وموقفهم من دعوة رسول الله ﷺ، بعد أن بان لهم الحقُّ وسطعت أنوارهن وبعد أن عرفوا أوصاف النبي المبعوث آخر الزمان، وكانوا ينتظرون بعثته ومجيئه، فلما بعث خاتم الرسل كذبوا برسالته، وكفروا وعاندوا.

* ثم تحدثت السورة عن عنصر هام من عناصر الإيمان، وهو « إخلاص العبادة» لله العلي الكبير، الذي أمر به جميع أهل الأديان، وإفراده جلَّ وعلا بالذكر، والقصد، والتوجه في جميع الأقوال والأفعال والأعمال، خالصة لوجهه الكريم.

* كما تحدثت عن مصير أهل الإجرام -شر البرية- من أهل الكتاب والمشركين، وخلودهم في نار الجحيم، وعن مصير المؤمنين، أصحاب المنازل العالية -خير البرية- وخلودهم في جنات النعيم، من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، جزاء طاعتهم وإخلاصهم لرب العالمين.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ

اللغَة: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ مُنتَهين زائلين، وأصلُ الفَكِّ: الفَتحُ ومنه فَكُّ الكتاب، وفَكُّ الخَلْخَال[1]

(١) (ش): الخَلْخال: حِلْيَة من فِضَّة كالسِّوار تُحَلِّي المرأة بها رِجْليها، تُلْبس حول الكعب.

﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ الحجة الواضحة، والدلالة القاطعة ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ مُنزَّهة عن الباطل والشبهات ﴿قَيِّمَةٌ﴾ مستقيمة عادلة ﴿حُنَفَآءَ﴾ مائلين عن الباطل إلى الدين الحق، وأصل الحَنَف: الميلُ ﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ الخلق من قولهم: برأ اللهُ الخلق، ومنه البارئ أي الخالق.

التفسير: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي لم يكن أهل الكفر والجحود، الذين كفروا بالله وبرسوله، ثم بيَّنهم بقوله ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي من اليهود والنصارى أهل الكتاب، ومن المشركين عَبدةِ الأوثان والأصنام ﴿مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي مُنفصلين ومُنتَهين عما هم عليه من الكفر، حتى تأتيهم الحجة الواضحة[1]، وهي بعثة محمد ﷺ ولهذا فسَّرها بقوله ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي هذه البيّنة هي رسالة محمد ﷺ المرسل من عند الله تعالى ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ أي يقرأ عليهم صحفًا منزَّهة عن الباطل عن ظهر قلب، لأن النبي ﷺ أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب قال القرطبي: أي يقرأ ما تتضمن الصحف من المكتوب، يتلوها عن ظهر قلبه لا عن كتاب، لأنه عليه السلام كان أميًّا لا يكتب ولا يقرأ[2] قال ابن عباس: ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ من الزور، والشك والنفاق، والضلالة وقال قتادة: مطهَّرة عن الباطل[3] ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي فيها أحكام قيِّمة لا عِوَج فيها، تُبيِّن الحق من الباطل قال الصاوي: المراد بالصحف القَراطيس[4] التي يكتب فيها القرآن، والمراد بالكتب الأحكام المكتوبة فيها، وإنما قال ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ لأن القرآن جمع ثمرة كتب الله المتقدمة[5].. ثم ذكر تعالى من لم يؤمن من أهل الكتاب فقال ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي وما اختلف اليهود والنصارى في شأن محمد ﷺ، إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة، الدالة على صدق رسالته، وأنه الرسول الموعود به في كتبهم قال أبو السعود: والآية مَسُوقةٌ لغاية التشنيع على أهل الكتاب خاصة[6]، وتغليظ جناياتهم، ببيان أن تفرقهم لم يكن إلا بعد وضوح الحق، وتبيّن الحال، وانقطاع الأعذار بالكلية، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾[7]

---

(١) لم تذكر السورة أنهم منفكون عن ماذا؟ لكنه معلوم إذ المراد هو الكفر والضلالة التي كانوا عليها فقد أتاهم رسول الله ﷺ بالقرآن المبين فبيَّن لهم ضلالتهم وشِرْكَهم وما كانوا عليه من الجاهلية ودعاهم إلى الإيمان فآمن مِنهم مَن آمن، واهتدى مِنهم مَن اهتدى، فأنقذهم الله من الجهالة والضلالة ولم يكونوا منفصلين عن كُفرهم قبل بعثه ﷺ إليهم، والآية فيمن آمن من الفريقين: المشركين وأهل الكتاب.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٩/ ١٤٢.

(٣) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٤) (ش): قُرْطاس/ قِرْطاس: صحيفة، ما يُكتَب فيه من ورق وغيره مُفرَّقًا.

(٥) «حاشية الصاوي» ٤/ ٣٤٢.

(٦) (ش): أي إن الغرض منها التشنيع على أهل الكتاب خاصة. يُقال ساقَ الحديثَ: سردَه، أورده بسهولة وسلاسة. ساق القصّةَ: قصّها.

(٧) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٧٧.

[آل عمران: ١٩] وقال في التسهيل: أي ما اختلفوا في نبوة سيدنا محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا أنه حق، وإنما خصَّ أهل الكتاب هنا بالذكر، لأنهم كانوا يعلمون صحة نبوته، بما يجدون في كتبهم من ذكره[1] ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي والحال أنهم ما أُمروا في التوراة والإنجيل إلا بأن يعبدوا الله وحده، مخلصين العبادة جلّ وعلا، ولكنهم حرَّفوا وبدَّلوا، فعبدوا أحبارهم ورهبانهم كما قال تعالى ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ [التوبة:٣١] ﴿حُنَفَآءَ﴾ أي مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، مستقيمين على دين إبراهيم، دين الحنيفية السمحة، الذي جاء به خاتم المرسلين ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي وأُمروا بأن يؤدوا الصلاة على الوجه الأكمل، في أوقاتها بشروطها وخشوعها وآدابها، ويعطوا الزكاة لمستحقيها عن طيب نفس قال الصاوي: وخصَّ الصلاة والزكاة لشرفهما[2] ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي وذلك المذكور من العبادة والإخلاص، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، هو دين الملة المستقيمة دين الإسلام فلماذا لا يدخلون فيه؟ ثم ذكر تعالى مآل كل من الآبرار والأشرار، في دار الجزاء والقرار فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي إنَّ الذين كذبوا بالقرآن وبنبوة محمد عليه السلام، من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان، هؤلاء جميعهم يوم القيامة في نار جهنم، ماكثين فيها أبدًا لا يخرجون منها ولا يموتون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ أي أولئك هم شر الخلق على الإطلاق قال الإمام الفخر: فإن قيل: لم ذكر ﴿كَفَرُواْ﴾ بلفظ الفعل، ﴿وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ باسم الفاعل؟ فالجواب تنبيهًا على أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الأمر، لأنهم كانوا مصدقين بالتوراة والإنجيل، ومقرين بمبعث محمد ﷺ ثم إنهم كفروا بذلك بعد مبعثه عليه السلام، بخلاف المشركين فإنهم وُلِدوا على عبادة الأوثان، وإنكار الحشر والقيامة[3]، وقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ لإفادة الحصر أي شرٌّ من السراق لأنهم سرقوا من كتاب الله صفة محمد ﷺ وشرٌّ من قطاع الطريق، لأنهم قطعوا طريق الحق عن الخلق[4]، ولما ذكر مَقرَّ الأشقياء، ذكر بعده مَقرَّ السُّعداء فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي إن المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال[5] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٢١٢.

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» ٤/ ٣٤٣.

(٣) (ش): هم وُلِدوا على الفطرة ولكن آباءهم هم الذين أضلوهم. قال ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٤) «التفسير الكبير» للرازي ٣١/ ٤٩.

(٥) (ش): هذا التعبير يعطي أن الإيمان غير العمل، وهذا خلاف مذهب أهل السنة والجماعة من أن العمل داخلٌ في مسمَّى الإيمان بحيث لا يتحقق الإيمان بدونه، وعطْف العمل على الإيمان عندهم من عطف الخاص على العام اهتمامًا به، كما في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

﴿هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ أي هم خير الخليقة التي خلقها الله وبرأها[1] ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي ثوابهم في الآخرة على ما قدموا من الإيمان والأعمال الصالحة ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي جنات إقامة تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي ماكثين فيها أبدًا، لا يموتون ولا يخرجون منها، وهم في نعيم دائم لا ينقطع ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أي رَضِيَ اللهُ عَنْهم بما قدموا في الدنيا من الطاعات وفعل الصالحات، ورضوا عنه بما أعطاهم من الخيرات والكرامات ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ أي ذلك الجزاء والثواب الحسن لمن خاف الله واتقاه، وانتهى عن معصية مولاه.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الإجمال ثم التفصيل ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ ثم فصلها بقوله ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾.

٢ - الطباق بين ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ و ﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

٣ - الاستعارة التصريحية ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ لفظة مطهرة فيها استعارة حيث شبه تنزه الصحف عن الباطل بطهارتها عن الأنجاس.

٤ - المقابلة بين نعيم الأبرار وعذاب الفجار ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ..﴾ الآية وبين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية.

٥ - توافق الفواصل وهو من المحسنات البديعية مثل ﴿ٱلْبَيِّنَةُ، قَيِّمَةٌ، خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ، شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ ونحو ذلك.

تنبيه: الإخلاص هو لبُّ العبادة وقد جاء في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِى تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[2] وقد قسم العلماء الأعمال إلى ثلاثة أقسام: «مأمورات، ومنهيات، ومباحات» فأما المأمورات فالإخلاص فيها بأن يقصد بعمله وجه الله، وإن كانت النية لغير وجه الله، فالعمل رياءٌ محْضٌ مردود، وأما المنهيات فإن ترَكها بدون نية خرَج عن عهدتها، ولم يكن له أجر في ترْكها، وإن ترَكها ابتغاء وجه الله كان مأجورًا على ترْكها، وأما المباحات كالأكل والنوم والجماع وشبه ذلك، فإنْ فَعَلها بغير نية لم يكن بها أجر، وإنْ فَعَلها بنية وجه الله فله فيها أجر، فإن كل مباح يمكن أن يصير قُربَةً إذا قصد به وجه الله، مثل أن يقصد بالأكل القوة على العبادة ويقصد بالجماع التعفُّف عن الحرام[3].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البينة»

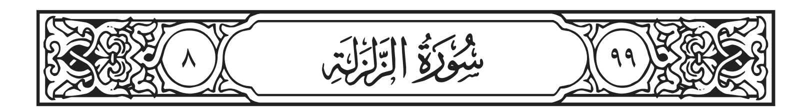
❁ ❁ ❁

---

(١) (ش): برأ اللهُ الخلقَ: خَلَقَهم؛ أوجدهم من العدم.

(٢) (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(٣) (ش): قال ﷺ: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِى بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلاَّ أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى اللُّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). فِي فِي امْرَأَتِكَ: فِي فَمِ امْرَأَتِكَ.



مدنية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

* سورة الزلزلة مدنية، وهي في أسلوبها تشبه السور المكية، لما فيها من أهوال وشدائد يوم القيامة، وهي هنا تتحدث عن الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة، حيث يندك كل صرح شامخ، وينهار كل جبل راسخ[1]، ويحصل من الأمور العجيبة الغريبة ما يندهش له الإنسان كإخراج الأرض ما فيها من موتى، وإلقائها ما في بطنها من كنوز ثمينة من ذهب وفضة، وشهادتها على كل إنسان بما عمل على ظهرها، تقول: عملت يوم كذا، كذا وكذا، وكل هذا من عجائب ذلك اليوم الرهيب، كما تتحدث عن انصراف الخلائق من أرض المحشر إلى الجنة أو النار، وانقسامهم إلى أصناف ما بين شقي وسعيد.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ

اللغة: ﴿زُلْزِلَتِ﴾ حُرِّكَتْ تحريكًا عنيفًا ﴿أَثْقَالَهَا﴾ الموتى الذين في جوفها، جمع ثقل وهو الشيء الثقيل ومنه ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ [النحل: ٧] قال الأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقل لها، وإن كان فوقها فهو ثقل عليها[2] ﴿يَصْدُرُ﴾ ينصرف ويخرج، والصُّدور ضد الوُرُود، فالواردُ الآتِي، والصادِر المُنصَرف ﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرقين جمع شَتّ يقال: ذهبوا أشتاتًا، أي: متفرقين.

التفسير: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي إذا حُرِّكت الأرض تحريكًا عنيفًا، واضطربت اضطرابًا شديدًا، واهتزت بِمَن عليها اهتزازًا يقطع القلوب ويُفزع الألباب كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] قال المفسرون: إنما أضاف الزلزلة إليها ﴿زِلْزَالَهَا﴾ تهويلًا كأنه يقول: الزلزلة التي تليق بها على عظم جرمها، وذلك عند قيام الساعة تتزلزل وتتحرك تحريكًا متتابعًا، وتضطرب بِمَن عليها، ولا تسكن

---

(١) (ش): يَنْدكّ: يُهدَم حتى يُسَوَّى بالأرض. الصَّرْح: القَصر العالي. ينهار: يسقط ويَنْهدم. راسخ: ثابت.

(٢) «التفسير الكبير» ٣١/ ٥٨.

حتى تُلقِي ما على ظهرها مِن جبلٍ وشجرٍ وبناءٍ وقِلَاع[١] ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي وأخرجت الأرض ما في بطنها منَ الكنوز والموتى قال ابن عباس: أخرجت موتاها وقال منذر بن سعيد: أخرجت كنوزها وموتاها[٢] وفي الحديث «تَقِيءُ الْأَرْضُ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا أَمْثَالَ الأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قَتَلْتُ. وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قَطَعْتُ رَحِمِي. وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قُطِعَتْ يَدِي ثُمَّ يَدَعُونَهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا»[٣] ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا﴾؟ أي وقال الإنسان: ما للأرض تزلزلت هذه الزلزلة العظيمة، ولفَظَت ما في بطنها[٤]؟! يقول ذلك دهشةً وتعجُّبًا من تلك الحالة الفظيعة ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أي في ذلك اليوم العصيب يوم القيامة تتحدث الأرض وتخبر بما عُمل عليها من خير أو شر، وتشهد على كل إنسان بما صنع على ظهرها، عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ فقال: «أتدرون ما أخبارها» قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ أو أَمَةٍ بما عمل على ظَهرها، تقول عمل يوم كذا، كذا وكذا، فهذه أخبارها»[٥] وفي الحديث: «تحفَّظوا من الأرض فإنها أمكم، وإنه ليس من أحدٍ عامل عليها خيرًا أو شرًّا إلا وهي مخبرة به»[٦] ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي ذلك الإخبار بسبب أن الله جلت عظمته أمرها بذلك، وأذن لها أن تنطق بكل ما حدث وجرى عليها، فهي تشكو العاصي وتشْهَد عليه، وتشكر المطيع وتُثْنِي عليه، والله على كل شيء قدير ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أي في ذلك اليوم يرجع الخلائق من موقف الحساب، وينصرفون متفرقين فِرقًا فِرقًا، فآخذٌ ذات اليمين إلى الجنة، وآخذٌ ذات الشمال إلى النار ﴿لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ أي لينالوا جزاء أعمالهم من خير أو شر[٧] ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ أي فمَن يفعل مِن الخير زِنَةَ ذرةٍ من التراب[٨]، يجِدْه في صحيفته يوم القيامة ويَلْقَ جزاءه عليه.. قال الكلبي: الذَّرةُ أصغرُ النمل وقال ابن عباس: إذا وضعت راحتك على الأرض ثم رفعتها، فكلُّ واحد مما

---

(١) انظر «التسهيل» ٤/ ٢١٣، و«الخازن» ٤/ ٢٨٠. (ش): قِلَاع: جمع قَلْعَة: حِصْن مَنيع على مكان مرتفع.

(٢) تفسير الألوسي ٣٠/ ٢٠٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه. (ش): الْفَلْذُ: الْقِطْعَةُ مِنْ كَبِدِ الْبَعِيرِ أو الْقِطْعَةُ مِنَ اللَّحْمِ. وَمَعْنَى الْحَدِيثِ: التَّشْبِيهُ أَيْ تُخْرِجُ مَا فِي جَوْفِهَا مِنَ الْقِطَعِ الْمَدْفُونَةِ فِيهَا. وَالْأُسْطُوَانُ جَمْعُ أُسْطُوَانَةٍ، وَهِيَ السَّارِيَةُ وَالْعَمُودُ، وَشَبَّهَهُ بالأُسْطُوَان لعِظَمه وكَثْرَتِه.

(٤) (ش): لفَظَت ما في بطنها: أخرجَتْ ما في بطنها.

(٥) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح. (ش): ورواه أحمد وضعفه الألباني والأرنؤوط.

(٦) أخرجه الطبراني في معجمه. (ش): ضعفه الألباني

(٧) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٤٦١): «﴿لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ أَيْ: لِيَعْمَلُوا وَيُجَازُوا بِمَا عَمِلُوهُ فِي الدُّنْيَا، مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ».

(٨) (ش): زِنة: وَزْن وقَدْر.

لصق به من التراب ذرة[١] ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ أي ومن يفعل من الشر زِنَةَ ذَرَّةٍ من التراب، يجِدْه كذلك ويلْقَ جزاءه عليه. قال القرطبي: وهذا مثل ضربه الله تعالى في أنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة، وهو مثل قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[٢] [النساء: ٤٠].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإضافة للتهويل والتفظيع ﴿زِلْزَالَهَا﴾.

٢ - الإظهار في مقام الإضمار ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ لزيادة التقرير والتوكيد.

٣ - الاستفهام للتعجب والاستغراب ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾

٤ - جناس الاشتقاق ﴿زُلْزِلَتِ .. زِلْزَالَهَا﴾.

٥ - المقابلة بين ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا ..﴾ وبين ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا ..﴾.

٦ - السجع المرصَّع كأنه الذهب السبيك أو الدر والياقوت مثل ﴿زِلْزَالَهَا، أَثْقَالَهَا، أَوْحَىٰ لَهَا، أَخْبَارَهَا، مَا لَهَا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

فَائِدَة: سمَّى رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ..﴾ الجامعة الفاذَّة حين سئل عن زكاة الحُمُر. فقال: «مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ فِيهَا إِلاَّ هَذِهِ الآيَةَ الْفَاذَّةَ الْجَامِعَةَ»: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ أخرجه البخاري[٣].

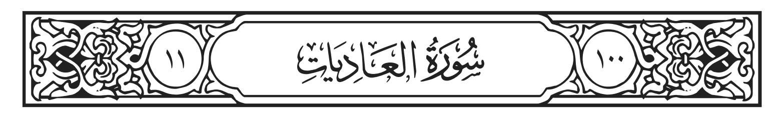
«تم بعونه تعالى تفسير سورة الزلزلة»



(١) «التفسير الكبير» ٣١/ ٦١.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٥٠.

(٣) (ش): رواه البخاري ومسلم. (الْفَاذَّةِ): الْقَلِيلَةُ النَّظِيرِ. (الْجَامِعَة): الْعَامَّةُ الْمُتَنَاوِلَةُ لِكُلِّ خَيْرٍ وَمَعْرُوفٍ.



مكية وآياتها إحدى عشرة

بين يدي السورة

* سورة العاديات مكية، وهي تتحدث عن خيل المجاهدين في سبيل الله، حين تغير على الأعداء، فيسمع لها عند عدوها [١] بسرعة صوتٌ شديد، وتقدح بحوافرها[٢] الحجارة فيتطاير منها النار، وتثير التراب والغبار، وقد بدأت السورة بالقسم بخيل الغُزاة -إظهارًا لشرفها وفضلها عند الله- على أن الإنسان كفور لنعمة الله تعالى عليه[٣]، جحود لآلائه وفيوض نعمائه، وهو معلن لهذا الكفران والجحود بلسان حاله ومقاله، كما تحدثت عن طبيعة الإنسان وحبه الشديد للمال، وختمت السورة الكريمة ببيان أن مرجع الخلائق إلى الله للحساب والجزء، ولا ينفع في الآخرة مال ولا جاه، وإنما ينفع العمل الصالح.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ

اللغَة: ﴿ضَبْحًا﴾ الضبح: صوت أنفاس الخيل إذا عدَتْ [٤]

قال عنترة:

وَالْخَيْلُ تَكْدَحُ حِينَ تَضْبَحُ ... فِي حِيَاضِ الْمَوْتِ ضَبْحَا [٥]

﴿فَأَثَرْنَ﴾ هيَّجْنَ ﴿نَقْعًا﴾ نَّقعُ: الغُبار ﴿لَكَنُودٌ﴾ كَفُور جَحُود لنعمة الله، من كَند النعمة إذا كفَرها ولم يشكُرها قال الشاعر:

كَنُودٌ لِنَعْمَاءِ الرِّجَالِ وَمَنْ يَكُنْ ... كَنُودًا لِنَعْمَاءِ الرِّجَالِ يَبْعُدُ [٦]

﴿بُعْثِرَ﴾ أُثِيرَ وقُلِبَ، من بَعثَرْت المتاع إذا جعلْت أسفلَه أعلاه.

---

(١) (ش): عدَا الحصانُ، عَدْوًا: جرَى، ركض، سار بخطًى متباعدة، قفز قفزاتٍ متتابعةً.

(٢) (ش): قدَح النَّارَ/ قدَح النارَ من الزَّنْد: أخرجها منه، أشعلها بالاحتكاك. والزَّنْدُ : العودُ الأعلى الذي تُقدَح به النارُ، والأسفل هو الزَّنْدَة.

(٣) (ش): جَحَدَ الأَمْرَ: أنكرهُ مَعَ علمه بِهِ. فُيوض نَعمائه: كثرةُ نِعمه.

(٤) (ش): عدَا الحصانُ، عَدْوًا: جرَى، ركض، سار بخطًى متباعدة، قفز قفزاتٍ متتابعةً.

(٥) «الألوسي» ٣٠/ ٢١٥. (ش): تَكْدَحُ: تُجْهِدَ نَفْسَها.

(٦) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٦٠.

التفسير: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ أي أُقسمُ بخيل المجاهدين المسرعات في الكرّ على العدو، يُسمع لأنفاسها صوتٌ جهير هو الضبحُ قال ابن عباس: الخيل إِذا عدت قالت: أُحْ، أُحْ فذلك ضبْحُها. قال أبو السعود: أقسم سبحانه بخيل الغزاة التي تعدو نحو العدو وتضبح ضبحًا وهو صوت أنفاسها عند عدوها[1] ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ أي فالخيل التي تخرج شرر النار من الأرض بوقع حوافرها على الحجارة من شدة الجري ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ أي فالخيل التي تغير على العدو وقت الصباح قبل طلوع الشمس قال الألوسي: هذا هو المعتادُ في الغارات، كانوا يعدون ليلًا لئلا يشعر بهم العدو، ويهجمون صباحًا ليرَوْا ما يأتُون وما يَذَرُون[2] ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ أي فأثارت الخيل الغبار الكثيف لشدة العدو، في الموضع الذي أغرن به ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ أي فتوسطن به جموع الأعداء، وأصبحن وسط المعركة.. أقسم سبحانه وتعالى بأقسام ثلاثة على أمور ثلاثة، تعظيمًا للمقسم به وهو خيل المجاهدين في سبيل الله، التي تُسرع على أعداء الله، وتقدح النار بحوافرها، وتُغير على الأعداء وقت الصباح، فتُثير الغبار، وتتوسط العدو فتُصيبه بالرعب والفزع، أما الأمور التي أقسم عليها فهي قوله ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ أي إِن الإِنسان لجاحد لنِعَم ربه، شديد الكفران قال ابن عباس: جاحدٌ لنعم الله وقال الحسن: يذكر المصائب وينسى النعم[3] ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي وإِن الإِنسان لَشاهدٌ على كُنُوده، لا يقدر أن يجحده لظهور أثره عليه ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أي وإِنه لَشديدُ الحُب للمال حريصٌ على جَمْعه، وهو لِحُبّ عبادة الله وشكر نعمه ضعيفٌ متقَاعِس[4] ثم بعد أن عدَّد عليه قبائح أفعاله خوَّفه فقال ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي أفلا يعلم هذا الجاهل إِذا أُثِير ما في القبور وأُخرِج ما فيها من الأموات ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي وجُمِع وأُبرِز ما في الصدور من الأسرار والخفايا التي كانوا يُسِرُّونها ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي إِنَّ ربهم لعَالِمٌ بجميع ما كانوا يصنعون، ومُجَازِيهم عليه أوفر الجزاء، وإِنما خص علمه بهم في ذلك اليوم يوم القيامة لأنه يوم الجزاء، بقَصد الوعيد والتهديد، فهو تعالى عالم بهم في ذلك اليوم وغيره.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - التأكيد بإِنَّ واللام في مواضع مثل ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ زيادة في التقرير والبيان.

---

(١) «أبو السعود» ٥/ ٢٨٠.

(٢) «روح المعاني» ٣٠/ ٢١٥. (ش): أي ما يفعلون وما لا يفعلون.

(٣) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٦٠.

(٤) (ش): متقَاعِس: مُهمِل، مُتكاسِل، غير مُهتم.

٢ - الجناس غير التام بين ﴿لَشَهِيدٌ﴾ و ﴿لَشَدِيدٌ﴾ وكذلك ﴿ضَبْحًا﴾ و ﴿صُبْحًا﴾.

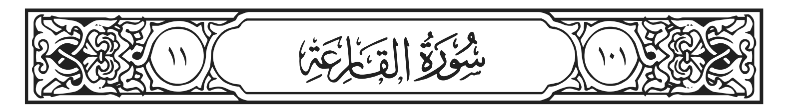
٣ - الاستفهام الإنكاري للتهديد والوعيد ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾؟

٤- التضمين ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ ضمَّن لفظ ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ معنى المجازاة أي يجازيهم على أعمالهم.

٥ - توافق الفواصل مثل ﴿لَشَهِيدٌ﴾ و ﴿لَشَدِيدٌ﴾ إلخ. ويسمى «السجع المرصَّع» وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العاديات»





مكية وآياتها إحدى عشرة

بين يدي السورة

* سورة القارعة مكية، وهي تتحدث عن القيامة وأهوالها، والآخرة وشدائدها، وما يكون فيها من أحداث وأهوال عظام، كخروج الناس من القبور، وانتشارهم في ذلك اليوم الرهيب كالفراش المتطاير، المنتشر هنا وهناك، يجيئون ويذهبون على غير نظام من شدة حيرتهم وفزعهم.

* كما تحدثت عن نسف الجبال وتطايرها حتى تصبح كالصوف المنبث[1] المتطاير في الهواء، بعد أن كانت صلبة راسخة فوق الأرض، وقد قرنت بين الناس والجبال تنبيهًا على تأثير تلك القارعة في الجبال حتى صارت كالصوف المندوف[2]، فكيف يكون حال البشر في ذلك اليوم العصيب؟

* وختمت السورة الكريمة بذكر الموازين التي توزن بها أعمال الناس وانقسام الخلق إلى سعداء وأشقياء حسب ثقل الموازين وخفتها، وسميت السورة الكريمة بالقارعة لأنها تقرع القلوب والأسماع بهولها.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ

اللغة: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ اسم من أسماء القيامة، سميت بها لأنها تَقْرَع الخلائقَ بأهوالها وأفزاعها، وأصلُ القَرْع الضرْب بشدة وقوة، تقول العرب: قرَعَتْهم القارعة وفَقَرتهم الفَاقِرة، إذا وقع بهم أمر فظيع ﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾ المنتشر المتفرق ﴿كَٱلْعِهْنِ﴾ الصوف ذو الألوان أو المصبوغ ﴿هَاوِيَةٌ﴾ اسم لجهنم سميت بذلك لأنَّ الناس يهْوون بها، أي: يسقطون.

---

(١) (ش): «المُنبَثّ: المُنتَشر».

(٢) (ش): ندَف القطنَ: طرَقه وضرَبه بالمِنْدَف ليَرِقَّ ويزول تَلَبُّده. والمِنْدَف والمِنْدَفَة: خَشَبَةٌ يُطرَق بها القطنُ ليرِقَّ ويزولَ تلبُّده، أي: يزول تداخُلُه والتصاقُ بعضه ببعض.

التفسير: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ أي القيامة وأيُّ شيء هي القيامة؟ إنها في الفظاعة والفخامة بحيث لا يدركها خيال، ولا يبلغها وَهْمُ إنسان فهي أعظم من أن تُوصَف أو تُصَوَّر، ثم زاد في التفخيم والتهويل لشأنها فقال ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾؟ أي أيُّ شيءٍ أعلَمَك ما شأن القارعة في هولها على النفوس؟ إنها تُفزع القلوب فحسب، بل تؤثّر في الأجرام العظيمة، فتؤثِّر في السموات بالإنشقاق، وفي الأرض بالزلزلة، وفي الجبال بالدكّ والنسف، وفي الكواكب بالانْتِثَار، وفي الشمس والقمر بالتكوير والانكدار إلى غير ما هنالك[١] قال أبو السعود: سميت القيامة قارعة لأنها تقرع القلوب والأسماع بفنون الأهوال والأفزاع، ووَضْع الظاهر موضع الضمير ﴿مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾[٢] تأكيدًا للتهويل. والمعنى: أيُّ شيء عجيب هي في الفخامة والفظاعة، ثم أكد هولها وفظاعتها بقوله ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾؟ ببيان خروجها عن دائرة علوم الخلق، بحيث لا تكاد تنالها دراية أحد[٣].. وبعد هذا التخويف والتشويق إلى معرفة شيءٍ من أحوالها، جاء التوضيح والبيان بقوله تعالى ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾ أي ذلك يحدث عندما يخرج الناسُ من قبورهم فَزِعين، كأنهم فراش متفرق منتشر هنا وهناك، يموج بعضهم في بعض من شدة الفزع والحيرة قال الرازي: شبه تعالى الخلق وقت البعث ههنا بالفراش المبثوث، وفي آية أُخرى بالجراد المنتشر، أما وجه التشبيه بالفراش، فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه إلى جهةٍ واحدة، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأُخرى، فدلَّ على أنهم إذا بُعثوا فَزِعوا، وأما وجه التشبيه بالجراد فهو في الكثرة، يصبحون كغوغاء[٤] الجراد يركب بعضه بعضًا، فكذلك الناس إذا بُعِثوا يمُوجُ بعضُهم في بعض[٥] كالجراد والفراش كقوله تعالى ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖ﴾ [الكهف: ٩٩][٦] ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ هذا هو الوصف الثاني من صفات ذلك اليوم المَهُول[٧] أي وتصير الجبال كالصوف المنتشر المتطاير، تتفرق أجزاؤها وتتطاير في الجو، حتى تكون كالصوف المتطاير عند الندْف[٨] قال الصاوي: وإنما جمع بين حال الناس وحال الجبال، تنبيهًا على

---

(١) (ش): فتنشق السماء، ويختلَّ نظامُها، وتُلَفُّ الشمس ويذهب ضَوْءُها، ويذهب ضوء القمر، وتُزَلزَل الأرض، وتُزال الجبال عن أماكنها فيجعلها الله هباءً منبثًا، وتتساقط الكواكب، وتتناثر النجوم، ويذهب نورها.

(٢) (ش): وَضْع الظاهر (القارعة) موضع الضمير (هي)، أي لم يقُل: ما هي؟ بل قال: ﴿مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾.

(٣) «أبو السعود» ٥/ ٢٨١.

(٤) (ش): غَوْغاء: ضوضاء، صياح.

(٥) (ش): ماج القومُ: دخل بعضُهم في بعض.

(٦) «التفسير الكبير» ٣١/ ٧٢.

(٧) (ش): مَهُول: مُرعب، مُخيف.

(٨) (ش): ندَف القطنَ: طرَقه وضرَبه بالمِنْدَف ليَرِقَّ ويزول تَلَبُّده. والمِنْدَف والمِنْدَفَة: خَشَبَةٌ يُطرَق بها القطنُ ليرِقّ ويزول تلبُّدُه، أي: يزولَ تداخُلُه والتصاقُ بعضِه ببعض.

أن تلك القارعة أثَّرت في الجبال العظيمة الصلبة، حتى تصير كالصوف المنْدُوف مع كونها غير مكلفة، فكيف حال الإنسان الضعيف المقصود بالتكليف والحساب[1]!! ثم ذكر تعالى حالة الناس في ذلك اليوم، وانقسامهم إلى شقي وسعيد فقال ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أي رجَحَت موازين حسناتِه، وزادَتْ حسناتُه على سيئاتِه ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي فهو في عيش هَنِيءٍ رغِيد سعيد، في جنان الخلد والنعيم[2] ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أي نقصت حسناته عن سيئاته، أو لم يكن له حسناتٌ يُعتدُّ بها ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ أي فمسْكَنه ومصيره نارُ جهنم يهوِي في قعرها، سمَّاها أُمَّ لأن الأم مأوى الولد ومفزعُه، فنار جهنم تُؤوِي هؤلاء المجرمين، كما يَأوِي الأولاد إلى أمهم، وتضمهم إليها كما تضم الأم الأولاد إليها قال أبو السعود: ﴿هَاوِيَةٌ ﴾ اسم من أسماء النار، سميت بها لغاية عُمقها وبُعد مهواها، روي أن أهل النار يهوون فيها سبعين خريفًا[3] ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾؟ استفهام للتفخيم والتهويل أي وما أعلمك ما الهاوية؟ ثم فسَّرها بقوله ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ أي هي نار شديدة الحرارة، قد خرجت عن الحد المعهود، فإن حرارة أيِّ نارٍ إذا سُعرت وأُلقي فيها أعظم الوقود لا تعادل حرارة جهنم، أجارنا الله منها بفضله وكرمه.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الاستفهام للتفخيم والتهويل ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾؟ ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾؟

٢ - وضع الظاهر مكان الضمير للتخويف والتهويل ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾؟ والأصل أن يقال: القارعة ما هي؟

٣ - التشبيه المرسل المجمل ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه، أي: في الكثرة والانتشار، والضعف والذلة، ومثله ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ أي في تطايرها وخفة سَيْرها فيُسمَّى مرسلًا مجملًا.

٤ - المقابلة ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ ثم قابلها بقوله ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٥ - المجاز العقلي ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي راضٍ بها صاحبُها ففيه إسناد مجازي.

---

(١) «حاشية الصاوي» ٤/ ٣٤٧.

(٢) (ش): رغُدَ/ رغِدَ العيشُ: اتَّسع ونَعُم وطاب.

(٣) «تفسير أبي السعود» ٥/ ٢٨٢، ونقل عن قتادة أن المراد بقوله: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ أي فأم رأسه هاوية في قعر جهنم لأنه يُطرح فيها منكوسًا، والأول أظهر. (ش): عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ «تَدْرُونَ مَا هَذَا؟». قَالَ: قُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: « هَذَا حَجَرٌ رُمِىَ بِهِ فِى النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يَهْوِى فِى النَّارِ الآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). الوَجْبَة: صوتُ وقْع القدم على الأرض.

٦ - الاحتباك وهو أن يحذَف من كل نظير ما أثبته في الآخر، فقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾ حذف من الأول (فأمه الجنة) وذكر فيها ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ وحذف من الآية الثانية (فهو في عيشة ساخطة) وذكر ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ فحذف من كل نظير ما أثبته في الآخر، وهو من المحسنات البديعية.

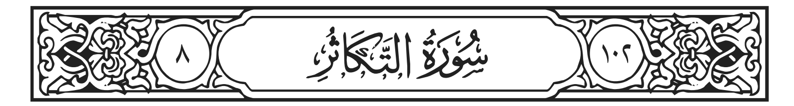
٧ - توافق الفواصل في الحرف الأخير، وهو واضح في السورة الكريمة.

تنبيه: الجمهور على أن الميزان حقيقي له كِفَّتان ولسان، توزن فيه الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات، وروي عن ابن عباس أنه يؤتى بالأعمال الصالحة على صور حسنة، وبالأعمال السيئة على صور قبيحة، فتوضع في الميزان، فمن رجحت حسناته سُعِدَ، ومن رجحت سيئاته شَقِيَ، والله أعلم(١).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القارعة»



(١) (ش): أخبر الله أنه يضع الموازين لوَزْن الأعمال، ليرى العباد أعمالهم ممثلة ليكونوا على أنفسهم شاهدين. قال الله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] والميزان ميزان حقيقي، لا يقْدِر قدْرَه إلا الله تعالى، قَالَ ﷺ: «يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: «يَا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟»، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي»، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: «سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ» (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني). وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أنه يوزن في الميزان ثلاثة: الأعمال، وصحائف الأعمال، والعامل نفسه.



مكية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

* سورة التكاثر مكية، وهي تتحدث عن انشغال الناس بمغريات الحياة، وتكالبهم على جمع حطام الدنيا، حتى يقطع الموت عليهم متعتهم، ويأتيهم فجأة وبغتة، فينقلهم من القصور إلى القبور.

الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل

* وقد تكرر في هذه السورة الزجر والإنذار تخويفًا للناس، وتنبيها لهم على خطئهم، باشتغالهم بالفانية عن الباقية ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

* وختمت السورة الكريمة ببيان المخاطر والأهوال التي سيلقونها في الآخرة، والتي لا يجوزها[1] ولا ينجو منها إلا المؤمن الذي قدم صالح الأعمال.

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾

اللغَة: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ الإلهاء: الشغل والانصراف عن الشيء الهام إلى ما يدعو إليه الهوى، وأصل اللهو الغفلةُ ثم شاع في كل شاغلٍ قال الراغب: اللهو ما يشغلك عما يعني ويهمُّ ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ التباهي بكثرة المال والجاه وهوَ بمعنى المكاثرة ﴿ٱلْمَقَابِرَ﴾ القبور جمع مقبرة، والقبور جمع القبر قال الشاعر:

أَرَى أَهْلَ الْقُصُورِ إِذَا أُمِيتُوا   بَنَوْا فَوْقَ الْمَقَابِرِ بِالصُّخُورِ
أَبَوْا إِلَّا مُبَاهَاةً وَفَخْرًا   عَلَى الْفُقَرَاءِ حَتَّى فِي الْقُبُورِ

التفسِير: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أي شغلكم أيها الناسُ التفاخر بالأموال والأولاد والرجال عن طاعة الله، وعن الاستعداد للآخرة ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي حتى أدرككم الموت، ودُفِنتُم في المقابر، والجملةُ خبرٌ يراد به الوعظ والتوبيخ قال القرطبي: المعنى شغلكم المباهاة بكثرة المال والأولاد عن طاعة الله، حتى مُتُّم ودفنتم في المقابر[2] ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ زجرٌ وتهديدٌ أي ارتدعوا أيها الناس وانزجروا عن الاشتغال بما لا ينفع ولا يفيد، فسوف تعلمون

(١) (ش): جازَ الموضعَ/ جازَ بالموضع: سلَكَه وترَكه خلفه، سارَ فيه وقطعه.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٦٨، وقال ابن كثير: يقول تعالى: شغَلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها، عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادَى بكم ذلك حتى جاءكم الموت، وزرتم المقابر وصِرتُم مِن أهلها.

عاقبة جهلكم وتفريطكم في جنب الله، وانشغالكم بالفاني عن الباقي ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وعيدٌ إثر وعيد، زيادة في الزجر والتهديد، أي: سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت وعايَنْتُم أهواله وشدائده قال ابن عباس: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ ما ينزل بكم من العذاب في القبر ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي في الآخرة إذا حَلَّ بكم العذاب[1] ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ أي ارتَدِعوا وانزجِروا فلو علمتُم العلم الحقيقي الذي لا شك فيه ولا امتراء، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ لقصد التهويل أي لو عرفتم ذلك لما ألهاكم التكاثر بالدنيا عن طاعة الله، ولما خُدِعتُم بنعيم الدنيا عن أهوال الآخرة وشدائدها كما قال ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»[2] الحديث. قال في التسهيل: وجوابُ ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ تقديره: لو تعلمون لازدُجِرتُم واستعدَدتُم للآخرة، وإنما حذف لِقَصْد التهويل، فيقدر السامع أعظم ما يخطر بباله[3] كقوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧] ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ أي أُقسم وأؤكد بأنكم ستشاهدون الجحيم عيانًا ويقينًا قال الألوسي: هذا جواب قسم مُضْمَر[4] أكَّد به الوعيد، وشدَّد به التهديد، وأوضح به ما أُنذِروه بعد إبهامه تفخيمًا[5] أي والله لَتَرَوُنَّ الجحيم ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ أي ثم لَتَرَوُنَّها رؤيةً حقيقية بالمشاهدة العينية قال في البحر: زاد التوكيد بقوله ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ نفيًا لتوهم المجاز في الرؤية الأولى[6] ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ أي ثم لتسألنَّ في الآخرة عن نعيم الدنيا من الأمن والصحة، وسائر ما يُتلذذ به من مطعم، ومشرب، ومركب، ومفرش.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الوعظ والتوبيخ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فقد خرج الخبر عن حقيقته إلى التذكير والتوبيخ.

٢ - التكرار للتهديد والإنذار ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وعطفه بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ للتنبيه على أن الثاني أبلغ من الأول، كما يقول العظيمُ لعبده: أقول لك ثم أقول لك: لا تفعل، ولكَوْنه أبلغَ نُزِّل منزلة المغايَرة فعطف بـ(ثُم)[7].

٣ - حذف جواب ﴿لَوْ﴾ للتهويل ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي لرأيتم ما تشيب له الرءوس، وتفزع له النفوس من الشدائد والأهوال.

---

(١) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٧٢.

(٢) جزء من حديث رواه البخاري. (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٣) «التسهيل» ٤/ ٢١٦.

(٤) (ش): مُضْمَر: غير ظاهر.

(٥) «الألوسي» ٣٠/ ٢٢٥.

(٦) «البحر المحيط» ٨/ ٥٠٨.

(٧) (ش): فالعطف يقتضي المغايَرة - أي الاختلاف - بين المعطوف والمعطوف عليه.

٤ – الإطناب بتكرار الفعل ﴿ لَتَرَوُنَّ ﴾ ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ﴾ لبيان شدة الهول.
٥ – الكناية ﴿ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴾ كنّى عن الموت بزيارة القبور، والمراد حتى مُتُّم.
٦ – المطابقة بين ﴿ٱلنَّعِيمِ .. ٱلۡجَحِيمَ ﴾.
٧ – توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: روى الترمذي عن عبد الله بن الشخِّير قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ فقال: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟»»[١].

لطيفَة: روى مسلم عن أبي هريرة قال: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْم أَوْ لَيْلَةٍ فَإِذَا هُوَ بِأَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ، فقال ﷺ: « مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟ ». قَالاَ: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: « وَأَنَا وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لأَخْرَجَنِى الَّذِى أَخْرَجَكُمَا قُومُوا ». فَقَامُوا مَعَهُ فَأَتَى رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِى بَيْتِهِ فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلاً. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَيْنَ فُلاَنٌ؟». قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ. إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِىُّ فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّى. فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ – عُنقود – فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ. وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ – السِّكِّين – فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ ». فَذَبَحَ لَهُمْ فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرِبُوا فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قَالَ رَسُولُ اللهِ –ﷺ– لأَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ »[٢].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التكاثر»



(١) (ش): وروَاهُ مُسْلِمٌ.
(٢) (ش): (ذَهَبَ يَسْتَعْذِب لَنَا الْمَاء) أَيْ يَأْتِينَا بمَاءٍ عَذْب. (إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِيُّ) أي هم في ذلك إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِيُّ». (الْعِذْق) الْغُصْن مِن النَّخْل. (الْحَلُوب): ذَات اللَّبَن.



مكية وآياتها ثلاث

بين يدي السورة

* سورة العصر مكية، وقد جاءت في غاية الإيجاز والبيان، لتوضيح سبب سعادة الإنسان أو شقاوته، ونجاحه في هذه الحياة أو خسرانه ودماره.

* أقسم تعالى بالعصر وهو الزمان الذي ينتهي فيه عمر الإنسان، وما فيه من أصناف العجائب، والعبر الدالة على قدرة الله وحكمته، على أن جنس الإنسان في خسارة ونقصان، إلا من اتصف بالأوصاف الأربعة وهي (الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والاعتصام بالصبر) وهي أسس الفضيلة، وأساس الدين، ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله: لو لم ينزل الله سوى هذه السورة لكفت الناس.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ

التفسير: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ أي أُقْسِمُ بالدهر والزمان[1] لِمَا فيه من أصناف الغرائب والعجائب، والعبر والعظات، على أن الإنسان في خسران، لأنه يفضِّل العاجلة على الآجلة وتغلب عليه الأهواء والشهوات قال ابن عباس: العصر هو الدهر أقسم تعالى به لاشتماله على أصناف العجائب وقال قتادة: العصرُ هو آخر ساعات النهار، أقسم به كما أقسم بالضحى لما فيهما من دلائل القدرة الباهرة، والعظة البالغة[2].. وإنما أقسم تعالى بالزمان لأنه رأس عمر الإنسان، فكل لحظةٍ تمضي فإنها من عمرك ونقص من أجلك، كما قال القائل:

إِنَّـا لَنَفْرَحُ بِالأَيَّامِ نَقْطَعُهَا ... وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى نَقْصٌ مِنَ الأَجَلِ

قال القرطبي: أقسم الله عَزَّ وَجَلَّ بالعصر وهو الدهر لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدلها، وما فيه من الدلائل على الصانع، وقيل: هو قَسَمٌ بصلاة العصر؛ لأنها أفضل

---

(١) (ش): تقدم كثيرًا أن الْخَالِقَ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَأن الْمَخْلُوق لاَ يُقْسِمَ إِلاَّ بِالْخَالِقِ.

(٢) «البحر» ٨/ ٥٠٩.

الصلـوات[1] فهـؤلاء هـم الفائزون لأنهم باعوا الخسيس بالنفيس[2]، واستبدلوا الباقيات الصالحات عوضًا عن الشهوات العاجلات ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي أوصى بعضهم بعضًا بالحق، وهو الخير كله، من الإيمان، والتصديق، وعبادة الرحمن ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ أي وتواصوا بالصبر على الشدائد والمصائب، وعلى فعل الطاعات، وترك المحرمات.. حكم تعالى بالخسار على جميع الناس إلا من أتى بهذه الأشياء الأربعة وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.. فإن نجاة الإنسان لا تكون إلا إذا كَمَّل الإنسان نفسه بالإيمان والعمل الصالح، وكَمَّل غيره بالنُّصح والإرشاد، فيكون قد جمَع بين حق الله، وحق العباد، وهذا هو السرُّ في تخصيص هذه الأمور الأربعة.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - إطلاق البعض وإرادة الكل ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أي الناس بدليل الاستثناء.

٢ - التنكير للتعظيم ﴿لَفِي خُسۡرٍ﴾ أي في خسرٍ عظيم ودمار شديد.

٣ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ لإبراز كمال العناية به.

٤ - ذكر الخاص بعد العام ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ بعد قوله ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ فإن الصبر داخل في عموم الحق، إلا أنه أفرده بالذكر إشادة بفضيلة الصبر.

٥ - السجع غير المتكلف مثل ﴿وَٱلۡعَصۡرِ، بِٱلصَّبۡرِ، خُسۡرٍ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: أخرج البيهقي في الشعب عن «أبي حذيفة» وكانت له صحبة قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقَيَا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدُهما على الآخر سورة ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ ثم يُسَلِّمُ أحدهما على الآخر[3].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العصر»

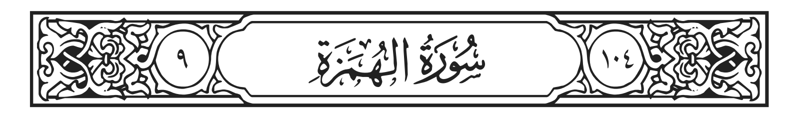
---

(١) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٧٩. (ش): قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. عن عَلِيّ بن أَبِى طَالِبٍ - رضى الله عنه - قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ - ﷺ - يَوْمَ الْخَنْدَقِ، فَقَالَ: «شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاَةِ الْوُسْطَى صَلاَةِ الْعَصْرِ؛ مَلأَ اللهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال، (ش): هذا التعبير يعطي أن الإيمان غير العمل، وهذا خلاف مذهب أهل السنة والجماعة من أن العمل داخلٌ في مسمَّى الإيمان بحيث لا يتحقق الإيمان بدونه، وعطْفُ العمل على الإيمان عندهم من عطف الخاص على العام اهتمامًا به، كما قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

(٢) (ش): خَسيس: حقير. نفيس: عظيم القيمة.

(٣) (ش): ورواه الطبراني، وصحَّح إسنادَه الألباني.

وهذا الأثر يدل على أن التسليم عند الافتراق، وقراءة سورة العصر قبل التفرُّق كانا من هدي الصحابة رضي الله عنهم. أما اشتمال دعاء كفارة المجلس على سورة العصر فلم يَرِدْ به دليل، وإنما ورد فضل قراءتها عند التلاقي من غير تحديد وقتٍ معيَّن لذلك.



مكية وآياتها تسع

بين يدي السورة

* سـورة الهمزة مكية، وقد تحدثت عن الذين يعيبون الناس، ويأكلون أعراضهم، بالطعن والانتقاص والازدراء، وبالسخرية والاستهزاء فعل السفهاء.

* كما ذمت الذين يشتغلون بجمع الأموال، وتكديس الثـروات، كأنهم مخلدون في هذه الحياة يظنون -لفرط جهلهم وكثرة غفلتهم- أن المال سيخلدهم في الدنيا.

* وختمت بذكر عاقبة هؤلاء التعساء الأشقياء، حيث يدخلون نارًا لا تخمد أبدًا، تحطم المجرمين ومن يلقى فيها من البشر، لأنها الحطمة نار سقر!

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ

اللغـة: ﴿هُمَزَةٍ﴾ الهمَّاز: الذي يغتاب الناس ويطعن في أعراضهم، وبناءُ «فُعلَة» يدل على الاعتياد فلا يقال: لُعنَة وضُحكَة إلا للمُكثِر المعتاد ﴿لُّمَزَةٍ﴾ اللمَّاز: الذي يعيب الناس وينال منهم بالحاجب والعين ﴿الْحُطَمَةِ﴾ نار جهنم سميت بذلك لأنها تكسر كل ما يُلقى فيها وتحطّمه وتُهَشّمه ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ مُطبَقة مُغْلَقة من أوْصَد الباب إذا أغْلقه.

التفسير: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ أي عذاب شديد وهلاك ودمار، لكل من يعيب الناس ويغتابهم ويطعن في أعراضهم، أو يلمزهم سرًا بعينه أو حاجبه قال المفسرون: نزلت السورة في «الأخنس بن شريق» لأنه كان كثير الوقيعة في الناس، يلمزهم ويعيبهم مقبلين ومدبرين، والحكم عام لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[(١)]، ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ أي الذي جمع مالًا كثيرًا وأحصاه، وحافظ على عدده لئلا ينقص فمنعه من الخيرات قال الطبري: أي أحصى عدده ولم ينفقه في سبيل الله ولم يؤد حقَّ الله فيه ولكنه جمعه فأوْعَاه وحفظه[(٢)] ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أي يظن هذا الجاهل لفرط غفلته أن ماله سيتركه مخلدًا في الدنيا

---

(١) انظر «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٨٣، و«الرازي» ٣١/ ٩١. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٢) «تفسير الطبري» ٣٠/ ١٨٩. (ش): أَوْعَى مَالَهُ: وضعه فِي وِعَاءٍ حِرْصًا عَلَيْهِ، وضعه في خزائنه، ولم يؤدِّ حق الله فيه.

لا يموت ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ أي لِيرتَدِعْ عن هذا الظنّ فوالله لَيُطرَحَنَّ في النار التي تحطم كل ما يُلقى فيها وتلتهمه ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾ تفخيمٌ وتهويلٌ لشأنها أي وما الذي أَعلَمك ما حقيقة هذه النار العظيمة؟ إنها الحطمة التي تحطم العظام وتأكل اللحوم، حتى تهجم على القلوب، ثم فسرها بقوله ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ أي هي نار الله المسعَّرة بأمره تعالى وإرادته، ليست كسائر النيران فإنها لا تخمد أبدًا، وفي الحديث «أُوقِدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ»[(١)] ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ أي التي يبلُغ ألمُها ووجعُها إلى القلوب فتحرقها قال القرطبي: وخصَّ الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه، فإنهم في حال من يموت وهم لا يموتون كما قال تعالى ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٣] فهم إذًا أحياء في معنى الأموات[(٢)] ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٌ﴾ أي إن جهنم مُطبَقة مغلَقةٌ عليهم، لا يدخل إليهم رَوْح ولا رَيْحان[(٣)] ﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ أي وهم مُوثَقون[(٤)] في سلاسل وأغلال، تُشدُّ بها أيديهم وأرجلهم، بعد إطباق أبواب جهنم عليهم، فقد يئسوا من الخروج بإطباق الأبواب عليهم، وتمدد العمد إيذانًا بالخلود إلى غير نهاية.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - صيغة المبالغة ﴿هُمَزَةٖ، لُّمَزَةٍ﴾ لأن بناء «فُعلة» يدل على أنها عادة مستمرة.

٢ - التنكير للتفخيم ﴿جَمَعَ مَالٗا﴾ أي مالًا كثيرًا لا يكاد يحصى.

٣ - التفخيم والتهويل ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾؟ تهويلًا لشأن جهنم.

٤ - الجناس غير التام بين ﴿هُمَزَةٖ﴾ و﴿لُّمَزَةٍ﴾ ويسمى الجناس الناقص.

٥ - توافق الفواصل مثل ﴿وَعَدَّدَهُۥ، أَخۡلَدَهُۥ، ٱلۡمُوقَدَةُ، مُّمَدَّدَةِۭ﴾ ويسمى بالسجع.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الهمزة»

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة مرفوعًا، قال: والأصح أنه موقوف. (ش): ضعَّفه الألباني.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ١٨٥.

(٣) (ش): رَوْحٌ: رَحْمَةٌ وَاسِعَةٌ، وَاسْتِرَاحَةٌ، وَفَرَحٌ. رَيْحان: رِزْقٌ حَسَنٌ، وَرَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، وَجَمِيعُ مَا تَطِيبُ بِهِ نَفْسُهُ.

(٤) (ش): في أكثر من طبعة: مَوْثُوقون. والمُثبَتُ هنا هو الصواب، يقال: أوثق الأسيرَ ونحْوَه، إيثاقًا، فهو مُوثِق، والمفعول مُوثَق: شدَّه في الوَثاق أي القيد بحبل أو سلسلة. ويقال: وثِق بالشّخص/ وثِق في الشّخص/ وثِق من الشخص، ثِقَةً ووُثوقًا ووَثاقةً، فهو واثِق، والمفعول مَوثُوق به: ائتمنه، صدّقه، وضع ثِقتَه به.



مكية وآياتها خمس

بين يدي السورة

* سورة الفيل مكية، وهي تتحدث عن قصة «أصحاب الفيل» حين قصدوا هدم الكعبة المشرفة، فرد الله كيدهم في نحورهم، وحمى بيته من تسلطهم وطغيانهم، وأرسل على جيش «أبرهة الأشرم» وجنوده أضعف مخلوقاته، وهي الطير التي تحمل في أرجلها ومناقيرها حجارة صغيرة، ولكنها أشد فتكًا وتدميرًا من الرصاصات القاتلة، حتى أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم، وكان ذلك الحدث التاريخي الهام في عام ميلاد سيد الكائنات محمد بن عبد الله[1]، سنة سبعين وخمسمائة ميلادية وكان من أعظم الإرهاصات[2] الدالة على صدق نبوته ﷺ.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾

اللغَة: ﴿أَبَابِيلَ﴾ جماعاتٍ جماعاتٍ بعضُها في إِثْر بعض. قال الجوهري: وهو من الجمع الذي لا واحد له يقال: جاءت إِبِلُك أبابيلَ أي فرقًا وجماعاتٍ قال الشاعر:

كَادَتْ تُهَدُّ مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي ... إِذْ سَالَتِ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ[3]

﴿سِجِّيلٍ﴾ طين متحجر ﴿كَعَصْفٍ﴾ ورق الزرع بعد الحصاد كالتين وقشر الحنطة، سمى عصفًا لأن الريح تعصف به فتفرقه ذات اليمين وذات الشمال.

التفسِير: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ أي ألم يبلُغك يا محمد وتعلم علمًا يقينيًّا كأنه مشاهَدٌ بالعين، ماذا صنع الله العظيم الكبير بأصحاب الفيل الذين قصدوا الاعتداء على البيت الحرام؟ قال المفسرون: روى أن «أبرهة الأشرم» ملك اليمن، بنى كنيسة بصنعاء وأراد

---

(١) (ش): وصف الرسول ﷺ بأنه سيد الكائنات، وصف فيه غلو وإطراء، وقد نهى النبي ﷺ عن مثل ذلك، فلو قال المؤلف: «سيد البشر» لكان ذلك صحيحًا مطابقًا لقوله - ﷺ -: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(رَوَاهُ مُسْلِمٌ)، أما سيادته على الكائنات فهذا لا دليل عليه.

(٢) (ش): الإِرْهاص: أَمرٌ خارق للعادة يُظهِره الله قبل بَعثة نبي، يكون من مُقَدِّمات نُبُوَّته.

(٣) «البحر المحيط» ٨/ ٥١١. (ش): هدَّ الحائطَ: هدَمه بشدَّةِ صوتٍ. هدَّه الأمرُ: أوهنه وبلغ منه. الْجُرْد: خَيلٌ قصيرةُ شعْرِ الجلْد. سَالَتِ الْأَرْضُ بهم: أنهم كثير كأنهم السَّيْل، أي الطوفان، وهو ماء كثير يسيل، أو ماء المطر إذا تجمّع فوق الأرض وجرى مسرعًا غزيرًا.

أن يصرف إليها الحجيج، فجاء رجلٌ من كنانة وتغوَّط فيها ليلًا ولطخ جدرانها بالنجاسة احتقارًا لها، فغضب «أبرهة» وحلف أن يهدم الكعبة، وجاء مكة بجيش كبير على أفيال، يتقدمهم فيل هو أعظم الفيلة، فلما وصل قريبًا من مكة فرَّ أهلها الى الجبال، خوفًا من جنده وجبروته، وأرسل الله تعالى على جيش أبرهة طيورًا سودًا، مع كل طائر ثلاثة أحجار، جحر في منقاره وحجران في رجليه، فرمَتْهم الطيور بالحجارة، فكان الحجر يدخل في رأس الرجل ويخرج من دبره فيرميه جثة هامدة، حتى أهلكهم الله ودمَّرهم عن آخرهم، وكانت قصتهم عبرة للمعتَبِرين[١] قال أبو السعود: وتعليقُ الرؤية بكيفية فعله جل وعلا ﴿كَيْفَ فَعَلَ﴾ لا بنفسه بأن يقال: «ألم تر ما فعل ربك» الخ لتهويل الحادثة، والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة، وهيئةٍ عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى، وكمال علمه وحكمته وشرف رسوله ﷺ فإن ذلك من الإرهاصات لما رُوِي أن القصة وقعَت في السنة التي ولد فيها النبي عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام[٢] ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي ألم يهلكهم ويجعل مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة في ضياع وخسار؟! ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أي وسلَّط عليهم من جنوده طيرًا أَتَتْهم جماعاتٍ، متتابعة بعضها في إِثْر بعض، وأحاطت بهم من كل ناحية ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي تقذفهم بحجارة صغيرة من طين متحجر، كأنها رصاصات ثاقبة لا تصل إلى أحدٍ إلا قتلَتْه ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أي فجعلهم كورق الشجر الذي عصفت به الريح، وأكلته الدواب ثم راثَتْه[٣]، فأهلكهم عن بكْرة أبيهم، وهذه القصة تدل على كرامة الله للكعبة، وإنعامه على قريش بدَفْع العدو عنهم، فكان يجب عليهم أن يعبدوا الله ويشكروه على نعمائه، وفيها مع ذلك عجائب وغرائب من قدرة الله على الانتقام من أعدائه قال في البحر: كان صَرْفُ ذلك العدُوّ العظيم عام مولده السعيد عليه السلام، إرهاصًا بنبوته إِذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول، من خوارق العادات والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم السلام، وقد أهلكهم الله تعالى بأضعف جنوده وهي الطير التي ليست من عادتها أنها تقتل[٤].

البَلَاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

---

(١) انظر «التفسير الكبير» ٩٦/٣١، و«تفسير القرطبي» ١٨٧/٢٠. (ش): لا تكاد الروايات التأريخية لقصة أصحاب الفيل تخرج عن الوصف القرآني إلا في تحديد جزئيات وتفصيلات يسيرة. [انظر: السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية (١/ ٩٧)].

(٢) «أبو السعود» ٥/ ٢٨٥. (ش): إن القرائن التأريخية المحتفَّة بالروايات التي تفيد مولد النبي ﷺ عام الفيل قوية، ويرى ابن القيم ويتابعه القسطلاني أن مولد النبي كان في عام الفيل بعد حادثة الفيل، لأن قصة الفيل توطئةٌ وإرهاصٌ لظهوره، حيث دفع الله نصارى الحبشة عن الكعبة دون حَوْلٍ من العرب المشركين تعظيمًا لبيتِه. [انظر: السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية (١/ ٩٨)].

(٣) (ش): (رَاثَ): أَلْقَى غَائِطَهُ، أَيْ بِرَازَهُ، مَا تَطْرَحُهُ الْأَمْعَاءُ مِنْ فَضَلَاتٍ.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٥١٢.

١ - الاستفهام للتقرير والتعجيب ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ..﴾ الآية.

٢ - الخطاب للنبي ﷺ بإِضافته إِلى اسم الجلالة ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ تشريف للنبي العظيم، وإِشادةٌ بقدرة الله تعالى.

٣ - التشبيه المرسل المجمل ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه.

٤ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿ٱلْفِيلِ، تَضْلِيلٍ، سِجِّيلٍ، أَبَابِيلَ﴾ إلخ.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفيل»





مكية وآياتها أربع

بين يدي السورة

* تحدثت هذه السورة عن نعم الله الجليلة على أهل مكة، حيث كانت لهم رحلتان: في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام من أجل التجارة، وقد أكرم الله تعالى قريشًا بنعمتين عظيمتين من نعمه الكثيرة هما: نعمة الأمن والاستقرار، ونعمة الغنى واليسار[1] ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ

التفسير: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ﴾ هذه اللام متعلقة بالفعل الذي بعدها ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ ومعنى ﴿لِإِيلَافِ﴾ الإلفُ والاعتياد يقال: أَلِفَ الرجُلُ الأمرَ إِلْفًا؛ وآلَفَه غيره إيلافًا. والمعنى: من أجل تسهيل الله على قريش وتيسيره لهم ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام كما قال تعالى: ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ أي في رحلتي الشتاء والصيف، حيث كانوا يسافرون للتجارة، ويأتون بالأطعمة والثياب، ويربحون في الذهاب والإياب، وهم آمنون مطمئنون لا يتعرض لهم أحد بسوء، لأن الناس كانوا يقولون: هؤلاء جيرانُ بيت الله وسُكان حرمه، وهم أهل الله لأنهم ولاة الكعبة، فلا تؤذوهم ولا تظلموهم، ولما أهلك الله أصحاب الفيل، وردَّ كيدهم في نحورهم، ازداد وقع أهل مكة في القلوب، وازداد تعظيم الأمراء والملوك لهم، فازدادت تلك المنافع والمتاجر، فلذلك جاء الامتنان على قريش، وتذكيرهم بنعم الله ليُوَحِّدوه ويشكروه ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ أي فليعبدوا الله العظيم الجليل، ربَّ هذا البيت العتيق، وليجعلوا عبادتهم شكرًا لهذه النعمة الجليلة التي خصَّهم بها قال المفسرون: وإنما دخلت الفاء ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ لما في الكلام من معنى الشرط كأنه قال: إن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه من أجل إِلْفهم الرحلتين، التي هي مِن أظهرِ نِعَمِه عليهم؛ لأنهم في بلادٍ لا زَرْع فيها ولا ضَرْع[2]، ولهذا قال بعده ﴿الَّذِي

(١) (ش): يَسار: غِنًى وثَرْوة، رخاء، سِعَة.

(٢) (ش): الضَّرْعُ: مَدَرُّ اللّبن في ذوات الظِّلْف والخُفِّ، وهو كالثّدي للمرأة، ضَرْع البقرة/ الشَّاة. والظِلْف: ظفر مشقوق، للبقرة والشّاة والظبي ونحوهم، وهو بمنزلة الحافر للفرس والظفر للإنسان. خُفّ البعير: ما يقابل =

﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ أي هـذا الإلـه الـذي أطعمهم بعد شـدة جـوع، وآمنهم بعـد شـدة خوف، فقد كانوا يسـافرون آمنين لا يتعـرض لهم أحد، ولا يُغيـر عليهم أحد لا في سفرهم ولا في حضرهم كما تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] وذلـك ببركة دعـوة أبيهم الخليل إبراهيم عليه السـلام حيث قال ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] وقولـه ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقـرة: ١٢٦] أفـلا يجب على قريش أن يفردوا بالعبادة هذا الإله الجليل، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف؟!

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ – الطبـاق بين ﴿الشِّتَاءِ .. وَالصَّيْفِ﴾ وبين الجوع والإطعام ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ وبين الأمن والخوف ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

٢ – الإضافة للتكريم والتشريف ﴿رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾.

٣ – تقديـم ما حقه التأخير ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ والأصل (لْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت لإِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشتاء والصيف) فقدَّم الإيلاف تذكيرًا بالنعمة.

٤ – التنكيـر في لفظـة ﴿جُوعٍ﴾ ولفظة ﴿خَوْفٍ﴾ لبيان شـدتهما أي جوع شـديد، وخوفٍ عظيم.

تنبيـه: قال الإمـام الفخر: إعلـم أنَّ الإنعام على قسـمين: أحدهما دفع ضـر وهو ما ذكره في سـورة الفيل، والثـاني: جلب النفع وهو ما ذكره في هذه السـورة، ولما دفع الله عنهم الضر، وجلـب لهم النفع، وهما نعمتان عظيمتان أمرهم بالعبودية وأداء الشـكر ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ..﴾ الآيات.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة قريش»



= القدم عند الإنسان والحافر عند الفرس. الزَّرْعُ وَالضَّرْعُ: الزِّرَاعَةُ وَالْمَاشِيَةُ. ما له زَرْع ولا ضَرْع: ليس له شيءٌ من أرض أو حيوان.



مكية وآياتها سبع

بين يدي السورة

* هذه السورة مكية، وقد تحدثت بإيجاز عن فريقين من البشر هما:

أ- الكافر الجاحد لنعم الله، المكذب بيوم الحساب والجزاء.

ب- المنافق الذي لا يقصد بعمله وجه الله، بل يرائي في أعماله وصلاته.

* أما الفريق الأول: فقد ذكر تعالى من صفاتهم الذميمة، أنهم يهينون اليتيم ويزجرونه[1] غلظة لا تأديبًا، ولا يفعلون الخير، حتى ولو بالتذكير بحق المسكين والفقير، لا هم أحسنوا في عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه.

* وأما الفريق الثاني: فهم المنافقون، الغافلون عن صلاتهم، الذين لا يؤدونها في أوقاتها، والذين يقومون بها «صورة» لا «معنى» المراءون بأعمالهم وقد توعدت الفريقين بالويل والهلاك، وشنعت عليهم أعظم تشنيع، بأسلوب الاستغراب والتعجيب من ذلك الصنيع!!

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ

اللغَة: ﴿يَدُعُّ﴾ يدفع بعنفٍ وشدة يقال: دعَّه دعًّا أي دفعه دفْعًا ومنه ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] ﴿يَحُضُّ﴾ الحَضُّ: الحثُّ والترغيب ﴿سَاهُونَ﴾ جمع ساهٍ يقال: سها عن كذا يسهو سهوًا إذا تَركه عن غفلة ﴿ٱلۡمَاعُونَ﴾ الشيء القليل، من المَعن وهو القلة تقول العرب: «مَا لَه مَعْنَةٌ ولا سَعْنَةٌ» أي ما لَه قليلٌ ولا كثيرٌ من المال، قال المبّرد والزجاج: الماعون كل ما فيه منفعة كالفأس والقِدْر والدَّلْو وغير ذلك.

التفسِير: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾؟ استفهام للتعجيب والتشويق، أي: هل عرفت الذي يكذب بالجزاء والحساب في الآخرة؟ هل عرفتَ من هو، وما أوصافه إن أردتَ تعرفه[2]؟ ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾ أي فذلك هو الذي يدفع اليتيم دفعًا عنيفًا بجفوة وغلظة، ويقهره ويظلمه ولا يعطيه حقه ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ أي ولا يحث على

(١) (ش): زجَر الشَّخصَ: طرده صائحًا به محتقرًا له.

(٢) (ش): هكذا في أكثر من طبعة، ولعل الصواب: إن أردتَ أن تعرفه؟

إِطعام المسكين قال أبو حيان: وفي قوله ﴿ وَلَا يَحُضُّ ﴾ إشارة إِلى أنه هو لا يُطعم إِذا قدر، وهذا من باب الأولى لأنه إِذا لم يحُـضَّ غيرَه بُخلًا، فلأَنْ يترك هو ذلك فعلًا أَوْلَى وأحرى[١] وقال الرازي: فإِن قيل: لِمَ قال ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ ولم يقل: ولا يُطعم المسكين؟ فالجواب أنه إِذا منَع اليتيم حقه، فكيف يُطعم المسكين من مال نفسه؟ بل هو بخيل من مال غيره، وهذا هو النهاية في الخسة، ويدل على نهاية بخله، وقساوة قلبه، وخساسة طبعه[٢]، والحاصل أنه لا يُطعم المسكين ولا يأمر بإِطعامه، لأنه يكذّب بالقيامة، ولو آمن بالجزاء وأيقن بالحساب لما صدر عنه ذلك ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ أي هلاكٌ وعذابٌ للمصلين المنافقين، المتصفين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ أي الذين هم غافلون عن صلاتهم، يؤخرونها عن أوقاتها تهاونًا بها قال ابن عباس: هو المصلي الذي إن صلى لم يَرْجُ لها ثوابًا، وإن تركها لم يخْشَ عليها عقابًا[٣] وقال أبو العالية: لا يصلونها لمواقيتها، ولا يُتِمُّون ركوعها ولا سجودها[٤]، وقد سئل رسول الله ﷺ عن الآية فقال: «هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها»[٥] قال المفسرون: لمَّا قال تعالى ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ بلفظة ﴿عَن ﴾ عُلم أنها في المنافقين، ولهذا قال بعض السلف: الحمد لله الذي قال ﴿عَن صَلَاتِهِمْ ﴾ ولم يقل (في صلاتهم) لأنه لو قال (في صلاتهم) لكانت في المؤمنين، والمؤمنُ قد يسهو في صلاته، والفرق بين السهوين واضح، فإن سهو المنافق سهو تركٍ وقلة التفات إِليها، فهو لا يتذكرها ويكون مشغولًا عنها، والمؤمن إِذا سها في صلاته تداركه في الحال وجبره بسجود السهو، فظهر الفارق بين السَّهْوَيْن، ثم زاد في بيان أوصافهم الذميمة فقال ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ أي يُصَلُّون أمام الناس رياءً ليُقال: إِنهم صلحاء، ويتخَشَّعون ليُقال: إِنهم أتقياء، ويتصدقون ليُقال: إِنهم كرماء، وهكذا سائر أعمالهم للشهرة والرياء ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ أي ويمنعون الناس المنافع اليسيرة، من كل ما يستعان به كالإبرة، والفأس، والقِدْر، والملح، والماء وغيرها قال مجاهد: الماعون العارية للأمتعة وما يتعاطاه الناس بينهم كالفأس والدلو والآنية وقال الطبري: أي يمنعون الناس منافع ما عندهم، وأصل الماعون من كل شيء منفعته[٦]. وفي الآية زجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيرة؛ فإِن البخل بها نهاية البخل وهو مخل بالمروءة.

البَلَاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

---

(١) «البحر المحط» ٨/ ٥١٧.

(٢) «التفسير الكبير» ٣١/ ١٦٢.

(٣) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢١١.

(٤) نفس المرجع السابق.

(٥) أخرجه ابن جرير. (ش): ضعفه الألباني.

(٦) «تفسير الطبري» ٣٠/ ٢٠٣.

١ - الاستفهام الذي يراد به تشويق السامع إلى الخبر والتعجيب منه ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾؟

٢ - الإِيجاز بالحذف ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ حذف منه الشرط، أي: إِن أردت أن تعرفه فذلك الذي يدعُّ اليتيم، وهذا من أساليب البلاغة.

٣ - الذم والتوبيخ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ ووضع الظاهر مكان الضمير ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم ﴾ زيادة في التقبيح لأنهم مع التكذيب ساهون عن الصلاة.

٤ - الجناس الناقص ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾.

٥ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿سَاهُونَ، يُرَآءُونَ، ٱلْمَاعُونَ﴾ إلخ.

«انتهى تفسير سورة الماعون»





مكية وآيتها ثلاث

بين يدي السورة

* سـورة الكوثر مكية، وقد تحدثت عن فضل الله العظيم على نبيه الكريم، بإعطائه الخير الكثيـر والنعـم العظيمة في الدنيـا والآخرة، ومنها «نهـر الكوثر» وغير ذلك مـن الخير العظيم العميم، وقد دعت الرسول إلى إدامة الصلاة، ونحر الهدى شكرًا لله.

* وختمت السورة ببشارة الرسول ﷺ بخزي أعدائه، ووصفت مبغضيه بالذلة والحقارة، والانقطـاع من كل خير في الدنيا والآخرة، بينما ذكر الرسـول مرفـوع على المنائر والمنابر(١)، واسمه الشريف على لسان، خالد إلى آخر الدهر والزمان.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

اللغَة: ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ الخير الكثير وهو مبالغة من الكثرة، والعرب تسـمي كل شـيء كثير في العدد، والقدْر والخطر كوْثرًا قال الشاعر:

وَأَنْـتَ كَثِيرٌ يَا ابْـنَ مَـرْوَانَ طَيِّبٌ ... وَكَـانَ أَبُـوكَ ابْنُ الْعَقَائِلِ كَوْثَرَا (٢)

﴿وَٱنْحَرْ﴾ لنَّحْر خاص بالإبل، وهو بمنزلة الذبح في البقر والغنم ﴿شَانِئَكَ﴾ الشانِئ: المُبغِض من الشـنآن بمعنى العداوة والبغُض ومنه ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ [المائدة: ٢] أي بُغضُهم ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ المُنقطِع عن كل خير، من البَتْر وهو القطعُ يقال: بترتُ الشـيء بترًا قطَعْته، والسـيف الباترُ: القاطعُ، ويقال للذي لا نسـل له أبتر، لأنه انقطع نسـبه، وسـميت خطبة زياد بالخطبة البتراء لأنه لم يحمد الله فيها ولم يصلّ على النبي ﷺ(٣).

التفسِير: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ تكريمًا لمقامه الرفيع وتشريفًا، أي: نحن أعطيناك يا محمد الخير الكثير الدائم في الدنيا والآخرة، ومن هذا الخير «نهر الْكَوْثَر» وهـو كما ثبت في الصحيح « نَهْرٌ فِـى الْجَنَّةِ حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ وَمَجْرَاهُ عَلَى الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ تُرْبَتُهُ

---

(١) (ش): المَنارة: المِئذنة.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢١٦. (ش): العقيلة: الزَّوْجَة الْكَرِيمَة، وسيد الْقَوْم، والجمعُ عقائل.

(٣) (ش): الخطبة منسوبة لزياد بن أبيه، يُروَى أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما اختاره واليًا على البصرة، وكانت مَعقِلًا للخارجين على الخلافة الأموية ولهذا فقد كانت الفتن والثورات على بني أمية تنبع منها. فلما وصل زياد إلى البصرة صعد المنبر وألقى هذه الخطبة.

أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا»(١).

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؛ قَالَ «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ». فَقَرَأَ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾». ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؛». فَقُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ – أي يُنتَزَع ويُقتطَع منهم – فَأَقُولُ: «رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي». فَيَقُولُ: «مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَ بَعْدَكَ»(٢) قال أبو حيان: وذكر في الكوثر ستة وعشرون قولًا، والصحيحُ هو ما فسره به رسول الله ﷺ فقال: «هُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ. حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَجْرَاهُ عَلَى الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ». وعن ابن عباس: الكوثرُ: الخير الكثير ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ أي فصلِّ لربك الذي أفاضَ عليك من الخير خالصًا لوجهه الكريم، وانْحر الإبل التي هي خيار أموال العرب شكرًا له على ما أَوْلَاك ربُّك(٣) من الخيرات والكرامات قال في التسهيل: كان المشركون يصلون مُكاءً وتَصديةً(٤)، وينحرون للأصنام فقال الله لنبيه ﷺ: صلِّ لربك وحده، وانْحر لوجهه لا لغيره، فيكون ذلك أمرًا بالتوحيد والإخلاص ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أي إن مُبغِضَك يا محمد هو المنقطع عن كل خير قال المفسرون: لما مات «القاسم» ابن النبي ﷺ قال العاص بن وائل: دعوه فإنه رجلٌ أبتر لا عقب له -أي لا نسله له- فإذا هلك انقطع ذكره فأنزل الله تعالى هذه السورة(٥)، وأخبر تعالى أن هذا الكافر هو الأبتر وإن كان له أولاد، لأنه مبتور من رحمة الله، أي مقطوع عنها، ولأنه لا يُذكر إلا ذكر باللعنة، بخلاف النبي ﷺ فإن ذكره خالد إلى آخر الدهر، مرفوع على المآذن والمنابر، مَقْرونٌ بذكر الله تعالى،

---

(١) رواه الترمذي. (ش): صححه الألباني.

(٢) رواه مسلم والترمذي.

(٣) (ش): أَوْلَاك ربُّك: أعطاك ربك.

(٤) (ش): أي صفيرًا وتصفيقًا.

(٥) (ش): موضوع، رواه ابنُ سعد في «الطبقات الكبرى». وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا قَدِمَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ مَكَّةَ قَالَتْ قُرَيْشٌ: «أَلَا تَرَى هَذَا الصُّنْبُورَ الْمُنْبَتِرَ مِنْ قَوْمِهِ؟ يَزْعُمُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَّا، وَنَحْنُ أَهْلُ الْحَجِيجِ، وَأَهْلُ السِّدَانَةِ، وَأَهْلُ السِّقَايَةِ!». قَالَ: «أَنْتُمْ خَيْرٌ». فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الْكَوْثَر:٣] وَنَزَلَ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ۝٥١ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النِّسَاء: ٥٢، ٥١]. (رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَالْبَزَّارُ وَابْنُ جَرِيرٍ، وصححه الألباني). (الصُّنْبُورُ): الرَّجُلُ الْفَرْدُ الضَّعِيفُ الذَّلِيلُ بِلَا أَهْلٍ وعَقِبٍ وَنَاصِرٍ. الْمُنْبَتِرَ: الْمُنْقَطِعُ.

والمؤمنون من زمانه إلى يوم القيامة أتباعُه فهو كالوالد لهم صلوات الله وسلامه عليه.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجِزها فيما يلي:

١ – صيغة الجمع الدالة على التعظيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ ولم يقل: أنا أعطيتك.

٢ – تصدير الجملة بحرف التأكيد الجاري مجرى القسم ﴿إِنَّآ﴾ لأن أصلها إِنَّ ونحن.

٣ – صيغة الماضي المفيدة للوقوع ﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾ ولم يقل: سنعطيك لأن الوعد لما كان محققًا عبَّر عنه بالماضي مبالغة كأنه حدث ووقع.

٤ – المبالغة في لفظة الكوثر.

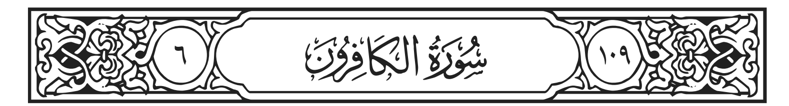
٥ – الإِضافة للتكريم والتشريف ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾.

٦ – إِفادة الحصر ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

٧ – المطابقة بين أول السورة وآخرها بين ﴿ٱلْكَوْثَرَ و ٱلْأَبْتَرُ﴾ فالكوثر الخير الكثير، والأبتر المنقطع عن كل خير، فهذه السورة على وجازتها جمعت فنون البلاغة والبيان فسبحان مُنزل القرآن!

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الكوثر»





مكية وآياتها ست

بين يدي السورة

* سورة الكافرون مكية، وهي سورة التوحيد والبراءة من الشرك والضلال، فقد دعا المشركون رسول الله ﷺ إلى المهادنة، وطلبوا منه أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة فنزلت السورة [١] تقطع أطماع الكافرين، وتفصل النزاع بين الفريقين: أهل الإيمان، وعبدة الأوثان، وترد على الكافرين تلك الفكرة السخيفة في الحال والاستقبال.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ

التفسير: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين يدعونك إلى عبادة الأوثان والأحجار: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي لا أعبد هذه الأصنام والأوثان التي تعبدونها، فأنا بريءٌ من آلهتكم ومعبوداتكم التي لا تضر ولا تنفع ولا تُغني عن عابدها شيئًا. قال المفسرون: إن قريشًا طلبت من الرسول ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، فقال. معاذ الله أن نشرك بالله شيئًا. فقالوا: فاستلِم بعض آلهتنا نصدِّقْك ونعبدْ إلهك، فنزلت السورة فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقام على رءُوسهم فقرأها عليهم فأيِسُوا منه [٢] وآذوه وآذوا أصحابه وفي قوله ﴿قُلْ﴾ دليل على أنه مأمور بذلك من عند الله، وخطابه ﷺ لهم بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ونسبتهم إلى الكفر وهو يعلم أنهم يغضبون من أن يُنسبوا إلى ذلك دليلٌ على أنه محروسٌ من عند الله، فهو لا يبالي بهم ولا بطواغيتهم ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي ولا أنتم يا معشر المشركين عابدون إلهي الحق الذي أعبده وهو الله وحده، فأنا أعبد الإله الحقَّ هو الله ربُّ العالمين، وأنتم تعبدون الأحجار والأوثان، وشتان بين عبادة الرحمن، وعبادة الهوى والأوثان!! ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ تأكيدٌ لما سبق من البراءة من عبادة الأحجار، وقطعٌ لأطماع الكفار كأنه قال: لا أعبد هذه الأوثان في

---

(١) (ش): ضعيف، رواه ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم في «تفسيريهما».

(٢) انظر روح المعاني للألوسي ٣/ ٢٥٠، و«تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٢٥. (ش): لم أجده بهذا السياق إلا في بعض التفاسير بدون إسناد، وذكر بعضه السيوطي في «الدر المنثور» ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.

الحال ولا في الاستقبال، فأنا لا أعبد ما تعبدونه أبدًا ما عشتُ، لا أعبد أصنامكم الآن، ولا فيما يستقبل من الزمان ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي ولستم أنتم في المستقبل بعابدين إلهي الحق الذي أعبد ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ أي لكم شرككم، ولي توحيدي، وهذا غاية في التبرؤ من عبادة الكفار، والتأكيد على عبادة الواحد القهار، قال المفسرون: معنى الجملتين الأوليين: الاختلاف التام في المعبود، فإله المشركين الأوثان، وإله محمد الرحمن، ومعنى الجملتين الأخريين: الاختلاف التام في العبادة، كأنه قال: لا معبودنا واحد، ولا عبادتنا واحدة.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الخطاب بالوصف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ للتوبيخ والتشنيع على أهل مكة.

٢ - طباق السلب ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ فالأول نَفْيٌ والثاني إثبات.

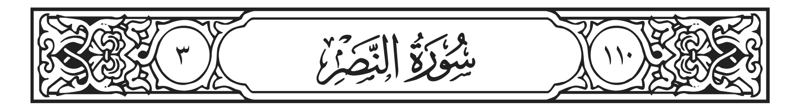
٣ - المقابلة بين كل من الجملتين الأوليين ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي في الحال، والمقابلة بين الجملتين الأخريين ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي في الاستقبال، وفي هذه المقابلة نَفْيٌ لعبادة الأصنام في الحالِ والاستقبال[1] وهو من المحسنات البديعية.

٤ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الكافرون»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) (ش): أي في الحاضر والمستقبل.



مدنية وآياتها ثلاث

بين يدي السورة

* سورة النصر مدنية، وهي تتحدث عن «فتح مكة» الذي عز به المسلمون، وانتشر الإسلام في الجزيرة العربية، وتقلمت أظافر الشرك والضلال، وبهذا الفتح المبين دخل الناس في دين الله، واضمحلت ملة الأصنام، وكان الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه، من أظهر الدلائل على صدق نبوته عليه أفضل الصلاة والسلام.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا

التفسير: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، يذكّره ربه بالنعمة والفضل عليه وعلى سائر المؤمنين. والمعنى: إذا نصرك الله يا محمد على أعدائك، وفتح عليك مكة أم القرى قال المفسرون: الإخبارُ بفتح مكة قبل وقوعه إخبارٌ بالغيب، فهو من أعلام النبوَّة ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ أي ورأيت العرب يدخلون في الإسلام جماعاتٍ جماعاتٍ من غير حرب ولا قتال، وذلك بعد فتح مكة صارت العرب تأتي من أقطار الأرض طائعة قال ابن كثير: إنَّ أحياء العرب كانت تنتظر فتح مكة، يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبيٌّ، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجًا فلم تمض سنتان حتى استوثقت جزيرة العرب إيمانًا، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهرٌ للإسلام[1] ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي فسبّح ربك وعظمه مُتَلَبِّسًا بحمده على هذه النعم، واشكره على ما أَوْلَاكَ[2] من النصر على الأعداء، وفَتْح البلاد، وإسلام العباد ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ أي اطلب منه المغفرة لك ولأُمتك ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ أي إنه جلّ وعلا كثير التوبة، عظيم الرحمة لعباده المؤمنين.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - ذِكر الخاص بعد العام ﴿نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ نصر الله يشمل جميع الفتوحات فعطف عليه (فتح مكة) تعظيمًا لشأن هذا الفتح واعتناءً بأمره.

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٨٧، وقال القرطبي: و«إذا» بمعنى «قد» أي قد جاء نصر الله لأن نزولها بعد الفتح.

(٢) (ش): أَوْلَاكَ: أعطاك.

٢ - إِطلاق العموم وإِرادة الخصوص ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ ﴾ لفظ الناس عام والمراد به العرب.

٣ - دين الله هو الإِسلام ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ وأضافه إليه تشريفًا وتعظيمًا، كبَيْت الله وناقة الله.

٤ - صيغة المبالغة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ لأن صيغة «فعال» للمبالغة.

تنبيه: هذه السورة الكريمة فيها نَعْيُ النبي ﷺ ولهذا تسمى سورة (التوديع) وحين نزلت قال رسول الله ﷺ لعائشة: «ما أراه إِلا حضور أجلي»[1]، وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع، ثم نزلت ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] الآية. فعاش بعدهما النبي ﷺ ثمانين يومًا[2]. وروى الإِمام البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجدَ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ: «لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟» فَقَالَ عُمَرُ: «إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ عَلِمْتُمْ». فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْم، وَدَعَانِي مَعَهُمْ، فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلاَّ لِيُرِيَهُمْ. فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾؟». فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا بِأَن نَحْمَدَ اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ، إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا». وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا فَقَالَ لِي: «أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟». فَقُلْتُ: «لا». قَالَ: «فَمَا تَقُولُ؟». قُلْتُ: «هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ اللهُ لَهُ، قَالَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ وَذَلِكَ عَلامَةُ أَجَلِكَ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾». فَقَالَ عُمَرُ: «مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلاَّ مَا تَقُولُ»[3].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النصر»

❁ ❁ ❁ ❁

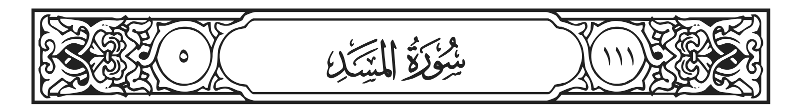
---

(١) (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

وعَن ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاطِمَةَ فَقَالَ: «قَدْ نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي»، فَبَكَتْ، فَقَالَ: «لَا تَبْكِي فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لِحَاقًا بِي»، فَضَحِكَتْ، فَرَآهَا بَعْضُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْنَ: يَا فَاطِمَةُ، رَأَيْنَاكِ بَكَيْتِ ثُمَّ ضَحِكْتِ؟ قَالَتْ: إِنَّهُ أَخْبَرَنِي أَنَّهُ قَدْ نُعِيَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ فَبَكَيْتُ، فَقَالَ لِي: «لَا تَبْكِي فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لَاحِقٌ بِي» فَضَحِكْتُ» (رواه البيهقي والدارمي بإسناد صحيح). وعن ابن عباس قال: لما نزلتْ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ قال رسول الله - ﷺ -: «نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي» بأنه مقبوض في تلك السنة. (رواه أحمد، وصححه أحمد شاكر).

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٣٣. (ش): رُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَوْسَطَ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، فَعَرَفَ أَنَّهُ الْوَدَاعُ، فَأَمَرَ بِرَاحِلَتِهِ الْقَصْوَاءِ فَرحلت، ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ النَّاسَ، فَذَكَرَ خُطْبَتَهُ الْمَشْهُورَةَ (رواه الْبَزَّارُ وَالْبَيْهَقِيُّ بإسنادٍ ضعيف).

(٣) «جمع الفوائد وأعذب الموارد» ٢/ ٢٨٥.



مكية وآياتها خمس

بين يدي السورة

* سورة المسد مكية، وتسمى سورة «اللهب»، وسورة «تبت»، وقد تحدثت عن هلاك «أبي لهب» عدو الله ورسوله، الذي كان شديد العداء لرسول الله ﷺ، يترك شغله ويتبع الرسول ﷺ ليفسد عليه دعوته، ويصد الناس عن الإيمان به، وقد توعدته السورة في الآخرة بنار موقدة يصلاها ويشوى بها، وقرنت زوجته به في ذلك، واختصتها بلون من العذاب شديد، هو ما يكون حول عنقها من حبل من ليف تجذب به في النار، زيادة في التنكيل والدمار.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾

اللغة: ﴿تَبَّتْ﴾ هلكَتْ، والتبابُ: الهلاك والخسران ومنه قوله تعالى ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧] وقال الشاعر: «فَتَبًّا لِلَّذِي صَنَعُوا»... ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ذات اشتعال وتلهُّب ﴿جِيدِهَا﴾ عُنقها قال امرؤ القيس:

وَجِيدٍ كَجِيدِ الرِّيمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ[1]

﴿مَّسَدٍۭ﴾ ليف قال الواحدي: المسد في كلام العرب: الفَتْل، يقال: مسد الحبل يمسده مسدًا إذا أجاد فَتْله، وكلُّ شيء فُتِل من الليف والخُوص فهو مسد[2].

سَبَبُ النّزول: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي «يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ». لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ». قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلاَّ صِدْقًا. قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ». فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[3].. السورة.

---

(١) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٤١. (ش): الرِّيم: الظبيُ الأبيض الخالص البياض. لَيْسَ بِفَاحِشٍ: ليس بكريهِ المنظر. (ش): خُوص: جمع خُوصة: ورق النَّخل وما شابهه.

(٢) «التفسير الكبير» ٣١/ ١٧٣.

(٣) «روح المعاني» ٣٠/ ٢٦٠. (ش): رواه البخاري.

ب- عَنْ طَارِقِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْمُحَارِبِيِّ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ وَأَنَا فِي بِيَاعَةٍ لِي فَمَرَّ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا» وَرَجُلٌ يَتْبَعُهُ يَرْمِيهِ بِالْحِجَارَةِ قَدْ أَدْمَى عُرْقُوبَيْهِ - مؤخر القدم - وَكَعْبَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تُطِيعُوا هَذَا فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟، فَقِيلَ: غُلَامٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قُلْتُ: فَمَنْ هذَا الذي يَتْبَعُهُ، يَرْمِيهِ بِالْحِجَارَةِ؟ قِيلَ: هذَا عَمُّهُ عَبْدُ الْعُزَّى أَبُو لَهَبٍ[1].

التفسير: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ أي هلكت يد ذلك الشقي ﴿أَبِي لَهَبٖ﴾ وخاب وخسر وضلَّ عمله ﴿وَتَبَّ﴾ أي وقد هلك وخسر، الأول دعاءٌ، والثاني إخبارٌ كما يقال: أهلكه اللهُ وقد هلك قال المفسرون: التباب هو الخسار المُفضِي إلى الهلاك[2]، والمراد من اليد صاحبُها، على عادة العرب من التعبير ببعض الشيء عن كله وجميعه، وأبو لهب هو «عبد العُزى بن عبد المطلب» عم النبي ﷺ وامرأته العوراء «أم جميل» أخت أبي سفيان، وقد كان كلٌّ منهما شديد العداوة للرسول ﷺ فلما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْه، وفي يدها فهْر - قطعة من الحجارة -، فلما دنَت من الرسول ﷺ أخذ الله بصرها عنه فلم تر إلاّ أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر: بلغني أن صاحبك يهْجُوني، فوالله لو وجَدته لضربت بهذا الحجر فَاهُ، ثم أنشدت تقول: مُذَمَّمًا أَبَيْنَا وَدِينَهُ قَلَيْنَا وَأَمْرَهُ عَصَيْنَا، ثم انصرفت فقال أبو بكر: يا رسول الله: أما تراها رأتْك؟ قال: ما رأتني لقد أخذ الله بصرها عني»[3]، وكانت قريش يسبون الرسول ﷺ يقولون: مذممًا بدل «محمد» وكان يقول صلوات الله عليه: «ألا تعجبون كيف صرف الله عني أذى قريش؟ يسبون ويهجون مذممًا وأنا محمد»!؟[4] قال الخازن: فإن قلت: لم كناه وفي التكنية

---

(١) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٣٦. (ش): رواه ابنُ حبان والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي والألباني. (سُوقُ ذِي الْمَجَازِ): مَوْضِعٌ بِمِنًى كَانَتْ بِهِ سُوقٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. وَقِيلَ: سُوقٌ كَانَتْ لَهُمْ عَلَى فَرْسَخٍ مِنْ عَرَفَةَ. وَالْفَرْسَخ: مِقْيَاسٌ لِلطُولِ يُقَدَّرُ بِثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ (٤٨٢٧ مِتْرًا)، أَوْ أَرْبَعَة كِيلُو مِتْرَاتٍ.

(٢) (ش): أي المُؤدّي إلى الهلاك.

(٣) (ش): عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) [المسد: ١] أَقْبَلَتِ الْعَوْرَاءُ أُمُّ جَمِيلٍ بِنْتُ حَرْبٍ وَلَهَا وَلْوَلَةٌ وَفِي يَدِهَا فِهْرٌ وَهِيَ تَقُولُ: مُذَمَّمًا أَبَيْنَا وَدِينَهُ قَلَيْنَا وَأَمْرَهُ عَصَيْنَا، وَالنَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ فَلَمَّا رَآهَا أَبُو بَكْرٍ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَرَاكَ». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي». وَقَرَأَ قُرْآنًا فَاعْتَصَمَ بِهِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَقَرَأَ: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٥] فَوَقَفَتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَلَمْ تَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنِّي أُخْبِرْتُ أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي». فَقَالَ: «لَا وَرَبِّ هَذَا الْبَيْتِ مَا هَجَاكِ». فَوَلَّتْ وَهِيَ تَقُولُ: «قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي بِنْتُ سَيِّدِهَا»(رَوَاهُ الْحَاكِمُ وصححه ووافقه الذهبي والألباني). (وَلْوَلَةٌ): الْوَلْوَلَةُ: الدُّعَاء بِالْوَيْلِ. (فِهْرٌ): حَجَرٌ. (هَجَانِي): ذَمَّنِي وَعَدَّدَ مَعَايِبِي. قلَى فلانًا: أبغضه واشتدّ كُرْهُه له فهجره.

(٤) انظر «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٣٤، و«الألوسي» ٣٠/ ٢٦٤. (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «أَلاَ تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ، يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ» رواه البخاري.

تشريف وتكرمة؟ فالجواب من وجوه: أحدهما: أنه كان مشتهرًا بالكنية دون الاسم، فلو ذكره باسمه لم يعرف. الثاني: أنه كان اسمه «عبد العزى» فعدل عنه إلى الكنية لما فيه من الشرك لأن العزَّى صنم فلم تُضَف العبودية إلى صنم. الثالث: أنه لما كان من أهل النار، ومآله إلى النار، والنارُ ذاتُ لهب، وافقت حاله كنيته وكان جديرًا بأن يُذكَر بها[1] ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ أي لم يُفِدْه مالُه الذي جمعه، ولا جاهه وعزه الذي اكتسبه قال ابن عباس ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ من الأولاد، فإن ولد الرجل من كسبه.. روي أن الرسول ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقًّا، فإني أفتدي نفسي من العذاب بمالي وولدي فنزلت[2] قال الألوسي: كان لأبي لهب ثلاثة أبناء «عُتبة» و «متعب» و «عُتيبة» وقد أسلم الأولان يوم الفتح، وشهدا حنينًا والطائف، وأما «عُتيبة» فلم يسلم، وكانت «أم كلثوم» بنت رسول الله ﷺ عنده، وأختها «رُقية» عند أخيه عُتبة، فلما نزلت السورة قال أبو لهب لهما: رأسي ورأسكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد، فطلقاهما ولما أراد «عُتَيبة» بالتصغير الخروج إلى الشام مع أبيه قال: «لآتِيَنَّ محمدًا وأُوذِيَنَّه» فأتاه فقال: «يا محمد إنّي كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلى»، ثم تفَل أمام النبي ﷺ وطلَّق ابنته «أم كلثوم» فغضب ﷺ ودعا عليه فقال: «اللهم سلِّطْ عليه كلبًا من كلابك» فافترسه الأسد[3]، وهلك أبو لهب بعد وقعة بدر بسبع ليالٍ بمرضٍ معدٍ كالطاعون يسمى «العدسة» وبقي ثلاثة أيام حتى أنتن، فلما خافوا العار حفروا له حفرة ودفعوه إليها بعود حتى وقع فيها ثم قذفوه بالحجارة حتى واروه، فكان الأمر كما أخبر به القرآن[4] ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾ أي سيدخل نارًا حامية، ذات اشتعال وتوقُّد عظيم، وهي نار جهنم ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ أي وستدخل معه نار جهنم، امرأته العوراء «أم جميل» التي كانت تمشي بالنميمة بين الناس، وتُوقِد بينهم نار العداوة والبغضاء قال أبو السعود: كانت تحمل حزمة من الشوك والحَسَك[5] فتنثرها بالليل في طريق النبي ﷺ لإيذائه[6] وقال ابن عباس: كانت تمشي بالنميمة بين الناس لتفسد بينهم[7] ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾ أي في عنقها حبلٌ من ليف قد فُتِل فَتْلًا شديدًا، تُعذَّب به يوم

---

(١) «تفسير الخازن» ٤/ ٣١٧. (ش): أي لم ينتفعْ به.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٩٠. (ش): لم أجده إلا في بعض التفاسير بدون إسناد.

(٣) (ش): عَنْ أَبِي نَوْفَل بْنِ أَبِي عَقْرَبٍ، عَنْ أَبِيه، قَالَ: كَانَ لَهَبُ بْنُ أَبِي لَهَبٍ يَسُبُّ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبَكَ» فَخَرَجَ فِي قَافِلَةٍ يُرِيدُ الشَّامَ فَنَزَلَ مَنْزِلًا، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ دَعْوَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَالُوا لَهُ: كَلَّا، فَحَطُّوا مَتَاعَهُمْ حَوْلَهُ وَقَعَدُوا يَحْرُسُونَهُ فَجَاءَ الْأَسَدُ فَانْتَزَعَهُ فَذَهَبَ بِهِ (رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي).

(٤) «روح المعاني» ٣٠/ ٢٦٢. (ش): رواه ابن إسحاق في «السيرة» والبيهقي في «دلائل النبوة» بإسناد ضعيف.

(٥) (ش): حَسَك: جمع حَسَكَة: نبات عُشبي برّيّ شائك.

(٦) «أبو السعود» ٥/ ١٩٢.

(٧) «الألوسي» ٣٠/ ٢٦٣.

القيامة قال مجاهد: هو طوقٌ من حديد وقال ابن المسيب: كان لها قلادة فاخرة من جوهر، فقالت: واللاتِ والعُزَّى لأنفقنها في عداوة محمد، فأعقبها الله منها حبلًا في جيدها من مسد النار[١].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ – الجناس المرسل ﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي هلك أبو لهب.

٢ – الجناس بين ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ وبين ﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ فالأول كنية والثاني وصف للنار.

٣ – الكنية للتصغير والتحقير ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ فليس المراد تكريمه بل تشهيره، كأبي جهل.

٤ – الاستعارة اللطيفة ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ مستعار للنميمة وهي استعارة مشهورة قال الشاعر: « وَلَمْ تَمْشِ بَيْنَ الْحَيِّ بِالْحَطَبِ الرَّطْبِ»[٢].

٥ – النصب على الشتم والذم ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ أي أخُصّ بالذم حمالةَ الحطب[٣].

٦ – توافق الفواصل مراعاةً لرءوس الآيات وهو من المحسِّنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المسد»

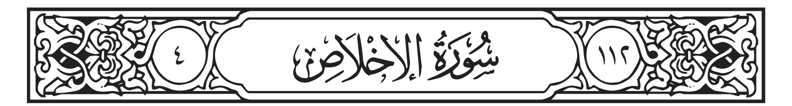
❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٤٢.

(٢) (ش): يَعْنِي: لَمْ تَمْشِ بِالنَّمَائِمِ، وَجَعَلَ الْحَطَبَ رَطْبًا لِيَدُلَّ عَلَى التَّدْخِينِ، الَّذِي هُوَ زِيَادَةٌ فِي الشَّرِّ.

(٣) (ش): أي نصب كلمة ﴿حَمَّالَةَ﴾ فما قبلها مرفوع.



مكية وآياتها أربع

بين يدي السورة

* سورة الإخلاص مكية، وقد تحدثت عن صفات الله جل وعلا الأحد، الجامع لصفات الكمال، المقصود على الدوام، الغني عن كل ما سواه، المتنزه عن صفات النقص، وعن المجانسة والمماثلة، وردت على النصارى القائلين بالتثليث، وعلى المشركين الذين جعلوا لله الذرية والبنين.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ

اللغَة: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ السيد المقصود في قضاء الحاجات قال الشاعر:

أَلَا بَكَّرَ النَّاعِي بِخَيْرِ بَنِي أَسَدْ ... بِعَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدْ(١)

﴿كُفُوًا﴾ الكُفوُءُ: النظير والشبيه قال أبو عبيدة: كُفُوٌ وَكُفْءٌ وَكِفَاءٌ كلها بمعنى واحد وهو المِثْل والنظير(٢).

سَبَبُ النّزول: روي أن بعض المشركين جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد صف لنا ربَّك، أمِن ذهبٍ هو، أم مِن فضة، أم مِن زبرجد، أم مِن ياقوت؟! فنزلت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ..﴾ السورة(٣).

التفسِير: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستهزئين: إن ربي الذي أعبده، والذي أدعوكم لعبادته هو واحد أحد لا شريك له، ولا شبيه له ولا نظير، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فهو جل وعلا واحد أحد، ليس كما يعتقد النصارى بالتثليث «الآب، والابن، وروح القدس» ولا كما يعتقد المشركون بتعدد الآلهة قال في

---

(١) «البحر المحط» ٨/ ٥٢٧. (ش): بَكَّرَ: بادر، عَجِل وأَسْرع. نعَى فلانًا: أذاع خبرَ موتِه.

(٢) انظر «التفسير الكبير» ٣١/ ١٧٥.

(٣) (ش): ضعيف جدًّا، رواه الهروي في «ذم الكلام». وعن أُبي بن كعب -رضي الله عنه-: أن المشركين قالوا لرسول الله - ﷺ -: انسب لنا ربك؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾؛ فالصمد: الّذي لم يلد ولم يولد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، ولا شيء يموت إلا سيورث، وإن الله -عزّ وجلّ- لا يموت ولا يورث، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾؛ قال: لم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء. (حسن، رواه أحمد والترمذي).

التسهيل: واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد له ثلاثة معانٍ، كلها صحيحة في حقه تعالى: الأول: أنه واحد لا ثاني معه فهو نفيٌ للعدد. والثاني: أنه واحد لا نظير له ولا شريك له، كما تقول: فلان واحد في عصره أي لا نظير له والثالث: أنه واحد لا ينقسم ولا يتبعَّض، والمراد بالسورة نَفْيُ الشريك ردًّا على المشركين، وقد أقام الله في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته تعالى، وذلك كثير جدًا، وأوضحها أربعة براهين: الأول؛ قوله تعالى ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل: ١٧]؟ وهذا دليل الخلق والإيجاد فإذا ثبت أن الله تعالى خالق لجميع الموجودات، لم يصح أن يكون واحد منها شريكًا له والثاني: قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢] وهو دليل الإحكام والإبداع الثالث: قوله تعالى ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٢] وهو دليل القهر والغلبة. الرابع: قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١] وهو دليل التنازع والاستعلاء[١] ثم أكد تعالى وحدانيته واستغناءه عن الخلق فقال ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ أي هو جل وعلا المقصود في الحوائج على الدوام، يحتاج إليه الخلق وهو مُستَغْنٍ عن العالمين قال الألوسي: الصَّمد السيدُ الذي ليس فوقه أحد، الذي يُصمَدُ إليه أي يلجأ إليه الناسُ في حوائجهم وأمورهم[٢] ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ أي لم يتخذ ولدًا، وليس له أبناء وبنات، فكما هو متصف بالكمالات، منزَّه عن النقائص قال المفسرون: في الآية رَدٌّ على كل من جعل لله ولدًا، كاليهود في قولهم ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠] والنصارى[٣] في قولهم ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠] وكمشركي العرب في زعمهم أن (الملائكة بنات الله) فرَدَّ الله تعالى على الجميع في أنه ليس له ولد، لأن الولد لا بدَّ أن يكون من جنس والده، والله تعالى ليس له زوجة وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ [الأنعام: ١٠١]؟! ﴿وَلَمْ يُولَدْ ﴾ أي ولم يولد من أبٍ ولا أُم، لأن كل مولود حادث، والله تعالى قديم أزلي، فلا يصح أن يكون مولودًا ولا أن يكون له والد، وقد نفت الآية عنه تعالى إحاطة النسب من جميع الجهات، فهو الأولُ الذي لا ابتداءَ لوجوده، القديمُ الذي كان ولم يكن معه شيء غيره[٤] ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ أي وليس له جل وعلا مثيلٌ، ولا

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» ٤/ ٢٢٣، وقد ذكر في «التسهيل» هذه النصوص الكريمة دون بيان وجه الدلالة، وما ذكر بين المعترضين مثل: دليل الخلق والإيجاد، دليل الإحكام والإبداع فهو من كلامنا.

(٢) «روح المعاني» ٣٠/ ٢٧٣.

(٣) يعتقد النصارى بأن الإله ثلاثة أقانيم «الآب، والابن، وروح قدس» وهي عقيدة التثليث التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ الآية ويعتقدون بأن الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة، ويزعمون أنهم موحدون، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

(٤) (ش): قال ﷺ: اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

نظير، ولا شبيه أحد في خلقه، لا من ذاته، ولا من صفاته، ولا من أفعاله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] قال ابن كثير: هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظيرٌ يساميه، أو قريب يدانيه؟ تعالى وتقدَّس وتنزَّه، وفي الحديث القدسي «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فأما تكذيبه إياي فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُؤًا أَحَدٌ»[١].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - ذكر الاسم الجليل بضمير الشأن ﴿قُلْ هُوَ﴾ للتعظيم والتفخيم.

٢ - تعريف الطرفين ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ لإفادة التخصيص.

٣ - الجناس الناقص ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف.

٤ - التجريد فإن قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يقتضي نفي الكفء، والولد، وقوله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ هو تخصيص الشيء بالذكر بعد دخوله في العموم وذلك زيادة في الإيضاح والبيان.

٥ - السجع المرصَّع وهو من المحسنات البديعية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾.

لطيفَة: هذه السورة الكريمة مؤلفة من أربع آيات، وقد جاءت في غاية الإيجاز والإعجاز، وأوضحت صفات الجلال والكمال، ونزهت الله جل وعلا عن صفات العجز والنقص، فقد أثبتت الآية الأولى الوحدانية، ونفت التعدد ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وأثبتت الثانية كماله تعالى، ونفت النقص والعجز ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ وأثبتت الثالثة أزليته وبقاءه ونفت الذرية والتناسل ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وأثبتت الرابعة عظمته وجلاله ونفت الأنداد والأضداد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فالسورة إثبات لصفات الجلال والكمال، وتنزيه للرب بأسمى صور التنزيه عن النقائص.

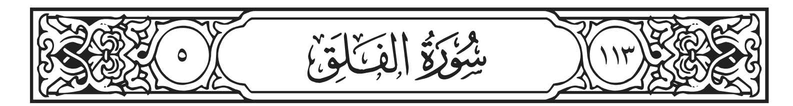
فَائِدَة: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَكَأَنَّمَا قَرَأَ بِثُلُثِ الْقُرْآنِ»[٢] قال العلماء: وذلك لما تضمنته من المعاني والعلوم والمعارف، فإن علوم القرآن ثلاثة: «توحيد، وأحكام، وقصص» وقد اشتملت هذه السورة على التوحيد، فهي ثلث القرآن بهذا الاعتبار، وقيل: إن ذلك في الثواب، أي: لمن قرأها من الأجر مثل أجر من قرأ ثلث القرآن، والله أعلم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الإخلاص»

---

(١) (ش): رواه البخاري.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والنسائي من حديث أبي بن كعب مرفوعًا. (ش): صححه الألباني.



مكية وآياتها خمس

بين يدي السورة

* سورة الفلق مكية، وفيها تعليم للعباد أن يلجئوا إلى حمى الرحمن، ويستعيذوا بجلاله وسلطانه من شر مخلوقاته، ومن شر الليل إذا أظلم، لما يصيب النفوس فيه من الوحشة، ولانتشار الأشرار والفجار فيه، ومن شر كل حاسد وساحر، وهي إحدى المعوذتين اللتين كان ﷺ يعوذ نفسه بهما.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ

اللغة: ﴿ٱلْفَلَقِ﴾ الفلَق: الصبح تقول العرب: هو أبْيَنُ من فلَق الصبح، والفِلْق بالكسر الداهية والأمر العجب، وأصله من فلقْتُ الشيء أي شقَقْته، فكل ما انفلق من شيء من حيوان، وحب، ونوى فهو فلق، ومنه «فالق الإصباح» قال ذو الرمة:

حَتَّى إِذَا مَا انْجَلَى عَنْ وَجْهِهِ فَلَقٌ

أي انجلى الصبحُ عن وجهه ﴿غَاسِقٍ﴾ الغاسق: الليل إذا اشتد ظلامه، والغسق أول ظلمة الليل يقال: غسق الليل أي أظلم قال الشاعر:

إِنَّ هَذَا اللَّيْلَ قَدْ غَسَقَا وَاشْتَكَيْتُ الْهَمَّ وَالْأَرَقَا (١)

﴿وَقَبَ﴾ دخل بظلامه، والوُقُوب: الدخول ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ النفْث: شَبَهُ النفخ دون تَفْلٍ بالريق، فإذا كان معه ريقٌ فهو التَّفْل قال عنترة:

فَإِنْ يَبْرَأْ فَلَمْ أُنْفِثْ عَلَيْهِ وَإِنْ يُفْقَدْ فَحُقَّ لَهُ الْفُقُودُ (٢)

التفسير: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ أي قل يا محمد ألتجئ وأعتصم برب الصبح الذي ينفلق عنه الليل، وينجلي عنه الظلام قال ابن عباس: ﴿ٱلْفَلَقِ﴾ الصبحُ كقوله تعالى ﴿فَالِقُ

(١) «التفسير الكبير» ٣٠/ ١٩٤.

(٢) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٥٧. (ش): كانت العرب تزعُم أن الرجل إذا طعَن آخر فنفَث عليه الطاعنُ ورَقاه، أن المطعون يبرأ مِن طعنته.

﴿ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦](١) وفي أمثال العرب: هو أبْيَنُ من فلَق الصبح قال المفسرون: سبب تخصيص الصبح بالتعوذ أن انبثاق نور الصبح بعد شدة الظلمة، كالمثل لمجيء الفرج بعد الشدة، فكما أن الإنسان يكون منتظرًا لطلوع الصباح، فكذلك الخائف يترقب مجيء النجاح ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي من شر جميع المخلوقات من الإنس، والجن، والدواب، والهوام، ومن شر كل مُؤْذٍ خلقَه الله تعالى ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أي ومن شر الليل إذ أظلمَ واشتد ظلامه، فإن ظلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من الإنس والجن ولهذا قالوا في المثل: «الليلُ أخفَى للوَيْل»(٢) قال الرازي: وإنما أُمر أن يتعوذ من شر الليل، لأن في الليل تخرج السباع من آجامها، والهوام من مكانها، ويهجم السارقُ والمكار، ويقع الحريق، ويقِلّ فيه الغَوْث(٣) ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلۡعُقَدِ﴾ أي ومن شر السواحر اللواتي يعقدن عقدًا في خيوط وينفثن، أي: ينفخن فيها ليضروا عباد الله بسحرهن، ويفرقوا بين الرجل وزوجه ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] قال في البحر: وسبب نزول المعوذتين قصة «لَبِيدِ بن الأعْصَم» الذي سحر رسول الله ﷺ فِى مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، وَجُفِّ - قشر الطلع - طَلْعَةِ ذَكَرٍ، ووترٍ معقود فيه إحدى عشرة عقدة، مغروزٍ بالإبَر، فأُنْزلت عليه المعوذتان، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد في نفسه خفة ﷺ حتى انحلت العقدة الأخيرة فقام فكأنما نُشِطَ من عقال(٤)

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٩٤.

(٢) (ش): أي افعل ما تريد ليلاً، فإنه أستَرُ لسِرِّك.

(٣) «التفسير الكبير» للرازي ٣١/ ١٩٥. (ش): أَجَمَة الأسد: مأواه في الأدغال. المُكابِر: الطاغِي، مُتجاوِز الحدّ. غاثَه، غَوْثًا / أغاثَه، إغاثةً: أعانه ونصره، قدّم له المساعدةَ.

(٤) «البحر المحيط» ٨/ ٥٣٠. (ش): بهذا السياق الذي فيه ذِكْر الإبر المغروزة ضعيف جدًّا، رواه البيهقي في «دلائل النبوة». ولكن قصة سحر لبيد بن أعصم للنبي ﷺ ثابتة في البخاري ومسلم. وكون هذه القصة سببًا لنزول المعوِّذتين ثابتٌ أيضًا في مُسنَد عبد بن حميد بسند صحيح عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: سَحَرَ النَّبِيَّ -ﷺ- رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ. قَالَ: فَاشْتَكَى، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ وَقَالَ: «إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ، وَالسِّحْرُ فِي بِئْرِ فُلَانٍ». قَالَ: فَأَرْسَلَ عَلِيًّا فَجَاءَ بِهِ، قَالَ: فَأَمَرَهُ أَنْ يَحُلَّ الْعُقَدَ «وَتَقْرَأَ» آيَةً، فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَيَحُلُّ، حَتَّى قَامَ النَّبِيُّ -ﷺ- كَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ. فَمَا ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- لِذَلِكَ الْيَهُودِيِّ شَيْئًا مِمَّا صَنَعَ بِهِ، وَلَا أَرَاهُ فِي وَجْهِهِ». كان لَبِيدُ بنُ أعْصَم غلامًا يهوديًّا يخدم النبي ﷺ. (مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ) المشط معروف، والمُشَاطَة هي الشعر الذي يسقط من الرأس أو اللحية عند تسريحه. (جُفِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ) وعاء للقاح النخل، وغشاؤه - قِشْره - إذا جف. كَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ: يقال: أَنْشَطْتُ الحبلَ: حَلَلْتُه، والعِقال: ما يُشَدُّ به البعير مِن الحبل. (فَمَا ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- لِذَلِكَ الْيَهُودِيِّ شَيْئًا مِمَّا صَنَعَ بِهِ. وَلَا أَرَاهُ فِي وَجْهِهِ): أي إن النبي ﷺ لم يقتل ذلك الرجل ولم يُشْعِره حتى في تعابير وجهه عليه السلام أنه يضمر له شيئًا؛ فلم يكن عليه السلام ينتقم لنفسه.

تنبيه: السحر الذي أصابه ﷺ لم يكن ليمس عقله الشريف ولا يؤثر في تبليغ الرسالة بل كان عارضًا كعوارض الأمراض المختلفة التي تصيب الصالح والطالح والكبير والصغير، والنبي ﷺ مشرع لذا تحدث هذه =

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ أي ومن شر الحاسد الذي يتمنى زوال النعمة عن غيره، ولا يرضى بما قسمه الله تعالى له.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الجناس الناقص بين ﴿ٱلْفَلَقِ ﴾ و ﴿خَلَقَ ﴾.

٢ - الإطناب بتكرار الاسم ﴿شَرِّ﴾ مراتٍ في السورة ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ ﴾ ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ ﴾ إلخ تنبيهًا على شناعة هذه الأوصاف.

٣ - ذكر الخاص بعد العام للاعتناء بالمذكور ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ فإنه عموم يدخل تحته شر الغاسق، وشر النفاثات، وشر الحاسد.

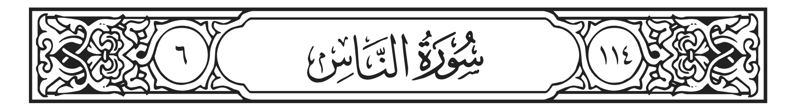
٤ - جناس الاشتقاق بين ﴿حَاسِدٍ ﴾ و ﴿حَسَدَ ﴾.

٥ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفلق»

❁ ❁ ❁ ❁

= الحوادث معه لبيان جواز حدوثها مع غيره ﷺ مهما بلغ قدرًا عاليًا في العبادة، وهو أمر جائز عقلًا ونقلًا. فهو كحديث نسيان النبي ﷺ في الصلاة، وهو الذي ينزل عليه الوحي، وهو أخشع الخلق في الصلاة ﷺ وذلك لتعليم الأمة الإسلامية من خلال هذا الحدث.



مكية و آياتها ست

بين يدي السورة

* سورة النـاس مكية، وهي ثاني المعوذتين، وفيها الاسـتجارة والاحتمـاء برب الأرباب من شـر أعدى الأعداء، إبليس وأعوانه من شـيطان الإنس والجن، الذين يغوون الناس بأنواع الوسوسة والإغواء.

* وقد ختم الكتاب العزيز بالمعوذتين وبدئ بالفاتحة، ليجمع بين حسـن البدء، وحسـن الختم، وذلك غاية الحسـن والجمال، لأن العبد يستعين بالله ويلتجئ إليه، من بداية الأمر إلى نهايته.

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ

اللغَـة: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ الشـيطان الموسـوس، مشـتق مـن الوسوسـة وهي الـكلام الخفي وحديث النفس قال الأعشى:

تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْوَاسًا إِذَا انْصَرَفَتْ [١] ...

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ الـذي عادتـه أن يخنس أي يتـوارى ويختفي ويتأخر يقال: خنَس الظبْيُ إذا اختفَى، وسُـمي الشيطان خناسًـا لأنه يتوارى ويختفِي إذا ذكَر العبد ربَّه، فإذا غفل عن ذكر الله عاد فوسوس له، والخنوس: التأخر ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ بكسر الجيم الجنُّ جمع جنِّيّ، وبضم الجيم الوقاية وفي الحديث «الصَّوْمُ جُنَّةٌ»[٢] أي وقاية من عذاب الله.

التفسِير: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ أي قل يا محمد أعتصم وألتجئ وأستجير ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أي بخالق الناس ومربيهم ومدبر شئونهم، الذي أحياهم وأوْجدهم من العدم، وأنعم عليهم بأنواع النعم قال المفسرون: إنما خصَّ الناس بالذكر وإن كان -جلت عظمته- رب جميع الخلائق تشريفًا وتكريمًـا لهـم، من حيث إنه تعالى سـخَّر لهم ما في الكون، وأمدهم بالعقل والعلم، وأسـجد لهم ملائكةَ قُدْسِـه، فهم أفضل المخلوقات على الإطلاق ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ أي مالك جميع الخلـق حاكميـن ومحكومين، ملكًا تامًّا شـاملًا كامـلًا، يحكمهم، ويضبـط أعمالهم، ويدبّر

(١) «تفسير القرطبي» ٢٠/ ٢٦١.

(٢) جزء من حديث رواه الشيخان.

شئونهم، فيعز ويذل، ويغني ويُفقر ﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي معبودهم الذي لا ربَّ لهم سواه قال القرطبي: وإنما قال ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ لأن في الناس ملوكًا فذكر أنه ملكهم، وفي الناس من يعبد غيره فذكر إنه إلههم ومعبودهم، وأنه الذي يجب أن يستعاذ به ويُلجأ إليه، دون الملوك والعظماء، وترتيب السورة بهذا الشكل في منتهى الإبداع، وذلك لأن الإنسان أولًا يعرف أن له ربًّا، لما يشاهده من أنواع التربية ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ثم إذا تأمل عرف أن هذا الرب متصرفٌ في خلقه، غنِيٌّ عن خلقه فهو الملك لهم ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ ثم إذا زاد تأمله عرف أنه يستحق أن يُعبد، لأنه لا عبادة إلا للغني عن كل ما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه ﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ وإنما كرر لفظ الناس ثلاثًا ولم يكتف بالضمير، لإظهار شرفهم وتعظيمهم والاعتناء بشأنهم، كما حسن التكرار في قوله الشاعر:

لَا أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْءٌ ... نَغَّصَ الْمَوْتُ ذَا الْغِنَى وَالْفَقِيرَا [(١)]

قال ابن كثير: هذه ثلاث صفات من صفات الرب عَزَّ وَجَلَّ «الربوبية» و«الملك» و«الإلهية» فهو ربُّ كل شيء ومليكه وإلهه، وجميع الأشياء مخلوقة ومملوكة له، فأُمر المستعيذُ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ﴾ أي من شر الشيطان الذي يلقي حديث السوء في النفس، ويوسوس للإنسان ليغريه بالعصيان ﴿ٱلْخَنَّاسِ ﴾ الذي يخنس أن يختفي ويتأخر إذا ذكر العبد ربه، فإذا غفل عن الله عاد فوسوس له وفي الحديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خَطْمَهُ - أنفه - عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِنْ ذَكَرَ خَنس، وَإِنْ نَسِيَ الْتَقَمَ قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ»[(٢)] ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي الذي يلقي لشدة خبثه في قلوب البشر صنوف الوساوس والأوهام قال القرطبي: ووسوسته هو الدعاء لطاعته بكلام خفي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ ﴿مِنَ ﴾ بيانيَّة أي هذا الذي يوسوس في صدور الناس، هو من شياطين الجن والإنس كقوله تعالى ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢] فالآية استعاذة من شر الإنس والجن جميعًا، ولا شك أن شياطين الإنس، أشدُّ فتكًا وخطرًا من شياطين الجن، فإن شيطان الجن يخنس بالاستعاذة، وشيطان الإنس يُزيِّن له الفواحش ويُغْرِيه بالمنكرات، ولا يَثْنِيه عن عزْمه شيء، والمعصوم من عصَمَه الله[(٣)].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الإضافة للتشريف والتكريم ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ وفي الآيتين بعدها.

---

(١) (ش): نغَّص أخاه: كدَّره. نغَّص عليه الأمرَ: قطع عليه ما كان يحبُّ الاستكثارَ منه.

(٢) رواه الحافظ الموصلي. (ش): رواه الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ في «مُسنَده» بإسناد ضعيف.

(٣) (ش): أغراه بالشَّيء/ أغراه على الشَّيء: حضَّه عليه. ثنَاه عن الأمر: صَرفَه عنه، رَدَّه وأبعده. عصَمه اللهُ عن المكروه/ عصَمه اللهُ من المكروه: مَنَعَه، حَفِظه ووَقَاه.

٢ – الإطناب بتكرار الاسم ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ زيادة في التعظيم لهم، والاعتناء بشأنهم، ولو قال (ملكهم، إلههم) لما كان لهم هذا الشأن العظيم.

٣ – الطباق بين ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ و ﴿وَٱلنَّاسِ﴾.

٤ – جناس الاشتقاق ﴿يُوَسْوِسُ.. ٱلْوَسْوَاسِ﴾ ثم ما في السورة من الجرس الموسيقي، الذي يفضل الألحان بعذوبة البيان، وذلك من خصائص القرآن.

تنبيه: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ».(١)

يقول راجي عفو ربه الجليل، الشيخ محمد علي الصابوني ابن الشيخ جميل: إنه قد تم بعون الله وتوفيقه – تفسير القرآن العظيم، في مهبط الوحي –مكة المكرمة– البلد الأمين، وقد مكثت في تأليف هذا التفسير خمس سنين، وكان الفراغ منه في الثامن عشر من شهر جمادى الثانية ١٣٩٨هـ سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة بعد الألف من هجرة سيد المرسلين، ونسأل الله حسن القبول، وأن يمنحنا التوفيق والسداد والحمد لله في البدء والختام، وصلى الله على عبده ورسوله، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

وكتبه
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة – جامعة الملك عبدالعزيز

تم بحمد الله المجلد الثالث

❀ ❀ ❀ ❀

(١) رواه أهل السُنن. (ش): رواه البخاري.